

ويليام بولك
WILLIAM R. POLK

الصَّليبية والجهاد

CRUSADE AND JIHAD

حربُ الألف سَنة بين العالَم الإسلامي وعالم الشمال

ترجمة: د. عامر شيخوني

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الصَّليبية والجهاد

CRUSADE AND JIHAD

حربُ الألف سنة بين

العالَم الإسلامي وعالم الشمال

ويليام بولك

WILLIAM R. POLK

الصَّليبية والجهاد

CRUSADE AND JIHAD

حربُ الألف سنة بين

العالَم الإسلامي وعالم الشمال

ترجمة

د. عامر شيخوني

مراجعة

د. عماد يحيى الفَرَجي



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

CRUSADE And JIHAD

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Yale University Press - New Haven & London

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2019 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3689-9



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

icebook.com/ASPArabic
vitter.com/ASPArabic
ww.aspbooks.com
sparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس،** بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم،** بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى

لانروم بولينغ

الذي نَذَرَ حياته باحِثاً عن السلام والتَّفاهم.

صديقٌ حقيقي وإنسانٌ عظيم

وإلى

حسن فتحي

المهندس المِعماري للفقراء الذي عَلَّم مَن يريدون الإصغاء والتَّعلم

كيف يُشبِعون حاجاتهم إلى المَسكن والجَمال

باستِخدام التراب والطين الذي تحت أقدامهم

"أنْ تَجهَلَ الماضي يَعني أنْ تَظَلَّ طفلاً إلى الأبد"

ماركوس توليوس شيشرون

"تدميرُ الماضي هو من أغرب صفات ومظاهر أواخر القرن العشرين. نَشَأ أغلبُ الرجال والنساء في أواخر القرن العشرين تحت ظِلِّ نوعٍ من الشعور بالحاضر الدائم دون أي ارتباط عضوي بالتاريخ العام الذي مَضَىً للعصر الذي يعيشون فيه"

إريك هوبسباروم في "القرن العشرون القصير"

Independent في يوم الأحد 9 أكتوبر 1994

المحتويات

مقدمة المترجِم

لماذا؟

كلما قرأتُ كتاباً جيداً باللغة الإنكليزية أَسألُ نفسي: هل في هذا الكتاب ما يُفيدُ القارئ العربي؟ هل يَستحق جُهدَ ترجمتِهِ إلى اللغة العربية؟ وعندما قرأتُ كتاب ويليام بولك عن "الصَّليبية والجهاد" لم أتردَّد كثيراً في الاندفاع لتَرجمتِهِ لِما وجَدتُ فيه مِن بَحثٍ عميق ومَعرفةٍ واسعة وحِكمةٍ نَحتاجُ إليها. كتابٌ يَبحَثُ أساساً عن مَدِّ جسورِ التواصل بين الأمم والشعوب، ويُحاوِل التَّوصُّلَ إلى بعض الفَهمِ والتَّفاهُم بين شعوب الشمال العالَمي المُتَقَدِّم والجنوب العالَمي المَقهور.

ويليام ر. بولك William Roe Polk كان أستاذاً للأدب العربي والتاريخ في جامعة هارفارد وجامعة شيكاغو. دَرَسَ في أمريكا ومكسيكو وتشيلي وبغداد والقاهرة. عَمِلَ في لجنة تخطيط السياسات لدى الرئيس كنيدي، وفاوَضَ على وقفِ إطلاق النار المصري-الإسرائيلي في السويس وشارَكَ في كتابة معاهدة السلام في حرب الأيام الستة في الشرق الأوسط. زارَ كثيراً من دول العالَم وقابَلَ ملوكاً ورؤساء ومسؤولين وزعماء ثورات وطنية وقادة حركات استقلال في كثير من أرجاء العالَم. نشَرَ تسعة عشر كتاباً في العلاقات الدولية خاصة فيما يتعلق بفلسطين ولبنان والعراق وإيران وأفغانستان والعالَم العربي والشرق الأوسط.

يُقَدِّمُ لنا في أحدثِ كتُبِهِ: "الصَّليبية والجهاد" خلاصةً حكيمة لمَعارفِهِ المباشرة وبَحثِهِ الجاد على مدى سبعين سنة مِنَ الدراسة والعمل في كثير من دول العالَم. يُقَدِّمُ لنا رؤيةً مختلفة للعالَم بنظرةِ حكيمٍ يُحاوِلُ أن يَبحثَ عن الأمن والسلام في العالَم. تمتد نظرتُهُ الشاملة على مدى العالَم من الصين إلى أمريكا، وخلال فترة طويلة تُغطِّي ألف عام من التفاعل بين ما يسميه "الشمال العالَمي"، الذي أصبَحَ منذ القرن الخامس عشر متَقَدِّماً علمياً وقوياً عسكرياً، و"الجنوب العالَمي" الذي كان مُتَقَدِّماً ومُتَحَضِّراً بشكل عام وانحَدَرَ في ظلام التّخلف والجهل والضّعف والخضوع للقوى الأمبريالية الشمالية. يُحاوِلُ في استقرائه أحداثَ الماضي أن يَصِلَ بنا جميعاً في الشمال والجنوب إلى فَهْمِ بعضنا بعضاً، ومعرفة أسباب ما نُعاني منه الآن من الخوف وانعِدَام الأمن والسلام. يُحاوِلُ أن يَصِلَ بنا جميعاً إلى إجابةٍ مُقنِعَةٍ تَختلِفُ عمّا قالَهُ الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن آنذاك في تفسير سبب هجمات الحادي عَشر من سبتمبر سنة 2001 "هَجَمَ علينا الإرهابيون الجُبناء لأنهم يَحسدوننا على حريتنا وديموقراطيتنا". أَتَذَكَّرُ استغرابَ بعضِ الصحفيين على هذا التفسير الغريب. اعتَرَضَ أحدُهم بقوله "هل تَعتَقِدُ فِعلاً أنَّهم جُبَناء؟" ولم يُصَدِّق أحدٌ فكرة الحَسَدِ أيضاً. وفي غَمرة

الأحداثِ المُحزِنة المؤلِمة، لم تَتَجرأ وسائلُ الإعلام آنذاك في الخَوض عميقاً والبحثِ عن إجابة للسؤال المُلِحّ: "لماذا؟". تَجَنَّبَ الإجابةَ على ذلك السؤال أغلبُ الكتّاب والباحثين أيضاً.

كتابُ "الصَّليبية والجهاد" هو إحدى المحاولات النادرة للإجابة على هذا السؤال: "**لماذا** يَحدُثُ الإرهابُ الفظيع الذي نَراه هذه الأيام؟ وما هي دوافِعُهُ الحقيقية؟". وتَرجِعُ أهمية الكتاب بسبب صُدورِهِ عن باحِثٍ عارِفٍ من أهل "الشمال العالمي" القوي المُنتَصِر، وليس واحداً من أهل "الجنوب العالمي" الضعيف المُشتَكي. أي أنَّ هذا الكتاب هو شهادةُ شاهِدٍ مِنْ أهلِهم، ولها قيمتها وأهميتها لأنها شهادةُ خَبير.

يَنظُرُ بولك إلى الإرهاب المُعاصِر في سياق تاريخ العالَم على مدى مئات السنين ويبحثُ في تطور العلاقة بين الشمال العالَمي الذي يمتد من الصين إلى أمريكا، وما فَعَلَهُ أهلُ الشمال بأهل الجنوب مِنْ قَهرٍ وإذلال واحتلال واستغلال. يَتَحَدَّثُ أغلبُ المؤرخين والدّارسين عن العلاقة بين الغرب الاستعماري والشرق المُتَخَلِّف، بينما يُفَضِّلُ بولك أنْ يَتحدَثَ عن الشمال الأمبريالي بَدلاً عن الغرب، وربما فَعَلَ ذلك لكي يَضمَّ الصين واليابان وروسيا إلى الهجمة الاستعمارية الأوروبية التي اجتاحَتْ شعوبَ الجنوب العالَمي منذ القرن الخامس عشر من الفلبين واندونيسيا ماراً بالبَنغال والهند وباكستان وكشمير وآسيا الوسطى وأفغانستان وإيران والعراق وسورية وفلسطين ومصر وليبيا والجزائر والمَغرب. وهو بذلك يَضُمُّ شعوب الجنوب مع بعضها أيضاً في تجربةِ خضوعها للأمبريالية والاستعمار والاستغلال من أقصى الشرق في الفلبين وأندونيسيا إلى المَغرب العربي في شمال أفريقيا. يَتَطَرَّقُ قليلاً للحديث عن سكان أمريكا الأصليين من الهنود الحمر ولكنه لا يَتحدثُ كثيراً عما جَرَى في أمريكا الوسطى والجنوبية، على الرغم من أنها تَعَرَّضَتْ أيضاً للاستعمار والاستغلال الأوروبي في تلك الفترة. وربما لم يَشمَلها في دراسته لأنه يَعتقِدُ ألا علاقة لها بالإرهاب المُعاصِر الذي أرادَ التركيز عليه في هذا الكتاب، وربما لأن خبرته العَملية دَارَتْ في مجال الشرق الأوسط أكثر من أية منطقة أخرى من العالَم.

يُذَكِّرني كتابُ "الصَّليبية والجهاد" في رؤيته الموسوعية الشاملة في الزمان والمكان بكتاب جارِد دايموند "أسلحة وجراثيم وفولاذ" الذي دَرَسَ تطور المجتمعات البشرية منذ آلاف السنين على مَدى العالم بأكمله في محاولةٍ لكشف تأثير البيئة والجراثيم وتطور الزراعة والصناعة ووسائل النقل والأسلحة على العلاقة بين شعوب العالَم في محاولتِهِ الإجابة على سؤال آخر: "لماذا احتَلَّ الأوروبيون أمريكا وأفريقيا وآسيا واستراليا ولم يَحدُثْ عكس ذلك؟ أي لماذا لم تكن شعوبُ أفريقيا وآسيا هي التي احتَلَّتْ أوروبا وأمريكا؟"]. ويُفَسِّرُ ذلك بنظرةٍ علمية موسوعية شاملة استناداً إلى ظروف بيئية وحضارية وليس بسبب تفوقٍ عِرقي أو وراثي صِرف.

باختصار، **لماذا** ترجمتُ هذا الكتاب؟ لأن بولك الكاتبُ الحكيمُ ينبهنا جميعاً أننا لكي نَفهَمَ **لماذا** يَنشَط "الإرهاب الإسلامي" هذه الأيام يجب علينا فَهم ما فَعَلَهُ "الشمال العالمي" بالمسلمين من الفلبين إلى المَغرب العربي منذ القرن الخامس عشر حتى الآن، وأنْ نَنظُرَ إلى الإرهاب في سياقه التاريخي والفكري والحضاري. وهو لا يُحاوِلُ أنْ يَجِدَ مُبَرِّراً للإرهاب ولا أنْ يَلتَمِسَ له عُذراً، بل

يَطرحُ القضيةَ أمامنا في سياقها ومِنْ كافة جوانبها لكي نَفهَمَ ما جَرى، وما يَجري، مِنْ أجلِ أنْ نتوقع ما سيَجري، ونُحاوِلَ إعادةَ النظر في العلاقة بيننا لكي نَتَوصَّلَ معاً إلى عالَمٍ يَسودُهُ الأمن والسلام.

د. عامر شيخوني

فبراير 2019

المقدمة

أعتَقِدُ أنّ على المؤلف أنْ يُقدِّم للقارئ تَعهدَاتٍ عِدّة. فأولاً يجب على المؤلف أن يصَرِّح كيف تَعلَّم ما يَكتُبُ عنه، وثانياً يجب عليه أن يُبيّن أن ما يَكتب عنه يَستحق القراءة، وثالثاً يجب عليه أن يُقدِّم نوعاً من خريطة الطريق التي تَربط بين الحوادث التي يَصفها، ورابعاً يجب عليه أن يُوضِّح الفرضية التي يريد تَقديمَها. وسأحاولُ هنا أن أفي لكم بهذه التعهدات.

أضَعُ هنا خبرة حوالي سبعين سنة من البحث والمتابعة، فقد عشتُ أو زرتُ البلاد التي أكتبُ عنها وأتيحتْ لي الفرصة للحوار مع سكانها وبَحْثَ أفكار وآراء وتصرفات زعماء وصحافيين وأكاديميين ومسؤولين حكوميين وبعض المراقِبين الحكماء مثل سائقي التاكسي والبائعين وأصحاب المتاجر.

تأثَّرتْ وجهة نظري سلباً أو إيجاباً بدراستي في عدد من الجامعات مثل جامعة أوكسفورد وهارفارد والجامعة الأمريكية في بيروت وجامعة بغداد من خلال تعليمي للطلاب وتَعاملي مع زملائي في جامعة هارفارد وجامعة شيكاغو وتقديم المحاضرات أو حضور مؤتمرات وندوات في أكثر من عشرين جامعة أمريكية أخرى ومؤسسات مثل مجلس العلاقات الخارجية، المعهد المَلَكي للعلاقات الدولية (بيت تشاتهام)، وجامعة العلوم السياسية Science Po، ومعهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية للأكاديمية العلمية السوفييتية، ومعهد الشرق الأوسط، والجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط، ومعهد سانت أنتوني في جامعة أكسفورد، والجامعة العبرية في القدس. وقد كان للحوار وتَعبيري عن آرائي في هذه المؤسسات دور كبير في صَقل وتَنقيح أفكاري.

بصفتي كرئيس لمعهد أدلاي ستيفنسون للعلاقات الدولية، تَوثَّقتْ علاقاتي على مدى السنين بكثير من الزملاء والدارسين فيه، وكان منهم رجال ونساء ممن تَمتّعوا بخبرات كثيرة ومعارف عظيمة مثل السكرتير السابق للأمم المتحدة يو ثانت U Thant، واللورد كارادون Lord Caradon في وزارة الخارجية البريطانية، وإيفجيني بريماكوف Evgeni Primakov في روسيا، وعبد القيوم النائب السابق لرئيس وزراء أفغانستان، وفيد أرخورست Fed Arkhurst وزير خارجية غانا السابق، والجنرال إندار ريكي Indar Rikkye القائد السابق لقوات الأمم المتحدة للطوارئ، وإنريك بينالوزا Enrique Penalosa نائب الرئيس السابق لبنك التنمية الأمريكي ومحافظ بوغوتا، وموريس سترونغ Maurice Strong مؤسس ورئيس برنامج البيئة

للأمم المتحدة، وبات براون Pat Brown حاكم ولاية كاليفورنيا، وكثيرون غيرهم ممن تكرَّموا بمشاركتي خبراتهم. كان المعهد مؤسسة بَحثٍ حقيقية شكَّلتْ وليمة فكرية فاخرة قدَّم كل واحد إليها طبقاً وتذوَّق الآخرون كل الأطباق والنكهات، وقد استفدتُ أكثر بكثير مما أعطيتُ.

كان من بين الصحفيين الذين ربطَتني بهم صداقة وثيقة وتبادلتُ معهم الأفكار والمعلومات سعيد أبو ريش، ومايكل آدامز Michael Adams، ويوري آفنري Uri Avnery، وجون كولي John Cooley، وتشارلز غلاس Charles Glass، وجوناس غروس Johannes Gross، وديفيد هالبرستام David Halberstam، وسيمور هيرش Seymour Hersh، وبيتر جينينغز Peter Jennings، وموراي كيمبتون Murray Kempton، وويليام بفاف William Pfaff، وجون راندال Jon Randal، وإريك رولوEric Rouleau، وبيتر شول-لاتور Peter Scholl-Latour، وباتريك سيل Patrick Seale، ونيل شيهان Neil Sheehan، وهوارد سميث Howard K. Smith. كان لهم الفضل الكبير في توسيع دائرة معارفي والمحافظة على تواصلي بالأحداث.

خلال عملي الحكومي لمدة سنوات أربع كعضو في لجنة تخطيط السياسات استفدتُ كثيراً من الحوار مع جميع المسؤولين الكبار في حكومَتَي كنيدي وجونسون، وبشكل خاص مع ماك جورج بوندي McGeorge Bundy وروبرت كومر Robert Komer في مجلس الأمن الوطني، وتوماس هيوز Thomas Hughes ووالت روستو Walt Rostow وجيمس سباين James Spain في وزارة الخارجية، وشرمان كنت Sherman Kent في مكتب التقديرات الوطنية بوكالة المخابرات المركزية، وفولر هاميلتون Fowler Hamilton وفريقه في مكتب المساعدات الأمريكية USAID، وويليام بوندي William Bundy وروبرت ماكنمارا Robert McNamara في وزارة الدفاع. كما عملتُ مع بعض أعضاء الكونغرس مثل فرانك تشيرش Frank Church وتوماس إيغلتون Thomas Eagleton وويليام فولبرايت William Fulbright وهيوبرت همفري Hubert Humphrey وجورج ماكغوفرن George McGovern وجون براديماس John Brademas، وبعض قضاة المحكمة الدستورية العليا مثل ويليام دوغلاس William Douglas وإيب فورتس Abe Fortes.

كنت محظوظاً في عملي الحكومي والخاص بالتعرّف والتعامل مع بعض الملوك والرؤساء ورؤساء الوزارة والمسؤولين وكذلك بعض العلماء والمفكرين والباحثين والصحفيين ورجال الأعمال في الدول التي أتحدثُ عنها في هذا الكتاب.

كتبتُ عبر السنين عدداً من الكتب التي شكَّلتْ منطلقات ودراسات مبدئية لهذا الكتاب مثل الولايات المتحدة الأمريكية والعالَم العربي، جيران وغرباء: أسس العلاقات الدولية، فهم العراق، فهم إيران، السلام المراوغ: الشرق الأوسط في القرن العشرين، السياسات العنيفة: حرب العصابات والإرهاب، الرعد البعيد: تأملات في مخاطر العصر، مصير تغيير النظام، وغيرها.

أكتبُ هذا الكتاب الآن لأنني لم أجِد أي كتاب بين أيدينا يدرس العالَم الإسلامي ومواجهاته مع الدول الأمبريالية بشكل واسع وعميق. هناك كتب بَحَثتْ جوانب محدودة من هذه المواجهات، وهذه ليست ملاحظة سلبية ناقدة، فقد فعلتُ الشيء نفسه من قبل. ولكن التركيز المحدَّد يضيّع الرؤية الشاملة. ولذا فقد عزمتُ هنا على التعامل مع العالَم الإسلامي بكامله وعلاقته بما أسميه "الشمال العالَمي". ذلك ما يفعله المسلمون فهم يُدرِكون تجاربهم المشتركة وارتباطاتهم المعيشية والمصيرية. سيَرى القارئ أن التجارب قد تم تعايشها ومشاركتها من المغرب إلى اندونيسيا، ومن بخارى إلى نيجيريا. وذلك ما يُمَثله حج المسلمين إلى مكة وتَجمّع أفراد العالَم الإسلامي فيه. اتَّخذ تبادل الأفكار والتجارب والآراء أبعاداً جديدة في القرن التاسع عشر مع اختراع الطباعة والمجلات والجرائد. يبدو ذلك جلياً في حركة المجاهدين إذ يَنخرط رجالٌ ونساء من كافة أنحاء العالَم الإسلامي في نشاط وأعمال بعيداً عن أوطانهم الأصلية. وإنّ تقاربَ وتفاعل الأرجاء المختلفة من العالَم الإسلامي يولِّد آفاقاً جديدة في خبراتهم المختلفة والجماعية.

خلال بَحثي عن المعرفة، وليس بالضرورة الموافقة بل البحث دائماً عن الفهم، حاولتُ أن أكون شاملاً وأن أكتشف الرؤية العامة وألّا أَضيع في التفاصيل الجزئية التي لا تُضيفُ إلا القليل من الفهم. باختصار، حاولتُ التمييز بين ما هو ضروري وأساسي وما هو ليس أكثر من مثيرٍ للاهتمام. بما أن كثيراً من التاريخ الحديث مليء بالصراع بين القوى الأوروبية والمجتمعات المسلمة فقد وضعتُ معلومات كافية بشكل مختَصَر لتقديم كل جانب من الصراع ولوضعه في السياق العام لتوضيح ما الذي حرَّكَه وكيف كانت استجابة أطرافه.

سأقدّمُ فيما يلي ملخصاً عاماً للمواضيع والفرضيات التي سأتَطَرقُ إليها. يَصفُ الجزء الأول ظهور الإسلام في صحراء الجزيرة العربية وتَطوّره إلى واحد من أكبر الحركات الدينية في التاريخ. سأشرَحُ كيف تَوحَّد مجتمع قَبَلي على يد محمد وتحوَّل في القرن السابع إلى قوة كاسحة هَزَمَت القوتين العظيمتين في عصرها: الامبراطورية البيزنطية (أو الرومانية الشرقية) وإيران الساسانية، وأَسستْ بدورها مراكز عظيمة لحضارة جديدة امتدَّتْ من اسبانيا إلى الهند. كانوا مَجْدَ العصور الوسطى، ولكن ما أن فَقَدوا قوتهم وتفرقوا حتى كاد أن يَقضي عليهم ويَقهرهم الغزو المَغولي بقيادة جنكيزخان وخلفائه في القرن الثالث عشر. ومِن غمار عثرات الدمار والهزيمة حاولوا النهوض مِن جديد وبَحثوا عن طريق العودة إلى أمجادهم الغابرة وإعادة تأسيس دينهم بالطرق الصوفية.

سأحاوِلُ في الجزء الأول أيضاً أن أقدِّمَ الفكرة الرئيسية لهذا الكتاب: الصراع التاريخي الطويل والذي ما زال مستمراً حتى وقتنا الحاضر بين الشمال العالمي (الغني نسبياً والمتقدّم وقواته الأمبريالية الاستعمارية السابقة) والجنوب العالمي (الفقير نسبياً والتقليدي والمستعمَر، بشكل خاص هنا لدى شعوب العالَم الإسلامي). أركِّزُ بشكل خاص هنا على طبيعة الأمبريالية وكيف تَصرَّفَ الجنوب حِيالها أو استجاب لتحدياتها.

أقدِّمُ ملخصات تاريخية سريعة لأنّ التجارب والأحداث التي تَعرَّضَتْ لها شعوب الجنوب غير معروفة تماماً لنا بشكل عام نحن سكان الشمال. حتى في دراستنا للتاريخ لسنا أكثر من أطفال أفلام السينما التي أثبتتْ أنها أكثر تأثيراً من كتب المدارس والجامعات. فغالباً ما تكون الأفلام هي

المصدر الوحيد للتاريخ الذي نَعرفه! ولكن ذلك يأتي مع تكاليف باهظة لأنها تُبسِّط الأمور وتُحرِّفها ولا نَخرجُ منها إلا بفهم زائف وانطباع مغلوط. فعندما نُفكِّر بالحروب التي استمرَّتْ قرناً من الزمان على الجبهة الشمالية الغربية (الأراضي التي لم يَنجح غزوها واحتلالها في المنطقة بين أفغانستان وباكستان) يكون مُرشِدنا روديارد كيبلينغ Rudyard Kipling. ويلفتُ انتباهنا شون كونري Sean Connery في فيلم "الرجل الذي أصبَح مَلِكاً" بدلاً من أن نَنتبه إلى ما حدَثَ للبشر الذين يَحكمهم. وعن المغرب نتَعلَّم مِنَ الممثِّل غاري كوبر Gary Cooper في فيلم "البادرة الطيبة". وكلنا نعلَم أن نضال العرب في سبيل الاستقلال كان مِن عمل بيتر أوتول Peter O'Toole في دور لورنس العرب. وفي فيلم "سقوط الصقر الأسود" دافَعَ رجالُنا الشباب الشرفاء الشجعان عن أنفسهم ببسالة ضد هجمات جَحافل المتوحشين.

ليس من السهل علينا نحن سكان الشمال العالمي أن نَفهم التاريخ كما عاشَهُ سكان الجنوب. تَحتاج الدراما إلى أبطال ونحن نَتذكَّرُ أبطالَنا ولا نَعرفُ أبطالَهم. فهم المتعصبون الأشرار أصحاب البشرة الداكنة أو السوداء، وهم الجاهلون... كتلة من البشر وليسوا أفراداً. ولعل الاستثناء الوحيد الذي أتَذكَّره هو الممثِّل أنتوني كوين Antony Quinn في دور زعيم النضال الليبي عمر المختار الذي قاد الكفاح المسلح ضد الرئيس الفاشي الإيطالي بينيتو موسوليني الذي قام بشنقِه. كان عمر المختار في حقيقة الأمر واحداً من أبطال شعوب الجنوب، وما أكثرهم. وعندما نَنظُر إلى ماضينا المُشتَرك فإننا نرى نحن سكان الشمال العالمي نمَطاً مختلفاً عما يراه سكان الجنوب. وسأحاوِلُ هنا أن أعيد أحداث التاريخ إلى الحياة لكي نفهَم تاريخ هذه الشعوب.

قد لا يقبَلُ الدارسون الأكاديميون هذا التركيز على أهمية وسائل الترفيه العامة، ولكن عندما يُركِّز الباحثون جهودهم الجادة كانوا حتى وقت قريب يَتبعون وجهة النظر "الشمالية". يَتجاهَل أغلبُ الباحثين الأمريكيين والأوربيين وجهات النظر "الجنوبية" ويُبقونَها أيضاً بعيدة عن أذهان طلابهم. وكانوا يَعتَبرون أن الاهتمام بها ودراستها وتعلّم اللغات الآسيوية والأفريقية هو جهد هامشي. لاحظتُ ذلك عندما عدتُ إلى جامعة هارفارد لتَحضير رسالة الدكتوراه وللتعليم فيها خلال الخمسينيات ووجَدتُ أن الباحثين الرئيسيين يَعتَبرون الدراسات المَحَلية انحرافاً وشذوذاً حتى فيما يتعلق بروسيا والصين الحديثة، وأنَّها أمورٌ يمكن متابعتها دون أخذها بجدية حقيقية. كل ما كان يَهمّهم هو أمريكا وأوروبا فقط. حتى المؤرخون الذين كانت بلادهم منغمسة بعمق في الاستعمار والأمبريالية لم يَهتَموا بالسكان الأصليين بشكل جَدّي. لاحظْ ذلك مثلاً لدى ويليام لانغر William Langer في كتابه الأصيل "الأمبريالية" فبالنسبة له كانت الأمبريالية فرعاً من التاريخ السياسي، والدبلوماسية كانت كل ما حَدَثَ بين الأوروبيين. أما شعوب وسكان الجنوب الأصليون فلم يكونوا أكثر من موضوع الأمبريالية الأوروبية والاستعمار، ولم يكونوا بذاتهم ممثلين لأي دور على خشبة أحداث العالَم.

لا شك بأن تغييراً كبيراً قد حَدَثَ في النصف الثاني من القرن الماضي، فقد ازداد اهتمام الباحثين الشباب بتعلّم لغات أخرى بشكل أفضل من جيلي، وبينما اهتمَّ عددٌ قليل من المعاهد بتعليم

اللغة العربية آنذاك، توسَّع مجال تعليم اللغات الآن ليشمل اللغة التركية والفارسية والكوردية والبربرية والأوردية والبشتونية وغيرها. مما منَحَ الدارسين فرصة أفضل للتفاهم والتواصل مع أفكار وآراء الشعوب المختلفة، وما كان يبدو آنذاك أفكاراً ثورية أصبَح الآن عملاً روتينياً عادياً. كانت البرامج التعليمية عن الثقافات الأخرى نادرة بينما تُقدَّمُ الآن في مئات من المعاهد والجامعات الأمريكية بل ويتم تدريس بعضها في الخارج حيث يَستفيد الطلاب والأساتذة من الاحتكاك المباشر مع الشعوب والثقافات التي يَدرسونها. وعندما بدأتُ مع فريق صغير من زملائي بتأسيس الجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط لم يَتجاوز عددنا اثني عشر فرداً بينما تَضمُّ الجمعية الآن ثلاثة آلاف عضو.

كما نقرأ هذه الأيام أكثر عما يَكتبه أهل الجنوب. وخلال عملي في هارفارد وفي جامعة شيكاغو وفي المعاهد الكثيرة التي درَّستُ فيها حاولتُ دائماً أن أقدِّم وجهة نظر متوازنة، وأعتَبر ذلك من الأهداف التي يجب أن يَسعى إليها المؤرخ. ولذا فقد حرصتُ في هذا الكتاب على ألا أقدّم فقط ما كنا نحن نفعله بل أقدّم أيضاً ما كانوا يفعلونه هم وما كانوا يقولون.

لا يعني فهم وجهة نظر ما أننا نوافق عليها ونتفق معها، وهناك كثير من البشاعة على جانبَي الصراع بين الشمال والجنوب. ولا أحاول تحسين السجلات التاريخية بل أقدّمها كما هي بكل ما فيها من البثور، وقد كان هنالك قصف مَدفعي وقَتل بدون محاكمة وتعذيب وسجن طويل وتَجويع... على كل من الطرفين. وإن في عدم رؤية الصورة الشاملة الكاملة فشلاً ذريعاً للإنسانية، كما أن ذلك يُبعدنا عن السلام والأمن ويَسوقُنا نحو الحرب المستمرة والخوف الدائم. يحب أن نَهتَم بالسِّجل كاملاً إذا أردنا أن نَتوصَّل إلى الأمن العالمي، وأعتقدُ أن البحث عن الحقيقة بأمانة وشرف هو أمر مطلوب أخلاقياً وفكرياً. ولذا فإنني أقدّمُ في الجزء الأول صورة واقعية، ولكي أتوصَّلُ إلى الأحداث التي تُقرِّر أعمالنا وأعمالهم أقارنُ بين ذكريات المسلمين التي يَتمسَّكون بها بشكل مُبالَغ فيه أحياناً عن أمجادهم الغابرة ووقائع الظهور الصادم للأمبريالية.

يتحدَّثُ الجزء الثاني عن محاولات المسلمين التأقلم مع العالَم الجديد الذي وَجَدوا أنفسهم فيه خلال القرن التاسع عشر بالتأكيد على هويتهم وتقاليدهم وبإعادة ترتيب دفاعاتهم على أسس دينية. وسأشرحُ هنا ما يَعنيه أكثر الاتجاهات الإسلامية المحافِظة تأثيراً وما هي علاقته بما يحدُثُ في أيامنا.

وهنا يجيء دور فرضيتي الثانية: هناك انسجام واتساق جدير بالملاحظة فيما حاولَ المسلمون عمله وما واجَهوه من تجارب على الرغم من الامتداد الجغرافي الواسع لآسيا وأفريقيا. أذكُرُ هنا حركات المقاومة الرئيسية العديدة التي جَرَتْ مثل الألباني محمد علي الذي حَكَمَ مصر في أوائل القرن التاسع عشر وحاوَلَ أن يؤسس دولة تستطيع الدفاع عن نفسها اقتصادياً وعسكرياً ضد البريطانيين، والأمير عبد القادر الجزائري الذي حارَبَ المستعمرين الفرنسيين، والإمام شامل وأتباعه من القوزاق الذين حاولوا الدفاع عن أنفسهم ضد الأمبريالية الروسية، والجنود الهنود الذين حارَبوا أسيادهم البريطانيين، والاندونيسيون في آتشيه وجافا الذين حارَبوا المُستعمِرين الهولنديين، والمَهدية السودانية التي حارَبت الغزاة البريطانيين، والليبية السَنوسية التي حاربت الفاشيين الإيطاليين، والأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي حارب مع أتباعه البربر من أجل الاستقلال

عن اسبانيا. وأشير هنا أيضاً إلى المُجدِّد السياسي والديني البارز جمال الدين الأفغاني الذي حَفّز جيلاً كاملاً من المسلمين في كثير من أرجاء أفريقيا وآسيا.

وهنا أعلنُ أيضاً فرضيتي الثالثة: محاولات المفكرين الإسلاميين اكتشاف أسباب فشل هذه الثورات. دارَ السجالُ بشكل أساسي فيما إذا كان سببُ الفشل هو الإسلام بذاته. فأصَرّ بعضهم، وما زال أتباعهم يُصرّون حتى الآن على أن سبب الفشل هو جمود الإسلام تحت نير تقاليد دينية عقيمة فَقَدَتْ اتصالها بروح الدين، ويُصرّون على أنه يجب الرجوع إلى الدين "الصافي الأصيل" كما أسّسه الرسول محمد. بينما يَعترض آخرون بأن الدين الإسلامي ليس له علاقة بمهمة الدفاع، وتَبَنَّت قلّة أخرى ما تَصورَتْهُ عن "الشمال" والحَداثة. ولكن الاتجاه العام كان نحو البحث عن نظريات جديدة، وهذا ما يقودني إلى الجزء الثالث.

أناقشُ في الجزء الثالث كيف أدركَ المسلمون أن الطرق والأساليب التي مارَسوها وتَصَوروها عن الإسلام لم تكن كافية لوقف غزو الأوربيين واحتلالهم بلاد المسلمين. فاتَّجَه كثير منهم لتَبني النظرية التي كانت تجتاح أوروبا آنذاك وهي القومية. ونُلاحظ ذلك في كثير من الحركات مثل الثورة الإيرانية الأولى، والحركات العربية في الحرب العالمية الأولى، وبداية المقاومة الفلسطينية ضد الصهيونية، وإعادة تشكيل تركيا على يد أتاتورك، وإيران في زمن الشاه رضا، والثورة الإسلامية الوطنية في الهند التي أدَّتْ إلى تأسيس دولة باكستان، ومحاولات كشمير الانضمام إلى العالَم الإسلامي، وإصرار الملاويين على وطنيتهم، والنضال الوطني للقبائل الأفغانية ضد بريطانيا وروسيا وأمريكا، والفكرة القومية العربية الجديدة لجمال عبد الناصر، ونشوء البعثية القومية في العراق وسورية وليبيا، وحرب العصابات الجزائرية ضد الفرنسيين. ينتهي الجزء الثالث بخيبة الأمل من الأفكار القومية العلمانية فقد فشلتْ في حماية الجنوب.

في الجزء الرابع أناقشُ كيف حاولَ المسلمون لَملَمَة شظايا هزائمهم بالعودة إلى الإسلام، ولكن هذه المرة إلى فَهمٍ مُختَلفٍ لهذا الدين: الإسلام المحارِب. كان الجهاد والقتال دائماً جزءاً من تقاليد الإسلام، مثلما كان الحال أيضاً في المسيحية واليهودية. ولكن عبر امتداد التاريخ كان الجهاد يَبرز إلى الصدارة في أوقات قليلة نادرة. اكتشَفه المسلمون، وخاصة العرب منهم، وأكَّدوا على ما سماه الإسرائيليون "الدِّين القوي".

أسردُ في الجزء الرابع فَرضِيَّتي الرابعة: تُسَبِّبُ الهزيمة العسكرية الفوضى عادة ولكنها تَفشَل في حلِّ أسباب النزاع وتَبقى القضايا والأفكار والغضب والآمال والأفعال وردود الأفعال كامنة لتكرِّرَ ذاتها بعد جيل أو أجيال وتَظهَر من جديد بعد ذلك بشكل أكثر عنفاً.

أبحثُ في هذا الجزء في التحديات التي تعرَّضَت لها الدول والتي صَنَعتْها وفَرَضَتْها أو سَمحتْ بحدوثها القوى الاستعمارية والامبريالية السابقة والجماعات غير الحكومية. وأبدأ بِرَدِّ فِعل الفلسطينيين على الاستيطان والتهجير الصهيوني، وأنتقلُ إلى الجماعات الإسلامية مثل حماس وحزب الله، ونشأة القومية الأوغورية في آسيا الوسطى، وحَركات المورو في الفلبين، وغَضبُ الصوماليين لدى رؤية ثروتهم الطبيعية الوحيدة تُنتَهك مَن قِبَلِ صيادي السمك غير الشرعيين ومقاومَتهم ذلك بالقرصنة والإرهاب.

يُمَهِّدُ هذا السّرد الطريق لي لكي أركّز في الجزء الخامس على الإخوان المسلمين وفلسفة سيّد قطب أكثر المفكرين المعاصِرين تأثيراً على الأصولية الإسلامية. ونشوء استراتيجية جديدة على يد تنظيم القاعدة، ثم في تنظيم الدولة الإسلامية والحركات المتَعلِّقة بها في أفريقيا وآسيا.

أنهي كتابي بخاتمة أوفِّقُ فيها التجارب المتفرقة على مدى قرنين من الزمن في كلٍّ مُترابط. أحاولُ أن أتوصَّل إلى مَعنى في هذه الشريحة من التاريخ، وأهمُّ من ذلك كله أتساءلُ ما هي الاختيارات المُتاحَة لأهل الجنوب ولنا نحن أهل الشمال العالمي للتوصّل إلى الأمن الذي عشتُه في شبابي؟ وكيف يمكننا الوصول إلى ذلك بتكلفة مقبولة؟

تَطرح هذه المقارَبة الواسعة حقيقة السياسات الأفريقية-الآسيوية. فالكتابة عنها لم تكن مجرد ممارسة وتطبيقات أكاديمية بحتة، وأرجو أن تُحفّزكم على اعتبار أن القوى التي أدرسُها هنا ستلعبُ دوراً رئيسياً في تحديد نتائج القضايا الكبرى التي نَعيشُها هذه الأيام: كيف نستطيع نحن وأولادنا وأحفادنا، نحن الشماليون والجنوبيون أن نحيا معاً على هذه الأرض الواحدة؟

الجزء الأول

ذكرياتٌ عظيمة ويقظةٌ مؤلمة

يُعتَبر الدِّين أمراً مركزياً في حياة سكان العالَم الإسلامي، أو ما يسمى "دار الإسلام". فالإسلام ليس مجرد عقيدة بل هو اسلوبُ حياة يُتَّبع من المهد إلى اللحد ويَشمَل كافة جوانب الحياة اليومية. أنشأ حضارات على امتداد مناطق واسعة في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا. وما زالتْ ذكريات أيامه المَجيدة تُشكّل الفكر السياسي المعاصر وتَضَع نموذجاً يتم على أساسه الحكم على الأحداث المعاصرة. ولا يمكن فهم الواقع الحاضر دون فَهمِ الإسلام ودون إدراك التصور المثالي عن الإسلام لدى المسلمين المعاصرين والمُبالَغِ فيه أغلب الأحيان.

أدى ما يسمى "صدمة الغرب" إلى حدوث ضَرر كبير وهزَّة عظيمة في تَصَور المسلم لنفسه وحالته وإلى تدمير كثير من مؤسسات المجتمع الإسلامي. شكَّلت هذه الهزَّة تحدياً للمسلمين من نيجيريا إلى بخارى، ومن الصومال إلى ألبانيا ما زالوا يواجهونه ويناجزونه منذ عدة قرون. وبينما اعتَبرت الحكومات والسكان في أوروبا وأمريكا تدخُّلها في العالَم الإسلامي "رسالة حضارية" كما سمَّاها الفرنسيون، اعتَبره سكان الجنوب غزواً وحشياً عنيفاً أَفنَى الملايين منهم. ولذا فإن الفشل في فَهم وجهة نظر المسلمين للامبريالية والاستعمار يَجعل فَهم ما يجري الآن من أحداث صعباً وجزئياً ويُحيل التوصُّل إلى الاستقرار والسلام أمراً مستحيلاً.

الهدف الرئيسي من هذا الجزء الأول هو محاولة فهم وجهة نظر المسلمين لتاريخهم ومعرفة كيف ينظرون إلى مواجهتهم مع الغرب.

الفصل الأول

الأسس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للإسلام

في المناطق الوسطى من الكرة الأرضية وعلى أطراف خط الاستواء عاش الناس في مجتمعات قَبَلية بدوية أو شبه بدوية. نَصِفُ مجتمعاتهم عادة بأنها مجتمعات قَبَلية تَجمَعُها صِلاتُ القرابة. ولمْ تَظهَر تأثيرات الثورة الزراعية إلا منذ حوالي خمسة آلاف سنة، وأدَّتْ إلى ظهور مجتمعات الاستقرار بشكل واسع. في تلك المرحلة بدأتْ بعض المجتمعات بانتسابها إلى مكانها الجغرافي بدلاً من صِلة الدَّم والقرابة. واعتَمد هذا التحول على توفر الماء فلَمْ يؤثِّر بالتالي على المناطق المدارية الجافة حيث لم يمكن الاستقرار إلا في الواحات النادرة والأنهار القليلة. واستمَرَّ سكان المناطق الجافة بالعيش في مجتمعات صغيرة من الحياة البدوية أو شبه البدوية. في مثل هذه البيئة نشأ الإسلام في القرن السابع.

يَختَلفُ العربُ الذين ظَهَر فيهم الإسلام في موقفهم من هويتهم قَبْلَ ذلك. فمِن ناحية اعتَبر بعضُهم تلك الفترة التي لمْ يَعرفوا فيها طريقَ الله فترة "الجاهلية". ولكنهم في الوقت نفسه يَفخَرون بالشِّعر البدوي الجاهلي العظيم الذي ابتَدَعوه. ويمكن مقارنة هذا الشِّعر من حيث جودته وغزارته بأفضل الشعر في الأدب اليوناني والإنكليزي والروسي. وبعد مرور أكثر من ألف وخمسمائة عام على تأليفه ما زال الشعر العربي الجاهلي الكلاسيكي بمثابة كنز العرب القومي، وما زال يُنشَد حتى بين رجال القبائل غير المتعلِّمة. ولطالما شاركتُ في كثير من ليالي الصحراء في "مباريات" الشِّعر حول نار المخيم مع الرعاة الذين يشبهون رعاة البقر الذين عرفتُهم في تكساس في الغرب الأمريكي بأنهم لم يقرؤوا قصيدة في حياتهم. يبدو تأثير الشِّعر على العرب ومَن عاشَ بينهم كأنه تنويم ساحر.

يمكن اعتبار أن الشِّعر الجاهلي قد خَلَقَ اللغة العربية. وبما أنها اللغة التي حُفِظَ بها الإسلام وأنها شكَّلتْ وأثَّرتْ على اللغة البربرية والفارسية والأوردية والاندونيسية والمالاوية والبشتونية والتركية وغيرها من اللغات، فمن المفيد أن نَعرف كيف تَعمل وكيف تُعبِّر عن الأفكار والانفعالات والعواطف.

أولاً يجب أن نَعلم أنّ اللغة العربية قد حُفظِتْ وأُقفِلتْ. فاللغة العربية الفصحى التي تُكتَب هذه الأيام هي بشكل أساسي اللغة ذاتها التي أَنشَدها شعراء القرن السادس. ولا يَنطَبق ذلك على اللغة الانكليزية، لأن قرّاء الانكليزية المعاصرين يَجدون صعوبة في فهم شكسبير ولا يستطيع أحد منا أن يفهم اللغة التي كان يتحدَّث بها الجالسون حول المائدة المستديرة في زمن المَلك آرثر.

وثانياً تُعتَبر اللغة العربية وكذلك الانكليزية مِن أغنى لغات العالَم. ولكن بينما تَضَمنَّت الانكليزية كلماتٍ من حوالي اثنتي عشرة لغة مختلفة ظَلَّت العربية صافية وذاتية الاشتقاق بشكل تام تقريباً، إذ تَنمو مفرداتها بالتطوير والاشتقاق من جذورها الأصلية. يدلّ الجَذر الذي يَتألف عادة من ثلاثة أو أربعة حروف على فِعْلٍ أو فكرة محدَّدة، ويتم رفع وتطوير الجذر بأنماط ثابتة إلى أشكال عديدة من المفردات تدلّ على فروق دقيقة، أو تتحول إلى مفاهيم متقاربة دون أن تفقَد معناها الأصلي.

وضَّحتُ ذلك الاشتقاق لكثير من طلابي عن طريق تمرين طريف صغير توصَّل إليه خلال الحرب العالمية الثانية رجلٌ انكليزي مجهول كان مُكَلَّفاً بتدريس اللغة العربية لضباط المخابرات البريطانية. لكي يلفتَ انتباههم لجأ الأستاذ إلى أكثر الأحرف الصامتة التي يَعرفونها من خلال عملهم وهي الأحرف G, H, Q التي كانت تَرمز إلى القيادة العامة General Head Quarters واستخدَمها في شرح طريقة الاشتقاق في اللغة العربية بوضعِ هذه الأحرف الثلاثة في نَمَط ثابت يمكن به اشتقاق كلمات ومفردات مختلفة ولكن متقاربة ومتشابهة مع الفكرة الأصلية، ويمكن توليد المفردات بشكل واسع كبير. قال المدرِّس في أمثلته التعبيرية:

أعَمَلُ في القيادة العامة GHQ ----- GaHaQa

أعمل عملاً شاقاً في القيادة العامة ----- GaHHaQa

تَعيينُ شخصٍ في القيادة العامة ------ GáHaQa

إرسالُ شخصٍ إلى القيادة العامة ------ aGHaQa

تعيين شخص لنفسه في القيادة العامة --- taGaHHaQa

تعيينُ شخصٍ آخر في القيادة العامة ---- taGáHaQa

تمَّ تَعييني في القيادة العامة --------- inGaHaQA

أصبَحتُ عاملاً فعالاً في القيادة العامة --- iGtaHaQa

أسعى للتعيين في القيادة العامة ------- istaGHaQa

ويمكن وضعُ أي جذر في هذا النمَط للتعبير مثلاً عن الاهتمام أو النفي أو التبادل أو المشاركة أو الرغبة الشخصية في أي معنى يدلّ عليه الجَذر الأصلي. ويمكن اشتقاق بعض الأسماء المختلفة من هذا النمط ذاته. وهكذا يمكن أن يَستخدم الأستاذُ الاشتقاقَ maGHaQa مثلاً للدلالة على المكان الذي تقَع فيه القيادة العامة، أو muGHiQ للدلالة على عضو من أعضاء القيادة العامة، أو miGHaQ للدلالة على أدواتها وما يَصدر عن القيادة العامة مِن تحليلات وتقارير.

وبالطبع فإن استخدام GHQ هو فقط للمحاكاة الساخرة ولكنها توضّح الأسلوب الذي جَعَلَ اللغة العربية دقيقة ومرنة في الوقت نفسه مما سَمَحَ لها بالتعبير عن العلوم الهندية والفلسفة اليونانية ونَقلها إلى أوروبا لكي تُحَفِّز الحركة الثقافية العظيمة التي نُسَمّيها "النهضة الأوروبية".

ثالثاً، استُخدِمت الكلمات التي وَصَف بها شعراء الجاهلية حياتهم في الصحراء لكي تُناسِب الحياة المعاصرة، فمثلاً استُخدِمت مشتقاتٌ من الجَذر "وفق" للدلالة على "سير الجمال في نَسَقٍ متوافق" وأنها تسير في نَسَق كما يجب أن تفعل، ومِن هنا تأتي فكرة أن يَفعل المرء أو أن يساعده أحد على عمل شيء في الوقت المناسب أو بطريقة مناسبة "يوفِّق". ويمكن أن تدلّ مفردات مشتقة من الفعل "وَفَّقَ أو وافَقَ" هذه الأيام على "المُصالَحة والتَّوفيق بين أطراف مختلفين" أو على "التفاوض لوقف إطلاق النار" أو "التوصّل إلى اتفاق" أو "النجاح في مهمة" أو "طَلَب المعونة من الله" أو "التوفيق والحظ الطيب" أو "أن نُصبح أصدقاء" أو "أن يكون الثوب مناسباً" أو "القاسم المشترك في الرياضيات" أو "أن يكون الطَّقس مناسباً" أو "أن يكون الوزن متوافقاً" أو "الوزن الكلي" أو "العمل وفق راتب معين" أو "الموافقة الرسمية على أمر"... وبالعودة إلى الأصل يمكن أن يدل على "توفيق السَّهم في القوس". وباختصار أن يتم فِعْلُ شيء بالطريقة الصحيحة. يُشبِه التواصل باللغة العربية أحياناً، خاصة عند التحدث مع الطلاب الأجانب، وكأننا نَصنَع كلماتٍ من أحرف في لعبة Scrabble أو نحلُّ أحجية كلمات متقاطعة.

الارتباط الوثيق للّغة العربية بجذورها ونَسيجها العام كان له دور في الإسلام مثلما كان للّغة اليونانية واللاتينية في المسيحية واللغة العبرية في اليهودية، فهي لغة القرآن. وقد اعتُبِرتْ ترجَمة القرآن إلى لغات مختلفة أمراً غير محبَّذ لفترة طويلة من الزمن ولم تُنَفَّذ إلا في القرن الأخير. يواجِهُ المسلمون في كل المكان اللغة العربية ويجب على طلاب العلوم الدينية أن يحفظوا القرآن بالعربية مهما كانت لغتهم الأصلية. وقد انتَشَرت اللغة العربية بسبب الدراسات الدينية وبفضل التجارة الواسعة ودَخَلَتْ في اللغات واللهجات المحلية في كثير من أرجاء العالَم. وقد أثَّرَت حتى على اللغات غير الساميّة (التي تشمل العربية والعبرية) مثل اللغات الهندو-أوروبية (بما فيها الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والفارسية والروسية) واللغة التمازيغية (البربرية) واللغات الأسترالية-الآسيوية (الملاوية والاندونيسية والتاغالوغية) ولغات الأورال (مثل التركية والمغولية) التي استعارتْ كثيراً من المفردات العربية. يَختلفُ اللفظ ولكن الكلمات المكتوبة يمكن فَهمُها بشكل عام، وقد انتشَر تبادل المفردات عبر اللغات البربرية ولغة الهوسا والكانورية والسواحيلية والصومالية والكوردية والفارسية والأوردية والبشتونية والملاوية ولغة بالي والطاجيكية والأوزبكية والأوغورية والعثمانية والاسبانية، وحتى الإنكليزية تحتوي بعض المفردات العربية. وفي المثال التالي يمكن أن نجد بعض المفردات العربية التي توضّح كيف نَستعير ونَستخدم كلمات عربية دون أن ندرك ذلك:

خرج الأدميرال admiral (أمير البحر) من دار صناعة الأسلحة arsenal وجلَسَ على فراش mattress (مجلس) قرب الصفة (sofa) تحت كهف alcove من طين اللبن adobe بينما يقرأ كتاباً عن الكيمياء Chemistry. غطّى جسمه برداء من القطن cotton، وعندما أصابه الملل

تحول إلى حلّ شيفرة decipher كتاب عن الجبر algebra بينما تناول شيئاً من البرقوق apricot أو ربما كان النارنج tangerine؟ ومن المؤكد أنه لم يتناول الأرضي شوكي artichoke أو السبانخ spinach. كان رجلاً غبياً لأنه تناول كثيراً من الكحول alcohol. إلا أن شُرْبَ القهوة coffee من المغرفة carafe ساعدَهُ على استعادة تركيزِه. مرَّ طفل بقربِهِ وطَلَبَ شيئاً من حلوى الكَندي candy فوضَع يده في الجرة jar وأخرَج كلّ ما وجَده من السكر sugar. والشكر لله أنه لم يكن تبغاً tobacco.

اللغةُ أمرٌ جوهري في تحديد الهوية، خاصة عند وجود لغة محلية خاصة مثل اللغة العربية، ولذلك يَعتقد كثير من الباحثين أن الصفة الأساسية في العروبة ليست الدين ولا العرق بل أن تكون اللغة العربية هي اللغة الأم. ولأنَّ القرآن يُكتَب باللغة العربية ويتم تدريسُهُ في المدارس الدينية في أغلب مناطق أفريقيا وآسيا وأجزاء من أوروبا يُعتبَر تَعلّم اللغة العربية ضرورياً لفهم الإسلام.

ولذا، يجب ألا نَستغرب ما لاحظَتْه قوى الشمال العالمي عندما توجَّهَتْ لغزو الجنوب المسلم أن اللغة العربية شكَّلتْ نوعاً من الجدار الدفاعي أمامها لأنها جَمَعَت الأمم ووَحَّدَتْ بين الأجيال. حاول الامبرياليون الصينيون والروس والبريطانيون والفرنسيون قَمعَ اللغة العربية واستبدالها بلغاتِهم، وبذلك فقد نَبَّهوا أصحاب البلاد من غير قصد إلى أنّ اللغة يمكن أنْ تُستخدَم كنوع من القوة الدفاعية.

عندما لاحظَ الغزاةُ أنّ أصحاب الأرض قد تمسَّكوا بلغتهم أدركوا أنّ اللغة يمكن أنْ تكون أداة مهمة في السيطرة والغَلَبَة مثل الجيوش. حاول الفرنسيون استبدال اللغة العربية بالفرنسية في المناطق التي احتلُّوها. بَلَغَتْ هذه السياسة درجة عالية من النجاح لدرجة أنه عندما خرجَت الجزائر من الحرب الفرنسية-الجزائرية سنة 1962 لم يكن في حكومة الاستقلال سوى وزير واحد يتَحدث العربية بطلاقة[1]، ولكي يَجدَ طريقَه في دمشق كان على المواطنين أن يعرِفوا الفرنسية لأنّ كل إشارات وأسماء الطرق كانت مكتوبة بالفرنسية، وبما أنّ القوانين والتعليمات كانت تَصدر بالفرنسية تَرتَّبَ على كل من يريد أن يَعمَل في وظيفة أفضل من كنَّاس للشوارع أن يتَعلَّم الفرنسية.

عندما أراد البريطانيون تَثبيتَ سيطرتهم على الهند طلَبوا من المؤرخ البريطاني وعضو البرلمان توماس بابينغتون ماكولي Thomas Babington Maccaulay سنة 1835 أن يَستبدل عدداً من اللغات الهندية الدارجة واللغة العربية والفارسية المُستخدَمة في الأدب والدين والحكومة باللغة الإنكليزية. ولم يكن هدفه ثقافياً رغم ادعائه بأنّ "رفّاً واحداً من مكتبةٍ أوروبية جيدة أفضلُ من كل ما كُتِب في الأدب الهندي والعربي"، بل كان هدفه تشكيل "طبقة من الناس ممن هم هنود بدمهم ولونهم، إلا أنهم انكليز في أذواقهم وآرائهم وأخلاقهم وثقافتهم"[2].

وباختصار، فقد كانت اللغة هي القوة الناعمة للأمبريالية. لم تحلّ محل القوة العسكرية ولكنها كانت أقل تكلفة بكثير ومقاومتها أصعب لأنها طُبِّقتْ على الأطفال في أعمار صغيرة واستمرَّ

تأثيرها فترة طويلة وكانت تُعتبَرُ مفيدة لمن كان يَبحَث عن عمل. حتى في أيامنا هذه يَسعى أعضاء الطبقة الحاكمة في الهند إلى تحقيق خطط ماكولي ربما دون إدراك ووعي منهم.

طبَّق الحكام البريطانيون الخطط ذاتها في مصر بعد حوالي نصف قرن، فبعد احتلالهم مصر سنة 1882 أعاد البريطانيون تنظيم المدارس الحكومية وفَرضوا التدريس باللغة الإنكليزية. وإذا أراد طفل أن يتعلَّم خارج نطاق المدراس الدينية في القرية كان عليه أن يتعلَّم الإنكليزية. استمر هذا البرنامج حتى قُبيل الحرب العالمية الأولى. كان أحد الانتصارات القليلة التي حقَّقها سعد زغلول الذي قاد شعبه في سبيل الاستقلال هو نجاحه في أن يَسمَح البريطانيون بتعليم أطفال مصر بلغتهم الأم.

ربما يتصور الغرباء أن اللغة وسيلة امبريالية ضعيفة لا تَملِكُ سحر وتأثير الجيوش الزاحفة. وأعترفُ بأنني عندما بدأتُ دراساتي لم أُحسِن تقدير التفاف الناس وتَمسّكهم بالدفاع عن لغتهم الأم. ومِن موقفي المُتعالي للغتي الإنكليزية تصورتُ أنّ ما يهم فعلاً هو الفكرة والرأي مهما كانت اللغة التي تُستخدَم في التعبير. أهمَلتُ دور الوسيط مقابل أهمية الرسالة، ولم أُدرك تماماً أنّ الأمر لم يكن مجرد أفكار بل إن وسائل التعبير والتواصل تؤثِّر أيضاً على تطبيق الأفكار والآراء في السياسات. أدركتُ ذلك في مؤتمرٍ عُقِدَ سنة 1952 ضمَّ مفكرين بارزين من بعض الدول العربية. فقد تبيَّن أن كل مشارك كان أكثر قدرة على التعبير عن رأيه بلغة الدولة التي سيطَرتْ على بلاده والتي دَرَسَ فيها، فلجأ العراقي إلى اللغة الإنكليزية التي تَعلَّمها في أوكسفورد، بينما تَحدَّث السوريون واللبنانيون بالفرنسية التي تَعلَّموها في السوربون[3].

عندما استمعتُ إلى أحاديثهم بدأتُ أُدركُ أن "القومية" التي كانت الموضوع الرئيسي في المؤتمر لم تكن مفهوماً واحداً تدلّ عليه مفردات متشابهة في اللغات المختلفة بل كانت نوعاً من "الجذر" الذي يَحمِل معنى يَختلفُ حسب التاريخ والثقافة. وَجَدَ المؤتمرون صعوبة في فَهم بعضهم بعضاً باستخدام لهجاتِهم المحلية. وربما يَحدث مثل ذلك الإشكال لنا عندما نُحاول أن نَفهَم بدقّةٍ ما يقول لنا الناس بلغات مختلفة. أصبَحت الأمور أكثر صعوبة عندما استخدَمَت الحكوماتُ اللغةَ كسلاح، مثلما فَعَلَ البريطانيون والفرنسيون ومِن بعدهم الروس والصينيون.

لدى دراسة شعوب وسط آسيا التي سيطَرتْ عليها الصين، ذَهَبَ شيانغ كاي تشك إلى أبعد مما فَعَلَهُ الامبرياليون البريطانيون والفرنسيون، فبَعدَ ثورة الكازاخستانيين سنة 1933 وإعلان الأوغوريين تأسيس دولة تركيا الشرقية سنة 1944، قرَّرَ شيانغ عَدَمَ وجود شعب تركي في تلك المناطق على الرغم من أن لدى الصينيين اسمٌ لهذا الشعب هو الشانتو Chantou، وقال إنهم مجرد جزء من الشعب الصيني الكبير. وحاول أن يَفرض على المتحدثين بالتركية أن يَتركوا لغتهم الأم ويَتَعلموا اللغة الصينية. وما زال حكّام جمهورية الصين الشعبية يُطَبِّقون سياسته حتى الآن: مِنَ الناحية اللغوية فإنهم يُزيلون الانتماء القومي للشعب الأوغوري.

في الوقت الذي كان فيه شيانغ يَقمَعُ الأوغوريين، كان جوزيف ستالين يَقمَع لغات الشعوب الآسيوية التي حَكَمَها القياصرة الروس. ولكي يتمكَّن من السيطرة عليهم أكثر قَسَّم الاتحاد السوفييتي

اللغةَ المكتوبة التي كانت مشتركة بينهم (التركية العثمانية) "أفقياً" بتغيير جميع الوثائق المكتوبة مِنَ الحرف العربي الأصلي إلى اللاتينية أولاً في 1926-1927، ثم إلى الأبجدية السيريلية التي تُكتب بها اللغة الروسية في 1936. وهكذا لمْ تَعد الأجيال التي نَشأتْ في الثلاثينيات قادرة على قراءة ما كُتِبَ في ماضيها الأدبي والسياسي. كما قَسَّمَ السوفييت اللغة "شاقولياً": فقد حذَفوا الشكلَ التقليدي لكتابة المفردات، وكتَبوا اللهجات كما تُلفَظ بالحروف الجديدة، مما زاد في صعوبة التواصل بين شعوب آسيا الوسطى، فلمْ يَعد الأوزبكيون قادرين على قراءة ما كَتَبَهُ الطاجيك والشيشان. وخلال جيل واحد أصبَحَت اللغة الروسية وسيلة التواصل الوحيدة بينهم.

عندما أصبح التقسيم اللغوي غير كاف، دفَعَ ستالين التتار في شبه جزيرة القرم إلى حافَّة الاندثار الثقافي والزوال النهائي. حاول الروس مَحوَ ثقافات آسيا الوسطى خلال سنوات الرعب في الثلاثينيات، ثم هَجَّروا خلال الحرب العالمية الثانية أكثر من مئتي ألف تتاري مِنَ القرم، وأعادوا تسمية المدن والقرى والأنهار والمناطق باللغة الروسية. ولكي يتم مَحو الثقافة التتارية، أَحرَقوا الكتب التتارية وأَزالوا حتى شواهد القبور التي كانت مَكتوبة بالحَرف العثماني[4].

أَدركَت شعوبُ الجنوب أهمية اللغة في المحافظة على ثقافتها وهويتها واستقلالها، وكذلك عرفتها شعوب الشمال العالمي التي كانت تسعى للسيطرة عليهم. ولكي نفهم هذا الصراع فإن الخطوة الأولى هي خطوة لُغَوية، والخطوة التالية هي إدراك الأبعاد الأوسع للثقافة.

أَنشَدَ الشِّعرَ الجاهلي في اللغة العربية شعراء عاشوا حياة البداوة التي فرضَتْها عليهم بيئتهم الجافة. وظَهَرَ تأثير ظروفهم القاسية في شِعرهم الذي تضَمَّن كثيراً من التعابير عن الشجاعة والبطولة، إلا أنّ بطولة البداوة كانت بالنسبة لسكان المدن عدواناً وقرصَنة. فقد هاجَم البدو المدنَ والقرى، أو فَرَضوا عليهم أتاوات للحماية وضرائب على القوافل، إلا أنّ السكان الذين عاشوا حياة الاستقرار كانوا يحتاجون إلى البدو لنقل منتجاتهم عبر الصحراء وإمدادهم بالمنتجات الحيوانية. كان التوازن بين الحاجات والمخاوف دقيقاً، وقد تَغيَّر بشكل جذري بعد مجيء الإسلام. ولذا سأتوجَّه نحو مناقشة ظهور الإسلام وعلاقته المركَّبة بالبداوة.

الفصل الثاني

محمد الرسول ورسالته

وِلِد محمد في أواخر القرن السادس الميلادي، ربما حوالي سنة 570 أو 571 في مكة، المدينة التجارية الصغيرة التي أَكَّدتْ طريقة حياتها ومعيشتها على أهمية الأمن والتجارة والثروة، في حين عاش مَن جاوَرها مِن البدو حياةً ارتكَزتْ على الشدة والقسوة والشجاعة والشرف. خافَ سكانُ المدينة مِن البدو الذين كانوا بدورهم يحتَقرون أهل المدن. كانوا يَتحدَّثون لهجات مختلفة من اللغة العربية فقد ابتَدع البدو أشعارهم بالعربية النَّجْدية بينما كُتِب القرآن بعد ذلك بالعربية الحجازية. ولأن مكة تَمتَّعتْ بوفرة نسبية من الماء فقد انتَمى أهلها إلى المكان أكثر من انتمائهم إلى القبيلة.

كانت قريش من أهم الفئات التي عاشَتْ في مكة، وكانوا يَعتَبرون أنفسهم "قبيلة" إلا أن ذلك كان بالنسبة لهم عملياً أمراً مختلفاً عما كانت القبيلة تعنيه بالنسبة للبدو. فقد كانوا يعيشون نمطاً من الحياة يتأثر بالمكان الذي عاشوا فيه على طريق القوافل التي كانت تسير نحو مصر البيزنطية في شمالهم الغربي، أو نحو سورية البيزنطية في الشمال، أو إيران الساسانية والعراق وموانئ الخليج في الشرق، أو اليمن والمحيط الهندي في الجنوب.

توصَّلَ أهل مكة إلى اتفاقات مع البدو الذين يُسيطِرون على الطرق في شبه الجزيرة العربية مما جَعَلَ تأسيس هذه الشبكة التجارية ممكناً. يظن كثيرون أن أهل مكة كانوا بسطاء وبدائيين منعزلين عن تأثيرات العالَم الخارجي، إلا أنهم كانوا في واقع الأمر دبلوماسيين مَهَرة بارعين في الرشوة ودُهاة في حفظ الأصنام والكعبة التي كانت مقدَّسَة. مَنَحتْهم هذه الميزات القدرة على جَمع الثروة وتحقيق الأمن. وكانت مكة مركزاً تجارياً نامياً أراد أهلها المحافظة عليه كذلك.

في بدايات القرن السابع ظَهَرَ منهم رجل اعتَبره أهلُ مكة مزعِجاً غريب الأطوار ولكنه غير ضار. كان متزوجاً مِن امرأة نبيلة وكان يُعتَبر تاجراً ناجحاً. يبدو أنّ أشراف مكة قد ظَنوا في البداية أنه يَبتَدع نوعاً من الشِّعر الروحاني وتَحمَّلوا وجوده حوالي سبع عشرة سنة، إلا أنهم اعتَقدوا في النهاية أنّ قصائده قد تؤدي إلى تدمير ثروتهم واسلوب معيشتهم، فقد كان يَعتبر أنّ أساس نظامهم، وهو الأصنام التي كانت في الكعبة مزيَّفة، وأنّ معبوداتهم ليست آلهة حقيقة وأنها ليست أكثر من أحجار، وأن عبادات أهل مكة وسلوكهم ليست سلوكاً إلهياً مقدَّساً. وعندما أَعلَن محمد نفسه رسولاً مِنَ الله الواحد الأحد (الله) اعتَبره أغلب أهل مكة مخرباً وخافوا أنه إذا اقتَنع البدو برفض

محمد لدين مكة فقد يُصبِح التوازن الدقيق الذي كان يضمن لهم نمو ثرواتهم مهدداً وتَخضَع المدينة لتهديد البدو.

أَعلَن محمد أن شكوكهم ليست في مَحلِّها وذلك لأنّ الله قد أَمَرَهُ بنشر رسالته باللغة العربية لكي يَفهَمها كلّ العرب ويَتبعون صراطها المستقيم، شريعة الله، الإله الواحد الصَّمد وليس شرائع المشركين الفاسدة. وعندما حاولَ نَشرَ رسالته في مكة طَرَده منها أهلها.

غادَرَ محمد مكة سنة 622 فيما يسمى بالعربية "الهجرة" وهي مِن أهم أيام التاريخ. بَدأ فيه عصر الإسلام وأدَّى إلى ظهور مجتمع من المؤمنين توسَّع وانتشَر حتى انتَمى إليه في أيامنا هذه واحد من كلّ أربعة من البشر. عندما هاجَرَ محمد سِراً في طريقه إلى المدينة (التي كانت تُسَمى يثرب آنذاك) كان وحدَه تقريباً ولم يكن لديه مصادر تمويل وتَمَّتْ دعوته فقط لكي يوفِّق بين الأطراف المتصارِعة في المدينة. لم يكن معه في صالِحه سوى رسالته وإدراك أهل المدينة أنهم كانوا على شَفَا حرب أهلية مدمِّرة. وكانوا يحتاجون إلى وسيط سلام حكيم، وكان ذلك دوراً تقليدياً تَعارَفَ عليه المجتمع العربي. ولكن محمداً كان يرى أنّ مهمته وفرصَته تَختَلف كثيراً عن ذلك. فقد اعتَبر نفسه رسول الله إلى الأرض، وكان يَرى نفسَه حكيماً يَنقل أحكامَ الله التي يجب أنْ تُطاع. ورغم اختلاف الكلمات والصفات فقد اعتَبر أنّ الدَّورَين متماثلان أساساً: فقد أراد أن يوقِف صراع الأطراف ضد بعضهم بعضاً بشكل نهائي بطَرح نظام اجتماعي جديد يفرضه باسم الله. كان مِن أوائل أعماله صياغة اتفاقية تَضْمَنُ الحقوق والواجبات لأفراد المجتمع، وكان الانتقال إلى النظام الاجتماعي الجديد مسألة جوهرية شَغَلَتْ حياته. أَعلَنَ أنَّ الإسلام هو أولاً وقَبلَ كلِّ شيء نظام قانوني، وقد تَضَمَّنَ عناصر من التقاليد العربية وعقائد وعبادات اشتَرَكَ في بعضها مع اليهودية والمسيحية وشكَّلَ نظاماً كاملاً متكاملاً يشمَل كافة جوانب الحياة.

اعتَبر محمد نفسه رسولاً يجب عليه أن يُعلِن ويُفسِّر الرسالة التي أرسَلَها الله إلى الرُّسِل قَبلَهُ ممَن نَعرِفهم نحن في العهد القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدَّس وما هو معروف من التقاليد العربية. يَذكُرُ القرآن ويُكَرِّرُ كثيراً من التقاليد الموجودة في الكتاب المقدَّس، ويؤكِّد على وحدانية الله وعلى قدوم اليوم الآخر الذي يتم فيه الحكم على كل البشر. يُخالِفُ اليهودية بأنه يَعتَبر المسيحَ نبياً حقيقياً، ويُخالِف المسيحية بأن المسيحَ ليس ابن الله الذي لا يَلد ولا يولد. ويَصِفُ المسيحَ بأنه نبيٌّ أرسَلَه الله، وهو مُبَجَّل عند المسلمين.

بَشَّر محمد برسالته التي آمَنَ بأنها أُوحِيتْ إليه مِن الله، ويؤمِن أتباعه بذلك أيضاً، وقد جَمع أتباعُه هذه الرسائل ونَسخوها في كتاب المسلمين المقدَّس الذي اسمه "القرآن".

يُنبِئنا القرآن أنّ الإسلام هو دينُ ابراهيم، أي أنه يُعَرِّفُ نفسَه ديناً مؤكِّداً وموافِقاً للأديان السماوية السابقة التي أنزَلها اللهُ على المسيحيين واليهود وأقوام غيرهم لم يَذكُرهم التاريخ. يَرِدُ في القرآن:

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النساء: 163]

إلا أنّ رسالة الله التي بَلَّغَها رسلُه إلى البشر لم تُتَّبَع[5]. كما قَتَلَت المدنُ الخاطئة أو طَرَدتْ أنبياءَها ورسلَها مثلما فَعلتْ مكة بمحمد. وهكذا دمَّرها الله واحدةً تلو الأخرى مثلما فَعَلَ بمدنِ سَدوم وعَمورة. إلا أنه لم يقضِ على اليهود والمسيحيين على الرغم من أنهم ارتَّدوا وضَلّوا عن رسالته كما يَذكُر القرآن، بل أرسَلَ إليهم رسوله محمد لكي يُصحِّح التغييرات التي وضَعَها المسيحيون واليهود وغيَّروا أوامره وشرائعه، وهذه هي رسالة المسلمين الأصوليين في أيامنا كما سنرى فيما بعد.

تركيز الإسلام على أنّ دعوته ما هي إلا استمرارٌ لما سبَقَه مِن أديان أَدَّى إلى استمرار تَبَنيه كثيراً من العادات والمعتقدات التي كانت موجودة قبله، ومِن أوضح الأمثلة على ذلك الاستمرار في تَعظيم الكعبة والحَجَر الأسود فيها. لا نعلم بالضبط ماذا كان يدلُّ عليه الحَجَر الأسود قَبْلَ الإسلام، فلَيسَ مِن المُتَوقَع أن يُبَرِّرَ اللهُ أوامره وشرائعه، ولكن المؤمنين اعتَبَروه دائماً طريقاً إلى المقدَّس أو لمغفرة الخطايا. يُعتَقَد أنّ الحَجَر كان في الأصل أبيضاً وأنه تَغَيَّر إلى اللون الأسود بسبب لمسِه المُتكرر بأيدي المذنبين المتضَرِّعين. يوجَد في كل الأديان أمثلة مشابهة على أشياء أو أماكن مقدَّسة، وربما كان الإيمان العميق بمثل هذه الرموز المادية يفسِّر ردَّ الفعل العنيف أحياناً تجاه رموز الأديان الأخرى، مثلما حَدَثَ عندما حَطَّم المسيحيون أصنام آلهة المصريين القدماء، ومثلما فَجَّرَ المسلمون صَنَمَ بوذا باميان في أفغانستان ومعبَدَ بعل الكبير في تدمر السورية.

مَنَحتْ رعايةُ الكعبة أهلَ مكة مركزاً مقدَّساً في القضايا العربية فهي القِبلة في صلوات المسلمين مثلما كانت مَركَز حجٍّ في الدِّين الوثَني للعرب قَبلَ الإسلام. وأصبَحتْ مكة تقريباً مثل روما بالنسبة للكاثوليك. غير أنه في السنوات الأولى لرسالة محمد كانت القُدس هي القبلة في الصلاة ثم أَمَرَ اللهُ بتحويل القِبلة إلى مكة إرضاءً لمحمد:

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [البقرة: 144]

رغم أنّ دور محمد في الإسلام هو دور مركزي وأساسي، إلا أنه لا تُضفَى عليه صفات إلهية مقدَّسة ويوصَف في القرآن بأنه أُرسِل مِن الله لكي يُبلِّغ رسالة الدين القَويم الكامل الوحيد باللغة العربية لكي يَفهَم العرب مقاصد الشريعة بدقة ووضوح. كانت رسالته محدَّدَة فلم يكن عليه تقديم معجزات، وعندما توفي لم يكن هنالك أي تساءل عن قيامته أو عودته من الموت. ولم يَطلب اعتباره نبياً حقيقياً فقد سَمَّى القرآن عيسى نبياً مباركاً ولكنه ليس ابن الله. يُعتبَر توحيد الله المبدأ الأساسي الأصيل في الإسلام: فالله هو الواحد الأحد الصمد المُنَزَّه عن الشريك والوَلَد إلى درجة أن فكرة وجود وسطاء أو أنبياء أو قديسين أو أولياء يَشفَعون إلى الله أو يَتوسَّطون لديه تُعتبَر فكرة كاذبة خاطِئة عند الأصوليين السلفيين. يَعتبِر الإسلام كلَّ فرد مسؤول وحدَه أمام الله عن أعماله وذلك يَستوجِبُ أنْ يَلتَزم كل إنسان بشريعة الله، وربما كان الإسلام أكثر الأديان تركيزاً على الشريعة والسلوك القويم.

يُنبِئنا القرآن أنّ الله يَهتَمُّ بكافة جوانب حياة البشر على الأرض، وما نَفعَله هنا الآن يُقَرِّرُ مصيرنا الأخير، وذلك ما يَجعَل الإسلام ديناً اجتماعياً، وهو لا يَضَع الحدود التي نَعرفها عادةً بين قضايا الدِّين والدنيا. فكل ناحية من نواحي الحياة هي قضية دينية، وقد كان محمد في حياته رسولاً مِنَ الله الواحد الأحد وحاكِماً للدولة. ولا يُمكِن له أن يؤدي دوره في حكم الدولة إلا بتطبيق شرع الله.

ولكن ماذا عن هؤلاء الذين لا يَتبعون أوامر الله ولم يُكفِّرَ عنهم ذنوبَهم رجال الله؟ يجب أن يتم عقابهم. يبدو أنّ جميع الأديان تَهتَم بالعقوبات. وكما فَعَلَت المسيحية واليهودية فقد ركَّز الإسلام على الخطايا الجنسية لأنها أكثر الجوانب ضَعفاً في المجتمع. والزِّنا هو أكثر ما يُهَدِّد مباشرة بُنيَة الأسرة وعلاقات القُربى في الدولة.

وضَعَت الأديان الثلاثة عقوبات واضحة لجريمة الزِّنا والخيانة الزوجية. وكما عرفنا من العهد القديم في الكتاب المقدَّس وكما طبَّقَها البيوريتانيون المُتَطَهرون في أمريكا فإن هذه العقوبة كانت غالباً وحشية وشديدة القسوة، وأشدها قسوة هي عقوبة الرَّجم حتى الموت. كان الإسلام في الأصل أقلَّ قسوة من اليهودية والمسيحية، ولكن بينما خَفَّفَتْ هذه الأديان عقوباتها على مَرِّ الزمن، أصبحَ الإسلامُ أقلّ إنسانية ورحمة. تتَّضِح هذه الاتجاهات المتعاكِسة في جوانب عديدة من الدين أيضاً على الرغم من أن المسلمين المُصلِحين يَعتقدون أنّ الإسلام سيَلحَق باليهودية والمسيحية ويُصبِح أكثر ليونة وتسامحاً.

هل يوجَدُ هناك تَسامح؟ يُجيبُ الإصلاحيون على هذا السؤال بنعم، بينما ينفيه الأصوليون. إذا نَظَرنا إلى مسألة الرَّجم: لا يوجد تَبرير لهذه الطريقة بالإعدام في القرآن، بل يَذكر القرآن أنّ الزّناة يمكن أن يتزوجوا، وهذا يُشير إلى أنَّهم لا يُقتَلون:

{الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 3-5]

وعلى الرغم من ذلك فإن تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) وحركة طالبان بَرَّروا تطبيق عقوبة الرَّجم حتى الموت بحَديثٍ رُويَ عن محمد. ربما كانت عقوبة مُطَبَّقة قَبلَ الإسلام وذلك ما أعطاها شرعية التداول والقبول في الإسلام، خاصة وأنها قُبِلتْ مِن جهة علماء الدين وطَبَّقها الحُكَّام.

لا يوجَد أي شك في تنفيذ هذه العقوبات المُخيفة في اليهودية والمسيحية كما نَصَّ الكتاب المقدَّس: فالرَّجم حتى الموت هي العقوبة التي ينصُّ عليها العهد القديم بكل صراحة ووضوح في جريمة الزِّنا أو القَذف أو عقاب المرأة التي تَفقَد عذريتها قَبلَ الزواج[6]. وينصُّ الكتاب المقدَّس بوضوح على أنّ هذه هي أوامر الله التي يجب أن تُنَفَّذ[7]. تَمنَع الحكوماتُ العَلمانية الآن المسيحيين واليهودَ الأصوليين من تطبيق ذلك، إلا أن بعض المجتمعات الإسلامية السلفية ما زالتْ تُطبِّق بعض هذه العقوبات التي تبدو لأغلب المسيحيين واليهود هذه الأيام عادات خسيسة من القرون الوسطى.

تَعدُّد الزوجات هي عادة عربية أخرى منتشرة على الرغم من أن القرآن قَيَّدَها وحَدَّدَ تطبيقها. وتَرِدُ في سورة النساء آية تتعلق بذلك يَسمَح فيها القرآن بتعدّد الزوجات في سياق العناية باليتامى بعد وفاة الزوجة. تَسمَح الآية بالزواج "مثنى وثلاث ورباع" وتُتابِع: "وإن خفتم ألا تعدلوا (بينهن) فواحدة"، وكذلك تَسمح للرجال بتَمَلُّك الرقيق من النساء[8].

يَرِدُ في الصحف كثيراً هذه الأيام ذِكرُ لِحَى المسلمين الكثيفة الطويلة، ويَظنُّ كثير منا أنها الرمز الصريح للإسلام. بعد الهجوم على بُرجَي مركز التجارة العالمية في نيويورك سنة 2001 مباشرة، اعتدتْ مجموعة مِن غوغاء الأمريكيين على هندي سيخِيّ (غير مسلم) لأنهم ظَنوا خَطأً أنه مسلم بسبب لحيته الطويلة وأنه مسؤول عن التفجيرات. ويَشتَكي كثير من أصحاب اللحى الطويلة "المشبوهة" هذه الأيام من استجوابهم المتكرر مِن قِبل الشرطة. إلا أنني عندما استَعرِض صور عائلتي في فترة الحرب الأهلية الأمريكية تُدهِشُني ملاحظة أن كثيراً من أجدادي ربما كانوا "مسلمين"! لا تُعتَبر اللحية الطويلة أمراً محَبَّذاً لدى الأمريكيين هذه الأيام، ولكنّ العهد القديم (سفر اللاويين 19:27، 21:5) أمَرَ المؤمنين به: "يجب ألا تُشَذِّبَ جوانب لحيتك". يبدو أن ذلك السيخِيّ المسكين وأجدادي المؤمنين كانوا أكثر تمسُّكاً بوصايا الكتاب المقدَّس منّا هذه الأيام.

قَضَى النبي محمد أكثر أيامه الأخيرة في شدِّ أَزرِ أتباعه وتَجميعِهم، ولا تَختَلف الأعمال الجماعية التي يَحضُّ عليها الدين الإسلامي عن مثيلاتها في المسيحية واليهودية، إلا أنها أكثر تكراراً وضخامة. ولعل أكثرها وضوحاً هو الحَج، حيث يجتمع أكثر من مليون مسلم من كافة أرجاء العالَم الإسلامي لكي يُصَلّوا ويَتعَبدوا معاً. ويجتمع المسلمون لكي يُصَلّوا جماعةً خمس مرات كل يوم. وربما ليس مِن المبالغة القول أن الصلاة من أهم أركان الإسلام.

بناءُ وتأسيسُ الأمة كان تَنفيذ محمد وأتباعه لما آمنوا به كرسالة من الله. يَتَّفِق الإسلام و"يُناسب" المجتمعات القَبَلية التي سيُقابلها أتباعهُ من المحيط الأطلسي إلى أطراف الصين. ولعل المجتمع المسلم نفسه قد صُبَّ كنوع من القبيلة بحيث تُعتَبر المبادئ التنظيمية الإسلامية (الأصول) بمثابة عادات وتقاليد الوحدات التي تُشكِّل هذه القبيلة (الأقوام)، ويُعتَبر أفراد الجماعة الدينية بمثابة الإخوة (الإخوان) ويَتصرفون على هذا الأساس، وقد وَجَدَتْهُ شعوب القبائل تنظيماً مألوفاً لهم.

كما وَجَدوا أن الإسلام يَسهل الدخول فيه فلا يحتاج التَّحول إليه سوى إلى تأكيد إيمانه بوحدانية الله وإنكار وجود أي إله آخر شريك له (الشرك)، والتأكيد على أن محمداً رسول الله وبذلك يصبح مقبولاً كواحد من الجماعة. يقول المؤمن: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". فيما عدا هذه العقيدة الأساسية كان الإسلام منفتحاً على تَنوع كبير وواسع. ففي خارج مُدن الخلافة الكبيرة، كان سكان الأرياف والمناطق البعيدة من الأفغان والملاويين والفلبينيين وغيرهم يَحتَفظون بنُظُمِ حياتهم التقليدية ويَخلطونها ويُنَقِّحونَها بما وصَلَهم من الإسلام. فمثلاً: تابَعَ البشتون الأفغان تطبيق أعرافهم "البشتونوالي" التي كانوا يُطبِّقونَها قَبلَ الإسلام وكذلك نظامهم القانوني "رافاج"، فلم تكن النساء تَرِثُ الأملاك ولا حتى من أزواجهن كما تقتضيه الشريعة الإسلامية، وكان الثأر (البَدَل في البشتونية) واجباً ولو كان مِن اخوته في الإسلام، على الرغم من أن ذلك مَنهِيٌّ عنه حصرياً في القرآن [النساء: 92-93]. أما عادات الزواج وأعراف الطعام وأنماط اللباس فقد تَنَوعَتْ كثيراً. تابَعَ

المَغول الذين اعتَنقوا الإسلام طاعتَهم للأعراف المغولية في "الياسا"، وفي الهند وسومطرة دُمِجَتْ طقوس هندوسية في الإسلام، بينما تابَعَ الأفارقة ممارسة طقوس معتقداتهم الطَوطَمية في إسلامهم.

ظَهَرَتْ عادات أخرى بسبب تغير الظروف، لعل أبرز الأمثلة على ذلك وأكثر ما يناقَش منها هذه الأيام هو حجاب المرأة. ربما لم يتم تطبيق الحجاب في زمن محمد، ولم يُذكَر أي تفصيل له في القرآن. تَأمُرُ الآية 31 مِن سورة النور النساءَ المؤمنات بتغطية صدورهن و"ألا يُبدِين زينتهن". كانت تغطية المرأة وجهها عادة مُتَّبَعَة عند بيزنطة المسيحية عندما غَزاها العرب، وربما نَقَلَتْ ذلك عن المسيحيين النساءُ العربيات الأحرار من الطبقات العليا. وكان ذلك عادياً لدى مسيحيات البرتغال في القرن السادس عشر، وفي الهند خلال القرون الوسطى كان الحجاب والاعتزال (البُرْدا) عادة تَتبَعها نساء الطبقات العليا، وربما استعارَها المسلمون من "الراجبوت" الهندوس[9]. وهكذا يبدو أن الحجاب، وهو أكثر عادات الإسلاميين السلفيين صرامة، ربما يكون في حقيقته تقليداً و"بدعة" غير شرعية لم تكن متَّبَعة في عدد من المجتمعات المسلمة، مثل سكان كازاخستان والطاجيك وقيرغيرستان في آسيا الوسطى، والملاويين وسكان جاوا في جنوب شرق آسيا، والكورد والإيرانيين وأغلب العرب في الشرق الأوسط، والعرب والبربر في شمال أفريقيا.

ينصُّ القرآن وتؤكِّدُ أفعال محمد في المدينة على أن الإسلام دين عالمي، فهو يضَعُ نظاماً مفصَّلاً للشريعة والقوانين وتنظيم المجتمع والسلوك القويم والتصَرُّف السليم. وهو نظام رسمي موثَّق وواضِح وليس فيه سوى قليل من الغموض والالتباس. قواعده العامة سهلة الفهم: عدم استغلال الناس بعضهم بعضاً وبالتالي مَنعُ الرِّبا، بل يُشجِع المسلمين على مساعدة بعضهم بعضاً ويَدفَعُ كل منهم ضريبةَ ضمانٍ اجتماعي (الزكاة)، وعلى الجميع أن يُطَبِّقَ الشريعة كما ينصُّ عليها القرآن أو تَدُلُّ عليها أعمال وأقوال الرسول (السنَّة). يُمنَع المسلمون من قتل بعضهم بعضاً لأنهم إخوة، ويجب عليهم أداء الحج حيث يجتمع المسلمون من كافة أرجاء العالم ليُظهِروا دينهم وإيمانهم وليُعَبِّروا عن وحدتهم ويَستمدوا القوة من بعضهم بعضاً. يحضُّ المسلمون على الجهاد في سبيل الله لكي يُنَفِّذوا أمرَ الله في إنشاء الأمَّة. تُشَكل هذ القواعد العامة "طريق الإسلام"، على الأقل من الناحية النظرية. ولكن هذه المبادئ العامة قد تمَّ تجاوزها ولمْ يَتم تطبيقها في أغلب الأحيان على مرِّ العصور وفي مساحة الامتداد الواسع للعالَم الإسلامي. كان ذلك أحد الأسباب المهمة التي أدَّتْ إلى ظُهور السلفيين والأصوليين الذين يَدعون للرجوع إلى النظام الإسلامي الأصلي كما سأُبَيِّن لاحقاً.

بالإضافة إلى وَضعِ النظام القانوني الأساسي لمجتمعه، كان على محمد أن يقوم بتنفيذ مهمة أخرى ضرورية: كان عليه أن يحمي مجتمَعه الناشئ من أهل مكة وحلفائهم من البدو الذين كانوا يُهَدِّدون بتدميرِه. وإذا لم يَنجَح في ضمان هذه الحماية فقد يُقضَى على مجتمعه الفتيّ الناشئ الصغير أو يتم حصاره وتَجويعِه. وبفضل عمله الناجح في التجارة لا ريب بأنه تعامَلَ مباشرة وعَرف أساليب التعامل في المجتمع العربي.

يوصَفُ المجتمع العربي عادة بأنه مجتمع "قَبَلي"، إلا أن القبائل كانت مبادئ مجرَّدة أكثر من كونها وحدات اجتماعية. فقد يُصَرِّح فرد ويَفخَر بأنه يَنتمي إلى إحدى القبائل، وقد قال لي البدو الذين عَبَرتُ معهم الصحراء العربية سنة 1970 أنهم من الدَّواسِر، إلا أن بني الدَّواسِر الذين يتجاوز

عددهم الآلاف نادراً ما اجتمعوا معاً، وربما لم يَعيشوا معاً أبداً، إذ يَندر وجود أماكن يوجَد فيها ما يكفي من الماء لمثل هذه الأعداد الكبيرة. فالقبيلة لم تكن أكثر مِن رمز مُجَرَّد "للأمَّة". وفي الواقع العملي للحياة اليومية لم تكن السيطرة على أقسامها ممكنة، ولم توجَد أية مؤسسة أو جهة يمكنها القيادة والسيطرة على كامل القبيلة، بل كانت تتألف من مجموعات صغيرة تربطها علاقات قرابة ويمكن أن نسميها "العشائر".

من المؤكد أن العشيرة كانت أول أشكال المجتمع، وقد وجِدَتْ عند الحيوانات "الاجتماعية" وتُمثِّل نموذج كل التجمعات البشرية المعروفة. على مدى مئات الآلاف من السنين كان أجدادنا رجال أو نساء عشائر، وعاشوا في مجموعات يَقِلُّ عددها في العادة عن المئة، وكانوا يقيمون المخيمات معاً، ويَتنَقلون معاً، ويَتشارَكون في صَيدهم وما يَجمَعونه من الثمار والماشية. كانت لديهم فكرة عامة عما يَعتَبرونه مَنطِقَتَهم، ولديهم النِّية والرَّغبة في المحافظة عليها وضَمان طريقهم إلى مَصدرٍ للماء مثل بئر أو نبع ماء. ويَنحدرون مِن سلالةِ أب واحد وزوجته أو زوجاته، وبذلك فَهُم إخوة أو أبناء عم. وتزداد هذه العلاقات الأساسية قوة بتزاوج رجال العشيرة مع نساء جيرانهم من أقاربهم، وقد يَنضَم إليهم أحياناً بعض المهاجرين من عشائر أخرى، ولا يُعتَبر مثل هؤلاء المهاجرين إخوة في بادئ الأمر، بل غرباء مَحمِيون (جيرة)، وكما سنرى لاحقاً، أصبَحتْ هذه العلاقة مهمة ومصيرية مع تطور المجتمع الإسلامي.

تَغيَّرت علاقات نظام العشائر مع استقرار المجتمعات البشرية، ولم يَحدُثْ ذلك بسرعة ولا بشكل كامل، فمَعَ تكَوّن القرى والمُدن حَمَلَ السكان معهم تركيباتهم وعلاقاتهم العشائرية، وقُسِّمَتْ كل مدينة أو قرية، مثل مكة والمدينة، إلى أحياء متجاورة تُحَدِّدُها علاقات القربى. عاش الأقارب معاً بشكل متجاور، وغالباً ما فَصَلَتْ جدران بينهم وبين الأقارب الأبعد عنهم. وعلى الرغم من وجود نوع من الإحساس العام بالمكان الجغرافي (القرية وما يجاورها)، إلا أنّ العلاقات العشائرية ظَلَّت مهمة في الحياة اليومية.

لعل أهم ما طَرأ مِن تغييرات في زمن محمد كان في طريقة حلّ النزاعات والخلافات، فلمْ تَعُدْ طريقة حلِّ النزاعات في حياة البداوة مناسبة لحياة الاستقرار. كان ذلك أحد أسباب دعوة محمد إلى المدينة: فقد كانت أحياؤها مُتَنازعة حول قضايا الماء والأرض وتَقاسُم مَنافِع المناطق المشتَرَكة. عندما يَصِلُ الخلاف بين البدو إلى درجة لا يمكن حَلَّهُ أو تَجاوزه، تَنفَصِم العشيرة ويَرحَل الفريق الأضعف أو يتم إبعاده. وربما يُفسِّر هذا التَّهجير القسري لماذا انتشَر أجدادنا وسَكَنوا أرجاء الأرض. إلا أنه في حياة الاستقرار يُصبِح التَّهجير القَسري مُكلِفاً ومُدَمِّراً لأنّ هَجرَ مَصدر الماء وأرضَ الزراعة يصبِح مُعادِلاً للانتحار، خاصة في المناطق الصحراوية والسهوب. ولذا فقد سَعى أهلُ المدينة للبحث عن رجلِ سلامٍ حكيم يَستطيع حَلَّ خلافاتهم قَبلَ أنْ تَستَفحِل وتؤدي إلى إفنائِهِم لبعضهم بعضاً وتدمير مساكنهم. كانت المدينة تمُرُّ بفترة انتقالية مرتَبكة حينما يكون التوتر مستَمراً في المجتمع بينما لم تؤسَّس طريقة أو نظام عملي لحلِّ الخلافات. فَتَحَ ذلك الارتباك الطريق أمام محمد لكي يُشكِّل أول مجتمع إسلامي.

ظَلَّت العشيرة هي الوحدة الأساسية في مجتمع البدو الرُّحَل. مَنَحَ هذا الواقع الاجتماعي محمداً الوسائل الكافية لتوسيع ونَشر المجتمع الإسلامي. إن معرفة ذلك هي أمرٌ ضروري لفهم

تاريخ الإسلام.

تُستَخدَم الكلمة العربية: "القوم" في التعبير عن "العشيرة". والقوم هم نظرياً جزء من قبيلة، وذلك مثلما قال لي رفاقي البدو أنهم من بني الدَّواسِر، في حين أن عشائرهم كانت مستقلة تَحكُمُ كلٌّ منها نفسَها بنفسِها وتَملكُ قطعانها وتَعرفُ أراضيها ونادراً ما تَجتَمع في السِّلم مع القبيلة فيما عدا لمناسبات الزواج وبعض الأعياد، ولم تَخضَع لأي قانون عام أو سلطة مركزية. وتُشَكِّلُ بالضرورة نوعاً من الوحدة القتالية العشائرية. كان عليها أن تُدافِع عن قطعان ماشيتها ومَصدر مائها وقطعة الأرض التي يمكن أن تزرعها أحياناً إذا نزل المطر. وإذا لمْ تَضمَن ذلك فقد يَقضي عليها الجوع. اعتَمَد أمنُها أساساً على "الثأر"، فأي شخص يَعتدي على أي "واحد منا" يجب أن يعرف أننا "معاً" سنَنتَقِم منه أو من أحد أقاربه. ولكي يَنجَح هذا النظام اعتَمَد على استراتيجيةٍ تشبه الاستراتيجية التي اتَّبَعتْها الولايات المتحدة الأمريكية أثناء الحرب الباردة: "الدَّمار المؤكَّد المَتَبادَل". وتُعتَبر كلمة "المؤكَّد" حَجَرَ الأساس في هذه الاستراتيجية. تمَّ توجيه جميع الاتجاهات الثقافية والتربوية لترسيخ فكرة الانتقام المؤكَّد بحيث أن عدم الانتقام لم يكن عيباً اجتماعياً وحسب، بل كان خزياً وعاراً، وليس من المبالغة القول إن كان عملاً غير "وطني". يُعتَبر جُبنُ وتَكاسُلُ أو فَشَلُ أحد أفراد العشيرة في أخذ الثأر خطراً على كامل العشيرة. ولذا شكَّل الخوف من العار وقوة الولاء للعشيرة دافعاً لكل فرد منها للأخذ بالثأر. الشعور بالولاء كان بمثابة "الوطنية"، وبالفعل فقد استُخدِمَت الكلمة التي تُعَبِّرُ عن الولاء للقوم: "القومية" كاصطلاح معاصر للتعبير عن الانتماء العرقي القومي. وسأُشير إلى ذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

كانت الحروب منتَشِرة بين العشائر كالوباء، ليس فقط بين العرب بل لدى المجتمعات المماثلة. دعوني أرسم صورة مشابهة لكي أوضّح هاتين النقطتين الأساسيتين: كيف تَحلُّ المجتمعات خلافاتها المحلية وكيف تَحمي نفسَها مِنَ الغرباء. كان التناسب حَرِجَاً ودقيقاً بين الموارد وعدد السكان في المُدن الإغريقية مثلما كان الحال عند البدو العرب. عندما يَزيد عدد السكان عن طاقة الموارد المُتاحة، يزداد التوتر وتَظهَر الخلافات الاجتماعية والسياسية وتُهَدّدُ بدمار المجتمع ولا بد من حلها. وعادة ما يَتَطَلَّبُ الحَلُّ طَردَ وتَهجيرَ الفريق الأضعف. وهذا ما يُفسِّر انتشار المستوطنات الإغريقية في مناطق البحر الأبيض المتوسط، مثلما كانت الأحوال في شبه الجزيرة العربية. هذه هي النقطة الأولى.

النقطة الثانية في المقارنة هي العلاقة بين العشائر البدوية أو بين المدن الإغريقية. لا يمكن أن تتَّحد العشائر أو المدن التي تَعتَبر بعضها بعضاً أعداء في الواقع أو مشروع أعداء في المستقبل. وبينما كانت العشائر والمدن الإغريقية مجتمعات حربية كرَّسَتْ كثيراً من جهدها للقتال والحروب، إلا أن الحصيلة العامة لطاقتها العسكرية المجتمعة كانت ضائعة في القتال المتبادَل فيما بينها. لم تَنجَح المدن الإغريقية في الاتحاد لصد الغزو الروماني، وكذلك كانت الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الساسانية الإيرانية تنجحان غالباً في السيطرة على العشائر العربية قروناً عديدة. وفجأة استطاع البدو العرب في منتصف القرن السابع أن ينتصروا على القوتين العظيمتين معاً. ونجَحوا في ذلك بفضل السياسة العسكرية الثورية التي قام بها محمد.

حدَثَتْ مثل هذه الثورات لدى شعوب عشائرية أخرى ولكنها كانت نادرة لأنه من الصعب على العشائر أن تتَّحد عادة لأن جميع عاداتهم وتقاليدهم وضرورات معيشتهم توجِّههم نحو القتال وضد الوحدة. ويَندر أن يَتَغلبوا على الصراعات الداخلية فيما بينهم، ولكن عندما ينجحون في ذلك تكون النتائج مُبهِرة. اتحاد القبائل أدى إلى النمو السريع لإمبراطورية جنكيزخان المَغولية، وتأسيس امبراطورية الموحدين البربرية في العصور الوسطى في منطقة المغرب العربي، وامبراطورية الكومانشي في القرن التاسع عشر في جنوب غرب أمريكا. وفي شبه جزيرة العرب قدّمَ محمد طريقة ناجحة لتوحيد العشائر البدوية.

كانت الاستراتيجية التي قدَّمَها محمد مُتوافِقة مع القَبَلية ومع الدين الجديد الذي أعلَنه. كان فيها جانبان، فمن ناحية تَعامَلَ مع المجموعة الصغيرة من أتباعه ونواة مجتمعه (الأمّة) كنوع من "القوم"، إلا أن الرابط بين عناصرها كان الدين الجديد وليس قرابة الدَّم. وانتقلت جميع سمات القوم إلى الأمّة. اعتَبر أفراد "القوم الديني" أنفسَهم إخوة (إخوان) يدافِع كل منهم عن الآخر ويتقاسَم ثروته مع الآخرين ويعيش وفق الطريقة نفسها ويَخضَعون لنظام اجتماعي واحد ولا يَقتلون بعضَهم بعضاً. وبينما كان الطَّرد والتَّهجير الطريقة الوحيدة لحل النزاعات الصَعبة من قَبل، غَيَّرَ محمد ذلك بحيث أمكَنَ أن تتآلف العشائر وتتعايَش بسلام كفرقاء في أمة الإسلام. أصبَحَت الأخوَّة هي الرابط الاجتماعي في الإسلام على الرغم من أنها لم تتحَقَّق دائماً بالطبع في كل الأحوال. نَتَجَ عن فكرة الأخوَّة وانفتاح الدين على إمكانية الانضمام إليه نموٌ هائلٌ وسريع للمجتمع المسلم استمر على مدى القرون وتَحَوَّل إلى الإسلام مئات الملايين من الوثنيين واليهود والمسيحيين والهندوس.

الجانب الثاني من استراتيجية محمد هو أنه جَعَلَ الانضِمام إلى جماعة الاسلام سهلاً ومنفتحاً للجميع. وعندما ازدادت الجماعة تَعداداً وقوة انتشَرتْ في شبه الجزيرة العربية انتشار النار في الهشيم: فمثلاً عندما تحوَّلَتْ عشيرة ما أو أُجبِرتْ على التَّحول إلى الإسلام، ازداد وزن وقوة الجماعة الاسلامية وحُصِرتْ عشيرة أخرى بين المسلمين المتَقَدمين نحوها وأعدائها التقليديين من حولها، فلم يكن أمامها اختيارات كثيرة، ولم تكن تَعرف كيف تتحالَف مع أعدائها التقليديين من العشائر المجاورة لقتال المسلمين، في حين أن المسلمين عَرَضوا عليها فرصة الانضمام إليهم: فإما أن تَنضَمّ أو تُسحَق. انتشَرَ الاسلام عبر شبه الجزيرة العربية مع خضوع واستلام العشائر والقبائل واحدة تلو الأخرى، وفي الحقيقة فإن المعنى الأساسي "للمسلم" هو الشخص الذي "يَخضَع ويُسَلِّم".

في القرن السابع بمنطقة شبه جزيرة العرب تَحوَّلَت المجتمعات التي كانت مُتحاربة ومُتصارعة إلى جيشٍ مُوَحَّد سرعان ما تَغلَّب على القوى العظمى في عصره. ومع التَّحفظ في التشبيه، يمكننا أن نرى عناصر من هذه الاستراتيجية هذه الأيام في علاقة المتمردين الإسلاميين المتعصبين، مثل الدولة الإسلامية (داعش) بالمجتمعات التي تُصادِفُها.

الفصل الثالث

الخُلَفاء والفتوحات

يَعتقد المسلمون بأن شريعة الله وأوامره قد تمَّ تنفيذها بنجاح في عصر محمد، ويَعتبر المؤمنون أن قيادته للمجتمع المسلم الأصلي كانت عصراً ذهبياً تَجلَّتْ فيه إرادة الله وطُبِّقتْ أوامره بشكل حقيقي صحيح. كان من الممكن أن تُفضي وفاته سنة 632 إلى نهاية المجتمع الوليد ونهاية التعبير الأرضي عن إرادة الله. وفي الحقيقة كانت وفاته صدمة قوية لدرجة أن بعض أتباعه لم يُصَدِّقها.

لم يَتردَّد رجالُ القبائل كثيراً بل اختاروا السلامة وأصبَحوا "مسلمين"، إلا أنهم لم يُصبِحوا "مؤمنين"، ويبدو أنهم اعتَبروا علاقتهم بالجماعة المسلمة علاقة شخصية وولاءً لمحمد "فارتَدّوا على أعقابهم" بعد وفاته. أصبَحَت امبراطورية محمد مهددة بالزوال كسرابٍ في هجير الصحراء.

أدركَ أقرَب أتباع محمد أن عليهم التصرف بسرعة فاجتَمعوا فيما يبدو أنه كان اجتماعاً سريعاً يائساً وقَرَّروا أن يَجعَلوا واحداً منهم "مُتابِعاً" وهو المعنى الأساسي لكلمة "خليفة" أو "أميراً للمؤمنين". واختاروا الرجل الذي كان يَؤمُّ الناس في الصلاة أحياناً، الرجل الذي يَقف أمام الناس في الصلاة (الإمام). كان الإمام الجديد أبو بكر وهو والد زوجة محمد، ولم يتَمتَّع بأية صلة خاصة بالله، بل كانت وظيفتُه تسيير أمور المجتمع، فأصبح ما يُسميه رجالُ أعمال هذه الأيام: الرئيس التنفيذي. كان عليه أن يُتابِع تنفيذ الأوامر والشرائع التي نَقَلَها محمد عن الله كما يَعتقدون. لم يكن دوره أن يَبتَكر أو يُصلِح، بل أن يُطبِّق ما كان قد تم تَبليغه وإعلانه.

كانت أولى مَهام أبو بكر أن يَستعيد رجال القبائل الذين ارتَدُّوا، ولكي يُحَقق ذلك أطلَقَ في شبه الجزيرة العربية حرباً لم تَعرِف مِثلَ شِدَّتِها. وبحكمة بالغة تابَعَ ما كان محمد قد أسسه من قَبل، فقد وجَّهَ طاقات ورغبات رجال القبائل نحو أكثر ما يحبه البدو تقليدياً: الغزو. فاتَّجهوا نحو الشمال عبر صحراء النفود ضد ولاية سورية التابعة للامبراطورية البيزنطية، ونحو مناطق دجلة والفرات التابعة للامبراطورية الساسانية الإيرانية. كان من النتائج غير المقصودة لهذه السياسة في تَغيير اتجاه اهتمام القبائل أنها أطلَقَت بوادر الفتوحات الكبيرة التي وصَلَت بالمسلمين المحاربين إلى أطراف الصين وأواسط فرنسا، وما كان في بدايته حرباً قبلية استَمرَّ كمبدأ أساسي في السياسة الخارجية للدولة الإسلامية على مدى القرنين التاليين، وأنشأ امبراطوريتها الواسعة التي امتدَّتْ في

أفريقيا وآسيا. كتَبَ المؤرخ الكبير ابن خلدون فيما بَعد عن المسلمين الأوائل أنهم: "استداروا بوجوههم نحو اتجاه واحد" مما أوقَفَ صراعاتهم وانقساماتهم مؤقتاً على الأقل.

لم تَستَمر "إمامة" أبو بكر للدولة المُسلِمة الفَتية أكثر من سنتين، إلا أنه خَلَقَ خلالها تَغييراً ثورياً على نطاق واسع. وقد كانت مَهامه هائلة وصعبة في تنظيم وحكم الامبراطورية الفتية وتوزيع غنائم الفتح والمحافظة على جيوش القبائل بحيث لا تَتمزق الامبراطورية ومتابعة نَشر وتنفيذ أوامر الله كما أعلَنها محمد في الوقت نفسه. وعندما توفي كان قد بدأ في تحقيق ذلك، إلا أن مبدأ "الخليفة" كان قد ثَبُتَ، وأصبح من السهل تَعيين فرد آخر من الدائرة المُقَرَبَّة من محمد، وكان عمر هو الخليفة الثاني.

كان عمر بمثابة نائب الخليفة في عهد أبو بكر، وأحكَمَ سيطرته على أرجاء المجتمع الفَتيّ النامي وأعطَى صورة موحَّدَة مُتصالِحة. وأعلَن في خطاب استلامه للخلافة سنة 634، مثلما صَرَّحَ أبو بكر البغدادي قائد الدولة الإسلامية (داعش) نقلاً عنه هذه الأيام: "سأهتَدي بالقرآن العظيم وبسنَّة رسوله الكريم وما فَعَلَهُ أبو بكر، فإن أَحسَنتُ فأعينوني، وإن أسَأتُ فقَوِّموني حتى لا نضِّل ونضيع".

وليس من الحكمة في زمن عمر ولا في أيامنا هذه أن نَقبَلَ هذه الدعوة.

بالنسبة للناظر إليها مِن خارجها، يَظهَر أنّ الدولة الإسلامية في زمن عمر قد حقَّقَت انتصارات عسكرية باهرة غير مسبوقة، إلا أنها جاءتْ في فترة حدَثَ فيها تَغيُّر مناخي: بداية الفترة الدافئة في العصور الوسطى. وقد أحالَت المناطقَ المَسكونةَ في شبه الجزيرة العربية إلى صحراء قاحلة وجَفَّتْ فيها آبار الواحات وعَمَّ فيها الجوع خلال تلك الفترة من الانتصارات العسكرية المَجيدة، وما تلَى ذلك كان أسوأ فقد هجم وباء الطاعون بعد المجاعة، مثلما حدَثَ في أوروبا خلال العصور الوسطى، وتوفي آلاف من سكان مُدن سورية البيزنطية ومُقاتلي القبائل العربية الغَازِية وأشرَفَت الدولة الإسلامية على الانهيار بعد أربع سنوات مِن حكم عمر، واعتَبر المسلمون بقاءها واستمرارها دليلاً على قبول الله ورضاه.

امتَدَّت الدولة الإسلامية شرقاً عبر إيران إلى أفغانستان، وغرباً على طول البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، وخلَقَ امتدادُها وتَقدُّمها تحديات كبيرة وفرصاً عظيمة. فبالنسبة للمؤمنين كانت المحافظة على تماسك المجتمع باتِّباع الرسالة التي بلَّغها محمد تحدياً كبيراً، فقد كانوا نوعاً مهدَّداً بالانقراض والزوال. وبعد عقد واحد من وفاة محمد توفي كثير من عُصبته الصغيرة نتيجة المرض أو الاستشهاد في حروب الفتح. كانوا فئة المؤمنين الصادقين والمهاجِمين الانتحاريين الذين يسعى الفدائيون هذه الأيام للاقتداء بهم. وكان تَذكُّر رسائل الله وأحاديثُ محمد وتصرفاته (التي تشكِّل سنَّتَه والعَقد الاجتماعي وشَريعَته) مهمة ضخمة وضرورية للمحافظة على المجتمع، فقرَّرَ أغلب المُقربين من أصحاب محمد أن يكرِّسوا حياتهم كلها من أجل حِفظ وتوثيق الرسالة.

لم يكن تحقيق هذه المهام سهلاً، فقد كان أغلب أفراد المجتمع أُميين ولم يَتعلَّموا مواجهة مهمةٍ صعبة تتَطلَّب حفظ وتَذكُّر الأفعال والتصرفات الجماعية، وقليل منا من يستطيع ذلك! اكتَشفوا سريعاً صعوبة وضخامة هذه المهمة. ربما ساعدهم حفظهم الجيد للشِّعر الجاهلي على التَّمتع بذاكرة قوية، ونحن نَعلَم من دراسة مجتمعات أُميَّة أخرى أن الذين حفظوا الأساطير وقصص الأبطال عن

ظهر قلب قد حافظوا على بقاء قصائد طويلة عظيمة على مدى القرون، فهكذا وصَلَتْ إلينا قصص هوميروس وكُتُبَ الفيدا والأفيستا. ويحِقُّ لنا أن نشك بوجود إضافات على الإلياذة والأوديسة على الأقل، ووجود تصليحات وتَنقيح فيها، وربما فُقِدتْ أجزاء منها حينما نَقَلَها الرواة. وفي الشِّعر العربي، ربما ساعَدَ الوزنُ الدقيق وانضباطُ القافية الرواةَ على حفظ النصّ كما أنشَدَهُ الشعراء الأصليون، ولكن ما نقرأ هذه الأيام لا بد من أنه يَشمل مزيجاً بين ما أنشَده الشعراء وما أضافَه الرواة بعدهم وما حذفوه.

إلا أن الناس العاديين ليسوا رواة محترفين للمعارف والثقافة، حتى لو كانوا يجيدون رواية الشعر، إلا أن قليلاً من أحاديث محمد كان منضبطاً بنمَطٍ من الوزن والقافية. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الحاجة إلى توثيقها وروايتها بدقةٍ أكبرُ من الحاجة إلى رواية أشعار القبائل. أعلَنَ محمدٌ وآمَنَ أتباعُهُ بأن كل حديثٍ من أحاديثِه كان رسالةً مِنَ الله لا يُمكِن تَغييرها، وكان على رواة أحاديث محمد من "الحافظين" أن يكونوا دقيقين، لأن ما حفظوه يَفصِلُ بين ما هو قانوني (شرعي) وما هو غير قانوني، وقد يُقَرِّرُ نصُّ الكلماتِ الفرقَ بين العفو والعقاب، بل وحتى ما بين الحياة والموت. لم يكن الغموض مقبولاً، إلا أنه أمرٌ مُتأصِّلٌ كامِنٌ في عملية التَّذَكُّر، وما يَتَذكَّره امرؤ قد يَختلِفُ عمّا يؤكِّد شخصٌ آخر أنه سَمِعَهُ وشاهده. ومهما حاول الرواة جاهدين أن يَتذكَّروا جيداً، فلا بد من وجود بعض الهفوات، خاصة وأن قليلاً من الأحاديث كان قد تم تَدوينها.

حسبما عُرف من التراث، لم يكن هنالك سوى بعض الملاحظات والأحاديث التي تمَّت كتابتها على "رقاق من الجلد والخشب والعظام"، وكانت الكتابة العربية حينها بدائية[10]. يمكن تشبيه الكتابة العربية آنذاك بطريقة كتابة النوتة الموسيقية في العصور الوسطى: نوع من الاختزال يساعِدُ القارئ على تَذكُّر ما كان يَعرفه من قبل. لم يكن في الكتابة العربية آنذاك تَنقيطٌ ولا إشارات تَشكيلِ الحركات والحروف الصوتية (حروف العلة)، ولأن اللغة العربية تُمَيِّزُ بين بعض الحروف بحَسَب عدد ووضعية النقاط فيها، لم يكن مُتاحاً في الكتابة آنذاك التَّمييز بدقةٍ بين حروفٍ مثل: ب، ت، ث، ن... ولم تُغَطَّ هذه الثَّغرة في الكتابة العربية إلا بعد قرنين من الزمن. وهكذا كانت الكتابة الموجودة على رقائق الجلد والخشب والعظام طريقة لمساعدة الذاكرة أكثر من كونها نصاً مكتوباً.

أدى وجود الهفوات في الذاكرة وقصور الكتابة العربية آنذاك إلى ظهور قراءات متعددة. حاول جامعو القرآن في بادئ الأمر المحافظة على جميع هذه القراءات المختلفة لأنهم خافوا ضَياع الكلمات المُحَدِّدَة لأوامر الله. إلا أن ذلك أدى إلى بعض الارتباك الذي بدا خطيراً على النظام العام. ولذلك اتَّفَقَ المؤمنون على نَصٍّ واحد خلال فترة حكم الخليفة عثمان. كُتِبَتْ عدة نسخ متماثلة منه، إلا أنها كُتِبَتْ بطريقةِ كتابةِ المَناطق المُختلفة في الامبراطورية الجديدة، واستَلَمَ كل مَركز رئيسي نسخة من النظام القانوني الذي يَجب تَطبيقه.

لا شك بأن عثمان قد ظَنَّ بأنه قد حَلَّ مشكلة غموضٍ واختلاف النَّص التي كانت قد بدأت في الظهور، إلا أنّ ذلك النَّص القانوني لم يُنهِ العملية: على الرغم من عملية التطهير والانتقاء، ظَلَّتْ بعض القراءات المختلفة موجودةً، وخَضَعَتْ بعد ذلك لدراسات مستَفيضة قام بها العلماء والفقهاء[11]. كثيراً ما نَجد في كُتُبِ تفسير القرآن "إلا أن فلاناً وفلاناً يقرؤونها بشكلٍ مختلف...". وفي النهاية، تم

اعتماد عدة قراءات واعتبارها "القراءات الصحيحة". يَضمُّ النَّص الصحيح المُعتَمد حوالي 6000 آية تُشكِّلُ في مجموعها القرآنَ كما نَعرفه الآن.

يُدرِكُ حتى أكثر التقليديين المُتعَصبين وجودَ آياتٍ مُتعارِضة ومُتَناقِضة. وقد شَغَلَتْ محاولاتُ تحقيق التلاؤم، أو تأسيسُ الأولويات في هذه الآيات المتشابِهات، معظَمَ جهود العلماء والفقهاء على مرّ العصور. وقد لاحَظَ المسلمون سريعاً الحاجة الضرورية إلى شرحِ وتوضيحِ وتفسيرِ القرآن، وكانت الطريقة الوحيدة لفِعلِ ذلك هي اللجوء إلى ما قالَه وما فَعلَه محمد. تُسمى هذه الأفعال والأقوال: "السنّة" أو "الأحاديث".

كانت الأحاديث بالطبع أَقلّ رسمِيَّةً من القرآن، ولكن بما أن محمد قد اعتُبر على خُلُقٍ قويم وأنه رسول مُوَجَّهٌ مِن الله، فلا بد أنَّ كلَّ مَن كان معه في المدينة قد تابَعَ أفعالَهُ وسَمِعَ كل كلمة مِن أقواله بدقة. وكان "تَذكُّر" ما قالَه أو فَعَلَهُ أمراً مرغوباً ومحبَّباً: فبذلك يستطيع المرء أن يؤكِّدَ على قُربِهِ مِنْ رسول الله: "قال لي النبي.." كما يمكن أن تكون كلمة حاسمة في أي حوار أو نقاش: "لمْ أفعَلْ سوى ما فَعلَهُ النبي عندما..". كان لدى كل واحد دافعٌ لتَذَكُّرِ السنّة، وكانت النتيجة نُمُو وتَضخُّم إضافاتٍ كثيرةٍ وملاحقَ واسعةً. بل ونَسَبَت الأجيال اللاحقة إلى محمد "نصوصاً مسيحية وأقوالَ الحواريين وأقوالاً مشكوكا في صِحَّتِها وإسرائيلياتٍ يهوديةٍ وتعاليم فلاسفة الإغريق... مما لاقَتْ استحساناً في بعض دوائر المسلمين. لم يكن لديهم أي تردد في إعلاء شأن النبي... وإعلان تعاليم ومبادئ جديدة"[12]. أصبحَ تصنيف وتَحقيق الأحاديث علماً قانونياً وشرعياً هاماً في القرون التالية كما سنرى.

بَذَلَ المُقَرَّبون مِن أصحاب محمد أنفسَهم في سبيل جَمعِ آيات القرآن وتوثيق أحاديثه وأعماله، على الرغم من أن ذلك لم يكن صحيحاً أو محايِداً في كل الأوقات، إلا أن بقية أعيان قريش وأبناءهم لم يَتبَعوا روح تلك الأعمال الرائدة.

سارَعَ أعيانُ قريش وأبناؤهم إلى حصد الثروات العظيمة في المناطق التي تم فَتحُها. كان الكبار في السن منهم، على الرغم من مهاراتهم، قد عملوا من قَبل في مجالٍ صغير نسبياً، بينما مَنَحَتهم الفتوحات فرصةً لجمعِ ثروات أكبر من كل ما تَخَيلوه في أحلامهم، وقَرَّروا استغلالَ هذه الفرصة. لا توضِحُ مصادرنا تفصيلات واضحة عن نشاطاتهم، ولكن يبدو أنهم قد خَلَقوا نظاماً هائلاً من الاستغلال الاقتصادي صَنَعَ بعض العلاقات للنظام الامبراطوري الذي نَشَأ فيما بعد. وركَّزوا جهودهم على امتلاك أراض واسعة في سورية والعراق وإيران وخراسان.

على الرغم من أننا لا نَعرف كثيراً عن العلاقات السياسية الداخلية في ذلك الوقت، ولكن يبدو أن تجار مكة قد عرفوا أن الخليفة عثمان الذي جاء بعد عمر لن يَمنعهم ولن يُعيق جهودهم في تحصيل الثروة والسلطة، فعلى الرغم من أنه كان قريباً بالمصاهرة من محمد وكان واحداً من أوائل أتباعه، إلا أنه كان مرشَّحَ تسوية وتوقَّعَ الأقوياء من دائرة السلطة العليا الصغيرة أنه سيرضَخُ لمطالبهم وأهدافهم. وبالفعل فقد خَدَمَ أقرباءه من أعيان قريش أكثر مما خَدَمَ الفئة الصغيرة من

المؤمنين الحقيقيين. وبينما التزم المؤمنون الحقيقيون بيوتهم وموطنهم، اتَّجَهَ التجار والمغامرون إلى المناطق الجديدة التي تمَّ فتحُها.

قابَلَ المسلمون أناساً من ثقافات مختلفة عندما انتشَر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية. حاولَ الخليفة والولاة أن يُحافظوا على العرب في عزلة بعيداً عن الآخرين خوفاً من أن تَختَلِطَ جيوشهم وتَذوب مع السكان الأصليين. ولكي يَمنعوا ذلك، أسسوا مستوطنات وأمصاراً مثلما فَعَلَت الامبراطوريات بعدهم. إلا أن السكان الأصليين سرعان ما تَغلغَلوا إلى البصرة والكوفة وقُم، مثلما فَعَلَ الهنود والعرب والترك وأهل بالي وسومطرة عندما انحَدَروا إلى المراكز التجارية وحصون ومستعمرات المستوطنين والامبرياليين الأوروبيين[13].

لم يكن من السهل مَنعهم من دخول المستعمرات وما أحاط بها من مناطق عشوائية، فقد كانت الدوافع قوية. وَجَدَ فيها فقراء المدن والمهاجرون فرصَاً للعمل، لأن الغزاة العرب افتقدوا مهارات الحياة المستقرة وكانت لديهم الثروة لاستئجار الخَدَم والعمال. لم تتم معاملة المساعدين والخَدَم كمواطنين في الامبراطوريات البيزنطية والساسانية، وكانت حرياتهم وحقوقهم مَحدودة وثرواتهم ضئيلة. وكما تَعَلَّمنا في عصورنا الحالية، تَنجَذِبُ الشعوب المنهزمة إلى المنتصرين ويسعون إلى تقليد أساليب حياتهم. إلا أن كثيراً منهم وَجَدوا أن التأقلم مع الإسلام لم يُحَسِّن أحوالهم كثيراً، وعلى الرغم من أنهم قد انجَذبوا إلى ما اكتشَفوه في الدين الجديد، إلا أنهم استاؤوا من حَصرية الفَهم العربي للإسلام. فقد تمَّ قَبولهم في المجتمع الإسلامي بصفتهم من "المَوالي"، أو ما يمكن أن نسميه هذه الأيام بالمواطنين من الدرجة الثانية. تَشبِهُ هذه الحالة وَضْعَ "الأجنبي المَحمِيّ" أو "المُجَار" في العشائر البدوية. إلا أن كونَهم أجانب، مَحميين أو غير ذلك، حَمَلَ مَعنى جديداً في المجتمع الديني، فعندما تحَوَّل غيرُ العرب إلى الإسلام وَجَدوا أنّ طريقهم مقفلة. فقد كان الإسلام ديناً عربياً حسبما طَبَّقَه حكّامهم العرب. ولذلك عندما بَدؤوا إعلان هويتهم كمسلمين غَيرَ عرب، كان لا بد من أن يُدخِلوا معهم في هذه الهوية الجديدة كثيراً من تقاليدهم وثقافتهم غير الإسلامية.

يُرجِع كثير من المؤرخين انفتاح الإسلام على غَيرِ العرب إلى الأحداث التي تلتْ مَقتَلَ الخليفة الثالث عثمان. سأوضّح وجهة النظر التقليدية، ثم سأقتَرحُ تفسيراً أكثر دقة.

ارتكبَ الخليفة عثمان خلال حكمه الخطيئةَ المتكررةَ التي يرتَكِبها الحكّام: المحسوبية. فقد فَضَّلَ أقاربه مِنْ قريش الواحد تِلو الآخر، بمن فيهم أولئك الذين طَردوا محمداً إلى خارج مكة، وسَلَّمَهم مراكز قوية ومربِحة. لم يستطع أن يرضيهم جميعاً، فقَتَلَهُ بعض الانتهازيون الذين خابَتْ آمالهم فيه.

فَتَحَ مَقتلُ عثمان نافذةً جديدة في الدولة الإسلامية، فعلى الرغم من كونها قوية في الخارج، إلا أنها كانت ضعيفة في مركزها. ويبدو أن كل من استطاعوا الخروج قد فعلوا ذلك، ولم يكن هنالك أي حرس أو شرطة في المدينة. استطاعَت العُصبة الصغيرة التي قَتَلَتْ عثمان البقاءَ في منزلِهِ عدة أيام قَبلَ أن يتم طَردهم، ولم يَفعَل أصحابُ عثمان أي شيء لإنقاذِه، ولا حتى منافِسُهُ المُفتَرضُ علي، الذي كان أكبر من بقي على قيد الحياة من أقارب محمد.

لامَ أقاربُ عثمان عليّاً بسبب مَقتَلِ قَريبِهم وطالَبوا بالثأر، خاصة معاوية، الرجل الذي مَنَحَهُ عثمان الولاية القوية المهمة في منطقة شرق المتوسط. كان معاوية في موقف قوي ومعه جيش قَبَلي مُتَمركِزٌ حول دمشق، بينما كان عليّ يعيش في المدينة التي كانت قد ضَعفت كثيراً ولم يكن تحت تصرفه أي قوات قَبَلية. وزاد الأمر سوءاً اتهام بعض المؤمنين الأصليين عليّاً بالتواطؤ في الجريمة. إلا أن مؤهلاته للخلافة لم تكن موضع شك: فقد كان صهر محمد ووالد حفيدين من أحفاده، الحسن والحسين. تم إعلان عليّ خليفةً على الرغم من الاعتراضات. وكان عليه أن يُغادِر المدينة هو أيضاً لكي يُقَوّي مَوقِفَه. وبما أن معاوية كان مُسيطِراً على سورية، فقد اتَّجَهَ عليّ إلى العراق لكي يَجمَع جيشاً مِنْ رجال القبائل العربية الذين هاجروا إلى تلك المناطق قَبلَ ذلك بعشرين سنة. كان هؤلاء الرجال قد تَغَيَّروا كثيراً في حياتهم الجديدة، ولم يكن لدى عليّ ما يقدّمه لهم. فلم يَتمَكَّن من كَسْبِ ولائهم ولا من إخضاعِ معارِضِيه. بعد سنتين من خلافته المضطربة قَتَلَتْهُ ضربةُ قاتلٍ مثلما قُتِلَ عثمان.

وهكذا انتهَت الفترة التي يَعتَبرها المسلمون عصر الخلفاء "الراشدين" الأربعة. تُشكِّل هذه الفترة، بالإضافة إلى العَقد الذي حَكَم فيه محمد في المدينة، فترةَ الأربعين سنة من الإسلام الشرعي التي يَسعى الإسلاميون الأصوليون المعاصرون لاسترجاعها هذه الأيام.

اجتمَعَ شَملُ المجتمع الإسلامي من جديد سنة 661 في الخلافة الأموية التي كانت في الحقيقة امبراطوريةً مدنيةً تحت حكم معاوية المدافِع عن ثأر عثمان. امتَدَّت الخلافة إلى أعظم توسعها في ظِلِّ الأمويين من حدود الصين إلى أواسط فرنسا، إلا أن ذلك النجاح نفسه أدى كذلك إلى الثورة التي ستُمزق الإسلام تمزيقاً لم يَتَوحَّد بَعدَهُ أبداً.

بدأت الثورة في المَشرق حوالي سنة 740، وانطَلَقَتْ من خُراسان لتَنتشِر عبر العراق وسورية، مثلما انطَلَقَت الدولة الإسلامية (داعش) في أيامنا، وانخَرَطَ فيها متَعصِّبون من أمم كثيرة سَاروا تحت راية سوداء. تم تَجنيدهم وقيادتهم من طَرَفِ رجُلٍ غامض اسمه "أبو مُسْلِم". لا يُعرَفُ شيء موثوقٌ عنه، لا عن أصله ولا لغته ولا اسمه الحقيقي، إلا أنه كان دون أي شك أحَدَ أهم الثوريين الاستثنائيين في التاريخ. فقد انطلق للقضاء على الخلافة الأموية التي كانت أعظَمَ الدول في عصره دون أن يكون لديه أية مصادر من القوة القَبَلية أو الثروة أو الرعاية. ألهَمَهُ الإيمان بأن العالَم كان قريباً من آخر الأيام حين سيأتي "المَهدي" الذي سيَرجِعُ إلى الأرض للحكم على البشر ويَقهَرُ جيشُه كل شيء أمامه. لم يَعرِف الأمويون مَن هؤلاء الناس ومِن أين جاؤوا وماذا يريدون. كان موقفهم ذلك يشبه موقف الحكومات من الدولة الإسلامية (داعش) هذه الأيام. إلا أنهم أطلَقوا أحد أهم التطورات في القضايا الإسلامية.

كما ذكرتُ سابقاً فلديَّ تفسيرٌ مختلفٌ للقوى التي حَرَّكَها أبو مسلم. دعوني أوضح:

كانت إحدى نتائج اندفاع الجيوش البدوية في بداية الخلافة هي أنهم أثاروا سكان الامبراطورية الساسانية، ولا بد من أن أثرياءهم على الأقل الذين ورثوا حضارة متقدمة وثقافة متطورة قد اعتَبروا أن البدو الغُزاة برابرة، وربما كانت مشاعرهم مشابهة لمشاعر أهل روما الأوروبيين المستَقِّرين تجاه غزو الفندال والقبائل الجرمانية الأخرى. فقد كان رجالُ القبائل القادمون

جُفاةً، إلا أنهم كانوا مسلحين، فحاول السكان الأصليون استيعابهم والتأقلم مع وجودهم وتَبَنّوا كثيراً من طرق وأساليب حياة الغزاة، ولكن ليس كلها. فقد جَلَبَ الإيرانيون القادمون إلى الأمصار الجديدة عناصر من ديانتهم الزَرادَشتية القديمة، وعندما اختلطوا بالعرب تَحَوَلُّوا ظاهرياً على الأقل إلى دين المنتَصرين عليهم، وربما فَعَلوا ذلك لأنهم كمسلمين دَفَعوا ضرائب أقل، وشَعَروا بأمان أكثر، ووَجَدوا أن الحصول على العمل أسهل وأيسر. وربما أَلهَمَ الإسلام أكثرهم. إلا أن المُنتَصرين أعلَنوا أنهم لم يَقبَلوهم تماماً كإخوة عرب مسلمين. لن نَعرف الحقيقة كلها، ولكن يبدو أن سير الأحداث يوحي بأن الإيرانيين قد وَجَدوا الفَرقَ بين ما يَقتَضيه الإيمانُ المشتركُ وبين حِرمانِهم في الواقع من مُجَرَّدِ القبول أمراً مؤلماً. ردَّ بعضهم على ذلك بأن أصبَحوا علماءَ بارزين في اللغة العربية، بل وكَتَبوا تفاسير للقرآن نالَتْ احتراماً كبيراً وتَقديراً عظيماً. بينما تقبَّلَ آخرون رؤية الحكام العرب لهم على أنهم ليسوا مسلمين حقيقيين، وليسوا "مسلمين عربا" وأَخَذوا بإعادة صياغة الإسلام على الطريقة الإيرانية التقليدية.

يختَلفُ العلماء في الطرق التي طبَّقَها الإيرانيون لتحقيق ذلك وماذا كانت النتائج، وتأثَّرَ الاختلاف كثيراً بما حَدَثَ بعد ذلك، إلا أنني أعتقد ببساطة أن ذلك هو الأساس الذي بُنيَ عليه المذهب الرئيسي الآخر في الإسلام، وهو المَذهب الشيعي.

كانت لاسلوب العمل ولنتائجه آثارٌ مهمة جداً يجب أن تناقش باهتمام، وسأبدأ بأبي الديانة التقليدية الإيرانية: زَرادَشت.

ربما كانت معارفنا عن زَرادَشت أقل من بقية شخصيات الأديان العالَمية، فلا يَعرف أحدٌ كثيراً عن شخصيته، إلا أنّ الدين الذي أعلَنَهُ منذ حوالي 1000 سنة قبل الميلاد أثّرَ بعمق على اليهودية والمسيحية. فقد وَعَظَ بوجود إلهٍ واحدٍ خَلَقَ السماء والأرض، والخير والشر، والحقيقة والبُهتان، وأن حياتنا الدنيا ستنتهي بيوم القيامة عندما سيَظهَر مسيحٌ لكي يَبعث الموتى ويَحكم بين الناس ويَمنَح الصالحين حياة خالدة. تنبأ زَرادَشت بظهور رجلٍ يشبه درويش الصوفيين، وسيدٍ للمعرفة، وعلماء ومشايخ... وأعلن أن الله قد وَضَعَ قانوناً لتنظيم المجتمع مثلما توجَد "الشريعة" في الإسلام. كانت الزَرادَشتية شديدة العاطفية كما مارسَها الإيرانيون إذ يَنخرِط العُبّادُ في أداء تمثيليةٍ انفعالية يُصَوِرون فيها دراما الفشل الإنساني ويُكَفِّرون خلالَها عن ذنوبهم. يَظهَر ذلك فيما بعد في طقوس المَذهب الشيعي حيث يتم التركيز على سلالة الرجل الذي يُنسَب إليه الإلهام بالمذهب الشيعي، وهو الخليفة عليّ.

باختصار، يبدو لي أن نمَطَ المَذهب الشيعي موروثٌ من الزَرادَشتية. وأن "ترجمة" هذه الديانة إلى الإسلام قد احتاجَتْ إلى مئات السنين، إلا أن الطريق كان قد بدأ في 748 أو 749، بعد حوالي 116 أو 117 سنة من وفاة محمد عندما بدأ أبو مسلم مسيرته للقضاء على الخلافة الأموية.

استمَدَّ المتمردون قوَّتَهم ليس مِن سلاحهم أو مِن تنظيمهم، بل مِن حَمِيَّة إيمانهم ودعايتهم الأُخرَوية، وذلك بما يشبه جيش الدولة الإسلامية (داعش) هذه الأيام. استطاع أبو مسلم أن يُقنِع المتذمرين من سكان سورية والعراق آنذاك أنه قد تَسَلَّطَ عليهم واستَغَلَّهم نظامٌ لا يَخاف الله، وأن الثورة ضرورة شرعية. لم تكن لديه وسائل اتصالات وإعلام جماهيرية، ولكن يبدو أنه كان يُرسِل

مَن يَنشُر الإشاعات قَبل وصول رجاله. كان أبو مسلم ماهراً في تحركاته، وكان لا يختار القتال إلا في معارك صغيرة كان يعلم أنه يستطيع الانتصار فيها، مثل بعض الثوار الذين أتوا بعده. واستطاع اقناع الناس بأن انتصاره على النظام الأموي القوي يدل على الموافقة الإلهية المقدَّسة. وقد طَبَّق أبو بكر البغدادي في الدولة الإسلامية (داعش) مثل هذه الأساليب هذه الأيام. قاد كل انتصار إلى الذي بَعدَه، فانضَّمَ أتباعٌ من كافة أرجاء العالَم الإسلامي تحت لوائه الأسود. وخلال أقل من سنة واحدة استطاع جيشه غير المُتَناسِق القليل العدة والعتاد أن يقضي على الخلافة الأموية.

انطلقتْ بعد ذلك حركات كان لها آثار عميقة ممتدة حتى أيامنا هذه. إلا أنه في تلك الفترة يبدو أن الحركة الثورية قد انتَشَرَتْ وتم "اختطافها" من قِبَلِ فرع آخر من عائلة محمد، أعدَموا زعيمَها أبو مسلم فوراً، وتَخَلّوا عن رسالته الثورية. ظَهَرَ الأمر وكأن أتباع أبو مسلم قد هُزِموا، إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً وتاماً، ولم يتم القضاء على رسالتهم الدينية، فالقضاء على الأفكار أصعب من القضاء على الأشخاص. اتَّجَهَت الأنظار كلياً نحو المنتصرين الذين أعلَنوا أنهم هم أنصار السنّة الصحيحة، ونَصَّبوا خليفة جديداً باسم العباس، وكان أحد أجدادهم من قريش. ولكي يُمَيّزوا أنفسهم عن الأمويين الذين كانت عاصمة مُلكِهم في دمشق، رَكَّز العباسيون مُلكَهم في المنطقة التي تُعرَفُ الآن بالعراق. كان في تلك المنطقة كثير من بقايا إيران بحيث أن الدولة التي أسسوها كانت في كثير من جوانبها ولادةً جديدة للامبراطورية الساسانية. وأصبحت أعظم دول الخلافة.

الفصل الرابع

الأيام العظيمة للخلفاء وتَطَوّر الإسلام

طارَدَ العباسيون الجُدُد الذين استَولوا على السلطة أغلبَ أبناء عمومتهم من الأمويين وقَتَلوهم لكي يضمَنوا ترسيخَ حكمهم. أرادوا تَوحيدَ العالَم الإسلامي من جديد بعد هزَّات الثورة، ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك ولم يمكن استعادة وحدَتِهِ بعدها أبداً. ربما لم تكن العودة إلى خلافة واحدة شاملة مُمكِنةً، ولكنّ هروب أحد أمراء الأمويين أكَّدَ على تَمزقها. هَرَبَ إلى اسبانيا حيث احتَضَنَتْهُ المملكة العربية-البربرية التي كانت قد تأسست هناك على أنقاض مملكة إحدى القبائل الجرمانية التي دَمَّرَت الامبراطورية الرومانية الغربية. عُرِفتْ آنذاك بالأندلس، وهو اسم مشتق من اسم مؤسسيها: شعب الفَندال[14].

كان حكم الفَندال ظالماً ومستبداً لدرجة أن السكان الأصليين المتذمرين، خاصة اليهود المضطهدون، شَجَّعوا الغزاةَ من العرب والبربر المسلمين على عبور البحر الأبيض المتوسط من منطقة المَغرب المُسْلِمة إلى جبل طارق في اسبانيا. بعد ذلك العبور سنة 711، ظَلَّ العرب في أجزاء من شبه جزيرة إيبريا حوالي سبعمئة سنة، وطَوَّروا مزيجاً رائعاً من الثقافتين الاسلامية واليهودية[15]. ظَهَرَ في جامعات الأندلس كثيرٌ من الفلاسفة والعلماء والأطباء والشعراء والموسيقيين الذين أُعطِيتْ لهم حرية الرأي والإعلان عن مكتشفاتهم وممارسة فنونهم.



خريطة اسبانيا المسلمة (الأندلس) كما كانت منذ حوالي ألف سنة. اندفَعَت الإمارات المسيحية المُحارِبة من ليون وكاستيل ونافار وأرغون وبرشلونة وامتَدُّوا جنوباً على مَرّ القرون لاحتلال مدينةً بعد مدينة ومَنطقة إثْرَ مَنطقة حتى استطاعوا سنة 1492 طَرْدَ عشرات الآلاف من المسلمين واليهود وأخضَعوا مَن بَقي إلى محاكم التفتيش وقَضوا بذلك على أكثر المجتمعات تَقَدُّمَاً في أوروبا.

كانت المُقارَنة مع بقية أنحاء أوروبا مُذهِلة، فلم يوجد فيها آنذاك سوى قلة ممَّن يستطيعون القراءة، وكانوا مَعزولين في الأديرة، أما مَن استطاع القراءة مِن أهل المدن فربما لم يكن مستواهم أفضل من طلاب المدارس الابتدائية في هذه الأيام. فمثلاً ربما لم يَعرف سوى قليل ممَّن وقَّعوا على الوثيقة التاريخية "المَاغنا كارتا" (انكلترا 1215) كيف يَكتبون شيئاً أكثر مِن أسمائهم، وربما لم يتَمَكَّن أحدٌ منهم مِن قراءتها. ومِن الصعب أن نجد دليلاً على وجود أكثر مِن قِلَّةٍ قليلةٍ مِنَ الرجال أو النساء ممَّن كانوا يتَمتَّعون بالثقافة أو حتى بأية درجة من الرقي الاجتماعي. بينما ازدَهَرت في الأندلس الفنون، واختُرِعَتْ أنواعٌ جديدة من الشِّعر، وألهَمَ التَّذَوقُ الموسيقي ما أصبَح فيما بَعد حَركةَ التُروبادور الفنية. تَطَوَّرَ المجتمع الكنائسي المَسكوني في الأندلس من النواحي الفنية والعمرانية والموسيقية والشعرية والطبية والعلمية، وقام بدور مهم للرَّبط بين العالَم الكلاسيكي الإغريقي- الروماني والمجتمعات، خاصة في إيطاليا حيث وضِعَتْ أسس عصر النهضة.

قام العباسيون أيضاً بتأسيس دولَتهم المتطورة وخلافتهم القوية على ضفاف الفرات ودجلة، وبَنوا سلسلة من المدن العظيمة، أشهرها بغداد التي تم تأسيسها بعد اثنتي عشرة سنة مِن ثورة أبو

مسلم في 762، وحَكَموا منها امبراطوريةً امتَدَّتْ أرجاؤها مِن البحر الأبيض المتوسط حتى نهر السند، ومِن شبه الجزيرة العربية حتى حدود الصين. تَعَرَّفَ عليها الأوروبيون والأمريكان من خلال الحَكايا الخيالية في "ألف ليلة وليلة". أما بالنسبة إلى سكان الجنوب العالَمي فقد كانت تلك ذروة ازدهار حضارتهم، واعتَقَدَ المسلمون أنّ مجتمعات الخلافة الاسلامية في العصور الوسطى تُمَثِّلُ العالَمَ كما تريده وتَتَمَناه الشعوب المتحضرة.

بين هاتين الخلافتين على طرفي البحر الأبيض المتوسط، الأندلسية في الغرب والعباسية في الشرق، ظَهَرَتْ خلافة ثالثة فاطمية أسست نفسَها في مصر في القرن العاشر. أسست شرعيتها، مثل هاتين الخلافتين، ومثل الدولة الاسلامية في هذه الأيام، على قرابَتِها من محمد، واشتَقَّت اسمها من اسم فاطمة ابنة محمد. كان الذي يُمَيِّزُ الخلافةَ الفاطمية عن الخلافتين السابقتين هو أنها كانت الخلافة المسلمة الشيعية الأولى، وأنها اعتَمَدَتْ في قوتها على بربر أفريقيا وليس على عرب آسيا. انتشَرَ المَذهب الشيعي بشكل واسع الى جانب المَذهب السنيّ، وقابَلَ البربرُ العربَ وجهاً لوجه وسيفاً إلى سيف.

كانت هذه الدول الثلاث، بالإضافة إلى امبراطورية تانغ في الصين، أعظمَ المراكز الحضارية خلال العصور المظلمة التي سادَتْ أوروبا، وشَكَّلَتْ ذروة الحضارة الإسلامية. تُلهِم الذكرياتُ المِثالية لتلك الفترة شعورَ الفخر والاعتزاز والأمل عند مسلمي هذه الأيام. فعندما لم تكن مناطق استقرار الأوروبيين أكثر من قرى ريفية، كانت بغداد والقاهرة وقرطبة واشبيلية منارات حضارية تشعُّ بالنور في ظلمات العالَم. وانتشَر هذا النور على مَرِّ القرون التالية إلى شنغهاي ودلهي وبخارى وسمرقند ونيسابور وهرات وأصفهان وشيراز وقونية واسطنبول وبالميرو وفاس وتيمبكتو. وحينما كان قليل من الأوروبيين يستطيعون القراءة، كانت هذه المدن تضُمُّ المكتبات والمدارس والمجتمعات القارئة. بل كان في بغداد صناعة متطورة لنَشْرِ الكتب استَخدَمتْ وصَنَعَت الورق لأول مرة خارج الصين حيث نَشَأ هذا الاختراع العظيم.

حيثما حَلَّ المسلمون أسسوا ما يسمونه "دار السلام" باحترامٍ نسبي لتنوع الثقافات والأديان إلى حَدٍّ لم تَتَخَيله أوروبا المسيحية. فقد تَعايَشَ اليهودُ والمسيحيون والهندوس والبوذيون وأصحاب ديانات وأعراق أخرى جنباً إلى جنب في انسجام بالمقارنة مع العنف الدائم والتهديد المُتَكَرِّر بالفَصْلِ العنصري الذي طالما وجِدَ في أوروبا. تَنَقَّلَ الأوروبيون بِحُرِيَّة نسبياً بين المسلمين وأسسوا مراكِزَ تجارية كادَتْ أن تُصبِح في بعض الأحيان مستعمرات ومستوطنات حقيقية في أراضي المسلمين، بينما لم يتجرأ الرحالةُ المسلمون في أغلب الأحيان على السفر داخل أوروبا فيما عدا اسبانيا المُسلِمة. تمَّ احتجازُ اليهود في أوروبا داخل أحياء خاصة، بل وطُرِدوا منها بين فترة وأخرى حتى إلى خارج المدن الجامعية "المُتَنَوِّرَة"، مثلما حَدَثَ في كامبريدج سنة 1071، بينما كانوا يَتَنَقَّلون بِحُرِّيَةٍ نسبية في القاهرة وفاس. استطاع كبارُ الرَّحالة في العصور الوسطى، مثل ماركو بولو وابن بطوطة، أن يسافروا إلى الصين والهند ومصر، بينما لم يكن ماركو بولو آمناً سوى في البندقية.

منذ عصر محمد الذي عَقَدَ معاهدةً مع غَيرِ المسلمين في المدينة، تَطَوَّرَ في الإسلام نظامُ التَّعامل مع غير المسلمين. عاشَ اليهود والمسيحيون بصفتهم فئة مَحْمِيَّة "أهل الذمّة". وفيما عدا ما يتعلق بالأمور العسكرية، فقد سُمِحَ لكلِّ مِنْ هذه الفئات أن تَعيشَ وفْقَ عاداتها وأن تُنَظِّمَ طقوسها

وتقاليدها وتَحتَفِظَ بمؤسساتها الدينية وتَحكم نفسها حَسبَ شرائعها. كما وَزَّعَتْ ضرائبها فيما بَين أفرادِها كما أرادتْ طالما أنها جَمعتْ ما طَلَبَتْهُ السلُطات مِنها. وانتَقَتْ كلُّ جماعة دينية رؤساءها الذين يمثلونها لدى قيادات المجمتمع الإسلامي[16].

تأثَّرَ هذا السلوك بالجغرافيا والتاريخ، ففي فَجرِ الإسلام كانت الامبراطورية البيزنطية المسيحية والامبراطورية الفارسية الزَرادَشتية هي القوى العظمى في العالَم. وعندما تَوسَّعَت الخلافة الإسلامية في أغلب مناطق الامبراطورية البيزنطية وقَضَتْ على الامبراطورية الساسانية الفارسية، اكتسَبتْ بين سكانها مجتمعات مسيحية وزَرادَشتية ويهودية، كما انضَمَّتْ فيها مجتمعات كاملة من الهندوس. وفيما عدا فترات الحَمِيَّةِ والحرب، تَرَكَت الدولة الإسلامية هؤلاء الناس يمارسون دياناتهم ويَلبسون ثيابهم المُمَيَّزة ويَتحدثون بلغاتهم الأصلية ويُطبِّقون شرائعهم وعاداتهم ويَحكمون أنفسهم وفقَ سلطاتهم الخاصة. لم يكن النظام مثالياً، إلا أنّ المسيحيين واليهود عاشوا بشكل عام في مجتمعات آمنة داخل الدولة الإسلامية، بينما كان اليهود في الدول المسيحية يعيشون دائماً تحت الخطر، وخَضَعوا غالباً للإضطهاد والتَّهجير والطَّرد والقَتل[17]. كان المسيحيون (في أوروبا) أكثر أمناً عندما عاشوا معاً في أكثرية مسيطرة، إلا أنهم تَعَرَّضوا غالباً إلى القتل الجماعي وإلى إبادة "الهراطقة" عند وجود أي اختلافات مذهبية بينهم ولو كانت ضئيلة[18]. وفي الواقع، بَدأتْ إرهاصات الحروب الصليبية في هجوم الفرنسيين الذي شَجَّعَته الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين الكاثار الذين عاشوا في جنوب غرب فرنسا، كما انطَلَقَتْ من هناك أيضاً محاكم التفتيش.

تحوَّل كثير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام على مر العصور، والقول بأن الإسلام قد فَرَضَ عليهم هذا التَّحول بقوة السيف هو مجرد أسطورة، فقد كانت الدول الإسلامية تُفَضِّلُ بقاء السكان المَغلوبين على غَير دين الإسلام لأنّ عليهم في تلك الحال أن يدفَعوا ضريبة إضافية (الجزية) بدلاً مِن الخِدمة العسكرية. في واقع الأمر قَصَّرَ الحكامُ المسلمون والمسلمون بشكل عام فيما يتَطَلَّبُه الإسلام، إلا أن الإسلام تاريخياً كان أكثر الأديان الثلاثة قَبولاً وتَسامُحاً[19].

كانت المسيحية بشكل عام عنيفة وغير مُتسامِحَة في علاقاتها مع اليهود والمسلمين حتى في غير أوقات الحرب. فقد وَضَعَ المسيحيون يهودَ أوربا في أحياء مخصصة لهم، وأَجبَروهم على ارتداء ثيابٍ مُمَيّزَة وتَصَرفوا حِيالَهم كتصرف رجال عصابات المافيا مع أصحاب المتاجر، فأجبَروا المواطنين اليهود على دفع أموالٍ للحماية، وأهانوهم، وشَكَّلوا عصابات لمهاجمتهم، وغالباً ما قاموا بطردِهم وتَهجيرِهم[20].

بينما في تلك الأوقات نَمَتْ وتكاثَرتْ طوائف وفئات ومدارس متنوعة في ظِلِّ الإسلام. ومثلما حَدَثَ في الكاثوليكية والبروتستانتية، فإن انقسام الإسلام بين السنيَّة والشيعية قد خَلَقَ صراعات اجتماعية ضخمة وحَفَّزَ انتشار الدِّين في الوقت نفسه، لأن الناس الذين يَنتمون إلى ثقافات وأعراق مختلفة يَجدون في أحدهما أو في الآخر مَذهباً يتوافَقُ مع ما اعتادوا عليه من نظام سياسي واجتماعي واقتصادي. ومثلما هو الحال في البروتستانتية، فقد ظَهَرَتْ في الشيعية مذاهب وفئات

عديدة تطَوَّرَتْ بحيث وجَدَتْ فيها المجموعات القومية المختلفة عقائدَ تُعبِّر عن هوياتها المتميزة. ونَجِدُ ذلك في هذه الأيام في تَنوع الدّرزية والاسماعيلية والعَلَوية وغيرها من المذاهب التي وَجَدتْ لها مكاناً في الإسلام.

من الناحية العرقية، لم تتأسس في المجتمع الإسلامي تلك الأمة الواحدة التي كانت هدفاً مثالياً للإسلام، لأن نجاح الإسلام كمجتمع مُحارِب جَعَلَ من المستحيل تكوين الإسلام كمجتمع متجانس ومتماثل. ونَرى ذلك في الانقسام بين البدو وسكان المدن، وفي الصراع السنيّ-الشيعي، وفي الانقسام بين دول الخلافة الكبيرة الثلاث، وبين الفروق العرقية بين العرب والبربر والإيرانيين والترك وغيرهم.

في مراكز الحضارة الكبيرة أصبَحت الحياة سهلة مترَفة وعارضَتْ رغبةُ الاستمتاع بها التطبيقَ الصارمَ للشريعة والدين. أصبحَ الحكام والأغنياء غير متحمسين كثيراً للتطبيق الدقيق المُتَزَمِّتْ لتعليمات وطقوس الشريعة كما كان الأمرُ في فجر الإسلام. وبعد مرور حوالي 164 سنة على الهجرة، ظَهَرَ وتَطَوَّرَ مجتمعٌ يَختلِفُ كثيراً عما شَهِدَهُ محمد. ونتيجةً لخشية بعض العلماء خسارةَ صفاءِ الإيمان، فقد دعوا إلى التَّمَسك بالقواعد الثقافية والأصول الشرعية في المجتمع. وكان من أهم هؤلاء الأصوليين: أحمد بن محمد بن حنبل الذي ولِد في بغداد حوالي سنة 780.

في الزمن الذي ولِد فيه ابن حنبل كان الإسلام مضطَرباً تضاربَتْ فيه تقارير وشذرات من أحاديث وأعمال الرسول محمد. كان المسلمون قد تَنَبَّهوا إلى أنها الطريقة الوحيدة لفَهمِ القرآن وتَفسير ما تَشابَهَ مِنه وتَرتيب أولوياته ومَلءِ فراغاته، وعَرفوا أنها يجب أن تُجمَع، ولكن لم يَنتَبهوا كثيراً إلى فَهمِ مَعانيها في سياقِ حياةِ محمد في المدينة، أو أنها قد استُخدِمَتْ لِحَسْمِ قضيةٍ لم تكن موجودة عندما قيلَ أنه قد تصَرَّفَ حسبما تقتَضيه. كان الاتجاه العام هو جَمعُ وتَسجيل وتَوثيق كل شيء خشيةَ فَقْدِ وضَياع أي شيء قد يُلقي الضوء على فَهمِ القرآن. أصبَحَ جَمعُ الأحاديث الهَمَّ الشَّاغل الكبير في حياة ابن حنبل، ويُقالُ أنه وابنه بَعدَ وفاته قد جَمَعَا تقريباً ثلاثمئة ألف حديث، ولكن هل يمكن تصديقها والوثوق بها؟

أدركَ علماءُ المسلمين أن كثيراً من الأحاديث كانت موضوعة ومكذوبة بشكل واضح. ولو سُمِح لهذه الأحاديث أن تتحكم في المسائل القانونية لانتُهِكتْ شريعة الله. يجب تَمييز الصحيح مِنَ المَكذوب والمَوضوع. ولم تكن تلك مهمة علمية أكاديمية فقط بل قضية جوهرية دَخَلَتْ قَلبَ نظام القضاء الإسلامي. ولا يمكن استخدام سوى الأحاديث الموثوقة في فهم وتفسير القرآن. وهكذا طَوَّروا طريقة اسمها: "عِلم الجَرح والتَّعديل" حيث يَقتَضي "الجَرح" تَحدي واستجواب واستقراء المَصدر: هل كان مصدر الحديث أو راويهِ ممَّن صاحَبوا محمد أم أنَّ الحديث وصَلَهُ من شخص آخر؟ هل كان ثقة؟ هل كانت سلسلة الرواة متَّصِلة وتتألف من أشخاص موثوقين كانت بينهم علاقات وَصِلَة؟ وإذا رويَ الحديثُ عن شخصٍ لم تكن لديه صِلَةٌ بالنبي أو إذا كانت سلسلة روايته منقطعة أو ناقصة فقد كان يوضَعُ جانباً حتى يتم التَّحقق منه.

خلال عمله على جَمعِ الأحاديث والتَّحقق مِن صِحَتها وسَلامة رواتها، قَلِقَ ابن حنبل من التَّوسع المُتزايد في فَهمِ الإسلام، وسَعَى للعودة إلى الأصول التي أَعلَنها محمد[21]. سافَرَ سنوات

طويلة عبر أنحاء الخلافة، وقابَلَ الذين ادَّعوا أنّ أجدادَهم من أصحاب محمد، ثم نَشَرَ نوعاً من الموسوعة (المسند) التي اعتَقَد أنها، بالإضافة إلى القرآن، يمكن أن تَضَعَ الإسلامَ في إطارٍ تاريخي مُحْكَم، أو باختصار فقد بَدَأ الحركات التي نشاهدها اليوم عند المسلمين الأصوليين.

اعتَرَضَ ابنُ حنبل على الخلفاء العباسيين في عصره: المأمون والمعتصم اللذين شجَّعا الفقهاء والقضاة على استخدام الطريقة العقلانية في "القياس" لكي تتلاءمَ الشريعةُ مع تَغيرات الظروف والمعاملات في المجتمع. أُمِرَ ابن حنبل باستدراك آرائه أمام ما يُشبِهُ محكمةَ تفتيشٍ في محاولةٍ لإقناعِهِ بهذا الرأي، وعندما رَفَضَ ذلك، تمَّ تقييده بالسلاسل ووضِعَ في السجن وتمَّ تعذيبه. ومما يثير الاستغراب والتَّعجب أنه عندما توفي سنة 855 كانت سُمعَتُهُ ومدرسته في التفكير أكثر شعبية وجماهيرية، ويقالُ أنّ أكثر من ثمانمئة ألف شخص، منهم ستون ألف امرأة قد حَضَروا جنازته، وتَرَكَ إرثاً ضخماً وتأثيراً كبيراً في المجتمعات المسلمة في أرجاء العالَم. ويُعتَبر ابن حنبل الفيلسوف الذي ألهَمَ فِكْرَ الوهابية والإخوان المسلمين والقاعدة والدولة الإسلامية (داعش).

على الرغم من تأثيره على فَهمِ الفقهاء والقضاة لقوانين الإسلام إلا أن ابن حنبل في الواقع لم يَنشر كثيراً. كَتَبَ خلال وجوده في السجن كتاباً عن الصلاة، إلا أن محاضراته نَشَرتْ أفكاره وتعاليمه، وقرأتْها وحفظَتْها أجيالٌ مِنْ بَعدِهِ، ونَقلوها عبر العالَم الإسلامي، واتَّبعوا تعاليمَها لتأسيس مدرسة المَذهب الذي سُمّي باسمه: المَذهب الحنبلي.

بدأ شعبٌ جديدٌ بالوصول إلى الشرق الأوسط في فترة الخلافة العباسية: أتراك آسيا الوسطى. جاؤوا حين بَدأ الضعف والوهن يَدبُّ في أوصال سكان تلك المنطقة وصَاروا لا يُحبّون الخدمة العسكرية[22]. كان الأتراك رجالاً أقوياء جددا انحَدَروا من سفوح وصحارى وسط آسيا وكأنَّهم ولِدوا جنوداً مثل البدو في زمن محمد.

وصَلَ الأتراك في بداية الأمر فرادى أو في مجموعات صغيرة، وعملوا حراساً وجنوداً، إلا أنهم سرعان ما انقَلَبوا على أسيادهم، مثلما فَعَلَ الحرس الامبراطوري في روما. وخلال سَعيهم وراء السلطة والثروة دَمَّروا في الواقع الخلافة العباسية، وانخفَضَ دخلها سنة 900 إلى أقل من 3% أو 4% مما كان عليه قبل ذلك بمئة عام، وأصبَحَ الخليفةُ مجرَّدَ رمز. لَخَّصَتْ أغنيةٌ قصيرة كانت شائعةً آنذاك تَدَهورَ حالةَ الخليفة:

"خليفةٌ بين وصيف وبُغا (الأتراك الأمراء)

يقولُ ما قالا لهُ كما تقولُ الببَّغا"

لم يكن العباسيون الضحايا الوحيدين للسلاطين الأتراك، فعَلَى الطَّرَفِ الآخَرِ مِنْ سهوب آسيا قَهَرَ تركي آخِرَ سلالة تانغ في الصين سنة 907، وبعد نصف قرن من السلالات الخمس، استَرجَعَتْ سلالة سونغ تأسيس السلطة المركزية سنة 960. وكان أول ما فَعَلَتْهُ هو إغلاق الحدود الشمالية أمام غزو "البرابرة" الأتراك. ومرَّةً ثانيةً وَجَدَت القَبائل التركية نفسها مُضطَرةً للاتجاهِ غرباً مثلما حَدَثَ لها في عصر سلالة الهان قبل حوالي ألف عام. وعندما وَصَلَتْ جَحافِلهم هذه

المرة، لم يحاولوا أن يَضَعوا أنفسَهم تحت تصرف الدولة، بل كان هدفهم هو الاستيلاء عليها. مع حلول سنة 1040 تَحَوَّلَتْ إلى الإسلام أقوى فِرقهم التي كانت تُسمى "السلاجقة" نسبة إلى زعيمها الكبير. احتلّوا خراسان، ثم دَخلوا بغداد بعد ذلك بخمس عشرة سنة. انضَمَّتْ فرقٌ أخرى من الأتراك إلى جيش السلاجقة وتَمَكَّنوا من الانتصار على الامبراطور البيزنطي وأَسْرِهِ في إحدى أكبر المعارك في التاريخ، وهي معركة ملاذ كرد سنة 1071. انفتَحَتْ بعدها الأراضي البيزنطية في قلب الأناضول أمام هجرة الأتراك وتَغَيَّرتْ فجأة طبيعة العالَم الإسلامي[23]. حلَّ الترك مَحَلَّ العرب والبربر كقادةٍ للعالَم الإسلامي على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط وفي مصر وسورية والعراق وكوردستان وإيران وأفغانستان والهند.

كان تأسيس السلطنة في قونية قمَّةَ الإنجازات الحضارية للسلاجقة[24]. يَعرفُها العرب باسم "أرض روم"، وفي الغرب باسم "تركيا"، وكلا الاسمين غير صحيحين فقد كانت السلطنة مَزيجاً من الفلاحين البيزنطيين والأتراك والمَغول والتركمان والأرمن والفرس والكورد والعرب، وكان أغلبهم مسلماً، أو أصبَحَ مسلماً خلال حكم السلطنة. لم يُرَحِّب الحكام باستخدام اللغة العربية، بل حاوَلوا أن يُغَيِّروا ثقافةَ رعيَّتِهم إلى التركية. استَجابَت الطبقة الصغيرة من المُتَعلّمين بانتاج أدبٍ تركي، إلا أنّ جلال الدين الرومي الذي كان أعظمَ كتَّاب تلك الفترة لمْ يَتبَع حركةَ الاتجاه إلى التركية، بل كَتَبَ بالفارسية، وكان العالَم الإسلامي قد اتَّجَهَ إلى تَعدُّد الثقافات منذ زمن بعيد.

بدأتْ هجماتُ المسيحية على الدول المسلمة في اسبانيا، واستمَرَّتْ مئات السنين، إلا أن أشهرها في الغرب وبين المسلمين كانت سلسلضة الحَملات المُتكررة على المسلمين في سورية وفلسطين ومصر إلى الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط. أعلَنَ البابا أوربان الثاني بَدءَ أولى هذه الحملات خلال قدَّاس في مدينة كليرمونت بفرنسا في نوفمبر سنة 1095 استِجابةً لطلَبِ الامبراطور البيزنطي مُتَطَوعين أجانب لمحاربة الأتراك السلاجقة. وفجأة بعد قرونٍ من اللامبالاة، اكتشَفَ حكَّامُ أوروبا المسيحيون أن "الأرض المقدسة" قد احتَلَّها المسلمون، وأن الوقت قد أصبَح ملائماً للتراجع عن الخمول السابق، فقد ظَهَرَ حماسُ الامبراطور البيزنطي لطَلَبِ المساعدة، وبدأ الضعفُ يَدبُّ في أوصال الخلافة الفاطمية في القاهرة، وكانت سواحل شرق المتوسط منقَسمة بين أمراء حرب مختلفين. ثم كانت هنالك الأسطورة الشعبية بوجود حليفٍ عظيم مُختَبئ في الشرق الخَفيّ، حليفٍ سريٍّ ولكنه مسيحي مُخْلِص هو "بريستور جون" الذي كان مُستَعداً لمساعدة الأوربيين. (المترجم: بريستور جون هو شخصيةُ كاهنٍ مسيحي اسطوري حكيم اشتهرَ في التقاليد الأوروبية في الفترة بين القرن الثاني عشر والسابع عشر، يُعتَقَد بأنه كان يَحكم أمةً مسيحيةً نسطورية ضاعَتْ في خِضَمّ الشرق الإسلامي والوثني في الهند وسورية وأثيوبيا، وأنّ مَملكته ضَمَّتْ أتباعَ أحد الحواريين "توماس"، وكانت غنية بالثروة والمَخلوقات الغريبة). في الوقت نفسه جاء إلى أوروبا غزو النورمانديين، وبَرَزَتْ طبقةُ الجِرمان المُحارِبين الذين قَدَّموا فَيضاً غَزيراً من الفرسان الذين كانوا يَفخَرون بأنفسهم وقوتهم، إلا أنهم كانوا فقراء ومتعطشين للسلطة ومستَعدّينَ للنَّهب والسَّلب ولإجابة نداء البابا أوربان. بعد أن تَشبَّعوا بحماسَتِهِ، وبدافعٍ من غاياتهم الدنيوية

الخاصة، أعلَنوا إخلاصَهم في سبيل تحرير الأرض المقدسة وانطلَقوا في حملاتٍ عنيفة على اليهود الضعفاء في أحيائهم المنعزلة في أوروبا[25].

وصلتْ أخبار تصرفاتهم وسلوكهم سريعاً إلى الامبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس، واعتَبرهم برابرة، مثلما اعتَبرهم المسلمون كذلك، وخَشي من أنَّهم لن يُمَيِّزوا بين اليهود والمسلمين والمسيحيين الشرقيين. قامَ الصليبيون بنهبِ المناطق البيزنطية في طريقهم إلى القدس. وتخلَّصَ أليكسيوس من إحدى جماعاتهم التي كانت تُسمى: "الأطفال الصليبيون" بإرسالهم لحرب الأتراك السلاجقة في الأناضول حيث قُتِل أغلبهم. وبَذَلَ كل ما في وسعِهِ لكي يُسرِعَ في إرسال الآخرين إلى غايَتهم بعيداً عن أراضيه. حاوَلَت السلطات الإسلامية فِعلَ الشيء نفسه وإخراج المسلمين من المدن التي كانت في طريقهم، إلا أنهم لم يَنجَحوا دائماً بفعل ذلك في الوقت المناسب. عندما وصَلَ الصليبيون أخيراً إلى "القدس الذهبية"، سارعوا إلى محاصرة الكنيسة المسيحية الرئيسية ومعبد اليهود الرئيسي وأحرَقوهما بينما كان المصلون الخائفون يحاولون الاحتماءَ فيهما. حتى اليهود والمسيحيون والمسلمون الذين استسلَموا لم يَسلَموا من الذبح في عربَدةِ حَمَّام الدّم والنّهب والنَشوة الدينية[26].

عادَت الدولة التي أسسها الصليبيون في مجتمعات المسيحيين الشرقيين ومسلمي الشرق الأوسط وانتَهَجَتْ بالتدريج سلوكاً أكثر هدوءاً، إلا أن الصليبيين أنفسهم كانوا يُعتَبرون دائماً قساةً غلاظاً وبرابرةً قذرين غير مُتَحَضِّرين[27].

تَظَهَرُ في بحثي الحالي مسألتان رئيسيتان في الحملات الصليبية ما زال تأثيرهما مستمراً على المواقف والسلوك في العالَم الإسلامي: الأولى هي أن المسلمين الذين عاصروا الحملات تأقلَموا مع الغزاة، وكَوَّنوا معهم علاقات شخصية، وشارَكوهم الاحتفالات الدينية المسيحية، وتحالَفوا معهم أحياناً. كان الصليبيون قوة عسكرية مهمة، وكانت المجتمعاتُ المسلمة في الشرق الأوسط آنذاك منقسِمة ومتَنَازِعة مثلما هي حالها هذه الأيام. وغالباً ما كانت تَظهَر أسبابٌ تكتيكية عند كل حاكم مسلم يحتاجُ فيها لكسب دعم وتأييد الصليبيين، وما زال الخوفُ من خيانة الحكام المحليين موضوعاً سارياً في السياسات الحالية. يَظهَرُ ذلك في التصريحات والشعارات الوطنية، وتظَلُّ كلمة "صليبي" وصفاً مُثيراً للمشاعر في لغة السياسة، وغالباً ما يَصِفُ رجالُ الإعلام في الدولة الإسلامية (داعش) وغيرها من المجموعات الإرهابية أعداءهم بأنهم "صليبيون".

المسألة الثانية التي تظهر من دروس الحملات الصليبية هي الاعتقاد أو الأمل الدائم بأن الغرباء سيغادرون. وقد غادَرَ الصليبيون ببطءٍ بعد خسارتهم في معركة حطين سنة 1187، وتم تحرير أغلب مناطق فلسطين على يد صلاح الدين السلطان الكردي في مصر وسورية بعد حوالي قرن من المعارك المتتالية.

اعتَبر القوميون العرب صلاحَ الدين بطلَهم في صراعهم ضد الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى، ويؤمِنُ الاستراتيجيون في الدولة الإسلامية (داعش) هذه الأيام بأن أعداءهم

الغربيين سينهزمون ويغادرون كذلك. وفي الواقع كان انتصارُ صلاح الدين محدوداً، واستمرَّ وجودُ الدول الصليبية فترةً طويلة بعد وفاته.

بينما كانت هذه الأحداث العظيمة تمرُّ بالشرق الأوسط، تطَوَّرتْ فيه تَغيُّراتٍ ثقافية وحضارية عديدة كان من بينها ما نَعرفه هذه الأيام: الإرهاب. ظَهَرَتْ إحدى أغرب الشخصيات الغامضة التي نراها ولا نكاد نَعرِفُ عنها الكثير ضمن الأساطير التي ورثناها: حسن الصبَّاح (وضَعَ بعض التقارير الأصلية عنه الرحالة ماركو بولو الذي يجب أن نقرأه بحذر دائماً). كان يُعرَفُ بأنه "شيخ الجبل" الذي أسس نوعاً من الدولة الإرهابية التي تَوَزَّعَتْ على حصونٍ وقلاع في جبال منطقة بحر قزوين وسواحل المتوسط. هناك كثير مما لا نعرفه عن حسن، والقليل الذي نَعرفُهُ مشكوكٌ فيه. يُعتَقد بأنه كان من أتباع المَذهب الاسماعيلي الشيعي (الذي يرأسه آغا خان هذه الأيام)، ولكننا لا نعرف ما كان يريد تحقيقه. هاجَمَ أتباعُه المسلمين السلاجقة والمسيحيين الصليبيين بالحماسة نفسها، وأثارَ اهتمامَ الطرفين، وخَلَقَ شبكةً معقدة من الأوهام حولَه. قيل إنه خَلَقَ حدائقَ سريةً تسكنها حورياتُ البحر حيث استطاع، باستخدام المخدرات، أن يُقنِع أتباعَه أنهم في الجنة، وذلك تَحضيراً لقيامهم بعمليات انتحارية "فدائية" ضد أعدائه. كانت غاياته غامضة آنذاك، وما زالت كذلك حتى الآن، إلا أنه أعطانا كلمة "القاتل assassin" المشتَقَّة مِنَ "الحشاش" وهو الرجل الذي يُصبِح قاتلاً بعد إعطائه الحشيش "ليتذوق شيئاً من نعيم الجنة"[28].

نَشَرَ الترك والعرب والصليبيون أوهاماً وأساطير عن الحشاشين، إلا أنهم تعاونوا معهم عندما اقتَضَت الضرورة ذلك، واتَّفَقوا أحياناً مع رجال الصبَّاح لقَتلِ خصومهم. وليس من الصعب عند قراءة ذلك الجزء من التاريخ أن نلاحظ تشابهاً مع بعض المشكلات التي نعاني منها هذه الأيام. سنرى في الجزء الخامس أن بعض المُرَوجين لسياسة العنف هذه الأيام، مثل أسامة بن لادن وأبو بكر البغدادي، يوجِّهونَ علينا انتحارييهم وقَتَلَتَهم ويُخَدِّرونهم بالمشاعر والعقائد والأفكار التي لا تَقِلُّ عن الحشيش عنفاً وتأثيراً، وفي الوقت نفسه يَخدَعون أنظارَنا ويُشَوِّشون رؤيتَنا بإثارة المَخاوف، مثلما فَعَلَ الصبَّاح قَبْلَهم. وطالما كان فَصلُ الحقائقِ عن الأساطيرِ تَحدياً صعباً.

بينما كان المسيحيون والمسلمون يتقاتلون للسيطرة على فلسطين، بدأتْ قبائلُ تركية ومغولية في المناطق البعيدة من وسط وشرق آسيا تتجمع وتشكِّل تحالفاً قوياً بقيادة رجلٍ ربما كان أعظمَ القادة والفاتحين في التاريخ، وفي جيل واحد دَفَعَ جنكيزخان جيوشَه عبر آسيا في غزوٍ كان أكبر حتى من الفتوحات العربية العظيمة، فتَغَلَّبَ على الصين وجميع مناطق ما أصبح الاتحاد السوفييتي في القرن العشرين، وغَزَا الشرقَ الأوسط تاركاً وراءه أثراً طويلاً من الدمار الشامل. دمَّرَ المَغول المدن الاسلامية واحدة تلو الأخرى في وسط آسيا، وعَبَروا إيران إلى كشمير جنوباً وإلى العراق وسورية وكوردستان في الشرق. وحَطَّموا المجتمع الإسلامي حيثما حَلّوا. وفي سنة 1258 أحرَقَ هولاكوخان، حفيدُ جنكيزخان، المدينةَ العظيمةَ بغداد وقَتَلَ مئات الآلاف من سكانها بمن فيهم الخليفة العباسي نفسه. تُشبِهُ العراق وسورية في تلك السنوات ما نراه فيهما الآن مِنَ الدمار، وعاشَ مَن بَقي منهم حياً في الحالة ذاتها من البؤس والشقاء[29].

كان المَغول في زمن هولاكو مُعادِين للإسلام، وتَحَوَّلَ كثيرٌ منهم إليه في القرون التالية. كانوا بعيدين عن ديارهم، ولذا فقد ضَمّوا إلى صفوفهم كلما اتجهوا غرباً جماعاتٍ مختلفة من المسيحيين في مناطق قزوين والأناضول، والصليبيين الذين كانوا في انطاكيا. وتَمَكَّنوا بمساعدة الصليبيين من احتلال حلب ثم دمشق، ولم يَتَبَقَّ من القوة الإسلامية في الشرق الأوسط سوى ما كان موجوداً منها في مصر.

كانت المغامرة الأخيرة للمَغول في الشرق الأوسط هي تدمير دولة الحشاشين الإرهابية. وبعدما حقَّقَّ ذلك، قرَّرَ هولاكو توجيه قواته ضد مصر. ولو نجَحَ في ذلك فربما تَغَيَّرَ شكلُ الشرق الأوسط كما نَعرفه هذه الأيام، إلا أن وفاة الحاكم في السلالة المَغولية اضطرَّهُ لتَغيير خُطَّتِه. عاد هولاكو سريعاً إلى منغوليا مع أكثر جيشه، مما أتاح الفرصة للمماليك الذين كانوا يحكمون مصر بعد أبناء صلاح الدين لكي يَهجموا ويَهزموا بقايا المغول سنة 1260 في معركة عين جالوت التي تَقَعُ في منتصف الطريق بين دمشق والقدس.

دفَعَ الدَّمارُ والحزن واليأس وفقدان الأمل إلى ظهور نوعين من ردود الفعل امتَدَّتْ آثارهما حتى عصرنا الحاضر. أعلَنَ ردَّ الفعل الأول: تقي الدين ابن تيمية، وهو من أتباع ابن حنبل الفقيه الأصولي الذي ظَهَرَ في القرن التاسع.

ولِد ابن تيمية سنة 1263 في أطراف سورية الشمالية بمدينة حَرَّان القديمة. وهي منطقة خطرة في أيامنا هذه، مثلما كانت منذ ثمانمئة سنة. اضطُّر والدُه للهرب من الخطر الداهم واضطُّر للّجوء مع عائلته مثلما يَحدُثُ هذه الأيام. لم تَخطُرْ على بالِهِ فكرة الهِجرة إلى أوروبا آنذاك، فلو فَعَلَ ذلك لواجَهَ ظروفاً لا تَقلُّ خطورةً بسبب الحروب التي كانت قائمة بين دويلاتها الصغيرة البائسة، وربما كانوا مُهدَّدين بالقتل بسبب كونهم مسلمين. كان الملجأ الوحيدُ المُتاح لهم هو دمشق، فاتَّجَهوا إليها بعد تَحرُّرها من الغَزو المغولي. ولذا نتَفَهَّمُ جيداً أنّ حياة ابن تيمية وأفكاره كانت محفوفَةً بعدم الشعور بالأمن والاستقرار وبالخوف بشكل خاص من الغزو الأجنبي.

ورثَ ابن تيمية عن أبيه القاضي الذي اتبَعَ المذهبَ الحنبلي إصراره على الإيمان واليقين. أصبَحَ عالماً ومُفتِياً موثوقاً في الشريعة الاسلامية ولمَّا يَبلغ التاسعة عشرة من عمره، وسرعان ما اشتهرَ علمُهُ وأصبَحَ له أعداء بين أتباع المدارس والمذاهب الشرعية الأخرى، مما أدى إلى طَردِهِ من تدريس الدين. توسَّعَ ابن تيمية أبعد مما اعتَبره ابن حنبل الهدَفَ المركزي للقيادة المُسلِمة فأعلَنَ أنه لا يكفي أن يُبطِل المؤمنون الحقيقيون بِدَعَ الضالّين وأن يُطَبِّقوا الشريعة الصحيحة، بل وأن يجاهدوا لطَردِ الغزاة المحتلين. ساعدَهُ استمرارُ وجودِ المَغول الذين اندَحَروا ولكنّ خَطَرَهم ما زال قائماً، فمَنَحَتْهُ السلطات التي كانت في عصره فرصةَ إعلانِ الجهاد، وذلك ما فَعَلَهُ بكفاءة عالية.

شاركَ الرجالُ الذين حفَّزَهم ابن تيمية في تحقيق النصر على فلول المَغول في معركةٍ جَرَتْ قرب دمشق سنة 1303. كانت المعركة شرسةً وقاسية ضَحَّى فيها المنتصرون بكثيرٍ من الرجال الذين اعتُبروا آنذاك شهداء، مثلما يُعتَبر قَتلى المجاهدين هذه الأيام. كان تأثير هذه المعركة واضحاً على أفكار ابن تيمية، وظَهَرَ ذلك في هجومه الشديد على "الضالين والمنحرفين" من

المسلمين بمن فيهم الاسماعيليون وغيرهم من الشيعة. وفي أيامنا أيضاً يُسيطِرُ الخوفُ من المؤيدين المحليين للمستعمرين الأجانب على تفكيرِ وسلوكِ أتباعه المعاصرين.

يبدو أن ابن تيمية قد أصبحَ بطلاً محلياً، إلا أن تَشَدُّدَ مذهَبِهِ كان أصعب من أن يتحَمله الرجالُ العمليون الذين كانوا يَحكمون مصر، ولذا فقد سُجِن مثلما حَدَثَ لابن حنبل قبلَهُ، وما حدَثَ للأصولي المصري سيد قطب بَعدَه. لم تَنكَسرْ روحُهُ الثائرة بعد حبسه سنة ونصف، وعندما أُطلِقَ سراحه تَحَدَّى كلَّ الذين اتَّهموه. فسُجِنَ مرة ثانية وقضَى وقته في دعوة السجناء إلى مذهبه في فَهمِ الإسلام، مثلما فَعَلَ مَن جاء بعده من أتباعه عندما سَجَنَهم حكام دول الشرق الأوسط، ومثل الذي نَصَّبَ نفسَه خليفةً في الدولة الإسلامية (داعش)، ومع حكام روسيا والصين في آسيا الوسطى، والأمريكان في العراق.

دخَلَ السجنَ وخَرَجَ منه مرات عديدة، وشَغَلَ وقتَه بكتابة تفسير للقرآن، تماماً مثلما فَعَلَ مُريده سيّد قطب عندما سجَنَهُ الرئيس جمال عبد الناصر بعدها بحوالي 650 سنة في الستينيات. سُمِحِ لسيّد قطب أن يستمر في الكتابة، غير أنه لم يُسمح لابن تيمية بذلك عندما اكتُشِف أنه كان يُطَوِّرُ أفكاره ويَنشرُ آراءه بهذه الطريقة، فأُخذتْ منه جميع مستلزمات القراءة والكتابة. توفي بعد ذلك وهو حزين ومُسْتاء.

ومثلما حَدَثَ عند وفاة ابن حنبل، خَرَجَ في جنازته جميع سكان المدينة تقريباً. كانت تلك إشارة واضحة على قبولهم لأفكاره وآرائه، ومن سخرية القدر أنه دُفِن في مقبرةِ جماعةٍ ابتعدَتْ كثيراً عن الأصولية التي سَخَّرَ حياته من أجل الدعوة إليها.

تَختلفُ الصوفيةُ في مَنطِقها عن الأصولية على الرغم من أنها تختلط بها. تشبه الصوفيةُ الإسلامية في بعض جوانبها رؤيةَ القديس فرانسيس الأسيزي، واتَّخَذَ أتباعُها لبس الصوف الخام شارةً مميزة لهم مثلما فَعَلَ أتباع القديس فرانسيس.

كانت الصوفيةُ تطوراً متأخراً في الإسلام، إلا أن جذورها تمتد في التاريخ. بَحَثَ الناس في كل مكان عن إجابات لأسرار الغموض والشقاء في الحياة، وبَحَثوا فيما وراء الحظ والصدفة عن نوع من النَّمَط أو السبب. وزَعَمَ كهنةٌ وسحرة وصوفيون من جميع الأنواع والأشكال أنهم يعرفون طُرُقَاً سِريّة للتَّوصل إلى الفَهم أو إيجادِ العَزاء أو معرفة طُرُقِ النجاح، وعَرَضوا تَقديمَ حَلٍّ وطريقةٍ لكلِّ مَن وافَقَ على اتِّباعهم.

وكما طُبِّقَتْ في الإسلام، كان اتِّباع الطريقة يعني أحياناً إعادة تشكيل حياتهم وتَغيير أهدافهم. وكان التَكفير عن الخطيئة يُكتَشَفُ دائماً ويَتَطَّلَبُ غالباً نوعاً من العقاب أو العَطاء أو الإهداء، ويُتَوصَّلُ بها إلى الانعزال عن العالَم جسمياً أو ذهنياً لفترات طويلة أو قصيرة. وقد تَتَطَلَّبُ الطريقةُ أحياناً أفعالاً جماعية أو عنيفة. ظَهَرَت جميع هذه الاحتمالات في الصوفية، واختَلَفَ الصوفيون في طُرُقِهِم: بعضُهم كان هادئاً بينما كان آخرون مُحارِبين. كانت الصوفية المَلجأ الوحيدَ لمئات الملايين من المسلمين أمام المآسي والدَّمار والرعب الذي خَلَّفَهُ غَزو المَغول، ولذلك بَحثاً عن حياة روحانية أكثر غنى وعطاءً من الناحية النفسية، ظَهَرَتْ عشرات الطرق الصوفية المختلفة في

أواسط وجنوب شرق آسيا وانتشَرَتْ عبر الأرض إلى الصومال ونيجيريا. وسأناقشُ في الجزء الثاني دَورَهم في حركات المقاومة الإسلامية خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

اتُّهِمَت الأنظمةُ القائمة غالباً بالفساد والاستبداد والتَّهاون مع الأجانب، وكذلك اتُّهِم الصوفيون أنفسُهم أيضاً بكونهم مُخرِّبين. ولم يكونوا التهديدَ الوحيد في نَظَرِ الحكام، فكثيراً ما وَجَدَ الحكامُ مُتمَرِّدين خَطِرين في قَلْبِ بيوتهم. نَشَأ ذلك غالباً بسبب تعدّد الزوجات الذي أدى إلى التَّنافس بينهن وتَحريضَهن على العَداوة بين أبنائهن. يرجعُ مَنشأ كثير من الاضطرابات في تاريخ المسلمين إلى هذا السبب. فقد كان الإخوة وأبناءُ العم وحتى الأبناءُ أقرباءَ وقتلةً محتملين في الوقت نفسه. وضَعَ حكيمٌ هندي هذا السبب بشكل لا يُنسى حينما كَتَبَ أن أقرباء الحكام هم "مثل السلطعونات، لديهم ميلٌ شديدٌ لأكلِ أبنائِهم". ومن أجل السيطرة على هذه المِيول المُزعِجة الخَطِرة، طَوَّرَ الحكام طُرُقَاً دفاعيةً مدروسة ومفصَّلة. من الأمور التي تَظهَرُ بشكلٍ متكرر في مئاتٍ من الكُتُبِ عن الاستراتيجية، والتي تُعرَف باسم "مَرايا الأمراء"، ونَربطُها نحن بالمؤلف ماكيافيللي، هي أنّ الحاكمَ يكون حَكيماً عندما يُحيطُ نفسَه بأتْباعَ يُخلِصون له وليس للسلالة"[30]. قد يَطمَحُ النبلاءُ للحكم، إلا أنّ الخَدَمَ أقلّ مَيلاً لذلك الأمر. ولذا فكثيراً ما استَخدَم الحكام خَدَمَ بيوتهم، ليس فقط لطبخ طعامهم، بل لممارسة أمورِ الحكومة أيضاً[31]. وتَطَوَّرَ هذا النظام في العالَم الإسلامي حتى أصبَح يشبه في غموضَه الجيشَ السريَّ لحسن الصبّاح.

آمَنَ الحكام المسلمون في القرون الوسطى بأن أكثر الأشخاص الذين يمكن الوثوق بهم هم الذين ليس لديهم أي طُموح سياسي، ولذا فقد وضَعوا الرَّقيق والعبيد في مراكز الخِدمة المنزلية ثم في الحُكم والجيش. كان هذا النَّمط من المُجتمع العسكري ناجحاً ومفيداً لدرجة أنه تم تَطبيقُه في الهند وآسيا الوسطى ومصر وشمال أفريقيا، وكان من نتائِجِهِ غيرِ المَقصودة دخولُ عددٍ كبير من الناس من أديان وأعراق مختلفة إلى المجتمع الإسلامي، فدَخَلَ الترك والشركس والتتار وغيرهم من الأقوام في آسيا الوسطى، ومجموعات من الأفارقة واليونانيين والسلافيين من أوروبا الشرقية، وحتى بعض الأوروبيين من غرب أوروبا وانكلترا. عَمِلَ مئات الآلاف من هؤلاء الناس في الدول الإسلامية في الهند ومصر والامبراطورية العثمانية، وانخَرَطوا في أعمال الحكومات والجيوش. تَمَتَّعَ بعض هؤلاء "المماليك"، على الرغم من أصولهم المتواضعة، بإمكانيات عالية وَصَلَتْ بهم إلى درجات عالية مثل رئاسة الوزراء وقيادة الجيش. تمكَّنَ بعضُهم من عَزلِ حكامهم الذين كانوا يَمتَلكونهم وأصبَحوا هُمُ الحكام، ونرى المُحارِب-الحَاكِم-الرَّقيق في كافة أنحاء العالَم الإسلامي، مثل المماليك الذين حَكَموا مصر حوالي أربعمئة سنة، وكان حكام بعض الولايات الهندية من الرقيق في أصلِهم. وكان كثير من القراصنة البرابرة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في الأصلِ رجالا انكليز أو فرنسيين هَرَبوا أو خُطِفوا وأصبَحوا من الرَّقيق، ولذلك كان يُطلَقُ عليهم لقب "رينيغادوس" الذي يعني بالاسبانية "المارِقين".

ارتَبَطَ العالَمُ الإسلامي في العصور الوسطى ببقية أرجاء العالَم عن طريق هؤلاء الوافِدين، وقبلَ مَجيء الإسلام بزمنٍ طويل، كان التجار العرب والفرس يَجوبون المحيط الهندي، واكتَشَفَ أجدادُهم الرياح الموسمية واستَخدَموها في إبحارهم منذ أيام الرومان على الأقل كما نَعلَم من كِتاب

"الطواف في البحر الأحمر" وغيره من كُتُب إرشاد البحارة والتجار. جَعَلَ التجارُ العربُ المحيطَ الهندي بُحَيرَتَهم، كما تَخَيَّلَ مؤرخٌ هندي السكانَ الأصليين من الهندوس وهم يراقبون وصول التجار العرب إلى الهند:

"كان الأمراءُ المتحمسون لتحسين تجارتهم يُقَدِّمون أفضَلَ استقبالٍ وكريمِ المعاملة للرجال الذين سَيطَروا على طُرُقِ التجارة الرئيسية في العالَم المتحَضِّر. كانوا رجالاً مُلتَحين يلبسون قمصاناً طويلة ويصطَفون للصلاة في أوقاتٍ مُحدَّدة داخل بناء مستطيل الشكل لا يحتوي على أية تماثيل دون أن يَلتزِموا بأي أشكال طَبَقِيَّة في مَنظَرٍ زالَتْ غرابَتُهُ تدريجياً مع مرور الزمن. أسسوا مستوطناتٍ وتَكاثروا وأصبَحوا جزءاً لا يتجزأ من السكان[32]."

أبحَرَ التجار يَشترون التوابل ويَبيعون اللؤلؤ وغيره من البضائع المُترَفة، وعَبَروا مضيقَ مالاكا بين سومطرة وشبه جزيرة الملايو، واستوطَنوا في مناطق جنوب شرق آسيا وجنوب المحيط الهادي. وأبحَروا على طول السواحل الشرقية لآسيا إلى شنغهاي وغيرها من المدن الصينية. كانت مدينة كانتون مرفأً يرتادُه التجار العرب والفرس بانتظام. ومِن طَريقَتِهم في لفظ "شنغهاي" وصَلَتْنا طريقة كتابة اسم هذه المدينة التي يُسَميها الصينيون "البحر المنتَفخ". وكانت أسواق المدينة العظيمة شيان، عاصمة سلالة تانغ، تمتلئ بالتجار المسلمين وبضائعهم الغريبة[33].

عندما انطلقَ الرحالةُ العربي ابن بطوطة إلى الصين حوالي 1330، وَجَدَ مستوطناتٍ مستقرة من المسلمين مع الصينيين في كل مكان، وكانوا يعملون في التجارة البحرية البعيدة المدى. وأبدَى إعجابَه بتَقَدُّم السُفن الشراعية في المحيط الهندي مقارَنَةً بسفن البحر الأبيض المتوسط. اتَّسَعَتْ بعض هذه السفن لحَملِ ألفِ مسافرٍ وبحار تَوَزَّعتْ أماكن إقامَتهم على أربعة طوابق كان في بعضها حمَّامات خاصّة. كما أدهشَتْهُ العلاقاتُ السهلة بين الناس من مختلف الأعراق والأديان. كان وكيل إحدى السفن الصينية من أصلٍ عربي سوري، وعندما وصَلَ أخيراً إلى الصين، اكتشَفَ أنه في كل مدينة يوجَدُ "حَيٌّ يقطنه المسلمون حيث يُسمَح لهم ببناء المساجد".

يبدو أن تجار المحيط الهندي كانوا غالباً من جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، بينما كان تجار مكة في الشمال يُقيمون في مَركَزِ تجارتهم العالَمية ولا يبدو أنهم يَعرفون كثيراً عن هذه المغامرات البعيدة. يَظهَر لنا اهتمامُهم بالهند والشرق الأقصى من قصةٍ مسلِّية رُويَتْ في عهد الخليفة الثاني عمر الذي كان رجلاً طموحاً ومتحمساً يَندَفعُ دائماً لتوسيع الامبراطورية الإسلامية الجديدة، فأمَرَ واليهِ في العراق أن يضمَّ إليهِ ما كان يعتقد أنها "الهند" ومناطق شمال غرب السند. وفي أغرب ردٍ مُقنِعٍ على اقتراحِ مغامرةٍ عسكرية أجابَ الوالي أنّ محاولةَ "تَغيير النظام" في الهند سيكون كارثة، ونَصَحَ الخليفة: "لا تفعلْ ذلك" لأنه في الهند "الماءُ قليلٌ والفاكهةُ سيئةٌ واللصوص جريئون فإذا أُرسِلتْ قِلَّةٌ من الجنود إليها فسيُقتَلون، وإذا أُرسِلتْ كَثرةٌ فسيقضي عليهم الجوع"[34].

أثارَت الهندوسية دَهشةَ واستغرابَ التجار العرب والفرس لأنها تُمَثِّلُ النَّقيضَ المُباشر للإسلام، ففيها تَعدّد الآلهة، وتُصَوَّرُ آلهتها بشكل تماثيل، في حين وصَفَهم المؤرخُ الهندي الذي تَخَيَّلَ

المشاهدَةَ التي ذكَرتُها سابقاً بأن المسلمين "يصطفون للصلاة في أوقات محدَّدة داخل بناء مستطيل الشكل لا يحتوي على أية تماثيل". يَذكُرُ القرآنُ بوضوحٍ كيف يجب التَّعامُلُ مع المشركين الذين يَعبدون الأصنام: يجب تَحويلَهم إلى الإسلام، وإذا رفَضوا فيجب قَتْلُهُم. وبالفعل عندما رَفَضَ الهندوس التَّخلي عن آلهتهم في بدايات القرن الحادي عشر، فإن المسلمين، وخاصة الجُدُد من الترك والأفغان قتلوا آلافاً منهم ودَمَّروا معابدهم[35].

حتى في تلك الأيام المبكرة أصبَح من الواضح أنَّ السيفَ لا يتَغَلَّبُ على المعتقدات الدينية أو الأفكار السياسية. تَقتُلُ الحلولُ العسكرية كثيراً من الناس، إلا أنها نادراً ما تَربَحُ الحروب. لم يَستوعِبْ هذا الدرس سوى قلة قليلة من الحكام عبر التاريخ. إلا أن واحداً من أكثرهم حكمة في ذلك العصر كان السلطان محمود الغَزنَوي في أفغانستانِ الذي أدرك بسرعة أن على المسلمين أن يَتعايَشوا مع الهندوس إذا أرادوا البقاء في الهند. لم تُكَلِّفْهُ استراتيجيته شيئاً، إذ أنه تَظَاهَرَ ببساطة أنه لا يُدرِكُ تَعدّد الآلهة عند الهندوس ولا أنهم يَعبدون الأصنام. عامَلَهم معامَلَةَ المسيحيين واليهود وكأنهم من "أهل الكتاب"، وحقَّقَ هذا القرار سلاماً مقبولاً في الهند لمئات السنين.

ساهَمَتْ فئتان من الهندوس في المحافظة على هذا السلام: ففي الطبقات العليا من المجتمع الهندي، قَبِلَ الأمراء وكبار ملّاك الأراضي عروضَ المشاركةِ في الامبراطورية، ووَجَدَ الحكام المسلمون، مثلما وَجَدَ البريطانيون مِن بَعدهم، أنه من الأسهل في الغالب أن يَستَقِرَّ الحُكم عن طريق مَنْحِ بعض الوظائف لمن يَقبَلها من السكان المحليين. وبينما مارَسَ هؤلاء الحكام البُدَلاء الطقوسَ الهندوسية مع عامة الشعب، كان كثيرٌ منهم يتزوجون سراً من مسلمات، وأقسَموا الولاءَ للحكام المسلمين وتعايَشوا مع نظامهم في الحكم.

في الطبقات الدنيا من المجتمع، تَحَوَّلَ إلى الإسلام ملايين من الهندوسيين المنبوذين، فقد كان التَّحَول بالنسبة إلى هؤلاء بمثابَة التَّحرر، فتَخَلَّصوا من استبداد وظُلمِ النظام الطبقي الصَّارم، واستبدلوا حياة الرِّق بحياة "الأخوَّة" التي كانت أحد أكثر الجوانب جاذبية في الإسلام. اختار ملايين من الآخرين شَكلاً من الإسلام غير العربي بانضمامهم إلى الطُرُقِ الصوفية.

لم يهتم الأتراكُ كثيراً بالصوفية، فقد كان اهتمامهم مُرَكَّزاً على القوة والسلطة. في سنة 1206 أعلَنَ مُحارِبٌ تركي اسمه: قطب الدين أيبك نفسَه سلطاناً على دلهي وأسس سلالةً مَملوكية، ولعل أكثر ما يُذكَر من مملكته يَرجِعُ إلى واحدة من عائلته وهي حفيدَتُه راضية التي كانت المرأة المسلمة الوحيدة التي حَكَمَتْ دولة في الهند. كانت دولة أيبك مُقَدِّمَةً لحُكمِ السلالة المُغولية العظيمة التي أسسها الفاتح المسلم بابور سنة 1526.

لا شك بأن بابور كان من الفاتحين الاستثنائيين في التاريخ، فقد كان من أحفاد حاكِمَين من أقسى حكام المَغول، جنكيزخان من جهة والدته، وتيمورلنك من جهة والده. كان مثَقفاً بشكل ممتاز، ولِد في فرغانة فيما يُعرَفُ الآن بأوزبكستان قبل فترة وجيزة من إبحار كريستوفر كولومبوس لاكتشاف أمريكا. أصبَحَ شاعراً مَرموقاً بلغة الشاغاتاي، وهي فرعٌ من اللغة التركية الشرقية، وكان يُجيدُ الفارسية وربما العربية أيضاً. كان في الوقت نفسه استراتيجياً عسكرياً ماهراً استطاع توحيدَ

قواتٍ قَبَلية متفرقة صغيرة في جيوش قوية. وانتصرَ بهم في معركة بانيبات الكبرى سنة 1526 التي مَكَّنَتْهُ من تأسيس الامبراطورية المُغولية في الهند. تَرَكَ لِمَن خَلَفَهُ حدائقه الجميلة وتاريخه الشخصي المشرق[36].

بعد ذلك بحوالي قرن من الزمن، ذَكَرَ السير توماس رو Sir Thomas Roe أول سفير انكليزي إلى حكام أكرا، أنّ امبراطورية المُغول التي أسسها بابور كانت إحدى عجائب الدنيا[37]. جاء رو من انكلترا التي كانت فقيرة نسبياً ولكنها تَنبض بالثقافة والفكر، وانبَهَرَ بغنى المُغول بالذهب والمجوهرات، ولكنه لاحظ تَخَلُّفَ الهند بالمَهارات التِّقَنية. هذا التَّخلف الذي لاحَظَهُ مباشرةً ذلك الدبلوماسي الفطِن في أوائل القرن السابع عشر هو من أهم أسباب خضوع أمَمِ الجنوب للاستعمار الأوروبي.

اهتَمَّ بابور بالتقنيات الأوروبية، مثلما فَعَلَ أباطرةُ الصين حين حاوَلَ الانكليز بَيعَهم الأقمشةَ الصوفية والأسلحة والأدوات والآلات، إلا أنه لم يَشأ أن يَدفَعَ ثَمنَها تَغييراتٍ اجتماعيةٍ وثقافية. كانت العَظَمَةُ بالنسبة إليه تَكمُنُ في القوة العسكرية والثروة والروعة الفنية. بلَغَت الروعةُ الفنيةُ أقصاها في الهند خلال عَصرِ حفيدِهِ شاه عباس عندما أنتَجَ كتَّابها وفنانوها وحرفيوها فيضاً من الأدب بالعربية والفارسية والهندية والأوردية، ورَسَموا مُنَمْنَماتٍ رائعة وأبنيةٍ ضخمةٍ رشيقة مثل القطعة الرائعة في فن العمارة التي تُسَمى: تاج محل. وربما كانت أعظم صفات الامبراطورية المُغولية في الهند هو مَزجها الرائع بين الثقافات: مِنَ البداياتِ الخَشِنة للماضي المَغولي، إلى تَهذيبه الرقيق تأثّراً بالأدب واللغة الفارسية، حتى وصَلَ إلى الثقافة العالَمية المَصْقولَة.

تَمَيَّزَت الحضارةُ الإيرانية أيضاً بالنَّقاء والرقة، ويبدو ذلك واضحاً في أدبها الجميل الذي امتَدَّ أيضاً إلى التركية والعربية وكسِبَ اهتمامَ الكتاب الانكليز والألمان والروس والفرنسيين في القرن التاسع عشر. وأكثر ما يُثير الاهتمامَ في الثقافة الإيرانية والهندية هو رسوم منمنماتِها الدقيقة وأبنيتِها الضخمة.

ظَهَرَت أمجادُ إيران عبر تاريخها الطويل في مدنها. تم تأسيس مدن جديدة فيها تَطَوَّرَتْ وازدَهرَتْ لتَزولَ أو تُدَمَّر على يد جيوش الغزاة أو بالزلازل القوية. إلا أن التقاليد المَدنية ظلَّتْ مستَمرة ونَشيطة. كانت أصفهان أشهَر وأجمَل المدن الإيرانية والتي جَعَلَها الحاكمُ الصَّفَوي الإيراني الكبير شاه عباس عاصمةً له سنة 1598. عاشَ فيها حوالي مليون انسان، وكان ذلك أربعة أضعاف عدد السكان في لندن أو باريس في ذلك الوقت. ومثلما فَعلَ القيصر بطرس الأكبر عندما بَنَى مدينة سان بيترسبرغ، جَمَعَ شاه عباس أشهَر المهندسين المعماريين في العالَم وأمهَر الفنانين والحرفيين لبناء أصفهان. وفي الحقيقة فقد نَشَرَ عباس شَبَكَتَهُ أوسَع مما فَعَلَ بطرس، فبالإضافة إلى جَلْبِ الفلورنسيين والبنادقة، جَمَعَ البنّائين من الهند والصين. وكانت مئات الجوامع والحمّامات العامة والخانات التي بُنِيَتْ تحت رعايته تُعتَبر معجزاتٍ في زمَنِها. كان أكثرها إبهاراً الساحةُ المركزية الواسعة: ميدان الشاه التي كانت أكبر بست مرات من ساحة سان ماركو في البندقية. تم استخدَامُها ملعباً لكرة البولو ومجلساً لرواة القصص ومكاناً للاعبي السيرك والتجار والشعراء، وكانت تُضاء في المناسبات بأكثر من خمسين ألف شمعة بينما كانت الفرق الموسيقية تَعزِفُ على الشرفات

المُحيطَةِ بها. اختَصَرَتْ جملةٌ إيرانية روحَ المدينة في ذلك العصر بقولها: "أصفهان هي نصف العالَم".

لم يلاحَظ ذلك الاهتمام والتفاخر ببناء المدن في بدايات الامبراطورية العثمانية، فقد كان على العثمانيين أن يخوضوا حروباً صعبة وأن يقاتلوا في سبيل نجاحهم، واقتَربوا كثيراً من الزوال والفناء التام على يد أقاربهم المَغول، ففي سنة 1402 في معركة أنقرة، أَسَرَ تيمورلنك الزعيمَ العثماني وسارَ به في قَفَصٍ حديدي. إلا أن خسارة هذه المعركة لم توقِفْ زحفَ الأتراك نحو القسطنطينية، ثم نحو فيينا، ولكنها أخَّرَتْهم حوالي نصف قرن. يَعتقد بعضُ الباحثين أن ذلك التأخير كان مُهِمّاً في نقل معارف الإغريق الكلاسيكية التي كانت محفوظَةً في القسطنطينية إلى أوروبا، وكانت عنصراً أساسياً لانطلاق عصر النهضة. سواء كان ذلك صحيحاً أم لا فقد اكتَسَبَ الترك تدريجياً احترامَهم للمدينةِ العظيمة وعَمَّروا في اسطنبول التي حَلَّتْ مَحَلَّ القسطنطينية كثيراً من الجوامع العظيمة والقصور التي بَهَرَت الزوار من أوروبا الغربية[38].

لم تتميَّز الامبراطوريةُ العثمانية في أَوجِ عَظَمَتِها بعَمارتها وآدابها أو بفنونها المَصقولة، بل كان أهم ميزاتها هو امتدادها الواسع وقوتها العسكرية. أكثر ما أثار إعجاب الأوروبيين بها هو نظام إدارتها وانضباط جيشها. أطلَقَ عليهم ريتشارد نولز Richard Knolles أول مؤرخ انكليزي مختَصٍّ بالأتراك أنهم "رُعْبُ العالَم"[39]. اقتَرَبَت الجيوشُ العثمانية كثيراً من احتلال فيينا مرتين، واحتلوا معظم مناطق البلقان عدة قرون. كان الجيشُ ومدفعيته وكذلك بحريته بين أقوى الجيوش في العالَم في القرنين الخامس العشر والسادس عشر. ضَمَّ العثمانيون إلى جيوشهم، بالتجنيد أو بالخطف القسري، الشبابَ الأقوياء من غير المسلمين خاصة من مجتمعات المسيحيين في اليونان والبلقان، وتم تَحويلهم إلى الإسلام وتَدريبهم على السلاح والقتال وتَوظيفهم إما كَجُنود أو في الخِدمة المدنية، ووصَلَ بعض هؤلاء الرجال إلى أعلى المَراتب في الدولة العثمانية.

في القرن السادس عشر كانت الامبراطورية العثمانية التركية والامبراطورية الصفوية الإيرانية والامبراطورية التركية-المُغولية في الهند بين القوى العظمى في العالَم. تعاونَتْ معهم بعض الدول الأوربية، بينما حاربَتْهم أخرى بشَراسة[40]. ومع نهاية القرن السابع عشر تقريباً، دَبَّ الضَّعف في هذه الامبراطوريات الثلاث مما فَتَحَ المجال أمام دول الشمال العالمي للتَّحرك نحو الجنوب.

الفصل الخامس

الشمال يتحرك نحو الجنوب

حتى القرن الخامس عشر، كان العالَمُ الإسلامي يشمَل بعض أغنى المجتمعات وأكثرها تَقدُّمَاً وازدِهاراً في العالَم. وكانت الامبراطورية المُغولية في الهند تُعادِلُ الصين وتَتجاوَزُ أوروبا في ثروتها بمراحل عديدة. وقَدَّمتْ إيران مستوى أدبياً وفنياً كان مثالاً يُحتَذى به في آسيا. وسَيطَرت الامبراطوريةُ العثمانية على مَناطق أكبر من مساحة أوروبا بكفاءةٍ اقتصاديةٍ وبدرجَةٍ من التَّسامح لم تَعرفها أوروبا. وتَوَطَّنَ الإسلامُ بلطفٍ وقوة بين تَتار القرم وسكان جنوب شرق آسيا والفلبين.

كانت أحوالُ الناس في الأرياف الإسلامية تشبه بشكل عام أحوالَ أولئك الذين عاشوا في أرياف أوروبا. فقد عاشَ الفلاحون الفرنسيون في قرى مثلما عاشَ الفلاحون في أفريقيا وآسيا، وعملوا في الحقول بأدوات بسيطة ومحاريث تَجُرُّها الدوابُ أو بأيديهم، وكان مستوى معيشتهم مُتَقارباً من ناحية استهلاكهم للطعام على الأقل. انتَشَرت الأميَّة بينهم، وارتَكَزتْ مجتمعاتهم على أسسٍ دينية تقليدية.

كان هنالك اختلافان أساسيان في المعيشة بين الأوروبيين والأفروآسيويين. نَشَأ الأول من نَقصِ المياه، فقد عاش أغلبُ سكان شمال أفريقيا وغرب ووسط آسيا في قرى مُنفَصِلَة مُتَباعِدة اعتمد أغلبُها على الرعي وحياة البداوة، بينما توفَّرَت للقرويين في أوروبا مياهُ الأنهار والآبار والأمطار الغزيرة فكانت قراهم مُتقارِبة وأكثر كثافة واستقراراً، ولم يكن هناك بدو رُحَّل في أوروبا. أما في المدن فقد كان الوضعُ معكوساً، فقد كانت مدن العالَم الإسلامي أكبر من مدن أوروبا، ووَصَلَ عدد السكان في القسطنطينية (التي أصبَحت اسطنبول فيما بعد) وأصفهان وفي عدد من مدن الهند إلى أكثر من مليون، بينما كانت مدن أوروبا صغيرة، ولم يَصِلْ عدد السكان إلى حوالي المئتي ألف سوى في البندقية وميلانو، وكان عدد سكان باريس سبعين ألفاً، وكان في لندن نصف ذلك العدد. كان عدد سكان اشبيليا حوالي خمسة وثلاثين ألفاً، ولشبونة حوالي خمسة وعشرين ألفاً. في القرن السادس عشر عاشَ واحدٌ من كل عشرين شخصاً في مدن أوروبا، بينما كان تسعة عشر شخصاً من كل عشرين فلاحاً أو عبداً يعمل في الزراعة. في تلك الفترة ذاتها، عاشَ أغلب مسلمي آسيا في المُدن التي كانت أكثر تحضراً من أوروبا المسيحية[41].

من نتائج هذا الاختلاف الكبير في عدد سكان المدن طَوَّرَتْ مجتمعاتٌ اسلامية كثيرة، وبشكل خاص في الهند المُغولية، أنظمةَ توزيعٍ متماسكة وشامِلة لم يوجَد لها مثيلٌ في أوروبا. ففي مجال صناعة وتسويق الأقمشة مثلاً، تمكَّنَت الهند المُغولية في القرن السادس عشر من تطوير نظامِ حياةٍ اقتصادية يشبه ما وجِدَ خلال الثورة الصناعية الأوروبية في القرن الثامن عشر. وفجأة بدأ التَّغَيُّر في مناطق الشمال العالمي بينما لم يَحدُثْ ذلك في الجنوب.

كانت أسباب حدوث التَّغيُّر في أوروبا مُرَكَّبَة ومُعَقَّدة، ولكن أحدَ الأمثلةِ للفرق الواضح بين ما كان يَحدثُ في الشمال والجنوب هو أن أوروبا قد بَدَأتْ حتى قَبلَ عصر النهضة سلسلةً مِنَ التَّغيُّراتِ التقنيةِ الصغيرة، وعندما ظَهَرَتْ فوائدُها طَوَّرَها الأوروبيون ثم طَبَّقوها على نطاقٍ واسع في الثورة الصناعية. يتَّضِحُ ذلك إذا درسنا تَغَيُّراً مُهِمَّاً واحداً لمْ يوجَد له مَثيل في الجنوب: النَّظارة.

اختُرعَت النظارة في إيطاليا في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر، واكتَشَفَ الحرفيّون الذين تَطولُ فترة تدريبهم سنوات عديدة قبل أنْ يُصبِحوا ماهرين في عملهم أنهم إذا استَخدَموا النظارة فإنهم يَستطيعون إطالَةَ حياتهم العَملية المُنتِجة سنوات إضافية، وإذا نَظَرنا إلى النتيجةِ العامَّة فإن هذا التَّغيُّر قد أضافَ حوالي 20% إلى القوة العامِلة المَاهرة[42].

انتَشَرت ثورةُ تَحسين النَّظَر وأثَّرَتْ في اقتصاد أوروبا. اعتَمَدَ انتشارُ اكتشافِ فوائدِ النظارة وغيرها من الاختراعات على التَّواصُل. لم يكن انتقال المعلومات شفهياً طريقةً ذات كفاءة عالية لأن الحرفيين الذين كانوا يَحتاجونها لا يَنتَقِلون ولا يُسافِرون كثيراً، ولكن حَدَثَ أمران: الأول كان ثورةً في التفكير بأنه إذا كانت هناك مشكلة فقد بدأ الناسُ يؤمنون بأن هناك حلاً يمكن التَّوصُلُ إليه. والثاني هو أنه عندما يُمكِنُ التَّوصُلُ إلى حَلٍّ لمشكلة في منطقة ما، فإن الناس في مناطِقَ أخرى يَرغبون بمعرفته.

احتاجَتْ معرفة حَرَفِيٍّ ماهر في بروكسل لما يَفعَلُهُ نَظيرُهُ في فلورنسا إلى طريقةٍ مختلفةٍ في التَّواصل، وكان الحَلُّ بنَشْرِ الطِّباعة على نطاق واسع. وعلى الرغم من أنه قد وجِدَتْ في بغداد القرن العاشر صناعةٌ متَطورةٌ لنَشْرِ الكُتُبِ اعتَمَدتْ على اختراع الصين للورق كما ذكرتُ مِن قَبل، إلا أنّ أغلَبَ الكُتُب المنشورة كانت تَبحَثُ في قضايا الأدب والدين. ويَعود الفَضل بعد ذلك بخمسة قرون إلى يوهانس غوتنبرغ بِبَدءِ ثورةٍ جديدة. لم يكن وَحدَهُ، فقد طَوَّرَ مُستَثمرون آخرون مؤسساتٍ للطباعة.

نَشَرَ الأوربيون حوالي أربعين ألف كتاب كان أغلبها يَبحَثُ أيضاً في الدين، وكان الكتاب المقدَّس أشهر مطبوعات غوتنبرغ. ولكنَّ عدداً متزايداً منها كان يَبحَثُ في نَشرِ المعلومات. في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، أصبَحت كُتُبُ الطُّرقِ والأساليبِ التِّقَنية مُتَوفِرةً حولَ طَيفٍ واسعٍ من الأدوات والآلات والتقنيات، وظَهَرَ نوعٌ من سوق الأفكار اشتَغَلَ في خِدمَته وتَطويره كتَّابٌ وناشِرون. انتَشَرت الكُتُبُ بشكل واسع بسبب انتشار الحاجَة إلى المعلومات.

بالإضافة إلى مصاعب تحرير محتوى الكتب، واجَهَتْ ناشِري الكُتُب مصاعب في طباعتها: فقد أصبَحَ الورقُ المعيار الأساسي في الطباعة بَدَلاً مِنَ الرِّقاق والرِّقاع، وكان عليهم تَحسين وتَسهيل طريقة الكتابة وإيجاد بديلٍ لِفَنّ الخَطِّ المَكتوبِ على القِطَع الخشبية. بَدأتْ حروفُ الكتابة بالتَّحسن بخطوات صغيرة، واحتاج الأمرُ لتَطوير حروفٍ في قَوالبَ مَعدَنية. لا بد أنّ التَّوصُل إلى المُرَكَّبات

المَعدَنية المُناسِبة قد احتاج إلى تجارب كيميائية وانتاجية. فَشِلَ كثيرٌ منها ولكنّ بعضَها نَجَحَ، ومع كلّ نجاحٍ استطاعَ الناشرون طَبْعَ صفحاتٍ أكثَر وتَمَكَّنوا من إضافَة الصور والأشكال التوضيحية في أواخرِ القرن الخامس عشر. ومع تَطَور النَّحت على الخشب والحديد طُبِعَتْ في الكتب مخططات وأشكال تَشرح كيفية صُنع الأدوات وبِناء الأشياء. أضَافَت الخرائط أبعاداً جديدة في عالَم التجارة والاستكشافات الجغرافية، ومِنَ المُؤكَّد أنها ساعدَت على تَصَوّر طبيعة وهوية ما يوجَد فيما وراء المناطق القريبة المُجاورة ومَهَّدَتْ بذلك لظُهور وتَطور المَشاعر الوطنية والقومية.

اكتشَفَ الناشرون أنهم إذا استعاضوا عن العمال بآلاتٍ تَعمل بنوعٍ مِنَ الطاقة بدلاً مِنَ العضلات فإنَّهم يستطيعون طِباعَةَ كُتُبٍ أكثر بكلفة أقلّ. وهكذا تَوسَّعَ استِخدام النَّواعير المائية لتَسخين المَعادن وصُنع الورق، وظَهَرت الحاجَة لتَطويرها وزيادة كفاءتها. قادَتْ كلّ خطوةٍ صغيرة إلى خطوةٍ أخرى بعدها في مناطق الشمال العالمي في إيطاليا وفرنسا وألمانيا والأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) وانكلترا، وظَهَرَتْ ثورةٌ في التفكير قَبلَ أن تَبدأ الثورةُ الصناعية بكثير.

لم تكن هذه الأمور تُثيرُ الاهتمامَ في مناطقِ الجنوب. وكما ذكرتُ مِن قَبل، عندما وصَلَ السير توماس رو، أولُ سفير بريطاني إلى العاصمة المُغولية أكرا سنة 1615، وَجَدَ أن الهنودَ لا يَهتمون بالتكنولوجيا. أعجَبَتْهم الساعات الميكانيكية ولكنهم لم يَعتَبروا الآلات أشياءَ ذات أهمية حقيقية فيما عدا الأسلحة. لم يكونوا بحاجَة إلى الآلات لأنهم كانوا يَستطيعون جَلْبَ أعدادٍ كبيرةٍ من الحرفيين وكان لديهم أعدادٌ كبيرة من البشر والحيوانات. كان فَشَلُ أمَمِ الجنوب في إدراك أهمية معرفة طُرُقِ تَعبِئة المعدَّات والآلات أحَدَ أهم أسباب خضوعها لِحكم الاستعمار الأوروبي، مثلما أدركه وعَبَّرَ عنه ذلك الدبلوماسي النَّبيه في أوائل القرن السابع عشر.

عندما استَعرَضَ البريطانيون أجهزةً عظيمةً، مثل العربات ذات العجلات، عَبَّرَ الامبراطور المُغولي جهانغير عن إعجابه بها، ولكنه لم يكن مُستَعداً لدَفعِ ثمنٍ اجتماعي أو ثقافي من أجل الحصول عليها. فإذا كان لدَيكَ فِيَلَةٌ يَحمِلُ كلٌ منها هودَجَاً مُرَفَّهَاً بالوسائد المريحة، لنْ تَحتاجَ إلى العربات المُذَهَّبَة. وإذا كان عندكَ فَيالق مِنَ الخَطَّاطين والكُتَّاب تحتَ تصرفكَ، فلنْ تَحتاجَ إلى أجهزة الطباعة. وإذا كان باستطاعتكَ دَفعَ جَحافل مِنَ الفلاحين لسوقِ ثيرانهم، فإنكَ لنَ تحتاجَ إلى تَطوير نواعير المَياه. تَوفَّرَت ضروريات الحياة الأساسية للحكام وللطبقة العليا الصغيرة في المجتمع الهندي، وسَيطَروا بإحكام على اقتصاد الهند، وكل ما كان يُثير اهتمامهم هو الرفاهيات الدقيقة، مثل المجوهرات والحرير وغيرها من الأمور الغَريبة والنادرة. لم يَهتَمّ الأثرياءُ والأقوياء بالأدوات والتقنيات التي اهتَمَّتْ بها واختَرَعَتْها الطَّبَقَةُ الجديدة من المُستَثمرين وكبار الحرفيين في أوروبا، فقد كان لديهم مَصادر غير مَحدودةٍ مِنَ القوى العاملة التي تَنسجُ الأقمشة وتَصنَع الورق وتَبني المُنشآت وتَخوضُ الحروب. لم تَجِد الهند المُغولية حاجةً إلى الاستثمار والتَّطوير في أمورٍ مثلَ تلكَ التي كان يَعمَلُ عليها المُستَثمرون في أوروبا.

ربما كان الأتراكُ العثمانيون أقلَّ انفتاحاً أمام التأثيرات الأوروبية. كان جُلُّ اهتمامهم آنذاك هو في تحويل الأسرى الأوربيين إلى جنود انكشاريين، وليس في أن يَنسَخَ الأتراكُ طُرُقَ وأسَاليبَ الأوربيين. أنتَجَتْ تلك السياسة بيروقراطيةً إدارية وجيشاً. لم يكن هنالك سوى مجالٌ صغير أمام الاختراعات التقنية أو التنظيمية مَحدود في الأمور العسكرية. كان الهدف الرئيسي للنظام هو المحافظة على الأوضاع وليس التَّطوير والتَّغيير.

لم يَتَطَلّع الجنوب نحو الشمال العالمي، وعلى الرغم من أن مناطق البحر الأبيض المتوسط كانت مُنفَتِحَةً وآمِنة، إلا أن مَن استَخدَمَها وأبْحَرَ فيها لم يكونوا من الأتراك أو اللبنانيين أو المصريين أو الهنود، بل كانوا من التجار المسيحيين واليهود. وربما كان سببُ ذلك أن المسلمين كانوا في خَطَرٍ قاتِلٍ في أوروبا، بينما كان التجار الأوروبيون المسيحيون واليهود يَستطيعون التَّحرك بِحُرِّيَةٍ أكثر في مناطق سيطَرة المسلمين. كما أن التجار المسلمين لم يكن لديهم حَوافِز قوية لزيارة الأسواق الأوروبية، فلم يكن لدى أوروبا الكثير مما يريدُهُ الآسيويون والأفريقيون، بل كان الأوروبيون هم الذين يَسعون للحصول على البضائع الشرقية والجنوبية.

خلال إبحارهم من الموانئ الصغيرة على طول شواطئ اسبانيا وفرنسا وإيطاليا، اشترى الأوروبيون الحرير الخام مِن جبلِ لبنان، والتوابل المَنقولَة مِن الهند واندونيسيا في مصر، وحَمَلوا الحبوبَ مِن شمال أفريقيا، والسُّكر مِن شرق المتوسط. كانت الأقمشة القطنية الملونة الزاهية بِدعَةً مُثيرةً في الأزياء الأوروبية، واعتُبِرَت السجاجيد أعمالاً فنية رائعة في كل مكان. ارتَفَعَ استهلاكُ انكلترا مِن الشَّاي خلال القرن الثامن عشر من 122000 إلى 16 مليون باوند. وذَكَرَ P. J. Marshall "ارتفَعَت التجارة مع البَنغال بشكلٍ ضَخم في أواخر القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر مع ارتفاع مَبيعات أقمشةِ القطن البَنغالي في أوروبا. وريثما نَمَت الصناعات الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر، كانت التجارة بين البَنغال وأوروبا تَتألف بشكل أساسي من تبادل البضائع مقابل الفضة، وليس بتصدير بضائع الصناعات الأوروبية"[43]. في بعض السنوات كانت الفضة هي التَّصدير الوحيد مِن انكلترا إلى الجنوب. في سنة 1601 مثلاً، شَكَّلَت الفضةُ حوالي ثلاثة أرباع صادرات انكلترا إلى الجنوب. لم تكن أوروبا تُنتِجُ شيئاً مما كان سكان الجنوب يريدون شراءه.

مثلما لم يكن امبراطور الصين مُهتَماً بشراء الصوف الانكليزي (الذي كان يُشكِّل في القرن التاسع عشر 80% من صادرات انكلترا)، فإن حكّام الهند وأثرياءها لم يهتَموا بذلك أيضاً، فقد كان لديهم الحرير والقطن، وإذا رغبوا بالأقمشة الصوفية كانوا يُفَضِّلون الكَشمير.

كان الشراءُ بالعملة الفضية صعباً لأن المَصدر الأوربي الوحيد للفضة كان في شرقِها، وكانت مناجِمَها قد شارَفَتْ على النُّضُوب. كان الذهبُ أكثر ندرة، وكان الحصولُ على الذهب صعباً لدرجة أنه في العصور المظلمة الطويلة لم يَتم صَكُّ أية عملة ذهبية في أوروبا الغربية. كانت أول عملة ذهبية تَصدر في أوروبا منذ انهيار الامبراطورية الرومانية هي الفلورينو الذهبي الذي صُكَّ في فلورنسا سنة 1252، وظَلَّت النقود المعدنية نادرةً قروناً طويلة لدرجة أن ندرَتَها أجبَرَتْهم على إغلاق المَعارِض التجارية وأَحرَجَت التَّبادل التجاري أحياناً.

كان أهم مَصدر مَعروف للذهب هو أفريقيا. يُعتَقَد أن أول تاجر أوروبي زارَ تيمباكتو كان في سنة 1470. كانت تلك المدينة الأُسطُورية آنذاك مَركَزَ بَيعِ الذهب الذي كان يُجلَبُ مِن نهر النيجر. كان تجار تيمباكتو يَنقلون المِلح إلى الجنوب في قوافل الجمال ويُبادِلونه بالذهب. حاوَلَ الأوربيون الدخول في هذه التجارة في بادئ الأمر، ثم تَحايَلوا عليها بالإبْحَار حول سواحل أفريقيا. كان الذهب أولَ الإغراءات التي طَلَبَها أميرُ البرتغال هنري مِنْ مُستَكشِفيه.

استَمَرَّ إيمانُ الأوروبيين بأن كَنْزَ الذهب وليس الانتاج هو أساس الثروة حتى في أواخر القرن الثامن عشر بعد زَمنٍ طَويلٍ من الغَزو الاسباني للأمريكيتين الذي جَلَبَ إليهم فَيضاً من الذهب والفضة. كانت التجارةُ هي السياسة الاقتصادية الأوروبية الرئيسية، وسادَ فيها الاعتقاد بأن النقود تَعني الثروة والقوة. كان المُستَكشِفون المُفْعَمون بالحَيوية، والقراصنةُ المغامرون الذين شَغَلوا نَظرتَنا إلى تاريخ القرن السادس عشر يَبذلون قُصارى جهدهم بَحثاً عن الكنز الذهبي الذي يَختَفي وراء الأفق. وعلى الرغم من أن ذلك البَحثَ لا يُفَسِّرُ اندفاعَ الشمال العالمي نحو السيطَرةِ على الجنوب، إلا أنه كان دافعاً قوياً.

أدركَ كريستوفر كولومبوس ما الذي استحوذَ على اهتمام أوروبا منذ بدايات القرن السادس عشر، وكَتَبَ: "الذهبُ أمرٌ رائعٌ، فَمَنْ يَمتَلِكه يستطيع الحصول على كل ما يريد. بالذهب يَستطيعُ المرءُ أن يُدخِلَ الأرواحَ إلى الجنة"[44].

وهكذا يمكننا فَهمُ فَرَحِ الانكليز باحتلال روبرت كلايف Robert Clive لبلاد البَنغال المُسلِمة، التي كانت الولاية الشرقية للامبراطورية المُغولية، واستيلائه على أطنان من الذهب والفضة. وعندما قَدَّمَ شهادَتَهُ للبرلمان على هذه القرصنة وعلى فساده الأخلاقي الشخصي، قال بأنه "مَشَى في خزائنَ فُتِحَتْ لَهُ وحدَهُ، وتراكَمَ فيها الذهب والمجوهرات على الطَّرَفين"[45]. سَمَحَ كلايف ورفاقه لأنفسهم بأخذِ حوالي ربع مليون جنيه استرليني، أو ما يساوي بلايين الدولارات بأسعار هذه الأيام. حتى صغار الضباط الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة من العمر، أخَذوا ثروات كبيرة بعملاتِ تلك الأيام. كانت سرقاتُ البريطانيين كبيرةً لدرجة أنهم عندما عادوا إلى انكلترا غَيَّرَ النَّابوبُ (Nabobs: وأصلها من الكلمة الفارسية التي تعني "نواب" جمع كلمة "نائب") شَكلَ الأرضِ بقُصورِهم الفَخمة[46].

ما بَدَأهُ كلايف لمْ يَتَوقَّف عند الاستيلاء الأول، بل سَلَبَ البريطانيون من الامبراطورية المُغولية كلَّ ما كان لديها من الذهب والفضة. احتَفَظَ كلايف ورفاقه بجزء كبير من المسروقات، ولكن "استَمَرَّ تَدفقُ ربع مليون جنيه من الفضة كل سنة من أرض البَنغال إلى مستودعاتِ السفن البريطانية، مما عَكَسَ بشكلٍ كبيرٍ تيارَ استنزافِ النقود الذي أزعَجَ طويلاً تجار أوروبا الغربية"[47]. كَتَبَ المؤرخ الأمريكي المشهور ويل ديورانت Will Durant سنة 1930 "كان احتلالُ البريطانيين للهند غَزواً وتَدميراً لحضارةٍ عظيمة قامَتْ به شركةٌ تجاريةٌ بلا أي وازِعٍ أخلاقي أو مبادئ. لم تَهتَمَّ بالفَنّ، بل طَمِعَتْ بالحبوب، واجتاحَتْ بالحديد والنار بلداً شَلَّتْهُ اضطراباتٌ عابرة، ونَشَرَتْ فيه الرشوة والقَتل والسَلب والسرقة، وأسست بالخداعِ القانوني وغير القانوني" ما أصبَح فيما بعد: الهند البريطانية[48].

انقَسَمَ البرلمانُ عما يجب فِعلُهُ بالاحتلال الجديد. أرادوا الاستفادَةَ منه مع أخْذِ موقفٍ أخلاقي في الوقت نفسه. ففَعلوا ما يَفعله السياسيون عادةً: اتخاذُ مواقفَ مُتَناقِضَة. ففي سنة 1784 قَرَّروا "أن احتلالَ وبَسطَ السلطة على الهند يَتَنافى مع رغبات وشَرَف وسياسة الشعب البريطاني"، ولكنهم في الوقت نفسه مَنَحوا الغطاء القانوني لفتوحات شركة الهند الشرقية البريطانية[49]. كَتَبَ مؤرخٌ هنديٌ

معاصِر أنّ "تَركَ تَقريرِ ما هو "عادل وصحيح" بحكم الضرورة لِقَرارِ القوة العظمى (بريطانيا، تصريح المبادئ)... أَطلَقَ العنانَ لجَوادِ الامبريالية البريطانية الجامِح في الهند"[50].

كان الفرنسيون أبطأ قليلاً مِنَ البريطانيين، وكانت مُكتَسَباتهم في الجزائر أقلَّ بكثير مما كان في البَنغال، ولكن عندما غَزا الفرنسيون الجزائر سنة 1830، استَولوا فوراً على كل ما وُجِدَ في خزائن الحَاكم من الذهب والفضة. قال الحاكمُ الفرنسي آنذاك أن سبَبَ الغَزو هو الردُّ على إهانةِ الحاكم الجزائري، ولكن من الواضح أن الانتقامَ لم يكن قضيةً أساسية مستعجلة لأن الفرنسيين انتَظَروا ثلاث سنوات لتنفيذه. ولم يكن المالُ هو الهدف الوحيد للهجوم الفرنسي، بل أُضيفَتْ إليه الأرض والثروات الأخرى. وعلى كل حال، ليس من المهم أن يكون الفرنسيون على عِلْمٍ مُسْبَقٍ بثروة الحاكم (وذلك أمر شبه مؤكَّد) فقد ثَبَتَ أن الاستعمار أمرٌ مربحٌ للغاية. وَجَدَ الفرنسيون "خزائن طافِحة بسَبائك الذهب والفضة وأكوام من النقود الذهبية والمجوهرات والصواني المبَعثرة بشكل عشوائي... كانت قيمتُها حوالي خمسين مليون فرنك، وكان ذلك أكثر بكثير مما كَلَّفَتْهُ الحَملة العسكرية. كانت تلك هي القِيمة التي ذُكِرَتْ رسمياً، ولا يوجَد شك بأن كبار الضباط قد قامُوا بقدر كبير من السرقات الخاصة... ولم يُنشَر تَقرير لجنة التحريات أبداً"[51]. بَلَغَ المقدار الذي تَمَّ التَّصريحُ به سبعة آلاف كيلوغرام من الذهب ومئة ألف كيلوغرام من الفضة.

لم تتوقف شراهةُ الأوربيين عند الذهب والفضة فقد وجَدوا في قصص ألف ليلة وليلة ما أثار اهتمامهم بكثير من المَلَذَّات في مُدنِها الخيالية. سَعوا كثيراً لامتلاك البشر، فمنذ عصر النهضة مَلأَ أثرياءُ المدن الإيطالية قصورَهم بالخَدَمِ من المسلمين والطباخين والحمالين والخليلات من أفريقيا وآسيا. كانت تجارة الرقيق آنذاك صغيرة ولكنّ ما رَفَعَ تجارة صيدِ العبيد إلى سويَّةِ المشاريع الضخمة كان تَغَيُّرُ الأذواق، وكان السُّكَر في رأس القائمة، فقد أَحبَّتْ أوروبا حلاوةَ الطَّعم.

في القرن الثالث عشر كان السُكَّر المُستَخدم في أوروبا يُنتَج في شرق المتوسط في مصر وسورية وجزيرة قبرص. كان بضاعةً ثمينة لم يتمكن من شرائها سوى قلَّة من الناس، ولكي يُخفِّضَ سعره وتُوسَّعَ سوقِ توزيعه قامَ المُستَثمرون بنقل انتاجِه غرباً. حوالي سنة 1420 أسس قريبٌ لكولومبوس مزرعةً لانتاج السُّكر في جزيرة ماديرا.

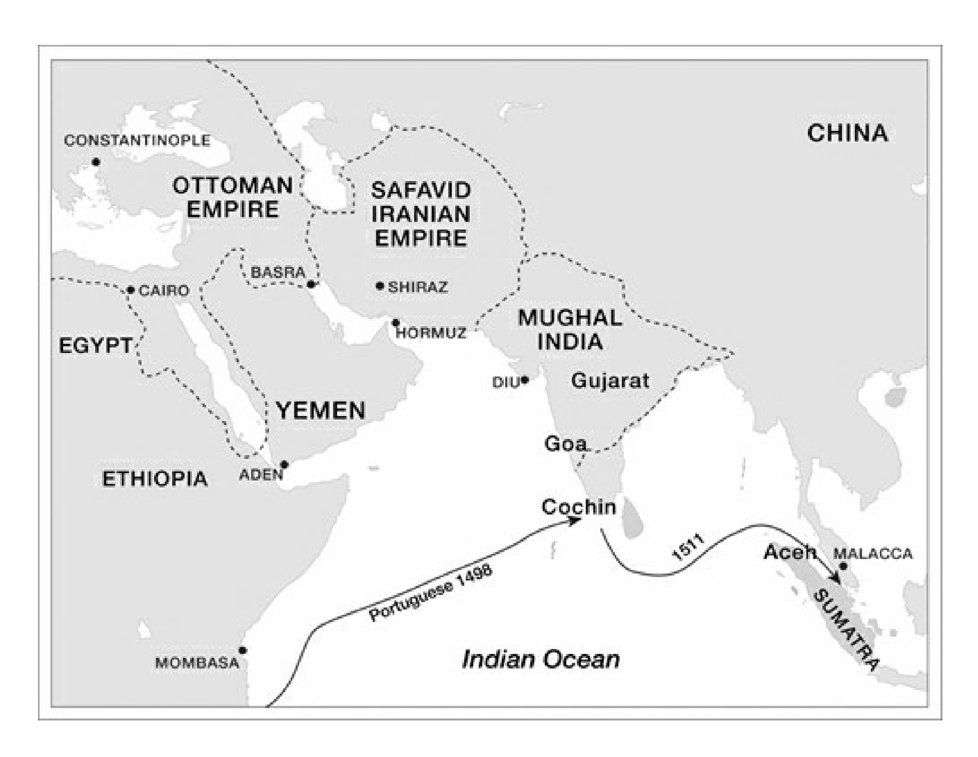
تَطَلَّبَ زرعُ وحصادُ ونقلُ وتَصنيعُ قَصَب السُّكر كثيراً من الجهد والعمل. وكان استئجار الأوروبيين للقيام بذلك مرتَفِعَ التَّكلفة مما يَرفعُ سعر السُّكر. أوصَل البحث عن الذهب إلى حلٍّ لمشكلة السكَّر: أولُ قَفزةٍ للبرتغاليين نحو الجنوب والتي ظَنُّوا أنها ستوصِلهم إلى مَصدرٍ كبيرٍ للذهب حَدَثَتْ سنة 1434 عندما استَطاعتْ سفينةٌ شراعية صغيرة مُجَهَّزة بالمجاديف أن تَدورَ حول رأس بوجادور Cape Bajador (في منطقة الصحراء الغربية حالياً). بعد ذلك بسبع سنوات، وعلى بعد ثمانمئة ميل جنوباً، قام البرتغاليون بأولى حَملاتهم لاصطياد العبيد.

لا نَعرف كثيراً عمَّن كان العبيد، ولكن المناطق التي اختُطِفوا منها كانت في الغالب مُسلِمة. وكلما استُنزِفتْ منطقة من مناطق صيد العبيد، تَحرَّكَ البرتغاليون أكثر نحو الجنوب. في سنة 1487 دارَ بارتولوميو دياز Bartolomeu Dias حول رأس الرجاء الصالح. ربما كان ذلك النجاح هو ما

أقنَعَ الحاكمَ البرتغالي بعدم تمويل اقتراح كولومبوس للإبحار نحو العالَم الجديد: لم يكونوا بحاجة إلى كولومبوس، فقد كانوا في طريقهم نحو مناطق الصين الاسطورية.

توقف كولومبوس في طريق عودته أولاً في البرتغال، وذَكَرَ أن السكان الأصليين في الجُزُرِ التي اكتشَفها يمكن أن يُستخدَموا في انتاج السكَّر. طُبِّقت الأساليب التي استخدَمها تابعوه في الجزر الكاريبية بعد ذلك أيضاً في انتاج الشاي في سريلانكا والهند، وفي انتاج التوابل في جافا وجُزُر البَهار. عندما لم يوجَد في أفريقيا ما يكفي من العبيد بتكاليف مقبولة، بدأ الهولنديون صيدَ العبيد في سريلانكا، وتَبِعَهم البريطانيون بما يمكن أن يسمى "العبودية المخفَّفَة"، وهي العمل بالسُّخرة في الهند حيث وصَلوا إلى حدود الموتِ خلال المجاعات المتكررة التي أدارَتْها الحكومةُ البريطانية في الهند.

كان من المؤكد أن البحث عن الذهب والعمالة الرخيصة دوافعَ رئيسية، ولكن كان من حوافز الامبريالية أيضاً عوامل استراتيجية ودينية وزَخَمٌ ذاتي، والأعمال التي كانت تبدأ بدوافع دينية كانت تتَحوَّلُ غالباً إلى استراتيجية سياسية، ثم يستمر تطبيقها فترة طويلة بعد أن تضعف أسبابها الأساسية. ولكي نرى ذلك لنأخُذ جولة قصيرة في التاريخ البرتغالي.



في الفترة من القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر كان المحيط الهندي بحيرةً إسلامية. اشتركَتْ كثيرٌ من الموانئ في التجارة المحلية والدولية في منطقة امتدت من شنغهاي إلى مومباسا، ومن الفلبين إلى عدن. في بداية القرن السادس عشر أبحَرَ البرتغاليون إلى المحيط الهندي، وفي سنة 1530 أسسوا امبراطوريتهم في المحيط الهندي وعيَّنوا حاكماً لها.

أول هجمة برتغالية في أفريقيا كانت ضد الميناء الصغير في سَبْتَة سنة 1418. كان الدافع وراءها دينياً وذلك متابعةً لِطَردِ "المورز" المسلمين خارج اسبانيا وشبه جزيرة إيبريا. آمن

البرتغاليون بأن المورز أشرارٌ ومذنبون يَرفضون قبول الإيمان الصحيح ولذلك يجب ملاحقَتهم وقَتلهم، فكانت مطاردتهم في أفريقيا خطوة استراتيجية منطقية، وكانت السيطرة على سَبتة لمنع هجومٍ آخر على اسبانيا مثل الذي قام به البربر في الماضي البعيد. إلا أن سَبتة ظَلَّتْ حتى الآن بعد مرور سبعمئة سنة مستعمرةً برتغالية، ولا توجد دولة أو حركة أفريقية يمكن أن تُهدِّدَ البرتغال الآن، ولا تَتمتعُ سَبتة بأهمية استرتيجية، بل هي استنزافٌ مستمرٌ للاقتصاد البرتغالي. وعلى الرغم من ذلك فإن التَّخلي عنها يُعتَبر هزيمةً نفسية كما اعتقدت الحكومات البرتغالية المتتابعة. وهكذا تستمر كل حكومة برتغالية بالمحافظة على الوضع القائم مثلما فَعَلَتْ سابقتها.

الاستعمار البرتغالي في جنوب شرق آسيا كان بدافعٍ ديني أو بتَبريرٍ ديني على الأقل، إلا أنه منذ بداياته كان وراءه أيضاً دوافع اقتصادية واستراتيجية ورغبة في فرض النفوذ والهَيبة والاحترام. احتفَظَ البرتغاليون بمستَعمراتهم هناك أطول فترة ممكنة، أي حتى طَرَدَهُم منها الإسبان والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون.

في سنة 1497 أبحَرَ فاسكو دى غاما Vasco da Gama في المحيط الهندي، ويَجلبُ انتباهَنا في رحلته أمران: الأول هو أنه كان يحاول الالتفاف حول طريق التوابل الذي كان يمتَّدُ من جزر البَهار في اندونيسيا اليوم إلى جنوب الهند وسريلانكا حيث كان يُزرَعُ البَهار والقرنفل والكمون وجوزة الطيب والتوابل والقرفة... نَقَلَت السفنُ الخشبية العربية والإيرانية والصينية التوابل إلى جنوب شبه الجزيرة العربية حيث كان يتم تَحميلها على الجِمال ونَقلها في قوافل إلى مكة وفي قوارب عبر البحر الأحمر إلى مصر، ثم في قوافل أخرى إلى الاسكندرية حيث كان يتم شَحنها إلى البندقية وتوزيعها من هناك إلى سائر أنحاء أوروبا. في كل مرحلةٍ كان التجار والحكام ومنظمو القوافل وقبائل البدو يَفرضون رسوماً وأرباحاً. يمكننا تقدير التكاليف إذا عَلِمنا أنّ رحلة دى غاما حول أفريقيا مباشرة إلى البرتغال قد رَبِحَتْ 1600 ضعفاً لكلفة الاستثمار فيها.

على الرغم من أن البرتغاليين أحاطوا أخبارَ رحلتهم بكثير من السريّة والكتمان، إلا أن أخبار هذا الربح العظيم انتَشرتْ، وتَحمَّس حكام اسبانيا وفرنسا وانكلترا وهولندا للَّحاق بهم. لم تتمكن البرتغال من إيقافهم، إلا أنها حاوَلَت التأكد من وَقفِ الطريق القديم تماماً ونهائياً. وفي 1502 مَنَعَت البرتغالُ المرورَ في البحر الأحمر، ورأى حكام مصر المماليك في ذلك ضربةً قاصمة لتجارتهم، وتَقَدَّموا بطلبٍ جريءٍ إلى البابا لوقف البرتغاليين. وبدلاً من وَقفِ البرتغاليين، مَرَّرَ البابا جوليوس الثاني Julius II ذلك التهديد إليهم. كان الملكُ مانويل الأول Manuel I (الذي يُعرَف أيضاً باسم مانويل أفورتشونادو Manuel O Afortunado) يطبِّق سياسة قاسية ضد المسلمين واليهود في البرتغال)، وكَتَبَ إلى المماليك أنه سيرسل أسطوله لتدمير مكة والمدينة. سَبَّبَ ذلك معركةً بحرية بين البرتغاليين والمماليك سنة 1509 انتَصَرَ فيها البرتغاليون. وعندها غَضِبَ البنادقة الذين اعتَمَدَتْ ثروتهم على تجارة التوابل وقاموا بتمويل المماليكِ بالأسلحة والذخائر. إلا أن البرتغاليين امتَلَكوا جميع الأوراق الرابحة: كانت سفنهم مدرعةً ومُزَوَّدَةً بالمدافع التي لم تستَطعْ مقاومتها سفنُ المماليك الخشبية الخفيفة، كما أسسوا شبكةً من القواعد العسكرية انتَشرَتْ من ميناء عدن في جنوب شبه الجزيرة العربية.

الجانب الثاني الهام من تَقَدّم البرتغاليين نحو الجنوب كان تعاون المسلمين معهم. لم يستطع البرتغاليون النجاح في اختراق المحيط الهندي وتأسيس مستعمراتهم بدون مساعدة المسلمين والهنود لهم. بعدما أبحَرَ دى غاما حول رأس الرجاء الصالح ووصَلَ إلى مدغشقر، استأجَرَ رُبَّاناً عربياً أو هندياً مسلماً كان عارِفاً بأنماط وأوقات الرياح الموسمية، فأرشَدَهُ للإبحار إلى ميناء كيرالا في شرق الهند. كان ربّان المحيط الهندي واحداً من كثيرٍ من السكان الأصليين الذين ساعَدوا البرتغاليين، ومِنْ بعدهم البريطانيين والهولنديين والفرنسيين، في غزو مجتمعاتهم وبلادهم. كَتَبَ بيرسون M. N. Pearson:

"خلال قرنٍ من الفتوحات البرتغالية، كان في طاقَم سفنهم البحرية والتجارية من البحارة وحتى الجنود كثيرٌ من السكان الأصليين، وأكثرُ أحياناً من البرتغاليين. حتى السفن الكبيرة التي كانت مُتَّجهة إلى البرتغال، لم يكن فيها سوى حفنة من الضباط البرتغاليين. وفي الحَملات الكبيرة كان هنالك عادة من الجنود المحليين الهنود مثلما كان فيها من البرتغاليين"[52].

بِفَضلِ مساعدةِ المسلمين والصينيين واللاجئين المحليين من المسيحيين واليهود اندَفَعَ البرتغاليون في استعمار عالَم المحيط الهندي بكثيرٍ من الحماسة التبشيرية والطمع والعنف. قال دى غاما، مثلما قال من جاء بعده، أنه قَدِمَ "النشر الدين المسيحي"[53]. على مَرّ قرنٍ من الزمن تقريباً، قامَ هو ومن تَبِعَهُ بالتجارة والنهب والاغتصاب والقتل على طول المحيط الهندي. في أحد الحوادث، نَهَبَ ربّانٌ برتغالي سفينةَ شحن مسلِمة، وَرَدّاً على ذلك، ثار سكان كيرالا، الذين أَطلَقَ عليهم البرتغاليون اسم "المورز" (وهو الاسم الذي يَستخدِمه البرتغاليون في تسمية مسلمي شمال أفريقيا)، وقَتَلوا التجارَ البرتغاليين الذين كانوا يقيمون فيها. غَضِبَ البرتغاليون وقَصَفوا الميناءَ بالمدفعية. عندما عادَ دى غاما من البرتغال ومعه سفنٌ حربية أكثر، قامَ بأسْرِ عددٍ من سفن التجار المسلمين، وكما وَصَفَ المؤرخ ستانلي ولبرت Stanley Wolpert سنة 1502 فقد "قَطَعَ أيدي وآذان وأنوف حوالي 800 بحار مسلم وأرسَلَها إلى قصر الحاكِم المحلي لكي يَستخدِمَها في طبخ طعامه. ساهَمَتْ مثل هذه الأعمال الهائجة من القرصنة والنهب في ضمان سيطرة البرتغال على الطريق إلى الشرق وضمان عدم انقطاع تزويدهم بالتوابل والقرنفل"[54]

تَبِعَ الهولنديون البرتغاليين بسرعة، وفي سنة 1601 كانوا قد رسَّخوا أنفسهم في جافا وسومطرة وسَيطَروا على جزر البَهار من البرتغاليين. بعد سنوات من التعاون مع الانكليز، تَخَلَّى الهولنديون عن مطالبهم في جنوب الهند ورَكَّزوا جهودهم على ما نسميه الآن اندونيسيا. ولكي يؤمّنوا اليدَ العاملة لمزارعهم، فقد طبَّقوا الأساليب البرتغالية في العبودية، إلا أنهم بَدَلاً من استخدام أفريقيا كمصدرٍ للرقيق، خَطَفوا أو ابتاعوا العبيدَ من سيلان وجنوب الهند.

كان عصر الاستكشافات الأوروبية بالنسبة للعالَم الإسلامي فترةً مؤلمة مريرة. وكلما ازدادت أمَمُ الشمال العالمي قوةً ازداد اندفاعها نحو الجنوب وتدميرها للدول الأصلية وقَلْبَ مجتمعاتها وقَمْعَ دياناتها.

في وسط آسيا بدأ القيصر إيفان الرهيب مَسيرةَ روسيا باحتلال المدينة-الدولة المسلمة قازان سنة 1552. وتابَعَ خلفاؤه واحداً بعد الآخر احتلالَ المجتمعات الإسلامية وقَتْلَ أو تَجويعَ ملايين المسلمين.

في أواسط القرن السابع عشر، تمكَّنَ الانكليز من السيطرة على تجارة الشرق الأوسط عن طريق القرصنة في أغلب الأحوال. وكما كَتَبَ الاقتصادي الانكليزي الكبير جون مينارد كينز John Maynard Keynes فقد كانت القرصنة أساس التجارة البحرية الدولية "يمكن اعتبارُ الغنائمَ التي جَلَبَها دريك Drake في سفينته الجبل الذهبي The Golden Hind أصْلَ ومَنْبَعَ الاستثمارات البريطانية الخارجية"[55]. فقد مَوَّلَتْ الاستثماراتُ شركة شرق المتوسط، التي انبَثَقَتْ عنها شركة الهند الشرقية، والتي تَغَلَّبَتْ بِدَورِها على الهند ودَمَّرَتْ الامبراطورية المُغولية فيها.

مع نهاية القرن الثامن عشر، فَقَدَتْ غزواتُ البرتغاليين والاسبان حَيويتَها بينما أَحرَزَ الفرنسيون والبريطانيون تَقَدُّمَاً عسكرياً وتجارياً وإدارياً واضحاً وامتيازات ساحقة. كانت الهند الإسلامية الجائزة الكبرى بالنسبة لهم وللروس كذلك. إلا أن الطريق إلى الهند كان مُغلَقاً بدول إسلامية كان يجب إخضاعها. تَخَلَّفَتْ هذه الدول كثيراً عن أوروبا تقنياً وإدارياً، لم يُدرِك الحكام المسلمون ولا جيوشهم المُتَخَلِّفة ما الذي أصابهم، وربما كان ذلك جزئياً بسبب ما غَشَّى بصائرهم من الإيمان بتاريخهم المجيد. تَغَلَّبَ بطرس الأكبر وكاثرين في الشرق على فرسان آسيا الوسطى في معركة تِلوَ أخرى. وقامَ الفرنسيون بمثل ذلك في الغرب. وفي معركةٍ من أكثر المعارك إثارة للسخرية، هاجَمَ فرسانُ مماليكِ مصر بثيابهم المُلَونَة المُزَركَشة البَهية مدفعيةَ نابليون فتَمَّ ذبحهم وإبادتهم.

يقدَّر أن الهند في أواسط القرن التاسع عشر كانت تُنتِجُ حوالي ربعَ ثروة العالَم، بينما كانت بريطانيا تنتج 3% لا أكثر. ثم جاءَت الثورةُ الصناعية بتَغييرٍ جذري كبير وعَكَسَتْ في الواقع اتِّجاه التجارة بين الشمال والجنوب. اندَحَرَتْ مُنتَجاتُ الجنوب وتم استبدالها بالبضائع والخَدَمات الأوروبية. وكما كَتَبَ شاشي ثارور: "تمَّ تمويلُ نهضة بريطانيا على مدى مئتي سنة عن طريق نهب الهند... وبُنِيَت الثورةُ الصناعية البريطانية على أطلال الصناعات الهندية المُدَمَّرة... فقد دمَّر البريطانيون صناعةَ النسيج الهندية المنافِسة، وأدى ذلك إلى أول الانهيارات الصناعية الكبرى في العالَم المعاصر... أصبَحَ النسَّاجون الماهرون فقراء وشحاذين"[56]. بينما قدَّمَت الهند لانكلترا الأقمشةَ المُلَونة، أصبَحَتْ، وكذلك أكثر مناطق الجنوب، تَشتري الأقمشة من انكلترا وتَدفَعُ ثمنها غالباً بمواد أولية. تَبِعَ ذلك سريعاً في الجنوب ثورةُ تَغَيُّرٍ في الأذواق والأزياء، وحَلَّ الطربوش الذي صُنع في فرنسا مَحَلَّ العمامة التي صُنِعتْ محلياً، ونُبِذَت القهوة اليَمنية وحَلَّ مكانها شربُ القهوةِ المُستورَدة من المستعمرات الفرنسية، واندَثَرَ استخدامُ الشَّال الكَشميري الذي كان يدل على المَكانة والرفعة. حتى غطاء الرأس الذي استخدَمه البدو كان يُصنَعُ في بيرمنغهام. يُقدَّر أن حوالي عشرة آلاف رجل (تقريباً 20% من القوة العاملة الماهرة) أصبَحوا عاطلين عن العمل في دمشق وحلب خلال سنة 1833. تم هَجْرُ وتَعطيلُ طُرِقِ التجارة التقليدية. وفي سنة 1854 صَرَّحَ قنصلٌ بريطاني أن "السفن البخارية

الفرنسية والبريطانية أبادَتْ طرق النقل التجارية المحلية"، وفي سنة 1857 سارَتْ آخر قوافل الجِمال من بغداد إلى دمشق[57].

أدتْ هذه التَّغيرات إلى انخفاضٍ شديد في مستوى المعيشة والصحة العامة لدى السكان المحليين. كَتَبَ ويليام ديغبي William Digby أن الفلاحين في الهند خلال القرن التاسع عشر حَصَلوا على نصف ما كان يَحصل عليه أجدادهم من الطعام، وأقلَّ مما حَصَلَ عليه أجدادُ أجدادهم. وعلَّق توماس بابينغتون ماكولي Thomas Babington Macaulay الرائد الاستراتيجي للامبريالية الانكليزية أن "ثلاثين مليوناً من البشر انحَدَروا إلى درجةٍ شديدة من البؤس"[58].

اتَّسَع تأثير ما حَدَثَ اقتصادياً وتمَّ تَرسيخُهُ رسمياً في الجانب العسكري. عندما حاوَلَ المصريون تَطويرَ وتَحديثَ أنفسهم صناعياً تدَّخَلَ البريطانيون عسكرياً لمَنعهم من ذلك[59].

في الهند، احتَلَّت بريطانيا البَنغال أولاً ثم انطَلَقَتْ لتدمير الامبراطورية المُغولية. وعندما ثارَ الهنود في 1857، قَتَلَ البريطانيون مئات الآلاف من القرويين وأعدَموا العائلةَ الحاكمة ثم ضَمُّوا الامبراطورية المُغولية إلى الامبراطورية البريطانية. وفي طريقهم لاحتواءِ وكَبحِ التَّوسع الروسي اندَفَعَ البريطانيون أيضاً نحو وسط آسيا والشرق الأوسط. حارَبوا المسلمين الأفَغان على الجبهة الشمالية الغربية أجيالاً عديدة، واحتَلّوا وحَكَموا مصر، وقَمَعوا حركةَ النهضة الاسلامية المَهدية في السودان، وسَيطَروا على الخليج العربي وإيران والمناطق التي أصبَحتْ فيما بعد العراق والأردن وفلسطين. كانت بعض هذه الغزوات عنيفة: قَتَلَ البريطانيون مئات الآلاف من الأفغان، وأَبادوا في العراق رجالَ القبائل بالغازات السامة. أما في الجبهة الشمالية الغربية فقد كانت الحرب سِجالاً كبيراً.

لم تكن الحَرب في ليبيا لعبةً بالنسبة للايطاليين، بل أصبَحتْ إبادةً جماعية. حاوَلَ بنيتو موسوليني زعيم الحزب الفاشستي أن يَمحو حركةَ النهضة الإسلامية السَنوسية فترةً امتَدَّتْ حوالي عشرين سنة قُتِلَ فيها ثلثا السكان، ولم تكن الحملات الاستعمارية الأخرى أقل بشاعة وسوءاً.

عندما حاوَلَ السكان في جافا استعادَة استقلالهم، قَتَلَ الهولنديون حوالي ثلاثمئة ألف "مُتَمرد" في الفترة بين 1835-1840. وأَبادوا كذلك عشرات الآلاف من "المتمردين" في سومطرة في الفترة 1873-1914. وفي الجزائر بعد الحرب المريرة التي انطَلَقتْ سنة 1830، نَهَبَ الفرنسيون الأراضي الزراعية وهَدَموا مئات القرى وقَتَلوا عدداً لا يُحصى من السكان وفَرَضوا نظامَ فَصلٍ عنصري على النَّاجين منهم. وفي آسيا الوسطى، سَلَبَ الروسُ والصينيون وطَرَدوا كثيراً من السكان الأصليين، أما عن حرب القوقاز القاسية فقد كَتَبَ ليو تولستوي أن الروس قد أَبادوا مجتمعاتٍ كاملة وشَرَّدوا وهَجَّروا ملايين من أهل القوقاز.

كان "إخضاع السكان الأصليين" مسألةً وحشية وعنيفة بَلَغَتْ ذروتها في الكونغو حيث كان حوالي واحد من كل عشرة من سكانها مسلماً. وفي الفترة 1884-1908 يقدَّر أن البلجيكيين قَتَلوا حوالي عشرة إلى خمسة عشر مليوناً من السكان، وهو ما يزيد عن ضعف ما قَتَلَهُ النازيون من اليهود والغجر. كما قاموا بعمليات اغتصابٍ منهجي مُنَظَّم وقَطَعوا أيدي أو أرجل غير المُنتِجين من السكان

المحليين، ونَهَبوا الكونغو من ثروة موادها الأولية[60]. وبمستوى أقل دراماتيكية ولكن أكثر تدميراً، قامَ البريطانيون "بما لا يمكن أن يُطلَقَ عليه سوى اسم مَحرَقة الاستعمار البريطاني حين طَبَّقتْ بريطانيا سياسةً اقتصادية قاسية أدَّتْ إلى وفاة حوالي ثلاثين إلى خمسة وثلاثين مليون هنديّ ماتوا جوعاً دون أية ضرورة حقيقية... بينما نُقِلَتْ من الهند ملايين الأطنان من القمح إلى بريطانيا حتى أثناء شدَّةِ المجاعة"[61]. وعندما اعتَرَضَ انكليزٌ ذوو ضَميرٍ حَيّ وأطلَقوا بأنفسِهم حَملةَ إنقاذ وإغاثة، هَدَّدَتهم الحكومة البريطانية بالسجن.

بعد غَزو سورية سنة 1920، قَصَفَ الفرنسيون دمشق مرتين لقَمعِ ثورة السكان الذين حاولوا أن يُظهِروا أنهم "يستطيعون أن يَعتَمدوا على أنفسهم في ظروف العالَم الجديد الصعبة" كما ورد في المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم. وكان ذلك صيغةً متَحضِّرة لما كان يُسَمى "عبءُ الرجلِ الأبيض" أو "مهمّة الحضارة المقدَّسة" وقد تَبنَّتْ بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا هذه المهمّة بالأقوال، ولكنهم خالَفوها بأفعالِهم.

كان اندفاع الأوروبيين في العالَم الإسلامي مستمراً[62]. ولم تكن هذه الحروب حروباً أمريكية فيما عدا ما جَرَى في الفلبين، ولكن دَورَ الأمريكيين في تجارة العبيد التي جَلَبَتْ ملايين الأفارقة إلى الغرب يُدرَسُ مِنْ جَديد ويُعادُ تَقييمُه. لا يَعرفُ أحدٌ كثيراً عن الأفارقة الذين تمَّ استِعبادُهم، ولكن من المؤكَّد أنَّ كثيراً منهم كانوا مسلمين. كَتَبَ ستيفن كينزر Stephen Kinzer أنه بعد نصف قرنٍ من الحرب ضد المسلمين في الفلبين، انضَمَّتْ أمريكا إلى القوى الامبريالية[63].

من النادر أن تَدورَ محادَثةٌ في أي مكان في أفريقيا أو آسيا دون ذِكرِ الامبريالية الشمالية. وكما قال لي شابٌ دَرَسَ إدارة الأعمال في جامعةٍ أمريكية "الخلاصة، لم يحاول أي مسلم أن يَستَعبِدَ أو يَقتُلَ شَعبَك. يمكنكَ اعتبار أن الهجوم على مَركَز التجارة العالمي في 11 سبتمبر بمثابة رَدِّ فِعل. كان عَملاً رهيباً يَخجَلُ منه أغلبُنا ولكنْ تَذَكَّرْ أنه قَتَل حوالي 2500 شخص، بينما قَتَلَ الأمبرياليون أكثر من 25 مليوناً من أهلِنا وأقربائنا وحاوَلوا تَدميرَ طريقتنا في الحياة وتَغيير ديننا. هل يَهمّكَ ذلك؟"

لخَّصَ ردیارد کیبلینغ Rudyard Kipling مشاعر الأمبرياليين في قصيدته "عبء الرجل الأبيض": لم يسعوا لحكم السود والسمر بل لرفعهم وتمدينهم. تُظهِر هذه الصورة وجهات النظر المختلفة بين



سكان الجنوب الذين اعتَبروا الرجل الأبيض عبئاً عليهم.

يُشكِّلُ مجموع هذه الأحداث وغيرها مَحرقةً تؤَثِّرُ في أفعال المسلمين مثلما كان تأثير المَحرقة النازية في أفعال اليهود. لمْ تَندَمل الجراح في كثير من المجتمعات، ونَرى آثارَها في ضَعف التنظيم المدني وفساد الحكومات وبشاعة العنف.

حتى عندما نريدُ نحن الشماليون أن نتَجاهلَ هذه الوقائع التاريخية، فإن أحفادَ الضحايا لن ينسون. يَزدادُ بَحثُ المسلمين في مَحرقتهم وكتاباتهم عنها مثلما فَعَلَ اليهود، ويَلعَبُ التاريخ البعيد دَوراً مهماً في نمو وتزايد مشاعر المسلمين نحو الشمال المسيحي، وسَيلعبُ دوراً مهماً في مستقبل العلاقات الدولية[64]. تُطِلُّ ذكرياتُ أحداثِهِ في ظهور حركات العنف الإسلامية المعاصِرة، مثل الإخوان المسلمون وطالبان والقاعدة والحركات السلفية المختلفة ومؤخراً في الدولة الإسلامية (داعش)[65].

ذكرياتُ الامبريالية بكل ما فيها من إهاناتٍ ومذابح تَظَلُّ حيَّةً في أذهان الضحايا. تُثيرُ هذه الذكريات، التي لا نُشاركهم فيها بالطبع، عداءَ المسلمين للغرب.

سأركِّزُ بَحثي الآن عما فَعَلَهُ المسلمون لكي يَستردّوا ما يَتذكَّرونه من أيامهم المجيدة ويَستَعيدوا احترامَهم لأنفسهم ويَطردوا الغزاة الأجانب.

الجزء الثاني

ردود أفعال المجتمعات الإسلامية التقليدية

تَعرَّضَت مجتمعاتُ العالَم الإسلامي إلى تهديداتٍ مصيرية متماثلة، وكانت ردودُ أفعالها متشابهة، ولكنهم نادراً ما كانوا يَتبادلون خبراتهم. تَصَوَّرَ كل مجتمع أن التهديد يأتي من قوة أجنبية معينة رَدَّ عليها بطريقته الخاصة. على الرغم من وجودِ شعورٍ عامٍ بعالَم إسلامي، ووجودِ اسم له هو "دار الإسلام"[66]. لمْ يُدرِك المسلمون في بادئ الأمر العلاقة بين حركات المقاومة، وكما سأبيِّن فقد نَما الشعور بالعلاقة تدريجياً، وأصبَحَ واحداً من أهم مفاتيح فَهمِ الاضطرابات والأحداث المعاصرة.

سَأبدأُ بمحاولاتِ السلطان سليم الثالث توفير وسائل الحماية للامبراطورية العثمانية ضدَّ الامبريالية الروسية، ثم سَأعرّجُ على حملة نابليون على مصر، وبعدها سَأصِفُ كيف انطلقَ المغامر الألباني محمد علي في مصر لتحقيق برنامجه الخاص لتأسيس امبراطوريته. سَعى سليم ومحمد علي إلى تقليد الشمال. حارَبَ معظم قادة الجنوب الآخرون الاستعمارَ الشمالي بأشكالٍ مِن حرب العصابات خلال القرن التاسع عشر. حَدَثَ ذلك في الجزائر والشيشان والسودان ومراكش واندونيسيا. كما سَأبحثُ الطُّرُقَ الاقتصادية والمالية التي اتَّبَعَها الشمال العالمي في غزو الجنوب بهدوء ولكن بنتائج عميقة لا تَقِلُّ قوةً عن تأثير الجيوش.

وأخيراً، سَأناقِشُ دوافعَ المقاومين وما الذي كانوا يدافعون عنه كما صاغَها المفكِّر الثوري جمال الدين الأفغاني والشيخ المصري محمد عبدو في نهاية القرن التاسع عشر المَليء بالأحداث والاضطربات.

الفصل السادس

السلطان سليم الثالث ونابليون ومحمد علي

وضَعَ القيصرُ إيفان الرهيب روسيا في مسارٍ أمبريالي عندما اجتاحَ جيشُهُ المدينةَ التتارية العظيمة قازان في الثاني من أكتوبر 1552، كما أسس اسلوبَ الصِّراع في المستقبل. قَتَلَ المدافعين عن المدينة وطَرَدَ سكانها المدنيين واستَبدلَهم بمستوطنين من الروس ودَمَّرَ المساجد أو حَوَّلَها إلى كنائس. بعد أربع سنوات احتَلَّ المدينةَ التركيةـالمَغولية أستراخان ليَمنَحَ موسكو السَيطَرة على طريق التجارة في نهر الفولغا إلى بحر قزوين.

اتَّبَعَ خلفاءُ إيفان طريقَ النار الذي بَدَأه، وبعد حوالي قرنٍ ونصف، اقتَحَمَ بطرس الأكبر سنة 1722 منطقةَ بحر قزوين، وبَدأَت الامبراطورة آن Anne تَحَركَها نحو شبه جزيرة القرم عندما احتَلَّتْ قواتُها مدينة آزوف سنة 1736. بعد سلسلةٍ من المعارك في الفترة 1768-1774، استَطاعتْ كاثرين العظيمة إذلالَ الامبراطورية العثمانية وحلفائها من خانات التتار في القِرم، وللمرة الأولى هجَمَت القواتُ الروسية على مناطق القوقاز وسَيطَرتْ على موانئَ في البحر الأسود. واستَخدَمَ الروس اتفاقيةَ انهاء الحرب التي تمَّ توقيعها في Kucuk Kainarji سنة 1774 كرخصةٍ لاحتلال مَزيدٍ من المناطق العثمانية، كما مَنَحَت الروس حَقَّ بناء كنيسة في حَيّ الأجانب في اسطنبول. ضَمَّتْ روسيا شبهَ جزيرة القرم سنة 1783 وكانت قبل ذلك ولاية عثمانية، ومثلما فَعَلَ إيفان الرهيب قبل ذلك بقرنين من الزمن، ذَبَحَ الروسُ سكانَ المدن التي احتَلُّوها.

أظهَرَت الحروبُ مع الروس ضَعفَ الامبراطورية العثمانية عسكرياً، فقد تمَّت هزيمة المشاة في معارك فاصلة، وتم تَدمير جزءٍ كبير من الأسطول في هجمات كلاسيكية للسفن الحربية، وفَقَدَتْ وحداتُ الانكشارية المتميزة ثقتَها بنفسها على الرغم من أنها قاتَلَتْ ببسالةٍ، وضَعفَ ولاؤها للامبراطورية. كانت تلك الخسارة أهمّ ما نَتَجَ عن تلك الحرب، فبعد أن وَضَعَ الانكشاريون جانباً ادّعاءاتهم وسمعَتهم العسكرية التي تَمتَّعوا بها منذ تأسيسهم قبل أربعة قرون، تَحَوَّلوا إلى مؤسسةٍ تجارية. وبدلاً من الدفاع عن الدولة، حَوَّلوا جهودَهم نحو سرقتها. وبينما تَصَرَّفوا في الماضي كجنودٍ أجانب ولكن مخلصي الولاء للدولة، أصبَحوا يَسعون لتسجيل أولادِهم في الجيش للحصول على رواتب وامتيازات ولتَجنّب الضرائب. والرجالُ الذين كانوا في الماضي جنوداً ومقاتلين شجعاناً أصبَحوا حرفيين وتجاراً، وتَرَكَّزتْ أحلامُهم وجهودُهم في المحافظة على نفوذِهم التجاري.

عندما حاوَلَ السلطانُ استخدامَهم كجنود، كانوا يَلجؤون عادةً إلى الثورة. تحالَفوا مع طائفة البَكتَاش الصوفية التي كان أفرادُها يَخدمون عادة في وحدات الجيش ويقومون بأداء الخَدمات الدينية بما يشبه الدَّور الذي قام به المفوضون السوفييت في القضايا السياسية. كان هدفُهم المحافظةُ على سَيرِ الامبراطورية على الطريق التقليدي المستقيم. ولكن مع تَغَيّر ظروف الامبراطورية، فإن تَحالف الانكشاريين مع علماء الدين أدى إلى اتساع الهوة بين رجال السلطة الدينية، الذين كانوا يريدون مَنعَ التطوير والبِدَع، وبين السَلطَنة التي أدركَت الحاجة إلى التغيير. أظهَرَت الأحداث أن هذه الهوة بين الدين والدنيا أنهكَت الامبراطورية بقدر ما أنهكَها غزو القوات الأجنبية.

هكذا كانت الأحوال عندما استَلَمَ السلطانُ سليم الثالث مقاليد الحكم سنة 1789. كان ترتيبه الثامن والعشرين في سلسلة السلاطين العثمانيين، وكانت والدته مسيحية تَحَوَّلَتْ إلى الإسلام مثل عددٍ من السلاطين العثمانيين. كان في أوجِ شبابه في السابعة والعشرين من عمره عندما أصبَحَ سلطاناً، إلا أنه وَرِثَ امبراطوريةً لم تكن في أوجِ عظَمَتِها وقوتِها. كانت الفوضى ضاربةً في أرجاء الحكومة، وكانت الخزينة مفلِسَة، والجيشُ منهَزم، والعاصمة يُحاصِرها الجيشُ الروسي. كان رجلاً مثقفاً يُجيدُ قراءةَ وكتابةَ ثلاثَ لغاتٍ على الأقل، وكان شاعراً جيداً وخَطّاطاً ماهراً. كان تَدَيّنه عميقاً ووَطَنيته مُخلِصة، إلا أنه سرعان ما اكتشَفَ أن هذه الخصال الحميدة لم تساعده في الخروج من أزمَتِه.

كما أدركَ أنه يجب تَحديثُ الدولةِ العثمانية إذا أرادَت الاستمرار في الوجود، ورَكَّزَ قَصداً على استخدام كلمة: "الجديد"[67]. كانت الكلمة حسَّاسةً بذاتها لأنها تُمثِّلُ تَعارُضاً مع السلطة الدينية التي تَعتَبر التَجديدَ هَرطَقة وابتِداعَاً وأن التَّغيير مِنَ التقليدي إلى الجديد يَعني التَّخلي عن السنّة التي يؤمنون بأنها خالدة. ربما انتَقَى سليم هذه الكلمة لكي يَصدم العلماء، وقد حَدَثَ ذلك. يبدو أنه ظَنَّ أن الهزائم المُتكرّرة ومَذابِحَ الرعايا العثمانيين على يد القوات الروسية وتَهديد العاصمة العثمانية يمنَحُهُ الفرصةَ للتَّغلب على مُعارضَةِ العلماء وتَطبيقِ اصلاحاتٍ جذرية، فانطَلَقَ بقوةٍ وإصرارٍ جديد في التاريخ العثماني الحديث لتنفيذ إصلاحاتِه، وبَدَأ بالجيش.

أطلَقَ محاولةً أولى لإصلاح كتائب الانكشاريين التي عَمَّها الفسادُ والعَجز، ولكنه أُحبِط في كل خطوة. أرادَ أن يُخَصّصَ أموالَ الدولةِ لشراء معداتٍ ولتوظيف جنود، ولكنه اكتَشَفَ أن خزائنها فارغة. واكتَشَفَ أن أموالَ الضرائب كانت تُنهَب قَبلَ أن تَصِلَ إلى الخزانة، أو أنها كانت تُختَلَسُ منها. كانت كل فروعِ الدولةِ فاسدةً، ولذا قرَّرَ في النهاية أن يُنشِئ نظاماً جديداً وأن يُعيدَ تَنظيمَ الدولةِ العثمانية، أو أن يَبني نظاماً موازياً إذا لم تكن إعادة التنظيم ممكِنة.

لكي يَحمي مناطقَ الدولة العثمانية ويُدافع في الوقت نفسه عن النظام ضد القوى الداخلية المعارِضة، قرَّرَ أن يتَجاوزَ الجيشَ والكتائبَ الانكشارية بتأسيس جيشٍ جديد كلياً على النَّمطِ الغربي. ولكي يَفعَلَ ذلك احتاجَ إلى المساعدة.

أرسَلَ البريطانيون والفرنسيون إلى السلطان سليم ضباطاً لتدريب جنودِه الجُدد. ولم يفعلوا ذلك لمساعدة العثمانيين بل لمنع الروس من التقدم نحو الجنوب وتهديد مصالحهم هناك. كانت تلك خطوة أولى مهمة، ولكن سليم أدركَ أنه لن يستطيع الاعتماد على مصادر الأسلِحة والأدوات من

أوروبا لأن البريطانيين والفرنسيين يمكن أن يَصِلوا إلى اتفاقٍ مع الروس ويَتَوقّفوا عن مساعدته. اقتَضَت الحكمة عليه أن يُحاوِلَ دفعَ المصادر الداخلية الذاتية التي كانت ضعيفة ومتَخلفة. كان أمله ضعيفاً في تحسين النظام المالي في الدولة، فأنشأ ماليةً موازية ذات مصادر مُنفَصِلة مثلما فَعَلَ عند إنشاء جيشه الجديد. بدأ باستِخدام ما أمكَنهُ الحصولُ عليه من الغَرَامات والمُصادَرات في إنشاء مدارِسَ لتدريب الفنيين والحرفيين وتأسيس مصانِع لهم لانتاج الأسلحة وكل ما يَحتاجه الجيش الجديد.

كان برنامجه جيداً إلا أن المَصالح الرَّاسِخة كانت أقوى. قرَّرَ أعداؤه أن يضربوا ضَربتهم قَبلَ أن تُؤتي جُهودُه ثمارَها. كان الجيش الذي أسسه ما زال صغيراً وضعيفَ التدريب والتسليح، وكانت برامجُهُ المالية قاسيةً على كثير من المسؤولين والتجار، بينما بدأت الثورات بالظهور في مناطق أخرى من الامبراطورية. كانت البلقان في اضطراب وفوضى وقد سَيطَر أمراءُ الحرب على كثير من أريافها، وفي العراق وسورية نَصَّبَ مسؤولون عثمانيون أنفسَهم حكاماً مُستَقلين، وكانت الحركةُ الوهابية قد سَيطَرتْ على أغلب مناطق شبه الجزيرة العربية، ولم يكن شمال أفريقيا على تَواصُل مع العاصمة، وكان الروس يَضغَطون على طول البحر الأسود. قَطَعَتْ هذه الأحداث المواردَ المالية وأنهَكَتْ مَصادر سليم، ولكن الغزو الفرنسي لمصر احتاجَ إلى عملٍ اضطراري سريع. أعلَنَ سليم الجهادَ المقدَّس ضد الفرنسيين في الثاني من سبتمبر 1798، ولم يكن ذلك أكثر من موقفٍ رمزيّ، ولكنه زاد الأمور سوءاً عندما حاوَلَ أن ينفِّذه بشكل جَديّ.

منذ بدايات القرن الثامن عشر أدرك مستشارو الملك لويس الرابع عشر أهميةَ مصر للمملكة الفرنسية، وعَرفوا أنها كانت مَصدراً رئيسياً للقمح أيام الامبراطورية الرومانية، وكانت فرنسا بحاجةٍ شديدة إليه، وتصوروا أن مصر يمكِن أن تُصبحَ مزرعةَ فرنسا.

كانت مصر على مرّ الأجيال المَمَرَّ الحَيوي الذي يَصِلُ البحرَ الأبيض المتوسط بالبحرِ الأحمر على طريق التوابل إلى الهند، وكان دَورُها ذلك قد تَراجَعَ عندما دار البرتغاليون حول أفريقيا. استفادوا من الطريق الجديد كثيراً، ولكنه لم يَخدُمْ فرنسا بسبب خطورة الأسطول البريطاني. اندَفَعَ الفرنسيون عميقاً في الهند منذ سنة 1668، في البداية من خلال شركتهم الخاصة بالهند الشرقية، ثم بشكل مباشر فيما بعد. ولكن نجاحَهم كان متَقَطِّعاً في أفضل التَّقديرات. وكما أدرَكوا فقد كانت العقبةُ الرئيسية أمامهم هي القوات البحرية البريطانية والهولندية، وربما مَنَحَهم طريقُ مصر فرصةً لتَجاوز هذه القوات. فكَّروا أنهم إذا أعادوا تأسيس الطريق البَريّ وسَيطَروا على جامِعي الضرائب وعلى سرقات المسؤولين، فربما حَصَدوا ثمارَ جهودهم. لم تُطَبَّقْ هذه الاستراتيجية آنذاك، إلا أنّ فكرَتَها ظَلَّتْ قائمة.

التَقَطَ نابليون هذه الفكرة بعد الثورة الفرنسية، وكان في غزو الهند المزيجُ المناسِبُ من الرومانسية والاستراتيجية الذي يُناسِبُ شخصيته، ومهما كانت الأحوال فقد ألهَبَتْ مصر خَيالَه. تَناسَبَ الاثنان معاً، فقد كانت مصر المَحطةَ الضروريةَ على الطريق إلى الهند، وكان فيها البُعدُ الأسطوري لأن قَهرَها سَيَضعهُ في مَصَافِّ العظماء مثل الاسكندر الكبير وبومبي ويوليوس قيصر ومارك أنتوني. كانت كليوباترا ملكةَ الرومانسية، والمَسَلاّت المصرية تَظهَرُ في كل مكان في أوروبا، وغُرَفُ الرَّسم في قصور الأغنياء تَملؤها نسخٌ من الآثار المصرية. وفي أحلام اليقظة على

الأقل كانت مصر المَوقِع الذي وِلِد فيه العالَم الكلاسيكي. استَولى هذا الحلم على نابليون لدرجة أنه أبحَرَ عبر البحر الأبيض المتوسط بينما كان يُسامِرُهُ ويُعَلِّمهُ 150 عالماً من أفضَل وأذكَى الباحثين الفرنسيين. وفي الأول من يوليو 1798 وَضَعَ على بَرِّ مصر حوالي ثمانية وثلاثين ألف جندي من أسطولٍ ضَمَّ 280 سفينةً قُربَ ساحل الاسكندرية، المدينة العظيمة تاريخياً، والمُتَهالِكة في حالَتِها العامة آنذاك.

ربما دُهِشَ نابليون والباحثون الذين جَلَبَهم معه لدراسة مصر القديمة من منظر وحالَةِ مصر الواقعية. بين أطلالِ الماضي التي طَمَرتْها الرمال، بَدَا المصريون في زمانه أحفاداً فقراءَ لماضيهم العريق[68]. لا بد وأنه قارَنَهم بمَن كان يشبه حالتَهم مِنَ المزارعين المَسحوقين في فرنسا قَبلَ الثورة، ولذلك كان من بَواكير أعمالِه محاوَلَته بَعثَ وتَنشيطَ المصريين مثلما بَعَثَت الثورةُ الفرنسيين. كانت الطريقة لتحقيق ذلك هي نَقلُ أفكار الثورة الفرنسية إليهم، إنما في سياق الإسلام، فقال:

"يا شعبَ مصر، قيلَ لكُم أنني جئتُ لتَدمير دينكم، فلا تُصَدِّقوا ذلك. بل أجيبوا بأنني قد جئتُ لكي أعيدَ لكُم حقوقكم... أدعو الجميع (المصريين) لمَلء جميع المراكِزِ (الحُكومية)، سيَقوم بالحكم أكثركُم حكمةً وعلماً وشرفاً وسيكون الناس سعداء"[69]

صَمَّتْ آذانُ المصريين أحاديث مماثلة أطلَقَها الحكام المماليك على مدى قرون. لم يَعتَبروا أنفسهم جديرين بمَلء المَناصب الحكومية، فقد كان على المصريين أن يقوموا بالفلاحة والحصاد، بينما يقوم التركُ بشؤون الحرب والحكم. وبالتَّعبير المعاصر: كان الترك رعاةً والمصريون أغنامهم ورعيتهم.

اتَّبَعَ نابليون خلال فترةِ بقائه القصيرة في مصر ثلاثة أساليب: كان الأول إزالةَ الادعاءات العسكرية "التركية"، وفي معركةٍ استَمرَّت ساعةً قُربَ الأهرامات في 21 يوليو دَمَّرت مدفعيتُهُ سلاحَ الفرسان المملوكي بأزيائه التقليدية المزركَشَة، ولم يتمكن الناجون من تلك المعركة من توجيه أي تَهديدٍ حقيقي للجيش الفرنسي، كما لم يتمكن السلطان العثماني الذي كانت تَتبَعُ له باشويةُ مصر من فِعلِ أي شيء. أعلَنَ سليم الجهادَ ضدَّ الفرنسيين بعد شهرٍ واحد من إنزالِهم في مصر، واستطاعَ بمساعدةِ الاسطول البريطاني أن يُنزِلَ حوالي عشرين ألف جندي إلى مصر بعد حوالي سنة، ولكنّ الجيشَ الفرنسي أبادَهم. وكذلك مُنيَتْ حملةٌ عثمانية ثانية بخسائر فادحة في السنة التالية. تَحطَّمَ السلطان سليم بجهوده الشجاعة.

الأسلوبُ الثاني الذي اتَّبَعَهُ نابليون كان محاولةَ كَسبِ قلوبِ وعقولِ المصريين المَهزومين. فَرَضَ على جنوده انضباطاً شديداً في القاهرة على الأقل، وجَعَلَهم يَدفعون ثَمَنَ كل شيء أخذوه من السكان، وصَوَّر نفسَه راعياً لمهرجاناتهم واحتفالاتهم الدينية والوطنية، وشَجَّعَ الناسَ على المطالبة بحقوقهم الانسانية مثلما علَّمَتهم مبادئ الثورة الفرنسية، وكان يَعني كذلك فوق كل شيء المشاركةَ في الحكومة.

أسس نابليون "الدواوين" في أسرع وقتٍ ممكن بشكل مجالسِ حُكْم، وكان أغلب الأعضاء من المؤسسات الدينية. قال نابليون إنه يَتَوقَّعُ منهم أن يكونوا مِثالاً ونموذجاً للنظام الذي أرادَ تأسيسه، ولكنه قَيَّدَ صلاحياتهم، وراقَبَ الضباطُ الفرنسيون نشاطَهم. لا يمكن أن نَعرفَ حقيقة مشاعرهم، ولكن يبدو بالنسبة للمصريين أن مهمتهم الحقيقية كانت ضَبطَ النظام، وأن يكونوا واجهةً للسلطات الفرنسية.

حاوَلَ نابليون أيضاً أن يُقَسِّم مُعارضيهِ ويُفرِّقهم مثلما يَفعَل المستعمرون عادة، فكان يَعمَل مراراً ضدَّ المماليك، بينما يُعلِنُ تأييدَه للشعب المصري. قال إن جَشَعَ المماليك هو سبب تَخريب مصر التي كانت ذات يومٍ أرضَ "المُدن العظيمة والقنوات العَريضة والتجارة النامية"[70]. استَغَلَّ ضَعفَ المجتمع المصري بشكل لطيفٍ وماهر باستِغلاله الفِرقَةَ بين المسلمين والأقباط، ومثلَما فَعَلَ مَن سَبقوه، فقد شَجَّعَ نفوذَ وفَخرَ الأقباط واستَخدَمهم في جَمعِ الضرائب، وكما كَتَبَ عبد الرحمن ألجبرتي، المؤرخ المصري لتلك الفترة، فإن الأقباطَ بدعمٍ من الفرنسيين "تَصَرَّفوا في البلاد كأنهم حكامها يُعيثون فساداً بين المسلمين بسَجنِهم وضَربِهم وإهانَتِهم وبمضايقاتِهم المستمرة في طَلَب الأموال"[71]. ولا شك بأن نابليون قد تَوقَّعَ أن يَعتَبر المسلمون الأقباطَ خونةً ويَكرهونهم، مما يَدفعهم عملياً إلى طَلَب الحماية من الفرنسيين والسَّعيَ لخِدمَتهم. تَرتَّبَ عليهم أن يَدفعوا ثَمناً مؤلماً لذلك فيما بَعد، ولكنْ على المدى القصير، ضَمِنَ نابليون تأييدَ فئةٍ ماهرة من المجتمع وأنهم لن يَعملوا ضِدَّه. وبهذا الأسلوب فقد اتَّبَعَ الطُرُقَ التي طَبَّقَها البرتغاليون قَبلَهُ، وسَيُطَبقها البريطانيون والهولنديون والحكومات الفرنسية من بعده.

كان الاسلوب الثالث الذي اتَّبَعَهُ نابليون هو إرهابُ المصريين بجيشه، ومهما كان القفاز الذي لبسته الامبريالية الفرنسية ناعماً، فقد كان يُخفي تَحتَه مَخالِبَ حادَّة. ومثلما كان البريطانيون في الهند والهولنديون في اندونيسيا والروس في القوقاز والصينيون في آسيا الوسطى، فقد كان الاحتلالُ الفرنسي لمصر ديكتاتوريةً عسكرية. لكي يَعمَلَ الاستعمارُ وتَنجَحَ الامبريالية لا يمكن تَحَمُّلُ أية مقاومة حتى لو كانت هَمسَاً.

أُمِرَ القادةُ المصريون بارتداء الألوان الفرنسية، وكان على السكان أن يَضَعوا شريطَ القبعة الذي يَرمز للثورة الفرنسية، وعلى الفلاحين "أن يَرفَعوا العلَم الفرنسي وكذلك عَلَم صديقنا السلطان العثماني"[72]. والقرى التي تُقاوم أو تَرفض أن تُقَدِّمَ ما يُطلَبُ مِنَ المؤن تُحرَق، وقد أُحرِقَ منها ما يكفي لترويع الباقين.

أصَرَّ الفرنسيون دائماً على مهمتهم الحضارية. آمنوا حقاً وأرادوا كل الآخرين أن يؤمنوا بأن هدفَهم هو تحقيقُ الهدف النبيل الذي سَمَّاهُ روديارد كيبلينغ Rudyard Kipling فيما بعد: "عبء الرجل الأبيض". وكان على القفاز الذي يُخفي المَخالبَ أن يكون جَذَّاباً، وكانت الوسائل مُتاحَة: أُطلِقَ على العلماء في سفن نابليون اللقب الخلاب "لجنة العلوم والفنون"، وكُلِّفوا بحكم البلد وأن يَفعَلوا ذلك بأحدَث الطُرُقِ، وأسس "المعهد المصري" الذي تم تَعيين علمائه في إداراتٍ مختلفة تَدرُسُ الرياضيات والفيزياء والاقتصاد السياسي والأدب والفنون.

كانت مهمة المعهد المصري عظيمة، وقد بَحَثَ أعضاؤه في طبيعة السَّراب وتَرجَموا القرآن إلى الفرنسية ودَرَسوا الآثار القديمة وقاموا بمراقبة الفضاء وحَلَّلوا مكونات رملِ الصحراء وحاوَلوا معرفةَ أمراض المصريين. يبدو أن المَجال كان مفتوحاً أمامهم لدراسة أي موضوع أثارَ اهتمامَهم. وفي النتيجة، كَتَبوا موسوعةً من عدة أجزاء مع أشكال توضيحية نُحِتَتْ على النحاس عن مصر القديمة والمعاصرة تحت اسم: "وصف مصر"[73]

أسس الفرنسيون أيضاً أول مطبعة في مصر لاستخدامها في طباعة التصريحات والدعايات الحكومية. كانت مَنشوراتها باللغة الفرنسية بشكل رئيسي، ولم تكن متاحَة بسهولة حتى للطبقة المصرية العليا. كما نَشَروا صحيفةً يومية فرنسية اسمها: Courrier d'Egypt التي تَعلَّم بعضُ المصريين قراءتها لبعضهم بعضاً أثناء تَجَمُّعهم في المقاهي. افتَتَحَ الفرنسيون مكتبةً اطَّلَعَ فيها المصريون على الخرائط والرسوم البيانية. وقد ذَكَرَ ألجبرتي أنه زارها مِراراً. كانت المؤسسةُ التي تَبِعَتْها مؤسساتٌ أخرى مثل: التحالف الفرنسي والمركز الثقافي البريطاني ووكالة المعلومات الأمريكية.

لم تكن المكتبة الفرنسية مُتاحَة سوى لقليلٍ من الرُّواد على الرغم من جاذبيتها. وعلى مستوى اللقاءات اليومية، نَظَرَ الفرنسيون والمصريون إلى بعضهم بعضاً على أنهم برابرة، وهذا بالضبط هو المسارُ الأساسي للأمبريالية، فهي تَضَعُ أقواماً يحملون أذواقاً وأعرافاً وسلوكاً مختلفاً في مواجهةٍ غير متكافئة أساسها العنف الفعلي أو المحتَمل حدوثه في أية لحظة.

لم يَنخَدِع المصريون بمظاهر حُسْنِ النيَّة الفرنسية، وسرعان ما ظَهَرَتْ أسبابٌ لقتالهم، فقد هاجَمَتْ فِرَقٌ من الجنود القرى التي شَكُّوا بوجود نشاطٍ مُعادٍ لفرنسا فيها، وحَكَموا عليها بعقوبات كان أغلبها يَشمَلُ حَرْقَ التِّبن المَخزون على أَسْقُفِ منازلها فانهارَتْ وتم نَهبُ الطعام الذي جَمَعَهُ القرويون. كان هذا البرنامج مثالاً مبكراً لقَمع المقاومة ولم يكن موجَّهاً للمعاقبة فقط بل لمَنع التَّموين عمَّن تَبقَّى من المماليك والعثمانيين وقوات البَدو أيضاً. وفي إحدى الهجمات دَمَّرَ الجنودُ الفرنسيون بلدةً بَلَغَ تَعدادُ سكانِها حوالي اثني عشر ألف شخص.

كَتَبَ المُراقِبُ الفرنسي فيفان دينون Vivant Denon أن القرويين كانوا محظوظين إذا "اغتُصِبَ عددٌ قليلٌ من زوجاتهم وبناتهم"[74]. في إحدى البلدات في بني عَدي لم يكن السكانُ محظوظين فقد مَرَّرَ الجنودُ الفرنسيون نساءَ البلدة مِنْ واحدٍ إلى الآخر، وذَكَرَ دينون أنّ النساء التعيسات "رَجِعْنَ إلى أحوالهن الاجتماعية السابقة دون أي سؤال، وذلك سلوكٌ غير مُعتاد في غيرةِ الرجال المُحَمَّدِيين، مما دَفَعَنا إلى التَّعبير عن دَهشَتِنا، وتَلَقَّينا الإجابةَ المعقولة: "وما هو ذَنبهنّ إذا لم نَتَمَكَّنْ من الدفاع عَنهنَّ!"[75]. لعل ما لم يُدرِكِهُ دينون ولا الحكام الفرنسيون هو مدى عُمق الإحساس بالعار الذي شَعَرَ به الرجال المصريون.

جَمَعَ الفرنسيون فريقاً من الرجال للحصول على معلومات عن المصريين، ولكن رجالَ استِخباراتهم لم يُقَدِّموا فَهماً صحيحاً للمصريين. اعتَقَدَ الفرنسيون كما ذَكَرَ أحد جنرالاتهم أن "كَسْبَ

تأييد السكان يتم بإبداء تعاطُفِ الفرنسيين وتَحضُّرهم، وأن بونابرت قد وَضَعَ النظامَ المناسب لذلك"[76]. إلا أن المصريين لم يجِدوا النظام الفرنسي مناسباً لطريقتهم في الحياة، ولم يتَمَكَّن مكتبُ الاستخبارات من تَوَقُّعِ ردودِ أفعالِهم. وهكذا في 21-22 أكتوبر 1798 ثار أولئك المسلمون المصريون الذين يتَحدثون العربية والذين خَضَعوا طويلاً لحكم المماليك وظَنَّ نابليون أنه قد رفَعَهم إلى مستوى الثقافة والحريّة الفرنسية. كان هدفُهم بكل بساطة هو طَردُ الفرنسيين خارجَ مصر.

كان الصراعُ بين الفرنسيين والمصريين مثالاً للامبريالية كما كانتْ تُمارَسُ أيام الصليبيين، وكما تَمَّتْ ممارَستَها لاحقاً في أفريقيا وآسيا. استَمرَّتْ كتائبُ نابليون في القيام بالدَّور والتَّصَور ذاته الذي كان عند الصليبيين: وَجَدَ الغُزاة القادمون من الشمال العالمي شعوبَ الجنوب قذرةً وجاهلة، ورَدَّ عليهم سكان الجنوب بالمَشاعر نفسها[77].

اعتَبرَ المؤرخُ المصري ألجبرتي الذي عاصَرَ الفرنسيين في مصر أنهم قَذرون بسبب ما تَصَوَّرَهُ من عاداتهم الشخصية المُقَزِّزة، وربما كان يَتَحدثُ باسم أغلبِ المصريين عندما عبَّر عن اشمئزازه من عادة دخولِ الفرنسيين إلى البيوت ومَشيِهم على السجاجيد الجميلة بأحذيتهم المُلَوَّثَة بأوساخ الطُرُق. والذي كان أسوأ من ذلك في عاداتهم هي "بَصْقُهُم على الأثاث وتَنظيفُ أنوفِهم به"، وما كان يَسَبِّبُ صدمةً أكبر هي عدم التزامهم بقواعد النَّظافة والطَّهارة الإسلامية:

"عندما يريد الفرنسي أن يَتغوط فإنه يَفعَل ذلك في أي مكان يوجَد فيه حتى لو كان على مَرأى من الناس، ثم يَنهضُ ويُتابِعُ سَيرَهُ كما هو دون أن يغسل أو ينظف أعضاءه الخاصة بعد التَّغوط. وإذا كان لديه بعض الذوق والتَّحَضُّر فإنه يمسَحُ نفسَه بأي شيء يجِده حتى لو كان ورقةً عليها كتابة، وإلا فإنه يَظَلُّ على حالِه"[78].

تم الانتقالُ من أمور النظافة الشَخصية البَسيطة إلى عادات أخرى أيضاً مثل تَغطية شَعر الرأس. إذ يلبس المسلمون غطاءً للرأس مثل اليهود، ويُتَوقَّع من المسلمين أن يَحلقوا شَعرَ العانَة، وعلى الرجال أن يَقصُّوا شعورهم، وأن تَرتدي النساءُ الحجابَ عند الخروج في الطريق. اتَّبَعَ الفرنسيون عادات مختلفة في جميع هذه الحالات، وهكذا فقد اعتَبر كلٌّ منهم الآخر غيرَ مُحتَشِم أو غير قانوني في بعض الحالات.

تدَخَّلَت الأذواقُ في الأمور الشخصية الأخرى، فقد احتاجَ نابليون إلى مصاحَبة النساء، فانتَقَى مع طاقَمه بعضَ المصريات لمُصاحَبته، ويبدو أنَّهنَّ لم يَتَمَكَّنَّ من رفض الدعوة. لم تُعجِبه صُحبَتِهِنَّ فقد كانت مَقاييسُ الجمال المصري مختلفةً عن الأوروبية، ولذا استَدعَى إلى فراشِهِ زوجةَ أحد ضباطه. كانت جميلةً ومُغامِرة وذات جاذبية جنسية حسبَ رأيه، ولكنه ارتَكَبَ إثمَ الزِّنا من وجهَة النَّظَر الإسلامية، وتَخَلَّصَ مِن زوجِها بإرسالِهِ في مهمة إلى فرنسا[79].

ربما لم يَعرف المصريون بقضية نابليون ولكنهم عرفوا بالتأكيد تصرفات الجنود الفرنسيين، وكما وَصَفَها ألجبرتي فقد قَضَى الجنودُ الفرنسيون مُعظَمَ أوقاتهم في النَّهب

والاغتصاب، أما بالنسبة إلى القَتْلِ فقد تَمتَّعوا بكفاءة عالية، وقد مَنَحَهم العلامةَ التامة وكَتَبَ أنهم "تَصَرَّفوا كأنهم يَتبعون تقاليدَ الجماعة في فَجر الإسلام، وأنهم كانوا يَتَصَوَّرون أنهم يقاتِلون في حربٍ مقدَّسة"[80]. ولكنّ مِيزَتَهم تِلكَ كما شَعَر ألجبرتي لم تُؤَدِّ إلا إلى جَعْلِهِم خَطِرين، وأعطَتْ سبباً إضافياً لضرورة طَردهم بأسرع وقت ممكن.

اعتَقَد نابليون أن مهمَّته الحضارية كانت أساسيةً لِدَورِهِ، ولكنه كان رجلاً عملياً يُدرِكُ أن الجيوشَ تَمشي على بَطنِها، ولذا كان أول سؤالٍ طَرَحَهُ على علمائه هو: هل يمكن تَحسين المَخابز لمَنحِ الجيشِ ما يكفيهم من الخبز المقبول؟ هل تُنتجُ مصر نباتاً يُشبهُ الجَنجَل يمكن استِخدامُهُ في صناعة البيرة؟ كيف يمكن تَنقيةُ ماء النيل؟ في ظروف القاهرة الحالية، هل الأفضلُ بِناء طواحينَ مائية أم هوائية؟ كيف يمكن صُنعُ البارود بمنتجاتٍ مصرية متوفرة؟ أظهَرَتْ هذه الأسئلة مُقارَبةً ثوريةً حقيقية للحكومة: عليها أن تواجِهَ قضيةَ التَّغيير. كان سؤالُهُ السادس أكثر إثارةً للإعجاب والدهشة: "ما هي حالة القانون المَدني وقانون العقوبات؟ وما هي التَّحسينات المُمْكِنَة التي يَطلُبُها سكان الدولة؟"[81]

تصَوَّرَ نابليون أن سؤاله السادس يَطرَحُ هدفاً عظيماً، إلا أنه كان كما فَهِمَهُ المسلمون بمثابة دَعْمٍ للهرطَقة، لأن تَغيير القانون الذي أرسَلَهُ الله هو ارتكابٌ لعملٍ شرير. كان يشبه تماماً في مُقاربته العقلانية ما حاوَلَ السلطان سليم الثالث أن يُعَدِّلَهُ ويُغيِّره في النظام الجديد والذي أدّى رَدُّ فِعْلِ المحافظين ضِدَّها إلى اغتيالِه.

وهكذا يمكننا أن نَرَى أسباباً عديدة وراء رَفضِ المصريين العنيف للفرنسيين. في 21 - 22 أكتوبر سنة 1798 عندما ثارَ سكانُ القاهرة، وحسبَما نَعرف كانت الثورة عفويةً وأن قادةَ القاهرة التقليديين قد عارَضوها. وجَدَ العوامُ قادةً لهم حيث لم يوجَدوا مِنْ قَبْل. عُرِفَ أحدهم بينما لم يُعرف كثيرون غيره، وكان صانِعَ عُطور. أنصَتَ إليه أتباعه بدافعٍ مِن كراهيتهم للأجانب، بينما لم يهتَمَّ آخرون سوى بالنهب لا أكثر. ولكنّ عدداً كافياً منهم كان من المخلصين بحيث أنهم على الرغم من عدم حُصولِهم على الأسلحة النارية فقد واجَهوا كتائبَ الجيش الفرنسي المُنَظَّمة بسلاحِهم الوحيد: الحجارة والعصيّ. تَركَّزَت المقاومة حولَ مسجد جامعة الأزهر الذي كان رمزاً عاطفياً للإسلام في مصر.

قال ألجبرتي أنه ربما بِقَصدِ مُعاقَبَتهم بأقسى طريقةٍ نفسية مُمكِنة:

"داسَ الفرنسيون أرضَ الجامع الأزهر بأحذيتهم وهم يَحمِلون السيوفَ والبنادق، ثم تَفَرَّقوا في أرجاء ساحَتِه وفي قاعة الصلاة الرئيسية (المقصورة)، ورَبَطوا خيولهم في القِبلة (المِحراب). تَعامَلوا مع القرآن والكُتُب كأنَّها زبالة وَرَموها على الأرض ودَاسوا عليها بأقدامهم وأحذِيتهم، كما دَنَّسوا المسجدَ ببصاقهم وبَولِهم وبُرازِهم"[82].

قُمِعَت الثورة، ولكنّ صورةَ فرنسا كحاملةٍ للحضارة قد تَلَطَّخَت، وزادَت الفِرقة حِدَّةً بين القاهِرِ والمَقهور. خافَ الفرنسيون من السَّير في الشوارع فُرادى وبدون سِلاح، وأخرَجَ قادَتُهم

المصريين من أحياء القاهرة التي كانوا يُقيمون فيها لتُصبِحَ مناطِقَ خاصةً بالفرنسيين. وسنَرى أن البريطانيين قد اتَّبَعوا السياسةَ نفسها في الهند.

ربما دفَعَتْ خيبةُ الأمل وهذه النتائج السيئة نابليون لكي يُرَكِّزَ جهودَه القوية نحو توسيع قاعدة انطلاق خطَّتِهِ نحو الهند. إلا أن ذلك فَشِلَ أيضاً عندما انتَشَر وباءُ الطاعون وتدَّخَلَ الأسطول البريطاني لمَنعِ قواتِّهِ من احتِلال حُصنِ عكَّا في فلسطين. تراجَعَ إلى مصر وتَخَلَّى عن خطَّته بالسير على خُطَى الاسكندر الكبير إلى الهند. أبحَرَ عائداً إلى فرنسا في 23 أغسطس سنة 1799، وتَبِعَتهُ ما تَبقَّى من القوات الفرنسية مع بعض المتعاونين المصريين بعدها بسنتين.

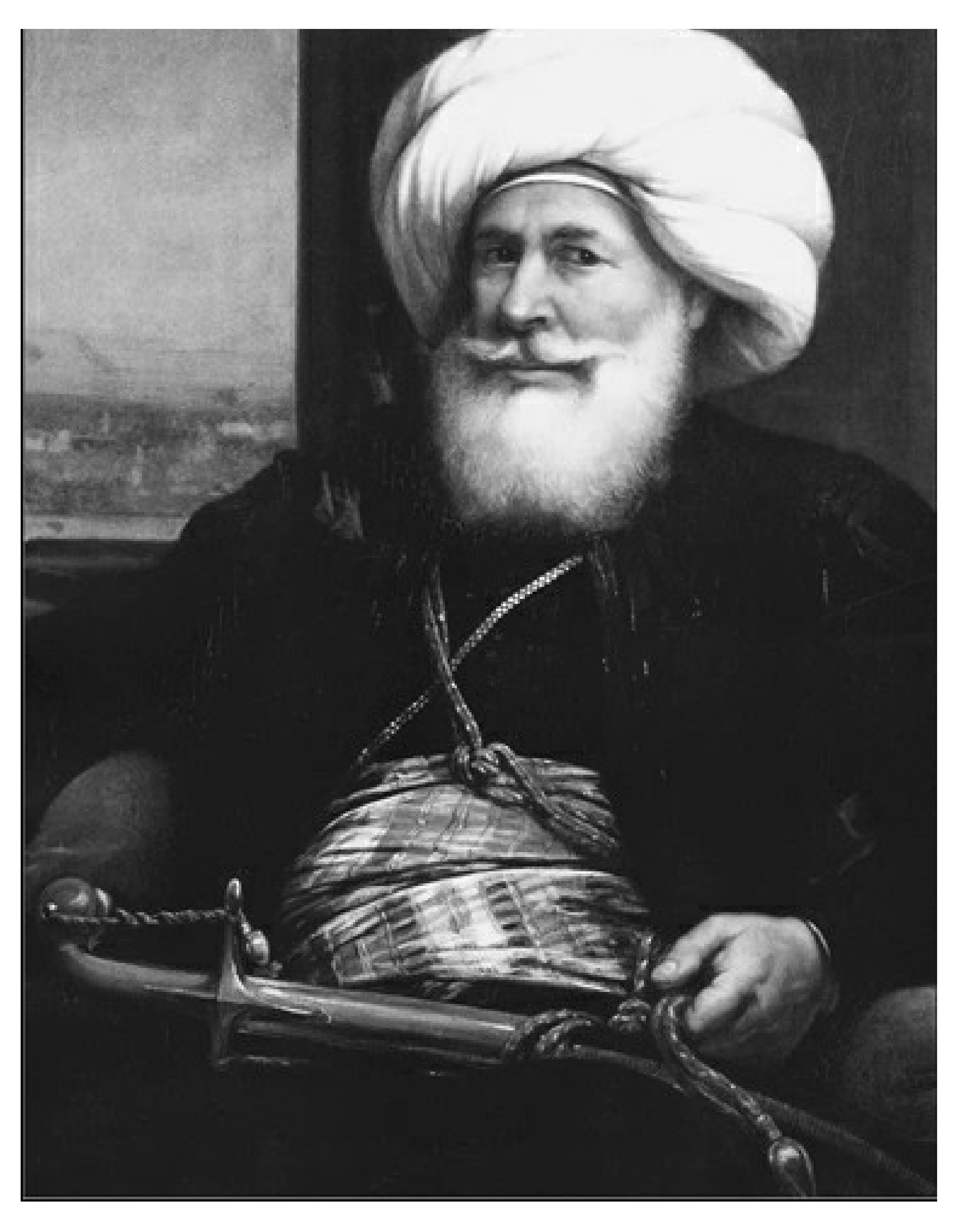
كانت حملةُ نابليون نُقطَةَ تَحوّلٍ في نظرةِ الأوروبيين إلى الشرق الأوسط، فقد نَبَّهَت البريطانيين إلى الخطَر الذي يُهدِّدُ طريقهم إلى الهند. ظَلَّ الخوفُ من الغَزو حَيَّاً في أذهانِهم عندما ظَهَرَتْ تهديداتٌ من روسيا وفرنسا وألمانيا والامبراطورية العثمانية على مر قرنٍ ونصف. كان عليهم أن يواجِهوا حكوماتٍ فرنسية لاحقة وقيصر ألمانيا وقياصرة روسيا للمحافظة على مصالحهم "الوطنية" حيثما كانوا يُفَكِّرون بوجود أي تَهديد لها. كما أنها كانت مِثالاً ودَافِعاً نفسياً لواحدٍ من أهم قادة مقاومة الأمبريالية وهو محمد علي باشا.

كان محمد علي باشا ألبانيّاً ولِد سنة 1769، وهي ذات السنة التي ولِد فيها نابليون، وذلك في القسم المَقدوني من كافالا. وكان مَثَلَ نابليون رجلاً غريباً عن البلد الذي سيَجعَلَها وطَنَه، ومثلَ نابليون سيَربَحُ ثم سيَفقِدُ امبراطوريةً عظيمة، وكان انتهازياً كبيراً أيضاً مثل نابليون. أدركَ قبلَ كثيرٍ غيره في العالَم الإسلامي مَصادِرَ القوة الفرنسية، وقَضَى عمره محاولاً أن يَحظَى بالتَّنظيم والقوة العسكرية والقدرات الصناعية التي ظَنَّ أنها التي جَعَلتْ نابليون قوياً وفَعّالاً. ولكن الذي لم يدركه هو أهمية الروح الدافعة للثورة الفرنسية، وفي الحقيقة لم يَتَصَوَّرْ مصر بالطريقة التي فَكَّرَ فيها جِيلُ نابليون بفرنسا. كانت مصر بالنسبة لمحمد علي قاعدةَ انطلاقٍ رَكَّزَ جهدَه للسيطَرة عليها والتَّمَسك بملكيتها.

كانت مصر بحالة فوضى عارمة بعد أن انسَحَبَ منها الفرنسيون. أَرسَلَت الحكومةُ العثمانية مسؤولاً حكومياً لاستلام السلطة، ولكنهم لم يَتمَكَّنوا مِن مَنحِهِ الدَّعمَ اللازم، فخَطَرَتْ له فكرة توظيفُ قوةٍ مِن رجالِ النّوبَة أو السودان. حاوَلَ تقليد أساليب الآلة العسكرية التي كانت عند نابليون بعد أن راقَبَها مِن بعيد، فارتَدى جنودُه المَلابسَ العسكرية الفرنسية وقامَ بتدريبهم ضباطٌ فرنسيون وِفْقَ الطُّرُقُ الفرنسية. وتعلَّم محمد علي من هذا النموذج. وفي الوقت نفسه، كان قد تَبَقَّى بعضُ المماليك الذين طَرَدَهم الفرنسيون دون أن يَقضُوا عليهم تماماً، فَرَاحوا يَتَجمَّعون ويُحَاوِلون تقليد الجيش الفرنسي أيضاً. أما المُنافِس الثالث على السلطة في مصر محمد علي، فقد تَعَامَلَ مع ما تَبَقَّى هنا وهناك مِن هاتين القوَّتين المُتنافِسَتين وحاوَلَ ضَربَهما ببعضهما بعضاً، وبعد ست سنوات من إبحار نابليون بعيداً عن مصر، تمَكَّنَ محمد علي من التَّغَلب على منافِسِيه وأمسَكَ بالسلطة.



محمد علي باشا، الألباني المسلم الذي قاد أول ثورة كبيرة ضد الامبرياليين البريطانيين في العالَم الإسلامي.



محمد علي باشا، الألباني المسلم الذي قاد أول ثورة كبيرة ضد الامبرياليين البريطانيين في العالَم الإسلامي.

المصدر: مكتبة الاسكندرية، الأرشيف الرقمي لذكريات مصر الحديثة.

اعتادَ السلاطين العثمانيون البَعيدون على مثل هذه الأعمال وتَقَبَّلوها بشكل عام مقابل دفع رشوةٍ وإعلان الخضوع والولاء للسلطان، ولكنّ ما فَعَلَهُ محمد علي بعد ذلك خرجَ من دفتر ألعاب نابليون، فقد حَصَلَ على الاعتراف بسلطته محلياً من طَرَفِ وجهاء المصريين.

قرر البريطانيون ضمانَ خروج الفرنسيين من مصر واتَّبعوا سياسة نابليون بغزو مصر سنة 1807. ولكنهم أثبتوا أنهم أقل كفاءة بكثير من الفرنسيين وتم دَحرُهم في سلسلة من المعارك. لَعِبَ محمد علي لعبة هذه الحرب بدهاء، فقد استَخدَم البريطانيين ضد منافسيه، واستَخدَم رفاقه من المُرتزقة الألبان ضد الجميع. فَقَدَ البريطانيون الأمل وسلَّموا الاسكندرية.

انتهى الخَطَر الخارجي ضد محمد علي مؤقتاً، ولكنه أدركَ مثلما أدركَ سليم الثالث أن عليه التخلص من الفريق الوحيد الذي يستطيع تحدي سلطته إذا أراد المحافظة عليها. كان الانكشاريون الخَطَرَ الذي هدَّدَ سليم، أما بالنسبة لمحمد علي فقد كانت بقايا المماليك هي مصدرُ الخطر. فَشِلَ سليم في القضاء على الانكشاريين الذين تمكَّنوا من قتله سنة 1807، ولكن محمد علي تَعلَّم الدرسَ وتمكَّن بعد ذلك بأربع سنوات من نَصْبِ كمينٍ لقادة المماليك وقَتَلَهم في الأول من مارس سنة 1811.

كما أدركَ محمد علي مثلما أدركَ سليم أن عليه في المدى البعيد بناء جيشٍ حديث وأن يدعَمه بوسائل تَمكينه بالأسلحة الحديثة. وكانت طريقته مماثلةً لطريقة سليم وهي وَضْعُ نظامٍ جديد. لم يقتضِ تنفيذ برنامجه اختراعَ أساليبَ جديدة فقد طَبَّقها بالفعل الحاكمُ العثماني في مصر، وكذلك المماليك، وكان من حسن الحظ أن عَرَضَ ضابطٌ فرنسي سابق في الوقت المناسب خَدَماته لتدريب الجنود. كان الكابتن جوزيف سيفى Joseph Sève قد حارَبَ مع نابليون في معركة واترلو، وكان أول الضباط الأجانب (بمن فيهم عدد من الأمريكيين بعد الحرب الأهلية) الذين انضَمُّوا إلى الجيش المصري، ومثلما فَعَلَ الرينيغادوس Renegados الذين خَدَموا في البحرية الجزائرية آنذاك، فقد تَحَوَّلَ الكابتن سيفى أيضاً إلى دين الإسلام.

كان أوائلُ المجندين الذين درَّبَهم الكابتن سيفى (الذي أصبح اسمه سليمان باشا) من الأتراك. ولكن بسبب قلة عَدَدهم فقد جنَّد سيفى السودانيين، ثم ضمَّ الفلاحين المصريين ليَعملوا كجنودٍ لأول مرة منذ قرون كثيرة. وبعد الحروب الكثيرة التي خاضَها محمد علي ضد الوهابيين في شبه الجزيرة العربية وضد اليونانيين والعثمانيين، قُتِل المعارضون التقليديون لحكمه، وهكذا تخلَّصَ محمد علي من المشكلة التي واجهها سليم الثالث بالاستنزاف التدريجي البطيء.

ارتفَعَ عددُ أفراد جيش محمد علي خلال سنوات حكمه إلى أعداد لم يَسبق لها مثيل، وبلَغَ سنة 1833 حوالي 190000 رجل، وضَمَّ واحداً من كل عشرة مصريين تقريباً. لم تَحدثْ في مصر مثل هذه التطورات من قبل.

ارتدى جنودُ محمد علي ملابسَ على النَّمَط الأوروبي، ولكنه عَرفَ أن ذلك لم يكن أكثر من رمز، وأنه لكي يكون الجنودُ مفيدين عليهم أن يتَدَرَّبوا وفق الطُرُقِ والمَقاييس الأوروبية، فأسس مدارسَ لتدريب الجنود تحت إشراف سيفى، وكانت تلك هي البداية.

كان من عبقرية محمد علي إدراكه أن القوة العسكرية لم تكن مجرد أعداد وتدريب وملابس عسكرية، بل أن الفلاحين يجب أن يُدَرَّبوا لكي يكونوا جنوداً أو لكي يصبحوا عمالاً صناعيين يُنتِجون البنادق والمَدافع والذخائر والملابس العسكرية. أي أنه كان عليه في الواقع أن يُطَوِّرَ بأوامر من الأعلى وعلى أوسع مدى ممكن في مصر ما يشبه الثورة الصناعية الأوروبية. وانطلقَ للبدء بتنفيذ هذه الأعمال بإرسال بعثات المتدربين المصريين الأولى إلى أوروبا سنة 1809.

على الرغم من أنه لم يقصد فِعْلَ ذلك فقد صَنعَ محمد علي جيلاً جديداً سيَظهَر في مصر بعد وفاته (سأقدِّم أشهرهم في الفصل 16).

لكي يستطيع دفعَ تكاليف نظامه الجديد، أدركَ محمد علي أن عليه التحكّم بالزراعة والمالية والصناعة والتجارة بشكل مركزي مثلما تحكَّم بالجيش والسياسة، ومع حلول سنة 1816 كان قد أسس دولةً احتكارية. كان دَورُ صناعة النسيج مركزياً في سياسته الداخلية. افتَتَحَ حوالي ثلاثين مصنعاً لانتاج الأقمشة القطنية في الفترة 1818- 1828. بلَغَ عدد العاملين في هذه المصانع سنة 1830 حوالي ثلاثين ألفاً، وبالإجمال بلَغَ عدد العمال الصناعيين أربعمئة ألف عامل على الأقل، ولم توجَد مثل هذه الفئة من العمال قبل استلامه للسلطة. كان على كل من يريد شراء المنتجات المصرية أو القطن الخام أن يَتَعامَلَ مع الدولة. وضَعَهُ ذلك مباشرة في مواجهةٍ مع البريطانيين الذين كانوا يُصرّون على فَتح الأسواق أمام بضائعهم واعتَبَروا كل احتكار أو منطقة مغلَقة أمام التجارة الحرة أمراً غير مقبول للنظام العالَمي (أي للبريطانيين). وكما كانوا يفعلون آنذاك في الهند فقد حاوَلوا مَنعَ مصر من التصنيع.

كانت بريطانيا تُعارِضُ أيضاً كل ما يمكن أن يهدِّدَ حاجِزَها ضد تقدّم روسيا. كان ذلك الحاجز هو الامبراطورية العثمانية. وبالنسبة إلى محمد علي الذي كان مُشبَعاً بطموحات نابليون فقد كان التوسع حتمياً، ولم تكن منجَزاته التي حقَّقها داخلياً سوى وسائل، وكانت "الهند" بالنسبة له هي الامبراطورية العثمانية، ولذا فقد أرسل قواته إلى شبه جزيرة العرب سنة 1811 سواء كان ذلك بإذن السلطان أو لم يكن، كما تقدَّم إلى السودان سنة 1820، وإلى اليونان في 1827. سنَحَتْ له فرصةٌ لتوسيع مملكته أكثر سنة 1831، وتصوَّرَ أن قواته العسكرية قد حقَّقت مستويات من الكفاءة لم يكن لها نظير في الشرق الأوسط ولا حتى من جهة البريطانيين الذين عَرفَ أنهم كانوا الداعمين الرئيسيين للامبراطورية العثمانية. ظَهَرت الفرصةُ مناسِبةً فقد كانت بريطانيا مشغولَة بأمور أخرى، وكان الفرنسيون منهَمكون بقَمع الثورة الجزائرية، وكانت روسيا تُهاجِم العثمانيين الذين كانوا أنفسهم مُنهَكين بدفع تعويضات ولم يتبقَ لديهم قوات بَحرية تُذكر وكان جيشهم متعَباً وضَعيف التَّجهيز. ولذا حوَّلَ محمد علي نفسه إلى نوع من الاستعماري الأمبريالي فأرسَلَ جيشَه إلى شرق المتوسط وأمرَه بالتَّوجه نحو العاصمة العثمانية. قهَرَ جيشُه الجيشَ العثماني في معركة قونية سنة 1832 وكان يمكنه أن يأخذ القسطنطينية (اسطنبول)، ولكنه توقَّفَ خوفاً من التَّدخل الأوروبي. وعلى كل حال فقد خافَ السلطان الحاكم آنذاك محمود الثاني لدرجة أنه طلَبَ تدخل الروس.

خشِيَ البريطانيون والفرنسيون من ذلك لدرجة أنهم أجبَروا محمد علي على الانسحاب من الأناضول، ولم تتمكَّن المفاوضات من التَّوصل إلى اتفاقيةٍ لإيقافِه. أخطأ محمد علي في قراءة

الإشارة وفَشِلَ في إدراك الخطر المُحدق وظَنَّ أنه يمكن أن يستفيد من الخلاف بين الانكليز والفرنسيين وهكذا فقد أبلَغهم سنة 1838 أنه سيُعلِنُ استقلالَ مصر عن الامبراطورية العثمانية.

شجَّعَتْ بريطانيا السلطانَ فقرَّر مهاجمةَ الجيش المصري، ولكن التشجيع لم يكن كافياً إذ دَمَّرَ المصريون الجيشَ العثماني في معركة نزيب سنة 1839 وشَعَرَ الاسطولُ العثماني بانهيار الامبراطورية فانشَقَّ وانضَمَّ إلى مصر. بالَغَ محمد علي آنذاك في لعب أوراقه، فحاصَرَ البريطانيون مصر وقصَفوا مدينة بيروت التي كانت تحت سيطرة المصريين، بينما استطاعَ جيشُهم احتلالَ الحصن الاستراتيجي في عكا الذي فَشِلَ نابليون أمام جدرانه.

من الصعب تقدير ما يمكن أن يَحدُث في مستقبل الشرق الأوسط لو استَمرَّ حُلُمُ محمد علي في تحقيق طموحاته الأمبريالية. تم إيقافُهُ وهو في أوجِ قوتِه بعد أن سيطَرتْ جيوشُهُ في سلسلةٍ من الحملات نحو أعالي النيل على السودان، ونحو أوروبا في محاولةٍ لإبقاء اليونان تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية، ونحو آسيا حيث احتَلوا شبه جزيرة العرب وفلسطين ولبنان وسورية ونصف الأناضول، وانضَّم الاسطول العثماني إليه وكان سائراً نحو صُنْعِ امبراطورية.

إلا أن ذلك لم يتم فقد قرَّرَت بريطانيا وفرنسا إيقافه بالقوة إذا احتاج الأمر.

كانت انكلترا الصناعية تبحثُ جاهدةً عن أسواق وآمَنَتْ بأن النظام الاحتكاري الذي طبَّقه محمد علي في مصر يمكن أن يمتَدَّ إلى سورية وبقية أنحاء الشرق الأوسط فيَخنقَ التجارة البريطانية. أجبَروا الحكومةَ العثمانية على قبول قانونٍ تجاري يضمَن حرية التجارة سنة 1838 وحاولوا فرضَه على محمد علي ويُجبِروه على تفكيك نظامِه الاحتكاري في مصر، ولكنه رفضَ ذلك، ولذا أنزَلَ البريطانيون قواتٍ في بيروت وأجبَروا مصر على تخفيض عَددِ جيشِها من 130,000 إلى 18,000 رجل. عندما لم يستطع تحقيق الهدف الذي بدأ برنامج التحديث من أجله، فَقَدَ محمد علي اهتمامَه بالتغييرات الواسعة التي أطلَقها في مصر، أصابَهُ المرض والخَرَف وتوفي سنة 1849.

الفصل السابع

الغزو الفرنسي والمقاومة الجزائرية

كانت "الجزائر" مفهوماً غير محدَّد مثل أكثر دول الشرق الأوسط وأفريقيا. يدل الاسمُ العربي للجزائر على جمع لكلمة "الجزيرة" الذي يعني المناطق المأهولة التي يُحيطُ بها البحر أو الرمال. كانت أكبر "جزيرة" هي امتداد المدينة الرئيسية: الجزائر.

كان أغلب سكان الداخل فيما وراء جبال الأطلس (سلسلة الجبال التي تمتد على طول الحافة الشمالية الغربية لأفريقيا من مراكش إلى تونس) هم من البربر (الطوارق) الذين كانوا إما قرويين يعيشون في واحاتٍ متفرقة، أو قبائلَ من البدو الرُحَّل. كان الرومان يسمونهم النوميديان (البدو)، وكانوا قد قَبلوا الاسلام واللغة العربية منذ زمن طويل. لم يَدخل سكان المدن إلى الداخل إلا نادراً، فكانت مناطق القبائل والواحات في واقع الحال دولاً متفرقة مستقلة ولكن يربطها ببعضها التطبيقُ الصَّارم للإسلام. كانت الصوفية النمَطَ السائد من الدين، وكانت مَزاراتُ الأولياء الكثيرة هدفاً منتشراً للحَج. ارتبطَ القرويون والبدو أيضاً بتجارة المنتجات الحيوانية ومحاصيل الحبوب إلى المدن الساحلية.

في القرن الثامن عشر كان عدد سكان مدينة الجزائر حوالي 120 ألف، وكانوا ينقسمون إلى فئات مثل سكان الداخل، إلا أن تقسيماتهم كانت تُحَدِّدها العادات والتقاليد وليس بسبب الجغرافيا. كان أغلبُهم من المسلمين أصلاً، ولكن حوالي 16 ألف منهم كانوا ممن يُطلَق عليهم اسم "الرينيغادوس" وهم الذين غادَروا أوروبا وانكلترا وتَحوَّلوا إلى الإسلام. كان الأوروبيون يَعملون في بناء السفن والتجارة البحرية وكانوا يُشكِّلون في البحر نسبة كبيرة من التجار وطاقَم سفن القراصنة، وكانت تلك "الصناعة" الوحيدة في مدينة الجزائر.

كانت أغلبية السكان من البربر، وكان أغلبُهم قد تَحوَّل إلى الإسلام خلال القرن الثامن الميلادي. أما العرب فكان أغلبهم من نَسلِ المسلمينَ الذين جاؤوا من اسبانيا (الموريسكوس) وعَبَروا إلى شمال أفريقيا بعد أن طُرِدوا مع اليهود من اسبانيا سنة 1492 [83]. وعلى العكس من المسيحيين المتشددين في قشتالة والأرغون، فقد رحَّبَ المسلمون باليهود في دول شمال أفريقيا، وفي القرن التاسع عشر بلَغَ العددُ المتزايد من اليهود في مدينة الجزائر ما يساوي تقريباً عدد

الرينيغادوس المسيحيين. وبعد ضَمِّ الجزائر إلى الامبراطورية العثمانية سنة 1518 تقاطَرَ إليها عددٌ مستمر من الأتراك كان أغلبهم من الجنود والإداريين.

كان في الجزائر مجتمعٌ متَنوعٌ بالمقارنة مع ما كان موجوداً في أوروبا. كان الإسلام "يؤثِّرُ على كلّ جانبٍ من حياة الجزائريين من الولادة حتى الممات"[84]. وكان حكام الجزائر يَعملون وفقَ النمط الإسلامي التقليدي ويَسمَحون بشكل عام لكل أقلية أن تُمارِسَ شعائرها وتقاليدها، وذلك على العكس من الدول الأوروبية الجنوبية حيث كان يُعدَم أو يُطرَد منها المسلمون واليهود بل وحتى المسيحيون البروتستانت. وربما دُهِشَ قادةُ محاكم التفتيش لو عرفوا أن السجناء المسيحيين كان يُسمَح لهم بكنيسةٍ حتى في داخل سجنهم.

استطاعَت الجزائر أن تَجعَلَ نفسَها دولةً مهمَّة على الرغم من قلَّة عدد سكانها وتَوزّعهم الكبير وضَعفِ مواردِها خلال القرن السابع عشر والثامن عشر وبداية التاسع عشر، ويرجِعُ ذلك بشكل رئيسي إلى اعتمادها على البحر. قامَ اسطولُها في حروبها الطويلة ضد اسبانيا وفرنسا وانكلترا بما قامَتْ به أساطيلهم تماماً وذلك بمزيج من التجارة والعَمَل الخاص. بمقاييس هذه الأيام ربما نَعتَقدُ أن الدول الأوربية ودول شمال أفريقيا كانت دولاً مارِقَةً وأن بَحارَتها كانوا إرهابيين، ولكنّ تلك لم تكن نظرة الدول إلى بعضها بعضاً آنذاك. كانوا يَخوضون نوعاً من الحرب الباردة تَخَلَّلَها قتالٌ وفتراتٌ طويلة من التجارة المشتركة المفيدة لجميع الأطراف.

إلا أن بعض أنواع هذه التجارة لم يكن مفيداً لجميع الأطراف، فقد قامَ الجزائريون المسلمون والرينيغادوس بالإغارة على السفن والموانئ التجارية الأوروبية. ولم يكونوا مثل قراصنة الجُزُرِ الكاريبية الذين كانوا يَنطلِقون من الخلجان السطحية على قوارب صغيرة، بل كان قراصنةُ البربر يَعملون في أساطيل كبيرة ويَصِلون بعيداً حتى إيسلندا. كان هدفهم الرئيسي هو اصطيادُ البشر وبَيعهم كعبيد. وعلى طول الساحل الأوروبي للبحر الأبيض المتوسط وَضَعَت القرى الصغيرة حراساً ومراقبين لكي يُشعِلوا ناراً تُنذرهم عندما يُشاهِدون أشرعةً غريبة. وإذا نام الحراسُ أو سكروا ولم يتمكن القرويون من الفرار إلى مدن محصَّنة، فإنّ القراصنةَ كانوا يُحيطون بالمنطقة ويَأسِرون جميع السكان. ظلَّ القراصنةُ نشيطين على مدى 250 سنة يُعتَقدُ أنهم خطَفوا خلالها حوالي مليون وربع المليون من البشر. كانت هذه الأعمال منتشرةً لدرجة أنه تم تَنظيمها في اتفاقياتٍ وفقَ نظامٍ معروف لتبادل الحُمولات التجارية ودَفع الفدية لتحرير السجناء. ولكن بقي آلافٌ من المخطوفين في مدينة الجزائر وتَحَوَلُّوا إلى الإسلام، ووصَلَ بعضُهم إلى مراكز عالية في حكومة المدينة-الدولة.

كانت مدينة الجزائر تُدارُ بطريقةٍ تشبه معاصِرتها في فينيسيا وغيرها من المدن-الدول الأوروبية فيما عدا أن طَبقاتها العليا كانت من الأتراك العثمانيين. تَصَوَّرَ الأوروبيون أن مدينة الجزائر كانت "دولةً مضطَربة على شفا الإنهيار والفوضى والثورة، ولكن في الواقع لم تَحدُثْ أية ثورة واسعة النطاق ضد الحكومة المركزية على مدى ثلاثة قرون من الحكم المحلي"[85]. لم يكن حكم الأتراك شديداً على السكان المحليين فقد ضَبَطَها التجارُ الذين كانوا يحتاجون إلى ضمانات لعَدَم تَعرُّضِهم لقسوة الجنود مقابل ما خَلَقوه من الثَّراء الذي لاحَظَ وضوحَهُ الزوارُ الأوروبيون.

اعتَبر نابليون نموها وثراءها مهماً، وخلال رحلته من فرنسا سنة 1798 رتَّبَ لشراء الحبوب، التي كانت آنذاك من أهم صادرات الجزائر، لإطعام الثمانية وثلاثين ألف رجلاً الذين أَخَذَهم في حملَتِهِ إلى مصر. كان الجزائريون سعداء بتَموينها، ولكنهم لم يسعدوا بِعَدَمِ دفعِ نابليون لثمنها. أطلَقَ تأخّره بالدَّفعِ سنواتٍ من المفاوضات القانونية والسياسية كانت نهايتها سنة 1827 عندما فَقَدَ الحاكمُ المتعَبُ أعصابَهُ وغَضِبَ بسبب تلاعبهم به، فضَرَبَ القنصلَ الفرنسي المُقيم بمِنَشَّةِ ذُبابٍ كانت في يَدِهِ، وذُكِر أنه سَبَّه بوصفِهِ "مخادعاً وكافراً وشيطاناً عابداً للأوثان"[86]. وعندما نُقِلَ الخَبرُ إلى الحكومة الفرنسية طلَبَت اعتذاراً مُهيناً رفَضَ الحاكمُ الجزائري تقديمَهُ قائلاً لقنصلٍ أوروبي آخَر "أستَغرِبُ أنّ الفرنسيين لم يَطلِبوا زوجتي أيضاً!"[87].

بعد أن هدَّدوا بعواقبَ وخيمةٍ لم يَفعل الفرنسيون شيئاً، بل لَجَؤوا عندها إلى ما نسميه هذه الأيام بالعقوبات الاقتصادية، فحاصَروا ميناءَ مدينة الجزائر. مرَّت سنتان حاولَتْ خلالهما حكومةٌ فرنسية لم تتمتع بشعبية كبيرة أن تَمحو غَضَبَ الجماهير المحلية وتأييدها "للثأر". لم يكن الشعب الفرنسي مهتماً كثيراً، ولكنّ الحكومةَ قامَتْ بتعبئةِ قواتِها على كل حال وهاجَمَتْ في سنة 1830 مُعلنةً أنها حَملةُ "الانتقام".

سارَ الغَزو الفرنسي بسهولة في البداية وكأنها في الواقع نزهة جماعية. كَتَبَ لنا ويلفريد بلنت وَصْفاً لما جَرى: "تحت الشمس الساطعة لصباح شهر مايو، لبِسَت الحملةُ ثياب نزهةٍ كبيرة لاهية. أخَذَ الرسامون الرسميون معهم ريشَهم ولوحاتهم في السفن الحربية الفرنسية ورافَقَهم ممثلونَ للقوى الأجنبية الذين جاؤوا مع الحملة لكي يشاركوهم المتعة، وأخذوا يتجولون بأزياءَ غريبة مرحة"[88].

ولكن كما يَحدُثُ في النزهات أحياناً فقد خَفَّضَ الطقسُ السيئ من المتعة واضطرت السفن للإنسحاب إلى جزيرة بالما حيث تَعطَّل نصفُ فَخْرِ الأسطولِ الفرنسي بسبب فَشَلِ المحركات. كان ذلك إنذاراً بمزيد من المتاعب القادمة، إلا أن أحداً لم يكن بالمزاج المناسب لقراءة ذلك الإنذار. بعد القيام بالإصلاحات اللازمة وأخْذِ فرقٍ جديدة من الرجال ومزيد من الذين يَتمَنون التوفيق والنجاح، عادَت الحملةُ إلى ساحل أفريقيا حيثُ أُنزِلَت القوات ولمْ تواجِه سوى مقاومة متفرقة. في المواجهة الأولى سَحَقَتْ مدفعيتُهم المتفوقة الجزائريين الذين خَسِروا كل مدفعيتهم القديمة وحوالي أربعة آلاف رجل، بينما لم يُقتَل من الفرنسيين سوى خمسة وسبعين رجلاً وجُرِح حوالي خمسمئة. كانت معركةً نموذجية لكلِّ قتالٍ حَدَثَ في القرن التاسع عشر بين أوروبا المتَفوقة عسكرياً وأفريقيا بأسلحتها التقليدية. ولكنها لم تُنهِ الحرب.

وكما كَتبَ بلنت عن الفرنسيين في الجزائر، وسيَكتُب كثيرون بعده عن أمريكا في العراق: "تكمنُ خيبةُ أملٍ حزينة وكبيرة أمامَنا... من النادر أن نَجِدَ أمّةً غازية لا تَعرِف الكثيرَ عن الشعب والعادات ولا حتى مبادئ جغرافية البلد الذي احتلته"[89]. عندما استسلمَ الحاكمُ أعلَن الفرنسيون أن "المهمة قد أُنجِزت".

استقبلوا استسلامَ الحاكم باحتفال كبير، وتَكرَّموا بالسماح له الذهاب إلى المنفى مع جزءٍ صغير من ثَروته وجَميع حريمه. ولكنّ جزائريين آخرين رفَضوا قَبولَ هزيمتهم. غَضِبَ الفرنسيون وانزَعجوا لاستمرار القتال، فنَهَبوا مدينةَ الجزائر وأخَذوا يهاجمون القرى المجاورة لها، وأدّى كل هجومٍ إلى إثارة مزيدٍ من المقاومة بدلاً من أن يُخضِعَها، وبدَأت المقاومةُ تتَّخذ شكلَ حركةٍ دينية وقَبَلية.

كان الرجلُ الذي قادَ هذه المقاومة أحد أكثر الرجال تَميّزاً في القرن التاسع عشر. أطلَقَ عبد القادر الجزائري نداءَهُ إلى رجال القبائل والقرويين الجزائريين لكي يَحملوا السلاح دفاعاً عن الإسلام في سنة 1832 وكان عمره اثنين وعشرين عاماً. كانت قاعدته أولاً في مدينةِ: معسكرة، التي يَعني اسمها بالعربية الجزائرية: مكان إقامة الجنود. أتَى المجاهدون من كافة أنحاء الجزائر حاملين ما تَوفَّر لهم من الأسلحة مثل الأدوات الزراعية وبعض بنادق الصيد للانضمام إليه. لم يَتَمكَّنوا من المحافظة على المدينة، وعندما طُرِدوا منها، لم يكن لدى عبد القادر من اختيار سوى حرب العصابات. تمتَّع بموهبةٍ غريزية "كقائدٍ لحرب العصابات من الدرجة الأولى" كما وصَفَهُ الباحثُ الانكليزي الكبير للحروب الاستعمارية الكولونيل (الذي أصبح فيما بعد جنرالاً) تشارلز كالويل Charles Callwell. أدركَ عبد القادر أنه لن يستطيع التَّغلب على الفرنسيين في معركةٍ كبيرة لأنهم سيتَغلبون عليه دائماً بأعدادِهم الأكبر ومدافِعهم الأقوى[90]. كان عليه أن يحارِبَ معاركَ متحركةٍ فيَضرب حيث يستطيع ويَهرب حين يُخاطِر بالهزيمة. استمَّر بهذه الطريقة في القتال طوال خمس عشرة سنة كما كَتَبَ كالويل:

"تمكَّن بفضل سيطرته على بدو الجنوب وعلى بربر القفار من رجال الجبال أن يلعَبَ دَورَ القائدِ الاستراتيجي حيثما كان رجاله الذين كانوا يَتنقَّلون في البلاد الواسعة الأرجاء. حَيَّرت القيادات الفرنسيةْ ضَرَباتُه الجريئة المفاجئة لسنوات عديدة. كانت لديه معلومات كاملة عن تحركاتهم البطيئة، وكان يَعرف متى كانت حامية ما قليلة العدد فكان يهاجِمها فوراً ويَقطع اتصالاتها ويُصادر إمداداتها، وريثما يَجمَع الفرنسيون قواتهم للقيام بهجمة مضادة ويَجرُّون مدفعيتهم وذخائرهم إلى المنطقة، تكون المجموعة التي هاجَمتهم قد اختَفَتْ في الصحراء أو هربَتْ إلى ملجأٍ جبليّ حيث لا تستطيع القوات النظامية اللحاق بهم"[91].

استدعى الفرنسيون الجنرال توماس بوجو Thomas Bugeaud الذي كان خبيراً بحرب العصابات لمقارعة عبد القادر. كان قد خاضَها بنفسه وتَعلَّمها بطريقةٍ صعبة لأنه خَدَمَ سنة 1808 في الفرقة الفرنسية الأولى التي دخَلتْ اسبانيا وتَعامل مع رجال العصابات الاسبانية. يقولُ كالويل إنّ بوجو قد "أدركَ في اسبانيا أنه لا يجب عليه أن يَتعامَل فقط مع القوات المقاتلة، ولكن مع السكان المُعادِين أيضاً، وأن هؤلاء السكان يتألَّفون عادة من مجموعات وقبائل تَتمسَّك بعقيدة ثابتة، ولكي يتَمَكَّن من إقناعهم عليه أن يَصل إليهم من خلال محاصيلهم وحيواناتهم وممتلكاتهم" ولذا فقد أسَّس "كتائب متحركة" كانت مهمتها أن تُهاجِم المتمَردين في مناطق سكناهم"[92]. كان أول القادة القُساة المتتالين الذين حَوَّلوا الحرب ضد المتمردين إلى حربٍ ضد المدنيين.

بينما تابَعَ الفرنسيون سيطرتَهم على المدن والقرى واحدةً تلو الأخرى وفصَلوا قوات عبد القادر عن قواعد تأييدهم الشعبي، صَنَعَ عبد القادر نوعاً من "الأمّة المتحركة" مثلما فَعَلَ جوزيف بروز تيتو في يوغوسلافيا بعد ذلك بقرن، وكما قال لجنرالٍ فرنسي:

"ضَمَّت الزَّمالة (المخيم الذي بلَغَ تعداده أحياناً حوالي ستين أو سبعين ألف شخص) جميع أنواع الحرفيين الضروريين للتنظيم، مثل رجال السلاح والخياطين وصانعي السروج وغيرهم. سادَ النظام التام، وقامَ القضاة بضمان تطبيق العدالة بالطُرُقُ نفسها التي كانوا يقومون بها في المدن والقرى، وتم فَتحُ الأسواق. لم تكن هناك سرقات ولا تصرفات غير أخلاقية، وتم القيام بالضيافة مثلما كان يَحدث في الماضي، وعندما كنا نُضطَر للتوقف، يَستمر تَعليمُ أولادنا ويُتابِع المؤذنون الأذان وإقامة الصلاة في أوقاتها. كانت كل عائلة تَحمِل تموينها حسبما تَسمح به إمكانيات تَنقلها، فكان الأغنياء يَحملون ما يَحتاجونه لفترة شهرين أو ثلاث، بينما يَحمِل الفقراء ما يكفيهم مدة اسبوعين على الأقل"[93]

استمرَّ عبد القادر في القتال، ولكن الفرنسيين أجهَدوا قاعدته الشعبية التي اعتَمد عليها المقاتلون، كما أن المعاناة المخيفة التي سبَّبَتها هجماتُ الجنرال بوجو على قراهم زادَتْ يأسَ الجميع حتى المقاتلين. ثم خَدَعَهُ نَصْرٌ محظوظ في معركة المَقطع في 26 يوليو 1835 فارتكَبَ الخطأ التقليدي الذي يَرتكبُه قادةُ المقاومة عادة، وذلك عندما حاوَلَ أن يُحَوّل عصاباته إلى جيشٍ ففَقَدَتْ قواتُه حركيتها وأصبَحتْ هدَفاً أسهل لا يمكن أن يكون نَدَّاً للجيش الفرنسي الذي بلَغَ تعداده أكثر من مئة ألف رجل، أي حوالي ثلث الجيش الفرنسي آنذاك. وفي سلسلة من المحاولات اليائسة، قاتَلَ عبد القادر وانسَحَب بطريقةٍ تماثل تماماً القتالَ اليائس الذي قامَ به تيتو ضد الجيش الألماني بعد ذلك بقرن، ولكن دون أن يتوفَّر له نظام التَّحكم والسَيطرة الذي توفَّر لتيتو، ولا الإيديولوجية التي وَحَّدَتْ أتباعه، أو قسوته في عقاب مَن ينشقّ عنه. انفَضَّ أتباعُ عبد القادر من القبائل بعيداً عنه واحدة تلو الأخرى، وخَذَلَهُ كذلك سلطان مراكش الذي كان دعمه الخارجي المفيد الوحيد. وفي سنة 1846 استسلم عبد القادر بعد أن تشَتَّتَ جيشُه وذلك لكي يحمي شعبه من مزيد المعاناة[94].

تدفَّقَ الأوروبيون إلى البلاد، وبعد عَقدٍ واحد من الغزو الفرنسي أصبَحوا حوالي 1% من السكان وسارَعوا للاستيلاء على الأراضي الزراعية. كان الخلاف على مُلْكيَّة الأرض مريراً وقاسياً، مثلما حَدَثَ في تَمرّد الفلبين وفيتنام، ولكن الفرنسيين أدرَكوا أنه مفتاح الانتصار في الحرب كما قال الجنرال بوجو في خطابٍ إلى الجمعية الوطنية الفرنسية: "يجب أن نزرَعَ مستَوطِنين حيثما وجِدَ الماءُ العذب والأرض الخصبة"[95]. اعتُبِر أنَّ الاستيطان والاستعمار أفضَل وسيلة للرَّد على التمرد: اعتَقَدَ الفرنسيون أن الذي لا يستطيعون تحقيقه بالبندقية يمكنهم تحقيقه بالمحراث.

تم الاستيلاء على مناطق واسعة بشكل رسمي رَدَّاً على المقاومة، وتم قَتْلُ السكان أو تَهجيرهم. وذلك مثلما حدَثَ في أمريكا خلال الفترة نفسها حيث تم "حذف" حقوق أراضي الهنود، أو "إطفاؤها" حسب الاصطلاح الذي استُخدِم حينها. كانت هنالك جهودٌ قليلة لإبطاء اغتصاب

الأراضي أو لجعله قانونياً، إلا أن تلك الجهود تم التلاعب بها بسهولة. وبالتدريج تم بالفعل إبعادُ الجزائريين عن جميع الأراضي الصالحة للزراعة.

على الرغم من استسلام عبد القادر، إلا أن الحرب استمَرتْ بشكل متقطِّع تحت قيادات جديدة، وكانت مِن أكثرهم رومانسية المرأة البربرية الفتيَّة: فاطمة نات سيد أحمد، التي عَرفها سكانُ قريتها باسم "نْسومِر" والتي قادَت المقاومة مع زوجها.

ولِدت نْسومِر في السنة التي بدأ فيها الغزو الفرنسي، وتوفيت سنة 1863 عندما كانت في الثالثة والثلاثين من عمرها. كان والدها مدرِّساً يُعلِّم القرآن في مدرسة تقليدية أصَرَّت على دخولها على الرغم من أن ذلك لم يكن مسموحاً به للفتيات، ورفَضَتْ قَبول الزواج المُرَتَّب بالطريقة التقليدية عندما بلَغَ عمرها السادسة عشرة وتابَعتْ دراستها. تَعرَّفَتْ على زوجها بو باقية فيما بعد، وكان أحد الرجال الذين خَدَموا في جيش عبد القادر ولكنه رفَضَ الاستسلام معه. ويبدو أنها حارَبتْ إلى جانب زوجها حتى استُشهِد أثناء القتال سنة 1854، وعندها قرَّر الباقون من رجال عصبتهم أن يسلِّموها القيادة. عندما تم التَّغلب على المقاومة سنة 1857، اختبَأتْ. ولكن سرعان ما قبَضَ عليها الفرنسيون وتوفِيتْ في الحبس. وظلَّتْ بطلةً قومية في الذاكرة الجزائرية[96].

أثار الفرنسيون غضَبَ الجزائريين باستيلائهم على الأراضي ونَهبِهم أموالَ الدولة وتوظيف المبشِّرين الكاثوليك كمجاهِدين مسيحيين لمواجَهة العقائد والتقاليد الإسلامية. كما قاموا بتصدير مصادر الطعام المَحدودة في الدولة وبَيعها لتموين حرب القرم في وقتٍ كانت فيه الأسعار مرتفعة، مما خلَقَ مجاعةً قتَلتْ واحداً من كل خمسة من البربر تقريباً.

تابَعَ بعض الجزائريين القتال، وحاوَل أحدُ قادة البربر في الجيل التالي سنة 1871 وهو محمد المقراني أن يسير على خُطَى عبد القادر ونسومر، وبَنى ثورته على حركةٍ صوفية مثلما كان يفعل مسلمون آخرون في ليبيا ووسط آسيا وجافا، ولكن أعمال الفرنسيين المضادة للتمرد وكذلك المجاعة وخسارة الأراضي الزراعية والتَّخلف الثقافي أنهَكَهم وأصابَهم باليأس. وبعد سنة واحدة أخفَقَت الثورة وتم نفيُ قادتها.

لم يكتف المستوطنون بالاستيلاء على أراضي السكان المحليين بل اضطهدوهم ثقافياً أيضاً. عندما بدأ الغزو الفرنسي كان أغلب السكان الجزائريين أميين ويَجهَلون اللغة العربية، ولكن مستوى معيشتهم كان مقبولاً حتى بالمقارنة مع أغلب الأوروبيين، وحياتهم الثقافية متماسكة شَكَّلَها الإسلام. ولكن مع حلول سنة 1847 قال ألكسيس دى توكفيل Alexis de Tocqueville لزملائه في الجمعية الوطنية الفرنسية "إننا جَعلّنا مجتمعاً مسلماً أكثرَ بؤساً وبربرية مما كان عليه قبل أن يَتَعرفَ علينا"[97].

مثلما فَعَلَت الأنظمةُ الأمبريالية الأخرى، قام الفرنسيون باستبدال لغات الجزائر الأصلية، وهي البربرية والعربية، باللغة الفرنسية. بل وذَهَبوا أبعد من ذلك فقاموا بزيادة الأمية، فبَعدَ قرنٍ مِنَ الحكم الفرنسي أصبَحَ ثلاثة من كل أربعة من الجزائريين أميّاً وجاهلاً حتى باللغة العربية، وكان

قليلٌ منهم لديه عملٌ ثابت، ولم يكن لأيٍّ منهم تقريباً وظيفة ذات دَخْلٍ جيد. وفي الواقع كانوا مَحرومين من ثقافتهم ومَعزولين عن الاقتصاد الذي كان يَدعمها ويُحافظ عليها.

عندما زرتُ الجزائر سنة 1962 في أواخر أيام الحرب الجزائرية-الفرنسية (كنتُ أحاول أن أساعد في إيقافها كممثلٍ عن الحكومة الأمريكية)، شاهدتُ بنفسي نتائجَ تطبيق تلك السياسات. كان الجزائريون مُبعَدين تماماً عن ممارسة اقتصاد "المستوطنين" الأوربيين لدرجة أنه حتى محلات الغسيل والأفران المحلية كانت مُحتكرَة لصالح الأوروبيين. وعلى الرغم من أن مدينة الجزائر كانت فيها أكبر كليات الطب ومُجمَّعات المستشفيات الفرنسية، إلا أنه لم يكن فيها سوى أقل من ستة أطباء جزائريين. لم يكن هنالك موطِئ قدمٍ لأي جزائري في اقتصاد الجزائر المستوطَنة. كانت الصحة العامة لدى السكان المحليين المُستعبَدين سيئةً لإصابتهم بأمراض مزمِنة وذهَبَ كثيرٌ منهم إلى فراشهم كل مساءٍ جائعين.

لجَأ كثيرٌ من الجزائريين إلى الإسلام، وعلى الرغم من أن الإسلام كان نظاماً يدعو إلى الوحدة والتآلف، إلا أنه لم يَنجَح في التَّغلب على الانقسامات العِرقية بين العرب والبربر، ولا على الانقسامات الاجتماعية القَبَلية في كل عِرقٍ أو الانقسامات الثقافية بين سكان القرى وسكان المدن. وجِدَتْ هذه الانقساماتُ قبلَ مَجيء الفرنسيين وكانت سبباً في فشل كفاح عبد القادر ضد الاستعمار. انشَغلَ الفلاحون ورجالُ القبائل في المناطق الريفية بهمومهم المَحَلية بدلاً من هَمّ الجزائر كأمّة ووطن. ولم يكن هنالك كثير من التعاطف بين سكان القرى الريفيين وأهل المدن. مَنَحَهم الإسلامُ والشعور العام بالظّلم والقّهر والذّل الذي تَعرَّضوا له جميعاً على يد الفرنسيين نوعاً من الوحدة، إلا أن أغلب الجزائريين شَعروا بأن الإسلام قد خَسِر، وأن الفرنسيين قد أخَذوا البلاد.

الفصل الثامن

الاحتلال البريطاني للهند وثورة الجنود الهنود

في القرن الثامن عشر كان يعيش في شبه القارة الهندية حوالي 180 مليوناً من البشر كانوا يُشَكِّلون حوالي خمس سكان العالَم. كانت الامبراطورية المُغولية هي دولتُهم الرئيسية وكانت عظيمة الثراء والقوة، إلا أنها عندما ضَعفتْ أدَّتْ انقساماتها إلى دمارها السياسي. انقسَمَ أهلُها باستِخدامهم حوالي مئتي لغة وأكثر من خمسمئة لهجة، وتراجَعت "الهند" إلى دويلاتٍ متصارعة انقسَمَ كثيرٌ منها داخلياً بحواجز دينية وعرقية ولغوية وطائفية[98]. كان حكام الولايات المحلية المتَحمسون لزيادة ثرواتهم الخاصة مستَعدِّين للثورة على سادتهم الضعفاء فيهجمون على جيرانهم. كانت الدويلات الهندية تشبه إلى حد ما خليط البدو العرب الذين واجَهتهم الدولةً الإسلامية الناشئة، إذ كانوا ممَزَّقين ومنقَسمين ضد بعضهم بعضاً فلم يَستطيعوا الدفاع عن أنفسهم. كانت تلك حالةُ الهند التي وَجَدَها البريطانيون عندما أسسوا أول رأس جسر لهم في البَنغال بعد معركة بلاسي سنة 1757 [99].

لم يكن البريطانيون كثيري العَدد في البداية، فلَجَؤوا مِثلَ المستعمرين في كل مكان إلى استخدام السكان المحليين ضد بعضهم. أسس البريطانيون والفرنسيون كتائبَ من القوات المحلية في مواقعهم الأمامية في القرن الثامن عشر. أطلَقَ البريطانيون عليهم اسم "سيبويز Sepoys" وهي كلمة مُحَوَّرَة إلى الانكليزية من الكلمة الفارسية-التركية "سباهي" التي تَعني "الجندي". وبينما اعتَبر البريطانيون جميعَ السكان "سكاناً أصليين محليين"، نظَرَتْ كلُّ فئةٍ منهم إلى الأخرى على أنها أجنبية. لم يجمَع البَنغاليين إلى البُنجاب شعورٌ بالأخوة، ومن المؤكَّد أنه لم يوجَد ما يَربط المسلمين بالهندوس. لم يَفهم أغلبُ السكان لغةَ جيرانهم الذين لا يَبعدون عنهم مَسيرةَ يوم واحد. أو باختصار فإن "الهند" لم تكن موجودةً كثقافة أو كمجتمع ودولة. كانت مجموعاتهم تَختلف عن بعضها بعضاً بمثل ما كانت تَختلف عن البريطانيين فلم يكن صعباً أن يتم دَفعُهم لقتال بعضهم بعضاً.

قام البريطانيون الذين جاؤوا إلى الهند عملاءً لشركة الهند الشرقية في البداية باستَخدام السكان المحليين حُرَّاساً لمحطاتِ تجارتهم وليس لاحتلال الأرض[100]. إلا أنهم سرعان ما استَأجَروا أعداداً كبيرة من الحراس حتى أنه عندما نظَّم الكولونيل روبرت كلايف Robert Clive قواته في معركة بلاسي سنة 1757 استطاعَ أن يَجمعَ ألف أوروبي وحوالي ثلاثة آلاف هندي. وربما لم يكن

بحاجة إلى ذلك العدد لأن معركة بلاسي لم تكن اختباراً عسكرياً بل صَفَقةَ تبادلٍ تجاري، إذ أنه استطاع أن يدفَعَ رشوةً لجنود الامبراطورية المُغولية لئلا يقاتِلوا. وكما علَّقَ كلايف فيما بعد: "لو كانت لديهم النية لتَحطيم الأوروبيين فلربما تَمكَّنوا من تحقيق ذلك بالعصي والحجارة" إلا أن نَصرَ كلايف آنذاك كان إشارةَ انطلاقٍ لتأسيس الهند البريطانية كما كَتَبَ مارشال P. J. Marshall في 1987: "لكي تتَحقق طَلَبات الشركة، تم استقطاع البَنغال جزءاً بعد جزء حتى أصبَحت الولاية بكاملها تحت الحكم البريطاني سنة 1765"[101].

في سنة 1776، كَتَبَ الفيلسوف الاسكتلندي العظيم آدم سميث Adam Smith انطباعاته عن تلك الأحداث من مدينة ادنبرة البعيدة، وقال مُنذِراً بمهارة إن: "شركةً من التجار... وهي مهنةٌ محترمة جداً دون شك، ولكن لم يَحدُثْ في أية دولة في العالَم أن حَمَلتْ معها ذلك النوع من السلطة التي أرهَبَت السكان بحيث خضَعوا لها بإرادتهم دون استخدام القوة. لا تستطيع شركةٌ مثلها أن تَأمر وتُطاع إلا إذا رافقتها قواتٌ عسكرية وكانت حكومتها عسكرية ومستبدة" وتابَعَ سميث: "مِثلُ هذه الشركات الاحتكارية تكون مزعجةً من كافة النواحي، وتكون غالباً غير ملائمة للدول التي تُؤسَّسُ فيها، ومُدمِّرةً لأولئك التعساء الذين يَقَعون فريسةً لسلطة حكومتهم"[102].

كانت البَنغال إحدى أكثر الدول الزراعية ثراءً في العالَم أو في الهند على الأقل. عندما جاء البريطانيون حَلَّ عليها الدمارُ سريعاً، وخلال سنوات قليلة كادوا أن يَقتلوا الإوزَّةَ التي كانت تَبيضُ ذهَباً. بعد أن سَيطَرتْ على البَنغال، أصبَحتْ شركةُ الهند الشرقية قوةَ احتلالٍ حقيقية على أرضٍ مساحتها تساوي فرنسا تقريباً، ولكن مثلَما تَنبأ سميث، كان لا بد من أن تُصبِح عسكريةً واستبدادية. لم يكن لدى حكامها أي شعور بالمسؤولية تجاه المحكومين، ولا إحساس بالاندماج معهم في الهوية. اعتَبروا منطقةَ نفوذهم بمثابة مستودعٍ لممتلكاتهم يستطيعون إفراغه حسب رغبتهم، فسَمَحوا لأنفسهم بالنهب والسرقة. أصبَح القائدُ البِريطاني كلايف أحد أكبر أثرياء انكلترا بين ليلة وضُحاها، بينما كَسبَ أتباعُه وغيرهم من ضباط الشركة ثرواتٍ كبيرة وأصبَحوا عند عودتهم إلى انكلترا طَبقةً من كبار الأثرياء الذين حَمَلوا لقباً خاصاً بهم هو "النَّابوب Nabob"[103].

كان كلايف أكبر المستفيدين من البريطانيين، ولكن حتى هو فَزِعَ مما قامَ به هو وزملاؤه، وكَتَبَ قائلاً: "لم تشهَد أية دولة مثلما حَدَثَ مِن فوضى وارتباك ورشوة وفساد ونهب في البَنغال، ولم تُجمَع تلك الثروات ولا ذلك الكَمُّ الكبير منها بمثل تلك الطرق الجَشعة وغير العادلة"[104].

بينما كان وكلاؤها يَجمعون الثروات، كادَت الشركة ذاتها أن تُعلِن إفلاسها، إلا أنها أصبَحت أكبر من ذلك. قامَ البرلمانُ مدفوعاً من البرلماني الكبير إدوارد بورك Edward Burke بتوبيخ إدارة الشركة لعدم كفاءتهم ولفسادهم، ولكن كلَّ ما اهتمَّ به البرلمان هو أن تكون الشركةُ استثماراً جيداً للبريطانيين، وكانت طريقةُ تحقيق ذلك هي تَجويع الهنود. وهكذا كَتَبَ ستانلي ولبرت: "في باكورة النهبِ البريطاني ضَرَبتْ مجاعةٌ حصَدَتْ في سنة 1770 وَحدها أرواحَ ثلث فلاحي

البَنغال تقريباً[105]. قرَّر البرلمانُ أن الشركة "كانت في الواقع وَفداً أُرسِلَ إلى الشرق ليُمَثِّلَ قوة وسيادة هذه المملكة"[106]. وقرَّر البرلمان أن يقوم بدورٍ إيجابيٍّ أكبر في إدارتها، وأصدَرَ قانون الهند سنة 1784 الذي يَمنحُ الحكومةَ سلطةَ مراقبةِ الشركة. سيبدأ هذا القانون نهجاً أدى خطوة بعد خطوة إلى إعلان الامبراطورية في نوفمبر 1858 ونَصَّبَ الملكة فيكتوريا كأول امبراطورة.

تَركَّز الاستعمارُ المُخَصخَص في البَنغال بعيداً عن سيطرة البرلمان إلى حدٍّ كبير، وسرعان ما اكتَسَب تسارعه الخاص وانطلَقتْ شركةُ الهند الشرقية التي يتحكم بها البرلمان لنَشر نفوذِها في الهند ولايةً إثرَ ولاية بالقوة أو بالشراء أو بالانتهاك والتخريب. كان لا بد من دفعِ ثَمنٍ ما من أجل تحقيق ذلك وهو زيادة نفوذ القوات المسلحة. عندما احتَاجَ جنودُ الشركة للدفاع عن المراكز التجارية فقط، اكتَفتْ بعددٍ قليلٍ من الضباط البريطانيين والمرتزقة الهنود. ولكن عندما نمَتْ مَهامها وتوسَّعتْ وَجَدَ البريطانيون أنهم يحتاجون أكثر من ذلك بكثير. كان لدى الشركة حوالي 18000 جندي في سنة 1763، ولكن مع حلول سنة 1820 كان لديها أحد أكبر الجيوش في العالَم: حوالي 350000 رجل جميعهم تقريباً من القوات الهندية. وفي منتصف ذلك القرن استَهلَك الجيش نصفَ موارد بريطانيا من الهند[107].

للحَجمِ أهميتُه، فقد أدَّى إلى تزايد الفُرقة بين مدراء الشركة المدنيين وضباطها العسكريين بعيداً عن الهنود. كان تجار الشركة في أوائل أيامها يرتَدون الثيابَ الهندية ويستَمتعون بالطعام الهندي وأصبَحوا آباء لأطفالٍ مختَلطي الأعراق، ولكن مع نهاية القرن الثامن عشر توقَّفَ الهنود، وخاصة المسلمون منهم، عن اللقاء بالبريطانيين اجتماعياً. وضَعَ كاتبٌ انكليزي مجهول الَّلومَ في ذلك بشكل رئيسي على قدوم الانكليزيات. عَلَّق الكاتبُ بقوله: "السود الكريهون" و"الوثنيون التعساء المقرفون" هي الأصداء الصارخة لكلمات مثل: "المتوحشون السود" و"الحشرات السوداء" التي استخدَمها الزوج، والتَقَط الأولادُ هذه النَّزعة. سمعتُ طفلاً في الخامسة من عمره يَصِفُ الرجلَ الذي كان يَعتني به بأنه "حيوان أسود"[108].

سواء كان وضعُ اللومِ في هذا السلوك على الانكليزيات عادلاً أم لا، إلا أنه لا يوجَد شكٌّ بأن قدومِهنَّ أدّى لحدوث تغييرات عاطفية وقانونية في ناحيتين: الأولى هي أنه على الرغم من أن الرجال الأوروبيين البيض كان لديهم في بادئ الأمر حريمٌ من النساء الهنديات فإن مجرد التفكير بعكس ذلك، أي أن يتزوج الرجالُ الهنودُ بالنساءِ البيض كان يُسَبِّبُ قلقاً بالغاً. كانت فكرة "تدنيس" رجالٍ هنود لنساء أوروبيات موضوعاً لحوالي ثمانين رواية انكليزية نُشِرتْ في القرن التاسع عشر[109]. استُخدِمتْ هذه المخاوف حجةً للقيام ببعض أسوأ جرائم الأمبريالية.

أضافَ التغييرُ الثاني الصراعَ الديني إلى القضايا الجنسية، ففي بداية القرن التاسع عشر استطاع المسؤولون البريطانيون وعائلاتهم النامية أن يتعاملوا مع الهندوسية باحتقار ساخر، ولكن الإسلام كان أمراً جدياً لأنه كان يُعتَبر عدُّواً وبَدَّل نفسه ليكون كذلك. استَغرق الأمرُ حوالي أكثر من

نصف قرن لكي يَتَمخَضَّ الاستِكبار البريطاني والإذلال الإسلامي عن مستوى الكراهية الذي ظَهَرَ في "الثورة" الكبرى، أول حربٍ هندية في سبيل الاستقلال سنة 1857.

ظَهَرَ الإسلام كما رأينا بعد وقت قصير من نشوء الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، ثم دخَلَ الأتراك إلى الهند في القرن السادس عشر قادمين من أفغانستان ووسط آسيا. امتَدَّت الامبراطورية المُغولية العظيمة التي أسسوها من بورما شرقاً إلى شرق إيران غرباً، ومن جِبال هندوكوش في أفغانستان شمالاً إلى موانئ كلكتا وبونديشاري جنوباً. كانت مساحتها تساوي نصف مساحة الولايات المتحدة تقريباً. كانت الامبراطورية المُغولية في الهند جوهرةَ تاج الإسلام، ولكن في منتصف القرن التاسع عشر سَقَطَتْ تلك الجوهرة. استَبدَل البريطانيون الامبراطوريةَ المُغولية بامبراطوريتهم الخاصة، إلا أن الإسلام استمَرَّ بكونه الدين الرسمي لعددٍ من الولايات الهندية، وأصبَح دين ملايين الهنود. ومثلما كانت الحال في أماكن أخرى على امتداد العالَم الإسلامي كَوَّنَتْ دراسة الإسلام طَبَقَةً مِن البيروقراطية الدينية التي كَرَّسَتْ نفسَها للمحافظة على آدابه وقوانينه.

في وقتٍ معاصر لظُهور عالِم الدين الدمشقي الكبير تقي الدين ابن تيمية (الذي ذكرتُه في الفصل الرابع) لَعِبَ إسلاميٌ هندي اسمه فخر الدين زاريدي دوراً مشابهاً لدور ابن تيمية في تطوير الفكر الهندي الأصولي، ولكنه انتَهج اسلوباً أكثر تحرراً في فَهمِ أوامر القرآن والحديث، ربما لأنه كان يحتاج لكسب منافسيه الهندوس، وربما يكون قد لاحَظَ أن تَشَدُّدَ ابن تيمية في فَهمِ النصوص كان مناسباً من النواحي الاجتماعية والسياسية في سورية حيث كانت المسيحية هي المنافِسة، وذلك لأن القرآن مَنَحَ المسيحيين صفةَ "أهل الكتاب". وكان المسلمون يَستطيعون التَّعايش مع المسيحيين لأنهم يَتبعون ديناً مُوَحِّداً ويعبدون الإلهَ نفسه. ولكن الهندوسية كانت أمراً مختلِفاً لأنها دينٌ متَعدد الآلهة. وحسبَ الفَهم الضَيِّق للقرآن فإن الاختيارَ الموجود لدى الهندوس سيكون إما التَّحولَ إلى الإسلام أو الموت. كان ذلك الاختيار هو ما أَجبَرَ عليه الغزاةُ المسلمون الأوائل أهلَ البلاد التي احتَّلوها في مناطق السند. ولكنهم كرجالٍ عمليين سرعان ما لاحظوا أنهم لا يستطيعون قَتْلَ جميع السكان مهما كانت أوامرُ القرآن. ولذا بدون إعلانٍ أو تصريح فقد تَرَكوا الهندوس يتَعَبَّدون آلهتهم طالما استمروا بدفع الجِزية التي كانت تُجبَى من المسيحيين واليهود والزَرادَشتيين.

استَمرَّتْ هذه العلاقةُ المتسامحة قروناً عدَّة تَحَوَّلَ خلالها ملايينُ الهندوس إلى الإسلام، ولا شك بأن بعضَهم فَعَلَ ذلك لكي يَهرب من دَفعِ الجِزية، ويبدو أن الغالبية العظمى فَعَلَتْ ذلك هرَباً من استبداد نظام الطبقات الاجتماعية في الهند حيث إذا وِلِد المرءُ "خارج طبقة" أو "داليت Dalit" فإنه يَخضَع إلى العبودية الدائمة، أما إذا تَحَوَّلَ إلى "إخوانية" الإسلام فإنه يُصبِحُ حُرَّاً. وهكذا تَحوَّلَ الملايين.

عالَجَ زاريدي المسألةَ الفقهية الغامضة عما يجب فِعلُهُ مع هؤلاء الذين تَحَولوا إلى الإسلام. لم يستطع هو ولا غيره من الفقهاء حلَّ تلك المعضلة، ولكن الجنرالات والملوك تمكَّنوا من ذلك، وعلى مسار أغلب تاريخ الهند فقد أَحنوا رؤوسهم طاعةً للأمر الواقِع. كان هناك عددٌ كبير جِداً من الهنود، وكان التأقلُم هو السياسة العملية الوحيدة الممكِنة. إلا أنه من حين لآخر يَظهَر حاكمٌ أو جنرال ملتَزم كمؤمن حقيقي. في القرن الحادي عشر قامَ تركيٌّ بغزو الهند هو السلطان محمود من المدينة-الدولة غَزنَة في أفغانستان. كان مُحبَّاً للفنون والعلوم، وقام بتمويل برامجه الثقافية بالاستيلاء

على المدن الهندية الثرية. لا يَحتاج الغزو إلى التعايش مع الحقائق الاجتماعية، ولكن الحُكم يحتاج إلى ذلك، ولذلك عندما قرَّر محمود البقاءَ وتأسيس سلالة حاكمة، قرَّر بشكل استبدادي منفرد أن يُعامَلَ الهندوسُ معاملةَ المُوَحِّدين وتمَّ التَّغاضي عن تَعدّد آلهتِهم فأصبَح الهندوسُ من أهل الكتاب.

كان السلطان أكبر الحاكمُ العظيم للامبراطورية المُغولية في القرن السادس عشر أكثر رقياً وأقل عملية، وكان من أتباع المذهب الصوفي[110]. كانت والدته من أصلٍ إيراني شيعي، وتَزوجَ من ابنة راجبوت Rajput الحاكمُ الهندوسي لإقليم أمبر. ولذلك لا يدهشنا كونه مثقفاً وحساساً لتعقيدات الهند. كان من ضِمن أعماله التآلفية إلغاءُ الجِزية التي كانت تُجبَى من غير المسلمين.

لم يكن التآلف إنجازه الثقافي الوحيد، بل شجَّع أيضاً على تَعلُّم لغات رعيته وحاوَلَ أن يخلق نوعاً من التمازج والانسجام الثقافي في الحضارة الهندية. وكما وصَفَ ولبرت، فقد تأثَّرَ البلاط المُغولي أيام السلطان أكبر بشكلٍ كبير بالثقافة الإيرانية "اكتسَبَ نوعاً من مظاهر "القومية" أو ما يشبه التحالف الثقافي المغولي-الراجبوتي. يَظهَر ذلك المزيج الثقافي الجديد الذي أُطلِقَ عليه اسم "المُوغهالي Mughlai" في تَشجيع السلطان أكبر للأدب الهندي وتطويره"[111]. ولكننا نجد أكثر أعماله أهمية في طقوسِ الدين، فقد شاركَ هو ورجال بلاطِهِ علناً في "الاحتفال بأكثر الأعياد الهندوسية أهميةً مثل: الديوالي Diwali وهو عيد الأنوار". كما قامَ بإضافات جديدة في صميم النظام الإسلامي، ففي سنة 1579 جمَعَ السلطانُ أكبر علماءَ الإسلام لكي يُعلِنوا أنه "سلطان عادل" أعلى سلطة من المؤسسات الدينية ومن "المجتهدين" وأنّ أحكامه وقراراته تُصبِحُ بذلك واجبةَ الطاعة حتى في قضايا الدين والشريعة[112]. ولكي يرسّخ ادعاءاته سَمَّى نفسَه خليفةً في بعض النقود، وأمَرَ أن يُخطَبَ باسمِه في المساجد كأمير المؤمنين، أي خليفة بدلاً من الخليفة العثماني[113]. أقتَرِحُ تفسيراً أكثر أهميةً وجرأة لأعماله وهو أنه ربما تأثَّرَ بالزَرادَشتية (التي ذكرتُها في الجزء الأول) في القيام بدوره الجديد، وربما تَفتَحُ هذه الفرضية بُعداً جديداً في العالَم الإسلامي.

كما رأينا في الجزء الأول، فإن الزَرادَشتية تُبدِي تشابُهاً مَلحوظاً للمذهب الشيعي، وكانت أم السلطان أكبر من أصلٍ شيعي، ومن المعروف أنه كان مُعجَباً بالزَرادَشتية. كان يُطلَقُ اسم البارسيين Parsees أو عَبَدة النار على الزَرادَشتيين، وكانوا قد تواجَدوا في غرب الهند في القرن الثاني عشر. جَلبَ إلى بَلاطه عالِم الدين الزَرادَشتي دستور ماهيارجي رانا Dastur Mahyarji Rana في سنة 1578 وقامَ بأداء الطقوس الزَرادَشتية. ويبدو أنه سَمحَ بأداء مسرحية: العشق، وبدَأ باستِخدام الاصطلاحات الزَرادَشتية في تقويمه السنوي اعتباراً من سنة 1580. ومن الممكن أنه بدأ تقديم نفسه بما يشبه دَورَ آية الله روح الله الخميني في أيامنا كقائدٍ للدولة والدين، وبذلك يُوَحِّدُ ما فَصَلَ بينه الإسلام من أمور الدين والدنيا.

سواءً كانت هذه الفرضيةُ صحيحةً أم لا، فمِنَ المؤكَّد أن السلطان أكبر بحَثَ في الأديان المختلفة لكي يتَوصَّلَ إلى دينٍ يستطيع الإيمان به، فاستَدعى وفوداً من الجيزويت واليانية Jains والسيخ والهندوس إلى عاصمته الجديدة: فتحبور سيكري التي بَناها عند قبرِ وَليّ صوفي حيث عَقَدَ

نوعاً من الاجتماعات الأسبوعية في "بيت العبادات Ibadat-I Khana" لكي يَستَمعَ إلى المُناظرات بين علماء الهندوس والصوفية، والسِّجال بينهم وبين علماء المسلمين السنَّة والشيعة، بل ضَمَّ واحداً على الأقل من المُلحِدين أيضاً. خَشِيَ المسلمون التقليديون أنه سيَفقدُ إيمانه بالإسلام وكانوا على حقٍّ في ذلك بعضَ الشيء، ففي سنة 1582 أَعلَنَ "دين الله" أو "الدين الإلهي" كما كَتَبَ البروفسور روي S. Roy في جامعة كلكتا:

"من الصعب تعريف "الدين الإلهي" لأن مؤلفه لم يُحَدِّده، فلم يكن ملهَماً بالوحي، ولا معتمِداً على أية فلسفة معينة أو كَهنوت معروف. كان ربوبيةً معدَّلة بتأثير هندوسي وزَرادَشتي، وكان ديناً بلا كهَّان ولا كُتُب، بل نوعاً من الأخلاقية العقلانية التي تؤدي إلى الاتحاد المثالي بين الروح والمقدَّس، وتشبه بذلك الفكرة الصوفية بحلول الروح في الكائن المقدَّس"[114].

كانت فكرةُ الدَّمجِ بين الهندوسية والإسلام ملعونةً بالنسبة لعلماء المسلمين الذين ربحوا الرهان. عندما توفي السلطان أكبر، دُفِنَتْ معه فكرةُ الدَّمج، وأُعيدَ التأكيد على الفروق بين الديانتين بانتقامٍ عقائدي ومشاعر ثأرٍ قوية. ومع حلول القرن الثامن عشر كان زعماء المسلمين في الهند يتَّجهون نحو المَذهب الأصولي متأثرين بمذهب أحمد بن محمد بن حنبل وابن تيمية. أدى إيمانهم المُطلَق واعتقادهم الموثوق بأن الهندوسية كانت تُهاجِم "الإيمان الحقيقي" إلى الانقسام الكبير في جنوب آسيا إلى: بانغلاديش والهند وباكستان وسريلانكا[115]. وعَرفوا في الوقت نفسه أن الاختراقات المسيحية هي الخَطر الحالي الواضح.

لم تكن شركة الهند الشرقية أكثر وداً للمسيحية، فعندما وصَلَ المبشِّرون، حاوَلَ المسؤولون في الشركة إبعادَهم، فقد كان المسؤولون هناك يسعون وراء الثراء ولم يكن لديهم الصبر والتَّحمل لأي شخص يمكن أن يُعيقَ تجارتهم. اعتَبروا أن محارَبة عقائد الهندوس والمسلمين يمكن أن تكون مُخَرِّبَة فمَنَعوا الإرساليات المسيحية. ولكن منذ سنة 1813 أُجبِرَ مُدراء الشركة على السَّماح للمبشِّرين بالدخول، ومثلما خَشِيَ الجيلُ السابق من المسؤولين، فإن المبشِّرين انطلَقوا فعلاً للدعوة ضد الهندوسية والإسلام، وكانت هجماتهم موجَّهة بقوة ضد الإسلام بشكل خاص، لأن البريطانيين كانوا قد سَيطَروا على إدارة الامبراطورية المُغولية وكانوا يَستخدِمون موظفيها، فكان المسلمون أكثر تواجداً وظُهوراً في التَّجمعات والأنشطة العامة.

لم يواجِه الهنود تلك الهجمات في البداية إلا بشكل فكري، وكما بيَّنَ الكاتبُ المسلم أمير علي، فإن المسؤولين الانكليز كانوا يَنعَتون الهنودَ جميعاً بأنهم "السود"، وركَّزَ الانتباهَ على سِجِلِّ الانكليز المؤسِف في مجال الحرية الدينية. وتساءل: ما الذي منَحَ الانكليز الحقَّ الأخلاقي بانتقاد عدم التَّعايش الديني في الهند؟ بالنَّظَر إلى تاريخهم فإن ذلك هو نفاقٌ بريطاني كما قال:

"عندما تحَولَّتْ انكلترا إلى البروتستانتية، تم اضطهاد التَّابعين إلى مذهب المَشيَخية Presbyterians في سلسلةٍ طويلة من الحبس والنفي والتشويه والتعذيب والتشهير. وتمت مطاردتهم في جبال اسكتلندا كأنهم مجرمون، وخُلِعتْ آذانهم من جذورها وتم وسمُهم بالحَديد

المُحَمى ولُوِيَتْ أصابعهم وكُسِرَتْ أرجلهم. وحتى الآن قامتْ أمريكا المسيحية بحَرق مسيحيٍّ أسود وهو حَيّ لأنه تَزَوجَ بامرأةٍ مسيحية بيضاء! هذه كانت نتائجُ المسيحية... واعتُبر الاختلاف في الدين جريمة في العالَم المسيحي، بينما هو في الإسلام حادِثاً عَرَضِيَّاً"[116].

ارتكَزتْ لا مبالاةُ البريطانيين بالهنود على التَّمييز العنصري الذي طُبِّق في الهند استناداً إلى نظام الطبقات الانكليزي. لم يكن من الممكن عَمَلُ أي شيء للجندي الانكليزي، ولكنَّ طبقة الضباط كانت منفَصِلةً في نوعٍ من القرى الانكليزية التي لم يسكُنها سوى الانكليز من الرجال والنساء والأطفال. كانت تَترَكَّزُ عادةً حول كنيسةٍ ونادٍ اجتماعي، وكان مَمنوعاً على أيِّ هنديّ دخولهما مهما كانت ثروته أو طبقته الاجتماعية الهندية[117]. تم تطبيق اسلوبٍ صارم من التمييز الطبقي في الهند كان عادياً في انكلترا.

التقاليدُ والأعراف التي طُبِّقَتْ للفَصْلِ بين الحكام والسكان الأصليين اتَّخَذَتْ في أغلب الأحيان صوراً غريبة وطفولية وأشكالاً مُهينة للهنود، فمثلاً: إذا احتاجَ نبيلٌ هندي مسلم إلى الاتصال خلال ممارسته لعَمَلِهِ بمسؤول بريطاني كان عليه أن يَحصَلَ على "شهادة احترام" إذا كان يَتَوَقَّعُ أن يَحتاجَ للجلوس في كرسي حتى لو كان موظفاً مسؤولاً في إدارة شركة. وعليه أن يأتي ماشياً على قدميهِ وليس راكباً في عربة أو على ظَهْرِ حصان. وإذا كان في محكمةٍ قانونية، لا يُمنَحُ كرسياً للجلوس حتى لو كان قاضِياً.

كان الانكليزُ يخضَعون لقوانين لا تَقلُّ صَرامةً عن الهنود، فلكي يُحافِظ "الرجل الأبيض" على رِفعَة مَنزِلَتِه، لا يمكنه المَشي خارجَ المنزل إلى أي مكان، بل عليه أن يَركَبَ عربةً أو حصاناً، ولا يُمكِنه ارتداء ملابسَ هندية مثلما كانت الحال في القرن الثامن عشر. كَتَبَ انكليزيٌ سنة 1827: "كان ارتداء أي ملابس صُنِعَتْ في الهند يَدلُّ على سوء الذوق إلى أبعد الحدود"[118]. ولا يستطيع أن يرخي شواربه أو سوالفه أو أن يأكل الكاري. يجب على الرجل الأبيض المحترم أن يُثبِتَ مسيحيته بأن يأكل لحم البقر والخنزير سواء أعجَبَهُ ذلك أم لا. يمكن أن تَجعَلَ مُخالفةُ هذه الأعراف حياةَ الرجل في النادي غير محتَمَلة، بل وقد تعيقُ تَقدُّمه في عمله. واجَهَ المستشرق الانكليزي الكبير ريتشارد بورتون Richard Burton هذه القواعد والأعراف عندما كان ضابطاً شاباً في الخدمة الهندية واعتَبرها تافهة، ولم يستمر هذا المتمرد الحر طويلاً في الهند.

اعتَرضَت السلطاتُ الدينية أحياناً على السلوكيات الرسمية، وقد سَجَّلَ أسقفُ كلكتا في مذكراته (ولكنني لم أجِد ذلك في أي سِجِلِّ رسمي) أن "روح الانعزال وعدم التَّحمل تَجعَلُ الانكليزَ حيثما ذهبوا طبقة بذاتها لا تُحِبُّ أحَداً ولا يُحبها أحَدٌ من جيرانها. أقابِلُ هذه الحالة الغبية التي يَعتَبرونها فخراً للوطن مراتٍ عديدة كل يوم... نُغلِقُ مجتمَعَنا أمام السكان الأصليين ونُخاطِبهم دائماً بغلظةٍ ووقاحة"[119].

كما ذكرتُ في الجزء الأول، كان الانكليزُ روَّادَ سياسة "نَزْع أو تَغيير الثقافة" التي طَبَّقوها فيما بعد أيضاً في مصر، وقَلَّدَها الفرنسيون في الجزائر وسورية، والروس والصينيون في المناطق التركية في آسيا الوسطى. كان هَدَفُ التعليم في الهند كما وضَعَهُ المؤرخ والمسؤول الانكليزي هو خَلْقُ طبقة جديدة من الهنود الذين أصبَحوا "انكليزيين في ذوقهم وآرائهم وتفكيرهم"، وأصبَحت دراسةُ الثقافة الهندية مقصورةً على الانكليز العاملين في الإدارة[120].

كان يُنظَرُ إلى الطبقات السفلى من الهنود على أنهم بالكاد من البشر، وحتى مهندسَ سياسة تَغيير الثقافة اللورد توماس بابينغتون ماكوليThomas Babington Macaulay علَّق بقوله إنه خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر "تم تحويل ثلاثين مليوناً من البشر إلى حالةٍ شديدة البؤس. لم يَعيشوا في ظِلِّ طغيانٍ مثل حكم البريطانيين من قَبل"[121]. بَحَثَ بعضُ الانكليز الذين كان أغلبهم بعيداً عن الهند كيف يمكن النهوض بالهنود، ولكنّ أغلبَ الحكام البريطانيين كانت لديهم القناعة بأن الهنود هم من عِرقٍ مُختَلف وأنهم يجب أن يَظَلوا على تلك الحالة. وكما كَتَبَ الكاتبُ الهندي المُعاصِر شاشي ثارور أن "العنصرية عَمَّتْ جميع جوانب الامبراطورية... وكانت العنصريةُ بالطبع هدفاً مركزياً للمشروع الاستعماري وكانت منتشرة ومفضوحة ومُهينة بشكل عميق، وكانت تزداد سوءاً كلما ازدادت قوة بريطانيا"[122].

حَدَثَ أحد الأمثلة الكثيرة التي توضِّح احتِقارَ الانكليز للهنود في سنة 1824 عندما غَزَت بريطانيا بورما، واستَخدَمتْ كتائبَها الهندية "لتهدئة" تلك الدولة. كان أغلب الجنود الهنود الذين أُرسِلوا إلى بورما من البراهميين الذين يُعتَبر السَّفَرُ في البحر حسب طقوس ديانتهم الهندوسية مُلوِّثاً ونَجِساً. عَرِفَ البريطانيون ذلك ولكنهم اختاروا ألا يأخذوه بعين الاعتبار عندما أَمَروا الفرقة بالنزول. رفَضَ الجنودَ تنفيذ الأمر فأطلَقَ عليهم البريطانيون نيران المدفعية دون تردد.

لم أجِدْ أيَّ دليلٍ على أنه في سنة 1830 كانت سياسة البريطانيين الاقتصادية قد شَكَّلتْ قضيةً رئيسية بالنسبة للهنود مثلما حَدَثَ بعد ذلك، ولكن يَصعبُ تَصديق أن تصدير العمال الهنود شبه-الرقيق الذي بدأ في تلك السنة لم يَزِد من غَضَب وتَذَمُّر الهنود. بدأت المشكلة عندما أَلغَتْ انكلترا استعبادَ السود، واعتباراً من سنة 1807 لم يُسمَح لأية سفينة بريطانية أن تَنقل العبيد، واعتباراً من سنة 1808 لم يَعد مَسموحاً إنزال العبيد في أي ميناء بريطاني، إلا أنّ استعبادَ البشر استَمر في الواقع لسنوات بعد ذلك بذرائع وحِيل مختلفة، فقد تمت تسمية بعض المُستَعبَدين السابقين من السود على أنهم صبيانٌ مُتدربون. خضَعَ الفلاحون في الهند لنوعٍ من العمل المجاني الإجباري لصالِح الدولة وملاَّك الأراضي، وكان من المُعتاد شَحنُ السجناء خارجَ البلاد كعمال مُستَعبَدين. وفي ذلك الوقت أيضاً، استمر الهولنديون بتجارة عبيدٍ منتَظَمة من جنوب الهند، ويُعتَقَد أنهم قاموا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بجَمعِ وتَصدير حوالي مليون هندي[123]. ومع نهاية القرن التاسع عشر انتَشَر العمال الهنود في جنوب وجنوب-شرق آسيا. وفي النهاية، تم خَطف مئات الآلاف وربما الملايين على يد العصابات، وأُرسِلوا كسجناء واستُدرِجوا أو أُجبرَتهم المَجاعة لتَعويض نقصِ الأرقاء السود في مزارع الشَّاي والسُّكر والقهوة. أُرسِلَ كثيرٌ منهم بعدها للعمل في مزارع المَطاط

في الملايو، مما أثار غضب السكان الأصليين المسلمين. وصَلَ بعضُهم حتى جُزر الكاريبي حيث تمَ بَيعهم بالمزاد العلني إلى المزارعين، وأُخضِعوا لقوانين تم تَعديلها من قوانين سابقة كانت تُطَبَّق على الرقيق من السود والهنود الحمر. اشتُهِرت الحياة على سفن شحن الرقيق بكونها أسوأ من تلك التي نَقَلَت العبيد إلى الأمريكيتين[124]. ولم يَعد منهم إلى الهند إلا قليل.

بالنَّظَر إلى تلك المعاملة، يَستَغرِبُ المرءُ لماذا رضِيَ الهنودُ بالعمل جنوداً وأن يُستخدَموا في إخضاع الهنود الآخرين. اقتَرَحَتْ إجابةٌ أنهم قد تَعوَدوا الخضوعَ لحكمٍ أجنبي لقرون طويلة. وقَدَّمَتْ إجابةٌ أخرى أن رواتب الجنود على الرغم من انخفاضها كانت تُشكِّل الفَرقَ بين الحياة والموت جوعاً بالنسبة لعائلاتهم. وأيضاً بالنظر إلى تَنوع المجتمع الهندي كما أوردتُ، لم يكن هناك شعورٌ وطني أو قومي واضح. وأخيراً كان هناك الشعور بالفخر الذي لا يمكن إنكاره عندما يرتدي الفلاحُ الفقير ثيابَ الجندي الرسمي في جيشٍ قوي. وربما أدَّت تلك الهزيمة الساحقة أثناء حرب سنة 1842 في أفغانستان إلى ظهور بداية التَّذَمر لدى الجنود الهنود، وزَرَعَتْ بذور الثورة الكبيرة التي انطلَقَتْ سنة 1857.

وجَدَ البريطانيون مثلما وجَدَ الفرنسيون والروس أن الجنود من السكان المحليين ضروريون لغَزَواتهم وتَثبيت حكمهم، ولم يَتغير ذلك. فما زالت بعض الحكومات تجد المرتزقة بيادق مهمة في الألعاب الاستراتيجية، فهو رخيصٌ نسبياً لاستخدامه، كما أنه نادراً ما يهدِّد الحكومة التي تَستخدَمه بِردُودِ فِعلٍ سياسية مثلما يمكن أن يَفعله مواطنوها عندما تَستخدِمهم أو تَفقدهم. لم يكلّف الهندي شيئاً عندما يُقتَل، على الأقل في القرن التاسع عشر. وعندما يُستخدَم خارج مجتمعه ضد أناس لا يَحمل تجاههم أي تعاطف، فمن المتوقع أنه سيطيعُ الأوامرَ دون أن يُقيمَ وَزناً كبيراً للأخلاقيات والقانون.

كان أحد أسباب ثورة الجنود الهنود الكبرى هو خَرْقُ البريطانيين قواعدَ استخدام جنودٍ من السكان الأصليين. كان استخدامُهم في مهاجمة أديان أخرى لا يُشكِّل خطراً، ولكن في مهاجمتهم أناساً من ديانتهم خطورةٌ مهمَّة. قد يمكن استخدام مسلمين لمهاجمة هندوس، أو هندوس ضد مسلمين، ولكن لا يمكن استخدام أي منهم ضد أناسٍ من دينه. في سنة 1824 خالَفَ البريطانيون هذه القاعدة مع الهندوس، وفي سنة 1857 حدَثَ ذلك مع المسلمين. كان الغضبُ مُستَعراً عدةَ سنوات لأسباب كثيرة، خاصة بسبب الإهانات اليومية التي كان يتَعَرَّضُ لها الهنود. وفي سنة 1857 شَدَّ البريطانيون على الزناد الذي أطلَقَ رصاصةَ الثورة.

من وجهة نظر البريطانيين، لم يكن هنالك أية شرارة بل فَشَلٌ غبي في فَهمِ الآسيويين للتقنيات الأوروبية. ولكن من وجهة نظر الهنود، أَجبَرَت التَّغييراتُ التقنية الجنودَ على مخالفةِ قانونٍ ديني. لم يحدُثْ ذلك في واقع الأمر، ولكنّ الضباطَ البريطانيين رفضوا شَرحَ الحالة، ويدلُّ رفضُهم على عقليتهم الأمبريالية.

كانت القضية هي استخدامُ بندقيةٍ جديدة هي الانفيلد Enfield، التي تحتاجُ للتَّلقيم من الخَلف، وتُطلِقُ النار أسرع بكثير، ولها مَدَى رَمي أبعد من البنادق السابقة. ولِمَنعِ الصدأِ والاهتراءِ في مناخ الهند الرطب، تَمَّت تَغطية طَلَقاتِها بالدُّهن. كان على الجندي من أجل إطلاق هذه البندقية أن

يَقضم رأسَ الرصاصة قَبلَ تَلقيمِها. كان اسلوباً وَسخاً ولكنه معقول، إلا أنه لم يَنتبه إلى الأعراف الهندية، فإذا كان الجندي مسلماً فإنه يَخشى أن يكون الدّهنُ المستعمل من دهن الخنزير الذي يَعتَبره نجساً ورجساً من الناحية الدينية. وإذا كان هندوسياً، فإنه يخشى أن يكون الدُّهن من الأبقار المقدَّسة. واعتَبَرت الفئتان ذلك حركةً أخرى تُجبِرهم على مخالفة تعاليم دينهم وتُدمّر اسلوبهم في الحياة.

كان ذلك بالنسبة إلى البريطانيين جهلاً لا معقولاً، وإذا لم يُنَفَّذ الأمرُ بقَضْمِ الطَّلقة فإنه يُعتَبَرُ تَمرداً وعِصياناً. وعندما طَلَبَتْ بعضُ الكتائب التَّريث انتظاراً لنتائج الاختبارات التي توضِح أن الدّهن لا يُمَثِّلُ انتهاكاً دينياً، هاجَ قادتُهم غضَباً ورَفَضوا أي تأخير وأَمَروا بإجراء اختبارٍ للوَلاء. تم جَمعُ فوجٍ تِلوَ الآخر من الجنود الهنود وإحاطَتُهم بمدفعيةٍ عليها مدفعيون بريطانيون يدعمُهم جنودٌ مشاة وفرسان. عندما اتَّخَذت الأفواجُ جميعاً مواقعها، أُمِر الجنودُ الهنود بتَلقيمِ بنادِقهم. في بداية الأمر تم نَزعُ الملابس الرسمية فوراً عن كل جندي هندي يرفض تنفيذ الأمر، وأُرسِلَ إلى منزله بدون نقود، ولكن سرعان ما اعتُبرتْ هذه العقوبة غير كافية.

عندما وصَلَ الدَّورُ إلى أكبر الحاميات البريطانية، وكانت متمركِزة في ضواحي دلهي، اعتَبر البريطانيون تنفيذَ الأمر اختباراً فيما إذا كانت الهند ستظَلُّ بريطانية. جمَعَ البريطانيون في أرض الاستعراضات خمسةً وثمانين رجلاً على أنهم رؤساء التمرد بل خَونة أيضاً حسب تقديرهم. كان المشهدُ درامياً ويعلّمنا كثيراً عن الاستعمار والأمبريالية بحيث يُفضَّلُ سردُ الكلمات التي استَعملها شاهدٌ انكليزي هو السير جون ويليام كاي John William Kaye في وَصفِه:

"حلَّ صباح يوم التاسع من مايو سنة 1857 مكفَهِرّاً وعاصِفاً. وتم جمع جنود لواء ميروت Meerut Brigade في أرض الستّين بندقية لمشاهدة السجناء وهم يُجَرُّونَ رسمياً إلى مصيرهم المحتوم. كان الأمر قد صدر إلى فرقة الفرسان الثالثة للقدوم مشياً على الأقدام، وكانت الكتائب الأوروبية بمدفعيتها وبنادقها الميدانية قد نُظِّمَتْ بحيث تهدِّد بالموت الفوري للجنود الهنود لدى ظهور أية مقاومة. تحت حراسةِ البنادق والدَّرَك جُلِبَ الخمسة وثمانون رجلاً إلى المقدمة وهم يرتدون ثياب فيالقهم الرسمية وهم ما يزالون جنوداً، ثم تمت قراءةُ الحكم بصوت مرتفع وكان يقضي بتحويل الجنود إلى مجرمين. تم تَجريدهم من أعتدتهم وخُلِعتْ ملابسهم الرسمية عن ظهورهم، ثم تقدَّم صانعو الأسلحة والحدادون بأصفادهم وأدواتهم وسرعان ما وقف الخمسة وثمانون بكامل مظاهر ذُلِّهم الرهيب أمام حشدٍ كبير من رفاقهم السابقين. كان منظراً مثيراً للشفقة وتأثَّرَ كثيرون بتعاطفٍ كبير عندما شاهَدوا الأشكالَ اليائسة لأولئك الرجال المُحطَّمين الذين كان بينهم أفضل رجال الفيلق وجنودٌ ممن خَدَموا الحكومةَ البريطانية في أوقات عصيبة وأماكن غريبة ولم يسبق لهم أبداً أن تردَّدوا في إظهار وَلائهم[125].

إذا كان الرجال الذين "لم يسبق لهم أبداً أن ترددوا في إظهار ولائهم" يمكن أن يتَعَرضّوا للإهانة بنزوةٍ من جنرالٍ انكليزي وأن يتم حرمانهم من رواتبهم التي تَعتَمد عليها حياة أسرهم ويتم تقييدهم بالسلاسل ويُحكَم عليهم بالسجن عشر سنوات أو أكثر بسبب جريمةِ أنهم رَفَضوا مخالفةَ أوامرِ دينهم (الذي كانوا يؤمنون به) فما الذي يمكن أن يفعله البريطانيون بغيرهم؟ وإلى أي مدى

سيصل تدمير الحياة الهندية؟ ربما لن يتبقى كثيرٌ على قيد الحياة ليشاهد ذلك، ولكن الاستياء الذي كان ينمو ببطء على مدى نصف قرنٍ انفجَرَ فجأة بكراهيةٍ عنيفة.

ومع ذلك فقد كان الانكليز غافلين تماماً، وكما قَرَأنا في عددٍ من المذكَّرات التي كتبوها فيما بعد، فإنهم لم يَتَصَوروا أن "الوثنيين المُقرِفين التعساء" يمكن أن يتصرفوا كرجالٍ حقيقيين (مثل الأوروبيين البيض). اعتَقَدَ الانكليزُ في غياب أي توجيه من أي ضابطٍ انكليزي أن المتوحشين الجبناء لن يفعلوا شيئاً. وهكذا مضى الرجال الانكليز مع عائلاتهم إلى الكنيسة بعد انتهاء المشهَد على أرض الاستعراضات ثم ذهبوا إلى نواديهم كالعادة.

بعد ساعات قلائل اتُّخِذَ قرارُ التَّصرف كرجالٍ حقيقيين واقتَحَمَ المتمردون السجنَ وحرَّروا الخمسة وثمانين رجلاً، ثم قَتَلوا في غمرة الغضب المتصاعد بعض ضباطهم وعائلاتهم. ويبدو أنهم لم يكونوا متأكدين مما سيفعلونه بعد ذلك حسبما وَرَدَ في السجلات الانكليزية. وأخيراً قرَّروا البحث عن قائد. كان الامبراطور المُغولي هو الوحيد الذي يمكن أن يُجمِعوا ويَتَّفقوا عليه، ولكنه كان شيخاً مسِنَّاً في الثانية والثمانين من عمره احتفَظَ به البريطانيون كسجينٍ في واقع الأمر داخل الحصن الأحمر في دلهي. عندما وصَلوا كان الامبراطور في هلعٍ شديد وطلَبَ منهم أن يتركوه ليموت بسلام.

لا بد أن المتمردين قد أصابتهم الصدمة لأن الرمز الوحيد للهند الذي كانوا يعرفونه لم يكن القائدَ الشجاع الذي كانوا يَحسَبونه. كان وريث المحارِب العظيم بابور مجردَ شيخٍ مخصي سياسياً ومثيرٍ للشفقة والرثاء. وكما كتَبَ كاي فإن الحاكمَ البريطاني قد جعله "لعبةً استعراضية... ملكٌ ولكنه ليس بالملك... شيءٌ ولكنه لا شيء... حقيقةٌ وصورةٌ زائفة في الوقت نفسه"[126].

رفعوا الراية الخضراء التي كانت رمزهم للجهاد في غمرة اليأس ولكنهم لم يتمكَّنوا من إيجاد قائد آخر. على الرغم من ذكريات الحروب المتكررة في التاريخ لم يوجَد جنرالاتٌ من الهنود لديهم خبرة مثل التي اكتَسَبها المُستَوطِنون الأمريكان في حرب الفرنسيين والهنود الحمر والتي ساعدَتهم كثيراً أثناء الثورة الأمريكية. على الرغم من أنهم حارَبوا ببسالةٍ في معارك صغيرة، إلا أنهم هُزِموا بسبب عدم وجود خطة تكتيكية ولا عقلٍ قيادي ولا تنظيمٍ منضبط لكي ينجَح هجومهم في الوصول إلى هدف"[127].

تشَتَّت الثورة الكبيرة إلى مجموعات شرسة ولكنها لم تكن أكثر من عمليات انتقامية بلا معنى وسرعان ما سيطَر البريطانيون بشجاعتهم الذاتية وتَنظيمهم الأفضل وتَمكنهم من استخدام المدفع الذي كان سلاح الدمار الشامل آنذاك.

من السخرية أن أقوى سلاح استُخدم ضد الثورة كان فكرة "الهند"، فقد فشل المتمردون المسلمون من الجنود الهنود في كسب حلفاء آخرين من الهنود، بل إن الجنود الهنود من مِدراس وبومباي والسّيخ سارعوا لمساعدة البريطانيين. الخلافاتُ المحلية والطائفية التي كانت حاسمة في احتلال البريطانيين للهند جعلَتْ من المستحيل على الفئات الهندية أن تتَّحد.

فَجَّرَ قتلُ "الأهالي السود" للضباط الانكليز وللمدنيين خاصةً من النساء كراهيةً عنيفة زادها الخوفُ شدة. طالَبَ بعض الضباط الانكليز فعلاً عقاب السجناء الهنود بسَلخِهم أحياء، وتم إعدام بعض السجناء بربطِهم على فوهات المدافع ونسفِهم أشلاء متناثرة بحضور مشاهدين من الهنود.

تم قَتْلُ عشرات أو مئات الآلاف شنقاً أو رمياً بالرصاص ولا أحد يعرف العدد الحقيقي. أُحرِقتْ قرى بأكملها حتى لو لم يكن لسكانها أية علاقة بالثورة. تُصَوِّرُ بعض التقارير المعاصرة للثورة بشكل حي، وغالباً مع شيء من الفرح، حالات التعذيب والقتل. عندما استسلم السلطان المسنّ مع عائلته قَتَلَ الضابطُ البريطاني المسؤول أولادَه الذين كانوا آخر ورثة عرش الامبراطورية المُغولية[128]. حُكِمَ على الامبراطور المسكين في محكمةٍ بريطانية، وتمَّ نَفيه.

بعيداً عن جنون القتال، فَضَّلَ رئيس الوزراء اللورد بالمرستون Palmerston هَدْمَ مدينة دلهي، واقتَرَح الحاكمُ السابق الجنرال اللورد إللنبورو Ellenborough خَصْيَ جميع المتمردين. وليس من المستغرب أن التاريخ الرسمي قد وجَد أن "الانتقام لم يكن مبالَغاً فيه... ولم يرتكب الجنود البريطانيون أي مجزرة غير ضرورية"[129].



من أجل ترهيب الهنود والانتقام من الجنود الهنود في الجيش البريطاني الذين قاموا بالثورة سنة 1857

جَمَعَ البريطانيون أعداداً كبيرة من المدنيين الهنود لكي يشاهدوا نَسفَ المتمردين على فوهات المدافع.

رَسَمَ Vasily Vereshchagin هذا الحدث في هذه اللوحة سنة 1884.

من الناحية التاريخية كانت أهم نتائج التمرد هي ضَمُّ الهند إلى الامبراطورية البريطانية بحيث أصبَحت الملكة فيكتوريا امبراطورةَ الهند. وللأهمية المحلية الكبيرة فقد تم استبعاد أغلب المسلمين من الجيش البريطاني الهندي الذي أُعيد تشكيله، ولم يُعتبَروا بعدها أفراداً من "العرق العسكري"[130].

إلا أن البريطانيين تعلَّموا من التمرد تلطيفَ الإهانات التي كانوا يمارسونها على الجنود الهنود قبل ذلك، فبدؤوا برنامجاً يشبه ما طبَّقوه من قبل بنجاح في تهدئة الاسكتلنديين. مَنَحوا ألقاباً تشريفية وميداليات وأوسمة وثيابا خاصة للمتميزين والموالين من الجنود[131]. مثلما مُنِحَ الاسكتلنديون الثياب الصوفية الملونة المقلَّمة وأُعطي حرس الحدود الأردنيون أثوابهم الخاصة، كذلك ارتدى الجنودُ الهنود ثياباً تناسب فيلماً هوليودياً عن ليالي ألف ليلة وليلة.

كانت الحملةُ الثانية لكسبِ الهند نفسيةً أكثر منها عسكرية، وكانت حملة واسعة الانتشار دقيقة التنظيم كادتْ أن تكون عالمية، وحصَلتْ على تأييد قوي في المجتمع المسلم.

مُنِحَ القائد الأبرز للرأي المسلم الذي بَقيَ حياً سيد أحمد خان لَقَبَ الفروسية. كان قد دَعَمَ البريطانيين أثناء التمرد وجَعَلَ نفسه مشهوراً بإنقاذ عائلات انكليزية كانت مهدَّدَة. كان ضَمُّ الهند إلى الامبراطورية نتيجةً مناسبة له، فقد كان يؤمن أن على الهنود أن يتأقلموا بينما هم يتقدَّمون ويتَحضَّرون. يجب عليهم أن يتَعلَّموا إلى مستوى أوروبي في مواضيع أوروبية، ولكي يُحقِّق ذلك كان له دورٌ هام في تمويل مدارسَ أصبحتْ إحداها جامعة عليكرة الإسلامية، وشجَّعَ على استخدام لغة وطنية واحدة بدلاً من الاعتماد على العربية والفارسية والتركية. ولكن مع تقدمه في السن، أدركَ أن جراح الثورة كانت أعمق من أن تشفى، وأن نوعاً من الفَصل بين الهندوس والمسلمين لا يمكن تجنبه. السؤال الذي لم يستطع مواجهته هو كيف يمكنه تصور الهند بدون البريطانيين.

كان الروس بين الذين استطاعوا تَصَوُّرَ ذلك.

الفصل التاسع

الإمام الشيشاني شامل يُقاوِم الأمبريالية الروسية

اندفعَ الروسُ نحو الهند قبل بطرس الأكبر بزمن طويل. بدأت علاقتهم بالعالَم الإسلامي منذ القرن التاسع. وجِدَتْ كثيرٌ من النقود العربية قرب القرية التي تحيط بالسور الخشبي الذي أصبح الكرملين فيما بعد. تطَوّرت القرية إلى مدينة بسبب موقعها المناسب على نهر موسكو الذي يصبُّ في نهر الفولغا. كانت الأنهار مثل الطرق السريعة بالنسبة للتجارة. في حوالي سنة 1330 بدأ الغزاة المَغول-الأتراك باستخدام زعيم موسكو إيفان دانيلوفيتش كاليتا Ivan Danilovich Kalita كمُحَصِّل ضرائب للمنطقة الشمالية بكاملها. كانت المدينة في ذلك الوقت قد كبرت لدرجةٍ كافية بحيث جَعلَتها الكنيسةُ الأرثودوكسية مركزَ مطرانيتها. إلا أن حكام موسكو الذين كانوا يَعتَزون بمكانتهم حاولوا توسيع نفوذهم بتحقيق انتصار صغير على سرية مَغولية، فقام أحد جنرالات تيمورلنغ سنة 1382 بتدمير وحرق المدينة. وربما كان ذلك منشأ خوف الروس من "الحصار" الذي كمن دائماً في قلب الاستراتيجية الروسية وخَلَقَ في أيامنا هذه أزمةً بسبب توسع حلف الناتو.

كان أول حاكم "كبير" لموسكو هو إيفان الثالث الذي وسَّعَ مساحةَ سيطرة المدينة-الدولة بشكل هائل، واستطاع في سنة 1480 أن ينفَلِتَ من سيطرة التتار. لكي يُعَبِّر عن الاستقلال الجديد وطموحاته في توسيع أراضيه تزوجَ إيفان أميرةً بيزنطية وبدأ ببناء ما أسماه "روما الثالثة" حول الكرملين الجديد. تابَعَ حفيدُه إيفان الرابع "الرهيب" أعمال إيفان الثالث ويُعتَبر عادة أبو القيصرية الروسية الذي أسس منظومة عسكرية جديدة مَحَت الطبقة العليا القديمة. كان أيضاً أبو الأمبريالية الروسية.

بعدما سيطَرتْ موسكو على المناطق الشمالية الشرقية كانت الأراضي إلى غربها مَحمية بيد حكام ألمان أقوياء، فاتجه إيفان نحو الجنوب الشرقي وأطلَقَ حملةً ضد خانات المسلمين في قازان. ربما كان الهجوم على المسلمين بالنسبة لإيفان الغارق في الصوفية نوعاً من الواجب الديني، ولكنه كان في الوقت نفسه حركة استراتيجية منطقية. كتَبَ ريتشارد تشانسلر Richard Chancellor وعَينُهُ على التجارة قائلاً إنه في القرب من الكرملين "يجري نهر اسمه موسكو يمرُّ في أراضي التتار ثم إلى البحر الذي يسمَى بحر قزوين"[132]. كان الطريق مفتوحاً نحو الجنوب.

سارَتْ قواتُ إيفان على تلك الطريق واختَرقتْ جدرانَ المدينة القديمة قازان على نهر الفولغا سنة 1552. احتَلَّ الموسكوفيون بذلك دولة متقدمة نسبياً ذات اقتصاد متنوع ومؤسسات سياسية ونظام اجتماعي واقتصادي وقيم ثقافية مختلفة. كان ذلك الاحتلال إشارة لانتقال روسيا الموسكوفية من دولة وطنية مركزية إلى امبراطورية متعددة القوميات، وكان لذلك الانتقال أهمية حاسمة في تاريخ روسيا، كما ثبتت سياسة روسية تجاه المدن-الدول الإسلامية بسلوك يشبه سلوك الفاتحين الإسبان: مهما كانت دوافع إيفان فقد أصبحت الحروب الروسية نوعاً من الصليبية. مثلما قيل على لسان كاهنِ إيفان الشخصي بأن هدفه كان "تحويل الوثنيين إلى الإيمان المسيحي حتى لو كانوا لا يستحقونه".

وقَّعَت الامبراطوريتان الناشئتان، امبراطوريةُ إيفان الروسية وامبراطوريةُ الملكة إليزابيث الانكليزية على واحدٍ من أوائل برامج التعاون العسكري، فقد عرَضَ إيفان على إليزابيث المرورَ في نهر الفولغا إلى أسواق آسيا الوسطى مقابل الأسلحة. أراد إيفان أكثر من ذلك فلمَّحَ بشكل غامض إلى الزواج من إليزابيث التي كان يشير إليها باسم "أختنا الحبيبة"، ولكن الخلافات الأمبريالية أضَرَّتْ بالعلاقة بينهما قبل أن يتم النظر في ذلك بشكل جَديّ. فغَيَّر إيفان تسميته إليزابيث إلى "الفتاة أو الخادمة العادية".

حتى لو علمت إليزابيث برغبة إيفان إنشاءَ نوعٍ من التعاقد فمِن حقِّها أن تكون حذرة، ليس لأن روسيا يمكن أن تسبب أي خطر على انكلترا كما اعتَقَد الانكليز بذلك فيما بعد على امبراطوريتهم في الهند، بل لأنها كانت تحت خطر هجومٍ خطير. على الأقل في ذلك الجزء من آسيا، لم يكن توازن القوى بين الشمال والجنوب قد تم انتقاله بعد. كانت موسكو وغيرها من مدن روسيا خاضعة لحكم المَغول منذ أيام جنكيزخان، وكانت تخضع للغزو المتكرر من قبائل تتارِ القِرم المسلمة التي كانت من سلالة الغزاة المَغول.

ظَلَّ تتار القِرم العدو الاسلامي الأكبر لروسيا على مدى القرنين القادمين، وخلال القرن الأول من ذلك الوقت على الأقل كانت عادات سكان المدن الروسية تشبه عادات التتار والأفغان والإيرانيين والهنود وغيرهم من المسلمين. كانت النساء تَستَخدم الحِجاب، وقد كتُبت هذه العادات بشكل مفصل في كتاب مطبوع اسمه الدوموستروي Domostroy. لم يكن اختلاف العادات هو الذي أثار الصراع الروسي-التركي، بل كانت الرغبة في السيطرة.

بدأ الروسُ بتدمير الولايات الاسلامية واحدة تلو الأخرى. كانت بعضها سهلة بينما كانت الأخرى أكثر قوة أو أعمق التزاماً. وعلى مرِّ قرنين تقريباً ظَلَّتْ منطقةَ شبه جزيرة القِرم، التي كانت أقوى ورثة الامبراطورية المَغولية-التركية، بعيدة المنال. بل قام تتار القرم بهجمات مضادة ودَخَلوا موسكو سنة 1571، وقيل أنهم أخَذوا حوالي 150000 سجين لبيعهم كعبيد في الامبراطورية العثمانية. وكما ذَكَرَ التاجر الانكليزي ريتشارد هاكلويت Richard Hakluyt فقد "هَرَبَ الامبراطورُ من المعركة وأخذ تارتار القرم معهم كثيراً من الناس[133]. أخَذوا الشبابَ وتركوا الشيوخ لشأنهم ثم عادوا إلى ديارهم بعد أن أخَذوا كثيراً من السجناء وخَلَّفوا وراءهم كثيراً من الخراب"[134].

انحدَرَتْ روسيا في فوضى حقيقية مدة نصف قرن. سَمَحَ ضعفُ السلطة المركزية بتجربة التغيير في العادات. كان من بينها أن بدأت نساءُ الطبقات العليا بنزع الحِجاب والخروج من عِزلتهن للمرة الأولى، ونَزَعَتْ موسكو "الشرقَ" عن بيتها حتى بينما كانت مستمرة في غزوهِ. اتَّخَذتْ هاتان النزعتان دفعةً جديدة عندما حقَّقتْ أوكرانيا سلطتها سنة 1632، وبمساعدة أوكرانيا، بدأ القياصرة جولةً جديدة من الحروب ضد تتار القرم.

عندما رجَعَ بطرس الأكبر من إقامته المؤقتة في أوروبا الغربية سنة 1696، انطلَقَ لبناء روسيا كقوة حديثة فاتَّجَه شرقاً من القِرم على مسار نهر جيحون إلى بحر قزوين وإيران. كان يبحثُ عن مصادر للذهب والحرير والقطن لتمويل برنامجه للتحديث وشَجَّعه أحد أفراد العائلة المالكة في جورجيا على التفكير بأن كل ذلك متوفرٌ في إيران.

اعتقَدَ بطرس أن الفرصة قد حانَت له سنة 1721 عندما عَلِمَ بوجود غزوٍ أفغاني لإيران. غَمَرته فجأة مشاعرُ الأخوّة تجاه الشاه المحاصَر فجَمَعَ قوةً ضخمة قيل أنها بلغت حوالي مئة ألف رجل، ولكن الحكام يميلون دائماً إلى المبالغة، وأبحَروا في بحر قزوين من مدينة أستراخان في يوليو 1722. عندما نَزلَ الجيشُ في منتصف الطريق تقريباً إلى المدينة الحديثة باكو، علَّق بطرس قائلاً لأحَدِ ضباطه إنه كان في المرحلة الأولى من "طريقٍ نحو الهند لا يستطيع فيها أحد أن يعتَرِضَ سَيرنا".

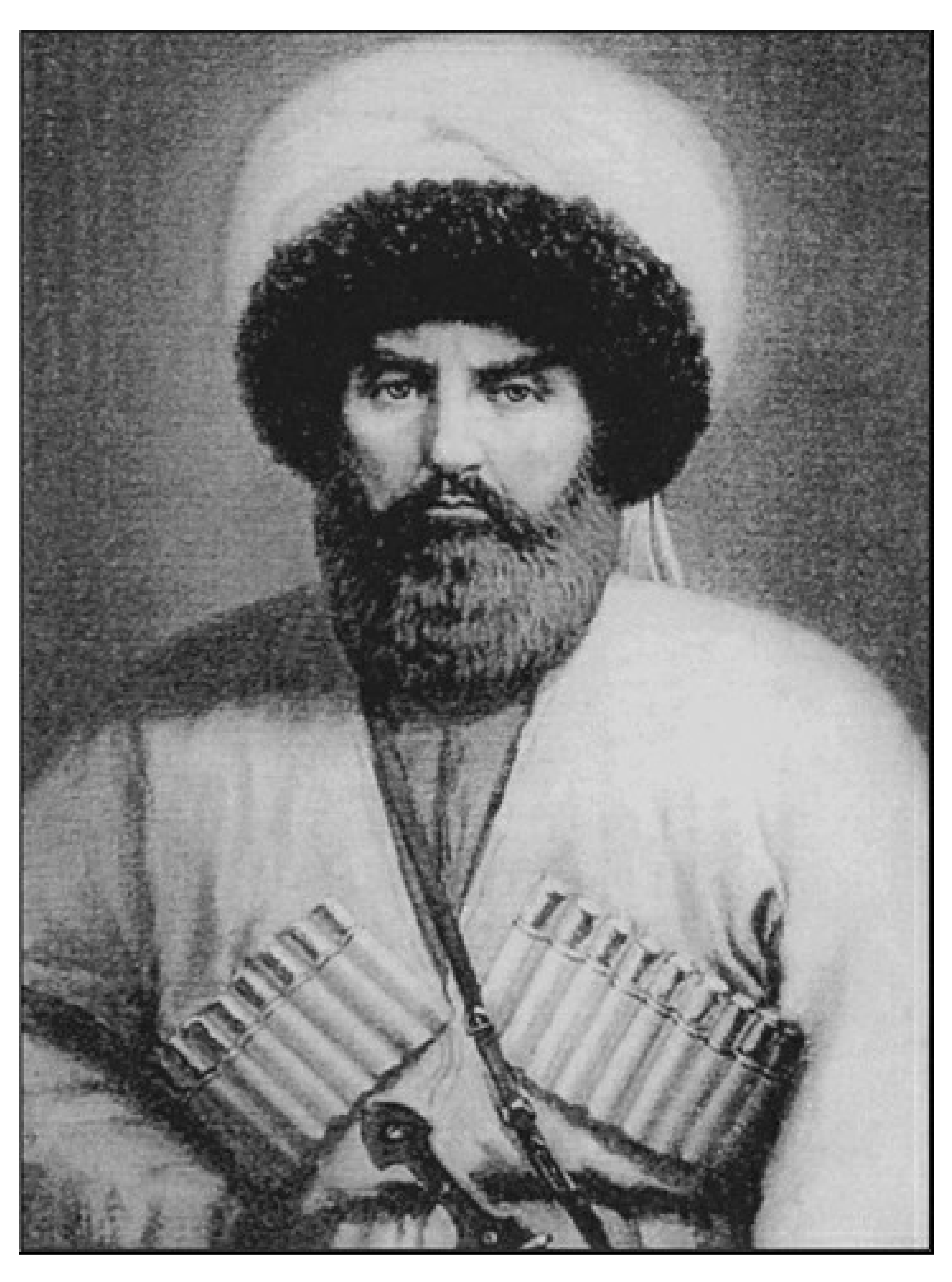
ولكن الخانةَ المسلمة المجاورة في خوارزم استطاعَت أن تَعتَرِض سَيره وبقوة. هاجَمَ جيشُها الصغير وكاد أن يمحو القوةَ الروسية. لم ييأس بطرس فأرسَلَ بعدها ببضع سنين حملةً أصغر بكثير من حوالي خمسة آلاف رجل لغزو خوارزم. ولكن الشتاء والمرض كانا قاضيان على الروس مثلما قَضَوا على جيش نابليون العظيم بعد ذلك. لم ينج سوى واحدٌ من كل خمسةٍ من الروس في هذه الحملة ضد خوارزم. ولكن الخسائر لم توقف الروس لأن نظام تجنيد الأقنان كان يَمدّهم بعددٍ غير محدود من الرجال استطاعوا بواسطتهم قَهرَ هدفهم المسلم التالي الذي كان القوقاز[135].

أصبح قهرُ القوقاز فكرةً مسيطرة على الاستراتيجية الروسية. على الرغم من كونها وجهةً واحدة لحملاتٍ كثيرة امتدت في كل اتجاه، ظلَّت القوقاز أمامهم كنوعٍ من الهدف الرومانسي. كانت لها هالَة بالنسبة للروس مثل تلك التي كانت لدى الأمريكان في مواجهة السهول الواسعة والهنود الحمر فيها، أو لدى الفرنسيين أمام الصحراء المغربية والبربر الجامحين فيها. بدأ الروس دخولهم منطقة القوقاز حوالي سنة 1800 وهم يتوقعون قَهرَ كل مقاومة. ولكي يثَبِّتوا تقدُّمهم قاموا ببناء حصونٍ في مواقع استراتيجية وأخَذوا بمصادرة الأراضي. التشابه بين ذلك وبين "القدر الأمريكي المحتوم" يبدو واضحاً للعيان خطوة بعد أخرى، فقد كان السكان الأصليون مُلَوَنين وشجعاناً على مستوى الأفراد ولكن تم الحكم عليهم طبعاً بأنهم "متوحشون" وليسوا من البشر. ولكن لا تجب المبالغةُ بالتشابه بين الحالتين أكثر من ذلك، لأنه لم يكن لدى الهنود الحمر مكانٌ جيد للإختباء في مناطق السهول على الأقل، بينما عاش القوقازيون في إحدى أكثر المناطق وعورةً في العالَم. كانت قبائل الهنود الحمر مشتَّتة ولم يكن لديها مَذهب أو إيديولوجية تُوَحِّدها، بينما كان لدى القوقازيين مَذهب ديني مشترك واحد. على امتداد العالَم الإسلامي لَعِبَ المذهب الصوفي دوراً رئيسياً في

الصراع ضد الشمال العالمي وفي توحيد الناس الذين كانوا يعيشون بينهم. وفي الحقيقة يمكننا اعتبار المذهب النَّقشبَندي في الصوفية نوعاً من "أمّة الفكر" وعند شعوب الشيشان في جبال القوقاز التي تَعصف بها الرياح وغاباتها الكثيفة كان المذهب محارِباً. وعندما بدأ الروس بالوصول كان الشيشان مستَعدين بالسلاح فِعلياً ومَجازياً.

بدأت المقاومة تحت قيادة الصوفية النقشبندية سنة 1828، وبعد ذلك بست سنوات سيطر على قيادة المذهب واحدٌ من أهم قادة حرب العصابات في قرنٍ تميَّزَ بوجود قادة كبار لمثل هذه الحروب. استمر الإمام شامل خمس وعشرون سَنة مقاتلاً في سبيل المحافظة على استقلال الشيشان وحماية شعبها مما اعتَبَره إنهاءً لوجود الإسلام بينهم. يَذكُرُه الشيشان هذه الأيام كأعظم أبطال الأمة.

عندما خرجَتْ روسيا من حرب القِرم سنة 1856 كان كثيرٌ من ضباطها العسكريين متحمسين لاسترجاعِ هَيبَتهم المَجروحة. كما نَعلَمُ نحن (الأمريكان) من تجربتنا بعد حرب فييتنام، فإن هذه الحالة نتيجةٌ معروفة للهزيمة، وغالباً ما تؤدي لحروب جديدة. كانت الحرب ضد المسلمين "مُتاحَةً"، وكانت أفضل الطرق المفتوحة أمام الجنرالات لإنقاذ كبريائهم وكسب الترقيات، فانتَهَزوا الفرصة. هاجَموا خانات آسيا الوسطى أحياناً ضد أوامر القيصر ووزرائه: سمرقند في 1865، بخارى في 1866، طشقند في 1868، خوارزم في 1873. ولكن الحملات في القوقاز هي التي وَضَعَت الأمبريالية الروسية في بؤرة التركيز. كانت معاركُ القوقاز من أقسى المعارك وأشدها ضراوة، ومن أكثر الحروب الأمبريالية أهمية في قرنٍ تَميَّز بوحشيةِ الشمال العالمي ضد الجنوب.

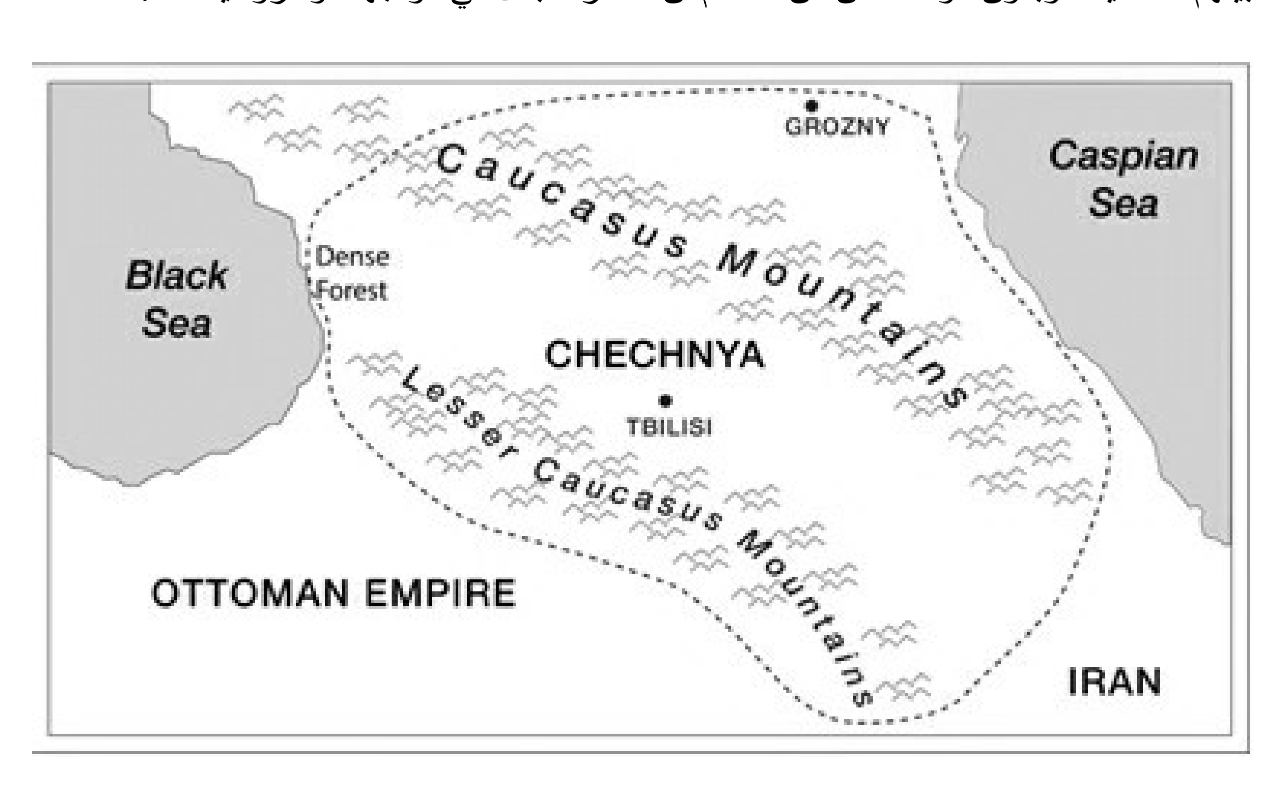


قاد الإمامُ شامل المقاومةَ الشيشانية نصف قرن تقريباً. صورته هذه حوالي سنة 1850

باللباس الذي يُميّزُ أهلَ جِبال القوقاز.

فَكِّر بما تَتميز به منطقةُ القوقاز: منطقةٌ شديدة التعقيد والوعورة ترتفع جبالها نحو 18000 قدم فوق سطح البحر (حوالي 6000 متر) مع وديانٍ سحيقة تنخفض كالأغوار إلى عمق آلاف الأقدام، وتتغير درجات الحرارة بين صيفٍ خانق وشتاء قارس، وتوجَد غاباتٌ كثيفة قرب البحر الأسود تصل إلى منحدرات صخرية عالية. الأرضُ المنبسطة نادرة، وسقوط الثلوج كثيفٌ وانهياراتها متكررة. تَوَزَّعَ السكانُ فيها بين قرى صغيرة عديدة، وحسب وصف جون بادلي John F. Baddeley المُتابِع المُتمكِّن الخبير بالغزو الروسي والمقاومة الإسلامية:

"القوقاز في الأساس هي بلاد جَبلية... ويمكن القول دون مبالغة أن الجبال صَنَعَت الرجال، وأن الرجال بدورهم قاتَلوا بشجاعة وحماس ودافَعوا بهمة كبيرة عن جبالهم الحبيبة وكان من الصعب التَّغلب عليهم في شِعابها المُنعَزلة. ولكن في واحدة من تلك الحالات الغريبة المتناقضة التي تواجُهنا على كل الأطراف اجتَمعَت القوة والضَّعف معاً في آن واحد، لأن ارتفاع ووعورة الجبال العظيمة والأعماق الهائلة للوديان وانحدارها السحيق والامتداد الواسع للغابات القديمة جَعَلَت الوحدةَ بينهم مستحيلةً، وبدون الوحدة كان من المحتَّم أن تَخسَر القبائلُ في مواجهة قوة روسيا"[136].



حارَبَ الشيشانُ بتنظيم الصوفيين المسلمين ضد الغزو الروسي مدة نصف قرن في جبالٍ وعرة وغابات كثيفة في منطقة القوقاز

استغرَقَ النصرُ الروسي على القوقازيين من نهاية القرن الثامن عشر حتى سنة 1864 لكي "يَسقطوا أمام قوة روسيا". فمَن كان القوقازيون؟ وكيف كانوا يُظهِرون أنفسهم؟

كان تَعدادُ سكان القوقاز في منتصف القرن التاسع عشر حوالي أربعة ملايين، وكانوا منقَسمين إلى عددٍ من الفئات التي تَتَحدث لغات مختلفة، وعُرفت غالبيتهم بأسماء متعددة، فنَعرفهم نحن باسم القوقازيين أو الشيشان، بينما يُسميهم الروسُ الشركس، ويسمون أنفسهم الفيناخيين Vainakhs [137]. اقتَضَت وعورة الجبال التَّنوع، فانتشَرت غاباتٌ كثيفة من البحر الأسود في الشرق، وأَدَّت الأشجارُ الدَّور الذي قامَت به الجبال والوديان في الوسَط وهو توزّع السكان إلى قرى منعزلة. نَزَعَ السكانُ مناطقَ من أشجار الغابة واستخدَموا أرضها في الزراعة واعتَمدوا أيضاً على صيد الحيوانات وغَزو الجماعات البعيدة. تقاتَلَ القرويون مع جيرانهم مثلما فَعَلَتْ قبائلُ البدو في شبه الجزيرة العربية في ظلِّ أعرافٍ صارمة من ميثاقِ شرفٍ قبلَ الإسلام. أدى صراعُهم لنشوء مجتمعٍ متَنوع ولكنه ممَزق وعنيف. وكما وجَد بادلي فعَلَى الرغم من التزامهم المشترك بالإسلام إلا أنهم لم يتمكَّنوا من الاتحاد لوقف الغزو الروسي.

في النهاية قام الغزاةُ الروس بتهجير حوالي مليون رجل وامرأة وطفل، أي واحداً من كل أربعة أو خمسة من السكان إلى خارج وطنهم. استطاع مَن وصَلَ منهم إلى البحر الأسود أن يَلجَؤوا إلى إخوانهم الأتراك المسلمين في الامبراطورية العثمانية. انتَهى بعضهم بالوصول إلى الأردن أو سورية أو لبنان، ولكن كثيراً منهم غرقوا في البحر أو ماتوا بسبب الجوع أو لأسباب أخرى على الطريق مثلما حدَثَ في أيامنا أثناء النزوح الجماعي للمهاجرين السوريين.

حارَبَ الروسُ ضد الشركسَ بحملة نموذجية لقمع التمرد، فقَتَلوا أو سَرقوا المواشي وأحرَقوا القرى وقَطَعوا الأشجار. وكما كتَب بادلي "لم يترك الروسُ أثَراً بالغاً فيهم فيما عدا ما فَعَلوه عندما قطَعوا أشجارَ الزَّان، ويمكن القول حرفياً أنهم على المدى الطويل لم يُقهَروا بالسيف بل بالفؤوس". استمر قمعُ التمرد حوالي قرنٍ من الزمن بحيث عاشت أجيال متتالية في حالة حرب[138]. تَصنعُ هذه الطريقة في العيش الناسَ مثلما يَفعَلُ الدين أو القومية.

المنطقة إلى الشرق من مساكن الشركس أكثر وعورة وتَنوعاً في فئات سكانية أعمق اختلافاً، فليس لديهم لغةٌ مشتركة بل تحدَّثوا بحوالي ثلاثين لغة ولهجة. وكما لاحَظَ بادلي خلال أسفاره هناك، وجِدَ انقسامٌ عميق حتى في واحدة من أكبر الفئات وهي الآفار Avars الذين بلَغَ عددهم حوالي 125000 نسمة خلال الحرب مع الروس. فاكتَشَفَ أولاً أنهم لا يُسَمّون أنفسهم "الآفار"[139]، بل اعتَبرتْ كل قريةٍ نفسَها جماعة أو أمَّة منفصلة، مثلما اعتَبر المصريون "وطنهم" والبدو "قومهم". أما في اللغة الروسية فقد اعتُبِروا أمَماً بلا أرض. لم تكن الأرض ما حافَظَ على هويتهم، بل الفخر والاعتزاز، ومهما كان الآفار فقراء فقد اعتَبروا أنفسَهم من النبلاء.

كانت الطائفة النقشبندية من الإسلام الصوفي هي القوة الجامعة الرئيسية، وذلك مثلما كانت السَنوسية في شمال أفريقيا. واعتَبر النقشبنديون أنفسَهم مسلمين تقليديين على الطريق القَويم ولكنهم

تَبنّوا التَّعايش وتأقلَموا مع العادات والتقاليد المحلية. وقَبلوا حتى العادات التي تتناقضُ مع القرآن مثل عادة القَتل للثأر. وبهذا التعايش القليل ربحوا الكثير، فقد كانت شعبيتهم كبيرة في كثير من القرى والوديان واللهجات. حاوَلوا الابتعادَ عن الصراعات المحلية إلا أنهم كانوا مُتشَددين فيما يَتعلق بالدين. سَمَحت الطائفة النقشبندية بل وخلَقَتْ بُنيةً عسكرية وسياسية امتَدَّتْ وراء القَبَلِيَّة وكان ذلك أمراً مصيرياً في الحرب ضد الروس. ومثلما تصَوَّر النبي محمد صحابتَه المقربين كجماعة "المؤمنين"، وميَّزَ السَنوسيون أنفسهم عن أتباعهم من البدو، فإن قادة الجهاد ضد الروس مَيَّزوا بين الصوفيين المخلصين "المُريدين" وبقية المتمردين. هذه الفئة الصغيرة من المُريدين الذين لم يكونوا أكثر من مئات قليلة[140] مَنَحتْهم التضامن والقوة في الحرب. كان زعيم هذه الطائفة بالتالي هو قائدُ الثورة، وكان "الإمام".

مثل بقية الجماعات الدينية تضاءلت النقشبندية مع الزمن، ويعتَقدُ المؤرخُ المعاصر تشارلز كينغ أن الصحوة الدينية التي ساعدَتْ على مقاومة الروس تعزَّزتْ بسياسة الروس في محاولة قمعها[141]. تَظهَر هذه الملاحظة بشكل متكرر في ثورات أخرى، فالقمعُ الروسي إذاً يخلقُ أعداءَه مثلما تفعله سياسات القمع الأخرى التي نراها في أيامنا، كما لاحَظَ بادلي:

"ارتكب الروس أيضاً الخطيئة الجوهرية بتقديم الدعم المعنوي والعسكري إذا اقتضت الحاجة إلى الحكام المحليين الذين يَعتمدون على هذا الدعم لزيادة اضطهاد رعاياهم المتَذَمرين... بينما في الجهة الأخرى تُعلِن شريعةُ محمد المساواةَ بين جميع المسلمين أغنياء وفقراء، ولذلك فقد حَصَلَت التعاليم الجديدة (للنقشبندية) على تأييد شعبيّ، ومنذ ذلك الوقت أصبَحت المُريدية حركةً سياسية نَمَتْ في حركة دينية صرفة"[142].

أدى الأئمة المتتابعون إلى قطف ثمار تلك الحركات وذلك التعاطف الشعبي، وكان أكثرهم أهمية هو الإمام شامل. ولكن أكثرهم شهرة خارج القوقاز هو حاجي مراد Hajji Murad ربما بسبب ظهوره في الكتب الروسية[143]. كان شامل وحاجي مراد هم ثالث ورابع قادة المقاومة الشركسية. وتبعهم آخرون.

حاوَلَ شامل في بداية زعامته أن يتوصَل إلى اتفاق سلامٍ مع الروس، ويبدو أنه عرَضَ قبول السيادة الروسية إذا رضِيَت الحكومةُ بتطبيق الشريعة في المناطق الخاضعة لحكمها دون أن يُحدِّدَ للحكومة الروسية ما يَعني بذلك[144]. لم يهتم الروس بذلك العَرض، فبالنسبة للقيصر كان القوقازيون بكل بساطة مجموعة من المتمردين الذين كان يَنوي سَحقَهم أو إفناءهم[145].

كانت قوة الدين هي القوة الوحيدة لدى شامل، وأدركَ أن الإيمان المشترك بالإسلام لدى أتباعه كان أهم قوة يمكن أن توحِّدهم تحت لوائه، واستخدَم تلك القوة بصلابة. كان عليه ذلك لأن سكان القوقاز كانوا مختلفين في اللغة والثقافة، وكانت لديهم نزعةٌ طبيعية للتفرق إلى فئات صغيرة. كان كل منهم لا يهتم إلا بمصلحته وكان مستعداً للصراع ضد الآخرين إذا حانت الفرصة لذلك. لم

يستطع شامل أن يستمر بنضاله إلا بفضل الانضباط والعقوبة الصارمة التي اضطر لتطبيقها مرةً حتى على والدته.

العقوبة الأسطورية التي طَبَّقها شامل على والدته تعطي بعض الضوء على تحديات القيادة التي واجَهها. كانت مقاومته الصلبة لهجوم الروس في القوقاز مكلفة ومؤلمة حتى في لحظات النجاح التي كانت قليلة، وكانت مدمِّرةً في لحظات الفشل التي كانت متكررة. وهكذا في جميع الحالات التي أسميتُها بالسياسات العنيفة فإن "المعتَدلين"، خاصة أولئك الذين تتضرر مصالحهم كثيراً، يطلبون في العادة التوصل إلى نوع من الاتفاق لمَنع المثاليات المجردة من تدمير ما تبقى من الواقع المؤلم[146]. المعتدلون هم أخطرُ أعداء الثورة لأنهم مُطَّلِعون من الداخل يتَعهَدون بوقف الألم. وهكذا ففي كل ثورة درستُها وجَدتُ أن القادة يتعامَلون بشدة مع المعتدلين من أتباعهم أكثر مما يفعَلون مع العدو، وهكذا كانت الحالة مع شامل.

في سنة 1843 قرَّرت جماعةٌ من أتباع شامل أنهم قد خَسروا الحرب وأن التصالح مع الروس أفضل من المَجاعة. كانوا يعرفون أنهم لن يتمكنوا من إقناع شامل ولكن ربما استطاعوا إقناع والدته بذلك. كان مخلصاً جداً لوالدته، ولذا فقد رشوها لتشجيعه على الاستسلام. حاوَلتْ ذلك بالفعل ولكن شامل عَلِمَ بتفاصيل الخطة. كان المتآمرون أعضاء مهمّين من المجتمع الشيشاني وأدركَ أن قتلَهم سيؤدي إلى زيادة الفرقة والتمزق في صفوفه. إذ ربما أدى قتلُهم لإثارة الرغبة بالانتقام منه أو الانضمام إلى الروس.

كشَفَ المؤامرةَ لأتباعه وأعلَن بذكاء أنها كانت خطيرة وجدِّية أكثر مما يتحمله العقل وأنه سيدعو الله للحكم فيها. قال إنه سيذهب إلى المسجد ويصوم ويصلي حتى يرشده الله أو رسوله عما يجب عليه أن يفعل. جَمَعَ أتباعَه المُريدين من الصوفيين في مشهدٍ عظيم، وارتدوا جميعاً ثياباً سوداء وجَمَعوا أكبر عدد ممكن من الناس حول المسجد لمساعدته بصلواتهم، ثم اختَفى داخل المسجد. وصَفَ بادلي الاسطورةَ كما سَمِعَها بعد ذلك بحوالي نصف قرن:

"ظلَّت الأبوابُ مغلقةً ثلاثة أيام بلياليها، وتَعِبَ الجمهور في الخارج من الصلوات والصوم ووصَلوا إلى أعلى درجةٍ من الحماس الديني وهم ينتظرون عبثاً ظهور إمامِهم. وأخيراً سُمِعتْ حركةٌ داخل المَبنى وسَرَتْ همهمةٌ بين الجموع. فُتِح الباب ببطء وظَهَرَ شامل على العَتَبة شاحباً ومُتعَباً محمرَّ العينين من شدة البكاء. رافَقَه اثنان من مريديه وصَعَد ببطءٍ إلى سطح المسجد. أمرَ بإحضار أمّه إليه وكانت ترتدي شالاً أبيضاً يقودُها اثنان من الأتباع. تقدَّمتْ نحو ابنها بخطوات بطيئة مترددة. نظَرَ إليها وتأمَلَها عدة دقائق دون أن يَنطق بِحَرف. ثم رفَعَ عَينيه إلى السماء وأعلَن: يا رسولَ الله العظيم محمد! أوامركَ مقدَّسة ولا تقبلُ التَّحريف! فلينفذ حكمكَ العادل ليكون مثالاً لجميع المؤمنين"[147].

ثم أمر أحد أتباعه بجَلدِ والدته مئة جلدة، ولا بد أن ذلك قد فاجَأ الحشدَ لأن مثل تلك العقوبة يمكن أن تقتلها. بعد خمس جلدات أشار شاملُ للرجل أن يوقِفَ العقاب، ولا بد أن ذلك بَعَثَ شيئاً من

الارتياح لدى الجمهور، ولكن شامل قال إنه سيتلقى بقية الجَلدات بنفسه وطَلَبَ من الرجل أن يتابِعها. لا بد أن إخلاصَه وإعلانَ حكم الله قد كان لهما تأثير حاسم في وقف التمرد أكثر من أي تصرف آخر يمكن أن يتَّخذه. وكما كتَبَ بادلي "هكذا كان هؤلاء الناس الذين تمكَّنوا من مقارعة قوة روسيا أكثر من نصف قرن وهزَموا جيوشها وهاجَموا معسكراتها وسَخِروا من ثروتها ومجدِها وأعدادها وعدَّتها دون أن يكون لديهم أي دعم خارجي وبلا مَدافع سوى ما استولوا عليه من عدوِّهم ودون أن يَثِقوا بأحدٍ إلا بالله ورسوله وبأيديهم وسيوفهم"[148].

كتَبَ ليو تولستوي في روايته الخيالية "حاجي مراد" عن ذلك الصراع الذي شاركَ فيه أثناء شبابه في الحملة ضد شامل يصِفُ الصراعَ باستعارةٍ ساحرة حين يضَعُ الراوي الروسي في محاولةٍ لنَزعِ شوكةٍ مُلَونَة:

"كانت الشوكَةُ التي تُسَمَّى محلياً "التتار" ذات جذور قوية، وظَهَرَ أن نزعَها كان مهمة صعبة جداً، لأن ساقَها كانت ذات أشواك واخزة في كل الاتجاهات رغم المنديل الذي لففتُه حول يدي، وكانت قوية أيضاً بحيث أنني اضطررتُ لمناجزتها خمس دقائق كاملة لتحطيم أليافها واحداً تلو الآخر، وعندما تمكنتُ في النهاية من نزعِها كانت ساقَها قد تفتَّتْ ولم تَعد زهرتها غضَّة وجميلة. كما أنها بسبب خشونتها وصلابتها لم تَظهَر مناسِبةً في مكانها بين الزهور الناعمة في باقَتي الصغيرة. رميتُها بعيداً وأنا أشعر بالأسف لأنني شوَّهتُ زهرةً كانت تبدو جميلة في مكانها الصحيح. ولكن يالها من حيوية وقوة، وكم دافعَتْ عن نفسها بصلابة، وكم كان ثمن حياتها غالياً!"[149].

احتاجتْ شوكةُ تولستوي إلى خمس دقائق من الألم، ولكن الحربَ الحقيقية استغرقَتْ عقوداً من الزمن. كانت عمليةً مدمِّرة، وكان محتماً فيها أن يخسَر الجنوبُ ولكن "كم كان ثمَنُ حياتها غالياً!" بعد عقودٍ من المقاومة وقَفَ شامل مذعناً عند قدمي القيصر.

خسر المؤمنون. كان توظيفه للدين قوياً ولكنه لم يستطع أن يوقِف جحافل الامدادات التي لا تنضب من أقنان الجنود. يعتَقدُ بعضهم، بمن فيهم شامل نفسه، أن النضال الذي قام به على فترة طويلة وبكل تلك الضحايا "جَعَلَ من الأسهل للغزاة أن يحافظوا في فترة السلم على ما كسبوه بكثير من التكاليف في فترة الحرب، وذلك لأنه علَّم القبائل إلى حدٍ ما على عادة الطاعة والانضباط والقتال معاً في سبيل هدف واحد، وثَبَّطَ إلى حدٍ كبير من صراعاتهم مع بعضهم بعضاً. وعلى الرغم مما في ذلك من تناقض فإن المُريدية على المدى البعيد كانت أداة السيطرة للهيمنة الروسية"[150].

لم تكن أدوات الامبراطورية هي الأسلحة فقط، فقد كان لدى الشمال العالمي الكثير ليقدمه إلى الجنوب. كان أبناء شامل مثل أولاد قادة الثورات في كافة أرجاء العالَم الإسلامي فَرِحين بالانضمام إلى عالَمٍ أكثر ثراء[151]. لم يكن نضال الأب الذي بدا رومانسياً إلى حد كبير بالنسبة للقارئ الأوروبي مقبولاً ولا مريحاً لأبنائه. كانوا يُقدِّرونه، ولكنهم اختاروا ألا يتبعوا الطريق الخطرة المؤلمة التي سار فيها. أخَذَ مكانه إلى جانب عمر المختار الليبي وعبد القادر الجزائري

وعبد الكريم الخطابي. وربما على مر الزمن ستنظُرُ الأجيال القادمة بتعاطفٍ ورومانسية مماثلة إلى مَن نعتَبرهم قادةَ الإرهاب في أيامنا.

ولكن بالنسبة إلى شعب الجنوب فإن مرور الأيام ليس إلا بَلسَماً عابراً مؤقتاً. بينما كان أوائل أولادُ الثوار سعداء بالتَّخلي عن القتال العنيف واللجوء إلى حياة أكثر راحة ورغداً، وحتى بعض أولئك الذين شارَكوا بالفعل في القتال أثناء شبابهم كانوا سعداء بالاستقرار في أواخر حياتهم لقَطفِ ثمار نجاحاتهم. إلا أن الأحفاد أو الأجيال التالية استرجَعوا حَميَّة أسلافهم، وهكذا استَعَرت النيران التي أطفأها الروس في القوقاز من جديد في أيامنا، وحارَب الشيشان مرةً أخرى سنة 1990 في سبيل الاستقلال، واستمرتْ حربُهم هذه ست سنوات. فالتاريخ سلسلةٌ لم تنقطع عند زمنٍ ما في الماضي. تتغيّر الأسماء والتواريخ ولكن النَّهج الذي امتَّد في القوقاز قرابة قرنين من الزمن يتكرر مرات متتالية.

الفصل العاشر

مصرفيون على ظهور الجياد

لم تكن العلاقات بين الشمال والجنوب عسكرية دائماً، على الرغم من أنه كان واضحاً للطرفين أن اللجوء إلى السلاح كان اختياراً دائماً. كما رأينا فإن البريطانيين بالذات قاموا بجهدٍ مستمر لتأكيد السيطرة في التجارة. في سنة 1836 كلَّفوا الدكتور جون بورينغ Dr. John Bowring بإجراء سلسلةٍ من الدراسات عن اقتصاديات الجنوب لمعرفة ما الذي يمكنهم بَيعه، وما هي الأسواق التي تبدو واعدة، وما هي العقبات التي تقفُ في طريقهم[152]. حتى قَبلَ أن تُنشَر النتائج سنة 1839 أَصدَرت الحكومة البريطانية قانوناً تجارياً أُجبِر السلطانُ على قَبوله وفُتِحتْ أسواقُ الامبراطورية العثمانية أمام التجارة الحرة[153]. كانت الصناعة المحلية بدائيةً وضعيفةَ التمويل ولم تنجَح بالحصول على مصادر للمواد الأولية والطاقة اللازمة فتم اجتياحها بالمُستَوردات فوراً، خاصة تلك القادمة من انكلترا وفرنسا. توصَّل محمد علي إلى درجةٍ عالية من الاستقلال داخل الامبراطورية لم تَعتَرف بها بريطانيا وفرنسا، ورَفَضَ إلى حد ما الموافقةَ على ذلك القانون لأنه فَهِمَ بشكل صحيح أنه سيدمِّر الصناعة المصرية ويَحرمها تجارتها الوطنية[154].

وجَدَ بورينغ أن الشرق الأوسط كان متخلفاً، وخاصة المسلمون فيه، وأنه لم يستطع "جَمْعَ رأس المال و... أن يمارس الفنون بشكل متقدم... وأن جميع العَمالة المنتِجة... وجميع رأس المال المُستثمَر يُنظَر إليه كأمرٍ سيئ وثانوي"[155]. كانت هذه الأمور من وجهة النظر الأوروبية آنذاك، السلوك والفشل وعدم الكفاءة والتخلف ومعارضة اختراق البضائع الأوروبية للأسواق المحلية... بمثابة جرائم حقيقية تُبَرِّرُ الاستعمار[156].

قدَّمَت الأمبرياليةُ الاقتصادية اقتراحاً بسيطاً: على السكان المستعمَرين أن يُنتِجوا مواد أولية للصناعة الأوروبية. كانت تلك هي السياسة التي فرضَتْها بريطانيا على المستَعمرات الأمريكية والتي أدّت إلى الغضب الذي قادَ إلى الثورة. في أمريكا سَمَحَ البريطانيون للمستَوطنين بتحويل الحديد الخام إلى حديد السَّكب لشحنه إلى انكلترا، ولكنهم مَنعوهم من انتاج الفولاذ لئلا يَصنعوا فؤوساً أو مَعاول جيدة[157]. مُنِعَتْ مصانع النسيج في مصر والهند من انتاج الأقمشة بشكل تام. أفلَسَ

الحرفيون ولكن المزارعين استمروا بانتاج القطن الخام لتصديره إلى انكلترا حيث يتم تصنيعه إلى أقمشةٍ قطنية في بيرمنغهام أو مانشستر.

أراد الأوروبيون وخاصة الانكليز أن يشتروا المواد الأولية ويبيعوا المنتجات الصناعية. لم يريدوا للهند أو لمصر اللتين كانتا تُنتِجان كميات مهمة من البضائع المُصنَّعَة أن ينافسوا صناعَتَهم المزدَهرة. ولكنهم كانوا يحتاجون إلى القطن الخام لتَغذية مصانعهم. وفي سنة 1831 بدأ محمد علي في مصر بانتاجه على نطاق واسع، وكانت نوعية القطن الذي أُنتِج في مصر مفيدة جداً في صُنع الأقمشة وطلبته مصانع انكلترا بتعطّش وحَماس. ومن وجهة نظر الانكليز كانت تلك صفقة مناسبة: يقوم الجنوب العالمي بالعمل الزراعي بينما يمارِس الشمال العالمي الانتاج الصناعي.

ولكن كان هناك مشكلتان في هذا الحوار: الأولى هي أن الجنوب ظلَّ فقيراً نسبياً لأنه لم يستطع أن يضيفَ قيمةً إلى انتاجه الزراعي، والثانية هي أنه لم يستطع استهلاكَ ما كان يُنتِجه. كانت محاصيله مخصصةً للتصدير فأصبح بذلك مرتبطاً بالسوق العالَمية، وفي منتصف القرن كان مُعلَّقاً في سوقٍ مالية دوّارة. أدى اندلاعُ حرب القِرم في 1853 إلى ارتفاع الأسعار وتَحفيز الانتاج، ولكن عودة السلام في 1856 أدَّتْ إلى انهيار الأسعار حوالي 50%، وبعدَها بحوالي أربع سنوات في 1860 كانت الولايات المتحدة تُنتِج أكثر من 80% من القطن المُستخدَم في الصناعة الأوروبية، ولكن بدء الحرب الأهلية وتطبيق الحصار على الولايات الجنوبية التي كانت تُنتِج القطن أدى لحدوث أزمةٍ في مصانع الأقمشة الانكليزية، وارتفعت مشترياتُ بريطانيا من القطن المصري من ثمانية ملايين إلى اثنين وعشرين مليوناً في الفترة من 1861 إلى 1865. بعد هزيمة اتحاد الجنوبيين في أمريكا انهارَتْ الأسعار وأفلَسَ كثير من المستَثمرين المصريين.

انعكَسَتْ أحداثُ الزراعة المصرية على مالِيتها. كان أكبر مشروع في منتصف القرن التاسع عشر هو حفر قناة السويس. حسب تقنيات تلك الفترة كان حَفرُ ونَقلُ ملايين الأطنان من الرمل والتراب والصخور بالمَعاول والمجرفات يتطلَّبُ عشرات الآلاف من العمال الفلاحين الذين حَمَلوها بعيداً في أكياسٍ ودِلاء على أكتافهم وعلى عرباتِ الحمير. كان مقياس المشروع متناسباً مع أرض الأهرامات، وبالفعل لم يُنجَز عملٌ بمثل تلك الضخامة منذ بناء الأهرامات. وكما وصَفَهُ الجميع آنذاك: كان رمزاً لتقدم الحضارة. لم يُدرِك كثيرٌ أنه كان أيضاً بدايةَ الغَزو الصامِت مِنَ الشمال للعالَم الإسلامي. سارَ الغزاةُ تحت راية التَّمويل المُفتَرِس.

لم تكن القناةُ فكرةً جديدة فقد وجِدَتْ قناةٌ أقصَرَ منها في قديم الزمان، ولكن توقَّفَ استخدامها منذ زمن طويل واحتَفَظَ الأوروبيون بذكراها. قامَ نابليون أثناء احتلاله لمصر بالسَّير راكباً الحصان على طول ما اعتَقَدَ أنه مسَارَها، وربما لو بقي في مصر لقام بإعادة ترميمها. كان ذلك كافياً لإثارة قلق الحكومة البريطانية، فقد خشيت أن افتتاح طريقٍ تجارية أسرع وأكثر كفاءة نحو الهند يمكن أن يُهدِّدَ امبراطوريتها الشرقية الناشئة. ولذلك عندما اقتَرَبت الفكرة من التنفيذ في منتصف القرن التاسع عشر حاوَلَ البريطانيون إيقافها، وكانوا قلقين بشكل خاص لأن الذي قدَّمَ المشروعَ كان رجلاً فرنسياً هو فرديناند ديلسبس Ferdinand de Lesseps.

كان ديلسبس يَعرف مصر أغلب حياته وحلمَ طويلاً بحفر القناة. ولِد في فرنسا سنة 1805 وهي السنة ذاتها التي أمسَكَ فيها محمد علي بالسلطة في مصر. كان لديه اتصالاتٍ جيدة في فرنسا بعد الثورة الفرنسية، وعمل في السلك الدبلوماسي دون نجاحٍ يُذكَر، ولكن عمله وضَعَهُ بِصِلَةٍ مع أسرة محمد علي في مصر، بينما وصَلَتْهُ أسرتُهُ بنابليون الثالث الذي كان يحكم فرنسا. تم وضْعُهُ في الحَجز الصحي بضعة أيام عندما استَلَمَ منصبه في الاسكندرية سنة 1832. وأنا أعلَمُ من تجربتي الخاصة أن ذلك قد يَدفعُ إلى المَلل والسَّأم ومن المؤكَّد أنه شَعر بالملل بينما كان محتَجَزاً. أُعطِي ديلسبس كتاباً لتَمضية الوقت وهو مذكَّراتٍ كتَبَها جاك ماري لوبيون Jacques Marie Le Pèone الذي كان مهندساً في المعهد المصري الذي أسسه نابليون، وفيه الموضوع الذي فَتَنَ نابليون: ترميم أو إنشاء قناةٍ تَصِلُ البحرَ الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط وتفتَحُ الطريقَ إلى الهند. افتُتِن ديلسبس بذلك مثلما حدَثَ لنابليون ورأى مجدَ مصر القديم عبر حِجابِ فَقرِها الحالي. بحَثَ في ذلك المشروع سنوات واستشار فيه وخطَّط له، وبعدها باثنتين وعشرين سنة عاد إلى مصر في 1854.

كان أول شيء فَعَلَهُ هو استعادة تواصله مع الحفيد الرابع لمحمد علي الذي كان قد تَعرَّف عليه خلال زيارته السابقة. كان ذلك الحفيد سعيد باشا قد أصبَح حاكم مصر الفعلي آنذاك. هبَطَ عليه ديلسبس وكأنه متيمٌ مَحِبٌّ وكان يَذهَب إلى القصر نهاراً وليلاً حتى تمكَّنَ في النهاية من وضع حلمِه أمام الحاكم المصري الذي كان أصغر منه سناً بكثير. وفي نوبةٍ رائعةٍ من المودة والحماس أعطاه سعيدُ الأذنَ بإنشاء القناة. كان عملاً سيُعيدُ تشكيلَ مصر بل وكلَّ مَسار الاستعمار والأمبريالية في القرن التالي.

كان ديلسبس مُصِرّاً على جعل حلمه حقيقةً واقعة، وانطلَقَ لتحقيقه بدهاءٍ لافِت وصبر ومثابرة ومهارة.

استطاع أولاً إقناع المصريين بتوجيه اثنين من العامِلين الأجانب، وكانا من المهندسين الفرنسيين المقيمين، لإجراء الدراسة وإصدار الخطة المَبدئية للقناة. وعندما حصَلَ على ذلك تمكَّن ديلسبس من إقناع سعيد باشا أن تَلتَزم مصر بتقديم العناصر الرئيسية للمشروع وهي الجزء الأكبر من التمويل الذي يمكن أن يُقنِعَ مستثمِرين آخرين بأن المشروع حقيقي وجَدّيّ، وكذلك تقديم العمل المَجاني تقريباً لحوالي عشرين ألفاً من العمال المصريين الذين يتم تَجنيدهم إجبارياً. وعندما ضَمِنَ ذلك أيضاً، أسس الشركة العالمية لقناة السويس البحرية وبدأ بجَمعِ تمويلٍ إضافي من الأوروبيين، وخاصة من المستثمِرين الفرنسيين[158].

قدَّم للمستثمِرين الأوروبيين منجماً من الذهب يتم الحفر فيه مجاناً ويُقدِّم المالِكُ أغلب احتياجاته الرئيسية. وحتى في عصر بارونات السرقة من أمثال عائلات مورجان غوغنهايم وروكفلر وروتشيلد فإن التنازلات المعروضة ظَهَرتْ وكأنها دعوةٌ لما يشبه السرقة. بَدَت الشروط وكأنها النقيض لتَنازلات البترول التي أُعطِيتْ فيما بعد لبريطانيا وفرنسا. كان ديلسبس مبادِراً شديداً وصَبوراً وذكياً. واستخدَم علاقته بسعيد باشا دون خجلٍ لكي يحقق طموحه.

اشترى سعيد باشا أكثر من نصف أسهم الشركة إما لنفسه شخصياً أو باسم مصر (التي كان يَعتبرها مشارِكَةً له في جيبه)، ولكن الأسهم التي اشتراها كانت محدودة، وكانت الأرباح التي سيَحصَل عليها لا تزيد عن 15% من الأرباح الصافية.

كان الاتفاق مجحِفاً وغير أخلاقي بشكلٍ فاضح بحيث أن الحاكم الجديد لمصر سنة 1863 رفَضَ الالتزامَ به. طلَبَ اسماعيل باشا من الحكومة الفرنسية التي كان يرأسها نابليون الثالث آنذاك بالتحكيم. كان ذلك اختياراً سيئاً لأن نابليون الثالث لم يكن محايداً وأَجبَر حاكمَ مصر على أن يَدفَعَ إلى ديلسبس حوالي أربعة ملايين جنيه استرليني وكان ذلك مبلغاً هائلاً في تلك الأيام، ويعادِل حوالي البليون بمقياس القوة الشرائية هذه الأيام. ودفعتْ مصر.

كتَبَ المؤرخُ الاقتصادي ديفيد لاندز David Landes أنه عندما احتاجَت الشركة إلى ضَخِّ سيولةٍ جديدة، نَهَبَ ديلسبسُ الماليةَ المصرية "مبالغ غير معروفة... للتعويضات والمطالبات المُخادِعة والأسعار المرتفعة للمتعهدين والمتعاقدين وكل طرق الرشوة التي رُصِدَتْ لشراء الذِّمم الرخيصة أو ببساطة للتهرب من الإزعاجات"[159]. وحتى تلك الأعمال لم تكن كافية كما بيَّن لاندز فقد أَجبَر ديلسبس الحكومةَ المصرية، بالاعتماد على الضغط الدبلوماسي الفرنسي والرشوة، على شراء:

"نفايات كاملة من سقط المَتاع الذي لم يكن ذا نفعٍ للشركة أو لم يكن مُلكَها أصلاً. في يوليو 1869 باعَتْ شركةُ القناة للحكومة المصرية الثكنات والمستشفيات وغيرها من المنشآت التي بُنيَتْ خلال فترةِ الإنشاء ولم تعد لازمة: مَقلَعُ حجرٍ سُمِحَ للشركة باستخدامه لغَرَض بناءِ وصيانة المَمر المائي... و"حقوق" الغواصين المفترَضة... دَفعَت الحكومةُ المصرية 30 مليون فرنك فرنسي ثمَناً لهذه الصفقة، وبما أنها لم تملك السيولة النقدية فقد تَخلَّتْ عن حقوقها بفوائد وأرباح حصَّتها في الشركة لمدة خمس وعشرين سنة. وبالمقابل فقد أَصدرَ ديلسبس 120000 سندَ تنازلٍ لتغطية المفقودات بحيث كان مجموع ما حصَلَتْ عليه الشركة في هذه العملية حوالي 60 مليون، بينما يحصل مالكو السندات على حوالي 110 ملايين فرنك من الفوائد وحدها خلال تلك الفترة. وكأنما كل ذلك لم يكن كافياً فقد وافقَت الحكومة المصرية أيضاً على المشاركة مع الشركة بعائدات البيوع المستقبَلية للأراضي المُستصلَحة على طول القناة على الرغم من أن قضاء الامبراطور (نابليون الثالث) كان قد مَنعَ الشركةَ حصرياً من الحصول على أية أرباح من هذا المصدر"[160].

عانى اسماعيل باشا من أن حكم سلالته كان متطَفلاً على مصر. من الواضح أن والده وإخوته كان هدفهم الأول هو تَثبيتُ حكمهم، ولن يتمكَّنوا من تحقيق ذلك إلا إذا تم الاعتراف باستقلال مصر عن الامبراطورية العثمانية. فقاموا بتهديد وتَمَلق ورشوة السلطان العثماني لكي يَعترف بأن مصر دولة مستقلة، ولكنهم فَشلوا في ذلك لأن الحكومة البريطانية كانت قد قرَّرتْ دعم الامبراطورية العثمانية لكي تقف أمام اختراق الروس إلى البحر الأبيض المتوسط، واعتقدتْ أن مصر يجب أن تبقى في الامبراطورية لكي تدعَم سياستها هذه. أنفَقَ محمد علي وخلفاؤه كثيراً من الأموال للوصول إلى هدفهم، وانهمَكَ اسماعيلُ في برنامجِ علاقاتٍ عامة باهظ التكاليف لكي يؤكد

على استقلال مصر، وأنفَقَ كثيراً من الأموال في حفل افتتاح قناة السويس سنة 1869، وأقام مهرجاناً دعا إليه ملوكَ أوروبا وبَنَى قصوراً مخصَّصة لإقامتهم وكلَّفَ (الموسيقار الإيطالي) فردي Verdi بكتابة ملحَمةٍ وطنية مصرية، ونُدِيُن نحن لذلك بحصولنا على أوبرا عايدة.

لم يكن لديه صعوبةٌ في اقتراض الأموال اللازمة لكل ذلك وغيرها من المهمات، فقد تقاطَرَت بنوكُ أوروبا لتمويل رغباته[161]. حوصِرَ اسماعيل بأصحاب البنوك فأخَذَ يتعاقد على قروضٍ أكبر. عندما استلَمَ الباشوية كان دَين مصر الخارجي 3.3 مليون جنيه استرليني، وارتفع تحت حكم اسماعيل إلى 94 مليون جنيه استرليني. منَحَ هذا الدَين الكبير المفتوح الأوروبيين سبباً للتدَخل. لا شك بأن كثيراً من القروض ذهَبَ هَدراً ولكن بريطانيا وفرنسا صَنَعَتا الشبكَةَ التي كان على الحكومة المصرية أن تعمل داخلها: فقد سَمَحَتَا بل وشَجَّعتا عملياتِ النصب والتزوير وفرضَتا على مصر أن تظَلَّ في علاقةٍ مسرفة وغير مفيدة مع الامبراطورية العثمانية. والأسوأ من ذلك هو أنه فور نجاح ديلسبس في إقناع سعيد باشا بمشروع القناة، الذي كان مشروعاً لا تحتاج إليه مصر ولا تستطيع تمويله، حتى تحمَسّوا لإجبار مصر على دفع ديونِها التي كانت زائفةً إلى حد ما. أمسَكَت القوى الأمبريالية بخناق مصر. وكما ذَكَرَ سيمور كاي J. Seymour Keay الصحفي المحقِّق المَعاصَر لتلك الأحداث أن حوالي نصف الدَّين فقط قد "تم استلامه فعلياً" وكان معدَّل الفائدة على بعض القروض أكثر من 26%[162]. كانت القيمة الإسمية لأحد القروض تسعة ملايين جنيه استرليني وأُعطِيَ بشكل سنداتٍ مالية متَعثِّرة لا قيمة لها.

ربما يمكن تلخيص مستوى الممارسة القاسية في صفقةٍ تم إجراؤها سنة 1865 بقيمة ثلاثة ملايين جنيه استرليني: استَلَمَ المصريون 2.2 مليون جنيه، وانتهوا بدَينٍ قيمته 4.1 مليون جنيهاً، بالإضافة إلى رسومٍ وغَرامات.

على الرغم من سوء تعامل البنوك وسذاجة المصريين واتّهام البريطانيين بأن أغلب الأموال قد تمّ تبذيرها، فإن اسماعيل باشا الحاكم المصري الذي وَرِثَ إخفاقات سعيد باشا وسوء تعامل البنوك قد تمكَّن من إنجاز ثمانية آلاف ميل من قنوات الريّ، وتسعمئة ميل من خطوط السكك الحديدية، وخمسة آلاف ميلاً من خطوط التليغراف، وأربعمئة وثلاثين جسراً، ومِيناءَ الاسكندرية، واستَصلَحَ أكثر من مليون فداناً من الأراضي الزراعية. يمكن أن يقال بإنصاف إنه بَنَى مصر التي احتَلَتْها بريطانيا.

لم تتأخر نتائج الهجوم المالي كثيراً، فقد اضطر المصريون لبيع حصصهم في القناة إلى الحكومة البريطانية بسعرِ تصفيةٍ زهيد بلَغَ أربعة ملايين جنيه استرليني. وبعدها بسنتين في 1875 تم تخصيص ثلثي الدَّخل المصري لخدمة الديون الأجنبية، ولم يحلَّ بيعُ الحصص الأزمةَ المالية، ولذا فقد وضِعَتْ مصر وكأنها شركة تجارية تحت الحراسة لصالح دائنيها الأوروبيين وحكوماتهم. وأخيراً في سنة 1879 غيَّرتْ بريطانيا نظام الحكم في مصر وخَلَعَتْ اسماعيل عن عرشه المَهزوز. اختاروا حاكماً بديلاً ضعيفاً لكي ينفذ أوامر المصرفيين. وكانت أوامرهم تقضي بإنشاء لجنة تصفية وطنية تسيطِر على الاقتصاد المصري.

أَمَرَتْ لجنة التصفية الوطنية بإجراء تخفيضات مختلفة في الميزانية المصرية بما فيها تخفيضُ رواتب ضباط الجيش المصري. أدى ذلك التصرف إلى حدوث تمرد بين الضباط كان قائده أحمد عرابي (الذي يسميه من لا يعرفون العربية عرابي باشا) وكان أول مصري يَصِلُ إلى رتبةٍ عسكرية عالية.

لم يكن عرابي رجلاً عظيماً على مستوى قادة النضال الوطني الآخرين الذين سأقدمُهم في الفصول التالية، ولكن تمرده رَوَّعَ الحاكم وأصحاب البنوك والحكومات الأوروبية لدرجة أنهم أرسَلوا سفنهم الحربية لقصف الاسكندرية. وقَفَ الفرنسيون على الهامش بينما قامَ البريطانيون بإنزال قواتهم التي هَزمَت المصريين في معركة التَّل الكبير، ثم سيطَروا على الدولة وفرَضوا حكومةً جعلَتْ مصر مستعمَرةً في الواقع وإن لم يكن بالاسم. استَمروا في حكمها اثنتان وثلاثون سنة من خلال مسؤولٍ بريطاني لقبه "القنصل العام". كان سبب هذه الحيلة هو خوفهم من أنّ إعلانَ مصر مستعمرةً بريطانية وفَصلها عن الامبراطورية العثمانية (مثلما فَعَلوا سنة 1914) سيعطي روسيا ذريعةً لاستكمال احتلالها للامبراطورية العثمانية.

كان القنصل العام الذي حكم مصر من 1882 حتى 1907 الذي أصبح فيما بعد اللورد كرومر Lord Cromer وهو من عائلة بارينغز Barings وهم من المصرفيين الانكليز، وكان من الطبيعي أن يُنَفِّذَ المهمة الرئيسية لحكومته وهي ردُّ الديون إلى البنوك الأوروبية. لم تهمه نتائج هذه السياسة على الشعب المصري، بل كان جلّ همِّه أن الإدارة البريطانية كانت شريفة وقديرة واقتصادية، وهي الصفات التي جَعلتْ ردّ الديون ممكناً.

لم يكن مشروع قناة السويس مفيداً لمصر، بل بُنِيَ لمصلحة الأجانب على حساب مصر. كان مقدَّراً له أن يصبح مِحور استراتيجيةِ القوى الأوروبية في القرن التالي. كما أَطلَقَ حملةَ تشويه سمعة مصر وأسس نمَطاً من السلوك: المسؤولُ الانكليزي الذي ظَهَرَ كحاكمٍ لمصر وهو إيفلين بارينغ Evelyn Baring الذي يَعرفه التاريخ باسم اللورد كرومر، وكان في حقيقته "مصرفيٌ على ظَهرِ حِصان".

ما حدَثَ في مصر سارَ متوازياً مع ما حدَثَ في الامبراطورية العثمانية التي اقتَرَضَتْ من البنوك الأوروبية في الفترة 1854-1875 ما قيمته تسعمئة مليون دولار، لم تستَلم منها بالفعل سوى حوالي الثلثين، وكان عليها أن تردَّ أكثرَ بكثيرٍ من قيمتها الأصلية مع إضافة الفوائد التي كانت أكثر من أربعة أو خمسة أضعاف الفائدة المَعمولِ بها في الدّيون السّيادية آنذاك. كان من الممكن أن يُفرَضَ نمطٌ مماثل لذلك على الهند من جهة البريطانيين، وعلى الجزائر من جهة الفرنسيين، إلا أنه في هاتين الدولتين تم اللجوء إلى خطوة مباشرة أسرعَ وأقصَر تلخَّصَتْ في إفلاس هاتين الدولتين وأن تحتلَّهما القوى الأمبريالية ببساطة وبشكل كامل. وكان ذلك ما فَعَلَهُ الصينيون والروس في آسيا الوسطى أيضاً. المصرفيون على ظهور الجياد لم يكونوا سوى بعض فرسان الأمبريالية.

الفصل الحادي عشر

المَهدية السودانية والاحتلال البريطاني

في بداية القرن السادس عشر تحوَّلَتْ سلطَنةُ الفونج في شمال السودان إلى الإسلام وبدأت باستخدام اللغة العربية. كانت السلطنةُ دولةً عسكرية بسلاح فرسانٍ مُحتَرف تمّ تنظيمه وتجهيزه بما يشبه قوةً أوروبية اقطاعية في العصور الوسطى. كان أغلب الجنود من الرقيق السود الذين تم تجنيدهم وتدريبهم على نمط المماليك في مصر. احتفظَت السلطنة باستقلالها بفضل قوتها العسكرية والوحدة التي استَمَدَّتها من ممارسة الإسلام، واستمر ذلك حتى بداية القرن التاسع عشر. شجَّعت نظامَ تعليم ديني متشدد حسبما وصَفَهُ الرَّحالة الكبير جون لويس بوركهارت John Lewis Burckhart [163]. أدهَشَه وجود ما يشبه جامعةً لدراسة الشريعة الإسلامية في مدينةٍ صغيرة مثل مدينة الدَّامر على نهر النيل. كان التَّعليم في العالَم الإسلامي مرتبطاً دائماً بالإسلام، وكان الإسلام في الوقت نفسه مستمراً بفضل المؤسسات التعليمية، ولذا كما سأبينُ فيما بعد، فإن الطلاب، الذين يُعرَفون في اللغة العربية وفي اللغات التي تأثَّرتْ بها باسم: "طالبان"، كانوا هم الذين غذّوا التمرد في أفغانستان. وهكذا كان الحال في السودان أيضاً. كان الكفاح في سبيل الاستقلال صراعاً دينياً، وبدأ كَرَدِّ فعلٍ ضد حملة استرقاق.

في سنة 1820 قرَّر محمد علي باشا حاكم مصر الألباني أن يُسيطِر على سوق الرقيق في أفريقيا واجتاحَ الدولة، وبعد أن قَهَرَ مماليكه أراد الحصول على مجموعةٍ جديدة من الرقيق لكي يَخدِموا في جيشه. فعَلَ محمد علي بجيش سلطنة الفونج البدائي ما فَعَلَهُ نابليون بجيش المماليك في مصر. وعلى الرغم من أن جيشَه كان في طور التأسيس والتنظيم على النمط الأوروبي، إلا أنه تمكَّنَ بسهولة من التغلب على محاربي الفونج الذين حَمَلوا سيوفاً خشبية ودروعاً من جلود الحيوانات وارتدوا ملابس بسيطة. شابَهَت المعركةُ حروبَ الهنود الحمر في أمريكا، ولكن بينما قرَّرَ سلاحُ الفرسان الأمريكي القضاءَ على السكان الأصليين، كان لمحمد علي هدفٌ آخر. أراد المحافظة على حياة السودانيين لكي يَعمَلوا كجنودٍ في جيشه الجديد. وهكذا تحَولَت الحملةُ العسكرية بسرعة إلى اصطياد العبيد. ومِثْلَ المستعمِرين في كل مكان فقد وجَدَ محمد علي أن تشكيل جيشٍ من السكان الأصليين، حتى لو كانوا جيشاً من رقيق الفونج، هو أقل تكلفة من استيراد القوات. وهكذا صَنَعَ قوةً عسكرية محلية، مثلما فَعَلَ الحكام الأوروبيون في الهند وجافا ومراكش وغيرها من الأماكن، وأطلَقَ عليها اسم "الجهادية".

تَمثِّلُ سيرةُ محمد علي فترةً انتقالية في الأمبريالية، فعلى الرغم من أنه كان مسلماً مثل رعاياه فقد كان أوروبياً، ووجَدَ الإلهامَ في كلا المَصدَرين. حاوَلَ أن يقلِّد المستعمرين الأجانب مثلما فَعَلَ مَن جاء بعده من القادة المحليين العمليين الطامحين وذلك لأنه شاهد نجاحهم. وبالفعل فقد كاد أن يُقتَلَ على يد جنود نابليون. ولذلك بعد أن سيطَر على مصر في 1805 بعدما انسحبَ الفرنسيون والبريطانيون، حاوَلَ أن يُقلِّدَ الأعمالَ التي تَصَوَّرَ أنها كانت وراء قوة الأوروبيين، فارتَدى جنودُه الملابسَ الرسمية الأوروبية وطَلَب تعليمَهم التدريبات الأوروبية ومَنَحَهم أسلحةً أوروبية. لم يكن يريد تحرير مصر، إذ أنه لم يكن وطنياً ولا متعاطفاً مع المصريين. كل ما أراده هو استخدامَهم لصالح عَظَمَتِه وسلامَته الشخصية. شاهَدَ بنفسه أنَّ مَنْ ليس لديهم القوة سرعان ما يكون مصيرهم القَتل. ولذا فقد بَنَى جيشَه وبدأ بتطوير الاقتصاد الذي يدعمه، فقادَتْهُ هذه الاحتياجات إلى السودان. وفي النتيجة كانت السياسة التي طَبَّقَها في السودان مستَنبَطَةً من الأمبريالية الأوروبية.

ما حاوَلَ محمد علي أن يفعله في السودان كان يشابه ما بَدأه نابليون في مصر قبلَ ذلك بحوالي عشرين سنة: أراد تطوير السودان إلى مستعمَرةٍ حديثة مَركزية مُربِحة. كان يأمل أن يستَخدَم السودان لحراسة مَصادر ماء النيل التي تَعتَمد عليها مصر، وربما يتخذها قاعدةً لغزو أثيوبيا المسيحية الغَنية بالمياه. لم تنجَح سياساته في المناطق الأفريقية والآسيوية من الامبراطورية العثمانية، لأن القوى الأوروبية وبنوكها أبطَلَتْ محاولاته للتطوير والتحديث[164]. لم يَسمَحوا لأي دولة من دول الجنوب العالَمي أن تنافِسَ في سوق الامبريالية.

في عهد اسماعيل، حفيد محمد علي، بدأ المصريون حملةً جديدة في أعالي النيل في 1860-1870، ولكن اسماعيل أضاف تغييراً إلى برنامج محمد علي: قرَّرَ أن يوقِفَ تجارة الرقيق. ولا يُعرَفُ سببُ ذلك التغيير. ربما لأنه بعد أن استَوعب طُموحَ جَدِّهِ في تقليد الأوروبيين عسكرياً، أراد أن يمضي خطوة أخرى ويَتبَنى القيمَ الأوروبية. كان إلغاءُ الرّقّ قد أصبَح غايةً شعبية، وربما تصَوَّر أنه سيربح تأييدَ الأوروبيين إذا فَعَلَ ذلك. مهما تكن دوافعه فقد أدركَ سريعاً أنه لا يملكُ الوسائل. كان يعلَم أنه لا يستطيع الاعتمادَ على موظَّفيهِ الفاسدين ولا على زعماء القبائل السودانيين الجَشعين. ومن الغريب المتَناقِض أنه تَبنَّى الأمبريالية الأوروبية لكي يَمنعَ الرّق. ظَنَّ خطأً أن ما يحتاجه ليس الجنود الأوروبيون بل الإداريين. وهكذا ففي سنة 1873 وظَّفَ خمسة أوروبيين، ثلاثة من انكلترا واثنان من أمريكا، لكي يحتَلَّ ويدير السودان[165]. بعد فترةٍ قصيرة من الاعتماد على واحدٍ من أغرب الأوروبيين الذين زاروا أفريقيا وهو السير صموئيل بيكر Samuel Baker، اعتَمَدَ على رجلٍ انكليزي آخر من الانكليز المُتميزين الذين هَيمَنوا على العالَم الأمبريالي خلال القرن التاسع عشر هو الجنرال تشارلز غوردن Charles Gordon.

ربما لم يعلَم اسماعيل أن غوردن كان من المُتَحمِّسين المُتَعصِّبين للمسيحية وكان يَعتَبر المسلمينَ وثنيين ويُصِرُّ على قَمع عاداتهم[166]. حَكَمَ السودانَ بيدٍ من حديد. وبدأ الغضبُ السوداني يتصاعد ضده وكذلك غضبُ مجموعةِ اسماعيل المتَنوعة المكونة من مصريين وأتراك وأرمن وموظفين لبنانيين وجنود مرتزقة من المَغاربة. منَحَهُ اسماعيل حريةً كاملة في التصرف، ولكن

الخوف أضعَفَ حَميَّة أولئك الغاضبين والمُستائين من تصرفاته التَّبشيرية وهَجماته المُتكررة على مصالحهم الراسِخة، وعندما أَجبَر البريطانيونَ اسماعيل على التَّخلي عن عرشِ مصر واستقال غوردن في سنة 1879، اشتَعلَت النيران في السودان.

بعد سنتين، تقدَّم واحدٌ مِنَ السكان الأصليين الذي نشأ في ظِلِّ كراهية المستعمَرين الأجانب. شاهَدَ محمد أحمد أن غوردن كان يريد تحطيم الإسلام، ولكي يواجِهَ غوردن ورؤساءه المصريين، استَرجَعَ اسطورةً إسلامية وأعلَنَ نفسه أنه "المَهدي"، وهو رجلٌ أرسَلَهُ الله ليُزيلَ المَظالم ويُحقِّق العدل ويُعيدَ الناسَ إلى السنَّة.

كان محمد أحمد صوفياً مِثلَ كثيرٍ من المتمردين خلال القرن التاسع عشر في أفريقيا وآسيا. كان من أتباع الطريقة السَمَّانية التي جاءتْ من منطقة الحجاز وانتشَرتْ في السودان. بينما قام محمد أحمد بتوليف المجالس السَمانية في حركةٍ سياسية أعلَنَ برنامجه للعودة بالإسلام إلى حالته الأصلية وتحرير السودان من الغزاة الأجانب. كان يُعبِّر عما أرادَ معظم السودانيين سماعَه وحَوَّلَ جماعات السودانيين المُتخاصِمة إلى قوةٍ وطنية عسكرية متحمسة وما يشبه نوعاً من الفدائيين السودانيين. أطلَقَ على قوته اسم "الأنصار".

باختيار محمد أحمد هذا الاسم "الأنصار" كان يَمنحُ نفسَه وأتباعَه دوراً تاريخياً، فقد كان الأنصارُ أصحابَ الرسول محمد وأوائلَ مُؤَيديه الذين ساعدُوه في هِجرته من مكة وفي تأسيس أول مجتمع إسلامي في المدينة. وفي موقِفِهِ كقائدٍ لأنصاره، وَضَعَ محمد أحمد نفسَه موضِعَ الرسول. كانت توليفةً قوية في قلب التقاليد الإسلامية، وسرعان ما أصبح قائداً لقوةٍ من ثلاثين إلى أربعين ألف رجلاً. أعلَنَ أنه يستطيع ذلك لأنه كان بمثابة التَّجسيد المعاصِر للمَهدية والعودة إلى الإسلام.

كتَبَ بيتر هولت Peter Holt أن مفهوم المَهدي، وهو الإمامُ الذي يُرشِده الله، وأنه يَعلَم أسرارَ الإيمان والذي يتعلَّقُ ظهورُه بقربِ يوم القيامة، وكان مفهوماً معروفاً للسودانيين قبل أن يُعلِنَ محمد أحمد عن مهمته[167].

المَهدية موضوعٌ متكرر باستمرار في الاسلام اختَرقَ على مدى قرونٍ انقسامات جغرافية وعرقية وكان له تأثيرٌ قوي في أفريقيا وآسيا. ظَهَرَ رجالٌ أعلَنوا أنفسَهم أنهم "المَهدي المُنتَظر" عدة مرات في تاريخ الإسلام، وذُكِروا في الحكايات الشعبية التي يرويها القصاصون عبر الأجيال. يمكن رؤية الموضوع وليس الاسم ذاته في الحركة الثورية التي ظَهرتْ في القرن الثامن التي قادَها أبو مسلم الخراساني ضد الخلافة الأموية كما وصفتُها في الفصل الثالث. وفي القرن العاشر أسس البربري عبد الله المَهدي بالله ما أصبَح بعد ذلك الخلافةَ الفاطمية في القاهرة. اتَّخَذَ لنفسِه لقبَ "المَهدي" سنة 909، وبعد ذلك بثلاثة قرون قام بربري آخر اسمه محمد بن تومرت بتأسيس حركة المُوَحِّدين في منطقة المَغرب العربي وأعلن نفسه "المَهدي" سنة 1212 وأسس سلالةً سيطَرتْ على المَغرب وأجزاء كبيرة من اسبانيا في القرن الثالث عشر. اتَّخَذَ آخرون أقل شهرة لقب "المَهدي" في أماكن أخرى عبر القرون التالية خاصة في أوقات الفوضى والخطر حين قدَّموا تَفسيراً سِرّياً للأحداثِ التي تبدو غير مفهومة وأَعلَنوا رؤيةً للخَلاص.

كتَبَ المُستَشرق ماكدونالد D. B. MacDonald عن المَهدي:

"وجَدَ الإيمانُ بالمَهدي مكاناً له في قلوب المسلمين، ففي غمرة انتشار الظلام والشكوك السياسية والاجتماعية والأخلاقية والعقائدية يتمسَّكون بفكرةِ المُخَلِّص المُصلِح القادم الذي سيُعيد الأمانَ فترةً قصيرة قبل نهاية العالَم. سيُصبِح الناسُ دنيويين تماماً، وسيَتركهم اللهُ لشأنهم، وستُهدَم الكعبة، وستُصبِح صفحاتُ القرآن بيضاء وستَنمحي كلماتُه ويَنساهُ الرجال. لن يفكِّروا بشيءٍ سوى قصائد الشعر والأغاني، ثم تَحِلُّ النهاية"[168].

كانت فكرة المَهدي غريبةً على أذهان رجال الدولة في أوروبا آنذاك، وما زالت كذلك حتى الآن عندما نُشاهِد حركات مثل (داعش)، ولكن يرجِعُ هذا إلى أن أغلبنا قد نَسِيَ التاريخَ الأوروبي المسيحي. فقد ظَهَرَتْ عدة شخصيات مسيحية في أوروبا تشبه المَهدي خلال فترات اليأس في العصور الوسطى. كان بطرس الناسك Peter the Hermit شخصيةً رئيسية في الحملة الصليبية الأولى، وكذلك والدو ليون Waldo of Leon كان نوعاً من نسخة الأوروبية لما تَصَوَّرَهُ محمد أحمد عن نفسه[169]. وظَهَرَ آخرون كثيرون في طائفة البروتستانت التي ازدَهرتْ في أمريكا الشمالية وعلى هوامش الأرثودكسية الروسية. يَصعبُ تصنيفُ مثل هؤلاء الرجال ببساطة: لأنهم ليسوا رجالَ دُنيا، ولكنهم في الوقت نفسه حازمون وشجعان لدرجةٍ غير طبيعية ويتَمتَّعون بسلطة تشبه التَّنويم المغناطيسي على أتباعهم. وفي المجتمع الإسلامي سنَلتَقي بآخرين ممن لم يُطلِقوا على أنفسهم لقب "المَهدي" ولكنهم حسبوا أنهم يتمتعون بالقدرة على إصلاح الهزائم البشرية والنضال ضد الغزو الأجنبي.

كانت المَهديةُ السودانية غارقةً في الغَيبيات والخوف من الأجانب، إلا أنها كانت منفَتِحة على استخدِام التقنيات الغربية حيثما كانت مفيدة. اقتَنتْ أفضلَ الأسلحة التي يمكن الحصول عليها من الخارج ضِمنَ إمكانياتها المحدودة، وأسست مصانعَ صغيرة لانتاج البنادق والطلقات. كما تَبنَّتْ ما يمكنها من وسائل النقل المعاصرة وتشغيل وتصليح وبناء زوارق نهرية بخارية. ربما كان الأنصار أول جيش محلي يستخدِم البرقيات على نطاق واسع.

كانت البرقيات والزوارق النهرية والأسلحة إضافاتٍ مساعِدة هامة، ولكن القوة الحقيقية للمَهدية كانت في إخلاص أتباعها. حَمَلَ الجيشُ البريطاني احتراماً كبيراً للمقاتلين السودانيين الذين أطلَقوا عليهم اسم "الدَّراويش". كانوا متحَمسين في سبيل الإسلام، وكانوا واحدةً من القوات العسكرية القليلة التي تمكَّنَتْ من كَسر دفاعات الجيش البريطاني المُرَبَّعَة التي كانت آخر التشكيلات الدفاعية في التكتيكات العسكرية الأوروبية.

لم يراهِن أيُّ عاقلٍ على أن محمد أحمد سيَخلق حركةً قوية من رجال القبائل المتفرقين الجاهلين الفقراء. لم يكن لديه علاقات قَبَلية قوية، ولم تدعمه سوى فئة صغيرة ساذجة تشبه المُريدين في تمرد القوقاز. لم تكن لديه أسلحةٌ كافية ولا قاعدةُ دعمٍ وتموين. في البداية كانت نقاط ضعفه في صالِحِهِ لأن الاستهانَةَ بالعدو قصورٌ عام عند الأقوياء. وقد رأينا كيف أن الخِلافة الأموية التي كانت قوةً عظمى في القرن الثامن استهانَتْ بالقوى الثورية التي كانت مع أبي مسلم الخراساني، وفي

القرن الثامن عشر لم يُصَدِّق البريطانيون أن المستوطنين الأمريكان يمكن أن يَنتصِروا على أفضل جيوش أوروبا، وكذلك اعتَقَدَ الروسُ سنة 1980 أن رجال القبائل المُشتَّتة في أفغانستان لن يتمكنوا من الصمود أمام جيشهم القوي. وبالمثل، سَخِرَ المسؤولون الانكليز والمصريون في السودان من طموحات الرجل الذي أعلَنَ نفسه مَهدِيًّاً. وبينما وقَفوا بانتظار انهيار وتفرُّق رجالَ قبائِلِهِ الجامحين الذين لم يَحمِلوا سوى أسلحةٍ خشبية ولا تحَميهم سوى دروع جلدية. إلا أن محمد أحمد انتَصَرَ في معركته الأولى الصغيرة، واعتَقَدَ أتباعُه وجيرانهم أن انتصارَهُ إشارةً تدل على تأييد الله لقضِيته. ونتيجةً لذلك سارَعَ القرويون الغاضبون والبدو وحتى بعض التجار بالانضمام إلى قوَّتِهِ. تَبِعَتْها انتصاراتٌ صغيرة أخرى وكانت مُثيرةً لدرجة أن بعض السودانيين في الجيش المصري انشَقّوا وانضَّموا بأسلحتهم إلى المَهدي، وبدأتْ بعضُ القبائل الوثنية بدعمِهِ أيضاً. في سنة 1884 قرَّر البريطانيون أنّ السودان لا يَستحِقُّ الثَّمَنَ الذي يجب أن يُدفَع للانتصار عليه.

ولكن عندها امتدَّ المَهدي إلى ما يزيد عن إمكانياته: أعلَنَ نفسَه مساوياً تقريباً للنبي محمد، ومستعداً لتحويل انتصاراتٍ صغيرة إلى حملةٍ إلى مسيرةِ الجيوش الكبيرة. عندما استُدعِي الجنرال غوردن ثانية إلى السودان لكي يُطبِّق خبراته، عَرَضَ هدنةً لوقف الحرب، ولكن المَهدي رفَضَها. قام أتباعُه باجتياح مركزٍ صغير تلو الآخر مبتَهجين بانتصارهم حتى أصبَحت الخرطوم نفسَها محاصَرة. وأخيراً كان على الحكومة البريطانية أن تتصرف، ليس تحت ضغط ما يَحدث في السودان الذي كان محرجاً، ولكن استجابةً لإلحاح غوردن نفسه. خاطَبَ غوردن الشعبَ الانكليزي بحملةٍ قوية من تعظيم نفسِه مثل بعض القادة العسكريين في أيامنا، ولكن الحكومةَ لم تَرَ أية فائدة تُرتَجى من تجهيز حملةٍ عالية التكاليف إلى بلاد بعيدة، إلا أنها تحت ضغطِ دعايتِه وبكثيرٍ من التردد قامَت الحكومة بتجهيزِ قوة إغاثة لإنقاذ غوردن والقضاء على القائد السوداني المزعِج.

وصَلَتْ قوةُ الإنقاذ متأخرةً إذ اجتاحَتْ قواتُ المَهدي مدينةَ الخرطوم في 26 يناير 1885 وقَتَلوا غوردن بالطريقة التي طالَما قال إنه يريدها. قُتِلَ وهو يُحارِب ببسالة في معركةٍ خاسرة وسيفُهُ في يَدِهِ. وصَلَت القواتُ البريطانية بعد ذلك بيومين، وعلى الرغم من عدم أداء مهمتها فقد انسَحَبَ البريطانيون بحكمة، ولكن الحظَّ حالَفهم إذ أن المَهدي توفي بعد أن أسس مملَكته بأربعة أشهر إثر إصابته بمرض التِّيفوس. نُصِّبَ خليفةً بعده صديقُهُ المُقَرَّبُ ومؤيده القوي عبد الله، ولكن حتى ذلك اللقب لم يَمنَحه سلطةً كافية لكي يُتابِع الجهاد. ضَعفَت الحركةُ بعد أن فَقدَتْ قائدَها الروحي ولكنها استمرتْ خمس عشرة سنة أخرى دون منازع. ثم قرَّرَ البريطانيون التَّصرف، ولم يُحَرِّضهم على ذلك وجودُ خطرٍ سوداني، بل خوفهم من الفرنسيين الذين اندَفعوا حينها نحو نهر النيل من امبراطوريتهم الاستعمارية الجديدة في غرب أفريقيا.

اندفَعَ جيشٌ انكليزي-مصري بقيادة الجنرال هوراشيو كيتشنر Horatio Herebert Kitchener لإجهاضِ الفرنسيين، وسَحَقوا قوات المَهدية في معركة أم درمان في 8 أبريل 1898. انتَهتْ روحُ الجهاد بالقضاء على الجهاديين وتلاشَى السودان في الامبراطورية البريطانية وأصبَح كيتشنر بطلاً قومياً في بريطانيا مثل سابقِهِ غوردن، بينما استمر المَهدي في التَّحليق بين خبايا الذَّاكرة السودانية مدةَ قرنٍ من الزمن وظلَّتْ فكرةُ المَهدية التي تَغيَّرت بفِعل الدولة مؤثِّرَةً في الإسلام السوداني فترةً أطول من ذلك.

الفصل الثاني عشر

الإمام السَنوسي عمر المختار ضد

الإبادة الجماعية الإيطالية

قبل جيلٍ من بدء المَهدي لرسالته في السودان، انطلَقَتْ حركةُ نهضةٍ إسلامية غيرها في شمال افريقيا. أسسها بربري وِلِد حوالي سنة 1790 فيما يُعرَفُ الآن بالجزائر. كان محمد بن علي السَّنوسِيّ عالماً قَضَى أغلب شبابه في الدراسة بمكتبات فاس والقاهرة ومكة. على الرغم من أنه في الأصل دارسٌ للإسلام التقليدي إلا أنه تأثَّرَ كثيراً بالصوفية، وكان هدفُهُ الشخصي أن يتَخَلَّى عن شؤون الدنيا ويُكَرِّسَ نفسه للعبادة. ولكنه لم يستطع أن يُحقِّق ذلك في شمال أفريقيا آنذاك فقد مَنَعَهُ احتلالُ فرنسا للجزائر سنة 1830 من العودة إلى وطنه، واضطر للبقاء في ليبيا حيث أسس السَّنوسِيَّة، وهي نوعٌ من الأخوية في الإيمان. وكما كتَبَ أحدُ المُراقبين القَريبين عن هذه الطائفة أنها تأثَّرَتْ بالصوفية وكانت روحانية إلى حد ما، ولكن "السَّنوسي الكبير وخلفاءه كانوا يُعارِضون الطقوس المُساعِدة بقوة... مثل المواكب والموسيقى وتحريك الجسم بما يشبه التشنجات وطَعن الجسم بأدوات حادَّة وغير ذلك من الطقوس التي استخدَمتْها بعضُ الطوائف (الروحانية)، وسَلَكوا طريقةً وسطى بين مدرسة الكُتّاب الصوفيين النورانيين أو الحَدْسِيين ومدرسة المُفَكِّرين العَقلانيين... كان الهدف الرئيسي للسَّنوسِيَّة أن تصنَعَ من الرجل مسلماً صالحاً وليس روحانياً صالحاً"[170].

على العكس من المسلمين المتشددين، سَمَحَ السنوسيون بتقديس الأولياء ربما تأقلماً مع عادات البدو في مناطق بَرقَة[171]. يبدو أنهم اعتادوا زيارة قبورهم وأماكن أخرى مقدَّسة. نعلَمُ من ملاحظات أخرى أن البدو وسكان الواحات كانوا يمارسون عبادات الإسلام قبل وصول السَّنوسيين بزمن طويل[172]. بينما كانوا أكثر استعداداً لاتّباع عاداتهم القبلية من اتّباع شريعة الإسلام إلا أنهم قَبِلوا الجهادَ كاستمرارٍ لِفِكرة الثأر القَبَلي والغزوات.

أدركَ السَّنوسِي أن أناساً لا يَعرفون الإسلام لا يمكن الاعتماد عليهم في الدفاع عنه، ولذلك قامَ بزرعِ جماعةٍ من أُخُوَّةِ الإسلام الحقيقية في مجتمعِ رجالِ القبائل من بَدوِ الصحراء الذين كانوا يلتزمون جزئياً بتعاليم الإسلام لكي يُصبِحوا قادَتَهم الدِّينيين، مثلَما فَعَلَ الإمامُ شامل مع مُريديه في القوقاز، والمَهدي مع أنصاره في السودان. رفَعوا "صلابة" القدرة على القتال في المجتمع، مثلَما

يَصِفُ الاستراتيجيون القوات الخاصَّة في حرب العصابات، وتَغلّبُوا على الخلافات التي تُشتِّتُ المجتمع البدوي. بدأ السنوسي أخويَّته في الجامعة التي أسسها في واحةٍ بعيدة في عمقِ الصحراء. وعندما كَبُرَت الأخوية أسس روادُّها عدداً من المدارس والمراكز الاجتماعية عبر صحراء وسفوح شمال أفريقيا وفي الحجاز. بل أسس بعضُ الأتباع أيضاً مراكز في المَغرب وتركيا والهند. وقام آخرون ممن اعتَنقوا القِيَمَ ذاتها بتأسيس مراكز مشابهة في آسيا الوسطى. وهكذا انتَشَر المَذهب الصوفي السَّنوسِيّ في منطقةٍ أكبر من أوروبا. ربما كان هذا كل ما يمكن أن يُقال عن السَّنوسِيّة لو أنها تُرِكَتْ وحدَها في الصحراء الكبرى، ولكن ذلك لم يَحدُث.

بعد احتلال الجزائر الذي تمَّ سنة 1860، تحرَّكَ الفرنسيون عمقاً في أفريقيا وتوصَّلوا إلى اتفاقٍ مع البريطانيين لاقتسام أفريقيا فيما بينهم. كانت اتفاقيةُ التقسيم الأنكلو-فرنسية في 1898-1899 عملاً أمبريالياً نموذجياً. اختَرَقَ الفرنسيون المَناطق التي كانت تحت تأثير السَّنوسية. بعد ذلك بثلاث سنوات دمَّروا أول مراكِزِ الطائفة واستمروا بتدمير كل مركزٍ صادَفَهم كلما تقدَّموا في غزوهم، وكان الأسوأ قادماً.

بينما كان الفرنسيون يتقدَّمون من جهةِ الجنوب، كانت إيطاليا في صَحوةِ وحدةٍ جديدة تكتشِفُ القومية وتتصَوَّرُ نفسَها روما الوليدة. كانت روما هي المُلهِمة، ولكن فرنسا وبريطانيا وضَعَتَا النَّموذج والمثال: أراد الإيطاليون أن يربَحوا لهم مكاناً بين جيرانهم الأوروبيين بالاستحواذ على امبراطورية. لم يكن هنالك مكانٌ واسع لم تستعمِره الامبراطورياتُ الأخرى فيما عدا الأجزاء غير المهمّة في أفريقيا، خاصة الصحراء الليبية التي لم تكن مستَعمَرة. في سنة 1911 أنزلَت الحكومة الإيطالية أولى كتائبها.

كانت ليبيا التي نزل إليها الإيطاليون آنذاك جزءاً من الامبراطورية العثمانية، ولكن ارتباطَها بها كان ضعيفاً، وكانت منقسمة جغرافياً وعرقياً واجتماعياً. عاشَ أغلبُ السكان في موانئ صغيرة متفرقة على ساحل المتوسط، وكان أغلبهم مسلمين يتحدَّثون العربية ولكنَّهم متَنوعون عِرقِياً. سمَحَ البحرُ بالتَّنقل والسفر بسهولة، وسارت قوافل الجِمال على الطرق الداخلية من المغرب إلى مكة. تنافَسَ البربر والعرب من تونس والجزائر مع الأتراك الذين أرسلَتْهم الحكومةُ العثمانية لحمايتهم وجباية الضرائب منهم، وقامَ السودُ من وسط أفريقيا بأغلب الأعمال الشاقة وجعَلوا الحياة سهلة. كانت هناك مجموعات مهمة من اليهود مارسَتْ أغلب أعمال التجارة، ومجموعات متفرقة من الأوروبيين الذين تَحَوَّلوا إلى الإسلام (رينيغادوس) أو من المغامرين. انقسَمت هذه الفئات باختلاف اللغة والدين والأصل العِرقي فيما يمكن أن تكون قرى متوَزعة ضمن المدن-الدول المتَفرقة. لم تَتبَنَ هذه الفئات مذهب السَّنوسية أو أي حركة دينية أخرى. لم تَتركَّز أية فئة سَنوسِيّة في مدينةٍ ساحلية إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر.

عاشَت القبائلُ البدوية العربيّة والبربرية في المناطق الداخلية الواسعة وكانوا منفصلين ثقافياً عن سكان الساحل. اعتَمدوا في حياتهم على الماشية وحياة التنقل حسب الفصول ملاحقين هطولَ المطر القليل كعادة البدو، ولكنهم زرعوا الحبوبَ حسبما هو مُتاحٌ في الواحات. كانت هناك منطقة زراعية واحدة أثارَتْ اهتمامَ الطليان، وكانوا يعرفون أن أجدادهم الرومان قد زرعوا السهول الساحلية في بَرقَة، واعتَقَدوا أنهم باستعمارِها سيتَمكَّنون من تغطية حاجات مجتمعهم النامي، وهناك بدؤوا هجومهم.

لم يكن الغزو الإيطالي سنة 1911 حملةً كبيرة، ولم يتحمَّس الجيلُ الجديد من قيادات السَّنوسِيّة للقتال، وبسبب خوفهم من التكتيكات والتقنيات الإيطالية وقَّعوا اتفاقيةً مع الطليان سنة 1917. تم الاعترافُ بقائدِهم ادريس (الذي أصبَحَ فيما بعد مَلِكَ ليبيا) حاكماً (شكلياً) لمنطقة بَرقَة تقديراً لإذعانه وخضوعه. ولكن البدو قاوَموا بفضل تنظيمهم بشبكةِ المراكزِ السَّنوسِية وتَنشيطِهم بالعقيدة السَّنوسِية. كانت بّرقَة موطنهم الأساسي وحارَبوا من أجلها حتى الموت.



الصحراء الواسعة في شمال وسط أفريقيا حيث انتشَرَ البدو العرب والبربر.

تقع بَرقَة في الزاوية الشمالية الشرقية، وكانت مركز الأخوية السَّنوسِيَّة.

قام بنيتو موسوليني زعيم النظام الإيطالي الفاشي بشنق الإمام عمر المختار قائد العصابات السَّنوسِيّة في 16 سبتمبر 1931 بعد أن جُرِح وأُسِر في معركة. جَمَعَ الجيشُ الإيطالي ما استطاع جَمعه من الليبيين لمشاهدة الإعدام بأمل أن رؤية قائدهم ميتاً سيقضي على المقاومة أيضاً. يُعتَبر المختار بطلاً قومياً في ليبيا، وأطلِقَ اسمُهُ على شوارع في تونس ومصر وقَطَر وغَزَّة.



تُعتَبر حربُ الثلاثين سنة التي حَدَثتْ مثالاً نموذجياً على التمرد وقَمع التمرد. قادَ التمرد زعيمٌ استثنائي ورجلُ دينٍ هو عمر المختار (عُرِف باسم أسَد الصحراء في فيلمٍ متعاطِفٍ معَهُ أُنتِجَ في هوليود). قام البدو بالضرب والهَرَب، بينما قام الطليان بالمطاردة والقَصف[173]. عندما فشِلَت التكتيكات العسكرية، سَعَى الطليان لخَلق انقساماتٍ دموية بين القبائل وجَعلِهم يقاتلون بعضهم بعضاً فيما سمَّاه الطليان تكتيكات "السياسة العسكرية"، التي طَبَّقَها الأمريكان أيضاً، والتي لم تَلقَ نجاحاً يُذكَر بسببٍ ذَكَرَهُ قائدٌ عسكري هو أن "جميع السكان شارَكوا بشكلٍ مباشر أو غير مباشر في التَّمرد"[174].

عندما فشلتْ إجراءاتُ قَمعِ التَّمرد، تَحوَّلَ الطليان إلى الإبادة الجماعية فقَتَلوا في الفترة بين 1911 - 1940 حوالي ثلثي سكان منطقة بَرقَة. أسَروا عمر المختار وشَنَقوه، وأغلَقوا أو دمَّروا المراكِزَ السَّنوسِية، وحصَروا البدو بإنشاء حاجزٍ قَطَعَ طريقَ تجارتهم مع مصر، وقَتَلوا ماشيتهم بالقَصف الجويّ والغارات الانتقامية.

نشَأ الزعيمُ الليبي معمر القذافي لاحِقاً وهو يَسمعُ حكايات تلك الأحدَاث وتأثَّرَ بها كثيراً، وكما وَصَفَ صحفيٌّ أمريكي حكايا طفولة القذافي: "يَسردُ الأدبُ الشعبي لصحراء الشمال الأفريقي كيف أن بعض الأسرى الليبيين كانوا يُرمَونَ أحياء من الطائرات. تمَّ رَدْمُ الآبار بالإسمنت والأحجار. ذَبَحَ الطليان قطعان الجِمال والغَنَم والماعز. قُضِيَ بذلك على حياة قبائل كاملة وتم سوقُهم إلى معسكراتِ اعتقال في الصحراء. لم يَنسَ الليبيون فظائعَ تصَرفاتِ العَسكرية الإيطالية وما جَرى من

احتلالٍ واستيطان واستعمار واستيلاء على الأراضي الزراعية، ولم يَغفر لهم الليبيون ذلك من أجيال المختار ولا القذافي"[175].

الفصل الثالث عشر

حرب الرِّيف وعبد الكريم الخَطَّابي في المَغرب

استمر الصراعُ بين المسيحيين الاسبان ومسلمي شمال أفريقيا مئات السنين تخَلَّلَتها فتراتٍ من الهدوء الطويل والمعاهدات السلمية. كان هدف الاسبان في أغلب الأحيان هو التَّوصُّل إلى النَّقاء العِرقي والديني (طهارة الدم) وتَحرَّكوا تدريجياً نحو جنوب شبه جزيرة إيبريا وهم يربَحون معركةً تلو الأخرى، ويحتَلُّون مدينةً إثر مدينة حتى تمَكَّنوا في سنة 1492 من طَرْدِ أغلب من تبقى من المسلمين واليهود الاسبان. عَبَروا البحر الأبيض المتوسط بعد ذلك بخمس سنوات واحتَلّوا المدينةَ البربرية مَليلية التي ما زالت حتى الآن واحدةً من المراكز القليلة المتبقية من الأمبريالية الأوروبية في أفريقيا.

لم يتوقف الاسبان عند مَليلية بل تقدَّموا إلى أجزاء أخرى من المَغرب (المكان الذي تغرب فيه الشمس) كما يَعني اسمها باللغة العربية. في بداية القرن العشرين أسسوا "مَحمية" في مناطق البربر بشمال المَغرب عندما كانت فرنسا تَحتَلُّ وسَطَ وجنوب البلاد. لم يفعَل الاسبان الكثير لتَثبيت سيطَرتهم على تلك المنطقة خلال الحرب العالمية الأولى، إلا أنهم في سنة 1919 لَعِبوا دوراً أكثر فاعلية، فأخَذَتْ كتائبُهم تتقدَّم في منطقة الزراعة والرعي لأراضي بنو وارياغال Banu Waryaghal أكبر قبائل البربر، وساءت العلاقات بين الاسبان والبربر.

يختلفُ المؤرخون في تقدير سبب تزايد غضب رجال القبائل لسماعهم أخبار ما يجري في أجزاء أخرى من العالَم الإسلامي[176]. فمن المؤكَّد أنهم قد سَمِعوا عن ثورة القبائل ضد البريطانيين في العراق وتمرد المصريين، خاصة الطلاب، ضد البريطانيين سنة 1919 في القاهرة. ما نَعرفه هو أن استياء البربر من الأمبريالية الاسبانية انفَجَرَ بثورةٍ مفتوحةٍ في يناير 1921. ولدهشة الاسبان، فقد تَغلَّبتْ بنو وارياغال على قواتهم في معركة أنوال Annual. أدى ذلك النصر إلى التفاف قبائل بربرية أخرى والانضمام إليهم في تحالفٍ ضد أي اختراق اسباني جديد.

لكي نفهم كيف اتَّحدَت هذه القبائل المُتصارعة في العادة، يجب أن نَفهَم شخصيةَ وأفكار وتَطوّر واحدٍ من أهمّ رجال الدولة في العالَم الإسلامي الحديث لا نَعرفُ عنه الكثير وهو عبد الكريم الخَطَّابي.

ليس من المُستَغرَب أن تَختلف الآراءُ حول عبد الكريم حسب وجهة نَظَر المُراقِب، فهو بالنسبة إلى بعضهم يمَثِّل "التعبير التقليدي عن الخوف من الأجانب والتعصّب الديني"[177]. وبالنسبة إلى آخرين فهو ليس أكثر من انتهازي يَسعى إلى السلطة[178]. عندما استَلَمَ القائدُ الاسباني الجنرال فرناندز سيلفستر Fernandez Silvestre طَلَباً من عبد الكريم بعَدَمِ غَزوِ منطقة البربر اعتَبَر الطَّلَبَ ومرسله نكتةً سخيفة، وسرعان ما دَفَعَ حياته ثمَناً لذلك. أما بالنسبة إلى الصحفي الأمريكي Vincent Sheean الذي رافَقَ عبد الكريم في المعارك فهو بطلٌ لم يُعتَرف به[179]. عندما تَعرفتُ عليه في أواخر سنوات نَفيِهِ الطويل، كان شيخاً كبيراً من زمنٍ مَنسِيّ. قَضيتُ ساعات معه نناقش سيرَتَهُ. سيتأثر فَهمي هنا بالطبع بانطِباعاتي الشخصية أكثر من آراء الآخرين[180].

ولِد عبد الكريم سنة 1882 في البلدة الساحلية أجدير، وكان والده قاضياً شيخاً لقبيلة بنو ورياغل، ولذا فقد كان أفراد عائلته يُعتَبرون شخصياتٍ قيادية في المجتمع المدني البربري. أرسَلَهُ أبوه إلى مدرسةٍ دينية حيث دَرَسَ القرآن، ويبدو أنه لم يتعامل مع الاسبان في شبابه، ولكن عندما كان في الرابعة عشرة من عمره انتَقَل مع أسرته إلى مدينة تَطوان التي يَحتلها الاسبان. أخبَرَني أن تلك التجربة مَنَحَتْهُ "أولى ملاحظاته عن سلوكِ جنودِ قوةٍ استعمارية في بَلَدٍ غريبة". كانت فترةُ وجودهم في تَطوان مزعجةً لدرجة أن العائلة سرعان ما عادَتْ إلى أجدير.

أنهى عبد الكريم دراسته هناك في المدرسة الدينية المحلية. ذهب بعد تخرجه لمتابعة الدراسة في جامعة القيروان الإسلامية الموقَّرة في مدينة فاس. أُسِّسَت تلك الجامعة سنة 859 وكانت لعدة قرون واحدةً من أهمّ المؤسسات التعليمية في العالَم. ضَمَّت بين طلابها وأساتذتها كَوكَبةً من كبار العلماء في القرون الوسطى. عندما دَرَسَ عبد الكريم فيها في أواخر القرن التاسع عشر كانت من أهم المراكز الإسلامية. اكتَسَبَ الشاب فيها معرفةً عميقة بالدراسات الإسلامية والتزاماً شخصياً عميقاً بالإيمان. ذهَبَ بعد دراسته للقانون الإسلامي وتَخرجه إلى مدينة مَليلة التي يَحتلها الاسبان حيث تم تَعيينه قاضياً في محكمةٍ مختلطة للحكم في قضايا بين الاسبان والسكان الأصليين.

سرعان ما وجَد أن المحكمة المختلطة كانت تَتبع معايير مزدوجة. شَرَحَ أحد المسؤولين الاسبان أسس أحكامها بأنهم "نكون مرتاحين بِتَركِ جريمةِ القَتل تمرُّ دون عقاب طالما أنها ليست أكثر من بربري ريفي يَقتُلُ بربرياً ريفياً آخر"[181]. ولكن عندما يَسرق بربري أو يُؤذي أو يَقتُل اسبانياً، تتم معاقبتُهُ فوراً بالسجن أو الإعدام. على الرغم من أن رأيه بالعدالة الاسبانية كان معروفاً، ولكنه حسب معلوماتي لم يشارك بأي معارضة عَلَنية ضد الاسبان. ولكن ما فَعلَهُ كان كافياً لعَزلِهِ عن القضاء وحَبْسِهِ.

كان السجن الذي حُبِسَ فيه حُصْناً اسبانياً قديماً. لا بد وأنها كانت تجربةً قاسية وصعبة. قرَّر عبد الكريم الهَرَبَ، ولكن محاولته لم تَنجَح عندما سَقَطَ وكُسِرت رجلُهُ بينما كان يحاول النزول على حبلٍ من السور. وضَعَهُ الاسبانُ في زنزانةٍ ولم يعتَبروه مهماً لكي يُعدَم، بل حاوَلوا استخدَامه ورقةَ ضغطٍ ضد والده الذي قدَّروا أنه قائدٌ لقبيلته. عندما لم ينجَح ذلك قاموا بتسميم أبيه (حسبما ذَكَرَ

عبد الكريم). كانت تلك تجربةً شعورية واضحة للشاب عبد الكريم قَفَزَتْ به إلى موقعٍ قيادي في القبيلة.

تصادَفَتْ تلك الأحداث مع جَفافٍ شديد ضَغَطَ خلاله السماسرةُ على البربر الفقراء بينما أمسَكَ المسؤولون في الحكومة بالمساعدات والتموين. تَذَكَّرَ عبد الكريم قائلاً:

"كانت أرضنا عطشى وعانَت القبيلة من الجوع. وفي تلك الفترة قرَّر الاسبان قَمعَ آخر ما تبقى لدينا من حُرِّيات. بَدَت المُقاومةُ عبثيةً: قِلَّةٌ ضد كَثرة. لم يكن لدينا سوى الأسلحة الخفيفة التي يَحملها الفلاحون والرعاة... لكي أجَمعَ شَعبي سافرتُ أياماً وليالي بين قرى الريف أنَبِّهُ للخَطَر المشترَك. مَنَحَني تأخُّرُ الاسبانِ بعضِ الوقت، وفي أوائل 1921 تمَكَّنتُ من الدعوة إلى نوعٍ من المؤتمر الوطني الذي قرَّرَ المقاومةَ على الرغم من تهديدات الاسبان ورشواتهم، وتم تَعيِيني زعيماً".

ولكن بماذا نقاوم؟ لم يكن لدى القرويين أعتِدَةً عسكرية. أخبَرني عبد الكريم "كان علينا أن نبحث عن مصدرٍ تموين. أصبَحَ الجيشُ الاسباني هو مستودعنا. ازدادَتْ أعتِدَتنا بعد كل معركة، ولكن بعد ستة أشهر لم يكن لدينا سوى أربعة مَدافع".

ربما وَهَبَتْ جامعةُ القيروان المُوقَّرة الأملَ والإيمان إلا أنها لم تُعَلِّم التكتيكات العسكرية. ولذا لجَأ عبد الكريم لقراءة ما استطاع عن "تاريخ كبار الجنرلات". قال إن أهم ما تَعَلَّمَهُ هو أنه على الرغم من أهمية الأعداد إلا أنها ليست العامِلِ الحاسم في أغلب الأحيان. بشجاعةِ السُذَّج أَنذَرَ الجنرالَ الاسباني الذي كان يُشرِفُ على الريف بعدم الدخول إلى المَنطقة التي أعلَنها المؤتمرُ "جمهورية الريف". سَخِرَ الاسبانُ من ذلك: فما الذي يمكن أن تفعله شرذمةٌ من الفلاحين والرعاة ضد جيشٍ حديثٍ مُسَلَّحٍ بأحدث الأدوات؟ سرعان ما اكتَشفوا ذلك عندما عَبَرَتْ قوات اسبانية خطَّ الحدود في 22 يوليو 1921 كما وَصَفَ لي عبد الكريم:

"ربضتُ للاسبان مع قلَّة من الرجال الذين استطعتُ جمعَهم عند مَعبَر أنوال. لن أنسَى منظَرهم. اثنين وعشرين ألفاً من الجنود بملابس عسكريةٍ أنيقة يَمشون نحونا في نظامٍ منضبط نموذجي. ظَلَلنا هادئين في كَميننا ثم هجَمنا عليهم عندما "رأينا بياضَ عيونهم" كما قال أحدُهم في حربِ استقلالِكم. وخلال ساعاتٍ قليلة هَرَبَ مَن استطاع منهم الهَرب وأَسَرنا أربعة آلاف وكان لدينا بالكاد عددٌ كاف مِن الرجال لحراستهم. استَلقَى أمامنا عشرةُ آلاف منهم صَرعى وقَتلى. أما الجنرال الاسباني المُتَكَبِّر فقد انتَحَر. بعدها بأسبوع تمَكَّنا من المبادرة بالهجوم".

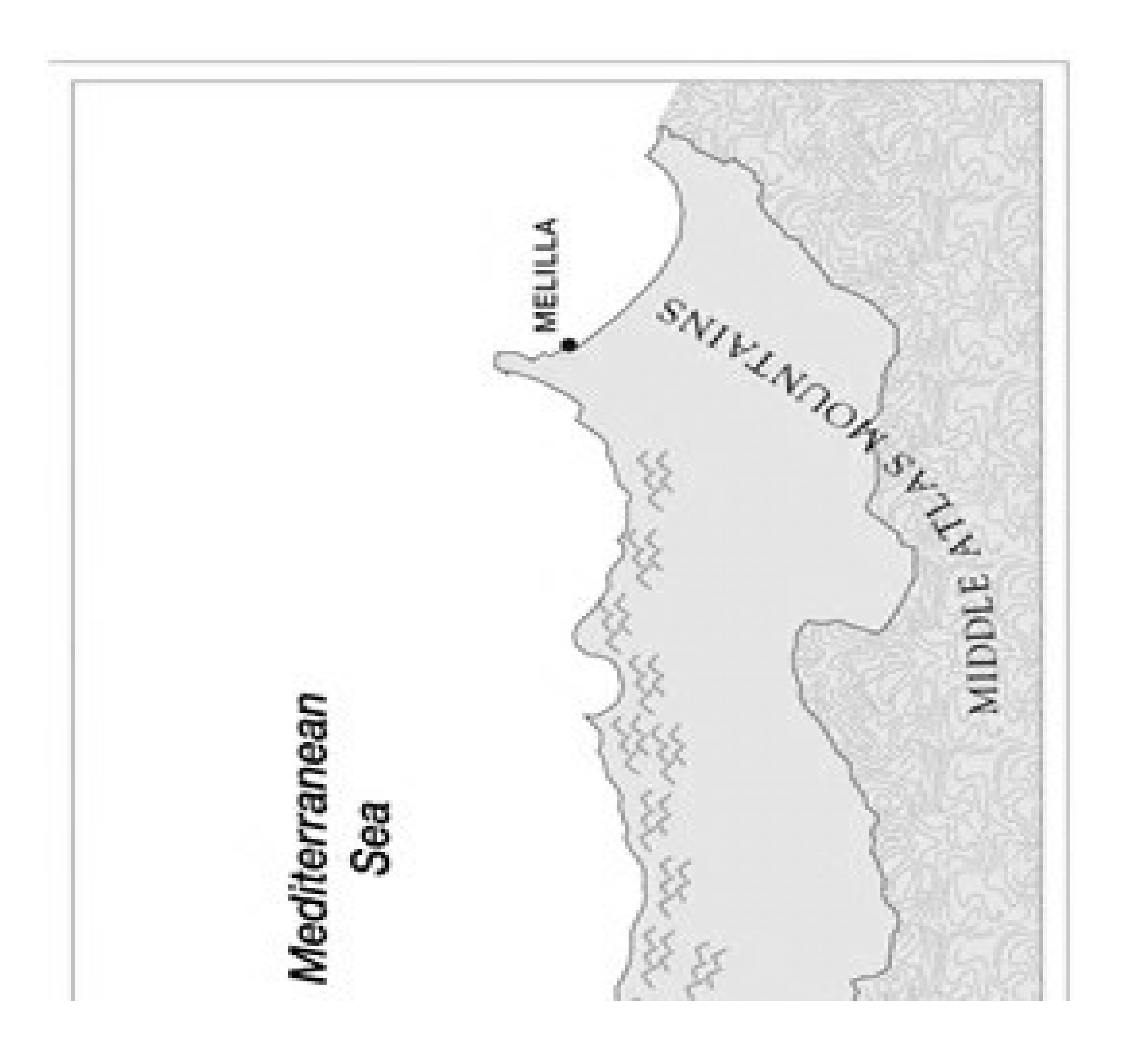
في تلك المرحلة ارتكَبَ عبد الكريم خطأ كبيراً. اتَّجهَت قواته جنوباً بعد ذلك النصر الكبير ببضعة أشهر "لتحرير" مدينة فاس مبتَهجين متحَمسين. ولكن فاس كانت في المنطقة الفرنسية، وزجَّ ذلك التَّصرفُ في المعركةِ الجيشَ الفرنسي الكبير الذي كان جيد التسليح والقيادة. كانت تلك القواتُ أكبر وأقوى بكثير من رجال القبائل تحت إمرة عبد الكريم بتسليحهم البائس.

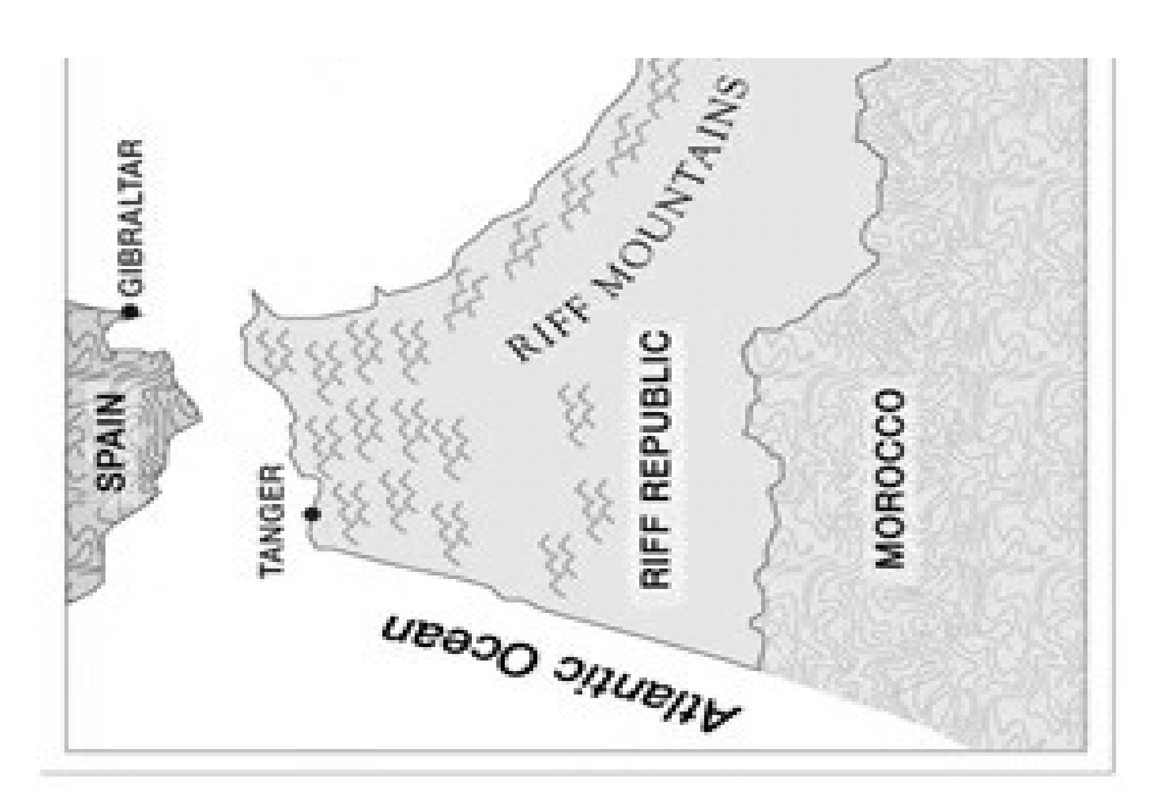
انضَمَّ إلى الفرنسيين جيشٌ اسباني جديد استَخدَم قواتٍ محلية "القوات المحلية النظامية" وهي النسخة المَغربية من الجنود الهنود في الجيش البريطاني Sapoys ونسخَتهم من "الفيلق

الأجنبي". تعلّمَ الكولونيل الشاب فرانسيسكو فرانكو Francisco Franco أساليبه الخاصة في المَغرب. حارَبتْ أغلب هذه القوات مع فرانكو فيما بعد في الحرب الأهلية الاسبانية. وكانوا أكثر عدداً وأفضَل تسليحاً من الريفيين بكثير.

حدثَتْ معاركُ متتالية وتأقلَمَ كل طرف تدريجياً مع استخدام ما لديه من إمكانيات. أصبَح عبد الكريم أستاذاً في فنون حرب العصابات، ويقال أن ماو تسي تونغ Mao Zedong وكذلك هو شي مين Ho Chi-minh دَرَسا تكتيكاته، ولكن مَصادر خصمِهِ الوفيرة منَحَتْهم أفضليةً لم يستطعْ مُجاراتها، كما بيَّنَ دارس للحروب الجوية سنة 1924:

"أمر بريمو دى ريفيرا Primo de Rivera قائدُ اسبانيا الخبير بحروب الجو أنْ تتَجمع القواتُ الجوية الأفريقية بحيث تتمكن من التَّدمير المنتَظَم للمحاصيل والأسواق والقرى والماشية... وكانت تلك إشارة البداية لحَملةِ قصفٍ جوي مركَّز ضد مناطق الريف. ولزيادة فاعليتها استَخدَمَ الاسبانُ قنابلَ الغازات السامة بالإضافة إلى الأسلحة التقليدية في التدمير والإحراق. وعلى مدى خمسة أشهر أسقَطَتْ اسبانيا 24,104 قنبلةً على مجتمعات المتَمردين وتجمعاتهم"[182].





بعد طرد المسلمين واليهود من اسبانيا في 1492، تابَعَ الاسبانُ هجومَهم في شمال أفريقيا. أدَّت الإجراءاتُ القمعية الجديدة إلى حدوث ثورةٍ سنة 1921 بين البربر القرويين المسلمين في جبال الريف حيث خَسِرَ الاسبانُ في حرب العصابات سنة 1926، ثم انتصَروا على متمردي الريف بفضل مساعدة الفرنسيين.

فوجئ عبد الكريم بالقَصف الجوي وحاوَلَ أن يُنشِئ قوةً جوية ولم يتمكن من ذلك، ولكنه اشترى ثلاث طائرات قديمة سرعان ما تم إسقاطها.

تبيَّنَ أن الزيادة العَددية للأوروبيين وجيوش السكان المحليين تحت القيادة الأوروبية وتحالف القوى المستخدَمَة، خاصة من طرف الفرنسيين، كانت قاهرة. كانت القوات الخاصة الفرنسية، التي تُعرَف باسم القوات المتحركة، قوة هجومية فعّالة آنذاك، بالإضافة إلى تسع كتائب من المشاة الفرنسيين تدعمها قوات محلية مع مصفحات ودبابات خفيفة لم تكن متوفرة للريفيين. كتَبَ كولونيل فرنسي: "لا يمتَلكُ العدو القوةَ لمواجهتنا بأية وسائل دفاعية مشابهة"[183].



جنود القوات الاسبانية الخاصة يَعرضون رؤوساً مَقطوعة للريفيين كجَوائز. كان هؤلاء الجنود يَقطَعون رؤوسَ الأسرى ويَستَعرضون بها على رؤوس الحِراب أو يَحملونها معهم للذكرى. غالباً ما كانوا يَجمعون أكواماً من الرؤوس قرب القرى لتخويف السكان.

كانت التكتيكات التي طَبَّقَها الفرنسيون في المَغرب مقدمةً لما استَخدَموه بعد ذلك بخمس وعشرين سنة في الجزائر. بينما تمَكَّن رجالُ العصابات في الريف، مثلَما فَعَلَ أمثالُهم في أفغانستان فيما بعد، من صُنعِ أسلحةٍ بسيطة ولكنها فعَّالة. يشاهِدُ المرءُ في هذه الحرب التسلسل الذي أدّى إلى حرب طالبان ضد الأمريكان: المقاتِلون الذين يحارِبون البريطانيين على الجبهة الشمالية الغربية، ومقاتِلو الريف في المَغرب بشكلٍ مستقل عن بعضهم بعضاً كما أعتقد، تعلَّموا كيف يُفَكِّكون الطَلَقات والقنابل غير المُنفجِرة ويُحوِّلونَها إلى أجهزةِ تفجيرٍ مرتَجَلة[184].

كانوا يستطيعون القتال ولكن لم يمكنهم الانتصار. في الجزائر وفي السودان وليبيا كان المقاتلون المحليون جائعين وأصابهم الهُزال واليأس بعد سنواتٍ من قَمعِ التمرد دُمِّرتْ فيها قراهم وسُمِّمَتْ مزارعهم وقُتِلتْ مواشيهم. وكانت النهاية محتَّمة. أدركَ عبد الكريم أنه لن يستطيع الانتصار على الجيوش الفرنسية والاسبانية، وأن استمرار القتال لن يؤدي سوى إلى تدمير شعبه. لم يَعترفْ بذلك، ولكن من المؤكَّد أنه ورفاقه قد عَرفوا أن الإسلام لم يكن قوياً بحيث يَنتَقل بالمجتمع القَبَلي إلى وحدةٍ وطنية يمكن أن تدعَم حربَ عصاباتٍ ناجِحة. وهكذا استسلَمَ عبد الكريم في سبتمبر 1926 مثلما فَعَلَ عبد القادر في الجزائر، والإمام شامل في الشيشان قبلَه بنصف قَرن. علَّقَ قائلاً لي: "أما بالنسبة لي، فإن الاستسلام يَعني بالطبع انهيار جميع آمالي. خَلَفَ الفرنسيون الوعدَ بالحرية

الذي قَطَعوه لي، فقد قَبَضوا عليَّ وحَكَموا عليَّ بالنفي مع جميع أفراد أسرتي إلى جزيرة ريونيون Reunion Island. صادَروا جميعَ أملاكي... تمكنتُ من الهَرب إلى مصر سنة 1947".

يمكننا إدراك مدى سِعَةِ انتشارِ النضال الإسلامي ضد السيطرة الأوروبية بنَقلِ بؤرَةِ انتباهنا من الجانب الغربي للعالَم الإسلامي على ساحل أفريقيا الأطلسي نصف دورةٍ حولَ الكرة الأرضية إلى المحيط الهادي. فيما يُسَمى الآن اندونيسيا، كان شعبٌ يعيش في منطقة تساوي مساحتها تقريباً منطقةَ الريف المَغربي، وكانوا يحاربون أيضاً من أجل استقلالهم. كانوا شعب الآتشيه Aceh في جزيرة سومطرة.

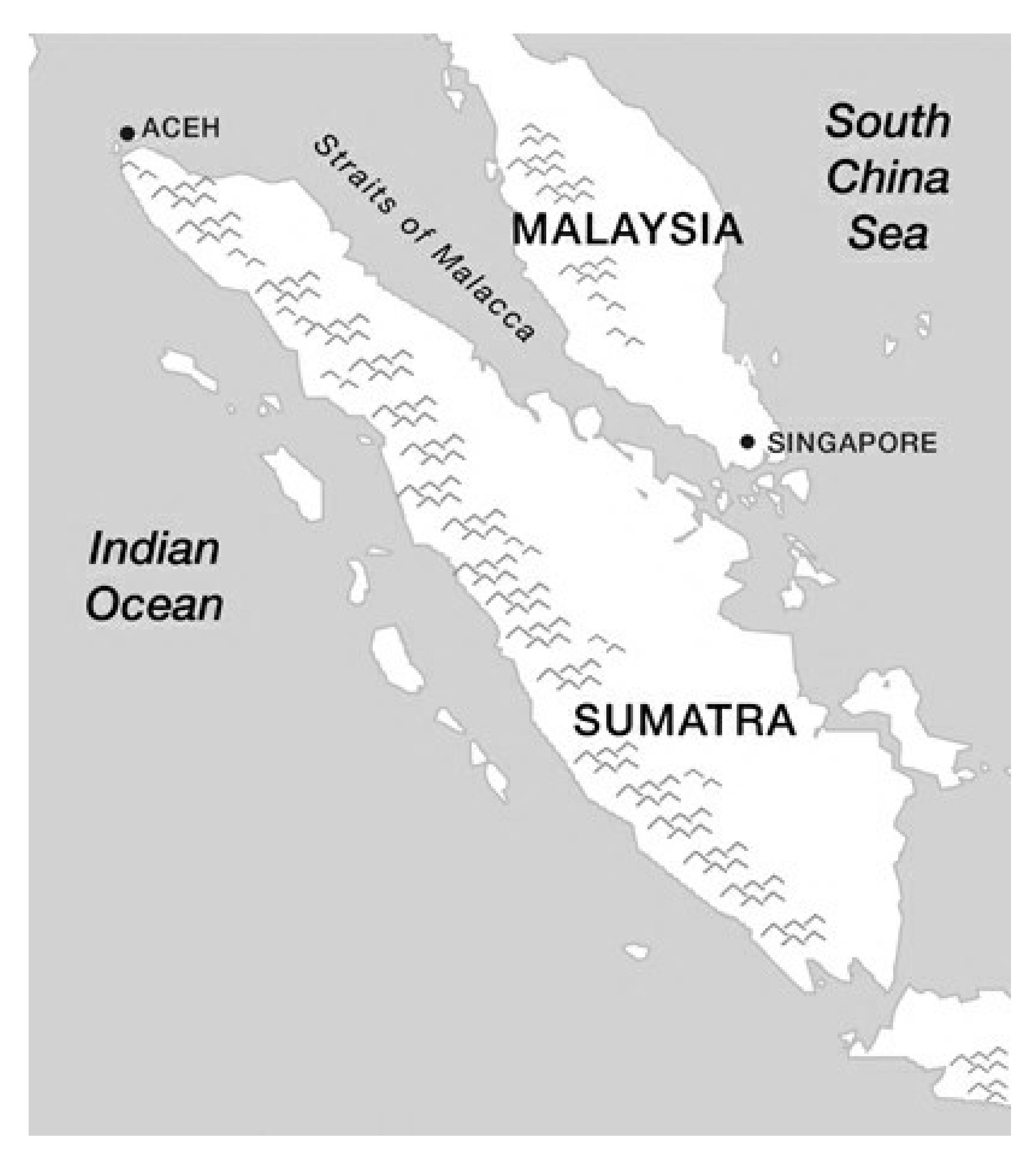
الفصل الرابع عشر

حرب الآتشيه والامبراطورية الهولندية

تقع منطقةُ الآتشيه على مضيق مالاكا Strait of Malacca الذي يَصِلُ المحيط الهندي بالمحيط الهادي. ولذلك فعَلَى الرغم من أنها أرضٌ صغيرة وجَبلية وتغطِّيها الغابات، إلا أن موقعها يَمنَحها أهميةً استراتيجية وتجارية أكبر من حجمها. يتميز تاريخُها بكفاحها المستمر في سبيل الاستقلال، وبمحاولات الآخرين المتكررة للسيطرة عليها، مثل البرتغاليين في القرن السادس عشر، والهولنديين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

كان سكان آتشيه من الهندوس أو من الوثنيين قبل حوالي قرن من إبحار كريستوفر كولومبوس إلى العالَم الجديد. ولكن حوالي سنة 1400 تحوَّل السلطان الحاكم إلى الإسلام على يد التجار العرب والإيرانيين. بعد ذلك بحوالي قرن ونصف قابَلَ سكان آتشيه الأوروبيين لأول مرة: البرتغاليين. بينما تحرَّك الاسبانُ عبر الأطلسي في الوقت نفسه تقريباً. انغمَسَ البرتغاليون في مناطق المحيط الهندي. وصَلَ فاسكو دي غاما إلى الهند بإرشاد بحارٍ عربي بعد خمس سنوات من وصول كولومبوس إلى ما ظَنَّها اليابان.

كانت التوابلُ هدفَ البحارة البرتغاليين. فَضَّلَ ذوق الأوروبيين طعم جوزة الطيب والبَهار والقرنفل. لم تكن لديهم طريقة لحفظ اللحوم الطازجة واكتشفوا أن البَهار وغيره من التوابل يمكن أن تخفي طعم فسادها. في الظروف البدائية لأوروبا العصور الوسطى أصبح الطلبُ على التوابل فجأة مثل الطلب على الذهب. ولكن على العكس من السُّكر، الذي عُرِفَ في الوقت نفسه تقريباً، لم تكن زراعة التوابل ممكِنة في أوروبا، بل كانت تُزرع في أماكن بعيدة كانت تبدو أسطورية خيالية، وتُنقَل في مراكب خشبية شراعية عبر المحيط الهندي ثم تُمرَّر من يدٍ إلى أخرى في طريق متعرِّجة حتى تَصِل في النهاية إلى المستهلِكين في أوروبا. كانت هذه التجارة هي التي دَفعت البرتغاليين أكثر من أي أمر آخر للوصول إلى جزر الهند.



لاحظَتْ جميعُ القوى الأوروبية الأهميةَ الاستراتيجية لمضيق مالاكا، الممر من الهند والشرق الأوسط إلى جزر البَهار والفلبين والصين. كان يسمى "طريق الحرير الجنوبي أو البحري" وكانت آتشيه في سومطرة موقعَ أول الحروب المَريرة ضد الهولنديين في جنوب شرق آسيا.

لم يكونوا بحاجة إلى أي دافعٍ آخر، ولكن البرتغاليين كان لديهم دافعٌ آخر، فقد كانوا مثل أبناء عمومتهم الاسبان يحارِبون المسلمين مدة قرون، وفي سنة 1497 اتَّبَعوا سنَّةَ الاسبان في طَرد

المسلمين واليهودَ من بلادهم وأعلَنوا حرباً حقيقيةً ضد الإسلام. لم يهتَموا كثيراً بالدِّين الذي يَتبَعه سكان أفريقيا الذين كانوا يَقبضون عليهم للعمل كأرقاء في مزارع قصب السُّكر التي كانت لديهم. بعضُهم كانوا مسلمين، ولكن أغلبهم كانوا يتبعون أدياناً وثنية بدائية. عندما نجحوا في الإبحار حول رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا إلى المحيط الهندي، وجَدوا أعداءَهم المسلمين في كل ميناء وصَلوا إليه. وهكذا عندما أسسوا قواعدَهم في كلكتا وغاوا هاجَموا حكام السلطنات والمدن والموانئ على سواحل المحيط الهندي وجزيرة سيلان، واتَّجَهوا شرقاً نحو اندونيسيا.

في ذلك الوقت كان أحد أول مَن نَعرفهم من سلاطين آتشيه، وهو علي موغايات سيا Ali Mughayat Syah منهَمِكاً في حملاتٍ للسيطرة على الممرات المائية والموانئ في مضيق شبه جزيرة الملايو. كان يريد استغلال سيطرته على المضيق لكي يَحصَل على حصةٍ من ربح تدفق التوابل من الجُزر الأبعد الموجودة في شرقه. وكان لا بد من أن يصطدم بالبرتغاليين. كانت الجائزة التي تقاتَلوا عليها هي المدينة الساحلية مالاكا Malacca التي كان البرتغاليون قد احتَّلوها سنة 1511 وكان السلطان علي يريدُ طَردَهم منها. ولكي يفعل ذلك، اتَّجَهَ نحو رفيقه المسلم السلطان العثماني سليمان العظيم بصفته خليفة المسلمين. أراد علي والسلطان السيطرة على المنطقة وأدرَكا معاً أن التحالف العسكري هو الطريق لطرد البرتغاليين. لم يصل الاسطول العثماني حتى سنة 1539 ففي تلك الأيام كانت السفن الشراعية تَسيرُ مَهلاً. وبالفعل فقد رجَّحَتْ كفَّة توازن القوى في المضيق بإدخال المَدفع الذي كان أشهر أسلحة العثمانيين. وبما أنه كان صعباً نقلُ التموين العسكري على بعد المسافة من الأناضول إلى سومطرة، فقد قاموا بتأسيس ما كان ربما من أوئل برامج المساعدة في التدريب العسكري: فقد علَّموا الآتشيين كيف يَصنعون المَدافع بأنفسهم، وبذلك بدؤوا دون قصد سباقَ تسلحٍ لأن جميع سلطنات جنوب شرق آسيا بدأت بتصنيع مَدافعها وبنادقها.

استمرت ذكرى العلاقة بين الآتشيه والامبراطورية العثمانية فترةً طويلة بعد الغزو البرتغالي. عندما بدأ الهولنديون بالحُلول مَحلَّ البرتغاليين في القرن السابع عشر، حاوَلَت الآتشيه التوصُّل إلى اتفاقياتٍ يمكن أن تحميها بصِفتها ولاية عثمانية ولكن ذلك جاء متأخراً فقد تدفَّقَ الهولنديون إلى المنطقة بينما كانت الحكومة العثمانية مشغولةً بالقتال الدائر بالقرب مِن دارها دفاعاً عن وجودها. كان على الهولنديين أن يُحارِبوا البريطانيين مدة قرنين تقريباً، ولكن ذلك الصراع كان صراعاً أوروبياً وليس آسيوياً. انتهى ذلك بتوقيع معاهدةٍ مع بريطانيا العظمى، وهي المعاهدة الأنكلو-هولندية في سنة 1871 التي اتَّفَقتْ فيها القوَّتان على إجراء تبادلٍ أعطى فيه الهولنديون لبريطانيا مواقِعهم في ساحل الذهب الأفريقي مقابل أن يَمنَح البريطانيون للهولنديين حريةً مطلقة للتصرف كما يشاؤون في مجموعة الجُزر التي أصبَحت فيما بعد دولةَ اندونيسيا. وكانت آتشيه هي المَمَر.

كانت آتشيه تسيطرُ على أكثر من نصف مبيعات البَهار العالَمية الذي كان آنذاك منتَجاً ثميناً جداً. من أجل التَّحكم في آتشيه والسيطرة على تجارة التوابل، قام التجار الهولنديون في سنة 1602 بتأسيس واحدةٍ من أكبر الشركات الأمبريالية التجارية وهي: الشركة الهولندية للهند الشرقية، وهي حالياً الجَدَّة الكبرى لمؤسساتٍ دولية. وبالنسبة للاقتصاد العالمي فهي تُقَزِّمُ الشركات التي نَعرفها هذه

الأيام. كانت في وقتها بين أعظم القوى في علاقات السياسة الدولية، وكانت أقوى من أغلب الدول الأوروبية، كما كانت في بداياتها أكبر بكثير وأعظم من الشركة البريطانية التي سيطَرت على الهند.

مُنِحَت الشركة الهولندية للهند الشرقية حسب القانون الهولندي حقَّ إعلان الحرب وعقد الاتفاقيات وتأسيس المستعمرات وكأنها دولةٌ قومية. كانت صورةً مصغرة لسيطرة الشمال العام وحِملاً ثقيلاً فُرِضَ على الجنوب. أصَّر الهولنديون بعد أن طَردهم البريطانيون من الهند على ضمان سيطَرتهم بعيداً عن أطماع البريطانيون فيما كانوا "يمتلكونه" من اندونيسيا.

أَدركَ الهولنديون في اندونيسيا، مثلما أدرك البريطانيون في الهند، أن الأسلحة كانت ضرورية ولكنها غير كافية لتَشغيل الأمبريالية، وإذا لم تتمكّن الشركات التجارية الهائلة من دعم نفسِها فإن الحكومات التي كانت شريكةً معها وترأسُها ستقوم بإلغائها، ولذلك فقد انطلقَ الهولنديون في جُزر البَهار مثلما فَعَلَ البريطانيون في البنغال للسيطرة على الأسعار والانتاج. وكما لاحَظَ آدم سميث الاقتصادي المعاصِر لتلك الفترة:

"تصَوَّروا أن أفضَلَ طريقةٍ لضمان احتكارهم هي أن يتأكَّدوا من أنّ أحداً لن يُنتِج أكثر مما كانوا يستطيعون نَقلَهُ بأنفسهم إلى الأسواق. استطاعوا بفنونٍ مختلفة من القَمع أن يُنقِصوا عدد السكان في عدد من جُزر البَهار إلى المستوى الذي يستطيعون بالكاد تموينهم بضروريات الحياة مع حاميتهم الصغيرة وما يكفي لتموين سفنهم عندما تأتي لنقل التوابل لا أكثر... لم يكن الوقت كافياً للشركة الانكليزية لكي تؤسس في البَنغال نظاماً مدمِّراً مثله... واحتاج الأمر إلى قرنٍ أو قرنين لكي تتوصَّل سياساتُ الشركة الانكليزية إلى درجةٍ من التدمير الشامل مثل تلك التي أحدثَها الهولنديون"[185].

لم يهتم أوروبيٌّ بأفكار السكان المحليين، ولكنها كانت مهمة. ولو أصغى الأوروبيون لسَمعوا أصواتاً كثيرة. كان الاندونيسيون منقسمين إلى عشرات بل مئات من الدويلات الصغيرة والسلطنات والموانئ والقبائل، ولم تتحدَّث أي منها عن الأخرى. وبالنسبة إلى التجار الأوروبيين والجنود والإداريين كان كلّ منها غير مهم، وبالإضافة إلى ذلك، بما أن أغلب الاندونيسيين كانوا مسلمين، فقد كانوا يَعتبرونهم خارج قاعدةِ الحضارة، وافتَرَضوا أنهم متوحشين متعطشين للدماء ومستعدِّين دائماً لاغتصاب أو لقَتلِ الأوروبيين. كان كثيرٌ منهم قراصنة مثلما كان الجزائريون. قلَّةٌ من الأوروبيين كانوا مهتمين بتَذَكُّر أنهم في الماضي القريب كانوا هم أنفسهم والأمريكيون أيضاً يجمعون التجارة إلى القرصنة عندما تُتاح الفرصة. اعتَقَدَ الهولنديون، مثل البريطانيين والفرنسيين والروس، أن لهم الحق، بل وعليهم واجبُ تهدئةِ السكان الأصليين المُتَخَلفين واستغلال مواردهم المهمَلة. تَناهَتْ كل هذه المقدمات بالهولنديين في نهاية القرن التاسع عشر وتركَّزتْ في آتشيه.

غَزا الهولنديون آتشيه في سنة 1873 وهم واثقون من فرضية أن السكان الأصليين لن يتمكَّنوا من المقاومة. ولكنهم قاوَموا مثلما فَعَلَ سكانُ الجزائر ومثلما سيفعل القوقاز والليبيون والمَغاربة. وفي النتيجة، أدَّى الغَزو إلى حربِ عصاباتٍ مفتوحة يعرفُها الهولنديون باسم: حرب آتشيه، والاندونيسيون باسم: حرب الكفار. استمرتْ أكثر من ثلاثين سنة من 1873 حتى الحرب

العالمية الأولى، ثم استمرتْ بعدها بشكل تمردات متقطعة حتى الحرب العالمية الثانية. واستمرتْ أصداؤها بشكلِ محاولاتٍ متكررة لتغيير النظام وتمرداتٍ وإرهاب وفوضى في أيامنا المعاصرة.

ماذا نفعلُ عندما تصبحُ الفوضى الغالية التكاليف التي خلقَتْها الحكومة الهولندية ومسؤولوها الاستعماريون قضيةً سياسية داخل هولندا، مثلما حدَثَ عندما انفجَرتْ ارتداداتُ السياسات الأمريكية في فييتنام داخل السياسة الأمريكية الداخلية. بدأت حربُ الآتشيه عامرةً بآمالِ حياةِ الثروة والازدهار، إلا أنها كادت أن تودي بهولندا إلى الإفلاس. وبجُهدٍ يائسٍ حاوَلَ الهولنديون جميع أساليبِ قمع التمرد، كانت أولى المحاولات هي قصفُ العاصمة واحتلالُ الأراضي المنخفضة على طول الساحل. عانَى الآتشيون ولكنهم بَدؤوا ببناء وتَحدِيثِ قواتهم المسلحة. لم تكن الامبراطورية العثمانية بحالةٍ تسمحُ لها بمساعدتهم، فاتَّجَهوا إلى الانكليز والفرنسيين والطليان ولكنهم خَذَلوهم جميعاً. لو كانوا يعرفون القصص التي سردتُها في هذا الكتاب لما أضاعوا جُهداً في ذلك. ولكنهم على كل حال استطاعوا أن يَحصلوا على أسلحةٍ (بشكل أساسي من الجنود الهولنديين القَتلى) كانت كافية لكي يَحصروا الهولنديين في منطقةٍ ساحلية صغيرة.

انسحبَ الآتشيون إلى الجبال الداخلية بعد أن خسروا عاصمتهم. وحدَثَ ما كان يتمناه الهولنديون، فقد انهارَتْ معنوياتُ الآتشيين وفَرَضَ الهولنديون عليهم حصاراً مَنَعَ عنهم امدادات الغذاء المستورد، وحاوَلَ بعضُ زعمائهم المستقلين إلى حد ما أن يتأقلَموا، فقامَ الهولنديون بإغرائهم عن طريق تشكيل حكومةٍ شكلية مَزعومة يستطيعون المشاركة فيها، إلا أنهم كانوا ضعفاء ولا يمكن الاعتماد عليهم، وكلما خَفَّفَ الهولنديون من ضغطهم العسكري، غيَّر هؤلاء الزعماء ولاءَهم.

عندما تبيَّنَ أن الهجوم لا يحسم الموقف وأنه مرتفع التكاليف، قامَ الهولنديون باللجوء إلى الاستراتيجية التي طبَّقَها البريطانيون في إيرلندا قبل ذلك بزمنٍ طويل. فمثلما قامَ البريطانيون بالانسحاب إلى ما وراء جدارٍ أحاطَ بالعاصمة دبلين (السور)، كذلك انسحبَ الهولنديون إلى منطقةٍ محاطة بسور حول العاصمة السابقة باندا Banda. تُرِكَ كل ما هو خارج السور "للهَمَجيين". ولكن بناءَ السور لم ينجَح لأن مدينة باندا كانت تحتاجُ إلى مصادرِ الدَّاخل لكي تعيش، وجعَلَ الآتشيون الوصولَ إلى ذلك محفوفاً بالمخاطر. وبينما تَمكَّنوا وتحسَّنتْ وسائلُ تمردهم تَوصَّلوا إلى شكلٍ جديد من القيادة هي الزعماء الدينيون المسلمون، العلماء.

فَعَل العلماءُ ما كان يجب على الهولنديين توقعه، فقد أعلَنوا أن الحرب ضد الهولنديين هي جِهاد، واستخدَموا المصطلحات ذاتها التي يستخدِمها المقاتِلون المسلمون هذه الأيام، وأصبح أتباعهم "جِهاديون" وكانوا "مجموعات متماسكة من الفلاحين الذين ضَمَّتْهم أخوية الإسلام إلى بعضهم بعضاً في المَقام الأول وقبل كل شيء"[186].

ردَّ الهولنديون بقمعٍ أشدّ ضد التمرد، ففي بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر دعموا قواتهم المسلحة بمقاتلين محليين مِن أقليات أخرى ومِن مناطق بعيدة عن آتشيه. استطاعوا فِعلَ ذلك بسبب التَّنوع الكبير في جُزر تلك المنطقة إذ لم يَنظر سكان الجزر الأخرى إلى سكان آتشيه في سومطرة على أنهم حلفاء أو أقارِب. وكان كثيرٌ منهم ممن اعتنقوا المسيحية[187]. تحت قيادة هولندية

قاموا عن طِيبِ خاطر باجتياح عشرات القرى وقَتلوا آلافاً من السكان المحليين. وحسب تقديرات المؤرخ هانز باكر J. I. Hans Bakker كانت حصيلة الحرب "عشرات الآلاف من المتمردين المقاتِلين الآتشيين، ثلاثون ألفاً على الأقل، وربما مئة ألف قُتلوا في المعارك أو بالأمراض مثل الكوليرا والملاريا"[188].

وعلى الرغم من كل ذلك لم ينتصر الهولنديون. وبفِعلٍ يائسٍ متهور تحت ضغط ارتفاع تكاليف الحرب ونفاذ صبر الحكومة طلَبَ قائدُ الجيش الهولندي نصيحةَ مستشرقٍ هولندي شهير هو البروفسور كريستيان سنوك هورغروني Christiaan Snouck Hurgronje الذي كان معروفاً بدراساته العربية والمَلاوية والغافية والآتشيّه وكتَبَ مئات الأبحاث، بل واستطاع دخول مكة بعد أن ادَّعى إسلامَه لسردِ كتابٍ غير عادي عن تلك المدينة. لجأ إلى الحيلة والخِداع في جزءٍ كبير من حياته المهنية، فعندما ذهب إلى آتشيه في غمرة الحرب هناك، ادَّعى أنه مسلم واستخدَم اسم: الحاج عبد الغفار[189]. ثم بعد أن اكتسَبَ ثقة الزعماء المسلمين استخدَم معلوماته لترتيب خطةٍ قاسية لقمع التمرد. حثَّ على تطبيق عملياتٍ سريّة وإعلامية واغتيال العلماء الذين دَلَّ عليهم كزعماء للتمرد. ظلَّ نشاطُه سريَّاً مدة نصف قرن. قَلَّدَ تصرفاته هذه كثيرٌ غيره ممن ادَّعوا أنهم "خبراء" وكذلك فَعَلَ بعض الدارسين الحقيقيين للحركات المحلية. كان ذلك أحد الأسباب التي تجعلُ المسلمين يَشكُّون بالمستشرقين[190].

ومثلما كان الحالُ في الجزائر، فقد ظَهَرتْ امرأةٌ زعيمة لحرب العصابات في آتشيه هي: كوت نياك دين Cut Nyak Dhien وهي بطلةٌ اندونيسية قومية تَظهَرُ صورتها على طوابع بريدية وكانت موضوعَ أحد الأفلام. ولكن مصيرها كان محزناً، فبعد خمسة وعشرين سنة من قتال الهولنديين رفَضَت الاستسلام حتى أصبَحتْ جائعةً وعمياء وأصيبت بالملاريا، ثم سَلَّمَها أحد "أصدقائها" إلى الهولنديين.

يمكن أن تُنسَى تكاليفُ الحرب كما يبدو في ابتسامة كوت نياك دين التي تَظهَرُ في صورتها المرسومة على ورقة العشرة آلاف روبية اندونيسية، ولكنّ ندبات وجروح الحياة الحقيقية لم تَندَمل. نراها هذه الأيام في كافة أنحاء الجنوب العالمي. على الرغم من أن الحرب قَتلتْ كثيراً من الناس، إلا أن القضايا التي سبَّبتها لم تُحَلّ، بل استمرتْ حتى الغزو الياباني سنة 1942 الذي قَضَى على النظام الاستعماري الهولندي. ولكن أحداثَ آتشيه أظهَرتْ ما بيَّنَتْهُ أيضاً ثوراتُ المسلمين في الجزائر والمغرب وليبيا والهند والسودان وهو أنه على الرغم من أن الإسلام كان عاملاً ضرورياً في المقاومة، إلا أنه لم يتمكَّن وحده من وقف الامبريالية. كان هجومُ القوى الأوروبية قوياً جداً، ولم يستطع الإسلام كما كان ممارَساً آنذاك أن يحشد مُعتَنقيهِ فترةً كافية لكي يشنُّوا هجوماً معاكساً قوياً وغالياً. توصَّلَ بعضُ المسلمين إلى الاقتناع بضرورة إعادة النهضة في الإسلام وإلا سيُهزَمُ الدفاعُ عن حضارته. بَحَثَ المسلمون في آتشيه عن الهُدى والإرشاد مثلما فَعَلوا ذلك في المغرب والقوقاز والهند وفي كل مكان. تبادلوا المقالات وقرؤوا التقارير والأخبار المَطبوعة أو المَكتوبة بخطِّ اليد، وتجَمعوا في المقاهي وأنصَتوا إلى خطَبِ المساجد. كان هناك جوعٌ ولهفة لِتَلَقُّف المعلومات

والشُّروح والتفسيرات. تقدَّمَ لتلبية هذه الحاجة واحدٌ من أهم رجال القرن التاسع عشر. لم يكن مقاتلاً مثل أغلب الأفراد الذين ذكرتُهم، بل كان عالِماً، وهو: جمال الدين الأفغاني الذي سأقدّمُهُ الآن.

الفصل الخامس عشر

جمال الدين الأفغاني واليقظة الإسلامية

كان جمال الدين الأفغاني أعظم المفكرين المسلمين تأثيراً في القرن التاسع عشر. كما كان شخصيةً أكثر عالمية من قادة النهضة والاستقلال الذين ذكرتُهم. لم يَحمِل السلاح ولم يَخلُق تَمَرداً ولكنه أَلهَمَ كثيراً ممن فَعلوا ذلك. اعتُبِر شخصيةً هدامة ومخرِّبة بالنسبة لحكام الدول الاسلامية الرئيسية. قابَلَ عدداً منهم، ويبدو أنه خلال أسفاره قد تحدَّثَ بالفعل مع جميع الفاعلين المؤثرين في الشرق الأوسط تقريباً. وكان بالطبع مثيراً للجَّدَل والخِلاف.

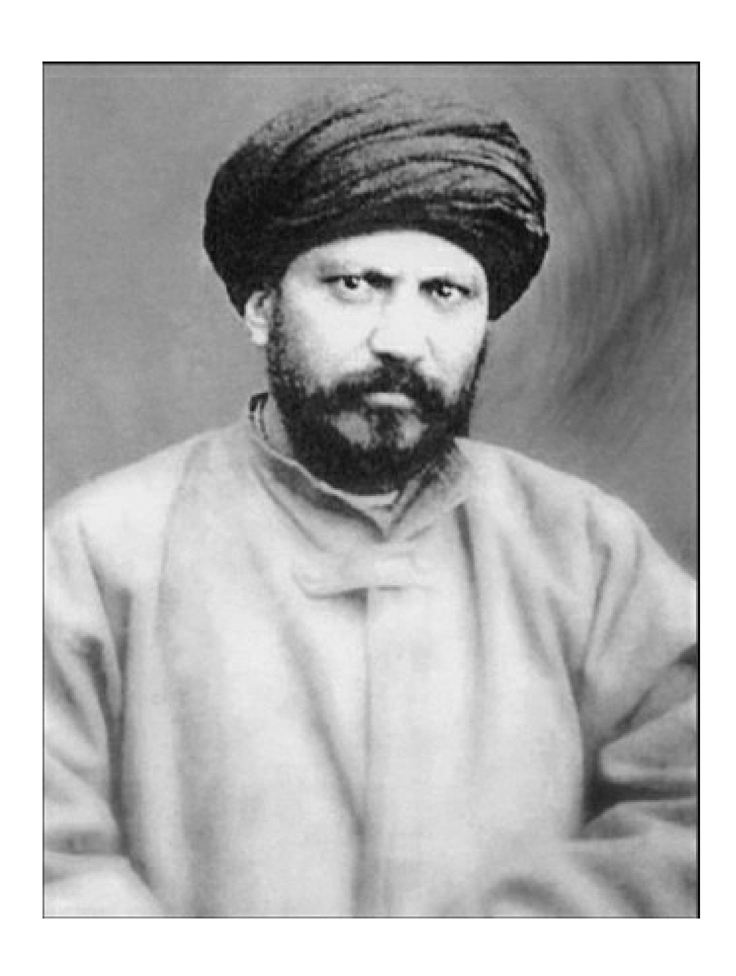
يبدأ الخِلافُ باللقب الذي يُلحَق باسمه الذي يدل عادة على المكان جاء منه (وفق هذه الطريقة يصبح اسمي ويليام بولك التكساسي). وما زال هذا الخلافُ مستمراً، فقد حَمَل المحارِبون السريّون في القاعدة والدولة الإسلامية (داعش) أسماء عسكرية تتعلق بموطنهم الأصلي (بشكل مَغلوط أحياناً بقصد التمويه). ولذا سَمَّى قائد الدولة الإسلامية نفسه: أبو بكر "البغدادي" نسبةً إلى بغداد.

لُقِّبَ جمالُ الدين بالأفغاني على الرغم من أنه ولِد في إيران، مثلما سُمِّيَ أبو بكر بالبغدادي على الرغم من أنه جاء من سامراء. غَيَّرَ كلٌّ من الرَّجُلَين مكان ولادته لأسباب مختلفة، حَرِصَ أبو بكر على التَّخفي لتَجنّب كشفِ هويته وربما اغتياله. بينما كان لجمال الدين دوافعَ أكثر تعقيداً. التفسيرُ المعتاد الذي أظنُّه صحيحاً هو أنه أراد أن يُعرَفَ كمسلمٍ سنيّ (مثل أغلب الأفغان) وليس شيعياً (مثلما كان أغلب الإيرانيين). أيْ أنه أرادَ أن يَضَع نفسه في التيار الإسلامي العام وليس فيما كان يَعتَبره أكثر المسلمون في وقتِهِ طائفةً منحرفة أو هامشية. ولا شك بأنه نجح في ذلك لأن مهمته سارتْ به في كافة أرجاء العالَم الإسلامي من أفغانستان إلى مصر ومن اسطنبول إلى الهند.

بالنظر إلى نشاطاته لن نُخطئ إذا اعتَبرنا الأفغاني نسخةً اسلامية من أحد كبار الثوريين الأوروبيين من أمثال ميخائيل باكونين Mikhail Bakunin أو ألكساندر هيرزن Aleksandr Herzen أو جوسيبي مازيني Giuseppe Mazzini فقد قضَى حياته مثلهم في محاولةِ إيقاظ معاصريه وإعطاءِ شكلٍ واضح لتَذمّرهم واستيائهم. ألقَى مواعظه في مصر والامبراطورية العثمانية وبخارى والهند وإيران. وعلى العكس من المتطرفين الأوروبيين فقد فكَّرَ في البداية على الأقل أنه يستطيع الذهاب مباشرة إلى الحكام المحليين مثل أمير أفغانستان وشاه إيران وسلطان تركيا ليحفِّزهم على قيادة حركةٍ مضادة للغرب، ولكنه فَشِلَ في ذلك. فقد كان الحكامُ الذين ذهبَ إليهم مكتَفين تماماً برشفةٍ صغيرة على مائدةٍ بريطانية أو روسية عندما يتمكَّنون من تجنب التَّحكم البريطاني، وكانوا

أكثر اهتماماً بالاستمتاع بامتيازات المُلك من تَبَني القضايا. ولكن مكانةَ الأفغاني منَحَتْهُ فرصةَ الوصول إليهم.

حسبما هو معلومٌ كانت عائلته تَنتَمي إلى النُّخبة الدينية، وكان يَستخدِم لَقَبَ "السيّد" الذي يدل على النُّبل والأصل الذي يَنتَمي إلى نَسْلِ النَّبي. وكان يرتدي عمامةً سوداء ليؤكد على علاقته بمحمد. أخفَى في الوقت نفسه أصولَه الإيرانية وكذلك شبابه بقدر ما استطاع. ما نَعرفُهُ عن قصة حياته مليءٌ بثغراتٍ طويلة ولذا فما سأسردُهُ فيما يلي ليس سوى تقديراتٍ وتَخمين.



جمال الدين الأفغاني. هذه الصورة حوالي 1882. كان المُبَشِّر السياسي للعالَم الإسلامي في القرن التاسع عشر. نَشَرَ الصَّرخة ضد الأمبريالية من أفغانستان إلى مصر، وتأثَّرَتْ بكتاباته أجيالٌ من المسلمين من جافا إلى المَغرب.

يبدو أن الأفغاني قد دَرَسَ في البيت لأننا لا نَعرفُ له ذِكْرَاً لمَدرسة، وربما ذهب إلى واحدة أو أكثر من المدن العراقية الشيعية لتَلَقّي تعليمٍ ديني نظامي. وبطريقة ما، ربما في النّجَفْ أو الخادمين أو في مكان آخر فقد حَصَلَ على تعليمٍ مثير للإعجاب في اللغة العربية والشريعة الإسلامية والفلسفة. كانت هذه المواضيع جوهَرَ ولبّ الدراسات الإسلامية وأصبَحَ فيما بعد محاضِراً فيها. كان يَتَباهَى بمعرفته هذه المواد ولكنه أخفَى مِنْ أين حصَلَ عليها.

أولُ تاريخٍ محدَّدٍ وموثَّقٍ إلى حدٍّ ما عن حياته هو في حوالي سنة 1855 عندما ظَهَرَ في الهند. وحتى آنذاكً كان مُحاطَاً بالغموض. يبدو أنه كان قد قرَّرَ تَبني شخصيةٍ أفغانية أو تركية

ووصِفَ بأنه كان يرتدي ملابس تركية من وسط آسيا. لم يكن ذلك مناسِباً للتَّخفي لأن حكام الهند البريطانيين كانت لديهم قوة أمْنٍ شديدة الحساسية بل متَخَوِّفة دائماً من أنّ جواسيس روس يَختبئون في كل زاوية. كانت إقامتُهُ هناك خلال فترة تمرد الجنود الهنود، ولذا فقد اعتُبِر شخصاً مشبوهاً كزعيمٍ مسلم مثيرٍ للقَلاقل. وربما كان عليه اختيارَ ملابس غيرها إذا كان يريد التَّخفي. وربما كان لا يريد الاختباء بل كان يريد أن يُخفي أصوله الإيرانية الشيعية. وحسبما هو معروفٌ فقد قضَى أربع سنوات في الهند.

لا يُعرَفُ ما الذي فَعَلَهُ هناك بالتفصيل، ولكن في نهاية سنواته الهندية يبدو أنه حَجَّ إلى مكة. ومن هناك يبدو أنه سافَرَ عبر سورية والعراق وإيران إلى أفغانستان. والمصادِرُ متناقضةٌ ولكن يبدو أنه قد استُقبِلَ بل وتم توظيفُهُ من قِبَلِ الحاكمِ الأفغاني دوست محمد خان Dost Muhammad Khan. وبعد وفاة الحاكم سنة 1863، غادَرَ أو ربما اضُّطر إلى مغادرة البلاد. وبطريقة ما يبدو أنه ذهَبَ إلى مصر حيث بقي فترةً كانت كافية لكي ينضَمَّ إلى محفلٍ ماسوني ويلتقي ببعض رجال الدين المسلمين الشباب الذين كان بينهم رجلٌ سيُصبِح أكثر المتعاونين معه أهمية وهو محمد عبدو. ثم تابَعَ سَفَرَهُ إلى اسطنبول قبل أن يعودَ إلى مصر سنة 1871 حيث استقَرَّ به المقام وظلَّ في القاهرة يحاضِر طلبةَ الدين الشباب في منزله وفي مسجدِ جامعة الأزهر مدة ثماني سنوات.

ما الذي كان يفعله في تلك السنوات بحيث أنه اضطر للتفكير بضرورة إخفاء نفسه؟ تَحمِلُنا الإجابةُ إلى قلب النشاطات السياسية-الدينية في ذلك الوقت.

ضَرَبَ البريطانيون عَرْضَ الحائطِ بأفغانستان، البلد التي ادَّعى أنها كانت مكان ولادته، فبعد ولادته بقليلٍ احتَلَّ البريطانيون الجزءَ الجنوبي من البلد، وبعد طَردِهم عادوا إليها وقاموا بحملةٍ انتقامية. في الوقت نفسه كان الروس يَضغطون على المنطقة الشمالية. وفي الجزائر كانت الثورة الإسلامية التي قادَها عبد القادر تقومُ بعملياتِ قتال ضد مؤخرة الجيش الفرنسي والمستعمِرين الأوروبيين. عَرِفَ الأفغاني خلال إقامته في الهند بكل ما حَدَثَ مِن قَمعٍ عنيف لتمرد الجنود الهنود وتدمير الامبراطورية المُغولية التي كانت ذات مرةٍ واحدةً من أعظم الدول الإسلامية، وكذلك ضَمُّ الهند إلى الامبراطورية البريطانية. ولا بد من أنه سَمِعَ مراراً خلال أسفاره قَمعَ الروس لحركة الإمام شامل الإسلامية في القوقاز وتَهجير كل الأمة الشيشانية تقريباً وجزءاً كبيراً من تتار القِرم. وفي آسيا الوسطى كانت سلالة كينغ Qing Dynasty تُحَطِّمُ خانات الأويغور، وفي سومطرة كان الهولنديون مُنغَمِسون في حربٍ ستدمرُ حركة الاستقلال الوطنية وتَقتُلُ مئات الآلاف من المسلمين. عندما وصَلَ إلى مصر كان الشباب الذين أصبَحوا مقرَّبين منه منهمكِين في محاولةٍ فاشلة قامَ بها زعماءُ الجيش المصري لكَسرِ السيطرة البريطانية على الحاكِم المصري. باختصار، حيثما نَظَرَ مثقفٌ مسلم سيجِدُ أنّ عالَمَه يتحطمُ تحت ضربات الأمبرياليين البريطانيين والفرنسيين والهولنديين والروس والصينيين.

لا يستطيع أحدٌ أن يَعرِفَ الدوافعَ الحقيقية والمخاوف والآمال لأي شخص آخر فكيف لشخصيةٍ مثل الأفغاني! ربما تَغيَّرتْ مشاعرُهُ مع تَغيُّرِ الأحداثِ والفرص المُتاحة. ولكن إحساسي الداخلي هو أنه أراد ألا يُخطِئَ أحدٌ في فَهمِ رسالتِه أو يُقلِّلَ مِن شأنها مثلما يمكن أن يحدُثَ لو أنه اعتُبِر إيرانياً شيعياً. احتاجَ إلى نوعٍ من التَّخفي لكي يُحَقِّقَ رسالَته.

تركَّزتْ رسالَتُهُ في اقناع جميع المسلمين العقلاء بأنهم يجب أن يتعامَلوا مع مسألتين أساسيتين مترابِطَتين: كيف يمكنهم تحقيق الاستقلال بحيث يكونون أحراراً ويستطيعون الرجوع إلى أصول الإسلام، وكيف يكونوا مسلمين صالحين بحيث يصبحون أقوياء ويستطيعون تحقيق الاستقلال ويحافظون عليه[191].

أشكُّ بأنه لم يكن متأكداً أي من هاتين المسألتين يجب البَدء بمواجهتها. من المعقول أن يتم ترتيبهما حسب المستمِعين له: مع رجال الدين المسلمين يضَعُ الأولويةَ في ضرورة فهم الإسلام وممارسته الصحيحة، بينما مع الحكام فإنه يؤكِّدُ على السياسات التي تُحَقِّقُ استقلالاً أكبر. وحسبما نَعلَمُ فقد كان يَفعَلُ ذلك. عندما أسترجِعُ ما هو معروفٌ عن سيرته وأفكاره وما هو مُتفَقٌ عليه فيها أجِدُ أنه اتَّبَعَ ثلاث طرق في التعامل مع علاقة الإسلام بالاستقلال.

الجانب الأول من برنامجه هو أن يَظهَرَ كحليفٍ حقيقي وأن يُقنِع كل من يتعامَل معهم بذلك. ولكي يَفعل ذلك كان عليه أن يَظهَر كشخصيةٍ دينية قويمة. ولذلك اتَّخَذَ لقب "الأفغاني" كما ذكرتُ سابقاً. ولكن اتِّخاذ هذا اللقب وألقاباً أخرى تُظهِر علاقته بتركيا العثمانية لن تَخدَعَ كثيراً من المسلمين الذين تَعامَل معهم إذا لم يُظهِر في محاضَراته وكتاباته مَعرفةً عميقة بالشريعة الإسلامية الواسعة. كان مَن تجمَّعَ حولَه يَعتَبرون أنفسَهم طلابَه على الرغم من أن بينهم من كان يُعتَبر مِن أفضل وألمَعِ علماء المسلمين في عصرِهم، وأظهَروا كل الدلائل على قبوله.

طريقته الثانية كانت أن يتَّخِذَ مِنبراً لرسالته. في مصر ألقَى سلسلةً متواصلة من الندوات والمحاضرات، وربما اجتمَعَ الزّهطُ عادةً في مسجد جامعة الأزهر حيث كانت عادةً المحاضرين آنذاك أن يتَّخِذوا لهم مكاناً يتحدثون فيه بحرّية لِمَن شاء أن يستَمع. كما جَمَعَ أتباعَهُ في منزله حيث عَقَدَ نوعاً من الصالون الفكري[192]. كتَبَ ألبرت حوراني، وهو أحد أكثر الدارسين حساسيةً للفكر الإسلامي في تلك الفترة، أنّ الأفغاني علَّم المصريين "العقائد والفقه والروحانيات والفلسفة" أي جميع المواضيع الأساسية التي يُغطّيها محاضرٌ في مسجدِ جامعة "ولكنه علَّمَهم أشياءَ إضافية أيضاً: خَطَرُ التَّدخل الأوروبي، وضرورة الوحدة الوطنية لمقاوَمته، وضرورة الوحدة الإسلامية على نطاق أوسع، وضرورة وجودِ دستور يحدُّ مِن سلطة الحاكم"[193].

ليس من المعروف مدى اطلاع الأفغاني أو صِلته بمجموعاتِ الحِوار خارج مصر، ولكن لا شكّ بأنه أدركَ أن انعزالَ المسلمين عن بعضهم بعضاً لا يمكن أن يُحقِّق ما أراد. فقد آمَن بأن الطريقة الوحيدة لنجاح برنامَجه هي أن ينتَشِر ويُغطِّي كافة أرجاء العالَم الإسلامي. ولذا فقد كان يحتاج إلى وسائل مختلفة لنَشرِ أفكاره. في مجموعةِ مقالاته "الرد على الدهرية" سنة 1881، حاوَلَ أن يضَعَ أفكاره ويُثبِتَ شهاداته كمفكِّرٍ إسلامي. كان ذلك الكتابُ مؤثِّراً إلا أنه لمْ ينتَشِر على نطاقٍ واسع. ولكي يَصِلَ إلى جمهورٍ أوسع، احتاجَ إلى وسيلةِ تواصلٍ مختلفة تَوفَّرتْ خلال حياته بظُهور الصحف العربية والتركية.

لا بد من أن الأفغاني قد لاحَظَ زيادةَ شعبيةِ وانتشار الصحف التي كانت تنشأ آنذاك في القاهرة وبيروت واسطنبول. ولكنها لم تكن مفيدةً لأهدافه، فعلى الرغم من وصولِها إلى جمهورٍ

واسع، إلا أنها لم تكن تحتوي سوى على التَّرفيه والأخبار. لم تكن الأخبار هي ما أراد توصيله بل التَّوجيه والإرشاد. والجمهور الذي أراد توعيته لم يكن محصوراً في مصر فقط، وجريدةٌ توزَّعُ في القاهرة لن تصِلَ إلى المسلمين اليائسين الذين حُشِروا في الأحداث الدامية التي كانت تدور في اندونيسيا أو بخارى أو تونس. كان يبحَثُ عن قاعدةٍ تَمنحه الحرّية للكتابة وكذلك تَنشُرُ وتُوَزِّعُ ما يكتُبه. قرَّر أنه لا يوجَد مكان مناسب لذلك في العالَم الإسلامي، وربما لا يمكن أن يوجَد. قد يُمنَع أو يُقبَض عليه فوراً في مصر أو في الهند البريطانية أو إيران. ولذلك اتَّجَه هو ومساعده رجلُ الدين المصري محمد عبدو إلى باريس حيث أسّسا نوعاً من "الجريدة" تشبه الصحف التي كانت تُنشَر قُبيل الثورة الأمريكية، لكي تُنقَلَ فيها نصائحُهُ وآراؤه إلى أنديةِ المناقَشَة الصغيرة التي كانت مُنتشِرةً في أنحاء العالَم الإسلامي وكانت تُقرَأ بنَهَم.

الطريقة الثالثة التي اتَّبَعها الأفغاني هي محاولة إقناع الشخصيات القوية والمؤثِّرة في زمنه بالنضال في سبيل الاستقلال الحقيقي. ذهَبَ مباشرةً إلى القمة ونَقَلَ رسالته إلى السلطان-الخليفة في الامبراطورية العثمانية، وإلى شاه إيران، وأمير أفغانستان. سَعَى لمقابلتهم ومقابلة مستشاريهم كلما استطاع. لاقَتْ تلك المقابلات فشلاً ذريعاً واتَّهَمَه خصومُهُ بالتَّزلف والانتهازية. اعتَقَدَ الحكام في تلك الفترة، مثلما هم في كثير من الدول الإسلامية هذه الأيام، أن تعاونهم مع القوى العظمى ضروري لبقائهم. حتى أولئك الذين كانوا يعارِضون الأمبرياليين في السّر كانوا مستعدِّين تماماً للعمل معهم لكي يَحتَفِظوا بامتيازاتِ الحكم، وأدرَكوا بشكلٍ صحيح أن ما يَدعوهم إليه الأفغاني سيُنهي حكمهم وربما يَقضي على حياتهم.

لا بد من أن الأفغاني كان يدرِكُ ما يؤدي إليه برنامجه، ولم يكن لديه أي شك بوجهة نَظَرِ الحكام إليه، فقد طُرِد من أفغانستان ومصر والامبراطورية العثمانية وحتى من إيران. ربما تمكَّن من الوصول إلى هدفه بشكل أسرع لو استطاع أن يُقنع أي من حكوماتهم لتَبنّي القضية، ولكنه لم يستطع. وعندما فَشِلَ مع الحكام، كان عليه أن يحاول تَحفيز الشعب. ولم يتضَمَّن "الشعبُ" جماهيرَ الأميين والفقراء، لأنه لم يكن اشتراكياً رومانسياً مثالياً. ولم يوجِّه رسالته "إلى عمّال العالَم" الذين خاطَبهم كارل ماركس، لأن إحدى نتائج الأمبريالية هي أنها لم تَترك إلا قليلاً من العمال الصناعيين في الجنوب العالمي. وفي غيابِ جمهورٍ أفضَل حاوَلَ أن يتواصَل مع الفئة التي طالما ارتاب فيها الماركسيون ونَفَروا منها، وهي فئةُ النُّخبة المثقَّفة.

كانت رسالته إلى النُّخبة المثقَّفة بسيطة: يجب أن يرجع المسلمون إلى أصول دينهم إذا كانوا يأملون بتحريرِ أراضيهم من الأمبريالية. يجب أن يَنهَضوا بأنفسهم لتحقيق هذه المهمة لأنهم لن يَتلَقوا المساعدةَ من أي أجنبي. كانت لديهم القدرة على ذلك وقد بَيَّنَ لهم أجدادُهم أن الإسلام قوة فاعلية حقيقية وأن سبب ضعفهم الحالي ليس الإسلام بل تَفرقُهم وتَشتتهم. وكما كتَبَ الحوراني فإن رسالته كانت "تَحفيز المسلمين على فَهمِ دينهم بشكل صحيح وعلى العيش وِفقَ تعاليمه. آمَن بأنهم إذا فَعلوا ذلك فإن بلادهم ستكون قوية بالضرورة"[194].

كان المصريون أفضل مَن قرأ رسالته، وكان منهم في المقام الأول تلميذه ومساعده أحياناً الشيخ محمد عبدو[195].

على الرغم من أن محمد عبدو أصبَحَ فيما بعد محتَرماً جداً كرئيسٍ جامعة الأزهر التي كانت قَلبَ الدراسات الإسلامية، وقاضي قضاة المحكمة الإسلامية المصرية، إلا أنه في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر اعتُبِر والأفغاني أنهما غرباء يصعب تحمّلهما، وتَنَقَّلا بين أنصار في مجلسهما أو في المَنفى.

خلال الفترة التي كانا فيها معاً في مصر سنة 1882 ثارَ الجيشُ المصري في الاتجاه الذي كان الأفغاني يَدعو إليه إلى حدٍّ ما ولكن ليس بالطريقة التي يُفَضّلها. كان لدى قائد الثورة الضابط المصري أحمد عُرابي أسبابه الخاصة القوية للقيام بذلك، ولكن بغضِّ النَّظر عن دوافعه فقد كانت الثورة نقطةَ تَحوّل في الشعور الوطني المصري، وأصبَحَ عُرابي في النهاية بطلاً قومياً. إلا أنه في ذلك الوقت لم يهتم أحد به كثيراً ولم يتَقَبَّل فكرة الاستقلال التام سوى قلةٍ من المصريين. أدَّتْ هزيمةُ الجيش المصري حينها إلى تَثبيت الأمبريالية في مصر: لم يكن لدى البريطانيين أية رغبة بالسَّماح للمتمردين تَنمية الروح الوطنية. طُرِدَ الأفغاني من مصر ونُفِيَ محمد عبدو داخلياً للإقامة الجبرية في قريته.

بعد سلسلةٍ من التحركات، التَقَى الأفغاني وعبدو في باريس وتواصَلوا مِن هناك مع جمهورهم الحقيقي، النُّخبة المثقَّفة مِن مسلمي العالَم. أسَّسا سنة 1884 مجلةَ "العروة الوثقى" التي لم تستمر طويلاً ولكنها كانت عظيمةَ التأثير[196]. كانت رسالتها أنه يجب إنهاء السيطرةِ الأوروبية والخضوع الشرقي، وأن الطريق إلى تحقيق ذلك هي في النهوض بالإسلام وجَعله العقيدةَ الحاكِمة.

تابَعَ محمد عبدو بهدوء في مصر بعد عودته إليها ما كانا يفعلانه معاً في مجلتهما. وقامَ بتدريس مجموعاتٍ صغيرة من الطلاب لكي يُفكِّروا بالإسلام كنظامٍ حركي حيّ منفتح على التجديد ومَعنِيّ دائماً في إرشاداته بالقضايا المعاصرة. خَفَتَ اهتمامُه بالأمبريالية في السنين التي تَلَتْ عودته إلى القاهرة سنة 1888، ولم يكن أصلاً بالحِدَّة والشّمول الذي كان عند الأفغاني. صادَقَ حكام مصر البريطانيين وقَبِلَ مناصِب حكومية، ولكن إيمانه بقوة الإسلام كما يَفهمُه ويَعرفُه لم يَضعف أبداً، وكان إيمانُه ذلك هو ما نَقَلَهُ إلى طلابه.

كان السوريّ رشيد رضا واحداً من أشهر تلامذته، وتابَعَ جهود محمد عبدو في التَّعامُل مع القضية المركزية التي طَرَحَها خصومه وغير المؤمنين: "هل من الممكن استعادة مَجْدِ الشرق من خلال قوة الإسلام؟" كانت إجابةُ رضا هي "نعم! وألف مرة نعم!"[197]. كان المفتاح حسب رأيه هو العودةُ إلى بداية الإسلام قبل أن تشوهه وتضعفه البِدَعُ، وعلى النُّخبة المثقَّفة مِن المسلمين لكي يِنجَحوا في ذلك أن يرجعوا إلى اللغة العربية التي تمّ غَزوها بالكلمات الأجنبية وإضعافها بخسارة المعاني الأصلية مثلما حَدَثَ للإسلام، وبما أن العربية هي اللغة التي أوحَى بها اللهُ رسالته، فَعَلَى الإنسان أن يَتَعَمَّقَ في دراستها لكي يَفهَم الرسالة.

أسَّسَ رضا مجلةً لنشر أفكاره مثلَما فَعَلَ الأفغاني ومحمد عبدو. أثبتَ الأفغاني ومحمد عبدو قوةَ المجلات الصغيرة التي كانت طباعتها قليلة التكاليف ويسهل تبادلها بين القراء بحيث أن كل نسخة يمكن أن تَجِدَ طريقها لأكثر من عشرة قراء، وبهذه الطريقة تمكّنوا من الوصول إلى المتَعَطشين

للأفكار في العالَم الإسلامي. يمكننا مُتابَعة أثَر نفوذِ الأفغاني من تونس في الغرب إلى بخارى في آسيا الوسطى[198].

أَطْرَى الذين قَلَّدوا الأفغاني ومحمد عبدو عليهِما، وفي الفترة التي كانوا صامدين فيها، أطلَقَ المفكرون التتار والأتراك في بخارى وما حولها وفي شبه جزيرة القِرم رسالةً مماثلة. كان أكثرهم أهميةً اسماعيل بك غاسبرينسكي Ismail Bey Gasprinskii الذي أسَّس سنة 1883 مجلة "الترجمان" التي كانت تُقرأ في الامبراطورية العثمانية وروسيا والهند[199]. نُشِرتْ باللغة التركية العثمانية بدلاً من اللهجة التركية المحلية، وكانت تُقرأ في كل مكان في الشرق. كانت رسالتها موجزةً في شعار "الوحدة، اللغة، الفكر، العمل"، وقيلَ إنها كانت "بالنسبة لجيلٍ كامل الصحيفة الإسلامية غير الرسمية الوحيدة ذات التأثير في الامبراطورية الروسية"[200].

قدَّمَتْ هذه المجلات وغيرها من النشرات الكثيرة انتقاداً معاصِراً لما توصَّل إليه كثير من المسلمين واعتَقَدوا أنه مصدرَ ضَعفِهم: تَحَجُّر رجال الدين وفساد الحكام المحليين الدُّمَى الذين لم يتمكَّنوا من وقفِ تقدّم الأمبرياليين بل وتعاونوا معهم أحياناً.

عندما نتأملُ هؤلاء الرجال وحركاتهم نُشاهِدُ نمَطاً عاماً من الفشل. والسؤالُ الذي سيؤرِّق الأجيال التالية هو: لماذا؟!

إحدى الإجابات الواضحة هو أنّ الشمال العالمي كان بكل بساطة قوياً جداً بالنسبة للجنوب. كان المسلمون الذين يقاوِمون ويناضِلون في سبيل الاستقلال في كل مكان يُهزَمون بالقوة العسكرية. كان زحفُ الجيوشِ الشمالية في الجنوب شامِلاً ولا يمكن وَقفُه. فرنسا في الجزائر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، بريطانيا في الهند من نهاية القرن التاسع عشر حتى جَعَلَت الهند جزءاً من الامبراطورية البريطانية في 1858، روسيا في آسيا الوسطى والقوقاز والقِرم في منتصف القرن التاسع عشر، والصين في خانات حوض نهر التريم والدولة الأويغورية في ستينيات القرن التاسع عشر. ومع ذلك فقد لاحَظَ مسلمون أذكياء أن التدخل العسكري كان ضرورياً ولكنه لم يكن تفسيراً كافياً للهزيمة. لم تكن القوة العسكرية إلا جزءاً من الانهيار الذي طَمَرَ الجنوب. كان هنالك مزيد من الأدوات في جعبة الشماليين.

كانت أولى هذه الأدوات وربما أكثرها فاعلية لدى الأمبريالية هي القوة التجارية. أَنتَجَ الشمالُ العالمي أشياء أفضل بأسعار أقل، وكان السكان المَحَليون يتلقَفونها بلهفة. أُجبِرَت الصناعاتُ التقليدية على التوقف عن العمل. بَدأتْ هذه النزعات بالظُّهور في شرق المتوسط في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وانتَشَرتْ عبر أفريقيا وآسيا، واشتَّدتْ في السنوات التالية عندما أَغرَى رجالُ البنوك الأوروبية الحكومات بقروضٍ لم يتمَكَّنوا من إيفائها (نشاهدُ تصرفات مماثلة هذه الأيام في أنحاء أمريكا اللاتينية واليونان إلى حدٍّ ما). تمَّ مَنحُ قروضٍ لمصر وإيران والامبراطورية العثمانية حتى أعلَنوا إفلاسَهم. كان أمراً جديداً أن تُعلِنَ دولةٌ إفلاسها. من أجل تمويلِ نمَط حياتهم المُترفة كان الحكام يستطيعون دائماً "حَلْقَ خرافِهم" كما وصَفَ السلاطنةُ العثمانيون رعيَّتهم. ولكنهم لم يتمكَّنوا من ضغطِهم وعَصْرِهم للحصول على ما يكفي لدَفْعِ تكاليف المشاريع الكبيرة، مثل قناة السويس التي أغراهم المصرفيون الأوروبيون بتنفيذها في منتصف القرن التاسع عشر.

ما كان أقلّ وضوحاً هو القوة الثقافية للدول الأمبريالية. ذَكَرتُ ملاحظاتي عن مؤتمرٍ حضرتُه نخبةٌ من كبار المثقفين العرب الذين كانوا يستطيعون التَّعبير عن أفكارهم ووجهات نَظَرهم بلغاتٍ أوروبية ونمط تفكيرٍ أوروبي. تَحرَّكَ الجسر الثقافي بين الشمال والجنوب غالباً في اتجاهٍ واحد. في السنوات الأولى من القرن العشرين بدأتْ أعمالٌ كثيرة تُنشَر مترجَمةً من الروسية والألمانية والفرنسية والانكليزية إلى اللغة العربية والتركية والفارسية، ليس فقط في مدنٍ متطورة مثل دلهي والقاهرة واسطنبول، بل حتى في مدن أبعد مثل طشقند وسمرقند[201]. وما زالتْ ترجَماتُ الدراسات والأعمال الرائجة من اللغة العربية والتركية والأوردية وغيرها من اللغات الشرقية إلى الفرنسية أو الانكليزية نادرةً حتى في هذه الأيام.

وأخيراً كانت هناك قوةُ التنظيم. تَعلَّمَ الغربيون كيف يَعمَلون معاً لتحقيق أهدافٍ مشتركة بطرق لم يَعرفها المسلمون. كانت المجتمعاتُ المسلمة متفرقةً غالباً تفصلها خطوطُ صدعٍ عَزلَتْ بين قبائل وقرى ومقاطعات كاملة، وبالتالي فَصَلَتْ بين حكام ودول وامبراطوريات مُتنافِسةً. على كافة المستويات كان من الممكن تَحفيز السكان الأصليين لمساعدة الغزاة الأمبرياليين في التّغلب عليهم. لم يكن الإسلامُ قادراً على بلورة مقاومةٍ فعّالة كما كان يُفهَمُ ويُطَبَّقُ بينهم آنذاك، بل إن مزيداً من المسلمين أخذوا يَعتَبرونه غير ذا صلةٍ بالموضوع. اعتُبِر تقدُّمُ الشمال العالمي وكأنه انهيار محتَّمٌ لا يمكن إيقافه. وأخَذَت الحكومات والتجار وعامّة الجماهير وحتى علماء الدين يتعامَلون معه حتى لو اعتَقَدوا أنه مُفسِدٌ ومُخرِّب. كتَبَ الشاعرُ العظيم محمد إقبال يصِفُ الهجمَةَ الأمبريالية على شعوب "جنوب الأرض" بأنها "بشعة وشريرة، ليس فقط بالنسبة لمن تَستَغلَّهم بل للعالَمِ أجمَع"[202]. كتَبَ عن الأمبريالي:

البشَرُ هُمُ القافلة وهو قاطِعُ الطَّريق

في غَمرَةِ غُروره وجَهلِهِ

يُسَميّ السَّلبَ والنَّهبَ امبراطوريةً[203]

أدرَكَ القادةُ الساخطون في كافة أنحاء العالَم الإسلامي الحاجةَ لإيجاد إطارٍ جديد يناسِبُ مقاوَمتهم. كان الإطارُ الجديد الذي أشعَلَ آمالهم هو القومية. أتوجَّهُ الآن لبحث هذا الاتِّجاه الجديد في التَّفكير.

الجزء الثالث

الاتّجاه نحو القومية العَلمانية

في أواخر القرن التاسع عشر بدأ أفرادٌ ومجموعات مِنَ المُهتَمين تدريجياً وعلى مراحل مختلفة في كافة أرجاء العالَم الإسلامي بإدراكِ أنّ مجرد كون المَرءِ مسلماً لم يوقِف الغزوَ الأوروبي ولا حتى بتنظيم الدِّفاعِ مع مسلِمينَ آخرين، فقد كان الشمالُ العالمي قوياً بشكل مُطْلَقٍ والجنوبُ العالمي ضَعيفٌ بالنسبةِ لَه. وبما أن الإسلام كان إيديولوجيةَ حركاتِ المقاوَمة فقد أرجَعَ بعضُ المسلمين سببَ الهزيمة إلى الإسلام بذاته. وسواء كان الإسلام مسؤولاً أم لم يكن فإنه لم يُقَدِّم حَلاًّ. بَدأَ بعضُ المفكّرين والناشطين بالبحث في أوروبا عن "سِرِّ" قوةِ الشمال العالمي ومفتاح فَهمِ أسباب عدم التوازن في القوى بين الشمال والجنوب.

كان بحثُهم مثل بَحثِ العُميان، لأنه حتى حوالي منتصف القرن التاسع عشر لم يكن لدى المسلمين أية رؤية عن الشمال العالمي. فقد كانوا لا يَرون إلا أنفسهم على مَرِّ القرون. كانت المجتمعاتُ المسلمة ممزقةً ومُتفَرقة، وكانت قُواهم الفكرية مُحَوَّلَة، وأدَّى حِرصُ حكامهم على مصالحهم الشخصية إلى إبقاء غالبية السكان في جهلٍ وغَفلة، وسيطَرتْ بيروقراطيةٌ دينية على مؤسساتهم التعليمية، ولم يَعرِف سوى قليلٌ منهم أيَ لغة واسعة الانتشار سوى اللغة العربية والفارسية والتركية العثمانية. تحتاجُ هذه الحواجز أجيالاً لتَخطِّيها. كان الشمال العالمي عالَماً غريباً وهبَطَ عليهم فجأة.

تتالَت الهزائمُ العسكرية واحدة بعد الأخرى، أُسقِطَتْ حكوماتٌ أو أُعلِنَ إفلاسُها، وعَلِقَ المواطنون في التَّغيّرات المُربِكَة. خَلَعَ الرجال لَفَّةَ الرأس ولبِسوا الطربوش (المصنوع في فرنسا) باسم "الكفاءة"، وتَناولوا طعامَهم مِنَ الصحون (المستورَدة من النمسا)، بينما جلَسوا لأول مرةٍ على كراسي (جُلِبَتْ من انكلترا) بدلاً من السجاجيد. أصبح التفكيرُ بأن القيام بالأمور حسب الطرق القديمة هو دليلُ تخلّفٍ وليس تَمَسُّكاً بالتُّراث. واتَّخذَتْ كلمتان مَعنىً جديداً: لم تعد كلمةُ "جديد" تَعني سلوكاً غير مُحَبَّذ، بل أصبَحتْ تَدلُّ على التَّقدم والذَّكاء. كما أن كلمةَ "التَّغَيّر" التي كانت تدلُّ على التَّخمر والفساد، أصبَحَتْ تُشيرُ الآن إلى ما يجبُ على الأذكياء أن يَفعَلوه لكي يَصِلوا إلى السلطة والاحترام. بأساليبَ صغيرةٍ عديدة تمَّ التَّخلي عن العادات القديمة لتَحلَّ محلّها طرق جديدة، وتَبدلَّت الرغبةُ بالمُحافَظَة إلى إدراك الرغبة في التَّغيير. ولكن تسارع وسِعَةَ مجال هذه التغييرات هَدَّدتْ بابتلاع المجتمع ولم يَعد يَعرِفُ أحدٌ ما هو الصحيح والمناسِب ولا حتى ما هو القانوني والشرعي.

وصَلَت الموجةُ الأوروبية إلى شواطئ العالَم الإسلامي عندما كانت أمَمُ الجنوب الناشئة في أعماق اليأس بسبب ضَعفِها. استجاب الناشطون والمفكّرون في أنحاء الجنوب بمقارنة أنفسهم بالأوروبيين، ووجَدوا أن الأوروبيين مشحونون بالثقة بينما كانوا هم مرتَبِكين، والأوربيون أقوياء بينما هم ضعفاء، والأوربيون مُتَّحدون بينما هم مُتَفرّقون بينما كان قرآنُهم وأساتذتُهم وزعماؤهم يقولون لهم ألّا داعيَ للقَلق! ظلَّت الحقائقُ القديمة مستمرة. لم تكن المظاهر حقيقية، فما الذي يمكن أن يُصَدِّقوه؟ وضَعَ بعضُهم هذه التساؤلات جانباً وحَمَلوا السيفَ مثل الإمام شامل في القوقاز. وبدأ بعضُ المفكّرين الراديكاليين بالتساؤل عما كان "إسلامهم". هل كان ما جاء به محمد؟ أم ما شاهَدوه في مدارسهم ومساجدهم؟ هل أصِيبَ بالضّمور والهُزال؟ هل تم تشويهه بأفكار وأعمال لا يمكن أن يَتعرَّفَ عليها محمد؟ هل أصبَح كَهنوتياً بيروقراطياً لا يسمَعُ قضايا العصر؟ هل يمكن إحياؤه؟ وعلى مستوى أكثر دنيويةً، هل من المَسموح لبس الطربوش والأكل من الصحون والجلوس على الكراسي وتَبَنّي كثير من التغييرات المختلفة التي تَعني في الحقيقة الاتّجاه نحو أوروبا؟ أما زالت كلمة "تغيّر" تدلُّ على "الفساد"؟ ظلَّتْ هذه التساؤلات تتكرر مراتٍ ومرات على طول العالَم الإسلامي.

لم يَعرف المسلمون أن تلك الأفكار والعادات الجديدة كانت صعبةً على الأوروبيين في تقبُّلَها أيضاً. كانت مجتمعاتهم مُتفَرقة أيضاً، ومؤسساتهم الدينية والسياسية في الغالب تافهة وخانقة، وكانت غالبيةُ شعوبِهم فلاحين قرويين غير متعلمين وفقراء متمسِّكين بالماضي.

عندما نَنظُرُ إلى الوراء (وكذلك المفكرين الإسلامين فيما بعد) نَرى أن قِوى التّغيير حتميةً لا يمكِن أن تُقاوَم، ولكنها لم تبدو في ذلك الحال آنذاك. وكان هنالك تنويعاتٌ كبيرة في نوَع التغيير الذي كان يَحدث وتوقيت حدوثه. ما نَعرفُهُ الآن وكان غير واضح آنذاك هو أن الشمال العالمي كان يَمُرُّ بثورةٍ معقدة في الفِكر والعلاقات الاجتماعية وطرق كسب المَعيشة والتوقعات من الحياة. لم يَعرف المسلمون ما كان يجري في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر، ولكنه سيَلعَبُ دوراً حاسماً في أحداث مستقبل العالَم الإسلامي. سأركّز هنا فقط على التأثير التنظيمي لمفهومٍ جديد في العلاقة بين الشعب والدولة، وهو القومية.

الهوية العاطفية والإيمان بفكرةٍ مجردة هي "الأمَّة" ولِدتْ ونَشَّطتْ الفرنسيين. كان إيمانُهم بالروح القومية الجديدة وراءَ انتصارات نابليون. انتصَرَ على المصريين وعلى النمساويين ليس فقط بفضل تكتيكاته الأفضل، بل لأنه كان مَدعوماً بأمَّة مسلَّحة كاملة بينما تأخَّرَ آخرون في الانتباه إلى هذا المبدأ وتَطبيقِهِ في مجتمعاتهم.

أدهشَتْ حيويةُ الفرنسيين الضباطَ الروس الذين احتَلوا باريس بعد هزيمة نابليون، وحَمَلوا معهم ما فَهموه من القومية عندما عادوا إلى روسيا حيث نَظَّموا حركةَ الديسمبريين Decembrist Movement. حَفَزَّتْ مراقبةُ الفرنسيين يوهان غوتليب فخته Johann Gottlieb Fichte لسَردِ كتابِهِ الثوري "خطابات إلى الأمَّة الألمانية" الذي ركَّزَ أفكارَ الألمان على "ألمانيا" التي لم تكن موجودة آنذاك. كما قادَ جوزيبى مازيني Guiseppe Mazzini الطريقَ إلى الوحدة الإيطالية. انتَشَرَتْ فكرة الأمّة ببطءٍ وبشكلٍ غير متناسق. لم تُنَفَّذ رسالةُ فخته إلا بعد ذلك بستين سنة على يد

بسمارك Otto von Bismarck. وبعد أن أسّس مازيني "إيطاليا الفتاة" سنة 1834 قضَى أغلب حياته في المَنفى حتى وجَد نداؤه أخيراً آذاناً مصغية. شَحَنَت الأفكارُ التي طَرَحَها أجيالاً تالية من المسلمين، مثل توحيد الدول المتفرقة والقضاء على الأنظمة الرجعية الفاسدة والتّخلص من سلطة رجال الدين الميّتة.

وصَلَتْ فكرةُ القومية، أو على الأقل ردّ الفِعل ضد الأجانب، إلى بؤرة الاهتمام في منطقة البلقان بشكلٍ سريع مبكر وأكثر شعبية. ربما كان ذلك لأن الخَصمَ كان أجنبياً وحاضِراً. قادَ اليونانيون الطريقَ ضد العثمانيين الأتراك، وكانت قوميتهم دافِعاً لهم، واستطاعوا الحصول على استقلالهم خلال عَقدٍ واحد. انتَشَرت القومية من اليونانيين إلى قوميات أخرى في الامبراطورية العثمانية. وعندما تَوَصَّلَتْ واحدة بعد الأخرى إلى الشعور بهويتها الجديدة، كانت أمّة التّرك المُسيطِرة على الامبراطورية قد بَدأتْ أيضاً بالتساؤل فيما إذا كانت "عثمانيتها" قاعدةَ ارتكازٍ كافية لوجودها. شَعَّتْ محاولاتُهم لتحديد هويتهم في أرجاء العالَم الإسلامي. وسأتَحَوَّلُ هنا إلى بحث الشعور المُتنامي بالقومية.

الفصل السادس عشر

الكفاح من أجل تحديد الهوية

كان أول سؤال يجب أن يُجيبَ عليه أولئك الذين يَبحثون في مسألة القومية هو مَنْ أو ما هي الأمّة؟ طَرَحَ الألمانُ فكرةَ أنها مجموعةٌ من الناس الذين يتحادثون بلغةٍ واحدة مشتركة، أو ما أطلَقوا عليه بالألمانية Sprachnation. التَقَطَ الأخَوان غريم Grimm Brothers هذه الفكرة واستَخدَموا القصص الشعبية والأساطير لاستحضار ماضٍ مشتَرك لجميع الألمان. تَبَنَّى ذلك المبدأ ضياء غوكلاب Ziya Goklap الرَّجلُ الذي يمكن اعتباره أبو القومية التركية. ردَّدَ مشاعرَ الأخَوين غريم عندما كتَبَ أن أساس القومية التركية هو ما أطلَقَ عليه باللغة التركية اسم Turkceluk (جوهر التركية) وهو كما سَرَدَ:

"رابطةٌ أقوى وأعلى من العِرق والجماهيرية والجغرافيا والسياسة والمشاعر... يكتَسِبُ المرءُ أهمَّ وأعمَق مشاعِره في فترة الطفولة، حينما يكون في المَهد يَستمِعُ إلى الهَنهَنات والتَّهاليل ويكون تحت تأثير لغةِ والدته... نَكتسِبُ دينَنا وأخلاقنا ومشاعرنا الفنية التي تَمنَحُ الوجودَ لأرواحنا من خلال هذه اللغة... كل شيءٍ في حياتنا هو ترديدٌ وصَدى لما تَرَبَيْنا عليه"[204].

في المجتمعات المسلمة لم تكن أصواتُ الهَنهَنات والقصص الشعبية والحكايات الخرافية هي التي تُشَكِّل ذهنِيَّةَ وتفكير الأطفال، بل كانوا يَتَعرَّضون أيضاً إلى أصداء أخرى. إذ أنَّ قراءةَ القرآن هو أول ما يسمعه الأطفال ولو لم يَفهَموا ما يَسمعونه، وهي أقوى ما يُؤثِّر في تعليمهم وثقافتهم. حتى بين أولئك الكبار الذين لا يَفهمون تماماً ما تَعنيه لغةُ القرآن العربية، مثل الصوماليين والمورو والأويغوريين والقوقازيين، فإنّ موسيقى تلاوة آيات القرآن تَبعَثُ فيهم مؤثِّرات تَنويمية. ويبدو عند الأفغان والباكستانيين أن السنين الطويلة من العَيش في مَدارسَ دينية والسَّماع المستمر المتكرر للقرآن جَمَعَتْ بين عشرات الآلاف من طلاب المدارس الدينية الذين شَكَّلوا نواةَ حركة طالبان. سُجِّلَتْ تجاربُ طفولةٍ مماثلة عند المصريين[205]. والتجربة التي تُتَوِّجُ خبراتهم هي الانفجارُ الحقيقي لأصوات تلاوة القرآن التي يَسمَعها الحجّاج في الحَج. سَمِعتُ مراراً أن الحجّاج يَجِدونَ أن وحدَةَ العالَم الإسلامي تَظهَرُ فجأةً في تَدفُّقٍ من الصوت عندما يَقِفُ مئات الآلاف منهم جنباً إلى جنب وهم يَتَّجِهون إلى وجهَةٍ واحدة ويُكَرِّرون كلمات متماثلة.

الشِّعرُ العربي الكلاسيكي هو أمرٌ مختلف، إذ أنه لا يمتَلك قوةَ تدفّق المشاعر الموجودة في القراءة الجماعية. إلا أنه يُدَرَّسُ بالطريقة ذاتها التي يتم فيها تعليم القرآن: يَسمَعُ الطلابُ أبيات الشِّعر ويَحفظونها على الرغم من أن بعض مَعانيها قد لا تكون مَفهومة. يَذكُرُ مصريون وسوريون وفلسطينيون أن موسيقى الشِّعر يتردد صداها في حياتهم. وقد لاحَظتُ أن التأثير أقوى عند البدو[206]. عندما يَجلسُ الأطفال حول نيران الخِيَمِ في المساء ويَستمعون إلى الكبار يتم تَشكِيلهم بالطريقة ذاتها التي لاحَظَها غوكلاب عند الأطفال الأتراك.

يعيشُ الشّعرُ حَياً بشكلٍ خاص بين العرب والإيرانيين، فَلِلشّعرِ تأثيرٌ عليهم أكثر من تأثيره على شعوبِ اللّغات الأخرى. تَرِدُ أبياتُ الشِّعر بشكل متكرّرٍ خلال المحادثات وتُعتَبر مباراياتُ الشِّعر لعبةَ تسليةٍ معروفة. تَحَمَّسَ الإمامُ شامل، القائدُ الكبير في حرب العصابات القوقازية، لإنشاد أبياتٍ من الشِّعرِ العربي في غَمرة معركة ضد الروس. قبلَ قُدومِ الراديو والتليفزيون قامَ رواةُ القصص في المقاهي ومجالس الشاي بتسلية روادها وكسب الرزق بإنشادِ مَزيجٍ من الشِّعر والقصص الشعبية. وفي المناسبات الدينية، خاصَّةً عند الشيعة، يَزرَعُ المُنشِدون الأحداثَ الوطنيةَ والمآسي في نفوس الناس. ويَندُرُ أن تَخلو الأعمالُ التاريخية وحتى في العُلوم السياسية والاجتماعية من ذِكرِ الأشعارِ فيها. تأخذُ المُجادَلات المُعاصِرة شكلَ الشِّعر أيضاً. يُعتَبر الشِّعر في العَالَم الإسلامي طريقةً مفضَّلَةً في التواصُل.

قامَ البريطانيون بنَشرِ الشِّعر لدى الأجيال الشابة في المناطق التي سيطَروا عليها بعد الحرب العالمية الأولى دون أن يَقصِدوا ودون أن يَهتَمّوا كثيراً بهذا الجانب من ثقافة الجنوب. عندما أعادوا تَنظيمَ المدارس في العراق والأردن وفلسطين ووضَعوا جانباً المَناهِجَ العثمانية، لجَأ الإداريون البريطانيون ومساعدوهم المَحليون إلى الشِّعر العربي بَدَلاً مِنَ القرآن في تَعليم الأدب. كان قَصدُهم هو تَجنّب التّمييز الديني الذي قد يَحدُثْ عند استخدام القرآن مع المسلمين والمسيحيين واليهود والديانات الأخرى. أرادوا شيئاً عَلمانياً، وكان الأدبُ الجاهلي الذي كان أغلبه في الشِّعر هو الهيكلُ الأدبي العَلماني الوحيد المُتاح في اللغة العربية.

ولكن الشِّعر الكلاسيكي هو أكثر من مجرد طريقةٍ في تعليم قواعد اللغة، وأكثر من مجموعة أصوات، فقد تضَمَّن فيه نظامُ قِيَمٍ وسنَّة لا يَقل قوةً عما جاء في القرآن، إنما بطريقةٍ مختلفة. مَجَّدَ قدماءُ شعراء البدو الفرديةَ والقسوة والعنف والولاءَ المُطلَقَ للقبيلة. ولكي يَحموا أنفسَهم في بيئةٍ فوضوية اعتَمدوا على الثأر. ولكي يَضمَنوا الثأرَ فقد زَرَعوا في السَّامعين الولاءَ والروحَ الوطنية. الخضوعَ للظُّلمِ والحَيف خطيئةٌ، وذلك لأن الرفاق والأقرباء كانوا مَحميين مِنَ الهجَمات والغارات بترسيخِ ضرورة الثأر. وهكذا فقد كان على الرجل "الوطني" أن يُظهِرَ الشجاعةَ ويَدعَمَ الشَّرف. جميعُ القصائد العربية تقريباً تحَتوي إشارةً إلى الخَشيَة مِنَ اللّوم لعدم التصرف كما يجب على الرجل أن يَتصرف. القتالُ حتى الموت لم يكن مقبولاً فقط، بل مُحَبذاً ومَطلوباً في العُرْفِ الاجتماعي. وأعرافُ البربر والأفغان والقوقاز تشبهُ ذلك تماماً. لا شك بأن تلك لم تكن الصّفاتُ التي أرادَت الحكوماتُ الاستعمارية نَشرَها بين الشعوب المقهورة، ولكن قليلاً منهم كان يَعرِفُ أو يَستطيعُ قراءةَ ما كانوا يَسمحون بتدريسه. ومع الشِّعر جاءتْ مشاعرُ الولاء والفَخر ورفض الظُّلم وما أصبح فيما بعد: القومية.

كان من الأفضل للحكومات الاستعمارية أن تَسمحَ بتعليم القرآن لأنّ القرآن والحديث لا يُحَبذان القِيَمَ البَدَوية، ويُقرِّران أن البدو عاشوا في "عصر الجاهلية" عندما اتَّبَعوا سلوكاً في الحياة أرادَتْ سنّةُ الإسلام تغييره. حتى عندما تحوَّلَ البدو إلى الإسلام فإنهم لم يؤمنوا حقاً بل أسلَموا فقط، وكلما أُتيحَت لهم الفرصة كان البدو يَتَخَلَّون عما قَبِلوهُ مْنِ الإسلام وعادوا إلى حياتهم السابقة من العنف والتدمير. من المؤكَّد أن الإسلام لم يُحَبِّذ حكم الأجانب، ولكنه على الأقل يشجّع على مشاعر التَّضامن ومبادئ الاستسلام، على الأقل الاستسلام لحكم الله.

محمدٌ نفسُه كان رجلَ مدينةٍ وتاجراً تَعامَلَ في شبابه أو على الأقل شاهَدَ البدو يقطَعون طريقَ القوافل ويُغيرون على المدن. بالنسبة له كان البدو فوضويين وأعداء وأغراباً حقيقيين وكان شعراؤهم يَقرضون ويُنشِدون بلهجةٍ عربية (لهجة نجد) التي كانت تختلف عن لهجة الحجاز التي كان يَتحدثها والتي كُتِبَ بها القرآن.

بينما كان القرآن يُشَجِّعُ على وحدة الجماعة ويصِفُ المؤمنين بأنهم إخوة، كان المجتمع الذي دُعِيَ فيه إلى الإسلام متَفرقٌ منذ البداية من الناحية اللغوية والاجتماعية. ولكن كانت الرسالةُ التي يُعلِنها الشِّعرُ هي ضرورة الولاء المطلَق للجماعة ومُعاداة كل جيرانها. هناك كلمات عديدة للتعبير عن "الجماعة"، ولكن الكلمة التي تمّ انتقاؤها في التّعبير الحَديث هي: "القوم"، وكما سنرى فإن: "القومية" كلمةٌ تُعَبِّرُ عن الولاء الشديد، وتم تَبَني "الولاء الوطني" للجماعة لكي يَعني "الولاء القومي على نطاق واسع".

للوهلة الأولى قد يبدو هذا إلى حدٍّ ما بمثابة وَضْعِ الشعور القَبَلي مقابل الشعور الإسلامي، ولكن الفرق الأساسي هو في المستوى. فولاءُ البدو محدودٌ في نطاق الجماعة أو القبيلة، بينما الولاءُ للإسلام يَجمَعُ كل العالَم الإسلامي نظرياً على الأقل. في زمن محمد وخلفائه الأولين، كانت قوةُ الإسلام بقدرته على تحويل مشاعر الولاءِ القويّ مِنَ القبيلة إلى الأمّة. أي التَّغلبُ على العصبية المُتَبادَلة بين القبائل المُتَفَرقة "وتوجيهُ وجوهِ جميع الرجال إلى قِبلةٍ واحدة". في فجر أيامه، كما ذكرتُ في الجزء الأول، جَمَعَ الإسلامُ القبائلَ التي كانت متَفَرقةً متَقاتِلةً مع بعضها بعضاً واستطاعوا أن يَهزموا القوتين العظيمتين في ذلك العصر: إيران وبيزنطة.

على كل حال، بعد المرحلة الأولى من تَوهُّجِ الطاقة غَرِقَ عالَمُ الإسلام الجديد في تَمزقٍ يشبه المجتمعَ القَبَلي الذي كان موجوداً في شبه الجزيرة العربية إنما على نطاق أوسع بكثير. لم تكن وحداته المُنفصِلة قبائل، بل مجتمعات كاملة لم يكن عدد سكانها عشرات أو مئات بل عشرات أو مئات الآلاف. ظَلَّتْ كثيرٌ من أسباب التفرق قائمةً، وظَلَّ الولاء للعشيرة الأقرب، واستمر الخِلافُ على مصادر الثروة وعلى تفسير السنّة الإسلامية. ظَهَرَتْ أسبابٌ جديدة للتفرق والتمزق في ذروة نجاح الإسلام. كانت الامبراطوريةُ قد توسَّعَتْ بشكلٍ أكبر مما سَمَحَتْ به وسائل التواصل المتوفرة، وشَمَلَتْ شعوباً غير عربية ونصف عربية. تسامَحَتْ مع استمرار ثقافات الشعوب الموالية، بل وتَبنَّت نواتها الأساسية من العرب بعضَ معتقدات وعادات المجتمعات التي غَلَبَتْها.

نَستخدِمُ نحن الغرباء اصطلاح "الأرثودوكسية" في وصف طائفةٍ واحدة من المجموع هي طائفة السنَّة العرب. ولكن كل طائفةٍ أو مَذهبٍ تصَوَّرتْ نفسَها "أرثودوكسيةً" قويمةً. وبعد أن

تأكَّدتْ أنّ سنَّتَها الخاصة هي السنَّة الصحيحة، أصَرَّتْ على التَّمَسك بها. لم يحتَفِظ العالَمُ الإسلامي بوحدته أبداً بعد انهيار الامبراطورية الأموية، ولا حتى بشكلٍ ظاهري. وتطَوَّرتْ في الخلافات والامبراطوريات والمَمالك والمدن-الدول المُتَصَارعة ثقافاتٌ مختلفة.

لم يقدِّم القرآن كما تَعلَّمَتْهُ أجيالٌ متتالية من رجال الدين سوى إرشادات صغيرة لم تكن مفيدة في إدارة مجتمعات العالَم الإسلامي الكبير والمُعقّد. كان العالَم الذي وصَفَهُ القرآن بشكل أساسي هو مجتمع المدن الصغيرة في مكة والمدينة. لم تتمكّن المؤسساتُ الدينية التي حَدَّدتْ نفسها بالقرآن من التأقلم مع الظروف والأحوال المتغيرة. كان على المسلمين أن يقولوا إنّ ما أمَرَ به الله في مكة والمدينة يَنطَبقُ على كل العالَم. لاحَظَ الأفرادُ العَمليون أن ذلك لن ينجح، ولذلك قاموا بشكل متزايد تدريجياً بعمل ما اعتَقدوا أنه مطلوبٌ أو يوافِقُ مصالحهم، ولم يَمنَحوا سوى موافقة كلامية لرجال الدين وأحكامهم. الانقسامُ الذي يُسمَى في الاسلام بين أمور الدين والدنيا ظَلَّ موجوداً لقرون عديدة، خاصة في ذروة الإسلام، ولكن عندما واجَهَتْهُ الهزائم، كما حَدَثَ أولاً في غَزو المَغول المُدمِّر في القرن الثالث عشر، ثم في هجمات الأوروبيين بعد ذلك في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فَقَدَ الإسلامُ سيطرته ليس فقط على الحكام بل وعلى السكان أيضاً. لم يَعد يجعل "وجوه الرجال تتجه معاً نحو قِبلة واحدة". قُتِلَ مئات الآلاف من السكان الأصليين في الفوضى التي حَدَثَتْ، وماتَتْ ملايينٌ بسبب المجاعة أو المرض، وعاش الباقون في خوف. بدأ كثيرٌ من الناس يُفكِّرون بأنه إذا كانت هذه نتائج إرادة الله فسيَحتاج البشرُ إلى العَزاء والسلوان.

لم يَمنَحهمُ الإسلامُ العزاءَ لأنّ اللهَ قد تم تقديمُهُ بصورةِ حَكَمٍ صارمٍ لا يَرحم. فالرحمة ليست من صفاته وفضائله، ولم يَحتاجها المؤمنون الحقيقيون، لأنهم إذا فَعَلوا ما يؤمَرون به ويَستسلمون لإرادته وقَدَرِهِ فلن يكونوا بحاجة إلى الرحمة، لأنهم بفضلِ الله سيربَحون دائماً. إلا أن المسلمين حيثما نَظَروا وجَدوا واقِعاً مُختلفاً، ففي الشرق خَرَّبَتْ جيوشُ المَغول بغداد، واجتاحَتْ سورية، وهدَّدَتْ مصر، ودَمَّرتْ أجزاء واسعة من آسيا الوسطى، وقَتَلوا سكانَ شمال الهند وكشمير. وفي أقصى الغرب كانت الحضارةُ العظيمة في الأندلس تتمزقُ ويَحتَلُّ الاسبانُ المسيحيون مُدُنَها واحدةً تلو الأخرى. وفي الوسط احتَلَّ الصليبيون الأوروبيون مناطق البحر الأبيض المتوسط ومدينة القدس المقدَّسة. أصبَحَ المسلمون لاجئين في البلاد التي اعتَقَدوا أنها لهم، وتم طَردهم وتَهجيرهم وكانوا بلا قيادة ولا زعامة. لم يُقدِّمْ لهم رجالُ الدين الإسلامي الذين دعَموهم ووضَعوا فيهم ثقتهم أيّ اطمئنانٍ أو قيادةٍ وتَوجيه. يبدو أن كثيراً من اللاجئين حاوَلوا الاختباء، ولكن بين أولئك الذين قرَّروا أنهم لا يستطيعون الهرب والاختباء أَخذَتْ طرقٌ جديدة في التفكير تَبدأ بالظُّهور.

ظَهَرَ تياران في التفكير، متناقضان منطقياً، إلا أن هناك من تَبناهما معاً في الوقت نفسه. كان التيار الأول هو محاولةُ البحث في الماضي لكَشفِ أين ضَاعَت الطريق. والثاني كان محاولة إعادة تَعريف الإسلام لكي يلتقي مع الاحتياجات المعاصِرة. التقى هذان التياران في الاتفاق على أن الهَيكل الرسمي للإسلام ومؤسسات رجال الدين قد فَشِلَتْ.

اندفَعَ المسلمون الذين بَحثوا عن الراحة في الدين لإصلاح الإسلام بِغَضِّ النَّظَر عما قالَه رجالُ الدين. شَعروا أن المسافةَ بين البشر والله في تعاليم القرآن كانت بعيدة. حتى المؤمنون الحقيقيون أرادوا أن يَقتَربوا أكثر. قرَّر أولئك الذين شاهَدوا عالَمهم يتحطَّم أن يتَجاوزوا رجالَ الدين

ويَرجعوا إلى وجهةِ النَّظَر التي أعلَنَها إسلامُ محمد في السنوات التي كان فيها هو نفسه غريباً منبوذاً. كان روحانياً في سنوات مكة. حاوَلوا أن يلتَقطوا ذلك الخيط ويَسترجِعوا العلاقةَ القريبة إلى الله. إلا أنهم لم يستطيعوا أن يفعَلوا ما فَعَلَهُ محمد تماماً لأنهم عَرفوا أنهم لا يمتلكون صِلةً مباشرة بالله. ولذا كان عليهم أن يجِدوا طريقةً أخرى إلى الروحانية. وكانت الصوفية هي الطريقةُ التي توصَّلوا إليها. فقد قدَّمَتْ ما لم يُقدِّمْهُ الإسلامُ الرسمي: أشبَعَت الحاجات النفسية عند الناس الذين قَهَرَهم العالَم.

انتَشَرت الصوفية عبر العالَمِ الإسلامي في القرن الثاني عشر والثالث عشر مِثْلَ عاصفةٍ رملية كبيرة. اتُخِذَتْ أولاً كوسيلةٍ للهروب. إذ يُحَقِّقُ المؤمنُ بالانغِماس في الروحانيات والطقوس حالةً مِنَ الاتِّحاد مع العالَم الروحاني ويَتَحَرَّرُ مِنَ العالَم المادي. وفي هذه الحالة من الوعي المُتَقَدِّم يَحْصَلُ على العَزاء والسلوان ويَضَعُ جانباً المخاطر والقلق، ويَقتَنِعُ بأن العالَمَ المادي بكل آلامه ومسراته ليس إلا سراباً. لا يحتاجُ الصوفي إلى تَعريف نفسِه أو مجتمعه لأن العالَمَ بذاته لا يَستَحقُ العَناء. البقاءُ على قيد الحياة هو مسألةُ موقِفٍ وسلوك وليس القيام بِعَمَل[207].

ولكن الغريب أنه بينما تَعلَّمَ الأفرادُ كيف يَنسحِبون، اكتَسبوا القدرةَ على التَّدخُل، مما أدى إلى خَلْقِ إسلامٍ محارِب جديد شَهِدناه في حروب القوقاز وبَرقَة، وسنشاهده ثانيةً في المعارك ضد الصينيين والروس في آسيا الوسطى، وضد الروس والأمريكان في أفغانستان، وضد الأمريكان في الفلبين. عندما حرَّرت الصوفيةُ المؤمنينَ مِنَ العالَم مَكَّنَتهم أيضاً من القتال من أجله. كانت الروحُ الجديدة جذابةً وناجحة في بعض الأحيان، إلا أنها كما رأينا لم تستطع وَقْفَ تقدُّمِ الأمبريالية.

في القرن التاسع عشر، بَدَت الأيامُ المجيدة للفتوحات العظيمة مجرد ذكرياتٍ باهتة، بينما لَعِبَ الشمالُ العالمي دوره الأمبريالي أولاً في روما ثم في بيزنطة، حَلَّتْ مَحلَّهم اسبانيا ثم البرتغال، وتَلَتْهما فرنسا وبريطانيا وهولندا وروسيا والصين. أصبَحوا القوى العظمى الجديدة، وظَهَرَ المجتمعُ المسلم أمامَها بلا أمل. كان المسلمون مصدومين فقد سقَطَتْ دفاعاتُهم واحداً تلو الآخر مثلَما حَدَثَ لعبد القادر في الجزائر، وعبد الكريم في الريف المَغربي، ومحمد أحمد المَهدي في السودان، والإمام شامل في القوقاز، وهُزِم كثيرٌ غيرهم من المُدافعين المَنسيين. بينما كانت مجتمعاتهم يتم اجتياحُها، بَدَأ التساؤلُ والشك يَظهَرُ في الإسلام كنظامٍ تفكيرٍ وثقافة وإدارة. ظَهَرَ الإسلامُ من وجهة نظر قلةٍ في البداية ثم لكثيرين وكأنه قد خَسِرَ قدرته على مواجهة العالَم.

طُرِحَتْ عدة تفسيرات لانحِدار وسقوطِ ما كان يُذكَرُ كحضارةٍ عظيمة مستقرة، بعضها كان عميقاً والآخر غير مهمّ، وبعضها عاطفياً والآخر عقلانياً. كان من بينها: تَغيَّرت طبيعة القوة (ولذلك يجب اكتشاف "سِرُّ" أوروبا)، ملابسُ المسلمين أعاقَتهم (ولذلك يجب على الجنود أن يَرتَدوا ملابس أوروبية)، كان الناسُ جاهلين (ولذلك يجب نَشر تعليم القراءة والكتابة على الأقل)، غابَ التَّصنيعُ عن بلاد المسلمين (ولذلك يجب أن يتَعلَّم المهنيون حرفاً جديدة)، كان العالَمُ الإسلامي ممزقاً (ولذلك يجب خلق روابط بين مجتمعاته)، وَهَبَ الحكامُ أنفسَهم للمخدّرات والشهوة (ولذلك يجب خَلعهم)، كان الشمال العالمي مُنظَّماً وعَنيفاً (ولذلك يجب على حركات المقاوَمة أن تكون منظمة وعنيفة بالمثل)، أفسَدَت الإسلام أجيالٌ من الفقهاء المُتَحجِّرين (ولذا يجب أن توجَدَ طريقةٌ جديدة لفَهمِ الإسلام). ركَّزَتْ أكثرُ الأفكار الجديدة إثارةً للقلق على الإسلام. في القرن التاسع عشر، بدأ الهنودُ

والإيرانيون وسكان القِرم والترك والعرب والبربر وغيرهم من القَلِقين بمراجَعَةِ أفكارِهم عن تأثيراتِ هذه الأحداثِ على حياتهم الخاصة وعلى مجتمعاتهم وعن ردود أفعالهم تجاهها. مَهَّدَ قلقُهم الطريقَ لظهور واحدٍ من أكثر الرجال أهميةً في ذلك القَرن، وهو جمال الدين الأفغاني الذي تَحدثْتُ عنه في الفصل الخامس عشر. كانت رؤيتُهُ للإسلام في الإصلاح الاجتماعي والحزم السياسي هي التي مَنَحَتْهُ اهتمامَ المسلمين القَلِقين. وكان فَشَلُهُ وفشلُ أتباعِه هو الذي دفَعَ كثيراً منهم للبحث عن وسائل دفاعٍ مختلفة وإيديولوجية أخرى.

كان عليهم أن يتوصَّلوا إلى رؤيةٍ مختلفة، ولم يكن عليهم أن يَبحثوا بعيداً لأن الأمبرياليين الذين حَلّوا بينهم قد أعلَنوا انتماءَهم للقومية.

سرعان ما اكتسَبتْ هذه الطريقةُ الجديدة في التفكير مكانَتَها على الرغم من أنها لم تكن مَفهومةً بشكلٍ كامل، وذلك لأنّ الذين قَدَّموها ظَهَروا أقوياءَ وناجحين. لم يظهَر أن الدين كان مُعيقاً لهم، بل كانوا أحياناً مُعادين له ورَفَضوا دخولَ قساوستهم إلى الهند. لم يَحترِموا وعودَهم كثيراً، وكانوا يَنتهزون كل فرصة ولم تَكبَحهم الاتفاقيات. كانوا يَعملون معاً ليس كأقرباء، بل بمنظَّماتٍ غريبةٍ كانت تُدارُ بِطُرُقٍ مختلفة عما ألِفَهُ المسلمون. كانوا يُحبُّون الاطلاعَ دائماً ويَندفعون للعمل. كما أنهم انتصَروا. ومِنَ الطبيعي أن يتصَوّر المُنهزِمون أنّ الأمبرياليين يستمدون قوَّتهم من طريقة تَنشيط وتَنظيم شعوبهم. كان التَّمزقُ والفرقة مَصدرَ ضَعفِ الجنوب، ومهما كان السبب فقد ثبت أن الإسلام لم يتمَكَّن من التَّغلب على التَّمزق والتَّفرق وحماية الاستقلال وضَمان الأمان. أضعفَت الانشقاقاتُ بين صفوفهم الدفاعَ الشجاعَ عن مجتمعاتهم، بينما كانت قوى الأوروبيين موحَّدة ولم يضعفها مثل ذلك التمزق والتفرق. كانوا أقوياءَ بينما كان المسلمون شجعاناً لا أكثر. كانوا يَعرفون كيف يُحرّكون الأنواعَ الجديدة من الآلات. وعلى الرغم من أن العلماءَ والنّخبة التقليدية قد وَجَدَتْهم أفظاظاً وجُلَفَاء، إلا أنهم سرعان ما تمّ تقبّلهم في مجتمعاتِ الأقليات، وحتى من جهة المسلمين الأكثر طُموحاً.

لا شك بأن معرفةَ هؤلاء الدَّاخلين الجُدد إلى عالَمهم كان أولويةً طبيعية، وكان بعض الغربيين مستعدين لإرشادهم. أسّس المبشّرون الكاثوليك والبروتستانت مدارسَ وفَتَحوا مستشفيات وأقاموا مَطابع. فتَحَ بعضُهم مدارسَهم ومصانعَهم للطلاب والعمال في فرنسا وانكلترا وألمانيا. أما بالنسبة إلى كثير ممّن لم يستطيعوا زيارةَ أوروبا أو الاحتكاك بالأوروبيين فقد كانت هناك صناعةٌ أدبيةٌ جديدة أخَذَتْ بطباعة منشوراتٍ وصحف ومقالات وكُتُب. حرصت النّخبةُ المدنية على طَلَب الملابس الجديدة واتّباع سلوكٍ جديد وأفكار جديدة. وكلما غاصوا في التجربة الأوروبية قابَلَتْهم في كل مكان لَمَسوهُ الفكرةَ التي كانت في مقدمةَ الفكر والنشاط الأوروبي: القومية. وسرعان ما أدرك بعضهم أنهم هم أيضاً أمَّة. كانت تلك الفكرةُ أمامهم مباشرة وهي ما كانوا يسمونه "الوطن".

تَستخدِمُ الشعوبُ المستقرة كلمة "الوطن" لتَدلَّ على "القرية أو المدينة"، مثلما يَستخدِمُ الفرنسيون كلمة "Pays"، وهي تَعني المَكانَ الذي يَعيشُ فيه المَرء. تُعطي إحساساً بالهوية، فمثلاً يُطلَقُ على الرَّجلِ القادِمِ من "صَيدا" لقب "الصَيداوي"، ولكن كل من يعيشُ في صَيدا هو صَيداوي. عندما تُغادِرُ قلَّةٌ قليلة نسبياً مكانَ معيشتها الأصلي كان من المفيد استخدام طريقةٍ أخرى في تَعريفِهم. ولذا اعتُمِدَ تقليدياً تَعريفُ رجلٍ بأنه "ابن" وأُلحقَت باسمه ألقابٌ مثلَ "ابن أو -oglu، أو -

zahidi، أو –ian" التي تُلصَقُ باسم والِده، مثلما وَصَلَ الإيرلنديون "O" والاسكتلنديون "Mac" بأسمائهم. ولكن في القرن التاسع عشر ازداد استخدامُ أسماء الأماكن أو القبائل بدلاً من ذلك. ولذا ظَهَرَتْ أسماء مثل "اليمني" أو "الأفغاني" أو "المصري" أو "البغدادي" وهكذا. حَدَثَ ذلك في كل مكان وكل اللغات في الجنوب.

لا تدلُّ هذه الطريقةُ في التَّعريف نسبةَ إلى مكانٍ على الولاءِ بالضرورة، ولو شَعَرَ الشخصُ الذي يُعرَفُ بمثل هذا الاسم بأي انتماء إلى المَكان الذي جاء منه أصلاً، فإن ذلك يَضعفُ ويَزول بعد جيلٍ أو جيلين. وبذلك ليس من الضروري مثلاً أن يَعرِفَ "ماكدونالد" مَنْ هو "دونالد"، وكذلك لم يَعُد لليَمني علاقةٌ شخصية باليمن. والاشتراكُ بمكان السَّكَن لا يُثير مشاعرَ انتماءٍ مشتركة حتى بين أفراد الجيل نفسه، وفي الواقع، قلَّما حَدَثَ ذلك لأنَّ القريةَ أو المدينة النموذجية كانت منقَسِمَةً بين فئتين مُهَيمِنَتَين أو أكثر. وكانت كل فئةٍ مستقلة حسبما تُتيحُ لها العَمارة ذلك. كانت الأحياءُ محاطةً بجدران تفصِلُها عن بعضها في المدن والبلدات الكبيرة، وكان أفراد المجموعات المختلفة يَتَجَمَّعون في القرى حول الآبار، وغالباً ما جَعَلوا الجدرانَ الخارجية لمَساكِنِهم حواجزاً دفاعية. حَدَّدَت القَرابة جغرافيةَ المُدُن، وما فَعَلَتْهُ هناك لَبِناتُ الطّينِ أو الحَجَرِ فيزيائياً، قامَ به القرويون اجتماعياً، فظَلُّوا قربَ بعضهم ما استطاعوا حتى في علاقات الزواج، فقد كانت جماعةُ القرابة هي التي حَدَّدَتْ ولاءَهم وليس الوطن[208].

وعلى كل حال، بِغَضِّ النَّظرِ عن الولاء الاجتماعي فقد وَجَدَ بعضُ الذين كانوا الأكثر تَعرُّضَاً للكتّاب الأوروبيين عن القومية أن كلمة "الوطن" تُحَرِّكُ تماماً ما كانوا يَبحَثون عنه: هُويَةٌ غير دينية. وثَبَتَت الكلمة.

كان أول كاتب مشهور استخدَم الكلمة بمعنى "الأمّة" هو المصري: رفاعة رافع الذي ولِد في قرية طَهطا في دلتا النيل، ولذلك فقد سُمّي بالطَهطاوي. كان أقلّ الرواد احتمالاً أن يَطرَحَ فكرةَ القومية، فبعد أن انتَهى من دراسته الدينية في جامعة الأزهر عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، أرسَلَهُ محمد علي الحاكم الألباني المسلم الذي يتَحدَّثُ بالتركية مباشرةً بصِفَةِ "مُرافِق"، كما يُسمَى في عصر الحرب الباردة الحديثة، مع مجموعة من المصريين الشباب الذين ابتُعثوا إلى فرنسا للتدريب على الحِرَفِ الميكانيكية. أرادَهم محمد علي أن يَتَدَرَّبوا ولكنه لم يكن يريدهم أن يتَعرَّضوا إلى أفكار الأوروبيين المُتَمردة، ولذا فقد أرسَلَ مع كل مجموعة "إماماً" لكي يُبقيهِم على الطريق القويم. وكان على كل إمام أن يَمنعَ الردة وأن يُبلِّغ عن أي انحراف. ويبدو أن الطَّهْطاوي لم يكن ماهراً في تلك المهمة، بل مما نَعرفُ عن السنوات الخمس التي قَضَاها في أوروبا فإنه حتى لمْ يُحاول. ومهما فَعَلَ بشأن مهامه فقد استطاعَ أن يحصَلَ على رؤيةٍ جيدة للمجتمع المُحَرَّم وأن يتَعَلَّمَ اللغةَ الفرنسية. وعند عودته إلى مصر، ألَّفَ كتاباً يَشرَحُ فيه لمواطنيه كيف كانت أوروبا[209]. وسرعان ما كان أفضَلَ الكُتُبِ مَبيعاً مثل بعض كتب الرحلات في أيامنا هذه. نُشِرَ باللغة العربية كما تُرجِم إلى التركية ولغات أخرى.

بعد عودته إلى مصر تابَعَ الطّهطاوي كتابَته ولكن أكثرَ نشاطاتِه أهميةً تحت ظِلّ الحكومة كان تأسيس مدرسة أو مكتب لتَرجَمة الكُتُب "العملية" التي يَحتاج المصريون لقراءتها من أجل تَحديث الدولة. ترجَمَ مع طلابه ومساعديه حوالي ألفي كتاب، واستطاعَ بمعرفةِ المسؤولين أو دونها أن يشمَلَ ذلك بعض الكَتَبِ التي حرَّكَت أفكاراً ثورية. استطاع تَهريبها إلى مصر بطريقة أو بأخرى، وتمكَّنَ من ذلك لأن رئيسه محمد علي كان معروفاً بحبِّهِ معرفةَ حكام وجنرالات آخرين، واستخدَمَ الطَّهطاوي ذلك الولَع كتفويضٍ للتَّوسّع خارجَ مجالِ الكَتَب التقنية التي كان من المفروض أن يقدِّمها. فتَرجَمَ عن مونتسكيو Momtesquieu إلى العربية المَبدأ الجديد عن "حبّ الوطن". وكان مونتسكيو الأعَمقَ تأثيراً في أعمال الطَّهطاوي، الكتابُ الذي كان يأملُ أن يكون دليلَ تطويرٍ للمجتمع المصري وَضعَ له واحداً من العَناوين المُفَصَّلة التي يُفَضِّلها الكتّابُ العرب: "مَناهِجُ الألباب المصرية في مَباهِجِ الآداب العصرية" حيث تَرجَم مَبدَأ مونتسكيو في "حُبِّ البلاد" باللغة العربية إلى "حُبِّ الوطن" ووصَفَهُ بأنه المُحَرّك الذي يَدفَعُ الشعوبَ الأوروبية إلى التَّقدم.

كما بيَّنتُ فإن الإسلامَ يَتوقَّعُ من المؤمِن، بل ويأمُره، أن يتمتَّع بولاءٍ قوي إلى جماعةِ المسلمين بشكل عام، إلى الأمة، وتلك الجماعة لا يُحدِّدها مكانٌ بل إيمانٌ مشترك. والذي قَصَده الطَّهطاوي باصطلاح "حب الوطن" كان محدَّداً. كان يقصد الوطن الذي تُحدِّدُه الجغرافيا، وبالنسبه له كانت مصر هي الأمّة التي تَميَّزتْ بعيداً عن عالَم الإسلام وعن المجتمعات العربية التي تُجاورها. استَمدَّتْ بعضَ ثقافتها من تاريخها القديم الذي كان المصريون قد بَدؤوا بوعيه[210]. وكان الانتماءُ للعروبة غامضاً بالنسبة لكثير من المصريين. وبينما تحدَّثَ المصريون باللغة العربية كانت كلمة "العربي" بالعامية المصرية تَعني البدوي أو رجل الصحراء المتوحش ولا تعني مَن يعيشُ مستقراً في وادي النيل. كانت محبةُ "مصر" وليست محبةَ "غيرها" هي المَطلوبة. اعتَقَدَ الطَهطاوي أنّ الهويةَ المصرية تَتضَمن مشاعرَ الولاء التي مَنَحَتْ أو يجب أن تَمنَح مجتمَعها التكاتف والمَضمون[211].

ولكن الطَهطاوي أدخَلَ القومية في الإسلام أيضاً مُختلِفاً عن القَوميين المُتأخرين، فكتَبَ قائلاً:

"كل ما يربط المؤمن بأخيه المؤمن يربطُهُ أيضاً بأفراد الوطن بسبب وجود رابطة أخوّةٍ وطنية أعلى من أخوّة الدين. هناك واجبٌ أخلاقي على جميع الذين يعيشون في الوطن نفسه لكي يَعمَلوا معاً على تَطويره وتَحسين تنظيمه بكل ما يَتعلَّقُ بشرفه وعظمته وثروته"[212].

وضَعَ الطَهطاوي أفكارَهُ في مجالٍ من الأنشطة التي أثَّرَتْ عميقاً على المفكرين المصريين وانتَشَرتْ أوسع من ذلك. بالإضافة إلى كُتُبِهِ فقد ألَّفَ قصائد وطنية سُميَّتْ أيضاً نسبة إلى الوطن "الوطنيات" ولَعِبَ دوراً مهماً في نَشر التعليم بين الشباب المصريين وتَرجَمَ عدداً من الكتب الفرنسية بالإضافة إلى كتب مونتسكيو وربما ترجَمَ النشيد الوطني الفرنسي القوي "المارسلييز". أُسِرَ المصريون تحت قيادة الطَهطاوي بفكرة "مصر" والوطن إنما بنَكهةٍ فرنسية.

كانت الصحافة مهنةً ثورية جديدة، وقد استَلْهَمَ صحفيّ اسمه عبد الله النديم طَرْحَ الطَهطاوي لفكرة مصر الجديدة التي ترتبط بتاريخها القديم فأنتَجَ مسرحيةً اسمها "الوطن" نالَتْ شعبيةً واسعة. عُرِضَتْ في دار الأوبرا الجديدة في القاهرة حيث قُدِّمَتْ في سنة 1871 أوبرا "عايدة" التي مَجَّدَ فيها جوسيبي فردي مصرَ القديمة. بعد ذلك بست سنوات وقُبيل الثورة المصرية الأولى ضد الانكليز بقليل، ظَهَرَتْ جريدةٌ باسم "الوطن".

تأثر لبنانيان أيضاً بالطَهطاوي أو تأثَّرا على الأقل بالحوار العام الذي دارَ حول أفكاره عن القومية. فارس الشدياق الذي اشتهر بتأسيسه في اسطنبول سنة 1861 أول جريدة عربية مهمة ومنتشرة وكان اسمها "الجَوائب"[213]. أَطلَقتْ اسلوبَ نشر صحف ونشرات ومجلات أُصدِرتْ بعد ذلك في أرجاء العالَم الإسلامي باللغة العربية والتركية والفارسية والأوردية وغيرها من اللغات من قِبَل كتابٍ قوميين.

كان اللبناني الآخر هو بطرس البستاني الذي أسس في بيروت سنة 1863 مدرسةً علمانية "وطنية" للتشجيع على الوصول إلى الأفكار الأوروبية بتَمكين طلابها من قراءة اللغات الفرنسية والإنكليزية واليونانية والتركية. أصدرَ البستاني مثلما فَعَلَ الشدياق صحيفةً أو مجلة سمَّاها "النفير السوري" هادفاً إلى بَثِّ روح الوحدة فيما اعتَبَره وطنه الذي كان يُعرَفُ آنذاك بجبل لبنان في وَسَطِ دولةِ لبنان الحالية[214].

كان الرجلان تحت رعاية وتأثير المُبَشِّرين في هيئةِ المفَوَضين الأمريكية للبعثات الخارجية الذين كانوا منهَمكِين في برنامج ترجَمةِ مواد دينية مسيحية. جاء المفوَضون بمطبعةٍ لنَشرِ الأعمال الدينية، وكان هدفهم بالطبع هو نَشرُ المسيحية، ولكنهم لاحَظوا أن المسلمين والمسيحيين الشرقيين كانوا أكثر اهتماماً عندما يُعطونَهم أشياء يَعتَبرونها مفيدة، وهنا قدَّموا لهم التعليم وفَتَحوا مدارس وعيادات. كان البستاني والشدياق بشكل عام مُتَرجِميهم، ومَنَحَتْهم صِلَاتُهم بالمُبشِّرين قاعدةً يستطيعون الاعتمادَ عليها إلا أنها لم تُشَجِّع جميع أهدافهم، ولذا انفَصَلَ الرجلان عن المبشِّرين مع مرور الوقت فَعَادَ الشدياق إلى الإسلام واتَّجَهَ البستاني إلى العَلمانية السياسية.

لَعِبَ البستاني دوراً مهماً في انطلاق أول "يقظة" عربية بإصدار أول موسوعة باللغة العربية وأول قاموس. كان متَعَصِّباً ثقافياً ومُحِباً للعربية ولكنه مثل المصريين كان يَنظر إلى البدو، أو "العرب" على أنهم مُخَرِّبون وخطِرون. تركَّز حُبُّهُ للعربية على وطنٍ مُعَيَّن مثل الطَهطاوي. بالنسبة للطَهطاوي كان الوطن هو مصر، أما بالنسبة للبستاني فقد كانَ جبلَ لبنان. كان جبلُ لبنان بمثابة جزيرة ثقافية تحمَّلَت الامبراطورية العثمانية وجودَها وتأثَّرَتْ بأوروبا وكانت مُنفَتِحةً نسبياً على أفكارٍ جديدة. اقتَنَعَ البستاني بالتوازن الذي وصَلَتْ إليه بين الدين واللغة. واحتَرَمَ النظام العثماني الذي قَبِلَ بالتَّنوع وآمَن كرجلٍ مُخلِصٍ للّغة العربية ودَعى إلى فكرةِ أن شعبَ جبل لبنان يمكن أن يتوصَلوا إلى يقظةٍ ثقافية "ضِمن هيكليةِ الحكم العثماني"[215]. منَحَت الامبراطورية المُنفَتِحة بشكل عام الأمْنَ للجميع بمَن فيهم المسيحيين. وفكَّرَ البستاني بأن المُطالبة بمزيد من الاستقلال قد تُنهي حالةَ الانفتاح والتَّحمل، واستَنتَج أن الأمنَ هو الأضمَن، كما دَعا بقوةٍ إلى التَّعلم

مِن أوروبا كل ما يمكنها تَقديمه. كان المبشِّرون الأمريكان مُفيدين، إلا أنه اكتشَفَ أن أوروبا قَدَّمتْ لأهلِ جبل لبنان أكثر بكثير.

على النَّقيض من هذه الآراء كان نجيب عازوري الذي كان مسيحياً أيضاً إنما من الجيل الذي بَعده. كان يعمل كمسؤولٍ صغير في الإدارة العثمانية لمدينة القدس، ثم غادَرَ إلى القاهرة مَشحوناً بمرارةٍ شديدة ضد الحكومة العثمانية لا يُعرَف سبَبها. في سنة 1904 شكَّلَ "مع نفسه" مؤسسةً مِنْ رجلٍ واحدٍ أَطلَقَ عليها بالفرنسية "عُصبة الوطن العربي". أصدَرَت "العُصبة" نشرات وكتاباً واحداً باللغة الفرنسية كان اسمه "يقظة الأمّة العربية". شَجَّعَ في كتاباته المتَكَلّمين بالعربية من اليهود والمسيحيين والمسلمين على أن يَطلبوا حِمايةَ البريطانيين مِنَ الترك العثمانيين. التناقضُ في موقفه تجاه العثمانيين كان صَعبَ الحَلِّ بالنسبة له ولِمَنْ جاء بعده، فقد كانوا بحاجة إلى السيادة العثمانية ولكنهم لم يُحِبّوها وكَرِهوا حاجَتَهم إليها أكثر من ذلك.

كان أهمُّ الوطنيين المصريين في بداية القرن العشرين هو الصحفي والسياسي والمحامي مصطفى كامل الذي لم يُعَمّر طويلاً. ولِد أثناء الاحتلال البريطاني واعتَبَر أن البريطانيين هم ألدُّ أعداء مصر. ولكي يُخَلِّصَ مصر منهم، قام ببناء قاعدةِ عملياته في الصحافة. أسّس جريدة "اللواء" سنة 1900 لكي يَنشُرَ أفكارَه، وقُبيل وفاته بقليل في سنة 1907 تمكَّن من تَجميع المُتأثرين بصحيفته ليؤسس الحزب الوطني. أيَّدَ نَشر الثقافة الفرنسية مثل كثيرٍ من المصريين المثقّفين العالَميين آنذاك. أعتَقِدُ أن ذلك كان بالنسبة له حركةً تكتيكية فقد أدرَكَ أن الفرنسيين لن يتمكنوا من وَقفِ الأمبريالية البريطانية، وأنهم هم أنفسهم كانوا أمبرياليين أيضاً. على الرغم من تحفُّظِهِ في كتاباته وفي مقالاته التي نَشَرَها في اللواء عن أفكاره ومعتَقداته، كما كان محتَّماً عليه بحكم وجودِهِ تحت حكم بريطاني، فقد كان واضحاً أنه آمَنَ بأن كل الشمال العالمي كان العَدو النهائي. وقُبيل وفاته بقليل لَمَحَ بصيصَ أملٍ فقد كانت فئةٌ واحدة من الأمبرياليين على الأقل تتلقى الإهانة والهزيمة، ففي حرب 1904-1905 أغرَقَت البحريةُ اليابانية الأسطولَ الامبراطوري الروسي في المحيط الهادي وهَزَمَت الجيش الروسي المُتَبَجِّح على أرض آسيا. كانت اليابان القوةُ الآسيوية الوحيدة التي استطاعَتْ أن تهزم واحدةً من القوى الأمبريالية، وخَلَبَتْ بذلك خيالَ جِيلِ مصطفى كامل، فأثْنَى على الانتصار الياباني في كتابه "الشمس الساطعة".

في جيلٍ أكبر سناً وأكثر استمراراً بجيل آخر من مصطفى كامل، سيَلعَبُ سعد زغلول دوراً محورياً في الثورة المصرية ضد بريطانيا. ولكنه لم يَبدأ مسيرته السياسية في معارضة الأمبريالية. وبغضِّ النَّظر عن أفكاره الخاصة فقد اجتَمَعَ مع البريطانيين الذين كانوا يَعتَبرونه واحداً من وكلائهم المَحليين المُخلِصين، بل وأصبح صديقاً للحاكم البريطاني اللورد كرومر المعروف بكراهيته للمصريين. منَحَهُ كرومر منصِبَ وزير التعليم سنة 1906 وفي ذلك المنصِب قَلَبَ زغلول واحداً من أكثر وسائل مَكْرِ الحكمِ البريطاني وأقواها تأثيراً: سيطرة اللغة الانكليزية.

مثلما فَعَلَ الفرنسيون في الجزائر، والبريطانيون في الهند، ومثلما سيفعلُ الروس في القِرم، وسيفعلُ الروسُ والصينيون في آسيا الوسطى، جَعَلَ البريطانيون في مصر استخدامَ لغتهم إجبارياً في المدارس الحكومية. كان قَمْعُ اللغة المَحلية واستبدالها بلغةِ القوة الغالِبة جانباً رئيسياً من "نَزْعِ الوطنية". لم يخضَع زغلول لهذه السياسة، وبكل هدوء وتدرّج وبخطوات صغيرة ودون مناقشةٍ

عامة استخدَم صلاحياته كوزيرٍ للتعليم ليُعيدَ إدخالَ اللغة العربية الوطنية. لم يَعتَرض البريطانيون ولم يُشَكِّكوا في دوافعه وظَلّوا يَعتَقدون أنه "رَجُلُهم" في الحكومة المصرية. سيَتَغَيَّرُ ذلك كثيراً في نهاية الحرب العالمية الأولى.

أعلَنَ الرئيسُ الأمريكي وودرو ويلسون في يناير 1918 مبادئه الأربعة عشر لوضع برنامجِ مؤتمرِ السلام العظيم الذي سيخلُقُ عالَماً جديداً شجاعاً. أعلَنَتْ كلماتُهُ نهايةَ الأمبريالية: "الضّمان المُشتَرَك للاستقلال السياسي والسيادة الوطنية لجميع الدول الكبيرة والصغيرة على السَّواء". وفجأةً أصبحَ الحلم المصري قريبَ الظُّهور. ابتَهَجَ المصريون وبَدا ويلسون بالنسبة لهم ولجميع شعوبِ الجنوب وكأنه المُخَلِّصُ أو نوعاً من المَهدي أو أداةُ الله لتَخليص البشرية من الظّلم. بتَرَدد أعلَنَت الحكومةُ البريطانية قبولها روحَ مبادئ ويلسون وقَبِلَتها كبرنامجٍ لمؤتمرِ السلام.

إيماناً منه بمبادئ ويلسون، أو ربما سَعياً للاستفادة منها، شكَّلَ زغلول وَفداً دَعا نفسَه إلى مركز القيادة العامة البريطانية في القاهرة حيث قدَّم عريضةً طلَبوا فيها أن يُسمَحَ لهم بطرح قضية استقلال مصر في باريس ووضْعِها أمامَ مؤتمر السلام.

بغضِّ النَّظر عما اضطرت الحكومةُ في لندن إلى قولِهِ إرضاءً للرئيس الأمريكي فإن المسؤولين البريطانيين في القاهرة لم تكن لديهم النّية بالسماح للسكان الأصليين التَّصرفَ بمثلِ هذه الوقاحة. دُهِشَ المسؤولون البريطانيون وغَضِبوا ورَفَضوا الطَّلَب كُلياً وردّوا الوَفدَ على أعقابه. شَعَرَ زغلول بالحَرج على اعتبار أنه كان دائماً "رجُل" البريطانيين، ولو عاد إلى بيته لأصبَحَ مَسخرةَ رفاقه ولاعتَبَره المصريون لعبةً لا حياةَ فيها يتم التَّلاعبُ بها مثل لعبة الأراجوز التي يُشاهدونها في تَسليتهم لا أكثر. يبدو أنه شَعَرَ أن ليس أمامَه خيارٌ: يجب عليه أن يتَّخذ موقِفاً أو أن يستقيل من عمله السياسي، ولذا، كما أفهمُ تصرفَه، فقد التقَطَ زغلول برنامجَ مصطفى كامل الذي طَرَحَهُ قبلَ عقدٍ من ذلك ليؤسس الحزب الوطني. بدأ بتنظيم لجانٍ صغيرة في كافة أنحاء مصر بحيث تكون كل لجنةٍ صَدى لمَطلَبه بأن يُغادِرَ البريطانيون ويَتركوا مصر للمصريين.

كان تنظيمُ المصريين مخالفةً لقانون الطوارئ الذي فَرَضَهُ البريطانيون، عندما اجتَمعَت اللجان في حزبٍ سياسي أصبح اسمه "حزب الوفد" نصَحَ البريطانيون زغلول بكياسةٍ وحَزمٍ أن يوقِفَ هذه الأعمال المشاغبة، وعندما رفض ذلك قبَضوا عليه ونَفوه خارج البلاد. لم يُخالِف قانونَ الطوارئ فقط، بل نَسِيَ أيضاً حالةَ المصريين في خريطة الأمبريالية البريطانية. مَنَحَ اللورد كرومر نوعاً من الأذنِ الخاصِّ لسعد زغلول بحيث يُعامَل "كرجلٍ أبيض"، على الأقل ضمن الحدود الصَّارمة التي يُسمَحُ بها في نظام الاستعمار، ولكن المسؤولين البريطانيين لم يَحلموا أبداً بمعاملة المصريين على قَدَمِ المُساواةِ معهم. فقد كانوا يَعتَبرون الفلاحين المصريين بَهائِمَ غبية لا تُصلِحُ إلا لزرع القطن من أجل مَصانع مانشستر، ويَعتَبرون النّخبة الصغيرة المثقَّفة من أمثال زغلول "رجال شرقيون مخادعون". كان أفراد هذه النّخبة الماكِرة هم الأسوأ في نظر البريطانيين: فَهُم صورٌ كاريكاتورية للسادة الانكليز الأفاضِل، ويَرتدون ثياباً رخيصةً هي نسخة مشوهة من البَدلة الانكليزية اللائقة، وهم جبناء ويأخذون الرشوة[216]. ولذا فقد دُهشَ وصُدِمَ خلفاءُ كرومر فعلاً عندما نَزَلَ الطلابُ المصريون إلى الشوارع، وغَضِبوا جداً من زغلول بسبب تَحريضه لهم.

كان القبضُ على زغلول الشرارةَ التي أطْلَقَتْ تمرداً كبيراً على امتداد الوطن. "البارود" الذي انفَجَرَ كان مَنشؤهُ الغضبُ من سياسة البريطانيين الذين استَبعَدوهم خارجَ نطاقِ "الشعوب" التي تحدَّثَ عنها ويلسون، وازدادَ اشتعالُها وامتدادها لتَشمل البلاد بسبب شعورهم بأن البريطانيين يَحتَقرونهم. اندفَعَ الطلابُ إلى الشوارع خَجَلاً من قبول آبائهم بالمَذَلَّةِ كل يوم. وعندما استَرجَعوا أغلى ممتلكاتهم الوطنية، وهي لغتهم الأم، اعتَقَدوا بأنهم قد أصبَحوا نَسلاً جديداً من المصريين. لم تكن لديهم أية وسائل سوى أصواتهم فانطَلَقوا يهتفون بمَطالِبهم. لم يَحدُث مثل مظاهراتهم في مصر أبداً، وفي الواقع ولا حتى في أي مكان آخر في العالَم الإسلامي. أصبَحت الوطنية مطلَباً جماهيرياً.

بعد فترةٍ من الفوضى التي استمرتْ خلالَها المظاهرات استخدَم البريطانيون الطرق القديمة في المُماطَلَة والتَّسويف: عيَّنوا لجنةً لكي تذهَبَ إلى مصر للبحث والتحقيق، ولكن عندما وصَلَ أعضاءُ اللجنة إلى القاهرة في ديسمبر 1919 استُقبِلوا بالمقاطعة ولم يتحَدَّث إليهم أحدٌ من المصريين سوى الدائرة الصغيرة حولَ المَلك الدُّمية.

حاوَلَ زغلول مثل أغلب القادة الوطنيين أن يهدّئ الوضع، ولكن القوى التي أطلَقَها لم تَمنَحهُ مساحةً للمرونة والتفاهم، فأي موقف أقلّ من الاستقلال التّام سيُعتَبَر قليلاً ومتأخراً. ومن المدهش أن البريطانيين قَوَّضوا سلطَتهم ذاتها عندما تَجاوزوا الحكومةَ المصرية وأشاروا بأنهم مستعدون للتفاوض مع زغلول الذي لم يَحمِل أي صفةٍ رسمية، فقبلوا بذلك أن الحكومة المصرية لم تكن أكثر من لعبة وليس لها أية سلطة حقيقية، وعندما لم يتمكَّنوا من الاعتراف بذلك، قبَضوا على زغلول مرةً ثانية ونَفوه خارج البلاد.

لم توقِفْ إزاحةُ زغلول المظاهرات، وأُغلِقت القاهرة تماماً. عندما ارتفعتْ تكاليف التمرد وازداد ضَجَرُ دافِعي الضرائب في انكلترا أعلَنَتْ الحكومةُ البريطانية استقلالَ مصر من جانبٍ واحد فيما عدا أربعة مجالات يجب الاحتفاظ بها بشكل مُطلَق: الاتصالات الأمبريالية، الدفاع، حماية الأقليات والأجانب، والسودان. استمرَّ الغَلَيان، ولكن بالنسبة للمتظاهرين كانت مجرد كلمة "الاستقلال" كافية. وعلى الرغم من رَبطِها بهذه الشروط المُطلَقة الأربعة فقد اقتَنَعوا بعدم جدوى الاستمرار بالتمرد. أعلَنَ زغلول ورفاقه من القادة الانتصار وعادوا إلى أساليبِهم المُعتادة بينما استُدرِج الطلبة أو أُجبِروا على العودة إلى مدارسهم.

كانت وطنيةُ طلاب مصر عَلمانية ومَحلية بشكل أساسي، إنما في بقية أرجاء العالَم الإسلامي ظلَّ حكامُ الدول الأمبرياليين والدبلوماسيين يعتَقدون أنهم شاهَدوا مؤامرةً حَرَّكها الإسلامُ ضد للأمبريالية، فكلَّفوا قوات الأمن بوَقف الصحف المُحرِّضة والنشرات وأن يَتجَسسوا على المؤسسات السرّية والأندية غير الرسمية. لا يَعرف الغربيون هذه الأيام ولم يَسمعوا إلا نادراً عن تلك الجماعات أو قياداتها، ولكن نشاطَها في تلك الأيام أرهَبَ الأمبرياليين.

كانت مخاوف الأمبرياليين سابقةً لأوانها ولكن قلَقَهم كان مَنطقياً. كانت كل قوة قد احتَلَّتْ وحَكَمَتْ ملايين المسلمين، وكان حكمها قاسياً وعنيفاً في بعض الأحيان، ومُهيناً في أغلب الأوقات، ومستغِلاً بشكلٍ مستمر. كانت أغلب حكومات الشمال العالمي قوميةً ووطنية، وافترَضَ حكامُ كل قوة من خلال تجربتهم ومعتَقداتهم الخاصة أن المسلمين سيحاولون الحصول على استقلالهم. غذَّى

ضباطَ الأمن مخاوفهم لأن عملهم يعتمد على وجود تهديدٍ بالتمرد والفِتن. ذَكَرت التقارير أن المسلمين في هند بريطانيا وقوقاز روسيا وجزائر فرنسا هائجون غضباً وأنهم دائماً على حافة الثورة.

تَخيَّلت الحكوماتُ البريطانية والفرنسية والروسية وجودَ حركةٍ واسعة خفية أطلَقوا عليها اسم "الإسلاميّة العامة Pan-Islamism" بسبب الخوف المترسّخ المستمر المتَجَدد. كانت الإسلاميةُ العامة مصدرَ القلق الدائم على مدى جيلٍ كامل من حكام الشمال العالمي. كان ضباط الأمن البريطانيون وجنرالات الجيش يستعدون دائماً للحرب الأخيرة. وكان مرجِعهم "التّمرد" الهنديّ الذي حدَثَ سنة 1857. لاقَتْ مخاوفُهم صدىً عند الروس الذين تَصَوَّروا نوعاً من نظريةِ تسلسلٍ يقومُ فيها السكان المستعمَرون الهائجون غضباً من التتار والترك والشيشان والطَّاجيك بالثورة واحداً تلو الآخر في الدول الإسلامية المغلوبة وغير الخانعة ليَخلَعوا أو ليُقوِّضوا الهيكلَ الامبراطوري. يمكن الحكم على مزاج الحكومات الامبراطورية بشكل جيد ليس من البرقيات الدبلوماسية الجافة، بل من خلال روايةِ العباءة الخضراء Greenmantle التي كانت شائعة آنذاك للمؤلف جون بوشان John Buchan، وهي تشبه سلسلةَ قصص جيمس بوند للمؤلف إيان فلمينغ. تَحكي الروايةُ عن عَميلين شريرين، تركيٌّ وألماني، يقودان مجموعاتٍ من الإرهابيين الذين لا يتم إنقاذُ العالَم المتحَضِّر منهم إلا على يد عملاء بريطانيين جَسورين. منَحَنا بوشان العَميل 007 قبلَ أن يَخترعه فلمينغ بكثير[217].

لم توجَد شبكاتُ الإسلامية العامة من المتمردين ورجال العصابات والإرهابيين آنذاك إلا في الأساطير التي خَلَقَها عملاء المخابرات، ولكن القَلقَ كان حقيقياً فمن المُتوقَّع وجودُ مثل هذه الحركات. كان هنالك أسباب منطقية "للعباءة الخضراء". افتَرَضَتْ حكوماتُ روسيا وفرنسا وبريطانيا أن المسلمين أرادوا الاستقلال الذي تَمتَّع به الأوروبيون، وأن خصومهم الأمبرياليون الألمان سيحاولون بمساعدة السلطان العثماني إثارةَ أتباعهم المسلمين لكي يتَحَركوا ضدهم. كانوا يُدركون جيداً أن الألمان أنفسهم كانوا يَندفعون أيضاً نحو الجنوب، وأن الشركات الألمانية تَستخدِم تقنياتها ورأسمالها مدعومةً من حكومتها لتَصميم سكةٍ حديدية عَبرَ الامبراطورية العثمانية تمتد نحو الهند البريطانية. تحت إلحاحِ الخليفة تَبرَّعَ ملايين من الهنود والإيرانيين والترك والبربر والعرب وسكان من جنوب شرق آسيا ومن أفريقيا السوداء بأغلب تكاليف خطّ السكة الحديدية الذي كانوا يأمَلون باستخدامِهِ للحَجّ إلى الأماكن المقدَّسة من دمشق إلى مكة. عندما اندلَعَت الحرب العالمية الأولى بعد ذلك بسنواتٍ قليلة استجابَ آخرون لدعوة الخليفة إلى الجهاد. ثارَ ضد الامبراطورية البريطانية جنودٌ مسلمون في فوج مِدْراس الخامس من المشاة الخفيفة الذي كان واحداً من أشهر أفواج الجيش الهندي البريطاني وكان متمَركِزاً حينها في سنغافورة وذلك في نسخة مصغرة من "التمرد" الكبير سنة 1857. تم التّغلب عليهم وإعدامهم.

وبين الحَجِّ والجهاد استيقَظَ العالَمُ الإسلامي.

الفصل السابع عشر

الثورة الإيرانية الأولى

في إيران وبقية أنحاء الجنوب كان التَّحول من الاعتماد على الإسلام إلى تَبني القومية العلمانية قد بدأ في التعليم. بدأت الطبقة العليا في المدن تُخرِجُ أبناءها من المدارس الإسلامية حيث كانوا لا يتعلمون أكثر من حفظ نصوصٍ تقليدية فارسية وعربية، وتُرسِلهم إلى مدارس تبشيرية افتُتحتِ في طهران لكي يتعلموا مواضيع أخرى. لم يكن إرسال الشباب إلى الخارج مفَضَّلاً في إيران حتى قبيل الحرب العالمية الأولى. وعندها اختار كثير من الإيرانيين الذهاب ليس إلى أوروبا بل إلى الامبراطورية العثمانية أو الهند أو إلى جورجيا الروسية. عندما سافروا إلى الخارج دَرَسوا مواضيع لم تكن متاحة لهم في إيران. وكان ما سَمِعوهُ خارجَ قاعات الدراسة لا يقلّ أهميةً عما تعلَّموه في المدراس. استَمَعَ الطلاب القادمون إلى من سبقوهم وإلى معارفهم الجدد. كما اطَّلَعوا على ما كان غالباً بالنسبة لهم أفكاراً ثورية في مجلات "الترجمان" باللغة التركية، و"العروة الوثقى" بالعربية، وغيرها من النشرات الدورية التي كانت تَصدر في مدنٍ مِنْ بخارى إلى فاس. ومثلما فَعَلَ نظراؤهم الروس بمجلة "الجرس" التي كان يحررها ألكساندر هيرزن، استطاع الطلاب أحياناً أن يُهَرِّبوا هذه المطبوعات إلى بلادهم ليطَّلع عليها أيضاً من كان أكثر تشوقاً لها.

كان جمال الدين الأفغاني الذي تحدثتُ عنه في الفصل الخامس عشر المحرر النشيط والكاتب المُقنِع لمجلة العروة الوثقى، وقد ألهَمَ الطلابَ والمعلمين في كل مكان. كان قائدَ النّخبة المثقّفة السرّية في مصر والامبراطورية العثمانية والهند وآسيا الوسطى، وكان مَمنوعاً في أغلب الدول وتم طَردُهُ بفظاظةٍ من جهة شاه إيران مما جعَلَه أكثر إثارةً لحَماس الإيرانيين الشباب. لا نَعرِفُ كثيراً عنهم لكي نحكم على ردودِ أفعالهم ولكن لا بد أنهم اهتاجوا عندما قَتَلَ أحدُ أتباع الأفغاني شاهَ إيران سنة 1896. ربما تَغَاضَى الأفغاني عن ذلك الفِعل ومن المؤكَّد أنه لم يَعترَض عليه. لم تكن "طلقةٌ سُمِعَتْ أصداؤها حول العالَم" ولكننا نستطيع اعتبارها أول حركة في سلسلة من الأحداث التي أدَّتْ إلى ثورة 1905 في إيران.

استلَم العرشَ مظفر الدين شاه بعد ناصر الدين، وكانت صحته سيئةً فاختار بحكمة أن يلجأ إلى العلاج الطبي الأوروبي وليس الإيراني، إلا أنه لم يَملكْ ما يكفي من المال للذهاب إلى أوروبا بالأبَّهة التي يقتَضيها مَركَزه. ولكي يتمكن من ذلك لجَأ إلى الاقتِراض. وانتَهَزَ البريطانيون والروس هذه الفرصة لاختراق الدفاعات الإيرانية. أدرَكَت المؤسسةُ الدينية الإيرانية والعلماء أن تلك المسألةَ

مخيفةً واتَّهموه ببيع إيران لأهداف خاطئة، وبذلك مَنَحوا مادةً للحوار الجماهيري ونَشْرِ الإشاعات مَهَّدَتْ لإيديولوجية الثورة.

لم يحصَل الشاه على ما يكفيه من البريطانيين والروس فلجأ أيضاً إلى فريقٍ من الخبراء الماليين البلجيكيين للحصول على المزيد. طُلِبَ من البلجيكيين أن يتصَرفوا وليس أن يُخطِّطوا فقط. بدأ قائد الفريق جوزيف ناوس Joseph Naus بالجمارك ثم توسَّعَ إلى مجالات أخرى، ومع حلول سنة 1903 أصبح يعمل وكأنه المدير العام للجمارك ووزير البريد والتليغراف ومدير الخزانة ورئيس قسم الجوازات ووزير المجلس الأعلى للدولة. لم يَحدث من قبل أن استَلَمَ أجنبيٌّ أيّاً من هذه المناصب، وبها معاً أصبح ناوس مديراً عاماً للحكومة الإيرانية. استطاع بفضل سلطته أن يضمَن قَرضَاً روسياً للشاه إنما في مقابل مَنْحِ روسيا احتكاراً بَنكياً. من الناحية الموضوعية كان يستحق اللوم، ولكن الفِعل الذي كان أسوأ بكثير من الناحية النفسية والدينية والوطنية حَدَثَ عندما سَمَحَ ناوس بتصوير نفسِه في حفلٍ تنكريّ وهو يرتدي ملابس رجل دين مسلم بينما كان يُصرِّحُ عَلَناً أنه يَحتقِر الإسلامَ والمؤسسات الإيرانية الدينية الشيعية.

اعتُبرت الصورة دليلاً على التَّخريب والتآمر، وعندما تم تبادلها من فئةٍ لأخرى بدأ كثيرٌ من الإيرانيين المُتذَمرين أصلاً بالتظاهر. أمر الشاه بإخماد تلك المظاهرات غير المسبوقة خوفاً مما قد تؤدي إليه. عندما فَشلت الرشوة والتهديدات، أَمَرَ قواته بإطلاق النار على المتظاهرين حتى في مَشهَد الإمام الرّضا، أقدَس مكانٍ في إيران. وفي مدن أخرى ضَرَبَ الجنودُ عَلَناً رجالَ دين كبار [218]. طلَبَ الشاهُ من خلال ناوس قَرضَاً روسياً ثانياً مُتجاهِلاً غضَبَ الجماهير. عَرفَت المؤسسة الدينية بذلك مقدَّماً فحرَّضَتْ حلفاءها التقيديين من تجار السوق على التظاهر. ولدهشة الحكومة فقد انضَمَّ إليهم للمرة الأولى فريقٌ مختلف تماماً. تألَّفَ هذا الفريق الجديد من طلاب وخريجي نظام التعليم الجديد. أطلَقَ عليهم رجلُ الدين الإيراني المعاصِر ناظم الإسلام لقَبَ "العُقَّل أو العُقلاء" أي الرجال المثقّفون وذلك لوضع هؤلاء المثقفين العَلمانيين في سياق إيراني ولتَمييزهم عن رجال الدين.

بلَغَ أفرادُ هذه الفئات الثلاثة معاً: العلماء وتجار السوق والعُقَّل حوالي الألفين، وشكَّلوا حركةً كانت تقليدية وثورية في الوقت نفسه: غادَروا بيوتهم وأماكن عملهم واعتَصَموا في مزارٍ لا تجرؤ الحكومة على مهاجمتهم فيه[219]. يمكن اعتبار ذلك الفِعل في ديسمبر 1904 تاريخ أول ثورة إيرانية.

كان المتظاهرون الإيرانيون في اعتصامِ سنة 1904 غير واضحين في مطالبهم مثلما حَدَثَ في الثورة الروسية التي عاصَرَتْها. بل لم يكن لديهم المفردات التي تُعَبِّر عن هدفهم. ولكن الكلمة التي صاغوها من الجمعِ بين العربية والفارسية شَمَلت القديم وفَهِمَت الحديث، وهي "majlis-i-adalat" أي مجلس العَدَالة أو التوازن (مقابل سلطة الشاه)[220].

سبَّبت المظاهراتُ إحراجاً كبيراً بسبب كبرها ولأن المشاركين فيها لم يكونوا عصبة من الفلاحين القذرين بل مجموعة متحضِّرة من المواطنين المهمّين، وكانت مُحرِجةً بشكل خاص بسبب الاهتمام الخارجي الذي حازَتْ عليه. أصدرَ الشاهُ المهذَّبُ أمراً كتَبَهُ بخط يده وَعَدَ فيه المتظاهرين بما فَهِمَهُ من مطالبهم فعادوا إلى بيوتهم بهدوء مبتَهجين بشجاعتهم غير المعتادة وهم يشعرون بأنهم قد حقَّقوا نصراً.

سرعان ما أدرَكوا بعد عودتهم إلى بيوتهم أن ذلك كان خطأً لأنّ الشاه لم يكن يَنوي حفظ وعده. كانت شرطته السرية تَجمَعُ المعلومات ويقولون له أن الجميع يُحبونه وأنهم يَستعدون لاغتياله في الوقت نفسه. أصغَى لمن يحب أن يَستمِع إليهم. لو كان المحرِّضون يطالِبون بأشياء لم تكن موجودة ويحتاجون لصياغة كلمات جديدة فربما لم تكن مطالِبهم جدِّية. ومن المؤكَّد أن أولئك الأقل تعليماً بمن فيهم تجار السوق لن يَفهَموا الكلمات الجديدة الغامضة ولن يتمكَّنوا من الضغط عليه بجدّية لمَنْحِهم ما تدلّ عليه هذه الكلمات. كان متأكداً من أن رجالَ الدين كانوا يُحَمِّسون المتظاهرين، وكانوا يؤكّدون له أنهم يحبّونه أيضاً ويَدعون له ويَعتمدون عليه[221]. كان أستاذاً ماهراً في التَّلاعب بهم ضد بعضهم بعضاً. ولكن لا بد من أنه قد انزعَجَ من ذلك الجانب الجديد في المظاهرات: لم يكن ما طالَبوا به مَكْرُمَةً مَلَكيةً يستطيع مَنحَها ثم سَحبَها، بل طالَبوا بمؤسسة. كان ذلك أكثر خطراً بكثير، فقد طالَبوا بحقّ إبداء الرأي فيما يَعتَقدونه أوضاع المواطنين البائسة التي ربما تشمل أقنان أراضيه ويقولون أن بؤسَهم يسبِّبه مسؤولون فاسدون هم رجاله. لم يُخفوا رغبتهم بالتَّصَدي لهيمنة البريطانيين والروس الذين يَعتمِد عليهم في القروض، والأسوأ من ذلك كله هو مُطالبتهم له أن يسمَحَ بالجلوس في نوع من مجلس الأمّة. تجَذَّرتْ هذه الفكرة الأخيرة وقَويتْ على الرغم من بذل أقصى جهده لمَنعها حتى ولِدَ البرلمان.

بينما انهمَكَ كبارُ العلماء سِراً بالتفاوض مع الشاه كان حلفاؤهم العلمانيون يقومون بنشاطات أكثر إبداعاً: كانوا منهَمكين في أول حملةٍ إيرانية للدعاية بين الجماهير المستبعَدة. كان من الدلائل على انتشار التعليم في المجتمع الإيراني هو افتراضُ الراديكاليين أنهم يستطيعون بناء الدعم الشعبي لهم بالتعبير عن احتجاجاتهم ومطالبهم في ملصقات وإعلانات لكي يقرأها الناس في الشوارع بدلاً من الاستماع فقط. ظَهَرَتْ هذه الإعلاناتُ فجأة على الجدران في كافة أنحاء طهران لتُعلِن أن الحكومة مستبدَّة، واستَخدَموا كلمة "استبداد"، التي استُخدِمتْ في وصف حكم الفرد الواحد المُطلَق في روسيا أيضاً، وأن ذلك يُخَرِّبُ التوازن التقليدي الذي نَظَّمَ الحياة الإيرانية[222]. ولأول مرة بدأت الصحف بالانتشار، ومع حلول سنة 1906 بلَغَ عددها المئة تقريباً.

كان جوابُ الشاه على كبار العلماء واضحاً: يجب أن يُخرِسوا المُخرِّبين الذين نَشَروا أحاديثَ السوء، وأن يدعو فقط لدوام صحة سيادة الحاكم. أما جوابه على المتظاهرين العلمانيين فقد كان بوسيلةٍ مختلفة تماماً: السياط والسيوف والرصاص التي استخدَمها الحرسُ الامبراطوري الذي يقوده ضباطٌ روس من القوزاق. بينما ارتفع عدد الجرحى والسجناء، كان كبار العلماء الذين كانوا بقيادة اثنين من آيات الله المتَميزين: محمد طبطبائي وعبد الله بهبهاني قد أصبَحوا أكثرَ عِناداً

وراديكالية وقالوا للشاه مباشرة إنه إذا لم يتمكن من القيام بواجباته أو تَجاوز سلطته فإن "الأمّة"، كما كانوا يَتصَورون أنفسهم، لها الحق في اختيار حاكم آخر لأن "الملك هو فردٌ مثل أي واحدٍ منا"223.

لم يُسمَع مثل ذلك في إيران من قبل.

رَفْعُ الشعارات هو أمرٌ مهم، ولكن يبدو أن الثورات تحتاج دائماً إلى الشحنة الانفعالية التي يُثيرُها شهيد. قدَّمَتْ مفرزةٌ من القوزاق المستَعدِّين فوراً لإطلاق النار الشهيدَ المطلوب. إذ قُتِلَ أحدُ الطلبة عندما حاولَتْ مجموعةٌ من طلابِ المدارس الدينية إنقاذَ رجلِ دينٍ معروف قَبَضَ عليه القوزاق. وصادَفَ أنه كان من نَسل النبي ولذا فقد كان قَتلُهُ خطيئةً بالإضافة إلى كونِهِ جريمة. تجَمَّعَ حشدٌ من الناس سريعاً وحَمَلوا جسمان الشهيد ورفَعوا قميصَه المضَرَّج بالدماء عَلَماً لهم، واتَّجَهوا نحو الجامع الكبير. تجَمَّعوا هناك وشَرَعوا في طقوس دفنٍ شيعي مثير. ثم اندفَعَ الطلبةُ وتبعتهم أعدادٌ كبيرة من النساء والأطفال بالعَويل والبكاء وشكَّلوا مظاهرةً كبيرة صاخبة لم يُشهَد لها مثيل.

بغضِّ النَّظر عن عدم وضوح أهدافهم في بداية الأمر إلا أن أعضاء تحالف المتظاهرين الفضفاض تعلَّموا طريقةً جديدة من العمل السياسي: المظاهراتُ الضخمة. وهكذا شارك في المَوجة الثانية من المظاهرات أكثر من اثني عشر ألف شخصٍ، وقامَ آلافٌ من التجار والنبلاء والعُقَّل بالاعتصام في حديقة المُفَوَضية البريطانية حَذَراً من هجوم آخر تقوم به الحكومة، وكان ذلك أبعد الأمكنة احتمالاً في اللجوء إليه نظراً لاعتقادهم بالتآمر الأجنبي على وطنهم.

عندما تدفَّقوا إلى منطقة المفوضية نصَبوا بسرعةٍ خيمة-مدينة صَنَعوا فيها ما يشبه جامعةً في الهواء الطلق عَقَدوا فيها محاضرات ومجموعاتِ درسٍ ولِجان تَسيير. وخلال ذلك بدأت المجموعات المتفرقة بتشكيل مَطالِب تطَوَّرتْ إلى الفكرة الثورية لتكوين دستورٍ يُحدِّدُ سُلطات الشاه. كانت تلك الفكرة جديدةً لدرجة أنها استَدعَتْ تَبَني كلمة جديدة هي "المَشروطِيات" مِنَ الكلمة العربية التي تَعني "وضع الشروط".

حاوَلَ مظفر الدين شاه أن يُماطِل في مواجهة هذا التهديد لسلطته. حاوَلَ أن يفرِّق بين العلماء والتجار، وعرَضَ الرشوات لقادةٍ مختارين من جماعة الأسواق، وهدَّدَ بعقوبات قاسية للطلاب. لم ينجح كل ذلك بتحقيق أي شيء. في محاولته حماية نفسه ولوم آخرين أَقالَ الشاهُ رئيسَ وزرائه المَكروه، إلا أن المتظاهرين المُبتَهجين بهذا النصر تابَعوا ضَغطَهم. وأخيراً في 5 أغسطس أصدَرَ الشاهُ أمراً خطياً بتأسيس مجلس شورى. ومن المدهش أنه كان مفتوحاً أمام الرجال من كل أديان إيران وطَبَقاتها.

عادَ المتظاهرون منتصرين من اعتصامهم الذي استمر شهراً، وفُتِحت الأسواق وأُزيلَت الخيمة الكبيرة التي نُصِبَتْ في حديقة المفوضية البريطانية. في تلك اللحظة طرَحَ السؤال الأساسي مسؤولٌ في المفوضية البريطانية: "هل نشاهدُ فجر الحرية في فارس، أم بدايةَ مهزلةٍ مؤسِفة؟"224.

سرعان ما أصبَحت الإجابةُ واضحة.

كان الشاه مُصِرَّاً على حماية عرشه بينما كان المتظاهرون متَّحدِين فقط في معارضَته. رجالُ الدين الذين تودَّدَ لهم الشاهُ بحماسٍ وقدَّمَ إليهم الرشوةَ بسخاء كانت لديهم شكوكٌ بشأن التجار، وكان لدى التجار شكوكٌ أكبر بشأن العُقَّل. كانت لديهم مصاعب حتى في تسمية أهدافهم بين بعضهم بعضاً. ولذا وعلى الرغم من تَبَني اصطلاحاتٍ أجنبية لوصفِ الوطنية أو القومية الجديدة بِحُرِّية، إلا أن الطرق التي فُهِمَتْ بها اختلفتْ كثيراً من فئةٍ إلى أخرى. تركَّزتْ هذه الاختلافات في السياسة إلا أنها نشأت بسبب اختلافِ طرقُ المَعيشة والتقاليد وحتى نمط الملابس التي جعَلَت التحالف السياسي الأساسي هشاً وضَعيفاً. وكان لا بد من أن تَمَنحَ هذه المشاكلُ فرصاً للأعضاء الخائفين من المعارضة الرجعية لاستعادة قيادتهم، وكان الدين سلاحاً رئيسياً في أيديهم.

أصبَحَ الدينُ قضيةً فورية وفي اللحظة الأخيرة تقريباً. كان المتظاهرون قد استَبدلوا كلمة "الملّي" أو (الوطني) عوضاً عن "الإسلامي"، إذ كان من المفروض أن تكون الهيئة الجديدة (مجلس الشورى الملّي) مجلساً استشارياً "وطنياً" وليس مجلساً "إسلامياً".

ثارَ رجالُ الدين بينما ابتَهجَ العُقَّل العَلمانيون لأنهم ظنّوا أن التأكيد على "الملَّة" أو "الوطن" كان أمراً حديثاً. تصَوَّرَ كل منهما أنها تعني فَتْحَ المجلس لكل أبناء الوطن بمن فيهم المسيحيين واليهود والزَرادَشتيين والمسلمين. ولكن في اللغة الفارسية (كما هو الحال في التركية والعربية) لم تدل كلمة "الملَّة" آنذاك على "القومية" أو "الوطنية" بل كان المعنى الذي أرادوه هو أن كل طائفة كانت "ملّة" منفصِلة عن الباقين بحسب عاداتها وديانتها وملابسها ولغتها في بعض الأحيان. ولكن بغضّ النّظر عما أراده العُقَّل لم يكن بقيةُ أعضاء التحالف معتادين على قبوله، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا مستعدين لمشاركة المسيحيين والبهائيين واليهود والزَرادَشتيين معهم في قراراتهم. دلَّت كلمة "مجلس" في حدِّ ذاتها على "مكان الجلوس" ولم تكن لديهم النية للجلوس معاً، وهكذا بدأ المجلس ضَعيفاً ومُعاقاً مما سهَّلَ على أعدائه التَّلاعب به.

عندما اجتمعَتْ قياداتُ التحالف لوضع قانون انتخابات كان الشاه معارِضَاً بالطبع. أُجريَت الانتخابات لأول مرة في إيران سنة 1906 بفضل تدخّل المفوضية البريطانية. وكان من المحتّم أن تكون مُزَوَّرَة. أدَّت الرشوة وتزوير الأصوات والتَّخويف لضمان ألا يتم ترشيح سوى مَن يوافق عليهم الأقوياء. ومع ذلك لم يكن المجلس الجديد مقبولاً للشاه فقد كَرِهَ المجلسَ بِغَضِّ النَّظر عمّن جَلَسَ فيه. والأسوأ من ذلك بالنظر إلى حاجته المستمرة للتمويل الجديد فقد ذُعر عندما صَوَّتَ المجلسُ في واحدةٍ من أولى تحركاته بمَنعِ الحكومة من حقِّ التّعاقد على ديون أجنبية.

ضَعفتْ قبضةُ الشاه على السلطة أكثر مما تَخَيَّل. ذَكَرَ صديقٌ فارسيّ للمُستَشرق الانكليزي براون E. G. Browne ظهورَ نوعٍ جديد من المُعارضة هم "الفدائيون". سنقابلهم مرةً ثانية في أفغانستان وفلسطين. أما في إيران فقد قيل لبراون: "هناك حزبٌ جمهوري اتَّخذ اسم "الفدائيين" وهم يَجتَمعون في الليل ويُقسِمون على القرآن بأنهم سيناضِلون ضد الديكتاتورية المُطلَقة ما داموا على قيد الحياة"[225].

في غمرة هذه الأحداث، وبعد أسبوع واحد من توقيع أمرٍ بمنحِ دستور، توفي مظفر الدين شاه في السابع من يناير 1907 وخَلَفه ابنه الذي كان أكثر عُنفاً.

لم يشعر محمد علي شاه بأنه مُلزَمٌ بما قَبِلَهُ أبوه من تنازلات ولم يُحاول أن يَكسَب أعضاءَ المجلس إلى صَفِّهِ، بل اختار أن يَستخدِم ضدهم السلاحَ الذي أعطاه إياه الروس، وهو سَرِيَّة القوزاق. قصَفَ القائد الروسي لتلك السَرِيَّة بموافقة الشاه مجلسَ الشورى، ثم اقتَحَمَ العساكرُ المجلسَ وقَبَضوا على رئيس الوزراء المنتَخَب الجديد وقادوه بالسلاسل. ومما زادَ في صدمة الإيرانيين أنهم قَبَضوا على القائِدَين الدِّينِيين الرئيسيين (المُجتهدين)، ثم قامَ جنودُه بسرقة وإحراق البناء الذي عُقِدَ فيه المجلسُ الذي كان رمزاً للنظام الجديد.

حدَثَ ما هو أسوأ من ذلك سنة 1907 عندما قرَّرَتْ بريطانيا وروسيا فجأةً أن يتجاوَزا خلافاتهما ويَعمَلا معاً بعد أن خاضَا صراعاً طويلاً ضد بعضهما على مدى عقود من "اللعبة الكبرى" تبادَلَ فيها العُملاء السرّيون الضربات وتَبِعوا بعضهم بعضاً في ممرات الجِبال العالية بينما كان سفراؤهما يَتزلَّفون ويَرشون ويُلحّون ويُهددون المسؤولينَ في القصر. جاء هذا التَّغير في الموقف جزئياً بسبب شروعِ ألمانيا الأمبريالية في بناء اسطولٍ كبير ينافِسُ البحريةَ المَلَكية ففكَّرتْ بريطانيا أنها تحتاج إلى التحالف مع روسيا. وكذلك احتاجَتْ روسيا إلى حليفٍ لأن اليابان كانت قد وجَّهتْ إليها هزيمةً نكراء في الشرق الأقصى. وبالإضافة إلى ذلك كان الرأي العام في الدولتين قد تَعِبَ وأرادَ تَوجُّهاً أكثر اعتدالاً في الامبراطورية. قرَّرت الحكومتان أن يتعاونا معاً.

أدَّتْ هذه الأخوّة الأمبريالية الجديدة إلى تقاسم الغنائم في إيران ونالَ الروسُ حصَّةَ الأسَدِ في الشمال حيث أسسوا مستعمَرةً جديدة مثل تلك التي صَنعوها في القوقاز وآسيا الوسطى. حصَلَ البريطانيون على الجنوب الذي كان يبدو أنه أفقَرَ مناطقِ إيران ولكنه حقَّقَ الهدفَ الاستراتيجي البريطاني الرئيسي وهو قَطْعُ الطريق نحو الهند. أصبَحَت المناطقُ الوسطى من إيران نوعاً من الأرض الشَّاغرة التي تنافَسَتْ فيها شركات وأفراد من كلتا الدولتين للحصول على الامتيازات.

سيَجعَلُ البترولُ من إيران فيما بعد دولةً غنية، ولكن الصناعة لم تكن قد تطَوَّرتْ بَعدُ وكان الاقتصاد الإيراني ركاماً. تم جَمْعُ الضرائب بشكل عشوائي بحيث دفَعَ الأغنياءُ قليلاً ودفَعَ الفقراء كثيراً وبطريقةٍ قاسية واستِغلالية أدَّت إلى انخفاض الانتاجية وأن يضطر الفلاحون الجائعون إلى تَركِ قراهم. اختَفَتْ أكثر الأموال التي اعتُصِرت من الفقراء في جيوب المُحَصِّلين الجَشِعين، وحتى الأموالُ التي وصَلَتْ فعلاً إلى خزائن الحكومة كانت غالباً تَختَفي. لم يكن لدى إيران موازنة، ولم يكن لديها نظامٌ لتسجيل الواردات وتَخصيص النفقات ولا خَدماتٍ مدنية مؤهلة. وما كان يمكن اعتباره وزارة مالية لم يكن أكثر من مجموعةٍ من الرجال الموظفين اسمهم "المُستَوفين" (أي المُحَصّلين الذين يَعملون على تَحصيل ما يَجب) الذين لم يَخضَعوا للمُراقبة. كانت وظائفهم مُتَوارثة في الغالب ولذا فقد كان بعضهم أطفالاً. التعامل مع دَخْلِ الدولة يمكن أن يكون وظيفةً مغرية ولكنها كانت خطرة في الغالب لأن الشاه وأفراداً كثيرين من العائلة المالِكة والمُتَطفّلين عليهم وكبار المسؤولين والتجار المُتَنَفِّذين... جميعهم كانت أيديهم تَصِلُ إلى الخزينة، وأي محاولة لشد الحِزام عليها ستؤدي حتماً إلى طرد المسؤول المُتَحَمِّس أو سَجنه وتَعذيبه وحتى لقَتْلِهِ في بعض الأحيان. لم يتَحَدى النظامُ أي شخص عاقل.

كان النظامُ نفسُه في حالة فوضى والغالبيةُ العظمى من السكان القرويين وفقراء المدن كان يتم تَجاهلهم ولم يَحصَلوا بَعدُ على دورٍ سياسي. ومَن كان فوقهم مِنَ المؤسسة الدينية وتجار السوق

كانوا مرتَبكين ومُستَفَزّين وغاضِبين من الفئة المثقّفة الصغيرة التي لا يمكن اعتبارها "طَبَقة"، وكانوا يشعرون بالتهديد من جهة الشاه. اجتمَعَتْ كلُّ هذه الاضطرابات في المجلس الذي كان مُتَضَرّراً إلا أنه لم يُدمَّر بَعد. كانت كلُّ كلمة فيه تَجِدُ انتشَارَها في الصحف الناشئة والنشرات والإعلانات. كان هنالك كثيرٌ من الأخبار. وكان كل عضو يتَحَدَّثُ في المجلس، والإشاعاتُ تَظهَر فجأة، بل إن ما كان يُعتَبَر عادياً أصبَحَ فضيحةً شائعة. وَجَدَ الشاهُ وأعوانُه أنفسَهم في خطرٍ متزايد إلا أنهم استمروا في نَهب كل ما وصَلوا إليه من خزينة الدولة.

أدرَكَ المجلسُ أن المالَ هو مفتاحُ التغيير ولكن محاولةَ السيطرة عليه كانت خطيرة جداً. وفي واحدةٍ من آخر أعماله الشجاعة قرَّر المجلسُ أن يطلب مساعدةً خارجية. عرفوا أن الطَّلَبَ من البريطانيين أو الروس كان بمثابة الطَّلَبِ من الثّعلب أن يحَرس بيت الدجاج. ولذا طَلَبوا المساعدةَ في سنة 1907 من الحكومة الأمريكية التي كانت بعيدةً وغير معروفة آنذاك. رشَّحَت الحكومةُ الأمريكية محامياً ناشِراً مصرفياً كانت لديه خبرةٌ في إدارة الجمارك في كوبا والفلبين التي كانت آنذاك تحت سيطرة أمريكا. قَبِلَ المجلسُ تلك التوصية وعَيَّنَ ويليام مورغان شوستر William Morgan Shuster محاسِباً عاماً في إيران ومستشاراً للمجلس، وكلَّفوه بمهمةِ تنظيم مالية الدولة.

واجَهَ شوستر معارضةً عنيفة من الروس في كل خطوة اتَّخذَها لأنهم اعتَبروه عقبةً في طريق سيطرتهم على إيران، وكذلك من الإيرانيين الذين كانوا يستفيدون من الفوضى المالية. لمواجهة العراقيل التي واجَهَته وإصراراً منه على الفَوز شَكَّلَ شوستر ما يمكن اعتِباره جيشاً خاصاً صَغيراً (دَرَك المالية) لِجَمع الضرائب من الذين كانوا يَتَهرَّبون من دفعِها. اتَّهمَه أفرادٌ من العائلة المالِكة "بعدم اللياقة" الذي كان تعبيراً مُهذَّباً عن قولهم أنه لم يَقبَل الرشوة. أثارَ غضَبَهم واستياءَهم لأنه أمَرَ بمصادرة أملاك عَمِّ الشاه، فإذا كان العَمُّ لا يملكُ أية حصَانةٍ فإنهم جميعاً في خطر.

كان الأسوأ من ذلك قادِماً، إذ قَلَّدَتْ مِثالَ شوستر مجموعةٌ من الوطنيين الإيرانيين في المنطقة الروسية وقاطَعوا المُستورَدات الروسية، ولدهشة جميع المُراقبين فقد توقَّفوا حتى عن شراء الشّاي وهو مشروبهم الضروري، وهاجَمَ بعضُهم الجنودَ الروس الذين كانوا يَحمون البضائعَ الروسية. شَعَرَ الروسُ بالتهديد الحقيقي فأرسَلوا اثني عشرة ألف جندياً تَحرَّكوا نحو طهران لقَمع المقاومة. أعطَى الجيشُ والقوزاق للإيرانيين أولَ درسٍ في تكاليف وَضْعِ حكومة تمثيلٍ شعبيّ، ولن يكون آخر هذه الدروس.

أغلَقَ الروسُ ما تبقَّى من المجلس وأنذَروا الممثلين أنهم إذا حاوَلوا الاجتماع ثانية فسيتم إعدامهم. طلَبَ الروسُ أيضاً طَردَ شوستر الذي أُرسِلَ إلى بلده في ديسمبر 1911، واستمر القَمع.

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى اختبَأ أغلبُ الرجال الذين ساعَدوا في تشكيل المجلس أو هَرَبوا إلى خارج البلاد. وَجَدَ بعضُهم الطريق إلى ألمانيا حيث دَرَسَ بعضُهم، واعتَبر الإيرانيون أن الألمان أقلَّ خَطراً من البريطانيين والروس لأن الألمان لم يحاولوا أبداً الغزو أو السيطرة على إيران. أعلَنَت الحكومةُ الإيرانية بشكل حكيمٍ حيادَها وقالَتْ إن الحرب هي بين الأوروبيين وليست قضيتَها. ولكنهم سيَعرفون سريعاً أن المرءَ لا يستطيع ببساطةٍ اختيارَ الابتعاد عن الأمبريالية.

استفادَ السفيرُ الألماني من عدم رغبة إيران في دعم قوى الحلفاء وحفّزَ حكومتَها على دعم قوى المِحور ووَعَدَ أن ألمانيا ستُنهي السيطرة الأنكلو-روسية. ظَنَّ الوطنيون الإيرانيون، الذين كانوا يكتسِبون معرفةً عن العالَم خلال العقد الأخير، أنها كانت فرصةً حقيقية لأن كل واحدٍ تقريباً ظَنَّ في سنوات الحرب الأولى أن ألمانيا كانت تَربَح. تَحدَّثَ إخوانُهم المسلمون الأتراك، على الرغم من أنَهم سُنَّة، باسمِ كثيرٍ من الإيرانيين عندما أعلَنوا الجِهاد ضد الحلفاء. تحرَّكَ الروس نحو طهران عندما أدرَكوا الخطر فهَرَبَ جميعُ من بقي من أعضاء المجلس إلى خارج البلاد بخوفٍ يائس تحت إلحاحِ رئيسِ الوزراء آنذاك، وانضَمَّ إليهم كبار العلماء والتجار وشكَّلوا حكومةً في المَنفى في كرمانشاه البعيدة. وصَلَت الوطنيةُ إلى إيران مثلما ستَصِل إلى العرب وشعوب الجنوب الأخرى مع أحذية الجنود.

الفصل الثامن عشر

الحرب العالمية الأولى

دخَلَ الحلفاءُ الحربَ العالمية الأولى في أغسطس 1914 ولديهم اهتمامات رئيسية متضَاربة وخلافات لم تُحَلَّ آثارُها في تَنافسهم للحصول على امبراطورية. في آسيا كانت الهند هي الجائزة الكبرى وكانت في يد بريطانيا، بينما كانت روسيا تندفِعُ باستمرار نحوها. ولذلك تصارَعَت القوتان الأمبرياليتان مِراراً خلال القرن السابق. يمكننا أن نتَخَيل "جبهة" هذه الحرب الباردة كانت نِطاقاً يمتد من الشرق الأوسط وعبر البحر الأسود وأفغانستان إلى الصين. ولذلك بَدءاً من الغرب كانت بريطانيا مصِرةً على حصر الأسطول الروسي في زجاجةِ البحر الأسود. ولكي تَفعَل ذلك كان عليها أن تحافظ على المضائق التركية خارج سيطرةِ الروس وأن تُبقي "رَجُلَ أوروبا المريض"، كما كانوا يُسَمون الامبراطوريةَ العثمانية، على قيد الحياة. كان ذلك هو السبب الرئيسي وراء تَدمير بريطانيا لأسطول محمد علي باشا النَّاشئ في مصر في الفترة 1839-1840، لأنه عندما هاجَمَ الامبراطوريةَ العثمانية فقد هدَّد باختِلال التوازن الاستراتيجي[226]. إلا أن أعمالَ البريطانيين ضد محمد علي لم توقِف الروس.

كان الخوفُ من "العُدوانية" الروسية سبباً رئيسياً لحرب القِرم في 1853-1856، وبالنسبة للروس كانت الحربُ مُخزِيةً ورَدَّ الجنرالاتُ الروس بالهجوم على الأهداف التي استطاعوا الوصول إليها في آسيا الوسطى والقوقاز كما شَرَحتُ في الفصل التاسع. ولكن رجالَ الدولة الروس لم يتَخَلوا عن حلم الهند. استَكشَفَ جيلٌ كامل من الجنود والمغامرون الروس والبريطانيون بعضهم بعضاً خلال منتصف القرن التاسع عشر في الحرب السرّية التي تُعرَف باسم: "اللعبة الكبرى".

كانت اللعبةُ الكبرى مادةً للروايات وشَغفَ الجمهورُ بقصص المغامرين الجَريئين ولكنها في الحقيقة كانت لعبةً ولم تُؤدِّ إلى شيءٍ مهم في الواقع. حدَثَت الحربُ الحقيقية عندما انتصَرت الجيوشُ الروسية ودَخلَتْ ولاية بنجده Panjdeh في أفغانستان سنة 1885. كانت بنجده آخر خطوة في سلسلة من معارك استمرت عشرين سنة تقدَّم فيها الروس داخِلَ آسيا الوسطى نحو الهند. تصَوَّرَ البريطانيون أن ضَمَّها إلى الامبراطورية الروسية سيخلُّ بالتوازن الاستراتيجي واعتَبروا أن أفغانستان مِحور السياسة البريطانية في الشرق، مثلما كانت الامبراطوريةُ العثمانية المِتراس في الغرب. كانت بريطانيا مصِرةٌ على المحافظة عليهما خارج السيطرة الروسية.

كان الصراع الروسي-البريطاني محتَّماً على هاتين الدولتين الضعيفتين حتى عندما كانت العلاقات بين الأباطرة (الذين كانوا جميعهم أقارب) جيدةً وحميمية، وحتى عندما شَعرت الحكومتان معاً بالتهديد لما تَصَوروه احتمال ثورةِ الشعوب المسلمة التي احتلّوها. اعتَبَر رجالُ الدولة والجنرالات بعضهم بعضاً بمثابة أعداء. باختصار، خلال أغلب سنوات القرن الذي سبَقَ اندلاعَ الحرب العالمية الأولى تَصوَّرتْ روسيا أن بريطانيا منافِسة منافِقة وبَخيلة ومُخادِعة، بينما اعتَبَر الانكليز روسيا أنها القوقازيُّ القادمُ على ظَهر حِصانٍ والمهاجِمُ جنوباً نحو الهند. وفي الخَيال الشعبيّ على الأقل كانت روسيا طُغياناً آسيوياً وليستْ عضواً من أوروبا المتَحضِّرة بل وريثةَ المَغولي جنكيزخان. كان تَغيير صورةِ الامبراطوريةِ الروسية من عَدوٍ إلى حليفٍ هو التَّحدي الدبلوماسي الكبير أمام بريطانيا عند اندلاع الحرب العالمية الأولى.

العَداءُ البريطاني ضد الروس في آسيا انعكَسَ في أفريقيا حيث اصطَدَمتْ طموحاتُ البريطانيين بالفرنسيين. بدأ ذلك عندما احتَلَّ نابليون مصر وخطَّطَ أن يَستخدِمها قاعدةَ عملياته ضد البريطانيين الذين أخَذوا المستعمرات الفرنسية في الهند أثناء الثورة الفرنسية. وعلى خُطى نابليون هجَمَ البريطانيون على مصر وأجبَروا الفرنسيين على الانسِحاب. عندما أُحبِطتْ جهودُها في الشرق اتَّجهَتْ فرنسا نحو أفريقيا بادِئةً باحتلال الجزائر سنة 1830. ثم تحرَّكَ الفرنسيون نحو الجنوب والشرق إلى السنغال في خمسينيات القرن العشرين، واندَفعوا نحو الدَّاخل ليصنَعوا ما أصبَح يُعرف باسم أفريقيا الاستوائية جنوب الصحراء الكبرى.

حاوَلَ المستشارُ الألماني أوتو فون بسمارك Otto von Bismarck سنة 1884 أن يحلَّ الخِلاف بين القوى الأوروبية بتوضيح طموحاتِ بريطانيا وفرنسا في أفريقيا الوسطى والاعترافِ بمطالِب بلجيكا والبرتغال وألمانيا إلى الجنوب منها، ولكن المؤتمر الذي جَمَعَ فيه حكامهم ورجال دولهم لم يتوصَّل إلى معاهدةٍ ولم يوقِفْ بريطانيا ولا فرنسا. كان "تزاحمهم في أفريقيا" هو ما حاوَلَ بسمارك أن يشجِّعهم على تَجَنُّبه، على الأقل في مواقِفِه المُعلَنة[227]. اندَفَعَ كل منهم وراء طموحِ الأمبريالية وطموحاتِ مسؤوليها ومَطالِبِ شعوبهم بالتَّقدم إلى الأمام.

حاوَلَ الفرنسيون التعاونَ مع بريطانيا سنة 1882 لغَزو مصر إلا أنهم انسَحبوا من الغزو المشترك وكانت النتيجة أنهم وقَفوا يتفرجون على بريطانيا تفوز بمستعمرةٍ غنية أخرى. شَعَرَ الفرنسيون بالغُبن ونَظَروا إلى مصر مثلما كان الروس يَنظرون إلى الهند: محفظة نقودٍ في جيب الامبراطورية البريطانية. استرجاعُ مصر إلى لعبةِ الاستراتيجية الدولية كان نوعاً من النسخة الأفريقية المَقلوبة من التنافس الأنكلو-روسي في آسيا. كان مادةَ ألعابِ القوة وتَغيير التحالفات وتهديداتٍ بالحرب فترةَ جيلٍ على الأقل. وبمراجعة ما حدَثَ يمكننا أن نَرى أن المخاوف التي حرَّكَت القوى الأمبريالية الثلاث كانت خَيالية في أغلب الأحيان. وربما كان أكثرها سخافةً هو الخوف البريطاني من أن فرنسا كانت تُمَركِزُ نفسَها في أفريقيا الوسطى لتَجويع مصر.

أقنَعَ البريطانيون أنفسَهم بأن فرنسا كانت تَندفِع عبر أفريقيا لكي تَبني قاعدةً على النيل الأبيض حيث يُمكنها بناء سَدٍّ لحَبْسِ مياهِ النيل الذي تَعتَمد عليه مصر[228]. ولكن مثل هذه المهمة كانت أكبر من طاقة أية دولة، وما زالتْ كذلك. ولكن الخوف من الأمبريالية الفرنسية كان جذَّاباً في

الصحافة واستَغَلَّته الحكومةُ البريطانية لكي تندفِع نحو أهدافها الخاصة في حوض النيل[229]. تَخيَّلَ المسؤولون البريطانيون والصحافة تَدَفُّقَ جيشٍ فرنسي كبير عبر أفريقيا نحو النيل للهجوم على مصر من الجنوب. كان هذا التقديرُ الخارق للاستخبارات البريطانية صَدى للاعتقاد البريطاني بأن جيش القوقاز الروس كان مستعداً دائماً للإسراع عبر الجبال والصحارى للهجوم على الهند. كانت حقيقةُ الوضع في أفريقيا هي أن الفرنسيين تمَكَّنوا في سنة 1898 من تَوصيل 120 جندياً سنغالياً وستة ضباطٍ فرنسيين إلى قريةِ الفاشودة الصغيرة على النيل بعد شهورٍ من المَسير المُضني شَقّوا فيها طريقهم عبر الأدغال أو تقدَّموا بصعوبة ومشَقة عبر الصحراء. تحت ضغط الإرهاق وتصريحات الحكومة البريطانية اضطرتْ فرنسا للإقرار عَلَناً بأنها لا تمتلك أية قوات على النيل. انسَحَبَ الفرنسيون ولكن سخافة تصريحاتهم الهجومية أكَّدت على العُدوانية الخفيّة بين القوتين الأمبرياليتين.

كانت العُدوانيةُ متأصلةً وعميقة الجذور، فمن وجهة نظر الفرنسيين كانت التصرفات الدبلوماسية البريطانية واستعراضات القوة حول "حادثة الفاشودة" حركةً أخرى في سلسلةٍ طويلة من الحركات البريطانية المُغيظَة، وقد حدثَتْ بعد ستة عشرة عاماً من الخطة الأنكلو-فرنسية لغزو مصر الذي أصبَح احتلالاً بريطانياً مُنفَرداً. ومرةً أخرى شعر الفرنسيون بالإهانة. ولتَهدِئة الفرنسيين وَعدَتْ بريطانيا (بحذر) بالانسحاب من مصر خلال ست سنين. أصبَحَت السنواتُ الستُّ نصفَ قرن. بالنسبة للفرنسيين كانت بريطانيا بمثابة "ألبيون الغدار". دُفِعَت الحكومتان بِمَوجَةٍ من الرأي العام الغاضِب نحو الحرب، ولم يقطَع الفرنسيون علاقاتِهم الدبلوماسية مع البريطانيين إلا بسبب خوفِهم الأكثر إلحاحاً من ألمانيا.

بعد ذلك بستِّ سنوات أَجبَر الخوفُ من ألمانيا القوتين للتَّحالف في سنة 1904، ولكن العلاقات ظلَّتْ هشَّة. ولم تكن العلاقات مع روسيا أفضل، ولذا عندما اندلَعت الحرب في أغسطس 1914 كان الحلفاءُ معاقين بسبب تاريخ نظرتهم إلى بعضهم بعضاً.

لم يكن لدى خصومِهم مثل تلك الأثقال النفسية. قدَّم قيصر ألمانيا نفسه حامياً للجنوب، وفي زيارةٍ إلى السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1898 أعلَنَ القيصرُ ويلهلم الثاني Wilhelm II نفسَه صديقَ العالَم الإسلامي. استطاعَ أن يُبَيِّنَ للسلطان أن ألمانيا وحدَها من بين القوى الأمبريالية لم تقُمْ بأي عملٍ ضد الامبراطورية العثمانية. أيَّدَت الأفعال مساعي القيصر: كانت الشركات الألمانية قد بدأتْ مَشروعاً لتوحيد الامبراطورية ببناءِ سكةِ حديدٍ عَبرَها. ربِحَ المشروعُ حتى تأييد مموِلين فرنسيين عَرَضوا تغطيةَ نصف تكاليف المشروع تقريباً. وفي سنة 1905 أعلَنَ القيصرُ مُصَوِّراً نفسَه حامياً للحرية أن المغرب دولة مستقلة وليست مِلكاً لفرنسا ولا اسبانيا. انتَشَر التجار الألمان عبر العالَم الإسلامي واهتَموا بالأذواق المَحَلية بينما أصَرَّ البريطانيون بجمودٍ على أن السكان المحليين يجب أن يتبعوا الأذواقَ الانكليزية. أصبَحَ الألمانُ محبوبين[230].

كان برنامجُ التحديث والتطوير الناجح في ألمانيا أكثر جاذبية من الجهود التي كانت تَرمي لكَسبِ الأصدقاء. لم يكن سكانُ المتوسط فقط مَن تَأثَّرَ بذلك، بل إن الإيرانيين والترك والأفغان

وغيرهم ممن سُمِح لهم بذلك، فأرسَلوا أبناءهم للدراسة في ألمانيا. كان نمو الثروة الألمانية واحترامها وقوتها واضِحاً على كافة المستويات. كانت الصناعة الألمانية متَقدِّمة تَقَنياً على بقية أوروبا وكان شعبُها أفضَلَ تعليماً وطُرُقها الداخلية ربطَتْ بين أجزاء الدولة في سوقٍ واحدة وشبكةُ السكك الحديدية مَكَّنَتها من نقل قواتها المسلَّحة بسرعةٍ بحيث يمكن تجميع القوى الصغيرة وتركيزها بسرعة لتحقيق ما يسميه المُخطِّطون العسكريون "الأفضلية في مسرح العمليات". امتلَكتْ ألمانيا أفضل الجيوش المُحترفة في العالَم، بينما كان أربعةٌ من كل عشرة جنود فرنسيين كانوا فلاحين مجندين حديثاً، وكانت النسبة أكبر من ذلك بكثير في الجيش الروسي. كان الألمانُ محترفون، بينما كان الفرنسيون والروس هواة، وباستثناء قواتهم الهندية كان البريطانيون أقل عدداً بكثير.

عند اندلاع الحرب في أغسطس 1914 ظَهَرتْ هذه الإعاقات بجَلاء، خَسِرَ الروس جيشين خلال شهرين، ومع حلول سنة 1915 انتشَرتْ إشاعةٌ بأن الحكومة الامبراطورية الروسية تَدرسُ سَلاماً منفرداً مع ألمانيا بعد خسائر كارثية في المعارك، مثلما استَنتَجت الحكومةُ الشيوعية بعدها بسنتين في برست-ليتوفسك Brest-Litovsk. أدرَكَ البريطانيون أن روسيا ستَنهار إذا لم توجَد وسائل لنَقل الطعام والأدوات والأسلحة إليها، ولكن الامبراطورية العثمانية صَمَدتْ وأغلَقت الطريقَ الوحيد في طريق التموين عبر المَضائق التركية. حاوَلَتْ جيوشٌ فرنسية ووحدات بريطانية صغيرة اختراقَ الخطوط ولكنها لم تنجح. استقرَّت العمليات في حربِ استنزافٍ رهيبة أنهَكَتْ في النهاية جميع القوى الأمبريالية.

لم تَنتَشر الحرب في أوروبا إلى الجنوب فوراً، ولم تُعلِن بريطانيا وفرنسا الحربَ ضد الامبراطورية العثمانية إلا في نوفمبر 1914 بعد ثلاثة أشهر من اندلاعها في أوروبا. ولكن حتى قبل أن تُعلِنَ بريطانيا الحربَ أرسَلتْ قوةً أنكلو-هندية خاصة في الولاية العثمانية، التي أصبَحَت العراق فيما بعد، للسيطرة على مَصَبِّ نَهرَي دجلة والفرات. بعد ذلك بوقتٍ قصير أَعلَنَتْ أن قريةَ صيد اللؤلؤ والتجارة في الكويت "مستقلةً تحت الحماية البريطانية". ثم تابَعَتْ بضَمِّ قبرص، وأعلَنَتْ آنذاك ما كان أمراً واقعاً منذ زمن طويل أن مصر هي مستعمَرتها. منَحَت الحرب بريطانيا نوعاً من التَّصريح بالتَّصرف علَناً والتَّقدم فيما كانت تَفعَله بهدوءٍ على مدى قرن: احتلال مناطق جديدة لحماية ما احتلَّتْهُ من قَبل. مثلما صرَّح رئيسُ الوزراء البريطاني اللورد ساليزبري Salisbury بأنه لو تَرَكَ الأمرَ للجنرالات البريطانيين "لأصَروا على أهمية وضعِ حاميةٍ في القمر لحمايتِنا من المريخ"[231]. كان للأمبريالية دافعها الذاتي ومنطِقها الخاص.

على الرغم من أن الفرنسيين كانوا مَضغوطين ويُواجِهون الهزيمةَ على الجبهة الغربية ويتكبَّدون خسائرَ ضخمة، إلا أنهم ظَلّوا يَشعرون بالمرارة تجاه انكلترا. وفي الحقيقة مع تزايد الخسائر بَدأ الفرنسيون بانتِقاد البريطانيين، مثلما سيَفعَل القادةُ السوفييت بعد ذلك في الحرب العالمية الثانية، وذلك لأنهم لم يَقوموا بدورِهم. ظَلّت القضايا السابقة تُثيرُ الضَّغينة. والطموحاتُ القديمة مستَحكِمة. خَشِيَ الفرنسيون من أن بريطانيا ستأخذ ما تبقى من العالَم الإسلامي ولن يَتبقى شيءٌ لفرنسا بعد أن توقَّعوا ما يبدو أنه نصرٌ بعيدُ الاحتمال.

كانت فرنسا تَحتَل منطقةً واسعة في أفريقيا وأرادوا جزءاً من الشرق الأوسط. كانوا يؤمنون بأن لهم دوراً "تاريخياً" في شرق المتوسط مَنَحَتْهم علاقتُهم بالكنيسة الكاثوليكية وذكرياتُ الحملات الصَليبية نوعاً من التأكيد على رسالةٍ باسمِ الحضارة ضد الجنوب، وباسمِ الكنيسة الكاثوليكية ضد الإسلام، وكانوا مُصِرّين على تنفيذها. لم يكن عندهم هَوَسُ حماية "الهند"، ولكن الضغوط النفسية عليهم ربما كانت لا تقل قوةً عن الضغوط الاستراتيجية على البريطانيين. لم يتأثَّر الروس بمِثْلِ هذه المشاعر من الغضب والطّموح فقد كانوا يقاتلون في سبيل البقاء.

على الرغم من خلافاتهم فقد كان لكلٍ من بريطانيا وفرنسا وروسيا سبباً قوياً للتعاون مع بعضهم بعضاً. عندما أعلَنت الامبراطوريةُ العثمانية الجهاد المقدَّس توقَّعتْ كلٌّ من القوى الامبراطورية ثورات: بريطانيا في الهند ومصر، فرنسا في شمال أفريقيا، وروسيا في القوقاز وآسيا الوسطى. حكم كل منهم ملايين من المسلمين، وأُنذِرَ كل منهم من جهة خدمات أَمْنِهِ أن المسلمين "مهتاجون"، وتوقَّعَ كل منهم فورةً وطنية، عِرقية بشكلٍ "تركيّة عامة"، أو دينية بشكل "إسلامية عامة"، واعتَبروها أكثر خطورة من خصومهم الأوربيين، على الأقل قبلَ معارك الحرب الرهيبة. ضَخَّم الطموحُ الأمبريالي الخوفَ من الجهاد. تأثَّرت القوى الثلاث بالخوف وبالطمع بدرجاتٍ مختلفة، ولكن كان لبريطانيا الدور الأعظم. سأُبيّنُ الآن باختصار كيف أن بريطانيا في الحقيقة هي التي وضَعَتْ نظام الدول في الشرق الأوسط كما نَعرفُهُ الآن.

لتوضِيح السياسة البريطانية يجب على المرء أن يميز بين الحكومة الانكليزية في لندن والحكومة البريطانية في الهند. لا يمكن أن يكون التمييز دقيقاً إلا أنه يجب أن يكون مفهوماً. كانت الحكومةُ البريطانية في الهند في النهاية تحت سيطرة البرلمان والمَلَكية في لندن، ولكن كان لديها بيروقراطيتها الخاصة وإيراداتها ونظام ضرائبها وقوتها العسكرية وأهدافها. كانت الهند البريطانية مستقلةً بذاتها في غالبية القضايا، وبينما التَقَتْ إدارةُ الهند مع إدارة انكلترا في رأسٍ واحد هو البرلمان، إلا أن كلاً منهما كان له جَسَدٌ منفَصِل بمفاهيم مختلفة للنظام المدني وتقاليد الخدمة والقوانين بل وأهداف متضاربة في بعض الأحيان.

خلال القرن الذي سبَقَ الحرب كانت الحكومة في الهند مهووسةٌ بالخوف من روسيا، وكان ضباط جيشها وخاصة في قوى الأمن كما ذكرتُ يَتوقَّعون دائماً رؤية حجافل القوزاق تتدفق عبر سفوح جبال أفغانستان إلى سهول الهند. ولذا فقد طَوَّرت الهند سياستَها الاستراتيجية الخاصة التي تَهدف إلى مَنع وصول الروس. كان هدفها هو صُنع طوقٍ من المستعمرات أو الأنظمة الخاضعة من الشرق الأوسط إلى المحيط الهادي، أي أنها عَمِلَتْ على خَلق نوعٍ من الجدار الوطني[232]. لتحقيق هذا الهدف سيطَرتْ على الخليج العربي وغَزتْ إيران وأفغانستان ووضَعتْ مراكِز متقدّمة في آسيا الوسطى ووضَعتْ سياسة مساعداتٍ عسكرية سرّية ضد الروس في الصين وحاولَتْ تحييد التيبت واحتلال بورما. تلك كانت ما يسمى "سياسة الاستِباق".

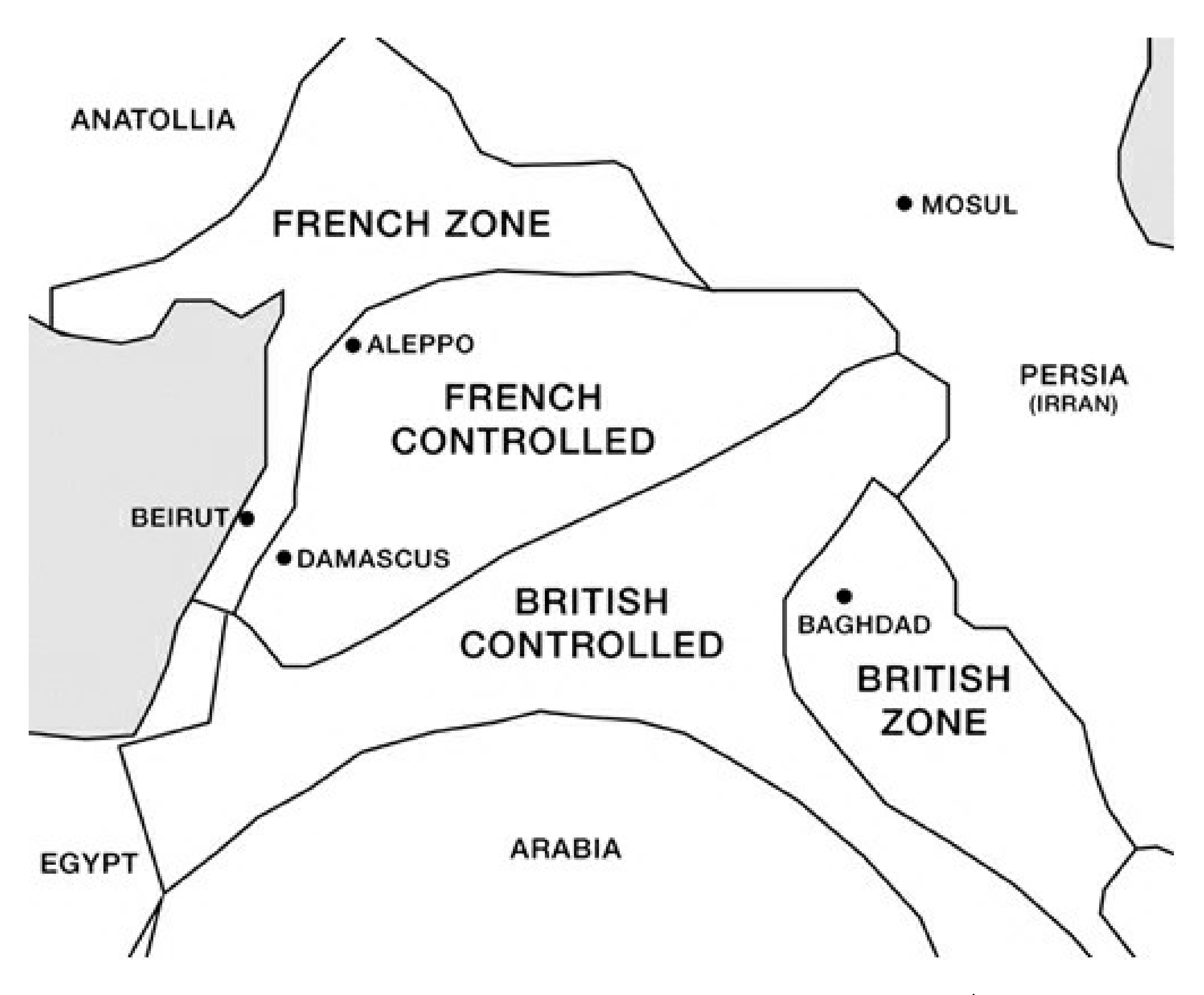
اكتسَبتْ حمايةُ الهند التي كانت سبب سياسة الاستباق أهميةً جديدة للحكومة في لندن عندما تَحوَّلَت البحرية المَلَكية من الفحم إلى البترول قبل عَقدٍ من الحرب العالمية الأولى وأصبَحَ بَيعُ البترول من الحقول الإيرانية المكتشفة حديثاً مَصدرَ دَخلٍ ثمين. ولذا فقد افترضَتْ قيادةُ الجيش

البريطاني الهندي أن حكومة الوطن ستوافق على إنزال جيشٍ أنكلو-هندي في قمّة الخليج العربي حيث كان هدفها التقدُّم بالجبهة الهندية الفعّالة إلى الموصل (وهي ما كان يُخطَّطُ أن تُصبِحَ مستعمَرتَها في العراق) وإلى طهران (لِجَعلِها "محمية" إيران).

بغضّ النّظر عما كانت تقوم به الحكومة البريطانية في الهند فيما نُسَميه السياسة "الشرقية"، كانت الحكومةُ البريطانية في الوطن منهَمكةً في سياسةٍ "غربية". تألَّفَتْ هذه السياسة من ثلاث فرضيات مُتضَاربة أساساً. سأناقشُ أولاً امتدادَ سياستها الأوروبية التي تهدف إلى توحيد الامبراطوريات الثلاث وضَمِّ جهودهم معاً في الحرب ضد ألمانيا. نشأ عن هذه السياسة أولاً اتفاقية سايكس-بيكو Sykes-Picot التي يمكن اعتِبارها أول التزامٍ بريطاني في السياسة التي تؤثِّر على العالَم الإسلامي. تمت الموافقة عليها بعد مفاوضات طويلة.

من نوفمبر 1915 حتى 30 يناير 1916 تفاوَضَ السير مارك سايكس Mark Sykes عن الحكومة البريطانية وفرانسوا جورج-بيكو Francois Georges-Picot عن الحكومة الفرنسية وتوصَّلا إلى اتفاقيةٍ لتقسِيم الامبراطوريةِ العثمانية بينهما ومشاركة أجزاء منها مع الروس. كان هَدَفُ سايكس هو تشجيع الحكومتين الفرنسية والروسية لمواصلة الحرب. خَشِيَ البريطانيون أن فرنسا أو روسيا أو كلتاهما قد تلجأ إلى سلامٍ مُنفرِد بسبب توقهما إلى وَقف مذبحة جيوشهم. كان الإغراء الذي سُمِحَ لسايكس بتقديمه هو مَنحُ الفرنسيين والروس الفرصةَ لتحقيق أهدافهم القديمة بينما تحصل بريطانيا على ما تريد. كما علَّقَ الدبلوماسيُ الإنكليزي المؤرخ تايلر A. J. P. Taylor "حرصَ البريطانيون دائماً على أن يُظهِروا أنهم عندما يدافعون عن مصالِحهم فهم يَخدمون مصالحَ الجميع"[233]. احتاج حلفاءُ بريطانيا إلى الاعتقاد بأنهم قد حصَلوا على فائدةٍ ملموسة باستمرارهم في القتال على الرغم من الخسائر الفادحة التي كانوا يَتَلقّونها. صُمِّمت الاتفاقية الأنكلو-فرنسية لِمَنحِ ما يكفي لبقاء الفرنسيين والروس في الحرب دون أية تكلفة لبريطانيا، وتم التصديق على الاتفاقية في مايو الذي تلى ذلك، وكذلك وافَقَتْ عليها الحكومةُ القيصرية.

تقرَّر أن يحصَلَ كلٌّ على ما كان يريد، تحصَلُ بريطانيا على المناطق التي شكَّلت مِحور ارتكازٍ في النِّطاق الذي كانت تَبنيه لحماية امبراطوريتها في الهند. كان ذلك الحاجِزُ حِزاماً من المناطق التي تمتد شرقاً من قناة السويس عبر موانئ المتوسط ورقعة عريضة من الصحراء إلى الخليج العربي الذي كانت تُسيطِر عليه أصلاً. اقتَطعتْ بريطانيا لنفسها حوالي ثلاثمئة ألف ميلاً مربعاً من المناطق الجديدة لتُضافَ إلى الثلاث عشرة مليوناً التي كانت قد ضَمَّتها إلى امبراطوريتها. حصَلتْ فرنسا على الاعتراف بمَطلبها "التاريخي" في شرق المتوسط وجنوب تركيا والولايات العثمانية السابقة في دمشق وحلب والموصل[234]. بلَغَ ذلك حوالي ثلث ما حصَلَتْ عليه بريطانيا. تَنتَزِعُ الامبراطورية الروسية السيطرةَ على المَضائق المائية التي تؤدي إلى البحر الأسود والمَضائق التركية وشرق الأناضول التي كان أغلب سكانها من الأرمَن والأكراد والتي تُجاور مناطق بحر قزوين ومدينة اسطنبول عاصمة الامبراطورية العثمانية التي كانت مقدَّسة في الذاكرة الروسية وبيتها الروحي في القسطنطينية البيزنطية[235].



قسَّمَتْ اتفاقيةُ سايكس بيكو الشرقَ الأوسط بين قوات الحلفاء. يحصل كل حليف على قطعة من الشرق الأوسط: تأخذ روسيا أغلب الأناضول والقسطنطينية، وتأخذ إيطاليا زاويةً من غرب الأناضول، ويأخذ الفرنسيون شرق المتوسط وأغلب سورية، وتأخذ بريطانيا حِزاماً من المناطق يمتد من مصر إلى إيران كحاجزٍ لحماية امبراطوريتها الهندية. وكان من المفروض أن تُصبِحَ فلسطين منطقةً دولية.

رسَمَتْ اتفاقيةُ سايكس-بيكو أقصى مستوى ارتفاع الماء في مَدِّ فيضانِ الأمبريالية في الشرق الأوسط، ومَدَّتْ إلى الشرق الأوسط تلك الاتفاقية التي بحثَها المستشارُ الألماني بسمارك قبل ذلك بثلاثين عاماً في 1884 لحلّ التَّزاحم على أفريقيا. وبالنظر إليهما فإن الاتفاقيتان تتضَمَّنان معاً سيطرةَ الشمال العالمي على كامل أراضي الجنوب في نظامٍ عالمي جديد. لو تم تطبيق اتفاقية سايكس-بيكو تماماً لسيطَرَت القوى الأمبريالية الثلاث على حوالي نصف مساحة اليابِسة في الكرة الأرضية.

تبدو إمكانيةُ سيطرةِ الامبراطوريات الثلاث على هذه المساحة الهائلة صادِمةً لنا هذه الأيام، ولكن في سنوات الحرب العالمية الأولى لم يَتَصَوَّرها الأوروبيون كذلك، مثلما كتَبَ المؤرخُ

الانكليزي إريك هوبزباوم Eric Hobsbawm "في سنة 1914 افتَخَرَ كثيرٌ من السياسيين بتسمية أنفسهم أمبرياليين، ولكنهم اختفوا عن الأنظار على مرّ قرننا هذا"[236]. غير أن الأمبريالية وجَدَتْ لها مُبرراً آخر كما قال الفيلسوفُ الأمريكي ويليام هوكينغ [237] William Ernest Hocking. أولئك الذين لم يتمَكّنوا من استخدام مواردهم الطبيعية اصبَحوا يميلون "على مَرِّ قَرنِنا" إلى فقدان حقوق مُلكِيتها. وفي التطبيق العملي فإن الأمم الغنية القوية المتقدمة وحدَها هي التي تحافِظُ على ممتلكاتها. أما الضعفاء المُتَخلّفين الفقراء فقد أصبح يُنظَر إليهم مراراً في الجزائر والعراق وفلسطين على أنهم يَسكنون أرضاً بغير حق. وبذا لم تَعد الأمبرياليةُ سرقةً، كما وصَفَها الشاعرُ الكبير محمد إقبال، بل هي تَعبيرٌ عن النظام الطبيعي وأنها في النهاية قوةُ تطوير وتحسين للمُتَخَلّفين. كانت جزءاً ضرورياً من عِبء الرجل الأبيض.

في أطروحته لشهادة الماجستير تحت عنوان "دبلوماسية الأمبريالية، 1890-1902" دفَعَ ويليلم لانغر William Langer هذه المناقشةَ أبعَد وبَحَثَ في السياق الثقافي والفكري الذي نشأتْ فيه الأمبريالية مشيراً إلى أنّ:

"الأسلوبُ الواقعي الذي كان سِمةً بارزة للأمبريالية، مع تجنّب القول بالعنف والقسوة، ربما يرجِع إلى الفِكر الاجتماعي الذي كان سائداً في تلك الفترة. علّق كثيرٌ من الكتّاب المعاصِرين على الشعبية الهائلة لنظريات داروين في التّطور الاجتماعي. اصطلاحاتٌ مثل "الصراع من أجل البقاء" و"البقاء للأصلح" كانت تَحمِلُ كل شيء أمامَها"[238].

لاحَظَ لانغر أن أشهر الكُتُب في انكلترا الفيكتورية وضَعَت الدراما وضرورة الأمبريالية، وركَّز على كتابات كيبليغ Rudyard Kipling المنتَشِرة بشكلٍ كبير وبَيَّن أن النقاد اعتَقَدوا بشكلٍ صحيح أن كتاباته تفترَض:

"أن السكان الأصليين قد خُلِقوا لكي يتم القتال معهم واحتلالهم وحكمهم. كان يُنظَر إليهم وكأنهم ليسوا أكثر من مجموعةٍ كبيرة من البشر الجاهلين السمر العراة الذين يجب أن يَتَلاعب بهم المسؤولون المَدنيون والعسكريون لتحقيق الأهداف الغامضة للإمبراطورية الهندية العظيمة".

يتابِعُ لانغر مناقشته بأنَّ الدافع النفسي، والاقتصادي في الحقيقة، للسيطرة الأمبريالية لم يكن سياسةً تمَّ فرضُها على الأمّة من طَرَفِ النّخبة الغنية، وليس بالضرورة بسبب طَمَعِ الحكام بموارد الجنوب، بل إنه كان منتشراً في الحقيقة في "الطبقات الدنيا". الحوارُ الخشن الذي يدور بين الجنود العاديين في رواية كيبلينغ "أغاني الثكنات" ينسجِمُ مع غرائز القتال لدى العِرق. أيقَظَ كيبلينغ "المراكزَ العصبية النائمة للأمبريالية". وكما بيَّن كيبلينغ فإن العمال أيضاً تقبَّلوا بشكلٍ واسع فكرةَ أن عملهم يعتمد على التجارة التي ضَمِنَتها الامبراطورية[239]. كلما ازدادتْ معلوماتُ الطبقة الانكليزية الدّنيا، ازداد تأييدها للامبراطورية. لكي يثبِتَ هذه النقطة، يذكُرُ كيبلينغ أن "نهضة الأمبريالية كانت متوافقة مع تمديد الاقتراع سنة 1867 و1884 وأنها حدَثَتْ في الفترة التي بدأتْ

فيها آثارُ التعليم العام بالظّهور". باختصار، كانت القوة الحقيقية للأمبريالية هي أنها كانت تَحظَى بتأييد الجماهير في البلد الذي نفَّذَها. "كانت بريطانيا في ذلك الوقت هي الأمّة الأمبريالية العظمى... كانت الحركة الأمبريالية أكثر وعياً لذاتها وأكثر انتشاراً في انكلترا من أية دولة أوروبية أخرى". ربما ذكَرَ أيضاً أنه منذ أن تَخيَّل شكسبير شخصيةَ "عُطَيل"، موريسكيّ البندقية، اعتُبِر المسلمون بأنهم شخصيات شريرة داكنة لا تستطيع عِرقياً أن تعيش مُتَحضِّرة.

رؤيةُ عطيل عند النظر إلى الشعوب المستعمَرة كانت واحدةً من السلوكيات التي اشتركَتْ فيها بريطانيا وفرنسا. لم تكن لدى أي منهما رحمة تجاه "السكان الأصليين"، ولم يقبَل مواطنوهم ذلك. مِنَ المَشاهد المفضَّلة لديهم، وكذلك لدى الأوروبيين الآخرين والأمريكان، كان مَنظر السكانُ الأصليين وهم يُعرَضون في حدائق الحيوانات ويُوضَعون أحياناً وهم عَراة في أقفاصٍ مثل الحيوانات. توافَدَ البريطانيون بالملايين لمُشاهدة النوبيين والسودانيين، بينما رَمَقَ الفرنسيون بِنَهَمٍ النيجيريات والكونغوليات. هذا جانبٌ من الأمبريالية يفَضِّلُ كثيرٌ من سكان الشمال العالمي أن ينسوه، مثلما كتَبَ ثلاثةٌ من المؤرخين الفرنسيين:

"حدائقُ الحيوان البشرية، الأمثلةُ التي لا تُصَدَّق عن فترة الاستعمار والانتقال من القرن التسع عشر إلى القرن العشرين، تم حَذفُها تماماً من تاريخنا وذاكرتنا الجماعية، إلا أنها كانت أحدَاثاً اجتماعية مهمة. جاء الفرنسيون والأوروبيون والأمريكان بعشرات الملايين ليكتشفوا "المتَوحشين" لأول مرة في حدائق الحيوانات أو مهرجانات الأعراق والاستعمار... في تلك الحدائق... عُرِضَ أفرادٌ غرباء في أقفاص أو زرائب بالقرب من حيوانات في مواجهة جمهورٍ متعطِّش للتسلية... وقد جُرِّدوا تماماً من طبيعتهم الإنسانية بحيث أصبح من الممكن استعمارهم وأنهم بحاجة إلى التدجين والتدريب لكي يتحولوا إلى رجالٍ مُتَحضّرين إن أمكَنَ ذلك. ساعَدَ هذا المنظرُ البائس على تبرير أعمال الغرب الاستعمارية"[240].

الافتراضُ الذي بُنِيَتْ عليه اتفاقية سايكس-بيكو هو أن "السكان الأصليين المستعمَرين قد خُلِقوا لكي يتم القتال معهم واحتلالهم وحكمهم". حَمَلَ سايكس وبيكو سلوكيات يَشتركُ فيها جميعُ الأمبرياليين. لم يَظهَر أي اعتراض على هذه السلوكيات تقريباً قبل الحرب العالمية الأولى، إلا أن الأمبرياليين في روسيا وفرنسا وبريطانيا اصطَدَموا لسوء الحظ مع مُنافِسٍ حازم هو ألمانيا الأمبريالية.

في أغسطس 1914 بَدَت الحرب وكأنها قضية مَجيدة: أعلام وطبول وملابس زاهية وتَخَلُّص من أعمال مُمِلة. ترَكَ الرجالُ الانكليز أعمالهم وترَكوا زوجاتهم وأطفالهم وسارَعوا للإنضمام إلى الجيش. لم يتَوَقَّع أحدٌ أن الحرب ستطول أكثر من أشهر، ولكن عندما مَرَّت الشهور والسنين نَفذتْ نقودُ الإنكليز وطعامهم وأسلحتهم وازدادَت الإصابات بمعدَّلٍ مخيف. اعتَمدَت الامبراطورية على قناة السويس من أجل تعويض الإصابات وإطعام الجنود البُدَلاء. في فبراير 1915 وصَلَتْ مجموعةٌ من القوات الخاصة للجيش العثماني وهدَّدَت الملاحة في القناة[241]. اكتشَفَ البريطانيون أن الترك كانوا محارِبين أشدّاء وخافوا من أنهم قد يعودون ويتَمَكنون من حَظرها.

أظهَرَ التركُ شجاعتهم عندما حاصَروا جيشاً أنكلو-هندياً كاملاً في المركز الصحراوي المتَقَدِّم في كوت Kut فيما سيُصبِح العراق لاحِقاً. وهناك أَجبَر التركُ استسلامَ 13,309 جندياً (أغلبهم من الهنود) الذين ظَلُّوا أحياءَ بعد قَتلِ حوالي عشرة آلاف. وفي الوقت نفسه كانت البحرية المَلَكية، التي كانت قد غيَّرت وَقودها قُبيل الحرب من الفحم إلى البترول، مهدَّدةً عندما قَطَعَ رجالُ قبائل مسلمون في إيران أنبوبَ النفط من حقل البترول إلى الميناء، وكان الترك يَمنَعون أيضاً وصولَ التموين إلى روسيا عبر المضائق التركية مما أدّى إلى تَجويع الجيشِ والشعب الروسي. لم يتمَكَّن البريطانيون من اختراق الخطوط التركية. كانت غاليبولي Gallipoli نقطةَ الاختِناق المِثالية كما سأُبَيِّن في الفصل الحادي والعشرين. تحت ضغط اليأسِ والجوع فكَّرَت الحكومةُ الامبراطورية الروسية بسلمٍ منفرد، وكما ذكرتُ سابقاً خَشِيَتْ قواتُ الأمن الهندية من ثورة السكان المسلمين استجابةً لإعلان السلطان-الخليفة العثماني الجهاد المقدَّس. تلك كانت الضرورات المُلحّة والمُتطَلبات التي واجَهها حلفاءُ بريطانيا من الروس والفرنسيين.

مهما حدَثَ في ميدان القتال فإن القوى الأمبريالية الثلاث أدركَتْ أنها يجب أن تُبقي أهدافها سرّية، وعلى العكس من المؤتمر الذي رتَّبَه بسمارك في برلين سنة 1884 لمناقشة اقتسام أفريقيا بين القوى الأمبريالية، فإن محادثات اتفاقية سايكس-بيكو سنة 1916 أُجرِيَت في السّر ولم تُعلَن حتى بعد تَصديقها. ولكنّ كَسبَ تأييدِ الجماهير للحرب في دول الحلفاء كان يقتضي إعلانَها منطقياً، إلا أن كَشفَها جاءَ كالقنبلة. بعد ثورة أكتوبر الروسية سنة 1917 بقليل وَجَدَت الحكومة البلشَفية الجديدة وثائقَ سايكس-بيكو في سِجلات وزارة العلاقات الخارجية الأمبراطورية ونَشَرتْها. التَقَطها مسؤولونُ ألمان ونَقَلوها إلى الحكومة العثمانية، ومرَّرَها حاكمها في سورية إلى الزعيم الثاني للعالَم الإسلامي آنذاك الشريف حسين في مكة مع عَرضٍ لسَلامٍ منفرد. أرسَلَها حسين إلى حليفِهِ البريطاني المَزعوم مع طَلَبِ تفسيرها. راوَغَ البريطانيون انسِجاماً مع لَقَبهم السَّاخر "ألبيون الغدار" وقالوا للشريف أن الاتفاقية ليستْ أكثرَ من تبادلٍ لوجهات النظر. لم يكن ذلك صحيحاً، ولكن بِغضّ النّظر عن شُكوكِهِ كان عليه أن يَقبل التَّصريحَ البريطاني.

لم يكن لدى الجمهور الإنكليزي السببَ نفسه لقبول التفسير، فربَّما سبَّبَت الاتفاقية حرجاً كبيراً في انكلترا إلا أن ذلك لم يَحدث. عندما نَشَرت الوثائقَ صحيفةٌ ليبرالية في انكلترا هي Manchester Guardian لم تَحدُثْ اعتراضاتٌ جماهيرية مهمة. ظلَّ الجمهورُ الإنكليزي مؤيداً فكرة العَظَمة الامبراطورية. وعلى كل حال عندما وصَلَتْ أخبارُ الاتفاقية إلى الأمريكان انزَعَجَ الرئيسُ وودرو ويلسون ومستشاروه كثيراً، وفي محاولةٍ لما يُسمى لاحقاً "السيطرة على الضرر" قال البريطانيون للأمريكان مثلما قالوا للعرب إنها ليست أكثر من تبادلٍ لوجهات النظر ولم تَعد تمثّل التفكير الأنكلو-فرنسي على أية حال لأن روسيا قد انسَحَبتْ من الحرب.

لم يكن البيانُ البريطاني للحكومة الأمريكية صحيحاً، فقد كانت الاتفاقيةُ في قلب سياسة الحرب وسيتم تَنفيذها من جهةِ بريطانيا وفرنسا عندما يتمَكَّنان من ذلك، مع بعض التعديلات في الجبهات بحيث يَحصَل كل منهما على ما مَنَحَ لنفسِه. فرنسا باحتلال سورية، وبريطانيا باحتلال بقية الشرق الأوسط. ولكن في سنة 1914 و1915 كانت هذه الأحداث في طَيِّ الغَيب.

قبل اندلاع الحرب وقبل التفكير باتفاقية سايكس-بيكو، كانت الحكومةَ البريطانية في الهند والإدارةُ البريطانية في مصر تؤسسان سياستهما الخاصة التي ستؤدي إلى التَّحرك الثاني من التحركات الثلاث التي بَدَأتْها بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى، ويمكننا التفكير فيها بشكل الاستراتيجية الجنوبية.

كانت الاستراتيجية الجنوبية تَغييراً تكتيكياً للسياسة الأمبريالية السابقة. كان لهذا التغيير هدفان: الأول هو مَنعُ الهجوم المتَوَقَّع للقوات العثمانية الذي من المُفترض أنه يَهدف لإغلاق قناة السويس في الغرب وتَدمير أو قَطع خط الأنابيب من حقل بترول مسجد سليمان في جنوب غرب إيران إلى ميناء الخليج العربي لتعطيل حركة البحرية المَلَكية. إذا نَجحَتْ هذه التحركات المُتَوَقَّعة فإن بريطانيا تخشى من أنها ستخسَر الحرب. ولذلك قبل أن تنتَشِر الحرب إلى الشرق الأوسط أرسَلَتْ بريطانيا قوةً خاصة من الجيش الهندي لاحتلال مَخرج الخليج العربي ودَعم قواتِها في مصر.

في الوقت نفسه فجأة ودون أي تخطيط مُسبَق حَدَثَ أمرٌ سيَفتحُ المجالَ لتحقيق امتيازٍ كبير، ففي أبريل 1915 وصَلَ الأمير عبد الله ابن شريف مكة إلى القاهرة في طريق عودته من العاصمة العثمانية إلى الجزيرة العربية. حلَّ في القاهرة ضيفاً على الخديوي وطلَبَ لقاءَ اللورد كيتشنر رئيس الوكالة البريطانية على كراهيةِ ذلك من جهة السلطان-الخليفة.

عَرفَ البريطانيون من خلال تعاملهم مع المؤسسات الإسلامية لمدة قرنٍ تقريباً في الهند أن شريف مكة على الرغم من كونه مسؤولاً عثمانياً إلا أن المسلمين التقليديين كانوا يَعتَبرون سلطته ونفوذه تأتي بعد الخليفة مباشرة. من الناحية القانونية كان حاكماً للحجاز ومنطقة من شبه الجزيرة العربية تَشمل مكة والمدينة وجدة والطائف، وبذلك كان "حامي الحرمين الشريفين" مكة والمدينة. لم تَمتَد سلطتُه أكثر من ذلك ولكن نفوذه كان مؤثّراً في كافة أنحاء العالَم الإسلامي. شَعَرَ الإنكليز بأن لديه طموحاً لكي يَحلّ مَحلّ السلطان العثماني في صِفَتِهِ كخليفة على الأقل.

كان في طموحاته احتمالُ فائدةٍ عظيمة بالنسبة للبريطانيين وذلك لأنه إذا انضَمَّ السلطانُ العثماني إلى جانب الألمان في الحرب كما خَشِيَ الحلفاء البريطانيون والفرنسيون والروس، فمِن المؤكّد أنه سيُعلن بصِفتِهِ خليفةً الجهادَ المقدَّس. لم يَعرفْ أحدٌ ما الذي يمكن يحدث عندها، ولكن احتمال حدوث ثورةٍ بين ملايين المسلمين في الامبراطوريات الثلاث كان كبيراً. ومن الناحية الأخرى، إذا كانت الاستجابةُ لنداء الخليفة مخفَّفَة أو ملغِية بصوتِ الشريف، فيمكن تقليل الخطر أو تَجنبه تماماً. ولذا فمن المَنطقي أن يرحب البريطانيون بوصول الأمير عبد الله، إنما في الواقع فإن اللورد كيتشنر المسؤول البريطاني الأول قَطَعَ التواصلَ معه.

بدون تأخيرٍ قامَ عبد الله بالتواصل مع السكرتير الشرقي في الإدارة البريطانية (وهو ما يُعادِل المسؤول السياسي الأول) رونالد ستورز [242] Ronald Storrs. لخَّصَ ستورز محادثتهما بقوله "فَتَحَ الشريفُ عبد الله قلبه"، ولم يَذكُر ستورز ما باحَ به ولكن الشائعات التي كانت تَدورُ آنذاك في الشرق الأوسط أن السلطان-الخليفة كان يُفكِّر بتَغيير الشريف وعائلته واستبداله بمَسؤول

آخر. ربما دفَعَهُ ما كان يسمعه إلى الكتابة لرؤسائه "أقترحُ أن التشاور مع مكة في الوقت المناسب قد يوصلنا لضمان تَحييد العرب، بل وربما التحالف معهم إذا هَجَمَ العثمانيون".

استجابةً لاقتراح ستورز، ردَّ اللورد كيتشنر الذي أصبح حينها وزير الدولة لشؤون الحرب بحركة مبدئية حذرة. أمَرَ ستورز بإرسالِ "مبعوثٍ سريٍّ يتم اختياره بعناية" لكي يكتشف فيما إذا اندلَعت الحرب فعلياً "هل سيقف عبد الله ووالده (الشريف) وعرب الحجاز... معنا أم ضدنا". سيَعتَبر الأتراكُ بالطبع أن محادثاتٍ بهذا الشأن مع مسؤولٍ رفيع لعَدوٍ محتمل بمثابة خيانةٍ عظمى، ولذا فقد تَمّت المحادثات بشكل سريّ غير مباشر بما نسميه هذه الأيام "سياسة الأبواب الخلفية". عندما تم الاتصال، لَمَّحَ الشريفُ بحَذر أن الجَواب سيكون "معنا". ردَّ كيتشنر في 31 أكتوبر عندما كانت الحرب قد بدأتْ فعلاً في أوروبا ووَعَدَ بأنه "إذا ساعَدَت الأمةُ العربية انكلترا في هذه الحرب فإنّ انكلترا... ستُقدمُ للعرب كل مساعدةٍ ضدَّ أي هجوم أجنبي".

ثم بدأ تبادل ثمان رسائل بين البريطانيين والشريف للتوصل إلى اتفاقيةٍ وَعَدَ فيها أتباعُ الشريف ببدء "ثورة في الصحراء". كتَبَ الشريفُ الرسالة الأولى في 14 يوليو 1915 إلى السير هنري ماكماهون Henry McMahon المندوبُ السّامي الجديد في مصر، وطالَبَ فيها بالاعتراف البريطاني باستقلال الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية، وهي منطقة تم تقسيمها فيما بعد إلى سورية والعراق والأردن وإسرائيل والمملكة العربية السعودية وجزء صغير من تركيا. قَلَّصَ البريطانيون مطالِبَ الشريف، وفي آخر رسالة مؤرخة في 30 يناير 1916 [243] وافَقَ البريطانيون على الاكتفاء بمطالب الشريف مع بعض التعديلات غير المُحدَّدَة في شرق المتوسط، وفي 23 مارس 1916، أرسَلَ برقيةً إلى السير هنري يُحَدِّدُ فيها موعد بدء الثورة. وفي 13 يونيو استَسلَمَت الحاميةُ التركية الصغيرة في مكة بينما صمد الأتراكُ في المدينة. تمكّنوا من ذلك لأنهم كانوا مَدعومين بالخط الحديدي الذي يَصلهم بالقواعد التركية في سورية. كانت الحاجةُ لتَدمير هذه الصِّلة وراءَ بَدءِ حرب العصابات التي حرَّكَها "لورنس العرب"[244].

لم يُظهِر البريطانيون أبداً اهتماماً كبيراً بمساعدة العرب عسكرياً. كانوا يَعرفون أن الأتراك لم يَسمحوا للشريف بالحصول على إمكانيات عسكرية جادة. الواجباتُ اللازمة لحماية جدة ومكة كانت تقوم بها مجموعةٌ صغيرة من الجنود الأتراك. تابَعَ البريطانيون السياسةَ التركية ولم يَدعَموا قوات الشريف ولا حتى بالأسلحة الخفيفة.

كان الجيشُ الذي جَمَعه فيصل بن الشريف حسين فرقةَ حربٍ قَبَلية تُحارِب بالأسلوب التقليدي لتحقيق أهدافٍ تقليدية. الرسول محمد كان سيفهمها جيداً. كان الأمر هو الذَهَبُ البريطاني والمَنهوبات من العثمانيين وشجاعة العرب، وليس الوطنية أو القومية أو الإسلام، هي التي "وجَّهَتْ وجوههم نحو قِبلَة واحدة". لَعِبَ رجالُ القبائل دوراً مفيداً في إشغال القوات التركية على الأقل مؤقتاً بعملهم الجماعي المشترك. ولكن الفائدةَ الحقيقية للبريطانيين لم تكن حملتهم، على الرغم من الرومانسية التي أُضْفِيتْ عليها في السنوات التالية في السينما والكتب، بل كان الموقفُ الذي اتَّخذه الشريفُ بهدوءٍ بعدم انضمامه إلى السلطان-الخليفة في إعلان الجهاد، ولم تَحدُث الحرب المقدَّسة.

كما لم تَحدُثْ ثورةٌ في أجزاء أخرى من العالَم الإسلامي تأييداً للشريف. في ذلك الوقت لم تكن الوطنية والقومية أكثر من فكرة في أي مكان في العالَم الإسلامي خارج مصر. كان أغلبُ العرب إما مُحايدون في الحرب بين القوى العظمى ويُريدون البقاء بعيداً عن المتاعب وتَجنب مُحَصِّلي الضرائب، أو أنهم راضون سلبياً بأن تحكمهم السلطاتُ المحلية سواء كانت عثمانية أو شريفية أو بريطانية. لم يكن هنالك كفاحٌ شديد ضد حكم العثمانيين سوى في سورية-لبنان وليبيا، وفي ليبيا كان القتال ضد الحلفاء[245]. ما كان يحدُثُ في ليبيا ومصر وسورية لم يكن له أي علاقة أو تأثير على رغبة الشريف باستعادة الخلافة وأن يجعَل نفسَه ملِكاً للعرب. وعلى الرغم من كل ذلك فقد خَدَمَ حوالي ثلاثمئة ألف عربي في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الأولى.

كانت الاستراتيجيةُ البريطانية الجنوبية ناجحةً تماماً كما أرادَها البريطانيون، على الأقل خلال الحرب. إلا أن جَدَلاً طويلاً دارَ منذ ذلك الحين فيما إذا كانت منسَجمة مع الاستراتيجية الأوروبية أو استراتيجية سايكس-بيكو. كما ذَكَرَ ستورز فإن المسؤولين البريطانيين في القاهرة الذين كانوا يُديرون المحادثات مع الشريف حتى ذلك الحين "لم تكن لديهم أية معلومات عن محادثات سايكس-بيكو بشأن تقسيم تركيا غير التركية"[246]. وتابَعَ ستورز بأنه لم يَعرف أحدٌ في القاهرة بما كانت تفعله الحكومة البريطانية في الهند في الوقت نفسه "بتشجيعِ" خَصمِ الشريف حسين القائد الوهابي وشيخ القبيلة عبد العزيز بن سعود. فإما أنّ البريطانيين كانوا غارقين في خداعٍ مزدوج، أو أنهم كانوا غير مُنَظَّمين تماماً.

لم تنتَهِ قصةُ الجانبين الأول والثاني من الاستراتيجية البريطانية خلال الحرب، فقد أدَّت الأولى، كما سنرى في الفصل التالي، إلى وضع اتفاقيةٍ جديدة بين الحلفاء المنتَصرين، بينما اتَّضَح أن الاستراتيجيةَ الثانية قد فَجَّرَتْ لدى مَن سَعتْ إلى حكمهم قوىً ستُصبِح السيطرةُ عليها غاليةَ التكاليف لبريطانيا وفرنسا، في الشكل التقليدي للأمبريالية على الأقل. وسيَتَّضِح أن الاستراتيجيةَ الثالثة في دَعم الصهيونيةِ هي التي لن يتمكن البريطانيون من السيطرة عليها. سأبحثُ ذلك في الفصل العشرين.

الفصل التاسع عشر

الشرق الأوسط بعد الحرب

دخَلَ فيصل بن الشريف حسين إلى دمشق في نهاية الثورة العربية ولكنه وَجَدَ أنه على الرغم من وجود تأييد لنوعٍ ما من الأمّة العربية في سورية، الولاية العثمانية السابقة، فإن التزامَ الجماهير بها لم يكن قوياً إلى درجةٍ تكفي لجَمع الفئات والطوائف الدينية والعِرقية المختلفة لخَلقِ وحِماية دولةٍ قومية. كانت هنالك مشاعر قومية موجودة لدى قلة وليس كثرة، وحيثما وجِدَتْ كانت هذه المشاعر أضعف من أن تكون فعّالةً في مواجهة الفرنسيين والبريطانيين.

من المؤكد أن تلك كانت تقديرات البريطانيين والفرنسيين، ولكن الرئيس وودرو ويلسون شكَّكَ في تقديراتهم واحتَقَر أهدافهم، وقرَّرَ أن يكتشف ما أرادَه السكان المَحَليون وأن يَحترم إرادتهم في تَسيير أمورهم لأن ذلك كان أساسياً في المبادئ التي طَرَحَها. اعتَرَضَت الحكومتان البريطانية والفرنسية على ذلك بشدة فلم يَهمهم كثيراً ما أراده السكان المَحَليون أو أنهم ظَنُّوا أن تَعامل ويلسون مع الجنوب كان ضد مصالحهم. لو بدأتْ حركةٌ نحو الاستقلال في سورية والجزيرة العربية فما الذي سيَمنَع انتشارَها إلى جميع شعوب شمال أفريقيا ومصر والهند وماليزيا واندونيسيا؟ في مؤتمر السلام الذي عُقد سنة 1919 عمل البريطانيون والفرنسيون والروس معاً على تَغيير قرارِ ويلسون بإرسال بعثةِ تحقيق، وعندما لم يستطيعوا مَنْعَها، قرَّروا عدم التعاون معها على الأقل. كان ويلسون غافِلاً عن معارضتهم مثلما كان عن كثير من أمور الأمبريالية، أو كما أَطلَقَ عليها سكرتيرةُ اسم "سياسة الانتزاع"[247]، وقامَ بتعيين مختَصٍّ بارز في التربية هو هنري كينغ Henry King ورَجُلَ أعمالٍ ناجح هو تشارلز كراين Charles Crane للقيام بالمهمة. كانت تلك نَشأَةُ لجنة كينغ-كراين للتحقيق[248].

أجرَتْ لجنةُ كينغ-كراين نوعاً من استقصاء الرأي العام الذي كان الأول في لبنان وسورية وفلسطين استَنتَجتْ منه أن الشعب يريد الاستقلال أولاً وقبل كل شيء، وكذلك الوحدة، إلا أنهم سيَقبَلون بانتدابٍ أمريكي أو بريطاني إذا كان ضرورياً. عارَضَ جميع من قابلوهم أي نوعٍ من الانتداب أو الحكم الفرنسي.

كان تقريرُ لجنة كينغ-كراين للاستقصاء رسالةً ميتة، وربما لم يَرَها ويلسون لأنه عندما تم تسليمها كان قد عاد لِتَوِّهِ إلى أمريكا مريضاً. ربما قرأ تقريرها المسؤولون البريطانيون والفرنسيون ولكنهم لم يهتموا كثيراً برأي السكان المحليين. كانوا يَعرفون ما يريدون، فقد أراد الفرنسيون أولاً تَثْبيتَ موقفهم وموقف حلفائهم المارونيين الكاثوليك في لبنان، ثم التَّخلص من فيصل، وأخيراً تقسيم سورية إلى مقاطعات يمكن السيطرة عليها بسهولة. كانت لديهم الوسائلُ والإرادة لتنفيذ سياستهم. لم يكن فيصل في موقفٍ يمكنه من وقفِهم، وتبَخَرَّ الأملُ البسيط الذي كان لديه عندما ضعف دعم البريطانيين لموقفه. لم يحاوِل إيقاظ القومية العربية لإنقاذ حكومته بل توجَّهَ نحو الصهاينة بتوصيةٍ من ممثل أمريكا في مؤتمر السلام[249]. طلَبَ فيصل في مأدبة عشاء أقامَها اللورد روتشيلد Rothschild المساعدةَ من اليهود "لأنكم تَعرفون أوروبا جيداً ولأننا أولاد عَمٍّ بقرابةِ الدَّم". كان فيصل يتعلَّم أن الاختيار الموضوع أمام قادة الجنوب لم يكن بين الاستقلال وحكم الأجانب، بل كان محصوراً فقط باختيار السادة، وحتى ذلك لم يكن ممكِناً. اختارَ فيصل بريطانيا وحاوَلَ الوصولَ إلى الصهاينة عندما عرف أن لديهم نفوذاً عند البريطانيين لكي يُقنِعَهم بوقف الفرنسيين، إلا أن تلك السياسةَ كانت ساذجة حتى في ذلك الوقت.

كان رَدُّ فَعلِ جماهيرِ السوريين الذين اعتَمَدَ عليهم أكثرَ سذاجة. المجلس الذي جَمَعَهُ فيصل في دمشق لكي يمثل الأمةَ السورية الجديدة لم يَتَفَهَّم لا أهدافه ولا تحركاته فقد اعتَبروا محادثاتِه بمثابة الخيانة. علَّقَ مسؤولٌ سياسي بريطاني كان يُدير الأعمال في سورية بأن محاولاته في التفاوض كانت مثل "مشنقةٍ حول عُنُقِ فيصل... كان العربُ يؤيدونه فقط طالما كان يَتبنَّى القوميةَ العربية ويُعبِّر عن وجهة نَظَرهم"[250]. اضطر للتَّخلي عن مفاوضاته وألقَى فيصل بنفسه في صفوف القوميين ولكنّ الوقت كان متأخراً، لو كان هنالك وقتٌ مناسب لذلك أصلاً.

في ذلك الوقت وفي غياب الولايات المتحدة توصَّل الشمال العالمي المُنتَصر إلى اتفاقيةٍ في أبريل 1920 بمؤتمر سان ريمو على تقسيم غنائم الحرب. وافَقَ الفرنسيون على تَمويهِ مستَعمراتهم المُفتَرَضة في سورية تحت اسم "الانتداب" لتهدئة المشاعر التي أيقَظَها ويلسون، ولكن لن توقفهم بالطبع المجموعةُ المُلَونة من أنصاف المتوحشين كما كانوا يَعتَبرون العرب. أدرَكَ فيصل أنه لا يمتلك وسائلَ المقاومة فحاوَلَ التسويف والمُماطلة إلا أنه اضطر للقبول بعد أيامٍ قليلة من المؤتمر. لم يَقبَل الفرنسيون اقتراحَه وأرادوا نَصراً واضِحاً وليس محادثات سلام. أدرَكَ السوريون أخيراً الخطر الذي كان يحدق بهم، إلا أنهم بَدَلاً من التسارع نحو الثكنات قاموا ضد فيصل. توجَّهَ جيشٌ فرنسي من تسعين ألف رجلاً لغَزو سورية في يوليو 1920 بعد ثلاثة أشهر من مؤتمر سان ريمو.

بدأ السوريون تجربتهم البَطيئة المؤلِمة والعنيفة في أغلب الأحيان مع القومية مُغَمَّسَةً بالهزيمة العسكرية وفي ظِلِّ الأمبريالية الفرنسية. وعلى العكس من المصريين وسكان جبل لبنان، لم يكن لهم وطنٌ واحد. خلال قرونٍ من الحكم العثماني كانوا منقسِمين إلى ولايتين إداريتين على الأقل: دمشق وحلب، وكان جبل لبنان وفلسطين تداران بشكلٍ منفصل. وبشكل أكثر عمقاً كان السكان يتألَّفون ليس فقط من الترك والعرب بل كان فيهم أيضاً فئات عِرقية ودينية متنوعة، مثل العلويين والدّروز والاسماعيليين وطوائف متعددة من المسيحيين. كان معظم البلد صحراء وسفوحاً

توزَّعت عليها تحالفات قَبَلية تعايَشت كأمّة افتراضية. لم يكن هنالك إحساسٌ جماعي واحد بالوطنية السورية (القومية المحلية). لم يتفق السوريون على هويتهم القومية، وسيَمنَحُ تفرقهم أرضاً خصبة للصراع والخلاف للفرنسيين أولاً، ثم لمُتَدَخِّلين آخرين، وفي فترات حديثة لقادتهم وزعماءهم أنفسهم. حَصَدَ الغزو الفرنسي أول نتائجَ بذور الكراهية التي كانوا يَرعونها ويُغذُّونها كل عام تقريباً. أدَّت تلك الأحداثُ إلى الحصاد المُرّ الذي نراه في أيامنا.

في ذلك الوقت، وإلى الشرق عبر الصحراء السورية الكبرى كان البريطانيون قد احتَلُّوا الولايات العثمانية الثلاث: البصرة وبغداد والموصل التي ستُصبِح العراق فيما بعد. استَغرقَ ذلك أربع سنوات من نوفمبر 1914 حتى أكتوبر 1918 لكي يتم احتلالها من القوات العسكرية العثمانية باستخدَام جنودٍ من الهنود بشكل رئيسي تحت رئاسة ضباط بريطانيين يُرشِدهم أعضاء من المكتب السياسي البريطاني الهندي. ما سيتم عمله في الأراضي المحتلة وسكانها كان مسألة تَجميلية، أصَرَّ البريطانيون على أن تكون منطقة العراق تحت سيطرتهم مهما كان اسمها. المسؤولُ المَحَلي الأول (المفوض المدني لقوات بعثة ما بين النهرين) أرنولد ويلسون Arnold T. Wilson، الذي كان آنذاك عقيداً في المكتب السياسي الهندي، طَلَبَ ضَمَّها إلى الامبراطورية ولكنه لاحَظَ أن الحكومة البريطانية لم تكن تريد ذلك آنذاك. فكَّرَ أن "حمايةً مستترة أو غير رسمية مماثلةٍ لما هو الحال في مصر قبل الحرب" يمكن أن تُقبَل. وعلى كل حال فقد كتَبَ إلى حكومته أن بريطانيا كانت حُرَّةً في فِعل كل ما تريد لأنه:

"مع خِبرةِ المسؤولين السياسيين ورائي، أستطيعُ أن أُعلِن بكل ثقةٍ أنّ الدولة بشكلٍ عام لا تتوقَّع ولا تَرغب بأية مخططات عامة للاستقلال كما أُشير إليه أو تمَّ التَّصريحُ به في الوعود الأنكلو-فرنسية. العربُ يتَقبَّلون احتلالنا... وعرب ما بين النهرين لن يَتقبلوا أنّ أيّ عربٍ أجانب تكون لهم كلمةٌ أو رأيٌ في قضاياهم... الوحدةُ الوطنية تَعني بالنسبة لهم وحدةُ ما بين النهرين وليس الوحدةَ لا مع سورية ولا مع الحجاز"[251].

من النادر أن يكون تقريرٌ استخباراتي أكثر خطأً من ذلك. معرفةُ سببِ الخطأ الذي سارَ فيه أرنولد ويلسون يَمنحُنا رؤيةً جيدة لمشكلة الأمبريالية.

جَسَّدَ أرنولد ويلسون حالةَ الشمال العالمي فقد كان حادَّ الذكاء وتعلَّم في الأكاديمية المَلَكية في ساندهيرست بانكلترا وتدَرَّبَ في الخدمة العسكرية مع الجيش البريطاني الهندي وكان "خبيراً" في شؤون الاستعمار وكانت الحكومة التي أدارَها نزيهةً وفعَّالة ووطنية. كان هدفُهُ النظام والاقتصاد، ولم يخُطر له أي دور لمشاركة السكان المَحَليين ولا أي دورٍ لوطنيتهم وقوميتهم. حَمَلَ وجهةَ النظر البريطانية نحو رجال القبائل، وبالنسبة له فقد كانوا متوحشين وهَمجيين ومَلَونين، وربما يستطيع أحدٌ أن يُقيمَ معهم علاقةً مرحة (طالما أنه كان مسلحاً). بالنسبة له وللبريطانيين بشكل عام، فإن جميع الهنود و"عرب المدينة" المُستغرِبون، الذين أطلَقَ عليهم البريطانيون لقب "WOGs" أي "Wily Oriental Gentlemen" وهي تَعني "الرجال الشرقيون المُخادِعون"، هم جميعاً خبيثون وخطرون ومُتَفاخرون وعاجزون ومن الأفضل إبعادهم عن جميع شؤون

الحكومة. احتَقَرهم ويلسون وزملاؤه ولم يَبذلوا أي جهدٍ لإخفاء سُخطِهم. والأسوأ من ذلك أنهم لم يَبذلوا أي جهدٍ لمراعاة المشاعر المَحَلية. كانت سياستهم أمبرياليةً مركَّزة صافية.

أدى الغضبُ من سياسة ويلسون الأمبريالية إلى تحريض الشعور بالوحدة في الجزء العربي من سكان العراق على الأقل. ومن المثير للاهتمام على الرغم مما قاله لحكومته فإن السنّة والشيعة الذين كانوا دائماً يَشكُّون ببعضهم بعضاً قد اتَّحَدوا معاً في أول تعبير عن المشاعر الوطنية، واتَّفقوا على أنه يجب طَرد البريطانيين من الوطن. أغلَقَ التجار حوانيتهم وأغلَقوا الأسواق وهاجَمتْ عصاباتُ الشوارع الجنودَ البريطانيين وأمَرَ رجالُ الدين بالجهاد. في 30 يونيو 1920 بدأ العراقيون تمرداً عاماً وتعرَّضَ الجيشُ البريطاني الكبير الذي ضَمَّ ثلاث عشرة فرقةً للهجوم من جهةِ قوةِ حرب عصابات شَمَلَتْ جميع السكان تقريباً. بعد ستة أشهر فقط كلَّفَت الحرب حياةَ 1,654 جندياً وأكثر من ستة أضعاف التكلفة المَالية التي أنفَقوها لدَفع العرب إلى قتال الأتراك في "ثورة الصحراء". كتَبَ لورنس العرب في الثاني من أغسطس 1920 بجريدة London Sunday Times "قتلنا حوالي عشرة آلاف عربي في هذه الثورة هذا الصيف ولا يمكن أن نَتَوقع استمرارَ هذا المُعدَّل: هذه دولةٌ فقيرة قليلة السكان وبينما قيل لنا أن هدف الثورة سياسي، لم يُخبِرنا أحدٌ ماذا يريد السكان المَحَليون".

من المؤكد أن البريطانيين قد عَرفوا ما الذي لا يريده السكان المحليون: رفضوا أن يحكمهم رجالٌ انكليز وأن يُصبِحوا جزءاً من الامبراطورية البريطانية. وضَّحَ الجمهورُ الانكليزي للبرلمان بجلاء أنهم لن يستمروا في دعم تكاليف قَمعِ العراقيين. كان لا بد من تغيير ويلسون وسياساته. من أجل بحثِ ما يمكن فِعله بشأن هذا التحدي الوطني، قامَ ونستون تشرشل، الذي كان آنذاك وزير المستعمرات، بالدعوة إلى مؤتمرِ عملٍ ضَمَّ جميع الرؤساء البريطانيين العامِلين في الشرق الأوسط وبعض العرب المُعتَدلين للاجتماع في القاهرة في مارس 1921 [252].

في نهاية ذلك المؤتمر المُفصَّل أظهَرَ تشرشل جهلاً صادماً بشعب الجنوب الذي كان يُقَرِّرُ مصيره. بينما كان تشرشل يُحَضِّرُ تقريره للبرلمان عن قراره بتَنصيب فيصل على العراق كمفوض عن بريطانيا، أرسَلَ ملاحظةً لمُساعِدِهِ ظلَّتْ سرّية سنوات عديدة لحُسنِ حظِّ سمعته فقد قال فيها:

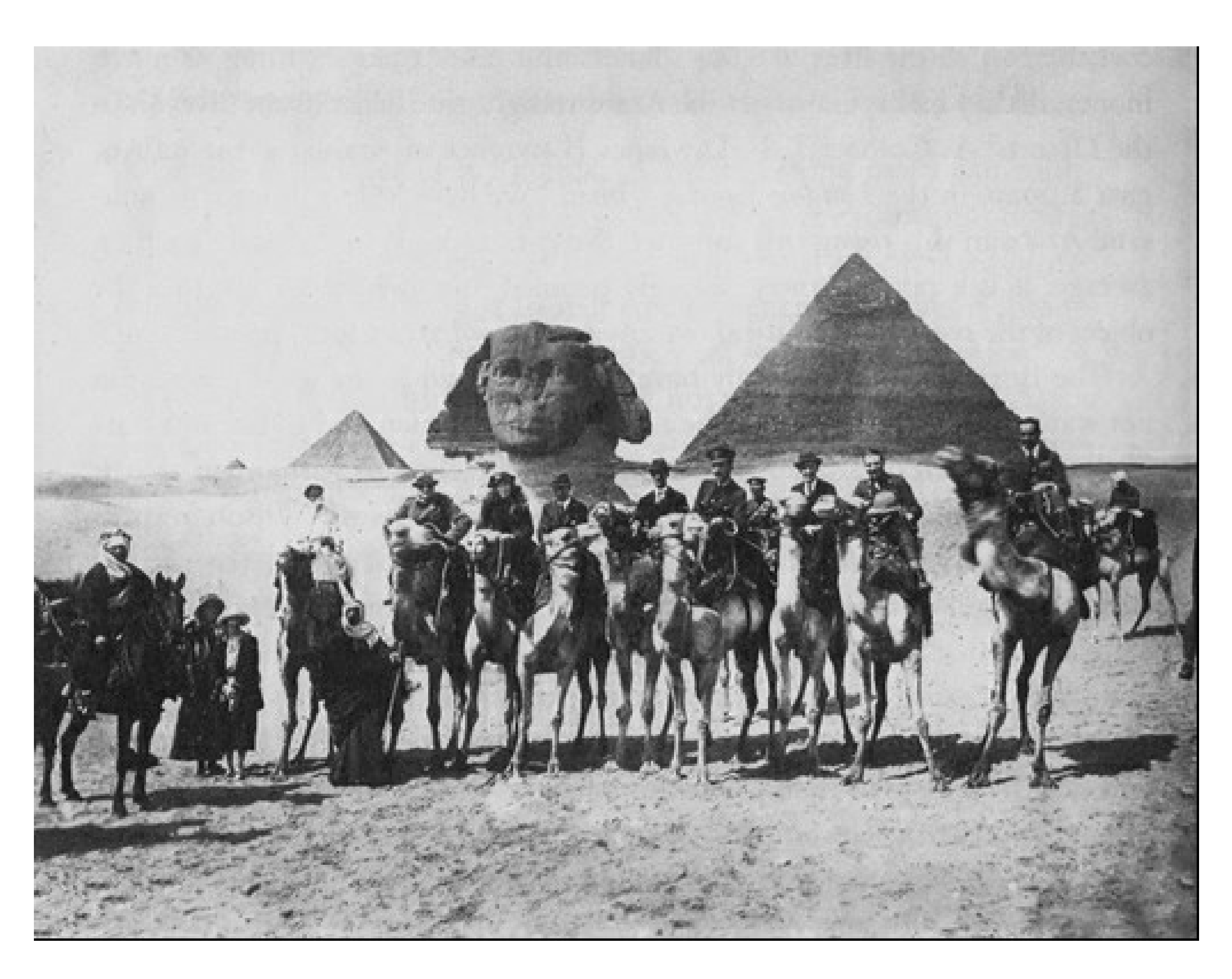
"اكتبْ لي ملاحظةً في حوالي ثلاثة أسطر عن صفات فيصل الدينية. هل هو سنّي بميول شيعية، أم شيعي بميول سنيّة، أم أنه يَربطهما معاً؟ ما هو والده حسين؟ مَن هي الكنيسةُ الأرستوقراطية الأعلى ومَن هي الأدنى؟ مَن هم سكان كربلاء المتدينون؟ أخلُطُ دائماً بين هذين الاثنين" [253].

ولكن تشرشل الذي ظلَّ أمبريالياً حتى يوم موته فَهِمَ النقاط الرئيسية في نصيحة "الخبراء": تَسميةُ العراق مَملَكة (مع الاحتفاظ بها تحت الوصاية البريطانية)، تَنصيبُ فيصل ملكُ سورية السابق ملكاً على العراق (مفوضاً من بريطانيا)، وتَخفيضُ التكاليف (عن طريق مهاجمة المتمردين باستخدام قاذفات سلاح الجو المَلَكي وسيارات فورد مصفحة ومجهزة بمَدافع رشاشة). لو تم تطبيق

خطة تشرشل بكاملها لاستَخدَمَ سلاحُ الجو المَلَكي الغازات السامة أيضاً ضد المتمردين. فكَّرَ تشرشل بأن واجهةَ الاستقلال ستُهدّئ الوطنيين وستَجمَع شرطةُ الأمن المُتشددين وستكون القوات الجوية والبرية المتحركة فعالةً ضد رجال القبائل الذين يمتَطون الجِمال. وبما أن المشاةَ قد تكون مفيدة أيضاً فقد جَنَّدَ البريطانيون أيضاً قوات مَحَلية إضافية مساعِدة.

كان استخدامُ سكانٍ مَحَليين لقتالِ مَحَليين آخرين السياسةَ الأمبريالية المُعتادة كما رأينا. وضِعَ هذا النمط منذ القرن السادس عشر في المكسيك على يد هرنان كورتيز Hernan Cortes وفي المحيط الهندي على يد فاسكو دى غاما. تم تنفيذ غزوهما بشكل رئيسي على يد كتائب محلية. وفي المغرب، استخدَمت فرنسا الجنود (الصباهي) من أفريقيا السوداء، وحارَب الهولنديون في آتشيه بالجاويين وغيرهم من كتائب الأندونيسيين، ثم حارَبوا الجاويين بالأفريقيين من ساحل الذهب وأطلَقوا عليهم ساخرين لَقَبَ "الهولنديين السود". حارَب الصينيون مسلمي آسيا الوسطى بالمسلمين الصينيين، وسيحكم الفرنسيون سورية بخمسين ألف من جنودهم وحوالي أربعة عشرة ألفاً من الجنود المَحَليين. وفي العراق سيُدَرِّبُ البريطانيون ويُسلِّحون ويَقودون مسيحيين آشوريين مثلما استَخدَموا الجورخاس Gurkhas (النيباليين) والجنود الهندوس والمسلمين في الهند[254]. تَجنيدُ المَحَليين في خدمة الأمبريالية كان دائماً أكثر توفيراً وكذلك ممكناً في أغلب الأحيان. الجنودُ المَحَليون أرخصُ من الأوروبيين، ولا يَعرف عنهم أحدٌ في أوروبا تقريباً إذا قُتِلوا.

حاوَلَ البريطانيون والفرنسيون خَلْقَ صورةٍ جديدة للمستعمَرات لكي يَجعَلوا الاستغلالَ الاستعماري والقَمعَ أكثر قبولاً للسكان المَحَليين وكذلك للّيبراليين في الوطن. لم يَعد يُنظَر إلى المستعمَرات كنظامِ نهبٍ واستغلال بل بشكل نظامٍ عظيم من التَّعليم الحَضاري لتَمكين المَحَليين المُتَخَلِّفين من حكم أنفسِهم. أصبَحَ "المُعلِّمون" الأوربيون مستشاريهم وأصبَحوا هم طلابهم المُطيعين، وأصبَحَ اسم المستعمَرات "ولايات الانتداب" إلا أن ذلك لم يكن سوى شكلٍ أكثر خَفَاء من الأمبريالية الشمالية الصريحة الذي يَبتعد كثيراً عن مِثاليات وودرو ويلسون. لم تكن ولاياتُ الانتداب سوى مستعمَرات يتم جَرُّها ببطء.



جَمَعَ رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل فئة في القاهرة أمام أبو الهول سنة 1921 لتنفيذ نسخة معدَّلة من اتفاقية سايكس-بيكو أثناء الحرب والتي وَضَعت أسس الشرق الأوسط كما نَعرفه هذه الأيام.

الصورة بإذن مكتبة James A. Cannavino وسجلاته ومجمعاته الخاصة، Marist College.

سمَحَ البريطانيون في العراق بوجود حكومةٍ مَحَلية مَحدودة، مثلما فَعَلوا في مصر، واحتَفَظوا لأنفسهم بالعناصر الرئيسية في الحكم، مثل الجيش والمالية والشؤون الخارجية. وكما فَعَلوا في مصر عندما احتَفَظوا بالسودان الذي تمر فيه مياه النيل، دم الحياة في مصر، سيطَرَ البريطانيون في العراق على ما أصبَح دم الحياة في العراق، وهو البترول. ومثلما فَعَلوه في مصر عندما نَفوا الزعيمَ الوطني المصري سعد زغلول عندما أصبَحَ مزعِجاً لهم، قَبَضوا أخيراً على طالِب باشا النَّقيب ونَفوه إلى سيلان. كان طالِب باشا سياسياً ماهِراً من البصرة وكان العراقي الوحيد الذي يمكن أن يتحدى تَنصيبَهم للمَلك فيصل الذي كان يجب أن يصبح مَلكاً مهما كلَّفَ الأمر. وضَعوا تحته واجهةً "للمستشارين" البريطانيين أربعين من العراقيين "المُوالين" الذين سيَلعَبون لعبة الكراسي الموسيقية في إحدى وعشرين وزارة تم تأليفها خلال عَقدٍ من الحكم البريطاني الخَفِيّ. يمكن أن يَقال أن العراق كانت أبلَغَ مثالٍ على الأمبريالية الحديثة. ولكن كما شاهدنا فإن هذا النظام

الجديد لم يؤجِّل فقط حَلَّ القضايا الأساسية، بل أصبح بذاته سبباً لمشاكل كثيرة ثَبُتَ في السنوات الأخيرة أنها مكلِفة ومؤلِمة جداً للعراقيين.

حَظِيَ البريطانيون على سِجلٍ نظيف في التعليم، إذ لم يفعل الأتراكُ كثيراً لتعليم العراقيين، وفي مساء الحرب العالمية الأولى كانت مدارسهم تُعلِّم باللغة التركية التي لم تفهمها سوى قلة من الستة آلاف طالب عراقي وتوقَّفَ التعليم عند المرحلة الابتدائية. لم يقم البريطانيون بتغييراتٍ كبيرة في البداية، وفي سنة 1920 افتَتحوا مدرستين للمرحلة الثانوية إلى ما بلَغَ مجموعُهُ العظيم أربعة وثلاثون طالباً. افتَتحوا مدرستين ثانويتين إضافيتين على مدى الثلاث سنوات التالية، ولكن حسبَما ذَكَرتْ حكومةُ نظام الانتداب لعصبة الأمم في التقرير السنوي 1923-1924 لمجلس عصبة الأمم "تقديم التعليم الثانوي ليس من المرغوب وليس من الممكن تطبيقه في هذه الدولة سوى للنخبة القليلة المُنتقاة". نَصَحَ التقرير بأن أربع مدارس ربما تكون أكثر مما يجب. لم يَحضر المدارسَ الابتدائية بشكل دوام تام سوى قلة من الطلبة، وتوقَّفَ أغلبهم بعد سنتين أوثلاث. لا بد أنه كان من الصعب تَمييز الطلاب من المعَلِّمين لأن نصف المعلِّمين تقريباً لم يَحملوا تعليماً نظامياً. لم تكن قلة الخبرة مشكلةً لأن تسعة من كل عشرة عراقيين ريفيين لم يشاهِدوا مُعَلِّماً من قبل. لم يُفعَل أي شيء لتَحضير العراقيين ولا حتى للقراءة، فكيف لِحُكم أنفسهم! في السنة الأخيرة من الانتداب كانت ميزانية المدارس أقل من ثلث المبلغ المُخَصَّص للشرطة.

شَعرَ العراقيون بأنهم حُرِموا قَصداً من شعورهم الوطني واعتَبروا أن نظام التعليم البريطاني لم يكن سوى وسيلة أخرى من وسائل الأمبريالية. وحالَما سَمَحَ لهم استقلالهم المَحدود بَدؤوا بتأسيس نظامٍ غير بريطاني. كان النظام المَحَلي الوحيد لديهم هو المَدرسة الدينية ولم يَظهَر أنهم كانوا يريدون الرجوع إليه. أرادوا شيئاً حديثاً باللغة الانكليزية ولكن ليس بريطانياً. وعندما استَطاعوا اتَّجهوا نحو أمريكا لتعليم شبابِهم الواعد من الرجال والنساء، ولتَصميم برنامج التعليم لأولئك الذين لا يَستطيعون السفر إلى الخارج. لَعِبَتْ أمريكا دوراً رئيسياً ولكن الزعماء العراقيين كانوا مُنجَذِبين نحو ما شاهَدوه من أمور كانت تَحدثُ في أوروبا.

بَحَثَ العراقيون الذين يُعتَمَد عليهم عن نماذج تُحفِّز على الكرامة والقوة بسبب عيشهم في ظلِّ حكومةٍ كانت تَعتَبر نفسها فوق القانون الموجود على ضعفه، وتَعتَبر أن مواطنيها ليسوا أكثر من مَوارد اقتصادية. أُعجِبوا بالفاشية مثلما أُعجِب بها الطليان والاسبان واليونان وغيرهم. يصعب على كثيرين هذه الأيام فَهم كيف بَدَت الفاشية جذَّابة لكثيرين من الأذكياء. جَذَبَ الحزبُ الفاشي الانكليزي كثيراً من الأرستقراطيين الانكليز وانضَمَّ إليه أول مسؤول بريطاني رفيع في العراق السير أرنولد ويلسون عند عودته إلى الوطن.

روحُ الفاشية وجَوهَرها هي العسكرية، وفي العراق كان الجيشُ هو الفئة المُنضَبطة المُسلحة المتحركة الوحيدة. أعلَنَ نفسه حارساً لروح الوطن، واعتَقَد كثيرون أنه يجب أن يضع الأساس لنظام التعليم من خلال نوعٍ من النسخة المُعدَّلة المُوسَّعة والعَقائدية من نظام التدريب الأمريكي لِفِرَق ضباط الاحتياط. كان الهدفُ هو بَعثُ روح الوطنية وبَثُّ الفخر والكرامة في صفوف الرجال السائرين بالملابس العسكرية. تم تعليم التاريخ بطريقةٍ "تقوي المَشاعر القومية والوطنية في قلوب الطلاب... والقصص عن مشاهير العرب وصِفاتهم العظيمة التي يجب تعليمها

بطريقةٍ تؤدي لنمو الشعور القومي"[255]. لولا أن هذا البرنامج لتحقيق هذه الأهداف الشامخة قد اعتُمِد جدياً من جِهة المسؤولين فلربما اعتُبر مسرحيةً ساخرة. لم تهتَمَّ بذلك فئة الجنود الشباب الذين كانوا قليلين، ولم يكن مع الزعماء سوى القليل للبناء. وبشيءٍ من اليأس استَدعوا مستشاراً أمريكياً ليُقَرِّر ما يمكن عمله. اكتشَفَ أنه "لا يوجَدُ لدى الطلاب والأساتذة حماسة وروح وطنية عالية لقوميتهم الجديدة... يجب أن تكون لديهم رؤية واضحة لما تَتوقعه الأمَّة منهم، وأن يَستمدوا الإلهامَ من هذه الإمكانيات الجديدة للثقافة الوطنية والمُنجَزات السياسية"[256].

وصَلَ هذا البَحثُ العراقي إلى أقصاه سنة 1938 عندما تم تَعيين العراقي سامي شوكت، الذي أصبَحَ فاشياً فيما بعد، مديراً عاماً للتعليم. لم يكن راضياً بمحاولة زَرعِ الروح الوطنية في الشباب الكسول على مقاعد الدراسة فأسس حركَةً خارجَ نظامِ المدارس مستَوحياً اسمَها من مؤسسات العصور الوسطى "الفتوة" بشكل مؤسسةٍ شبابية تشبه المؤسسات الأوروبية الفاشية شبه-العسكرية "القمصان"[257]. جَعَلَ الشبابَ العراقي يرتدي ملابس نظامية مُوَحَّدة وأخضَعَهم للتدريب المُنَظَّم لزرع الانضباط وحَرَّضَهم على استرجاع الأيام العربية المجيدة بالفخر والقوة. كانت الفتوة تهدفُ لكي تكون مُوحِّدةَ العراق.

لم تكن حركاتُ سامي شوكت بين طلاب المدن أكثر من واجِهَة، بينما كانت الحقيقة الواقعية بالنسبة لأغلب العراقيين هي ما أصبح ثورةً اجتماعية في المناطق الريفية. شجَّعَت السياسة البريطانية في العراق وكذلك في فلسطين على تحويل أراضي القبائل إلى ممتلكات خاصة، وبتَوجِيهِ البريطانيين أمَرَت الحكومةُ العراقية بإجراء دراسة عن ذلك برئاسة السير إرنست داوسون Ernest Dowson الذي وجَدَ أنّ:

"كثيراً من مناطق القرى قد تم تسجيلها كلياً أو جزئياً كمُمتَلَكاتٍ خاصة لوجهاء مَحَليين دون أية مراعاة للحقوق القديمة لأولئك الذين كانوا يَسكنون فيها دائماً ويَحرثون أرضها ويَرعون فيها ماشيتهم. يبدو أن المشكلة في ذلك تم إدراكُها بشكلٍ رئيسي عندما رُهِنَت الأراضي أو تم تَسييجها لصالِحِ تجار المُدنِ وفاءً لدَين"[258].

كان الهدفُ الواضح في العراق هو تشجيعُ الاستثمار في المضخات من أجل ريِّ الأراضي بحيث تُنتِجُ دَخلاً أكبر للدولة. ولكن كانت النتيجة كما وَجَدَ داوسون هي أن رجال القبائل فَقَدُوا أراضيهم لصالح الأثرياء الذين لديهم المال والعلاقات. وضِع البرنامج بشكل قوانين حَوَّلتْ أهلَ القبائل إلى أقنان تحت عبوديةٍ يفرضُها الجيش وقوات الشرطة. أدّت الكراهية الناتجة عن ذلك إلى ثوراتٍ متتابعة في السنوات التالية وتصاعَدَتْ حتى ثورة 1958.

صَعَدَ نجمُ سياسيٍّ بارع على أكتاف مواطنيه الغاضِبين هو رشيد عالِي الكيلاني الذي يمكن تَصَوُّرُه كنسخةٍ عراقية من سعد زغلول في مصر. كان عضواً في الفئة المُقرَّبة مثل سعد زغلول، وكان رؤساؤه البريطانيون يَثِقون به. اعتَلَى أول مناصبه الوزارية تحت الوصاية البريطانية سنة 1924 وأصبَحَ رئيساً للوزراء ثلاث مرات. كان أقل تَلميحاً وأكثر صَراحة من زغلول في التَّعبير

عن وطنيته، وربما كان أكثر شبهاً بوطنيين آسيويين آخرين. ومِثْلَ سوكارنو في أندونيسيا، وسبهاس شاندرا بوز Subhas Chandra Bose في الهند، وأونغ سان Aung San في بورما، اعتَبَر رشيد عالِي أن الحرب العالمية الثانية القادمة هي فرصةٌ للحصول على الاستقلال. عَمِلَ جميعُ هؤلاء الزعماء بالقول المأثور أن "عَدوّ عَدوّي هو صَديقي" ولم يَعرف أي من هؤلاء الأربعة شيئاً عن ألمانيا أو اليابان، بل رَكَّزَ كلٌّ منهم على نضالِهِ في سبيل الاستقلال.

عندما اندلَعت الحربُ تقرَّبَ رشيد عالِي إلى ألمانيا النازية من خلال سفيرها في أنقرة. انتقَمَ البريطانيون بفَرضِ عقوباتٍ شديدة على العراق. اتَّخَذَ رشيد عالِي عندها الخطوةَ التالية "القاتلة" بمحاولة طَردِ البريطانيين مِنَ القاعدة التي كانوا قد بنوها في الصحراء غرب بغداد. كانت تلك القاعدة في العراق هي نقطة السيطرة، مثل القاعدة العسكرية في الاسماعيلية قرب قناة السويس في مصر، فمن المَركَزِ الصحراوي في الحَبَّانية يستطيع سلاح الجو المَلَكي أن يُسيطِر على العراق. كانت القوات الجوية حاسمةً ولكنها لم تكن سلاحهم الوحيد. مثلما كان الحال في الهند كانت لديهم قواتُ أمنٍ عالية التدريب وبعثات تدريب عسكرية. عَرفَ البريطانيون تماماً نقاطَ ضعفِ كل كتيبة بل وحتى كل جندي في الجيش العراقي الذي قاموا بتدريبه وفَحْصِهِ وحرصوا على بقائه ضعيفاً. وهكذا نجَحَت القواتُ في القاعدة بِشَلِّ حركةِ العراقيين بسهولة بينما جَلَبوا بسرعةٍ قوات من الهند ومن فرقة الصحراء من الأردن، وسرعان ما تَغَلَّبوا على المقاومة العراقية كلها. هَرَبَ رشيد عالِي عبر الجِبال إلى إيران، ومنها وصَلَ إلى ألمانيا حيث عمل مع الدعاية ضد البريطانيين ثم انتهى به المَطاف في المَنفى إلى المملكة العربية السعودية. عادَتْ بريطانيا للسيطرة على العراق بدون رشيد عالِي، وربما جزئياً بسببه، خَلفَ واجهةٍ من السياسيين المَحَليين لمدة سبع عشرة سنة بعد ذلك.

إذاً أثبَتَت العراقُ أنها شوكةٌ في قَدَمِ الامبراطورية البريطانية، إلا أن الجرحَ تقيَّحَ في فلسطين. الذي امتازَتْ به قضيةُ فلسطين كان يرجِعُ بشكلٍ رئيسي إلى أن فلسطين، مثل الجزائر، قد جَمَعَتْ كل مشاكل أمبرياليةِ قوةٍ عظمى بمشاكل الاستعمار الأوروبي. كان السببُ الرئيسي في الجزائر هو الطَمَع، وفي فلسطين كان الخوف. لكي نَفهَمَ مأساةَ فلسطين يجب أن نَبدأ في أوروبا.

الفصل العشرون

فلسطين، أرض الميعاد

تَضَع فلسطين العلاقةَ بين الشمال والجنوب في بؤرةٍ حادة وتُضيفُ إليها بُعداً جديداً وذلك لأن سبَبَها كان في أوروبا ونَتيجتها في الشرق الأوسط. الحركةُ الصهيونية التي يُعارِضُها الفلسطينيون بمرارةٍ نشأت كَرَدِّ فِعلٍ لمعاداةِ السَّامية المُتوحِشة والمُتأصِّلة في أوروبا.

لم يَتعامَل أي مجتمعٍ أوروبي مع اليهود كمواطنين كاملين، وأظهَرَ أغلبُها على مدى أجيالٍ وقرون معاملة اليهود بطريقةٍ بشعة ووحشية في كثير من الأحيان. حتى الحكوماتُ التي كانت لطيفةً نسبياً استَغَلَّتْ وعَزَلَتْ وأبْعَدَت اليهود (وأقليات أخرى مثل الغَجَر والمسلمين والمسيحيين المُنحَرفين)، أما الحكوماتُ الأقل لطفاً فقد شجَّعتْ وغَضَّت النَّظر أو مارَسَتْ برامجَ قتلٍ جَماعي. يُبيِّنُ تاريخُ الشمال العالمي سِجلاً مُنتَشِراً قوياً ومُتواتراً من عدم تَحمّل جميع الاختلافات العِرقية والثقافية والدينية. كانت هناك فتراتٌ من التَّحمّل النسبي إلا أنها كانت مُتفرِّقة ولم يُمكن التَّنبؤ بها عبر الأجيال. في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ازدادَتْ مُعاداةُ السَّامية خُبثاً مع هجرة أعدادٍ كبيرة من يهود الأشكنازي من روسيا نحو الغرب إلى بولونيا والنمسا وألمانيا وفرنسا. لم يُنقِذهم الهَرَبُ كما قال أحد الصهاينة الأوائل مشيراً إلى هجرة اليهود الكبيرة من روسيا وبولونيا إلى أوروبا الغربية: "حَمَلَ اليهودي مُعاداة السَّامية على ظَهْرِهِ حيثما ذَهَبَ"[259].

تأثَّرَ اليهودُ أيضاً بتياراتِ القومية وبَدؤوا يَعتَبرون أنفسَهم "أمّة" أيضاً مثل المصريين والإيرانيين والترك والبربر والعرب، وبينما كانوا قبلَها يَسعون للحصول على ملجأ مؤقت، بَدؤوا يَبحثون عما سَماه ثيودور هرتسل Theodor Herzl "دولة يهودية". اعتَقَدَ هرتسل وأتباعُه أن حصولَهم على دولة-أمة مستقلةٍ مؤسَّسَةٍ على الدِّين سيكون حَلاً نِهائياً لمُعاداة السَّامية. كان ذلك هو الهدفُ الأساسي والمُبَرِّرُ لوجود الصهيونية. تحدَّثَ كلود مونتفيور Claude Montefiore رئيسُ الجمعية الانكليزية اليهودية إلى جماعةٍ في لندن بتاريخ 30 نوفمبر 1917 قائلاً: "نَشَأت الحركةُ الصهيونية لتأسيس دولة-أمة بسبب مُعاداة السَّامية".

عَرفَ الأوروبيون والروسُ في القرن التاسع عشر مَفهوم الدولة-الأمّة ووافَقوا عليه. كانت المجتمعات الفرنسية والألمانية والإيطالية ومجتمعات البلقان المختلفة تُعيدُ تَشكيلَ نفسِها واعتِبار

نفسها "أمَماً"، وليس من المُستَغرَب أن يقرِّر الصهاينة فِعل ما يَفعله الأوروبيون وأن يَبحثوا لأنفسِهم عن أرضٍ يؤسسون عليها دولَتهم على الرغم من معارضةِ يهود آخرين ذلك بقوةٍ في بداية الأمر. اقتَرَحَ الأوروبيون الذين سَرَّتهم فكرةُ التّخلص من يَهودهم مناطقَ عديدةٍ محتملة. كانت المناطقُ المُقتَرحة بعيدةً وفي أراضي الآخرين عادة، مثل الأرجنتين أو أستراليا أو مَنشوريا أو في شرق أو شمال أو غرب أفريقيا. كان الروسُ وحدهم من اقتَرَحَ مكاناً في أراضيهم نفسها. ولكن المكان الوحيد الذي استطاعَ الصهاينة أن يَتَوافَقوا عليه كان الأراضي المقدَّسة. ولتَشجيعِهم على التَّركِيز في فلسطين دون غيرها، صاغَ اسرائيل زانغويل Israel Zangwill وصفاً لهدفهم ولأرض فلسطين بكونها "أرضٌ بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرض"[260].

على الرغم من أن مَقولةَ زانغويل كانت شِعاراً قوياً إلا أنها لسوء الحظ كانت غطاءً لواقعٍ مختلف، فقد كانت فلسطين كثيفة السكان بمراعاة التقنيات التي كانت متوفرة آنذاك وشحّ المياه والفقر النسبي لسكانها. وللمقارنة فقد كانت كثافة السكان فيها أكثر بخمس مرات من كثافة السكان في الولايات المتحدة آنذاك. وكان التوازن بين عدد السكان ومساحة الأرض متوازناً، بمستوى أقل في المناطق المَروية الأغنى، وذلك حتى ثلاثينيات القرن العشرين عندما تم ضَخُّ كمياتٍ كبيرة من المال وأصبَحت التقنياتُ الجديدة متوفرة.

أثارَتْ كلماتُ هرتسل وزانغويل قَلَقَ الأمبرياليين، خاصة الانكليز. كانوا مستعدين لمساعدة اليهود في تأسيس مستعمَرة قد تكون مفيدة عسكرياً وربما مُربِحة أيضاً، ولكنهم لم يكونوا مرتاحين لتأسيس دولةٍ مستقلة فعلاً في الجنوب. تم تَحضير ثلاث إجابات على الاعتراضات المحتملة: الأول هو أن هرتسل نفسه أكَّدَ على أن دولةً يهودية ستكون "مِتراساً لأوروبا ضد آسيا ومَركَزاً حضارياً مُتَقدِّماً ضد البرابرة"[261]. أي أنهم سيصبحون حلفاءَ في المهمة الأمبريالية العظمى التي حَمَلها الانكليز والفرنسيون، أي "عبء الرجل الأبيض" أو "رسالة الحضارة". كانت الإجابةُ الثانية هي إنكار أن هَدَفَ الصهيونية هو إنشاء دولة. كتَبَ ناحوم سوكولوف Nahum Sokolow الذي كان السكرتير العام للمنظَّمة الصهيونية في Die Welt بتاريخ 22 يناير 1909 "لم يكن هنالك أية حقيقة في ادعاء أن الصهيونية تريد تأسيس دولة يهودية مستقلة"[262]. أما الإجابة الثالثة لربح التأييد فقد كانت اللَّعبُ على خوفِ الانكليز من الهِجرة اليهودية. أعلَنَ دافيد ولفسون David Wolffsohn في خطابه الرئاسي للمؤتمر الصهيوني العاشر سنة 1911 أن هدَفَ الصهيونية "ليس إنشاء دولة يهودية بل مَوطِن إقامة"[263]. سيَجذبُ هذا المَوطن على الأقل بعضَ الملايين من اليهود الذين هَرَبوا من روسيا لكي يُقيموا بعيداً عن انكلترا وبذلك يَتجَنّبون الإساءة إلى جماعة اليهود المُقِيمين أو التَّنافس مع العمال الانكليز[264].

لذلك كله فقد تقرَّر تَغيير الاصطلاح باللغة الألمانية من "دولة يهودية Judenstaat أو Jewish state" إلى "وطن Heimstatt أو Homeland"، الذي يشير إلى شيءٍ أقلَّ من "دولة". من هذا المُنطلَق وصَفَ الصهيوني ليو بينسكر Leo Pinsker هدَفَ الصهيونية بأنه تأسيس "جماعةٍ استيطانية"[265]. وضَعَ حاييم وايزمان الاصطلاح العبري المرادِف للاصطلاح الألماني

الذي يَصِفُ الجماعةَ الاستيطانية وهو Yishuv [266]. وهكذا وِلِد المبدأ الذي طَرَحَهُ وعدُ بلفور سنة 1917 لتأسيس "وطن قومي للشعب اليهودي" في فلسطين.

لم تَنخَدع الحكومةُ البريطانية، واعترَضَ وزيران، إنما ضمنَ خصوصيةِ مجلسِ الوزراء. علَّقَ اللورد كيتشنر أنه من غير الواقعي تَصَوُّر أن نصف مليون فلسطيني ممن يتَحدثون العربية سيرضون القيامَ بالدورِ الذي فَرَضَهُ اليهود على أجدادهم الكنعانيين "قَطعُ الخشب وجَلبُ الماء". أما اللورد بلفور الذي كتَبَ الوَعْدَ فقد أَخبَرَ زملاءَه في 11 أغسطس 1919 "أن القوى (بريطانيا وفرنسا) لم تُصَرِّح بإعلان حقيقةِ وَضْع، وهذا ليس خطأ، وبإعلانِ سياسةٍ مكتوبة بشأن فلسطين لن يُخالِفوه"[267]. لم تُبالِ الحكومةُ البريطانية في فلسطين المُحتَلَّة وأسسَتْ إدارةً مدنية في الأول من يوليو 1920. ولتَنفيذ وَعد بلفور عَيَّنَت الصهيوني الانكليزي المعروف السير هربرت صموئيل مَندوباً مَدنياً سَامياً. كانت أولى مَهامه البدءُ بهجرةٍ واسعة لليهود، ولم يُوافِق مجلسُ عصبة الأمم على انتداب بريطانيا في فلسطين إلا بعد ذلك بسنتين بتاريخ 24 يوليو 1922، بينما كانت السياسة البريطانية تُطَبَّق دون موافقة عصبة الأمم.

ظَهَرَ موقفُ وسلوك الإدارةِ البريطانية لفلسطين في مُذَكَّرةِ الحكومة البريطانية في فلسطين بعد ذلك بسنوات:

"غالبيةُ عرب فلسطين هم مسلمون في الدِّين، وبشكل عام فإن مَظهَرهم آسيوي، وهم تَقليديون، وبالمقاييس الغربية هم يَميلون لوضْعِ النَّظريَ قَبلَ العَمليّ. يَفتخرون بِحَملِهم لغةً مُشتَركة تَربطهم ببقية أنحاء الوطن العربي وذلك عامِلٌ يجب عدم التَّقليل من أهميته. على الرغم مِن كون تقاليدهم اقطاعية، ولذلك ليس لديهم لُحْمَةٌ وتَماسك، إلا أنهم تأثَّروا بالرغبة بحَقِّ تقرير المصير، وظَهَرَ ذلك في ولاياتِ الامبراطورية العثمانية في بدايات هذا القرن وتركَ آثارَهُ على تفكيرهم وسلوكهم السياسي... تتألف غالبية العرب من الفلاحين وفئةٌ صغيرة من مُلَّاك الأراضي، وهم عَنيدون ولديهم ارتباطٌ عميقٌ بالأرض"[268].

في بداية الانتداب البريطاني، لم يكن الفلسطينيون قد اكتسَبوا بعد جرثومةَ الوطنية، كانوا منقَسمين دينياً ومَناطقياً ومَالياً. كانت غالبيةُ الثمانمئة ألف من السكان المَحَليين النَّاطقين بالعربية هم من القرويين الذين كانوا يَتَصَوَّرون أن قُراهم هي "أمَّتهم" و"وطنهم" مثلَ جيرانهم في مصر وسورية. وكانت غالبية الثمانين ألفاً من اليهود القاطِنين هم من الحجَّاج أو التجار الذين سَكَنوا في القُدس وحَيفا بشكل رئيسي.

الذين أطلق عليهم بلفور (في وَعدِهِ) اسم "الجماعات الموجودة من غير اليهود"، أي الفلسطينيين الذين تَحَدَّثوا بالعربية ولكنهم اتَّبَعوا أدياناً متنوعة. انعكست الاختلافات الدينية في النمط العثماني التقليدي: كان لكل "أمة أو ملَّة" دينية مدارسها ولباسها وطعامها وتقاليدها، وقامَتْ كل منها بإدارة أغلب أمورها. كان المسلمون مُنفَصِلين عن اليهود، وأظهَرَ المسيحيون تنوعاً مدهشاً من المَذاهب المُنفَصِلة. وَجَدَتْ دراسةٌ بريطانية سنة 1931 أن عدد المُقيمين المسيحيين كان حوالي مئة

ألف يشملون "منتمين إلى الأرثودكس والرُّومُ الكاثوليك والمَلَكيين اليونان والسريان الكاثوليك والأقباط الأحباش والمَلَكيين الأحباش والمَارونيين والكَلْدَان واللوثِريين وكنائس أخرى"[269]. بالإضافة إلى غير ذلك مما أنتجته هذه الأرض الصخرية الجافة الثرية بالأديان.

كان المجتمع المسلم متجانساً بشكل عام إلا أنه كان يفْتَقِدُ الخبرةَ في إدارة كثير من أموره. كانت مَدارِسُهُ وعياداتُهُ مؤسساتٍ حكومية، ولم يكن لديه زعامةٌ واضحةٌ غير الموظَفين العثمانيين، وكذلك لم يكن لدى المسلمون خبرة في العلاقات الخارجية أو التعامل مع الأجانب مثلما كان لدى المسيحيين واليهود الذين تَمتَّعوا بخبرةِ أجيالٍ من التعامل مع الأجانب. كانت العلاقاتُ الدولية امتيازاً خاصاً بالامبراطورية العثمانية على كافة المستويات، وعلى العكس من المسيحيين واليهود، لم يكن المسلمون "أمّة أو ملّة" بل كانوا ضمن سكان الامبراطورية.

في ثمانينيات القرن التاسع عشر بدأت الحكومةُ العثمانية بتطبيق عددٍ من الإصلاحات كانت تَهدف بشكل رئيسي إلى زيادة موارد الضرائب. كان أهم هذه الإصلاحات هو فَرْضُ المبدأ الغربي في المُلْكِية الخاصة على النظام التقليدي في امتِلاك الأرض. تم تطبيق إصلاحاتٍ مشابهة في انكلترا سنة 1773 بقانون السياج Enclosure Act، وفي روسيا بِمَراسِيم سنة 1861، وفي العراق في قوانين ثلاثينيات القرن العشرين كما ذَكَرتُ. قامَ البريطانيون بتشجيع ما يشابه ذلك في الهند. سمَحَ ذلك لتجار المدن أو لكل من لديه المال بتَملّك أراضٍ جماعية وتحويل الأراضي التي "يَمتلكها" الفلاحون وِفقَ العاداتِ المَحَلية بحيث أصبحتْ ممتلكاتٍ خاصة، وغالباً ما جَعَلَ ذلك المزارعَ عبداً وأصبَحَ المُستثمِرُ سَيِّدَه[270].

لم تسمَع سوى قلة من القرويين الفلسطينيين عن القانون الجديد، وظَلّوا يَحرثون ويَحصدون مثلما كانوا يَفعلون دائماً، فبالنسبة لهم كانت الأرضُ امتداداً لقَرابَتهم وليست مُجَرَّدَ ثروةٍ اقتصادية. دعَّمتْ ممارسةٌ تقليدية سابقةٌ القانونَ الجديد على الرغم من كونها منفصلة عنه، وذلك لأن القرويين كانوا يَخافون الحكومةَ، فعندما يَحتاجُ المسؤولون مَورداً، وكان ذلك كثيرَ الحَدوث، كانوا يُرسِلون فرقاً من مُحَصِّلِي الضرائب المُسَلّحين لجَمعِهِ. كان جَمعُ الضرائب يَشبه حَملةً عسكرية في بلدٍ عَدوّ، وكان مُحَصّلو الضرائب يَتصَرفون غالباً وكأنهم قواتٌ خاصة "تفَتّش وتُخرّب" أو حتى كأنهم قطّاع طُرُق. كانوا يأخذون أكثر ما يستطيعون الحصول عليه ويَسوقون الماشية ويُصادِرون الحبوب وحتى يَخطفون الشباب إلى الخدمة العسكرية. كانت الحكومةُ حسب خبرة القرويين جيشَ احتلال، ولذا قامَ القرويون بِتَجنّب الاحتكاكِ معها قدر ما يستطيعون، وعندما لا يستطيعون الهَرَبَ، كانوا غالباً ما يَدفعون أموالاً لمُحَصّلي الضرائب من أجل الحماية بطريقةٍ مماثلة لما كان يَفعله أصحاب المَتاجر في إيطاليا وأمريكا للتعامل مع عصابات المافيا. إلا أنه في القرن السابع عشر أو الثامن عشر تَوصَّلَ بعضُهم إلى طريقةٍ دفاعية إضافية، ففي فلسطين كما كان الحال في سورية وإيران والبَنجاب في الهند حيث تمت دراسةُ النظام بِدِقّة، وافَقَ الفلاحون غالباً على تسجيل أراضيهم باسم شخصٍ قوي يستطيع حِمايَتهم. وهكذا أصبَحتْ أراضيهم بحكم القانون، وليس بِحُكمِ العادات، مُلكَاً للرجالِ الأغنياء والأقوياء الذين "زَرَعوا" ضرائبهم للحكومة وضَمنوا لهم الحِماية منها.

كان ذلك هو النظام القانوني الذي وَجَدَهُ البريطانيون عندما أسسوا حكومتهم في فلسطين. كانوا يَعرفونه حتى قَبلَ وصولِهم لأنهم تَعامَلوا مع أنظمةٍ مشابهة في إيرلندا والهند وكينيا وأجزاء أخرى من امبراطوريتهم. حَدَّدَتْ سِجلات الضرائب العثمانية أن مجموعات كبيرة من القرى والأراضي الزراعية التي تُجاورها هي ملكٌ لأشخاصٍ مَعروفين أو عائلات أو شركات وافَقَتْ على دَفع ضرائب للحكومة. بالإضافة إلى ذلك سُمِح "للمالكين" الجدد بِعَصرِ كل ما يمكنهم من الفلاحين، وكان ذلك هو النظام الذي فَرَضَهُ البريطانيون.

مثالٌ فلسطيني واحد يُبيّن كيف كان يُعمَل بهذا القانون، ففي سنة 1872 حصَلَتْ عائلةُ تاجرٍ لبناني اسمها سرسق على مُلكية أرضٍ بلَغَتْ مساحتها خمسين ألف فداناً وفيها اثنتان وسبعون قرية في منطقةِ مَرج ابن عامر (وادي جزريل). كان القرويون قد سجَّلوا المُلكية باسم عددٍ من المُتَنفِّذين والمَسؤولين الذين عَرَضوا حِمايتهم. كانت الصفقات في تَصَوّرهم ليست أكثر من رشوات، وظَلَّت الأراضي التي حَرَثوها وزَرَعوها وحَصَدوها مُلكاً لهم حسب القانون الوحيد الذي يَعرفونه وهو عادات القرية. اشتَرتْ عائلةُ سرسق هذه المُلكيات التي كانت بالنسبة لهم مثل شهادات الأسهم. جَمَعَ مندوبوهم الأرباحَ التي كانت تَصِلُ إلى 100% من استِثماراتهم كلّ سنة، وكان القرويون مَستَعدون لِدَفع ذلك مقابل تَركِهم يَعيشون بسلام. عَملوا بجدٍّ واستَفادوا من التربةِ الخصبة وتوفّر الماء. وَصَفَ أرضَهم الرحالةُ الانكليزي لورنس أوليفانت Laurence Oliphant سنة 1883 بأنها كانت "مثل بُحَيرةٍ كبيرة خضراء من القمح المُتَموّج تَرتفعُ بينها أكوامُ تلالِ قريتهم كأنها جُزر، وتبدو واحدةً من أجمل صور الخصوبة المُترَفة التي يمكن تخيُّلها"[271].

خلالَ العقود التي سبَقَت الحرب العالمية الأولى كان الجميع مرتاحون نسبياً: حصَلَت الحكومة على مواردها بشكلٍ منتَظم، ونَجَى القرويون من السرقة والاغتصاب والخطف، وأصبَح مُزارعو الضريبة أغنياء. وفي سنة 1920 أصدرَت الحكومة البريطانية مَرسومَ نَقلِ مُلكيةِ الأرض الذي تَمكَّنتْ عائلةُ سرسق بواسطته من بَيع الأرض والقرى. كانوا قد اشتَروا صَكَّ المُلكية بحوالي عشرين ألف جنيهاً استرلينياً وباعوه بحوالي 726,000 جنيهاً استرلينياً إلى وكالة المُشتَريات الصهيونية. أصبح آل سرسق أغنياء وخَطَى الصهاينة خطوةً كبيرة نحو تحقيق هدفهم في الحصول على فلسطين. أما القرويون فكانوا هم الخاسرين. تم طَردُ حوالي ثمانية آلاف منهم بقوة القانون الذي فَرَضَهُ البريطانيون. لم يكن لديهم أيه مهارات غير العمل في الأرض، وكانت الأرضُ قد ضاعَت. وكذلك حسب شروط الصندوق القومي اليهودي لم يكن مُتاحاً لهم العمل حتى بصفة عمال واتَّخَذَت الأرضُ صفة الوَقْفِ الذي لا يُمكن بَيعُهُ لِغَيرِ اليهود أبداً.

تكَرَّرَ ذلك مراتٍ ومرات، ومَنَحَتْ تلك الصفقاتُ للصهاينة أفضلَ الأراضي، وكان حوالي 80% منها من "أملاك الغائبين"[272]. لم تَشعر القرى بنتيجة ما حَدَثَ إلا بعد سنوات بسبب استقلاليتها وعدم تَواصُلِها مع بعضها إلا نادراً. تَصَرَّفتْ كلُّ قرية لوحدها مثلما حَدَثَ في الجزائر عندما قَيَّد القرويون أنفسهم بالسلاسل أحياناً إلى منازلهم بينما كان المُستوطِنون الفرنسيون يأخذونها منهم. وأخيراً، عندما تم إدراكُ النمط العام لما يَحدث، قامَت الثورة.

التَّعبيرُ عن التحركات الأولى نحو الشعور الجماعي أو الوطني استَخدَم اصطلاحات دينية في الغالب وبشكلٍ مُحَدَّدٍ أحياناً. كان حائطُ المَبكى أهم الأماكن بالنسبة لليهود، وكذلك كان المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين. في 15 أغسطس 1929 أصبَحَ هذا المكانُ المقدَّس في القدس نقطةَ التركيز لمواجهةٍ وطنية حيث تَظَاهر بضع مئات من اليهود وهم يَحملون عَلَمَ الصهيونية وينشدون نَشيدها. هَجَمَ عليهم شبابٌ عرب ممَّن أثارَهم هذا المَنظر وانتَشَرتْ أعمالُ الشغب في أنحاء الدولة. خلال أسبوعين قُتِلَ 472 يهودياً و268 عربياً على الأقل. وللمَرة الأولى سارَعَ البريطانيون بدفع جنودٍ لضبط النظام، ومن المؤكد أنها لم تكن الأخيرة. كانت تلك الحادثة نذيراً بأمورٍ ستأتي، وكانت الولادَةُ المؤلمةُ للوطنية الفلسطينية.

أرسَلَ البرلمانُ لجنةً لتَقصّي الحقائق تحت ضغط قلقِ دافعي الضرائب من تكاليف ضّبطِ النظام. كان رئيسُها رجلاً ذا خبرةٍ عريضة في الخِدمة المدنية الهندية وهو السير جون هوب-سيمبسون John Hope-Simpson وكان مُعتاداً على الاضطرابات الاجتماعية. تَجنَّبَ نمو المشاعر الوطنية وقرَّرَ أن السبب وراء كل ما حدَثَ هو قضيةُ الأرض: إن أكثر من ثلاثة أرباع العشرة آلاف ميلاً مربعاً من فلسطين هي "غير صالحة للزراعة" بالمَقاييس الاقتصادية العادية، و16% من الأرض الجيدة، مثل الأراضي والقرى التي تم شراؤها من عائلة سرسق، كانت مَملوكَةً للصندوق الوطني اليهودي، وشَكَّ بأن يكون ما تَبقَّى كافياً لإعاشَة العرب، ونصَحَ بوقْفِ هِجرة اليهود. إلا أن الحكومةَ لم تَقبَل تَوصيته تحت ضَغطٍ كبير من الصهاينة في انكلترا.

بعد ذلك القرار وفشل لجانٍ أخرى ودراسات وتقارير متتالية، تَحوَّلَ الفِكر السياسي عند العرب إلى الخَوف. أدرَكَ الزعيمُ الصهيوني ديفيد بن غوريون أن مخاوف العرب من استيلاء اليهود على فلسطين كان لها ما يبررها منذ ثلاثينيات القرن العشرين[273]. وكان البريطانيون بالطبع مُدرِكين لمشاعرِ المسيحيين والمسلمين في المجتمع، فقد ذَكَرَ تقريرُ اللجنة المَلَكية سنة 1937 "مخاوفهم من السيطرة اليهودية". لَقِيَ ذلك صَدىً في عددٍ من التقارير التي تَلَتْهُ، وكان ذلك كما تم تلخيصه "خوفٌ من سيطرة اليهود، وخوفٌ من اتصالاتهم العالَمية ومواردهم الكبيرة ومشاريعهم وقوة تنظيمهم، وخوفٌ من انهيارٍ اقتصادي تتبعه سيطرةٌ سياسية، وخوفٌ من ضَياع السِّمات العربية والمسيحية والمسلمة لفلسطين تحت سيطرة أناسٍ غرباء عن تركيبة المجتمع ويتبعون ديناً مختلفاً"[274].

أكَّدَت اللجنة المَلَكية والتقاريرُ التي بَعدَها على الخَلفية الأوروبية لمشكلة فلسطين وما فَعَلَهُ الأوروبيون باليهود، وفي ملخصٍ جَديرٍ بالذِكر وَضَعَ التقرير ذلك التاريخ:

"نَظَرَ الحكامُ المسيحيون إلى اليهود كلما أرادوا المال، ولكن على الرغم من فائدتهم إلا أنهم لم يكونوا مَحبوبين. تَبتَعد الغريزةُ الشعبية عن كل ما هو غريب، واليهود كانوا غرباء، غرباء في أشكالهم وانعزاليتهم وتمسكهم بإيمانهم الخاص، وأكثر من ذلك فقد كانوا أسوأ الكفار في نظر الكنيسة... وخَلفَ كل ذلك كانت هناك الفكرة العامة أن جميع اليهود في كل مكان وزمان يَحملون خطيئةَ صَلْبِ المسيح.

ظَهَرَ هذا الشعورُ المُركَّب من الكراهية في فترة الصليبيين. انصَبَّتْ كراهيةَ الصليبيين على اليهود بقدر ما كانت على المسلمين، وسرعان ما أصبح قَتلُ اليهود في أوروبا من أعمال التَّقوى الدينية مثلما كان قَتلُ المسلمين في الأرض المقدَّسة. انتشَرتْ موجةٌ من الاضطهاد المتزايدِ القسوة في كافة أرجاء أوروبا الغربية، تمّت مُصادَرةُ أملاكِ اليهود في انكلترا أولاً ثم في فرنسا وتم تَعذيبهم وقَتلهم وأخيراً طَردهم من البلاد"[275].

كُتِبَ كل ذلك بالطبع قَبلَ أن تَتضِحَ أهوالُ المَحرقة اليهودية.

حسبَ تقريرٍ انكليزي نصف رسمي "أثَّر صعودُ الروحِ الوطنية في فلسطين بقوة على الحالة الدينية، كما هو الحال في كل مكان. لم تَضعف المشاعر الدينية بل تَغيَّرتْ ولم تَظلَّ متحَكمة مثلما كانت. اختَفى الانقسام بين العرب المسيحيين والمسلمين الذي كان موجوداً تحت حكم الأتراك في فلسطين، وبَدؤوا يَعمَلون معاً ويَشتَركون في أهداف الاستقلال والوحدة نفسها... ولكن على الرغم من هذه النّزعة فإن الزعماء العرب في فلسطين نادراً ما نَجَحوا في تأسيس حركةٍ وطنية قوية مثلما حدَثَ في مصر"[276].

لم يكن السكانُ العرب جاهزين، ففي سنة 1941، أي بعد عشرين سنة من استلام البريطانيين من عصبة الأمم مهمةَ "رفع مستوى" السكان، التي كانت مُبَرّر الانتداب، لم يذهب إلى المدرسة سوى واحد من كل أربعة أطفال عرب. ولا بد من القول عن العلاقة العامة بين الشمال والجنوب بأن هذه النسبة الضئيلة هي أكبر بكثير مما كانت عليه الحال في الهند والعراق ومستعمَرات بريطانيا في أفريقيا. من الصعب تَجنّب الحكم بأن أحد جوانب الحكم الامبراطوري كان إضعاف السكان المَحَليين سواء أُطلِقَ عليه اسم الانتداب أو الاستعمار.

عَقَدَ الفلسطينيون ما أسموه مجلساً وطنياً سنة 1920 في محاولة للتوصّل إلى سياسة وطنية. ولكن المجلس جسَّد حقيقة أنه لم تكن هناك أمّة فلسطينية، بل أن ما زُعِمَ أنه أمّة كان بشكلٍ أساسي تمثيلاً لأحد الفئات الفلسطينية الرئيسية وهم الحُسَينيون. إلا أن المجلس نجح في تأسيس لجنة تنفيذية كذراعٍ فاعلة في معارَضة الانتداب البريطاني. وسَّعَتْ عضويتها في السنوات التالية لضَمِّ فئاتٍ فلسطينيةٍ أخرى، ثم طالَبتْ بتأسيس برلمان ووَقفِ الهجرة الفلسطينية. في سنة 1935 كان هنالك ستة أحزابٍ سياسية تعمل بشكل قانوني ولكنها جميعاً كانت صغيرة نسبياً. في السنة التالية نَجَحوا في خَلقِ تَحالُفٍ عُرِفَ باسم اللجنة العربية العليا وكانت مهمتها التَّفاوض مع حكومة الانتداب.

اللجنةُ العربية العليا، التي انسَحبَ منها أحدُ أعضائها فوراً، طلَبَتْ أن توقِفَ حكومةُ الانتداب جهودها في فَرْضِ إسرائيل في فلسطين أو تقسيم الدولة. لم يَعبَأ بهم أحد في الحكومة البريطانية، ولذا فقد التَقَطَتْ هذه القضايا جهاتٌ أخرى. جَرَتْ محاولةٌ للتوصل إلى حلٍ وسط أو على الأقل لتَنبيه الحكومةُ إلى موقفهم في يونيو 1937 عندما قدَّم 137 قاضياً ومسؤولاً كبيراً كانوا يَعملون في حكومة الانتداب البريطانية تصريحاً أيَّدَه 1200 مسؤول عربي من مراتب وظيفيةٍ أقل. لم يكن إعلان مطالب وطنية بل طَلَباً للرحمة. شَهدوا بأن:

"السكان العرب من جميع الطبقات والمذاهب والمهن ينتابهم شعورٌ عميق بالظلم الذي أُحيق بهم، وهم يَشعرون أن تَظلماتهم العَادلة لم تَلقَ اهتماماً كافياً في الماضي على الرغم من أنها بُحِثَتْ من جهة مُحَققين رَسميين قديرين وأنهم دافَعوا عن هذه التَّظلمات إلى حدٍّ كبير. ونتيجةً لذلك فإن العرب قد أصبَحوا في حالةِ يأس"[277].

لم يتحرك البريطانيون بدافعٍ من العَطف والشفقة ولكنهم أرادوا إيجاد طريقة للخروج وخفض إنفاقهم فقد أثبتَتْ فلسطين أنها أقل مستعمَراتهم فائدة، ولذا أرسَلوا لجنةَ استقصاءٍ أخرى إنما هذه المرة أثقل وزناً وهي اللجنة المَلَكية سنة 1936، وجَدَت اللجنة أن:

"تَطَوَّرَ صراعٌ لا يمكن كَبحُهُ بين الجماعتين الوطنيتين داخل الحدودِ الضيقة لوطنٍ واحد صغير. حوالي مليون عربي هم في صراع مَفتوح أو كامِن مع 400,000 ألف يهودي. لا توجَدُ أرضيةٌ مشتَركة بينهما. المجتمع العربي آسيوي في طبيعته بينما المجتمع اليهودي أوروبي. يَختلفون في الدِّين واللغة. حياتُهم الثقافية والاجتماعية وطرق تفكيرهم وسلوكهم غير منسجمة وكذلك طموحاتهم وآمالهم القومية. هذه الأمور الأخيرة هي أكبر عقبة أمام السلام... مَنَحَت الحرب (العظمى) ونتائجها آمالاً لجميع العرب بإحياء أمجاد الزمن العربي الذهبي في عالَمٍ عربي حُرٍّ ومُوحَّد... والعرب هم خارج التَّصور اليهودي مثلما كان الكنعانيون في أرض إسرائيل القديمة... في الفترة السابقة لم تكن العَداوة ضد اليهود منتشرة بين الفلاحين، بينما هي عامة الآن. ستستمر شدةُ الصراع... والوضعُ السَّيء الآن سيزدادُ سوءاً"[278].

وذلك ما حدَثَ بالفعل.

بعد نَشرِ تقرير سنة 1937 الذي دَعا إلى خسارة العرب أغلب الأراضي الجيدة في فلسطين والتَّرسيخ الدائم لمستعمَرةٍ يهودية كبيرة كانت تتحَول عَلَناً وبدون أي شك إلى تأسيس دولة، تَطَوَّرتْ لدى نسبة كبيرة من السكان العرب ما يمكن أن نسميها بالوطنية. ومثل أغلب الحركات الوطنية، اتّسَمتْ أولى بوادرها بالعنف.

حاوَلَ الفلسطينيون الوطنيون بالأسلحة والقنابل تحقيق ما فشلوا في تحقيقه بالمفاوضات. وردّاً على ذلك استَبدَلَت الحكومةُ البريطانية المندوب السّامي الذي كان يُشَجِّع المفاوضات وفَرَضَت الأحكام العرفية وقانون الطوارئ بمحاكم عسكرية لا يمكن استئناف أحكامها. وخلال سنة 1938 تمت محاكمةُ 382 وطني عربي وأُعدِمَ منهم أربعة وخمسون. استَقدَمَ البريطانيون حوالي ثماني عشرة ألف جندي وثلاثة آلاف شرطي تدعمهم الطائرات والمدرعات والمدفعية، بل واستَدعوا أيضاً مدَمرةً من البحرية المَلَكية. بالنسبة للبريطانيين، لم يكن الفلسطينيون وطنيين بل إرهابيين. قامَ البريطانيون أيضاً بتسليح وتدريب خمسة آلاف من قوات الميليشيا الخاصة من المجتمع اليهودي. خلال سنة 1938 وحدَها قَتَلَ الجيشُ البريطاني وقوات الميليشيا اليهودية حوالي 3500 فلسطيني. وهكذا من أجل تحقيق "الأمن" أجَّجوا لدى العرب مَشاعر الوطنية والقومية.

من سخرية القدر أن اندلاع الحرب العالمية سنة 1939 أجبَرَ اليهودَ والعرب على تأجيل صراعاتهم وانضَمّوا لمساعدة بريطانيا. لم تستمر تلك الهدنة طويلاً. فبعدما أُبعِدَتْ قواتُ المارشال روميل Erwin Rommel عن أفريقيا ولم تَعد تشكّل خطراً على فلسطين، استَدارَتْ ضد البريطانيين قواتُ الميليشيا اليهودية التي سَلَّحَوها ودرَّبَوها لقتال العرب. جَهَّزَ الصهاينة جيشاً وطنياً (الهاغانا Haganah) ومجموعات إرهابية (الإرغون Irgun وما تفرَّع عنها، مثل الليهي Lehi التي تُعرف في الصحافة باسم عصابة شتيرن Stern Gang) ووجَّهوا قتالَهم ضد حكومةِ الانتداب الفلسطينية. في 8 أغسطس 1944 حاوَلوا اغتيالَ المندوب السّامي البريطاني باستخدام أسلحةٍ سُرِقَتْ من معسكرات بريطانية، وفي 6 نوفمبر اغتَالوا اللورد موين Moyne المسؤول البريطاني الأول في الشرق الأوسط. وفي الأشهر التالية خاضوا حرباً غير رسمية ولكنها عنيفة ضد البريطانيين.

بينما لم تتوصَل الحكومةُ البريطانية إلى اتفاقٍ مشترك مع العرب، توجَّهَتْ ضد الصهاينة. استَنكر وينستون تشرشل في البرلمان هجمات الصهيونية وسَمّى الإرهابيين اليهود "مجموعة جديدة من رجال العصابات تَستَحق ألمانيا النازية... يجب تدميرها وخلع جذورها وأغصانها"[279]. وعلى الرغم من أن تشرشل لم يَتحدَّثْ عن المقارنة، إلا أن الاختلاف بين إصرار الصهاينة وضَعف الفلسطينيين كان واضحاً، وسيُصبح أكثر وضوحاً في الأشهر التالية. في 22 يوليو 1946 قامَتْ عصاباتُ الأرغون والليهي بموافقة الهاغانا بتفجير فندق الملك داوود الذي تُقيمُ فيه الإدارة البريطانية وأصبَحت القدس بَحراً من الأسلاك الشائكة[280].

كانت الحربُ ضد البريطانيين حقيقية، إلا أن ما كان أكثر أهمية بكثير بالنسبة للصهاينة هو تَدميرُ المجتمع العربي. كانت الأعمال الإسرائيلية التي سأناقشُها في الجزء الرابع قد تم تَخطيطها قَبلَ الحرب بكثير. من المعروف الآن أن الصهاينة كانوا قد قرَّروا في سنة 1937 طَردَ جميع العرب من فلسطين. وبما أن ذلك مخالفة للقانون الدولي وجريمة ضد الإنسانية فقد تمّ إنكارُ الخطة وخطوات تَنفيذها لسنواتٍ طويلة[281]. تم إلقاء اللوم في هجرة الفلسطينيين الكبيرة على أوامِر أصدَرَها القادةُ العسكريون العرب أو على الدعاية العربية. أما الهجماتُ اليهودية التي لم يمكن إنكارها، مثل مَذبَحة قرية دير ياسين في 10 أبريل 1948 قبل خمسة أسابيع من نهاية الانتداب، فقد تمَّ وصفُها رسمياً بالحوادث المؤسِفة. نَعرفُ الآن بفضل البحث الذي قامَ به اسرائيليان في السِّجلات الإسرائيلية أن دير ياسين لم تكن حادثةً ولا واقعةً منفردة بل واقعةٌ من عشراتٍ غيرها في حَملةٍ مُخَطَّطةٍ دقيقة تمّ تَصميمُها من أجل التَّطهير العِرقي في فلسطين[282]. طُرِدَ خلال الحَملة حوالي ثمانمئة ألف قروي خارجَ منازلهم. كان أكمَلُ تدميرٍ شاملٍ لمجتمعٍ عُرِفَ حتى ذلك الوقت، وجَعَلَ الاستيلاءَ على الأراضي من أهلها في الجزائر يبدو باهتاً بالمُقارنة. كان كذلك أوضح مثال على مَدى التَّأثير السَّاحق لشعبٍ من الشمال العالمي على شعبٍ يعيشُ في الجنوب. بل تمادتْ غولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل السابقة لدرجة أنها أنكرتْ وجودَ الفلسطينيين بقولها:

"لا يوجَدُ شيء اسمه الفلسطينيون. لم يكن الأمر أنه كان هنالك شعبٌ فلسطيني في فلسطين يَعتَبرون أنفسَهم شعباً فلسطينياً ثم جئنا نحن وألقَينا بهم إلى الخارج واستَولينا على البلاد منهم. لم يوجَدوا أصلاً"[283].

لم تنته بعد قصة الفلسطينيين. ستأخذ أشكالاً أخرى فيما بعد، إلا أنني سأستديرُ الآن إلى الأحداث التي أدَّت إلى تَحوّل الامبراطورية المَديدة التي كانت عظيمةً في أغلب الأحيان والتي كانت فلسطين جزءاً منها، الامبراطوريةُ العثمانية التي ستولَدُ منها تركيا.

الفصل الواحد والعشرون

تركيا وأتاتورك

يُعرَفُ في كل مكان باسم "أتاتورك" أي "أبو الترك" وهو لقبٌ مَنَحَهُ له البرلمان التركي سنة 1934. ولِد مصطفى كمال سنة 1881 في سالونيك التي كانت آنذاك مدينةً عثمانية فيما هو الآن اليونان. بدأ مِهنَته العسكرية في مدرسة ثانوية عسكرية عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة، وعندما بلَغَ الرابعة والعشرين كان قد انخَرَطَ في حركةٍ سياسية سرّية معارِضة للنظام العثماني مثل كثير من الضباط العثمانيين الشباب. في اليوم الذي تخرَّجَ فيه من الكلية الحربية قبَضَ عليه البوليسُ السياسي ولكن تم إنذاره وأُطلِق سراحه بعد أن قَضَى بضعة أسابيع في السجن وأُعيد إلى الجيش. لم يَأبَه بالإنذار وعندما أُرسِلَ إلى دمشق ساعَدَ على تأسيس واحدةٍ من الجمعيات السرّية الكثيرة التي انتشَرتْ في الجيش العثماني[284].

على الرغم من صغر سنه عندما بدأ نشاطاته السرّية كان مصطفى كمال واحداً ممن يمكن اعتبارهم الجيل الثاني. كان الضباط (الذين أصبحوا أساتذته ثم أصبحوا منافسيه) وطلابُ الكليات العسكرية يَنشَطون للانقلاب على الحكومة العثمانية منذ أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر. حاوَلَتْ مجموعةٌ من الضباط الانقلابَ على السلطان سنة 1896 ولكن الانقلابَ فَشِلَ لأن واحداً منهم تمَّتْ خديعته لإفشاء الخطَّة، وتم القَبضُ على جميع المتآمرين. ومن الغريب أنهم لم يُعدَموا بل تم توزيعهم في أنحاء الامبراطورية لمنعِهم من التنسيق فيما بينهم. كانت هذه خطيئة عظيمة بالنسبة للنظام: فقد نَشَروا أفكارهم الوطنية الإصلاحية بشكل واسع.

عندما يصبحُ فَشَلُ خطةِ الانقلاب واضحاً يَميلُ الناسُ إلى التَّبجُح بأهميتهم، ومن الأسهل أن يفعَلوا ذلك بإظهار معلومات داخلية، وعلى العكس، فالطريقة السهلة للحصول على المعلومات هي التَّشكيك بأهمية الشخص الآخر أو التَّظاهر بالتعاطف معه[285]. الكتمان هو دائماً الضرورة الحركية المطلقة في النشاطات السرّية. قد تكون التسريباتُ محرجةً في أمور الحكومة، ولكنها في الحركات السرّية أو المنظمات التخريبية قد تؤدي إلى الموت، ولذلك تبذل المنظمات العَلَنية والسرّية وقتاً طويلاً وجُهداً ومالاً كثيراً من أجل المحافظة على سرّية نشاطاتها. الطريقةُ التي تتبعها الحكومات وأعداؤها عادةً في حماية أنفسهم هي في حَصرِ المعلومات الحساسة بالأشخاص الذين يحتاجون إليها فقط مع إنكارها عند من لا يحتاجون إليها. الأرقامُ مفاتيح هامة كما قال بنيامين فرانكلين

ساخراً: "يستطيع ثلاثةً أن يحتَفظوا بسرّ إذا كان اثنان منهما ميتين". في الصفحات التالية سنرى إخفاقاتٍ عديدة تُنَبِّهُ إلى تَحذير فرانكلين.

تَستخدمُ الحكوماتُ وأعداؤها وسائل أخرى لحماية أنفسهم. يرجع استخدامُ الشيفرة إلى قدامى الإغريق، إلا أنها معرَّضَة للاختراق ولا تستطيع حماية شيء سوى الوثائق[286]. لحماية المعلومات الشفهية والمادية أو تلك التي تَظهَر بالأفعال والأعمال فإن الوسائل الأكثر فاعلية هي تشجيع الأشخاص الذين يَحملون معلومات حساسة على عدم الإفصاح عنها أو كشفها. والهدف هو التأكيد عليهم بأن واجبهم هو حماية ما يَعرفونه. يتم التوصل إلى ذلك بوسائل رسمية مثل مراسم وطقوس القَسَم.

في الجمعيات السرّية تؤدى هذه الطقوس بشكل دراماتيكي ما أمكن. وكما هو مُتوقَّعٌ فقد بَرَعَ في ذلك أهل جنوب إيطاليا، خاصة صقلية. ونحن نعرف بقَسَم الدَّم عند المافيا من السينما على الأقل. وقد مارَسَ المَاسونيون الأحرار في بداياتهم وحتى الآن بدرجة أقل مثل هذه الطقوس. في القرن التاسع عشر قامَتْ جمعيةُ الكاربوناري الإيطالية السرّية بوضع نمطٍ أثَّرَ على الثوار الأتراك بطقوس مُفَصَّلة. كان على الأعضاء الجدّد الخضوع لتجارب دراماتيكية لاختبار ولائهم وضمان استمراره.

الضباطُ الذين أَلَّفُوا الجمعيةَ التي تُعرَف باسم "تركيا الفتاة" أو جمعية الاتِّحاد والتَّرَقي أضافوا إلى طقوس القَسَم ضمانتين: الأولى هي أن يخضَعَ المُتَرشحُ إلى العضوية لفترةٍ من الانتظار والمُراقبة. والثانية هي أنهم نظَّموا أعضاءهم بشكل خلايا تتألف كل منها من أربعة أو خمسة أعضاء يتواصَل واحدٌ منهم فقط مع مُرشِد أو قائد[287]. تفسِّرُ هذه الطرق التي اتَّبعها الشبابُ الأتراك سبب عدم توفر معلومات كثيرة عن هذه الفترة من نشوء القومية التركية. كان مصطفى كمال ومجموعة الضباط الذين بَرَزوا في جمعية الاتحاد والترقي يَتحدَّثون إلى بعضهم بعضاً بشكل رئيسي، ولا نَعرفُ كثيراً عما كانوا يقولونه ولكننا نعلم أنهم تأثَّروا جميعاً وتَصَرَّفوا بتنسيقٍ مع ضياء جوك ألب Ziya Gokalp المُنَظِّر الإيديولوجي للقومية التركية.

كما بَيَّنَ في كتاباته ومحاضراته فإن "تركية جوك ألب"، التي بحثتُها في الفصل السادس عشر، كانت تَستَند إلى أساسٍ لغوي. فقد أصبح الناس "أتراكاً" لأنهم منذ طفولتهم قد تم تشكيلهم بتكرار قصص وأغاني وأساطير خرافية باللغة التركية. وعندما يَكْبرون يَتَبَنّون الأعراف والعقائد التي تُمَيّزهم عن غيرهم وتَجمَعهم مع الذين يشتركون معهم بهذه الأعراف والمعتقدات. هويتهم القومية ليست عِرقية بل إن ثقافتهم المُحدَّدة تتركَّزُ بالممارسة في مجموعةٍ معيَّنة نسميها وتسمي نفسها: التّرك. وهي أيضاً ليست مرتَكِزة على الاختيار الواعي، كما هو حال معظم المشاعر القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر، فالتركي هو تركي ليس لأن أحداً أقنَعَهُ بأن يكون تركياً بل بسبب عملية تكوينٍ وتشكيل خارجة عن إرادته. ولذا سيكون جهدنا عَبَثيّ ضائع إذا أردنا البحثَ عن مجموعةِ أدبٍ قومي تهدف إلى إقناع الجماهير: فالقومية هي نتيجة الظروف التي ولِد فيها المرء ونَشَأ وتَرعرَع وتَطوَّر. على الرغم من أن النّزعة التركية لم تأخذ شكلها النظري الكامل حتى نهاية

الحرب العالمية الأولى، إلا أنها أصبَحتْ إيديولوجية الحركة التي أدَّتْ إلى استبدال الامبراطورية العثمانية من دولةٍ متعددة القوميات إلى الدولة التركية العَلمانية المُنسَجمة نظرياً. تَجسَّدتْ تلك الدولة بمصطفى كمال أتاتورك.

في توازنٍ مع هذه الهوية كانت هنالك هوية تقليدية تستند إلى الدِّين، كانت "طريقة" الامبراطورية العثمانية التي كانت بالضرورة منذ نشأتها مجموعةَ "أممٍ" مختلفة متعددة اللغات والثقافات. كانت هذه المجموعات غير المسلمة العِرقية أو الدينية تسمى "المِلَل" في اللغة التركية وكذلك في الشريعة الإسلامية، وكانت شبه مستقلة في المُمارسة العثمانية. كانت مؤسساتها موجودةٌ بالتوازي وبشكل منفصِل عن المؤسسات الحكومية التي كانوا يَدفعون لها الضرائب، والتي تَضمن لهم درجةً مقبولة من الأمن الاجتماعي، على أن يتجنبوا التَّدَخل

في القضايا الخارجية الخطرة. لم يَخدم أفراد المِلل المختلفة في القوات المسلحة ولم يُتوقَّع منهم أن يَشعروا أو أن يُظهِروا الولاء للدولة أو للأتراك. كانت "الأمّة" المُسيطِرة هي جماعة المسلمين، ولم يفكّر المسلمون بأنها "مِلّة". بل كانت النظام والمجتمع والدولة والجيش، وكان المسلمون غير الأتراك جزءاً منها. على الرغم من رَسمِ فوارق مؤكَّدَة بين الترك والعرب والبربر والكرد والشركس وغيرهم، إلا أنهم شاركوا جميعاً في مؤسسات "الأمة" المسلمة. كانوا "عثمانيين" ولم يكن لديهم مؤسسات منفصلة. وكان ذلك، كما بينتُ سابقاً، سبب عدم وجود خبرة لدى المجتمع الفلسطيني المسلم في إدارة أموره بشكل مستقلّ منفصِل مثل المِلل المسيحية المختلفة فقد أدارَتْ المؤسساتُ العثمانية الجيشَ والشرطة والمدارس والجوامع وجميع المؤسسات العامة الأخرى.

اعتَبرَ العثمانيون الأساس الإسلامي للامبراطورية أمراً مقدَّساً بشكل عام. حتى أولئك الضباطُ الشبان الذين أصبح اسمهم "تركيا الفتاة" الذين أرادوا تَغيير السلطنة (من جوانبها الدنيوية) كانوا يُصِرّون على المحافظة على أساس الخلافة (من جوانبها الدينية). لدى قراءة تصريحاتهم وكتاباتهم الأخرى يتَّضِحُ أنهم لم يرسموا خطوطاً فاصلة حادة بين ما هو معروف تقليدياً بالدين والدنيا، أي بين العقائد والأعمال الدينية في مقابل شؤون الحياة. لم يكن ذلك مبدأً جديداً بل كان موجوداً في الإسلام منذ أن حَكَمَ محمد في المدينة.

كان اسماعيل أنور من أشهر الزعماء بين أفراد الجيل الجديد من الناشطين الأتراك. حارَبَ الطليان في ليبيا والدول الأوروبية الانفصالية في حرب البلقان الأولى (من أكتوبر 1912 حتى مايو 1913)، وسيُصبح الحاكم الفعلي للامبراطورية خلال الحرب العالمية الأولى وداعمها الأقوى. وبالفعل فقد تزوجَ من العائلة الحاكمة، وعندما انهارَت الامبراطورية فإنه سيقود "جيش الاسلام" في القوقاز وفي آسيا الوسطى عندما بدا أن الثورة الروسية يمكن أن تكون فرصةً لاستعادة الامبراطورية العثمانية. قَتَلَتْهُ كتائبُ الجيش الأحمر سنة 1922 في آسيا الوسطى المسلمة بينما كان أتاتورك يجَمَع الأمّة التركية الجديدة في الأناضول. يمكن اعتبار أن شخصياتهما وسيرتهما وأتباعهما تُمَثِّلان جناحَي الانتقال من العثمانية ذات الأساس الديني إلى تركيا القومية العَلمانية. كان أنور العثماني الإسلامي بينما كان أتاتورك القومي التركي العَلماني. هذه طريقةٌ مناسبة للنظر إليهما، ولكن في ذلك الوقت تَداخَلَتْ سيرتهما وأفكارهما، وقَضَى كلاهما شَطراً كبيراً من حياته في القتال من أجل الامبراطورية العثمانية.

اعتَدنا طويلاً أن نُصَنِّفَ الامبراطورية العثمانية على أنها رجلُ أوروبا المريض المتسلط الفاسد، ولكن هذا الوصف مبالَغٌ فيه، فقد مُنِحَ السكان غير الأتراك فيها درجةً من الحرية والأمن أكبر بكثير مما اختَبرته الأقلياتُ في كثير أنحاء أوروبا المسيحية المعاصرة لها. وعلى الرغم من كونها فقيرةً بالرجال المدرَّبين وبالمال، إلا أنها تمكَّنَتْ من السيطرة بقليلٍ من التكاليف على منطقةٍ واسعة متنوعة. كانت تلك ميزةٌ لم يَتمتَّع بها وارثوها الأكثر ثراء منها بكثير.

عندما بدأ الشابُ مصطفى كمال خدمته العسكرية لم يكن معجباً بفضائل الامبراطورية. ففي نظره كانت بمثابة كابِحٍ أبطأ الحركةَ نحو التَّحديث وحَرَمَها الوصول إلى القوة. اشترك مع الأوروبيين في اعتبار حكومَته رجل أوروبا المريض، وظَلَّتْ تلك قَناعته طوال حياته. وهكذا نَشِطَ منذ البداية في تشكيل مجموعات أو لجان مع زملائه الضباط للانقلابِ عليها.

عندما بدأ في الانخراط جدّياً بنشاطات سرّية كان مصطفى كمال متمركزاً في سورية، ووَجَدَ ذلك محبِطاً لأن أغلب المتآمرين الأكثر خبرة ونشاطاً كانوا متمركزين بعيداً في سالونيك. ولذا قرر أن يخاطر بالسفر إلى هناك وغادر مركزه بدون إذن. لم يكن هنالك طريقة آمنة للسفر، فلو رحل عبر أقصر الطرق عليه أن يمر في اسطنبول حيث يمكن أن يُكتشَف. ولذا فقد هرَّب نفسه عن طريق مصر، وعندما وصل إلى سالونيك كان عليه البقاء هناك فترة كافية لإقناع الضباط الأتراك الأكثر خبرة المتمركزين هناك بأنه ليس جاسوساً بل نَصيراً مفيداً. لم يكن ذلك سهلاً لأن ما كان يحاول اكتشافه هو بالضبط ما كانوا يحاولون إخفاءه: كيف ينظِّمون أنفسهم وكيف يخطِّطون عملهم. لم يكن لديه كثير من الوقت، فلو بقي طويلاً في المدينة التي وِلِد فيها وحيث يوجد له أقرباء فسيكتشف أمره. وبالفعل كاد أن يُقبَضَ عليه. خلال فترة الأربعة أشهر التي مَنَحها لنفسِه قيل أن شرطة الأمن قد اكتشَفت أمره، فهرع بسرعة عائداً إلى مركَزه في سورية خائفاً. وهناك حَمَاهُ مِنَ الشرطة زملاؤه العسكريون المتشَوقون لسماع أخباره.

كانت سالونيك مركز الأحداث، ونجح في نقل نفسه إليها. كان مصيباً. كان أعضاء جمعية الاتحاد والترقي يُحَضِّرون بنشاط لحركة 1908 ضد السلطان عبد الحميد الثاني. انضم إليهم فوراً ولعب دوراً صغيراً في الانقلاب. وعندما نجح اكتشف أنه لا يتفق مع زعماء الجمعية، فقد أرادوا إصلاح الامبراطورية بينما أراد هو إنشاء نوع آخر من الدولة. كاد ذلك الاخلاف أن يؤدي إلى نتائج كارثية بالنسبة له، ولكن يبدو أن مشاعر الزمالة لدى أعضاء اللجنة منعتهم من تطبيق تصرفات عِقابية، وبدلاً من طردِهِ أُرسِلَ في رحلة قصيرة إلى ليبيا سنة 1908.

يبدو أنه قد تم العفو عنه عندما عاد من ليبيا لأنه خَدَمَ كرئيس أركان الحملة التي قَمعَتْ محاولةً انقلابية مضادة. ولكن مهامه في السنوات التالية توحي بأن قادة الانقلاب قرروا إبقاءه بعيداً عن مركز القوة. لم يكن في أي تعيينٍ إهانةٌ أو تقليل من قَدْرِهِ إلا أن أياً منها لم يكن في موضِعٍ مهمّ مثلما ادّعى كتَّاب سِيرته دائماً فيما بعد. جاءتْ أولى مهامه العسكرية الجادة بعد ثلاث سنوات عندما عاد إلى ليبيا للقتال ضد الغزو الإيطالي.

كانت أفضل تشكيلات الجيش العثماني توضَعُ بالطبع في أخطر المواقع، أي على جبهة البلقان-روسيا، وكل ما تمكن الأتراك من توفيره لمواجهة الطليان في ليبيا كان بضعة ضباط وكتيبة

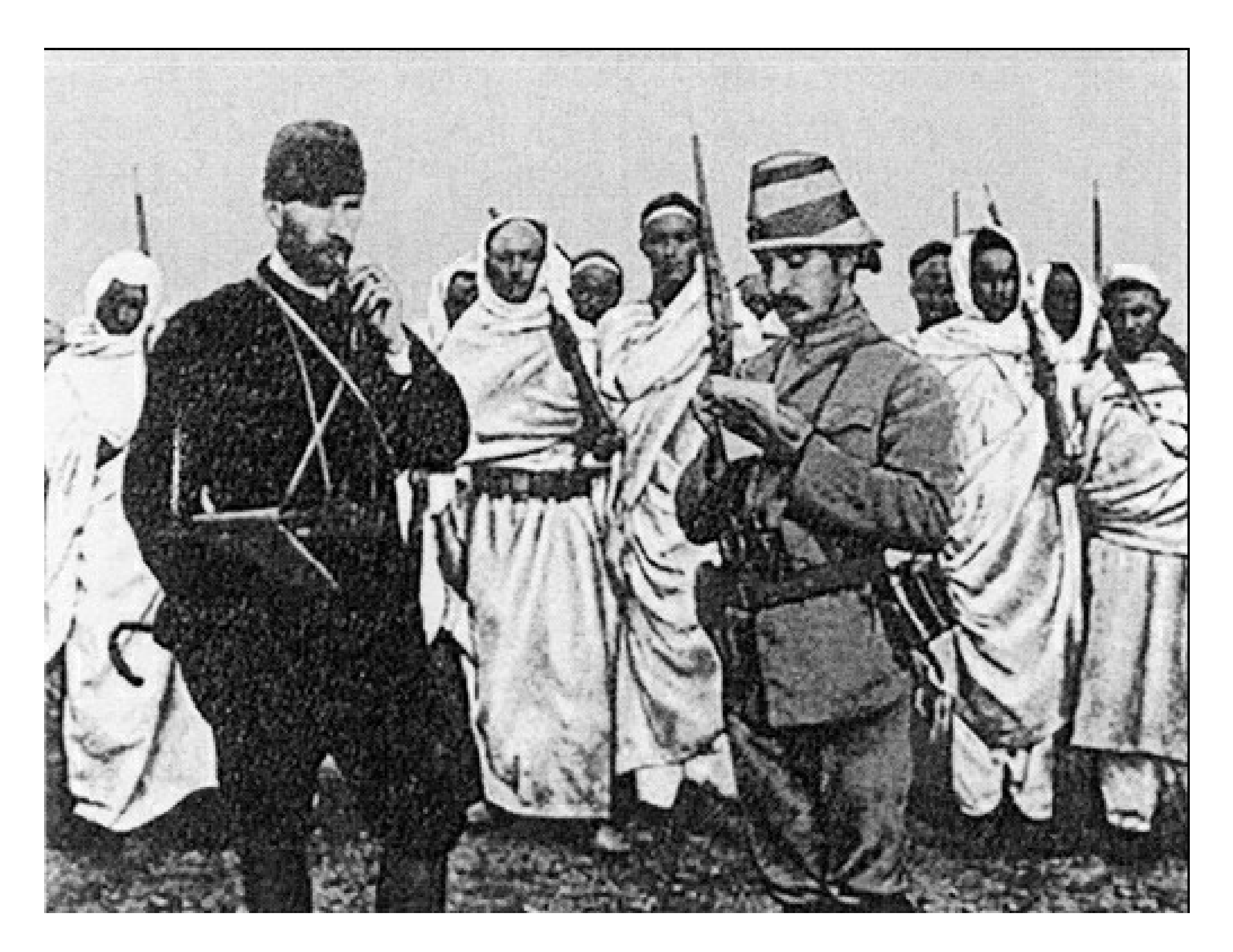
صغيرة من الجنود الأتراك كانت قد تُركت هناك قبل الحرب. ولم يمكن تموين حتى هذه القوة الصغيرة ولا دعمها لأن البحرية الإيطالية قطَعَت الطرق إلى ليبيا كما قطع البريطانيون الطريق البرية عبر سورية ومصر. وفي الواقع كان على مصطفى كمال وغيره من الضباط الأتراك التسلل إلى ليبيا متخفين بشكل بدو. ما أن وصل مصطفى كمال إلى هناك حتى اكتشف أن الطليان أفضل تسليحاً وتمويناً بكثير، كما كان لديهم بعض الطائرات التي يمكن أن تمنحهم القدرة على استكشاف الأوضاع مباشرة رغم بِدائيتها، كما يمكنها إلقاء القنابل. تَعرَّف مصطفى كمال على فاعلية القوة الجوية بشكل مؤلم فقد كاد انفجارُ إحدى القنابل الإيطالية أن يودي ببصَرِه. كانت أوامره تقضي بِجَلدِ البدو من أتباع الأخويّة السَنوسِية لكي يشكلوا جيشاً، ونفَّذَ هذه المهمة بنجاح وربح عدة معارك بل وصَمَدَ في مدينة درنة ضد هجماتٍ إيطالية عنيدة ومتكررة، صمد فيها حتى قرَّرت الحكومة العثمانية تحت ضغطٍ شديد من أتباعها السابقين في البلقان أن تتخلى عن ليبيا. لا بد من أن ذلك كان قراراً قاسياً على الضابط الشاب الطَموح.

استُدعِيَ مصطفى كمال مثل بقية الضباط الأتراك بسرعة لكي يشترك فيما يُعرَف بحرب البلقان الأولى والثانية. كان برتبة بنباشي (رائد) عندما أُمِر بالتمركز عند الممر المائي بين البحر الأبيض المتوسط والعاصمة العثمانية. كانت الممرات المائية الضيقة معروفة بأنها نقطة اختناق الامبراطورية العثمانية. في شبه جزيرة غاليبولي Gallipoli سنة 1915-1916 سيَصنَعُ سمعته عندما قَهَرَ الغزو الأنكلو-فرنسي.

كانت حملة غاليبولي إحدى أهم المعارك في التاريخ، ويبدو أن مصطفى كمال قد اعتَبرها بمثابة الدفاع عن العاصمة العثمانية. واعتَبرها البريطانيون والفرنسيون والروس من وجهة نظر مختلفة تماماً. كان الجيش الروسي الكبير يُشاغل تشكيلات ألمانية يمكن أن تتغلب على الجيوش الفرنسية والبريطانية المرهَقة المتعَبة إذا نُقِلت إلى الجبهة الغربية. فكَّر الاستراتيجيون البريطانيون والفرنسيون أن استمرار الروس في القتال كان يشكل الفارق بين الهزيمة المؤكدة والنصر الممكن. ولكن الجيش الروسي كان يتفكك، وكان في الحقيقة جائعاً. ولذا فقد اعتقد البريطانيون أنه لا بد من أن يشقوا طريقهم عبر المضائق. ولكن القوات العثمانية بقيادة مصطفى كمال كانت مُصِرَّةً على مَنعهم. وقد فَعلوا ذلك. كما ذكرتُ سابقاً فإن إغلاق العثمانيين للمضائق كان سبباً مباشراً للثورة الروسية على الرغم من أن أحداً لم يَعرف ذلك آنذاك. وذلك لأن إغلاق طريق الإمداد مَنَعَ وصولَ الطعام والسلاح والإمدادات إلى القوات الروسية، التي توقَّفَتْ عن القتال بسبب الجوع واليأس وعاد الجنود إلى الوطن. ولولا دخول أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء فلربما انتصرت ألمانيا. على الرغم من أن المعركة كانت صغيرةً إلا أنها كلَّفَتْ خسارةَ حياة أكثر من مئة ألف رجل وجرح مئتي ألف بالتساوي تقريباً بين المدافعين الأتراك والمهاجمين البريطانيين والفرنسيين. أصبح مصطفى كمال في غاليبولي بطلاً تركياً قومياً.

عندما انتهت الحرب عانَى مصطفى كمال مع كثير من الضباط الأتراك من عار احتلال الحلفاء لاسطنبول، ولكن غزو اليونانيين للأناضول حرَّضَه وحَفَّزه على القتال من جديد. كان أكثر الجيش العثماني قد تم تسريحه وتفرَّقتْ فيالقُ الضباط، فبدأ بتكوين نوع جديد من القوات: جيش المقاومة الوطنية. أعلَنَ أهدافه في تصريح هو الميثاق الوطني مما جعل الحكومة العثمانية المؤقتة

تطلب القبض عليه وإعدامه بضغط من الحلفاء. جَرَتْ محاولتان لاغتياله، تم ترتيب إحداها على يد المخابرات البريطانية[288].



مصطفى كمال (في الأمام إلى اليسار) الرائد الشاب في الجيش العثماني الذي سيتمكن من صد هجوم البريطانيين على اسطنبول في الحصار الكبير عند غاليبولي، ويقود رجال القبائل السنوسيين الليبيين ضد الإيطاليين في معركة طرابلس سنة 1912. أسس الجمهورية التركية ومُنِحَ لقب "أتاتورك".

أضاف بُعداً سياسياً لنشاطاته دون خوف، فجَمع مؤتمراً وطنياً غير رسمي انتخبه رئيساً، وباستخدام هذه المؤتمر كأنه حزب سياسي رشَّح نفسه ورفاقه في انتخابات إلى البرلمان المعتَرف به قانونياً وربحوا في الانتخابات أغلبية ساحقة استخدموها لتمرير الميثاق الوطني بشكل قانون. قامت الحكومة البريطانية العسكرية فوراً بحلِّ البرلمان، وبدلاً من الاستسلام تحرك مصطفى كمال ليشكل مؤسسة مستقلة خارج سلطة الحلفاء هي الجمعية الوطنية الكبرى في مدينة أنقرة الريفية القديمة، ويمكن اعتبار ذلك البداية الحقيقية لحياته السياسية العامة.

من الصعب أن نقرر بالضبط كيف كانت أعماله تُعبِّر عن رأي بقية الأتراك بسبب النظرة التقديسية التي حَمَلها المُحَلِّلون السياسيون عن مصطفى كمال فيما بعد. ولكن من الواضح أن أعماله

قد تم قبولها من جهة عدد كاف من الناس بحيث استطاع أن يُجَنِّد جيشاً، ويُنظِّم حكومة ابتدائية، ويَهزم القوات المسلحة الفرنسية-الأرمينية في الشرق والجيش اليوناني في الغرب، ويُجبِر جيش احتلال الحلفاء المنتصر وكذلك مناصريهم المحليين على الانسحاب. أدَّت هذه الانتصارات إلى توقيع معاهدة لوزان مع الحلفاء في 24 يوليو 1923 التي اعتَرفت بالجمعية الوطنية الكبرى كحكومة شرعية لتركيا. ومن المؤكد أنه قد أصبح بالفعل منذ ذلك الوقت ممثلاً لشعب تركيا.

في خطابه الشهير الذي استغرق ستة أيام سنة 1927، استرجع هذه الأحداث وقراره بحلِّ الخلافة-السلطنة وتأسيس الجمهورية. بدأ حديثه برسم الخطوط العامة للأوضاع التي بدأ فيها حملته لبناء تركيا الحديثة. من المؤكد أنه لم يبدأ زعيم سياسي سيرته الناجحة في مثل هذه السلبيات: "كان الجيش العثماني قد سُحق على كافة الجبهات، وتم توقيع هدنة تحت شروط قاسية. كانت الحرب العظمى الطويلة قد تركت الناس متعَبين وفقراء... لم يعد لدى الجيش أسلحة ولا ذخائر... ولم تَعتبر حكومة الوفاق أن احترام شروط الهدنة هو أمر لازم"[289]. وتابع في وصف احتلال الدولة، كانت الولايات الرئيسية تحت سيطرة البريطانيين والفرنسيين والطليان، وغزا اليونانيون من الجهة الجنوبية الغربية في إزمير. وفسَّر قائلاً: "كان الضباط الأجانب والمسؤولون وعملاء مخابراتهم الخصوصيون ينشطون في كل مكان"[290]. كانت قوة عسكرية أنكلو-فرنسية-أرمينية تعمل بالتعاون مع اليونانيين، وتم تشكيل عدد من المنظمات تحت حماية الحلفاء لتقسيم الأناضول إلى مقاطعات مختلفة. وبالطبع كانت الامبراطورية خارج الأناضول تُقَسَّمُ إلى العراق وسورية ولبنان وفلسطين والمملكة العربية واليمن. وكانت مصر وليبيا وتونس والمغرب قد ذهبت.

اتضح الأسلوب الخاص لمصطفى كمال وشخصية نظامه في العَقد التالي باستحوازه التام على السلطة: "ربما تَودون يا أعضاء الجمعية الوطنية الكبرى السؤال لماذا مَنحَني هذه السلطات الواسعة أولئك الذين أرسلوني إلى الأناضول ليبعدوني عن اسطنبول. والجواب هو أنهم لم يَعرفوا ما الذي كانوا يفعلونه... فقد أمليتُ الأمر الذي مَنحني السلطات الكاملة"[291]. وهكذا فقد مَنح نفسه القوة والسلطة لكي يفعل ما اعتقد أنه ضروري من أجل تركيا، وسيأخذه ذلك إلى جميع النشاطات التي نُرجعها إلى بناء الأمّة، ولكنه سيرتكز على فهمه الخاص للسيادة الوطنية كما وَصَفَ تغيير نظام الحُكم السابق:

"لا يمكن تغيير السيادة ولا نقل حق الحكم من شخص واحد لأي شخص آخر بالحوار الأكاديمي. يتم الحصول على السيادة بالقوة والعنف... الأمّة هي التي تثور الآن ضد أولئك المغتصبين (السلاطنة العثمانيين) وتضعهم في مكانهم الصحيح وتمسك بالسيادة. هذه حقيقة واقعة. لم تعد المسألة فيما إذا كنا نريد ترك السيادة في يد الأمّة أم لا. بل هي بكل بساطة تعبير عن الواقع، عن حقيقة قد تم تنفيذها بشكل واقعي ويجب قبوله كذلك دون أية شروط، ويجب أن يتم ذلك بأي ثمن"[292].

لم يكن الثمن ببساطة تغير دور الأمّة في السيادة، بل امتد إلى تغيير المجتمع في جميع تفاصيله كما تابع مصطفى كمال بقوله:

"أيها السادة، كان من الضروري إلغاء الطربوش الذي قَبَعَ على رؤوسنا علامة على الجهل والتعصب وكراهية التقدم والحضارة، وأن نستبدله بالقبعة وهي غطاء الرأس في جميع أنحاء العالَم المُتحَضِّر. وبذلك نُظهِر، بالإضافة إلى أشياء أخرى، عدم وجود فوارق في نمط التفكير بين الأمة التركية وجميع أفراد عائلة البشر المُتحَضِّرين"[293].

حان وقت "الرجال العظام". بدأ الزعماء من أمثال أتاتورك بالظهور بمظهر من يجسّد الأمّة. عندما نفكّر بروسيا تتبادر إلى ذهننا صورة جوزيف ستالين، وتَظهَر صورة أدولف هتلر كممثل عن ألمانيا، وبنيتو موسوليني عن إيطاليا، وفرانكلين روزفلت عن أمريكا، ووينستون تشرشل عن انكلترا. وفي إيران تَظهر صورة رضا بهلوي، الشخصية غير المعروفة التي سأبحثُها الآن.

الفصل الثاني والعشرون

رضا، شاه إيران

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى كانت أغلب مناطق إيران تحت الاحتلال العسكري البريطاني. أرادت ألمانيا قطع إمدادات البترول إلى البحرية الملكية وأرسلت إلى إيران عَميلاً لكي يعمل مثل لورنس العرب. فشل ويلهلم فاسموس Wilhelm Wassmuss لأن ألمانيا لم تستطع دعمه مثلما دَعَمت بريطانيا لورنس، إلا أنه تَملَّك روح قضيته بشكل أفضل من لورنس، مثلما أعلَنَه لرجال قبيلة الباختياري الذين كان يحاول إقناعهم بشنِّ حرب عصابات لقطع أمدادات البترول إلى البحرية المَلَكية:

"أيها الفُرس، لقد حان الوقت لكي تهبوا أنفسكم للقضية المقدَّسة. إذا جبنتم عن التضحية في وقت يُهدِّد فيه العدو الكافرُ الإسلامَ فما الذي ستقولونه للنبي يوم القيامة؟"[294].

تَنَبَّهَ البريطانيون إلى أنهم إذا خسروا الحصول على البترول الإيراني فقد يخسروا الحرب كما قال اللورد كورزن Curzon الأمبريالي البريطاني فيما بعد إنهم "أبحروا إلى النصر على موجةٍ من البترول". عرضوا جائزةً للتَّخلص من فاسموس حياً أو ميتاً، وكانت الجائزة كنزاً عظيماً بالنسبة إلى البدو الفقراء. وبالإضافة إلى كبر الجائزة فقد شكَّل البريطانيون قوة عسكرية محلية مثل تلك التي كانت موجودة في أرجاء العالَم الإسلامي، وكانت فرقة جنوب فارس التي تألَّفتْ من ستة آلاف رجل. وللتشجيع على التجنيد فيها، قَدَّمَ البريطانيون الملابس النظامية والمال والبنادق إلى رجال القبائل الجائعين. ستصبح هذه التكتيكات صلب سياسات قمع التمرد في أيامنا. وقد نجح ذلك في إيران وانهزمت مناشَدَة فاسموس الوطنية الدينية أمام الجشع.

فشلت الجهود الألمانية في تحفيز رجال القبائل الإيرانيين إلا أنها وضَّحَت أن استقلال إيران يهدد المصالح البريطانية. انضَّم الحصولُ على البترول الرخيص إلى المحافظة على الامبراطورية الهندية كواحد من المصالح البريطانية "الحيوية". تَبنَّى رجالُ الدولة البريطانيون دائماً استراتيجيةً امبرياليةً عظمى، وأرادوا شريطاً من المستعمَرات والدول التابعة يمتد من التيبت عبر آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط. تصَوَّروا أن السيطرة على تلك المنطقة سيَحمي الامبراطورية البريطانية في الهند، وأصبح البترول مَطلباً مُلِحَّاً الآن. لاقَت مصالحُ البريطانيين

صدىً لها بعد أربعين سنة في صناعة الأمريكيين لحلف بغداد، غير أن الأمريكان جَرَّبوا مقاربةً أكثر خفاء: بدلاً من السيطرة التي أصر عليها البريطانيون، تحدَّثوا عن اصطلاحات التحالف. كان الهدف من كلتا الطريقتين هو حماية المنطقة من اختراق قوات أوروبية منافِسة. كان ذلك ما أراد البريطانيون فعله بفرض اتفاقية على إيران سنة 1919، إلا أن البريطانيين آنذاك فشلوا في فهم أو إدراك التغيرات في الرأي والأفعال التي كانت تَحدُثُ في الجنوب مثلما فشلت أمريكا في ذلك تحت قيادة وزير الخارجية جون فوستر دالاس بعد الحرب العالمية الثانية. كتَبَ غافين هامبلي Gavin Hambly المؤرخ والدبلوماسي الانكليزي:

"الذي لم يتم فهمه أبداً في لندن هو أن الأحداث التي مرَّت خلال العشرين سنة الفائتة كانت قد دَمرَّت تماماً كل الثقة التي كانت بريطانيا العظمى تتمتع بها في إيران. بل على العكس فقد كانت العدوانية ضدها هي التي تظهر الآن بشدة متزايدة تعكس حرارة المشاعر الوطنية الجديدة ضد الغرباء، والتي كانت تمر دون أن يلاحظها المسؤولون البريطانيون في الشرق الأوسط الذين تعوَّدوا على العالَم القديم السهل قبل الحرب في عصر فيكتوريا وإدوارد للسلام البريطاني[295].

تركَّزت أحداثُ تلك الفترة على رجلٍ واحد هو رضا خان كما كان يُعرَف في سنواته الأولى، ويُقارَن غالباً بمصطفى كمال أتاتورك لأنه شارك جزئياً في خلق الوطنية الإيرانية ثم ركب مَوجَتها. مثلما كان أتاتورك يفعل في تركيا، انطلق رضا في جعل إيران دولة علمانية حديثة. كانت العقبات التي واجهها الرجُلان متماثلة: غزاة أجانب ومَحَلِّيون مُحافِظون. كان الهدف بالنسبة لرضا هو التخلص من معارضة رجال الدين وتجار السوق وزعماء القبائل، وتمكين فئة جديدة في مركز النظام من الوطنيين الذين يدعمون نظامه. إلا أن الطرق التي اتَّبَعها رضا كانت مختلفة عن تلك التي طَبَّقها أتاتورك.

ولِد رضا سنة 1878 قبل ثلاث سنوات من ولادة أتاتورك فقط، في قريةٍ في الجبال التي تُطِلُّ على بحر قزوين. لا يُعرَفُ كثيرٌ عن طفولته لأنه حاول أن يُخفي حقيقتها المتواضعة ويَستبدلها بأسطورة مَلَكية. ما هو معروف هو أن والده توفي بعد وقت قصير من ولادته وأن والدته أخذته لكي يعيشوا مع أقرباء في طهران. لم يبدأ بالظهور من خمول الذِّكر حتى بلغ السادسة عشرة من عمره حين انضم إلى فرقة القوزاق التي يقودها ضباط روس التي مَنحها أو أعارها القيصر إلى الشاه آنذاك. لم يتمتع بتدريب عسكري نظامي مثل أتاتورك ولم يكن عضواً في الجيش الوطني إلا أنه امتلك المهارة في استخدام المَدفع الرشاش "مكسيم Maxim" الذي كان يُعتَبر كثير الأهمية آنذاك وكان يُسمى "السلاح الذي يرتبط غالباً بالاحتلال البريطاني الأمبريالي"[296].

مهارتُهُ في استخدام هذا السلاح أعطته إضافةً لاسمه فأصبح يُسمى: رضائي مكسيم. لاحظ القادة الروس مهارته وإصراره وبدأ نجمه يصعد بين القوزاق، ولكنه بدأ يكره الروس مثل أغلب الإيرانيين الذين كان يخالطهم. مَنَحه قدومُ الثورة الروسية سنة 1917 الفرصةَ للتحرك ضدهم وللحصول على دعم أعدائهم البريطانيين. انتهز الفرصة واتهم قائدَه بأنه مؤيد للشيوعية. كانت تلك

الخطوة الأولى فيما أصبح حركة تطهير. عندما امتد حكم البريطانيين إلى شمال إيران بعد ثلاث سنوات أمروا الشاه بطرد جميع الضباط الروس.

ولكن البريطانيين احتاجوا إلى قوة عسكرية محلية في الشمال حيث كانت عصابات انفصالية مؤيدة للشيوعيين عُرفت باسم "الجانغاليز Jangalis" قد تمركزت في ولاية غيلان Gilan قرب بحر قزوين. أراد البريطانيون قمعَهم إلا أنه كانت تنقصهم الطاقة البشرية لأنهم احتفظوا بفرقة جنوب فارس لحماية المنشآت البترولية، ولذلك قرروا تجنيد جيش محلي جديد في الشمال، واختاروا رضا قائداً فقام بتجنيد القوزاق في قواته. وباستخدام الأموال البريطانية والأسلحة والدعم سار الشاب الطموح رضا نحو طهران، مثلما فَعَلَ بنيتو موسوليني في حملته ضد روما. كانت هناك في طهران وحدة كبيرة من الدّرَك بقيادة ضباط من السويد تم تجنيدهم لحماية الشاه، إلا أن البريطانيين أمروا ضباطهم بعدم التعرّض لتحركات رضا، كما "نصحوا" الشاه بقبول وصول رضا كانقلاب عسكري وتعيينه رئيساً لِما تمَّت تسميته بالجيش الوطني.

بذكاءٍ قامَ رضا بضَمِّ الدَّرَك إلى قوته القوزاقية (فيما عدا الضباط السويديين)، ثم في سلسلة من الحملات التي اختارها بعناية وكان متأكداً من نجاحها استطاع رفع معنويات ومهارات قواته. تمكَّن من احتلال مدينة تبريز في الشمال التي كانت تسعى للاستقلال كدولة أزاديستان Azadistan، وقَتَلَ زعيم حزب آزاد Azad Party، ثم وجَّه الضربة الأخيرة لنظام غيلان المؤيد للسوفييت، واتجه أخيراً إلى المنطقة الداخلية للخليج العربي حيث "صالَحَ" مجموعات القبائل الكبيرة297. قاد رضا في ذلك الوقت جيشاً من حوالي أربعين ألف رجُل. ولِمَنعِ القبائل من جَمعِ قوة منافِسة، كما كانت القبائل تفعل عادة في الماضي، قام بضم شبانهم إلى جيشه.

لم تكن أية قضية صغيرة في نظره، فقد قرر أن كل تفاصيل الحياة الإيرانية يجب وضعها في خدمة دعم الروح الوطنية أو منعها. بَدَتْ بعض أوامره بالنسبة للمراقبين الخارجيين تفاصيل هامشية أو غير مهمة ولكنه لم يَعتبرها كذلك. كان من بينها أن رضا طلب من جميع الإيرانيين اتخاذ اسمٍ للعائلة على النمط الغربي، واختار لنفسه اسم "بهلوي" الذي ظنَّ أنه سيربطه بحكام إيران القديمة. (مرر ذلك السلوك إلى ابنه محمد رضا الذي سيحتفل فيما بعد بمرور 2500 سنة على تأسيس إيران). كما أمر بارتداء الملابس الغربية ومَنَع النساء من ارتداء الحِجاب.

باختصار فقد فكَّر مثل أتاتورك بتحويل إيران إلى جمهورية، غير أنه اكتشف رجال الدين الإيرانيين كانوا غاضبين من هجوم أتاتورك على الإسلام وأنهم جعلوا كلمة "الجمهورية" اصطلاحاً غير محبّب. ولذا رتّب رضا في سنة 1925 لكي يقوم البرلمان الذي أصبح منضبطاً آنذاك بإلغاء حكم سلالة كاجار Qajar Dynasty وانتخابه لمنصب "الشاه". ربح بذلك تأييد المؤسسات الدينية إلا أنه أدرك فيما بعد أن نفوذ رجال الدين أكبر مما كان يظن، ولذا فقد حاول إضعافهم. مَنَعَ زعماءهم في البداية من زيارة قصره، وقد حطَّم ذلك حقيقة نفوذهم، والأهم من ذلك صورتها الظاهرية. توقف التجار عن اللجوء إليهم كوسطاء وتوقفوا عن دفع المال لهم. ثم ضرب المصادر التقليدية لثرواتهم، ففي سنة تتويجه أصدر قانوناً لتأسيس محاكم قانونية على النمط

العلماني الغربي بدلاً من المحاكم الدينية. فقد كان عمل رجال الدين كقضاة في المحاكم الإسلامية مصدر قوتهم وثروتهم. ثم نزع سيطرتهم على التعليم بحيث تقوم مؤسسة حكومية بتنظيم التعليم العلماني للشباب. وعندما ثبت نظام التعليم الجديد وبدأ الطلاب بالتقدم إلى المراحل العليا أنشأ جامعةً علمانية وطنية. وصادر في الوقت نفسه ثروة المؤسسات الوَقفِيَّةِ التي كان رجال الدين يديرون بها أمور الرعاية الاجتماعية. ظن أن يوم المؤسسات الدينية قد انتهى، وكذلك تصور معظم المراقبين لشؤون إيران. ستُظهِر ثورة 1978 كم كانوا مخطئين. إلا أنه في ذلك الوقت كان يبدو منتَصِراً على جميع أعدائه في الداخل.

بعد تخلصه من أعدائه في الداخل اتَّجَه رضا للتعامل مع "الدولة البريطانية داخل الدولة الإيرانية" شركة البترول الأنكلو-فارسية التي كانت تُدار وكأنها دولة منفصلة. كانت شركة البترول الصناعة الإيرانية الرئيسية وأكبر ربّة عمل فيها. إلا أنها كانت تدفع لإيران ثمناً قليلاً جداً للبترول الذي كانت تضخه من أرض إيران. صمم رضا على السيطرة عليها، وأعلن سنة 1932 أنه سيلغي الاتفاقية التي كانت تعمل في ظِلِّها.

لم تكن الاتفاقية مجرد عقد تجاري فقد كانت الشركة تابعةً للحكومة البريطانية في قلب الأمبريالية، فقد سيطَرت في إيران مثلما فعلَت شركةُ الهند الشرقية البريطانية أيام عزِّها في الهند. كانت مركزية في العلاقات البريطانية-الإيرانية: لا يمكن أن تكون إيران مستقلة أبداً دون السيطرة عليها، إلا أن التخلي عن الثروة التي تُنتِجها سيجعل بريطانيا دولةً فقيرة، على الأقل كانت تلك وجهة نظر كل من الحكومتين. تحرك رضا (بحذر) ليفرض قراراته بينما ردَّ البريطانيون (بغضب) وحاوَلوا إذلاله. أرسل البريطانيون اسطولاً حربياً صغيراً إلى الخليج العربي، مثلما فعلوا أثناء أزمة عَبَدَان بعد ذلك بثلاثين عاماً، وكما ستفعل الولايات المتحدة الأمريكية خلال إدارة الرئيس جورج بوش الابن. نجحت "سياسة السفن الحربية" وتراجع رضا ووافق على منح شركة البترول البريطانية ست سنوات أخرى.

على الرغم من تراجعه فقد تابعت إيران تدريجياً تطورها إلى دولة حديثة وارتفعت نسبة المتعلمين من سكانها سنة بعد سنة، وازدادوا غنى وتطورت نظرتهم إلى أنفسهم كمواطنين في الأمة. ثم توقف التطور فجأة عند اندلاع الحرب العالمية الثانية.

تخيل رضا في قراءته الخاطئة لحقائق القوة أنه يستطيع البقاء مثل تركيا محايِداً في الصراع بين الأعداء الأمبرياليين التقليديين، إلا أنه استيقظ على أوضاع عنيفة فقد غزت القوات البريطانية والروسية إيران في 25 أغسطس 1941 وأرسلت رضا إلى المَنفى. ولإرضاء الكرامة الإيرانية وافقوا على استبداله بابنه محمد. تم تحذير الأمير الشاب بضرورة تنفيذ ما يُطلب منه وألا يتدخل بنشاطاتهم. كانت نشاطاتهم تقتضي استخدام إيران تحت سيطرتهم كطريق لإرسال التموين والأسلحة والطعام إلى الاتحاد السوفييتي الذي كان يخوض المعارك. لقد تعلَّموا درسَ غاليبولي، وأُنقِذَت روسيا هذه المرة. إلا أن فترة الحرب في إيران ذاتها كانت فترة سيطرة الشمال العالمي التامة. وفي هذه المرة انضمت الولايات المتحدة إلى بريطانيا وروسيا.

اتَّجِهُ الآن إلى نتيجة أخرى لأمبريالية الشمال العالمي: تقسيم الهند. تجربة المسلمين في الهند التي أدَّت إلى تأسيس باكستان يجب أن يُقتَفى أثرها على مر فترة أطول ودراسة أكثر من رجل، ولكن كما سأُبَيِّن فإن دور محمد علي جناح في تأسيس الدولة الجديدة باكستان يمكن أن يُقارَن بدور مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، ورضا شاه بهلوي في إيران.

الفصل الثالث والعشرون

الإسلام في الهند وتأسيس باكستان

بعد إخماد أول حرب لاستقلال الهند التي تسمى ثورة 1857-1858 وبعد تطهير القوات المسلحة وقَتْلِ مئات الآلاف من القرويين المسلمين وتدمير الأطلال البائسة للامبراطورية المُغولية في الهند التي كانت قويةً مزدهرة ذات يوم، صمَّم الحكام البريطانيون على إعادة تنظيم الهند. كانت شركة الهند الشرقية قد أدّت دورها وكان لا بد من تأسيس علاقة أكثر استقراراً مع الحكومة البريطانية. تحقيق ذلك كان تحدياً كبيراً. تعلَّم البريطانيون أن هناك قليل من الهنود ممن يمكن الاعتماد عليهم في السيطرة على الآخرين. كان الجيش همُّهم الفَوري المُلِّح.

قبل الثورة كان تعداد الجيش الهندي 232,224 هندياً و45,522 انكليزياً، أي حوالي خمسة هنود مقابل كل أوروبي. على مدى السنوات الخمس التالية خُفض عدد القوات الهندية إلى النصف تقريباً بينما رُفع عدد الجنود الانكليز بحيث أصبح هنالك هنديين أو "رجال سود" كما سَمَّاهم البريطانيون مقابل كل "رجل أبيض"[298]. تم التَّخلي عن الوحدات من المجتمعات التي "لا يمكن الاعتماد عليها"، وازدادت الجهود لإبعاد القوات عن المناطق التي قد تكون لديهم فيها مصالح أو ولاءات، ووضعهم في ثكنات ومعسكرات منفصلة عن تجمعات السكان المدنيين. كان تنفيذُ هذه الإجراءات سهلاً لأن الجيش الهندي كان قد تم تنظيمه على يد شركة الهند الشرقية فرقةً فرقة على أساسٍ عِرقي أو ديني: فلا يعمل البُنجابيون مثلاً مع البَنغاليين. أدى ذلك التنظيم إلى تسهيل الثورة ولذلك قرر البريطانيون خلط الفرق العسكرية بحيث لا تتألف أية فرقة من فئة عِرقية أو دينية أو لغوية واحدة. ويتم تبديل المسلمين ما أمكن بفئات عرقية أخرى. تمت مراقبة القوات المسلحة بكل دقة لكشف أية إشارة تدل على التمرد، كما تم إرضاء غرور الجنود بالملابس الملَونة وزيادة الرواتب والأوسمة. وعلى الرغم من ذلك حدثت ست ثورات على الأقل خلال الخمسين سنة التي تلت ثورة 1857 [299].

في قراءتي لتقارير عن الخمسين سنة التي تلت ثورة 1854 فوجئتُ بالتناقض بين حدة النشاط السياسي حول الانقسام بين المسلمين والهندوس والتجنب النسبي لقضية الأمبريالية البريطانية من جهة زعماء الطائفتين. ركز البريطانيون اهتمامهم بالطبع على التحديات الهندية على الرغم من أنها كانت ضعيفة نسبياً، وتستحق هذه القضية الاهتمام. ظهر في التقارير ما يلي: كانت

الهندُ البريطانية دولةً عسكرية أنفقت على الجيش من إيراداتها على الأقل (حوالي 40% - 50% من مجموع الإيرادات) ثلاثة أضعاف مجموع ما أنفقته على الغَوث من المجاعة والريّ والتعليم. وجَنَّدت حتى في سنوات "السِّلم" حوالي 50,000 جندي في الأمن الداخلي يدعمهم أكثر من 150,000 من الشرطة و50,000 من الحرس المسلحين. علَّق جورج أورويل George Orwell، المعروفُ بانتقاداته القوية للطغيان الروسي ولكنه خَدَمَ خمس سنوات كشرطي في القوات الهندية، قائلاً: "الامبراطوريةُ الهنديةُ مستبِدةٌ، والعمود الفقري الحقيقي لاستبدادها هو الجيش"[300]. أو كما ذَكَرَ كاتبٌ انكليزي آخر: "بعد الثورة وتقوية الوحدات البريطانية بشكل كبير، أصبحت الهند ديكتاتورية عسكرية صريحة وصارت المحافظة عليها في النهاية باهظة التكاليف لدرجة مستحيلة"[301].

قال قائد الجيش الانكليزي إن الهنود "أطفال" في أحسن الأحوال، وعندما "يَخرجون عن السياق" يجب "ضَربهم"، وذلك لأن "عقلية الرجل الأسود (أي الهندي) تختلف جذرياً عن الرجل الأبيض"[302]. فُسِّرَ "الضرب" في قانون الجَلد بالسوط سنة 1864. ولم يكن عدد الهنود الذين تم ضَربهم بالسوط أقل من عشرين ألفاً، وبلغ في إحدى السنوات 75,223.

علَّقَ جنرالٌ بريطاني سنة 1921 "كان من الضروري إظهار القوة فوراً ضد الشرقيين"[303]. وكما بيَّنتُ سابقاً، ففي مجموع السياق الاجتماعي والسياسي والثقافي للهند البريطانية، مِنَ السَكَن إلى الأندية والتعامل الاجتماعي والطعام واللباس، كان الانكليزُ يُظهِرون ازدراءهم لمظاهر الهنود. كتَبَ الفيلسوفُ الإنكليزي جون ستيوارت ميل John Stuart Mill، الذي عمِل خمسة وثلاثين عاماً لدى شركة الهند الشرقية، عن الأمبرياليين الإنكليز أنهم: "مسلَّحون بالامتيازات ومشحونون بالاحتقار والتَّعالي على الأمّة المستعمَرة ولديهم مشاعر ألهمها الشعور بالقوة المطلقة دون أي شعور بالمسؤولية... يَعتقدون أن سكان البلد مجرد ترابٍ تحت أقدامهم"[304]. ومع ذلك فقد برَّرَ ميل الأمبريالية لأن السكان المَحَليين هم بالكاد بشر.

تم تلخيص سلوك ميل المتناقض بكلمات بسيطة من وارن هيستينغز Warren Hastings في مذكّراته يوم 2 أكتوبر 1813 عندما استلم مركزه كحاكم عام للهند، حين قال: "يبدو أن الهندي هو مخلوق محدود في مجال الوظائف الحيوانية، بل إنه يبدو مُهمِلاً حتى في ذلك. كفاءتهم ومهارتهم... لا تزيد عن براعة أي حيوان يواجه التحديات نفسها، إلا أن ذكاءهم لا يَتعدى ذكاء الكلب أو الفيل أو القرد"[305]. وقرب نهاية القرن في سنة 1883 تم إبلاغ ويليام بلنت William Scrawen Blunt وهو أحد النبلاء الأرستقراطيين الإنكليز أنه يجب ألا يَستقبِل مهراجا هنديّ هو أمير لاكناو لأنه إن فَعَلَ ذلك فستُغادر العائلات الانكليزية المجاورة[306].

من المدهش بشكل خاص هو أن أغلب الزعماء المسلمين والهندوس لم يَتعرضوا لسلوك حكامهم البريطانيين المعروف الواسع الانتشار. يمكن القول بأن الغالبية العظمى من الهنود لم يتعرضوا للازدراء الانكليزي لأنهم كانوا قرويين ونادراً ما التقوا بالانكليز من الرجال أو النساء.

تعوَّد الفقراء في نظام الطبقات الاجتماعي الهندوسي على القمع والظلم، وحتى قَبلَ الحكم البريطاني كان السكان منفصلين بسبب اللغة والدين والعِرق وصعوبة المواصلات. أدخَل البريطانيون هذه الانتماءات السابقة في صلب نظام حكمهم، وحرصوا على إبقاء الهنود في حالة من الجهل والفقر. وعلى الرغم من ذلك يصعب فهم عدم وجود مقاومة فعالة من جهة الطبقة العليا أو المؤسسات الدينية.

أعتَقدُ أن سبباً رئيسياً في ذلك هو أن الغالبية العظمى من الهنود ظلّوا في حالة فقر مدقِع. تُظهِر صور من تلك الفترة بدءاً من سنة 1858 شعباً سيطر عليه الجوع. الأغنياء فقط كانوا سمينين بينما كان الفقراء هزيلين، وكان أغلب الهنود فقراء أو في فقرٍ مدقِع. انتشر الجوع بشكل واسع لدرجة أن أعداداً كبيرة من الناس باعوا أنفسهم كعبيد أرقّاء لكي يَنجوا من المجاعة. سَمَحَت الحكومة الاستعمارية بهذه التصرفات اليائسة بل وشاركَتْ فيها بتشجيع ما كان يُسَمَّى مجازاً "العمل بالسُخرة"، واستخدَمتْ قوتها العسكرية لقَمع أي تحدٍّ للنظام مثل التظاهر ضد الضرائب الباهظة. احتاجت المحافظة على النظام إجراءات قاسية، كما صرَّح حاكم بومباي سنة 1875 "نُمسِك الهند بحدِّ السيف"[307]. كان لدى الهند البريطانية مؤسسة للبوليس السياسي لم يكن لها نظير إلا في روسيا.

فيما عدا مصاريف الجيش وقوات الأمن كانت الحكومة هزيلة جداً فلم يُنفَق شيءٌ على الصحة العامة ولا حتى على الإغاثة من المَجاعات. في النصف الثاني من القرن وتحت الحكم البريطاني المباشر بعد حلّ الشركة عانت الهند من أربع وعشرين مَجاعة يُعتقَد بأن حوالي عشرين مليون شخصاً، أي واحداً من كل عشرة هنود تقريباً، ماتوا جوعاً. ويعتقد الآن أن العدد الكلي ربما بلغ ضعف ذلك إلى حوالي خمسة وثلاثين مليوناً. تعرضَّت الهند بالفعل إلى مَحرقة استعمارية قَتلتْ حوالي خمسة إلى سبعة أضعاف عدد اليهود والغَجَر الذين قَتلهم النازيون في المَحرقة الأكثر شهرة. لم تَعتذر بريطانيا أبداً ولم تقدم كذلك أية تعويضات، لو كان ذلك ممكناً، عن الموتى، بل والأكثر أهمية عن حقيقة أنها مَنعتْ خلال المَجاعات تقديم أية مساعدات. وعلى الرغم من ذلك لا تَعرف سوى قلة من الناس حتى في الهند مدى القَتل الذي حَدَث أو السياسة التي أدَّتْ إليه[308].

كان مجرد الاحتفاظ بمستوى غذاء فوق المَجاعة بقليل مهمة صعبة لدرجة أنه كان من المستحيل التفكير بالثورة. كانت الحكومة الاستعمارية مصِرّة على إبقاء الأمور على تلك الحالة كما كتب الباحثان الهنديان ماجومدار R. C. Majumdar وداتا K. K. Datta:

"لا يوجد شكٌ بأن تشجيع التجارة والصناعة والانتاج لدى الهنود كان أفضل الطرق لعلاج المَجاعة بشكل فعال. ولكن ذلك اصطدم مباشرة بمصالح بريطانيا... ولذا استخدَمت الحكومة البريطانية سلطتها السياسية لخنق حتى الصناعة الوليدة والانتاج الذي حاوَلَ الهنودُ إقامته في ظروف صعبة... وبينما أَجبَر انهيارُ الانتاج والصناعة الناسَ للتوجّه نحو الزراعة كوسيلة وحيدة للمعيشة، ملأت الضرائب الباهظة على موارد الأرض كأسَ بؤسهم... وفي غمرة المجاعات سمحت

الحكومة بل وشجعت تصديرَ الحبوب. في الفترة من 1849 حتى 1914 ارتفعت قيمة الصادرات 22 مرة"[309].

امتد عدم الاهتمام بعامة الناس إلى المستويات العليا في المجتمع الهندي، فخلال فترة اللورد كورزون Curzon كنائبٍ للملك من 1898 حتى 1905 وصلت الهند إلى ما أطلق عليه "أَوج نظرية الأمبريالية"[310]. تم تنظيم كل التفاصيل في حياة الجميع حتى المهراجات في الولايات نصف-المستقلة، وتمت مراقبتهم بدقة عن طريق "مستشارين" مقيمين وكان عليهم قبول نصائحهم. لم يتمكنوا من السفر من مناطقهم إلا بموافقة بريطانية. اعتَبرهم كورزون "مجرد عملاء للتّاج في إدارة مناطقهم"[311]. بعد تمرد 1857 التي لم يَلعبوا فيها أي دور تمَّ التعامل معهم كزخرفة أو حليّ لحاكم الهند طالما أنهم يَفعلون ما يُؤمرون، وسُمح لهم باللهو التّافه وبلُعَبِهم وجواهرهم وأفيالهم المزخرفة وقصورهم.

لم تفعل الحكومة شيئاً مهماً في مجال التعليم، وبعد حوالي قرنٍ من الحكم البريطاني أخبر كورزون البرلمان سنة 1892 "بلغ عدد سكان الهند البريطانية في الوقت الحالي 221 مليوناً، ويُقدَّر أنه لا يوجد من ذلك العدد أكثر من ثلاثة أو أربعة في المئة ممن يستطيعون القراءة أو الكتابة بأية لغة من لغاتهم المحلية، وربما أقل من 1% (حوالي ربع أو ثلث بالمئة) ممن يستطيعون القراءة أو الكتابة بالإنكليزية"[312]. السجلات غير مكتملة، ولكن إحصائيةً واحدة توضح الحالة: عندما كانت الشركة تحاول توظيف عدد من الهنود الذين يَتمتعون بدرجة كافية من التعليم لأنهم كانوا أقل تكلفة من الانكليز المستورَدين "أظهَرت سجلات سنة 1852 مثلاً أن اثنين فقط من المسؤولين المُجازين (في كل الهند) جاؤوا من معاهد حكومية"[313].

كان عدم اهتمام البريطانيين بتعليم الهنود واضحاً لدرجة أنه حتى البرنامج الذي وَضَعه توماس ماكولي سنة 1850 "لأنكلَزة" طبقة من الهنود لكي يَخدموا البريطانيين كموظفين وإداريين لم يتم تمويله بشكل كاف. أعتَقدُ بأن الذين أداروا سياسة الحكومة قد أدرَكوا الخطر الذي يمثِّله. فكَّر ماكولي أن انتشار اللغة الانكليزية سيخلق حسب وصفَهَ "طبقةً هندية صغيرة انكليزية في ذوقها وآرائها وأخلاقياتها وتفكيرها" يمكن أن تساعِد البريطانيين في إدارة الهند. ولكن سياسة ماكولي كان يمكن أن تغير الظروف التي كانت تعمل فيها الأمبريالية البريطانية[314]. لو تَذكَّر ما درسه عن شكسبير لكان تَنبَّه إلى ذلك. وضَعَ شكسبير بوضوحٍ درامي في مسرحية "العاصفة" تسلسل الخطوات في الطريق نحو فرض الأمبريالية. لعل قراءتها كان يمكن أن تُنقِذ أو تُطيل عمر الامبراطورية البريطانية على الأقل. إنها تستحق جَذبَ انتباهنا.

يُصوِّر شكسبير في المشهد الثاني من الفصل الأول في مسرحية "العاصفة" الرأي البريطاني في دور السكان المحليين الأفارقة أو الأسيويين من خلال شخصيته كاليبان Caliban. يقول شكسبير على لسان النبيل الأوروبي بروسبيرو Prospero عن كاليبان:

"إنه يُشعِل لنا النار

ويَجلب الحَطَب، ويَخدم في مكاتبنا

وذلك يفيدنا، وماذا! العبد! كاليبان!"

ويلعب كاليبان دورَه المُطيع ولكن صَبره ينفذ في النهاية فيقول:

"هذه الجزيرة لي...

وقد أخذتَها مني. عندما جئتَ في البداية

ضربتَني وأغضَبتَني...

...

وبعدها أحببتُكَ،

وأظهرتُ لكَ كل ميزات الجزيرة:

الينابيع النقية ومناطق الملح والأراضي الجرداء والخصبة.

اللعنة عليَّ لأنني فعلتُ ذلك!

...

لأنني كل ما تملكه،

الذي كان مُلكِي أصلاً. تَضَعني الآن في هذه الصخرة الصلبة

وتُبعدني عن بقية أرجاء الجزيرة.

فيتحدَّثُ بروسبيرو بحنقٍ وغضب من هذا التهديد بالتمرد نيابةً عن أجيال من الأمبرياليين قائلاً:

لا بد من أنكَ تكذب أيها العبد

الذي يَستَنكر تحركاتي ويَنسى لطفي

...

... لقد عطفتُ عليكَ

وجاهدتُ لكي أجعلكَ تنطق، وعلمتُكَ في كل ساعة شيئاً أو آخر

بينما لم تكن تعلم شيئاً أيها المتوحش عن حالتك

فقد كنتَ تُبربر وتَهذر مثل أسوأ البهائم.

يرد كاليبان مثل أجيالٍ من الهنود والجزائريين والاندونيسيين والتتار والشيشان قائلاً:

علَّمتَني اللغة وكلُّ ما استفدتُ منها

هو أنني تعلمتُ كيف ألعن وأشتم!

فليصيبَكَ الطاعون الأحمر لأنكَ علَّمتَني لغتَك!

لم تُقدَّر رؤيةُ شكسبير لتطور الأمبريالية في الهند البريطانية، فقد تقبَّل الحكام الدعم حيثما وَجَدوه، ليس بالشكر والامتنان بل باعتباره حقاً لهم، وكل من لم يدعَم حكم البريطانيين كان مُعرَّضاً للسجن أو الإعدام، وكانت الشخصيات العامة التي يمكن تَقبُّلها هم فقط أولئك الذين أعلَنوا ولاءهم للحكم البريطاني. كان السير سيد أحمد خان Sayyid Ahmad Khan أشهر الشخصيات في المجتمع المسلم وأكثرهم قَبولاً.

كان السير سيد أحمد خان عضواً في مؤسسة الامبراطورية المُغولية قبل الثورة كما عمل لدى شركة الهند الشرقية البريطانية. مَنَحه الامبراطور لقب "فارس" حسب المصطلحات الهندية كما تم تعيينه قاضياً في الشركة. لم تكن الامبراطورية المُغولية بالنسبة له سوى ذكريات مجدٍ غابر، بينما كانت الشركة الواقع الحاضر والأمل في المستقبل. اعتقد بأنه لا يمكن تحقيق الأمل إلا إذا أدرك رفاقه المسلمون الواقع الحقيقي بالتعاون مع البريطانيين وبتعليم أنفسهم. أصبحت تلك أهداف حياته وقضى معظم تفكيره وجهوده في إنشاء المدارس وفي تأسيس المعهد الانكليزي المحمَّدي الشرقي سنة 1873 [315]. يرجع إليه أكبر الفضل في تقديم التعليم على النمط الغربي لأجيال من الشباب المسلم.

كان رجلاً متعلماً يُتقن التحدث بعدَدٍ من اللغات الغربية والشرقية، ويبدو أنه قرأ شكسبير، ويُعتَبر بشكل عام أنه من زرع بذور تدمير الهند البريطانية بتشجيعه نمو التعليم. وعلى مرِّ نصف قرن تقريباً بعد وفاته أَعتَقد أن أغلب المسلمين البارزين يمكن أن يعيشوا بسعادة نسبية في الهند، وعلى الرغم من الإذلال الذي عانوا منه فإن الفئة العليا تمتَّعتْ بثروتها الهائلة، وكان من بينهم آغا خان.

عمل آغا خان الثالث وفق المبدأ الذي وضَعه استراتيجيون قدماء وهو "اعرف عدوك"، ويتابعون بقوة "وعندها مع ألف معركة يأتي ألف انتصار". تمكن من تقدير عدوه بذكاء، فقد لاحظ أن الموظفين الذين كانوا يُظهِرون كأنهم نبلاء في الهند لم يكونوا أكثر من انكليز الطبقة

الوسطى[316]. كانت أفضل استراتيجية هي تجنبهم. ثم اكتشف أن الأرستقراطية الانكليزية كانت تَعتبرهم خدَماً عامّين صغاراً. ولذا بدلاً من التعامل معهم قرر أن يَتجاوزهم مباشرة إلى حكام الهند الحقيقيين الذيم لم يكونوا في الهند بل في انكلترا. وبينما استهان بآغا خان في الهند البريطانية حتى صغارُ الضباط والموظفين على الرغم من ثروته وذكائه بصفته "WOG أي أنه واحد من"الرجال الشرقيين المخادعين" وتَعامَلوا معه بطرق أكثر إهانة، إلا أنه كان يُعامَل في انكلترا عادةً بصفته ضيف العائلة المَلَكية. أعتَقدُ حسب تقديري لأوراقه وسيرته بأنه توصَّل بذكاءٍ إلى طريقة لاستخدام ثروته: عَرف أن المَلَكيين الإنكليز مدمنون على سباق الخيل فجعل نفسه عضواً بارزاً ضمن حلقة من مُحبّي الخيل حَولَهُ، وجعل سفارته في مدينة أسكوت Ascot (حيث تُجرى سباقات الخيل المهمة في انكلترا). ومع مرور الزمن شعر بأنه أكثر راحة في انكلترا منه في الهند، ولكنه استمر في لعب دور مهم في المجتمع المسلم كمؤسس لعصبة الإسلام سنة 1906.

كان محمد علي جناح في الأصل زميلاً اسماعيلياً إلا أنه لم يكن مثل آغا خان في ثروته وذكائه. واختلط بِحُكْمِ تعليمه ومهنته مع فئة أخرى من المجتمع الانكليزي وسياسته. كان محامياً بارعاً تعلَّم في انكلترا، وكان يستطيع التعامل بكفاءة مع أولئك الذين كانوا يسيطرون على السياسة البريطانية في الهند والعاملين في الخدمات المدنية والخارجية. أعتَقدُ بأن المسؤولين الانكليز كانوا أكثر راحة في التعامل معه من أي زعيم آخر في جنوب آسيا. كان رجلاً محترماً يمكن الاعتماد عليه "واحدٌ منّا تقريباً".

كان جناح بالفعل "واحدٌ منّا تقريباً" فقد شعر بالراحة تماماً في لندن وكأنه في بيته، واتَّبع قواعد السلوك واللباس الانكليزي بكل دقة، وتَحدَّث بلغة الحكماء الذين يديرون الحكومة البريطانية. كان هدفه الرئيسي خلال سيرته كلها هو التوصل إلى طريقة لجعل المجتمع المسلم حليفاً مع بريطانيا. أيَّد بريطانيا عندما اقتضى الحال في الحرب العالمية الثانية، غير أن علاقته المريحة انتهت فجأة مع نهاية الحرب عندما حصل حزب العمال على الأغلبية في البرلمان وأصبح اللورد لويس ماونتباتن Louis Mountbatten نائب الملك في الهند، وانغَمسَت زوجة اللورد في علاقة غرامية مع بانديت جواهر لال نهرو Pandit Jawaharlal Nehru زعيم المؤتمر الهندوسي. ظلَّت علاقةُ جناح مع نائب الملك رسميةً إلا أنهما لم يكونا صديقين أبداً. كان من الصعب تماماً مناقشة بعض جوانب السياسة البريطانية نحو المؤتمر الهندوسي دون التعرض إلى تأييد الليدي ماونتباتن لقضية نهرو. رفض جناح استغلال الموقف وأدرك أن معارضته قد أضعفت موقفه بشكل قاتل. ولذا على الرغم من محاولات عديدة لتجنب تقسيم الهند فقد تحرك لتأسيس باكستان. كان ذلك اختياراً ممكناً لأن المشاعر النفسية لإنشاء باكستان كانت موجودة قبل ذلك. سأعودُ لشرح كيف قادَت الأحداثُ إلى موقف جناح الأخير.

في ثلاثينيات القرن العشرين كانت الهند مقسَّمة من الناحية النفسية على الأقل. في سنة 1933 كتَبَ تشاودري رَحمَتْ علي Choudhary Rahmat Ali، الذي يمكن اعتباره ثيودور هرتسل الباكستان، نَشْرَةً تحت عنوان "الآن أو أبداً" عن الحاجة إلى وطنٍ للمسلمين. ومثل هرتسل

قام بصياغة اسمٍ لهذا الوطن المأمول، وكان الاسم الذي صاغه هو "باكستان". ومثل "الدولة اليهودية" عند هرتسل وضَعَ رحمَت علي خطته في الاسم، فقد صاغ الاسم من أحرفِ أسماءِ المناطق التي اعتَقدَ بأنها يجب أن تتحد تحت راية الإسلام: حرف الباء من اسم بُنجاب، والألف من أفغان (الولاية الأفغانية في الجبهة الشمالية الغربية)، والكاف من كشمير، والسين من ولاية السند، و"تان" من اسم "بلوشستان". كما أن الكلمة الفارسية "باك Pak" تعني "الصَّافي أو النقي"، وهكذا تصبح باكستان أرض المؤمنين الطاهرين الحقيقيين.

كانت صياغةُ الاسم أنيقةً غير أن الواقع لم يكن موافقاً، فقد كان نصف سكان ولاية البُنجاب المَركزية من الهندوس أو السيخ، وفي كشمير حكم مهراجا هندوسي على سكان مسلمين غير متطورين سياسياً، وكان ملايين من المسلمين منتَشرين في كافة أرجاء بقية مناطق الهند. في البَنغال فقط كان هنالك مجتمعٌ مسلم متجانس لم يَذكره رحمَت علي. كان صوتُه وحيداً في ذلك الوقت، وكان بعض الزعماء المسلمين، أبرزهم محمد إقبال، مازالوا مستعدين لجعل مجتمعهم جزءاً من اتحاد فيدرالي هندي واسع ضمن منطقة نفوذ الامبراطورية البريطانية. وعلى الرغم من معارضتهم لهيمنة الحكام البريطانيين إلا أن أغلب المسلمين كانوا يثقون بهم أكثر مما يثقون بالهندوسيين الهنود.

انقطعت جميع إمكانيات التوافق عندما أعلَنت الحكومةُ الانكليزية الحربَ على ألمانيا النازية[317]. وبدون استشارة أي من الزعماء الهنود أعلَن نائبُ الملك اللورد لينليثغو Linlithgow أن الهند أيضاً في حالة حرب مع ألمانيا. وبينما كانوا مهتاجين بسبب عدم استشارتهم في هذه القضية "الوطنية" الأساسية فقد فكر زعماء الهندوس والمسلمين معاً أنهم قد شاهدوا حافة مضيئة لهذه الغيمة، واعتَقدوا بشيء من الأمل أن البريطانيين سيتحركون وفق حاجتهم لكسب الدعم الهندي لجهود انكلترا في الحرب ليعلنوا استقلال الهند. وسرعان ما تحرروا من هذا الوهم إذ استدعى لينليثغو الماهاتما غاندي وجناح ليبلغهم أنه لن يكون هنالك أية مناقشة لانتقال السلطة ومَنح استقلال الهند إلا بعد الحرب. وبعد ذلك بسنتين، فَرَكَ ونستون تشرشل بالملحِ الجرحَ الذي أثارَه تصريح لينليثغو عندما أبلَغَ البرلمان أن ميثاق الأطلسي الذي أعلَنه مع فرانكلين روزفلت لا يَنطبق على امبراطوريتها في الهند. كان إعلانُ ميثاق الأطلسي ومصيره مثالاً مكرراً لنقاط وودرو ويلسون الأربع عشرة: تَصريحاً مَجيداً لأمورٍ لم يقصد الشمال العالمي تنفيذها أبداً.

انتَبَه زعماءُ المسلمين من غفوتهم إلا أنهم لم يَنحنوا، بل تابعوا جهودهم من أجل شكلٍ ما مِنَ الحكم الذاتي أو الاستقلال. تُوِّجَتْ جهودهم في الأيام الأولى من الحرب العالمية الثانية بقرارِ لاهور في 23 مارس 1940 الذي دَعَا إلى حَلٍّ بإنشاء دولَتين. ولكنه انهار قبل أن يجفَّ الحِبر، مما يُذَكِّرُ لا شعورياً بمثالٍ آخر في القضايا العربية-الإسرائيلية. فقد رفَضَ زعماء الهندوس في حكومةِ الظِّل الهندية، المؤتمر، قبولَ قرارٍ لاهور ومَنَعَ البريطانيون مناقشةَ أية صيغة للاتفاق حتى تنتهي الحرب.

اختَلَفَ جناح خلال الحرب مع القيادة الهندوسية في التكتيكات والأهداف، فبينما استمرت مطالَبته بالاستقلال وقَفَ إلى جانب الحلفاء، وعندما كان خارج السجن استغَلَّ سنوات الحرب ليَزيد

من قوة عصبة الإسلام. كما أسس أيضاً بين جهوده الأخرى أول صحيفة "باكستانية" وهي "الفجر" التي مازالت صوتاً قوياً في تلك الدولة.

قرر حزبُ المؤتمر الذي يُسيطِر عليه الهندوس البدءَ بحملة "اتركوا الهند" باستخدام اللاعنف مَدفوعين بخيبة أملهم بسبب رفض البريطانيين مطالبهم بالحرية واستيائهم من انفصالية الإسلاميين. قوبِلَ قرارهم بحملة بريطانية قاسية قاموا فيها بحصار أو تحويل موارد الغذاء مما أدى إلى وفاة حوالي ثلاثة ملايين هندياً[318]. كما قَبضوا على جميع من وصلوا إليهم من زعماء المؤتمر بمن فيهم غاندي.

كان بين فئة زعماء الهندوس الداخلية الذين لم يتمكن البريطانيون من القبض عليهم، على الرغم من أنهم حاولوا اغتياله، سبهاس تشاندرا بوز Subhas Chandra Bose. استَطاعَ بوز أن يجد طريقه عائداً إلى آسيا في غواصةٍ ألمانية إلى مدغشقر أولاً (التي كان يَحكمها آنذاك فرنسيون من أتباع فيشي Vichy)، ومن مدغشقر في غواصةٍ يابانية إلى طوكيو، ثم أُرسِل إلى سنغافورة حيث استَلَمَ قيادة ثلاثين ألف جندياً هندياً كان البريطانيون قد سلَّموهم إلى اليابانيين عند سقوط سنغافورة. انطلق بهذا الجيش في مارس 1944 لكي يقوم فعلاً بما كان جميع زعماء الهند يتحدَّثون عنه: تحريرُ الهند[319]. غَيَّرَ البريطانيون اتجاههم خوفاً من نتائج هذا الهجوم، وعَرضوا على الزعماء الهنود احتمال حصولهم في النهاية على الحرية، إنما بشكلٍ مَحدود. وَجَدَ المؤتمر وعصبة الإسلام أن ذلك ليس كافياً، بينما تَعثَّر جيشُ بوز في بورما في طريقه إلى الهند وتفرَّق. وانتهى بذلك تهديدُ غَزو اليابانيين للهند.

ثم حدَثَ أمرٌ استثنائي، مع وجود أغلب زعماء المؤتمر في السجن وانعزالهم عن التواصل، قام اثنان من الزعماء الذين ظَلّوا أحراراً، وهما المسلم لياقَتْ علي خان Liaquat Ali Khan والهندوسي بولاباي دساي Bhulabhai Desai، بإجراء مفاوضات سريَّة توصَّلت إلى خطةٍ يَتخلى فيها المسلمون عن مطالَبتهم بتأسيس دولة باكستان مقابل مشاركتهم في الحكومة، أي حلٌّ في دولة واحدة. عندما تسرَّبَتْ أنباء مفاوضاتهما سنة 1945 رفضَتها مباشرةً زعامةُ حزب المؤتمر التي خرجَتْ من السجن آنذاك. كانت واحدة من تلك الاحتمالات المثيرة "ماذا لو أنّ" التي تُنعِش التاريخَ أحياناً وتُثير الحزن لدى رجال الدول[320].

في سنة 1945 انطلقت بداية جديدة عَلَنية هذه المرة وتحت إشراف نائب الملك البريطاني واجتمع كبار زعماء حزب المؤتمر وعصبة الإسلام في المَنتَجع الصيفي في شيملا للبحث في جولة جديدة من الاقتراحات. فشل الاجتماع عندما طلَبَ زعماء حزب المؤتمر أن تكون صلاحية اختيار ممثلي الإسلاميين بيد المؤتمر الذي يُسيطِر عليه الهندوس وليس بيد عصبة الإسلام. تصلَّب موقفُ كلا الطرفين بعد ذلك: رفض زعماء المؤتمر حق عصبة الإسلام في المشاركة بالحكومة، وردَّت عصبة الإسلام بالإصرار على طلبها تأسيس دولة منفصلة. اقترح البريطانيون ما اعتَقَدَت الحكومةُ البريطانية-الهندية والحكومةُ الانكليزية أنه حلٌّ وسط، مثلما فَعل البريطانيون في مصر وما كانوا يحاولون فِعله في فلسطين، وذلك بأن تصبح الهند نصف دولة-أمّة موحَّدَة: تُدير حكومةٌ مركزية

الأمورَ العسكرية والسياسة الخارجية وبعض القضايا المشتركة الأخرى بينما يكون للولايات حكمٌ ذاتي وتَحتفظ بحقها في الانفصال. قبلت عصبةُ الإسلام الاقتراح البريطاني ولكن المؤتمرَ الهندوسي رفَضَه.

في جهد ذكي أخير، قرر حزبُ العمل الانكليزي المنتخَب حديثاً وكذلك مستشاريه في الحكومة نَقلَ السلطة إلى "سيادتين" الهند وباكستان. يُعقَد استفتاءٌ في الولايات التي تضم سكاناً مَختلَطين (مثل البُنجاب والبَنغال)، ومن المثير أن نائب الملك اللورد ماونتباتن جمَعَ نهرو وجناح وزعيم السيخ في البُنجاب لكي يُعلن الاتفاقية على الراديو. كانت باكستان على وشك الولادة، ولم يَعرف أحد ما الذي يعنيه ذلك بالضبط ولكن كل حركة كانت محفوفةً بالشؤم.

عبثاً حاوَلَ البريطانيون متأخرين سنة 1946 و1947 أن يَمنعوا انهيارَ النظام المَدني فيما أدركه الجميع أنه لن يكون دولة واحدة. اقترحت لجنةٌ برلمانية مرة ثانية شكلاً فيدرالياً تتم فيه المحافظة على حقوق المجتمَعين تحت سلطة بريطانية، ولكي يضمَنوا موافقة المسلمين أنذرهم البريطانيون أن التقسيم سيخلق باكستان صغيرة "تكون في الحرب والسِّلم معتمدةً على حسن إرادة هندستان"[321]. لم يكن ذلك الإنذار مؤثراً، وصَرَفَ جناح النظر عن الاقتراحات البريطانية بوصفها خِداعاً بينما اعتَقَدَ زعيمُ المؤتمر نهرو أن الخطة غير قابلة للتطبيق ومَرفوضة. لم يكن أي زعيم قوي مستعداً لتَبنّي مبدأ أن تَظَلَّ بريطانيا في الهند بأي شكل كان. تم الوصول إلى نهايةِ طريقٍ مسدود.

تعطَّل النظام سريعاً وحدثَتْ أولى المَجازر في كلكتا في أغسطس 1946 ولاقَتْ صَداها في أرجاء الهند خلال أسابيع. أفقَدَ العنفُ أعصابَ الحكومة البريطانية وتخلَّت عن محاولاتها التوصل إلى تسوية. وردَّتْ بدعوة نهرو لتشكيل حكومة شاملة للهند. فوجئ ملايين المسلمين بموقف الحكومة البريطانية المؤيِّد للهندوس وشعروا أنهم تعرضوا للخيانة فرفَعوا على بيوتهم راياتٍ سوداء علامةً على يأسهم وغضبهم واستعدوا للأسوأ. وجاء الأسوأ سريعاً.

على الرغم من أن تقسيم الهند لم يكن مُعلَناً بعد، إلا أن الهند كانت في الواقع مقسَّمة بشكلٍ نهائي. كتَبَ المؤرخُ الأمريكي ستانلي ولبرت Stanley Wolpert عن الهند قائلاً:

"لم يكن التصالح ممكناً. لم يوجد أي حل لمشاكل أساسية من انعدام الثقة وترسيخ الشك والخوف والكراهية. هُدرَتْ كثير من الدماء، وتم غَرس كثير من الخَناجر في ظُهورٍ كثيرة، وقُتِلَ كثير من الأجنَّة في بطون أمهاتهم. واغتُصبتْ كثير من النساء، ونُهِب كثير من الرجال، اندَفَع كثير من الناس في كراهيةٍ مجنونة بسبب شكوك مريضةٍ بجيرانهم في البيوت أو في القرى المجاورة"[322].

وَجَدَ البريطانيون أن معظم ضحايا المَجزرة الكبرى كانوا من المسلمين الذين قَتَلَتْهم عصاباتُ الهندوس، إلا أنه كان هنالك مئات الآلاف من الضحايا في الجانبين[323]. أدى ذلك إلى فيضانٍ من المهاجِرين الذين انتظرهم البؤس. قُتل أو مات حوالي مليون شخص في تقسيم الهند،

وعَبَرَ أكثر من تسعة ملايين مسلم من الهند إلى الأراضي التي أصبحتْ باكستان، بينما عَبَرَ عدد مماثل تقريباً من الهندوس والسيخ إلى الهند أو إلى الأجزاء من البُنجاب التي ضُمَّتْ إلى الهند. صَوَّتَ المسلمون الهنودُ بخطواتِ أقدامِهم لتأسيس باكستان.

باكستان هي مجتمعُ مُهاجِرين وسكان أصليين في الوقت نفسه. لكي يبدأ المرء فهم مقاربتها للهوية الوطنية وسياسات الوطنية يجب أن يأخذ جانِبَي نشأتها بعين الاعتبار. فأولاً وبغضّ النّظر عن مدى اعتبار باكستان نفسَها أمّة-دولة جديدة فقد ورثتْ من الهند البريطانية مؤسسات جاهزة في الجيوش والوزارات والمحاكم القانونية والخدمات المدنية ونظام البريد... وكذلك قوانين الإدارة اللازمة لتسييرها. وهكذا فقد ولِدَتْ باكستان أثناء الرحلة ولا تَستطيع أن تَتخلَّص من التاريخ البريطاني في أية ناحية تقريباً. ومِن جهةِ شخصيةِ جناح على الأقل خلال حياته فقد كانت "انكليزية" جزئياً. في خطابه الأول كحاكمٍ عامٍّ قضى معظم حياته مدافعاً عن فكرة وطن إسلامي، قَدَّمَ جناح إعلاناً مفاجئاً لمجلس النواب. إعلاناً لا يستطيع أن يُصَرِّح به أحدٌ سوى محامٍ انكليزي التدريب، وليس لاجئاً هارباً من مَجازر طائفية: "أنتم أحرار في الذهاب إلى معابدكم الهندوسية، أنتم أحرار في الذهاب إلى مساجدكم أو إلى أي مكان عبادة في هذه الدولة الباكستانية... يمكنكم الانتماء إلى أي دين أو طائفة عقيدة، فعقيدتكم أو طائفتكم ليست شأناً من شؤون إدارة الدولة"[324].

كلماتٌ شجاعةٌ وإنسانية ولكن الواقع كان بعيداً عن ذلك كثيراً، فقد ترسَّخَ الخوفُ والغضب في باكستان وكذلك ما أسميتُه بمَرَض ما بَعدَ الأمبريالية. وما زالت هذه الأمور تَسيطِر عليها، وأدّت مع أمورٍ كثيرة غيرها إلى وجود نفوذٍ كبير للمؤسسات العسكرية في الأمور المدنية، وإلى قرار الحصول على أسلحة نووية. بدأتْ باكستان كدولةٍ عسكرية حتى أكثرَ من الهند. حصلتْ بعد التقسيم على حوالي ثلث الجيش القديم "ولكن مع سدس مواردها. ولذا فقد كانت باكستان منذ ولادتها مثقلةً بجيشٍ كبير لا تَستطيع دَفعَ تكاليفه"[325]. وَجَدَ زعماء باكستان الوطنيون واحداً تلو الآخر دائماً سبباً للّجوء إلى القوة العسكرية. آمَن كل واحد منهم، وذلك أمرٌ مفهوم، أن سياسة زعماء الهند يوجِّهها هدفهم الدائم بإعادة ضَمِّ باكستان إلى الهند، مثلما كانت تفعله حكومةُ نهرو آنذاك مع الولايات الأخرى المنفَصِلة أو التي تحاول الانفصال مثل حيدَرأباد وغوا وكشمير. عند قراءة تصريحات الزعماء الهندوس في الهند ومراقبة أفعالهم، استَنتَج الضباطُ وكذلك الزعماء المدنيون والصحفيون وموظفو الخدمة المدنية والمواطنون بشكل عام أن هنالك بالفعل ذئبٌ على باب باكستان، ومازال أغلبهم يُؤمِن بذلك.

أصبحت الحربُ طريقةَ حياة، وذهبَت الدولتان إلى قتالِ بعضهما بشكل رسمي في سنوات 1947، 1965، 1999. وخَاضوا مناوشاتٍ مهمة في 1984، 1985، 1987، 1995. كانت هزيمةُ باكستان مؤكَّدَة في كل من هذه المعارك، إذ تمتلك الهندُ جيشاً يبلغ ضعف حجم جيش باكستان بالإضافة إلى ميزات أخرى[326]. وكان الانطباع العام أن القتال قد يندلع في أية لحظة حتى في فترات السلم التي كانت في الحقيقة هدنةً مسلَّحة، وكذلك كان من الصعب تجنب حدوث نوع أو آخر من الهزيمة. ولذا فقد كان الخوف من الهند محسوساً، وكان ذلك الخوف موجوداً منذ نشأة باكستان

ومازال جانباً مسيطراً في السياسة الباكستانية. نَظَرَ قادةُ باكستان إلى الهند باعتبارها خطراً وجودياً، وقد شَوَّهَ هذا الهاجِس الأمنيّ باكستان. يُسيطِر العسكريون على المؤسسات المدنية وعملها، وكان من المستحيل على الزعماء المدنيين القلائل الذين أرادوا تحقيق توازن بين القوى المدنية والعسكرية أن يُقلِّصوا دورَ العسكريين، وكان العسكريون جاهزين دائماً لتبديل الحكومة المدنية. قام كل من الجنرال اسكندر ميرزا Iskander Mirza، وأيوب خان Ayub Khan، وضياء الحق Zia ul-Haq، وبرويز مشرف Perviz Musharaf بانقلابٍ عسكري ووضَعوا البلادَ تحت حكمٍ عسكري حوالي نصف الفترة منذ الاستقلال، وتَعتَقدُ قلةٌ قليلة أن الجيش سيَبقى في ثكناته.

أحدُ الزعماء الذين حاوَلوا تحقيق توازن جديد ودفَعَ حياته ثمناً لذلك كان ذو الفقار علي بوتو Zulfiqar Ali Bhutto الذي خَلَفَ جناح كرئيسٍ للوزراء سنة 1973.

ربما ليس من المُستغرَب أن بوتو ونهرو يشتركان في طريقة نشأتهما، فقد نشأ كلاهما في ظروف مُترَفة وآمنة. عندما ولِد بوتو كان والده يعمل رئيساً للوزراء في إحدى الولايات الهندية الصغيرة وكان البريطانيون يَعتَبرونه داعماً وموالياً للامبراطورية. قَضَى بوتو أغلب دراسته في الخارج مثل نهرو. ذهَبَ أولاً إلى جامعة كاليفورنيا ثم إلى أكسفورد[327]. بعد أكسفورد اشترَكَ مع سِيرة جناح أيضاً، إذ درس القانون مثل جناح في فندق لينكولن في لندن، وكان يشعر وكأنه في بيته في انكلترا مثل جناح. إلا أن الهند التي شكَّلتْ حياةَ هؤلاء الرجال الثلاثة كانت قد أصبحتْ مختلفةً تماماً عن الهند التي عَرفوها في بداية حياتهم. سارَ كل منهم في طرقٍ متوازية للسيطرة عليها وتطويرها إلا أنهم اتّبعوا برامج متضاربة في أغلب الأحيان.

ما أفهمُهُ من برنامج بوتو هو أنه أقامَهُ على أساسِ أن باكستان لا يمكن أن تصبح دولة قابلة للحياة إلا إذا حدَثَ أمران: الأول هو أن خطر الهند المُحدق يجب أن يزول لأنه بالنظر إلى الفرق في عدد السكان والثروة لا يمكن لباكستان في رأي بوتو أن تُناظِر الهند بالوسائل العادية. قرر أن الطريقة الوحيدة لمواجهة خطر الهند هي الحصول على أسلحة نووية. اشتهر عنه القول في سنة 1965 إنه "إذا حصَلَت الهندُ على القنبلة فسنأكلُ الحشائش ونَجوعُ لكي نحصل عليها أيضاً. ليس لدينا أي خيار آخر"[328]. فَجَّرَت الهند قنبلتها النووية الأولى سنة 1974 قرب الجبهة الباكستانية، واحتاجَتْ باكستان إلى أربع وعشرين سنة لكي تَلحَقَ بها. والآن تمتلكُ الهند وباكستان مَخزوناً كبيراً من هذه الأسلحة المُخيفة. لا يَستطيع أي منهما استخدَامها دون أن يَنتحر، كما أن امتِلاكها لم يوقِف الحروبَ التقليدية[329]. ولا يبدو أنها قد خفَّضَتْ ما يَتصَوره العسكريون الباكستانيون عن التهديد الأخلاقي الهندي. وهكذا لم تُقلِّل من سيطرة المؤسسة العسكرية. باختصار فقد فشل ذلك الجانب من برنامج بوتو في تحقيق هدفه.

فشل الجانب الثاني من برنامج بوتو أيضاً في تحقيق ما يريد على الرغم من جهودٍ هائلة. حاوَلَ ببساطة أن يضَعَ الأسس لبناء مجتمعٍ متقدّم من خلال التعليم. في خطابٍ للأمة افتَخَرَ بأنه أنشأ "6500 مدرسة ابتدائية جديدة و900 مدرسة متوسطة و407 مدرسة ثانوية و51 معهداً متوسطاً

و21 كلية... وأربع جامعات جديدة... والجامعة الشعبية المفتوحة هو مشروعٌ مبتكر آخر بدأ العمل من اسلام أباد"[330]. هذه المشاريعُ وحدها يمكن أن تكون كافية لكي تضمن له مكاناً مهماً في تاريخ باكستان.

أدرك أيضاً أن تحسين التعليم لن يكون كافياً لوحده على الرغم من أهميته، ولا بد لباكستان من أن ترتفع فوق مستوى الفقر المُطلَق. ولذلك نفذَّ مشاريع عديدة أدّت إلى رفع مستوى المعيشة بشكل كبير. كان الحصول على الأرض مسألة حاسمة في مجتمع زراعي، ولكن كما بيَّنتُ سابقاً فإن إرث المرحلة البريطانية كان قد حوَّلَ الفلاحين المَالكين المُنتِجين إلى أقنان، ولذا فقد أصدر قانوناً لتوزيع المُلكِيات الكبيرة ووضَعَ مساحة 150 فداناً كحدٍ أقصى للأراضي المروية التي يمكن أن يَمتلِكها مزارعٌ واحد. أدرك أن المَالكين الجدّد سيَقعون سريعاً في يد المُرابين فأجبَرَ البنوكَ على توفير قروضٍ بشروط مناسبة لصغار المالكين. تضاعفَت الاستثمارات في الاقتصاد.

هذه الأعمال وغيرها من القرارات التي ترفعُ حقوقَ العمال الصناعيين أدّت على مرّ سنوات حكمه إلى انخفاض عدد الباكستانيين الذين يَعيشون في فقرٍ "مُطلَق" من واحدٍ من كل اثنين (حوالي 46%) إلى أقل من واحدٍ من كل ثلاثة (30%)، واستقر خطُّ الفقر في ذلك المجال منذ ذلك الحين[331]. يمكن أن يعود الفضل إلى سياساته عبر السنين في رفع 25 مليون شخص فوق خط الفقر[332].

بعد عزل بوتو وإعدامه إثر انقلابٍ عسكري انحدَرَت باكستان في هوة الفساد الذي شلَّ مؤسساتها الوطنية الفتية وشوَّهها أو قمَعَها. لم تنجح الوطنية في خلق نظامٍ قابل للحياة.

أحد الأسباب الرئيسية لفشل باكستان في النهوض إلى ما تَوقَّعه مؤسسوها يتعلق بجانب آخر من صراعها مع الهند، وهو قضية كشمير. في الحقيقة وجِدَ هذا الصراع قَبلَ وجود الهند وباكستان بكثير. تمتد أزمة كشمير بعيداً في أعماق التاريخ مثل كثير من مآسي العالَم. تَعديلاً للقول المأثور الذي يُنسَبُ إلى الفيلسوف جورج سانتايانا George Santayana أقترحُ أنّ أولئك الذين لا يَتذكَّرون الماضي لن يَتمكَّنوا من فَهمِ الحاضر، ولذا سأناقشُ الآن كيف تتموضع كشمير في التاريخ.

الفصل الرابع والعشرون

كشمير، فلسطين آسيا الوسطى

يمكن التفكير بكشمير كأنها فلسطين آسيا الوسطى، فهي مثل فلسطين كانت ومازالت مركز صراعٍ مميت بين مجتمعات مَحَلّية وبؤرة صراع في منطقتها. وكذلك كانت كشمير مثل فلسطين منطقةَ التقاء بعض أقوى النزعات الدينية في العالَم: الإسلام واليهودية والمسيحية في فلسطين، والإسلام والهندوسية والبوذية في كشمير. ولكي نَفهمَ الإسلام في كشمير يجب أن يَدرس المرءُ تاريخها الديني والسياسي.

قبل القرن الرابع عشر كان يعيش في كشمير الهندوس الذين جاؤوا إليها من الهند، والبوذيين الذين قدِموا من التيبت المُجاوِرة. ثم في سنة 1320 تم غَزو المنطقة من أحد جيوش المَغول التي أرسَلَها جنكيزخان عبر آسيا. هَرَبَت الطبقة العليا التي كان لديها الوسائل للهروب وقُتِل كثير ممن لم يتمكنوا من ذلك. انهارت كشمير القديمة مثلما حدَثَ لكثير من المناطق التي احتلها المَغول. وبعد قرنٍ من البؤس والجوع والمرض في عصرٍ مظلِم حقيقي عاد أحفاد الكشميريين القدماء إلى الظهور تدريجياً من مخابئهم لكي يَسترجِعوا حياتهم ثانية. كانت كشمير قد اختلفتْ كثيراً عن التي عرفها أجدادهم، كما قال باحثٌ في تاريخ كشمير فإن النظام الهندوسي الذي يستند إلى نظام الطبقات "كان قد تهدَّم لأن قانونه الأساسي في الزواج كان قد تم تجاوزه بزواج الرجال والنساء خلال طوفان المَغول وأنجَبوا مجتمعاً متجانساً بلا طبقات متمايزة. لا يَستطيعُ أي باحثٍ أن يَفهمَ تاريخ كشمير دون أن يَستوعب هذه الحقيقة الأساسية"[333].

ظَهَرَ حاكمٌ جديد من الهندوس بعد رحيل المَغول، إلا أنه سرعان ما تحوَّل إلى الإسلام على يد صوفي روحاني. يبدو أن الإسلام الصوفي كان ردّ فِعل على البؤس في المناطق التي دمرها المَغول. وكما ذكرتُ فقد انتَشَر ذلك بشكل واسع في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. كانت رسالته واضحة: العالَمُ هو في النهاية مكان بؤسٍ وشقاء حيث لن يجد فيه مَن يَبحثُ عن حياةٍ أفضل إلا خيبةَ الأمل. من المؤكد أن تجربة الكشميريين كانت تبرر هذا المُعتقَد، وآمَن الصوفيون الكشميريون بأن الحلَّ لمشكلة البؤس هو في رفض الماديّة. تحوّلَ أغلبُ من تبقى على قيد الحياة من الكشميريين في الأجيال التالية إلى الإسلام من خلال الصوفية التي تُعرف في كشمير باسم "الريشيّة Rishism"[334].

تحت تأثير الريشية اختفتْ بعضُ الطقوس الهندوسية واختَفت التماثيل وتَوقّف إحراق الأرامل أحياء مع أزواجهن، ولم تَعد تُرسَم الكاشكا Qashqa رمزُ الهندوسية على الجَبهَة، غير أن الإسلام الذي تطَوَّر في كشمير تأثَّر كثيراً بالهندوسية. تحت حكم أميرٍ مسلم متسامِح يَحمل رسالة الصوفية أصبحتْ كشمير مرةً ثانية مجتمعاً مثقَّفاً منفتِحاً يفخَر الكشميريون بتسميته "الطريقة الكشميرية".

مع بدايات القرن التاسع عشر كانت كشمير مقسَّمة إلى اثنتين وعشرين إمارة تتبع المُغول في الهند أو البَشتون في أفغانستان مثلما كان الحال عدة قرون. ثم غَزاها في 1819-1820 رانجيت سينغ Ranjit Singh الحاكم الكبير للبُنجاب وضَمَّها إلى امبراطوريته. أضافَت السّيخية عُنصُراً آخر في التجربة الكشميرية.

بدأت السيخية في القرن السادس عشر كحركةٍ إصلاحية أسسها غورو ناناك Guru Nanak الذي حاوَلَ مَزجَ المُعتقدات الإسلامية بالهندوسية وطقوسها وأتباعها. رَفَضَ تعدّد الآلهة في الهندوسية وثبَّت إصرارَ الإسلام على التوحيد. أعلَن أن جميع البشر إخوة وقدَّم مثالاً شخصياً ضد النظام الطائفي بمشاركته المَعيشة والوجبات مع هندوس ومسلمين ومنبوذين. التأكيد على العالَمية جعَلَ السيخية مقبولةً في مناطق واسعة من الهند وتوافَقتْ مع الفلسفة الكشميرية في الحياة. إلا أنه خلال الثلاثة قرون التي تَلَتْ وفاةَ غورو ناناك اتَّجهَت السيخيةُ بعيداً عن ترحيبِهِ بمعتقداتِ الإسلام وطقوسه ورجعتْ إلى الهندوسية التي تفرَّعتْ منها. كان السّيخُ أقليةً في البُنجاب ويبدو أنهم احتاجوا إلى معتقدات أكثر تشدداً وصَرامة من تلك التي وضَعها غورو ناناك، ودفَع الكشميريون ثمناً باهظاً لذلك.

عندما تقدَّمَ البريطانيون في الهند، اصطدموا بامبراطورية السّيخ القوية في البُنجاب. توقفوا عند جبهة البُنجاب وقرروا تركَها وتركَ إمارات كشمير للسّيخ. كان السّيخ محارِبون أشداء، وعندما أصبحوا أكثر عسكريةً هاجموا المسلمين والمعتَدلين الكشميريين وفَرضوا عليهم ضرائب ثقيلة وإجراءات أخرى أدَّت إلى حدوث مجاعة سنة 1832. مَنَعوا أذانَ المسلمين وأغلَقوا المساجد الرئيسية وعادوا إلى تشجيع تقديس التماثيل والحيوانات، مثل البقر كما في الهندوسية، وجَعَلوا ذبحَ المواشي جريمةً يُعاقَبُ عليها بالإعدام.

بعد وفاة رانجيت سينغ عادَت الهندُ البريطانية إلى الهجوم، وغَزا جيشُ شركة الهند الشرقية امبراطوريةَ السّيخ وحارَبها ودمَّرها وبدأ في ضم البُنجاب إلى الهند. كان البريطانيون آنذاك يَعتمدون في جيشهم أساساً على الجنود الهنود المسلمين مما أدّى إلى تزايد العداء للمسلمين عند السّيخ وغيرهم من الهندوس. وكما فَعلوا في مناطق أخرى في الهند فقد استخدَموا الهندوسَ والمسلمين ضد بعضهم بعضاً. وبينما اعتَمدوا على الجنود المسلمين بشكل رئيسي في احتلال البُنجاب السّيخية، عقَدوا تحالفات مع مع بقايا الهندوس في امبراطورية السّيخ. كان أحد الحكام السابقين الأمير الصغير غلاب سينغ Gulab Singh غنياً جداً لدرجة أنه استطاع أن يُقرِض شركةَ الهند الشرقية التي كانت الحاكم الفعلي للهند عندما سقَطتْ في عجزٍ مالي مفاجئ. ولكي تردَّ له الدَّين

جعلَته مالِكاً لكشمير. كانت تلك صفقة، لأنه بغضّ النّظر عن قيمة الأرض فقد دفَعَ ما قيمته آنذاك حوالي ثلاثة شِلنات انكليزية عن كل شخص[335]. وفي اللغة الفيكتورية الانكليزية في ذلك العصر نَصَّتْ معاهدةُ أمريتسار Amritsar على أن "تَنقل الحكومةُ البريطانية وتَجعَل (كشمير) إلى الأبد مُلكِية مُستقلةَ للمهراجا غلاب سينغ ومن يرثُهُ من الذّكور"[336]. وهكذا فإن مشكلة كشمير ترجِعُ إلى سنة 1846 عندما اشترى الهندوسي/السّيخي غلاب سينغ السكانَ المسلمين وأرضَهم[337].

لم يَعرف غلاب سينغ الكشميريين ولكي يستفيد من السكان توجَّهَ إلى المثقَّفين الهندوس (البانديت Pandits من الكشميريين (وكان من ذريتهم البانديت جواهرلال نهرو الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء الهند)[338]. ضغط هؤلاء في كشمير على من هم دونهم، وضغط عليهم الحكام. وبحكم كونهم مَحصورين بين الفئتين فقد دفَعوا إلى الحكام أقل ما هو ممكن بينما "اغتَصبوا أكثر ما هو ممكن من المزارعين الفقراء"[339]. احتَكروا بَيعَ كل شيء من الأفيون إلى العنب، وتقديم الخَدمات من البَغاء إلى حفر القبور. من الطبيعي أن الغالبية المسلمة كرهتهم وكرهت غلاب سينغ. كان آخر أعمال غلاب سينغ في الدولة هو دعم البريطانيين في قَمعِ ثورة الجنود الهنود سنة 1857، وبذلك أثارَ مزيداً من السخط لدى المجتمع المسلم في كشمير، إلاّ أن استيقاظ الوعي السياسي في كشمير كان بطيئاً في الظهور.

لم تَحدُث اليقظة السياسية في مجتمع الكشميريين المسلمين إلا بعد سنوات من الحرب العالمية الأولى. عندما انتَبهوا إلى أنهم مستغَّلون، نظَّمَ العاملون في صناعة الحرير إضراباً كان الأول في كشمير. عندما قُمِعوا بشدة، قدَّم المُضربون التماساً إلى نائب الملك البريطاني في الهند للنَّظَر في شكاياتهم، وبدلاً من بَحث مطالبهم حَوَّلَ نائبُ الملك التماسَهم إلى المهراجا الهندوسي الذي كان يحكمهم آنذاك فقرر شنقَ المتظاهرين. تكرَّمَ نائبُ الملك باعتبار أن الشنق عقوبةٌ مُفرِطة فقرر المهراجا الاكتفاء بتعذيبهم فقط.

كان حبسُ المتظاهرين وتعذيبهم فعّالاً إلى حين، وانسَحَب المتظاهرون ولم تلبَ مطالبهم. إلا أنه بعد عَقدٍ من الزمن زادَت الشرطة الكشميرية الحالةَ تعقيداً من مجرد كونها شكوى اقتصادية وهاجَموا مسجداً ظَنوا أنه مَعقِل المتمردين. أدى عنف الشرطة إلى تضخيم القضية من مسألة تخصُّ فئةً صغيرة من السكان إلى قضية وطنية. يمكن اعتبار أن هجوم الشرطة هو بداية يقظة الشعور بأن الإسلام ذاته في خطر من الحكومة الهندوسية. تَفجَّرت المظاهرات العنيفة في كافة أرجاء كشمير وقابَلَتها نيران الشرطة. شكَّلت هذه الاشتباكاتُ ما وصِف بأنها لحظة تأسيس الوطنية الكشميرية. باختصار، بدأ الكشميريون في ثلاثينيات القرن العشرين الشعور بذات العواطف الدينية-الوطنية (المسلمون ضد الهندوس) التي كانت تحرك الصراع في الهند.

ترسَّخ الصراع الديني بسبب الأحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المروّعة التي عاشها المسلمون في كشمير، وحتى المستشار البريطاني المُقيم أصيبَ بصدمة بسبب أحوال السكان المسلمين. وَجَدَ أن المسلمين كانوا "غير متعلمين مطلقاً ويَعملون في فقر مُدقِع... ويُحكَمون كأنهم ماشية غبية مُسَيَّرة"[340].

كان تأثير "يُحكَمون كأنهم ماشية غبية مُسَيَّرة" كبيراً على الحياة الفكرية كما علّق سومانترا بوز Sumantra Bose بأنه حتى سنة 1924 لم يكن هنالك أية صحيفة تَصدر في كشمير، وأنه "بالإضافة إلى الأميّة العامة بسبب ندرة حتى التعليم الابتدائي للمسلمين، فقد اعتَبرت حكومةُ المهراجا أي مظهرٍ لصحافةٍ حرة ورأيّ عام بمثابة تمرد وحاوَلتْ دائماً مَنعَ إصدار الصحف والمجلات التي يُصدرها المهاجرون الكشميريون في لاهور من الوصول إلى المَملَكة"[341].

كان بيرم ناث بازاز Perm Nath Bazaz، صحفياً كشميرياً معاصِراً لنهرو وزميلاً له في فئة الباندبت، وركَّزَ أغلب تعليقاته على الفقر المُدقِع للسكان المسلمين قائلاً: "يبدو الفلاحُ المسلم بثيابه الممزقة وقَدَميه الحافيتين وكأنه شحاذٌ جائع... أغلبهم لا يمتلك أرضاً بل يَعملون كالرقيق لإقطاعيين غائبين"[342]. كان الفلاحون المسلمون مُثقَلون بديونٍ تَخيّلية لأجدادهم المُتوفين، إذ كان الدَّين يورَّثُ لجيلٍ بعد جيل ويتراكم بفائدةٍ مركَّبَة، وتحت ضغط الفقر والضعف والجهل كان الفلاحون يَعملون في عبودية حقيقية.

كان بازاز اشتراكياً ومؤيداً لاستقلال كشمير. قبضَتْ عليه الحكومة الهندية الجديدة سنة 1947 وظلَّ في السجن ثلاث سنوات. قُبِضَ عليه ثانية في 1955 واتّهِم بكتابة مقالات ضارة بأمن الهند. عندما أُطلِق سراحه وَسَّع انتقاداته وناقش احتلال الهند في عدد من الأعمال القوية، مثل "تحرير كشمير: مبدأ ديموقراطي اشتراكي"، وخاصة "قصة كشمير المسكوتُ عنها: الديموقراطية بالتهديد والتخويف". كما أسس مجلة مهمة اسمها: "صوت كشمير".

بالإضافة إلى بازاز هناك اثنين من الكشميريين الباندبت اللذان سيلعبان أدواراً رئيسية ومتناقضة في ذلك الصراع المأساوي: في كشمير كان هناك المسلم الشيخ محمد عبد الله الذي تحوَّلتْ أسرته إلى الإسلام في القرن التاسع عشر وقام بتجسيد الوطنية الكشميرية، بينما سيُصبح نهرو أحد قيادات الوطنية الهندية[343].

فيما عدا أصلهم الكشميري المُشتَرك، فإن كل شيءٍ آخر مختلفٌ بين الرجلين: كان محمد رجلاً شَعبياً اضطر للقيام بأعمال متواضِعة لكي يُغطّي تكاليف دراسته في مدارس مَحَلية، ولم يَتعرَّف جيداً على العالَم غير الهندي. كانت دراسته النظامية في مجال الكيمياء في جامعة عليكرة الإسلامية الهندية الجديدة. بينما كان نهرو براهمياً مدنياً غنياً حصل على أفضل تعليم انكليزي في جامعتي هارو وكامبريدج. إلا أنهما اشتركا في صِفَتَين: اجتَمَعا في السجن معاً بشكل متكرر، وأصبح كل منهما قائداً في مجتَمَعه. ومن اللافت للنّظر فعلاً أنهما أصبَحا صديقين بعد أن التَقيا سنة 1937 وكادت صداقتهما أن تُنقِذ كشمير.

مثل كثيرٍ من زعماء الحركات الوطنية الذين شاهدتُهم في العراق وسورية ومصر والجزائر، بدأ محمد سيرته السياسية في مجموعةِ حوارٍ صغيرة، اجتمَعَ مع حوالي عشرة من الشباب المُتقارِبين فكرياً واستطاع أن يُركّز آمالهم وغضبهم على قضايا كانت تُحفّز الشباب المثقّف في الهند آنذاك أيضاً. استطاع أن يخلق من هذه البداية المُتواضِعة ما أطلَقَ عليه أولاً "مؤتمر

مسلمي جميع جامو وكشمير" في سنة 1932 [344]. ثم تم تَغيير الاسم إلى "المؤتمر الوطني العام لجامو وكشمير". وكما رأينا خلال الثورة الإيرانية فقد كان استِخدام كلمة "الوطني" بدلاً من "المسلمين" أو "الإسلام" مهماً. ففي إيران أثارَ التغيير حفيظةَ المؤسسات الدينية، بينما أتاح في كشمير لبعض الهندوسيين على الأقل فرصة الانضمام إلى الحركة. أرادوا هم أيضاً أن تصبح كشمير حرة. كان الانتقال من الدِّين إلى الوطنية أو القومية في كشمير وفي كثير من دول أفريقيا وآسيا القضية الفكرية الكبرى في القرن العشرين.

في سنة 1932 كان المؤتمر الكشميري في طَور النشوء والتأسيس كحركة سياسية، على الرغم من أن الشيخ محمد كان قد سُجن فترة ستة أشهر وأُطلِق سراحه في تظاهرةٍ جماهيرية كبيرة في سريناغار، وجمَّدَت الحرب العالمية الثانية السياسة الهندية. ولم يُسمَح بشيء من الحرية السياسية إلا عندما زال خطر التهديد بغزو الهند من جهة القوات الهندية التي دعمتها اليابان. وعندها أصبح المؤتمر الوطني فوراً أكبر حزب سياسي في كشمير. وفي سنة 1944 تحت تأثير الغضب من الحكم البريطاني وطغيان المهراجا، قام المؤتمر الوطني بخطوةٍ رمزية نحو الاستقلال بإعلان نسخةٍ بَليغَة من وثيقة الاستقلال الأمريكية: "نحن شعب... لكي نكمّل استقلالنا... ونَنهض بأنفسنا وأطفالنا إلى الأبد من هاوية الظلم والفقر والتخلف والتشاؤم ومن ظلامية وجَهالة العصور الوسطى... نقدِّم ونَقتَرح الدستور التالي"[345]. كلماتٌ بليغة إلا أنها لم تخفِّف وطأةَ الفقر المُدقِع والاستغلال الاجتماعي. وسرعان ما سيضع تقسيم الهندُ الملحَ على الجُرح.

عندما تهيأ البريطانيون لمغادرة جنوب آسيا سنة 1947 كان مصير كشمير غير محدَّد. مَنَحَ البريطانيون مهراجا كشمير بصفته الحاكم الاسمي للإمارة سلطة اتخاذ قرار الانضمام إلى الهند أو إلى الباكستان. تخلص البريطانيون من دورهم المؤسف في الأحداث التي جَرَتْ في نهاية حكمهم بادّعاء أنهم "افترضوا" أن المهراجا سيسترشد بأمرين: رغبة الكشميريين ووقائع الجغرافيا، غير أن أياً منهما لم يؤثِّر على قراره، فربما كان أكثر الكشميريين يرغبُ بالانضمام إلى باكستان أو بمعارَضة الانضمام إلى الهند على الأقل، بالإضافة إلى أن كشمير تتناسب مع ما سيصبح دولةَ باكستان أكثر مما كانت مع الهند وذلك لاشتراكهما في جبهة واحدة هي نهر السند وروافده التي تشكّل دم الحياة لباكستان، كما أن أغلب تجارة كشمير كانت تمرّ عبر ميناء كراتشي.

أدرك المهراجا أن وجوده في خطر بين الهند وباكستان وأن التحالف مع أي منهما لم يكن محبَّذاً. وأن انضمامه إلى دولة أعلَنتْ نفسَها إسلامية لم يكن أمراً معقولاً للحاكم الهندوسي، وأن الانضمام إلى الهند لن يكون مُحبَّذاً أيضاً لأن زعماءها الذين أعلَنوا أنفسهم اشتراكيين آنذاك كانوا يُعارِضون استمرار الامتِلاك الأميري للأرض. احتار المهراجا هاري سينغ. كان هناك خيار ثالث من الناحية النظرية: الاستقلال، ولكن ذلك الاختيار كان مجرد نظرية لن تَقبل بها الهند ولا باكستان، وما زالتا كذلك.

تحرَّكَتْ باكستان أولاً لأنها لم تَثق بأن المهراجا سيتخذ القرار المعقول سياسياً وجغرافياً ولم تَقبَل فكرةَ استقلال كشمير. قرر محمد علي جناح إرسالَ جزء من الجيش الذي ورثته باكستان

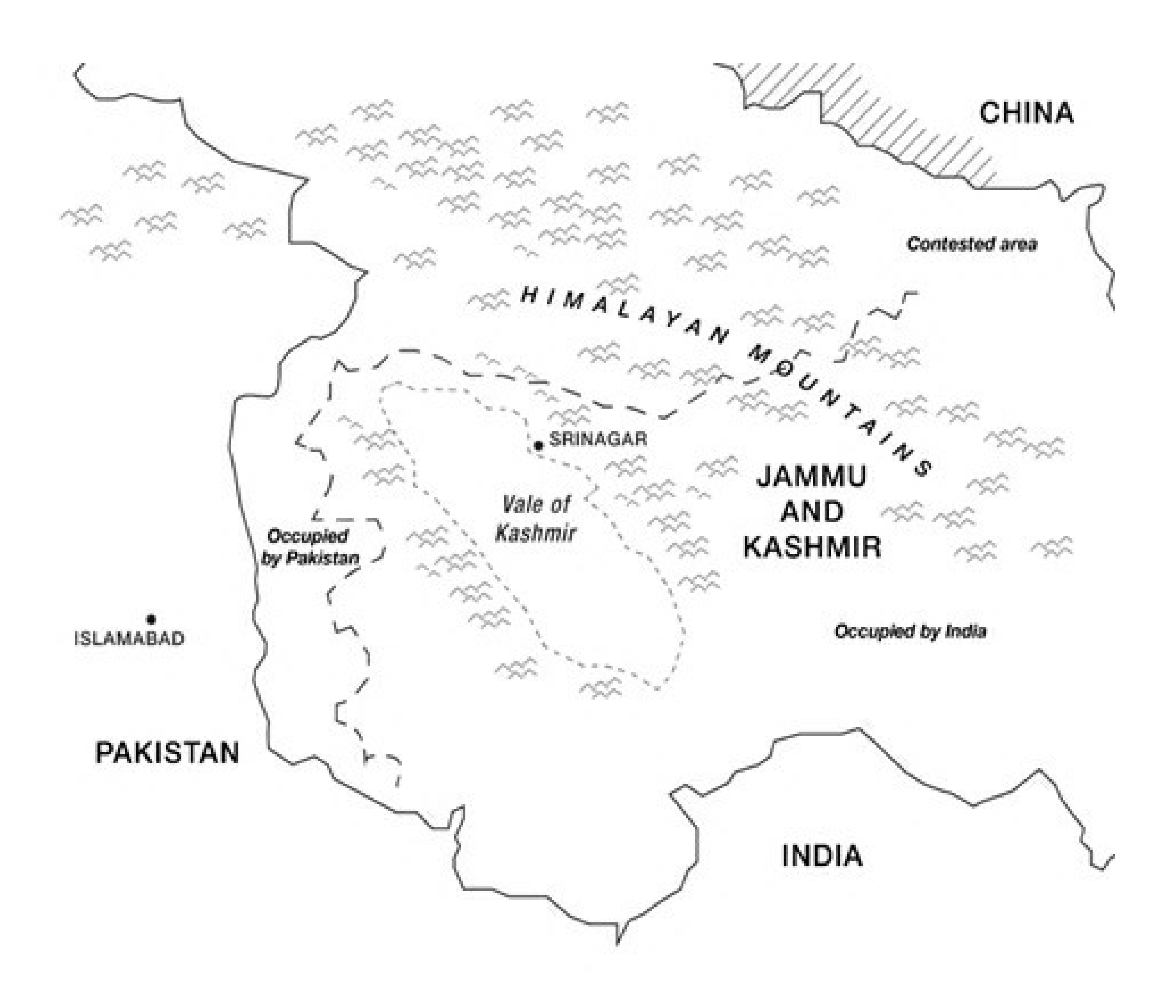
من البريطانيين إلى كشمير. إلا أن البريطانيين لم يَسمَحوا بذلك وأنذَروه بأنه إذا حاوَلَ استخدام قواته النظامية فسيَسحَبون جميع ضباطهم البريطانيين مما سيؤدي إلى انهيار الجيش الباكستاني[346]. وعندما لم يتوفر لديه أي حلّ عسكري أفضل وأصَرَّ على عدم خسارة كشمير أرسَلَ جناح قوةً غير نظامية من رجال قبائل البَشتون مع مجموعة من الضباط والجنود الباكستانيين لتأمين الدولة. قام البشتون بطريقتهم الحربية المعهودة كما كتَبَ طارق علي "بحملةٍ مفرطة استمرت ثلاثة أيام قاموا خلالها بنهب البيوت وإيذاء المسلمين والهندوس على السواء واغتَصبوا الرجال والنساء وسَرقوا الأموال من الخزينة الكشميرية"[347]. والأسوأ من كل ذلك هو أنهم لم يحققوا أهدافهم.

خلَقَ جناح حالةَ فوضى غير رابحة وأرهَبَ المهراجا الذي قرر أن مزيداً من التردد ربما يودي به إلى القَتل، فتوسَّلَ المهراجا إلى الحكومة الهندية أن تأتي لإنقاذه. انتهز نهرو الفرصة وأجاب بأن الهند لن تنقذ المهراجا إلا إذا قرر الاتحادَ مع الهند. وافَقَ المهراجا فوراً خوفاً على حياته.

في تلك اللحظة المتأخرة وبدون أن تتوفر له الوسائل لدعم موقفه قرَّر آخرُ نائبٍ للمَلك وأول حاكم عام اللورد لويس ماونتباتن أن يضَعَ ثقله في النزاع فأعلَن أن الهنود يجب أن يَستَشيروا "رغبةَ الشعب التي يجب التّأكد منها بإجراء استفتاءٍ بعد انسحاب المهاجِمين (البشتون) خارج الدولة"[348]. جَمَعَ نهرو وزارته لكي يضمن الوحدة في هذه القضية الحَرِجة ووَعَدَ بإجراء الاستفتاء وأن يَرسِل قوةً حسب طَلَب المهراجا لطَرد البشتون[349]. الإدارةُ البريطانية التي كانت ماتزال تعمل والتي أوقَفت الباكستانيين، لم تُوقِف الهنود. سرعان ما سَيطَرت القواتُ الهندية التي أيَّدها البريطانيون على أغلب كشمير بما فيها أفضل المناطق في وادي كشمير.

بَدَأتْ هذه التحركات معركةَ كشمير التي استمرت منذ ذلك الحين. أطلَقَ البشتون على أنفسهم اسم جيش كشمير الحرة وتَمكَّنوا من السيطرة على حوالي ربع إمارة المهراجا (حوالي 33,000 ميلاً مربعاً) بينما احتلَّت القوات الهندية حصةَ الأسد (حوالي 85,806 أميال مربعة) بما فيها المدينة الرئيسية سريناغار. كان تَوزّع السكان متناسباً تقريباً: حوالي الثلثين في منطقة السَيطَرة الهندية والثلث في المنطقة الباكستانية. احتلَّت الصين فيما بعد جزءاً من كلٍ من هاتين المنطقتين بالمفاوضات مع باكستان وبالقوة مع الهند.

اشتَكتْ كل من الهند وباكستان إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة بسبب هذه الأحدَاث، وكانت النتيجة في يناير أولاً ثم في أبريل 1948 أن طالَبَ المجلسُ بانسحاب القوات غير النظامية التي أُرسِلتْ إلى كشمير من جهة باكستان، وأن يُقابِل ذلك انسحاب القوات الهندية "تدريجياً إلى القوة الدنيا الضرورية لدعم القوة المدنية في المحافظة على القانون والأمن... وألا يقوموا بأي استفزاز أو مَظهَرٍ للاستفزاز ضد السكان المَحَليين". كما وافَقَ المجلسُ على تعيين إداريّ للاستفتاء "لإجراء استفتاء عادلً وغير متَحيّز ويتضَمَّن الإدارةَ والإشراف على قوات الدولة والشرطة من أجل تحقيق هذا الهدف فقط"[350].



حاربت الهند وباكستان حوالي سبعين سنة من أجل السيطرة على المناطق الوعرة في جنوب وغرب كشمير.

تم الاتفاق على هدنة سنة 1949 ولكنها كانت تُختَرَق مراراً ويتم الاتفاق من جديد، وكان أحدثها سنة 2015.

خاضَت الأغلبية الكشميرية المسلمة حرب إرهابٍ وعصابات يائسة بتشجيع جزئي من باكستان لطَرد جيشِ الاحتلال الهندي.

ولكن ذلك لم يتحقق، ففي 22 أكتوبر 1948 اندلعت أول حرب هندية-باكستانية حول كشمير. توصَّلت الأمم المتحدة بطَلَبٍ من الهند إلى هدنة تُرجِمتْ في الواقع إلى تقسيم وبدأ تنفيذها في الأول من يناير 1949. لم يحلّ التقسيمُ المشكلة ودَخلتْ كشمير في حالة من التأرجح إذ لم يقبل الكشميريون الخضوع ولم يتمكنوا من الهدوء فاستمروا بالتظاهر ضد الاحتلال الهندي بتشجيع من باكستان غالباً وبمساعدتها أحياناً.

عَرفنا الكشميريين الذين سَعوا إلى اكتشاف طريق عبر المَتاهة، إذ خرج الشيخ محمد عبد الله من حبسه الثاني في سجن المهراجا قبل أيام من كتابة المهراجا إلى مونتباتن قائلاً: "أريد فوراً تَعيينَ حكومةٍ مؤقّتة (قبل الانضمام إلى الهند) والطَلَبُ من الشيخ محمد عبد الله أن يَحمل المسؤولية

في هذه الحالة الطارئة". لم يلاحظ كثيرون آنذاك أن "هذه الحالة الطارئة" ستَرتَهنُ موقِفاً سيرسم الطريق في المستقبل: كان المهراجا يَنحَني ويَخضَع والبريطانيون قد قرروا أن كشمير يجب أن تَنضم إلى الهند، وكان نهرو مُصِراً على ذلك أيضاً، بينما شَعَرَ جناح في باكستان أنه قد خُدِعَ من طرف البريطانيين وأن الهندوس كانوا أذكى منه، وقرَّر الشيخ محمد أن الحل الوحيد المعقول هو عدم السعي وراء الاستقلال الذي طالَبَ به دائماً والانضمام إلى الهند. أصبح فيما تبقى من سيرته الحامِلَ الرسمي المُترَدّد لسياسة نهرو.

في البداية، ركِبَ الشيخ محمد موجَةَ شعبيته الجماهيرية ويبدو أن قراره في عدم السعي نحو الاستقلال لم يكن معروفاً ولا مفهوماً. استَخدَم هيبَته ونفوذه ليُحاوِل بناء جسرٍ بين الهند وباكستان، ولكن بما أنه كان قد قرر أن الاستقلال لم يكن حَلاً قابلاً للتنفيذ، وأنه يَعرف أن نهرو لن يَقبل بأي شيء أقل من السيادة الهندية (على كشمير)، لم يكن لديه شيء يُقدِّمه إلى باكستان. على الرغم من تلك الحقيقة ظَنَّ أنه يَرى بَصيصاً من النور في نهاية هذا النفق، ولذا قام بصفته رئيساً للوزراء من 17 مارس 1948 بتأسيس نوعٍ من الحَرَس الوطني للدفاع عن كشمير لما يبدو أنه فكَّر به من قرب انسحاب القوات المسلحة الهندية وتحقيق نوعٍ من الحكم الذاتي في المنطقة.

لم يَحدُث ذلك، ولكن الذي حَدَثَ كان ربما أكثر أهمية. استَخدَم الشيخ محمد سلطته لتأسيس عددٍ من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي كان قد دَعى إليها منذ أيامه الأولى في المؤتمر الوطني قبل خمس عشرة سنة. وكما سيَفعل ذو الفقار علي بوتو في باكستان فيما بعد، بَدأ برنامجاً لتوزيع الأراضي الواسعة (التي كان أغلبها للهندوس) بين الفلاحين المزارعين (الذين كان أغلبهم من المسلمين)، وافتَتح مدارسَ جديدة ومستشفيات وأسَّس جامعة. وبمجموع ذلك فقد خَلَقَ طبقةً جديدة من الكشميريين الذين كانوا أكثر غِنى وأفضل تعليماً وقدرة من آبائهم، إلا أنه بَعَثَ بذلك آمالاً وطموحات لا تقبلها السياسةُ الهندية في كشمير.

في نوع من الخضوع للقوة الهندية المُحتَّمة إلى أقصى ما تَصوَّر الشيخ محمد أن الكشميريون يمكن أن يتَحملونه اقترَحَ المؤتمرُ الوطني تنفيذَ ما أسماه الدستور الهندي "حالة كشمير الخاصة". اقترَحَ الشيخ محمد وَضعَ الشؤون الخارجية والدفاعية في يد الهند طالَما أن كشمير تَحتفظ بالسيطَرة على برامجها الداخلية. لم يتَقَدَّم أكثر من ذلك لقبول مطالب الحزب الهندي الهندوسي اليميني (الذي أصبح الآن حزب Bharatiya Janata Party BJP)[351]. طلَبَ نهرو من الشيخ محمد أن يستقيل بسبب مطالَبته بدرجةٍ خطيرة من الحكم الذاتي حسبَ تقديره. قُبِضَ عليه مرة أخرى واتُّهِم بالتآمر ضد الدولة ووضِعَ في السجن حيث بَقي إحدى عشرة سنة.

على الرغم من عِزلَتِهِ في سنوات السجن إلا أنه ظَلَّ الزعيم الوطني الوحيد. عندما أُطلِق سراحه سنة 1964 خَرَجَ مليون شخص لاستقباله وكانوا جميع سكان سريناغار تقريباً. قام بعدها بمحاولةٍ أخيرة لكسب تأييد رئيس الوزراء نهرو في التوصل إلى تفاهم تستطيع الهند وباكستان وكشمير التعايش فيه. تَصوَّرَ أنه قد تَوصَّل إلى خطة ممكنة وذهَبَ إلى باكستان لمُناقشتها مع الرئيس الباكستاني آنذاك أيوب خان. وافَقَ أيوب على الانضمام إليه لمناقشتها مع نهرو في دلهي، وكان في الطريق إليه عندما جاءَت الأنباء بأن نهرو قد توفي فجأة. وقيل أنه بَكى آنذاك.

لم يوثَق به حتى في البكاء، ففي سنة 1965 تم حَبسُهُ ثلاث سنوات ثم نُفِي من 1971 حتى 1973 ومُنِع حزبُه الذي أصبح اسمه آنذاك: جبهة الاستفتاء. كان مكتئباً ويائساً عندما قابَل ابنةَ نهرو وخليفته أنديرا غاندي وتوصَّلا إلى اتفاق سنة 1974 كان له نتائجه الكبيرة سياسياً وشخصياً، فقد تَخَلى عن المطالبة بالاستفتاء نيابة عن كشمير، وبالمقابل وافقَتْ غاندي على أنّ كشمير ستُمنَح نوعاً من الحكم الذاتي (كما يَسمَح به الدستور الهندي). وعلى هذا الأساس عاد إلى منصبه كرئيس وزراء الدولة. احتفَظَ بهذا المنصب فيما عدا فترةٍ قصيرة حتى وفاته سنة 1982.

في الفترة من 1974 حتى 1982 أصبَحَ الشيخ محمد كما وَصَفَ المراقِبُ الهندي بانكاج ميشرا Pankaj Mishra "مثلما كان الرجال قبله: ممثل الدولة الهندية في كشمير"[352]. على الرغم من أنه كان يستطيع القول إنه والِدٌ لأمَّتِهِ والمُحسِنُ لشعبه وإنه بالفعل صَانع وطنيتها، إلا أنه عَقَدَ اتفاقاً شيطانياً: لقد وافَقَ على أن كشمير ستتخلَّى عن أمَلِها في الاستقلال وأن تَظلَّ مُنفصِلة عن باكستان وتُغرِق نفسَها في خضم مجموع الهند. وفي سنواته الطويلة في السجن والمَنفى والمَوقف المُهادِن الذي توصَّل إليه مع الهند، انقطَعتْ صِلَتُهُ بالحركة الوطنية. وكما لاحَظَ ميشرا أنه بعد ثماني سنوات من خروج مليون كشميري في جنازته سنة 1982 احتاج قبرُهُ إلى "حراسةٍ دائمة لحِمايته من المُخرِّبين"[353]. لم يكن هنالك مكانٌ في فورة التمرد ولا حتى لوالِد أُمَّتِهِ.

عاش الكشميريون خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين في كساد اقتصادي وتأرجُحٍ سياسي. خَلَفَ الشيخ محمد ابنه فاروق الذي كان استقلالياً أكثر مما أرادت رئيسةُ الوزراء غاندي، فعيَّنتْ حاكماً هندوسياً طَرَدَ المسلمين من الحكومة وبسبب أساليبه العنيفة خَلَقَ بنفسه حركةَ التمرد بالفعل. مع حلول سنة 1990 ظَهَرتْ مجموعاتٌ صغيرة من الكشميريين، تم تَسليحُها غالباً من باكستان وتَدريبُها بالطرق التي تَعلمَتْها خلال قتال الروس في أفغانستان، وقامَتْ بالتسلل إلى كشمير لمضايقة الإدارة الهندية.

عندما وصل الحزبُ الهندوسي اليميني BJP إلى السلطة سنة 1998 أعلَنَ برنامَجُهُ السياسي في الهند بأنها "شعبٌ واحد وثقافة واحدة ولغة واحدة" على الرغم من أنها في النهاية مجتمعٌ متَنوع الثقافات والأعراق والأديان، وانطلَقَ لكَبتِ آمال غير الهندوس. أصبَحَ القَمعُ أمراً يومياً: أعطِيتْ قواتُ الأمن في كشمير حريةً تامة في التصرف تقريباً، غير أن أساليبهم العنيفة أثارَتْ غضب الأكثرية في الإدارة الهندية. اختفى الأمان بينما تَجَمَّدَ الاقتصادُ ثم انهار.

عندما انهار الاقتصاد اضطرتْ غالبية الكشميريين للعيش بلا كهرباء ولا ماء نظيف أو خدمات صَرفٍ صحي. ارتفع معدل البطالة الذي كان مرتفعاً أصلاً (مثلما هو الحال في بقية أنحاء الهند) لأنه في ظروف التمرد العام أصبَحت الدولة هي ربَّةُ العمل الوحيدة تقريباً، وسقَطَ واحدٌ من كل أربعة كشميريين تحت مستوى الفقر الهندي. أدى كل ذلك إلى زيادة العَداء ضد الاحتلال الهندي وانفجار في مشاكل الصحة النفسية. في الفترة من 2003 إلى 2006 دخل 45,000 شخصاً إلى المستشفيات بسبب متاعب نفسية[354].

ربما كانت أفضل دراسة منهجية مطّلِعة ومُعتَمَدة عن كشمير في فترة 2005 هي تلك التي قام بها فرعُ هولندا من منظمة أطباء بلا حدود. يُغطي تَقريرها الذي اعتَمَدَ بشكل رئيسي على مقابلات الفترة من 1989 حتى 2006. لا يمكن وصف استنتاجاتها سوى أنها مروِّعة. وهذه هي أهم النقاط:

"قال نصف المُستَجِيبين تقريباً (48.1%) أنهم لم يَشعروا بالأمان إلا أحياناً أو أبداً... ذكَرَ الناسُ مراراً أنهم تَعرّضوا إلى حملات قَمعٍ (99.2%)، وتفتيش أمني (85.7%)، وحملات اعتقالٍ جماعي في القرى (82.7%). وفي الفترةِ ذاتها تَعرَّضوا إلى تحطيم ممتلكات (39%) أو حَرقِ بيوت (26.3%). ذكَرَ المُستَجوَبون مشاهدةَ سوء معاملة جَسَدية أو نفسية (73.3%) أو تَعرَّضوا لها شخصياً (44.1%) مثل الإهانات والتهديد... تم احتجاز واحدٍ من كل ستة منهم (16.9%) بشكل قانوني أو غير قانوني. كان من النتائج الصادمة هي أن التعذيب كان منتَشراً بين المعتَقَلين بشكل قانوني أو غير قانوني: قال 76.7% منهم إنهم قد تَعرَّضوا للتعذيب خلال فترة احتجازهم... وفَقَدَ حوالي واحد من كل عشرة منهم (9.4%) واحداً أو أكثر من أفراد عائلاتهم بسبب العنف. وذَكَرَ ثلثهم (35.7%) أنهم فَقَدوا واحداً أو أكثر من أفراد عائلاتهم الموسَّعة"[355].

ويُتابِع التقرير: "العنفُ الجنسي سياسةٌ عادية تَستخدَم لترهيب وتخويف الناس أثناء الصراع. ولكنه في كشمير قضية لا تَناقَش علناً. ومع ذلك فقد قال 11.6% من المُستَجوَبين أنهم كانوا ضحايا للعُنف الجنسي منذ سنة 1989، وحوالي ثلثيهم (63.9%) ذَكَروا أن قد سَمعوا خلال الفترة ذاتها عن حالات اغتِصاب، وشاهَدَه واحد من كل سبعة"[356].

تم حَرْفِيَّاً "دفنُ" أكثر الدلائل. على الرغم من أن الحكومة الهندية قد مَنعتْ مُقَرِّر الأمم المتحدة لقضايا الإعدام بدون محاكمة من دخول كشمير، إلا أن مجموعةً غير رسمية تُعرَفُ باسم "محكمة الشعب الدولية لحقوق الإنسان والعدالة في كشمير تحت الإدارة الهندية" تدَّعي بأنها وَثَّقتْ في منطقةٍ صغيرة "2,700 قبراً في 55 قرية وثلاث مناطق في كشمير الهندية في الفترة من 2005 حتى 2009. والأرقامُ مذهلةٌ إذ وجِدَ 2,373 قبراً دون أسماء، وضَمَّ 151 قبراً أكثَرَ من جسد واحد، بينما احتوى 23 قبراً على 3 إلى 17 جسداً"[357].

صَرَّحَت اللجنة الدولية للصليب الأحمر لأندرو بنكومب Andrew Buncombe من صحيفة الاندبندنت أنها "اشتَكتْ إلى السلطات مراتٍ كثيرة إنها قد استنتَجت أن الحكومة الهندية ارتكَبتْ هذه الأفعال"[358]. نادراً ما تُصرِّح اللجنةُ الدولية للصليب الأحمر بنتائج تقاريرها إلى منظمات غير حكومية أو إلى وسائل الإعلام، غير أنها أنبأت مسؤولين في سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في نيودلهي. مُرِّرَتْ تقارير عن نتائج أبحاثها من السفارة إلى وزارة الخارجية وظَهَرتْ في ويكيليكس WikiLeaks. أظهَرَتْ رسائلُ السفارة أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر قد قابَلَتْ 1,491 سجيناً وأنهم ذَكَروا أنه:

"في 852 حالة ذَكَرَ المُعتَقَلون سوءَ معاملة، وأن 171 قالوا إنهم قد تَعرَّضوا للضرب، وقال 681 إنهم أُخضِعوا لواحدةٍ أو أكثر من ست طرقٍ للتعذيب، منهم 498 استُخدم عليهم الصَّعق بالكهرباء، وعُلِّق 381 منهم إلى السقف، وسُحِقتْ عضلات 294 معتقلاً بأن جَلَسَ عاملون في السجن على قضيبٍ معدني وضِع بين أفخاذهم، وشُدَّتْ أرجل 181 منهم في وضعية "180 درجة"، وعُذِّبَ 234 بالماء، وتَعرَّض 302 منهم لتعذيب "جنسي"... ذَكَرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن جميع فروع قوات الأمن الهندي استَخدَمتْ هذه الطرق من التعذيب وسوء المعاملة، وأضافَتْ أنّ "التعذيب يَحدُثُ دائماً بحضور ضباط... وأن المعتَقلين لم يكونوا من المقاتِلين (الذين يتم قَتلُهم بشكل روتيني) بل كانوا أشخاصاً لهم صِلَةٌ أو يُعتَقد بأن لديهم معلومات عن التمرد"[359].

مُنِحَتْ هذه الأعمال صفةً شرعية نَصَّاً وروحاً في 10 سبتمبر 1990 بقانون السلطات الخاصة للقوات المسلحة (AFSPA) الذي يوجّه إلى كل من "يضرّ التعايش بين فئات المجتمع المختلفة أو يقوم بأعمال تَستنكر أو تُشكِّك أو تُعطِّل سلطة الهند أو سلامة أراضيها أو يسعى إلى انفصال جزء من أراضي الهند". سَمَحَ هذا القانون لأي عسكري هندي، سواء أُعطِي أوامر محدَّدة أو لم يعطى، باستخدام القوة حسبما يراه مناسباً وأن "يَقبض" على أيّ شخص دون الحاجة إلى مذكرة إحضار... إذا وجِدَ شكٌ معقولٌ بأنه قام أو ينوي القيام بأعمال إجرامية، وأن يَستخدِم القوة التي يَراها مناسبة للقبض عليه". مُنِحَتْ حَصانة قانونية لكل من يقوم بتنفيذ هذه المهام[360].

نُشِرَ القانون ولكن الأعمال لم تُنشَر. غير أنه بعد يومين من نَشر تقارير السفارة الأمريكية أصَرَّ رئيسُ وزراء كشمير على أنّ "استخدام التعذيب... هو أمرٌ مضى"[361]. لا توجد معلومات رسمية عن هذا التصريح، ولكن في سنة 2012 وَرَدَ أن رئيس الوزراء قال إن قانون السلطات الخاصة للقوات المسلحة (AFSPA) يجب أن يستمر العمل به، وفي مارس 2013 وضِعَتْ كشمير مرة أخرى تحت حظر التجول.

دُفِعتْ كشمير إلى حالةٍ من اليأس ولم تَجِد أمامَها أي طريقٍ سياسي مَفتوح فاتَّجَه المسلمون الكشميريون إلى طريق التمرّد. كان التمرّد وقَمع التمرّد قطبَيّ الحياةِ في كشمير خلال أغلب سنوات نصف القرن الذي مَضَى. اتَّجَهَ بعضُ الكشميريين إلى باكستان بحثاً عن العون، وكانت الحكومةُ الباكستانية مستعدةً للمساعدة لأسبابها الخاصة. وفي بعض الأحيان كانت الحكومة الباكستانية لأسبابها الخاصة أيضاً تسعى لتهدئة الصراع. خَشِيَ المجاهدون الكشميريون من هذا التردد والغموض، ولذلك، في الصراع من أجل البقاء، قام سيّد صلاح الدين زعيمُ مجلس الجهاد الموحد بتوجيه إنذارٍ بأن المجلس سيُهاجِم باكستان "إذا تَخَلَّتْ عن قضية كشمير"[362]. وجادَلَ أنه لا يمكن تحقيق الاستقلال إلا بالكفاح المسلح "أولئك الذين يُنادون بِحَلِّ قضيةِ كشمير بالوسائل السلمية هم في الحقيقة يَخدَعون الكشميريين البسطاء... إن الخبرة على مدى خمسة وستين عاماً يجب أن تُقنِعَ أي شخص بأن الكفاح المسلح القوي والمركَّز على الهدف في جميع أنحاء كشمير التي تُسيطِر عليها

الهند هو وحده الذي يمكن أن يصل إلى التحرر من الاحتلال الهندي... فشِلَتْ 150 جولة من المحادثات مع الهند في التوصل إلى أي شيء"[363].

أجرِيَتْ مباحثاتٌ بين الهند وباكستان أحياناً ولكن التَّعبير الوحيد الذي استطاع الكشميريون تَحقيقه كان من خلال المقاومة المسلحة. ثَبتَ أن الوطنيةَ الكشميرية لم تكن كافية في وقْفِ احتلال بلادهم.

بعيداً عن كشمير، صراعٌ آخر كان يَجري في ماليزيا بين المسلمين والهنود المُتحالِفين مع البريطانيين أحياناً. تَضُّم ماليزيا مجتمعاً أكثر تعقيداً من كشمير ولكن مع اقتصادٍ أكثر تركيزاً. كانت قضايا الوطنية التي واجَهتْها أقلَّ مرارة من تلك التي رأيناها في كشمير، غير أن الأحداث والسياسات هناك قدَّمَتْ شيئاً لم تُجرِّبهُ كشمير في عصرها الحديث: هجرةَ شعوبٍ جديدة إلى مجتمعها. وهكذا بأشكال أخرى يبدو أن تجربة ماليزيا أكثر شبهاً بتجربة الجزائر فيما عدا أن القادمين الجُدد لم يكونوا أوروبيين بل زملاءَ آسيويين. أتوجه الآن إلى ماليزيا.

الفصل الخامس والعشرون

الإسلام في جنوب شرق آسيا

ماليزيا دولة صغيرة تتلاءم في أحجِيةٍ جغرافية. تُحيطُ بها تايلاند وسومطرة وجافا وبورنيو والفلبين وفييتنام وكمبوديا حول بحر الصين الجنوبي. سَهَّلَ البحرُ الحركةَ بينها بحيث أن ماليزيا اشتَركتْ مع جيرانها الجنوبيين بكثيرٍ من سِماتها الثقافية. ومنذ زمن طويل سَمَحَ البحر بقدوم التجار وهجرة السكان وانتشار اللغة والدين.

مَرَّ التجار عبر القرون في مضيق مالاكا Malacca بين ماليزيا وسومطرة ينقلون البضائع بين شبه الجزيرة العربية وإيران في الغرب وكانتون وشانغهاي في الشمال. وفي مرحلة ما، ربما في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يَطرد الصليبيين من القدس، قَدَّمَ التجارُ المسلمون الإسلامَ إليها. لا توجد سجلاتٌ فيما عدا بعض قصص الرحالة والمسافرين، ولكن يَتخَيلُ المرءُ السفنَ التقليدية العربية راسيةً بجانب السفن الصينية الخشبية في مَلاكا. كان الصينيون يَجلبون القرنفلَ والبَهار من جُزر البَهار والبورسلين من الصين لاستبدالها بالقرفة من سيلان والبَهارات من الهند والنحاس من البحرين.

كان المضيق صِلَةَ الوصل المهمة، أو ما يسميه الاستراتيجيون نقطة اختناق، في الطريق البحري الجنوبي الذي يشبه طريقَ الحرير عبر آسيا الوسطى. في أيام السفن الشراعية كان المرور عبر المضيق هو الصِلَةُ العملية الوحيدة بين الشرق الأقصى وبين أفريقيا والشرق الأوسط وأوروبا. كانت مالاكا مركزه الرئيسي حيث كان ضرورياً التَّوقفُ للحصول على الخضار والفواكه الطازجة لمَنعِ مرض الأسقربوط، ولملء البراميل والأوعية الجِلدِية بماء الشرب، ولإصلاحِ الأشرعة وسَدِّ التسربات في السفن. ولو سَقطَتْ في أيدٍ عُدوانية يمكن أن توقِفَ جزءاً كبيراً من التجارة العالمية. جَعلَها كل ذلك مُغرِيَةً للبرتغاليين فاحتلوها سنة 1511 [364]. بالنسبة لهم كانت تجارة التوابل ذهبية، وكانت مالاكا قاعدة ارتكازهم للحملات على جُزر البَهار. انتاب الضعف البرتغاليين في 1641 وأخَذَها الهولنديون منهم. ثم في 1786 أخَذَها البريطانيون من الهولنديين. جَعلتْ كلٌّ مِن هذه القوى الأمبريالية بدورها مِن مالاكا آلةَ النقود التي احتاجَتْ إليها لبناء امبراطوريتها.

لم يتحرك البريطانيون نحو الداخل إلا في بدايات القرن التاسع عشر. وفي 1924 وقّعوا معاهدةً مع الهولنديين لتقسيم جنوب شرق آسيا بينهما. في تلك المعاهدة حَصَلَ البريطانيون على اعترافٍ بامتلاكهم مالاكا وجزيرة سنغافورة وبعض الدول المَحَلية. وفي تلك الفترة أصبح القصدير الذي كان يُنتَج بكمياتٍ قليلة في ماليزيا منذ آلاف السنين سِلعةً تجارية عالمية مهمة. قامَ بانتاجه يدوياً على مرّ عقود ملايين من العمال الصينيين الذين أتى بهم مُستَثمرون صينيون[365]. استمرّ ذلك حتى سبعينيات القرن الثامن عشر عندما سَيطَرت على الانتاج شركاتٌ تجارية انكليزية. استَخدَمتْ هذه الشركاتُ أيضاً عمالةً صينية، ولكنهم اكتشفوا أن الآلات الخاصة التي طَوَّروها استَغلَّت المناجم السطحية بشكل أكثر ربحية. ازداد الانتاج بشكل سريع، وبعد نصف قرن أصبَحتْ ماليزيا تُنتِج حوالي ثلث القصدير العالمي واستَخدمتْ حوالي 120,000 عامل كان أغلبهم من الصينيين. جَعَلَ القصدير من ماليزيا واحدة من أكثر مستعمَرات انكلترا ربحية.

قدَّمتْ ماليزيا مَصدراً طبيعياً عظيماً آخر هو المطاط. وصِفتْ صناعة المطاط الماليزي بأنها واحدة من أعظم إنجازات المشاريع الاستعمارية. اكتشَفَ تشارلز غوديير Charles Goodyear سنة 1839 كيفية تَحويل المطاط إلى سِلعَةٍ تجارية، وكانت النتيجة المباشرة هو أن البرازيل، حيث كان المَوطنُ الأصلي لشجرة بارا Para التي تُنتِج المطاط، قد بدأتْ بالحصول على نصف دخلها تقريباً من بيع المطاط. احتَفَظَت البرازيل لسنواتٍ باحتكار حقيقي. ولكي تَحمي تجارتها فقد مَنَعَت تَصديرَ بذور شجرة المطاط. وكان لا بدّ مِن أنّ أحداً ما سيحاول الحصول عليها، وذلك ما حَدَثَ بالفعل سنة 1876. هَرَّبَ رجلٌ انكليزي اسمه هنري ويكهام Henry Wickham إلى حدائق كيو Kew في انكلترا حيث تم نقلها إلى الممتلكات بريطانية في الجنوب. وفي سنة 1896 تم زَرعُ أول شجرة بارا في أول غابةٍ تجارية لانتاج المطاط في ماليزيا.

كان يجب جَمعُ المطاط من الأشجار، وكانت النتيجة تكراراً حقيقياً لما حدَثَ في صناعة السّكر. بينما تَطوَّر لدى الأوروبيين تذوقٌ محبٌّ للسّكر بعد وقت قصير من إبحار كريستوفر كولومبوس إلى العالَم الجديد، احتاج العالَم كله إلى الإطارات منذ عام 1900 لإشباع إدمانه الجديد على السيارات. وبينما أدى الطَّلَبُ على السُّكر إلى العبودية، خَلَقَت السيارة شكلاً جديداً من رقيق السُّخرة. كانت التجارة بالهنود على الدرجة ذاتها في المستوى والقَسوة للتجارة بالأفريقيين. ومافعله البرتغاليون في أفريقيا، فعله الهولنديون والبريطانيون في الهند. تفجَّرت الزيادة في أعداد العمال الهنود عندما أصبح المطاط سلعة تجارية دولية، وعندما دَفَعت المجاعةُ الهنودَ إلى اليأس.

رجع بعض العمال الأجانب إلى أوطانهم ولكن كثيراً منهم بَقي، ومع مرور الوقت خَلَّفوا عائلات. وهكذا مع بداية الحرب العالمية الثانية شكَّل السكان المَحَليون من أصول هندية وصينية حوالي 40% من سكان ماليزيا. تَجَمَّع الصينيون في المدن والبلدات وسَيطَروا على تجارة التجزئة، اشتَغَل الهنودُ في مزارع المطاط، واستمرّ الماليزيون بتأمين معيشتهم كفلاحين وصيادي أسماك. بينما يوحي هذا الترتيب بتقسيمٍ متقَنٍ للوظائف إلا أنه في الحقيقة كان هنالك تنافسٌ حاد للحصول على العمل وتأمين المَرتَبة الاجتماعية فيما بينهم. ظَهَرَ ذلك بوضوح بسبب الكساد الاقتصادي الكبير في ثلاثينيات القرن العشرين.

بدأ الصينيون بالغَلَيان لكي يتم قبولهم كمواطنين ماليزيين بعد أن أصبَحتْ عودتهم خطيرةً إن لم تكن مستحيلة، وفي الواقع كان منهم أعداد متزايدة ممن لم يعيشوا أبداً في الصين. ومن ناحية أخرى بدأ المهاجرون الهنود منذ 1936 بالمطالبة كذلك بتمثيلهم في مجالس الحكومة وبحقِّهم في البقاء لأن كثيراً منهم لم يكن لديهم طريقة للعودة. لم تكن الهند في الثلاثينيات مجتمَعاً يرحِّبُ بالقادمين ولم يكن لدى كثير من شباب الهنود أية صلة بها. خشِيِ الماليزيون النشطاء سياسياً من هذه التوجهات لدى العمال الأجانب، وأعلَنوا رفضهم لأي شكل من أشكال التَّوطين. كان سبب معارضتهم يرجع جزئياً إلى القوى الاقتصادية فقد كانت الوظائف صعبة المنال وأدّى التّنافس إلى انخفاض الرواتب. كان الصينيون والهنود يحلّون محلَّ السكان المحليين في كافة مجالات الاقتصاد. وبدأ الماليزيون يتحركون بشكل متزايد بدافعٍ من اعتقادهم بأن الأجانب يُهدِّدون شعورهم بالهوية القومية.

بدأ التعبير عن الشعور بالقومية كردِّ فِعل تجاه الأجانب في سنة 1938 عندما قام ماليزي اسمه ابراهيم حاج يعقوب أسس اتحاد الشباب الماليزي. كان يعقوب وأتباعه من خريجي أحد أوائل المعاهد في البلاد وهو معهد السلطان إدريس لتدريب المعلمين الماليزيين. كان المعهد مركز تجمع للمسلمين الماليزيين وكانت فصوله نوعاً من مصنع انتاج القومية الماليزية. خرج الطلاب الشباب من الصفوف ليشكلوا حزب Partai Kebangssan Melayu Malaya (PKMM). خشيةً من تدفق العمال الأجانب، طالَبوا باتحاد ماليزيا مع اندونيسيا لكي يُقلِّلوا من نفوذ المجتمعات الصينية والهندية ويتَخَلَّصوا من الأمبريالية البريطانية. على الرغم من أن اتحاد الشباب الماليزي وحزب PKMM لم يكونوا أكبر من مجموعاتِ حِوار، إلا أنّ يعقوب يمكن أن يُعتَبر أول القوميين الماليزيين.

اتَّجَه اتحاد الشباب الماليزي إلى الصحافة مثل بقية المجموعات في العالَم الإسلامي لكي يَنشر قضيته. غير أنه اختَلَفَ عن المجموعات القومية والوطنية الأخرى التي ذكرتُها باستملاك صحيفة يومية كانت موجودةً قَبلَه وكانت واسعةَ الانتشار تكتب عن الأحداث الجارية وهي المَطبوعة السنغافورية التي سمّيتْ: مالاي تايمز Malay Times. أصبَحت التايمز صوتَ المجموعة حتى مَنَعَ البريطانيون الصحيفة والاتحاد معاً. وقبيل الغزو الياباني سنة 1942 قبَضَ البريطانيون على يعقوب وعلى أغلب أتباعه. رحَّبَ أغلبُ الماليزيين باليابانيين مثلما فعل مَن بقي حُراً مِن أعضاء حزب PKMM أملاً بأنهم سيكونون أكثر تعاطفاً من البريطانيين بسبب كونهم زملاء آسيويين. وحالما تمكَّنوا من الاتّصال باليابانيين رفَعوا إليهم طلَبَ الاعتراف باستقلال ماليزيا. ولدهشتهم وخيبة أملهم فقد رفض اليابانيون طلَبَهم.

والأسوأ من ذلك هو أن اليابانيين أخذوا يفكِّكون ما كان لدى ماليزيا من مصانع وينقلونها إلى اليابان. وعندما بدأتْ سفنهم تَغرق خلال الحرب لم يعودوا يستطيعون تصدير القصدير والمطاط وخفَّضوا الانتاج. مع انخفاض الانتاج تعطَّلتْ أعداد كبيرة من الماليزيين عن العمل وكذلك أفراد مجتمعات الأقليات. وعندما قُطِع الاستيراد المُعتاد من الأرز وارتفعتْ أسعار الحبوب المُنتَجة محلياً، حَلَّتْ مجاعة كبيرة. لم يتمكن اليابانيون، وربما لم يريدوا حتى مساعَدَة السكان المَحَليين

بالطعام أو المال أو العمل. إلا أنهم كانوا بحاجة للعمال من أجل حملتهم في بورما فقاموا بخَطف ماليزيين لتغطية احتياجاتهم هذه. انعكس اتجاه تدفّق المُستعبَدين أو عمال السُّخرة، فبينما كان البريطانيون يَجلبون العمال شرقاً من الهند، شَحنَ اليابانيون الماليزيين والهنود غرباً نحو الهند.

مَنَحَ الغضبُ والاستياء وخيبة أمل الماليزيين من اليابانيين فرصةً للبريطانيين الذين كانوا تحت ضغط كبير في الجبهة الهندية-البورمية من الجيش الياباني ومَن انضم إليه من الكتائب الهندية التي سَلَّمَها القادة البريطانيون في سنغافورة. سَعى البريطانيون لإضعاف أو لتشتيت تركيز اليابانيين، فكَّر البريطانيون بأنهم لو تمكنوا من تحفيز الماليزيين للقتال من أجل وطنهم فسيستطيعون إشغالَ كتائب من اليابانيين كانت ستنضم إلى الهجوم على الهند. ومن السخرية أن أصبح تَحفيز المشاعر الوطنية السياسة الاستراتيجية لقوةٍ أمبريالية عظمى.

مثلما فعل البريطانيون في البلقان، حاولوا أولاً أن يعملوا مع الفئات التي كانوا يَرتاحون للتعاون معها، ففي يوغوسلافيا بَدؤوا بمجموعةٍ من الضباط العسكريين اليمينيين يُعرَفون باسم الشيتنيكس Chetniks إلا أن هؤلاء تعاونوا مع الإيطاليين الفاشيين والألمان النازيين أكثر مما فَعَلوه مع البريطانيين. ولِشَغل الجيش الألماني اضطر البريطانيون إلى التّعامل مع شيوعيي جوزيب بروز تيتو Josip Broz Tito. نجَحتْ تلك السياسة في يوغوسلافيا، وربما كانت ستَنجَح في اليونان إلا أن البريطانيين التَزَموا هناك مع اليمين المتطرف. ما نَتَجَ عن كلتا المُغامَرتين هو أنّ اليسار هو الذي قام بالقتال بينما تعاوَن اليمين غالباً مع أعداء بريطانيا أو أنه لم يفعل شيئاً. وكذلك كان الأمر في ماليزيا. كلما تمكَّن البريطانيون من تَهريب عملاء إلى داخل البلاد فَضَّلوا التعامل مع مجموعة تُعرفُ باسم جيش الشعب الماليزي ضد اليابانيين. عبَّر اسمُها عن آمالها أكثر مِن سياستها. كانت كلمة "جيش" مبالَغةً وغُلوّاً، إذا أنها لم تكن أبداً قوة فعّالة بل ضعيفة التدريب ومكوَّنة من مجموعة غير مناسبة من الناس فقد كان أغلب أفرادها من سكان المدن بينما كانت أعمالُها تتطلب البقاء طويلاً في الغابات. انشَقَّ كثير من أفرادها أو سَقَطوا مرضى أو ماتوا. كانت نسبة الإصابة حوالي واحد من كل ثلاثة. وأخيراً مع انهيار المعنويات وضعف الدعم الواصل من البريطانيين المُتعَبين تم اختراقها والتلاعب بها من جهة اليابانيين، مثلما حَدَثَ للشيتنيكس أتباع درازا ميخائيلوفيتش Draza Mihailovic في يوغوسلافيا، وللوطنيين الجمهوريين أتباع نابليون زيرفاس Napoleon Zervas في اليونان عندما اختَرَقهم الطليان والألمان. لم يكن الاعتماد على تلك المجموعة ممكناً.

تحوَّلَ البريطانيون اليائسون إلى الشيوعيين والقوميين، ولكن مهما كان ذلك جذاباً في الاستراتيجية العامة للحرب، إلا أن تَحفيز السكان المحليين الذين كانوا يحاولون إخراجَ البريطانيين كان مغامرةً سياسية خطرة. وكلما كانت المجموعة أقوى كان الخطر أعظم. كان أعضاءُ ومؤيدي الحزب الشيوعي الماليزي الصغير هم الأكثر نشاطاً، وكان من المفترض أن المسؤولين البريطانيين الذين صَنَعوا سيرتهم في المستعمرات خبراءَ في قضايا ماليزيا، وكانوا على الأقل متعاطفين مع الاتحاد البريطاني الفاشي، واعتَبروا أن التعامل مع القوميين المتطرفين والشيوعيين جنوناً مَحضاً بالنسبة لهم. وكانت السياسة الوحيدة التي يُفضِّلونها هي وضع جميع الناشطين من القوميين أو

المسلمين أو الشيوعيين في السجن. كانت تلك وجهة النظر المَحَلية، وكانت تَنجح في الواقع بإقناع الحكومة في لندن بذلك. ولكن الضغط في زمن الحرب عندما كانت بريطانيا على وشك الهزيمة اتَجهَت الاستراتيجيةُ الأوسع إلى تشجيع كل مَن يستطيع إطلاق النار على قتال اليابانيين. ومن حسن حظ الشيوعيين تم حَلُّ القضية لصالحهم مؤقتاً على الأقل عندما أعلَن الاتحاد السوفييتي الحربَ على ألمانيا وانضمَ تدريجياً إلى الحلفاء، وفجأةً أصبح الشيوعيون حلفاء. استطاع رئيس الوزراء ونستون تشرشل حينها أن يأمر المسؤولين في سينغافورة بلطفٍ أن يتفقوا مع المتمردين المُتَرقّبين.

انتهز تشرشل الفرصة في ماليزيا، مثلما كان يفعل في اليونان ويوغوسلافيا وإيطاليا وفرنسا ومصر وبورما، لكي يشجع الجميع على قتال قوات المِحور بغضّ النّظر عن انتماءاتهم وأهدافهم. كان هنالك عادة أسبابٌ لكل مغامرة، ولكن التجسس كاد أن يكون هوايةً بالنسبة لتشرشل. استمتَع به وفضَّل استخدام الفرقة MI6 في الخدمة السرّية، ولكن عندما اتَّضَح أنها ثقيلة وبطيئة حاول صنع منافس كان فرقة تنفيذ العمليات الخاصة (SOE) ومَنَحها الموارد لتنفيذ عمليات سرّية أو لتنظيم مهمات تدريبية في جميع أنحاء الأرض. وسرعان ما قامَتْ أمريكا بتشكيل مكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) على نمطها[366]. فشلتْ أغلب العمليات وكان بعضها ناجحاً، وفي النهاية استطاعت SOE وOSS تسليح ودعم مجموعات محلية كانت ممنوعة قبل ذلك.

عندما شارفت الحرب على نهايتها كانت نتيجة سياسة تشرشل الذكية هي بالضبط ما ما توقَّعه المسؤولون في مكتب المستعمرات: المُتطوعون الذين لَعبوا دوراً صغيراً أثناء الحملة ضد اليابانيين قاموا بعد الحرب بِدَورٍ كبير في القتال ضد البريطانيين. كانوا قرويين في وحدات المتطوعين كقوات احتياط في Ho Pi Tui التي تشبه وحدات Viet Minh في فييتنام، ووحدات Hukbalahop في الفلبين. أدرك الاحتياطيون أن عليهم التماشي مع البريطانيين ولكن أنظارهم لم تَنحرف عن الهدف النهائي في ضرورة التخلص منهم.

جاءت فترةٌ من الفوضى وغياب القانون مع نهاية الاحتلال الياباني مثلما حدَثَ في إيطاليا وفرنسا. بعد أن تسلَّحوا بما أعطاهم إياها البريطانيون وما حصَلوا عليه من اليابانيين، طالَبَ المتمردون، الذين كان أغلبهم صينيون، باتفاقٍ جديد. حاول البريطانيون سبقهم بصنع مؤسسات ضد الشيوعية، وكان أكبر آمالهم معلقاً على اتحاد الشباب الماليزي الذي كان يسارياً إنما ليس شيوعياً، والذي أعاد تشكيل نفسه في الحزب الوطني الماليزي، غير أنه كان يطالِب أيضاً برحيل البريطانيين فسارعوا بِمَنعِه. شجَّعوا في الوقت نفسه بعض الإسلاميين الذين شكَّلوا نادياً للحوار لتنظيم أنفسهم في حزب سياسي إسلامي ظلَّ صامتاً عن قضية الانسحاب البريطاني وربما لم ينجح بالحصول على تأييد المجتمع الماليزي المسلم بسبب ذلك.

كانت القومية الماليزية بطيئة في التوصل إلى الانسجام والحصول على وسائل التعبير. كانت شبه جزيرة المالايو مقسَّمة إلى تسع سلطنات إسلامية اختلفت درجة الوعي السياسي في شعوبها. بعد الحرب العالمية الثانية اعتَبرَتْ قلة من الماليزيين أن البريطانيين هم الأعداء الرئيسيين، وتركَّز خوفهم وغضبهم على الشعوب الآسيوية الأخرى من الصينيين والهنود الذين كانوا ينافسونهم في سوق العمل. وبينما كانوا يرغبون بخروج البريطانيين من حيث المبدأ إلا أنهم كانوا يخافون أنه

لو خرج البريطانيون فسيجتاحهم المهاجرون. الخوف من المهاجرين كما رأيناه في السنوات الأخيرة يمكن أن تشعر به حتى المجتمعات الحرة. لم تكن لدى الماليزيين آنذاك مؤسسات وطنية تستطيع الدفاع عنهم. يمكن القول بأنهم لم يصلوا إلى تشكيل هوية قومية. كانوا في طَور التحول من المؤسسات الدينية إلى القومية-الوطنية مثل عدد من المجتمعات في العالَم الإسلامي، إلا أنهم لم يوطِّدوا أفكارهم ويوحِّدوا مؤسساتهم بعد.

في السنوات التالية ستتشكل هويةٌ وطنية خلال فترتين من حرب العصابات العنيفة، ومن الغريب أن الماليزيين أنفسهم لم يَلعَبوا أي دور تقريباً في الصراعات[367]. كان عدم تدخلهم مصيرياً في تقرير نتيجة الصراع. فشل التمرد في النهاية على الرغم من محاولاته بناء تأييد شعبي مَحَلي وذلك بالذات لأن الماليزيين المَحَليين لم يَعتَبروا أنه يُمَثِّلهم. والأكثر أهمية في المستقبل هو أنهم تَنَحّوا جانباً ولم يَتطَرَّفوا ولم تَعمهم الفوضى بسبب الصراع. ولذا فقد نَجوا من الأذى والفوضى التي أصابتْ مجتمعات مسلمة أخرى في نضالها من أجل التحرر الوطني. لم يتحتم عليهم القتال ضد السلطة الأمبريالية من أجل الاستقلال فقد أعلَن البريطانيون استقلال ماليزيا من أجل مصالحهم الخاصة في قتالهم ضد التمرد ذي القاعدة الصينية. ونتيجة لذلك تمكن الماليزيون من التَّحول سلمياً إلى نظام سياسي وطني.

أصبح المنظمة الماليزية الوطنية المتحدة أكبر حزبٍ سياسي في ماليزيا ومازال كذلك حتى الآن. كان تمويله من المجتمع التجاري الماليزي الحريص والمحافظ، وكذلك من سلاطنة الدول الملاوية. وجَدَ البريطانيون بالتعاون معه أنهم يستطيعون البقاء في ماليزيا وحماية مصالحهم بتغيير ألوان العَلَم لا أكثر. أصبحتْ ماليزيا اتحاداً فدرالياً للسلطنات الملاوية واستطاع البريطانيون الاستمرار بجمع المطاط واستخراج القصدير[368].

اتَّخذَت الأحداثُ في اندونيسيا المجاورة مَنحَى مختلفاً إذ وَجَدَت الحركة الإسلامية هناك طريقة لتُدخِلَ نفسها بكفاءة ضمن الحركةَ المتعددة الأعراق والديانات المضادة للأمبريالية التي عُرفت باسم المدينة التي انطلَقتْ منها في مؤتمر باندونغ. كانت اندونيسيا عند انعقاد المؤتمر تَخرج لتوها من قرونِ الاحتلال الهولندي وثلاث سنوات من الاحتلال الياباني. هذه الأحداث التي تَطرقتُ إليها في الجزء الثاني خلال وَصفي كيف جاء البرتغاليون والهولنديون إلى آتشيه في شمال سومطرة كان لها تأثيرٌ كبير في تشكيل اندونيسيا، ولعبتْ دوراً في مطالبتها بعالَم جديد سأناقشه باختصار.

اندونيسيا متَميزة بين الأمم، أولاً بعَدَدِ سكانها فهي تضم رابع أكبر عدد للسكان بين دول العالَم، إذ يبلغ حوالي 250 مليوناً يتوزعون في أكثر من ستة آلاف جزيرة تساوي مساحتُها البحرية مساحةَ أوروبا. وثانياً بتَنوعها الثقافي، إذ يَتَحدَّث سكانها واحدة أو غيرها من حوالي ألفي لغة ويَتبعون جميع الأديان الرئيسية وكثيراً من الأديان البدائية. تضم أكبر عدد من المسلمين في أية دولة ويشكّل المسلمون تسعة من كل عشرة من سكانها.

أُسِّستْ عاصمةُ اندونيسيا الحالية جاكرتا سنة 1619 على أنقاض مدينة مَحَلية بإشراف الشركة الهولندية لشرق الهند. كانت الشركة تجسيداً للأمبريالية، وكانت تتمتع بجميع سمات الأمة-

الدولة. كان لديها سلطة بدء وتنفيذ الأعمال القتالية وأن تتبع سياسة مستقلة عن هولندا وحتى تأسيس مستعمرات في الخارج، وكما ذكرتُ سابقاً فقد كانت النموذج الأصلي لما سميته الشمال العالمي.

لم تكن اندونيسيا موجودة كوحدة سياسية عند وصول الهولنديين بل كانت مئات من الدويلات الصغيرة المتفرقة في الجُزر. وَصَفتُ في الجزء الثاني كيف أن آتشيه كانت في الواقع دولة منفصلة، وسأتَحدثُ الآن عما كان يفعله الهولنديون في بقية الجُزر وخاصة في جاوا.

اهتمَّ الهولنديون أولاً بتلك الجُزر التي تُنتج سِلعاً ذات قيمة بالنسبة لتجار الشركة، وأهمها التوابل. ضعف نفوذ التجار على السياسة عندما استُبدِلت الشركة سنة 1800 بإدارةٍ كانت جزءاً من الحكومة في الوطن مثلما فعَلتْ بريطانيا عندما استبدَلتْ شركتها في شرق الهند سنة 1858. غير أنه بينما أصبَحت الهند جزءاً متمتعاً بنوع من الحكم الذاتي في الامبراطورية البريطانية، كانت الشركة الهولندية لشرق الهند تُدار مباشرة من هولندا. وَجَدَ الحكام الهولنديون أسباباً لاحتلال أغلب الستة آلاف جزيرة مسكونة بصفتهم حكّاماً لمُستعمَرة بدلاً من كونهم رجال أعمال يسعون للربح.

ثم حدثت المصيبة في هولندا عندما طَردَت الجيوشُ الفرنسية مَلك هولندا ويليام الخامس إلى المَنفى. ومِن حكومته في المَنفى بانكلترا أَمَرَ ويليام المسؤولين المستعمِرين بنقل ممتلكاتهم الاندونيسية إلى الانكليز لمَنعِ الفرنسيين من الحصول عليها. غير أن أغلب المسؤولين رفضوا تنفيذ الأمر ولم تتصرف أية قوة أوروبية بشكل حاسم فترة عقد من الزمن. ثم في سنة 1808 وَجَدَ نابليون فرصة لتشتيت انتباه الانكليز عن الهجوم عليه في أوروبا بتهديدهم في الشرق الأقصى، فأرسَلَ واحداً من جنرالاته: هيرمان دانديل Herman Willem Daendels لاحتلال المستعمَرة. توسَّعَ دانديل كثيراً في تنفيذ مهمته لكونه من جيل الثورة الفرنسية وحاوَلَ أن يفعل في اندونيسيا ما فعله نابليون في مصر. أعلَن نيَّته أنه سيفرض على المجتمع في جاوا ما كان يؤمِن به أو يَعتبره مثالياً في التقاليد الاجتماعية والسياسية الفرنسية. ولكي يفعل ذلك اعتَقدَ أنه يجب أن يُغَيِّر نظام البلاد، غير أنّ جهوده أدَّت إلى النقيض من ذلك فبَدَلاً من تدمير النظام "الإقطاعي" للزعماء في جاوا كما رآه، دفَعَهم إلى مقاومةٍ أكثر فعالية لأنها أكثر اتحاداً من المقاومة التي كانوا يَرفعونها ضد الهولنديين.

لم يفهم دانديل المجتمع في جاوا إلا أنه كان إدارياً ماهراً وجندياً محترفاً. ولا بد من أنه كان كذلك لأن نابليون لم يَمنَحه أي شيء ليعمل به تقريباً إذ كان غارقاً في حرب العصابات في اسبانيا ويُحضِّر لغزو روسيا ولم يكن لديه قوات إضافية يرسلها إلى اندونيسيا. كان على دانديل أن يُجنِّد ويُدرِّب جيشاً مَحَلياً حتى لمجرد حماية إدارته البسيطة. كانت مَهارته في التجنيد أفضل من قدراته على التدريب وسرعان ما وصَلَ عدد قواته إلى ثمانية عشرة ألفاً، غير أن أكثر الرجال اعتَبروا أن مهمتهم لم تكن أكثر من مَصدرٍ للدَّخل، وعندما اختُبِروا أظهَروا مَيلاً ضعيفاً للقتال ومهارة بدائية في استخدام الأسلحة. كانت تجربته مماثلة لتجربة كثير من المُدرِّبين لجيوشٍ مَحَلية فيما بعد، مثل الأمريكيين في أفغانستان في زمننا. بثُّ روح الوطنية في جيوشٍ مَحَلية لدولٍ لا تَعي أنها أوطان هي مهمةٌ أكبر من مَهارات الغرباء كما أدرَك دانديل سريعاً. لا بد من أنه شَعر بكثير من الارتياح عندما سَلَّم قيادته في مايو 1811.

ضرب البريطانيون بسرعة. حاصَرت البحرية المَلَكية الميناءَ الرئيسي والعاصمة التي كان اسمها آنذاك باتافيا Batavia (أصبحت فيما بعد جاكارتا Jakarta) واستسلم الفرنسيون. ولم تُظْهِر القوات المَحَلية والهولندية التي كانت تُقاوِم الفرنسيين أي مقاومة للبريطانيين. وقرر البريطانيون بانتهازيتهم المعهودة أن يعملوا لمصالحهم. كانوا محظوظين باكتشاف واحد من أفضل الرجال الانكليز الذين بَنوا الامبراطورية البريطانية وإرساله لاحتلال اندونيسيا وهو توماس ستامفورد رافلز Thomas Stamford Raffles.

طبَّق رافلز أغلب السياسات التي وضَعَها دانديل ولكنه فعل ذلك بكفاءة أكثر وقسوة أشد. وتمكَّن من تأسيس نظام استعماري جديد خلال خمس سنوات فقط. ثم في سنة 1816 عندما أُعيد ترتيب العلاقات الأنكلو-هولندية بعد الانتصار على نابليون أعاد البريطانيون المستعمَرة التي أُعيد تنظيمها إلى الهولنديين الذين تقبَّلوا الهدية البريطانية بكل امتنان، إلا أنهم رَفضوا طريقتهم في الحكم وسرعان ما قامَ الحكامُ الهولنديون الذين تمَّتْ إعادتُهم بتصرفاتٍ عنيفة دفعَتْ سكان جاوا إلى الثورة. كان البريطانيون عنيفين ولكنهم متفهمين، بينما كان الهولنديون عنيفين وغير متفهمين. كانت كثير من أعمال الهولنديين كريمة إلا أن الاندونيسيين وَجَدوها مُهِينة. زالتْ هالةُ القوة العظمى التي كانت تحمي البريطانيين، ويبدو أن الاندونيسيين قد تأثروا بهزيمة الهولنديين مثلما سيتأثر أحفادهم بعد الحرب العالمية الثانية.

انقسَمَ الزعماء المحليون حول طريقة الاستفادة من ضعف الهولنديين. لم يظهر في البداية أن هدفهم هو الحصول على الاستقلال لأن مشاعر الوطنية لم تكن قد ولِدتْ بعد. ولكن يبدو أنه كان هنالك مشاعر رفض لسياسة الهولنديين عن الإسلام. أصبحت النشاطات المعارضة شعبية تحت قيادة حركةٍ صوفية نشيطة مثلما كان الحال في مناطق أخرى من أفريقيا وآسيا. عندما انتشَرتْ لأول مرة جائحةٌ قاتلة لوباء الكوليرا اعتَقدَ كثير من الاندونيسيين أنها علامةٌ على غضب الله. وفي هذا المناخ المتفجر التقَطَ الحاكم العام الهولندي أكثر سياسات دانديل ورافلز ثوريةً وحاوَلَ بِدَورِهِ تغيير النظام. في محاولة منه للقضاء على الفساد في الحكومة ألغى النظام الفاسد في مُلكِية الأرض الذي كان يدعم الأرستقراطية المحلية وبضربة واحدة هدّدَ كبار المواطنين بالدمار. والأسوأ من ذلك أنه طالَب باسترداد الدعم الذي كان قد مُنِحَ لهم من الفرنسيين والبريطانيين. كل ما كان يحتاج إليه تفجيرُ غضبهم هو تحريك الزناد، وقد حدَثَ ذلك سنة 1825 [369].

بدأت السلطات الهولندية بقسوةٍ في تدميرِ قبر وَلِيٍّ مسلم من أجل شقّ طريق. كان القبر مكاناً يُحَجُ إليه ويُعتَبر مقدَّساً عند الصوفيين الاندونيسيين. جَمَعَ الحاكم المحلي المسلم بانجيران ديبونيغورو Pangeran Diponegoro أتباعه لمحاولة الدفاع عن القبر وانضمَّ إليهم عدد كاف من الآخرين ليشكّلوا جمهرة غوغائية. اندلع القتال وسرعان ما انتَشَرَ عصيانٌ عام من قرية لأخرى ومن جزيرة لأخرى. وفي خلال القتال العنيف الذي امتدَّ بعدها أربع سنوات قَتَلَ الهولنديون حوالي مئتي ألف من سكان جاوا، أي حوالي واحد من كل خمس عشرة من سكانها.

تُذكَرُ الحرب هذه الأيام بأنها حَدَثٌ تأسيسي في تَطَور الوطنية الاندونيسية. تدمير القبر والأحداث التي بدأت الحرب لم تعد تُذكَر مثلما تُذكَر الحرب، إلا أنها تُصَوِّر العنصر الأساسي للأمبريالية: الشمالُ العالمي يُجَرّدُ الجنوبَ مِن إنسانيته. لم يحترم الهولنديون مشاعر ومعتَقدات الشعب الذي احتلوا أرضه. لم يكونوا إخوة في الإنسانية بل "مُمتَلكات ثابتة" عندما يُنتِجون سِلعاً مفيدة، و"عقبات" عندما يَقفون في طريق مشاريع السلطة الحاكمة التي تريد تنفيذها. التَّجريد من الإنسانية شرطٌ مُسبَق ضروري للإمبريالية والاستعمار، وكما رأينا في كافة أرجاء العالَم الإسلامي فقد فَعَلَت القوى الأمبريالية ما فعله الهولنديون مدفوعين بمشاعر متشابهة.

بعد أحداث القمع الرهيب الذي قام به الهولنديون لثورة جاوا فرَضَ الهولنديون على السكان نظاماً من السُّخرة الحقيقية يُعرف في جاوا باسم cultuurstelsel. كان يشبه النظام الذي فرضَهُ البريطانيون على العراق الذي وصَفتُه في الفصل التاسع عشر. أُجبِر الفلاحون على زرع المحاصيل التي تستطيع الحكومة بيعها في الخارج (خاصة القهوة)، وكانت تُدفع لهم أثماناً ثابتة وعليهم حصص محدَّدة ولم يُسمح لهم بمغادرة الأرض. كان النظام استغلالياً بالنسبة للمزارعين الأندونيسيين، بل ومميتاً لأنهم لم يتمكنوا من أكل ما أُجبِروا على زرعه، وظَلّوا جميعاً في حالة كفاف العيش ومات كثير منهم في المجاعات مثل الفلاحين المصريين والهنود.

أما بالنسبة للهولنديين الذين تأذَّى اقتصادُهم بالاحتلال النابليوني فقد كانت فرصةُ استغلالِ اندونيسيا هِبَة من الله، ويُقال أنها قدَّمتْ أكثر من خُمس موارد الحكومة الهولندية مدة ثلاثين عاماً. وربما كان الهولنديون يستطيعون الاستمرار بهذه السياسة أكثر من ذلك دون مقاومة فعّالة لو أنهم تَركوا السكان في جَهلٍ تام، وذلك ما فَعلوه مع الفلاحين، إلا أنهم سَقَطوا في الفَخّ المالي الذي دَمَّر في النهاية أغلب النظم الاستعمارية. أرادوا توفير المال في إدارة مستَعمَرتهم فقد كان جَلبُ الموظفين الهولنديين عالي التكاليف لأنه يجب دفع رواتبهم بالمستويات الأوروبية أو أكثر، ومن الواضح أن استخدام الأندونيسيين كان أرخص من توظيف الهولنديين، ولذا فقد افتتحوا بعض المدارس لتدريب عددٍ محدود من السكان المَحَليين على مهارات بسيطة وعلى اللغة التي يحتاج إليها الموظفون، وذلك مثلما فَعَل البريطانيون في الهند والعراق ومصر. سارع السكان المَحَليون، خاصة من أهل جاوا، إلى انتهاز هذه الفرصة.

تلقّى سوكارنو من عمر سعيد معظم إلهامه. وأصبح واحداً من أفراد عائلته تقريباً وتزوج ابنة عمر سعيد ولكن سِيرتهما بدأتْ تَفتَرق. أعتَقدُ أن ذلك ربما حدَثَ لأن المدرسةَ الهولندية أعطتْ لسوكارنو ما لم يكن موجوداً عند عمر سعيد: إمكانية الحصول على مهنة، فقد كان سوكارنو مهندساً معمارياً، ومن الناحية الفكرية فقد ارتَقى سوكارنو بفضل تعليمه الجامعي إلى مستوى أعلى من التعليم الابتدائي الذي حَصلَ عليه عمر سعيد. وصَعد نجمُ سوكارنو في العالَم الاستعماري بينما لم يتمكن عمر سعيد من ذلك. طَلَّقَ سوكارنو ابنةَ عمر سعيد وابتَعد عن الاتحاد الإسلامي وأسّس سنة 1927 حزباً سياسياً هو الحزب الوطني الاندونيسي الذي تَبنّى أهدافاً مشابهة إلا أنه كان عَلمانياً وليس إسلامياً. جذَبَ الأعدادَ المتزايدة من المهنيين وخريجي الجامعات الذين اشتَركوا مع سوكارنو في تجربته وأصبح أكبر الأحزاب الاندونيسية وأكثرها نشاطاً. تَنبَّه الهولنديون، وبدلاً من اعتبار

سوكارنو مِثالاً للمُستَعمَر الذي تَبنّوه والذي يمكن أن يتَعاملوا معه، اعتَبروه عدواً وقَبضوا عليه وحاكَموه. كانت تلك خطيئةٌ فادحة.

كان الخطأ الهولندي فرصةً عظيمة لسوكارنو، فقد مَنحَته المحاكمة منبراً ووسيلة للتواصل مع الجماهير وشعبية لم يكن يحلم بها. استغل الفرصة لتحديد رسالته في عدد من الخطابات التي كانت تُقرأ وتُناقش في كافة أنحاء البلاد. وفي الحقيقة أصبحتْ فكرة اندونيسيا الواحدة شعبية منذ ذلك الوقت، وأصبح سوكارنو رجل المرحلة.

غير أن تلك الفترة انتهتْ ووضِع في السجن فترةً وتفَرَّقَ حزبه، وعندما أُطلِق سراحه تخلَّى عن السياسة وعاد إلى الهندسة المعمارية والمقاولات. لم تَقتَنع السلطاتُ الهولندية أنه قد تَخلَّى بالفعل عن السياسة فأرسَلَته إلى مَنفى مَحلّي حيث وجَدَه اليابانيون عندما احتَلوا اندونيسيا في فبراير 1942. يبدو أن الهولنديون شعروا بالخطر وحاوَلوا نَفيَهُ إلى خارج البلاد قبل وصول اليابانيين إلا أنهم لم يتصرفوا بالسرعة الكافية كما أن سوكارنو كأنما ألقى بنفسه في أحضان اليابانيين. كان الغزو الياباني بالنسبة له ولأتباعه بمثابة تحرير. لم يكن اليابانيون يقصدون التحرير إلا أنهم وَجدوه مفيداً في الوصول لأهدافهم الخاصة التي كانت تتضمن استغلال اقتصاد البلاد ومصادرة الأغذية التي كان جيشهم وشعبهم بحاجة ماسة لها والحصول على اليد العاملة. لا بد من أنه قد وَجَدَ وضعه الجديد أسوأ مما كان تحت الهولنديين، إلا أنه تمكن من إخفاء مشاعره حتى تنتهي الحرب. وعند ذلك، وبينما كانت اليابان تُعلِن استسلامها، ضغط بعضُ رفاقه على سوكارنو لكي يُعلِن استقلال جمهورية اندونيسيا[370].

حدَثَ اختبارُ إعلانه الشجاع عندما وَصَلَ الحلفاء إلى اندونيسيا مُندفعين من استراليا في طريقهم إلى طوكيو. انهزمَت القوات اليابانية غير أنها مازالت كثيرة العدد وجيدة التسليح والتنظيم. لم يكن هنالك هولنديون، وتُرِكَتْ للانكليز مهمة "التعامل" مع اندونيسيا. كانت القضية واضحة بالنسبة لهم: هولندا دولةٌ حليفة بينما كان الوطنيون الاندونيسيون متواطئين مع اليابانيين المَهزومين المَكروهين. وكانت اندونيسيا تابعةً لهولندا مثلما كانت الهند وماليزيا تابعة لبريطانيا. كان الهولنديون مُصرّين على استرجاع مستعمرتهم ووافَقَ البريطانيون على ذلك. كما أنه كانت هنالك سابقة ربما لم يتذكرها كثير آنذاك، وهي أن انكلترا قد تصَرَّفتْ كمُمثلة لهولندا في اندونيسيا عندما احتلّ نابليون هولندا. عادَتْ بريطانيا الشريفة للعب ذلك الدور.

إلا أن الدور لم يكن في المسرحية ذاتها لأن تحرير هولندا كان يختلف عن إعادة فرض الأمبريالية الهولندية. تعاطَفَ الجميع مع هولندا بسبب ما عاناه الهولنديون تحت حكم النازيين، غير أن المسؤولين والجنود الهولنديين الذين حكموا اندونيسيا لم يُعانوا في هولندا، بل قَضوا وقتَ الحرب في استراليا ولم يَحملوا مشاعرَ التحرير. كان كل ما أرادوه هو استعادة طريقتهم السابقة في الحياة داخل مستعمَرتهم. كانت مشاعرهم تختلف تماماً عن المشاعر التي عبَّرتْ عنها مَلِكَتُهم خلال الحرب. في تلك الأيام السوداء أقسَمَتْ المَلكةُ ويلهيلمينا Wilhelmina أنها "ستَمنحُ شعبَ جُزر الهند الشرقية الهولندية حقَّ المساواة وحكم نفسِها بنفسِها"[371].

لم يجد الحكماء من الرجال أن التحرير كان اختياراً مرغوباً ولا حتى ممكناً، وساعدهم الاندونيسيون في التوصل إلى ذلك الاستنتاج لأنهم عندما تَحرروا فجأةً من السيطرة اليابانية انحدَروا في هاويةِ حربٍ أهلية. انهارَ النظام الاجتماعي واضطر المسؤولون البريطانيون القادمون الذين لم يكن لديهم سوى قلة من الجنود تحت تصرفهم إلى استخدام الشرطة والجيش الياباني لاستعادة "النظام". وكذلك أخَذَ اليابانيون الذين خَرجوا لتوهم عن السيطرة مندفعين وراء شعورهم بألم الهزيمة بالقيام بعمليات قَمعيةٍ كانوا يَتجنبون القيام بها أثناء الحرب فقَتَلوا آلاف الاندونيسيين[372]. رحَّبَ البريطانيون بعودة الجنود الهولنديين بسبب الحَرَج من استخدام تلك القوات والقسوة التي استخدَمتْها. جاؤوا بسرعة ووصَلَ من القوات الهولندية حوالي 150,000 خلال سنة واحدة.

كان موقفُ سوكارنو ضعيفاً في مواجهتهم بسبب تعاونه مع اليابانيين. اعتَبره الهولنديون خائناً مثل أولئك الذين ساعَدوا النازيين في اضطهاد هولندا. كان حلفاؤه اليابانيون أثناء الحرب قد ذَهَبوا، وعلى الرغم من أنه كان مَعروفاً في اندونيسيا إلا أنه لم يكن شخصيةً مَهَيمِنة. كان أتباعه الذين استطاع جَمعهم قد أُبعِدوا عن الخدمة العسكرية من جهة الهولنديين واليابانيين، ولم تكن لديهم الخبرة، والأسلحة القليلة التي توفّرتْ لديهم كانت تلك التي سرقوها من اليابانيين، ولم تكن لديهم معرفة بالتنظيم العسكري ولا التكتيكات الحربية. وبينما هُزِمَ الجنود الهنود جزئياً بسبب عدم وجود جنرالات لقيادتهم، لم يكن لدى الاندونيسيين ولا حتى صغار الضباط.

لَدَيَّ انطباعٌ بأن القوات الهولندية احتَقَرَت العصابات الصغيرة الضعيفة التسليح من الهواة الذين واجهَتهم، ومثل جميع الجيوش المهزومة لا بد من أنهم كانوا حريصين على تعويض إهانةِ الهزيمة التي لَحِقتْ بهم على يد اليابانيين. شاهَدنا الدافعَ نفسه عند الروس إثر هزيمتهم في حرب القِرم، ولدى ضباط جيشِنا بعد الهزيمة في فييتنام. لا بد من أنهم كانوا يرغبون بالقتال ووافَقَهم بقوة على ذلك المسؤولون الاستعماريون الهولنديون المُتَشَوقون لاستعادة أساليبهم القديمة. لم يفكّر أحدٌ جدياً بالتفاوض لعقد هدنةٍ مع المتمردين الذين تمّ جَمعهم على عَجَل. قُتِلَ مزيد من آلاف الاندونيسيين خلال القتال الذي اندلع في كافة الجُزر. وتَشَوق بعضهم من شدة الخوف والرعب إلى عودة "الأيام القديمة الجيدة" من الحكم الاستعماري.

شعر سوكارنو بهذا التّغير في مشاعر الجماهير فانسَحَب من عاصمته وأعلَن استقالته من منصب الرئيس التنفيذي، وعندها تدَخَّل الرئيس هاري ترومان. لم يشغل الرئيس فرانكلين روزفلت نفسه بأندونيسيا، إلا أن أولئك الذين يُحيطون بالرئاسة اكتشفوا التهديد الروسي فجأة، ووجدوا دولاً توشك على السقوط مثل أحجار الدومينو في كل مكان نَظَروا إليه. تطَلَّبت المصالح الأمريكية أن تُساندها على الصمود. يجب البحث عن حلفاء ودَعمهم. فكَّر مستشارو ترومان أن ما كان يريدُ الهولنديون عمله في اندونيسيا سيؤدي حتماً إلى سقوطها. ولمَنع ذلك أصرَّ ترومان على أنّ الهولنديين يجب أن يَتَخلّوا عن مخططاتهم لاستعادة اندونيسيا. وهكذا من سخرية القدر كان الخوفُ من اقتِحام قوةٍ جديدة تَبحثُ عن امبراطورية يَفرضُ نهايةَ امبراطورية موجودة. كانت الأمبريالية تنهزم أمام قوةٍ أمبريالية قادمة.

لم يكن الأمبرياليون الآخرون مرتاحين لما أُطلِقَ عليه "عقيدة ترومان"، غير أن تقييمهم له كان مختلفاً. أراد الفرنسيون تَجنّب مصيرَ الهولنديين في سَعيهم لإعادة احتلال اندونيسيا، وشَعَرَ البريطانيون أنهم مضطرون للامتثال تحت ضَغط تورطهم في المصائب الهندية والباكستانية واليونانية وكونهم مُشرفين على الإفلاس. خضَعَت الحكومة الهولندية في نوفمبر 1946 لما هو محتوم، غير أن الجيش الهولندي لم يتنازل، وفي يوليو 1947 هاجَمَ الجيشُ المنطقة التي كان سوكارنو قد أعلَنها جمهوريةً اندونيسية وقبضَ عليه. أدّى ذلك إلى جولة جديدة من حرب العصابات بينما أصدَرت الأمم المتحدة أمراً بوقف إطلاق النار. كَسَرَ الجيشُ الهولندي الهدنة في 19 ديسمبر 1948 وهاجَم الاندونيسيين ثانية. أقنَع ذلك التصرف الحكومة الأمريكية بأنه يجب فَرضُ الجلاء على الهولنديين، بينما قامَت الأمم المتحدة بالمهمة التي ستقوم بها مراراً في المستقبل وهي التَّوسط والمُتابعة والمُراقبة لعقد اتّفاق سلام.

بعد يومين من عيد الميلاد في سنة 1949 استطاع سوكارنو أخيراً أن يعود إلى جاكارتا ليُطَبِّقَ ما كان يريده منذ زمن طويل: الاستقلال الحقيقي.

كان صراعاً مراً ومعقداً يشبه في كثير من الأمور الصراعات التي حدَثَتْ في أرجاء أخرى من العالَم الإسلامي. سارتْ اندونيسيا في التسلسل المعتاد، ومرة بعد أخرى احتلَّ الجنوبَ البرتغاليون والهولنديون والبريطانيون ثم اليابانيون كقوة كانت تبحث عن عضويتها في الشمال العالمي. قام كل منهم باستغلال مُمَنهج للمجتمع المَحَلي من خلال إدارةٍ استعمارية جيدة التنظيم. من أجل تحقيق الهدف الرئيسي لتعظيم الأرباح وتخفيض النفقات سَمَحَ الأمبرياليون بالتدريب المشترك لنُخبةٍ صغيرةٍ من السكان المَحَليين، وأدى ذلك إلى "اليقظة" غير المقصودة للسكان فئةً بعد أخرى. وكان لا بد للمُتمَيزين المُستَفيدين مِن تخفيف السيطرة أن يَبدؤوا المطالبة بالاستقلال. حرَّضَتْ أعمالُهم وشجَّع ضعفهم الواضح الحكومةَ الأمبريالية للتحرك ضدهم وحبس زعمائهم. وفجأة وَجَدَ زعماءُ الدول والمستعمَرات في العالَم الإسلامي صَدىً لأحداث اندونيسيا وتَكراراً لتجاربهم الخاصة ذاتها.

إدراكُ التشابه في الخبرة والتجارب سيؤدي إلى النهوض المُثير للجنوب العالمي ضد الشمال في حركةِ عدم الانحياز. بدأتْ بمؤتمرٍ تمهيدي دَعى إليه سوكارنو في مدينة بوغور Bogor في جاوا سنة 1954. وهناك قَررتْ ما سميّتْ بقوى كولومبو Colombo Powers دعوةَ زعماء خمسٍ وعشرين دولة من الجنوب لتخطيط نهضتهم بهدف التوصّل إلى موازاة الشمال العالمي[373]. مَثَّلَ أولئك الذين خَطَّطوا لدعوتهم حوالي بليوناً ونصف بليون من البشر يعيشون في ربع الكرة الأرضية. عُقِدتْ جلسات المؤتمر في المدينة الاندونيسية باندونغ على مدى أسبوع في أبريل 1955.

كان مجرد جمع الزُّمرة إنجازاً باهراً، فقد كانت هنالك خلافات عميقة بين أفرادها: دولٌ شيوعية قومية مثل الصين والهند وباكستان وفييتنام الشمالية والجنوبية، ودولٌ غنية مثل المملكة العربية السعودية وأخرى فقيرةٌ جداً مثل اليمن وأفغانستان، وحكوماتٌ ثورية وأخرى مُسيطِرة شديدة المحافظة[374].

ضَمَّتْ لائحةَ الحاضرين كَوكَبةَ من زعماء الجنوب مثل: أحمد بن بيلا من الجزائر، جمال عبد الناصر من مصر، أنديرا غاندي من الهند، المارشال تيتو من يوغوسلافيا، غوامي نكروما من غانا، كارلوس رومولو من الفلبين، هو شي مينه من فييتنام، الآرشبيشوب مكاريوس من قبرص، شو ين لاي من جمهورية الصين الشعبية، ومفتي القدس ومَلِك كمبوديا[375].

كان المؤتمرُ وحركة عدم الانحياز التي تلته نَصراً شخصياً عظيماً لسوكارنو، فقد وضَعَ نفسه في مقدمة حركة التحرر، غير أن كثيراً من الاندونيسيين لم يكونوا راضين عما كان يفعله في الشؤون الداخلية إذ بدأ يَفرضُ على رفاقه المتحررين حديثاً نظاماً من "الديموقراطية الموجَّهة" التي لم يَعتَبرها البعض تحسيناً كبيراً على الأمبريالية. في الحقيقة، لم يكن اتجاهه نحو الحكم الاستبدادي تغيّراً على وجه الدقة.

كان سوكارنو قد اعتاد اللجوء إلى إجراءات قاسية لضمان جَمع الأتباع وقَمع الخلافات مثل كثير من أولئك الذين خاضوا النضال في سبيل الاستقلال. كانت الوحدةُ أمراً لازماً وضرورياً، وكان التسامح في الاختلاف يعني خسارة الكفاح. اعتُبر الهدف مبرّراً لاستخدام جميع الوسائل، على الأقل من وجهة نظر الزعماء، وقد رأينا في مثالٍ مبكر كيف أن الإمام شامل رسَّخ الاستبداد في شعبه من أجل تحريرهم. العنفُ وحرب العصابات والإرهاب ليست مدارسَ جيدة لتعليم الديموقراطية والحريات المَدنية.

ثَبَّتَ الكفاحُ ضد الامبريالية أسوأ الجوانب فيها لدى الأمم بعد التَّحرر منها. وكلما كان النضال أقسى وأطول، كان التأثيرُ أكثر سوءاً وخبثاً. وهكذا، وبلا استثناء تقريباً، خيَّبَ زعماءُ الحركات التحررية آمالَ الذين حارَبوا من أجل الحرية. في الجنوب، لم تحتفظ سوى قلة من "المَشاعل" بنورهم حَياً مثلما فَعَل من سَماهم الأمريكان بالمَشاعل (من زعماء الثورة الأمريكية): صموئيل آدامز وباتريك هنري وتوماس باين. أصبح الوصولُ إلى السلطة نهايةً في حد ذاته. وفي غياب الجماهير الحَيوية والمؤسسات المَدنية الفعالة انصَبَّ أكثر اهتمام الزعماء على نهب معسكرِ المُغادِرين أكثر من اهتمامهم بمواصلة النضال، مثل جيوشِ العصور الوسطى. وكلما كان نجاحهم أكبر، كان ابتعادهم أكثر عن المِثاليات التي دَفَعتْهم إلى النضال. وفي غَمرة استغراقهم بشهرتهم كآباء لأمّتهم هَجَروا أو قَمَعوا أولئك الذين كانوا يُريدون متابعة الكفاح. وفي كثير من الأحيان جَسَّدوا المَقولة الشهيرة للمؤرخ الانكليزي اللورد آكتون Acton "السلْطةُ مُفسِدةٌ، والسلْطةُ المُطلَقةُ مَفسَدةٌ مُطلَقةٌ". وذلك ما حَدَثَ في اندونيسيا.

أَصبَح سوكارنو "الزعيم الأوحد" مثل عبد الكريم قاسم في العراق. الديموقراطية الموجَّهة التي اقتَرحها سنة 1957 أصبَحتْ موجّهَةً أكثر منها ديموقراطية. شجَّع على نظام جديد من الوطنية قاعدته في جاوا للسيطرة على القوى الوطنية في كل الدولة. كانت وطنيته في الواقع حركةً بعيدة عن كونها وطنيةً اندونيسية ذات قاعدة عريضة. مِنَ المُكافئ الاندونيسي للقومية إلى "قومية الدولة الواحدة" التي تَرتَكزُ على جاوا، أي المُكافئ الاندونيسي للوطنية. شعر الوطنيون في سومطرة بأنه قد تمت خيانتهم وطالَبوا بالإصلاح. اعتَبر سوكارنو تَصرفهم عصياناً وفرَضَ الأحكام العرفية. بعد

زيارةٍ إلى الصين قرر مَنعَ جميع الأحزاب السياسية فيما عدا الحزب الشيوعي وتحَوَّل بقوة ضد السياسات الإسلامية التي تَبناها في شبابه.

انفجَرتْ في سومطرة حركةُ حرب عصابات نتيجة تصرفاته الاستبدادية المتزايدة خاصة تلك المضادة للإسلام. حمَلَتْ حركةُ دار الإسلام بعض التشابه مع الدولة الإسلامية (داعش). كان يقودها صوفي اسمه كارتوزوأويرجو Sekarmadji Maridjan Kartosoewirjo وأعلَنتْ دار الإسلام أن الاستقلال كان واجهةً وأن عَلمانية حكومة سوكارنو لم تكن في حقيقتها سوى شكلاً للحياة الأوروبية، وأن الاستقلال الحقيقي لن يَحدثْ إلا إذا خُلِعَ سوكارنو وعادَتْ اندونيسيا أو تَحوَّلتْ إلى الأصولية الإسلامية كما آمن كارتوزوأويرجو Kartosoewirjo.

ولِد بعد أربع سنوات فقط من ولادة سوكارنو وتعلَّم كذلك في مدرسةٍ هولندية ودرس ليصبح طبيباً، وتأثَّرَ مثل سوكارنو بمؤسسِ الاتحاد الاندونيسي الإسلامي عمر سعيد، كما أسس حزبه السياسي بعد ذلك مثل سوكارنو. أيَّدَ كلاهما اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية حين قامَ سوكارنو بالتنظيم والدعاية بينما شكَّل كارتوزوأويرجو ميليشيا سَلَّحَها اليابانيون للحراسة ضد عودة الجيش الهولندي من استراليا، وانفصَلتْ أساليبهما منذ ذلك الحين. أصبَحَ سوكارنو رجلاً مِهَنياً، مهندساً معمارياً ومقاولاً، بينما أسس كارتوزوأويرجو مدرسة دينية. عند دراسة حياتهما يَشعرُ المرءُ بأن كارتوزوأويرجو كان مؤمناً حقيقياً ورجلاً رَهَنَ مصيره إلى الطريقة التي اختارها، بينما كان سوكارنو رجلَ دنيا. يمكن تلخيص حياتهما بشكل مبَسَّط بالاصطلاحَين اللذين أشرتُ إليهما: الدِّين والدُّنيا، أي أمورُ الدين وقضايا الدنيا. يميلُ المؤمنون الحقيقيون إلى احتقار الدنيويين، ويَخشى رجالُ الدنيا المؤمنين الحقيقيين. أعمارُ المؤمنين الحقيقيين قصيرةٌ في أغلب الأصقاع: انحَنَى سوكارنو وانتَقَى معاركه بحذرٍ وبقي على قيد الحياة، بينما تمسَّكَ كارتوزوأويرجو بموقفٍ صلب لا يَحيدُ عنه هو في الأساس الأصولية الإسلامية التي أخافَت الاندونيسيين أكثر مما أخافَتهم الأمبريالية الهولندية، وانتَهتْ حياتُهُ أمام فرقةِ إعدام سنة 1962.

الفصل السادس والعشرون

قرونٌ من المقاومة في أفغانستان

بعيداً عن جاوا، وفي جبالِ ووديانِ أفغانستان كانت مجموعةٌ أخرى من المؤمنين الحقيقيين قد شكَّلتْ حركةً أكثر قوة. وكما سنَرى فقد فَعلوا ذلك بالأفكار ذاتها التي وجِدَتْ في حركةِ دار الإسلام ولكن في مجتمع قَبَلي يتَمتَّع بتقاليد عميقة من الاستقلالية مثل تلك التي كانت في حركةِ الشيشان الصوفية للإمام شامل. مثلما كانت حال مجتمعات جبال القوقاز، لم يَحكُمُ الشمالُ العالمي الأفغانَ.

حَسْبَ أكثرِ المُراقبين الغربيين لا يَتصَوَّر الأفغانُ أنفسَهم "أمَّة"، ولذا فإن الحديث عن القومية أو الوطنية الأفغانية ليس له ما يبرره. وَصَفَ بعضُ الزوارُ أفغانستان بأنها ليست أكثر من دولة مافيا يَقتلُ سكانها بعضهم بعضاً أو يَقتلون الأجانبَ المَنحوسين لتمضية الوقت. كتَبَ آخرون أن الأفغان ببساطة يَخافون من الأجانب وما نسميها "وطنية" ما هي إلا "كراهية الأجانب". أعتَقدُ بأن هذه الآراء سطحيةً وعقيمة، سطحيةً لأن أنصارها فشلوا في فهم الطريقة الأفغانية، وعقيمةً لأنها تفشل في التوصل إلى فهم أفضل لسبب تصرف الأفغان بهذه الطريقة. وكذلك عند النظر إلى حالة الأمم التي لم تنشأ عن مجتمعات أوروبا الغربية يجب على المرء أن يَحذَرَ دائماً من استخدام المُصطلحات التي تَطوَّرتْ من التجربة الأوروبية. تفيد مثل هذه المصطلحات عادة كوسائل لتنشيط البحث والتفكير ولكنها يجب ألا تكون بديلة عنه، لأنها تكون في الغالب مُضَلِّلَة. القضايا الإنسانية ليست قاموساً يكون فيه للفِعلُ تعريفاً واحداً فقط.

في السنوات المتوسطة من القرن التاسع عشر خاضَتْ روسيا وبريطانيا نوعاً من حرب الرجل المُهذَّب تُعرف باللعبة الكبرى للسيطرة على أفغانستان. حارَب الأفغان أحدهما أو كلاهما عندما اضطروا إلى ذلك ولكنهم لَعِبوا على التنافس الأمبريالي عندما استطاعوا ذلك. يُصَوِّرُ هذا الكاريكاتور المعضلة الأفغانية. نُشِرَ في المجلة اللندنية Punch سنة 1878، ومع بعض التغييرات يمكن أن يُشير إلى الغزو الروسي سنة 1979 والغزو الأمريكي سنة 2001



أنقذني من أصدقائي.

سأُعبِّر هنا عما وجدتُه على مدى أكثر من نصف قرن من المُتابعة والدِّراسَة.

دعوني أتَخَلَّصُ أولاً من إشاعة: "الخوف من الأجانب". سافَرتُ في أنحاء أفغانستان وزرتُ كثيراً من القرى، ولم أقابَل أبداً بعُدوانية، بل لَقيتُ التّرحيب وأُطعِمتُ ما كان بالنسبة للسكان الفقراء باهظ التكاليف، وتمَّ التّرفيهُ عني ما أمكن بالموسيقى الشعبية والحَكايا. هناك واجبٌ أساسي في الثقافة يَشترك فيه الأفغان (والعرب والبربر وكثير من شعوب الجنوب بأسماء مختلفة) هو ما يُسميه الأفغانُ: ميلماستيا Melmastia وتَعني: الضّيافة، إنما بمعنى أوسع كثيراً مما تدلّ عليه الكلمة باللغة الانكليزية، وتتضمّن الحماية. يُطعِمُ المُضِيفون ضيوفهم حتى لو كان في ذلك مخاطرة بمَجاعةِ المُضِيف نفسه، ويَحمون ضيوفهم حتى لو عرَّضَ ذلك حياتَهم ذاتها للخطر. هذه التصرفات كما سأُبيّنُ لاحِقاً هي ضروريات مُطلَقَة في قانون الشرف، ويُعرِّضُهم خَرقُها إلى الخزي والعار.

عندما يأتي الانكليزُ والروس والأمريكان بسلام فإنهم يُستقبَلون بضيافةٍ كريمة، ولكن عندما جاء الأجانب بالغزو والاحتلال لم يتمّ استقبالهم بسلام. قُمتُ برحلاتي إلى أفغانستان قَبلَ

الغزو الروسي والأمريكي، ومن الواضح أنني لم أكن أحاول السيطرة على مَن استَضافني أو سَرِقتهم أو قَتلهم. استَقبلوني بحرارةٍ وبَيَّنوا لي أنهم لا يَكرهون الأجانب، غير أنهم أثبَتوا للجنود الأجانب أنهم لا يُحبّون الغُزاة.

هناك قولٌ شَعبيّ مَعروفٌ يُلَخِّص رأي الأفغان في الغزاة الأجانب: "يأتي الإنكليزي الأول للصيد، ويأتي الثاني ليرسم خرائطاً، ويُرشد الإنكيزيُّ الثالث الجيشَ، فَمِنَ الأفضل قَتلُ الإنكليزي الأول".

مِنْ هؤلاء، قَتَلَ الأفغانُ جميعَ مَن استَطاعوا الإمساكَ بهم من الإنكليز خلالَ الغَزو البريطاني في 1839-1842، وقَتَلوا مِن الروس في الفترة 1979-1989 حوالي خمس عشرة ألفاً، ومِنَ الأمريكان مِنْ 2001 إلى أيامنا حوالي ألفَين. مِنَ الواضح أنهم كانوا يُقاتلون في سبيلِ بلادِهم والحِفاظ على طَريقتهم في الحياة، أي لِحماية أمَّتهم ووطَنيّتهم. ولكن هل كانت تلك هي الحالة فعلاً؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نَبدأ بإدراك أن المؤرخين والصحفيين وغيرهم من المُراقبين يَسقطون عادة في فخّ تاريخهم المَحَلي وتاريخهم الحديث عندما يُعَرِّفون القومية والوطنية وفق المصطلحات الأوروبية. لا تَنطبق هذه المصطلحات تماماً في أفغانستان. الواضح في أفغانستان هو نوعٌ من القومية/الوطنية البِدائية التي ربما تكون قد وجِدَتْ في كل مكان في العالَم تقريباً قبل تَشَكُّل الدولة القومية في أوروبا بعد القرن السادس عشر. وفي الحقيقة، إن تَشَكُّل الدولة القومية وانطلاق مبرراتها الفكرية والعاطفية لم تَحدثْ في كثير من مناطق أوروبا حتى القرن التاسع عشر. هذا التسلسل التاريخي يوضح أن تعريفنا للقومية لا يَنطَبق إلا في حوالي 3% أو 4% من "التاريخ"، وحوالي 1 بالألف من 1% من التجربة البشرية. ويَبدو لي أن استخدَام المفهوم الغربي الحديث للقومية كنوعٍ من الحاجز لاستِبعاد تَعبيراتٍ أخرى عن مشاعر حبّ الوطن والمحافظة على الثقافة هو استِخدامٌ سيء. ولذا سأعرضُ فَهمي الخاص للنموذج الموجود في عالَم الجنوب، بل وفي كل العالَم حتى الفترة الحديثة.

عَرَّفَ كل أجدادنا أنفسهم تقريباً كأفرادٍ في قرى أو عشائر كانت "أمَم" أجدادنا، مثلما فَعَلَ الأفغان. وضَّحتُ في مناقشتي للقوميات التي عَبَّرتْ عن نفسها بشكل أفضل عند العرب والإيرانيين والترك والملايو وغيرها حيث تدلُّ الكلمة المُستخدَمة في التعبير عن "القومية" في المَعنى الأصلي على "القرية" أو "الوطن" أو "القوم".

صَرَفَت الشعوبُ القديمة والحديثة كثيراً من جهدها في تحديد هويتهم وأرضهم ضد الأجانب، ولو فشلوا في ذلك لتَمَّتْ غلبتهم وقهرهم والقضاء عليهم. كان أجدادُنا وأجدادُ الأفغان هم من تَبقَى على قيد الحياة. كانت دوافع الباقين هي الإخلاص والخوف والتقاليد التي شكَّلتْ في روحها وطقوسها ما نسميه "القومية" بالاصطلاحات الحديثة. وبالتَّخلي عن الاصطلاحات والتّسميات نستطيع تحليل المجتمع الأفغاني بشكل أكثر واقعية. أرى أربعة مستويات من التنظيم: أولاً: القرى أو القبائل. وثانياً: ما يمكن أن نفكّر فيه كتحالف قرى أو قبائل لمواجهة خطر داهم. وثالثاً: التّجَمع العَرَضي المُتقطِّع فيما يشبه دولة. ورابعاً: العدد المتزايد من الناس الذين انفصلوا مؤخراً عن قراهم وقبائلهم بسبب الحرب المستمرة. سأتحدثُ أولاً عن القرى.

القبائل في أفغانستان ليست متَنقلة كالبدو والطوارق في الشرق الأوسط، فشعوب القبائل هم قرويون، إلا أنهم تقليدياً يَتحركون أو يُرسلون بعض أفرادهم مع ماشيتهم بين الأراضي المنخفضة والجبال حسب الفصول. كما يُرسلون مجموعات من المحارِبين للقتال أيضاً حسب جدول فَصْليّ. ولذلك فإن التمييز بين رجال القبائل والقرويين لا يفيد عادة كما اقتَرحتُه في أجزاء أخرى من العالَم الإسلامي.

تاريخياً وحتى الآن يعيش حوالي واحد من كل خمسة أفغان في حوالي 22,000 قرية موزعة في الأرياف حيثما وجِدَ ما يكفي من الماء للحياة. عندما سافرتُ في البداية في أنحاء أفغانستان سنة 1962 ظننتُ أن المرء يستطيع تخيلها كهضبة وعرة تغطّيها 22,000 كرة صغيرة. وكل كرة أو قرية مكتفية ذاتياً ومميزة ومنكفِئة نحو الداخل. لم تعتمد أية كرة، ولم تتمكن من السيطرة على الأخريات. يمكن أن يتقاذفها الأجانب، غير أنه من النادر أن يؤثِّر ما حدَثَ لواحدة منها على الأخريات.

عندما زرتُ عدداً من هذه القرى وتحدَّثتُ مع كثير من زعمائهم ولاحَظتُ كيف يديرون شؤونهم وقرأتُ ما كتَبَه زائرون آخرون، اكتشفتُ أنهم لم يَعرفوا ولم يَهتموا كثيراً بقرىً أخرى لا تبعد عنهم سوى أميالاً قليلة. وبالطبع فإن الجيران قد لا يستطيعون أحياناً الوصول إلى بعضهم بعضاً بسبب وعورة تضاريس البلاد. وفيما يتعلق بالأمر الأساسي في الاكتفاء الذاتي، وهو الزواج، قيل لي أن قليلاً منهم يتزوج خارج النطاق الضيق حولهم. وكما ذكرتُ، فقد وجَدتُ هذا النمط تماماً في قرى الجبال اللبنانية التي درستُها سابقاً. وبالتالي فإن روابط القرابة تكون قوية داخل الجماعات بينما تكون شبه معدومة بينها.

كان الاقتصادُ أيضاً مَحَلياً بالضرورة، فحتى وقت قريب كان التحرك بين القرى صعباً جداً بل وخطراً أحياناً لأن الطرق قليلة والجبال عالية ووعرة والوديان سحيقة وعميقة وضيقة. تَقسِمُ الأراضي المنبسطة عادة قنواتٌ وجدران فيما يشبه المَتاهات. عندما قدتُ السيارة في جبال هندوكوش كان "الطريق" الذي سرتُ فيه ضيقاً جداً لدرجة أن سيارة الجيب كانت تضطر للرجوع مراراً للالتفاف حول المنعَطَفات الحادّة، وكنتُ كثيراً على بُعد بوصات قليلة من منحدر يبلغ عمقه مئات الأقدام. قبل وجود سيارات الجيب وحتى في هذه الأيام لم يقم القرويون بمثل هذه الرحلات إلا نادراً. كانوا يأكلون ما يُنتِجون ويَلبسون ما يُخيطون، وانتَقلتْ أدواتُهم وأسلحتهم من جيلٍ إلى جيل. تمسَّكَ القرويون بقوة بفَدادينهم القليلة من الأرض الصالحة للزراعة مثلما تمسَّك الإغريق القدماء بأرضهم في دويلاتهم المتحاربة. كان لا بد عليهم مِن فِعل ذلك لأن البديل هو المَجاعة.

كان على الأفغان أن يكونوا كالنسور لكي يظَلّوا أحياء في جبالهم وهضابهم الجرداء، ولذا فكل تجربة وكل غريزة وَجَّهَتْهم داخلياً نحو أقربائهم المباشرين، فوراء التلة المجاورة قد يوجَد أعداءٌ يَرفعون الأيدي ضدهم دائماً، ولم تكن الأيدي بعيدة عن الزناد أو قبضة السيف. شعر الإغريق بذلك أيضاً. كانت القرى الأفغانية بالفعل "أمَمَاً أو أقواماً" سواء أُطلِقَ عليهم هذا الاسم أم لا، مَثلهم كمَثل المدن الإغريقية القديمة أو المدن الإيطالية في عصر النهضة.

كما ذكرتُ فإن إدراك هذا الواقع هو الذي دفَعَ المصريين الذين كانوا أول أناس وصفوه بكلمة محدَّدة للتعبير عما يشبه فكرة القومية الأوروبية بالكلمة العادية "القرية" أو "الوطن". لو سألتَ فلاحاً مصرياً حتى وقتٍ قريب عن اسم وطنه، لن يَخطُر على باله أن يقول "مصر"، بل سيجيبُ باسم قريته. تَنطَبق هذه الانطباعات نفسها على أفغانستان.

فوجئتُ مثلَ جميع مَن زارَ أفغانستان بحقيقة أن الأفغان كانوا يَتمسَّكون باستقلاليتهم بقوة على الرغم من شَظَفِ معيشتهم. عَرفَ البريطانيون ذلك في محاولاتهم الثلاث لاحتلال أفغانستان وعانوا الأمَرَّين من حَميَّةِ الأفغان في الدفاع عن استقلالهم. واحدةٌ من هزائمهم هناك كانت أسوأ هزيمة يتَعرَّض لها الجيشُ البريطاني في القرن التاسع عشر. وخلال حرب السنوات العشر التي بدأها الروس سنة 1979 اكتَشفوا أنهم يستطيعون تدمير أي عددٍ من القرى، وقَتَلوا خلال ذلك حوالي مليون أفغانياً وهجَّروا حوالي ثلاثة ملايين خارج الوطن، إلا أنهم لم يَتوصَلوا إلى أكثر من هدنةِ قريةٍ إلى أخرى مع الأفغان. مهما كان الاصطلاح الذي يريد المرءُ استخدَامَه في وصف المشاعر التي حرَّكت الأفغان، ومن الصعب تَجنب استخدام كلمة "الوطنية"، فقد هَزموا آنذاك قوةً عظمى حديثة قوية التسليح. انسحَب الروسُ المُنهَكون عبر آمو داريا Amu Darya تاركين وراءهم أجساد حوالي خمس عشرة ألفاً من جنودهم.

فيما وراء مستوى القرية، يجد الأفغان هويةً وانتماء أيضاً في التحالفات القَبَلية، ويمكن تشبيه الانتماء إلى حِلفٍ قَبَلي بالانتماء إلى مقاطعة أو ولاية. مثلما هو الحال عند العرب والبربر تتشكَّل هذه التحالفات تحت ضغط تهديدٍ بهجوم أعداء، وكما وضَّحَ علماءُ الإنسان في أفريقيا فإن التحالفات تَحدثُ عندما يَتحدى أفرادُ مجموعةٍ ما فئة أو مجموعة أخرى تشبهها. وهكذا ففي الحرب الطويلة على الجبهة الشمالية الغربية (المساحة غير المحتَّلة بين أفغانستان وباكستان) واجَهَ رجالُ القبائل الجيشَ الأنكلو-هندي الذي كان في نَظَرِهم نوعٌ من التحالف القَبَلي. ولذلك اجتمَعَ رجالُ القبائل المختلفة لمحاربته. في ظروف السِّلم النسبي النادر، كانت الأحلاف القَبَلية تعبيراً عن التعاطف أكثر من كونها فعلاً واقعياً.

على مستوى أعلى كانت أفغانستان، أو معظم ما يُعتَبر أفغانستان هذه الأيام، تَحكُمها ما يمكن أن نعتَبرها حكومات وطنية. انتُخِب أول حاكم "حديث" سنة 1747 من طرف مَجمَع قَبَلي (جيرغا Jirga) بالاجماع، وكان أحمد شاه عبدلي Ahmad Shah Abdali (الذي كان يُعرَف باسم أحمد شاه دوراني Durani)، ويُعتَبر أبو الدولة الأفغانية. غير أن فَهمَ الأفغان لما نعتَبره الآن "إجراءات دولة" ليس بمفهوم "الدول" بل بمفهوم "السلالات" التي تتكون الأنظمةُ فيها من حاشيةِ أو عائلةِ الحاكم، ويقوم الذين يَعتَنون بشخصية الحاكم بوظائف الحُكم الأخرى. ربما سيفهم المَلك هنري الثامن الحكومةَ الأفغانية أكثر مما يَفهمها كثير من علماء السياسة المعاصرين.

ارتَكَزَ نظام القيادة والزعامة في كل من هذه المستويات الثلاثة على التقاليد. ففي مستوى القرية كان هناك فرد يُتَّفقُ عليه كزعيم بحكم عمره أو ثروته أو سمعته، إلا أنه لم يكن حاكماً، ولم تكن لديه وسائل لإجبار رفاقه في القرية على تنفيذ قراراته، بل كانوا نُظَراءه. كان يتمتع بالنفوذ لأن

جيرانه كان لا بد من أن يَتخاصموا حول الماء وحدود الأرض ودَفع الديون وعقد الزواج أو الطلاق وتوزيع الإرث. لم يكن ممكناً حلُّ مثل هذه القضايا اليومية بالبارودة أو بالسيف. لجَأ الأفغان إلى التقاضي لحلِّها مثلما فَعلتْ شعوب أخرى مستعمَرة أو ما قَبل-الغربية على امتداد الأرض من القرويين الهندوس في الهند إلى قبائل الإيروكوا Iroquois من السكان المَحَليين في أمريكا. يَتجمَّع الرجال تحت إشراف رجل مُسِنٍّ محتَرم فيما يسميه البشتون: الجيرغا Jirga، ويسميه الهزارا: أولوس Ulus، ويسميه البانشيري: الشورى Shura. فَعَلَتْ ذلك أيضاً تجمعاتٌ قروية مشابهة في فلسطين حيث كانت تُسمَّى: الختيارية، وفي الهند وبنغلاديش ونيبال حيث تُسمى: Panchayet-i raj. [376]

تجتمع مجالس القرى عندما تظهر قضايا مُلِحَّة لا يتمكن الزعيم المحلي أو رجل الدين الحكيم من حَلِّها، وهي بمثابة النسخة الأفغانية من الديموقراطية التشاركية، وعندما يَتصرفون يُعتَبر أنهم يُجَسِّدون "طريقة" أو "سنَّة" مجتمعاتهم. الأعضاء ليسوا منتَخبين بل يَتّخذون مواقعهم بالتوافق والاتفاق. هذه المجالس ليست مؤسسات بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل يتم عَقدُها حسب الحاجة.

يَعرض المدَّعي قضيته أمام المجلس المُنعَقد وتُناقَش جوانبها. قد تتوصل المناقشة بذاتها إلى حَلٍّ لأن التوتر قد يَزول تدريجياً عندما يُناقِش المدَّعون مواقفهم. وأخيراً يتم التوصل إلى اتفاق وتَعود الحياة إلى طبيعتها لأن مُخالفة قرار المجلس تُعتَبر خطيئة. يُخاطِر أي شخص يَرفض تنفيذ اتفاق المجلس بفقدان عضويته في المجتمع ويُصبح عند طَردِهِ مشرَّداً خارِجاً عن القانون دون أي حماية. الطَّردُ في مجتمعٍ قَبَلي يعادلُ الحكم بالإعدام في أغلب الحالات.

بما أنه ليست جميع المشاكل مَحَلية فقد كانت المجالس تُجمَع أحياناً بين القرى لحَلِّ خلافات حول الماء أو الماشية. وكانت تُدعى أحياناً لمواجهة تهديد غزو أجنبي[377].

في المنطقة التي سَمَّاها البريطانيون الجبهة الشمالية الغربية والتي تُكَوِّنُ الآن مقاطعةَ سوات Swat الصغيرة، أنذَرَ زعيمٌ ديني مجلساً من رفاقه القرويين أن البريطانيين يضَعون أسس الأمبريالية، وحضَّهم على إنشاء قوة لوقفهم. كانت تلك بداية حركة طالبان. كان الإجماع الذي تم التوصل إليه هو أن يُصبِح شبابُهم الذين تلقّوا تعليماً دينياً (طالبان) محاربين من أجل الدين ومجاهدين وأن يُعلِنوا الجهاد ضد البريطانيين وحلفائهم من سيخ البُنجاب.

بعد سنوات قليلة عندما احتلَّ البريطانيون مدينة كابل، دُعِيَتْ جيرغا ثانية للتعامل مع تهديدٍ مماثل. شَعَرَ الأفغان بالمَهانة عدة أشهر وتَميَّزوا غيظاً. كانت المشكلة التي أدَّتْ إلى اجتماعهم وأفعالهم هي أنّ كبير المسؤولين البريطانيين متَّعَ نفسه بالمباهج التي يحصل عليها حاكمٌ أمبريالي من بذخ في الطعام والشراب والحظوة بالحريم واللعب مع زوجات وعشاق وبنات نبلاء الأفغان. طَرحتْ تصرفاته معضلة خطرة: عدم فعل أي شيء سيكون مخجلاً، ولكن من المؤكد أن أي فعل سيؤدي إلى أعمال انتقامية يقوم بها الجيش البريطاني القوي. كانت تلك قضية أكبر من أن يواجهها رجلٌ واحد غاضب. كان الاتفاق الجماعي ضرورياً، وذلك يحتاج إلى جيرغا.

طَلَبَ المُدَّعي من الجيرغا تطبيقَ العدالة لأن جنوداً بريطانيين ضربوه عندما حاول استرداد حبيبته التي اختطفها مسؤول بريطاني. وبما أنها كانت جارية فقد كانت حالتها قابلة للمناقَشة، ولكن بما أن الرجل قد ضُرب وأُهين فإن قضية القصاص والبَدَل لم تكن قابلة للمناقَشة. وأضاف المُدَّعي أن هذا يمكن أن يكون خطوة أولى لسلوكٍ يقوم به البريطانيون "بالقَبض علينا جميعاً وتَهجيرنا إلى سجنٍ في الخارج... إذا انتصرنا فذلك ما نريد، وإذا استشهدنا في المعركة فذلك أفضل من أن نعيش في ظلِّ المهانة والعار"[378]. جاء القول الشعبي الأفغاني بالإجابة الصحيحة: كان من الأفضل قَتل أول إنكليزي.

لم يكن ممكناً لأعضاء الجيرغا حينها معرفة الخطة البريطانية تماماً إلا أنهم شاهَدوا التصرفات البريطانية وتَصَوروا أن رفاقهم المدَّعين كانوا على حق، مثلما كان القول الشعبي، ولذا هرع الأعضاء إلى منزل المسؤول البريطاني وقَتَلوه.

وبعدها كَتَبَ ممثلٌ عن الجيرغا إلى القائد البريطاني وطالَب البريطانيين بترك الأفغان يحكمون أنفسهم "وفق تقاليدهم وبمَلِك من اختيارهم"[379]. رَفَضَ البريطانيون النصيحة كما ذَكَرَ المؤرخ الانكليزي جون كاي John William Kaye في وصفه الكلاسيكي للحرب الأنكلو-أفغانية: "على مر الفترة الكاملة للعلاقة البريطانية بأفغانستان خيَّم عَماءٌ أخلاقي غريب على عيون رجال دولتنا... قَصَدَ سلوكنا إنذارهم وإثارة غيظهم إلى أقصى درجة من الخوف والهياج، وعلى الرغم من ذلك تحدَّثْنا عن ارتيابهم الطفولي وعُدوانيتهم غير المُبرَّرة"[380]. حاول البريطانيون تقسيم الأفغان وتَخريب الجيرغا، غير أنهم سرعان ما أدركوا أن "الدولة بكاملها حَمَلَت السلاح ضدنا"[381]. وكما كتَبَ المبعوث البريطاني السير ويليام ماكناتن William Macnaghten إلى الحاكم العام في الهند أن الأفغان أظهَروا "أقوى مشاعر الكراهية الوطنية والاحتقار الديني... لم يمكن شراؤهم بالذهب البريطاني، أو إغراؤهم بالوعود البريطانية... ولا إذلالهم بالولاء للحاكم البريطاني دوران كينغز Douranne Kings، ولا إخضاعهم بالحِراب الأجنبية"[382].

كانت الحِراب البريطانية مخيفة بالطبع، إلا أن الأفغان كانوا يُعطون الدرسَ الأول من الدروس التي سيعطونها للبريطانيين في ثلاثة حروب، وللروس، وكذلك للأمريكان الآن. كانوا محارِبين شجعاناً. كتَبَ الكابتن فينسنت إري Vincent Erye بحسرة: "كَسَرَ المحارِبون الأفغان (الغازي) مربَّعاتنا الدفاعية تماماً". كانت المربَّعات الدفاعية هي التشكيلات الدفاعية الأخيرة في جيوش القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وتابع "سَمِعَ الجميع عن المربَّعات البريطانية التي صَمَدتْ أمام الهجمات اليائسة المتكررة لأفضل خيالة نابليون في معركة واترلو. شكَّلنا مربعات في بيمارو Beymaroo (خارج كابل) لمقاومة الطلقات البعيدة المَدى من المشاة، وكوَّنا بذلك كتلةً صلبة متماسكة ضد تصويب أفضل الرماة في العالَم". إلا أن الكتائب البريطانية "انهارَتْ في النهاية"[383]. وكذلك انْهارَ الروسُ فيما بعد. ولا نَعرِف فيما إذا كان الأمريكان في أيامنا سيَنهارون أيضاً أم لا، إلا أننا جميعاً، البريطانيين والروس والأمريكان، تعلَّمنا بخسائر كبيرة أن الأفغان لن ينهاروا.

أصبح موقف البريطانيين حرجاً، فقد أوشَكَ مخزون الطعام على النَّفاذ، وسَقطتْ قلعةً بعد أخرى، وانهارَت الروح المعنوية لدى الجنود البريطانيين والهنود وانشقَّ كثيرٌ منهم مع الأفغان. وأخيراً بعد فوات الأوان قرر المسؤولُ البريطاني الأعلى ماكناتن Macnaghten أن يجرّب خدعة. اقترَح الانسحاب من البلاد بحركة دبلوماسية ظاهرية إلا أنها كانت وسيلةً لتأخير الأفغان أملاً بأنهم سيَتَقاتلون فيما بينهم، أو أنَّ قوة انقاذ بريطانية ستصل في الوقت المناسب لإنقاذ حامية كابل وأتباع معسكرها الذين بلغ عددهم حوالي العشرة آلاف. عَبَرَ ماكناتن الخطوط البريطانية للالتقاء بزعماء الأفغان، الذين قال أنهم "يُعتَبرون لسان الشعب"، على الرغم من أنه لم يَستخدم اصطلاح الجيرغا، لكي يقدِّم شروطاً جديدة[384]. قُرِأت الشروط الجديدة التي قدَّمها البريطانيون للزعيم الأفغاني بأن البريطانيون سيُغادرون إنما بشروط وَجَدَها الأفغان مُهينة، إذ سيترتَّب عليهم دَفع جزية سنوية إلى الحاكم الذي وضَعه البريطانيون والذي اعتَبره الأفغان خائناً، وأنّ "عفواً عاماً سيُمنح لجميع الذين أصبحوا منبوذين بسبب علاقتهم بالشاه شجاع Shah Shoojah وحلفائه البريطانيين"[385]. والأسوأ من الشروط هو أن خداع البريطانيين كان واضحاً. يبدو أن مخبريهم في المعسكر البريطاني قالوا لهم إن البريطانيين يَقومون بالمناورة وأنهم يُحاوِلون رشوة بعض الزعماء من رفاقهم وأن يَكمنوا للآخرين، بل أنهم كانوا يُفكِّرون بالاتفاق مع الروس لتقسيم البلاد. لم يَعرف البريطانيون أن جيرغا قد انعقَدَت وقَرَّرت ضد الاتفاق مع البريطانيين. وهكذا ارتكَبَ البريطانيون ما هو غير مقبول في إجراءات الجيرغا.

تظاهَرَ الأفغان بالقبول إلا أنهم عرفوا أنهم قد حصروا البريطانيين في قبضتهم. كان يأس البريطانيين واضحاً وأصبح الأفغان أكثر ثقة بأنفسهم. تأخر البريطانيون كثيراً، ولذا وضَعَ الأفغان الاتفاق غير الجاهز جانباً، وفعلوا ذلك بعنف. قبضوا على ماكناتن في المواجَهة الأخيرة، وكما كتَبَ الكابتن كولن ماكينزي Colin Mackenzie الذي كان أحد ضباطهم إلى إري Erye بأن الزعماء (الخانات) حاولوا حماية مكناتن ولكن "جماعة من المحارِبين المتعصبين... عندما شاهدوا العراك هرعوا إلى المكان هاتفين بأعلى صوتهم طَلَباً بدم الكفار المَكروهين وصَوبوا نحوهم ضربات قاتلة بخناجرهم الطويلة وأسلحة أخرى ولم يَمنعهم من إطلاق النار سوى خوفهم من قَتلِ أحد الزعماء... وتحت إصرارهم على عدم خيبة الأمل في رغبة الجماهير، وبتأثير دوافعه التَّنَمرية وتذكّره ما حدَثَ لأبيه من مساوئ، سَحَبَ (محمد أكبر) مسدساً أهداهُ إليه المَبعوث ماكناتن قبل ساعات من ذلك، وأرداهُ قتيلاً، وسرعان ما مزَّقَ المحارِبون الأشداء جسدَه إرباً"[386].

حتى في خضم تلك الأحداث المَشحونة بالكراهية تمسَّكَ محمد أكبر، أشد المحاربين الأشداء ضراوة، بقانون الضيافة الأفغاني الذي يقضي بواجب حماية رجل طَلَبَ ذلك. وعندما أمسَكَ الكابتن ماكينزي بركاب سرج محمد أكبر علامةً على طَلَبِ الحماية، "سَحبَ محمد أكبر سيفه وأشار به إلى أتباعه الذين أوقفوني إلى الجدار وغطّوني بأجسامهم وأشاروا أنّ أي ضربة لن تصل إليّ إلا عَبْرَ أجسادهم". كتَبَ ماكينزي أن أكْبَر "استدارَ نحوي وكرَّر بسخريةِ المُنتَصر قائلاً: تريد أن تحتَّل بلادي! هل ستفعل ذلك!"[387]. ولكن بعد ذلك الانفجار قام أكْبَر بتغطية ماكينزي بثياب أفغانية وسمَحَ

له بالعودة إلى التحصينات البريطانية دون أن يُصاب بأذى. كانت الضيافة فوق الغضب، كانت التزاماً شخصياً وحَمَت الرجل الذي طَلَب الحماية، غير أنها لم تشمل الأجانب الآخرين.

بعد موت ماكناتن، اتُّهِم الضباط البريطانيون الآخرون بالخيانة، خاصة لمحاولتهم شقَّ صفوف الخانات الأفغان كما عُرِف عن ماكناتن، وقيل لهم: "لن تُمنَح لهم أية شروط فيما عدا استسلام جميع القوات مع عائلاتهم كرهائن، وتسليم جميع البنادق والذخائر والأموال"[388]. اجتَمعت جيرغا وعَرضَت على البريطانيين شروطاً أفضل قليلاً: يُسمح للعائلات بالمغادرة إذا تم استبدالهم برهائن ودُفعتْ تعويضات للأفغان. رفَضَ البريطانيون.

وأخيراً في 6 يناير 1842 كما ذَكَرَ الملازم إري "حَلَّ الصباحُ القاتل" بعد حصارٍ شهرين أصبح فيها أغلب البريطانيين على شَفَا المجاعة، خاصة جنودهم الهنود وأتباعهم في المعسكر. تقدَّموا بصعوبة في الثلج العميق. بقي منهم حوالي 4,500 جندي على قيد الحياة مع حوالي 12,000 من أهل المعسكر "بالإضافة إلى النساء والأطفال". حَمَلَ ألفان من الحيوانات ما تَبقَى من المؤن لدى القوات البريطانية، إلا أنها تحركت بصعوبة بالغة. "الحشد من الجنود وأهل المعسكر ومواشي الأحمال" قطع خمسة أميال فقط في حوالي سبع عشرة ساعة من المسير المؤلم، بينما تبعهم رجال قبائل أفغان خلفهم مباشرة لسرقة المؤن والمَعزولين. وعلى التلال استمر رجال قبائل آخرين بإطلاق النار المزعج من بنادقهم الطويلة[389].

ما فعله الأفغان كان بشكل أساسي تكراراً لهجمات العصابات الاسبانية على جيشِ نابليون في اسبانيا، وتدميرُ الأنصارُ الروسُ لجيشِ نابليون في روسيا، إلا أنها كانت أكثر درامية وحَسماً، فمن حوالي الست عشرة ألفاً من الكتائب الأنكلو-هندية والعائلات الانكليزية وغيرهم من أهل المعسكر الذين أُطلِق سراحهم، لم يصل سوى رجل واحد إلى المعسكر البريطاني في جلال أباد. جمَعَت الحرب الأمة ونَفَّذت قرار الجيرغا.

كان هناك نوعٌ آخر من الجيرغا في الأعراف الأفغانية يجتمعُ للتعامل مع قضايا ذات أهمية وطنية، ويَضم أعضاء من طيف واسع من التحالفات العرقية والقبَلية أو ربما أوسع من ذلك، وفي تلك الحالة يسمى الاجتماع: لويا جيرغا Loya Jirga. كان ذلك هو النوع من الجيرغا الذي اجتمع سنة 1747 لإجازة الحاكم الجديد. يمكن اعتبار اللويا جيرغا نسخة أفغانية من لجنة دستورية أو محكمة عليا.

فعَلَ الأمريكان سنة 2002 ما فعله البريطانيون تماماً في 1839، وما فعله الروس في 1986: انتَقوا حاكماً أفغانياً موافقاً لهم. حاول الأمريكان تأليف لويا جيرغا لإجازة اختيارهم، إلا أن الأعضاء رَفَضوا. وقَّع حوالي ثلثي الأعضاء عريضةً تجعل المَلِك المسن ظاهر شاه الذي كان في المَنفى رئيس الدولة المؤقت. قام المندوب الأمريكي زالَماي خليل زاد Zalmay Khalilzad الأفغاني الأصل قصداً بتجاهل الجيرغا منتقصِاً أهميتها، ومارَسَ تدَخُّلاً قوياً من وراء الستار بشكل

رشوة واتفاقات سرية وَلَيِّ الذراع لتنصيب مرشح أمريكا حامد كارَزاي Hamid Karazai بدلاً منه.

دستور سنة 2004 الذي وضَعَه الأمريكان ورفضَه الأفغان، احتَرَم التقاليد الأفغانية بنصه على أن "اللويا جيرغا" هي أعلى تعبير عن إرادة الشعب الأفغاني. كان ذلك الشعور بالوطنية هو الذي سخِرتْ منه الحكومة الأمريكية وقوادها العسكريون.

حُكِمَت أفغانستان بما يمكن اعتباره نوعاً من الدستور لو أنها تُرِكَت لوحدها، وهو شعور تقليدي عام بالثقافة الشعبية/الوطنية. هذه المبادئ غير المكتوبة التي يَشترك بها الأفغان تُعتَبر نوعاً من الهوية الوطنية/القومية، أو ما أسماه جان جاك روسو "العَقد الاجتماعي".

هذا العَقد الاجتماعي أو الطريقة في الحياة تتجَسَّد في عُرف اجتماعي (يسمى في مناطق البشتون باسم: بشتون والي Pashtunwali) يشكّل الطريقة الخاصة في الإسلام التي طبَّقوها قروناً عديدة. على الرغم من الاختلاف الواضح في الطريقة التي يُفَسَّرُ بها في مناطق البشتون والهزارا والأيماك والطاجيك، إلا أن التقاليد المشتركة تُقرِّر كيف يَحكم الأفغان أنفسهم ويُجابهون الأجانب.

في العصور الحديثة، كما اقترحتُ، ظَهَر مستوى رابع في المجتمع الأفغاني تَشكَّل أفراده من سكان المدن والبلدات الخارجين من القبائل الذين فَقدوا تواصلهم مع القرى والقبائل التي انحدَر منها أجدادهم. ازدادت أعدادهم كثيراً منذ ستينيات القرن العشرين عندما سَعوا لرفع مستوى معيشتهم مع تطور المشاريع الاقتصادية وافتتاح المدارس والمؤسسات الصحية وللتمتع بوسائل الراحة الأخرى. وبعد الغزو الروسي سنة 1979 والحرب الأهلية المستمرة تقريباً بعد الانسحاب الروسي، اضطرت أعدادٌ كبيرة إلى الهرب من مناطق الخطر إلى مناطق المدن التي ظَنوا خطأً أنها أكثر أمناً. كان معدَّل التغير كبيراً وسرعته مدهشة: عندما زرتُ كابل لأول مرة سنة 1962 كان عدد سكانها حوالي خمسين ألفاً بينما تقترب الآن من الأربعة ملايين. سنرى إلى أي مدى يمكن لهؤلاء الناس الذين اقتُلِعوا من جذورهم أن يندمجوا في الأمة، إلا أن الاندماج والتكامل سيصبح أحد أهم القضايا في مستقبل أفغانستان. إذا تمزقت الأمة بشكل تام بعيداً عن أصولها التقليدية الوطنية، وهذا أمر قد بدأ بالفعل، فإن المستقبل سيظل فوضوياً.

مهما كانت النتيجة فربما يكون الأفغان هذه الأيام أكثر يأساً مما يتخيله المراقبون بالتفسيرات الكَسولة التي مَنحتْها لهم الوطنية، لأنهم فوق كل شيء لم يُحَرروا مجتمَعَهم من السيطرة الخارجية ولا من عملاء الأجانب.

الفشل في تحقيق ما يراه أغلب الأفغان حداً أدنى من الوطنية/القومية العَلمانية أدَّى في الماضي، وفي رأيي أنه سيؤدي حتماً في المستقبل القريب، لظهور مزيجٍ من القومية والإسلام. وهذا في أفغانستان هو الحركة التي تسمى طالبان نسبة إلى طبيعة جنودها.

تعني كلمة "طالبان" بكل بساطة: الطلاب. تم تدريب عشرات الآلاف من الطلاب بمدارس دينية في كافة أنحاء العالَم الإسلامي. يُعتَقَد أنه في باكستان تَعمل حوالي ثلاثون أو أربعون ألف

مدرسة أو حلقة دراسية تُلهِمُها الطريقة الديوبندية Deobandi، وفي بخارى تَقودهم الطريقة النقشبندية، وفي شمال أفريقيا هناك الطريقة السَنوسِية. تَستخدِم أغلب المدارس النَّظير الإسلامي للتعليم الابتدائي الذي يتركَّز بشكلٍ ضيقٍ على قراءة وحفظ القرآن. وبما أن النص الموجود أمامهم هو باللغة العربية التي لا يَفهمها سوى قلَّة من الطلبة فإن تدفق الأصوات المتكررة هو المهم. كان ذلك ما ناقَشَهُ ضياء غوكلاب مع الأتراك كما بَينتُ في الفصل الحادي والعشرين. كان الطلاب الصغار مُنَوَّمين تقريباً على الطريقة الصوفية، وبذلك تَمَّتْ صياغتهم في فئة متَّحدة ومُخلِصة يمكن أن يَدفعهم أسيادهم الصوفيون منها لتشكيل منظَّمة أو جيش في الوقت المناسب[390].

جَذَبَت المدارسُ العائلات الفقيرة لأن أغلبهم لم يتحملوا نفقات بقاء الأطفال في البيوت ولا إرسالهم إلى المدارس الحكومية التي كانت نادرة على كل حال في المناطق الريفية، بينما كانت المدارس الدينية تؤمِّنُ الإقامةَ والغذاء لطلابها. وكما رأينا، كانت أعظم مُنجَزات ذو الفقار علي بوتو في باكستان هي في مَنحه الباكستانيين فرصةَ الحصول على تعليم علماني. ولكن على الرغم من عَظَمَةِ برنامجه، إلا أنه تَرَكَ مئات الآلاف من الباكستانيين دون أن يَحصلوا على حاجاتهم التعليمية. أَحبَطَت التقاليدُ الإسلامية محاولات الحكومات الباكستانية اللاحقة لأنها تَعتَبر أن التعليم مسألة غير حكومية[391]. كانت المدارس الدينية مفتوحة للجميع إلا أن "التعليم" فيها كان مقابل ثمن.

كان الثمن هو تربية الطلاب في فئة تحمل نظرةً واحدة ضيقة للحياة. بسبب معرفتهم القليلة عن العالَم، استَنتَجوا أنه لن تكون لذلك نتائج مهمة، بينما أهدافُ الإسلام الغيبية هي كل ما يهم. وبسبب خضوعهم لانضِباطِ معلِّميهم الصارم وتأثّرهم بنمط سلوك زملائهم في الصفوف فسيُتابعون ذلك عندما يُؤمَرون به مهما كانت النتائج. تَحدَّثوا وفَكَّروا بالمصطلحات التي أُعجِب بها رجال القبائل دون أن يَستَنسِخوها، ولذا فقد كانوا يُظهِرون صلابةً وصموداً في المعارك حينما كان رجال القبائل يَميلون نحو الحذر. وعندما اندمَجَ رجالُ القبائل مع طالبان أصبحوا قوةً صلبة تشبه ما حدث للقوة التي قاتَلَتْ مع النبي محمد عندما جَمَعَ المؤمنين الحقيقيين ورجال القبائل في شبه الجزيرة العربية لتكوين جيش. كانوا يشبهون المحارِبين الصوفيين الذين مَكَّنوا الإمام شامل من تأليف جيشٍ مقاومة من القرويين القوقازيين، ويشبهون السَنوسيين المخلِصين الذين ساعَدوا الإمام عمر المختار في صياغة عصاباته لقتال الطليان.

التعليم الصارم الذي لا يُناقِش والذي يَستند إلى تذكّر نصوص عن ظهر قلب دون أن يُتوقَّعُ منهم فَهمُها يُقَدِّم للقادة العسكرين ما يريدونه بالضبط: رجالٌ يُنفِّذون ما يُقال لهم دون مناقَشة. أصبح طالبان الأفغان أمّة مسلحة بسبب ابتعادهم عن مجتمعهم "الطبيعي" بتحريضٍ من معلِّميهم أو تحت ضغط أعدائهم، إنما دون أرضٍ محدَّدة.

الشعوب التي كانت تعيش في واحات ضمن حوض تاريم Tarim Basin حول صحراء تاكلامَكان الكبرى Taklamakan في وسط آسيا كانت تختلف عن ذلك كثيراً. تضافَرَ التاريخُ والجغرافيا والبيئة معاً فأصبحوا دويلات صغيرة، ولكن ليس أمَّة واحدة.

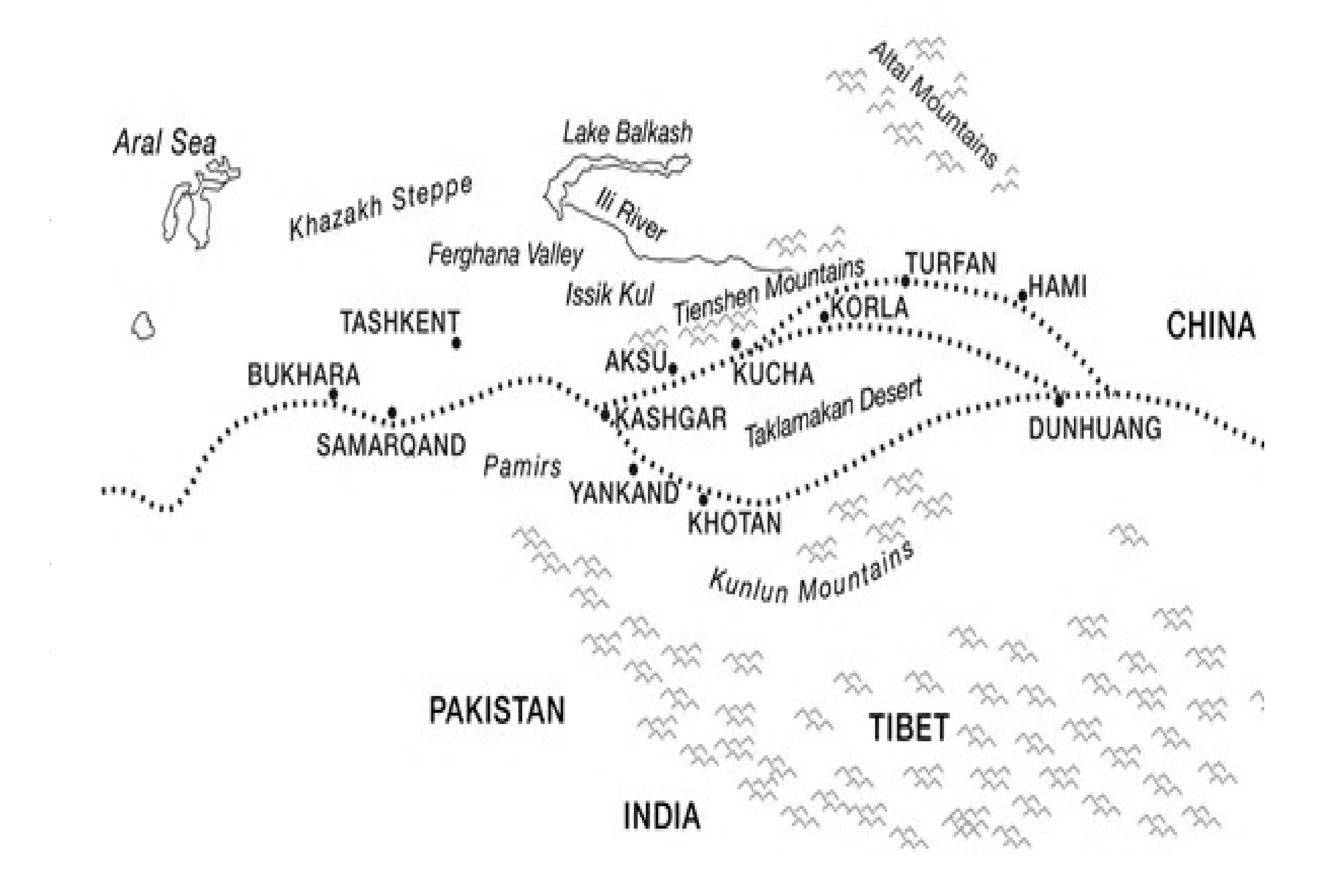
الفصل السابع والعشرون

طريق الحرير

آسيا الوسطى هي طريق التاريخ السريع. هناك دلائل متزايدة على أن الموجات الأولى من الهجرات الإنسانية التي شكَّلَتْ عالَمنا، هجرة الدرافيديين Dravidians (منذ خمسة أو ستة ألاف عام)، والإندو-أوروبيين Indo-Europeans (بدءاً من حوالي ثلاثة آلاف عام)، إما نشَأتْ حولَها أو مَرَّتْ خلالَها. ثم سَلَكَتْ طريقهم شعوبُ القبائل الجرمانية (الفرانكيين والقوطيين والفاندال والهون) إلى الامبراطورية الرومانية حيث ولِدتْ منهم شعوب أوروبا. وبعد ذلك اندَفَعت الشعوب التركية القَبَلية إلى العالَم الإسلامي في الجنوب. مرَّ طريق الحرير، طريقُ التجارة العالمية عبر آسيا الوسطى في الزمن القديم. سار الحجاج والتجار والمحارِبون في ذلك الطريق قبل أن يُكتَب التاريخ.

لم يتحرك الجميع، فعلى الرغم من أن أكثر أنحاء المنطقة قاحلة جرداء، إلا أن واحات ومناطق متفرقة يُغذّيها الماء من الثلج الذائب سَمَحَتْ بالاستقرار. شكَّلَتْ مجموعاتٌ صغيرة مجتمَعَاتها الخاصة، وأنتَجتْ ثقافتها وتَحدثَتْ بلغتها أو بلهجتها. غَزَتْها امبراطوريةٌ بعد أخرى على الأقل منذ امبراطورية الهان الصينية من حوالي ألفي سنة، وعانَتْ في القرون الوسطى من جيوش جنكيزخان وخلفائه. عندما رُفِعَتْ أيديهم الثقيلة عن الشعوب المُقيمَة، تابَعَتْ طريقتها في العيش وأعادَتْ ترميم مؤسساتها في مجتمعات قروية وبلدات ومدن-دويلات فوق المواقع القديمة. بدافعٍ من الاحتياجات ذاتها، وبحكم تَباعد أرجاء المنطقة الواسع وعزلتها بسبب صعوبات التنقل والسَفر، أصبَحتْ أيضاً مجتمعات مُكْتَفِية اقتصادياً ومُستقلة سياسياً، غير أنها خلال الألف سنة الأخيرة تقريباً تَرابطَتْ مع بعضها بعضاً باللغة والدين، ففي كل مكان صَاغَت اللغة التركية وخَلَقَ الدين الإسلامي روابطَ ثقافيةً بينهم.

من حين لآخر ضَمَّت المدنُ-الدويلات الأكثر سكاناً والأغنى ثروةً جيرانَها الأصغر مُكَرِّرَةً امبراطوريات المَغول والترك على مستوى أصغر. وهكذا نشأت المدن-الويلات مثل بخارى وطشقند وخيفا وسمرقند وخوقند وكاشغار وخوتان وآكسو وطرفان. ولكن بعد بداية القرن التاسع عشر بشكل خاص فَتَحَ الصراعُ بين هؤلاء الخانات الطريق أمام اختراق الروس والصينيين. لندرس هذه العملية في تجربة بخارى.


Aral Sea
Lake Balkash
Altai Mountains
Khazakh Steppe
Ili River
Ferghana Valley
Issik Kul
Tienshen Mountains
TURFAN
HAMI
KORLA
CHINA
TASHKENT
AKSU
KUCHA
BUKHARA
KASHGAR
Taklamakan Desert
DUNHUANG
SAMARQAND
Pamirs
YANKAND
KHOTAN
Kunlun Mountains
PAKISTAN
TIBET
INDIA

طرق التجارة التاريخية من البحر الأبيض المتوسط إلى الصين عبر آسيا الوسطى التي عُرِفتْ باسم طريق الحرير. تَظْهَر هنا مدن الواحات التي سَكَنها الأويغور الذين يتحدثون التركية. تَقاسَمَت الصين وروسيا المنطقة فيما بينهما. المناطق إلى الشمال من جبال تينشان الشامخة حيث كان يعيش شعب الزنجهار Zunghar أصبحت سهوب الكازاخ Kazakh Steppe بعد أن قَضَى عليهم الصينيون.

كانت بخارى مركزاً رئيسياً للتعليم الإسلامي خلال القرون الوسطى، ويقال أنها كانت تضم حوالي مئتي مدرسة دينية وحوالي عشرة آلاف طالب (طالبان) من كافة أرجاء آسيا الوسطى. كانت المَركَز الثقافي في المنطقة من حوض تاريم إلى البحر الأسود. وعلى الرغم من كل الاضطرابات في القرون التالية فقد احتَفَظ أهلها بهذه الهَالَة الثقافية مما سَمَح لهم بالمشاركة في القضايا الكبيرة التي اجتاحَت العالَم الإسلامي كله خلال القرن التاسع عشر، مثل النضال من أجل المحافظة على هويتهم الثقافية واستقلالهم الوطني.

في بداية القرن التاسع عشر كان يعيش في بخارى خمسون إلى مئة ألف من السكان، وكان لحاكمها سطوة على منطقة واسعة ومتنوعة ضَمَّت حوالي عشرة مدن أو أكثر كانت تتمتع باكتفاء ذاتي. كان أغلب سكان مدينة بخارى والمدينة/الدولة بشكل عام من الترك الأوزبك، إلا أنها ضَمّت أيضاً تَنوعاً مدهشاً من أعراق وطوائف أخرى مثل الهنود والفرس واليهود. كان الترك سنيّون، إلا أن ثلث الطاجيك كانوا شيعة. وكما لاحَظَ أحدُ الرحالة الأوربيين الأوائل، المختص بالدراسات التركية الهنغاري أرمينيوس فامبري Arminius Vambery في سنة 1863 "لم يدهشني جَمالُ الأسواق وغِناها مثلما أدهَشَني التَّنوع الكبير في الأعراق والملابس والسلوك الذي يبهر العيون في كل مكان"392.

على الرغم من تَنوعهم فقد كان سكان بخارى تحت سيطرة حازمة، كانت الدولة "يحكمها مُلكٌ مُتَوارَثٌ حسب الشريعة والعادات الإسلامية... بإدارةٍ مركزية جيدة التنظيم وأقاليم على درجة عالية من الاستقلالية"393. كانت الصلابة المركزية والمرونة المحيطية من نتائج كوارث القرن السابق عندما قام شعب تركي آخر، هم الكازاخ، بغزو واحتلال وتدمير بخارى تقريباً. عندما غادر الكازاخ بعد حوالي عقد من نهب المنطقة، جاء جيشٌ إيراني وهاجم بخارى. أُعِيدَ وَضعُ حكومةٍ مَحَلية إلا أنها ظلَّت لسنوات أضعف من أن تتمكن من استعادة سلطتها السابقة. لا نَعرف كثيراً عما حَدَثَ في الفترة الغامضة التي تَلَتْ ذلك، إلا أنه في منطقة المدينة/الدولة المجاورة في خيفا، التي اشتَرَكَتْ مع بخارى في العائلة الحاكمة، كانت هنالك ثورة شعبية حقيقية للمرة الأولى. وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر أمكن تلمّس ما يُشبه الشعور القومي في تَحرّك كبار مالكي الأراضي لتأمين أملاكهم مِنَ السلالة الحاكمة ومِنَ البدو الذين يحيطون بها. في منتصف القرن التاسع عشر كان لبخارى جيشٌ صغير من سكانها المَحَليين. وهكذا أدَّت الاضطرابات وتحدِّيات مُلّاك الأراضي إلى السعي نحو الاستقرار والأمن. يبدو أن ما لاحَظَه فامبري سنة 1863 كان استجابةَ المَلَكية المُستبِدة لهذه الأحداث.

كانت المؤسسات الدينية في بخارى تُعامَل كإدارة مستقلة ولكنها مُعَيَّنة من قِبَل الدولة مثلما كان الحال آنذاك في الامبراطورية العثمانية، وكانت مهمتها تقديم رجال المحاكم القانونية والتعليم في المدارس. الفئة السياسية الوحيدة المهمة خارج هاتين الإدارتين كانت فئة التجار ومُلّاك الأراضي. كانت الحياة منظمة، والنفوذ الأجنبي مُبعَد، وإذا كان هنالك منشقون يحاولون تحطيم القوالب التي نَشؤوا وعاشوا فيها، فإنه يتم القضاء عليهم.

إلا أن بخارى لم تُترَك لكي تَعيش طريقتها في الحياة.

بَدَتْ بخارى هدفاً "شرقياً" مُغرِياً جِداً للغرباء. كانت زيارتها حلم المسؤولين الجسورين في المكتب السياسي الهندي الذين رَكِبوا إليها من الهند على ظهور الجِياد[394]. كانت رومانسيةً بالنسبة لهم، أما بالنسبة لحاكم بخارى فقد كان وصولهم يبدو مُنذِراً بالخطر، ولم يكن ذلك غير عقلاني فقد كان الحاكم يَخشَى أن يُغَيِّروا شعبه بأفكار حديثة وخاف من تجسسهم. ذَكَرتُ القول المأثور الذي يُنسَب إلى أفغانيّ ولكنه ينطبق أيضاً على أفكار حاكم بخارى: "يأتي الإنكيزي الأول للصيد، ويأتي الثاني ليرسم خرائطاً، ويُرشد الإنكيزي الثالث الجيش، فمن الأفضل قَتل الإنكليزي الأول". وهكذا كان الحال سنة 1842 عندما أعدَم حاكمُ بخارى مسؤولاً بريطانياً والقسيس الذي جاء لإنقاذه.

لأن الهند كانت جوهرة التاج البريطاني، كان رجال الدولة الانكليز يحاولون البحث دائماً عن جدار أو خندق لحمايتها. قادَهم البحثُ تدريجياً نحو الشمال من سهول الهند إلى أفغانستان وإيران والامبراطورية العثمانية وآسيا الوسطى. قادَهم البحث المُراوِغ الذي كانوا يَسعون خلفه ضد الروس أدخَلَهم معاً فيما يسمى باللعبة الكبرى. خَلَبَتْ مغامرات اللاعبين الخيالية الخطرة ألبابَ الجمهور الإنكليزي وروَّعَتْ حكام الدول الآسيوية، غير أنها تأثيرها كان صغيراً على السياسات في آسيا.

كانت حملات الجيوش أخطر تأثيراً. بدأ القيصر إيفان الرابع (الرهيب) المَسيرة في آسيا عندما احتلَّ جيشُهُ قازان سنة 1552. ومن السخرية كما ظَهَر في الأحداث التالية أن تاجراً انكليزياً اسمه أنتوني جِنكينسون Anthony Jenkinson كان يعمل كوسيط تجاري هو الذي شجَّع الروس على دخول آسيا الوسطى. حمل رسالة من القيصر إلى حكام بخارى وخيفا وأتى بوفود منهم إلى موسكو. كان ذلك الحَدَثُ بداية العلاقات الدبلوماسية والتجارة بين الامبراطورية والخانات.

مع تلك الاتصالات وبعدها بقليل بدأ مستوطنون روس بالتوافد إلى مناطق الكازاخ للرعي في أراضي السهوب الواسعة في آسيا الوسطى. كانت تلك حركةٌ تشبه تحرك المستوطنين الأمريكان في أراضي الهنود الحمر في السهول الأمريكية الواسعة وكان لها ذات النتائج تقريباً: غارات وهجمات مضادة، حرب عصابات وقمع للتمرد. أَقنعَتْ حركةُ المستوطنين الروس، وضَعفُ المجتمعات المحلية، وإشاعاتٍ عن وجود الذهب، بطرس الأكبر سنة 1715 لإرسال حملتين عسكريتين إلى آسيا الوسطى. انتهتْ كلتا الحملتان بالكوارث والدمار. أبادَ شعبُ خيفا إحدى القوتين قَتَلوا منها حوالي ثلاثة آلاف جندي روسي، بينما نَهَشَ رجالُ قبائل المَغول القوة الأخرى.

كان المَغول يهاجمون الكازاخ أيضاً، مما مَنَح الروس فرصة لعَرضِ الحماية عليهم. ربما لم يكن واضحاً ما كانوا يقصدونه "بالحماية" على وجه التحديد، إلا أن عدداً من القبائل أدَّتْ قَسَمَ الوَلاء الذي أصبح فيما بعد مُبرِّراً لتدخلاتٍ روسية تالية. بدأ الخانات بدفعٍ مُضادّ بين الكازاخ في محاولة لإبعادهم عن أيدي الروس، وبدأت الصراعات التي ستؤدي إلى حملات روسية في آسيا الوسطى. تَبَنَّى الروس استراتيجيةً عامة ستورطهم في النهاية في كافة أنحاء المنطقة. قادتهم معظم تحركاتهم نحو الامبراطورية العثمانية وإيران، إلا أن أحد أجنحةِ تقدّمهم اتَّجَه شرقاً سنة 1871 في وادي إيلي Eli Valley الذي يَسكنه الأويغور الترك، وسيؤدي للاصطدام مع سلالة كينغ Qing Dynasty الصينية. عَرضَتْ بريطانيا المشورة على الصين عن كيفية قتال الروس، وباعَهم الألمانُ أسلحة. أجبَرت الصينُ روسيا على التراجع من منطقة إيلي في معاهدة سان بطرسبورغ سنة 1881.

كانت روسيا في ذلك الوقت تَخوضُ تغييرات كبيرة، فبَعدَ تحرير الرقيق خُلِقَتْ قوى اقتصادية منَحَتْها اهتمامات في مستوطنات وتجارة آسيا الوسطى، حيث اصطَدمتْ بمنافَسَةٍ من الهند البريطانية. وكان قادتها العسكريون مُصَمِّمين على استرجاع امتيازاتهم التي تأذَّت بشدة بعد حرب القِرم. يمكن تحقيق المَجد وكسب الترقيات في آسيا الوسطى. وهكذا أصبَحتْ آسيا الوسطى منطقةً ذات أهمية قومية بالنسبة للروس من ناحية المصالح القومية التجارية استراتيجياً، ومن ناحية المَجد والفخر نفسياً. اتَّخذوا الخطوة الأولى سنة 1864 عندما اتَّفقوا على تقسيم المنطقة مع سلالة كينغ Qing Dynasty الصينية.

احتاج الروس إلى جيل كامل لاحتلال قسمهم، واحتَلّوا مناطق القبائل والخانات جزءاً بعد جزء، وعلى الرغم من أننا لا نَعرف الكثير عن ردّ الفِعل العام، إنما يبدو أن نوعاً من الجَدَل الوطني قد دارَ بين طبقةِ التجار الذين أرادوا الربح من التجارة مع روسيا، وفئة حكام الدويلات التي ظلَّتْ مستقلةً وأرادوا المحافظة على استقلالهم. أضاع الروس فرصةَ الاستفادة من الجَدَلِ والانقسام إذ قَبَضوا على جميع التجار الذين تمكَّنوا منهم وصادروا بضائعهم. ازدادَت المعارضة شدةً وانهزمَ الروس في أول هجوم لهم على خانة بخارى سنة 1866. استجابةً لذلك ضاعفوا جهودهم العسكرية وعَيَّنوا حاكماً عاماً كان أكثر طغياناً بكثير مما كان عليه المُستبدِون المَحَليون. ومثلما فعل البريطانيون في الهند، قام الروس في آسيا الوسطى بتعيين حاكمهم المَحَلي وجعله نائباً (نصف امبراطور أو نصف شاه: ياريم بادشاه Yarim Padeshah بالتركية كما سماه الجمهور)، ومَنحوا تجَّارهم الامتيازات التي مُنِحَت للتجار الانكليز والفرنسيين في الامبراطورية العثمانية تقريباً، امتيازات خارجية حقيقية[395].

على الرغم من ضعف مشاركة السكان المَحَليين في القضايا السياسية من قبل، إلا أنهم ردّوا على الروس بأقوى ما يستطيعون فكانت هنالك انتفاضات شعبية بين رجال القبائل بشكل تقليدي، وبطريقة غير عادية لدى السكان المستقرين في المدن في وادي فيرغانا Fergana Valley. قاد الثورة هناك زعيم ديني (مُلّا) اسمه بولاد خان Polad Khan الذي حاول أن يقوم

بالدور الذي قام به الزعماء المسلمون الكبار في شمال أفريقيا، إلا أن الروس سرعان ما هَزموا قواته وأعدَموه، وانتهت بوفاته حركة مقاومة كان يمكن أن تصبح جدية.

تحرك الروس بعدها نحو أتراك تيكه Teke وقَتَلوا كثيراً منهم وأنْهوا مجتمعهم تقريباً. استمر التقدم نحو البُنجاب على أطراف ما يسمى الآن أفغانستان. بدا أن روسيا قد بلَغَتْ حدودَ توسعها في آسيا الوسطى آنذاك. فقد ضَمّوا أغلب أرجاء المنطقة الواسعة إلى امبراطوريتهم، إلا أنهم اكتَشَفوا، مثلما اكتَشَف البريطانيون في الهند، أنه من الأوفر والأسهل لهم أن يَخلقوا نوعاً خاصاً وسطاً بين الاستقلال والتَّبعية في بعض الولايات الموجودة. مُنِحَتْ بخارى هذا الوضع الخاص الذي مَكَّنَ المدينة من استعادة جزءٍ من دورها الذي لعبته كَمركَزٍ ثقافي في القرون الوسطى. كتَبَ سيمور بيكر Seymour Beker:

"احتلال "بخارى النبيلة" العاصمة الدينية لآسيا الوسطى كان سيعزّز كثيراً من هَيبة روسيا بين رعاياها وجيرانها المسلمين... ولكن احتلال بقية الخانات سيكون عالي التكاليف وكثير الضحايا بالنظر إلى مشاعر معاداة الروس في بخارى واضطراب الأحوال الداخلية في البلاد"[396].

ربما لم يكن هنالك ما يُثير الخشية لدى الروس مثلما اعتَقَدوا، كما لاحَظَ واحدٌ من أمهر وأكثر المُراقِبين خبرةً في شؤون آسيا الوسطى، جيفري ويلر Jeoffrey Wheeler الذي كتَبَ:

"مفهوم الدولة القومية أو الوطنية لم يصل منطقةَ السهوب أو تركستان إلا بعد النهاية المفاجئة لنظام القيصر سنة 1917، ولذلك فإن الحكومة القيصرية لم تواجِه أبداً أي حاجة إلى التنازل أمام حركات قومية/وطنية لمَنحِ حق تقرير المصير الحقيقي أو المُصطَنع للقوميات غير الروسية، أو لتبرير استمرار السيطرة الامبراطورية أمام الرأي العام العالمي"[397].

كان السؤال المتبقي أمام الدبلوماسيين والاستراتيجيين هو كيف يمكن تعديل الاتفاقيات بين الأمبرياليين. وبشكلٍ فريد كانت القضية بين ثلاث قوى لأن الصين كانت مشاركةً هنا. كان يجب تقسيم الكعكة في آسيا الوسطى بين ثلاثة شركاء على الأقل، وقبل أن تتعقَّد كثيراً كان الروس قد استلَموا زمام المبادرة سنة 1844 بتقديم عرضٍ للبريطانيين، إلا أن العَرضَ أُهمِلَ مع تقدّم الجيوش الروسية. ثم التُقِطَ من جديد بعد ربع قرنٍ على يد نائب المَلك في الهند الذي حاوَلَ إقناع الحكومة في لندن بالسعي لتقسيم آسيا الوسطى إلى دوائر نفوذ. لم تَنجَح الخطة فقد كانت غامِضة. تم تعديلها فيما بعد من جهة نائبٍ آخر تَصَوَّرَ إنشاء حِزام من الخانات المستقلة، إلا أن الفكرة لم تَتطور أبداً ولم تُنفَّذ. وأخيراً وقَّعَ الروسُ اتفاقيات مع الصين سنة 1894، ومع بريطانيا في 1895. وأصبَحتْ آسيا الوسطى بعدها آسيا المُقَسَّمة.

عَلِقَ الأتراكُ والأويغور والكازاخ وشعوبٌ أخرى من آسيا الوسطى في كَمَّاشة بين الامبراطوريات العظمى، ولكنها كانت تختلف في بعض جوانبها عن تجربة العرب والبربر في الجزائر بعيداً إلى الغرب في الطرف الآخر من العالَم الإسلامي. تشابَهتْ هذه الشعوب معاً في الأساليب التي استُخدِمتْ ضدَّها: محاولة تدمير إرثها الثقافي، وإدخال مستوطنين، إلا أن ردَّ فِعل

السكان المحليين كان مختلفاً. فبينما كان سكان آسيا الوسطى ضحايا بشكل رئيسي، كان الجزائريون مقاتلين أشداء، وربما كانت حربُهم أوسع الحروب دراسة، ومن المؤكَّد أنها كانت أكثرها قسوة ومرارة في الصراعات بين الشمال العالمي والجنوب. ولذا أتحوَّل الآن إلى ملحَمة كفاح الجزائريين في سبيل الاستقلال.

الفصل الثامن والعشرون

الثورة الجزائرية

ذكرتُ في الجزء الثاني أن الوطني الجزائري الكبير عبد القادر قادَ حرب عصابات ضد الغزاة الفرنسيين استمرَّتْ جيلاً كاملاً خلال القرن التاسع عشر. لجأ إلى منفى مريح نسبياً سنة 1846 بعد أن أنهَكَه التعب والإنكسار، بينما خَضَع الذين قادَهم لنظام عبودية واسترقاق. سارَعتْ مجموعات من المستوطنين الشماليين (الذين عُرِفوا أيضاً باسم الأقدام السود) من الإسبان والطليان والألزاسيين والكورسيكيين، ولم يكن هناك سوى فرنسي واحد بين كل خمسة منهم. لم يَهتَموا بعَظَمَةِ فرنسا بل كان هدفهم الاستيلاء على الأرض. كانت الجزائر مغامرة استعمارية أكثر من كونها مشروعاً امبراطورياً، وذلك مثلما كانت إيرلندا وفلسطين وأفريقيا الجنوبية وآسيا الوسطى الروسية. بعد عقدٍ واحد من الغزو الفرنسي شكَّلَ الأوروبيون حوالي 1% من السكان وكانوا يُسارعون في الاستيلاء على الأرض. طُرِدَ الجزائريون من مناطقهم واحدة بعد الأخرى ومن كل الأرض الصالحة للزراعة تقريباً. أصبَحَت البلاد فرنسية من الناحية الاقتصادية على الأقل.

كما بَينتُ في الفصل السابع، لم يَنزَع المستوطنون الأرضَ فقط من السكان بل غَرَّبوهم ثقافياً أيضاً. عندما جاء الفرنسيون كانت هنالك نسبة عالية من الجزائرين الذين يتحدثون باللغة العربية، وكانوا يَعيشون مستوى معيشة مقبول وحياة ثقافية متماسكة لِحمَتُها الإسلام. إلا أنه في سنة 1847 قال ألكسيس دى توكفيل Alexis de Tocqueville لزملائه في الجمعية الوطنية الفرنسية "لقد جَعَلْنا مجتمعاً مسلماً أكثر بؤساً وبربرية مما كان عليه قبل أن يَتَعرَّف علينا"[398].

كان توكفيل مصيباً، فقد أصبحت حالةُ الجزائريين أكثر بؤساً بكثير. بعد قرن من الاحتلال الفرنسي أصبح ثلاثة من كل أربعة من الجزائريين أمياً حتى باللغة العربية، وقلة منهم كان لديه عمل مستقر، ولم يكن لدى أي منهم تقريباً عملٌ يَدرُّ دَخلاً جيداً. كانت الصحة السيئة مزمنة، وذَهَبَ كثير منهم إلى النوم كل مساء جائعين. عندما زرتُ الجزائر سنة 1962 في أواخر أيام الحرب الفرنسية-الجزائرية، وجَدتُ الجزائريين مُبعَدين تماماً عن اقتصاد المستوطنين، لدرجة أنه حتى مَحلات الغسيل والأفران كانت مُحتكرَة لصالح الأوروبيين. ورغم أن مدينة الجزائر كانت فيها أكبر كليات الطب ومُجَمَّعات المستشفيات الفرنسية، إلا أنه لم يكن فيها سوى أقل من ستة أطباء جزائريين.

نظّمتْ فرنسا الجزائر كمُستعمَرة وكجزء متكامل مع فرنسا. قُسِمَتْ إلى ثلاثة محافظات تشبه تلك في فرنسا المدنية، غير أنها كانت تُدار بقوانين "أمنية" حتى في فترة ما قبل الحرب لا يمكن أن تُقبَل في فرنسا.

لم يجِد الجزائريون العرب ولا البربر وسائل للتعبير عن أنفسهم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. لم يَلعَبوا أي دور في إدارة أنفسهم وكانت أصواتهم مكبوتة. ثم اعتَرفَت الجمعية الوطنية الفرنسية في باريس بدورهم في جهود الحرب على الرغم من معارضة المستوطِنين الشديدة، فقد خَدَمَ 173,000 جزائرياً في الجيش الفرنسي وقُتِلَ منهم واحد من كل ستة تقريباً، واتَّجهَتْ ببطء وتردد نحو سياسةِ جَعلِهِم فرنسيين، ثقافياً أولاً ثم سياسياً. بعد تطبيق الجانب الثقافي من هذه السياسة خلال العشرين سنة التي تَلَت، عَرضَتْ حكومةٌ فرنسية الجنسيةَ لفئةٍ منتقاة اعتَقدَتْ أنهم قد حَقَّقوا شروطها. تأهَّلَ لذلك واحد من كل 250 جزائرياً فقط.

أغضبَ هذا التنازلُ البسيط المستوطِنين فشَكَّلوا جماعةَ ضغطٍ لتغيير القانون. نبَّهَ المعارضُ الرئيسي لجماعة الضغط زملاءه البرلمانيين ببصيرة ثاقبة أنه إذا لم يُسمح للجزائريين بالانضمام إلى الأمّة الفرنسية "يجب الانتباه إلى أنهم سرعان ما سيَخلقوا أمَّة لأنفسهم"[399]. كان متقدِّماً كثيراً على زمنه وضَحكوا كثيراً عليهِ في الجمعية. في ذلك الوقت عندما لم تَمنَح فرنسا للجزائريين هوية قومية، ولم يجِدوها في الوطنية، فقد بَحَثَ الجزائريون عن ملجأ لهم في الإسلام.

بينما كان العرب والبربر مسلمين إلا أن انتماءاتهم وتقاليدهم الدينية فشلتْ في جَبْرِ الاختلافات العِرقية أو التَّنوع القبلي أو الانقسام الثقافي بين القرويين وسكان المدن، ولم تَمنَحهم قوةً كافية لطَرد الفرنسيين كما اكتَشَفَ عبد القادر ذلك قبل حوالي قرن من الزمان. اعتَبر الفلاحون الجزائريون قراهم بمثابة أمَّتهم، مثلما فَعَل الفلاحون في أفريقيا وآسيا. مَنَحَتْهم عقائدهم الدينية المشتركة وشعورهم المشتَرك بالإهانة شعوراً عاماً بالوحدة. كانوا مُحتَقَرين جميعاً من جهة الأوروبيين الذين اعتَبروا نخبتهم بمثابة تقليد للشعب الفرنسي لا أكثر، والفلاحين قطعَاناً من ماشية الزراعة، والطبقة الدنيا من سكان المدن "عرب شوارع". تَحمَّلوا المَذلَّة جميعاً بصمتِ سنين طويلة، إلا أنهم بدؤوا البحثَ تدريجياً عن وسائل التغيير.

تطَوَّرتْ وسائلُ التغيير ببطء وبشكل عشوائي. تقدَّمتْ ثلاث فئات جزائرية رئيسية، إلا أنها فشلتْ في الحصول على دعم جماهيري كاف. أسَّس الأولى رجال دين مسلمين سنة 1931 تأثَّروا بحركات نهضة مماثلة في مصر والمغرب، وكانت تَجَمّع المجتمع الجزائري. كانت تشبه إلى حدٍّ ما حركةَ حماس السنيّة في فلسطين المعاصرة، وحزب الله الشيعي في لبنان. حقَّقَ التجمع قوته من الخَدمات الاجتماعية التي قدَّمَها للسكان المَحَليين، غير أنه لم يتطور أبداً إلى برنامج سياسي.

الفئة الرئيسية الثانية كانت حزباً سمّى نفسه (باستخدام اللغة الفرنسية وليس العربية) الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري، تم تنظيمه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة من قِبَلِ نخبة مدنية صغيرة ثرية نسبياً ومثقفة من الجزائريين الذين تَبنّوا الثقافة الأوروبية. تَبنّى زعماء الاتحاد وجهة النظر الفرنسية للجزائر: كانت مجتمعاً متخلفاً في نظرهم، وأعلَنوا رأيهم بأن التقدم

يمكن أن يتحقق بالتَّخلي عن الثقافة الجزائرية والتطور من ثقافة "التخلف" إلى الثقافة الفرنسية والجنسية الفرنسية، ولذلك أُطلِق عليهم لقب "التَّطَوريين". لم يَسْعَ التطوريون إلى الاستقلال عن فرنسا، بل إلى المساواة للجزائريين ضمن الاتحاد الفرنسي. وبالفعل فقد كان الرجل الذي اعتُرف به زعيماً لهم هو فرحات عباس Farhat Abbas واشتهر بإنكاره وجودَ كيان أمَّة جزائرية[400]. خَدَمَ في الجيش الفرنسي وتزوج من امرأة فرنسية فقد تم استبعاده عملياً كممثل عن الجزائري. وكذلك استُبعِد أتباعه.

كانت الفئة الثالثة أكثرها تطرفاً. تم تنظيمها وقيادتها من قبل جزائري متواضع النشأة هو مصالي الحاج Messali Hadj الذي حارَبَ في الحرب العالمية الأولى مع الجيش الفرنسي وتزوج امرأة فرنسية مثلما فعل فرحات عباس. على الرغم من أن مصالي لم يَتلَقَّ تعليماً نظامياً فقد وَجَدَهُ الجزائريون خطيباً مفوَّهاً.

تَوجَّهَ مصالي بخطابه إلى الأعداد المتزايدة من الجزائريين الذين قاموا بأعمال وضيعة في فرنسا. كانوا مَكروهين ومُستغَلين في فرنسا. تُدفع لهم أجورٌ بَخسَة، ويتم التمييز ضدهم، وكانوا غاضبين. قدَّمَ لهم وسيلة للتعبير عن غضبهم واستيائهم في منظمة سياسية. اعتَقَدت السلطات أن ذلك تحريضاً ووضَعتْه في السجن. إلا أن ذلك لم يَردعه، وعندما أُطلِق سراحه تابَعَ تصريحاته وأصبح بمرور الوقت رمزاً بارزاً في الجزائر. وسَّعَ منظمته سنة 1937 إلى الحزب التقدمي الجزائري ووضَعَ أهدافه: الحصول على الاستقلال من فرنسا، واسترجاع الأراضي التي اغتَصَبها المستوطِنون من أجدادهم إلى الجزائريين. بالنسبة للفرنسيين، وخاصة للأقدام السود، كان تجسيداً لكل شيء كَرِهوه وخافوا منه في الجزائريين. حكَمَتْ عليه حكومة فيشي خلال الحرب العالمية الثانية بالسجن مدة ستة عشرة عاماً مع الأشغال الشاقة ومُنِعَ حزبه.

في ذلك الوقت خلال سنوات الحرب القاسية عندما كانت الجزائر تحت حكم فيشي، أصغَى الجزائريون بحماس عندما قامَ فرانكلين روزفلت وونستون تشرشل برَفعِ شعاراتهم الكبيرة عن الحرية والاستقلال. وقامَ شارل ديغول في حرصه الدائم على عدم البقاء في الظِلّ بترديد كلماتهم في يناير 1944 عندما وَعَدَ بحذر وغموض "أنه سيقود كل شعب من الشعوب المستعمَرة إلى التقدم الذي سيسمَح لهم بإدارة أنفسهم، ومن ثمَّ حُكم أنفسهم بأنفسهم"[401].

صَدَّقَ الجزائريون روزفلت وتشرشل وسمعوا ما كانوا يريدون سماعه في تصريح ديغول. وهكذا في صباح الثامن من مايو سنة 1945، يوم النصر، اجتمع سكان البلدة الجزائرية الصغيرة سطيف للاحتفال. ظَنّوا بسذاجة مؤكَّدة أن نهاية القرن قد حلَّتْ. خرج الاحتفال خارج السيطرة وتحوَّلَ إلى شغب عندما رفَعَ المتظاهرون عَلَمَ بطلهم عبد القادر زعيم المقاومة الأولى. حرَّكَ الاحتفالُ بشكل خاص غضبَ العمال الزراعيين الفقراء الذين لا يملكون أرضاً. حدثَتْ اعتداءات متفرقة سيئة على الأوروبيين فحرَّكَتْ ضدهم استياء المستوطِنين وتَمَّ قَتلُ حوالي عشرة آلاف إلى خمسة وأربعين ألف جزائري قامَ به فرنسيون مدنيون ورجال الشرطة والجيش الفرنسي. يمكن اعتبار تلك المأساة بذرة الوطنية الجزائرية.

الحزب الشيوعي الفرنسي الذي نَظَرَ إليه المُتطَرفون الجزائريون آملين بدعمه نفسياً على الأقل تَخَلى عنهم مثلما تَخَلى أربابهم في موسكو عن المقاومة اليونانية. قرر الحزب الشيوعي أن يُظهِر وطنيته الفرنسية بمعارضته التحركات نحو استقلال الجزائر وذلك في محاولته لعب السياسة الأوروبية وتحريض الجماهير لمعارضة تأسيس حلف الناتو. قَلَّلتْ صحيفةُ الحزب الشيوعي: الإنسانية Humanite من أهمية مجزرة سطيف بينما قال فرعها الجزائري في صحيفة: الحرية Liberte أن الجزائريين هم الذين وَضَعوا المتمردين أمام مجموعة إطلاق النار[402]. وقَفَ الحزب الشيوعي الجزائري في صَفِّ المستوطِنين طوال عَقدٍ كامل وأيَّدَ إرسال الجنود الفرنسيين لقتال الجزائريين.



قُتِلَ آلاف من الجزائريين خلال مذبحة مايو 1945 التي قام بها الفرنسيون. كانت حرب التحرير الجزائرية واحدة من أشرس وأقسى الصراعات بين أي شعب من شعوب العالم الإسلامي وقوى الشمال العالمي الأمبريالية.

دَفَعتْ مجزرةُ سطيف وموقفُ الحزب الشيوعي منها مصالي إلى الانفصال عن الجبهة التي يقودها الشيوعيون وأن يُعيدَ تشكيل حزبه المَكبوت في: حركة انتصار الحريات الديموقراطية. ربِحَ الانتخابات البلدية سنة 1947، إلا أنه خسر الانتخابات المهمة للمجلس سنة 1948 بسبب التزوير والتهديد. قُبِضَ على مصالي مرة أخرى بعد الخسارة وتم نفيه هذه المرة. كانت النتيجة

النهائية للقَمع الفرنسي هي أن جيلاً جديداً من الجزائريين الذين خَدَمَ كثير منهم في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية قد استَنتَجوا أنهم لن يصلوا إلى شيء عن طريق صندوق الانتخابات وبدؤوا التفكير بالرصاص والنار.

كان من شباب المحاربين السابقين أحمد بن بلَّة الذي مُنِح اثنين من أعلى الأوسمة الفرنسية في الشجاعة، مَنَحَهُ أحدَها الجنرالُ ديغول شخصياً. حارَبَ بن بلَّة كجندي في الحَملة الإيطالية حيث قابَلَ الأنصار الطليان (حركة المقاومة الإيطالية ضد الفاشية) لأول مرة وتأثَّرَ بهم كثيراً. حَمَلَ معه إعجابه بحركتهم عند عودته إلى الجزائر. دخل غِمار السياسة بعد تَسريحه كمؤيدٍ لمصالي. نجَحَ في انتخابات محلية إلا أنه سرعان ما أدرَك أنه مُنِعَ من التقدم أكثر من ذلك. اندَفَع تحت تأثير يأسه وغضبه نحو طريقٍ أكثر تطرفاً من طريق مصالي: جَمَعَ فريقاً من الشباب الذين كان أغلبهم من المحارِبين السابقين أمثاله لكي يُحارِبوا في سبيل الاستقلال. أدرَكَ أنه من الضروري الحصول على دعم مالي، ولذا فقد فعل ما فعلته مجموعات مماثلة في كل مكان: خطَّط لسرقة. إلا أنه قُبض عليه وحُكِم بالسجن مدة ثمانية أعوام وانفَرَطَ عقد مجموعته التي بلغ عدد أفرادها آنذاك حوالي خمسة آلاف رجل. تمكَّن بن بلَّة من الهرب وتابَعَ نضاله سرّاً مثلما تَعلَّم من حركة الطليان ضد الفاشية.

في أثناء ذلك حَدَثَ أمران بعيداً عن الجزائر سيؤثران في مستقبل كفاحها: أولهما أن الجيشَ الفرنسي في الهند الصينية انهَزمَ في معركة ديان بيان فو Dien Bien Phu المعركة الكبيرة التي أعلَنَ الفرنسيون أنها ستَقضي على ثوار الفييت مينه Viet Minh كلفتهم حوالي ثلاث عشرة ألف فرنسي. كانت تلك المرة الأولى التي يُهزَم فيها الجيشُ الفرنسي أمام شعبٍ مُستعمَر، وكان تأثيرها في الجزائر مماثلاً لتأثير خسارة جيشِ الجنرال إدوارد برادوك Edward Braddock البريطاني خلال حربِ الفرنسيين والهنود الحمر سنة 1763 على المُستعمَرين الأمريكان، كما قال بنيامين فرانكلين عن الهزيمة البريطانية آنذاك أنها "أثارتْ لدينا، نحن الأمريكان، أول الشكوك بأن أفكارنا المُمَجِّدَة عن شجاعة الجنود البريطانيين لم تكن مُستَندة إلى أساس متين"[403]. مثلما ساعَدَتْ هزيمةُ برادوك على إقناع الأمريكان بأن لديهم فرصة للنجاح ضد الجيش البريطاني، فقد ساعَدَ الجزائريين انتصارُ الفييت مينه على الفرنسيين وأقنعهم أنهم يستطيعون الانتصار على الفرنسيين.

النتيجة الثانية لهزيمة الفرنسيين في فييتنام هي أن جماعة من ضباط الجيش الفرنسي الذين شَعَروا بالإهانة أمام الألمان في الحرب العالمية الثانية وأمام الفييت مينه في الهند الصينية، بَحَثوا معاً عن استعادة مَجد فرنسا، واستَلهَموا من الفييت مينه شكلاً جديداً في محاربة التمرد. القَمعُ العسكري الفرنسي للتمرد كان حساساً للسياسة وقاسياً بشكل مطلق ومُركَّزاً بشكل دقيق، وتم تطبيقه لأول مرة في الجزائر على يد نُخبةِ كتائبِ القوات الخاصة الفرنسية تحت قيادة الجنرال جاك ماسو Jacques Massu.[404]

في الأول من نوفمبر سنة 1954 أسَّس الجزائريون الذين أدرَكوا مصيرهم الوطني بقوة: جبهة التحرير الوطني. ومن الغريب أن اسم حركة الاستقلال كان باللغة الفرنسية. مَحَتْ فرنسا

التراث الثقافي بشكل تام لدرجة أنه حتى المحارِبين كانوا يُفضِّلون التَّحدث بالفرنسية. بعد ذلك بسنوات قال واحدٌ منهم، وهو: هواري بومدين، للرئيس المصري جمال عبد الناصر أنه كان الوحيد الذي يَعرف اللغة العربية في مجلس الوزراء الجزائري[405]. بَدأتْ حربُ الاستقلال على الرغم من انتزاع الانتماء الوطني في الجزائر وَلَدَى الجزائريين، وربما بسبب ذلك إلى حد ما.

بدأت مرحلة القرن العشرين من حرب الجزائر في الأرياف بجماعات متفرقة فقيرة وضعيفة التسليح. وفي الحقيقة، إن قليلاً من الجزائريين الذين سيصبحون متمردين كان لديهم أي سلاح. لم يكن لدى الجماعات المتفرقة والمتباعدة سوى أقل من أربعمئة قطعة سلاح، نصفها تقريباً كان بنادق صيد. (كان البحث عن السلاح دائماً أحد العوامل الحاسمة في عملياتهم العسكرية). كانت أهمية المتمردين ضئيلة من الناحية العسكرية مثل جميع حركات حرب العصابات في بداياتها تقريباً. ولكنهم استفادوا من الناحية النفسية من اللحظات المصيرية في سطيف وديان بيان فو. ومع كل حادثة، وكل مظاهرة، وكل إذلال مُثيرٍ للغضب، وكل قَمعٍ عنيف، ازدادت قوتهم تدريجياً. ولكن قوتهم لم تكن عسكرية أبداً، ولم يتمكنوا أبداً من الصمود في وجه الجيش الفرنسي الذي كان مسلَّحاً بعَتادٍ ضخم من الولايات المتحدة الأمريكية وزادهم عدداً بنسبة أربعين إلى واحد. لم يتمَكّنوا من احتلال منطقة والتَّمسك بها مثلما فَعَل أنصار تيتو أو ما تمكَّنتْ منه جبهة التحرير الوطنية اليونانية.

حقَّقوا انتصارات قليلة ولكنها كانت نفسية بشكل رئيسي مثلما حَدَثَ عندما أَجبَرتْ عملياتهم الزعيم الليبرالي فرحات عباس على الإقرار بأنه كان على خطأ عندما شكَّ بوجود وطنية جزائرية. ما كان مهماً هو أنهم بدؤوا بخَلق ما أسميتُه: "مَناخ التَّمرد". يمكن تأريخ بداية هذا التغير من هجوم المستوطِنين في المنطقة المجاورة لبلدة فيليب فيل Philippeville عنما حرضَّتهم المظاهرة وانضَّم الجيش الفرنسي إلى مَدنيين أوروبيين في ارتكاب مجزرة. كان لدى الجنود الفرنسيين أوامر بقتل كل عربي يصادفونه، وربما قَتَلوا اثني عشر ألفاً. لم تَبقَ أرضٌ مُحايِدة بعد مجزرة فيليب فيل. كان الوطنيون الجزائريون في جانب والمستوطِنون في الجانب الآخر.

باختصار، ما كانت مجرد حملة إرهاب حتى سنة 1954، طَرَقَها الفرنسيين حتى أصبَحَتْ حرب عصابات سياسية/عسكرية. بدأت الأعمال أولاً في الأرياف حيث كانت حرب عصابات فعلية، خاصة في غابة كابيل Kabyle. قامَتْ جماعاتٌ صغيرة من الرجال بنصب كمائن للكتائب الفرنسية التي حَصَرَتْها آلياتها الثقيلة في السير على الطرق، مثلما كانت تفعل العصابات الاسبانية في أوائل القرن التاسع عشر، ثم يَسلبون الأسلحة والتموين التي يتَمكَّنون من الحصول عليها ويَهربون. كان قادةُ هذه الهجمات رجلان من قبائل البربر هما عبان رمضان Ramdane Abane وكريم بلقاسم Belkacem Krim اللذان تابَعا النضال ضد فرنسا من حيث تَرَكَهُ عبد القادر قبل قرنٍ من الزمان[406].

أدرَكوا أن العمليات العسكرية الصغيرة لا تكون ذات قيمة إلا بتأثيرها السياسي، وحاوَلوا إجبارَ الفرنسيين على قمع التمرد بطرقٍ بشعة وقمعية وغير ناجحة. بدأ المتمردون بالوصول إلى الجزائريين عن طريق برنامج راديو اسمه صوت الجزائر لنَشرِ أخبار العنف الفرنسي، مثل تعذيب

أسرى الحرب الجزائريين، وأخبار انتصاراتهم الصغيرة والمُذهِلة أحياناً. كما أصدَروا جريدة اسمها: المجاهد. وبدأ نضالهم يكسَبُ اعترافاً دولياً مثلما كانوا يَقصدون تحقيقه.

إلا أنّ الناس على الأرض كانوا قد بدؤوا يَتعَبون. قُتِلَ كثيرٌ من القادة، واختَلَفَ الباقون على استراتيجياتهم. كانوا مُشمئزين أيضاً بسبب غياب قادتهم الأصليين، مثل بن بلَّة الذي كان يعيش آنذاك في القاهرة ضَيفاً على الرئيس ناصر. وصَلَت العلاقات إلى مرحلةٍ لاذعة في ربيع 1956 عندما كَتَبَ القائدُ الداخلي عبان Abane إلى بن بلَّة قائلاً: "إذا لم تستطع فِعْلَ شيء لنا في الخارج، فارجَعْ ومُتْ معنا. تعالَ وقاتِل، أو اعتَبر نفسَك خائناً"[407]. كانت الحركةُ على شَفَا الانهيار.

لتَجنُّب ذلك التدمير الذاتي قرَّر القادة في الداخل أنهم يجب أن يَتجاوزوا خلافاتهم ويُخطِّطوا حركاتهم التالية. على الرغم من خطورة تَجَمُّعهم لأنهم سيَجذبون الانتباه، وقد يتم استنكارهم، وإذا قُبِضَ عليهم فستَنهار المقاومة، إلا أنهم قَرروا قَبول المخاطرة. كانت أقل المناطق خطراً هي منطقة القبائل لسببين: فقد ظنَّ الفرنسيون أنهم قد أخضَعوها للهدوء، وكانت تَضاريسها الوعرة تَمنحُهم بعض التَّغطية. لم يكن لديهم خيار آخر. أصدَروا دعوة، ولم يَحضر بن بلَّة الاجتماع على الرغم من توجيه الدعوة إليه[408].

عُقِدَ الاجتماع برئاسة عبان في 20 أغسطس 1956 لمدة أسبوعين من الجلسات المركَّزة "لتنظيم" المقاومة. قرَّروا عدم التنازل وعدم التفاوض قبل أن يتم ضمان استقلال الجزائر. ولمُتابعة القتال قَسَّموا الجزائر إلى ست ولايات يتم تنظيم كلاً منها وكأنها جيشٌ نظامي إنما يُقاتِلُ حربَ عصابات. والأهم من ذلك أنهم أعلَنوا تشكيل حكومةٍ وطنية ومجلساً من سبع عشرة عضواً سموه: المجلس الوطني للثورة الجزائرية. كما مَنعوا مُشاركةَ الشيوعيين لشعورهم بالمَرارة من الدور الذي لعبه الشيوعيون بعد مجزرة سطيف. وعلى الرغم من أنهم أرادوا من حيث المبدأ العمل مع الحركة التي أعاد تنظيمها مصالي (الحركة الوطنية الجزائرية)، قرَّروا أنهم لا يستطيعون ذلك لأنها كانت أكثر منافسيهم كفاءةً في الحصول على الدَّعم المالي من الجزائريين المُقيمين في فرنسا الذي كانوا بحاجةٍ ماسَّة له. ومع مرور الوقت أصبَحَ مصالي وأتباعه أشد المنافسين لجبهة التحرير الوطني الجزائرية.

بعد أن أسَّسوا الهيكل التنظيمي، وضَعَ عبان ورفاقه خطةً استراتيجية كان مَركَزها ما سُمِّيَ فيما بعد: معركة الجزائر. بعد سطيف وفيليب فيل، أصبَحتْ معركةُ الجزائر ثالث حَدَثٍ مصيري في حرب استقلال الجزائر.

حتى ذلك الوقت كانت حرب العصابات تدور في الأرياف، ولكنّ لاحَظَ عبان أنه لكي تكون فعالةً من الناحية السياسية يجب أن تَدور الحرب حيث تَستطيع أن تَجلب انتباه العالَم، وذلك يجب أن يَحدث في مدينة الجزائر. ولكن القتال في مدينة يُحتِّم على عبان أن يُخالِف القانون الأساسي في حرب العصابات: ضرورة التَّحرك، وقرَّر أن يأخذ الرِّهان.

قَلّدَ عبان الهيكلَ التنظيمي الذي استَخدَمَتْهُ تركيا الفتاة الذي وصفتُه في الفصل الحادي والعشرين وسأصِفُه أيضاً في الفصل الثاني والثلاثين الذي يَتَعَلَّقُ بالإخوان المسلمين. نظَّم أتباعَه في خلايا، لا تَضمُّ كل خَلية منها أكثر من ستة جزائريين أقرباء أو جيراناً مقرَّبين. ومن الناحية النظرية على الأقل فإن واحداً فقط من هؤلاء الرجال سيكون على تواصل مع عنصرٍ اتصالٍ واحد من خَلية ثانية ومع القيادة. وهكذا شَكَّلت الحركة السرّية نوعاً من الهَرَم، وبهذه الطريقة على فَرَضِ أنّ المنظمة فَقَدَتْ إحدى خلاياها، سيبقى الهيكل التنظيمي سليماً وآمناً. كان الهَرَمُ هو النموذج التقليدي لمنظمةٍ إرهابية.

من أجل تحقيق هدفه السياسي الأساسي، خطَّط عبان لاستخدام الحركة السرّية الجزائرية بشكل رئيسي كوسيلةٍ للتواصل مع السكان المَحَليين. يجب أن يُعلِنَ هؤلاء المئة ألف جزائري للعالَم أنّ الجزائر مُصِرَّةٌ على أن تكون مستقلة. كان إعلانهم هو إضراب عام في القَصَبَة، وكان ذلك في 28 يناير 1957.

أدركَ الحاكم الفرنسي العام روبير لاكوست Robert Lacoste تماماً ما هو الهدف الذي أرادَتْ جبهة التحرير تحقيقه. قرَّرَ أنه إذا أراد "إنقاذ" الجزائر، فيجب مَنعُ الجزائريين من إيضاح أنّ جبهة التحرير الوطني تُمَثِّلُهم. فكَّر أنه يجب أن يَتصرَّف بسرعة لأنه يَعرفُ تَردّد الحكومة الفرنسية وأنهم سيُضيعون فرصتهم في تَركيع المقاومة، ولذا أمَرَ قائدَ المَظليين الفرنسيين بكَسرِ الإضراب بسرعة مهما كان الثمن.

رحَّبَ الجنرالُ ماسو بأمر لاكوست، وألقى برجال المظليين في معركةِ شوارع تحت تأثير ألمه من الهزائم الفرنسية في الحرب العالمية الثانية والهند-الصينية وحرب السويس الثلاثية المُجهَضَة سنة 1956(العدوان الثلاثي الأنكلو-فرنسي-إسرائيلي). حطَّموا أبواب المَتاجر، وساقوا من وَجَدوهم من الشباب في الشوارع إلى مراكز عمليات، بل وقاموا بجمع طلابٍ وأجبَروهم على العودة إلى المدارس، ثم بَدؤوا بالقمع الحقيقي. قَبَضوا على الرجال بشكل عشوائي وقاموا بتَعذيبهم لاستخلاص معلومات منهم عن جبهة التحرير السرّية (استخدَم الفرنسيون التعذيب سنوات طويلة في أنحاء الشمال الأفريقي). اختَرقوا الهَرَم التنظيمي خَلية إثر خَلية، وتمكَّنوا من نصب كَمائن وقَتَلوا الزعماء واحداً بعد آخر[409]. عندما انتَهوا من ذلك كله، كانت الحركة السريّة في المدينة قد تمّ القضاء عليها.

كانت معركةُ الجزائر نصراً عسكرياً وتَكتيكياً لفرنسا، إلا أن جبهةَ التحرير انتَصَرتْ سياسياً واستراتيجياً، فقد أدَّتْ قسوةُ المعركة وسِجلات التعذيب البشع فيها إلى ثورة الجمهور الفرنسي. دَفعَتْ أحداثُ فرنسا سنة 1962 الجنرال ديغول للتَّخلي عن الجزائر في النهاية. كان ديغول وحدَهُ بين قادة فرنسا قوياً بدرجة كافية لاتّخاذ ذلك القرار المؤلم الذي كادَ أن يكلفه حياته.

في تلك الأثناء، قامَ بن بلّة مع مَن تَبقَّى مِن رفاقه بتشكيل جيشٍ خارجي في تونس بدافعٍ من الحَملة القاسية ضد الجيش الداخلي والثوار في الجزائر. بلَغَ عددُ أفراده 150,000 رجلاً، إلا أن الطريق سُدَّ أمام ذلك الجيش وأتباعه خارج الجزائر بحاجزٍ اسمه خط موريس Maurice Line.

كان نسخةً من جدار برلين والحاجز الذي أقامَه الطليان لحَجز وتَجويع السَنوسيين في ليبيا، غير أنه كان أكثر تفصيلاً منهما فقد اعتَمدَ حقول ألغام، وأسلاكاً مكهربة، ونظام رادار مُتَطَور للإنذار على طول الجبهة التونسية-الجزائرية. ومِن السخرية أن ذلك حافَظَ على جيش بن بلَّة بأمان، ففي مواقِعِهِ الآمنة وراء حاجزِ الجزائر لم يَتَكَبَّد الجيشُ الخارجي أية خسائر وأمكَن تَسليحه وتَدريبه بأمنٍ وسلام. عندما وافَقَ الفرنسيون في النهاية على استقلال الجزائر في اتفاقيات إيفيان في 17 مارس 1962 كانت جبهةُ التحرير الوطنية الجزائرية في الخارج جاهزةً للسيطرة على المجموعات الصغيرة المتفرقة من العصابات في الداخل. لم يتَمكَّنوا مِن فِعل ذلك إلا بفضل قوتهم العسكرية ولأنّ الجماهير الجزائرية شعرتْ بأن الهدف الذي قاسَتْ من أجله على مدى ثمانية أعوام قد تَحقَّق إذ كان الفرنسيون يُغادِرون وكانت الجماهير مُتعَبة ومُرهَقة. أصبَحَت العصابات في الجزائر غير ضرورية.

كانت تكلفة الحرب هائلة مخيفة ومازالت الجزائر تدفَعُ ثمنها بطريقة أو بأخرى. خلال سنوات القتال الثمانية قُتِلَ في المعارك حوالي نصف مليون جزائري (حوالي واحد من كل ستة عشر مواطن) وحوالي خمسة وعشرين ألف جندي فرنسي. وضِعَ عشرات الآلاف من الجزائريين في معسكرات اعتقال[410]. عندما وافَقَ الفرنسيون على الجلاء هَرَبَ حوالي 1,200,000 أوروبياً أو طُرِدوا خارج البلاد مع حوالي مئتي ألف جزائرياً من المُوالِين[411].

الجزائر هي واحدةٌ من الأماكن القليلة التي استُخدِمتْ فيها وطنيةُ الجنوب بنجاح لطَرد قوى الشمال العالمي، إلا أن التكاليف كانت مرتفعة. القتال الشديد والتعذيب والحرب السرّية ليست مدارس جيدة لتعليم الفضائل المدنية. وليس من المدهش أن الجزائر لم تَجِد الوسائل لتحويل الوطنية التي ولِدَتْ في أحضان الحرب إلى وطنية مُنفَتِحة وعادلة وآمنة في عهد السلم الذي جاءَ بعدَها. ظَلَّت الجزائر مجتمعاً جريحاً ولم تتمكن حتى الآن من التمتع بشعور التوازن المدني.

الفصل التاسع والعشرون

ناصر والقومية العربية

عندما بدأت الحرب العالمية الثانية أمَرَ البريطانيون حكام مصر بقطع العلاقات الدبلوماسية مع دول المِحور، إلا أنها لم تفعل ذلك كإشارة غير مُعلَنة إلى استقلالها. لم يحترم البريطانيون الإشارة وحَوَّلوا البلاد إلى معسكرٍ حربي مُسلَّح ومخزن وورشة عمل لجيشهم. بالنسبة للبريطانيين لم تكن مصر مهمة في حد ذاتها، إلا أن قناة السويس التي تمر في أراضيها كانت ذات أهمية عظمى، فقد كانت صِلَةَ الوَصل بين الشرق الأقصى وانكلترا، ومَرَّتْ عَبرها المواد الأولية والأغذية والقوى العاملة من الهند. كانت تلك أيضاً أسباب هجوم الطليان والألمان. لم يُسمَح للمصريين ولا حتى التعبير بالهَمس عن آمالهم ومخاوفهم. وضِعَت الوطنية في حالة انتظار مؤجَّل.

حاول المَلك فاروق، الذي لم يكن رجلاً شجاعاً بل كان اهتمامه مركزاً كلياً على مائدته وسريره، أن يُظهِرَ دوره كحاكمٍ للبلاد عندما اختار رئيس وزرائه، إلا أن البريطانيين ضَربوا على يده ودَخَلَت الدباباتُ البريطانية إلى القاهرة في فبراير 1942 وحاصَرتْ قصره بينما أخبره السفير البريطاني أن بريطانيا ستَخلعه إذا لم يُعيِّن الرجل الذي أرادوه لإدارة الحكومة. ومِنَ المفارقة أنَّ الرجل الذي أرادوه كان آنذاك زعيم بقايا حزب الوفد الذي أزعجَهم كثيراً سنة 1919.

كانت العلاقات بين المصريين والبريطانيين على مستوى الوزراء مهذبة، بل وأحياناً حَميمة. ولكن تحت ذلك المستوى كانوا دائماً وقِحين ولاذِعين. احتلالُ الجيوش صعبٌ في كل مكان على السكان المَحَليين، والجنودُ البريطانيون مثل الجنود في كل مكان لا يَعرفون الكلامَ المهذَّب، بل كانوا يَسخرون من "المُخنثين القذرين" ويَصفونهم بالخِسّة والدناءة، تماماً مثلما يَسخَرُ الجنود الأمريكان من شعوبٍ أخرى بأنواع من الألقاب مثل نَعْت الفلبينيين بكلمة "العبيد niggers"، والفرنسيين "الضفادع"، وأهل أمريكا اللاتينية "العجائز geezers"، والفييتناميين "الثعالب gooks"، والعراقيين "الحمقى [412]"ragheads. أسَّس رديارد كيبلنغ Rudyard Kipling هذا الأسلوب، فبالنسبة له كان السكان المَحَليون في جنوب العالَم "نصف شيطان ونصف طفل". استمتع الجنود البريطانيون بغناء النشيد الوطني المصري مع تغيير الكلمات إلى نكات سَمِجة على المَلِك والمَلِكة. ولمساعدة الجنود على التواصل فقد تم تعليمهم كلمات عربية أساسية بمعانٍ مفيدة مثل:

"امشي" و"يا للا". وهكذا عَبَّرَ الشمال العالمي عن احتقاره للجنوب، وَرَدَّ الجنوب بالطريقة الوحيدة التي يَستطيعها: الغضب الصامت.

تقليداً لأساليب البريطانيين في الهند، قام البريطانيون في مصر ببناء نادٍ رياضيٍ لهم على جزيرةٍ في وسط النيل وحَدَّدوا عضويته بالانكليز فقط مثلما فَعلوا في الهند. لم يُسمَح لمَلِك البلاد بالدخول ولا للشخصيات المصرية السياسية المتميزة ولا للعلماء ولا لرجال الأعمال[413]. بالنسبة للمصريين، الانتصارُ الأعظم للرئيس جمال عبد الناصر بعد ذلك بسنوات، من الناحية النفسية على الأقل، لم يكن تأميم قناة السويس أو البنوك الأوروبية، بل كان تَمصِير النادي البريطاني. فَهِمَ ذلك الهنودُ والشعوب المستعمَرة الأخرى، أما بالنسبة للصحفيين الأجانب فقد بَدَا لهم ذلك السلوك المصري طفولياً.

المؤسسة التي تُركِّز عليها الوطنيةُ عادة هي الجيش، لأنه يتمتع بإمكانيات لا تتوفر إلا نادراً في القطاعات الأخرى من المجتمع: القدرة على التحرك والانتقال والتواصل وإظهار القوة والتنسيق. كما يرتدي ألبسة رسمية ويرفع الأعلام ويعرض هَالَة وطنية. غير أن الجيش المصري كان مُختلِفاً إذ كان هدفاً للسخرية والنكات. وَصَفَهُ البريطانيون بأنه أكبر جيش على سطح الأرض حسب مقياس خَصْرِ ضباطه: "وهنا يقف الجيشُ المصري كأكبر قوة عسكرية في العصور الحديثة... تُحدَّد فيه الأقدَمية حسب الوزن... يُمنَح الضباط فيه عَتَبات مِنَ الخشب لكي يَستطيعوا امتطاء ظهور جيادهم"[414].

كان الازدراءُ أكثر وضوحاً في توزيع الطعام. كانت مصر "مزرعة" أوروبا منذ أيام الامبراطورية الرومانية، إلا أن المصريين أنفسهم نادراً ما كانوا جائعين. ولكن ذلك حدَثَ في ظِلِّ السلطة البريطانية. عندما استَقصَى باحثون أوروبيون الاقتصاد المصري في نهاية الحرب العالمية الثانية وفوجئوا بأن اليونان التي كانت خارجة لتوها من استغلال وقسوة الاحتلال النازي كانت أكثر قدرة على تغذية مصر من أن تستطيع مصر نفسها مساعدة اليونان بعد أن قَضَتْ فترة الحرب تحت الحكم البريطاني. وكما شاهَدْنا في الهند فإن الأمبريالية يمكن أن تُقاس بميزان الفقر. تقاس حالة فقراء مصر ومصاعبهم الاقتصادية العامة بمقياس الجوع، مثلما كان الحال عند الفلاحين الهنود. كتَبَ الاقتصادي الانكليزي دورين وارينر Doreen Warriner الذي أرسَلَته الحكومةُ البريطانية لاستقصاء الاقتصاد: "حياة الفلاح المصري هي في رعب مستمر... لا يوجد مستوى معيشة، لأن أي شيء أقل منه سيكون الموت"[415].

لماذا كان ذلك حقيقياً؟ أجاب وارينر أنه تحت الحكم البريطاني 97% من المزارعين كانوا يمتَلِكون بمجموعهم المساحةَ نفسَها من الأرض التي امتَلَكها ربع إلى نصف الواحد بالمئة من كبار مُلّاك الأراضي. سَمَحَ الحكامُ أو شجَّعوا على هذا التوزيع للمُلكِيات دون أن يَعترض عليهم البريطانيون الذين اعتَمدوا عليهم كمؤيدين للعلاقة البريطانية. وهنا، مثلما كان الحال في الهند،

أعطِيت الأولوية إلى الاحتياجات البريطانية في الحرب على جوع السكان الأصليين بحيث سُلِبَت الهند ومصر من انتاجهما الغذائي مما أدى إلى وفاة الملايين جوعاً، خاصة في الهند.

هكذا كانت مصر، مصر البريطانية التي ولِد فيها ناصر سنة 1918. كان والده عامل بريد، وكانت أسرته مما نَعرفه في أمريكا "بالطبقة الوسطى الدنيا" ليس لديهم أية مُمتَلَكات تقريباً ويَعيشون على راتبٍ متواضِع ويَجهَدون للمحافظة على وضعهم وعدم الانحدار إلى مستوى اجتماعي أدنى. وكما أخبَرني ناصر فيما بَعد، فقد كان النضالُ في سبيل الكرامة فكرةً رئيسية في حياته[416].

اشتَرَكَ ناصر في شبابه بمظاهرات الطلاب وكان لديه سِجِلٌّ عند الشرطة أدَّى إلى مَنعِه في البداية من دخول الكلّية الحَربية. لم يكن سِجله المَانعَ الوحيد، فقد كان الدخول إلى الأكاديمية مَحصوراً بالطبقة الحاكمة لأن دَورَ الجيش كان المحافظة على الاستقرار ومَنعَ أي تهديد للنظام الحاكم. تمكَّن من دخول الكلّية الحَربية سنة 1937 بمساعدة خَجولة من ضابطٍ كبير دُهِشَ كثيراً عندما عَلِمَ برغبة الشاب الذي يريد الدخول إلى طبقة الضباط دون أن تكون لديه علاقات اجتماعية مناسِبة. كان أول عنصر يَدخل الكلّية من الطبقة الاجتماعية الدنيا. استَغرقَ تعليمُهُ العسكري سنةً واحدة. فكما كانت حالة التعليم بشكل عام، والتعليم العسكري بشكل خاص، لم يَرغَب البريطانيون ولا النظام الدُّمية الحاكِم بوجود ضباطٍ مصريين على درجة عالية من التدريب. لم يتعلَّم ناصر كثيراً في الكلّية الحَربية، إلا أنه التقى خلال سَنَتِهِ الدراسية العسكرية بعض الرجال الذين سيَنضَمون إليه فيما بعد في خَلْعِ المَلَكية. خلال السنوات القليلة التي تلَتْ تَخَرجه، تم إرساله إلى حامياتٍ مصرية مختلفة التقى فيها بشباب غاضب سيُصبحون أيضاً رفاقه في تنظيم الضباط الأحرار. غير أن خدمَتَهُ في حرب 1948 في فلسطين هي التي جَمَعَتْ تجاربه كلها معاً.

واجَهَ خلال حرب فلسطين سوءَ أسلحة الجيش المصري، وضَعف دعم الحكومة المَلَكية، وفشل القوات العربية المختلفة في التواصل مع بعضها بعضاً، واقتَنَع بضرورة التغيير في مصر أولاً ثم في بقية أرجاء الوطن العربي. لاقَتْ وحدته لدى عودتها استقبالاً جماهيرياً حافِلاً حاوَلَت الحكومةُ مَنعَهُ، وشَعَرَ ناصر بتأييد الجماهير له ولرفاقه. وعندما أرسِل في مهمة قصيرة للمشاركة في مفاوضات الهدنة في رودس سنة 1949 اقتَنَعَ تماماً بأن قوات الشمال العالمي: بريطانيا وأمريكا، كانت تؤيد إسرائيل بشكل غير عادل. وآمَنَ مثل أغلب العرب بأن إسرائيل هي جزءٌ من الشمال العالمي سياسياً واقتصادياً، ولو أنها تَقَعُ في الجنوب جغرافياً.

في ذلك الوقت وافَقَ كثيرٌ من العرب، مسلمين ومسيحيين، مع قسطنطين زريق، الفيلسوف السوري والمعلّم والسّفير الذي يَنتَمي إلى طائفة الأرثوذوكس اليونانيين، بأن هزيمتهم الكارثية في حرب فلسطين هي دليلٌ على تفرّق وفساد الدول العربية وحكامهم[417]. أيَّدَ انتقادات زريق معلّمٌ فلسطيني ومسؤولٌ في حكومة الانتداب البريطانية هو موسى العَلَمي عندما كتَبَ:

"في مواجهة العدو لم يكن العرب دولة، بل دويلات صغيرة، فئات، وليس أمّة... (الوحدة ضرورية إنما) غير كافية. عدم كفاءة الأنظمة الحالية مسؤولة أيضاً عن الكارثة... يجب أن يكون

هناك نظامٌ شامل للتعليم بهدف خَلقِ جيل جديد قوي واعٍ يستطيع أن يُدافِع عن أرض العرب ويَستعيدَ احترامه لنفسه. يجب أن يكون هناك برنامج كامل لاستغلال مصادر الثروة العربية بحيث يَمكن خَلقُ نظامَ دفاعٍ قوي يحفَظُ البلاد، ورَفع مُستوى معيشتها، والنهوض بشعبها"[418].

كان ناصر يَسمَعُ رسائل مماثلة حيثما التَفَتَ، وستشكّل هذه الرسائل خلاصة برنامجه القادم.

في ذلك الوقت حدَثَ انقلابٌ عسكري في سوريا، تَبِعَهُ كثير منها، ويبدو أن ذلك قد أقنَعَ ناصر ورفاقه بأن الاستيلاء على السلطة كان ممكناً، كما أنه نَبَّهَ قوات الأمن وأخاف رئيس الوزراء فطلَبَ ناصر وقال إنه سَمِعَ عن بعض رفاقه أنهم يتحدثون عن انقلاب ونَفَى ناصر القصة بالطبع. لم يكن لديه مَن يُرشِده ولم تكن لديه الخبرة الشخصية، وذلك ليس مماثلاً لحالة مصطفى كمال في الامبراطورية العثمانية، إلا أنه أدرك أن التأخير قد يكون قاتِلاً[419]، وعلى كل حال لم تكن جماعته جاهزة. كان عددهم حينها حوالي أربعة عشر رجلاً من خلفيات اجتماعية مختلفة كثيراً. بعضهم لم يكونوا زملاءه من ضباط الجيش[420]، وكان واحدٌ منهم على الأقل شيوعياً، وواحدٌ من الإخوان المسلمين. اختَلَفوا كثيراً مع بعضهم بعضاً حول التكتيكات وحتى عن القضايا الأساسية. كان جَمعُهُم مُتَّحِدِين وجَعْلِهِم يَعملون معاً مسألة صعبة. استطاع ناصر أن يُحَقِّقَ ذلك حتى ما بَعد نجاح الانقلاب، ثم اختَلَفَ مع أغلب أعضاء الفريق الأصلي. لم يتَمَكَّنوا من ضمان تأييد بقية الضباط حتى عندما كانوا يَعملون معاً. أدرَكَ ناصر أنه يحتاج إلى رجلٍ أكبر قدراً لكي يَعمل كقائد شَكْلِيّ. وأخيراً اختار ناصر اللواءَ محمد نجيب الذي كان قد حارَبَ أيضاً في فلسطين وكان معروفاً بوطنيته وشعبيته في الجيش. قاما سوية بانقلاب 23 يوليو 1952.

عندما استَولى ناصر على السلطة كان لديه الطُموح الجريء بجَعل مصر أمَّة حديثة محتَرمة وقوية عسكرياً، إلا أنه لم يحمِل سوى أفكاراً قليلة عن كيفية تحقيق أهدافه. من خلال حواراتي معه وملاحظات آخرين أعتَقدُ بأنه توصَّل تدريجياً إلى برنامج من أربعة أجزاء[421].

الجزء الأول هو أنه لم يكن يَنوي أبداً مُشارَكةَ أحدٍ في السلطة السياسية، ظَهَرَ ذلك واضحاً حتى قبل أن يخطط الانقلاب. وضَعَ اللواءَ نجيب في الواجِهة عندما احتاج إليه ولكنه أزاحَهُ وأعضاءَ فريقه جانباً عندما لم يَعد بحاجة إليهم وعندما اختَلَفَ معهم. اعتقد أن أقرب رفاقه وصِهره عبد الحكيم عامر، الذي أَطلَقَ اسمه على أحد أبنائه، قد أساءَ نصحه بالدخول في حرب مع إسرائيل سنة 1963 (1967؟) فتَخَلَّصَ مِنه. وكان يهين أنور السادات عَلَناً. بينما تقَرَّبَ ناصر في البداية من الإخوان المسلمين، الذين سأتحدثُ عنهم في الفصل الثاني والثلاثين، فقد وجَدَ أنهم عقبةً أكثر من مساعَدَة في برنامجه الثوري. وجَدَ الإخوان المسلمون من جِهتِهِم أن عَلمانيته مَكروهة. حاوَلَ عضوٌ من جماعتهم اغتياله، وَرَدّاً على ذلك أعلَنَ أنهم خارجون على القانون وحَبَسَ كثيراً من أفرادهم وأعدَمَ بعض قادتهم. وتابَعَ التقدم بجرأة في برنامجه.

الجزء الثاني هو أنني أعتَقدُ بأنه طَوَّرَ جهوده في بناء الأمة وبرنامجه الاجتماعي الثوري خطوة خطوة كلما أدرَكَ ضعف مصر أكثر من أنه كان مَبنِيّاً على إيديولوجيةٍ أو نتيجةً لدراسة. ركَّزَ على الجيش لأنه شاهَدَ أن أكبر خطر عليه وعلى مصر هو الحرب مع إسرائيل. وأدرَكَ أن الجيش سيَظَلُّ ضعيفاً مهما كان تسليحه طالما أن الشعب المصري غير متَعلّم جيداً.

لم يكن التعليم أولويةً في مصر أثناء الحكم البريطاني. لم تَفتَح الدولةُ عدداً مهماً ولا حتى من المدارس الابتدائية العامة إلا بعد سنة 1925، وحتى سنة 1945 كان هنالك حوالي المليون مصرياً ممن ذَهَبَ إلى مدرسة، وهو أقل من نصف الفئة المؤهَّلَة لذلك. ولم يَتَلَقَّ أحدٌ منهم تقريباً تعليماً عِلمياً أو تَقنياً. بعد نهاية حكم ناصر في 1970 كان هنالك حوالي سبعة ملايين مصرياً في المدارس والجامعات، وتخرَّجَ منهم حوالي مئة ألف في العلوم الطبيعية، وحوالي 120,000 ممن تَدَرَّبَ في مدارس مهنية.

بالإضافة إلى تأسيس المدارس والجامعات، أعاد ناصر هيكَلَةَ الخِدمة العسكرية مما كان له ربما نتائج مثمرة. جَعَلَ من الجيش مركَزَ تدريب لانتاج ما سميتُه "الرجال الجدد". يمثِّل ذلك ابتعاداً مهماً عن الماضي الأمبريالي يجب أن أتوسَّع في بحثه.

كان أغلب المصريين تحت الحكم البريطاني من الفلاحين. وكما بيَّنتُ سابقاً، فإن أبحاث اقتصاديين إنكليز أظهَرتْ أنهم كانوا يَعيشون في فقر وبؤس. ولكي يُطعِموا أنفسهم كان عليهم فلاحة الأرض، ولكي يتمكَّنوا من ذلك كان عليهم رَفعُ الماء من النيل وأصيبوا بمرض دودة (البلهارسيا) الموجودة في تلك المياه. لم يؤدِّ المرضُ إلى الوفاة إلا أنه سبَّبَ الضعفَ والوَهَن. أصبَحَ المُصابون كسالى تحت سطوة الألم والإرهاق، إلا أن أحداً من الفلاحين لم يَعرف ما الذي سبَّبَ بؤسهم وتعاستهم. لم يكن الجهل رحمة، إلا أنه مكَّنَهم من متابعة نَضْحِ الماء من النيل لسَقي حقولهم.

لم يَعرف أحدٌ أية طريقة ناجعة لعلاج المرض422. لم يَعرف ناصر كثيراً عن المرض ولكنه فَهِمَ نتائجَه واستَخدَم جيشَه لتَخفيفها على الأقل. في منتصف فترة حكمِهِ حوالي سنة 1965 عاد حوالي 130,000 مصرياً من الجيش إلى الحياة المَدنية بصحة أفضل، إنما على حساب خسائر اجتماعية واقتصادية، إذ لم يَستطيعوا العودة إلى قراهم للزراعة، فمَن يَعرف ما هي البلهارسيا وما تَفعله لجسم الإنسان لا يَجرؤ أن يكون فلاحاً على ضفاف النيل. كانت تلك حالة ثورية.

وكان ثورياً أيضاً هو أن الجنود المَسَرَّحين اكتَسبوا مهارات أبعَدَتْهم عن حياة القرية. بعد أن تَعلَّموا قيادةَ سيارة الشحن أو اكتسَبوا مهارات ميكانيكية، لم تتوفر لهم فرص الحياة في القرية، وهكذا دَفَعَتْ سياسةُ ناصر في التركيز على الجيش المصريين واحداً بعد الآخر خارجَ طُرُقِهم التقليدية نحو الحياة الحديثة في المدن.

أَظهرَتْ دراساتي أنّ برامج ناصر المختلفة خَلَقَتْ بمجموعها مجتمعاً جديداً، أمَّة مصرية جديدة في الواقع، بالتوازي إلى جانب المجتمع التقليدي، وهذا اختلافٌ أساسي عن التفكير بالأمة والوطنية/القومية. إلا أنه نادراً ما يُقَدَّر، وكان له تأثير عميق في أرجاء العالَم الإسلامي بحيث يجب فَهمُهُ. وهذا هو الجزء الثالث من السياسة التي تطَوَّرتْ أثناء حكمه، وسألخصه فيما يلي:

كان المجتمع بكامله تقليدياً على مر أجيال من المصريين الذين نَشؤوا قبل انقلاب عام 1952. أي أن أغلب المصريين كانوا فلاحين مزارعين يعيشون في قرى. اشتَغلوا بأيديهم بمساعدة حيوانات ولم يكن لديهم أدوات ميكانيكية أو آلية. ذَهَبوا إلى مدارس دينية علَّمتهم المُعتَقدات والطقوس الإسلامية ولم تُعلّمهم المهارات ولا حتى الصحة العامة. كان مستوى معيشتهم منخفضاً ولَدَيهم واحداً من أعلى معدلات الوفيات في العالَم. توفي واحد من كل أربعة أطفال قبل سن الخامسة وأصيبوا بكثير من الأمراض التي تَنقلها الحشرات أو الماء كالملاريا، التي وإن لم تؤدِّ إلى الموت سريعاً، إلا أنها كانت تَمتَص حَيويتهم وقواهم، ولم تَتوفر لهم مياه الشرب النظيفة أو وسائل التَّخلص السليم من الفضلات، إلا أنهم عددهم كان يزداد بسرعة[423]. كانوا يَعملون في انتاج قطن مصر.

كانت الطَّبقة المَدنية الدُّنيا في حالٍ أفضل قليلاً بتَمَكُّنِها من الحصول على الماء النظيف إلا أنها في حالٍ أسوأ من حيث سهولة الحصول على الغذاء. وكانوا مُستهلِكين بشكل عام أكثر منهم مُنتِجين. عَمِلَ الحرفيون، مثل النجارين والبنّائين، بأيديهم بلا أدوات آلية. كانوا يَعيشون في ظروفٍ مثل التي شاهدَها تشارلز ديكنز وهنري مايهيو في ضواحي لندن البائسة قبل ذلك بقرن تقريباً.

كانت هناك طبقة وسطى مصرية صغيرة، ربما حوالي 6% من السكان، إلا أن أغلب المهام التي نَنسبها عادة إلى الطبقة الوسطى كان يَقوم بها أجانب مُقيمين، وأغلبهم من اليونانيين والطليان. وكانت هناك طبقةٌ عُليا أصغر تتألف من مالِكي الأراضي والتجار والمسؤولين الحكوميين. امتَلَكَ حوالي 2.5% من المُلّاك ما يساوي تقريباً كل ما امتَلَكَهُ الباقون من الأراضي. كما أن فئةً أصغر من ذلك، حوالي نصف بالمئة، امتَلَكَتْ أكبَرَ حصةٍ من الاقتصاد الكلي وما كان موجوداً من الصناعات، صناعة النسيج بشكلٍ رئيسي. كانت مصر محلَّ إقامة أرستقراطية غنية راقية عالية الثقافة كانت تعيش حياة جيدة تَمتَّعتْ بأفضل المستويات من التعليم الأوروبي والأدب والفنون. غير أنهم لم يَنقلوا أوروبيتهم إلى نشاطات تفيد المجتمع المصري العام ولا اقتصاد الأمّة.

كان ناصر مُصِرَّاً على تَغيير كل ذلك. أراد أن يُدخِل مصر إلى القرن العشرين.

في سنة 1965 بَعد أكثر من عَقدٍ في نِظامه الجديد خَلَقَتْ برامجه مجتمعاً متطوراً موازياً إلا أنه مُنفَصِلٌ عن المجتمع التقليدي. ظَهَرتْ فيه طبقة عُليا جديدة أغلبها من قدماء الضباط نَمَتْ إلى حوالي 0.5% من السكان تقريباً، وطبقة وسطى مُتطورة شكَّلَتْ حوالي 1% تقريباً، وطبقة دنيا جديدة أغلبها من الجنود السابقين ممن تَدَرَّبوا على استخدام أدوات وتَقنيات حديثة بَلَغوا حوالي 2% إلى 3%، وكانوا أنصار ناصر الذين يَدفعون حركة التطوير، وكانت المهمة التي تَبَنَّاها ناصر هي جذبُ مزيدٍ من المجتمع التقليدي إلى صفوفهم.

حاوَل أن يُحَقِّقَ ذلك بطرقٍ عديدة، كانت محافظةُ التحرير أحد أكثر برامجه التي تَمَّت الدعاية لها. أدلَى رئيس دائرة الشؤون الاجتماعية بتصريحٍ عن كيفية "تحويل" الفلاحين التقليديين إلى صفوف الأمَّة الجديدة قائلاً:

"يتم انتقاء المستوطِنين عِلمياً وِفقَ اختبارات اجتماعية وطبية ونفسية. من ناحية المؤهلات الاجتماعية يجب ألا يكون لدى المُتَقَدِّم سوى زوجة واحدة، ولا يكون لديه من يَعولُهم سوى أولاده،

وليس لديه أملاك، ويُفضَّل أن يكونوا قد تَزوجوا مرة واحدة وأن يكونوا قد أنهوا خِدمَتَهم العسكرية. من بين الألف ومئة مُتَقَدِّم حتى الآن وَجَدنا أنهم جميعاً يُحَققون المؤهلات الاجتماعية، إلا أن 382 أسرة فقط تمّ قَبولهم طبياً، فعَلَى الرغم من أن أغلب الرجال كانوا بصحةٍ مناسبة، إلا أن النساء والأطفال كانوا أقل من المستوى المَطلوب بكثير. نَجَحَتْ 180 أسرة فقط في الاختبارات النفسية... ويتم الآن تدريب 132 منها فترة ستة أشهر تتضمن ثلاثة أشهر من التجربة. يجب اعتبار أن الناس والأرض تحت الاستصلاح"[424].

كان يجب تمييز "المصري الجديد" في محافظة التحرير عن القروي الفلاح بارتداء ملابس نظامية جديدة بدلاً من الجلباب الذي يرتديه الفلاحون، وأن يتناول طعاماً أفضل، ويَحصل على دَخلٍ أعلى بأربع مرات من معدّل دَخل الفلاح التقليدي. كان على أولاد المستوطِنين الذهاب إلى مدارس داخلية (فكرة مستنسخة من الكيبوتزات الإسرائيلية) للتأكد من تَخلّصهم من أية أفكار مُتَبقّية في عقول أهلهم. تم تشجيع الصناعات الخفيفة في المحافظة بحيث تتوفر اختيارات حديثة من الأعمال. كانت مشروعاً كبيراً من مشاريع الهندسة الاجتماعية، إلا أنها فشلتْ في تحقيق أغلب ما خُطِّطَ لها.

على الرغم من تحقيق شيئ قليل مما خُطِّطَ له في محافظة التحرير، إلا أنه عند النظر إليها في المجتمع المصري بشكل عام يمكن اعتبار أن بعض أهدافها كانت ذاتية التّحقق، وذلك لأنه بينما كانت البَطالة وانخفاض العَمالة مُنتَشرة في الاقتصاد المصري، إلا أنه لم يكن هنالك عدد كاف من العاملين في بعض المَجالات الحديثة، وبالتالي فقد كان دَخلهم أعلى. فالميكانيكي مثلاً كان يُحَصِّل دَخلاً أعلى بثلاث مرات من الحرَفيّ التقليدي، وعلى أكثر من ذلك بالنسبة إلى عامل غير مؤهل. كان الميكانيكي يضمَنُ الحصول على عملٍ بشكلٍ مستمر ولذا فقد كان دَخلُهُ النسبيّ أكبَر. ولذا فقد كان لدى الحرفيّ التقليدي والعامل غير المؤهل دافعاً قوياً لتَعلّم مهارات جديدة والانتقال إلى استخدام أدوات آلية.

كان رابع أجزاء برنامج ناصر وإخلاصه للقومية "العربية" هو الذي أدّى إلى فَشَلِ جميع الجهود في البرامج الداخلية "الوطنية".

منذ البداية، أو على الأقل منذ دخوله حرب فلسطين آمَنَ ناصر بأن العرب لن يتَمكَّنوا من حماية أنفسهم من الأمبريالية إلا بوحدتهم، فمصر كانت أصغر من أن تَصمد وحدَها وقد أثبَتَ التاريخ ذلك إذ احتلَّها نابليون بسهولة، وعندما أراد محمد علي باشا أن يَبني جيشاً وصناعة في مصر أجبَرَهُ الشمال العالمي على تفكيك جيشه وإجهاض صناعته الناشئة. كما هَزَمَ البريطانيون القوى الوطنية لقائد الجيش المصري أحمد عرابي في 1882 ثم حَكَموا مصر صراحة أو من وراء ستار مدة خمس وسبعين سنة. لم تنجَح سياسة "مصر أولاً" الوطنية. لم تَتمكَّن مصر من الدفاع عن نفسها. كان إيمان ناصر بذلك عميقاً.

أدرَكَ أن ما يَنقص هو الوحدة العربية. لن تكون أمام العرب أية فرصة للحصول على الاستقلال والمحافظة عليه ما لم يَضَعوا خلافاتهم جانباً ويَتغَلَّبوا عليها. لن تستطيع الدول العربية الضعيفة التي خَسِرت الحرب في فلسطين أن تَجمع ما يكفي منِ القوة للدفاع عن أنفسهم ضد الشمال

العالمي إلا إذا اتَّحَدَتْ. كان ذلك هو الدرس القاسي الذي تَعَلّمَهُ خلال الصراعات المُتكَرّرة مع إسرائيل وحلفائها الشماليين (فرنسا وبريطانيا وأمريكا). وهكذا فإن الجزء الرابع من سياسته كان يحتاج إلى تحويل التركيز من مصر إلى المجال الأوسع للعالَم العربي[425]. اقتَضَى ذلك انزياحاً في إيديولوجية الوطنية مِنَ التركّيز على الأمة/الدولة (الوطنية) إلى نظريةٍ أوسع فيما أصبح اسمه "وطنية الشعب" أو القومية.

جادَلَ ناصر بأن نظام الدولة المأخوذ عن الغرب الذي يَتَحَكَّم به مُلوكٌ لُعَب ورؤساء فاسدون يَتحَكَّم بهم الأمبرياليون هو مصدر الضعف. كانوا يَتحدَّثون دائماً عن إخلاصهم وشجاعتهم ووحدتهم، غير أن أحاديثهم كانت مجرد تمثيلية هزلية. وإن جامعة الدول العربية التي أُنشِئتْ لتنسيق جهودهم لم تكن في الواقع سوى تأسيساً لتفرقهم. كانت المِنبَر الذي تستطيع فيه الدول المُنفَصِلة التعبير عن خلافاتها. كَتَبَ مراسلٌ لمجلة Economist عن اجتماعهم في أكتوبر 1955 بعد انقلاب ناصر بقليل: "الوحدة العربية غير موجودة... أظهَرَت الجامعة العربية منذ البداية هذه الحالة العربية التاريخية واستمرار عدم قدرتهم على الاتحاد سياسياً على الرغم من إيمانهم الثابت بأن الوحدة هي حالة طبيعية لشعوبهم لا تحتاج إلا للتشكيل السياسي"[426]. جادَلَ ناصر بأن التشكيل الذي كان خطوة أولى ضرورية نحو الوحدة يمكن أن تُحقّقهُ القومية العربية.

حَصَدَ ناصر أكبر هزائمه في سَعيِهِ وراء القومية العربية. بدأ ذلك مباشرة بعد الانقلاب عندما حاوَلَت الحكومة الجديدة أن تُقنِع السودانيين بجعل حلم السودان الإنكليزي-المصري حقيقة واقعة، إلا أن السودانيين طَلَبوا إسقاط "المصري" مباشرة بعد إسقاطهم "الإنكليزي" وأصَرّوا على أنهم "وطن" بدلاً من كونهم جزءاً من "القوم". لم يشكّل الفشل خسارة كبيرة لهَيبة الحكومة الجديدة، بل من الغريب أن الخسارة الأخطر كانت في انتصار مصر الظاهري على الهجوم الإنكليزي-الفرنسي-الإسرائيلي على مصر سنة 1956.

صَدُّ الهجومِ جَعَلَ ناصر بطلَ العالَم العربي وجَعَلَهُ كذلك في كثير من بقية أنحاء العالَم الثالث. كان ذلك الانتصار في ظاهر الأمر نصراً كبيراً للجنوب العالمي على الشمال يشبه انتصار اليابانيين على الروس قبل ذلك بخمسين سنة. ولكن لسوء حظ ناصر فإن انتصار مصر لم يكن بسبب اسطولها أو جيشها مثلما كان انتصار اليابان، بل كان الرئيس إيزنهاور هو الذي رَبِحَ الحربَ لمصر وليس ناصر. وبالطبع لا يستطيع أحد في مصر أن يَعتَرف بذلك. انطلَقَ ناصر مُندَفعاً وراء مُعتقداته يُحَمّسهُ جيشه ويَدفعه فَهمٌ خاطئ لحرب السويس نحو تَثبيتِ دور مصر الجديد. خلَقَت الحرب "شخصية" و"دوراً" حَصَرَ ناصر في اتجاه سياسي سيَتَّضِح أنه مُدَمِّر له ولمصر. سيَعتَنق قضايا لم يستطع تَلبيتَها ولم يكن مجتمعه ولا جيرانه مُستعدّين لها. القضية التي تَبنَّاها أرهَقَتْ وقائعه الاجتماعية والسياسية والإدارية والاقتصادية. في حِواراتي معه تَوَلَّدَ لديَّ إحساس بأنه كان يُدركُ ذلك، غير أنه شَعَرَ ألاّ طريق أمامه سوى التصرف وفق ما كان قد وَعَدَ به. وهكذا سَمَحَ لنفسه أن يُستدرَج إلى سلسلة من التحركات التي بدأتْ بمحاولة دَمج مصر مع سورية لتشكيل الجمهورية العربية المتحدة.

كان من المفروض أن تُصبِح الجمهورية العربية المتحدة مَركَزَ وطنٍ عربي موحَّد فعلياً. تمت دعوةُ بلاد عربية أخرى للإنضمام، إلا أنها بَدَلاً من الانضمام شكَّلَت الأنظمةُ المَلَكيةُ في العراق والأردن حلفهما الخاص وأطلَقا عليه اسم: "الاتحاد العربي" تحت راية ثورة الصحراء سنة 1918. وما بدأ كإعلانٍ للوحدة غَرِقَ في لُجَّة صرخات الفُرقَةِ والتجزئة.

سرعان ما مَزَّقَت التجزئةُ الجمهورية العربية المتحدة، ولم يوقف إعلان الوحدة القوى الطاردة. كانت مصر وسورية مختلفتان في الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. تَضَخَّمَتْ تلك الاختلافات بسبب الطموحات الشخصية للسوريين وعدم حساسية المصريين. وفي 28 سبتمبر 1961 ثارَتْ مجموعةٌ من ضباط الجيش وأعلَنوا حكومة جديدة في الدولة المُنفَصِلة وأمَروا المصريين بالمغادرة.

الكارثة العظمى لشهرة عبد الناصر كشخصية تُجَسِّد القومية العربية كانت في تَوَرُّطِهِ في اليمن. بعد وفاة الإمام أحمد بن يحيى مباشرة استَولى على السلطة ابن السلطان محمد البدر. أعلَن الضابطُ عبد الله السلال بعدها أن اليمن أصبَحتْ جمهورية وطلَبَ من الرئيس ناصر حمايتها. أي أنه أخبَرَ ناصر بشكل أساسي إن الانقلاب قد تمَّ باسمه لكي يُحَقِّقَ مخططه الكبير في الوحدة العربية. وكما اعتَرَفَ ناصر لي فإنه لم يستطيع الرفض، إلا أن الانقلاب لم يَنجح بشكل كامل فقد هَرَبَ محمد البدر إلى المملكة العربية السعودية وطلَبَ من المَلك السعودي أن يساعده في استرجاع عرشه. وافَقَ المَلك واندلعت حربٌ بين الجمهوريين والملكيين وبين السعوديين والمصريين. أرسلتْ مصر أفضل وحدات جيشها وقواتها الجوية ووصَلَ تعداد قواتها نحو سبعين ألف جندي.

أصبحَت اليمن "فييتنام" مصر وأجبَرَتْ ناصر على وقف خططه الطموحة لاستنهاض الأمة المصرية427، كما أنها أضعفت الجيش المصري. وهكذا عندما حَلَّت المواجهةُ مع إسرائيل بعد ذلك بأربع سنوات حول حقوق المرور عبر مضائق تيران، كان الجيش المصري في حالة حرجة، كما قال لي أحد مساعدي ناصر: "وبنطاله إلى الأسفل"428. ألحَقَ الإسرائيليون بالمصريين هزيمة نكراء.

بالإضافة إلى خسارة الأرض، فقد قُتِلَ حوالي خمسة وخمسون ألفاً من الرجال القادرين المدربين جيداً، أي حوالي 5% من "مُنتَج" برامج ناصر الاجتماعية. بالمقارنة مع الولايات المتحدة يساوي ذلك خسارة حوالي خمسة ملايين رجلاً. ثم كانت هناك خسارة الأرض، ليس فقط في مصر، بل في سورية والأردن أيضاً. وأخيراً فإن المبدأ الأساسي للقومية العربية قد تم إجهاضه. كانت الهزيمة العربية تعبيراً عن حقيقة أن إسرائيل كانت دولة عَصرية وأنها كانت مَدعومة مالياً وعسكرياً من الولايات المتحدة الأمريكية، أي أنها قد أصبَحتْ فعلياً جزءاً من الشمال العالمي، بينما كانت الدول العربية المسلمة دولاً جنوبية مُتَخلفة. كان ذلك واضحاً للجميع، إلا أن ما أصبَحَ مهماً هو أن عدداً متزايداً من المصريين وبقية العرب تَوَقَّفوا عن الإيمان بأن القومية العربية قادرة على توحيد الدول العربية أو على تحفيز الشعب العربي بدرجة تكفي لمَنحِهم القوة والكرامة التي يريدونها.

واحد ممّن لم يَصلوا إلى هذه الاستنتاجات كان ضابطاً صغيراً في الجيش الليبي مِن أصول قَبَلية اسمه معمر القذافي. قام هذا الضابط مع حوالي سبعين من رفاقه الضباط بانقلاب في سبتمبر 1969 ضد الحكومة المَلَكية التي فَرَضَها الحلفاء على ليبيا في نهاية الحرب العالمية الثانية. كان أقل جاهزية مما كان عليه ناصر. لم يكن لديه برنامج ولم يَعرف شيئاً تقريباً عن الاقتصاد الليبي ولا عن الحكومة، وكان بالفعل ضابط صغير ولم يَعرف الكثير عن الجيش الليبي، إلا أنه استمع إلى خطابات ناصر وتَمسَّك بفكرته الرئيسية: ضرورة الوحدة. وهكذا أسرَعَ القذافي للاجتماع مع ناصر الذي دُهِشَ لاقتراحه مَنحَ ليبيا إلى ناصر. مصر وليبيا معاً يمكن أن يُشكِّلا جمهورية عربية متحدة حقيقية.

ربما كان ناصر سيَقبَلُ الاقتراحَ لولا أنه مَرَّ بتجربة الفشل المُتَعثِّر في سورية وفي حرب اليمن، وربما لو حدَثَ الانقلاب الليبي قبل عَقدٍ من الزمان لقفز انتهازاً للفرصة، إلا أنه كان أكبر سناً وأكثر حذراً. قال للقذافي إنّ عليه أن يُرتِّبَ بيته أولاً. ربما كانت نصيحته بداية الحكمة، إلا أنه لو قَبِلَ الاقتراح ونجح مع ليبيا في تحقيق ما أراد فعله في سورية فلربما تمكَّنَ من تحقيق ثورته الاجتماعية بفضل الثروة الضخمة للبترول الليبي. ومن المؤكد أن مصر، وربما أصبح كل الشرق الأوسط في حالة مختلفة عما هي الآن.

إلا أن ما حدَثَ كان مختلفاً عن ذلك كثيراً، فقد تَبيَّن أن السعي وراء الوحدة قد أصبح مَصدَراً للتجزئة، وأن طَلَبَ الكرامة قد أدّى إلى المَهانة، وأن التركيز على القومية العربية ضد إسرائيل قد أدّى إلى الهزيمة. كان ناصر مُحِقاً في تحليله: مصر لوحدها لم تكن قوية، بل كانت أيضاً فقيرة ومُتخلفة. غير أنه لم يَتصرَّف حسب تحليله عندما تَحدّى إسرائيل سنة 1967 وعانَتْ مصر من هزيمة مُذِلَّة.

وأخيراً بعد سنوات ثلاث من الصِّراع العَبَثي على طول القناة أصبَحتْ رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير وناصر جاهزين للاتفاق على وقف إطلاق النار[429]. توفي ناصر بعد توقيعه بقليل، وإلى حدٍّ ما فقد انتهت القومية العربية معه. سيتَكَرر الحماس للقومية في العراق وليبيا وكذلك خيبة الأمل فيها، إلا أنهما على العكس من مصر والجزائر وأفغانستان فقد كانتا دولَتَين غَنيتَين، ومِثلَ كثيرٍ من الأنظمة التي نشأتْ بعد الأمبريالية والاستعمار فقد كانتا استِبدادِيتَين أيضاً. لم تَتوفر فيهما المؤسسات التي تُحَقِّق التَّعويض والتَّوازن في الحياة المدنية مثلما حَدَثَ في أوروبا وأمريكا عبر القرون. كانتا دولَتَين جَديدَتين، وكان حكامها مُتعطِّشين للسلطة والمَجد، وشعوبها غير معتادة على إدارة مصيرها. ولكن على الرغم من كل هذه المعضلات، إلا أن حكام ليبيا والعراق بكل ما فيهم من سوء قد استَخدَموا ثرواتهم الجديدة في برامج رعاية اجتماعية. وكما سنَرى فإن الذي أدّى إلى دَمارها لم تكن سياستها الداخلية ولا الصفات البشعة لأنظِمتها بقدر ما كان التحدي الذي أظهَروه ضد الشمال العالمي.

الفصل الثلاثون

صدام حسين والعراق

كان صدام حسين واحداً من آخر قيادات القوميين العرب الاجتماعيين-الاشتراكيين. كان نظامه مُتخَلّف سياسياً ولكنه مُتُقدِّم اجتماعياً. يمكن أن يَنطبق الجزء الأول من هذه الجملة على أغلب أنظمة العالَم لأن الديموقراطيات الحقيقية أصبَحَتْ نوعاً شارَفَ على الانقراض في كل مكان تقريباً، إلا أن الجوانب الاجتماعية والتعليمية والصحة العامة في ذلك النظام كانت غير عادية. لتَوضيح هذا الجانب الذي يبدو غريباً يجب على المرء أن يَدرُسَ المؤثِّرات الرئيسية في حياة الرجل الذي صَنَعَ النظام على صورته، وهو صدام حسين.

وجَدَ صدام إرشاداته الأولى نحو القومية العربية في الحركة التي تُعرَف باسم "البَعث"، وذلك مِثلَ كثيرٍ من العراقيين والسوريين. كان مُنَظِّرُ البَعثية هو ميشيل عَفلق المسيحي الأرثودوكسي السوري. بعد أن دَرَسَ في جامعة السوربون بباريس حيث التقى برفيق مستقبله صلاح الدين البيطار، عادَ عَفلق إلى سورية سنة 1932 وارتَمى في غَمرة النشاط السياسي. بدأ سيرته السياسية كشيوعي مثل كثير من خصوم الأمبريالية، غير أنه انفَصَلَ عن الحزب الشيوعي الذي تُوجِّهُهُ روسيا عندما أعلَنتْ موافقتها على الأمبريالية الفرنسية في واحدٍ من التواءاتِها الكثيرة، مثلما فَعَلَ الوطني الجزائري مصالي الحاج. (يبدو أنهما لم يَعرفا شيئاً عن الأمبريالية الروسية). ثم أسّس عَفلق مع البيطار ما أصبَح حركةَ البَعث.

كانت الفكرة الأساسية للبَعث هي ذات الفكرة التي حَمَلَها كثير من العرب وغيرهم من شعوب الجنوب: قَسَّمَ الأمبرياليون العربَ وأخضَعوهم بالقوة. رَكَّزَ البَعث على الناطقين باللغة العربية من سكان المناطق النائية في شرق المتوسط في لبنان وسورية والعراق، ولكن الفلسفة العامة كان لها مؤيدوها من المغرب حتى اندونيسيا لأنها تَنطبِق على أحوالهم أيضاً. وافَقَ الجميع في كل مكان على أنه يجب التَّخلص من الأمبرياليين ودُمياتِهم. ذهَبَ البَعثيون إلى أبعد من ذلك باعتقادهم ضرورة الوحدة من أجل تحقيق ذلك. وبما أنهم لم يَتفِقوا على الدِّين ولم يكن لديهم تعاطف كبير مع البربر والترك والإيرانيين والباكستانيين والكشميريين وأهل الملايو، فقد رَكَّزوا على العرب. كانت البعثية في أساسها نوعاً من القومية العِرقية، مثل القومية التركية.

كانت المعضلة التي عَلِقَ فيها البعث هي أنه على الرغم من أن الغالبية العامة من الناس والطلاب في جماعتهم المُنتَقاة هم من العرب الذين تَقَبَّلوا فلسفتهم، إلا أن أغلب الذين كانوا بحاجة

إلى تأييدهم لكي يُصبِحوا فعَّالين في الدوائر الحاكمة اعتَبروا البَعثَ حركةً مُخرِّبة هدَّامة. كان لدى الحكام العرب المحافظين أسباب شخصية وسياسية لمعارضة البَعث بالطبع. ولكن حتى الرئيس جمال عبد الناصر الذي وافَقَ بالتأكيد على تَرسيخِهم لهدف الوحدة العربية اعتَبَرهم مُنافسِين. أَجبَرَ عَفلق على إلغاء حزب البعث العربي الاشتراكي عندما أسَّسَ الجمهورية العربية المتحدة سنة 1958. وبعد انقلاب سنة 1966 في سورية الذي أُعلِن باسم الإصلاح، هاجَمَت الحكومة الجديدة حزب البَعث الذي أُعيدَ تَشكيلُهُ ودَفَعَتْ عَفلق والبيطار ورفاقهم للهرب حفاظاً على حياتهم[430].

أَدخَل البَعثَ إلى العراق مهندسٌ عراقي شاب اسمه فؤاد الركابي كحركة سلطوية غامضة إلى حد ما، واشتراكية بشكل مبهم، ولكنها مُلتَزمة بإصرار على الوحدة العربية[431]. على العكس من أحزاب أخرى في عَصرِهِ استَقطبَ حزب البعث طَيفاً واسعاً من العراقيين: ضباط الجيش والموظفين في الخدمات المدنية ورجال ونساء من المهنيين المتعلّمين، ولم يركِّز فقط على الوحدة العربية، بل ركَّز أيضاً على المَظالم الاجتماعية الجَسيمة التي كانت نمطاً متَّبَعاً في فترة الحكم البريطاني المباشر وفترة الدولة شبه المستقلة تحت القيادة البريطانية. بمقياس السياسات العراقية في ذلك الوقت فقد كان نجاحاً فورياً، غير أنه كان نجاحاً سرّياً في البداية. فقد كان عليهم أن يعملوا في السرّ لكي يُحافِظوا على حياتهم مثلما فَعَلَ ضباط تركيا الفتاة في أواخر الامبراطورية العثمانية.

ضباط الجيش العراقيون الشباب الذين نَجوا بحياتهم من حملات التطهير المُتَكرِّرَة التي أزالَتْ المؤيدين المُجاهِرين بتأييدهم المُتطِّرف للقومية العربية كانوا يَعتَبرون حليفَ بريطانيا رئيس الوزراء نوري السعيد خائناً. حَكَموا على نوري السعيد وحكومته مثلما فَعَلَ الثوار الأمريكان سنة 1775 حين حَكَموا على رفاقهم من المستوطِنين الذين أيَّدوا بريطانيا واعتَبروهم غير وطنيين وخَونة ومُناصرين للقوة الأمبريالية. لم تثق حكومةُ نوري السعيد بجيشها لدرجة أنها مَنَعَت الجنود من الحصول على طلقات لبنادقهم. تعامَلتْ شرطة الأمن مع كتائب الضباط كقوة مُخرِّبة، وكانوا مُحقِّين في ذلك، إلا أن أعمالهم كانت تُحقِّقُ ذاتها، فكلما زاد شَكُّهم بالضباط زادتْ كراهيتهم للحكام. قاموا بعدة محاولات للإطاحة بالحكومة، فشِلَتْ جميعها حتى سنة 1958 عندما نَجحَتْ واحدة منها كأنما بضربة حظ. نَجحَتْ لأن كتيبتين كانتا قد أُرسِلَتا إلى الأردن لحمايتها من هجمةٍ إسرائيلية متَوقَّعة وسُمِحَ لها بالحصول على الذخيرة. وعند مرورِها في بغداد هاجَموا الملك والوَصيّ على العرش ورئيس الوزراء الذين اعتَبروهم لُعَباً في يد البريطانيين. قُتِلَ الرجالُ الثلاثة وحَرَسهم وسَقطَت الحكومة. ابتَهجَ جميع السكان وتَعجَّبَ كل واحد من سهولة ما جَرى.

كان قادة الانقلاب هم عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف واعتُبِروا من الوطنيين القوميين على الرغم من أنهما لم يكونا مَعروفَين للقوميين المدنيين، وسارع المدنيون لمساعدتهما في تأسيس حكومة على نمط حكومة ناصر في مصر. أخبَرني البَعثيون أنهم أُعجِبوا به لأنه طَبَّقَ عملياً الأفكار التي آمَنَ بها مُعظَم العرب. وفي غَمرة النشوة الابتدائية افتَرضَ الجميعُ أن العراق ستَنضَمُّ فوراً إلى الجمهورية العربية المتحدة.

إلا أنه في الأشهر التي تَلَت الانقلاب تَخلَّص قاسم من عارف واكتَشَف طَعمَ السُلطة المُحَبَّب. وجَدَ أن جاذبية أمّة الدولة الواحدة (الوطنية) أقوى من أن يَتم التَنازل عنها. تم مَدحُهُ ومَدَحَ

نفسَه في حملة دعاية مستمرة على أنه زعيم العراق الأوحد. وعلى الرغم من "الثورة" كما سَمَّى الانقلابُ نفسه إلا أن كثيراً من جوهر النظام السابق استمر في الوجود وأُعيدَتْ تسمية رموزه واحتَفظوا بمراكزهم بقوة. سَقَطَ قاسم بسهولة في دَورِ الحكام السابقين، استُبدلتْ صورةُ المَلك التي كانت على كل جدار بصورة قاسم. ظَلَّ الأخ الكبير (الذي وَصَفَهُ جورج أورويل في روايته 1984 كرمزٍ للطاغية الأعظم) مقيماً في بغداد. وهكذا بينما كان يَتحدَّثُ دائماً عن الوحدة العربية وجَدَ قاسم أن حُكمَ العراق كان أسهل بالطريقة التي أدَراها نوري السعيد. أقصَى القوميين المدنيين شيئاً فشيئاً[432]. أكَلَ تفاحة السُلطة ولم يَشأ بعدها أن يُشارِكَ فيها أحداً، لا مع ناصر ولا مع أحد غيره.

بعد تمردٍ في الموصل، أسرع بإجراءات التَّطهير للقوميين العرب المدنيين، وتَوسَّع هذه المرة إلى ضباط الجيش. وهكذا بعد أن تَبنَّى أسلوب عبادة الفرد ابتَعَدَ عن القومية العربية وانفصَلَ عن جميع مؤيدِيه العسكريين وجَعَل نفسه بذلك هدفاً للبَعثيين. كانت الأصبع التي ضَغطتْ على الزناد هي أصبع صدام حسين.

كان صدام جندياً في المشاة في بداية دخوله حركة البَعث. لا توجَد إشارة على أنه دَرَسَ كتبها ولكنه أُعجِبَ بالأعمال التي حَرَّكتْها في الشارع حيث تم تَحديها جَسَدياً من قبل جماعات أخرى، خاصة عصابات الشوارع التي مَوَّلَتْها الحكومة للتحرش بنشطاء القوميين العرب. حازَ صدام على سمعته "الثقيل"، وسرعان ما تَحوَّلَ من الشارع إلى القصر وحاوَلَ اغتيال قاسم بدافعٍ من نفسه أو ربما بأوامر من الحزب.

لم يَنجَحْ. أطلَقَ دفعةً من الطلقات من مَدفع رشاش نحو جسم قاسم إلا أنها لم تَقتله. قال لي قاسم بعدها فَرِحَاً وهو يَعرِضُ ثيابه المُلطَّخة بالدّم محفوظَةً في خزانة زجاجية: "لم يكونوا مُحتَرفين، ولا جَدِّيين. يجب أن تُطلِق رَشَّةً ثانية دائماً، ولكنهم لم يَفعلوا ذلك. أمرٌ سيءٌ بالنسبة لهم". لم يَرتكبْ صدام تلك الخطيئة مرَّة ثانية، ولكنّ قاسم تعلَّم درساً وأصبح لا يَثِق بأحد، خاصة برفاقه.

أدرَكَ أنهم مُلتَزمون بالقومية أكثر من ولائهم له فتَوجَّه إلى فئة صغيرة من العراقيين الذين أصبَحوا شيوعيين، أو على الأقل اعتَبروا أنفسهم كذلك. أقنَعتْ تصريحاتهم مسؤولين في المخابرات البريطانية والأمريكية كانوا يَميلون لرؤية الشيوعيين حيثما نَظَروا، وظَنّوا أن قاسم قد أصبَحَ عميلاً سوفييتياً. وربما في ذلك الوقت اتَّفقَتْ أمريكا وبريطانيا في خطط ضده، ولو فَعَلوا ذلك لوَجَدوا كثيراً من العراقيين مُتشَوقين للعمل معهم. شَعَرَ رفاقُه السابقون الذين لم يتم نَفيهم أو سَجنهم أو إعدامهم أنه خان القومية العربية.

ساعَدَهم قاسم من حيث لا يَدري فقد خَلَقَ كل تَصرف يقوم به أعداء جدد، ومع حلول عام 1961 أرسَلَ الجيشَ لقَمع الأكراد في الشمال، وكاد أن يُثيرَ حرباً مع إيران بادّعائه امتِلاكَ خوزستان التي كانت محافظة إيرانية على الرغم من أن غالبية سكانها يَتحدَّثون اللغة العربية، وكذلك تَكراره الإدعاء بأن "جزءاً من محافظة البصرة العراقية التي تُعرَف باسم الكويت" (كما أشار إلى الكويت في خطابات عديدة) وأثار بذلك غضب الحكام العرب الذين أكَلوا من مائدة الكويت العامرة. حتى الرئيس ناصر المُؤيِّد الكبير للوحدة العربية قام بإرسال قوات إلى الكويت لمَنعِ العراق من "توحيدها".

من السخرية أن صدام سيَتبَعه بعدها في كل من هذه المغامرات الفاشلة.

كانت النتيجة المباشرة لأعمال قاسم هي أن حزب البَعث بدأ يُحقّق شيئاً من اسمه في إيقاظ وبَعث نفسه. أسَّس الضباط الناشطون الجدد خلايا في الجيش واستعدوا للإطاحة بنظام قاسم. وفي 8 شباط 1963 وبمساعدةٍ من المخابرات المركزية الأمريكية حاصَرَ البَعثيون قاسم في مكتبه بوزارة الحربية وأعدَموه رمياً بالرصاص. ثم جاؤوا برفيقِ قاسم القديم ضابط الجيش القومي عارف من السجن حيث وضَعَهُ قاسم، ونَصَّبوه رئيساً.

بدأ النظام الجديد بالتَّشَرذم مباشرة، وكانت قضية الخلاف الرئيسية هي نوع القومية التي سيتبعها العراق. أرادَ عارف وحدةً اندماجية فورية مع مصر كما تَقتَضيه القومية العربية. ولكن البَعثيين كانوا يَميلون إلى عدم التَّعاطف مع استبدادية ناصر ولم يَعودوا مَأخوذين بالقومية العربية فقد دَفَعتْهم تجاربهم بعيداً نحو طريقة التفكير الوطنية نفسها التي كانوا يَعتقدون أنها وراء كثيرٍ من أمراض دول التجزئة العربية.

كان الخلاف حول المَعنى الحقيقي للوطنية لعبة مضيعة للوقت، وأدّى الخوضُ فيها إلى أن البَعثيين خَسِروا الدَّعم والتأييد. وبعد فترة من الضياع تمكَّن البَعثُ مِنْ تَثبيتِ أقدامه على سلَّم السُلطة السياسية في العراق سنة 1968. لَعِبَ صدام في هذا النظام الجديد دوراً صغيراً، وكان حريصاً على أن يَظهَر بشكلٍ مسالم كمساعد للقادة لا أكثر، إلا أنه تحرك بشكل مستمر للحصول على عناصر القوة الحقيقية بينما كان يَتجنَّب إظهارَ القوة. ساعَدَتهُ ذاكرته القوية على إدراك دوافع العراقيين. بشكل ما لَعِبَ الدور الذي اشتهر جوزيف ستالين بنِسبَتِهِ إلى مولوتوف Molotov خلال الصراع على السلطة في الاتحاد السوفييتي: أصبح "أفضل موظفٍ حافظٍ للمَلَفات" في البلاد. جَمَعَ معلومات عن كل واحد يمكن أن يساعده أو يستغله، وشكَّل بالتدريج حزباً داخل حزب البعث. استَغرقه ذلك عشر سنوات، ولكن عندما أصبح جاهزاً أزاحَ بلطفٍ زعيم الحزب الإسمي والرجل الذي أَطلَقَ عليه اسم "الأب" الجنرال حسن البكر.

التَّخلُصُ من رئيسه كان الخطوة الأولى فقط، وتعلَّمَ أنّ السياسة ليست لعبة، وليست هنالك قوانين تَحكُمَها، وأنّ القضية الوحيدة هي الفوز. اعتَبَر نفسه تجسيداً للأمة وأن عدم الولاء أو الاختلاف معه هو تهديدٌ قاتِلٌ. كل واحد كان متَّهماً، وكل واحد كان إما عدواً حقيقياً أو عدواً محتملاً. ولذا فقد تحرك ليَعزِلَ أو يَهزم أو يَطرد أو يَقتل أصدقاء ورفاق اعتَقَد أنهم أصبحوا ممن لا يمكن الاعتماد عليهم433. تحرك فيما وراء دائرته الضيقة بشكل واسع ضد فئات بكاملها شكَّلَتْ في الواقع أغلبية العراقيين. اعتَبَر الشيعة "غير عراقيين" وأنهم شعبٌ جَعَلَتْهم لغتهم ودينهم وعاداتهم أجانبَ غرباء. وعلى الدرجة ذاتها من السوء كان الكورد على الرغم من أنهم يَشتركون في الإسلام السنّي إلا أنهم تحدثوا بلغة مختلفة ولم يكونوا عرباً وافترض أنهم على حافة التمرد دائماً. كان الكورد والشيعة أعداء طبيعيين، إلا أن لائحة صدام لم تقِفْ عندهم فقد كان يَرى أعداء حقيقيين أو مُفتَرضين في كل مكان. وبدون أن يَعلم كان يُكَرر على المسرح العراقي الخوفَ الذي أظهَرَهُ كبارُ الأمبرياليين من الإسلامية العامَّة قبل قرن من الزمان.

ولكن بينما رسَّخَ صدام سيطرته في العراق، حقّقَ برنامجاً استثنائياً للرعاية الاجتماعية. بشكل أساسي قام بتطوير السياسة الداخلية التي تَبنَّاها ناصر مع تركيز أكبر على التعليم والصحة والشؤون الاجتماعية. استطاع أن يفعل ذلك لأن العراق تَمتَّعتْ بثروة أكبر وعدد سكان أقل. تحت حُكمِهِ، الذي كان قاسياً من الناحية السياسية إنما مُتطَوراً من الناحية الاجتماعية، أصبَحت العراق أكثر الدول تطوراً وحَدَاثة في العالَم العربي، وأصبَح سكانها الأفضل تعليماً وصحة والأطول عمراً بين جميع العرب. كانت المدراس والمستشفيات مَجانية، وتَضاعف عدد الطلاب، وأصبَحت نسبة الأطباء إلى عدد السكان أفضل بأربع مرات، وارتفع الدَّخل الفردي عشرة أضعاف تقريباً[434].

كان صدام توسّعياً في التزامه بالقومية العربية مثل ناصر. أنفَقَ صدام في السنوات من 1973 إلى 1980 حوالي 9.5 بليون دولار كمساعدات لأنظمة عربية وأفريقية أخرى لكي يكسب التأييد لقضيته والأصدقاء لنظامه. عندما أدرَكَ صدام بعد وفاة ناصر أن مصر تَنحَدر نحو التقليدية سَعى لزيادة قوَّته الذاتية بِجَلبِ مصريين ليس فقط للدّعم النفسي في الأخوّة العربية، بل للدَّعم البَشَري في العراق. خطَّطَ لاستيراد قرى كاملة من الفلاحين المصريين إلى العراق لزراعة الأرض الخصبة حول الفرات ولزيادة عدد الأقلية من المسلمين السنّة. في الواقع استَوطَن أكثر من مليون مصري في العراق[435].

اصطَدَمَ صدام مع القوى الدينية مثل ناصر أيضاً. حتى قَبلَ وصوله إلى السلطة واجَهَ سابِقهُ الجنرال قاسم الإخوان المسلمين السنّة الذين استَلهَموا الحركة المصرية، وكذلك اصطدم مع الحركة الشيعية (الدعوة). واجَهَ صدام أيضاً عدواً خارجياً هو جارته إيران بسبب الحركة الشيعية ولأسباب أخرى معقدة.

القتال والصراعات على طول حافة جبال زاغروس ومنطقة دجلة والفرات مسألةٌ راسخة عميقاً في التاريخ، بَدأتْ منذ أيام البابليين وتَكررتْ مِراراً في صراعات الامبراطورية الرومانية واستمرت في الامبراطورية العثمانية حتى عصرنا الحديث. وجَدَ الحكام دائماً قضايا لمُحارَبة الإيرانيين من أجلها. اندَلَعَ الصراع الحديث حول الممر المائي إلى الخليج. يبدو منطقياً أن تَنْظيمَ استِخدامِهِ مسألةٌ سَهلة، إلا أن العراقيين والإيرانيين لم يَحكمهما المَنطق بل المشاعر القومية.

بعد الثورة التي أطاحَتْ بالشاه، وجَدَ صدام الفرصة مواتية "للربح" هذه الحرب المستمرة. كانت الحكومة الثورية الإيرانية قد تَخلَّصَتْ بقسوة من ضباط الشاه الذين دَرَّبَهم الأمريكان وفَقَدَتْ مَصدر أسلحتها الأمريكية بينما كان الجيش العراقي مُسلَّحاً بشكل كبير من فرنسا والاتحاد السوفييتي. كما عرَضَت الكويت والسعودية تَمويل الحرب بسبب خوفهما الدائم من إيران. قَدَّمَ حكام إيران سبباً إضافياً بتحريضهم شيعةَ العراق للثورة وقَصفهم البلدات الحُدودِية بل وحتى مُحاولة اغتيال صدام كما قِيل. ولذا اندلَعت الحرب في 22 سبتمبر 1980 وأصبَحتْ "مستنقع" العراق، أو بشكلٍ أدقّ "الرمال المتحركة" في الشرق الأوسط. استَهلَكتْ سنواتُ الحرب الثمانية ثرواته وقَتَلَتْ عشرات الآلاف من شبابه وكادَتْ أن تؤدي به إلى الإفلاس. كانت نسبياً أعلى تكلفة من حرب أمريكا في فييتنام. كانت الحرب مع إيران ناقوس الجنازة للثورة الاشتراكية الوطنية في العراق.

تَوَقّف البناءُ قبل الإنجاز، وتم التَّخَلي عن مشاريع، ولم تتم الاستفادة من الخبرات والمهارات، وفَتَرَ الحَماس.

أَهدَرت الحرب مَصادر العراق واستَهلَكتْ خزينته، كما أدَّت إلى حرب صدام مع الكويت. بَدَت الحربُ لصدام مُبرَّرةً تاريخياً وعقائدياً واقتصادياً. آمَنَ كل عراقي من مَلِكِهم الأول فيصل الذي نَصَّبَهُ البريطانيون في العراق، إلى قاسم، بأنّ انفصال الكويت عن العراق كان من أعمال الأمبريالية البريطانية[436]. من الناحية الإيديولوجية اعتَبَر القوميون العرب مثل صدام أن الأنظمة المحافظة مثل الكويت عُملاء أو دُمَى بيد بريطانيا وأمريكا. اعتَقَد صدام أن الكويت كانت تُحاوِل تدمير العراق اقتصادياً، وكان هنالك بالفعل أساس لاعتقاده هذا.

في بداية الحرب العراقية-الإيرانية كان لدى الكويت سببٌ قوي لدعم العراق، ومَنَحَت العراق عشرة بلايين دولاراً من أجل تكاليف الحرب، مثلما قالَ لي وزير الخارجية العراقي: "سيُتابِعون دعمَهم لنا لأنهم يَعرفون أنهم لا يَدعموننا بل يُساعدوننا في القتال من أجل دفاعنا المشترك. لا، نحن مُتأكدون تماماً من الكويتيين". غير أن دافِعَ الكويتيين أخذ يَضعف عندما تَحَولَّت الحرب إلى مأزِقِ طريقٍ مسدود. عندما بَدَا أن تَهديد الإيرانيين قد زالَ طالَبَ الكويتيون باستِرداد ما دَفَعوه. والأسوأ من ذلك بالنسبة للعراقيين هو أنهم سَعوا لاستِخدام "سلاح البترول" بتَخفيض سِعره إلى مستوى لا يكفي لاستمرار النظام العراقي.

غَزَت العراقُ الكويتَ انتقاماً منها ومن أجل الحصول على المال. كانت تلك خطيئة قاتلة. واجَهَ صدام نتيجة هجومه على الكويت تَحالفاً غير مُتَوقَّع من الأعداء: مِن سورية بقيادة حزب البعث الذي ابتعد عنه عقائدياً، ومِن ليبيا معمر القذافي الذي كان رفيقه في القومية الاشتراكية. ومِن السخرية أن صدام أوشَكَ على توحيد الصف العربي.

سرَّ قادةٌ عرب، باستثناء بن لادن طبعاً، بتَدَخُّل أمريكا سنة 1991 [437]. ما الذي كان يمكن أن يَحدث لو سُمِحَ لصدام بمتابعة برنامجه الداخلي على الأقل هي مسألة تخمين. لأن ذلك لم يَحدُثْ.

كان صدام من أوائل السياسيين العَلمانيين في العالَم الإسلامي الذين أدرَكوا أن القومية والوطنية قد فشلتْ في ضمان الأمن والقوة. ربما لم يكن هنالك شيء يمكن عمله لإنقاذه من الأخطاء التي ارتَكَبها بالهجوم على إيران أولاً ثم على الكويت. اعتماده على القومية لم يَضمَن له مَلجَأً يمكن أن يَحتَمي به. جَعَلَ من العراق هدَفاً ليس فقط لقوى الشمال العالمي، بل لتَجَمّعٍ مدهِش من أمَم الجنوب. فقد انخَرَطَ عدد من الدول الإسلامية في التحالف الذي قادَتْهُ أمريكا في الهجوم على العراق سنة 1991 استناداً إلى قرار مجلس الأمن في الأمم المتحدة[438].

كانت النتيجة مُدمِّرة للعراق. قَتَلَتْ قوات التحالف العسكري بقيادة أمريكا حوالي ثلاثين ألفاً من جنوده وعشرة آلاف من شعبه. بالنسبة إلى عدد السكان يساوي هذا العدد حوالي خمسة أضعاف الخسائر الأمريكية في حرب فييتنام. كما أن القَصفَ الجوي العنيف دمَّرَ البُنية التَّحتية العراقية

بثمانية وثمانين ألف طن من القنابل. وبعد وقف القتال فَرَضَت الأمم المتحدة عقوبات على الدولة بضغط من أمريكا[439].

كانت العقوبات أشد من الإجراءات الانتقامية والتعويضات التي فُرِضَتْ على ألمانيا في نهاية الحرب العالمية الأولى والتي شَلَّت الحكومات الإصلاحية التالية (جمهورية فايمار) ولعبت دوراً في ظهور النازية[440]. استمر نظام العقوبات سبع سنوات، ولم يؤثِّر كثيراً على الفئة الحاكمة إلا أن العقوبات دفَعَت الشعب العراقي نحو الفقر: استنفذت المستشفيات الأدوية ولم يَتبَق فيها حتى الصابون اللازم لغسل الشراشف، وانتَشَر سوء التغذية وتَضاعَفت وفيات الأطفال. يُقَدَّر أن حوالي خمسمئة ألف طفل تحت عمر الخامسة ماتوا، وأن حوالي واحد من كل أربعة من الناجين كان يُعاني من إعاقة في النمو. لم تَتوفر مياه الشرب النظيفة في كثير من المناطق. مَسَحَ التَّضَخم المالي الكبير كامل الطبقة الوسطى تقريباً.

ترتَّبَ أيضاً على العراق أن تدفع 60 بليون دولار كتعويضات ولكنها حُرِمتْ من وسائل الحصول على المال، كما تم تحديد سيطرتها على أراضيها وفُرضت عليها منطقة حظر جوي. ولم يكن بإمكانها إعادة تسليح قواتها المسلحة، واستَنتَج النظام أن الإدارة الأمريكية تَنوي القضاء عليه. وقد كان، إلا أن صدام كان ديكتاتوراً ذكياً وشديد القسوة وساعَدَهُ ذلك على البقاء. وصَلَت العراق إلى الحَضيض سنة 1994 إلا أن صدام لم يَسقط.

كان على صدام أن يجد وسائل جديدة لكي يَجمَع حولَهُ أولئك الذين كان بحاجة ماسّة لهم بعد أن أصبح ظهره إلى الحائط بسبب انهيار الاقتصاد والمجتمع العراقي، وهزَّته التمردات الكبيرة التي قام بها الكورد والشيعة، وعدم ثقته حتى برفاقه. تحطَّم النظام القديم الذي بَناه على العَقيدة القومية، ولذا فقد ضَرَبَ من جديد فلجَأ أولاً إلى سياسات العراق التقليدية وتقَرَّب من زعماء العشائر ودفَعَ لهم الرشوة ورَدَّ لهم الامتيازات التي أَخَذَها منهم هو ومَن سَبَقوه في سبيل التطوير والتحديث. رَكَّزَ السلطة بيد أفراد من عشيرته. كانت دوافعه قومية في شَكلها الأكثر بدائية، الوطنية كما كانت تُمارَس في مجتمع القبائل العربية القديم حيث كانت العشيرة والقوم مركز الولاء.

ما دَفَعه بعيداً عن رجوعه إلى أصوليةِ القرابة كان انشقاق صهريه واصطحابهما لابنتيه. فإذا كان لا يستطيع أن يثق حتى بصهريه، فعَلَيه أن يَبحث في ناحية أخرى عن قاعدة مَتينة يَستند إليها للحفاظ على حياته ونظامه، وكان عليه أن يُسرع في ذلك لأن إدارة كلينتون كانت تزيد الضغط على نظامه. رتَّبَت المخابرات الأمريكية طلعات جوية فوق بغداد لإلقاء مناشير تَحُثُّ السكان على الثورة ودَفَعوا ملايين الدولارات للطامعين "بعرش" بغداد. قال مديرُ أحد البرامج في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لصحيفة الواشنطن بوست إن الوكالة تَعمَل مع جماعة معارضة للقيام بسلسلة من الهجمات بالسيارات المُفخَّخة والاغتيالات[441]. أدرَكَ صدام أن عليه تَصوير نفسه بشكلٍ يَختلف عن صوره السابقة التي وضِعَتْ على الجدران العالية في المدن لأن "صدام الجندي" قد انتهى، و"صدام المعلِّم" لم تَنفع، و"صدام زعيم العشيرة البدوية" لم يَمنَحه كثيراً من الولاء، ولم يبقَ سوى "صدام المسلم".

كان الإسلام ملاذه الأخير. وسط دهشة رفاقه أمَرَهم بالتَّخَلي عن السياسة السابقة للنظام التي كانت تُعلِن أن حكومته علمانية مثل حكومتي أتاتورك ورضا شاه. أمَرَ الجنرالات بالتَّعبير العَلَني عن مُعتقداتهم بعدما كان ممنوعاً عليهم على مدى عَقدٍ من الزمان إظهار معتقداتهم الدينية. وعاد صدام إلى المشاريع التقليدية للحكام المسلمين في بناء المساجد للتعبير عن الرحمة والإيمان. كان مسجده في بغداد كبيراً. وأخيراً بشكلٍ أكثر درامية وغرابة طَلَبَ من أطبائه أن يُعالِجوه بالحِجامة وفَصد الدم، ثم أمَرَ الخطاطين بكتابة نسخةٍ من القرآن باستخدام دمه. وهكذا قام بصياغة نفسه ونظامه، وكانا شيئاً واحداً بالنسبة له دائماً، بشكلٍ رَمزي وفيزيائي في صورة الإسلام[442].

كانت التصريحات العَلَنية عن الرحمة الإسلامية بالنسبة لصدام مجرد خدعة، ولم تُكسِبه دعماً كبيراً في العراق. تَعَوَّدَ سكان المدن على التَّطور العَلماني المُتَقَدِّم سنوات طويلة، وارتَفع مستوى المعيشة كثيراً حتى سنة 1991. ما حدَثَ بعد ذلك لم يتأثر بإيمان صدام الجديد. وإلى الشمال كان الكورد يُحاوِلون جاهِدين تَجنّبَ كل احتكاك مع نظام صدام. لم يُغير رأيهم في ذلك المذهب السنّي الذي يَشتركون فيه. وكان شيعة العراق في الجنوب أقل تأثراً. على الرغم من أن كثيراً منهم قاتَلَ بحماس في الجيش العراقي ضد إيران، إلا أن نظام صدام تَحوَّلَ ضد جَماعتهم وقَمَعَهم بحملة قاسية مثلما فَعَلَ ضد الكويت وحاوَلَ طَردَ آلافٍ من الشيعة إلى إيران. كانت تلك قمة البشاعة في الصراع الطائفي الاجتماعي الذي كان سِمَةَ التاريخ العراقي-الإيراني مئات السنين.

لم يَهرب صدام ولم يَمت، فاستَنتَج الرئيسُ جورج بوش الإبن وطاقمه ومستشاروه من المُحافِظين الجُدد أن الطريقة الوحيدة للتَّخلص من النظام كانت القيام بغزو أكبر وأكثر اقتحاماً من حملة الصَّدمة والرعب التي حدَثتْ تحت إدارة والده. أحجَمَ جورج بوش الأب عن احتلال الدولة، ولكن ابنه قرر أن يُهاجِم ويَحتلَّ كامل العراق[443].

غَطَّتْ إدارة جورج بوش الابن قرارها بأسباب أخلاقية: صدام قاسٍ ويجب إسقاط نظامه لكي يَحصَل العراقيون على الحرية التي أراد الأمريكان أن تتمتع بها جميع الشعوب. وبشكل أكثر إلحاحاً تم إبلاغُ الجماهير باستعراضٍ درامي في مجلس الأمن في الأمم المتحدة أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل[444]. لم يكن ذلك صحيحاً، وكان مَعروفاً أنه لم يكن صحيحاً عندما تم التصريح به[445]. كان عذراً للتدخل العسكري وليس سبباً. أدرك مُراقِبون مُحايِدون وجود أسباب أخرى للهجوم الأمريكي. اعتَرَف الرئيس جورج بوش الابن وطاقمه ومستشاروه من المُحافظين الجدد أنهم أرادوا تَدميرَ خَصمهم (وخصم إسرائيل) العربي الأخير. لم يكونوا مُستعدِّين للتفاوض حول أساليب أخرى سوى الحرب أو قبول العراق كافة الطلبات الأمريكية. أدرَكَ القادةُ العراقيون أن إدارة بوش كانت مُصِرَّة على الهجوم حسبما أخبَرَني نائب رئيس الوزراء العراقي قبل أيام من الغزو، وأنه ليس لدى العراق ما يمكن فِعله لإيقافهم[446].

تم بَحثُ أسباب أخرى لهذا القرار منذ ذلك الحين، أحدها هو أن الرئيس بوش كان سعيداً بلعب دور قائد حرب. سبب آخر واسع الانتشار هو أن هدف الغزو الأمريكي هو السيطرة على

البترول العراقي وأرباحه. من المؤكّد أن ذلك تم بَحثُهُ بين الحكومتين الأمريكية والبريطانية، وبين الحكومة البريطانية وشركات البترول البريطانية الرئيسية[447]. تم التوصل إلى اتفاقِ شرف غير رسمي بأن كافة غنائم الحرب لن تُعطَى لشركات أمريكية فقط. في واحدة من المُحاورات الصريحة الفَجَّة قالَتْ وزيرة التجارة البريطانية البارونة سيمونز Symons "لشركة البترول البريطانية أن الحكومة تَعتَقد أن شركات الطاقة البريطانية يجب أن تَحصَل على حصة من الاحتياطي الضخم من بترول وغاز العراق كمكافأة على التزام توني بلير العسكري بالخطط الأمريكية في تَغيير النظام"[448].

هل كان تقاسم عائدات البترول أمراً مهماً في وضع السياسة؟ لا نَعلَم، ولكن لا يمكن إنكار النتائج: حصَلَ حلفاءُ الغزو على امتيازات لعشرين سنة في نصف احتياطي البترول العراقي المَعروف ويقَدَّر ذلك بستين بليون برميل. من حقل واحد هو حقل الرميلة تَوقَّعَت الشركة البريطانية للبترول وشريكتها الشركة البترول الوطنية الصينية أن تَجني 658 مليون دولار كل سنة، وبشكل عام كانت امتيازات ما بَعدَ الغزو "الأكبر في تاريخ صناعة البترول"[449]. كانت تَقَدَّرُ بحوالي 112 بليون برميل. بَيَّنَت الدراسةُ المُوسَّعة التي أجرَتْها الحكومةُ الأمريكية قبل الغزو أن القوى المُهاجِمة (التحالف) يجب أن تتوقع حقيقة أن العراقيين لن يُرَحِّبوا بفكرة أن يُديرَ التحالف صناعة البترول في البلاد لأن "المشاعر الوطنية لدى العاملين في صناعة البترول العراقي قوية جداً"[450].

عاد الشمال العالمي إلى الجنوب بأسلوبٍ عَرِفَهُ وأَقَرَّ به الغزاة البريطانيون في الهند، والغزاة الطليان في ليبيا، والغزاة الفرنسيون في الجزائر، والغزاة الروس والصينيون في آسيا الوسطى، والغزاة الهولنديون في آتشيه وجافا وآسيا. خلال رحلاتي في كثير من مناطق آسيا وأفريقيا، ليس فقط في العالَم الإسلامي، وجَدتُ أن كل من قابلتُهُ تقريباً كان يَعتَقد بأن الولايات المتحدة غَزَت العراق لكي تُسيطِر على بترولها. عندما طَرَحتُ تفسيرات أخرى مُحتَمَلة ذَكَّروني بأن إدارة الولايات المتحدة لم تَعتَرِضْ ولم تَقُمْ بأية عمليات ضد المُستبدِين في دول أخرى مهما كانت قسوتهم. كان أكثر التعابير الساخرة تكراراً هو: "لو كانت العراق تُنتِج مَوزاً بدلاً من البترول لما تمَّ غَزوها".

نتائجُ تدمير هيكل الدولة العراقية تحت عنوان "تغيير النظام" تستمر أصداؤها حتى وقتنا الحاضر ويمكن قياسها بالمُدن المُحَطَّمة واللاجئين المُتَدَفِّقين والأجساد المُعاقة. كما تشمل الانهيار الحقيقي للقومية العربية العلمانية.

بالنظر في مجال أوسع، فإن انهيار نظام صدام الذي حلَّ بعد وفاة ناصر والتَّخَلي عن سياساته على الرغم من الظروف المُخَفِّفَة الكثيرة التي تتضَمن بالطبع الهزائم العسكرية أمام إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، قد أَقنَعَ كثيراً من العرب بأن اعتِناقهم الوحدةَ العربية والوطنية الاشتراكية لن يَنهضَ بهم من ضَعفهم ولن يَمنَحهم الشعور بالكرامة التي بَحثوا عنها بحماس[451]. كان عليهم البحث عن إجابات في مجال آخر. أصبح من الواضح للجيل الأصغر أن

القومية والاشتراكية العربية قد فشلتْ في مُساعَدتهم على تحقيق أهدافهم: حماية "الأمة" العربية وخَلق الشعور بالوحدة القومية والكرامة.

ذكرتُ سابقاً أن هنالك أسباباً كثيرة للفشل، مثل تَنافس وفَساد القيادات وعدم التوازن بين الجوانب العسكرية والمَدنية في المجتمع وعِظَم الأهداف التي يجب تحقيقها وعدم كفاية الوسائل، وفوق كل ذلك: التهديد العسكري والتدخل الخارجي، إلا أن عدداً متزايداً من الناشطين سياسياً قد استَنتجَ أنه بغضِّ النظر عن أسباب الفشل فإنَّ الفشل في حد ذاته كان واضحاً بشكل صارخ.

كان واضحاً حتى لناصر الذي كَرَّسَ حياته للقومية العربية، والذي أخبَرَ رفاقه المُقرَّبين، الأعضاء السبعة في اللجنة التنفيذية العليا في مصر وهي أعلى سلطة سياسية في البلاد، بعد صدمة الهزيمة العربية سنة 1967: "في رأيي، وصَلَ النظام الحالي إلى حدوده القصوى ويجب أن يكون هناك نظام جديد... يجب أن نرى نظاماً جديداً"[452].

مع إدراك أن القومية وحتى هيكل الدولة قد فشل في تحقيق واقع القوة ومشاعر الكرامة التي شكَّلَتْ أهدافها، انتَشَرتْ خيبة الأمل والتحرر من الوهم في المجتمع العربي، ولم يبقَ سوى التراث الديني. وسأتحولُ الآن لبحث مظاهر ذلك.

الجزء الرابع

الرجوع إلى الإسلام

ظَهَرَ أن الوطنية والقومية لم تكن كافية لكي تستطيع مجتمعاتُ الجنوب أن تُدافِعَ عن نفسها وذلك لأسباب تَرجع جزئياً إلى جوانبَ إيديولوجية. كانت القوى العسكرية الشمالية أقوى بكثير، وكذلك إغراءاتها المادية وإنجازاتها الثقافية. كانت الإمكانيات المَحَلية نسبياً ضعيفة جداً. فشلت القوميةُ والوطنية في الوصول إلى دفاع مناسب حتى عندما تم تَحفيزها بحيوية. أصبَحَ عدم التوازن واضحاً في أوقات مختلفة وفي مجتمعات عديدة.

ظهرتْ بوادر الاندفاع الجديد للإسلام المُحارِب بتأسيس الإخوان المسلمين في ثلاثينيات القرن العشرين. يَقرأ كتابات مُنَظِّرِهِ العالِم المصري سيّد قطب (1906-1966) ملايين المسلمين في كافة أرجاء الجنوب من الفلبين إلى نيجيريا. الإخوان المسلمون وقطب، من الناحية التنظيمية والنظرية، هم في قلب الكفاح المسلح الذي يشمل الجنوب العالمي الآن، بل ويمتد ليؤثّر على الشمال أيضاً في الصين وروسيا وأوروبا الغربية وأمريكا. ما دَفَعوا به في العالَم الإسلامي هم وأتباعهم، مثل أسامة بن لادن وأبو بكر البغدادي، قد تَطوَّر إلى الحالة الخطيرة التي نواجهها اليوم.

لم يكن الإخوان المسلمون وقطب وبن لادن وحدَهم في العودة إلى الإسلام بحثاً عن الهداية والإرشاد، فهناك أيضاً أفرادٌ من طائفة الأقلية الشيعية في الإسلام ممن يعارضونهم في بعض الأمور الشرعية إلا أنهم يَتَّفِقون معهم في معارضة الشمال العالمي وضرورة العودة إلى الأصولية الإسلامية، خاصة في إيران حيث كانوا أكثر نجاحاً من السنَّة في دول غيرها. ولكي نرى الأمور التي بَدأتْ عند السنَّة وتَطوَّرَتْ إلى حركة مختلفة إلا أنها مماثلة في الأصولية الإسلامية الشاملة، سأبدأُ تقريري بوصف الأحداث التي أدَّتْ إلى إسقاط المَلَكية الإيرانية واستلام السلطة في 1978-1979 لأتباع آية الله روح الله الخميني.

الفصل الحادي والثلاثون

إيران، الدولة الإسلامية الشيعية الثورية

مثلما قَسَمَت المسيحيةُ الغربية نفسها إلى كاثوليك وبروتستانت، قسَمَ المسلمون أنفسهم إلى سنَّة وشيعة. ومثل المسيحيين البروتستانت، انقسَمَ الشيعة إلى طوائف مختلفة. يسمي أغلب الإيرانيون الجدد أنفسهم: المسلمون الشيعة[453]. اسم "الشيعة" يعني "أتباع أو أنصار"، وقد تم اتّخاذه لأن الشيعيين يَعتَبرون أنفسهم أتباع أو أنصار الخليفة علي، ويؤمنون بأنه كان يجب أن يكون هو الوريث بصفته أبو الأحفاد الوحيدين لمحمد، وأن يكون أول الخلفاء، وأن يَتبعه ورثتُه في زعامة الإسلام.

لتَجَنُّبِ التَّكرار سأختَصِرُ في وصف الشيعية هنا لأنها تشكل قاعدة السياسات الإيرانية وتلعب دوراً رئيسياً مساعِداً في ثقافة وسياسات العالَم الإسلامي بكامله[454]. هذا الجانب من التاريخ ليس غامضاً بالنسبة إلى شعب الجنوب لأنه مازال يعيش حياً عند المُنتَمين الطائفيين وكأنه حدَثَ منذ أسبوع، كما أنه سبَبٌ لصراعات عنيفة بين الشيعة والسنّة. في وسط هذه المشاعر يقف علي وأسرته المباشرة.

تم تَجاوز عليّ عند اختيار الخلفاء الثلاثة الأُول، وأخيراً عندما تم "انتخابه" لم يشغل المَنصب سوى فترة خمس سنوات مضطربة انتَهتْ باغتياله. أخَذَ الخلافة بعدها فردٌ من قبيلة قريش التي رَفضَتْ محمداً في الأصل وطَرَدتْه خارج مكة. أسّس الخليفة معاوية حكومة في دمشق تُعرَف باسم: "الخلافة الأموية" استرجَعتْ أساليب ما قبل الإسلام. في نظر الشيعة يُعتَبر المسلمون السنّة المُعاصرون الآن مُتَّهَمون بسبب علاقتهم بالأمويين، والأسوأ هو أن أجداد السنيّين الحاليين قد قَتَلوا حَفيدَي محمد: الحسن والحسين.

هذا هو باختصار شديد التفسيرُ التقليدي للانقسام بين السنيّة والشيعية، إلا أن الأسباب العميقة أكثر إثارة للانتباه لأنها تُظهِر الاتجاهات الثقافية والاجتماعية التي تُشَكِّلُ العالَم الإسلامي الحديث. من أجل فهمها يجب على المرء أن يَنظر أولاً إلى الأصول الاجتماعية للشيعية.

كما ذَكَرتُ في الفصل الثالث، فقد فَجَّرَ الاحتلالُ العربي للامبراطورية الإيرانية في القرن السابع ثورةً اجتماعية عظيمة. كان القادمون العرب قليلون، وحاوَلَ قادتُهم في البداية عَزلَهم عن

السكان المَحَليين بسبب خَشيتهم من ذوبان جيوشهم في السكان غير العرب. نَجَحوا في عَزلِهم لفترة وَجيزة لأن الإيرانيين لم يَتَحدَّثوا بلغة الغزاة العرب ووجَدوا عاداتهم غريبة فكان التّواصل مَحدوداً في البداية، إلا أنهم اندمَجوا بسرعة مع بعضهم بعضاً. تَحوَّلَت المعسكرات العربية إلى مدنٍ عاش فيها العرب والإيرانيون. وبشكل عام لم يكن التَّحول عنيفاً على الرغم من حدوث بعض التجاوزات مثلما يَحدث في الغزو دائماً، وحدَثَ تَدميرٌ للمُمتَلَكات ونهب بسيط. احتفَظَ كبار مُلَّاك الأراضي والطبقة المَدنية العُليا بأغلب ممتلكاتهم طالما أنهم يَدفعون الجزية للنظام الجديد. لم يَتعامل الحكامُ العرب مع الفلاحين بشكل أسوأ من الحكام الإيرانيين السابقين. وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال تَحوَّل أغلب السكان إلى الإسلام.

على الرغم من هذا التّحول، احتَفَظَ الإيرانيون بكثير من عناصر دينهم قبل الإسلام. وقالوا: "نحن مسلمون أيضاً، إلا أننا لسنا مسلمين عرباً، بل مسلمون إيرانيون". أثَّرَ الشكل المُميَّز للإسلام الإيراني الذي طَوَّروه على أحفادهم، ويؤثِّر هذه الأيام على الحركات الشيعية في أفريقيا وآسيا، خاصة في العراق ولبنان واليمن والهند وباكستان ونيجيريا. يَعتَبِر واحد من كل ستة مسلمين نفسَه شيعياً هذه الأيام، وتَصُبُّ الشيعية الإسلامَ في نمط جديد من العقائد بنصوص مقدَّسة جديدة وأساطير جديدة. أما بالنسبة للسنَّة فهم يَعتَبرون الشيعيةَ انحرافاً، ويَردُّ عليها الإسلاميون الأصوليون بعنف. الإدعاء بأن كلاً من السنّة والشيعة يَتبعون الدين القويم هو في صلب السياسات في العالَم الإسلامي.

جاء التأثير على الإيرانيين بشكل رئيسي من الزَرادَشتية التي كانت دِيناً قائماً قبل زمن طويل من اليهودية والمسيحية. أعلَنَ النبي زَرادَشت دِيناً أثَّرَ بعمق على كليهما: تُصَرِّح الزَرادَشتية بوحدانية الإله، وتُعلِن ازدواجية الخير والشر، وتَنتَظر يوم القيامة، وقدوم المَهدي[455]. الإيمان باليوم الآخر حَفَّزَ على تشكيل جماعة استشهادية، الإحساس بالشر يَقتَضي الكفارة عن الخطيئة، وإدراكُ الضعف الإنساني يَحتاج إلى إرشاد فئة من الكهان اسمهم: المَجوس. تم الاحتفاظ بهذه المُعتقدات وتعديلها ونقلها إلى الإسلام الشيعي.

أبلغُ تعبيرٍ عن الإسلام الشيعي يَظهَر في المسرحية العاطفية السنوية: التَّعزية. وهي تَجمَعُ جماعة الأمَّة المُتدينة مع بعضهم بعضاً في تَدفقٍ مبهرٍ من الحزن المُشتَرك الذي يؤثِّر على المُشارِكين وكأنه اعترافٌ جماعي يَقتَضي جَلدَ الذات وربما التشويه. النظائر المسيحية لهذه الطقوس هي شعائر الجَلد في العصور الوسطى، وطقوس الأسبوع الإسباني المقدّس للتَّطَهر من خطيئة صَلبِ المسيح. غير أن التّعزية أكثر استمراراً من الطقوس المسيحية وفيها تَدَفّق من الحزن بسبب الفشل في حماية أحفاد الرسول.

أخذ الإسلام الشيعي هيكله الديني أيضاً من الزَرادَشتية. بما أن البشر ضعفاء وجاهلون، يُقال أنهم بحاجة إلى مرشِدين، وذلك ما كان هو المَجوس. عرفهم المسيحيون بأنهم "حكماء الشرق" الذين ظَهروا عند ولادة يسوع. كان دَورهم في الزَرادَشتية مَحصوراً بالطقوس، إلا أن دَورهم في الإسلام أصبَح مَزيجاً من الدِّين والقانون والسياسة مثلما أصبَحتْ جميع الأمور في الإسلام. النسخة الإسلامية للمَجوس هم "المُجتَهدون"، الرجال الذين تَعلَّموا الأمور الدينية والقانونية وكانت مهمتهم شرح المَعنى الحقيقي لإرادة الله. مُنِحَ كبار المجتهدين اللقب الإضافي: "آية الله"، ويعني "العَلامَة" أو "الدَّليل" إلى الله. بشكل عام هناك اثنان أو ثلاثة من "آيات الله" يوجَدون في كل فترة، وبالاتفاق

العام لديهم الحق والسلطة لإصدار قرارات "فتاوى" حول جميع القضايا التي تتعلق بالدين والمجتمع. كما بَينتُ في الفصل السابع عشر فقد لَعِبَ اثنان من آيات الله دوراً رئيسياً في الثورة الإيرانية سنة 1905، وكذلك فَعَل آية الله روح الله الخميني في ثورة 1979.

المُجتهدون هم النُّخبة الدّينية في الإسلام الشيعي، غير أن هناك عشرات الآلاف من الشخصيات التي يُسميها الإيرانيون "المُلّا" أو "المَلالي" موزَّعين في القرى والأحياء بشكل واسع. يُرشِدُ المَلالي أتباعَهم ويعلِّمون الأطفال ويَحكمون في الخلافات ويَدفنون الموتى. وبدون الذهاب بعيداً في المُقارَنة، يمكن تشبيه الهيكلية الشيعية بالهيكل التنظيمي في الكاثوليكية: يمكن اعتبار آية الله الأكبر بمثابة البابا، وآيات الله الآخرين مثل الكَرادلة، والمُجتهدون مثل الأساقفة، والمَلالي مثل القساوسة والرهبان. على الرغم من أن هذه المُقارنة ليست دقيقة، إلا أنه من المهم ملاحظة أن وجود هيكلية دينية شيعية هو اختلافٌ كبير عن الإسلام السنّي.

سمَحَ الهيكل الهَرَميّ لآية الله الخميني بخَلْقِ حكومته الثورية سنة 1979 بشكلٍ شبه فوري. فقد كان لديه مباشرة ما يسميه البرلمانيون الإنكليز "حكومة الظلّ" غير أنها كانت أكثر من مجرد أداة سياسية أو دينية، كانت إدارة شاملة على نطاق واسع تعامَلَتْ مع أمَّة إيرانية كانت في الواقع موازية إلا أنها مختلفة عن تلك التي كان الشاهُ يَحكُمها.

تلقَّى الشاه تعليماً غربياً، وكان ملتزِماً بالعَلمانية، ولم يَفهَم ما كانت عليه تلك الأمَّة الأخرى، ولا كيف كانت تَرتَبط بها المؤسسة الدينية. تَصَوَّرَ أن نظامه كانت لديه سيطرة منفردة على السلطة وأن "إيرانه" هي الإيران الوحيدة456. وما كان يَتلقاه من نصائح خارجية إما أنها كانت تُؤكِّدُ آراءه، أو أنها فشلتْ في تَعديلها. سَمَحَ جهلُهُ بِحدوثِ الثورة الإيرانية. هذه النقطة مهمة جداً بحيث تَدفعني لتقديم وصفٍ مُختَصَر لطبيعة المجتمع الإيراني.

لن نكون مخطئين إذا اعتَبرنا المجتمع الإيراني مَزيجاً مركباً مما يَعتَبره المراقِبون الخارجيون مؤسسات ونشاطات وولاءات دينية وعلمانية. إنه ليس مواطنون عاديون يَذهبون إلى المناسبات الدينية بانتظام مثل كثير من الغربيين، لأن جزءاً مهماً من حياتهم يَحدثُ في الدائرة التي تُسيطِر عليها المؤسسة الدينية. أو بصيغة أخرى، تَتقسَّمُ حياة الإيرانيين بين ما يَسميه المسلمون: دين ودنيا، أي قضايا الدِّين الروحية وأمور الحياة المادية. تقليدياً، كان دَورُ الدولة في إيران مَحصوراً في أمور الدنيا، الدفاع عن المَملَكة. ولكن مع انتشار التعليم أصبح السكان أكثر اهتماماً بالسياسة وبدأت أعداد مَتزايدة منهم تُفكِّر أن النظام لا يُقدِّم لهم شيئاً في الواقع لأنه لم يُؤَمِّن حمايةَ البلاد من الغزو الخارجي. وكان يَأخذ كثيراً مُقابل الأمن البسيط الذي يَضمَنه. كان يَحصل على مَوارده من الضرائب التي اعتَبَرها معظم الإيرانيين شكلاً من أشكال السرقة. بينما كانت المؤسسة الدينية تقدِّم خدمات واضحة ومُقدَّرَة، فقد كان المَلالي يُعلّمون الأطفال ويَعتَنون بالمسنين ويَدفنون الموتى، وحَفظَ المُجتهدون النظام القانوني وجَسَّدوا الدين القويم ومَنَحوا الكرامة للأمَّة. كانوا يَفعلون ذلك بدعم رئيسي من تبرعات طَوعية. أي بالمجموع، كان يُنظَر إلى الدولة على أنها رَمزية ومُستغِلة ومِن الأفضل تَجنّبها، بينما كانت المؤسسةُ الدينية ضرورية وبريئة وشَعبية. كانت هذه الفروق جَليَّة لأكثرية السكان الذين كانوا يَعيشون ويَعملون في القرى وظَهرتْ أوضح ما يمكن في مسائل مُلكِية الأرض.

تُحَدِّدُ تقاليد القرية وتطبيقاتها مُلكِية الأرض في إيران كما هو الحال في أغلب المجتمعات الآسيوية والأفريقية. يَمتَلكُ الفلاحُ فعلياً قطعةَ الأرض التي يَحرثها ويَحصدها، ولو تُرِك القرويون لوحدهم لتَمكّنوا من تَحصيل قُوتِهم، إلا أنهم نادراً ما تُرِكوا لوحدهم. على الرغم من أنهم كانوا يؤمنون بأنّ الأرضَ مِلكَهم فقد كان عليهم أن يَدفَعوا إلى الشاه ورجاله ما اعتَبَروه ثَمنَ حِماية. اعتَبَر الأغنياءُ والأقوياء أن الفلاحين أغنام، بل واستَخدَموا كلمة "رعايا"، يجب أن يَقبَلوا قَدَرهم. ولكي يَحصَلوا على حصَّتِهم من انتاج الأرض أرسَلوا مُحَصِّلِي الضرائب المُتَجَولين الذين دَهَموا القرويين لحَجز كل ما يَستطيعون الحصول عليه لدرجة أن القرويين كانوا يَهجرون أراضيهم أحياناً ويَهربون.

لم يكن مُستَغرَباً أن يَتجَنَّبَ القرويون الدنيا والدولة. كان رجالُ الدولة والنُّخبة المَدنية غرباء عن طريقتهم في المَعيشة وكانوا هم الأعداء. جاءَ عَزاؤهم في المؤسسة الدينية التي يُمَثِّلُها المَلالي بينهم وكانوا يَتحدثون بلهجَتهم وكانوا غالباً مِن رفاقهم في القرية والعَشيرة.

كانت تلك حالة إيران التي انطلَقَ رضا لتَغييرها. تحت حُكمِهِ الاستبدادي أغارَت الدولة على نفوذ المؤسسة الدينية: استَولَتْ على مراكز التعليم والصحة العامة والقضاء وأبعَدَت المؤسسة الدينية عنها. إلا أن تأثير برامِجِهِ كان مَحدوداً. أدى بعضها لزيادة الهجرة إلى المدن، ولكن الدولة لم تُغَطِّي احتياجات فقراء المدن. وكان تأثير برامج رضا في المناطق الريفية أكثر مَحدودية، فقد تابَعَ الفلاحون الذين كانوا يَعيشون في حوالي خمسة وأربعين ألف قرية إيرانية نَمَطَ حياتهم كما كان قَبلَ الإسلام بوقتٍ طويل. كانت الجماعات صغيرة بسبب شُحِّ المياه. أنتَجَ القرويون خلال فترة حياتهم القصيرة طعامَهم وصَنعوا أغلب ملابسهم وأدواتهم وتَزاوجوا بين بعضهم بعضاً واشتَركوا في الوسائل المُتَوفِرة في مجتمعهم، مثل أماكن التَّجمع وبيوت الضيافة والحَمامات العامة والمَقابر. وفي أوقات الشدة التي كانت متكَرِّرة انتَقَلتْ قرى بكاملها إلى المدن، وعندما تَعود فترة السلام تُؤسَّس قريةٌ جديدة مكان القديمة. ربما يَهرُبُ الفلاحون أو يُقتَلون إلا أن الفِلاحَةَ كانت خالدة ولم يَستطع رضا تَغيير ذلك.

"الإصلاحات" التي بَدَأها رضا وتابَعَها ابنه محمد رضا أثَّرَتْ بشكل رئيسي على الجزء الغني نسبياً من سكان المدن ولكنها تَرَكَتْ فقراءَ المدن والقرويين للمؤسسات الدينية التي تَلَقَّت الضربات إلا أنها ظَلَّت صامدة. وفي سنة 1979 قادَتْ أتباعَها إلى الثورة.

كَرَّسَ محمد رضا أغلب أفكاره وجهوده مِثلَ والده في العلاقات الدولية. كانت إيران دولة فقيرة حتى سنة 1950 وكانت موضوعاً للعلاقات الدولية أكثر منها فاعِلاً فيها. كان احتياطيّها الهائل من البترول هو مَصدر دَخلها الرئيسي الذي عليها أن تَستخدِمه في حِماية نفسها، والسبب الرئيسي لِجَذبِ السيطرة الأجنبية إليها في الوقت نفسه.

اشتَرَى ويليام دارسي William D'Arcy المُتَعَهِّد الإنكليزي امتيازاً في غالبية مناطق إيران سنة 1901 بما يُعادِل ثلاثة ملايين دولاراً بعملة هذه الأيام. عندما اكتُشف البترول سنة 1908 أسَّسَ شركةً بريطانية لاستثماره هي: شركة البترول الإنكليزية- الفارسية[457]. حَصَلت الحكومةُ البريطانية فوراً على الامتياز والسيطرة على الشركة وبدأت بتَغيير وقود البحرية المَلَكية من الفحم

إلى البترول. أصبَحَ البترول مَصلحةً بريطانية حيوية، وتَعامَلتْ بريطانيا مع جنوب غرب إيران كمُستعمَرةٍ أنشَأتْ فيها أكبر مصفاة للنفط في العالَم لتَصفِيةِ وتَكرير وتَسويق البترول. رفرف العلَم البريطاني هناك ولم يُسمَح للمسؤولين الإيرانيين بالدخول إلا للزيارة. لم يكن الإيرانيون عمّالهم مُفَضَّلين، بل كانوا يُفَضِّلون العمال من مناطق أخرى في الامبراطورية، خاصة من الهند، ولم يُسمَح للمسؤولين الإيرانيين بالإطلاع على سِجلات الشركة المالية. باختصار، كانت المُقاطَعَةُ في عَبَدَان منطقةً خارجية.

عندما بَدَأت الحرب العالمية الثانية، تقاسَمَ البريطانيون والروسُ إيران. أخَذَ الروس الشمال، بينما أخَذَ البريطانيون الجنوب. لم تُقَدِّم هذه القوى أية خدمات للحكومة الإيرانية التي كانت بالكاد موجودة. تم نَفيُ رضا شاه حين تَحدَّثَ عن الحِياد، وتم تَنصيبُ ابنه محمد رضا الذي كان عمره إحدى وعشرين سنة كحَاكِمٍ شَكلِيّ. كل ما ما كان يَهتمّ به الاتحادُ السوفييتي وبريطانيا وأمريكا (حين دَخَلَت الحرب) هو استِخراجِ البترول وشَحنُ الأدوات والأسلحة والأغذية إلى روسيا. أما قضيةُ طبيعةِ الأمّة فقد وضِعَتْ جانباً مثلما حَدَثَ في الهند ومصر.

عندما انتَهَت الحرب، أصَرَّت النَخبة الإيرانية المثَقَّفة على استعادة دَولتها. تَمكَّن المسؤولون الإيرانيون من إقناع الروس بوَقفِ دَعمِهم للحركات الإنفصالية في الشمال. أما في الجنوب فقد أثبَتَ البريطانيون أنهم أكثر صلابة. كانت بريطانيا مُفلِسَة تقريباً في سنة 1945، وكان البترول الرخيص أحد مَصادرها القليلة للعُملة الصَّعبة، إذ كانت الحكومةُ تَدفَعُ للإيرانيين 9% فقط من قيمة ما تُصَدِّرُهُ، وكانت أرباحهم كبيرة جداً. كان عليهم السيطرة على الحكومة الإيرانية لكي يَستمروا بهذه الترتيبات. حتى حكومةُ العمّال التي جَاءَتْ (إلى الحكم في لندن) والتي كانت مُستَعدةً للتَّخلي عن الهند، إلا أنها كانت مُصِرَّةً على التَّمسُك بإيران.

لم تَستمر سيطرتُها طويلاً. نَجَحَ البريطانيون بتزوير أسعار وأرباح انتاج البترول طوال أربعين عاماً، إلا أن رياحاً جديدة بَدَأتْ تَهُبُّ مِن السعودية. بعد أن وافَقَتْ شركة البترول الأمريكية في المَملَكة السعودية (أرامكو) في الأول من يناير 1951 على تَقَاسُم أرباح بيع البترول بالتساوي، بدأ رئيس وزراء إيران محمد مُصَدِّقْ بالمُطالَبَة بِتَعاقُدٍ مُماثل. أثار ذلك غَضَبَ البريطانيين ضد الأمريكان وضد مُصَدِّقْ. واستشاطوا غضباً عندما عَرِفوا أن مُصَدِّقْ كان يَجتَمع مع مسؤولٍ كبير في إدارة الرئيس ترومان لكي يَحصَل على مساعَدة الأمريكان في الضَّغط على بريطانيا لكي تُوافِق على تَعاقُدٍ جديد. تَوَصَّلَ مُصَدِّقْ ونائب وزير الخارجية جورج ماكغي George McGhee، الذي كان خبيراً في البترول، إلى صَفقة مَعقولة.

أصَرَّ البريطانيون على تَخرِيبِها. وحانَتْ فرصتهم عندما جاء دوايت أيزنهاور بعد ترومان سنة 1953. أرسَلَت الحكومة البريطانية رئيسَ مخابراتها لشؤون الشرق الأوسط إلى واشنطن بأسرع ما تستطيع لإقناع إدارة أيزنهاور بالتعاون على إسقاط الحكومة الإيرانية. كان هَدَفُ البريطانيين هو المحافظة على صَفقَتِهم البترولية ولكن مسؤولَ المخابرات في MI6 ادَّعى بأن العمل كان ضرورياً لمَنع إيران من الإنزلاق نحو الشيوعية. كانت تلك حجَّة ناجحة في أمريكا

الخمسينيات، واقتَنَع بها أيزنهاور وأمَرَ المخابرات المركزية بوضع برنامجِ تَجسسٍ مُشتَرك تحت قيادة الكولونيل مونتغمري وودهاوس Montgomery Woodhouse من المخابرات البريطانية وكرميت روزفلت Kermit Roosevelt من المخابرات الأمريكية لإسقاط حكومة مُصَدِّقْ[458].

كان رئيس الوزراء مُصَدِّقْ بعيداً كل البعد عن كونه مؤيِّداً للشيوعية أو للروس حين تَوَجَّهَ بشكل حاسم نحو أمريكا استناداً إلى الاتفاقية التي أصدرَها مع الوزير ماكغي وكان قد كَلَّفَ المؤسسة الأمريكية موريسون-نودسون Morrison-Knudson سنة 1947 بوضع خطة مَبدئية لتَحديث وإنعاش الاقتصاد الإيراني. تَطَورتْ تلك الخطة إلى أفضل برنامجٍ شامل وأفضل برنامجِ تطوير جيد التمويل في العالَم. أَسقَطَت المخابرات البريطانية والأمريكية حكومَته بعملٍ لم يَلعب فيه الجمهور الإيراني أي دَورٍ تقريباً، وأعادوا تَنصِيبَ الشاه، وسَتَلَعَب المؤسسات والحكومة الأمريكية بعد ذلك أدواراً رئيسية في النواحي الاقتصادية من برنامج مُصَدِّقْ.

عندما رَجعَ الشاه إلى السلطة، بَدَأت الحكومة الأمريكية أيضاً ببرنامج استَمرَّ جيلاً كاملاً لتحويل الجيش الإيراني إلى قوةٍ حديثة بمستوى الناتو. تم تَجهيزه وتَدريبه على يد الأمريكان وأُرسِل ضباطه للدراسة في معاهد الضباط الأمريكية، كما بَدَأ الشاه أيضاً بمساعَدةٍ أمريكية وأجنبية أخرى برنامجاً لتطوير أسلحةٍ نووية. اعتَقَد هو وأغلب مستشاريه المَحَليين والأجانب في السبعينيات أن إيران في طريقها لتُصبح قوةً عالَمية عظمى. كتَبَ سَفيرٌ أمريكي في إيران سنة 1978: "قَدَرُنا أن نَعمَلَ مع الشاه"[459]. كان الشاه هو إيران، وإيران هي الشاه بالنسبة لأمريكا على مَرِّ الستة والعشرين عاماً التي تَلَتْ ذلك. بتطبيق الجوانب الاقتصادية لبرنامج مُصَدِّقْ قَدَّم الشاه كثيراً لتحسين حياة الإيرانيين إلا أنه رَفَضَ السَّماحَ لهم بلَعِبِ أي دَورٍ في تقرير السياسات. لم يكن لدى الإيرانيين أية طريقة قانونية للتَّعبير عن آرائهم السياسية. وهكذا فقد أطلَقَ قوىً من الشعور المُتزايد بالقُدرَة والشعور بالإحباط لم يَتَمكَّن من السيطرة عليها. وضَعَهُ اعتمادُه على الاستبداد بعيداً عن عناصر المجتمع التي كانت قد تَستطيع إنقاذه، وكان ذلك فشلاً زادَتْ سوءَهُ بشاعةُ تكتيكاته. نَجَى والده في فترة أقل تَسييساً إلا أنه لم يَنجَح. لم يَفهَم تماماً أنه لا يَستطيع تَطوير إمكانيات مجتمعِهِ بأمانٍ دون أن يَسمَحَ بمشاركة السلطة[460]. وهكذا عندما تَخَطَّتْ تَوقّعاتُ الجماهير السياسية التحسينات الاقتصادية فَقَدَ الشاه حُكمَهُ. ومثلما قال آيات الله لِمَن سَبَقَهُ خلال ثورة 1905: إذا فَشِلَ الشاه بالقيام بمَهامِّه أو إذا تَجاوَزَ سلطاته فإن "الأمّة"، يَقصدون أنفسَهم، لها الحَقُّ في اختيار شاهٍ غيره.

في آخر عملٍ من الانتحار المَلَكي أمَرَ محمد رضا سنة 1978 جيشَه الكبير القوي التَّجهيز لإطلاق النار على المُتظاهرين، وبدلاً من إطلاق النار على رفاقهم وأقربائهم، وضَعَ الجنودُ أسلحتهم وخَلَعوا ملابسهم الرسمية وانضَموا إلى المتظاهرين. أصبحت المظاهرات مستمرةً ولم يتمكن النظام من وَقفِها. كانت تكراراً لما حَدَثَ سنة 1953 إنما بدون تَدخّل المخابرات البريطانية والأمريكية لإعادة تَنصِيب الشاه هذه المَرَّة. تَغيَّرتْ إيران ووِلِدتْ أمّة جديدة. غادَرَ محمد رضا إيران للمَرَّة الأخيرة في 16 يناير 1979.

بعدها بأيام قليلة، في الأول من فبراير أنهَى آيةَ الله الخميني مَنفَاه في باريس وطار إلى طهران حيث استَقبلَته في المطار جماهير غفيرة مُنتَشِيَة من حوالي ستة ملايين شخصاً. جاء وَحدَهُ، ولكن كانت لديه حكومةٌ جاهزة هي المؤسسة الدينية الشيعية. لم توجَد في إيران آنذاك حكومة عَلمانية وظيفية بعد أن غادَرَ الشاه وبعد أن حَطَّمَ على مر السنين أتباعَ مُصَدِّقْ من الديموقراطيين الليبراليين. لم يوجَد أي مُنافِس للخميني وألقى الإيرانيون أنفسَهم على قدميه. كان يَستطيع تَدمير بقايا النظام السابق كما يشاء فانطلَقَ إلى تنفيذ ذلك بقسوة بالِغَة.

في نشوة اللحظة اندَفَعَ الإيرانيون الذين طالَ قَمعُهم للمشاركة في التَّدمير. تَسلَّقَتْ مجموعةٌ من الطلاب الشباب جُدران السفارة الأمريكية في الرابع من نوفمبر 1979 وأخَذوا جميع أفراد طاقَمها تقريباً كرهائن. كانت السفارة هدفاً واضحاً لأن السفارات في إيران كانت عادة مراكز مُتَقَدِّمة للحُكّام الأجانب. لاحَت السفارات البريطانية والروسية في طهران وكأنها وزارات، إلا أن السفارة الأمريكية سَبَقَتْهم جميعاً: كانت مركز القيادة لعملياتٍ مختلفة شَمَلَت الجيش الأمريكي والمساعدات والمخابرات ومؤسسات أخرى. قبل انقلاب المخابرات الأمريكية تَعامَلَ معها الإيرانيون وكأنها مَوقِعُ حَجّ، أما بعد الثورة فقد أصبَحَ لَقَبها "وكر الجواسيس"[461].

وجَدَ أتباعُ الخميني من الشباب دليلاً أثبَتَ تهمة التَّجسس. جَمَعوا آلاف الوثائق التي شَرَحَ بعضُها تفاصيل التَّجسس الأمريكي والتَّعامل الإيراني. تم تَمزيق أغلب الوثائق إلا أنه مع عطلة المدارس كان لدى الطلاب وقتٌ طويل ودافعٌ قوي لإعادة لَصقِها وتَشكيلِها. فعلوا ذلك وتم تَجميع حوالي خمسين مُجَلداً من الوثائق التي تم نَشرُها فيما بعد واعتَبَرها الإيرانيون أدِلَةً دامِغَةً على ما كانوا يَشُكُّون به منذ زمن: أمريكا، آخر مَعاقِل الشمال العالمي في الكرة الأرضية وأقواها، كانتْ تُسيطِر تماماً على إيران. استَنتَجوا أن جميع مظاهر حكومتهم لم تكن أكثر مِن واجِهةٍ زائِفة، وأن الشاه بكل عَظَمَتِهِ لم يكن أكثر من لُعبة. بالنسبة إلى كثير من الإيرانيين كانت تلك الأدِلَّة مُبَرِّراً للثورة. استَخدَمَها النظام للتَّصريح بأن جميع مَن لا يوافِقون على أعمالِهِ المُتزايدةِ القسوة هم عملاءُ للأجانب وأعداءٌ خونة يجب مُهاجمتهم أو سَجنهم أو إعدامهم.

هذه طبيعة الثورات: في نَشوة العمل يُصبِح العُنف روتينياً وتُعتَبر المؤامراتُ أمراً مَفروغاً مِنه. قام بمطاردة الأعداء الطلابُ الشباب الذين تَمتَّعوا بالامتيازات واحتَلوا السفارة الأمريكية، وشارَكهم في ذلك عمال الياقات الزرقاء وخَدَمٌ سابقون كانوا يعملون في المنازل. شَكَّلوا ما أُطلِقَ عليه اسم "اللِجان" وهي لجان القصاص التي تشبه المئات من "لجان الأمن" التي تم تشكيلها في أمريكا سنة 1775، والجمعيات الوطنية التي شُكِّلَتْ في 1793 و1794 خلال الثورة الفرنسية، واللجان الثورية في روسيا سنة 1917. عندما انهارَ الأمنُ الوطني في إيران، سَرَقَت اللجانُ بيوتَ الأغنياء، وقامَتْ بتصفية حساباتٍ قديمة، وخَطَفَت المَالِكين مقابل فِدية، أو أسرَعَتْ بهم إلى المَحاكم الثورية التي نَصَّبَتْ نفسَها بنفسِها.

ربما كانت المَحاكم الثورية أسوأ مظاهر الثورة، كانت تشبه "محاكم الشعب" في الصين خلال الثورة الثقافية. مَنَحَهم الخميني سلطة حُرَّاس الثورة وشجَّع اللجان على مطاردة واستِنكار والتَّنديد بكل مِن يُعارِض برنامجه. كان مستعداً لتأييد هذه الأحداث مثلما فَعَلَ ماو تسي تونغ لأنها

كانت تُسَرِّع الانتقال من النظام القديم. كان مثال تَدَخّل المخابرات البريطانية والأمريكية في أحداث 1953 حاضِراً في ذهنه وكان يريد التأكد من تَحطيم أية جماعة أو شخص يمكن أن يقوم بثورة مضادة.

أحَدُ هذه الجماعات كانت "مُجاهدين خَلْق" التي كانت تُناضل فترة طويلة ضد الشاه وشَاركَتْ مع القوى التي أسقَطَتْهُ. عندما أصبَحَ نظامُ الخميني أكثر استبداداً من حكومة الشاه، حاوَلَتْ جماعة مجاهدين خَلْق اتِّخاذ موقفٍ مُعارِض مثلما فَعَلَتْ مع نظام الشاه. كانت جميع مؤسسات التَّمثيل الشَّعبي مُغلَقَةً أمامهم فاتَّجَه أفرادُها إلى الطريق الوحيد المُتاح لهم وحَمَلوا سلاحَ الإرهاب دفاعاً عن أنفسهم. وضَعوا قنبلة في غرفةٍ اجتَمَع فيها قادةُ نظام الخميني وقَتَلوا تقريباً جميع أفراد الطاقَم الثاني لقيادة الثورة، ثم فَجَّروا قنبلةً ثانية قَتَلَت الرئيس ورئيس الوزراء ورئيس الشرطة. وقَتَلوا في النهاية مئات من الشخصيات القيادية.

استطاع الخميني الرَّدَ بقوةٍ بفضل سَيطرته الشاملة على مؤسسات الدولة القَمعية والمؤسسة الدينية فقَتَلَ آلافاً من جماعة مجاهدين خَلْق ودَفَعَ الباقين إلى المَنفى.

أسَّس الخميني حُكْمَاً "بقضاء الله" على حَدِّ قَولِه، وكان هو السلطة العليا التي مارَسَتْ "حُكْمَ الفَقيه الدِّيني". هذا الاصطلاح باللغة الفارسية هو "ولاية الفَقِيه" وكان ذلك عنوان كِتابٍ كان قد كَتَبَهُ ووصَفَ فيه فلسفته واستراتيجيته. عُرِفَ الفَقيه الديني بأنه يَعرِفُ إرادة الله لأنه قَضَى حياته في تَعَلُّم الكُتُب الدينية وبالتالي فلديه سلطةَ إصدار قرارات مُلزِمة. لا يوجَد مُبرر لأي أحدٍ في معارَضَته فقد كان يَتحدَّثُ بصوتِ الله. لم يَشكّ الخميني ولم يَسمَح لأي أحد أن يَشكَّ في سلطته، غير أنه قام بعملِ تفويضٍ صغيرٍ جداً لما ظَهَرَ وكأنه تَبريرٌ تَجميلي وذلك بِعَرضِ حُكْمِهِ للتصويت العام. كانت النتيجة معروفة سلفاً لأن القضية قد طُرِحَتْ بشكل: إما تأييد الثورة أو إعادة المَلَكية (التي يُسيطِر عليها الأمريكان). أعلَنَ النظامُ موافَقةً تامة تقريباً.

أضافَ الخميني إلى مُهِمَّته عادةً إيرانية شبه دينية أخرى، ففي أوقات الشدة كان الزعماءُ الدينيون يُجَنِّدون عادةً عصابات شوارع لحِمايتهم ولتَنفيذ أوامرهم. في مايو 1979 شَكَّلَ قوةً أكثر نظاميةً هي الحرس الثوري الذي أصبَحَ فيما بعد قوة كبيرة لكي تُصبِح بديلةً عن الجيش البائد الذي دَرَّبَهُ الأمريكان.

أصبَحَ الرهائن الذين قُبِضَ عليهم في السفارة الأمريكية مشكلةً صعبة أمام الحكومة الإيرانية الوليدة. أرادَ مهدي بازركان Mehdi Bazargan، الذي كان مساعداً للخميني وصديقاً مقرباً منه ورئيس الوزراء آنذاك، أن يُطلِقَ سراحَ الرهائن ويُعيد الطلاب إلى المدارس ويَستعيد "الحالة الطبيعية" في إيران. لم يوافِق الخميني على هذه الخطة واتَّهَم بازركان بالعمل لصالح الأمريكان. كتَبَ الصحفي السويسري جاك مَالِيه دو بان Jacques Mallet du Pan عن الثورة الفرنسية "الثورةُ تأكُلُ أولادَها"، وكان بازركان أول هذه الضَّحايا في إيران.

في هذه الأثناء كان الرئيس جيمي كارتر يُهاجَمُ في أمريكا لأنه لم يَقُمْ بعَملٍ عسكري ضد إيران انتقاماً مِن قَبْضِها على المسؤولين الأمريكان. فشلت المفاوضات: طلَبَ الإيرانيون الاعترافَ

بالنظام الجديد والتَّعويض عن الأعمال السابقة والاعتِذار مُقابل عودة الرهائن. أدرك الرئيس كارتر أنه لا يستطيع تلبية هذه المطالب سياسياً، وهكذا بَقِيَ الرهائن في الحَجز وتَزايدَ الضغط في أمريكا لتَحريرهم. وفجأة تَدَخَّلَتْ منظمة التحرير الفلسطينية لتُحاول المُساعَدَة. طارَ ياسر عرفات إلى طهران راجياً إطلاق سراح الرهائن. نجَحَ تَدَخُّلُ عرفات جزئياً بإطلاق سراح ثلاث عشرة رهينة من الدَّرَجات الدنيا من الرجال والنساء، إلا أن جميع كبار المسؤولين ظَلّوا في الحَجز وقيل أنهم كانوا يَتعرَّضون لمُعامَلة قاسية. وظَلُّوا كذلك أكثر من سَنة.

وأخيراً بعد شهورٍ من الإحباط وتحت ضغط انتقاداتٍ مَحَلية أمَرَ كارتر في أبريل 1980 بمهمةِ إنقاذٍ عسكرية. كانت مغامرةً متَهورة فاشلة. وبالنظر إليها الآن ربما كان فَشَلُها رَحمةً مُخَبَّأة. فلو وَصَلَتْ إلى طهران ربما أدَّتْ إلى موت آلاف من الإيرانيين وربما قَتل الرهائن الأمريكان أيضاً. كانت ستُعتَبَر عملاً حربياً، وبالنظر إلى ذكريات انقلاب المخابرات البريطانية والأمريكية ربما كانت ستؤدي إلى زيادة القَمع في إيران. بعد فشل المحاولة قَرَّرَ الإيرانيون إطلاق سراح الرهائن حسب اقتراح الفريق الانتخابي لرئاسة رونالد ريغان كما قِيل. لم يُسَلِّم الإيرانيون الرهائنَ إلى كارتر إنما إلى ريغان مباشرة بعد أن أصبَحَ رئيساً في يناير 1981 [462].

احتاجَ الإيرانيون إلى السلاح لأنه في سبتمبر 1980 انفَجَرَ النزاع الطويل بين العراق وإيران في قتالٍ مرير استمرَّ ثماني سنوات قاسية وكانت تكاليفه باهظة. دَعَمَت الولايات المتحدة صدام حسين في تلك الحرب بالمال والعَتاد، والأهَمُّ من كل ذلك بصُوَرِ الأقمار الصناعية المُباشرة التي مَكَّنَتْهُ من ربح معارك حاسمة أدَّتْ إلى سقوط مئات الآلاف من الإصابات لدى الإيرانيين.

كان تَصَوّرُ الدَّعم الأمريكي للعراق بالنسبة للإيرانيين بمثابة تَحرّكٍ ابتدائي لتَغيير النظام في إيران. كتَبَ الصحفي الأمريكي المُطَّلِع ديكستر فيلكينز Dexter Filkins من وجهة نظر القيادات الإيرانية كان الغزو العراقي "ليس خطةً عراقية بل غربية، فقد كان المسؤولون الأمريكان يَعرفون عن تَحضيرات صدام لغَزو إيران سنة 1980، وقَدَّموا له بَعدَها معلومات عن الأهداف التي استُخدِمتْ فيها هجمات أسلحة كيميائية. وكانت هذه الأسلحة ذاتها قد صُنِعَتْ بمساعدة شركاتٍ أوروبية غربية. كانت ذكريات هذه الهَجمات مَريرةً بشكل خاص. "هل تَعرف ما هو عدد الناس الذين مازالوا يُعانونَ من نتائج الأسلحة الكيميائية؟" قال مهدي خَلَجي Mehdi Khalaji الزميل في مَعهَد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى. "آلافٌ من الجنود السابقين الذين يَعتَقدون أن هذه الأسلحة الغربية قد أُعطِيَتْ لصدام"[463]. انتَهَت الحرب إلى طريقٍ مَسدود ظَلَّ بَعدَهُ كلا النظامَين قائماً إلا أن مُجتَمعاتهما تأذَّت بشكل شديد مؤلم.

خلال الفترة الثانية للرئيس ريغان تَقَدَّمَ تَصدِيرُ السلاح إلى إيران خطوةً أخرى، ظاهرياً تم تقديم ذلك من أجل الحصول على مساعدة إيران في تحرير مجموعة أخرى من الرهائن الأمريكان اختَطَفتهم جماعةٌ شيعية في لبنان، إنما كانت في الحقيقة من أجل تَمويل انقلاب أمريكي غير قانوني في نيكاراغوا. فَشلَت الخطة في تحقيق هدفها إلا أنها كادَتْ أن تُسقِط إدارة ريغان وأدَّتْ إلى مزيد من التَّدَهور في العلاقات الأمريكية-الإيرانية، وسرعان ما أصبَحتْ عنيفة.

أغرَقَت البحرية الأمريكية أغلب قِطَع البحرية الإيرانية خوفاً من أنّ إيران قد تُحاوِل عَرقَلَةَ تَدَفُّق النَّفط، وفي 3 يوليو 1988 أسقَطَتْ طائرةً مَدنية تابعة لشركة طيران إيران في الأجواء الإيرانية وقَتَلَتْ جميع ركّابها. لم تكن تلك هي الحادثة الوحيدة إلا أن كثيراً من سكان الجنوب العالمي اعتَبَروها مؤشراً على ازدواجية الشمال العالمي. مَنَحَتْ حكومةُ الولايات المتحدة وساماً للرجل الذي أَمَرَ بإطلاق الصاروخ الذي أسقَطَ الطائرة الإيرانية، ولكن حينما أسقِطَتْ طائرة شركة بان أمريكان فوق لوكربي في اسكتلندا بعدها بخمسة أشهر، طارَدَت الحكومة الأمريكية الرجلَ المسؤول عن تَفجِيرها كمجرمِ حرب. لم تكن الحادثتان مُتماثِلَتين إلا أنهما كانتا كذلك من وجهة نظر الإيرانيين.

لم يَنتَهِ التوتر في فترة رئاسة الرئيسين جورج بوش الأب (1989-1993) وبيل كلينتون (1993-2001)، بل انخَفَضَتْ حِدَّتُهُ قليلاً بسبب اضطرابات في مناطق أخرى. انتَهَت الحرب العراقية-الإيرانية بوقف إطلاق النار في أغسطس 1988، ولكن ليس بالسلام. وبعد عَقدٍ من حَربٍ مريرة سَحَبَ الاتحاد السوفييتي جيشَه من أفغانستان في 1989. لم يَتَحقَّق السلام بذلك الانسحاب، إذ تَبِعَ الغزو الأجنبي حربٌ أهلية مأساوية وظَهَرتْ حركة طالبان. كانت العلاقات بين الدول العربية دائماً على شَفَا صراعات مَفتوحة، وفي أغسطس 1990 هَجَمَ صدام على الكويت واحتَلَّها. وَرَدّاً على ذلك جاءَتْ قوى تَحالف كبير قادَتْهُ أمريكا إلى المملكة العربية السعودية. وفي يناير 1991 هَجَمَتْ على القوات العراقية في الكويت وفي العراق ذاتها. استَمرَّت الهجمات الإرهابية، كان من أخطَرِها ما أصاب مكان إقامةٍ مُستَأجَرٍ للقوات الأمريكية في أبراج الخُبَر قرب المَركَز السعودي-الأمريكي للبترول في الظهران في 25 يونيو 1996 قُتِلَ فيه تسع عشرة وجُرِحَ 358 جندياً.

بينما كان التَّركيز على العراق، تَراوَحَت العلاقات بين أمريكا وإيران بخطورة من الصراع المسلح إلى الحوار الدبلوماسي. فرَضَتْ إدارةُ كلينتون عقوبات على إيران سنة 1995، ولكن بعد انتخابٍ مفاجئ لمحمد خاتَمي رئيساً لإيران سنة 1997، وضَعَتْ حكومتا إيران وأمريكا إجراءاتٍ مؤقَّتة لتَحسين العلاقات. في مارس 2000 أعلَنَتْ وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت إنهاء العقوبات، وفي سبتمبر من تلك السنة ذاتها عُقِدَ أول اجتماع على مستوى الوزراء مع الحكومة الإيرانية منذ إحدى وعشرين سنة.

انقطَعَ ما كان يبدو انفراجاً إلى حقبة جديدة فجأة بانتخاب جورج بوش الإبن في نوفمبر 2000. أعلَنَ بوش مُستَرشِداً بالمُحافظين الجُدد سياسةً متشددة نحو "مِحور الشر". رَدّاً على ذلك جزئياً، تَحَوَّلَت الحكومة الإيرانية إلى العُدوانية من جديد بقيادة آية الله علي خامِنئي الذي خَلَفَ آية الله الخميني بعد وفاته سنة 1989. أطلَقَ الإيرانيون على أمريكا لَقَبَ "الشيطان الأكبر" استعارةً لاصطلاحِ صَاغَهُ المَهاتما غاندي لوَصفِ بريطانيا العظمى. طَرَحَتْ وسائلُ الإعلام الإيرانية بتفصيل دقيق قراءتهم للسّجلات التاريخية واستَخدَمَتْها لتَنبيه جَماهيرها بأن أمريكا لا تَنتَظر سوى تَحريضٍ مناسب لكي تُهاجِمهم. حَامَت الأمَّتان على شَفَا الحرب وأحاطَت القوات الأمريكية بإيران وأسَّستْ شبكةً من القواعد التي يمكن استِخدَامُها مَراكزَ انطلاقٍ للغزو.

كانت أسلحة الحرب جاهزة وكانت الجماهير في كلتا الدَولَتين تُجَهَّزان أيضاً. في أمريكا تم وَضعُ المُحافظين الجُدد على الرغم من قِلَّة عَدَدِهم في مراكز استراتيجية بوزارة الدفاع وفي الحَلَقَة

الصغيرة المُقَرَّبة من مستشاري الرئيس جورج بوش. قَدَّموا حملةً ذكية جيدةَ التمويل في الكونغرس يدعَمُها الحزب الجمهوري ووسائل الإعلام. طَرَحُوا أن إيران هي خطر "وجودي" على أمريكا وأن نِظامها يجب أن يُسقَط. واستَعَدَّ الإيرانيون من جانبهم لحربِ عصاباتٍ وقتال القوى الغَازِيَة. كانت الحرب وَشيكَة.

ولكن تحت السطح، ساعَدَتْ إيران على تنفيذ السياسة الأمريكية ضد طالبان في أفغانستان وخَصَّصَتْ جزءاً مُهمّاً من قواتها المسلحة لاعتِراض تجارة المخدرات من أفغانستان إلى أوروبا، كما طَرَدَتْ إرهابيين مُحتَمَلِين من حركة القاعدة. على الرغم من هذه الأعمال مَنَعَ الرئيس بوش جميع الاتصالات الدبلوماسية مع إيران حتى من جهة كبار المسؤولين. كانت الأسلحة النووية في مَركَز هذه الأحداث ومن حسن الحظ أنها لم تَتَبلور في الواقع.

مثلما فَعَلَتْ لتَبرير الحرب على العراق، اتَّهَمتْ إدارة بوش أن إيران تَسعى سِرّاً لتَصنيع أسلحةٍ نووية. ومن السخرية أنه لو استَمرَّ الشاه في الحكم لحَصَلَتْ إيران على الأسلحة النووية منذ زمن طويل. بدأ برنامجه بمساعدة أمريكية وكان مصمماً على المضي فيه. وكان الخميني هو الذي أوقَفَ البرنامج النووي، وكان خليفَتُه علي خامنئي هو الذي جَعَلَ التَّوصّل إلى حَلِّ القضية النووية مُمكِناً سنة 2016 [464].

كما هي الحال عادة في الأمور الدبلوماسية، يجب أن يَتَغَير السِّياق قبل أن يَحدُثَ التَّطَور. لم تَشهَد السنوات الأخيرة من إدارة بوش في أمريكا ورئاسة أحمدي نجاد في إيران سوى سلسلة من الاتهامات والنَّفي والاتهامات المُتَبادَلَة. تَغَيَّر السّياق بوصول إدارة باراك أوباما سنة 2009 وإدارة حسن روحاني في إيران في يوليو 2013. بدأ التَّغيير باجتماع وزراء خارجية الدَّولتين تَبِعَهُ اتصال هاتفي من أوباما إلى روحاني في 28 سبتمبر. كان ذلك أول اتصال بين قادة البلدين في أربعة وثلاثين عاماً. تَحرَّكَت الإدارتان ببطء وحَذَر بمواجهة انتقاداتٍ عَدائية في الحكومتين وظَلَّ الخيار العسكري قائماً. عَيَّنَتْ كل من الحكومتين وزير خارجيتها للتَّفاوض، جون كيري في أمريكا ومحمد جواد ظريف في إيران. لم يَتَمتَّع أي منهما بحُرّية التَّصرف. كل نتيجة يَتَوَصَّلُ إليها كيري يجب أن تَحصَل على موافقة مجلس الشيوخ، وبالمِثل كان على ظريف تَقديم نتائِجه إلى مجلس إرشاد العلماء. واجَهَ كلاهما هجوماً عنيفاً داخِل حكومتيهما[465]. إلا أن الرجلان صَمَدا في سلسلة مثيرة من الاجتماعات بَدَأتْ في سبتمبر 2014 واستَغرَقَتْ حوالي سنة. وأخيراً بعد سبعة أيام متواصِلة من المحادثات تم التَّوصّل إلى اتفاقية في 14 يوليو 2015. بَدَا لجميع المُراقِبين أن إحدى نتائج المُحادثات المَاراثونية كانت تَليين الثورة الإيرانية. حَلَّ ارتياح عام مع انخفاض حِدّة التوتر وابتِعاد شبح الحرب وتَخفيف العقوبات. بدأ الاقتصاد الإيراني بالانفتاح، وتَضييقات التَّطبيق الصَّارم للإسلام المُتَشَدِّد على الشعب الإيراني أخَذَتْ تَنفرج قليلاً، إلا أن هذه النتائج ظَلَّتْ هَشَّة كما ظَهَرَ واضحاً في الحملات الانتخابية الأمريكية سنة 2016. صَرَّحَ الرئيس الأمريكي المنتَخَب دونالد ترامب أن حكومات البلدين مَدفوعةً باليمين المُتَطَرِّف في كل منهما وبتَشجيعٍ مِن إسرائيل والأمريكان المؤيّدين لها تَتَحرّكان في اتِّجاه مُعاكِس لِما وَضَعَتْهُ المباحثاتُ الصعبة التي تَوَجَّهَتْ نحو

السلام. إذا لم يَتَوَقّف ذلك فإن أمريكا وإيران قد تَجِدان نفسيهما مُتَّجِهَتَين نحو ما يمكن أن يُصبِح أسوأ حربٍ يُواجِهُهَا جنوبُ العالَم.

الفصل الثاني والثلاثون

الإخوان المسلمون

كانت مصر في العصور الوسطى دولةً شيعية مثل إيران، بينما أغلب مُسلِمي مصر هم الآن مِن السنّة. يَظهَرُ الاختلاف بين إيران الحديثة ومصر في شَكْلِ الإسلام في الدولتين. يُوجَدُ في إيران هيكلٌ هَرَميّ مُحَدَّد يَتصاعد من رجال الدين والمَلالي في القرية إلى العلماء والقضاة والمُجتهدين حتى الدائرة الصغيرة من الشخصيات المُوَقَّرة في القمة من آيات الله أصحاب العِلم الوَفير. استَفاد شيعةُ إيران من هذه الإمكانيات التنظيمية في ثورات 1905-1907 و1978-1979. لم يُطَوِّر سنَّةُ مصر مثل هذا الهيكل الهَرَميّ. رجالُ الدِّين والمَلالي مُتماثِلون في البلدين، ويُوجَد في مصر قضاة، غير أن أقرَبَ ما يساوي آية الله في مصر هو المُفتي العام الذي يُعَيَّنُ من جِهة الحكومة ويمكن أن يكون مُوَقَّراً ومُحترَماً ولكنه غير مُستَقل.

لم أجِدْ إشارةً تَدلُّ على أنّ أيّ مصري حاوَلَ تَقليدَ نموذج الهَيكلية الشيعية، غير أن حركةً بَدَأتْ سنة 1928 أسَّستْ شيئاً مُشابهاً. وبما أنها أصبَحَتْ واحدة من أهم المنظمات في العالَم الإسلامي، فإن حركة الإخوان المسلمين تَستَحِقُّ انتباهَنا الدقيق.

حسن البنّا مؤسّس الإخوان المسلمين لم يكن عالِماً دينياً ولا مُلّا[466]. مارَسَ في سِنٍ مبكرة ما يمكن أن يَعتَبره أبوه، الذي كان عالِماً دينياً، سياسات عَلمانية. أزعَجَتْهُ جِداً أحداثُ ثورة 1919 الفاشلة. شارَكَ في المظاهرات ضد البريطانيين والحكومة المَلَكية المصرية. وعلى العكس من الثورات الإيرانية، لم تكن هذه الفورات تحت قيادةِ أو إرشاد الدين، بل كانت علمانية بشكل أساسي واعتَمَدَتْ على حركةٍ طلابية في الطبقة المَدنية الناشئة المُتَمَيِّزة. كان ذلك هو الطريق الذي تَبِعَهُ البنّا في البداية. دَخَلَ معهد تدريب المُعَلِّمين في القاهرة دار العلوم العَلمانيّة الاتّجاه سنة 1923 مُعارِضاً رغبة والده.

تم تَعيين البنّا بعد تَخَرجِه للتعليم في مدرسةٍ حكومية ابتدائية في مدينة الاسماعيلية على قناة السويس، وكانت آنذاك مدينةَ ثكنات القوات البريطانية المُحتَلَّة ومَقرَّ المكتب الرئاسي لشركة قناة السويس. رَوَّعَتْهُ ظروفُ معيشة العمال المصريين التي شاهَدَها هناك، وأسَّس مع ستة عمال المجموعة الصغيرة التي أصبَحَت الإخوان المسلمين.

حسب المبدأ الأساسي للبنّا كان هدَفُ الإخوان المسلمين فقط هو تَقديم الخدمات الاجتماعية للعمال. ولكنه سرعان ما اكتَشَفَ أنه حتى هذه المهمة البسيطة لا يمكن أن تَتَحقَّق تحت الحكم البريطاني، وآمَنَ أنه لكي تتحسَّن أحوال العمال يجب تَغيير النظام بأكمله. وحسبما هو معروف فإنه لم يَبحَثْ عن دوافع المفكّرين الاجتماعيين والاقتصاديين الأوروبيين وما يَعرِفُه عنهم هو أمرٌ غير واضح.

بما أن حركته انطلَقَتْ بسبب استغلال العمال ولأنه لم يَجِد سبيلاً لإصلاح ذلك الوضع في ظِلِّ الحكومة التي كانت قائمة، فقد فكَّر البنّا بضرورة استِبدال الحكومة. اعتَقَدَ بعضُ المصريين والجزائريين ومَن هُم في أماكن أبْعَد، مثل الفييتناميين، أنهم قد وَجَدوا البَديل في الماركسية. لا يبدو أن البنّا قد اعتَبَر الماركسيةَ حَلاً مُمكِناً أو جَذاباً. وحسبما وجدتُ فقد قرَّرَ منذ البداية أن الحَلَّ الذي يَسعى إليه موجودٌ في الإسلام. يبدو أنه كان دائماً يَشتَرِك مع الأصوليين في الإيمان الشامل بأن الله قد وضَعَ النظامَ الاجتماعي الكامل للإنسانية في القرآن وفي حياة محمد.

تم التَّعبير عن هذا النظام في الشريعة التي يجب على الأفراد وعلى الحكومات إطاعَتها، ولكن البنّا استَنتَجَ، مثلما استَنتَجَ جمال الدين الأفغاني وكما آمَنَ القوميون العلمانيون، أن المسلمين لن يَتَمكَّنوا من تَطبيق أوامر الله إلا إذا حَصَلوا على الاستقلال وطَرَدوا سادَتَهم الأمبرياليين. وهكذا استَندَتْ نظريتُهُ على قواعد ثلاث: يَستَحِقُّ البشر أن يَعيشوا حياة لائقة، وأن المَعيشة الجيدة يمكن تَحقيقُها في الإسلام، وأن الإسلام لا يمكن أن يَعمل إلا في مَناخ الحرية، التي لا يمكن الحُصولُ عليها إلا بالاستقلال.

وهكذا تبدأ مهمة المسلمين بالاستقلال: يجب طَردُ البريطانيين من مصر. ثم تَبديل الحكّام والمؤسسات التي صَنعها البريطانيون وتَركوها لكي تُتابع تَنفيذ أعمالهم بعد خروجهم أو تَخَفِّيهم وراء الستار. سَمَّت الحكوماتُ التي تَركوها وراءهم نفسَها مُستَقلة، ولكنها لم تكن أكثر من دُمَى أو بَدائل كاذبة. كانت الحقيقة ظاهرةً في سياساتهم: لم يَعتَمدوا الإسلامَ أساساً في إدارتهم مثلما آمَنَ البنّا بأنه لُبُّ المصرية. كانوا جزءاً من المشكلة ولا يمكن أن يكونوا جزءاً من الحل. الخطوة الثانية للوصول إلى مجتمع مسلم حقيقي تَقتَضي التَّخلُصَ منهم. كانت تلك هي الاستراتيجية الداخلية للإخوان المسلمين.

تَبِعَ ذلك استراتيجيتهم في العالَم الإسلامي. عندما توصلوا إلى مجال تطبيق الشريعة في مصر، وعندما يحققون في مصر المجتمع الذي أراده الله، يجب على المؤمنين الصادقين أن يَتَحرَّكوا نحو تَوحيد العالَم الإسلامي. كان هدفهم النهائي هو إعادة الخِلافة مثلما كانت كما تَخَيَّلوها.

لم تكترث الحكومة المصرية بالإخوان المسلمين حتى حوالي سنة 1936. حسبما ذكر أحد المقربين، فإن رئيس الوزراء "اعتقد أن حسن البنّا... واحد من زعماء القرى الذين كانوا أعمِدَةَ حزب الوَفد الحَاكم آنذاك... وزارة التعليم المصرية ظَلَّتْ لا تَعرف حتى وقتٍ قريب حقيقة أن البنّا الذي كان مُدَرِّساً في أحد مدارسها هو المُرشِد العام للإخوان المسلمين"[467]. أما الحُكَّام بالإسم والظاهر الذين اعتَبَرهم البنّا دُمَىً في يد بريطانيا وكان أغلبهم من أثرياء مُلّاك الأراضي فقد

اعتَبَروا الإخوان المسلمين مُجَرَّدَ جماعة خيرية أو مُعَلِّمين للدِّين، ذلك لو فَكَّروا بهذه المنظمة المَغمورَة أصلاً.

عندما نَمَتْ جماعة الإخوان عَزَّزَتْ بالفعل ذلك الانطباع. أصبَحَتْ جمعيةً سياسية تَبْشِيرية تُركِّز جهودها على التعليم والدعاية. بَدأتْ بِنَشرِ عددٍ من المجلات والنشرات عندما تَوفَّرتْ لها إمكانيات ذلك. وبما أنهم كانوا مَمنوعِين من وسائل الإعلام المُرَخَّصَة من قِبَلِ الحكومة فقد كانت نشراتها تُوَزَّع من يَدٍ إلى أخرى، ومع انتشارها بهذه الطريقة، وصَلَتْ إلى كل قرية في الدولة. وبما أن كثيراً من القرويين كانوا أُمِّيين، فقد كانت تُقرَأ جَهراً وتتم مناقشتها في آلاف المَقاهي التي كانت "أندية اجتماعية" اجتَمَعَ فيها المصريون الأكثر فَقراً لِتَداولِ الأحاديث. وهكذا قَبلَ وصول التلفزيون وحينما كانت الراديو نادرة، دَخَلَ الإخوان إلى أكثر وسائل التّواصل انتشاراً.

عندما اندَلَعَت الحرب العالمية الثانية، مُنِعَ "المُبَشّرون" التابعون للإخوان المسلمين بقرارٍ من رئيس الوزراء حسين سرِّي باشا نيابةً عن الحكومة البريطانية. وبما أن زعماء الإخوان استمروا بانتِهاك المَنْع وتَنَقَّلوا من جماعةٍ مدنية وريفية إلى أخرى وهم يُلقُون المحاضرات فقد أمَرَ سرِّي بالقبض على البَنّا ونائبه. أعطَى ذلك التصرف نتائجَ عكسية: مَنَحَ الإخوان تأييدَ الجماهير التي كانت ضد البريطانيين وضد المَلَكية بشكل عام. سواءً فَهِمَ المصريون العاديون ما أراده الإخوان وما كانوا يَقصدون تَحقيقه أم لا، فقد كانوا يَعتَبرون تَصَرفَ الحكومة ضدَّهم أساساً مثلما كانوا يَلومونَ تصرفاتها معهم أنفسهم. كان تسعة من كل عشرة مصريين يَعتَقد أنه قاسَى شكلاً أو آخر من ظُلمِ الحكومة، وحَظِيَ الإخوان بالاهتمام الوطني العام. وبين ليلةٍ وضُحاها أصبَحَت الجماعة المَغمورة الصغيرة أكبر منظمة في مصر.

خطوة البنّا التالية تُبيِّن أنه تَفَاجَأ بشعبيةِ حَرَكَتِهِ مثلما كانت الحكومة، وبتَحَولٍ مُغاير لاتهاماته أن البرلمان مزيَّف وما هو إلا واجِهة للحُكْمِ البريطاني، أعلَنَ فكرة تَرشيح نفسه لشغل مَقعَدٍ فيه. السَّعيُ للعضوية في هذا النظام كان انقلاباً، وكان ذلك بالضبط ما حَدَثَ لزعماء ثورة الوَفد في 1919-1920 حين تَحَرَّكَ زعماء الثورة بعيداً عن الشارع حيث عارَضوا رَفْضَ البريطانيين السماح لهم بإرسال وَفدٍ إلى مؤتمر السلام، واستَمتَعوا بالمكاتب المُريحة المُغرية في الحكومة. أصبَحَ حزب الوَفد جزءاً أساسياً في الحُكْمِ البريطاني عندما انضَّمَ إلى النظام زعماؤه الشباب المُتَشَدِّدون.

لم يتم تفسير ما أراده البنّا بالضبط، فقد تم إنقاذه "مؤقتاً" من انقلابِ موقِفِهِ بما يبدو أنه كان اتفاقاً خاصاً. أقنَعَهُ رئيسُ الوزراء مصطفى النحاس باشا بِعدَم التَّرَشُّح للبرلمان بحجة أن مصر كانت تحت الأحكام العُرفية. لعلَّ رئيس الوزراء استَمتَع بهذه الاستعادة لسيرتِهِ الذاتية فقد كان أحد الزعماء الذين قادوا ثورة الوفد ضد البريطانيين، ودَخَلَ إلى البرلمان بنفسه، وفَعَلَ بالضبط ما كان يُحاوِل نُصحَ البنّا بِعَدَمِ فِعْلِهِ. وربما لاحظ البنّا هذا التناقض، وعلى كل حال فقد وافَقَ واحتَفَظَ بحقّ الدخول في الحياة السياسية العادية في المستقبل. رَضِيَ رئيس الوزراء بذلك وأعاد للإخوان المسلمين المَطابِع التي كانت الحكومة قد حَجَزَتْها.

خلال الحرب العالمية الثانية استُبدِلَتْ نصائح الحكومة بالحُكْمِ العسكري البريطاني والتهديد بالحَبْسِ أو الشنق جزاءً للتَّحريض. ظلَّ الإخوان في حالة هدوء نسبي على الأقل في نشاطهم العَلَني بينما قاموا بهجمات مسلحة سرّية على القوات المسلحة البريطانية وشرطة الحكومة. في نهاية الحرب عندما خَفَّتْ سيطرة البريطانيين عاد البنّا وغيره من الإخوان لدراسة خيار خوض الانتخابات. خَسِروا في الانتخابات المُزَوَّرة، وأستَنتِجُ من سِجلاتهم أن هذه الهزيمة أكَّدتْ قناعتهم السابقة بعدم الوثوق بالحكومة وإصرارهم على الاعتماد فقط على منَظَّمَتهم المُنفصِلة شبه السرية في تَحضيرهم لإسقاط ما اعتَبَروه نظاماً فاسداً468.

كان التنظيم الذي أسسه البنّا مُفَصَّلاً ودقيقاً بحيث يستطيع أن يَعمَل كحكومة بَديلة. في القمة كان هناك مكتب الإرشاد التنفيذي الذي يُعَيِّنُهُ شَكلٌ من البرلمان هو مجلس الشورى. يُصدِر الشورى قرارات مُلزِمة لجميع الإخوان ويَخلُقُ مَحاكِم تُقرِّر الالتزام وتَفصِل في الخلافات. كما يُقَرِّر في كل فترة القضية الأساسية حول كيفية دخول الإخوان أو عدم تَعاملهم مع الحكومة المَلَكية. توجَد تحت المكتب التنفيذي إدارات تَتَعامل مع قضايا المجتمع وكأنها وزرات حكومية مُصَغَّرَة. من بينها مكتب العلاقات الخارجية الذي يَتَعامل مع منظمات الإخوان والمنظمات التَّابعة لهم في الدول الإسلامية الأخرى. كانت هذه عملية واسعة تَمَكَّنتْ مع مرور الوقت من تأسيس منظمات في كافة أرجاء العالَم الإسلامي تقريباً. كان هنالك مؤيِّدون للإخوان في المغرب والجزائر وتونس وليبيا والعربية السعودية وسورية والأردن والعراق والكويت والبحرين ولبنان والصومال والسودان وفي آسيا وماليزيا والفلبين وباكستان وكشمير وأفغانستان، مما مَنَحَهُم مَجالاً في النشاطات الخارجية ربما كان أوسَع من مصر ذاتها. جَذَبَ الإخوانُ مؤيّدين وأتباع لهم فيما وراء العالَم الإسلامي بين مجتمعات المُهاجِرين في بريطانيا وفرنسا. من خلال منشوراتها خَلَقَتْ المنظمةُ شعوراً بالأخوَّة بين المسلمين، وهو ما كانت الحكوماتُ التي تُسَمَّى إسلامية تَدَّعي فِعلهُ دائماً إنما تَفشَل في تَحقيقه. وهكذا وَضَعَت الأسُس لحركات إسلامية قادمة.

ركَّزَ الإخوان في مصر على الخدمات الاجتماعية وفق الأمر القرآني بِدَفع الزكاة، ولذا فقد اعتُبِرَت المنظمة بادرةً لمجتمع إسلامي مِثالي حيث يجب على الأغنياء دَعم أغلب النشاطات التي يَراها العَلمانيون من وظائف الدولة، مثل تأمين المستشفيات والمدارس والمحاكم القانونية والأمن الاجتماعي. سيُصبِح هذا البرنامج مِثالاً تَبِعَتْهُ حَماس في غَزَّة، كما كان سابقةً للدولة الإسلامية (داعش).

انتَقَدَ الإخوانُ وهَدَّدوا الحكومات في أغلب الدول التي عَمِلوا فيها واعتُبِروا مُخَرِّبين. تم مَنعُهم أحياناً في مصر وفي مناطق أخرى من العالَم الإسلامي469. من المؤكَّد أن البنّا قد تَوَقَّعَ نضالاً مميتاً وتَبنَّى منذ البداية تنظيماً خَلَوياً لحِماية العضوية. تَألَّفَتْ كل خَليّة (أسرة) من ستة إخوة وارتَبَطَتْ أفقياً بِعددٍ قليل من الخلايا، بينما ارتَبَطَتْ عمودياً لتُشَكِّل الهَرَم الذي كانت قمَّتُهُ المكتب التنفيذي.

سيَتَبَنَّى المُحارِبون الجزائريون فيما بعد هيكلاً تنظيمياً مُماثلاً في كفاحهم ضد الفرنسيين470. كانت الطريقة المَنطقية لتنفيذ عمليات سياسية ونصف عسكرية لتَجَنّب الاعتقال من

جهة قوى الأمن الحكومية. ولكن يبدو أن التنظيم الخَلَوي لم يكن فعالاً في مصر لأن المخابرات المصرية استَطاعَت القبض على آلاف من الأعضاء خلال السنوات التي تَلَتْ اغتيال البنّا في 12 فبراير 1949 [471].

كان هدفُ التنظيم الخَلَوي هو خِداع المخابرات، إلا أنه حَمَلَ آثاراً جانبية غير مَقصودَة: فقد ساعَدَ على النموّ، إذ تَمَكَّنَت العائلات (وهو معنى كلمة الأسرة) من الإنضمام كمجموعات، وصَنَعوا مع جيرانهم الطبقة التالية من الهَرَم. كان النموّ انفجارياً. لعلَّ الأرقام تقديرية فقط، إلا أن النَمَط كان واضحاً: كان في المنظمة أقل من ألف عضو سنة 1936، وربما مئتي ألف بعد ذلك بسنوات قليلة، وحوالي مليونين سنة 1948 عندما شَغَلَ طَرْدُ إسرائيل للفلسطينيين أذهانَ ومشاعر الشعب المصري.

شكل الإخوان في الثلاثينيات قوةَ ميلشيا مثلما فَعَلَتْ أحزاب مصرية أخرى وكثير من المنظمات القومية الأوروبية[472]. عَيَّنَ كل فرع مَحَليّ بعض الأعضاء كمُحارِبين مسلَّحين أو (جوالة) جاهزين للمظاهرات في الشوارع. تم تدريب كتائب أكثر تنظيماً بشكل عسكري وأُعطِيَتْ أسلحةً في بعض الأحيان. وبالإضافة إلى ذلك ففي منتصف الحرب العالمية الثانية شَكَّلَ الإخوان قوةً خاصة تعرف بالتّنظيم السرّي ناوَشَت الثكنات العسكرية البريطانية والمصرية ومراكز الشرطة، وأرسَلَتْ سنة 1948 متطوعين للقتال في فلسطين. في تلك السنة قَتَلَ واحدٌ من أفراد تلك الجماعة رئيسَ الوزراء المصري النّقراشي باشا الذي اتَّهَمَهُ الإخوانُ بالخيانة في حرب فلسطين.

لم تكن أهَمُّ أنشطةِ الإخوان في عمليات الميليشيا التي لم تُؤَدِّ أيٌّ منها إلى نتائجَ مستمرة، بل في التعليم والدعاية التي كان لها أبلَغُ الأثر.

لم يَسعَ الإخوانُ في البداية للاستيلاء على السلطة بل إلى خَلْقِ الظروف التي يُمكِن أن تَصِلَ إلى مجتمعٍ مسلم "نَقِيّ"، في مصر أولاً ثم في العالَم الإسلامي. آمَنَتْ بإمكانية تحقيق ذلك لأن البنّا كتَبَ في نهاية الكساد الاقتصادي الكبير أن الحضارة الغربية "أفلَسَتْ وفي طريقها نحو الانحدار... تَصدَّعَتْ أساساتها... وقواعدها السياسية تَتَحطَّم تحت نير الديكتاتورية، وأسسها الاقتصادية تَجرفُها الأزَمَات. يَشهد ضِدَّها ملايينُ البائسين العاطِلين عن العمل"[473]. بالمقارنة مع هذا العالَم المادي الفاشل الذي تَغيبُ فيه العلاقاتُ الإنسانية الجادَّة يُعلِن: "أيها الإخوة، أنتم... روحٌ جديدة تشق طريقها إلى روح هذه الأمة وتُحييها بالقرآن: فجرُ نورٍ جديد يُمزِّقُ أستار ظلام المادية بمعرفة الله، صوتٌ يُدَوّي ويَتَصاعد ليَنشر رسالة النبي"[474].

لم يُصبِح الإخوانُ حزباً سياسياً إلا بعد أن قَرَّرَ خليفةُ البنّا أنه من المستحيل "نشر رسالة النبي" دون سلطة سياسية. وبعد فترة مضطربة قَضَى فيها زعماؤهم وكثير من أتباعهم سنوات في السجن، شارَكوا في انتخاباتِ سنة 2012 ووصَلوا مؤقتاً إلى السلطة. ومثلما حَدَثَ لأنظمةٍ إسلامية في باكستان والصومال وليبيا، أُطيحَ بالإخوان في انقلاب عسكري. أُوقِفَتْ محاولةُ الإخوان فَرْضَ الشريعة على المجتمع المصري، وقُبِضَ على آلاف منهم، وسُجِنَ قائد الإخوان الذي أصبَحَ رئيساً

لمصر وهُدِّدَ بالإعدام. لا يمكن التَّنبؤ هل سيكون قَمْعُ هذا النوع من الإسلام المُحارِب دائماً أم مؤقتاً؟ إلا أن ما يبدو مؤكَّداً هو أن الأفكار التي طَرَحَها الإخوانُ لم تُنتَزَع مِن جُذورها تماماً. بل انتَشَرَتْ في الواقع بعيداً عن مُتَنَاوَل الحكومة المصرية الجديدة[475]. وهكذا على الرغم من سيطرة الجنرال عبد الفتاح السيسي على السلطة إلا أنه من المهم أن نَفهَم هذه الأفكار، ولذلك سأتَّجِهُ إلى سيّد قطب، تلميذ البنّا وزعيم جهود الإخوان التعليمية والتربوية.

الفصل الثالث والثلاثون

فيلسوف الثورة الإسلامية، سيّد قطب

سيّد قطب هو أكثر المُنَظِّرين تأثيراً في العالَم الإسلامي الحديث. عشرات الملايين من المسلمين قرؤوا وفكَّروا وتَحَمَّسوا بسبب كتاباته. هو "نبيّ" الإسلام المُحارِب. ولذا فإن معرفة ما يَقوله بِدِقَّةٍ هو أمرٌ عظيم الأهمية. سأحاولُ هنا بَيان النقاط الرئيسية باستِخدام كلماته ما أمكَن.

سأبدأُ مِنْ حيث بَدَأ سنة 1906 في قريةٍ بأعالي مصر. لا تَختَلِفُ نَشأتُهُ عن نشأة كاتب مصري سَبَقَهُ هو رفاعة رافع الطَّهطاوي الذي ذكرتُهُ في الفصل السادس عشر. استَدعى طفولَتهُ في مذكراتٍ مُمتِعة كان يمكن أن يَكتُبَها مارك توين لو أنه ولِد في مصر[476]. لم تكن مذكراته مَديحاً، فمِنَ الواضح أنه كان يرى ضَعفَ السكّان، ولكن يبدو لي أنه لم يَفقَد أبداً مَحَبَّتَهُ للحياة البسيطة الهادئة المفيدة في شبابه.

انتَقَلَ قطب من القرية إلى مدينة القاهرة الكبيرة حيث عاش بعد تَخَرُّجه من مدرسةٍ عَلمانية على هامش النُّخبة المثقَّفة المَوهوبة الحَيوية المُحبَطَة. كتَبَ الرواية في عشرينياته وثلاثينياته وحَصَلَ على شهرة صغيرة كناقِدٍ أدبيّ في مجلات القاهرة. كان تفكيرُهُ السياسي في تلك المرحلة المبكرة من حياته مُتَماشياً مع كثير من المثقفين المصريين بتَصَوُّرٍ بلده كأمّة مُنفَصِلة أو "وطن". كانت مصر بالنسبة لَهم ولَهُ أمَّةً تقف وحدَها وريثةً لحضارةٍ عظيمة وقديمة. ولو كان لها دَورٌ تَلعَبه في الشرق الأوسط لكان نوعاً من الرسالة لكي تَجعَل ثقافتها المُتَمَيِّزة مَحَطَّ اهتمام العرب "الشرقيين" المُتَخَلِّفين. صَرَّحَ طه حسين عميد الأدب في القاهرة أن مصر ليست جزءاً من العالَم العربي ولا حتى من العالَم الإسلامي، بل هي جزء من عالَم البحر المتوسط المُتَعدِّد الثقافات[477]. اختَلَفَتْ عن اليونان وإيطاليا بشكل رئيسي لأنها تَلَقَّت الإسلام، هدية الله إلى الإنسانية، وكانت الأفضل في جميع العوالم المُمكِنة حتى لو لم يُعتَرَفُ بأنها كذلك.

اهتَزَّ قطب خارج هذا التَّعريف المُريح لمصر المِثالية مثل بقية المصريين عندما احتَكُّوا بالإنكليز الذين تَدَفَّقوا على مصر خلال الحرب العالمية الثانية. ذكَرتُ خشونة حديث الجنود التي تَعَرَّضَ لها المصريون كل يوم. لعل خشونَتَهم كانت مؤلمةً له مثلما كانت لكثير من المصريين الذين

عَرفتُهم. كتَبَ بعد خمس سنوات من الحرب بينما كان غضبُهُ حاضِراً بسبب "سرور جنود الحلفاء الذين دَهَسوا المصريين بسياراتهم كالكلاب"[478].

حساسيته للسرور الذي أظهره أهل الشمال العالمي ستستعيد وجودها بعد الحرب عندما حصَلَ على منحةٍ للدراسة في أمريكا. كانت أمريكا كريهة في عيونه التي نَشَأت في القرية. بَدَتْ له بالوعةً من الاستهلاك والتَّبذير والجنس المُفرِط والمادية الفَجَّة. لَخَّصَ كل ما وَجَدَهُ مَكروهاً عن أمريكا ووَضَعَ ثقافتها في نَصٍ عربي: كَتَبَ أن المجتمع الأمريكي كان يشبه حالة العرب في الجاهلية قبل الإسلام التي أصلَحَتْها أعمال رسول الله محمد. لدى رؤيتها في هذا السياق يبدو أن الوحدة التي شَعَرَ بها خلال حياته بين الأمريكان لم تكن بسبب قصورٍ فيه: كان رجلاً مُتَحَضِّراً بين برابرة مثلما كان محمد رَجُلَ الله بين المشركين. وهكذا أمكَنَهُ تصنيف الغرب بأنه مُتَخَلِّف وليس مصر. كان الأمريكان مثل الجنود البريطانيين واثقين من أنفسهم وأقوياء إلا أنهم أفظاظ خشنون.

سمعتُ أقوالاً مشابهة من عشرات الطلاب من إيران والدول العربية وأفغانستان وباكستان والسودان[479]. ألا أن عشرات الآلاف من الطلاب وَجَدوا ميزاتٍ تعويضية في أمريكا جَعَلَتْهم يَتَردَّدون في العودة إلى بلادهم. لم يَجِدْ قطب ميزاتٍ مماثلة، وما شاهَدَهُ من امتيازات بَدَتْ له طُعْمَاً في مَصيَدَة. وكما لاحَظَ بَعدَها أن الخطر الأكبر على الإيمان الحقيقي كان بالضبط في إنجازات العالَم الغربي الحديث: "صَنَعَت العبقريةُ الغربية إنجازاتها الباهرة في العلوم والثقافة والقانون والانتاج المادي التي تَقَدَّمَت الإنسانية بفضلها إلى مستويات عالية من الإبداع والراحة المادية. مِنَ الصعب إيجاد خطأ في اختراعِ مثل هذه الأشياء العظيمة، خاصة وأنّ ما نُسميه "عالَم الإسلام" يَخلو تماماً من كل هذا الجَمال"[480].

كان لدى قطب وجهَتَي نظر مُتَناقِضَتان بشأن "كل هذا الجَمال"، فمِن جِهة كان يُلهِي الناس عن الحياة كما يُريدها لهم الله في الظروف الصعبة ويَحرفُهُم عن الطريق الروحي التي كان عليهم اتِّباعها، ومن جهة ثانية آمَنَ بأنه "في الحقيقة تُشَجِّعُ تعاليم الإسلام على الازدهار المادي والتقدم العلمي بما يَنسَجم مع دور الإنسان كخليفة الله في الأرض"[481]. طَرَحَ أنه على المسلمين أن يُضَاهوا تَقدّم العِلم الغربي وصناعته ولكن عليهم أن يَفعلوا ذلك بطريقة إسلامية. وأنذَرَ أنّ فِعْلَ ذلك بطريقة إسلامية خطيرٌ أيضاً لأن مِثل هذه الأعمال تَخلُقُ وتُشَجِّعُ وتُقَوي المَعصية والجَشع والمادية والتَّهاون الأخلاقي. اعتَبَر هذه الأمور من صِفات شمال العالَم وكثير من مجتمعات الجنوب التي تَظُنُّ نفسَها مسلمة بطريقة سطحية. المشكلة هي أن نأخذ أفضل ما في الغرب ونَرفض عيوبه، والطريق التي يَقتَرحها لتَحقيق ذلك هي الإسلام. ولكنه أكَّدَ على أن "الإسلام لم يأت لإشباع غرائز الناس التي تَظهر في مفاهيمهم ومؤسساتهم وأساليب معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم... لا يُقِرُّ الإسلام تسلط رغبات النفس بل جاء ليلغي جميع هذه المفاهيم والقوانين والعادات والتقاليد ويَستبدِلها بمعتقدات جديدة للحياة الإنسانية وخَلْقِ عالَمٍ جديد على قواعد التَّسليم للخالق"[482].

في البحث عن نموذجٍ يستطيع المُعاصرون تَصَوّره يَطلُبُ قطب من قُرَّائه أن يَرجعوا إلى الأصولِ حسبما يَراها في الجيلِ الأول من المسلمين. يُؤمِن بأن ذلك الجيل الذي عَلَّمَتْهُ أقوالُ وأفعال

النَبيّ واتَّبَعَ أوامر الله كما وَرَدَتْ في القرآن قد عاشَ حياة دينية "صافية". يمكننا مقارنة مَنهَج قطب بمَنهَج "المُتَطَهِّرين" في القرن السابع عشر في نيو إنغلاند بأمريكا، تَمنَحُ هذه المُقارَبة مفتاحاً لفهم أفكار كثير من الأصوليين.

الكلمة العربية لوصف الأصولية في الإسلام هي "السَّلَفِيَّة" التي يَفهمها الذين يَتَحدثون باللغة العربية كلغتهم الأم بأنها تَعني عادةً "الرجعية" غير أن المفهوم أكثر تعقيداً من ذلك. تَعني كلمة "سَلَفيّ" باللغة العربية الفصحى "الشخص الذي يقف حارساً في الخلف وفي الطليعة" وفي العربية كثيرٌ من هذه المَفاهيم المُتَباينة. وَرَدَ منطق هذا التناقض الظاهري في تعاليم فقهاء القرن الثامن عشر حين كانوا يبحثون عن وسائل لحماية حضارتهم في مواجهة الغرب. طَرَحَ بعضُهم أن "القوة" الحقيقية لا يمكن تحقيقها بتقليد مُمارَسات الغرب بل من الأصول كما جَاءَتْ في القرآن ووضَّحَتْها سنّة النّبي، وعلى هذه القاعدة الصلبة فقط يمكن بناء التَّقدم الحقيقي: أي أنهم يجب أن يَرجعوا إلى الوراء لكي يَتَقدموا إلى الأمام. هذا هو لُبُّ السلفية.

يَعتَقد السلفيون بأن الذي يَمنَع المسلمين من إيجاد القاعدة الصلبة ويُسبب ضَعفهم هي البِدَع والانحرافات التي غَطَّت الفكر والمجتمع الإسلامي خلال عصور التَّخلف الطويلة المُظلِمة. شَعَرَ كثير منهم بأن الإسلام قد "أضاع طريقه" في فيضان التَّمَسّك العَقيم بالتعاليم التقليدية ودخول الأفكار والمَناهج الغريبة.

وصَفتُ الحركات "التَّطهِيرية" التي جاء بها رجال مثل محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، ومحمد بن علي السَّنوسِيّ في الجزائر وليبيا، والسوداني محمد أحمد المَهدي، والناشط الإيراني جمال الدين الأفغاني، والمُفَكر المصري محمد عبدو. يَصُبُّ هذا الإرثُ في قلب أفكار سيّد قطب.

تعاليم وحركات هؤلاء المسلمين ليست غريبة ولا "شرقية" كما تبدو، فهي تشبه ما جاء به مارتن لوثر وجون كالفن في شمال أوروبا. يَشترك البروتستانت الأوائل مع المسلمين السلفيين في إيمانهم بالسلطة المطلقة لكلمة الله التي لا تَتَغير كما جاءَتْ في النصوص الأصلية. اعتَقَد البروتستانت، خاصة المُتَطَهِّرين، بأنه من أجل الوصول إلى قاعدة صلبة عليهم أن يَضَعوا جانباً أغلب الكتابات التعليمية ويَتَجاوزوا بيروقراطية رجال الدين التي غَطَّت على الإيمان الأصلي. المهمة التي وَضَعوها على أنفسهم هي اكتشاف الرسالة "الصافية" وقيادة أتباعهم لتَطبيقها. وكذلك كانت حالة المُتَطَهِّرين المسلمين.

كانت قاعدة الإيمان لدى قطب هي رسالة الله في القرآن وأقوال وأفعال محمد خلال ثلاث عشرة سنة من نُبُوَّتِهِ في مكة وعشر سنوات من حُكْمِهِ في المدينة. لم يَظهَر أن قطب كان كثير الاهتمام بحياة المسلمين الطويلة في القرون التالية. حتى الذكريات المَجيدة للإسلام في العصور الوسطى كانت بالنسبة له انحرافات. كان الإسلام في الغالب متسامِحاً مع الأديان الأخرى وتَوافَقَ مع اليهودية والهندوسية والأديان الأخرى ولم يكن "تطهيرياً". شَعَرَ البروتستانت التطهيريون بمثل ذلك في مواجهة المسيحيين الكاثوليك والأرثودوكس في العصور الوسطى. كان رجال الكهنوت المسيحيين، خاصة في محاكم التفتيش، يَسعون دائماً لاستئصال الهَرطَقَة. وفي الحقيقة كان ذلك

هدف الصليبية المَحَلية الكبرى التي تُسَمى "صليبية البيجان (-1209) "Albigensian Crusade 1229 التي دَعَى إليها البابا إنوسنت الثالث Innocent III وقادَها الملك فيليب الثاني للقضاء على المسيحيين الكاثار في جنوب غرب فرنسا وأدَّتْ إلى إنشاء محاكم التفتيش.

لم تصل أي من هذه الحضارات المسيحية والإسلامية عميقاً في جماهير الشعب. بالنسبة إلى قطب كان الفلاحون المصريون مسلمون في الظاهر فقط. فهمتُ ذلك أنه كان يقصد أنهم أناسٌ غير متعلمين أو جاهلين مثل القرويين الذين نَشَأَ بينهم والذين يقومون بممارسة عادات ومعتقدات لا أساس لها في الإسلام الصحيح. الإسلام "الشعبي" ليس فقط في مصر بل من المغرب إلى اندونيسيا كان مَليئاً بالوحوش الأسطورية والطقوس النُّذُورية التي كانت أقرب إلى ألف ليلة وليلة منها إلى القرآن.

بالإضافة إلى ذلك فقد جَلَبَ الغرباءُ المُتَحَولون إلى الإسلام عاداتهم معهم، وكانت بعضُها تُخالِفُ مباشرة أحكام الإسلام، فمثلاً عادة الثأر عند الأفغان والشيشان والبدو والبربر تُخالِفُ تعاليم القرآن التي تَمنَعُ قَتْلَ المؤمِن لأخيه المؤمِن. كما أن عادات الأفغان تُعامِل حقوق الإناث في الميراث بطريقة تَختَلِفُ عما تُقرِّره شريعة الإسلام. وكذلك الدعاء عند قبور الأولياء الذي يُمارَسُ بشكل واسع جداً يُعتَبَر نوعاً من الشِّرك، والحَجُّ إلى المَزارات والمدن "المقدَّسة" يتَنَافى مع الحج إلى مكة. ويُعتَبَرُ إدخال جَوانب مِن الزَرادَشتية في الإسلام أسوأ الأمور بالنسبة إلى المُتَشَدِّدين. ولا يُعتَبر الشيعة مسلمون حقيقيون بالنسبة للأصوليين. جميع الممارسات المُنحَرِفة هي بِدَعٌ وبالتالي غير مقبولة شَرعاً.

يُعتَبر "التَّسَاهل" في المُمارسات الدينية الذي تم تَطبيقه على مدى قرون طويلة مُخالَفَةً شرعية أيضاً. انعَكَسَتْ قِيَمُ المجتمعات البدائية القَبَلية العِبرية والعَربية في العَهد القديم والقرآن ووضِعَتْ قوانين صارمة. قَصَدَ العَهد القديم إلى المحافظة على التَّماسك القَبَلي وتَرسيخ قُوَّتِهِ، بينما قَصَدَ القرآنُ بناءَ مجتمع جديد. كانت بداية اليهودية والإسلام دينية تَسلطية لم تَسمح بأي انحراف أو تَهاون. ولكن على مَرِّ القرون عندما كان على هذه المجتمعات أن تتعامل مع عقائد متَنوعة أصبَحَتْ أكثر عالَمية وأقل تَشدداً.

ولكن الدعوةَ للرجوع إلى أسس الإيمان ظَلَّتْ دعوةً قوية جامِعَةً في بعض المذاهب المسيحية بشكل خاص، مثل المؤمنين القدماء والمسيحيين المولودين من جديد وكثير من الطوائف البروتستانتية، وفي أمثالها من الجماعات المسلمة. اعتُبِر "التساهل" في نظر الأصوليين مَعصيةً لأوامر الله. سَعَى إلى الرجوع للرسالة الأصلية الصافية عبر التاريخ علماءُ لاهوت مسيحيين مثل أوغسطين ودومينيك، وعلماءُ مسلمون مثل أحمد بن محمد بن حنبل وتقي الدين بن تيمية، وانضَمَّ سيد قطب إلى هذا المَوكِب.

وصَلَتْ محاولاتُ العودة إلى الأصول إلى جماهير واسعة من المؤمنين في أوروبا في القرن السادس عشر والسابع عشر، وفي الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر والعشرين. طَبَّقَ المُتَطَهِّرون في نيو إنغلاند الذين ألهَمَهُم العَهد القديم، والوهابيون الذين ألهَمَهُم القرآن قوانين بالغة

القسوة استَنَدَتْ إلى الكتاب المقدس أو إلى القرآن وشَمَلَتْ الجَلد والحَرق والرَّجم حتى الموت عقوبةَ لجرائم مثل الخيانة الزوجية واللّواط والكفر.

عندما رَوَّعَتْ مُمارسات الجناح العنيف من الإسلام، مثلما رَوَّعَتْ مُمارسات الجناح العنيف من المسيحية الإصلاحيين في الغرب، حاوَلَ بعض المسلمين فيما سُمّيَ بالعصر الليبرالي تَصوير الدين بألوان أكثر لطفاً والدفاع عن الإسلام بالرجوع إلى ماضيه المَجيد حينما كان الإسلام أقل تشدداً. أصَرَّ قطب على أن ذلك تَحويرٌ وانحراف عن تعاليم الله ورَفَضَها قائلاً: "كلا لِمِثْلِ هذا الدفاع! العار على مثل هذا الدفاع!"[483]. بالنسبة له كانت حروب الفتوحات والخلفاء وازدهار الثقافة الإسلامية مظاهر براقة فوق الأسس. المهم هو رسالة الله كما عاشَها محمد. "لا يوجد شيء في إسلامنا نَخجَل منه أو نهرَعُ للدفاع عنه: لا يوجد فيه شيء يجب تَهريبه إلى الناس بالخِداع... الشخص الذي يَشعر بالحاجة إلى الدفاع والتَّبرير والاعتذار لا يَستطيع تَقديم الإسلام للناس"[484].

بعد إزاحة الذين يريدون الدفاع أو الاعتذار عن دينه، يَسعى قطب لتَطمين المُراقبين الذين أدرَكوا أن أرض الإسلام قد فَقَدَتْ حيوية وقوة الأيام العظيمة، ويَكتُبُ قائلاً: "تَغَيَّرت الظروف، فَقَدَ المسلمَ قُوَّتَهُ وغُلِبَ، ولكن الوعي لا يُغادِرُهُ ويَظَلُّ هو الأفضل. إذا حافَظَ على الإيمان فإنه يَنظُرُ إلى المُحتَلّ من موقفٍ أعظَم، ويَظَلُّ مُتأكِّداً من أن هذه الحالةُ مؤقَّتةٌ وستَمُرّ وسَيستَعيد الإيمانُ المَدَّ الذي لا يُمكن الهَربُ منه. إذا كان الموتُ قَدَرُهُ فلَنْ يَحني رأسه، فالموتُ مصيرُ الجميع، ولكنه بالنسبة له شهادة، وسيَمضي إلى الجنة بينما يَسير قاتِلُهُ إلى النار"[485]. وهنا مثلما يَفعل عادةً يَدعم مقولاته بآيات من القرآن: "وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (القرآن 3/139). مهما كانت الحالة الآن فالنصر مُحَتَّمٌ في النهاية.

ولكن كل مَن حَولَهُ كما ذَكَرَ كانوا أشخاصاً يَدَّعون أنَّهم مُرشِدون غير أنهم قد ضَلُّوا الطريق واعتَنَقوا أدياناً زائفة أو حتى بَدَّلُوا الدِّين بأفكار عَلمانية مثل القومية. اعتَبَر القوميةَ كما جَسَّدَها في مصر جمال عبد الناصر انحرافاً وضلالاً لأنها رَكَّزَتْ على المادية وليس على الروح، على الشِّعارات وليس على المَضمون، على الأهداف السريعة بدلاً من الخلود: "وطنُ المسلم حيث يعيش والذي يُدافِعُ عنه ليس قطعةَ أرض، قوميةُ المسلم التي يُعَرِّفُ بها نفسَهُ ليست القومية التي تُحَدِّدُها الحكومة، وعائلةُ المسلم التي يَجِدُ فيها العَزاء والتي يُدافِعُ عنها ليست قَرابَةَ الدَّم، وعَلَمُ المسلم الذي يُبَجِّلُهُ ويستَشهِدُ في سبيله ليس عَلَمَ دَولة، ونَصرُ المسلم الذي يَحتَفِلُ به ويَشكر الله عليه ليس الانتصار العسكري. بل هو ما وَصَفَهُ الله: "إذا جاءَ نَصرُ اللهِ والفَتْح، ورأيتَ الناسَ يَدخُلُونَ في دينِ اللهِ أفواجَا"... عندها يَتِمُّ النَّصرُ الحقيقي. ويُصَرِّحُ "هذا هو الإسلام، وهذه وَحدَها هي دار الإسلام (وطن الإسلام)، وليست التراب ولا العِرق ولا السُّلالة ولا القبيلة ولا العائلة"[486].

استاءَ قطب ممَّن ظَنَّ أنهم لم يَفهموا رسالته مثل غيرِهِ من الأنبياء والثوريين. اعتَقَدَ أن الأحاديث التي تتعلق بالنبي محمد مَليئةٌ بِتَفنِيد ما اعتَبَره اتهامات زائفة أو سوء فَهْم. ذَكَرَ قطب أنه خلال سَنَتَي دراسته وسَفره في أمريكا التَقَى طلاباً وباحثين ادَّعوا مَعرِفَتهم بالإسلام وبالثقافة

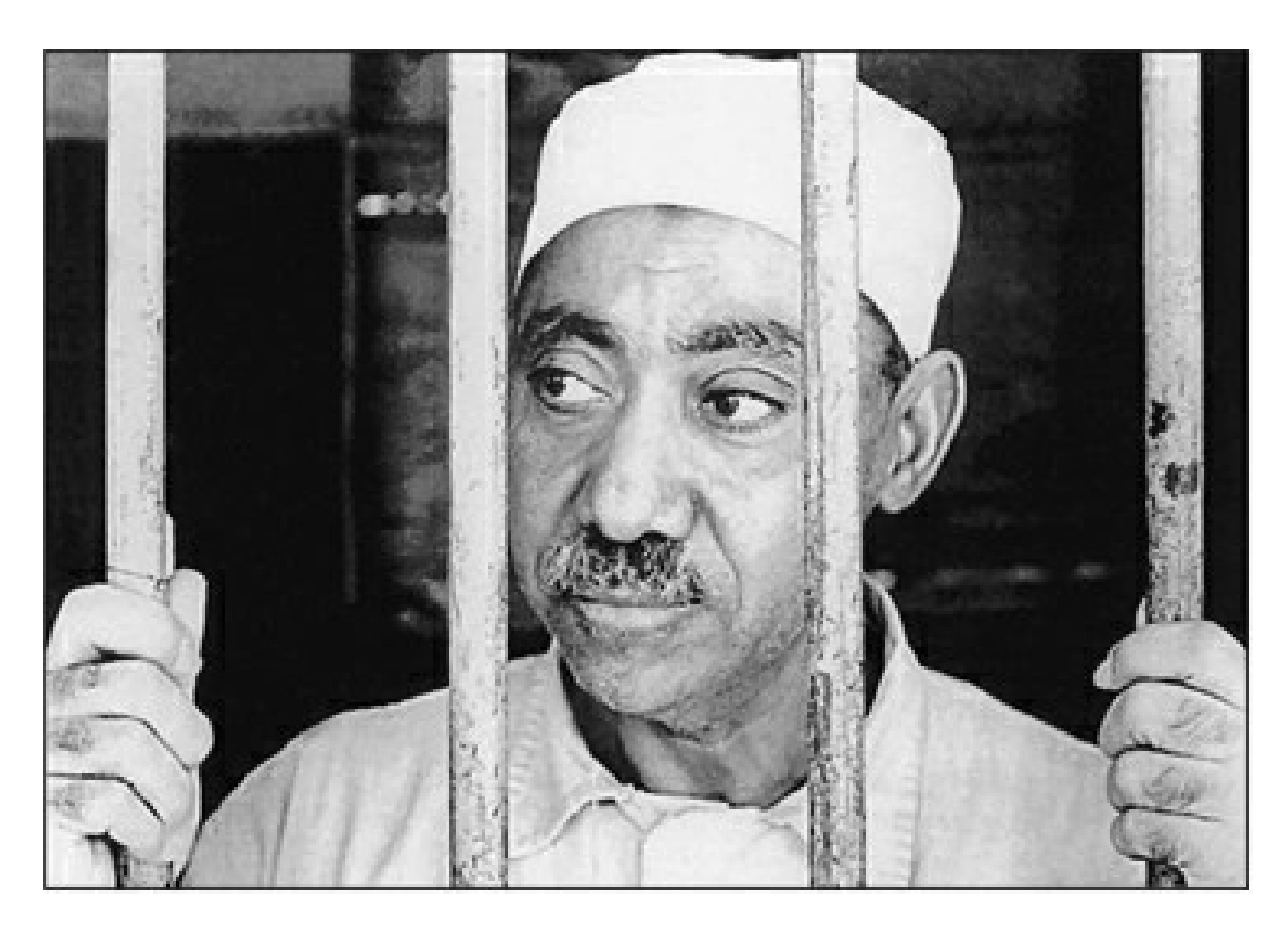
الإسلامية، وغَضِبَ لما اعتَبَره سوءُ فَهمِهم المَقصود. استاءَ بشكل خاص مِنَ المُستشرقين الذين يُعتَبرون خُبراء. يُهاجِم "المُستشرقين الخَونَة الذين يَرسمون صورة للإسلام كحركة عنيفة فَرَضَتْ معتقداتها على الناس بقوة السيف. يَعرِفُ هؤلاء المُستشرقون جيداً أن ذلك غير صحيح، ولكنهم يُحاوِلون بهذه الطريقة تَشويه الدَّوافع الحقيقية للجهاد الإسلامي... الإسلام هو طريقة الحياة التي أمَرَ بها الله جميع الناس، والجهاد في الإسلام هو ببساطة كلمةٌ تُعَبِّرُ عن السَّعي لجَعْلِ هذا النظام في الحياة مُهَيمِناً على العالَم. أما بالنسبة للإيمان فمِن الواضح أنه يَعتَمد على الرأي الشخصي تحت حماية نظامٍ عام تَزول فيه جميع العقبات أمام حرية الاعتقاد"[487].

اتُّهِمَ قطب مراراً بتأييد الطغيان، ومِن المؤكَّد أن الذين استَلهَموا كتاباته قد تَصَرَّفوا بعنف وطغيان كما سأوَضِّحُ في الجزء الخامس. هناك كثير في كتاباته مما يُشَجِّعُ على هذه الميول، ويُعتَبَر أنه فيلسوف الثورة الإسلامية. ولكنه يُصِرُّ على أنه "ليس هدفُ الإسلام فَرضَ معتقداته على الناس... فالإسلام هو إعلانٌ لحرية الإنسان من عبودية الإنسان. ولذلك سَعى لإزالة الأنظمة والحكومات التي أُسِّسَتْ على حُكْمِ الإنسان على الآخرين وعبودية الإنسان للإنسان. عندما يُحَرِّرُ الإسلامُ الناسَ من هذا الضغط السياسي ويُقَدِّمُ لهم رسالته الروحية ويَقتَربُ من عقولهم يَمنَحُهم كامل الحرية لقبول أو عدم قبول مُعتَقَدَاتهم. وعلى كل حال إن هذه الحرية لا تَعني أنهم يَستطيعون جَعْلَ أهوائهم آلِهَتَهم، أو أنهم يَستطيعون اختيار... أو صُنْعَ بعض الرجال أسياداً لآخرين. ومهما كان النظام الذي يُؤسَّسُ في العالَم يجب أن يَستَند إلى سلطة الله ويَستمِدّ قوانينه مِنَ الله وحده"[488].

في الخلاصة، يبدو لي أن قطب يُناقِشُ داخل نظام مُغلَق. فإن "مَعالِمَ طَريقِهِ" موجودةٌ على دربٍ لا يَستطيع رؤيتها بوضوحٍ مَنْ لا يَمشون عليها، ولا يَستطيع الدُّخَلاء تَقييمَها. وبينما يُقِرُّ أن "العقل الأوروبي الإبداعي مُتَقَدِّمٌ كثيراً في هذه الناحية (الاختراعات المادية) وأننا لا نَتَوَقَّعُ أننا سنَستَطيعُ مُنافَسَتهم لعدة قرون قادمة" إلا أن ذلك غير مهم[489]. إنه حُكْمٌ مَبنيٌّ على عوامل ليست جزءاً من الأحكام الإسلامية. المُهِمَّةُ الأساسية للإنسانية هي أن تسير على مَعالِمِ الطريق نحو الخلاص ولا شيء آخر مُهمٌّ في الحقيقة. لا يمكن لأي انسان أن يُدرِكَ هذ الرؤية إلا إذا كان مؤمناً بأن "القرآن لا يكشف كنوزه إلا لمن يؤمِن به بهذه الروح: روحُ البحث عن المعرفة مع نِيَّةِ العمل بها"[490]. الإيمان، أي الدخول في النموذج، يجب أن يَسبق المُبررات العقلانية. انعكاسُ هذا التسلسل، المُمارسة أو الدراسة الأكاديمية أولاً والإيمان لاحقاً، هو بالضبط "ما جَعَلَ الأجيالَ المتأخرة مُختَلفة عن الجيل الأول الفَريد في الإسلام"[491]. أكَّدَ على أن المسلمين الأوائل أَلقُوا بأنفسهم في الإسلام لأن الإيمان كان قد مَلَأَ قلوبهم، وكما قال في أيامنا: "يُخاطِبُ الإسلامُ فقط أولئك الذين سَلَّموا أنفسهم لسلطته مَبدئياً واستَنكَروا جميع الأحكام والأنظمة الأخرى... مَنْ يَقبَلون الشريعة دون أي تساؤل أو شَكّ ويَرفضون جميع القوانين الأخرى بأيّ شكل كان. هذا هو الإسلام... لا يوجد أيّ معنى آخر للإسلام"[492].

الحكومات العَلمانية بما فيها تلك التي يَظُنُّ قادتُها أنهم مسلمون اعتَبَرتْ مواعظَ وكتابات قطب إعلانَ حربٍ ضِمنِيّ، فقد أخبَرَهم أن قراراتهم لن تُطاعَ ومؤسساتهم لن تُحتَرَم، وأنهم قد

اعتُبِروا خارجين على القانون ويُمكن قانونياً أن يُقتَلوا باعتبارهم كفاراً. اغتيل رئيسُ وزراء مصر النقراشي باشا سنة 1948 بعد أيامٍ من حَظْرِهِ الإخوان المسلمين، وتَمَّتْ محاولةٌ لاغتيال الرئيس ناصر سنة 1961، وأُطلِقَ النار حتى الموت على الرئيس أنور السادات سنة 1981. كان لدى المؤمنين الحقيقيين قانونهم الخاص خارج الحكومة يُقَدِّمونَ له الولاء التام وكان مَنيعاً على السيطرة ولا حتى على التقييم من طَرَفِ الغرباء أو مِنَ الأنظمةِ التي خارج نِطاقِه.



المصري سيّد قطب الأصولي المُلتَزم الذي ألهَمَ الثورة الإسلامية ضد الشمال العالمي.

قَرَأ الملايين مواعظه وتفسيره للقرآن. اتُّهِمَ بالتَّحريض في مصر وحوكِمَ وشُنِقَ في

سنة 1966 من قِبَلِ النظام العَلماني الحازم للرئيس جمال عبد الناصر.

صورَتُهُ هنا وهو في السجن بانتظار الإعدام.

ولكن مسلماً "مُعتَدِلاً" قد يَسأل بشكل عَقلاني أنه رُويَ عن المسيح سؤاله: ألا يَستطيع المؤمنُ أنْ "يُعطي لِقيصر ما لِقيصر وما لله لله؟"493. كلا، يُصِرُّ قطب لأن "قيصر" هو العدوّ. بما أن الحكومات العَلمانية تُطَبِّقُ ما اعتَبَره أفكاراً غير شرعية، مثل الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، فلا توجَدُ مُشارَكَة. لا يمكن التنازل ولا حتى مع حكومات ومؤسسات تَصِفُ نفسَها مُسلِمَةً لأنها في نَظَرِ قطب واجهات تُغَطِّي عبادة الأصنام. لم يكن مهماً بالنسبة إليه أنها لُعَبٌ في يَدِ

الأمبريالية، ولكن الأهمية العظمى في أنه اعتَبَرَها كافرة. هاجَمَ بقوله أنَّ مِثل هذه الأنظمة الألعوبَة هي الأسوأ لأنها تُخفي حقيقة أن المجتمع الإسلامي المعاصر "مَدفونٌ تحت ركام التقاليد التي وَضَعَها الإنسان (وتَراكَمَتْ منذ الجيل الأول لمجتمع محمد) وتَحَطَّمَتْ تحت ثقل القوانين الوضعية والعادات المُزَيَّفة التي لا تَمتُّ بِصِلَةٍ إلى تعاليم الإسلام والتي تُسَمّي نفسها على الرغم من ذلك "العالَم الإسلامي"494.

في إجابته على السؤال المُتَكَرِّر: هل يمكن "إصلاح" الإسلام لكي يُناسِب حاجات وقِيَم العالَم المُعاصر؟ كان على قطب أن يُجيبَ: لا، فقد آمَنَ أن الإسلام هو طريق الله كما وضَعَهُ القرآن ومارَسَهُ النبي ولا يوجَد مُبَرِّرٌ للإصلاح، بل إن الإصلاح في حَدِّ ذاتِه هو انحرافٌ عن سبيل الله. أي أنّ الزعماء المسلمين الليبراليين أو التَّحديثيين مثل قاضي قضاة مصر محمد عبدو في أوائل القرن العشرين والعلامة جمال الدين الأفغاني لم يكونوا مُرشِدِين بل مُضَلِّلِين، وبِغَضِّ النَّظر عن نواياهم فإن تأثير أعمالهم كان سيُضَلِّلُ الإسلام.

سؤال آخر حاوَلَ المسلمون الإجابةَ عليه هو فيما إذا كان "التَّحديث"، الذي هو في الحقيقة طريقةٌ صحيحة سياسياً لِقَولِ "التغريب"، هو طريقةُ التَّقَدُّم. وهنا أيضاً يُجيبُ قطب: لا.

كان واضحاً أن المجتمعات الإسلامية ضعيفة الآن ويجب عليها أن تَجِدَ طريقة لتحقيق الكرامة والقوة. ولكن بينما أرادَ العَلمانيون نسيان الماضي والتسارع نحو أسلوب الحَدَاثَة الغربية، أصَرَّ قطب على أن الغرب لديه القليل لِيُقَدِّمُهُ، مع الإقرار بأن لديه إنجازات مادية عظيمة إلا أنه في تسارعه الأعمى نحو المادية فَقَدَ المجتمع الغربي رؤيةَ ما تَعنِيهِ الصحة فِعلياً. وفي نَظَرِهِ إن الابتعاد عن الروحانية هو الفشل الأكبر في الثقافة الغربية. وليس ذلك لأن الحياة بدون الروحانية هي صحراء قاحلة، كما كان يؤمن، بل لأنها تَفْقِدُ الانسجام والتَّماسك الذي يوجَدُ في نظام الخَلق الإلهي الذي أمَرَ به الله. بناءُ الجيوش والانهماك في الأعمال العامة وتَبَنّي نظريات سياسية وإنشاء مؤسسات في محاولة تحقيق الانسجام لن يُحَقِّقَ القوة والكرامة. كان مُحِقّاً في هذه النقطة بالتأكيد، وهذا الفشل هو جانب رئيسي في الدَّفع لِظُهور الإسلام المُتَطَرِّف هذه الأيام. تفسير الهزائم التي تَعَرَّضَ لها المسلمون استناداً إلى الإيديولوجية وَحدَها هي بالطبع نظرة تبسيطية للتاريخ، ولكن أحداث الخمسينيات والسنوات التي تَلَتْهَا أقنَعَتْ كثيراً من الرجال الغاضبين الخائفين بالاستماع إلى رسالته.

الحياة الدينية الحقيقية التي تُقَرِّرُ فيها أوامرُ الله مصيرَ الإنسانية يمكن أن توجَدَ بشكلها الصافي في بداية الإسلام فقط. هذه هي النقطة الأساسية في فِكْرِ قطب. كان تَبسيطِياً عظيماً. تأتي نقاطُه بشكل تَكرارٍ مستمر للعقيدة الإسلامية "لا إله إلا الله". أساسُ تفكيره هو أنه لو آمَنَ المسلمون فِعلاً وتَصرفوا وفقَ هذه العقيدة فلا يمكن أن يُهزَموا. بما أن الله مُطلَقُ القوة، فإن الفَوارقَ في التسليح والثروة والثقافة والصحة وكل صفة أخرى تُمَيِّزُ الشمال العالمي على الجنوب تُصبِحُ بلا معنى. تَقَعُ هذه العقيدة في صُلْبِ الحركات الإسلامية المُتَطَرِّفة العَنيفة التي نراها هذه الأيام.

ذهَبَ قطب خطوة أخرى أبعَد: استَعارَ من القرآن المَقولات التي يمكن أن يَستَنِدَ إليها المسلمُ للانخِراط بشكلٍ شرعي في كفاح مسلح وبما سَمَّيتُهُ: السياسات العنيفة. استَنَدَ في ذلك كالعادة

على أحاديث محمد مع المسلمين الأوائل وعلى آيات من القرآن: "وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ"[495].

حَفِظَ ملايينُ الطلاب الشباب (طالبان) صَيحةَ القتال هذه مع بقية القرآن كل يوم في عشرات الآلاف من المدارس الدينية في كافة أرجاء العالَم الإسلامي. هذه الآيات ومثيلاتها هي بشكل أساسي أوامرُ مَسيرةِ الجِهاديين في أيامنا الحاضِرة، وهي إعلان الحرب لمسلمي الجنوب العالمي ضد الشمال وعملائه ووكلائه، فالدفاع ليس شرعياً وأخلاقياً فقط، بل واجباً، ولكن الهجوم غير شرعي. يُقَدِّمُ هذا التَّقسيمُ للمسلمين أساساً لوَقْفِ إطلاق النار والتَّوصُّل إلى السلام في النهاية، فالله يأمُرُ المسلمين بالدفاع عن أنفسهم وعدم المُبادرة بالأعمال العدائية.

لم يكن قطب جِهادياً ولكنه بَرَّرَ تَخريب النظام العَلماني، ولذا فقد سُجِنَ مراراً مثل سابقيه الكبار ابن حنبل وابن تيمية. اعتُبِرتْ تَعليماته تَخريبية بالنسبة لقادة الدول العربية مثلما اعتُبِرت الشيوعية بالنسبة للقادة الأمريكان في الخمسينيات والستينيات. وكذلك في سياسات عصره كانت أفكار قطب هجوماً مباشراً على القومية العربية التي دَعَى إليها الرئيسُ المصري ناصر، ولذا فقد سُجِنَ قطب وحُوكِمَ وأُدِينَ بسبب إعلانه الحرب على حكومة ناصر وإيديولوجيتها، وتم شَنْقُهُ سنة 1966 عندما بَلَغَ من عمره ستين عاماً، إلا أن أفكاره لم تَمُتْ مَعَهُ، بل ظَلَّ سيّد قطب حتى الآن فيلسوف الثورة الإسلامية.

الفصل الرابع والثلاثون

فلسطين:

الحروب والشتات والدولة الفاشلة

كانت حربُ 1948-1949 نكبةً بالنسبة للفلسطينيين. قبل انسحاب القوات البريطانية وخلال القتال هَرَبَ حوالي ثمانمئة ألف قروي فلسطيني مِمَّن تم تَخويفُهم لكي يَنزَحوا أو طَرَدَتْهم القوات الإسرائيلية. في نوفمبر 1948 شَكَّلَت الأمم المتحدة مؤسسةً لمساعدتهم على الحياة ولتأمين نوعٍ من أماكن الإقامة لهم، إلا أن مثل هذه البرامج تأخُذُ وقتاً طويلاً لتَطويرها. لم يَستطع أغلبُهُم حَمْلَ الكثير معهم، مثل اللاجئين الذين عاصَروهم عند تقسيم الهند، ومثل اللاجئين السوريين هذه الأيام. بعضُهُم لم يكن لديه سوى بطانيات، وماتَ كثيرٌ من الشيوخ والأطفال كل ليلة في شتاء تلك السنة التي كانت باردةً بشكل غير عادي. وأقَلُّ القليل كان لديهم المال أو الأشياء الثمينة التي يمكن استِبدالُها بالطعام. عندما واجَهوا الجوع في الأسبوع الأول الحَرِج جاءَتْ مساعَدَتهم الوحيدة من اللجنة الدولية للصليب الأحمر وعصبة جمعيات الصليب الأحمر ولجنة الصداقة الأمريكية.

المؤسسةُ التي أنشَأتْها الأممُ المتحدة هي وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين، وبعد أن دَرَسَ "خبير" أمريكي احتمال استيعابِهم في اقتصاديات الدول العربية المُجاوِرة تَطَوَّرَت المؤسسة إلى وكالة غَوث وتَشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا UNRWA). اقتَرَحَ الخبير الأمريكي خَلْقَ فُرَصِ عملٍ في الشرق الأوسط لكي يتم تَشغيل اللاجئين الفلسطينيين في القوى العامِلة للدول المُستَضِيفَة.

لم يكن الاقتراح عملياً: معظم اللاجئين كانوا فلاحين تقليديين ولا يَمتَلكون مَهارات يمكن تَسويقها خارج أراضيهم. لم يكن الفلاحون بحاجة إلى خدماتهم في المناطق العربية التي هاجَروا إليها، أو ربما أمكَنَ استِخدامُهم كعمالٍ مَوسميين. وفي المدن كان عليهم أن يَتَنافَسوا مع الفقراء العاطِلِين أصلاً. ربما تَمَكَّنَت الخطة الأمريكية من تَخفيف بعض الألم نظرياً، إلا أنه لم يكن هنالك أي أمَلٍ في تَمويلها أو بأنها ستَعمَل بسرعة كافية لحَلِّ مشكلة اللاجئين.

لم تكن معقولةً من الناحية السياسية أيضاً لأن اللاجئين ومُستَضيفِيهم اعتَقَدوا أن هَدَفَها هو نزع الجنسية عن الفلسطينيين وكان ذلك مرفوضاً مِنَ الفِئتَين. تَمَسَّكَ اللاجئون بقرار الجمعية العامة

للأمم المتحدة رقم 194 في 11 ديسمبر 1948 الذي مَنَحَهم حق العودة إلى بيوتهم أو بتَعويضِهم إذا أرادوا ذلك، وطالَما استَمَرَّ إعلان "حق العودة" كما فَعَلَت الأمم المتحدة على مَرِّ السنين، فيمكن اعتِبار مشكلة اللاجئين مؤقَّتَة. وهكذا لم يَشَأ اللاجئون ولا مُستَضيفِيهِم الذَّوبانَ في القوى العاملة المَحَلية. قَبولُ الاستيعاب يَعني القَبول بالهزيمة التَّامة لكل ما آمَنَتْ به القومية العربية، كما أنها ستُدَمِّرُ فلسطين كأمّة وشعب.

يَلفتُ النَّظَرَ أنَّ قصة فلسطين في هذا الجانب وفي كثير من الأمور الأخرى تُذَكِّرُ بالتجربة الصهيونية لأن خَطَرَ اندماج أمَّتِهِم بشعوب أخرى كان واحداً من أوائل وأكبر مخاوف الصهيونية. أنذَرَ اليهودَ القاضي لويس براندايز Louis Brandeis من موقِعه الآمِن في أمريكا أن اندِماجَهم هو انتحارٌ قومي. ولم يكن اليهود ولا الفلسطينيون يريدون الانتحار.

في هذه الأثناء تَمَكَّنَ اللاجئون الأثرياء والحرفيون أو المَحظوظون من الوصول إلى مواقِعَ آمِنة في الكويت وبغداد والقاهرة ولندن ونيويورك وأصبَحَ بعضهم رجال أعمال ناجحين، وحَصَلَ كثير منهم على مراكز في معاهد جامعية، وأسَّس بعضهم فعلياً الاقتصادات الصاعدة في الكويت وغيرها من إمارات الخليج. وبالمجموع، فقد بَلَغَ عدد هؤلاء الرجال والنسوة حوالي عِشر الشعب الفلسطيني، أما التِّسعة أعشار الباقية فقد عاشوا في "حالة مادية ونفسية بائسة"[496]. سُمِحَ لوكالة الأمم المتحدة التي كُلِّفَتْ بإعاشتهم إنفاقَ 27 دولاراً في السَّنَة لكل شخص في الرعاية الصحية والغذاء والمَسكن والثياب. كانت الكلفة الشهرية لإطعام الشخص 1.80 دولاراً إذا تم شراء الطعام من السوق المَحَلية وتأمين 1600 حريرة يومياً وذلك ما يكفي لبقاء المُتَلَقِّي بعيداً عن مستوى المجاعة لا أكثر.

السَّكَنُ كان مشكلةً أصعب، مُنِحَ اللاجئون الأوفر حظاً خِيَمَاً، ووَجَدَ قليل منهم أبنيةً خالية قسموها إلى أماكن للنوم بتَعليق ستائر قماشية من السقف، أما الذين لم يَحظوا بخيمة ولا بناءٍ عتيق فقد استَلقوا في العَراء أو تحت الأشجار. تَمَكَّنَ بعضهم من بناء أكواخٍ من قطع الصَّفيح المَرمية أو بقايا الأشياء المختلفة. ولكن بغضّ النّظر عن مواد البناء فقد كانتْ لا تَستُرُ عَورةً ولا تَضمَن خصوصية. كان عليهم التَّخَلي عن عادات مجتمعهم من أجل البقاء على قيد الحياة وأن يَنحَدِروا إلى "الحالة المادية والنفسية البائسة" التي وَجَدَتْها الأمم المتحدة[497].

وبشكل محتَّمٍ وسريع انحَدَرَ أغلبُ اللاجئين في الحالة التي سَمَّاها كارل ماركس "البروليتاريا المُتَكَوِّمَة lumpenprolitariat" أو ما وَصَفَها في مكان آخر "بالجماعة المُتَفَكِّكَة غير المُحَدَّدَة". لم يَعودوا جُزءاً من أمّة ولا حتى قرية، بل كانوا مجرد عائلات، وحتى العائلات تَفَرَّقَتْ إلى أفراد منفَصِلين في رعبِ التشرد. قامَتْ جماعاتٌ صغيرة بما لم يَفعلوه مِن قَبل: تَشَاركوا في الأسِرَّة والمَعيشة والحَمامات مع غرباء.

لم يَتَطَوَّر لدى الفلسطينيين إحساسٌ بالهوية القومية حتى قَبلَ اللجوء، وكانوا يَنتَسِبون إلى القرى التي عاشوا فيها مثل جميع شعوب الجنوب العالمي. كان الوطن أمّتهم، وتَزَوَّجوا في قراهم

ومجتمعاتهم المَحَلية، وقَرَّروا ما يَدفعه كل واحد منهم إلى الحصَّة العامّة لإرضاء عملاء الحكومة البعيدة، وحافَظُوا على السِّلم، وحَرَثوا حقولهم، ووَزَّعوا ماءَ الريّ التي لديهم بين أراضيهم، وعَلَّموا أولادهم، واعتَنوا بالمرضى، ودَفَنوا الموتى. تَجَنَّبوا كل احتكاك مع الحكومة ما استَطاعوا سواء كانت الامبراطورية العثمانية أو الانتداب البريطاني.

بدأ تَغيّر النَّمط التقليدي في الحياة أثناء الانتداب بشكل أسرع في المدن وأبطأ أو بشكل جزئي في القرى. وظَّفَتْ حكومةُ الانتداب عدداً مهماً من النّخبة المدنية المُتَعَلِّمة، ووَصَلَتْ أعدادٌ متزايدة من المستوطِنين اليهود وعَمِلَ بعض القرويين الفلسطينيين عندهم. ولكن بشكل عام كان لدى الفلسطينيين تَعَاملٌ يوميٌّ بسيط مع البريطانيين والصهاينة. وأصبَحَ مَنْ تَعامَلوا معهم مُتَخَوفين منهم أو عُدوانيين ضدهم. أيَّدَ بعضهم ثورة 1936-1939 ضد البريطانيين، وفي رَدِّ فِعلٍ على تلك الثورة تَعاوَنَ الجيشُ البريطاني والشرطةُ مع حوالي خمسة آلاف من ميليشيا المستوطِنين اليهود التي قاموا بتَسليحِها وقِيادَتِها وقاموا بِطَردِ زعماء المجتمع العربي إلى المَنفى أو السجن أو إلى القبر. منذ سنة 1936 تقريباً لم يوجَد زعماء وطنيين مُمَيَّزين بين الفلسطينيين ولم توجَد أمّة حقيقية.

رسَمَت المنظمة الصهيونية خطةً سنة 1937 اسمها السرّي "الخطة A" لإجبار الفلسطينيين على المُغادَرة. أمَرَ رئيسُ الوزراء ديفيد بن غوريون بتَعديلِها، وبعد تغييرات عديدة أصبح اسم البرنامج "الخطة C" ثم "الخطة D"[498].

وجَدَ الصحفي الإسرائيلي بيني موريس Benny Morris في سجلات دولة إسرائيل:

"أيَّدَت الخطة D غَزو واحتِلال أو تَدمير القرى والبلدات العربية. أمَرَتْ بأن القرى العربية يجب مُحاصَرتها وتَفتيشها للبَحثِ عن الأسلحة والمُقاتلين غير النظاميين، وفي حالة المقاومة يجب تَدمير القوات المسلحة في القرية وأن يُطْرَدَ السكان خارج الدولة... بعضُ القرى العُدوانية... يجب تَدميرها بالحَرق والهَدم وزَرع الألغام في أطلالِها"[499].

اختَرَقَ العُملاء القرى بشكلٍ مَنهَجي، وكان أغلب العُملاء من اليهود الذين نَشَؤوا في بلادٍ عربية أخرى وتم تَدريبهم على التَّجسس منذ سنة 1944 في مدرسةٍ في الشفية Shefeya. كانت مُهمَتُهم جَمْعُ لوائح "المَطلوبين" في كل قرية. استَخدَمت القواتُ اليهودية سنة 1948 هذه اللوائح في عمليات البحث والتدمير التي نَفَّذوها كلما احتَلّوا قرية... قُتِلَ الرجال الذين تم جَمعُهُم فوراً في أغلب الأحيان. كان مِعيار جَمعِهِم في تلك اللوائح هو انخِراطهم في الحركة الوطنية الفلسطينية... وحتى بعض الأمور الصغيرة مثل "عُرِفَ أنه سافَرَ إلى لبنان"[500].

أُعطِيَ كل قائدٍ يهودي (إذ لم يكن هنالك دولة إسرائيل آنذاك) لائحةً من القرى والأحياء التي يجب تدميرها وطرد سكانها. أُعطِيَ خريطةً وجدولٍ زمني وأمرٍ بتنفيذ العمليات. وجَدَ موريس في سجلات الحكومة ملاحظةً يبدو أنها كانت نموذجية: "كانت أوامر الكتيبة 22 (فرقة الكَرمل) لجنودها هي "قَتْلُ كل ذَكَرٍ بالِغٍ عربي يتم مصادفته"، والحَرْقُ بالقنابل المُحرِقَة "لكل هدف يمكن

حَرقُهُ"[501]. واكتَشَفَ المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه Ilan Pappe أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر قد وَجَدَتْ أيضاً أن مَصدَر المياه للمدينة العربية عكا قد لُوِّثَ بجراثيم التيفوئيد[502].

تتابَعَت الهجمات ولم يكن لدى الفلسطينيين زعماء لتَوجيههم ولا نظام مؤسسات مَدَنية. كانوا مُجَهَّزين للهزيمة. ثم حَدَثَ أشهر الأعمال الإرهابية في الحرب: مجزرة القرويين في دير ياسين التي خَلَقَتْ موجةً صادِمَةً في البلاد سَمَّاها المُجرِمون "عامل الوحشية". كتَبَ موريس أن دير ياسين "ربما كان تأثيرها أطول وأعمق من أي حَدَثٍ آخر للحرب في هروب القرويين العرب من فلسطين... بعد قتالٍ طويل قُتِلَتْ فيه عائلةٌ عربية تِلوَ أخرى". الجماعاتُ الإرهابية اليهودية الأرغون والليهي (التي تَصَرَّفَتْ كما يقول حسب الموافقة المُتَرَدِّدَة المُناسِبة لقائدِ الهاغانا في القدس) جَمَعَتْ كثيراً ممن بقي من القرويين وبينهم رجال ميليشيا ومَدَنيون غير مسلحين من كلا الجنسين وأطفال، وقَتَلوا عشرات مِنهم. بَلَغَ عدد القتلى الإجمالي حوالي 250 عربياً أغلبهم من المَدنيين غير المحارِبين، وكانت هنالك حالات من التَّشويه والاغتصاب"[503].

ذَكَرَ بابيه على لسان أحد الناجين الذي كان طفلاً عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة أنه يَتَذَكَّرُ أحداثَ ذلك اليوم: "أخذونا واحداً بعد الآخر وأطلَقوا النار على أحد الشيوخ وعندما بَكَتْ ابنته أطلَقوا النار عليها هي أيضاً. ثم نادوا على أخي محمد وقَتَلوه أمامنا، وعندها صَرَخَتْ أمي وانحَنَتْ عليه حامِلة أختي الصغيرة هدى بين ذراعيها وهي ترضعها ولكنهم أطلَقوا النار عليها أيضاً"[504].

أوقِفَ الطفل إلى جدارٍ مع أطفال عرب آخرين وأطلَقوا عليهم النار ولكنه نَجَا لكي يَروي قصة دير ياسين.

كانت الحكومة الإسرائيلية مُصِرَّةً على عدم عودة الفلسطينيين أبداً. ولتَنفيذ ما يُطلِقون عليه عادةً "خَلْقُ الوقائع على الأرض" فقد دَمَّروا 561 من السبعمئة قرية فيما أصبح إسرائيل، وأفرَغوا إحدى عشرة منطِقةً مَدَنِيّةً[505]. وصَفَ الجنرال موشيه ديان البرنامجَ بصراحة فيما بَعد لجماعة من الطلبة اليهود: "جئنا هنا إلى بلدٍ سَكَنَ فيها العربُ ونحن نَبنِي هنا دولة عَبرانية يهودية، وبدلاً من القرى العربية أُسِّسَتْ قرى يهودية... لا توجَد مُستوطَنةٌ يهودية واحدة لم تُؤسَّسْ مكانَ قريةٍ عربية سابقة"[506].

كان اسحق شامير حينها رئيس المنظمة الإرهابية: الليهي Lehi وأصبَحَ فيما بعد رئيس وزراء إسرائيل. وكان قد أمَرَ باغتيال كبير ممثلي بريطانيا في الشرق الأوسط في غَمرة الحرب العالمية الثانية سنة 1942، كما أمَرَ باغتيال المُمَثِّل الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة الكونت فولك برنادوت Folke Bernadotte سنة 1948 [507]. ولَعِبَ دوراً أساسياً في تنفيذ الخطة D.

خَلَّفَت الخطة D إرثاً من الكراهية يشبه ما شَعَرَ به الذين أسسوا إسرائيل تجاه الألمان، غير أنهم لم يُدرِكوا أبداً أنها مشاعرَ العرب أيضاً. وما كتَبَه شامير في مذكَّراته عن المَحرقة اليهودية

بكلماتٍ ربما تجد صَدَىً لها عند كثير من ضحايا المَحرقة العربية: "لا أستطيع أن أنسَى، ولن أنسَى". لا بد أن تدمير قرية ليديك Lidice على يد النازيين انتقاماً من اغتيال القائد في منظمة SS راينهارد هيدريتش Reinhard Heydrich كان في ذاكرة شامير. وكذلك ذكريات الأحداث العنيفة المُحزِنة التي قاسى منها اليهود والفلسطينيين لا بد أنها كانت فاعلةً في تَشَكُّلِ قوميتهم، وتَتَضَمَّنُ هذه الذكريات التَّعذيب والموت والدمار وكذلك التَّهجير والطَّرد. أصبح الفلسطينيون أشخاصاً نازحين مثلما كان اللاجئون الأوروبيون الذين عاش شامير بينهم.

عندما تَعَثَّرَ اللاجئون الفلسطينيون وأطفالهم على ظهورهم وهم يَحمِلون القليل من المَتاع الذي استطاعوا حَملَهُ من منازلهم، وسَاروا في لبنان وسورية والأردن وغزة (التي كانت تحت الإدارة المصرية)، تم استقبالهم في البداية بكثير من العَطف. إلا أن العَطف سرعان ما تَحَوَّلَ إلى العُدوانية. ذَكَّرَ مجرد وجود الفلسطينيين الحكوماتِ والشعوب في الدول العربية الأخرى بأنهم فَشِلوا فيما صَرَّحوا به عَلانيةً ومِراراً عن نِيَّتِهِم حماية فلسطين. أصبَحَ كل لاجئ بالنسبة لكل شخص يقابِلُهُ مثل أصبع اتّهام تُوَجّهُ إليه اللّوم والعَار. وعندما التَقَطوا أنفاسَهم بالَغَ الفلسطينيون في انتقاداتهم للعرب الآخرين. وبينما نَظَرَ الغرباءُ إلى الفلسطينيين ومُستَقبِلِيهِم "كعرب" مُتماثِلِين، كانوا يَرَونَ أنفسَهم مختلفين إلى: مسلمين ومسيحيين، سنّة وشيعة، كاثوليكيك أو أرثوذوكس أو بروتستانت، سكانَ هذه القرية أو تلك، أو لبنانيين وسوريين. فهذه هي الاصطلاحات التي عَرفوا بها أنفسهم تقليدياً وكانوا غرباء عن بعضهم بعضاً.

وبِجِدَّةٍ أكثر، كما يَميلُ إليه الناس عادةً، فقد سَعى العربُ الآخرون إلى تَبرير موقفهم بِلَومِ الآخرين، وغالباً ما وجَّهوا اللومَ إلى الضحايا. اتَّهموا الفلسطينيين في أحاديثهم ومقالاتهم بالفساد بسبب بَيعهم أراضيهم أو بسبب جُبْنِهِم وعدم القتال من أجلها، حتى عندما حاوَلوا أن يكونوا مضيافين فقد فوجئوا بأن الفلسطينيين كثيرون[508]. هذا شعورٌ معتاد نحو اللاجئين ظَهَرَ لدى الأوروبيين نحو النازحين اليهود في أوروبا سنة 1945، ونحو اللاجئين السوريين وغيرهم في 2015-2016. اللاجئون غير محبوبين في أغلب الأحيان، ويُتَّهَمون بأنهم يَنشرون المَرض (وربما يفعلون ذلك لأنه ليس لديهم حماية ضد الطقس غالباً)، ويَسرقون (ولا شك بأن بعضهم يَفعل ذلك بسبب الجوع)، ويَأخذون الأعمال من السكان المَحَليين (وهو أمر يريدون فِعله بسبب يأسهم وحاجتهم). لم يَعرف أحدٌ آنذاك ما يَفعله مع اللاجئين الفلسطينيين، كما هو الحال إذ لا يَعرف أحدٌ ما يجب فعله مع اللاجئين السوريين.

ظَلَّتْ مشكلة اللاجئين الفلسطين دون حَلٍّ أكثر من نصف قرن[509]. نشأ جيلان أو ثلاثة أجيال من الفلسطينيين في مخيمات الأمم المتحدة لِلّاجئين دون أن يَعرفوا معنى الحياة "الطبيعية".

توجد هنا إشارةٌ توراتية مفيدة مثلما هو الحال في كثير من الأمور في "المشكلة الفلسطينية"، فعندما قاد موسى جماعته من اللاجئين خارج مصر كانوا مجموعة من الرّعاع اليائسين "غرباء في أرض غريبة". أبقاهم موسى في صحراء التّيه أربعين سنة، فترة جيلين، لكي يُطَهّرهم من حياة الخَدَمِ والعبودية. صحراء الفلسطينيين كانت المخيمات. كانت الحياة فيها عقيمة

ومصادر البهجة نادرةً وحتى ذكريات الأيام الخالية قد بَهِتَتْ. جميع الظواهر المحيطة بهم كانت غريبة ومُتَدَنِّيَة. أدَّت البطالة والفراغ بالكبار إلى التَّعفن والجفاف وخَنَقَت الشباب. ثم ظَهَرَ رَدُّ الفعل وأصبَحَت المخيمات المَراجل التي كان يَنضج فيها ببطءٍ شعبٌ جديد.

سُخِّنَتْ هذه المَراجل بمزيج من الذكريات المُضَخَّمة والآمال غير الواقعية. كان لدى الشعب كثيراً من الوقت للتفكير في النكبة إذ يكن لديهم عمل آخر، بل ولم يُسمح لهم بأي عمل. بدأ الغضب يَحِلُّ مَحَلَّ الضَّياع، وشَكَّلَ الغرباء السابقون "قرى" جديدة في المخيمات وظَهَرَ زعماء جُدد. لم يكن هنالك شعور بالوطنية بَعد، إلا أن تجربتين دفَعَتَا اللاجئين التائهين نحو شعور الوطنية.

كانت الأولى هي المشاركة. لم يَعرف اللاجئون كثيراً عن الماضي فقد قرأ الصحف قليل منهم أو احتَفَظَ بمذكرات أو ملاحظات، إلا أن كل فردٍ كان يَعرف ما حَدَثَ له. وعندما كان الناس يَجلسون مع بعضهم بعضاً ويَتبادلون الذكريات بَدؤوا يُدركون أنهم يَشتركون معاً في النكبة. ومثلما كان الوضع بين النازحين اليهود في أوروبا فإن هذه المشاركة في التجربة بَلوَرَت الشعور بالوحدة والوطنية. تَراكَمَت التجارب الفردية في سياقٍ جماعي مشترك، وكان الأمر نُزوحاً ورَحيلاً بالنسبة لكلا الشعبين.

التجربة المشتركة الثانية كانت رَدَّ فَعلِهم تجاه المَحرقة: الإرهاب. أصَرَّ اليهود على أن يُصبحوا أقوياء. في زيارتي إلى فلسطين قبل حرب سنة 1948 كنت أسمَعُ مراراً تعليقات لاذعة عن ضَعف يهود أوروبا الذين ساروا نحو معسكرات الموت. كانوا مُصِرِّين على ألا يُظهِروا علامات الضَّعف مرةً أخرى أبداً. كل مَن قابلتُهم وجميع مَن سمعتُهم كانوا موافقين مع زعمائهم أمثال بن غوريون وشامير وديان وغولدا مائير على ضرورة وجود "الصهيونية القوية". أدَّتْ هذه المشاعر إلى ظهور جماعات (إرهابية) مثل البالماخ والأرغون والليهي، وكانت أساس الخطة D، وسبب عنف العمليات الإرهابية ضد البريطانيين أولاً ثم ضد الفلسطينيين. قُتِلَ في هذه الهجمات آلاف من الرجال والنساء والأطفال وفُجِّرَتْ بيوتهم أو أُحرِقتْ ودُمِّرَتْ طريقتهم في الحياة.

هذه الهجماتُ وما تَلاها من تَطهير عِرقي هي حقائق أنكرها الشمال العالمي طويلاً إلا أن الجنوبيين يَعرفونها جيداً[510]. وقد شَكَّلَتْ أنماطَ السلوك التي حاوَل العرب التصرف وِفْقَهَا. سأبحثُ هنا عدداً قليلاً من مئات الأحداث التي كانت موضوعَ الأحاديث كل يوم وكل شهر وكل سنة بين الفلسطينيين، إلا أنها لا تُناقَشُ كثيراً ويتم انكارها على الرغم من أنها مهمة جداً في تشكيل ما جَرى بعدَها.

خلال حرب 1948-1949 في المَوجة الثانية من الهجمات التي "كانت تهدف بشكل رئيسي لكسر معنويات العرب"، وفي 22 أبريل 1948 أطلَقَت الهاغانا قذائف الهاون على ساحة السوق في حيفا حيث تَجَمَّعَ "جمهور كبير". سَجَّلَ ضباطٌ من الجيش البريطاني أنه "في الصباح كانت الهاغانا تطلِق النار باستمرار على كل عربي يتحرك... شَمَلَتْ إطلاق نار المدفع الرشاش بشكل عشوائي تام ومُقَزِّز واستهداف النساء والأطفال الذين كانوا يُحاوِلون الخروج من حيفا... كان

هنالك ازدحامٌ كبير خارج البوابة الشرقية للميناء من النساء العربيات والأطفال الخائفين والشيوخ الذين أطلَقَ اليهودُ النار عليهم بلا رحمة"511.

اعتقاداً منها أن الخطة D لم تكن قاسية وتَرهيبية بما فيه الكفاية، قَرَّرَت السلطاتُ الإسرائيلية تَدمير قرى فلسطينية حتى لو لم تُقاوِم الزحف الإسرائيلي. ذَكَرَ اسحق بنداك Yitzhak Pundak، الذي أصبَحَ فيما بعد جنرالاً وقائداً عاماً لسلاح المدرعات الإسرائيلي، للصحيفة الإسرائيلية هاآرتز في 2004 بعد الهجوم بخمس وستين سنة "كانت هناك مئتي قرية (في منطقته) وتَمَّتْ إزالتها تماماً. كان يجب أن نُدَمِّرَها وإلا بَقي لدينا عربٌ فيها... كان سيَتَبَقَّى لدينا مليون فلسطيني آخر"512. ذكرياتُ قصصِ أحداثٍ مماثلة كانت تُستعاد وتُناقش وتُقارَن في أحاديث المخيمات. شَكَّلَتْ برنامج تعليم الكبار وتم تَمريرها إلى الصغار الذين كانوا يُصغون باهتمام وحَمية وحَماس.

الأعمال التي طُلِبَ تَنفيذها في الخطة D لاقَتْ صدىً لها في أحداثٍ بعد نزوح الفلسطينيين عما أصبح إسرائيل. بَدأتْ إحدى فئات هذه الأحداث في مارس 1949 حين تَوصَّلتْ حكومتا إسرائيل والأردن إلى اتفاقيةٍ حَتَّمَتْ على الأردنيين، التي أصبحت بعض القرى الفلسطينية جزءاً منها، الانسحاب ثلاثة كيلومترات على طول خط الهدنة. ظَلَّت القرى في الأردن إلا أن أراضيها الزراعية أصبَحتْ في إسرائيل. كانت تلك ضربة اقتصادية قوية على القرويين وحَرَمَتْهم فعلياً من أكثر مصادر دَخلهم وغذائهم وأثارَتْ غضبهم رؤيةُ المستوطنين الإسرائيليين وهم يَحصدون المحاصيل التي زَرعوها بأنفسهم. بدأ الفلاحون النازحون بالتسلل ليلاً عبر الحدود للحصول على بعض ما تَركوه أو لجَني زيتونهم. وعندما فَعلوا ذلك أخَذَ الإسرائيليون يُدافعون عن أراضيهم الجديدة التي استَحوَذوا عليها.

وكما صَرَّحَ عضو الكنيست الإسرائيلي لاحِقاً أنه لم يكن المستوطِنون وحدَهم الذين قاموا بتلك المَذبحة بل إنّ قائد الجيش في تلك المنطقة (الذي كان لقبه غاندي):

"شارَكَ بكثير من المطاردات والقَنص... كانت تلك المطاردات نوعاً من الرياضة إذ كان العرب من الضفة الغربية الذين هَربوا عبر نهر الأردن خلال الحرب يُحاوِلون العودة إلى بيوتهم في الليل. وَقَعَ كثير منهم في كمائن الجيش، ولم يكن من المفروض على قائد الجبهة أن يَتواجَد هناك، ولكن غاندي استَمتَع بذلك كثيراً فلم يَبتعد عنها، بل كان يَدعو رفاقه المَدنيين من المُمثلين وكتَّاب الأغاني وغيرهم من البوهيميين لمُرافقته في طائرة الهليكوبتر. كل من قُبِضَ عليهم تم قَتْلُهُم فوراً"513.

شكلت الأمم المتحدة في أبريل 1949 لجانَ هدنة مشتركة للتحقيق في هذه الحوادث لأنها أدركَتْ أن مثل هذه الاشتباكات قد تلغي الهدنة. تألَّفتْ كل لجنة من ثلاثة أشخاص: ممثلٌ رسمي عن إسرائيل وضابطٌ من إحدى الدول العربية ورئيسٌ من مسؤولي الأمم المتحدة، وكان في الغالب ضابطٌ أمريكي. بما أن استنتاجات الإسرائيليين والعرب كانت مُسبَقَة فقد كان القرار بيد رئيس

اللجنة. من وجهة نظر الفلسطينيين كل ذلك لم يكن له قيمة، إذ لم يُكَوِّنوا حُكومة ولم يَكن لهم دولة، ولم يوجَد مَن يُمثلهم في اللجان وربما لم يَعرفوا عن أعمالها أصلاً. كانوا مجرد فلاحين آمَنوا بأنهم كانوا يَمتلكون أرضاً اغتَصَبها الإسرائيليون. تَستطيع اللجان توثيق الأحداث التي كانت بالآلاف، ولكنها لم تَستطع وَقفَها.

تصاعَدت الأحداث التي بدأتْ بطريقة فَردية ومَحَلية، وبَدَأ كلٌّ مِنَ الطرفين باستِخدام السلاح، وقُتِلَ إسرائيليون وفلسطينيون وطالَبَ كل منهم بالثأر. تلك كانت المَرحلة الأولى في سلسلةٍ تَطَوَّرَتْ على مَرِّ نصف قَرن.

في تلك السنوات ومع تصاعد الاشتباكات، ما بَدَأ بدافعٍ فَردي امتَدَّ إلى حكومات عربية. بدأ السوريون والمصريون بشكل خاص بتزويد جماعات الأنصار بالسلاح والتوجيه لمهاجمة أهداف إسرائيلية. ولأول مرة بدأ الفلسطينيون بتَنظيم أنفسِهم. كانت أول حركة مقاومة محاولةٌ لخلق نوعٍ جديد من الأمّة تحت اسم "فتح"[514].

نشأةُ فتح كانت عفويةً مثل جميع حركات المقاومة، فقد بدأتْ بجماعةِ حوارٍ صغيرة مثل جميع الحركات الأخرى التي وصفتُها. استَلَمَ القيادة مهندس فلسطيني اسمه ياسر عرفات في غزة سنة 1954. استَلهَمَ حركةَ الإخوان المسلمين المصرية، غير أنه ورفاقه حسب عِلمِي كان لديهم وجهَتا نَظَرٍ رئيسيتين: أن إسرائيل هي العَدو، وأن الحكومات العربية لا تُريد أو لا تَستطيع تحرير فلسطين. كَرَّسَ نفسه لمهمةِ تأسيس منظمة وتَجنيد أعضاء وجَمع تبرعات والحصول على السلاح. مع خسارة فلسطين ومعارضة الأردن ومصر لمبادرته[515]، اتَّصَلَ بجماعاتٍ في كافة أرجاء العالَم حتى بالطلاب العرب في أوروبا وأمريكا في محاولةٍ لتَجنيد أعضاء إلى منظمته. أُسِّسَتْ خلايا في الكويت وبين الطلاب العرب في ألمانيا الغربية وبدأ التدريب في الجزائر.

اعتَقَدَ آخرون أن ما كان عرفات يُحاوِل أن يفعله هو عمل تخريبي وشَعروا بالخطر، ليس فقط في حكومات الدول العربية، بل من جهة المُمَثلين المُوافقين عن فلسطين في منظمة التحرير الفلسطينية التي أسَّستها الدول العربية سنة 1964. اعتَبَر الفلسطينيون منظمةَ التحرير مُزَيَّفةً وكانت اختلاساتُ المسؤولين فيها معلومات عامة. كتَبَ المراقِب الفرنسي جيرار شالياند Gerard Chaliand أن المنظمة "كانت تُعتَبَر طريقةً للسيطرة على المشكلة الفلسطينية"[516]. أُعطِيت المنظمةُ لدبلوماسي تقليدي مُخَضرَم لكي يُقَدِّمَ خطابات لا مَعنى لها تَعَلَّمَ الفلسطينيون احتِقَارَها. لم تَفعَل منظمةُ التحرير شيئاً تحت قيادته في السنوات التالية فيما عدا كونها بديلاً لفتح.

تَغَيَّرَ مصيرُ فتح بعد حرب 1967 التي تَحَطَّمتْ فيها الجيوش التقليدية للدول العربية[517]. قَرَّرَ زعماءُ فتح أن حرب العصابات هي خيارهم الوحيد المُتَبَقّي. لم يكن لديهم أمّة فاعلة ولكنهم آمَنوا بأن الكفاح سيَخلقها بنفسه. صَرَّحوا أن الاجتماعات مع الحكومات والوعود البَليغة وإصلاح المنظمات القائمة كانت زَبَدَاً غَثَّاً، وأن الكفاح المسلح هو الحل، وأنه "الطريق إلى الوحدة العربية"[518]. أي أنَّ القومية العربية الشاملة ليست سببَ الوحدة بل نتيجةً لِتَحَقُّقِهَا الفِعلي من خلال

الكفاح المسلح. فَكَّرَ الفلسطينيون أن الكفاح المسلح سيَصنع معركةً ستكون حسب الشعارات المُتَكَرِّرة "مصيرية وحاسمة ومُروِّعة وطاحِنة"، وأنها ستكون المِرحَل الذي ستَذوب فيه كل مُلَوِثاتُ المجتمعات العربية.

كانت ملوثاتُ المجتمعات العربية واضحةً وتم نقاشها بشكل واسع، وكانت التَّجزئة على رأس القائمة، يَتبعها الفساد مباشرة. جمال عبد الناصر الذي كان يَعتَبر الفسادَ مثيراً للغضب بشكل خاص بَدَأ رئاسَته بمحاربته في الداخل، ولكنه اكتَشَفَ أنه مُنتَشِر بين الزعماء العرب كذلك كما أخْبَرَ خُلَصَاءَهُ في اجتماعٍ سريٍّ للّجنة التّنفيذية العُليا في 12 نوفمبر 1968: "يبدو أن موشيه ديان قد قال سِراً أن المخابرات الإسرائيلية تَعرِفُ ثَمَنَ كل زعيم عربي في الحُكْم... ما عدا عبد الناصر الذي لم يَعرِفوا ثَمَنَهُ بعد"[519].

بعد هزيمتها النَّكراء في حرب 1967 وجَدَت الدول العربية دوراً لفتح كما قال ناصر لمجلس الوزراء المصري في 18 فبراير 1968 تَحتاج مصر إلى: "الحصول على وقت لإعادة بناء قواتها المسلحة"[520]. اعتَقَد ناصر وزعماء عرب غيره وكذلك الروس أن إسرائيل ستَضرب ثانية، وأنذَرَ الروسُ الرئيسَ المصري أنه لا يمتلك قوة كافية للدفاع عن وطنه. قال ناصر أيضاً أن لديه معلومات تُشير إلى محاولةٍ أمريكية سرّية كبيرة جيدة التَّمويل لإسقاط حكومته. رَحَّبَ بمبادرةِ سلامٍ أمريكية قَدَّمَها غنر يارينغ Gunner Jarring كما حاوَلَ استِخدام الفلسطينيين لصَرف انتباه إسرائيل. وبكلماته: "في هذه المرحلة يجب أن نَقوم أيضاً بعمليات مع الفدائيين في الأراضي المحتلة وقد اتفقتُ مع القائد العسكري لمنظمة فتح (عرفات) على المساعدة والتنسيق. لديَّ معلومات تُشير إلى أنَّ الإسرائيليين منزعجون جداً من عمليات الفدائيين في الأراضي المحتلة لأن حوالي خمسة عشر شخصاً يُقتَلون كل أسبوع وهذا يُؤلِم الإسرائيليين كثيراً"[521].

في سنة 1968 أصبَحَتْ خطوطُ وقف إطلاق النار خطوطَ قتالٍ مفتوح، وعلى طول قناة السويس كانت المدن المصرية تُدَمَّر والجنود الإسرائيليون يُقتَلون. أرادَ الإسرائيليون والمصريون إنهاء هذه الحالة. وفي أماكن أخرى، خاصة في الأردن، لم تُوقِف الهجماتُ الإسرائيلية العقابية الاشتباكات، ولكن الفلسطينيين أصبَحوا يُدرِكون أن وَخزات الفدائيين المُنفَردين أو جماعات المقاومة الصغيرة لم تُؤدِّ إلى تَقَدُّمِ قضيتهم[522]. بَدَت الوطنيةُ بعيدةً مثلما كانت.

كانت فتح واحدة بين أكثر من عَشر جماعات منفصِلة نَشَأتْ بين الفلسطينيين وادَّعَتْ كل منها أنها جيش التحرير الوطني. أصبَح التَّجنيد أسهل لأن حرب 1967 أضَافَتْ 350,000 لاجئاً فلسطينياً. في سنة 1968 سُجِّلَ منهم 1,375,915 في منظمة الأنروا. جيلٌ جديد من "اللاجئين الطاهرين" قد نَضَج. ثم جاءَ حَدَثٌ مَثير: في مارس 1968 خاضَتْ فتح بمساعدةٍ أردنية خجولة أول معركة كبيرة مع القوات الإسرائيلية في قرية الكَرامة. كان نجاحاً وَجيزاً للفلسطينيين ولكنه مَكَّنَ عرفات من السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية وضَمَّها إلى فتح لتُصبح نوعاً من الأمّة المُسَلَّحَة المُتَنَقِّلَة كفلسطين الجديدة.

استَلهَمَتْ فتح من الحرب الجزائرية التي تَمَكَّنَ فيها السكان المَحَليون من طَرد المستوطِنين الأوروبيين. ولذا اعتُبِرَت التكتيكات التي استُخدِمت في الجزائر مفتاحاً للنصر. نَبَّهَ القادةُ الفلسطينيون أتباعهم والمُراقبين الأجانب أنَّ أقل من 13,000 جزائري مسلح هَزَمُوا 485,000 جندي فرنسي سَلَّحَتْهُم الولاياتُ المتحدة ودَعَمَهُم مليون مستوطِن. كانت القصة على لسان كل فلسطيني. عندما زرتُ عمّان سنة 1970 كان جميع الفلسطينيين الذين قابلتُهم يَرتدون ملابس جزائرية ويَقتبسون عن قادة جزائريين ويَقرؤون النشرات الصحفية الجزائرية. كانت الجزائر بالنسبة للفلسطينيين نموذجاً للبناء.

وبالفعل، كان النموذج يُسببُ التَّعمية، فقد أخطأ قادةُ فتح والمنظمات الفلسطينية الأخرى كلياً في قراءة الحرب الجزائرية. فبينما في الجزائر ظَلَّ السكانُ المَحَليون العرب والبربر في أرضِهم، لم يكن في إسرائيل أي فلسطيني مسلح. وثانياً، أصبَحَت الحكومةُ الفرنسية ببطء إنما بشكل مؤكَّد أكثر حساسية للانتقادات الدولية المُتزايدة بسبب استِخدامِها التَّعذيب وتَطبيقها نظامَ فصلٍ عنصري في الجزائر، ولم تُؤثِّر مثل هذه التغيرات في الرأي على الإسرائيليين. لم يَستطع الزعماءُ الأوروبيون السياسيون معارَضَة الأعمال الصهيونية مهما كان شَكلها وذلك بسبب المَحرقة، بينما لم يكن هنالك مَحرقة لتَغطية المستوطِنين في الجزائر، ليس فقط لأنهم لم يُعَانوا تحت الحكم النازي، بل إنهم انتَعَشوا بالتعاون مع حكومة فيشي. وثالثاً، تَصَوُّرُ أن الجيشَ الجزائري قد هَزَمَ فرنسا كان أيضاً قراءة خاطئة للأحداث. لم يكن الجيشُ الجزائري هو الذي هَزَمَ الفرنسيين، إذ أن ذلك الجيش كان مُتَمركِزاً بأمان في المغرب (تونس؟) ولم يُقاتِل في معركة واحدة. قامَتْ بكل القتال جماعاتٌ صغيرة من العصابات والإرهابيين داخل البلاد، وذلك أمرٌ لم يتمكن الفلسطينيون من القيام به أبداً.

الأب الحقيقي لاستقلال الجزائر هو الرئيس الفرنسي شارل ديغول الذي أخرَجَ الفرنسيين والمستوطِنين من الجزائر، ولم يَتَوَفَّر مثل شارل ديغول للفلسطينيين. لم يَنطبق النموذج الجزائري عليهم.

في سنة 1970 لم يكن الفلسطينيون مُستَعِدِّين لسَماع هذه الرسالة، ولكنهم أَصغوا لرسالةٍ أخرى من الحرب هناك: كان لدى الجزائريين أرضٌ يَقِفونَ عليها. أدرَكَ الفلسطينيون المُهَجَّرون أنهم يَحتاجون إلى أرض وقاعدة.

كانت الأرض موجودة، عَرِفَها الصهاينةُ الأوائل الذين أصَرُّوا على أن الأرض في شرق نهر الأردن هي في الحقيقة فلسطين وأنَّ البريطانيين فَصَلوها خَطَأً. تَبَنَّت القيادة الفلسطينية هذا المَوقف. شَكَّلَ اللاجئون الفلسطينيون جزءاً كبيراً مما أصبَحَ يُسمى: الأردن. بدأتْ منظمةُ التحرير والمنظمات الفلسطينية المسلحة الأخرى بإدراك أن الأردن ربما تَمنَحُهُم ما كانوا يَحتاجون إليه: الأرض[523]. كانت الفكرة في خطوطها العريضة تُشبه ما فَكَّرَ فيه الصهاينة عن فلسطين: "أرضٌ بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرض". نَظَرَت الحكومة الأردنية إلى المُقيمين الفلسطينيين كمواطنين، بينما اعتَبَرَت منظمةُ التحرير أن الأردن فلسطينية، جزئياً على الأقل.

ولذلك حاوَلَتْ منظمةُ التحرير سنة 1970 تَطبيق هذا التَّغيير. حاوَلتْ إحدى المجموعات المسلحة اغتيال الملك حسين في يونيو، وبَدَأت العاصمة عمّان تَظهَر كأنها معسكر حربي. قَبِلَ الملكُ

حسين طلبات منظمة التحرير أمام دهشة أغلب المُراقبين، وظَنَّ زعماؤهم أنهم قد سَيطَروا على الأردن ولكنهم تَمادوا كثيراً وأخَذَ رجال العصابات الفلسطينية، وأغلبهم لم يَقُمْ بأية عملية فدائية، يَمشون في الشوارع وهم يَرتدون ملابسَ رسمية جَديدة زاهية على نَمط الجيش الجزائري أمام بَدو الجيش الأردني المُكفَهِّرين في ثيابهم الرمادية. كان التَّباين بينهم أكبر من أن يَحتمله أي منهم: بالنسبة للفلسطينيين، كان البَدو دعائم عسكرية لنظامٍ رَجعي مَتَّهَم بالتَّعامل مع إسرائيل، وبالنسبة للبدو، كان "جنود" فتح مُجَرَّد أولاد مدينة مُترَفين يَلعَبون لعبة العَسكر.

لم تكن منظمة التحرير سبب اندلاع القتال المُحَتَّم بل كانت إحدى مُكوناتِها شبه المستقلة: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي احتَلَّتْ فندقين من فنادق عمّان وأخَذَت النزلاء رهائن، ثم خطَفَتْ ودَمَّرتْ أربع طائرات مَدَنية[524]. كان الهدف هو لفتُ أنظار وسائل الإعلام العالمية. كان ذلك هو الهدف الجزائري الرئيسي في معركة الجزائر. كان أملُ الفئتين مثل كثير من الآخرين قبلهما وبَعدهما هو أنَّ "صرخة اليقظة" هذه كما وَصَفَها أحدُهم يمكن أن تُجبِرَ قوى خارجية على الاهتمام بمطالِبهم. وهكذا وَجَدَتْ حركةُ الفدائيين نفسها في الأيام الأولى من سبتمبر 1970 في مَوقِفِ توازن حَرِجٍ فيما حَسِبَتْهُ قمة النجاح.

سرعان ما سقَطَتْ عن الحَافَّة. بدأ ما يُسميه الفلسطينيون "أيلول الأسود" في 15 سبتمبر عندما أمَرَ الملكُ حسين رئيس جيشَه بفرض سلطة الدولة. قَفَزَ الجيش البدوي إلى هذه الفرصة، وعلى مر عشرة أيام قصف المدينة القديمة في عمّان حيث عاش كثير من الفلسطينيين، واجتاح مخيمات اللاجئين، وقَتَلَ حوالي عشرة آلاف شخص. فَقَدَتْ منظمة التحرير "أرضها". تحت إشراف الرئيس ناصر وَقَّعَ رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وَقفَ إطلاق النار مع المَلك حسين.

انتَقَمَتْ فتح ومنظمات أخرى بقدر ما استَطاعَتْ مَدفوعَةً بمشاعر الإهانة والخوف والغضب. اغتَالوا رئيس وزراء الأردن وقَتَلوا أحد عشر عضواً من الفريق الأولمبي الإسرائيلي في ميونيخ، بينما قامَتْ جماعةٌ يابانية لدعمهم بالهجوم على مطار اللّد في إسرائيل. أُخرِجَتْ فتح من الأردن ونَقَلَتْ مراكزها إلى المَلجأ الوحيد الآخر الذي تَمَكَّنَتْ مِن الوصول إليه في لبنان حيث كان بانتظارها حوالي ثلاثمئة ألف مهاجر فلسطيني بخوف وذُعر وارتياب. كان لديهم سبب للقلق، فوراء منظمة التحرير سرعان ما سيأتي الجيش الإسرائيلي. وذلك ما حَدَثَ.

في هذه الأثناء راقَبَ السوريون أحداثَ لبنان بقَلَقٍ خاص، فقد كانت لبنان مَخرَجهم الرئيسي إلى البحر المتوسط، ومن الناحية الاقتصادية، كانت حيويةً بالنسبة إلى سورية، كما كانت لا تقل أهمية من الناحية السياسية والنفسية. آمَنَ كل حاكم سوري منذ نهاية الحرب العالمية الأولى أن لبنان كان جزءاً قانونياً من سورية بغضّ النّظر عما قرَّره الأمبرياليون الفرنسيون والبريطانيون. كما خافوا أن تُستخدَم لبنان مرة ثانية قاعدةً لغزو سورية مثلما حَدَثَ سنة 1919. إذا لم تَنضَم لبنان إلى سورية فقد كان رئيس سورية حافظ الأسد مُصِرَّاً على أن تكون مُستقرة على الأقل.

بالنسبة إلى الأسد كان الفلسطينيون عاملاً مُخِلّاً بالتوازن مهما كانت قَضيتهم، ففي الرَّدِ عليهم كانت طوائفُ الأقليات في لبنان تُشَكِّلُ ميليشيات وتُسبب اضطرابات مستمرة تقسم البلاد. كان الأسد قلقاً أيضاً من رَدِّ فِعل الإسرائيليين على نشاطات الفلسطينيين ضد الإسرائيليين الذين كان

يَكرههم ويَخافهم. كان لدى الفلسطينيين القدرة على استِفزاز حربٍ مع إسرائيل قد تؤدي إلى إحداث ضَررٍ اقتصادي كبير في سورية وربما إلى احتِلالها. وكان يَعرِفُ أن جيشَه لا يَستطيع هزيمة الإسرائيليين وكان متأكداً من أن الفلسطينيين لا يَستطيعون ذلك أيضاً. ولذا فقد وضَعَ سياسةً تَتجنّب الأمّة الفلسطينية والهَيئة التي تَحكمها بشكل ما، منظمة التحرير، وحاوَلَ تهدئة الأطراف اللبنانية المسلحة. وبطَلَبٍ من الرئيس اللبناني احتلَّ جيشُ الأسد أكثر مناطق شمال لبنان سنة 1976.

سُمِحَ لمنظمة التحرير بإدارة والمحافظة على وجودٍ مسلح في مخيمات اللاجئين الضخمة التي أصبَحتْ في الواقع مُدُنَاً، وفي عام 1976 بَلَغَ عدد الفلسطينيين حوالي 15% من سكان لبنان ويبدو أنهم كانوا يَستعدون للسيطرة على البلد.

لم يكن الإسرائيليون ولا السوريون مستعدين للسَّماح بذلك. كان الفلسطينيون يّشنّونَ هجماتٍ فدائية على إسرائيل من المناطق اللبنانية ورَدَّ الإسرائيليون مِراراً عليها. لم تُوقِفْ عملياتهم الفلسطينيين فحاوَلوا طريقة أخرى: وجَدوا ضابطاً مُنشَقَّاً عن الجيش اللبناني وزَوَّدُوهُ بالسلاح والمال لتشكيل مقاطَعة مستقلة على طول الحدود الإسرائيلية-اللبنانية تَمنَع العمليات الفدائية الفلسطينية. لم تَنجَح هذه الطريقة تماماً، وفي أوائل مارس 1978 قامَتْ مجموعةٌ من الفدائيين الفلسطينيين بعمليةٍ في إسرائيل قُتِلَ فيها عددٌ من الإسرائيليين. وفي 15 مارس دَخَلَ الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان (سأناقِشُ نتائجَ هذا الغَزو في الفصل الخامس والثلاثين).

تَلَتْ ذلك أحداثٌ محزِنة وغير حاسمة كاد واحدٌ منها سنة 1981 أن يؤدي إلى حربٍ بين الإسرائيليين والسوريين. وَضَعَ وزير الدفاع أرييل شارون في تلك الفترة سياسةً للقَضاء التام على منظمة التحرير. كتَبَ محافظ القدس السابق ميرون بنفنيستي Meron Benvenisti عن خطة شارون "الهدفُ الحقيقي... كان تَدمير المَركَز السياسي والفكري القوي للوطنية الفلسطينية الذي تَطَوَّرَ على مر السنين في بيروت"[525]. تم نَشر النَّص الكامل لما يُسمى خطة شارون بعد ذلك بقليل في القدس وواشنطن[526].

تَصَوَّرَتْ خطة شارون التَّخَلص من قيادة منظمة التحرير وتَحطيم معنويات الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية والأردن وسورية ولبنان حسبما ذَكَرَ شارون لمجلة التايمز في 21 يونيو 1982. كما تَسعى "التَشجيع" الفلسطينيين في الضفة الغربية على مُغادرة مَنازلهم والهجرة إلى الأردن التي وَصَفَها شارون بأنها "الدولة الفلسطينية". قال شارون لوكيل وزارة الخارجية الأمريكية السابق جورج بول George Ball أن استراتيجيته هي "عَصْرُ" الفلسطينيين خارج الضفة الغربية كما صَرَّحَ في شهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية لمجلس النّواب في أغسطس. هذه العملية ستَجعَل الضفة الغربية مُتاحَةً للمستوطنين الإسرائيليين وستَقذِفُ بالأردن إلى الفوضى، مما سيُتيحُ لإسرائيل فرصةَ تَنصِيب حكومةٍ تُوَقِّعُ اتفاقيةَ سلام. ولن يَتبَقى من "دول المواجَهَة" إلا سورية التي سيَكون عليها العَمل بما تريدُهُ إسرائيل وإلا تم تَدميرها. أما السعودية الضعيفة المُتَخَلِّفَة فسيكون عليها أن تَتأقلم وتُصبح إسرائيل القوة العظمى في الشرق الأوسط. في النتيجة، بما أن شارون كان مُوَكَّلاً مِن الحكومة الإسرائيلية بالتَّعامل مع أهدافها الأمنية المُلِحَّة والبَعيدة المَدى، فقد

كانت خطته بالنسبة للحكومة الإسرائيلية مثل استراتيجية الأمن القومي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية: إرشادات العمل في الوقت الحالي والمستقبل[527].

تتضمن خطة شارون الحاجة إلى طَرد "الشعب" الفلسطيني خارج الشرق الأوسط، ولو تم تَطبيقها لن تجد منظمة التحرير أي "موطن" لها في المنطقة تَستطيع العودة إليه بالمَعنى الذي أشار إليه الصهاينة الأوائل في كلمة: "الوطن البيت heimstatt". عليهم أن يَتقبلوا الاندِماج وهو المَصير الذي أنذَرَ به القاضي الأمريكي براندِيز Brandeis الصهاينة الأوائل بأنه سيُنْهِي أمَّتَهُم.

في السادس من يونيو بعد ستة أشهر من إعلان خطة شارون هاجَمَ الجيشُ الإسرائيلي لبنان.

كان الاجتياحُ كبيراً بمقاييس الشرق الأوسط، اختَرَقَت الكتائبُ الإسرائيلية قوةَ حِفظِ السلام التي وضَعَتْها الأممُ المتحدة، وعندما قرَّرَ مجلس الأمن بالإجماع طلَبَ انسحاب إسرائيل، تجاهَلَتْ إسرائيلُ القرار. هَزَمَ الإسرائيليون الجيشَ السوري خارج بيروت بينما أسقَطَت الطائرات الإسرائيلية حوالي خمسين طائرة سورية.

صَوَّتَت الحكومةُ الأمريكية لصالح قرار مجلس الأمن الأول الذي طَلَبَ مِن إسرائيل التَّوقف، إلا أنها استَخدَمَتْ حقَّ النَّقض ضد قرارٍ مُتابَعَةٍ يَشجُبُ الهجوم. صَوَّتَت الجمعيةُ العامة بعد ذلك على قرارٍ بموافقة 127 ضد 2 فقط (عارَضَتْ إسرائيل والولايات المتحدة) يُطالِبُ بانسحاب إسرائيل ويَحضُّ على تطبيق عقوبات ضدها. "أدَانَ بشدة" زعماءُ الاتحاد الأوروبي الاجتياحَ الإسرائيلي. وتَظاهَرَ في إسرائيل ذاتها أكثر من خمسين ألف إسرائيلي ضد تَصَرُّفِ حكومتهم.

كان احتلالُ بيروت مَريراً. صَمدَ الفلسطينيون فيها أكثر من شهرين بينما كان الجيشُ الإسرائيلي والقوات الجوية يَقصفان المَدينة بالمَدفعية والصواريخ وقَطَعوا الماء والكهرباء. شَبَّهَ الفلسطينيون ومراقبون آخرون المعركةَ بحصارِ حَيِّ اليهود في مدينة وارسو. أصبَحَ عشرات الآلاف من الناس بلا مأوى أو جُرِحوا أو قُتِلوا. وكان الأسوأ قادماً.

انسَحَبَتْ منظمةُ التحرير قَبلَ أن يَحدث الأسوأ. تَلَقَّتْ ضَمانات من الحكومة الأمريكية بسلامة مقاتِليها وسَلامة سكان مخيمات اللاجئين. مثلما خَطَّطَ شارون ركِبَ المقاتلون سُفُناً إلى مَنفى جديد في تونس البعيدة، إلا أن اللاجئين الفلسطينيين ظَلُّوا في المخيمات. بعد ذلك بأسبوعين، قامَتْ ميليشيا مسيحية لبنانية (الكتائب) يدعمها الجيش والطيران الإسرائيلي تكتيكياً وهَجَمَتْ على مخيمات اللاجئين الضخمة في صبرا وشاتيلا في ضواحي بيروت وقَتَلَتْ آلافاً من الفلسطينيين الرجال والنساء والأطفال[528].

ملاحظة أخيرة يجب تسجيلها: لم يكن الجنودُ هدف شارون الوحيد، بل امتَدَّ إلى السّجلات الوطنية أو "مخزن الذاكرة" الفلسطينية. كتَبَ الصحفي الأمريكي توماس فريدمان:

"تَجاهَلَت القوات الإسرائيلية الوعدَ الشَّفهي الذي أعطَتْهُ للولايات المتحدة بعَدَمِ دخول بيروت الغربية بعد جَلاء منظمة التحرير، بل انتَشَرتْ عَبرَ الجزء الغربي من العاصمة في الساعات الأولى من 15 ديسمبر. رَكَّزَ جيشُ شارون بشكل خاص على هدفين: الأول كان مَركز أبحاث منظمة التحرير حيث لا تُوجَد أسلحةٌ ولا مقاتلين، ولكن من الواضح وجود شيءٍ أكثر خطورة وهو كُتُبٌ عن فلسطين وسجلات قديمة ووثائق مِلكية الأرض التي تَتبَعُ عائلاتٍ فلسطينية وصورٌ عن حياة العَرب في فلسطين وسجلات تاريخية عن المجتمع العربي في فلسطين، والأهمّ من كل ذلك هو الخرائط. خرائط فلسطين قَبلَ سنة 1948 وعليها كل قرية عربية قبل أن جاءتْ دولة إسرائيل إلى الوجود ومَحَتْ كثيراً منها. كان مَركز الأبحاث مثل سفينة نوح التي حَمَلَت التراث الفلسطيني وبعض مؤهلاتهم كأمَّة. وبِفَهمٍ خاصٍ فقد كان ذلك أكثر ما أراد شارون حَمْلَهُ إلى بيتِه من بيروت"[529].

كان الهدفُ الرئيسي للاجتياح إذاً هو تدمير فلسطين كأمَّة. بينما غادَرَ المقاتِلون إلى تونس كانت الوثائق تُشحَنُ إلى إسرائيل. كان المَفروض أن تُنسَى الأمَّةُ الفلسطينية[530]، إلا أنه من النادر في التاريخ الإنساني أن يُنسَى شعبٌ بأكمله. وكما رأينا فإن القضايا والأحداث تَعودُ لتُطارد أولئك الذين ظَنُّوا أنَّهم قد "رَبِحُوا".

حَطَّمَ الاجتياحُ الإسرائيلي الُّلحمَةَ الهَشَّةَ في لبنان وأطلَقَ قوى الفوضى مثلما فَعَلَ الاجتياحُ الأمريكي في العراق بعد ذلك بعشرين سنة. عَلَّقَ رئيسُ وزراء إسرائيل الجنرال اسحق رابين فيما بعد أن الانتفاضة الفلسطينية كانت جزءاً من المَسَار الذي حَرَّكَتْهُ إسرائيل باجتياح لبنان. واكتَسَبَتْ إسرائيل بالاجتياح عدواً جديداً: الطائفة الشيعية في لبنان بقيادة حزب الله الذي سأتَحَدَّثُ عنه الآن.

الفصل الخامس والثلاثون

حزب الله، أمَّةٌ بلا دولة

منذ فجر التاريخ، حَمَتْ جبالُ وهضاب ساحل شرق المتوسط لاجئين، وكان من بين أولئك النَّاجين الذين أصبَحوا سكاناً دائمين في المنطقة جماعاتٌ من المسيحيين واليهود والدّروز والعَلويين والاسماعيليين والشيعة الإثنَي عَشَريّة[531]. وهم من نَسْلِ أناس عاشوا هناك منذ زمن طويل قبل الإسلام، أو أنهم من نِتاج اتّحادهم بواصِلِينَ جُدُد. تَحتَفِظُ لغاتهم أو لهجاتهم حتى هذه الأيام بكلمات غريبة عن اللغة العربية العادية. أكثرهم عدداً هذه الأيام هم الشيعة الإثنَي عَشَرية (الذين يُقَدِّسونَ جميع الأئمة الإثني عشر الذين يَعتَرفون بهم أئمَّةً مُنَزَّهين مِن نَسْلِ الرسول محمد). يَعتَبرُ كل اثنين من خمسة لبنانيين أنفسَهم شيعةً من أتْباع المَذهَب الإثنَي عَشَري.

شَعَرَ اللبنانيون والسوريون الشيعة مِراراً أنهم بخطر على مَرِّ التاريخ، تحت الامبراطورية العثمانية وخلال فترات الحكم الفرنسي والاستقلال حتى سنة 1960 تقريباً، ورَدُّوا على ذلك بالطريقة التقليدية الشيعية في الدفاع عن النفس. انعَزَلوا بأنفسهم، وعندما اختَلَطوا بالسنّة مارَسوا عادةَ "التقية" وتَظاهَروا أنهم من السنّة. ولم يكن ذلك صعباً لأنه في أغلب عاداتهم وملابسهم وطريقتهم في كَسْبِ مَعيشَتِهم كان القرويون السنّة والشيعة متشابِهين فيما عدا ممارسة الشيعة عادة التَّعْزِيَة التي تَقَعُ في قلب معتقداتهم الدينية. ربَطَهَم هذا الاعتقاد إلى بعضهم بعضاً بقوة، على الأقل في تَعاطف المشاعر، كما ربَطَهَم بشيعة العراق وإيران.



الشيعة هم أكبر الطوائف والمِلل العَديدة التي تُؤَلِّفُ لبنان. منظَّمتهم السياسية هي حزب الله، وهم يَتجَمعون

بشكل رئيسي في جنوب لبنان وفي الشمال الشرقي.

قرأتُ عن الشيعة من قَبل، إلا أنني عَرفتُهُم شخصياً في الخمسينيات عندما كنتُ ألتَقي باثنين من رفاقي في أكسفورد عالِمَي الإنسانيات إمري وستيلا بيترز Emrys & Stella Peters اللذان كانا يقومان بدراسة قريةٍ شيعية في جنوب لبنان532. كنتُ قد بدأتُ في ذلك الوقت بدراسة قريةٍ درزية إلى الشمال. يُعتَبَر الدّروز فرعاً من الشيعية، واستَفدتُ كثيراً من دراسة بيترز المُستَفيضة الدقيقة. كان هنالك الكثير للمقارنة، إلا أن جانباً من المُعتَقَد الدِّيني والمُمارسة كان مَلحوظاً بشكل خاص. كلا المُعتَقَدَين الدّرزي والشيعي كانا مُغلَقَين على الغرباء، إنما بطريقة مختلفة. كان المجتمع مغلقاً من الناحية الجينية-الوراثية نظرياً على الأقل. يجب على المرء أن يولَدَ في مجتمعهما وأن يَحِلَّ مَحَلَّ روح شخصٍ غَادَرَ الجماعة. بينما لا يؤمِنُ الشيعة الإثنَي عَشَرية بتَناسخ الأرواح، فقد خَلَقُوا اجتماعياً ما فَعَلَهُ الدّروز وراثياً، حاجِزٌ (اجتماعي) أمام دخول الغرباء. لم يُرَحِّبوا بالزّوار ونادراً ما غَادَروا هم أنفسهم إلى الخارج.

الانغلاق عن الغرباء لم يكن الأساس الوحيد للمقارنة بين المجتَمَعَين بالطبع، ولكنه أثَّرَ بعمقٍ على سلوكهم وتَصرفاتهم. من الناحية السياسية حدَثَ ذلك بطريقتين مُتعاكِستين: ولتَبسيط الأمر فقد وجَدتُ أن الدّروز كانوا يَشعرون بالاطمئنان الكافي في وحدتهم الخاصة فوق-الإنسانية وكانوا يَستطيعون التَّجول في العالَم دون خوف، ولم يُمارِسوا التقية. بينا كان الشيعة يَشعرون بالتهديد وعدم الأمن وانعَزَلوا ومَوَّهُوا أنفسَهم.

الفرقُ الذي لاحظتُهُ منذ نصف قرن مَضَى سينعَكِسُ في السنوات الأخيرة من القرن العشرين. أحد علامات هذا الانعكاس هي الحركة الشيعية السياسية الكبيرة المَعروفة باسم: حزب الله533. لكي نَفهم كيف حَدَثَ هذا التَّغَيُّر وما نَشَأ عنه يجب أن نَخوضَ في سلوك وتصرفات الشيعة اللبنانيين، فقد انبَثَقَ تَغَيُّر المجتمع الشيعي مِن تَصادف سلسلة تيارات أحداث عديدة.

تيار الأحداث الأول جَرى في إيران. شارَكَت المؤسسةُ الشيعية الإيرانية في أعمال ثورية مرتين خلال القرن العشرين. الثورة الأولى سنة 1905 أدَّتْ إلى تَنازلٍ عادَ النظام القديم بالاستناد إليه تحت قيادة جديدة، ونجَحَ رضا شاه بالقوة في إعادة الزعماء الدينيين إلى معابدهم أو إلى المَنفى، إلا أنه لم ينجَح في قَطع علاقتهم بجماهير الشعب الإيراني. حاوَلَ ابنه محمد رضا شاه أيضاً إضعاف تأثير رجال الدين وقوَّتَهم فمَنَعَهم من جميع الفعاليات في نظامه وعَبَّرَ عَلَناً عن احتقاره لهم. أخطَأ تماماً في تقدير مشاعر الجماهير نحو الشيعية ونحو نظامه. الثورة الثانية التي انطلَقَتْ سنة 1979 بعد أن استَغرَقَتْ سنوات في تَكَوُّنِهَا وكانت ثورة حقيقية أسقطَت الحكومة وغَيَّرَت المجتمع الإيراني ودور المؤسسة الدينية فيه. أصبَحتْ إيران دولة دينية شيعية.

راقَبَ شيعةُ لبنان إيران عَبْرَ السنين قَبل ثورة 1979 بحزن وهدوء. شاهَدوا كيف عُزِلَ رجالُ الدين الإيرانيون وسُجِنوا أو تَمَّ نَفيُهُم. وشاهَدوا كيف أعلَنَ محمد رضا شاه حَبيبُ الشمال العالمي أن نظامَهُ هو جزء حقيقي من الشمال وقوةٌ امبراطورية كان هو امبراطورها. شاهَدوا في تَدَفُّق الدِّعاية والإعلام والتقارير الجديدة أن إيران العَلمانية أصبحَتْ ثرية جداً وقوية. فَهِمُوا الأحداث

المعاصِرة في ضوء مسرحيتهم العاطفية (التَّعزية) وتَصَوروا أن إيران هي النسخة الجديدة من طغيان الأمويين ومَقتَل حَفيدَي الرسول محمد. شاهَدوا أن المسرحيةَ العاطفية تَعبيرٌ عن حالَتِهم الحاضِرة.

بالاصطلاحات الشيعية فإن زعماء المؤسسة الدينية، المُجتَهدين، هم أقربُ المسلمين المعاصِرين للأئمة الذين اختارَهم الله. اعتَبروا أنّ آيات الله، وهم أكبَرُ المُجتهدين وأكثرهم قداسة، حُرَّاسٌ على الفضيلة بينما تَنتَظِرُ البشرية يوم القيامة عندما يَرجع الإمام "الحقيقي". آية الله في هذا المُعتَقَد هو أقرب ما يمكن لبَشَرٍ أن يكون خليفة الله في الأرض. في المسرحية العاطفية، "الرجل الفاضل"، الإمام الحسين، هو مَركَزُ المأساة، إذ يُقتَلُ هو وأسرته.

ولكن في عالَم اليوم لم يُهزَم خليفةُ الرجل الفاضل في الأرض. على الرغم من أنه كان بدون جيشٍ مثل حفيد محمد الإمام الحسين، وبِلا حكومة ولا ثروة كبيرة، إلا أن آية الله الخميني أسقَطَ الشاه. صَرَّحَ بأنه تَمَكَّنَ مِن ذلك لأنه "أُمِرَ مِنَ الله" لكي يُؤسِّسَ "حُكْمَ ولاية الفقيه". كان إسقاطُ الشاه مُدهِشاً بشكل خاص لأنه ظَهَرَ وكأنه معجِزة. اعتُبِر "دليلاً" أو "إشارة" من الله، وهو مَعنى كلمة آية الله. يَعتَقِدُ الشيعة أنَّ الله معهم، ولايمكن للمال والأسلحة والجيوش والسياسات أن تفعَلَ شيئاً أمامَه. وكذلك كان دعم القوى العظمى، كما قِيل لي مراراً، فقد مَنَحَتْ أمريكا نظامَ الشاه المال والسلاح ودَرَّبتْ رجاله وأسقطَتْ أعداءه، ولكن عندما حان وقته لم يَنفعه شيء من كل ذلك. يقول المؤمنون أنه لا يوجَد أي شك بأن الله غالِب، ويؤكِّدُ الشيعة أنَّهم حزب الله الحقيقي الذي ضَمِنَ النجاح مثلما تُؤكِّدُ عليه الآية 5/56 في القرآن: {... فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}.

لا يَتردد شيعةُ لبنان بالتأثر بالإيرانيين والاندفاع نحو تحقيق نبوءة الله ولكنهم كانوا يَحتاجون إلى مرشِدين لهم على الطريق. يمكن متابعة أثر النفوذ الإيراني على شيعة لبنان في البداية إلى رَجُلَين.

كان الأول هو محسن الحكيم زعيمُ عائلةٍ لَعِبَتْ دوراً مهماً في ثورة 1905 الإيرانية. ادَّعوا أنَّهم من نَسْلِ الرسول وكانوا معروفين بدراساتهم الدينية. كانت هذه العائلة محترمة بين شيعة العراق وإيران. كانت قاعدتهم فيما يمكن اعتِباره مدرسةً دينية عالية في مدينة النَّجَف العراقية يَرجِعُ تأسيسها إلى القرن الحادي عشر وتُعتَبر مَصدَراً للتشريع الإسلامي. انتُخِبَ الحكيمُ إلى الفئة الصغيرة من آيات الله قَبل ثورة 1979 بكثير[534]. كافَحَ ضد مَيلِ مجتمع شيعة العراق المَحرومين للابتعاد عن السياسة، وربما دَفَعَهُ أخوهُ الأصغر الأكثر نشاطاً لإصدار آراء شرعية انتَقَدَ فيها حكومات العراق وإيران اللتان كانتا طُغياناً عَلمانياً بالنسبة له ولأغلب أعضاء المؤسسة الدينية. اختَلَفَ عن كثير من رفاقه في إعلان قراراته عَلَناً وفي تَواصله خارج نطاق "جِيرَتِهِ" من شيعة إيران والعراق. اتَّصَل سنة 1959 مع شيعة لبنان المُنعَزِلين الذين لم يكن لديهم زعامة. اختار ممثلاً له أو مُبَشِّراً عنه قَريبَهُ موسى الصدر الذي كان شاباً موثوقاً جيد التدريب وعالِمَ دِينٍ نشيط.

وِلِد الصدر في مدينة قُم الشيعية المقدسة في إيران ودَرَسَ الشريعة الإسلامية في جامعة طهران وفي المدرسة الدينية في قُم. ثم ذَهَبَ إلى النجف حيث أصبح تابعاً لآية الله الحكيم. أسَّس

نفسه في مدينة صور في لبنان بناءً على أوامر آية الله.

كان عليه أن يمشي هناك في طريق وَعِرَةٍ، فقد عَلِقَ جِيلُهُ من الشيعة في السياسة اللبنانية الشاقة. كان لديهم أعلى مُعَدَّل للفقر في الدولة وحصَلوا على جزء صغير من الخدمات الاجتماعية والتعليمية. انطلَقَ الصدر في محاولة تحسين ظروف معيشتهم كمقدمة لمَنْحِهِم صوتاً سياسياً. بدأ سلسلةً من المفاوضات المُعَقَّدة مع منظمة التحرير التي لم تَصل به إلى نتيجة. عندما لم يتَوصل إلى شيء، قَرَّرَ سنة 1974 تأسيس منظمةٍ آملاً في تحقيق تأثيرٍ أكبر. ركَّزَتْ هذه الحركة المعروفة باسم: "حركة المَحرومين" على برامج التعليم والصحة العامة، كما أنشأ لها فرعاً عسكرياً مسلحاً على الطريقة اللبنانية اسمه "حركة أمَل"[535]. حاوَلَ دوماً استيعاب المُعارِضِين ووضَعَ أسس الوحدة وصَنَعَ ثورةً دينية وسياسية مهمة بإعلانه الرَّمزي أن المَذهب العَلَويّ المُنْشَقَّ هو جزءٌ من الطائفة الشيعية[536]. كما أثار عاصفة من التعليقات حينما قام بأداء طقوس تَعبدية في كنيسةٍ مسيحية عن مساوئ الطائفية[537].

بشكل مباشر واتباعاً لأمر آية الله الحكيم، قام الصدر بتأييد المقاومة الفلسطينية[538]. شَدَّتْ هذه الحركة انتِباهَ شيعة لبنان على دخول الفلسطينيين في القضايا اللبنانية والاجتياح الإسرائيلي لمناطق الشيعة في جنوب لبنان.

سأعود إلى هذه الأحداث من جديد من وجهة نظر الشيعة هذه المرة.

بعد طَردِها مِن الأردن، قامَتْ منظمةُ التحرير والحركات المقاومة الفلسطينية بوضع مقاتِلين على طول الجبهة اللبنانية وبدأتْ عمليات حرب عصابات داخل إسرائيل. لا يوجَد دليلٌ على أنهم حَصَلوا على دعم عسكري من القرويين الشيعة، بل هناك بعض الأدلة الشفهية على أن الشيعة عارَضوا وجودَهم[539]. كان الفلسطينيون إما مسيحيين أو مسلمين سنّة، وبذلك فَهُم "غرباء" من الناحية الدينية. كل ما أراده الشيعة هو أن يُترَكوا لشأنهم، كما قال صحفي أمريكي: "ليَتقاتَلوا في مكانٍ آخر"[540].

الأسوأ من ذلك أن الجيش الإسرائيلي بدأ القيام بغارات انتقامية ضد الفلسطينيين مما أدى إلى إصابة كثير من الشيعة وحدوث أضرار في قراهم. تصاعَدتْ هذه الغارات حتى وصَلتْ إلى الاجتياح في مارس 1978 عندما دَخَلَ خمسة وعشرون ألف جندياً إلى جنوب لبنان. احتَلَّ الجيش الإسرائيلي في هذه العملية عدداً من القرى الشيعية وهو ما لم يَحدُث للشيعة في ذاكرتهم الحَيَّة.

من المفارقة أن يَختَفي الإمامُ الصدر الشيعي في ذلك التوقيت خلال زيارته لمعمر القذافي في ليبيا، أو بالتَّعبير الحديث "أن يتم إخفاؤه". زُعِمَ أن القذافي غَضِبَ جداً من تصريحاتٍ أدلَى بها الصدر طَرَحَتْ وجهةَ النظر الشيعية للإسلام، ولكن لا يوجَد دليل ثابتٌ عما جَرى. لم يَظهَر ثانية ولكن ما كان حاسماً فيما حَدَثَ بعد ذلك هو أن المنظمة التي أسَّسها استَمرتْ في الوجود.

على الرغم من أن أغلب الفلسطينيين تَمكَّنوا من الهرب والانسحاب للقتال في يوم آخر، إلا أن الشيعة كان أغلبهم من الفلاحين المُستقرين والأقل قِدرة على الحركة. قُتِلَ آلافٌ مِن الشيعة خلال العملية عندما أصابَتهم قنابل عنقودية أمريكية الصُّنع، أو تم قَصفهم بالمَدفعية، واضطر حوالي ربع مليون منهم لتَرك بيوتهم. كان دَمار ممتلكاتهم هائلاً.

طلَبَ مجلسُ الأمن الدولي انسحابَ إسرائيل فوراً، وأسَّس قوةَ مراقبة ثانية عُرِفَتْ باسم: اليونيفل United Nations Interim Force in Lebanon لحراسة منطقة النزاع، أي الجنوب الشيعي. إلا أن قوات الأمم المتحدة تم تَحييدها بإقطاعية مُنشَقَّة لبنانية صَنَعَتْها إسرائيل تحت اسم "جيش لبنان الجنوبي" الذي أمَدَّتْهُ إسرائيل وسَلَّحَتْهُ ودَعَمَتْهُ للسيطرة على المنطقة التي احتَلَّتْهَا. هاجَمتْ تلك المجموعة فوراً قوةَ حفظ السلام الدولية، وبذلك استمر القتال على الرغم من وقف إطلاق النار بين إسرائيل ومنظمة التحرير. وسيستمر القتال طوال اثنتي عشرة سنة بعد ذلك[541].

أعمالُ منظمة التحرير والاجتياحُ الإسرائيلي وتَتالي العمليات القتالية أثبَتَتْ أن الطُرُقَ الدفاعية الشيعية التقليدية في الانعزال والتقية ليست فَعَّالَة. خاضَ الشيعة تَغيراً عميقاً كَرَدِّ فِعلٍ على فَشلهم وأصبَحوا واحدةً من أقوى حركات المقاومة وأكثرها التزاماً، وأحَاطوا أنفسهم بالعباءة الدينية لحزب الله.

كان حزب الله فَرعاً، أو بشكل أدق فَرعاً مِن فَرعٍ مِن حركة المَحرومين التي أسَّسها الصدر سنة 1974. عندما لم تُشَجِّع المنظمةُ الفرعية الأولى، حركة أمل، على مقاومة إسرائيل، انفَصَلَ أولئك الذين يؤمنون بالمقاومة وشكَّلوا منظمة جديدة وأطلَقوا على أنفسهم اسم: أمل الإسلامية. انضَمَّتْ هذه المجموعة الصغيرة إلى آخرين من الشيعة المُقاوِمين وشكَّلوا حزب الله الحالي.

وضَعَتْ لجنةُ قيادة حزب الله برنامجها وفلسفتها في إعلان سنة 1982 وَرَدَ فيه حسبما جاء في ملخص خِدمة البحث في الكونغرس الأمريكي:

"يستمر إعلان حزب الله سنة 1985 في إرشاد المنظمة على الرغم من أن زعماءها قد جَدَّدوا مواقِفَهُم لتَتَجاوبَ مع التغيرات في السياسات المَحَلية والعالمية. يَسترشد حزب الله بالتقاليد الشيعية الدينية والثقافية ويَبني على إيديولوجية الإيراني آية الله الخميني وغيره من رجال الدين المسلمين الشيعة، ويُصَوِّرُ الحزب نفسه كمُدافِعٍ عن المَظلومين والضعفاء ضد ما يَعتَبره ظُلْمُ الأقوياء. وبشكل مُحَدَّد، يُعَرِّفُ حزبُ الله نفسَه في تَعارُضٍ مباشر مع ما يَراه خَلَلاً أساسياً في القوى العالمية والمَحَلية لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل. يَعتَبر زعماء حزب الله أن السياسة الخارجية الحالية للولايات المتحدة تدفَعُها رغبةٌ في تَرسيخ الهَيمنة الاقتصادية والسياسية الأمريكية بحجة محاربة الإرهاب. تاريخياً، سَعى حزبُ الله لتبرير عملياته بِصِفَتِها مقاومةً شرعية لاحتلال إسرائيل أراضٍ لبنانية ومعارَضَةً لتَدَخل الولايات المتحدة في لبنان والقضايا المَحَلية"[542].

بعد اغتيال إسرائيل عباس موسَوي أحد مؤسسي حزب الله سنة 1992، انتُخِبَ السيد حسن نصر الله سكرتيراً عاماً، وهو واحدٌ من أقدر الرجال الذين ظَهروا في سياسات الشرق الأوسط، ومازال مستَمراً في قيادة حزب الله حتى الآن.

يختَلف نصر الله عن الصدر بأنه ولِد في لبنان في أسرة يمكن أن نُسَميها من الطبقة الوسطى الدنيا، وكان أصغر من بقية الزعماء بِجِيلٍ إذ ولِد سنة 1960. ومِثل كثيرٍ من أمثاله في المجتمع الشيعي نَشَأ قروياً في مكان غير بعيد عن طلقات النار وانفجار القنابل. انضَمَّ إلى حركة أمل عندما كان يافعاً ووَقَعَ تحت تأثير الحركة الشيعية العراقية "الدَّعوة" التي كانت تُناضِل ضد طُغيان صدام حسين. وبعد الاجتياح الإسرائيلي سنة 1982 انضَمَّ نصر الله إلى حزب الله وسارَ على خُطى رجال الدين الآخرين إلى قُم في إيران لدراسة الشريعة. كانت الطريق قد رُسِمَتْ لَه. عندما رجع إلى لبنان وجَدَ أن المنظمة قد انخَرَطَتْ في عملياتٍ عَدائية متقطِّعة ضد إسرائيل وسرعان ما نَذَرَ نفسه لتطوير قدراتها القتالية بمساعدةٍ من العراق وإيران.

اتَّبَعَ نصر الله أربع سياسات أساسية لتنفيذ برنامج الحزب. الأولى أن يُتابع جهود الصدر في بناء أنصاره. تحت إدارة نصر الله قام حزب الله بتقديم برنامج خَدَمات اجتماعية كبيرة، وهو يُديرُ الآن ما وَصَفَهُ تقرير خدمة البحث في الكونغرس الأمريكي بأنه: "شبكةً واسعة من المدارس والعيادات وبرامج الشباب والأعمال الخاصة والأمن المَحَلي فيما يُسميه اللبنانيون "دولة داخل دولة"543. أَثَّرتْ هذه النشاطات على حياة مئات الآلاف من شيعة لبنان وأعداد متزايدة من اللبنانيين المسيحيين.

الثانية أن يَبني نصر الله إمكانيات حزب الله العسكرية. في سنة 1982 لم يكن لديه المَصادر ولا المكان لبناء جيش عامِل وأدرَكَ زعماؤه أنه لا توجَد دولةٌ عربية تستطيع مُجاراةَ إسرائيل التَّقنية والتَّنظيمية والتَّسليحية خاصة وأن الولايات المتحدة تُمَونُهَا وتَدعَمُها. ولذلك تَبَنَّى حزبُ الله حربَ العصابات وطَوَّرَها لتُناسِبَ ظروفه الخاصة في صراعه مع إسرائيل. أظهَرتْ معاركُ متتالية أنها أكثر نجاحاً من أي دولة أو منظمة عربية سابقة. أوقَعَ سنة 2000 ما يَعتَبره المراقبون الخارجيون أول هزيمة للجيش الإسرائيلي وأجبَرَ الإسرائيليين على الانسحاب من مَناطِقِهِ، وفي الوقت الحاضر أصبح عِدَّةُ آلافٍ مِن مُقاتِلي حزب الله أكثر القوات نجاحاً في دعم حكومة بشار الأسد في الحرب الأهلية في سورية.

اغتيل كثير من أفراده أو قُتِلوا في المعارك، وواجَهَت المنظمة ذلك بتطوير مخابرات ومَهارات ضد التجسس مثيرة للإعجاب، ساعَدَها في ذلك التَّضامن الداخلي الاستثنائي للمجتمع الشيعي. لم تَنجح المخابراتُ الخارجية في اختراق المنظمات الشيعية، وتمَكَّنَ حزبُ الله بشكل مدهِش مِن إتقان استخبارات ووسائل الاتصال واستَخدَمَها بنجاحٍ ملحوظ ضد الإسرائيليين المتطورين جداً في هذا المجال.

الثالثة أن نصر الله طَوَّرَ مَهارات قوية في العمليات السرّية أو الإرهابية. أدَّتْ هجمةُ سياراته المُفَخَّخَة على فريقٍ من القوات الفرنسية والأمريكية في بيروت سنة 1983 إلى سَحبِ الرئيس رونالد ريغان مَن بَقي منهم على قيد الحياة. فوجِئت الحكومة الأمريكية ووسائل الإعلام بهذه

الهَجمة التي كانت عنيفة بشكل أكيد وتَستحق الشَّجبَ والاستِنكار. إلا أنه مِن السذاجة أن نَظَنَّ أنّ أيّ طَرَفٍ أو طائفة تَحتَكِرُ العنف. فالجميع تَلَطَّختْ أيديهم بالدَّم، حزب الله وإيران وإسرائيل ومنظمة التحرير والروس والبريطانيون والأمريكان. السِّجِلُّ مليءٌ بالإرهاب والتَّهجير والقَصف والقَتل، وسواء كان ذلك صحيحاً أم لا، فإن أخلاقية هذه الأعمال تَتعلق عادةً برأي النَّاظِر[544]. مِن المُلاحَظ أن نصر الله استَنكر ضرب القاعدة لبرج التجارة العالمية في 11 سبتمبر 2001 ومَيَّزَ بين قَتْلِ المَدنيين كما فَعَلَت القاعدة وقَتْلِ الجنود المسلحين كما فَعَلَ حزب الله في هجمته في أكتوبر 1983.

البرنامج الرابع الذي طَبَّقَهُ نصر الله هو المشاركة في السياسة اللبنانية. أدهَشَتْ هذه المغامرة كثيراً من المراقبين وأفزعَتْ بعض الشيعة. جادَلَ نصر الله في بيانه السياسي سنة 2009 لصالح المشاركة في "الديموقراطية التَّوافقية". اعتَبَر أن المشاركة في لبنان معقولة على العكس من أغلب دول الشرق الأوسط، فالتَّوافق يَقتضي أن يكون رئيس البرلمان اللبناني شيعياً دائماً، كما أن 35 من أعضائه البالغ عددهم 129 هم من الشيعة الآن، ومنهم 11 أعضاء في حزب الله أو مؤيدون له. وبما أن الشيعة يُشَكِّلون الآن تقريباً ضِعف عدد الجماعات الطائفية والعِرقية الأخرى، المارونيين والسنّة، فإن الشيعة يَضغطون لإعادة النظر في تَمثيل مقاعد البرلمان[545]. كيف سيتم التَّعامل معهم من جهة الرئيس اللبناني الجنرال ميشيل عون سيَبقى في الانتظار ولكنه يَعتبرهم حلفاء مُهِمّين.

ما هو هدفُ حزب الله؟ لا أعتقد أن لهذا السؤال إجابة ثابتة. الهدف ليس وطنياً في رأيي. أثبَتَ نصر الله أنه أكثر عقلانية من أن حزب الله يَستطيع أن يَجعل لبنان دولة شيعية. وما يبدو أنه رهنُ التَّطور هو فيدرالية مُتَعَدِّدة الوطنيات يَتشارك فيها الشيعة اللبنانيون مع شيعة العراق وإيران ويَتعاونون مع العَلويين السوريين شبه الشيعيين. يَمتلكُ كل منهم قاعدةَ سُلطَتِهِ وقوَّتِهِ ويَهتم كل منهم بقضايا مَحَلية مستقلة.

التَّحدي الذي يُوَحِّدُ بينهم هو التَّهديد المَحسوس مِن الشمال العالمي الذي يَرونه في التَّحالف الأمريكي- الإسرائيلي. يَظَلُّ حزب الله معارضاً بقوة لاستمرار وجود إسرائيل كدولة يهودية كما يَعارِض الأمبريالية التي يَراها مُمَثَّلَةً بالروس والأمريكان. غير أنه مستعدٌ عملياً للعمل مع الدول الثلاث عندما يُساعِدُ ذلك على سلامَتِهِ ويُقَلِّلُ مَخاطِره.

يمكن أن يُعتَبَر حزبُ الله شَكلاً جديداً من الهوية السياسية، أمَّةٌ بلا دولةٍ، أسِّسَتْ على قاعدة دينية. أعتَقدُ أن مِثلَ هذه المنظمات ستُصبِحُ أكثر تَواجُداً في السنين القادمة. توجَدُ مثلُ هذه الأمّة في غزة التي سأتَوجَّهُ إليها الآن.

الفصل السادس والثلاثون

غزة وحماس

حماس هي منظمة غَزَّاويَّة على الرغم من أنها استَلهَمَتْ حركة الإخوان المسلمين المصرية وتَتَعاون مع فلسطينيين يَعيشون في أماكن أخرى[546]. يجب على المَرء لكي يَفهمَها أن يَبدأ بالنظر إلى غزة وتاريخها، فقد شكَّلَت الأحداثُ والبيئةُ غزةَ مثلما أثَّرَ فيها الدِّين والإيديولوجيات.

لم يتم تَهجير جميع الفلسطينيين أو هَرَبهم إلى مناطق عربية أخرى في أربعينيات القرن العشرين، فقد ظَلَّ بعضهم فيما أصبح إسرائيل، وغادَرَ أغلبهم إلى الضفة الغربية التي كانت آنذاك تحت السيطرة الأردنية، أو إلى لبنان. بينما حَشَرَ الرُبْعُ أنفسَهم (حوالي 250,000) في 360 كيلوكتراً مَرَبَّعاً في قِطاع غَزَّة، وهي منطقة تبلغ مساحتها حوالي ربع مساحة نيويورك أو لندن. بلَغَ تَعداد السكان حوالي نصف مليون في سنة 1980، ووصَلَ عَددهم إلى حوالي المليونين هذه الأيام مما يَجعل غزة واحدة من أكثر المناطق كثافة في عدد السكان على وجه الأرض.

أغلبُ مناطق غزة صحراوية مثل أكثر مناطق الشرق الأوسط. ربعها فقط (حوالي 104.4 كم مربعاً) صالح للزراعة. منذ سنة 2000 خَسِرَت الزراعة ربعَ هذه المساحة لأن إسرائيل صَنَعَتْ منطقةً عازلة على طول حدودها لا يُسمَحُ لأيّ من سكان غزة الدخول إليها. إذا اقتَرَبوا منها يَتَعَرَّضون لإطلاق النار عليهم. أي أن غزة بالفعل هي أصغر مما تُظهِرُهُ الأرقام.

اندَفَعَتْ إسرائيل أكثر في عُمق غزة سنة 2014. كما نَشَرَ صحفي انكليزي كان شاهِدَ عَيان قائلاً: "على بُعد ميلٍ واحدٍ مِن حدود غزة الشرقية مع إسرائيل يَقَعُ شارعٌ كان يَعُجُّ بالحياة وأصبَحَ قَفراً صامِتاً مَهجوراً. جميع المَتاجر مُغلَقة، ولا يَتجرأ السَّيرُ على الحركة وتَقف البيوت ذات الأسقف المُسَطَّحة فارغة... طَرَدَتْ إسرائيل عشرات الآلاف من الفلسطينيين خارج بيوتهم بعيداً عن الحدود"[547].

يقَعُ البحر الأبيض المتوسط في غرب غزة وكان جزءاً تقليدياً أساسياً في حياة المنطقة. قَدَّمَ الصيادون في غزة جزءاً كبيراً من البروتينات التي يَستَهلِكُها السكان. كانوا يَصطادون قبل سنة 1999 حوالي أربعة آلاف طن مِن السمك كل عام، وأتاحَتْ هذه الصناعة فرصةَ عملٍ بشكل مباشر

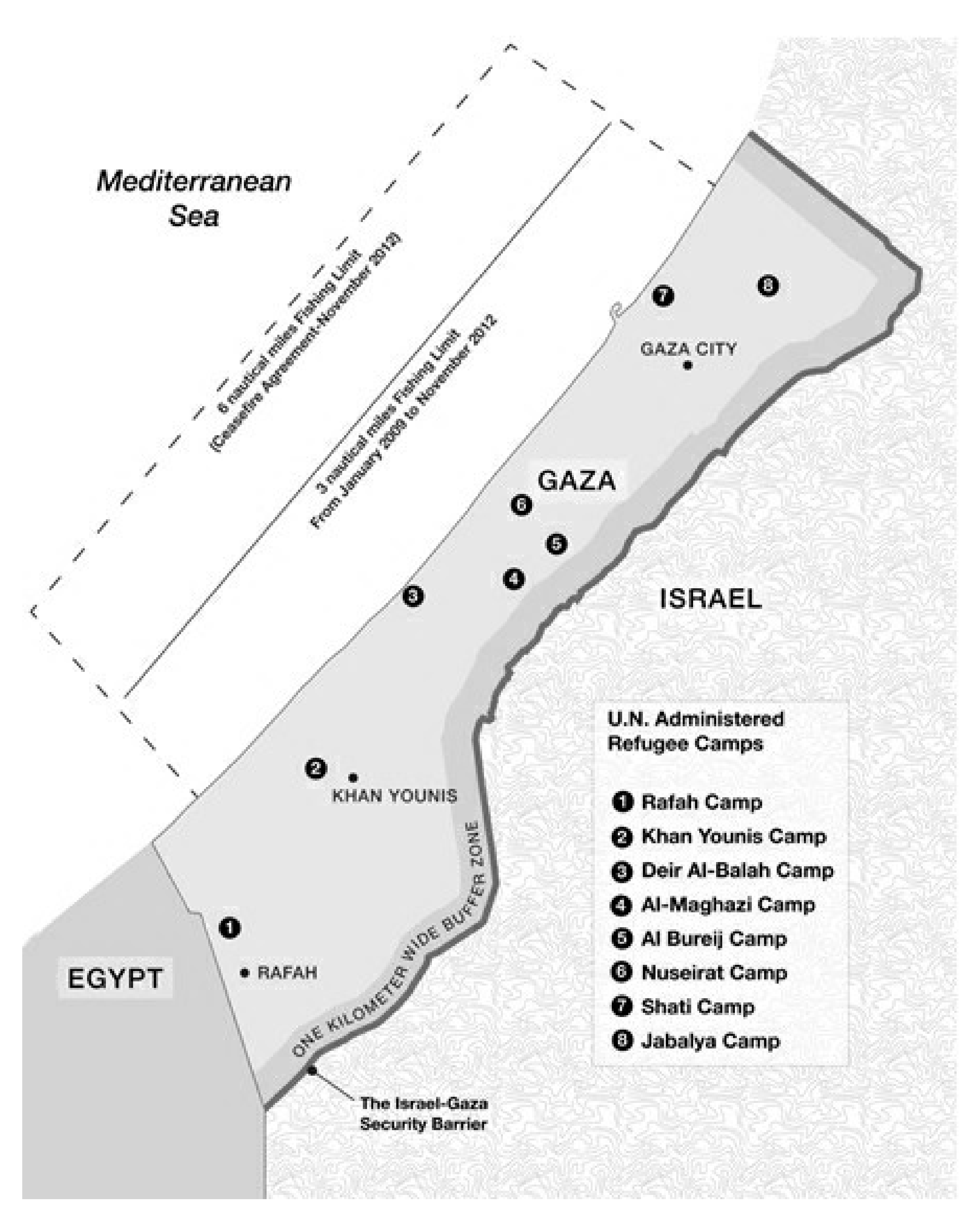
أو غير مباشر لحوالي خمسة وأربعين ألف شخص. انخَفَضَتْ هذه الأعداد هذه الأيام إلى النصف أو أقل.

حَسْبَ مكتبِ الأمم المتحدة لتَنسيق قضايا المساعدات الإنسانية ومنظمة الأغذية والزراعة في الأمم المتحدة، تَقَعُ مناطق صيد السمك المُنتِجة على بُعد حوالي خمس عشرة ميلاً من الشاطئ، وحتى سنة 2001 كانت إسرائيل تَسمح للصيادين بالوصول إليها، ولكن بعد سنة 2002 حَدَّدَت السلطات الإسرائيلية منطقةَ صَيدِهِم إلى 12 ميلاً ثم إلى ثلاثة أميال فقط. نَشَرَ مُراسل لصحيفة Christian Science Monitor "الصيادون الذين يُغامرون بالذهاب أبعَدَ مِن ذلك يُخاطرون بالقبض عليهم وإطلاق النار والقتل أو بتَدمير زوارقهم أو بمصادَرَتِها. وعلى كل حال فقد ذَكَرَتْ هيئاتُ حقوق الإنسان أن بعض الصيادين قد هوجِموا حتى ضِمنَ منطقة الأميال الثلاثة"[548].

حصَلَ الصيادون على القليل مِنَ القُوتِ بسبب مَنعِهم مِن الصيد. صَنَّفَت اللجنةُ الدولية للصليب الأحمر 90% مِنَ الأربعة آلاف صياد في غزة سنة 2010 بأنهم إما "فقراء" أو "فقراء جداً" وذَكَرتْ أن أهل غزة يُعانون من نقص البروتينات[549]. وكما ذَكَرَتْ فيوليتا سانتوس-مورا Violeta Santos-Moura في صحيفة Foreign Affairs أن الصيادين تَمَكَّنوا من تغطية حوالي 20% فقط من احتياجات السكان[550].

هَزَمَتْ حماس منظمةَ التحرير في الانتخابات الفلسطينية سنة 2006 وحصَلَتْ على أغلبية المقاعد في البرلمان. في تلك اللحظة هدَّدَت اللجنةُ الرباعية (الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد الروسي) بقَطع جميع المساعدات للفلسطينيين إذا لم يَعتَرف البرلمان الفلسطيني بإسرائيل وتَخَلَّى عن هدفِهِ بتحرير فلسطين. عندما رفَضَتْ حماس هذه المَطالب قَطَعَت الرباعية المساعدات وتَبِعتْها إسرائيل بِفَرْضِ عقوبات.

في شهر مارس التالي اتَّفَقَ النواب في البرلمان بوحدة نادرة في القضايا الفلسطينية على تَشكيل حكومة تَحَالف واسماعيل هَنِيّة مِن حماس كرئيسٍ للوزراء. أعلَنَتْ حكومة الوحدة الوطنية أن فلسطين دولةٌ مستقلة ضمن حدود الجبهات التي وجِدتْ قَبلَ حرب 1967 وأكَّدَتْ على حَقِّ اللاجئين في العَودة مِن الشتات الفلسطيني.



غزة هي شريط صغير أغلبه صحراء على طول البحر الأبيض المتوسط. تَفتَقِدُ إلى الأرض الزراعية وتَعتَمِدُ كثيراً على البحر في غذائها. حكومتها المُنتَخَبَة هي المنظمة السياسية حماس وأصبَحَ الصراع مع إسرائيل مستمراً. وضَعَتْها إسرائيل في حالة حصار اقتصادي وعسكري. وتَبَنَّتْ غزة بدورها برنامج مقاومة

يَعتَمد كثيراً على هجماتٍ بصواريخ مَحَلية الصَّنع. أصبَحَ القتال بلا نهاية، وكارِثياً بالنسبة لغزة.

رفَضَتْ إسرائيل التَّعامل مع هذه الحكومة وكانت قد وضَعَتْ ثُلُثَ أعضاء البرلمان في السجن. وقالَتْ إنه بغضّ النّظر عما يُقرره البرلمان فإنها ستَتعامل فقط مع الرئيس غير التنفيذي محمود عباس.

لم تَستطع الحكومة دَفْعَ مرتَّبات موظفيها في غياب المساعدات واحتِفاظ إسرائيل بأموالِ ضرائبها ومَصادِر دَخْلِها الأخرى، وفي غَمرة الأزمة شَرَعَ عباس ببِناء قوةِ شرطة وجيش على الرغم من أنه قانونياً ليس أكثر من رئيسِ مَراسِمٍ شَكْلِيَ وسيطَرَ على الإدارة المدنية وحَلَّ البرلمان.

لم يكن معروفاً بشكل عام آنذاك أنه كان يَجتَمِعُ مع رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود ألمرت للتَّوصل إلى اتفاقيةٍ لتقسيم الضفة الغربية واعتِرافِ الفلسطينيين بإسرائيل. بلَغَتْ هذه الاجتماعاتُ ذُروتها بمؤتمرٍ دَعَتْ إليه الولايات المتحدة في أنابوليس بولاية ميريلاند في الأسبوع الأخير من نوفمبر 2007. تَعَثَّرَ المؤتمرُ لأنه لم يَتمكَّن أيٌّ مِن عباس ولا أولمرت من حَشْدِ تأييدٍ للتَّنازل الذي تَوصَّلا إليه فيما يُسمى بِحَلِّ الدَّولَتين[551].

بينما كان مِنَ المَشكوكِ فيه أنَّ أيّ مِنَ الرَّجُلَين يستطيع إقناعَ شعبه، إلا أنهما تَوافَقَا على التفاوض وأيَّدَت القوى العظمى سُلْطَتَهُما. بدأ عباس بصفته زعيم منظمة التحرير سلسلةً مِن المحادثات السرّية مع مسؤولين إسرائيليين (استُبعِدَتْ حماس من هذه المباحثات) عَرَضَ فيها التَّخَلي عما يَعتَبِرُهُ أكثر الفلسطينيين مواضيعَ وطنية ودينية غير قابلة للنقاش. كُشِفَتْ هذه الحركة عندما سَرَّبَ الوثائق زياد كلوت Ziyad Clot المحامي الفرنسي الفلسطيني الذي كان مستشاراً قانونياً لفريق التفاوض الفلسطيني[552]. كتَبَ عن الاجتماعات فيما بَعد في كتابٍ يوضح عنوانه كل شيئ: "لن تكون هناك دولة فلسطينية"[553]. نتيجة الكَشف كانت تَشديد موقف حماس وتَرسيخ خَيبةِ أملِ الفلسطينيين بمنظمة التحرير.

استَمَرَّ الصراع المُحزِن خلال تلك السنوات من التَّنافس على السلطة في المجتمع الفلسطيني والجدال حَولَ شَكل السلام المُمكِن. كراهيةُ إسرائيل كانت أَمراً مَفروغاً منه حتى في فترات الهدوء النسبي استَمَّرَ الغزاويون في مهاجمة إسرائيل باستِخدَام وسائل أكثر تطوراً للوصول إلى ما وراء الحواجز التي وضَعَها الإسرائيليون حول المنطقة وذلك بِحَفرِ خنادق تحتها وإطلاق صواريخ من فوقها[554]. رَدَّتْ إسرائيل على هذه الهجمات بقصفٍ مَدفعي وجَوي وهجَمات بَرية وبِتشديد الحصار والعقوبات على شعب غزة أمَلاً في إقناعهم بِوَقفِ دَعمِهم لحماس.

ذكَرَ تقريرُ الأمم المتحدة أن الجيش الإسرائيلي في هجومه بتاريخ 15 يناير 2009 استَخدَم الفوسفور الأبيض على مُجَمَّعٍ تابِعٍ للأمم المتحدة لجَأ إليه مئات من الناس[555]. ذَكَرَ طبيبٌ نرويجي أيضاً أن الإسرائيليين استَخدَموا قذائف "شظايا المَسامير" وDIME (قذائف المعادن الثقيلة الخاملة)[556]. الأجسامُ المُصابة بقذائف DIME "تتمزق تماماً بالطاقة العالية التي تُحررها

الانفجارات التي تُوَجَّهُ بقُربِهِم أو نَحوَهم". استَخدَم الجيشُ الإسرائيلي القنابل والقذائف العنقودية مثلما فَعَلَ في لبنان، وكما فَعَلَ الجنود الأمريكان في فييتنام[557]. قُتِلَ في الهجوم 1400 فلسطينياً وثلاثة عشرة إسرائيلياً[558].

بعد هجوم يناير 2009 أَرسَلَتْ مجموعةٌ من كبار الخبراء القانونيين والمواطنين المُهتَمّين في عددٍ من الدول خطاباً مفتوحاً إلى السكرتير العام للأمم المتحدة والسفراء المُعتَمَدين في الأمم المتحدة أشاروا فيه إلى "اتهامات جَدّية باختراقاتٍ لقانون الحرب ظَهَرَتْ في آخر نزاع حَدَثَ في غزة تَتَعَلَّقُ بسلوك وأعمال الجيش الإسرائيلي والمجموعات الفلسطينية المسلحة" ويَحثُّون على "إجراء تحقيق فوريّ مُحايِد مستقل". كان من بين المُوَقِّعين على الخطاب المطران ديزموند توتو، والرئيس السابق لإيرلندا ماري روبنسون، والقاضي ريتشارد غولدستون الذي كان قاضياً سابقاً في محكمة الجنايات الدولية. عَلَّقَت المجموعة أن "أحداث غزة صَدَمَتْنا في الصميم. هناك حاجة ماسَّة إلى الغَوث والمُساعدة في التَّرميم لكي تَشفى الجِراح الحقيقية، ويجب أن تُكشَفَ الحقيقة عن الجرائم المُستَمِرة ضد المَدنيين في كلا الجانبين"[559]. أرسَلَ مجلسُ حقوق الإنسان في الأمم المتحدة لجنةً لتَقَصّي الحقائق في غزة تَأَلَّفَتْ مِن ثلاثة مراقبين مستقلين برئاسة القاضي غولدستون.

رفضَتْ إسرائيل دخولَ اللجنة إلا أن الأعضاء تَمكَّنوا من دخول غزة من مصر. قامَتْ بإجراء التحقيقات وأصدَرتْ تقريراً مفصَّلاً في 574 صفحة بتاريخ 15 سبتمبر. أُعلِنَتْ نَتيجتان مثيرتان للجَدَل، كانت الأولى "الأعمالُ المَقصودة التي قامَتْ بها القواتُ المسلحة الإسرائيلية والسياسات المُعلَنَة لحكومة إسرائيل بما يتعلَّق بقطاع غزة التي صَرَّحَ بها ممثلوها الرسميون والمُعتَمَدون قَبلَ وأثناء وبَعدَ العملية العسكرية تَدُلُّ جميعها على نِيَّةِ إلحاقِ عقوباتٍ جماعية بسكان قطاع غزة بما يُخالفُ قانون الإنسانية الدولي"، والثانية "اعتَبرَت اللجنةُ جريمةً ضد الإنسانية في سلسلة الأعمال التي حَرَمَت الفلسطينيين في قطاع غزة من وسائل مَعيشتهم وعَملهم وإقامَتِهم ومائِهم وحَرَمَتْهم من حرية التَّنقل ومن حريَّتِهم في المُغادرة والدخول إلى بلدهم وقَيَّدَتْ وصولَهم إلى المَحاكم القانونية والمُعالَجات الفعَّالة بما يَصِلُ إلى حدّ الاضطهاد. وتَرَى اللجنة استناداً إلى الحقائق التي أُتيحَتْ لها أن بعض أعمال الحكومة الإسرائيلية قد تُبَرِّر تَوَصُّلَ محكَمةٍ ذات كفاءَة إلى أنّ جرائمَ ضد الإنسانية قد تم ارتكابها"[560].

هوجِمَ التقرير بشدة، وتحت ضغطٍ شديد من المجتمع اليهودي (الذي كان غولدستون عضواً بارزاً فيه) تَنَصَّلَ غولدستون مِن تَقريره ذاتِه وذهَبَ إلى إسرائيل لكي يَعتذر منهم. وافَقَ مجلس النواب في الولايات المتحدة على قرارٍ يَنصَحُ المسؤولين التنفيذيين بعدم قبول التقرير، غير أن نتائجه تم تأكيدها بقوة من طَرَفِ المطران توتو وغيره من أعضاء اللجنة[561].

مهما كانت المَشاعر نحو التقرير فلَمْ يَختَلف أحدٌ على أن ظروف حصار غزة جَعَلَها "غير قابلة للعيش"[562]. بعد قَصف محطة توليد الكهرباء الوحيدة في يوليو 2014 "الذي أوقَفَ المحطة عن العمل... فاضَتْ مياه الصّرف الصّحي غير المُعالَجَة في الشوارع في بعض مناطق مدينة

غزة... وعَملَت المستشفيات باحتياطيات الطوارئ... وأصبحَ أكثر من 80% من سكان غزة البالغ عددهم 1.7 مليوناً بحاجة إلى المساعدات الإنسانية، ويُتوقَّع أن 65% من العائلات ستكون بحاجة الغذاء مع نهاية العام"563. ثم أصبحَ الوضعُ أسوأ. وجَدَ البنكُ الدولي في 2015 أن 43% من السكان كانوا عاطلين عن العمل، وأن معدَّل الفقر كان 39%، وأن "الخسائر الإنسانية لضعف غزة الاقتصادي هائلة، وإن البطالة في غزة بالمُقارنة مع اقتصادات أخرى هي الأعلى في العالَم... تَفشَلُ هذه الأرقام في تَوضيح درجة مُعاناة سكان غزة بسبب عدم تَوفّر الكهرباء والماء والتَّصريف الصحي والإصابات النفسية التي تتعلق بالحرب وإعاقة التنقل وغيرها من النتائج السيئة للحرب والحصار"564.

مِن المُفتَرَضِ أن بعض الغزاويين أرادوا المُغادرة ولكن إسرائيل مَنَعَتْهم حتى من التَّوجه إلى الضفة الغربية. يَتَطَلَّبُ السفرُ إذناً رسمياً ومن الصعب الحصول عليه. سُمِحَ لأقل من مئتي شخصاً كل يوم بمُغادرة غزة في النصف الأول من سنة 2013 حسبما ذَكَرَ تقرير لجنة خدمات الصداقة الأمريكية:

"تم تَقييد حركة البضائع والناس داخل وخارج غزة بشدة في 2005 عندما سَحَبَتْ إسرائيل من جانِبٍ واحدٍ مستوطِنِيها وأعادَتْ انتشارَ قواتها من غزة. قَلَّلتْ إسرائيل في تلك السنة عدد أذونات الخروج التي تُعطيها للفلسطينيين الذين يُريدون مُغادرة غزة. تم تَشديد هذه القيود في 2006 بعد نجاح حماس في الانتخابات البرلمانية"565.

يُقدِّم التقرير نفسه هذا المُلَخَّص عن نتائج الحصار:

- سُمِحَ بمرور أقل مِن حمولة شاحنة واحدة من البضائع كل يوم إلى خارج غزة في النصف الأول من سنة 2013.
- 57% من بيوت غزة ينقصها الغذاء، وحوالي 80% تأخذ نوعاً من المساعدة الغذائية.
- 35.5% من القادرين والراغبين بالعمل عاطلون، وهذا واحد من أعلى معدلات البَطالة في العالم.
- بسبب نقص الوقود هناك انقطاع في التيار الكهربائي يصل إلى 12 ساعة يومياً في أغلب مناطق غزة.
- 25% فقط من بيوت غزة يصلها الماء كل يوم، ولمدة ساعات قليلة.
- أكثر من 90% من الماء المُستخرَج من المياه الجوفية غير صالح للاستِخدام الآدمي ولا يُسمَح باستيراد آلات التَّنقية إلى غزة.

- حوالي 90 مليون ليتراً من مياه الصَّرف الصحية غير المعالَجَة أو المعالَجَة جزئياً يتم تَصريفها إلى البحر في غزة كل يوم بينما يُمنَعُ إدخال الآلات والأدوات اللازمة لبناء أو لصيانة محطات المعالَجَة الموجودة حالياً.

وَصَفَت الأمم المتحدة مستوى الخسائر البشرية والدمار الذي حدَثَ في الهجوم الإسرائيلي على غزة سنة 2014 بأنه كارِثِيّ. قالَ السكرتير العام بان كيمون Ban Kimoon إنه "صَدَمَ وفَضَحَ العالَم"[566]. خلال خمسين يوماً من 8 يوليو حتى 26 أغسطس 2014 قُتِلَ 2251 فلسطينياً، منهم 1462 مدنياً بِمَنْ فيهم 551 طفلاً و299 امرأة. كما قُتِلَ من الإسرائيليين 66 جندياً وخمسة مدنيين بِمَنْ فيهم طفلاً واحداً. وبالمجموع جُرِحَ في الهجوم 11231 فلسطينياً بمَن فيهم 3540 امرأة و3436 طفلاً. وحوالي ثلث هؤلاء الأطفال سيَعيشون بعاهاتٍ دائمة نتيجة لإصاباتهم.

دَمَّرتْ القواتُ الجوية الإسرائيلية والجيش 118 مركزاً للأمم المتحدة بما فيها 83 مدرسة وعشرة مراكز صحية، ودَمَّروا أكثر من 12600 منزل وحوالي 150000 منزل أصيب بأضرار بحيث أصبَحتْ غير صالحة للسكن. أدَّى الهجوم إلى أزمة سكن في غزة وتشريد حوالي خمسمئة ألف شخص في قمة الأزمة، ظَلَّ منهم آلافٌ مشرَّدين حتى الآن.

السياسة الإسرائيلية تجاه الحكومات والشعوب الأوروبية والأمريكية وَصَفَها المستشار الأول للجنرال شارون بأنها "مَنْعُ مناقشة مشكلة اللاجئين وحدود دولة إسرائيل"، وتجاه أهل غزة كانت السياسة "وَضْعُ الفلسطينيين على برنامج حِميَةٍ غذائية مع تَجَنُّبِ موتِهم جوعاً". لتطبيق هذه السياسة حرفياً تَوصَّلتْ وزارة الدفاع الإسرائيلية إلى الرقم 2279 حريرة لكل شخص كل يوم[567].

بالنظر إلى الشَّجبِ العام للسياسات الإسرائيلية من جهةِ محكمةِ العدل الدولية ولجان الاستقصاء التابعة للأمم المتحدة والجمعيات المِهنية وجماعات حقوق الإنسان يجب على المرء أن يسأل لماذا قامَتْ إسرائيل بتنفيذ هذه السياسات المتوحشة، غير القانونية جزئياً على الأقل، وغير الشعبية، وغير الناجحة؟ الدَّوافع الإسرائيلية في نظري هي فيما يلي، أما كيف يتم تقييم كل واحد منها فهو مسألة قابلة للحوار.

أولاً، كان الصهاينةُ منذ نشأة حركتهم مُصِرّين على احتلال كل "أرض إسرائيل"، وهذه الأرض تم تَحديدُها بطرقٍ مختلفة ولكنها كانت دائماً تَتَضَمَّنُ غزة. حاوَلَ الإسرائيليون تأسيس مستعمرات يهودية مثلما فَعَلوا في الضفة الغربية، إلا أنهم تَوقَّفوا عن ذلك مؤقتاً على الأقل. يَعتَقِدُ الغزاويون بِحَقٍّ أو بدون حق أن الإسرائيليين يريدون طَردَهُم وتَوطين مُستوطِنين يهود مكانهم.

ثانياً، مثلما فَعَلَ البريطانيون قَبلَهم في فلسطين وكما فَعلَ الروسُ والصينيون والفرنسيون والهولنديون والبلجيكيون والطليان في أماكن أخرى، اعتَبَر الإسرائيليون باستثناءات نبيلة قليلة أن العرب شعوبٌ "قابلة للإستعمار" أو "سكان مَحَليين" وليسوا جزءاً مِن العالَم المُتَحَضِّر، بل في الواقع ليسوا بشراً. أشارَ العسكريون الإسرائيليون إلى أن قَتْلَ الفلسطينيين مثل "قَصِّ الحشائش"[568]. يَعتَقِد الإسرائيليون والقوى الأمبريالية أن التصرفات مع الفلسطينيين وغيرهم من

الشعوب المستعمَرة يجب أن يُنظَر إليها بمقاييس مختلفة عن تلك التي تُطَبَّقُ على التّصرفات بين شعوب الشمال العالمي. لم يَتوصَّل البريطانيون أبداً إلى طريقة للتعامل مع المستوطِنين اليهود في فلسطين تحت الانتداب، فعَلَى الرغم من أنهم وجِدوا في الشرق الأوسط إلا أنهم كانوا أوروبيين. وفي الوقت نفسه لم يَتردد البريطانيون في التعامل بقسوة مع الفلسطينيين. اعتُبرَت الممارسات الاستعمارية التي طَبَّقَها البريطانيون على الأفارقة والآسيويين مناسبةً في التعامل معهم. وعندما حَصَلوا على الاستقلال تَبَنَّى الإسرائيليون الأساليبَ البريطانية، وحتى القوانين البريطانية في التعامل مع الفلسطينيين. بالنسبة للإسرائيليين فإن هذا التعامل المُختلف هو جزئياً مسألة تَمييز ديني، فلا يتلاءم المسلمون في دولة يهودية، إلا أن تطبيقها هو عِرقي وتاريخي. وضَعتُها بشكل تَبايُنٍ بين الشمال العالمي الصناعي المُتَقَدِّم، الذي يَشمل أمريكا وأوروبا وروسيا واليابان والصين ويَمتَدُّ إلى إسرائيل، في جهة، وبين الجنوب العالمي الأضعف والأفقر والأقل تنظيماً والذي يَشمل العالَم الإسلامي في الجهة الأخرى.

ثالثاً، يؤمِنُ الإسرائيليون بحقٍ أن العربَ يأملون في النهاية بتَدمير دولة إسرائيل. يَعتَقِدُ جميع الناس تقريباً في العالَم الإسلامي أن إسرائيل هي آخر القوى الأوروبية الاستعمارية. يرون أنها تَفعَلُ في فلسطين ما فَعَلَهُ الفرنسيون في الجزائر والهولنديون في اندونيسيا والطليان في ليبيا والصينيون في آسيا الوسطى والروس في القوقاز.

يضَعُ أغلبُ الإسرائيليين ثقتهم في قوتهم العسكرية حسبما تُظهِره استطلاعات الرأي العامة المُتكَرِّرة بسبب إدراكهم لمشاعر الفلسطينيين نحوهم، ولهم في ذلك ما يُبرِّره، فقد رَبِحوا كل مواجهة وقُوَّتهم العسكرية التقليدية أقوى بكثير من جميع جيرانهم معاً. وإذا لم يكن ذلك كافياً فلديهم مَخزون كبير من الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية. وأخيراً لديهم الدعم والتَّسليح والتَّموين من الولايات المتحدة كما ساعدَتْهم السياسات الأمريكية على تطوير صناعة حربية متطورة. لا تُشَكِّلُ الدول العربية خطراً عسكرياً على إسرائيل.

كما لا يُشَكِّل الأعداء من غير الدول حتى الآن على الأقل أي تهديد وجوديّ، فبفَضلِ منظمةِ مخابرات قوية (الموساد) تَمَكَّنوا من اختراق أو إغراء أو تدمير أغلب هؤلاء الأعداء. ولكن داخلياً لا تَستطيع أية حكومة إسرائيلية أن تبدو مُتَهاوِنة أمام خطر الإرهاب غير الدولي. منذ أن أصبَحَتْ هذه سياسة الولايات المتحدة أيضاً وكذلك بريطانيا وفرنسا وروسيا فقد أصبَحَتْ "قانونيةً" بحكم الواقع. تُؤمِنُ إسرائيل أن هذا النظام العالمي الجديد يُبَرِّرُ الهجمات الاستباقية على أعدائهم. تؤكد عقيدتهم العسكرية على الهجمات الاستباقية الضخمة والمُبادَرَة بالانتقام ومُخالفة حقوق الإنسان خارج القانون والقَتل والاغتيال. بقيادة زيف جابوتنسكي وديفيد بن غوريون وأبراهام شتيرن ومناحم بيجن واسحق شامير وآرييل شارون وغيرهم فقد تَبَنُّوا منذ زمن طويل سياسة "صهيونية العضلات أو الصهيونية القوية".

رابعاً، يؤسِّسُ الإسرائيليون أنفسهم على التجربة المؤلمة في المَحرقة الأوروبية. يَستعيدون هذه الذكرى المؤلِمة بنوعٍ من مسرحية التَّعزية العاطفية مع أولادهم وأحفادهم ومع غير اليهود من خلال الأفلام والكتب وعروض المتاحف والاحتفالات العامة. يؤكدون على أن هذه المآسي تَضَعُ

دولتهم في موقفٍ مختلف كاستثناء تاريخي، ويوافِقهم الأوروبيون والأمريكان على ذلك. يَمنَحُ هذا الاستثناء دولَتَهم الحقَّ بالتعامل معها بشكل غير عادي، أو على الأقل بشكل غير ما هو مُعلَنٌ ومُتَعارَفٌ عليه بين الدول. يؤمِنُ الإسرائيليون أن المُبالغةَ في الإجراءات الدفاعية أمرٌ مُبَرَّرٌ وهذا يَسمَحُ لكثيرٍ مِنهم (وليس لجميعهم) الإشاحَةَ بنَظَرِهِم بعيداً عندما تَتَّجِهُ هذه الإجراءات نحو الفظاعة.

خامساً، استَنَدَ الصهاينةُ في ادعائهم مِلكية أرض إسرائيل على الدِّين اليهودي. قام الرئيس الإسرائيلي حاييم وايزمان عند ظهوره أمام حَشدٍ من الجمهور العَلماني في مجلس العلاقات العامة سنة 1946 بإهمال سؤالٍ عن إمكانية التفاوض بقوله: "الدينا عَهدٌ مع الله". يؤمِنُ كثير من الإسرائيليين الآن بأن إسرائيل هي روح هذا العَهد.

كيف يتعامل شعب غزة، وخاصة أعضاء منظمة حماس مع هذه النواحي من المُعتقدات والمُمارسات الإسرائيلية؟

أول ما يجب قوله هو أن هناك فوارق عميقة بين الإسلام واليهودية. لا يَقِلُّ الإسلام إصراراً عن اليهودية فيما يؤمِنُ بأنه عَلاقَتُهُ الخاصة بالمُقَدَّس. يَستعيد المسلمون الشيعة باستمرار ذكرياتهم عن مَحرقتهم الخاصة، ويُذَكِّرُ المسلمون السنّة بعضهم بعضاً ويُذَكِّرون كل من يَلقَونَهُ بالمآسي التي تَعَرَّضوا لها بسبب أفعال الأوروبيين والإسرائيليين. وبشكل متزايد أخَذَ المسلمون، ليس الفلسطينيون فقط بل والأفغان والعراقيون والسوريون والأويغور وغيرهم أيضاً بتَبَنِّي استرتيجية "العضلات والقوة". يؤمنون بأنهم يجب أن يَحصلوا على دولة مستقلة لحماية أنفسهم، إلا أن سياسة إسرائيل وحلفائها هي بالذات الإصرار على مَنْعِ تحقيق مِثْلَ هذه الدولة. وحسب نتائج انتخابات سنة 2006 فإن أغلبية سكان غزة يؤمنون بأن هذه الدولة يجب أن تكون إسلامية، وقد عَزَّزَت الحربُ ذلك الاعتقاد بَدَلاً مِنْ أنْ تُضْعِفُهُ. كانت تلك هي الرسالة التي أعلَنَها مؤسسُ حماس الشيخ أحمد ياسين الذي يَستَحِقُّ تأثيره الكبير استطراداً مختصراً[569].

يُمَثِّلُ ياسين الجيل الذي نَشَأ في الشتات الفلسطيني، كان عمره اثنتي عشرة سنة عندما وصَلَتْ أسرته إلى مخيم للاجئين في غزة[570]. تَعَرَّضَ لحادِثٍ رياضي أدَّى إلى إصابته بالشَّلَل وقضَى بقية عمره في كرسيّ متحرك. أراد الدخول إلى جامعة الأزهر الإسلامية في القاهرة ولكن لم يكن لديه ما يكفي لذلك وظَلَّ بلا عمل سنوات طويلة. دَرَسَ بنفسه اللغة العربية لكي يَقرأ كتب الشريعة الإسلامية. وعلى الرغم من عدم حصوله على شهادات نظامية إلا أنه أصبح مُعَلِّمَاً في مدرسة وسُمِحَ له بإعطاء المواعظ في مسجد مَحَلِّي. قادَهُ اهتمامه بالدراسات الإسلامية إلى الانضمام لفرع غزة من الإخوان المسلمين حوالي سنة 1980. قبَضَتْ عليه الشرطة الإسرائيلية أول مرة سنة 1984 بسبب تخزين أسلحةٍ غير قانونية ولكن أُطلِقَ سراحه بعد سنة. في ذلك الوقت وَقَّعَ ياسين على خطةٍ لتأسيس نسخة غزاوية من الإخوان المسلمين، وكانت تلك نشأة حركة حماس سنة 1987.

قرَّرَت المخابرات الإسرائيلية المساعدة[571]. فَكَّرَ الإسرائيليون أن وجود حركة ذات قاعدة دينية يمكن أن تُقسم الفلسطينيين وتُضعف منظمة التحرير العَلمانية الاتجاه التي كانت تُعتَبَرُ آنذاك

عدوهم الأساسي.

بِغَضِّ النَّظر عما تَمَنَّتْ إسرائيل أنه سيفعله، لم يُهادِن ياسين فيما التَزَمَ به بشأن الكفاح المسلح لتحرير فلسطين وإزالة دولة إسرائيل. عارَضَ أي شكل من المفاوضات مؤكداً أنه على الفلسطينيين أن يُجاهدوا بنجاح في سبيل التحرير أو يستَشهِدوا في سبيله[572]. العنف مُبَرَّرٌ في سبيل طَرد الإسرائيليين، بل هو واجبٌ. لا يَستطيع الفلسطينيون استرجاع أرضهم إلا بالكفاح المسلح. وحسب رأيه، لا يَملك أحدٌ حق تسليم فلسطين لأنها إرثُ الأجيال القادمة. وبذلك يكون الاعتراف بإسرائيل جريمة وانتهاك للحرمات. إصراره المستمر على إعلان هذا الموقف مَنَحَهُ شعبية واسعة بين الغزاويين وتَعرَّضَ لتَدقيق شديد من الإسرائيليين. بعد سلسلة من الصدامات العنيفة سنة 1989 قبَضَ عليه الإسرائيليون ونَفوه إلى لبنان مع حوالي أربعمئة غزاوي اشتَبَهوا بانتمائهم إلى منظمة حماس أو أنهم يؤيِّدوها. قبَضوا على ياسين بتهمة التحريض وحَكَموا عليه بالسجن مدى الحياة.

أُفرِجَ عنه من السجن سنة 1997 في تبادل غريب للسجناء سأتَحدثُ عنه لاحقاً. عاد ياسين إلى التحريض على مهاجمة إسرائيل. لم يُسجَن ثانية بل وضِعَ تحت الاحتجاز عدة مرات. عندما دخَلتْ منظمة التحرير في هدنة مع إسرائيل فيما يسمى خارطة الطريق إلى السلام في يونيو 2003، أدَّتْ دعواته لمزيد من الهجمات القوية إلى تفجير انتحاري في حافلة إسرائيلية في القدس. قام سلاح الجو الإسرائيلي انتقاماً لذلك بقصف البنّاء الذي كان يعيش فيه في غزة. جُرِحَ ولكنه لم يُقْتَل. بعدها بتسعة أشهر في 2004، قُتِلَ مع مرافقيه ومجموعة من المَارة في هجمةٍ جوية مُرَتَّبة بدقة حينما كان خارجاً من الصلاة في مسجد. حَقَّقَ هدفَ الجِهاديين بالاستشهاد[573]، وخَرَجَ في جنازته مئتي ألف شخص.

كما ذكرتُ فقد هَزَمَتْ حماسُ منظمةَ التحرير في الانتخابات الفلسطينية في يناير 2006 على الرغم من غياب ياسين، إلا أنهم أُزيحِوا جانباً من قِبل محمود عباس رئيس منظمة التحرير بنوع من الانقلاب الواقعي. وافَقَت اللجنةُ الرباعية على حَرَكَتِهِ إلا أنها أقنَعَت الفلسطينيين أن المؤسسات التَّمثيلية غير فعّالة. فقد فعَلَوا كل ما قِيل لهم لكي يتأهلوا كديموقراطية وانتَخَبوا حكومة في انتخابات حرة ولكن عندما لم يُعجِب اختيارُهم الأجانب تمَّ إلغاؤه. أنفَقَتْ أمريكا على وجه الخصوص مئات الملايين من الدولارات لتشجيع الديموقراطية والحكومات المسؤولة، ولكن عندما تَصل الأمور إلى التصرفات الأساسية تم إبعاد البرلمانيين حتى أولئك الذين حَمَتْهم قرارات الأمم المتحدة. استَنتَج كثير من الفلسطينيون في غَمرة صَحوتهم أنه لا يوجد خيار سلمي. في تلك اللحظة انتَقَلَت القيادة إلى شاب غاضب آخر هو خالد مشعل.

لم يولد خالد في غزة بل في الضفة الغربية سنة 1960 بعد أكثر من عشر سنوات على الخروج الفلسطيني. وعلى العكس من ياسين فقد تمكَّنَ من الذهاب إلى الخارج، وهاجَرَ مع أبيه إلى الكويت هرباً من حرب 1967. انضَمَّ في شبابه إلى فرع مَحَلي من الإخوان المسلمين، وعندما كان في جامعة الكويت بعد ذلك نَظَّمَ رفاقه من الطلاب الفلسطينيين في حلقة حِوار مثل تلك التي وجِدَتْ منذ زمن طويل بين العرب والترك وأهل القِرم والملايو. انتَقَل سنة 1991 من الكويت إلى الأردن

حيث عمل مع حماس. عندما اتُّهِمَتْ حماس بالقيام بتفجيرين انتحاريين في القدس سنة 1997 اختارَتْه المخابراتُ الإسرائيلية من أجل الانتقام.

أمسَكَ به فريق من عملاء الموساد في 25 سبتمبر 1997 بمدينة عمّان. كانت خطة هجومهم دقيقة وغريبة، حَقَنَ واحدٌ من الفريق الإسرائيلي سُمّاً في أذنه لم تمتلك الأردن علاجاً له. نُقِلَ إلى مستشفى ولكن لم يتمكن الأطباء من عمل أي شيء واعتَبروه ميتاً، بينما طارَدَ حراسُهُ الفريقَ الإسرائيلي وقبَضَتْ عليهم قواتُ الأمن الأردنية. كان مشعل تحت حماية حكومة الملك حسين، وهدَّدَ الملكُ الغاضب بإعدام العملاء الإسرائيليين إذا مات مشعل. اضطَرت الموساد لتقديم مضاد السُّم وأفرَجَتْ عن بعض المَسجونين الفلسطينيين بِمَنْ فيهم الشيخ ياسين تبادلاً مع عملائهم[574]. تمّت مناقشة الهَجْمَة في كل مقهى وبار في الشرق الأوسط وبَرَزَ مشعل كبطلٍ وطني.

انتُخِبَ مشعل قائداً لحماس في أبريل 2014 عندما اغتَال الإسرائيليون القائد السابق. عندما بدأ بقيادة المنظمة ابتَعدَ مشعل عن موقف ياسين المُتشدد إلى استراتيجية أكثر مرونة. اجتمع مع مسؤولين أجانب ووافَقَ على وقف إطلاق النار وكتَبَ في صحف أجنبية وانضَمَّ إلى زعماء دوليين مثل الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر والرئيسة الإيرلندية السابقة ماري روبنسون في المطالبة بوقف الحرب.

ربما كان مشعل أول رجل دولة يقضي معظم وقته في المَنفى، زارَ غزة لأول مرة سنة 2012 واستقبله عشرات الآلاف من أهلها. كانت رسالته إليهم أن تابِعوا القتال ولكن بالاقتران مع المحاولات الدبلوماسية، ومهما كانت الوسائل فالهدف النهائي يجب أن يكون تحرير فلسطين، وفي ذلك لا يوجَد تَهاون ولا ضَعف في الالتزام، ونحو ذلك الهدف يجب أن يتَّحِدَ كل الفلسطينيين[575]. بعد ثلاث سنوات قَدَّمَتْ تسيبي هوتوفلي Tzipi Hotovely وكيلة وزارة الخارجية الإسرائيلية تصريحاً مماثِلاً بالنيابة عن إسرائيل قائلةً: "فلسطين من نهر الأردن إلى البحر المتوسط ومن الشمال إلى الجنوب هي أرضنا ولن نتَخَلَّى عن بوصة واحدة منها"[576]. وهذا هو الموقف في غزة هذه الأيام.

الفصل السابع والثلاثون

الأويغور والإسلام الصيني

الأويغور هم فلاحون وتجار يتحدثون التركية عاشوا تقليدياً في واحات على أطراف صحراء تاكلامكان في مَركز آسيا الوسطى. كانت مدنهم وبلداتهم ذات مرة محطات على الطرق الصحراوية التي تُعرَفُ باسم طريق الحرير التي وَصَلَت الشرق الأوسط بالشرق الأقصى. تَقَعُ إلى شمالهم وراء جبال تينشان الأرضُ التي تَحَوَّلَتْ من سهوبٍ إلى صحراء انتَشَرتْ فيها مجتمعاتُ المَغول والترك البَدَوية من الأورال إلى المحيط الهادي.

مَثَّلَ البدو تحدياً مُتَكرّراً للصين منذ آلاف السنين، على الأقل منذ عهد سلالة هان في القرن الثالث قبل الميلاد. يحتوي كتاب "محاضرة عن الملح والحديد" على تَصَور صيني مثقف عنهم، بأنهم "يَعيشون في الصحراء ويَنمون في أرضٍ لا تُنتِج طعاماً... تَخَلَّتْ عنهم السماء لأنهم لا يَنفعون بشيء. ليس لديهم بيوت ولا ملاجئ ولا يُميزون بين الرجال والنساء ويَعتَبِرون جميع الأرض اليَباب قُراهُم... وخِيامُهم هي بيوتهم. يَلبسون جلود الحيوانات ويَأكلون اللحم النيئ ويَشربون الدَّم"[577].

ما الذي يمكن فِعلُهُ بهم؟ أو مَعهم؟ كانت تلك المعضلة الدائمة في العلاقات الخارجية الصينية. حاوَلوا كل طَيْف السياسات الممكنة، وأشهرها كان بناؤهم السور العظيم لإبقائهم بعيداً، وحاوَلوا تَأليبَ القبائل ضد بعضها بعضاً وتَشجيع البدو على أن يُقاتِلوا بعضهم بعضاً، كما حاوَلوا تحقيق سلامٍ حتى مع أكبر تهديداتهم من اتحاد رجال قبائل شيونغنو Xiongnu (الذين يَعتَقِدُ بعضُ الباحثين أنهم قبائل الهون في التاريخ الأوروبي)[578]. نَدَبَ أسَفَاً الامبراطور وين Wen حوالي سنة 170 قَبلَ الميلاد قائلاً: "أرسلتُ حملات كانت ضخمة بحيث تلامستْ قبعاتها وأغطية عرباتها على مد البصر في الطريق، وتَتابعتْ آثار عجلاتها لكي أوضح أهدافي إلى شانيو Shanyu حاكم قبائل شيونغنو... معاً سنضع جانباً كل أخطائنا الصغيرة ومعاً سنسير في الطريق الأعلى نحو الفضيلة"[579]. يُفْهَمُ مِنْ رسالتِهِ بالطبع ما كان يمكن أنْ يَحدُثَ لو أنَّ الحاكم العدو لم يَتبَع "الطريق الأعلى نحو الفضيلة". عندما لم تَنجح جميع السياسات بدأ الصينيون ربما أكمَل نسخة تَمَّتْ محاوَلتها لتَغيير النظام. لم يُحاوِلوا فقط إسقاطَ النظام الحَاكِم، بل عَمِلوا على تَغيير نمط معيشة القبائل البدوية كلياً. قام مُخَطِّطٌ سياسي اسمه تشاي Chai I حوالي سنة 170 قبل الميلاد بوضع برنامج يُعرف

باسم "الإغراءات الخمس Ch'uan-hsing" لتصحيح نمط معيشتهم الفاسد: سيُشَجِّعُ الصينيون البربريين المتوحشين للتَّخَلِّي عن جلود الأغنام ويَلبَسون الحرير، والنزول عن ظهور الجياد ليَركَبوا العربات، ويَتركوا الخيام ليَسكنوا القصور. كان أمله لأن البرابرة سيُتبِعون هذه الخطوات بتَغيير جميع عاداتهم، وإذا فَعَلوا ذلك سيَتَوَقَّفون سريعاً عن كونهم مُحارِبين ويُصبِحون عالةً مُطيعَةً مُعتَمِدَةً على السَّخاء الصيني، وحتى السور العظيم سيَتَحَوَّلُ إلى سوقٍ تُباع فيه البضائع المُفْسِدَة.

لم يُغَيِّر البرنامجُ المجتمعَ البدوي بشكل نهائي ولكنه خَفَّفَ الضغطَ على الصين، وسَتَمرُّ ألفُ سنة قَبلَ أن يواجِهَ امبراطورٌ صيني تَحدِّياً جَدِّياً من بدو آسيا الوسطى. ولكن ما استفادَتْ منه الصين أدى إلى تَخريب أوروبا إذا اندَفَعَ بدو آسيا الوسطى عندما صَدَّتْهُم الصين في موجاتٍ متتالية نحو الامبراطورية الرومانية. على الرغم من أن البدو قد تم تَحويلُ انتباهِهِم، إلا أن الصينيين وَجَدوا أنهم لا يَستطيعون تَركَ آسيا الوسطى لشأنها، فقد امتَلَك أهلُ آسيا الوسطى سلاحاً حَربياً قوياً لا تستطيع الصين أن تُنتِجَهُ لنفسها: الحصان المُقاتِل، بالإضافة إلى أشياء أخرى. لا تستطيع الجيوش الصينية قتال أعداءها البدويين دون "خيول السماء" من وادي فرغانة[580]. من المفارقة أن الحصان قادهم إلى آسيا الوسطى في محاولتهم السيطرة على أهلها. كان البدو دائماً يَتَرَصَّدُون وراء الأفق.

العلاقات مع السكان المستقرين جنوب جبال تينشان كانت مختلفة إذ لم يُشَكِّلوا أي تهديد بل كانوا مفيدين بطرقٍ مختلفة. عندما بدأ الصينيون اكتشاف البوذية تَنَقَّلَ حُجَّاجُهم وعُلماؤهم عبر المدن التي تَقَعُ على الطريق نحو الهند وأخَذوا مُؤنَهم منها بل واستَقَرُّوا فيها لفترات طويلة أحياناً[581]. لم يَتمكَّنوا من الصمود في رحلات الصحراء الطويلة لولا مدن الواحات. أحياناً وبشكل خاص خلال فترة حُكْمِ سلالة تانغ المثقَّفة المُترَفة في القرن التاسع كان الأباطرة والتجار الصينيون يُفضِّلون البضائع الإيرانية والعربية التي كانت تُجلب إلى الصين على ظهور الجِمال المتثاقلة على طريق الحرير[582]. وفيما بعد ذلك مَرَّ تجارٌ مُغامرون إيطاليون، مثل أسرة ماركو بولو، ومُغامرون مسلمون، مثل الرَّحالة العظيم ابن بطوطة، وزاروا المدن في طريقهم إلى الصين.

فوائدُ سكان آسيا الوسطى لم تُقنِع الصينيين بأنهم مُتَحَضِّرون، بل جَعَلَتْهُم مَقبولِين. فَكَّرَ معظم حكّام الصين أن تَركَهم يَعيشون حياتهم البدوية أفضَل من إنفاق المال والجهد اللازم لقَهرهم وتَطويرهم.

استَمرَّ سلوكُ تَركِهِم لشأنِهم قروناً عديدة إلى أنْ حَدَثَ تَغَيُّرٌ حاسِمٌ حوالي فترة الثورة الأمريكية. تَخَلَّتْ سلالة كينغ Qing أو مانشوز Manchus الحيوية المَغولية الأصل عن الدبلوماسية وتَحولَتْ إلى القوة العسكرية. ذَهَبَ الامبراطور كينغ كينلونغ Qing Qinlong بعيداً في ذلك لدرجة الإبادة الجماعية. دَمَّرَت القواتُ الصينية بأوامره بدو قبائل الزونغهار Zunghar التي خَلَفَتْ قبائل الشيونغنو الذين عاشوا فيما يُعرَفُ الآن بدولة كازاخستان.

كانت علاقات سكان الواحات مع بدو الشمال أقل من علاقات الصينيين معهم، ولم يُطلَق عليهم اسم الأويغور إلا بعد الثورة الروسية. كانت مدنهم مَحمِيَّةً بفضل حاجزِ جبال تينشان، وكانت مدنهم-دولهم مستقرة زراعياً تدعمها تجارة شرقية-غربية وليست شمالية-جنوبية. كانت الصين بعيدةً يصعب الوصول إليها على مدى قرون طويلة. كانت مجتمعات "المدن السبعة"، كما كانوا يسمون أنفسهم باللغة التركية، تقليدية ومكتفية ذاتياً[583]. شَكَّلَتْ كل مدينة مَركَزاً مستقلاً ومُكتَفياً ذاتياً مثل المدن والبلدات في آسيا وكثير من مناطق أفريقيا التي زَرَعَت المناطق حولَها ونَسَجَتْ ثيابها في ورشاتها وَنظَّمَتْ تجارتها في أسواقها. لم تَتميَّز المدن كثيراً عن بعضها ولا عن المدن الأبعد في سمرقند وبخارى، على الرغم من تَباعدها الكبير بالنسبة لوسائل النقل المتوفرة آنذاك. كتَبَ مُراقِبٌ روسي فيما بعد "تُحيطُ بها آلاف الأميال من السهوب الصعبة الاختراق، وتَكَيَّفَتْ مع الشعور بالاستقلال الكامل"[584].

كان الاستقلال مسألةَ ماءٍ بشكل كبير: تَجَمَّعَ الناس منذ ما قَبلَ التاريخ حيث يمكن جَمْعُ الماء من الينابيع أو ذوبان ثلج الجبال أو الأنهار ونَقْلِها في أنفاق تحت الأرض، وعاشوا في انسجام مع ما وَفَّرَتْهُ الطبيعة[585]. حَكَمَ الطغاةُ كثيراً منها مثلما كانت حالةُ أكثر الناس عبر أغلب فترات التاريخ، ولكن الحَكَمَ الفاعِلَ في حياتهم كانت العادات والتقاليد. تَصَرَّفوا مثلما كان يَفعَلُ آباؤهم وأجدادهم ونادراً ما حَاوَلوا التَّغيير. عندما يَتحداهم غزاةٌ كانوا يَتلاءمون لأن البديل كان غالباً هو القَتل. ومع مرور الزمن بَدَّلَ الأحياء أنفسهم أو استُبدِلوا بالمهاجرين القادمين، وطالما كان الماءُ متوفراً استَمرَّت المدن في الحياة.

استَمَدَّ الأفراد شعورهم بالهوية من المدن "الخالدة"، وقد بَيَّنتُ أن ذلك هو من سمات المدن والبلدات في آسيا وأفريقيا. عندما بدأ الأويغور يَبحثون عما يَعنيه شُعورهم بالهوية استَخدَموا الكلمةَ العربية ذاتها التي استَخدَمها المصريون: "الوطن". كان الوطن هو المكان الذي استَمَدَّ منه الأفراد بقاءهم والذي يُرجِعون إليه ولاءهم. دلَّ الاسمُ في البداية على قريتهم أو بلدتهم أو مدينتهم، وفي النهاية أصبحَ يَعني قوميتهم. وَطَنُ المرءِ في آسيا الوسطى كان مدينته.

ربما لم يُسافر سوى قليل من أهل المدن السبعة بعيداً عن بيوتهم أو حدائقهم أو المزارع المجاورة لمدينتهم لدرجة أن السَّاكِن في كاشغار Kashgar أو خوتان Khotan أو أكسو Aksu عندما يُغادِر يَتَّجِه إلى الغرب نحو مدن واحاتٍ مماثلة في سمرقند وبخارى. كان من النادر أن يَعرِفَ أحدٌ أو يَهتَمَّ بمَعرِفَةِ شيءٍ في العالَم أبعد من ذلك. تَبدَّل هذا الشعور بالعزلة بِشعورِ وحدةٍ ثقافية جزئية على الأقل مع قدوم الإسلام.

يرجع تاريخ قدوم الإسلام عادةً إلى وسط القرن الثامن عندما هَزَمَ جيشُ الخليفة العباسي جنوداً ومسؤولين في جيش سلالة تانغ في معركة طلاس Talas. طُرِدَ الصينيون بعد هذه المعركة من آسيا الوسطى ولن يَعودوا إليها إلا بعد ألف سنة. تُعتَبر سنة 751 واحدة من تلك التواريخ المُخادِعة التي تُشير إلى حَدَثٍ واحد يَرمِزُ إلى مسارٍ طويل المَدى. كانت المعركة نقطة تَحَوُّلٍ

رئيسية إلا أن نتائجها الكاملة لم تُلاحَظ إلا بعد أجيال. أخَذَ الأمرُ قرنين من الزمن قَبلَ أن يَندمِجَ الإسلامُ في الممارسات المَحَلية ليَخلق الاندماج الذي يُمكِنُنا اعتبارُه طريقةً إسلامية في الحياة في المدن السبعة.

أحد نتائج الاجتياح المخيف لجنكيزخان في القرن الثالث عشر عبر آسيا الذي دَمَّرَتْ فيه جيوشه أعمال الري وأحرَقَت البيوت وذبَحَت المواشي وقَتلَت السكان هو تقسيم مجتمعات آسيا الوسطى: ارتَكَبَ قَتْلاً جماعياً لأهل بخارى وسمرقند ولكنه قَبِلَ استسلام المدن على الخاصرة الجنوبية لجبال تينشان ووظَّفَ تجارهم المتَعلِّمين في مكاتب بدأ تشكيلها لإدارة امبراطوريته الواسعة[586]. نتيجةٌ ثانية للتدمير المَغولي هي أنه جَعَلَ الأحياء محتاجين للعَزاء. لم يكن ذلك متوفراً في الإسلام الذي وصَلَ آسيا الوسطى في جعبة الجنود على ظهور الجِمال في الكتب البحثية والشرعية. سَدَّت الصوفيةُ هذه الحَاجَة.

الصوفيون المُتَجَولون، خاصة من الطريقة النقشبندية النشيطة، جَعَلوا الإسلامَ الدِّينَ الشعبيّ في آسيا. بعيداً عن الكهّان الهَادِئين، كثيراً ما أصبَح الصوفيون محارِبين أو كما يسمون أنفسهم "مجاهِدين". شَكَّلُوا جيوشَ الإمام شامل في حرب العصابات الطويلة ضد الأمبرياليين الروس في القوقاز، وقادوا المقاومة ضد الهولنديين في آتشيه، وحارَبوا الطليان في ليبيا. وفي أيامنا حَرَّضَ الصوفيون الطالبان ضد الروس والأمريكان في أفغانستان. بما أن أغلب الجنود في "جيوش" حركات المقاومة الإسلامية كانوا مُتَطَوعين مُؤقَّتين فقد صَنَعَ الصوفيون غالباً الفارق بين النجاح والفشل بسبب تَشبعهم بالإيمان وتَنظيمهم الصَّارم الذي يَجعلهم يَتصرَّفون مثل المُقاتِلين الذين يَعتَبرهم العسكريون المِهنيون هذه الأيام القوى "الجَوهرية المُيَبِّسَة" التي تَمنَحُ التَّماسك والحَماس للجماعات الأكبر مِمَّن سيُصبِحون الجنود.

انتَشَروا في كل مكان مثلما أسَّست السَّنوسِية زواياها في صحراء وسهوب شمال أفريقيا. أدارَت الطريقةُ النقشبندية نشاطها من مؤسسات مماثلة من الحصون-المساجد-المدارس أطلَقوا عليها اسم الخانقاه Khanaqa تَوَزَّعَتْ في مدن آسيا الوسطى[587].

عمل الصوفيون كمرشدين روحيين للسكان وبشكل منفصِل عن المسلمين الأكاديميين البيروقراطيين الفاترين. قَرَّبوا الإسلام إلى حياة الناس بكلمات يستطيعون فَهمها. كان هناك صرامةٌ في الإسلام النظامي لم تُقَدِّم العَزاء في أوقات الشدة والبلاء وصَوَّرَت الله كأنه حاكِمٌ شديد لا يُساوِم بدلاً مِن كَونِهِ مُحِبٌّ وغفور. سَعى ملايين المسلمين إلى علاقة أكثر حميمية، وتَقَاطَروا، مثل المسيحيين، نحو قبور "الأولياء" سَعياً وراء البَرَكَة والغفران. كان ذلك مخالفاً لتعاليم الإسلام الرسمي، ولكن الصوفيين صَرَّحوا به كإجراء شرعي، وأصبَحَت الصوفية حركة شعبية، وأصبَحتْ طقوسها تسلية جماهيرية بالإضافة إلى كونها تَجمعات دينية، وأصبَح زعماؤها قَضاة وحتى حُكَّاماً. تحت إرشاد الصوفيين وإنعاش مدارس التعاليم العربية والإيرانية وغِنَى التجارة على منطقة واسعة أصبَحَت المدن-الدول مثل بخارى وسمرقند وخوقند وكاشغار وأكسو مجتمعاتٍ إسلامية نابضة بالحياة.

بعد قرون من الغَزو المَغولي، شارَكَتْ شعوبُ المناطق الشمالية والغربية مما أصبح "تركمانستان" في صُنعِ الامبراطورية المُغولية في الهند وفيما أصبح الامبراطورية السلجوقية والعثمانية في الشرق الأوسط، إلا أن المدن-الدول إلى الشرق من المدن السبعة لَعِبَتْ دَوراً صَغيراً في النهوض الكبير للفتوحات التركية-المُغولية.

في القرن الثامن عشر ظَهَرَ شكلٌ أمبرياليٌّ أكثر حداثَةً في آسيا الوسطى. التَّحرك الروسي من الشمال الذي بدأه القيصر إيفان الرهيب، تَمَّتْ متابَعته على يد بطرس الأكبر الذي أرسَلَ جيوشه نحو المناطق المحيطة ببحر قزوين، وإلى الشرق نحو أراضي السهوب الواسعة فيما هو الآن كازاخستان. تَعثَّرتْ بداية الأمبريالية الروسية في آسيا الوسطى وماتَ جنود بطرس بالآلاف في سبيل طموحاته. حَشَدَ سكان المدينة-الدولة في خيفا جيشاً ذبَحَ جنود بطرس في الجنوب قرب بحر قزوين، بينما قام فرسان بدو الزونغهار المُستعدِّين دوماً للقتال في الشمال بالقضاء على جيشٍ أرسَلَهُ للسطو على ذَهَبِهِم.

كان لدى روسيا احتياطيٌّ هائل من القوى العاملة في الرَّقيق من سكانها والقادة العسكريين الذين كانوا يَطمَحون للحصول على الترقيات والأوسمة في المعارك. تابَعَ خلفاء بطرس ما بَدأه، فتَقَدَّمَتْ كاثرين العظيمة في أراضي التتار الأتراك حول البحر الأسود واحتَلَّتْ أجزاء كبيرة من الامبراطورية العثمانية. اندَفَعَ الاسكندر الكبير ونيقولاس في القوقاز وانتَصَروا أخيراً على الشيشان والكازاخ. خضَعَتْ آسيا الوسطى تحت الحكم الروسي مثلما خضَعَتْ جنوب شرق آسيا للهولنديين وجنوب آسيا للإنكليز وسَقَطوا تحت الحكم الأمبريالي لشعوب الشمال العالمي.

كانت الصين رائدةً في الصراع من أجل امبراطورية بشكل متقطع، وعلى الرغم من أننا لا نفكر فيها كجزء من الشمال العالمي، إلا أن الصين كانت دوماً قوة أمبريالية. وضعتْ أول سلالاتها الحاكمة "الشانغ Shang" ذلك المَيل إلى الأمبراطورية الجينية بغَزو واستِغلال واستِهلاك جيرانِها.

طَوَّرَ الصينيون نظرةً عالمية مُفَصَّلَة للأمبريالية يقع في مركزها المَيدان الامبراطوري t’ien-fu حيث يحكم الامبراطور بتَفويضٍ مِنَ السماء t’in-ming. تحيط بمنطقة القلب دول شبه مستقلة hou-fu تتم السيطرة عليها عن طريق حكام مُفَوَّضين أو دُمَىً خاضعة للامبراطورية، ووراءَ هذه الحلقة من الدول مباشرة تَقَعُ منطقةٌ مُتَحَالِفَة في طريقها للتحول إلى الثقافة الصينية، ثم تأتي الدول التَّابعة الإقطاعية الواقعة تحت السيطرة أو التَّبعية yao-fu، وأخيراً يَقَعُ العالَمُ البربري الهَمجي huang-fu. تتضِحُ النظرة الصينية إلى الشعوب الهمجية wai-i باستخدام كلمات مُهِينة مثل "كلب" أو "دودة" بَعدَ أسمائِهم. وهم النسخة الصينية من "تحت البشر untermenschen" الألمانية588.

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أَرسَلَتْ سلالةُ المينغ بعثات إلى المدن البعيدة في آسيا الوسطى وحتى أصفهان في عمق إيران، إلا أنهم بشكل عام كانوا يَمنعون رحلات التجار الخاصة من السفر إلى مناطق خارج سيطرة حكوماتهم وأصَرُّوا على أن التجارة يجب أن تُعتَبر

نوعاً من الثّناء kung انسجاماً مع فَهمِهِم للنظام العالمي. كما كتب Joseph F. Fletcher: "حَكّامُ مدن الواحات التَّافهة الواقعة على طَرَفِ آسيا الوسطى من امبراطورية مينغ الصينية وافَقوا بسرور على رَسميات الكَّرَم فقد كانت بعثات العطايا عَملاً مُغرياً وكان هنالك دائماً أملٌ (عميق في الغالب) أن سيادة المينغ الكريمة ستَحمل معها أيضاً درجة ما من الحماية... "نظام العطايا" تَرَكَ تجارة آسيا الوسطى بيد سكانها إنما تحت السيطرة الامبراطورية"[589].

تابَعَ المُحارِب المَغولي تيمورلنك ما تَرَكَهُ الخليفة العباسي بعد أن هَزَمَ قوات امبراطورية تانغ في معركة نهر طلاس سنة 751. نَجَتْ سلالة مينغ عندما توفي تيمورلنك فجأة. أسرَعَ الامبراطورُ الصيني بإرسال بعثةٍ مُحمَّلة بالهدايا ورسائل التعزية (من المثير للاهتمام أنها كانت بثلاث لغات: الصينية والإيرانية والأويغورية) عَبْرَ آسيا الوسطى إلى هيرات (فيما هو الآن أفغانستان) إلى شاروخ بهادور خَليفَةُ تيمورلنك. بدأ ذلك الحَدَث سِلسلة من المُبادلات الدبلوماسية والتجارية لَعِبَ فيها شعبُ الأويغور دوراً استفادوا منه، ولكن لا الامبراطور الصيني ولا شاروخ بهادور كانا يريدان اللعب وِفْقَ القوانين الصينية. عنما تَدَخَّلَ الامبراطور يونغ لو Yung-lo في السياسات المَغولية بالثناء على السفير المَغولي لقيامه بِخِدْمَةٍ وبإعلان نفسه أنه بأمرٍ مِن الله "حاكِم العَوالم على سطح الأرض"، رَدَّ عليه الامبراطور المَغولي باللغة العربية والإيرانية ونصَحَ الامبراطور يونغ لو "أن يَتَخَلّى عن طُرُقِهِ الوثنية ويَعتَنق الإسلام... ولكنهما خَفَّفَا لهجَتهما المُتعَجرفة وتابَعا تَبادل السفارات"[590].

في سنة 1644 غَزَا المَانشوريون الصين وأسقَطوا سلالة مينغ، وأسَّسوا حُكم سلالةٍ جديدة عُرِفَتْ باسم الكينغ Qing التي كانت أكثَرَ وَلَعاً بالحرب والقتال، وفي سنة 1646 قَبِلَتْ تورفان Turfan أولى المدن-الدول في آسيا الوسطى التَّبَعِيَّةَ لسلالة كينغ. تابَعَتْ كينغ سَيرَ الصين في آسيا الوسطى في القرن السابع عشر، وكان الاسم الذي أطلَقوه على آسيا الوسطى هو شينجيانغ Xinjiang وهو الاسم الذي نَستَخدِمه والذي استَخدَمه خلفاؤهم فيما بَعد. كان هدفهم الأول هو إخضاع شعب الزونغهار.

كان الزونغهار أقوى شعوب شينجيانغ وأكثرهم قتالية. كانوا شعوباً بدوية انتَشَرتْ في السهوب شمال جبال تينشان، وكما ذكَرتُ فقد قَضَى عليهم الامبراطور كيانلونغ Qianlong. اعتَبرَهم الصينيون همجيين ومتوحشين wai-i، وبينما أصَرَّ الصينيون على إبادَتهم وجميع البدو الرُّحَّل، إلا أنهم كانوا مُتَرَدِّدين بشأن الشعوب المستقرة على طول طريق الحرير لأنهم كانوا مفيدين في التجارة وربما كانوا مفيدين أيضاً كبرابرة ضد البرابرة الآخرين من داخِلِهم، وصَنَّفَ الامبراطورُ الروسَ معهم. وافَقَتْ شعوب المدن السبعة على مَحو شعب الزونغهار الذي كانوا يخافونه ولكنهم أخطؤوا فَهْمَ عدم التحرك الصيني على أنه ضَعفٌ. رفَضوا دَفعَ الضرائب التي طلبَتْها امبراطورية كينغ وأهانوا المسؤولين وهَدَّدوا مَصالح الامبراطورية.

في رسالةِ سياسات يَرجِعُ تاريخها إلى سنة 1592 في سلالة مينغ، وَضَعَ تشانغ شوشينغ Chang Chu-cheng الاستراتيجيّ الصيني الكبير السياسةَ التقليدية للتعامل مع الدول الاقطاعية التابعة أو التي يجب أن تكون "تحت السيطرة" التي خَضَعَتْ لها شعوبُ المدن السبعة: "كيف يتَمكَّن المَرء من إخضاع البرابرة المُتَعَجرِفين المُقاتِلين الذين لم يَستَسلموا إلا مُؤخَّراً؟ المبدأ المُهِمُّ للمسؤولين هو التعامل معهم بطريقة مَرِنة: مثل التعامل مع الكلاب، إذا حَرَّكوا ذيولهم تُرمى لهم العظام، أما إذا نَبَحُوا بِهَمَجية فيجب ضَربهم على رؤوسهم بالعِصي، وبعد الضرب إذا خَضَعوا ثانية تُرمَى لهم العظام، وإذا نَبَحوا ثانية بعد العظام يُكَرَّرُ الضَّرب"[591].

ربما طَبَّقَتْ سلالةُ كينغ ما وَرَدَ في رسالة السياسات التي كتَبَها تشانغ وقرَّرتْ أنها يجب أن تَردَّ على العِصيان (الخفيف) في مدن الواحات، إلا أنهم بلا شك قد طَبَّقوا سياستهم العنيفة ضد شعب الزونغهار بشكل مُبالَغ فيه، ونَجَحوا في ذلك إلا أن الحملة كانت عالية التكاليف في المال والأرواح. أدَّت التكاليف العالية لإثارة قلقهم بشأن مشاكل مماثلة في المستقبل، وبِشَكلٍ مُغايرٍ أدى نجاحهم إلى شَكِّ استراتيجييهم بسياساتهم ففَضَّلَ الأكثرُ حَذَراً منهم الخروجَ من آسيا الوسطى بكاملها لأن التكاليف ستكون عالية والمَردودُ قليل. بينما فَضَّلَ خصومهم، الذين نُسميهم هذه الأيام المُتَشَدِّدين، الاحتفاظ بالمدن-الدول على طريق الحرير داخل الامبراطورية. حَسْبَ السجلات، تم اتخاذ القرار ليس لأسباب جغرافية أو اقتصادية، بل استناداً إلى الشَّفَقَة العائلية.

جادَلَ المستشارون المتَشَدِّدون بأن النظام الصيني الأمبريالي يجب أن يحافظ على على مكاسب أجداد الامبراطور[592]. كان من الصعب الرد على هذا الحوار حسب الثقافة الصينية، وكانت التكاليف والمكاسب بلا قيمة، إنما الأهمية "للشفقة والرحمة"، التي تَعني بالمصطلحات الحديثة "الكرامة الوطنية" أو "عبء الرجل الأبيض" أو "الحرب على الإرهاب" وغيرها من المُبرِّرات. من السهل دائماً تَبرير الأفعال حتى عندما تكون التَّكاليف عالية والمَكاسب قليلة، وعلى العكس، يُعتَبَر التَّراخي "إثماً" أو ضَعفاً أو غير وطني.

كانت تلك سياسة كينغ في الاستعمار خلال السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. استَولوا أولاً على مناطق واسعة من المتَمردين المَهزومين ثم قسموهم بِمَنْعِ الاستيطان الصيني في حوض نهر تاريم وتَشجيعِهِ شمالَ جبال تينشان. فَشِلَ ذلك في تهدئة السكان المُستقرين في المدن السبعة ولذا طَبَّقوا في عشرينيات القرن التاسع عشر أقدَم وأنجَع وسائل قَمع التمرد وهي تَوطين شعب جديد في المناطق المحتلة. بعد إبادة شعب الزونغهار نَقَلَ المينغ أقليات مسلمة من غير شعب الهان (الهويهوي Huihui والتونغان Tungans والدونغان Dungans)، ومن الهان غير المسلمين إلى مناطق الزونغهاريستان[593]. كان هدفُهم دعم جنودهم بالغذاء الذي يُنتِجه المُستوطِنون ولوَضْعِ سكان صينيين يَستطيعون تَجنيد ميليشيا مِنهم. يبدو أنهم لم يُدخِلوا هؤلاء المستوطِنين إلى المدن الموجودة بل فَرَضوا على المدن-الدول في المنطقة الجهازَ الإداري المُرتَبِط دائماً بالحُكم الصيني. والمهم أنهم قرَّروا المحافظة على المدن بدلاً من تَدميرها.

بعد وفاة الامبراطور كيانلونغ تَشَتَّتَ انتباهُ خلفائه بسبب مشاكل متزايدة في داخل الصين. كانت الامبراطورية في مصاعب مالية وتَدهوَرت حالة الكينغ في كوارث متتالية بسبب حرب الأفيون الأولى 1839-1842، ثورة تايبينغ Taiping 1850 التي استَمرتْ أكثر من عشر سنوات، وحرب الأفيون الثانية التي حَدَثَتْ معها، وثورة الصينيين المسلمين. أدَّتْ هذه الكوارث المؤلمة إلى وفاة ملايين من الناس. انسحَبَ الصينيون من السياسات الهجومية للامبراطور كيانلونغ بسبب الضعف الذي أصابهم إثر حرب الأفيون الأولى وعقودٍ من الحروب التالية، وسَمَحوا على الأقل للمدينة-الدولة البعيدة في خوقند في وادي فرغانة الخصيب بدرجةٍ من الحُكم الذاتي الذي اقترب من الوطنية.

لم تنجَح السياسة الجديدة. استَمرَّ أهل آسيا الوسطى بالإغارة على المدن الصينية والمراكز الحدودية. يبدو أن تلك الغارات كانت انتهازية وليست سياسية: إذ قامَتْ بها عصابات قطاع طرق بحثاً عن السرقة والنهب. ولكن تحت ضغط الأحداث بدأتْ تأخذ شكلاً أكثر جدية. شَجَّعَ تَراخي السلطة الصينية المحارِبين المُتَدَينين لكي يُصبِحوا أكثر جرأة. تَحَولَت الغارات في خمسينيات القرن التاسع عشر بتشجيع الصوفيين المحارِبين إلى ما يشبه الحرب الدينية. انهارَ حُكم الكينغ في آسيا الوسطى.

في ذلك الفراغ ظَهَرَ مغامرٌ اسمه يعقوب بك Yaqub Beg [594]. بدأ ظهوره كقائد عسكري تحت حكم الخان بمدينة كاشغار. بعد أن حازَ على شهرة النجاح واستَولى على ما يستطيع دَفْعُهُ لأتباعِهِ، قَفَزَ يعقوب بنفسه إلى خَلقِ قوةٍ مستقلة. وفي سلسلة متسارِعة في ستينيات القرن التاسع عشر استطاعَ احتلال المدن السبعة واحدة تلو الأخرى ليَصنعَ نوعاً من الامبراطورية. وأزعَجَ بفعلِه هذا المَصالح الصينية وكذلك الروسية وحتى مصالح الهند البريطانية. ولا يوجَد ما يُشير إلى أنه قد فَكَّرَ بهذه الطريقة إلا أن يعقوب كان أول مَن طَرَحَ نسخة آسيا الوسطى من ثورة الجنوب العالمي ضد الشمال.

كان الروس أول مَن حاوَل استراتيجية جديدة في مواجهة المشاكل والاستفادة من الفرص التي قَدَّمَهَا يعقوب، فوَضَعوا جنودَهم في المنطقة حول بحيرة بلخاش Balkhash وعلى طول نهر إيلي Ili لمَنْعِ شعبِ يعقوب من التَّحرك إلى المنطقة التي احتَجَزوها لمُستَوطِنيهم في شمال تينشان، وشَجَّعوا يعقوب في الوقت نفسه على مَنْعِ تَقَدُّمِ قوات الصينيين جنوب تينشان على طريق الحرير.

حُصِرَ يعقوب في كَمَّاشَة، هَدَّدَهُ الروسُ في الشمال والصينيون في وسط دولته الجديدة وخَشِيَ أيضاً من حصار البريطانيين في الجنوب. لا بد من أنه كان يَعلم، مثل جميع المسلمين في ذلك الوقت، عن المصير الذي لاقَتْهُ الامبراطوريةُ المُغولية عندما تَقَدَّمَ التجارُ والجنود الإنكليز من رأس جِسْرِهِم في البَنغال عبر الهند. كان الخطر في كل مكان ولكنه قَرَّرَ أن الخطر المباشر كان روسيَّاً.

كانت القوات الروسية قد احتَلّتْ طشقند سنة 1865 وبتحرك سريع أخَذوا سمرقند ومدناً أخرى في غرب تركستان. هَزَموا وأهَانوا حاكِم المدينة العظيمة بخارى. حَرَّكَ يعقوب قواته للمقاومة ولكنه عَرِفَ أنه لا يَملِك ما يكفي من القوة ولذلك اتَّفَقَ مع الروس على تَنازل: يَعتَرِفُ الروسُ به حاكِماً على المدن السبعة على أن يَسمَح لتُجَّارهم بالمرور عَبر أراضيه إلى الصين. وضِعَت الشروط في اتفاقية سنة 1872 [595]. ومِثْل كثيرٍ من الاتفاقيات بين الشمال العالمي وحكام الجنوب المُفَخَّمين، فقد كانت خطوة وليست تَوَقُّفاً.

قَفَزَ البريطانيون للرَّد على الروس، فمنذ أيام بطرس الأكبر كانوا يَخافون تحرك الروس نحو الهند. فقد كانوا يُدرِكون جيداً أن احتلال الهند هو الذي جَعَلَ انكلترا قوة عظمى، وإذا خَسِرَتْ انكلترا امبراطوريتها الهندية ستَنكَمش إلى قوة صغيرة غير مهمة، على الأقل كان ذلك ما فَكَّرَتْ به حكومتها. وكما قال الملك جورج الثالث إن الامبراطورية هي التي جَعَلَتْ انكلترا دولة عظيمة، وإذا خَسِرت الامبراطورية ستُعاني انكلترا "دماراً شاملاً، قد تَستمر دولةً صغيرة بالتأكيد إلا أن دولةً عظيمة تَتلاشى لا يمكن أن تَتردى إلى حالة أدنى ولا بد مِن أن تَزول وتُباد"[596]. لِمَنعِ تَلاشيها لا بد من أن تَتقدَّمَ الدولةُ، ولذلك فمنذ أيام الملك جورج عندما سيطَرتْ شركة الهند الشرقية على البَنغال تقدَّمَت الدولة عبر الهند ولم تَجد مكاناً للوقوف. "إلى الأمام" كان روح سياساتها.

وضَعَتْ بريطانيا لنفسها حصةً في آسيا الوسطى فانبَرَى كبار الرجال الإنكليز الذين ورثوا النابوب Nabobs الذين قادوا انكلترا في الهند وهَلَّلوا لوجود ثروات عظيمة في المدن السبعة وعن الامتيازات التي يمكن الحصول عليها من فتح بابٍ خَلفيٍّ إلى الصين. كانت الادعاءاتُ زائفة بشكل كبير ولكنها سَمَّمَتْ عقولَ كبار الرجال في الامبراطورية البريطانية. وهكذا تفاوَضَتْ بريطانيا مع يعقوب للتَّوصل إلى اتفاقية سنة 1874 [597]. كانت اتفاقيةً تجارية بالنسبة للتجار الهنود، وبالنسبة للاستراتيجيين البريطانيين أسَّست مَركَزاً متقدماً، أما بالنسبة إلى يعقوب فقد كانت إنذاراً.

اتَّجَهَ يعقوب بعيداً لدعم موقِفه. كان قد أرسَلَ بعثاتٍ إلى الامبراطورية العثمانية عدة مرات بين 1872-1876. يُعتَقَدُ أنه عَرَضَ في مَساعيه أن يُصبِح نوعاً من الحاكِم الشَّرطِيّ مثل الباشا العثماني شبه المُستَقِّل. فبالنسبة إلى يعقوب كان هذا العَرْضُ رمزياً وربما فَكَّرَ أنه سيَمنَحُهُ بعض الفوائد، وربما اغتَبَطَ السلطان إلا أنه لمْ يَملك الوسائل ليَلعَبَ دوراً في لُعبَةِ آسيا الوسطى. كانت الدولة العثمانية "رجل أوروبا المريض" ولم يكن لديها فائض من المصادر للتوسع في آسيا الوسطى، وعلى كل حال فقد أرسَلَ السلطان بعض المستشارين العسكريين والأسلحة ولَقَباً جديداً. يَستطيع يعقوب أن يُسَمي نفسه "قائد المؤمنين"[598]. كل ذلك كان بلا فائدة، إذ لم تكن الألقاب جنوداً، ولم تكن المدن السبعة دولةَ أمَّةٍ مُتماسِكة، ولم يَعِشْ يعقوب طويلاً. توفي حوالي مايو 1877 بسببٍ غامض، ربما بالسّم أو بسبب صدمة دماغية.

نَبَّهَت الصينيين كل هذه التحركات الروسية والبريطانية وحتى العثمانية، وعندما حانَت الفرصة في الفوضى التي حَلَّتْ بعد وفاة يعقوب، قَرَّرَ الصينيون تَغيير سياستهم الحَذِرة الانسحابية،

وعَيَّنَ امبراطور كينغ حاكِماً نشيطاً وقاسياً عَزَمَ على قَمْعِ أية إشارة لمُطالَبة المسلمين بالاستقلال. اعتَبَرَ أن جميع المسلمين إما مُتمردين (إذا كانت أصولهم تركية) أو خَوَنَة (إذا كانوا صينيين) وذَبَحَ طائفة المسلمين الصينيين الدونغان ولم يكن أكثر لطفاً مع الأويغور والكازاخ. بعد حَملته الناجحة، نَقَلَ الكينغ سنة 1884 المحكومين وفقراء الفلاحين للاستيطان في أرض السهوب شمال تينشان ووَضَعوا اسم: "المنطقة المسلمة Hui Jang" على ما كان يُعرَفُ بأرض الزونغهار. وبذلك وَضَعوا قاعدة ما ستُعرَفُ لاحقاً بدولة أمَّة الأويغور.

لا نَعرِفُ الكثير عن سلوك الناس في المنطقة المسلمة Hui Jang فقد شاهَدَت الأجيال اللاحقة أو تَخَيَّلَتْ مشاعر وطنية أو حتى دولة-قومية في دولة يعقوب في المدن السبعة. هل كانت هذه المشاعر حقيقية هي مسألةٌ مَشكوكٌ فيها، إذ لم يكن هنالك حركة واضحة يمكن تَمييزها. كانت هناك فقط بضع جماعات حوارٍ سياسية صغيرة كانت إحداها تسمى نادي الأويغور. كانت أقوى وأكثر فئات سكان المدن نشاطاً هي التجار الذين تأقلَموا مع القوى الأجنبية طالما أنه سُمِحَ لهم بالتجارة. كانت تلك سياستهم حتى عندما كان يعقوب حيَّاً. شَجَّعَ الصينيون تَعاونَهم بمَنحِهم أراضي في المنطقة التي أُخِذَتْ من الزونغهار[599]. الدَّليلُ في نَظَري هو في تأكيد العادة التاريخية باتِّبَاعِ قائدٍ ناجح، والتَّخَلي عنهُ عندما يَقتَرِبُ فَشَلُهُ.

لا توجد علامة مُقنِعَةٌ بمشاعر الوطنية أو القومية إلا بعد جيلٍ على الأقل من سقوط امبراطورية يعقوب. كما عَلَّقَ الحاكمُ الروسي العارف M. Romanovski: على العكس من الوطنيين الأشداء في القوقاز فإن "سكان آسيا الوسطى العامِلين المُسالِمين لا يمكن في سنوات قليلة أن يَتَحَوَّلوا إلى محاربين مستقلين مثل أهل جبال القوقاز الذين كانوا مُقاتِلين بحكم طبيعتهم وتاريخهم على مَرِّ أجيال طويلة"[600].

سواءً كان أهل المدن السبعة محارِبين أم بَيادِق فقد أصبَحَتْ منطقتهم مسرحاً للأمبريالية. يَصِفُ المؤرخُ الأمريكي أوين لاتيمور Owen Lattimore منطقة سينكيانغ Sinkiang بأنها "العمود" الذي دارَتْ حولَه السياسة الآسيوية[601]. كان لدى بريطانيا مصالح تجارية في آسيا الوسطى إلا أن اهتمامها الرئيسي كان "مركز تَنَصتها" في كاشغار الذي أسَّسته للحصول على معلومات مبكرة عن تحركات الروس التي قد تُهَدِّد امبراطورية الهند. وكان لدى الروس مصالح مُساوية إنما في الاتجاه المعاكس وكذلك وَضَعوا مَندوباً عنهم هناك. وبالنسبة للصينيين أصبحت المدينة مركز قيادة إدارية وعسكرية. وهكذا أصبحت كاشغار مثل دلهي وبكين وسان بطرسبورغ تقريباً مضيفة "لمُقيم" بريطاني وقُنصل روسي وحاكِم صيني. لم يَلتَقوا إلا نادراً ولكنهم قَضوا وقتَهم بالتجسس على بعضهم بعضاً وإرسال ما عَرفوه أو تَخَيلوه مما يمكن أن يُشَكِّل تَنبيهاً لشكوك ولمخاوف حكوماتهم. وانَتَقلتْ معهم اللعبة الكبرى في التجسس الآسيوي من جبال هندوكوش الوعرة إلى الحدائق الجميلة في كاشغار.

مهما كانت الحدائق فاتنة، وكانت كذلك بالفعل لجميع المحارِبين العِظام في آسيا، إلا أن صرخَةَ الهمجية لا تُقَاوَم. فبَعد أن ثَبَّتوا مواقعهم على طول نهر إيلي جنوب بحيرة بلخاش قَرَّرَ الروسُ التَّقَدم نحو الجنوب حيث قابَلوا للمرة الأولى مقاوَمةً أجبَرَتْهم على التراجع. لم تكن المقاومة من السكان مثلما كانت الحال في القوقاز، بل كان الصينيون هم الذين أوقَفوهم. تَوصَّلَت القوتان إلى اتفاقية سان بطرسبورغ سنة 1884 لوقْفِ تَقَدُّم الروس على نهر إيلي في شمال تينشان. ربما تُعتَبَر هذه الاتفاقية النقطة العليا في الأمبريالية الآسيوية فقد كانت بالنسبة إلى لآسيا الوسطى مثلما كانت اتفاقية سايكس-بيكو الأنكلو-فرنسية بالنسبة للشرق الأوسط. تقاسم آسيا فيما بينهم: روسيا الأمبريالية مع كينغ الصينية ولَعِبَتْ بريطانيا دور الوسيط بصِفتِها مُمَوّلَة للصينيين.

تمَكَّنَ الأمبرياليون عندها من الاستِخفاف بالآسيويين إذ أنهم لم يُشَكِّلوا أي خطر واعتُبروا أنهم بلا كرامة. في آسيا الوسطى، وفي كل مكان، كان دَورُ رواد المُستَشرِقين هو رسمُ وتَشكِيلُ هذه الأحكام. كما بَينتُ في الفصل الرابع عشر كان الباحثُ الهولندي الرائد كريستيان سنوك هورغروني هو الذي قَوَّضَ الحركة الوطنية في آتشيه في نهاية القرن التاسع عشر. وفي آسيا الوسطى، كان المستشرق الروسي نيقولاي بيتروفيتش أوستروموف Nikolai Petrovich Ostroumov هو الذي ذَهَبَ إلى هناك لتحرير مجلة طشقند سنة 1883 وظَلَّ هناك حتى بعد معاهدة سان بطرسبورغ لكي يَنصَحَ الحاكم العام الروسي بصفتِهِ الخبير الداخلي بشؤون تركستان[602]. من المُفتَرض أن مثل هؤلاء الباحثين يَفهَمون السكان المَحَليين لأنهم يَستطيعون قراءة كتاباتهم. وفي أفضل الأحوال فإن سياساتهم التي اتَّبعوها وصَلَتْ إلى ما يمكن أن نَعتَبره أمراً رسمياً "لتغيير النظام": تغيير التَّكوين العام للمجتمعات المُحتَلَّة. أوستروموف وهورغروني هما عَميلا التجسس الكاملان.

نَهَضَتْ مجموعاتٌ صغيرة من الناس في المدن بشكل "صحوة" وأطلَقوا على أنفسهم اسم "الناس الجُدُد" مثلما حَدَثَ في مناطق أخرى من العالَم الإسلامي، وذلك جزئياً في نوع من الانسجام مع الأمبريالية، وجزئياً لمحاربتها، وجزئياً بسبب التطور المَحَلي.

ألهَمَتْها كتاباتُ جمال الدين الأفغاني وأتباعه، وقَرؤوا لأول مرة انتقادات شديدة على تَخلفهم وكَسَلهم في كتابات رفاقٍ مسلمين وزملاء من ضحايا الأمبريالية في مجلات مثل "الترجمان" التركية وبعدها "مجلة ولاية تركستان" ومجلات أخرى باللغة العربية والروسية، وتَنَقَّلوا فيما وراء مدنهم والتقوا بأناس غيرهم في اسطنبول والقاهرة ومكة، واطَّلَعوا على كتبٍ في مكتبات جديدة واكتَشفوا عالَماً جديداً. كتَبَ أديب خالد المؤرخ الأمريكي عن آسيا الوسطى:

"أهميةُ الكتابات الجديدة التي ظَهَرَتْ باللغات التتارية والعثمانية والعربية مركزيةٌ في تشكيل الرؤية العالمية لدى المثقفين من سكان آسيا الوسطى. المكتبات الجديدة التي أنشأها أهل الصحوة الجديدة في المدن الرئيسية في آسيا الوسطى جَلَبَتْ كتباً نُشِرَتْ في الهند وإيران واسطنبول والقاهرة وبيروت بالإضافة إلى مراكز الطباعة الإسلامية في الامبراطورية الروسية"[603].

سُمِعَتْ أصواتٌ جديدة، وكثير منها في الشّعر. كان أول من نَشَرَ فكرة الوطنية الأويغورية هو رجلٌ اسمه عبد الخالق الذي تَبَنَّى اسم "أويغور Uyghur"، ونادَى قومَهُ لكي "يَستَيقِظوا" مثل

كتَّابٍ غيره في أنحاء الجنوب العالمي. كاتبٌ مُعاصِرٌ له من سمرقند اسمه: محمود خوجة بن بهبود Mahmud Khoja ibn Behbud الذي كَتَبَ بالاسم "بهبودي Behbudi" وأسَّسَ وحَرَّرَ صحيفةً كانت في حدّ ذاتها تطوراً ثورياً في آسيا الوسطى ونَشَرَ الرسالة التي أطلَقَها عبد الخالق: يجب أن يَستَيقِظَ الناس ويَجب أن يَتَعَلَّموا ما هم بِحاجَة إليه من الغرب ويُحَقِّقُوه في الإسلام. أي أنهم كانوا في النتيجة صَدىً لرسالة الأفغاني.

كان على الأفغاني أن يُحاوِل إقناع الحكام، غير أن بهبودي وعبد الخالق ومَن أصغى لهما كانت لديهم فرصة لم تَتَوَفَّر للأفغاني: مَسَحَت الثورة البلشفية سنة 1917 أخطَرَ القوى الأمبريالية الثلاث: روسيا. بما أنّ كثيراً من سكان المدن السبعة كانوا يَتَطَلَّعون دائماً للرِّيادة من أقربائهم في المدن-الدول في الامبراطورية الروسية فقد هرعوا إلى طشقند لعَقد أول مؤتمر لمسلمي تركستان. وفي السنة التالية جَعَلوا طشقند عاصمة لجمهورية سوفييتية أعلَنوها بحكم ذاتي.

لم يكن الدخول في المجال السوفييتي هدف المُثقفين الجُدد، فابتَعدوا وشَكَّلوا حكومة مسلمة منافِسة في خوقند. ساعَدَ "الحمرُ" في تأمين "الجمهورية" في طشقند بينما أيَّدَ "البيضُ" دولةَ خوقند. تَبَيَّنَ أن الحمر كانوا أفضَلَ تَنظيماً بكثير ودَعَمَهُم نوعٌ آخر من الناس الجُدد هم عمال الخط الحديدي الجديد. لم تَشهَد القضايا السياسية في آسيا الوسطى ما يُشبه جماهير العمال الذين تَغَلَّبوا على حكومة خوقند. وفي غَمرة الفظائع من الطرفين سَقَطَ الناس تحت حكم أمراء الحرب.

بَرَزَتْ طشقند بصِفَتِها الفئة التي كانت أقل خسائراً، واتَّحَدَ البلشفيك فيها مع الرجال الجُدد الأقل تقليدية وأعلَنوا جمهورية تركستان السوفييتية الاشتراكية المستقلة. أصبحت "الجمهورية" اسماً جديداً للسيطرة الأمبريالية، ولكنها مُنِحَتْ حرية مؤقتة في التصرف في غمرة الثورات والغزوات الحمراء والبيضاء وهجمات أمراء الحرب والمجاعة، وتَمَكَّنَتْ لفترة وجيزة سنة 1921 من عقد مؤتمرٍ لإعلان ولادة الأمَّة وصِياغة اسمها: "الأويغور".

أما شعب الأويغور الذين ظَلّوا في مدنهم فقد سَقَطوا تحت سَطوة الحكام الصينيين المتتابعين ويبدو أنهم ظَلّوا صامتين حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية. لم تتحرك جمهورية الصين الشعبية حتى حوالي سنة 1949 لتُتابع من حيث تَوَقَّفَ حكام كينغ. تابَعَ الصينيون الشيوعيون السياسات الاستعمارية لسلالة كينغ وضَرَبوا بالأويغور والكازاخ ضد بعضهم بعضاً ونَقَلوا أعداداً كبيرة من الصينيين الهان إلى آسيا الوسطى باستراتيجيةٍ "تم تَصميمها بحيث تُضَمُّ شينجيانغ إلى الصين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً... سياسة الصين المُتَشَدِّدة في تَوطين أعدادٍ كبيرة من عِرق الهَان في شينجيانغ أقنَعَت الأويغور أنهم يجب أن يَبحَثوا عن طريقة لمقاومة هذا التَّدَفق قبل أن يَجرفهم بحر المُهاجرين من عِرق الهَان"[604].

كاد ذلك أن يَجرفهم لفترة، فخلال الثورة الثقافية في الصين هاجَرَ حوالي مليوني صيني من عِرق الهان إلى شينجيانغ. أدرَكَ الصينيون أنه في ظروف الصحراء فإن السيطرة على الماء هي مفتاح السياسة. اضطَّهَدوا الذين كانوا يسيطرون على الماء ووزَّعوا أراضيهم على الفلاحين "وبذلك قَضَى النظامُ الشيوعي الصيني على كثير من العناصر المتعلمة القوية في المجتمع التركي

المَحَلي وسَعوا إلى كَسب دَعم الجماهير"، ولكن بدلاً مِن أن يَكسَبوا الدَّعم زادَت التحركاتُ الصينية خَشيَةَ الأويغوريين وأخافَتْ كذلك منافسيهم الكازاخ بحيث هَرَبَ حوالي 60,000 إلى 120,000 إلى كازاخستان السوفييتية[605]. عَلَّقَ جستين رودلسون Justin Rudelson ووِيليام جانكوفياك William Jankowiak:

"الأقلياتُ (التي بَقِيَتْ في المدن التي تحت السيطرة الصينية) الذين كان لديهم أقرباء في الاتحاد السوفييتي واجَهوا ظروفاً صعبة واتُّهِموا مراراً بأنهم "جواسيس" من قِبَلِ جيرانهم وأُرسِلوا إلى معسكرات العمل لسنوات طويلة. سياسات الثورة الثقافية في واحات شينجيانغ (المدن السبعة) تضَمَّنتْ مَنعَ ملكية الأرض الخاصة وإغلاق الأسواق الريفية والهجوم على الإسلام وفَرضَ التمازج الثقافي والاندماج. أدى كل ذلك إلى انتشار مشاعر رفضٍ عميق بين الأقليات ومعاداة الحكومة وانعدام الثقة بها وما زال ذلك مستمراً حتى الآن"[606].

وجَدَ الأويغور أن جميع وسائل الحوار السلمية وإمكانية التوصل إلى حَلٍّ لمخاوفهم مُغلَقةً أمامَهم. وبعد سنة 1990 تَحَوَّلوا إلى العنف بشكل متزايد، ورَدَّت الحكومة الصينية على ذلك بقَتل آلافٍ من الأويغور.

ربَطَ الأويغور والحكومةُ الصينية أحداثَ شينجيانغ بأحداث أفغانستان. كان من بين المجاهدين الذين حارَبوا الروس أولاً ثم الأمريكان أعدادٌ مِن الأويغور. كما شَكَّلَ الأويغور في آسيا الوسطى جماعات مسلحة على نمط القاعدة. حاوَلَت الحكومةُ الصينية قَمعَهم واشتَرَكَتْ مع الحكومة الأمريكية في هذه الأعمال. كانوا مسرورين عندما وضَعَتْ وزارة الخارجية الأمريكية إحدى جماعات المقاومة الأويغورية على لائحة الإرهاب. ما بدأ بشكل سَعيٍ نحو الاستقلال الوطني تَحَوَّلَ إلى الإرهاب بسبب عدم وجود أي وسائل تَصَرفٍ أخرى.

كما لخَّصَ ديفيد بروفي David Brophy المؤرخ الأسترالي لآسيا الوسطى مشكلةَ الأويغور الحالية في مواجهة القَمع الصيني بأنه يبدو هناك:

"يقظة دينية في شينجيانغ... ستَخلُقُ السياساتُ القَمعية الدينية حتماً الظروف اللازمة لإعادة تَعريف النضال في شينجيانغ على أنه جِهاد. المراقبة الشديدة للمساجد وتَقييد حضور الأعياد الدينية وتَضييق الشرطة على الملابس الإسلامية كلها أدت إلى الظهور مؤخَرَاً كأسبابٍ للاستياء وشَرارات للاعتراض العام... وإذا شَعَرَ الأويغوريون أن الزعماء الوطنيين المَحَليين قد خَذَلوهم، فسَيَبحَثون في مكان آخر عن وسائل المقاومة"[607].

وقد فَعَلوا ذلك. بينما تابَعَ القَمعَ طريقَهُ البائسة في آسيا الوسطى، يبدو أن شعبَ الأويغور قد اتَّجَهوا بثبات إلى نمطٍ مِن المقاومة الذي يشبه ما يَحدث في أجزاء أخرى من العالَم الإسلامي. فقَدَ كثيرٌ من المسلمين أعمالهم وحريتهم وحتى حياتهم من أجل أن يُكَوِّنوا ذاتَهم ويُمارِسوا دينهم فيما

يعتقدون أنه وطنهم. آمَنَ كثيرٌ من الأويغور أن طريقهم الوحيد في الدفاع ضد الاستعمار الصيني الضخم وضد تَدمير هويتهم الثقافية هو في النشاط السياسي المُؤسَّس على الإسلام[608].

الجزء الخامس

الإسلام المحارِب

في القرنين التاسع عشر والعشرين حاوَلَ المسلمون تنظيم رَدِّهِم على الأمبريالية، فأولاً نَسَخَ حكّام الامبراطورية العثمانية ومصر والهند ما فَهِموا أنه مصدر القوة الأوروبية. بعضُ ما فَعَلوه ظَهَرَ أنه سَطحي بكل بساطة، مثل ارتداء الجنود ملابس أوروبية، ولكن سواء كانت سطحية أم لا، إلا أنّ القوى الأمبريالية لم تَسمح لهم بحماية صناعتهم الناشئة أو تَحديث قواتهم المسلحة. وللرَّد أيضاً انغَمَسَ القادة الدينيون أعمق في تقاليدهم، خاصة تلك التي تطَوَّرَتْ بعد غزو جنكيزخان المَغولي المُدَمِّر. استَلَمَت الطرقُ الصوفية الدَّورَ الدفاعي في اندونيسيا والصومال وليبيا والقوقاز والجزائر والمغرب. فَشِلَتْ جميع هذه الجهود واحداً تلو الآخر في إيقاف تقدم القوى الأمبريالية.

رداً على هذا الفشل الذي أُلقِي اللَّومُ فيه على المؤسسات الدينية، التَقَطَ المفكرون فكرة القومية التي كانت دارِجَةً في أوروبا وحاوَلوا تَعريف أنفسهم في ظِلِّها. في الفترة بين 1900-1970 كانت القومية الراية التي تَجَمَّعَ تحتها المُحَرِّرُون. استفاد القوميون والوطنيون في اندونيسيا والصومال وإيران وتركيا وشرق المتوسط والشمال الأفريقي من انخفاض التأييد للأمبريالية في الشمال العالمي، وظَنُّوا أنهم قد اكتَشَفوا الطريق إلى الاستقلال. إلا أن الهزائم الكارثية للدول العربية في الشرق الأوسط أجبَرَتْهم على إعادة النظر في النظرية والتطبيق. تم التَّخَلي بالفعل عن القومية ذاتها كنظرية مناسبة.

بعد فترة من الضياع، ظَهَرَ نَمَطٌ جديد بين الجماعات المحارِبة على مِثال الإخوان المسلمين، وأُعيد التَّركيز على الإسلام الأصولي مُستَلهِماً المُفكر المصري سيّد قطب. قرأه عشرات الملايين من المسلمين وأصبَحَ قطب مُنَظِّرَ الحركة نحو إعادة ترسيخ الإسلام الإصولي. التَقَطَ أسامة بن لادن هذا الاندماج بين التنظيم والنظرية ونَشَرَهُ في أفغانستان وفي العالَم الإسلامي السنّي رَدَّاً على الأمبريالية الروسية أولاً، ثم على التَّدَخّل الأمريكي.

وبالفعل، فإن هذه الأحداث المُعاصِرة هي مراحلُ في سلسلةٍ لها جذورٌ تاريخية عميقة، وهذا ما أسعَى لتوضِيحِهِ. بعضُ أكثر الأحداث إثارة للذهول هذه الأيام سَبَقَتْ بكثير الإيديولوجيات والتنظيمات التي تَرتَبِطُ بها. وكما سيَرى القارئ فإن "ثورة" المورو عمرها أكثر من قرن الآن،

وتَمرد الصومال وحركة بوكو حرام في نيجيريا كانتا ردود فِعلٍ على الأمبريالية بشكل مباشر وقريب.

في هذه الأثناء وبشكل موازٍ للأحداث في أجزاء أخرى من العالَم الإسلامي، كانت إيران تتحرك للثورة بزعامة أكبر زعمائها الدينيين: آية الله الخميني الذي استَلهَمَ فلسفة سيّد قطب وصَنَعَ نسخة شيعية من الحُكم الديني الذي سَعى إليه الإخوان المسلمون.

هَدَفُ هذا الجزء من الكتاب هو تَوضيح كيف أن هذه الأفكار والأعمال المتطورة أدَّتْ خطوة بَعد خطوة إلى إثارة غضب واستياء المسلمين، وإلى العنف لدى بعض أنصارهم. بدأت الجماعات غالباً بشكل حركات منفصلة ونَزَعَتْ نحو التَّجمع وتَجاوز الفروق الثقافية والفروق الكبيرة لتُشَكِّلَ حركات مُتمَاثِلة تَجَمَّعَتْ فيها شعوبُ الجنوب العالمي حول أفراد. وعلى كل حال، بينما يجد القارئ أن كثيراً من هذه الأفكار والتجارب متماثلة، إلا أن الجماعات ذاتها غالباً في صراع مع بعضها بعضاً وتواجِهُ جميعها قضيةً أساسية هي فيما إذا كان تحقيق شَكلٍ ما مِنَ الوحدة بينها يَعتمد على الاستِحواذ على أرضٍ مُحَدَّدَة (وطن)، مثلما تَعتَقِدُ زعامة الدولة الإسلامية (داعش)، أو أنها يمكن أن تَحدُثَ بشكل غير مَلموس مثلما تَعتَقِدُ زعامةُ القاعدة. يَجِدُ خصومُ المُحارِبين أنه من الأسهل مُهاجَمة المُتَمُركِزين لأنهم يُشَكِّلونَ هَدَفاً مُحَدَّداً، بينما يَنتشِر المُنَظِّرون بشكل واسِع في أفريقيا وآسيا.

يَجِبُ على القارئ أن يُلاحِظ بشكل خاص أن نظرية الرَّد على بقايا الأمبريالية قويةٌ ومنتَشرة وقادِرة على الاستمرار الذاتي على الرغم من تَجميع مُعارَضةٍ لها بفضل مساعدة الشمال العالمي بشكل واسع ظاهريّ النجاح. يُحَضِّرُ هذا الجزء من الكتاب الطريقَ للتفكير بما يمكن فِعلُهُ لِخَلقِ عالَمٍ يتمكَّن فيه المسلمون والمسيحيون والهندوس واليهود وشعوب الشمال والجنوب من إيجاد الوسائل للحياة بشكلٍ معقول من الأمن والسلام، كما سأُبَيِّنُ في الجزء السادس.

الفصل الثامن والثلاثون

"ثورة" المورو في الفلبين

عندما وَصَلَ فرديناند ماجلان إلى الفلبين سنة 1521 كان أغلب السكان مسلمين تَحَوَّلُوا إليه على يد التجار العرب والإيرانيين مثل شعوب شبه جزيرة الملايو وسومطرة وجافا. كان في الفلبين أكثر من سبعة ملايين جزيرة، مثل اندونيسيا في عَدَدِها الكبير من الجُزر، وعاش فيها عدد كبير من السكان البوذيين الذين اعتَنَقوها على يد التجار الصينيين. ضَمَّتْ هذه المناطق أيضاً مئات من الأعراق المَحَلية واللغات والجماعات الدينية. عندما بدأ الإسبان احتلالهم للفلبين لم يَهتموا كثيراً بالجماعات التقليدية أو الوثنية أو البوذية، ولكنهم اعتَبَروا المسلمين أعداء، وأنهم فرع آخر من العرب والبربر الذين حارَبوهم لقرون طويلة في اسبانيا، ولذلك أطلَقوا عليهم اسم "المورو".

في الواقع، كان أهل المورو من السكان الأصليين في الفلبين الذين تَحَوَّلوا إلى الإسلام قبل قَرنَين مِن وصول ماجلان. ما أن تَمَّ تقديم الإسلام حتى انتَشَر بسرعة، وعندما وصَلَ الإسبان كانت الجماعات المسلمة قد انتَظَمَتْ في مَمَالِك كانت بعضها كبيرة ومزدهرة بثقافات حيوية. هَجَمَ الإسبان فوراً على المَمالك التي كانت تَقَع في الشمال على جزيرة لوزون Luzon. كانت سياسة الإسبان نحو المسلمين في لوزون هي ذاتها التي تَعَلَّموها بشكلٍ أساسي في جزر الآزور Azores وطَبَّقوها في جُزر الكاريبي وكانت بكل بساطة: الإبادة الجماعية. كان لديهم سلاحان قويان: الأول هو أنهم كانوا مسلحين بالمَدافع ويَحمون أنفسهم بالدّروع المَعدَنية بينما كان السكان المَحَليون يُقاتِلون بالسيوف بشكل أساسي ويَحمون أنفسهم بدروعٍ خشبية أو قماشية مثل أحفادهم على مدى أربعة قرون. وكان السلاح الثاني أكثر خَفاء وفتكاً، فقد جاء مع المحارِبين الإسبان مُبَشِّرون وقَساوسة شَجَّعوا على تَحول السكان الأصليين إلى الكاثوليكية.

من لم يَستطع الإسبان تَحويلهم أو قَتلهم تم تَهجيرهم بعيداً عما أصبَحَ قاعدتهم الرئيسية في لوزون. أصبَحَت القرية الصغيرة مانيلا Manila قاعدةً لواحدٍ من أهم طرق التجارة في اسبانيا الأمبريالية. حُمِّلَت السفن الشراعية من مينائها بالتوابل والبضائع الفاخرة التي نُقِلَتْ من الهند أو الصين وأُرسِلَتْ مع الرياح التجارية عبر المحيط الهادي إلى أكابولكو في طريقها إلى اسبانيا. كانت تلك التجارة السبب الرئيسي لوجود الإسبان في الفلبين، أما بقية البلاد فكانت أهميتها ثانوية.

ولكن الإسبان احتاجوا أيضاً إلى الأخشاب لبناء وإصلاح السفن، وكان أفضل أخشاب بناء السفن بصلابته وعدم نفوذيته موجوداً بشكل رئيسي في الغابات الجنوبية. ولذا مِن أجل دعم تجارة السفن الشراعية كان عليهم أن يَتَعاملوا مع الموانئ أو السَّلطَنات على الجزيرة الجنوبية ميندانا‌و Mindanao [609]. لم يتَمكَّنوا من الاستمرار بتلك التجارة بأمان دون إخضاع التجار المَحَليين المسلحين والقراصنة. وَضَعَتْ سياستَهم تجاربُهم السابقة مع المورو "الآخرين" من "قراصنة البربر". دَفَعوا أحياناً أموالَ حمايةٍ للقراصنة ولكنهم استَخدَموا في الغالب قوَّتَهَم النارّية الأفضل في إغراق كل سفينة مَحَلية واجَهَتْهم. كان ذلك كافياً لحصولهم على الأخشاب التي احتاجوا إليها من الجنوب. كان التجار المَحَليون مستعدين لتبادل أخشابهم بالبضائع، مثلما كان الهنود الأمريكان يَستبدلون فراءهم بالخَرَز أو قطع الحديد. اقتَصَر الإسبان في نشاطاتهم بشكل عام على المناطق الساحلية حيث كانوا بأمان ويستطيعون التعامل مع التجار المَحَليين الذين جَلَبوا الأخشاب إليهم. عندما لم يتَمَكَّنوا من الحصول على ما أرادوه كانوا يُرسِلون جنودهم المُدَجَّجين بالفولاذ مع الميليشيا المسيحية الفلبينية التي جَنَّدوها في حملات بَحثٍ وتَدمير داخل الأدغال، ولكن يبدو أن هذه الحملات كانت نادرة. ثم انتَهَجوا سياسةً أكثر هجومية في القرن التاسع عشر. استمروا في الغارات إلا أنهم حاوَلوا أيضاً كَسبَ حلفاء مَحَليين. في سنة 1836 توصَّلوا إلى اتفاقية "سلام وحماية وتجارة" مع "جلالة السلطان ونبلاء بلاطه في سولو Sulu" مثلما فَعَلوا مع قراصنة البربر. في النتيجة، كانت المعاهدة اعترافاً بالدولة المسلمة[610].

لم يُعرَف سبب هذا التغير في السياسة. كانت المنطقة الشمالية في لوزون قد تَحَوَّلَتْ إلى المسيحية منذ زمن طويل، والقليل من المسلمين الذين ظَلُّوا فيها لم يُشَكِّلوا أي خطرٍ على مصالح الإسبان. وفي الجنوب على جُزر ميندانا‌و وأرخبيل سولو عَمِلَت السياسة السابقة بتكاليف مقبولة وتم الحصول على الأخشاب اللازمة ببناء وإصلاح السفن، وكان الاتجاه يميل لصالح الإسبان لأن السكان المسلمين قد أصبحوا قلة قليلة نتيجة لإدخال أمراض لم يكن لدى الفلبينيين مَناعة ضِدَّها وانخفَضَ عدد المسلمين من أكثر من 50% من السكان إلى أقل من 5%، كما تم دَفعهم تماماً بعيداً عن جُزر الفلبين الرئيسية إلى جُزر ميندانا‌و وأرخبيل سولو وبورنيو.

على الرغم من هذه الاعتبارات قَرَّرَ الإسبان حوالي سنة 1876 الاندفاع إلى الداخل. وعندما فَعَلوا ذلك فوجِئوا بمدى ضَعف المسلمين. وجَدوا أن هدفهم الرئيسي الأول في مدينة سولو كانت مهجورة، وبدون وجود سجلات مُقنِعة لدينا، يبدو أن المسلمين قد أنهَكَتْهم الأمراض لدرجة أنهم فَقَدوا الأمل بمقاومة الإسبان. ومثلما حَدَثَ في حروب استعمارية أخرى، أنْهَتْ ثورةُ الأسلحة ما لَم تقضِ عليه الأمراض إذ كان الإسبان قد حَصَلوا على مَدافع متحركة نسبياً وبنادق سريعة التلقيم.

لم تتوقف المقاومة نهائياً ولكن الإسبان كانوا مُسيطِرين فعلياً على الأجزاء مِن ميندانا‌و التي ظَنوا أنها تَستحِق التَّحكم بها. كانت تلك هي الحالة الأساسية في الفلبين عندما غَزَتْها أمريكا سنة 1898.

كان الهدف الأول للغزاة الأمريكان هو الجيش الاسباني. هَزَمَ الأمريكان القوات الاسبانية في لوزون بسهولة، بينما حاصَرَ الاسطول الأمريكي القواعد الاسبانية المتفرقة في الجُزر، خاصة

في ميندناو. لم يتمكن الإسبان من الدفاع عن أنفسهم بسبب غياب أي شكل من أشكال التموين. اندَفَعَ المورو للانتقام واستعادة ما فَقَدوه من الأرض. هاجَموا كل مَركز اسباني في ميندناو وسولو وغيرها من الجُزر الجنوبية. سواء اعتَبروا الأمريكان مُحَرِّرِين أم لا فقد انتَهَزَ المورو الفرصة التي قَدَّمَها لهم الأمريكان. أعلَنوا استقلالهم مثلما فَعَلَ زعماء الجماعات المُتمردة في الشمال الكاثوليكي، وسَعوا للحصول على الدَّعم الأمريكي. أول ما فَعَلَهُ السلطان في سولو الذي كان أكثر سلطاتهم السياسية ثباتاً هو إظهار رَغبته بالتحالف مع الأمريكان ضد الإسبان المَكروهين. عَرَضَ على الأمريكان معاهدةً تَمنَح بلاده الاستقلال، ولكنه سرعان ما تَحَرَّرَ من ذلك الوَهم.

كان لدى الأمريكان أهداف مختلفة تماماً كما أظهَروا في الشمال الكاثوليكي. لم يَدفَعهم اهتمامٌ بالدِّين، لا المسيحي ولا الإسلامي، بل تَبَنّوا هدَفاً أمبريالياً: أرادوا مستَعمَرَة. عندما بَدَأ المسيحيون في الشمال والمسلمون في الجنوب إدراكَ هدف الأمريكان، أخَذوا بالمقاومة. كانت لديهم وسائل بسيطة: تَرَكَ الإسبانُ المُغادِرون بعض الأسلحة، إلا أنهم كانوا قد أصَّروا منذ زمن طويل على ألا يَتَعَلَّم السكان المَحَليون كيفية استِخدَامها ولا كيفية تَنظيم أنفسهم. كان الأمريكان القادِمون خُبراء في مثل هذه المواجهات بفضل حروبهم الطويلة مع سكان أمريكا الأصليين.

في المراحل الأولى من الصراع رَكَّزَ الأمريكان على المُتمردين المسيحيين وطَبَّقوا الطرق التي وَضَعَها الاستراتيجي الإنكليزي المُعاصِر تشارلز كالويل Charles E. Callwell في مواجهة حرب العصابات الذي كان كتابه "الحروب الصغيرة" قد نُشِرَ في لندن سنة 1896. أيَّدَ ما كان يُعتَبر الاسلوب الإسباني في قمع التمرد: "عاقِب المتمردين في بيوتهم... لإجبارِهم على التَّفاهم يجب (على الأمبريالي) أن يَصِل إليهم من خلال محاصيلهم وماشيتهم وممتلكاتهم... حِرمانهم مِن ممتلكاتِهم أو إحراق بيوتِهم"[611]. بهذه الطرق فقط يمكن إجبار المتمردين على القتال الذي تَستطيع فيه قوات الاحتلال الأقوى منهم تَدميرهم. دَمَّرَ الأمريكان عشرات القرى بإرسال "الطوابير الطائرة" كما نَصَحَ كالويل.

في شهادةٍ أمام لجنة مجلس النواب حول الفلبين في يناير 1902 قَدَّمَها الجنرال روبرت باترسن هيوز Robert Patterson Hughes القائد العسكري في مانيلا وأجابَ على أسئلةٍ عن نوعية قمع التمرد، وقام بِتَردِيدِ كالويل أساساً وقال إنه تم إحراق بيوت القرى كعقوبة. وعندما ضَغَطَ عليه النائب جوزيف رولينز Joseph Rawlins بقوله: "تَقَعُ العقوبةُ في تلك الحالة ليس على الرجال الذين يَستطيعون الهرب، بل على النساء والأطفال الصغار بشكل رئيسي". أجابَ الجنرال هيوز: "النساء والأطفال هم جزء من الأسرة، وعندما تُريد تَطبيق عقوبةٍ تَستطيع معاقبةَ الرجال بهذه الطريقة الأقسى عليهم من أية طريقة أخرى". استَمَرَّ النائب رولينز بالسؤال: "ولكن هل هذه ضمن القواعد العادية للحرب المُتَحَضِّرة؟ من المؤكد أنك تستطيع القضاء على الأسرة أيضاً مما يُشَكِّلُ عقوبةً أسوأ". عَلَّقَ الجنرال هيوز على ذلك بقوله: "هؤلاء الناس ليسوا مُتَحَضِّرين"[612].

لم يَبذل الأمريكان أية محاولة لكَسب قلوب وعقول السكان الأصليين. كُلَّمَا قابَلَ الأمريكان القادِمون أحَدَ الفلبينين تَهَكَّموا عليه عادةً حتى في وجودِهِ بكلماتٍ عنصرية تَعَلَّموها في أمريكا. لم

يكن هنالك فرقٌ في ذلك إذا كان الفلبيني مسيحياً أو مسلماً ولا حتى لو كان يَخدم الأمريكان في الجيش أو الشرطة. وَصَفوا جميع الفلبينين بانهم "زنوج Niggers" أو استَخدَموا كلمات أخرى مثل "geesers, coons, gooks, wops, ragheads" يَستخدِمها الأمريكان بشكلٍ سهلٍ وفَظٍّ. كانت أقل الكلمات فظاظة في وَصف السكان الأصليين في الفلبين هي "gugus"[613].

لم يكن الفلبينيون وحدَهم الذين تم التعامل معهم بهذا الاسلوب، فقد تم التَّهكم أيضاً على الجنود الأمريكان السود الذين أُرسِلوا إلى الخارج في وحدات منفصِلة. طَلَبَ الحاكمُ العسكري الأمريكي عدم إرسال الجنود السود إليه، ولاحَظَ أن الجنود البيض رفَضُوا تحيةَ الضباط السود وسَخِروا منهم أحياناً بقولهم: "ماذا تفعل هنا أيها الراكون (الحيوان)؟" غَضِبَ بعض الأمريكان السود وغادَروا الفلبين.

عَكَسَتْ تصرفاتُ الجنود الأمريكان مع الفلبينين لغتَهم غير الإنسانية. تَعرَّضَ السكان المَحَليون مِراراً إلى التعذيب. في استجوابٍ لاحق أُخبِرَ النوابُ الأمريكان عن التعذيب الذي كانت الوحدات الأمريكية تُطَبِّقه بشكل عادي، وكانوا يُفضِّلون "العلاج بالماء" حيث تُصَبُّ كميات كبيرة من الماء في فم السجين ثم تُستَخرَج بضَغطِ رجالٍ على معدته. أَحرَقَ المتمردون الفلبينيون أو ضَرَبوا أسرى أمريكان حتى الموت انتقاماً عندما استَطاعوا ذلك. الإرهابُ يُوَلِّدُ الإرهابَ. حتى ذلك الانضباط البسيط الذي وجِدَ في الشمال حيث كان المتمردون مسيحيين، تضاءَلَ في الجنوب حيث كانوا مسلمين. تَسَلَّحَ الجنودُ الأمريكان بأسلحة أفضل مما كانت لدى الإسبان بمَدافع متحركة أكثر خِفَّة وبمدفع مكسيم الرشاش ومَدافع الهاون. بينما كان سلاح العصابات المسلمة سيوفاً قصيرة تُعرَفُ باسم "كريس Kris" أو أداةً زراعية اسمها "البارونغ Barong أو البولو Bolo"[614]. كانت السياسة الأمريكية هي عدم قَبول أي استسلام، وقَتل جميع المحارِبين المسلمين وكل مَن مَعهم من المَدنيين.

مثلما حَدَثَ في المقاومة الإسبانية ضد غزو نابليون والمقاومة المَغربية ضد الإسبان، حارَبَت العصابات بشكل جماعات منظمة وليس بشكل جيوش حقيقية بل فِرَقٍ مِنَ الفلاحين الذين تَجَمَّعوا على عَجَلٍ، وكذلك بشكل أفراد من الانتحاريين (الفدائيين). أَطلَقَ الإسبان اسم "جورامنتادوس Juramentados أي الذين أقسَموا" على مقاتلي المورو إذا أقسَمَ كل انتحاري عَلَناً على أن يُقاتِل حتى الموت ضد الجنود الإسبان وأتبَاعهم من الفلبينين المسيحيين. دُهِشَ الضباطُ الأمريكان من شجاعتهم الانتحارية واكتَشَفوا بشكل مؤلم أن الفدائيين العُراة الحُفاة يَستمرون في الهجوم حتى لو أُصِيبوا بطلقاتٍ متتابعة من نيران المسدسات[615]. ومثلَ أقرانِهم في أفغانستان وغيرها، اكتَشَفَ الفدائيون فيما بَعد كيف يَستخدِمون متفجراتٍ مَصنوعة مَحَلياً ولكنهم لم يَتَخَلوا عن الكريس والبارونغ.

لم يكن هنالك مشاعر وطنية أو قومية لدى المورو خلال فترة الأمبريالية الإسبانية[616]. على الرغم من انقساماتهم الجغرافية واللغوية يبدو أنه كان لدى المورو مشاعر وطنية/ قومية وكان

لديهم اسمٌ لذلك هو: "بانغسا Bangsa" واسمُ مشاعرهم الوطنية: "بنغسامورو Bangsamoro".



وحدة أمريكية تَحصر حوالي ألف قروي مسلم في قاع بركان خامِد في مارس 1906 في مذبحة بداجو Bud Dajo في الفلبين. حسب صحيفة النيويورك تايمز لم يَنجُ سوى ستة أشخاص "نساء وأطفال قُتِلوا في معركة مورو" عدد 11 مارس 1906

المصدر: الأرشيف القومي للولايات المتحدة الأمريكية.

انتَظَمَ المسلمون الفلبينيون في سَلطنات، وانتَظَمَ الأوروبيون منذ القرن التاسع عشر في محافظات أو ولايات، وكانوا منقَسِمين بِحِدَّة ومُتَخَاصِمين بِشِدَّة مثل الأوروبيين. ومثلما لم يكن هنالك إيطاليا واحِدة أو ألمانيا واحِدة، لم يكن هنالك أُمَّة مورو واحِدة. ومثلما كان لدى الطليان أو الألمان شعور بالهوية الثقافية، كذلك كان لدى المسلمين الفلبينين شعور "البنغسامورو". كان المورو شعب جُزر بتقاليد صيد البحر واشتَرَكوا بِلُغَةٍ وعَاداتٍ مع جيرانهم المسلمين في ماليزيا وسومطرة وبورنيو.

فَكَّرَ الأمريكان خلال احتلالهم بسَلطَنة سولو مثلما فَكَّرُوا بتحالف قبائل الأمريكان الأصليين. مثلما عَبَّرَت المحكمةُ العليا عن ذلك بأن سكان أمريكا الأصليين هم "أمَّةٌ مَحَلِيَّةٌ

تابِعَة"[617]. لتطبيق هذا المبدأ على الفلبينين عرضَتْ سلطاتُ الاحتلال الأمريكية على سلطان سولو، الذي كان السلطة الإسلامية الوحيدة التي تَعاملوا معها، ما يُسمى بمعاهدة بيتز Bates Traety في 27 أكتوبر 1899. مَنَحَتْ هذه المعاهدة السيادةَ للولايات المتحدة الأمريكية، مثل كثير من المعاهدات التي عُقِدَتْ مع الأمريكان الأصليين، ولكنها نَصَّتْ على أن دِين السولو (لم يذكر الإسلام) وعاداتهم الأخرى ستُحتَرَم. وفي القضايا الداخلية البَحتة سيُمنَحُ السولو سلطةَ تطبيق قوانينهم.

يُعرَفُ قانون المورو باسم لواران Luwaran ويَعني "الانتقاء أو الاختيار" ويَعتمد على فَهمٍ للشريعة تم تَعديله ليَتضمن فقط تلك القوانين المُعَدَّلَة بشكل مناسب والتي تَتوافق مع حاجات مجتمع المورو الفلبيني. وبما أن المورو غير مُتَمَرِّسين في التقاليد الشرعية الإسلامية ولا يَتحدثون اللغة العربية، فقد كُتِبَ اللواران بلغة الملايو ولكن بأحرفٍ عربية[618]. كتَبَ نجيب صليبي المسؤول اللبناني الأمريكي وأول مُتابِعٍ لَهم:

"في صياغة اللواران اختارَ قضاةُ ميندناو القوانين التي تُناسب في رأيهم أحوال وحاجات النظام في ميندناو. استَخدَموا الأحرف العربية كأساس ولكنهم صَاغوا موادَّه بشكل صَلب وأدخَلوا فيه أمثلةً حقيقية وأحوالاً عادية الحدوث في ميندناو. غيَّروا في بعض المواضع الفَهمَ العربي لجَعلِهِ متوافِقاً مع العادات المعروفة في بلدهم. وصاغوا بجُمَلٍ قليلةٍ مواد جديدة لا توجَد في اللغة العربية ولكنها تُناسب العادات المَحَلية والمُمارسات المَعروفة. سُلطة اللواران مقبولة بشكل تام في ميندناو وتُعتَبر مقدَّسة إلى جانب القرآن. يَحقّ للقاضي في ميندناو تَطبيق أيّ منهما في سُلطته لإصدار الأحكام، إلا أنه من الأفضل كقاعدة عامة سَرد آيات من القرآن تتعلق بالموضوع"[619].

شَرَحَ صليبي ذلك في كلمةٍ إلى المجتمع الأمريكي بأن: "لدى المورو نظامَ حكومة مُحَددًّا ومَعرفة مُتَعارَفاً عليها بالقانون المَكتوب... ولكنهم متفرقون بشكل كبير. لا يوجَد في مناطق المورو وحدةٌ في التفكير والمشاعر. تَسكُنُ كلَّ منطقةٍ قبيلةٌ مختلفة ولم تَتَّحد هذه القبائل أبداً. في الواقع لا يوجَد إمارة أو مَنطقة ولا حتى سولو يمكن أن تَتَوصَّل إلى تَوحيد جميع إماراتها[620]. المورو هم بحالة سياسية بائسة متفرقة ولا حيلة لهم ضد القوى الحديثة والمنظمات العسكرية. وعلى الرغم من أنّ هزيمتهم سهلة في الحرب، إلا أن احتلال أرضهم واستعمار بلادهم هي قضية مختلفة كلياً"[621].

مثلما فَعلَ الفرنسيون في الجزائر والروسُ في القوقاز وكما كان يَفعل الصينيون في آسيا الوسطى فقد تَوصَّل الإداريون الأمريكان إلى برنامج للسيطرة على المسلمين أقل تكلفة من القتال: شَجَّعوا هجرة مستوطِنين يمكن الاعتماد عليهم سياسياً إلى مناطق إدارتهم. كان هؤلاء المستوطِنين الذين يمكن الاعتماد عليهم في الفلبين هم المسيحيون الشماليون، ولتَشجيعِهِم على الهجرة إلى مناطق المسلمين في ميندناو عَرَضَتْ عليهم الإدارة الأمريكية الأرضَ. وبالطبع، كانت الأراضي التي قَدَّموها هي الأراضي التي اعتَبرها المسلمون المَحَليون أرضَهم. أدَّتْ هذه السياسةُ الاستيطانية، التي اختَلَفَتْ عن السياسة الأمبريالية، إلى ثورات متفرقة خلال فترة التهدئة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، كما ذَكَرَ مُحررو صحيفة Philippine Daily Inquirer:

"نظّمَت الحكومة الأمريكية الاستعمارية جميع أنظمة مِلكية الأرض وتَسجيلها ومَسحِها العقاري وتَثبيتِ عنوانها والاستثمارات الزراعية. وفي سلسلة من القوانين الفئوية والأنظمة الانتقائية انتقَلَتْ أراضي الأجداد والمصادر الاقتصادية تدريجياً مِنَ المورو واللوماد Lumad [622] إلى المستوطِنين المسيحيين الفلبينين والشركات الأمريكية الضخمة. والأهمّ مِن ذلك أن المورو... سيفقدون أيضاً حَقَّهم في حُكم أنفسهم حسب أنظمتهم لأن أراضيهم قد أُدخِلَتْ منهجياً في إجراءات المُستعمَرَة الفلبينية، وتم اختصار دولهم السيادية في السَّلطنات إلى مجرد محافظات تابعة لحكومةِ المستعمَرَة ثم في جمهورية الفلبين. يجب ملاحظة أنه خلال الحُكم الأمبريالي الأمريكي صَرَّحَ عددٌ من زعماء المورو برغبتهم في استقلال بلادهم، مَثَلاً في سنتي 1934 و1935 أثناء مفاوضات الاستقلال بين الفلبينين والأمريكان أرسَلَ زعماء الماراناو Maranao عرائض مختلفة إلى السلطات الفلبينية والأمريكية مُطالِبين بمنحِهِم الاستقلال. وكما هو مُتَوَقَّعٌ فقد تم تَجاهل هذه الطلبات"[623].

عَمِلَت الحكومة الأمريكية مع "النّخبة الفلبينية التي سيطَرتْ على الدولة وجاء كثير منهم من عائلات زراعية قوية تواجِه اضطرابات من الفلاحين الذين لا يمتلكون أرضاً في الشمال" وذلك من أجل تشكيل الدولة وقَرَّروا أن "جميع الأراضي غير المُسَجَّلة هي مِلك للدولة وتحت سيطرتها". أي أن السلطات الأمريكية والحكومة القادمة طَبَّقتْ تماماً السياسةَ التي اتَّبَعها البريطانيون وعملاؤهم في العراق في بداية الثلاثينيات. في الفلبين "عشرات الآلاف من الفقراء الذين لا يَمتَلِكون أرضاً وأغلبهم من عائلات مسيحية قَبِلوا العَرضَ مَدفوعين باليأس أكثر مِن تَشجيع الحكومة"[624].

عندما اختفى الأمريكان وإدارتهم في الحرب العالمية الثانية، أُتيحَتْ لليابانيين فرصة لكَسب المورو إلى جانبهم مثلما كَسبوا مسلمي اندونيسيا، ولكنهم لم يَنتَهِزوها. كانوا أكثر اهتماماً بالمُنتَجات وليس بالسياسة. وسرعان ما وجَّهَ المورو مقاوَمَتهم المسلحة ضد اليابانيين. كانت أشهر جماعات المعارَضَة هي جماعة هوكبالاهوب Hukbalahop الشيوعية في الشمال، ولا يوجد سِجلات تُشير إلى تعاون المسلمين معهم فقد كانوا مختلفين جداً من الناحية الإيديولوجية. وعلى كل حال فقد شَغَلَتْ كل حركة على حِدة أعداداً كبيرة من الجنود اليابانيين وخاضَتْ قتالاً متمرداً دموياً[625].

أرسَى عنفُ اليابانيين القاعدةَ لتَنامي الشعور بالهوية الجماعية لدى شعب المورو. عندما تَعرَّضوا للعنف معاً بشكل مُتماثِل بَدؤوا بالرَّد معاً بشكل مُتَّحِد[626]. عندما عادت القوات الأمريكية وبدأ بعض عناصر الإدارة السابقة في استعادة مواقعهم تَحَرَّكَ المورو ببطء نحو العمل السياسي. احتاج الأمر إلى عشر سنوات قبل أن تتمكن فئةٌ من الزعماء المحترمين من الجماعات المسلمة المختلفة من تأسيس حركة سياسية. ربما كان سبب التأخير الطويل على الرغم من خبرة الحرب العسكرية هو أن شعب المورو كان منقسماً إلى جماعات كثيرة متفرقة في أنحاء الفلبين. لم تسيطِر أية جماعة على أرضٍ مُحَدَّدَة وكانت جماعات أقليات فيما عدا تلك التي في جُزر أقصى الجنوب،

السبب الآخر لبطء تطور الشعور الجماعي هو عداوة الحكومة المسيحية التي تَصَرَّفتْ مع المسلمين بالنَّمط الذي وَضَعه الإسبان وتابَعَه الأمريكان: المسلمون غرباء وهم سكانٌ مَحَليون مُختلفون يجب تَحَملهم إذا لم يمكن قِتالهم وإخضاعهم ودَفعهم بالتدريج بعيداً عن الأمَّة الحقيقية (المسيحية) وأرضها.

مِنَ المفارقة يبدو أن محاوَلة حكومة فرديناند ماركوس لاستِخدام المسلمين في تنفيذ أغراضٍ عسكرية هي التي أدَّتْ إلى بَلوَرَة المقاومة. لم تُكشف تفاصيل الأحداث ولكن يبدو أن الحكومة جَنَّدَتْ مجموعةً من حوالي خمسين شاباً مسلماً ودَرَّبَتْهم على التَّخريب في الجارة اندونيسيا. حَدَثَ خطأ ما لم يُعرف ما هو تماماً وقَرَّرتْ حكومةُ ماركوس حَلَّ القوة. ذَبَحَ الجيشُ (الذي كان مسيحياً بالطبع) المُجندين المسلمين في 18 مارس 1968 فيما عُرِفَ بحادثة الجابيده Jabidah واعتُبِر ذلك تصرفاً صارخاً ضد المسلمين بحيث أن ماليزيا قَطَعَتْ علاقاتها الدبلوماسية مع الفلبين.

في الداخل، أعلَنَ حاكم ولايةٍ سابق (داتو) اسمه: أوتوغ ماتالام Udtog Matalam حركةً استقلالية كانت بذرةَ حركةٍ أدَّتْ إلى تشكيل الجبهة القومية لتحرير المورو MNLF التي أسَّسها نور ميسوراي Nur Misurai سنة 1969 627 وكان شخصيةً لامعة مراوِغة تَحَرَّكَ بمرونةٍ بين الدول الإسلامية في جنوب شرق آسيا ومناطق المورو في الفلبين. لم يَصَرِّح هو ورفاقه بشكل كامل عن هدف جبهة التحرير ولكن أُطلِقَ عليه اسم: بانغسامورو الذي يَدلُّ على مفهوم أمَّة-دولة ذات أصل عِرقيّ وليس منطقة أو أرضاً محدَّدَة.

بدأت جبهة تحرير المورو وغيرها من الجماعات بعملياتِ تَمرد خفيفة في أقصى الجنوب بما يبدو وسيلة لجَلبِ الانتباه إلى مَطالبهم. وبالفعل نَجحوا بِجَذبِ الانتباه إنما ليس حيث أرادوا. في سنة 1976 دَعى الزعيمُ الليبي معمر القذافي ممثلين عن حكومة الفلبين وجبهة تحرير المورو إلى طرابلس لإقناعهم بالاتفاق على خَلقِ مناطق حكمٍ ذاتي في مناطق الأكثرية المسلمة مقابِلَ إنهاء الحرب الأهلية. لم يُناسب الاتفاقُ الجناحَ الأكثر تمسكاً بالدين والقتال في جبهة التحرير الذي كان يقوده رجلٌ اسمه حاجي هاشم سالامات Hajji Hashim Salamat.

كان سلامات مسلماً ثورياً ملتَزماً انضَمَّ سنة 1958 إلى جماعةٍ للحج إلى مكة، وبَعد سنة من الدراسة هناك ذهَبَ إلى القاهرة حيث درَسَ في جامعة الأزهر الإسلامية. حدَثَ أمران خلال تلك الفترة كان لهما أثرٌ بليغ في حياته وتأثيرٌ رئيسي على أحداث الفلبين: التقى بجماعةٍ من الطلاب الفلبينين ويبدو أنه أصبحَ قائدهم، وسقَطَ تحت تأثير "فيلسوف الثورة" المصري سيّد قطب.

عندما عادَ سالامات إلى الفلبين انضَمَّ إلى جبهة تحرير المورو، ولكنه اختَلَفَ معها سنة 1977 عندما وافقَتْ على العَرضِ الليبي وقادَ جماعةً مُنشَقة في المَنفى أسَّست نفسَها في مصر أولاً ثم في باكستان وأطلَقَتْ على نفسها اسم جبهة تحرير المورو الإسلامية 628 MILF. من المُفترض أن سالامات أو أحد رفاقه اتَّصَل بالقذافي وكَسب تأييده لهم بدلاً مِن تأييده لجبهة التحرير القومية

وأقنَعَه بدعمهم بالمال الذي ساعَدَ سالامات على تأسيس حركته. أدَّى ذلك في النهاية إلى تَأجيج الكفاح المسلح ضد حكومة الفلبين بالتعاون مع جماعات أخرى انشَقَّتْ عن جبهة التحرير القومية بمن فيهم جماعة أكثر عنفاً بقيادة أبو سَيَّاف.

بعد سلسلة طويلة من الصراعات والاتصالات وافقَتْ حكومةُ الفلبين سنة 1996 على خَلقِ منطقة شبه مستقلة في مناطق الأكثرية المسلمة. عُيِّنَ قائد جبهة التحرير القومية ميسوراي حاكِماً ولكنه لم يتمكن من السيطرة على أتباعِهِ الذين طالَبوا بشروطٍ أفضل، واستمر القتال. أمكن التَّوصل في السنة التالية إلى اتفاقيةٍ جديدة اعتَرَضَ عليها الجيش الفلبيني. باختصار، كان المُتَشَدِّدون المسلمون وقادة الجيش الأكثر انخراطاً في السياسة يُعارِضون أي نوع من الاتفاق. استَمرَّ القتالُ في الجنوب بعيداً ومُنعزلاً بحيث لم يُؤثر كثيراً على سياسات الفلبين أو على حياتها المدنية. إلا أن جبهة التحرير الإسلامية أعلَنَت الجهاد ضد الحكومة وكان قد تَشَكَّلَ لديها قوة شبه عسكرية يقال أن عددها بَلَغَ حوالي ستمئة رجلاً قاتَلَ أغلبهم ضد الروس في أفغانستان.

استَلَمَت الإدارة الرئيسة غلوريا آرويو Gloria Macapagal-Arroyo سنة 2001 وبذَلَتْ جهداً جديداً للتوصل إلى نوعٍ من الاتفاق لإنهاء التمرد. نجَحَت المفاوضات هذه المَرة ومُنِحَ المورو استقلالاً مَحدوداً في مناطق "سلطتهم التقليدية". كان مِنَ المَفروض أن تُوَقَّعَ الاتفاقية في 5 أغسطس 2008 ولكن قَبْلَ ذلك بيوم واحد أصدَرَت المحكمة العليا في الفلبين أمراً تقييدياً ثم أعلَنَتْ فيما بَعد أن الاتفاق غير دستوري. أَسقَطَ القرارُ البلادَ في حربٍ أهلية مفتوحة.

كانت الحرب أكثر عنفاً مما سَبَقَها. ألقَت الحكومة بجزء كبير مِن جيشها في ميندناو حيث قَتَلَ جنودُ الحكومة عدداً غير معروف من المسلمين وجَعَلَتْ أكثر من نصف مليون من السكان لاجئين. وفي الناحية الأخرى، أصبَحَتْ جبهة التحرير الإسلامية أكثر ضعفاً بسبب اتهام زعمائها بأن الحكومة قد خَدَعَتْهم للتَّخلي عن القضية. طلَبَ فصيل منشَقٌّ بقيادة أمريل أومبرا كاتو Ameril Umbrs Kato بالاستقلال التام لأن جبهة التحرير الإسلامية كانت مستعدةً لقبول استقلال جزئي. ومثلما يَحدث في كثير من حركات التمرد، يُواجِهُ المُتشَددون السابقون (جبهة التحرير الإسلامية) تحديات مَن هُم أكثر تَشَدداً. كان بينهم جماعتان من قيادات التمرد مِنَ الجهاديين المُلتزمين الذين تَمرَّسوا في الحرب بالقتال في أفغانستان هما: المقاتِلون الأحرار الإسلاميون البانغسامورو وجماعة أبو سَيَّاف وأعلَنَ كلاهما انتماءه للدولة الإسلامية (داعش) سنة 2014، بينما تَوَصَّلَتْ جبهة التحرير الإسلامية إلى اتفاق مع الحكومة في 27 مارس 2014 تلتزم فيه بالتَّخلي عن سلاحها والتَّصرف كحزب سياسي مقابل منطقة مستقلة.

في رأيي هناك ثلاثة دروس في هذا الصراع الطويل: الأول هو أنه من الخطير جداً حرمان شعب من وجوده الوطني ولو كانت الجماعة صغيرة ولديها إحساس قليل بهويتها. خَسِرَ حوالي مليون شخص حياتهم في القتال كما أدّى إلى معاناة قاسية في ضِعف أو ثلاثة أضعاف هذا العَدد.

الدرس الثاني هو أنه في أيّ حربِ تَمَرُّدٍ يَشعُرُ المُدافعون ومَن يَتَحَدَّونَهُم بأنهم مضطرون لأخذ مواقف تَضر غالباً بالنظام المَدني الذي يُحاوِلون حمايته. في الصراع الفلبيني خاطَرَ الجيش الفلبيني النظام المَدني الفلبيني بإصراره المُتزايد على تَسجيل "نصر". شَاهَدْنا التَّطورَ ذاته في الجزائر حيث كاد الجيشُ الفرنسي أن يُدَمِّرَ الجمهورية الفرنسية، وحاوَلَت الجماعةُ المنشَقَّة، منظمةُ الجيش السرّي، اغتيالَ رئيس الدولة شارل ديغول. وبينما أصبَحَ الجيشُ الفلبيني أكثر تشدداً وخطورة على الحكومة، انقسَمَ المتمردون إلى جماعات أكثر تَشدداً وخطورة. كلما طالَ التمرد وطالَ قمع التمرد، ازدادَ تَطرف هذه الاتجاهات.

الدرس الثالث هو أنه مع الذكاء والفهم والشجاعة يمكن التَّعامل مع أسباب التمرد بشكل جَدِّيّ، وعندما تُحَلُّ هذه الأسباب يَحِلُّ الأمنُ والنظام. ثَبتَ أنَّ تحقيق هذه الأمور مهمة صعبة ولكنها ليست مستحيلة[629].

الفصل التاسع والثلاثون

الصومال، "الدولة الفاشلة"

انتَشَرَ البحارةُ الصوماليون في البحر الأحمر والمحيط الهندي قبل مَجيء الإسلام بكثير. انطلَقَ الصيادون والتجار من حوالي عشرة موانئ على طول الساحل وتَعامَلوا مع شبه الجزيرة العربية والساحل الشرقي لأفريقيا حتى زنجبار، وربما عَبْرَ المحيط إلى الهند قبل أن يُوجَدَ أي سِجِلٍ لذلك. لا يُعرَفُ كثيرٌ عن أول لقاء لهم بالإسلام، ولكن يبدو أنه جاء مع التجارة. لم تصِل الجيوشُ العربية إلى الصومال في اندفاعها خلال القرن السابع نحو الشمال الشرقي والشمال الغربي، ولكن في القرون التالية أصبَحَ عددٌ من موانئها مدناً-دولاً مُزدَهِرَة، وفي صراعها مع بعضها بعضاً وَجَدَتْ في الإسلام وسيلةً للاتحاد في سَلطَنات. الشَّكلُ الذي تَبَنَّاهُ الصوماليون من الإسلام صَنَعَتْهُ أخويات الطرق الصوفية بما يُشبه التطورات التي حَدَثَتْ في ليبيا وكشمير واندونيسيا والقوقاز وآسيا الوسطى. تأقلَمَتْ هذه الأخوياتُ وأخَذَتْ سِمات العشائر الموجودة في الصومال. ولكن بينما كانت العشائر تتصارع في تنافس عنيف، ومازالت كذلك حتى الآن، دون أن تُسيطِر عشيرة على الباقين، فإن أخويةً صوفيةً معيَّنة هي طريقة الصالحية اقتَرَبَتْ كثيراً من خَلْقِ وحدة فيما بينهم.

بينما انتشَرَ أهلُ الساحل إلى الداخل تَمَكَّنَت الأخوية الصوفية من تَحويل البدو (إلى الإسلام) واستفادَتْ من إمكانياتهم العسكرية. وبمساعدة العثمانيين تأسَّست مملكة إسلامية مبكرة مثيرة للإعجاب في مقديشو وأصبحتْ قوية بحيث تَمكَّنَت من غزو إثيوبيا سنة 1529. توجَّهَ الإثيوبيون إلى رفاقهم المسيحيين البرتغاليين لطَلَبِ المُساعدة وبدؤوا بذلك أول الحروب المسيحية-الإسلامية أو الشمالية-الجنوبية في شرق أفريقيا.



فيما عدا إثيوبيا التي كانت أمّة-دولة منذ العصور الوسطى، فإن القرن الأفريقي والمناطق الداخلية التي أصبحت دول جيبوتي والصومال وكينيا وتنزانيا وأوغندة والسودان تتألف من مجتمعات قروية تقسمها اللغة. الخطوط على هذه الخريطة هي من نتاج "التزاحم على أفريقيا" وَضَعَها الأمبرياليون الأوروبيون دون أي اعتبار للمجتمعات الأفريقية ولا للجغرافيا.

كان البرتغاليون قد تَحارَبوا مع المسلمين في غرب أفريقيا عندما اندَفَعوا جنوباً على الساحل في بَحثهم عن الذهب والعبيد، ولكن تَدَخلهم في شرق أفريقيا كان انحرافاً مؤقتاً. كان سَعيهم نحو التوابل التي لا توجَد هناك بل في جنوب الهند واندونيسيا. ولذا لم يعيروا انتباهاً طويلاً للصومال وإثيوبيا، وكذلك فَعَلَ مَن جاء بَعدَهم مِنَ الهولنديين والبريطانيين. استمرت الحال كذلك حتى القرن التاسع عشر عندما اكتَشَفَ البريطانيون شيئاً له قيمة حَولَ مقديشو وهو أن تُجَّارَها

يَستطيعون جَمعَ الحيوانات مِن قبائل البدو وشَحنها لإطعام الجنود البريطانيين والبَحّارة المُتمَركزين في قاعدتهم البحرية في عَدَن.

وَصفَ الصومال ريتشارد بورتون Richard Burton الرّحالة الإنكليزي الكبير ومُتَرجِم كتاب ألف ليلة وليلة بأسلوبه الجَذّاب وكأنها مَوقعٌ حديثٌ للحملات الصليبية[630]. عندما وَصَلَ سنة 1855 إلى المدينة القديمة هرر Harar التي كانت تُعتَبر رابع مدينة مقدَّسة في الإسلام، أصَرَّ بورتون على اكتشاف حضارة همجية خطيرة قديمة حتى لو كان عليه اختراعها. فوجِئ بما شاهَدَه، فقد كتَبَ قائلاً إن الصوماليين لم يكونوا خَطرين بل "متعصبين جداً، بشكل خاص ضد المسيحيين بسبب حروبهم مع الإثيوبيين، وأنهم يُحبّون 'الجهاد'"[631]. ولكنهم كانوا مُنفتِحين بشكلٍ مدهش، حتى في هرر التي زَعَمَ أنه كان أول أوروبي يَزورها، وَجَدَ تَجمّعاً مِنَ المسلمين مِنْ أراضٍ بعيدة: "مَغربي من فاس وفارسي وطفل من مكة ورَجُلٌ من مسقط وسوداني أصلي وواحد من سكان دمشق وآخرون من عرب اليمن". كانت هرر متواصِلة مع العالَم أكثر مما كان يَعتَقد.

في الصومال مثل كل مكان آخر، جاءَت الرايات بَعد الرحالة والتجار. وَجَدَ البريطانيون أنهم يحتاجون إلى حماية مصدر غذائهم مِن مُنافسين أوروبيين، خاصة الألمان الذين كانوا يُنشِئون مُستعمَرةً على الساحل، ومِنَ القَبَليين الصوماليين الذين كانوا يُغيرون ويَنهبون دون أن تُعيقهم سلطةٌ حكومية. مِنْ أجل حماية مصالحهم كان على البريطانيين مواجهة أول بَطل صومالي ضد الأمبريالية الإيطالية والبريطانية، وهو محمد عبد الله حسن.

استفاد حسن من الإلهام الذي مَنَحَهُ الصوفيون للقبائل البدوية في الداخل، وعلى الرغم من أنها كانت أقل تنظيماً وعلى مستوى أصغر من السَّنوسية في ليبيا أو المَهدية في السودان إلا أن الصوفية الصومالية مَكَّنَتْهُ من تَشكيل دولةٍ قَبَلية على أساسٍ ديني. أطلَقَ عليه البريطانيون لقب: "المُلّا المَجنون". لا نَعرف الاسم الذي أطلَقَهُ هو على البريطانيين ولكننا عَرفنا أنه تَصَوَّرَهم خاطفين حقيقيين للأطفال. ذَكَرَ إن ما دَفَعه لتشكيل دولةٍ من أجل مقاومتهم هو تَبشير الأطفال الذي قامَ به المبشرون المسيحيون والذي تَصَوَّرَ أنه "سرقة مستقبلنا". وكان السبب المباشر هو الخطر الذي فَهِمَهُ مِنْ تقدم القوات العسكرية البريطانية والإيطالية إلى داخل البلاد. شَكَّلَ جيشاً قَبَلياً بمساعدة مستشارين عثمانيين وبإيحاء مِن أعضاء صوفيين من الأخوية الصالحية.

قاتَلَ جيشُ حسن القَبَلي بشكل جيد ضد قوات الطليان والبريطانيين في السنوات الأولى من القرن العشرين ولكنه لم يتمكن من الانتصار وانهَزَمَ في النهاية بُعَيدَ نهاية الحرب العالمية الأولى في الوقت الذي كانت فيه قبائل الوهابيين في شبه الجزيرة العربية قبائل العراق تُهزَمُ أيضاً بفضل القَصف الجوي البريطاني.

قُدومُ الطائرة جَعَلَ الانتصارَ الأمبريالي باهراً وقليل التكاليف. كان القصف الجوي قد استُخدِم كإجابة تقنية على التمرد. لاحَظَ "أبو القوات الجوية المَلَكية" هيو ترنشارد Hugh Trenchard عندما كان ضابطَ مشاةٍ أن جنود المشاة لم يكونوا فَعّالين في التَّعامل مع الثورات في المناطق النائية، وكان من النادر أن يتَمَكّنوا من القبض على رجال العصابات، ولكَسب الحروب

يجب إرسال أعداد كبيرة منهم بتكاليف عالية. أثناء حملة 1919-1920 في العراق، حتى استِقدام المشاة الهنود الأقل كلفة كادَ أنْ يُفْلِسَ انكلترا. كما رأينا في الفصل التاسع عشر، فإن وزير المستعمرات ونستون تشرشل عندما أدرَكَ أنه لن يَستطيع تَبرير حملة تقليدية هناك فَقَدْ كان مستعداً لاستخدام الغازات السامة، ولكنه لم يكن متأكداً فيما إذا كان استِخدامها سيكون كافياً. ولذا اتَّجَه إلى ترنشارد من أجل خيارٍ أقل تكلفة. كان ترنشارد قد تَرَكَ سلاح المُشاة وتَعَلَّمَ الطيران وأصبحَ رئيس القوات الجوية المَلَكية خلال الحرب العالمية الأولى، وكان لديه الاستجابة المناسبة لطَلَب تشرشل. أصبحَ المُؤَيِّد البريطاني الأول لسلاح الجو.

الحملةُ الجوية ضد جيش حسن في الصومال كانت العمل الذي أدى لتأسيس القوات الجوية المَلَكية. نَجَحَتْ بشكل كبير بحيث أُعطِيَت الدور الرئيسي في التَّغَلب على المتمردين في كافة أرجاء الامبراطورية البريطانية، ونَسَخَ نجاحَها الإسبان والفرنسيون في المغرب والطليان في ليبيا وإثيوبيا. ومثلما ادَّعَى ترنشارد وغيره، فإن طائرةً مسلَّحَة بالرشاشات والقنابل تَستطيع مَحوَ قرية أو مُخَيّم بَدَوي في نصف ساعة. كانت الصومال مفتاح حروب المستقبل. وعلى الرغم من أن الطائرات البريطانية كانت بِدائية ولم تِستطع حَمْلَ كثيرٍ من الأسلحة إلا أنها كانت فَعَّالة في تَدمير معنويات المتمردين. وما أن بَدأت الطائراتُ البريطانية بالهجوم حتى استسلَمَ حسن على الفور تقريباً.

لم يكن لدى حسن سوى القاعدة التقليدية في المقاومة: جيشٌ قَبَلي. وبينما أصبح بطلاً وطنياً إلا أن فكرة الأمَّة-الدولة الصومالية لم تكن قد تَشَكَّلَتْ بَعد. كان رجال القبائل والصوفيون عُدوانيين ضد الأجانب غير المسلمين ولكن لم يَتوفر لديهم الشعور بالوحدة فيما بينهم. ومثلما كانت الحال في حروبٍ استعمارية أخرى، تَمَكَّنَت القوى الأوروبية من تَقسيمِهم وهَزيمَتِهم بقواتٍ مَحَلية أخرى اعتَبروها أجنبيةً بالنسبة لهم. شَكَّلَ البريطانيون جيوشاً مَحَلية مثلما فَعَلوا في الهند وغيرها، وكانت القوات المَحَلية في الصومال مثلما كانت في الأردن كتائب جِمالٍ مُلَونة.

لم يُرَكِّز الطليان كثيراً على الصومال في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، تَمَلَّكَهُم إغراءُ الأمبريالية ولكن لم تتوفر سوى أماكن قليلة في أفريقيا لم تأخذها بريطانيا أو فرنسا أو البرتغال أو ألمانيا أو بلجيكا. كان الطليان قد تَدَخَّلوا في ليبيا، ولكنهم اندَفَعوا لاحتلال شرق أفريقيا خاصةً تحت نظام بنيتو موسوليني الفاشي. ولكي يُحقِّقوا ذلك اعتَمدوا بشكل رئيسي على مساعديهم المَحَليين: فِرق الزابتيّه (الضَّابِطِيَّه؟) Corporo Zaptie.

بَدؤوا أيضاً برنامجاً مهماً لتطوير البلاد على النمط الأوروبي، وأدّى ذلك إلى تَدفُّق الإيطاليين الذين أسَّسوا صناعاتٍ صغيرة وتجارة على النمط الغربي في مقديشو وغيرها من البلدات مثلما حَصَلَ في ليبيا. عندما أمَرَ موسوليني بغزو إثيوبيا سنة 1935، اكتشَفَ الطليان فائدةً جديدة للصومال إذ كان ميناء جيبوتي تحت السيطرة الفرنسية ولم يكن هنالك سوى ميناء مقديشو يمكن أن يَستخدمه الطليان لتموين جنودهم. أُرسِلَ جزءٌ كبير من الجيش الإيطالي للقتال في إثيوبيا، وعندما اندلَعت الحرب العالمية الثانية وانضَمّوا إلى المِحور، هاجَموا القوة البريطانية الصغيرة التي كانت في الصومال المُجاورة. لم تَستمر هذه المغامرة طويلاً لأن البريطانيين طَردوهم بعد ذلك بستة أشهر فقط، واستَمروا بحكم الصومال كمَحمِيَّة خلال الحرب.

بعد انتهاء الحرب، بَرَزَت الصومال كمُشكِلة مثل ليبيا: ماذا سيَفعل بها المنتَصرون؟ تم التعامل معها بطريقة مماثلة: اتَّفَقَ الحلفاءُ على إعادة المنطقة التي حَكَمَتْها إيطاليا سابقاً إليها بصفة "وصاية" التي تشبه الكلمات الأخرى مثل "الانتداب" التي استُخدِمَتْ لجَعلِ الاستعمار يبدو أكثر حضارية وقانونية. بينما احتَفَظَ البريطانيون بكثير من المنطقة التي سَيطَروا عليها قبل الحرب، إلا أنهم مَنحوا أجزاءَ منها لإثيوبيا وكينيا، وأصبَحَ هذا القرار الذي اتُّخِذَ بالطبع دون استطلاع رأي أو مصالح السكان المَحَليين القضيةَ الوطنية الحقيقية الوحيدة أمام النُّخبة المَدَنية الصومالية الجديدة التي تَصاعَد وَعيُها السياسي. للرَّدِ على ذلك، أسَّستْ هذه الفئة الصغيرة أول حزب سياسي: العصبة الشبابية الصومالية.

أصبَحَتْ هذه الفئة أكثر تَماسكاً وشَعَرَتْ بضرورة إيجاد شكلٍ جديد من الوطنية الإسلامية، وبَدَأَتْ تَضغَط على إدارة البريطانيين والطليان. وافَقَت القوتان تحت ضغط قضايا أكثر إلحاحاً في مَناطق أخرى وبسبب مَصاعِب مالية مُتزايدة في سنة 1959 على إنشاء دولة واحدة.

تَعَثَّرَت جمهورية الصومال الجديدة منذ إنشائها بانقسام الدولة إلى عشائر. كانت قوانين الدولة بلا قيمة تقريباً. لم يكن شكل الدولة مُهِمَّاً من الناحية السياسية، بل التنازلات والصراع بين زعماء العشائر. ظَهَرَ لفترة قصيرة أنه يمكن التوصل إلى اتفاق وأطلَقَ الزعماء أصوات الفرح والتفاؤل، وشَعروا بفوائد الوحدة وأنها يمكن أن توصِلهم إلى ما يريدونه أكثر مما يمكن أن يُحققوه وهم مُتفَرقون. وهكذا اندمَجوا فيما كان غريباً عليهم: أحزاب سياسية. فَعَلوا ذلك دون أن يَتخلوا عن هويتهم الرئيسية كأفراد في عشائر. كان أكبر أحزابهم الجديدة هو نسخة موَسَّعة من عصبة الشباب الصومالي أُنشِئت على قاعدة تحالف فيدرالي بين العشائر.

رَبِحَ هذا التحالف الأغلبيةَ في مقاعد البرلمان في أول انتخابات قومية سنة 1964. كان توازن القوى حَرِجَاً ودقيقاً لدرجة أن الحكومة الجديدة لم تَستطع أن تفعل شيئاً. كان ذلك مناسباً للصوماليين فقد كانت كل عشيرة تُسَيِّرُ أمورها بنفسها. كانت فكرة البرلمان جديدة وحديثة إنما ليست واقعهم العملي. مَنَحَ البرلمان أعضاءه امتيازات وكان الجميع مسرورين بالنتائج بحيث أن التحالف نفسه فاز بالانتخابات الثانية سنة 1969. ظَهَرَ سطحياً أن الصومال قد حَقَّقَتْ انتقالاً باهراً من الاستعمار إلى الديموقراطية الغربية.

اتَّضحَ ضَعف المؤسسة فوراً عندما اغتيل الرئيس عبد الرشيد علي شيرمارك سنة 1969. يبدو أنه حاوَلَ التعامل مع البرلمان وكأنه كان الرئيس التنفيذي لحكومة فَعَّالَة، ولم يكن ذلك ما أرادَه أي أحد، إلا أنه لم يكن واضحاً ما الذي يمكن عمله لإنقاذ شكل النظام على الأقل.

الرجل القوي الذي بَرَزَ مِنَ الفوضى كان محمد سياد بري Muhammad Siad Barre الذي خَدَمَ في الشرطة الطليانية والزابتيّه والقوات الاستعمارية البريطانية. أُرسِلَ إلى إيطاليا خلال فترة خدمَتِهِ حيث تَلَقَّى تدريباً مُتقدّماً في معهد كارابنييري Carabinieri College ثم أسَّس علاقةً غامضة مع بعض الضباط السوفييت. تَعَلَّمَ ما يكفي مِنَ الماركسية لكي يَستنتج أن تقوية دور الدولة في الاقتصاد سيَمنح الصومال استقلالاً حقيقياً. كتَمَ هذه الأفكار بذكاءٍ في نفسه. أصبَحَ نائب رئيس الجيش الصومالي سنة 1960 الذي كان جيشاً صغيراً ضعيف التسليح إلا أنه كان يَحتكر القوة

المسلحة والأهم من ذلك أنه كانت لديه القدرة على التّحرك في الدولة لإطلاق قُوَّتِهِ. في غَمرة الفوضى التي حَدَثَتْ بعد اغتيال الرئيس قام بري وقواته بانقلابٍ عسكري لا بد أنه قد خَطَّطَ له منذ زمن طويل.

استلَمَ بري يالسلطة في 21 أكتوبر 1969، وحَلَّ البرلمان فوراً وجميع الأحزاب السياسية وعلَّقَ الدستور وأغلَقَ المحكمة الدستورية العليا الجديدة. ولكن في الوقت نفسه قام بتنفيذ برنامج كبير للإصلاح الاجتماعي، مثل الديكتاتوريين العسكريين غيره. شجَّعَ برنامجه على محو الأمية وتوزيع الأرض والاستثمار في التصنيع. أقام ارتباطات مع الجامعة العربية والمنظمة التي سبَقَت الاتحاد الأفريقي، وأعلَنَ في الوقت نفسه أن نظامه سيدمج بين الماركسية والإسلام. باختصار، أصبَحَ بري "رجلاً على ظَهر حصان" في الصومال. قدَّمَ تصريحاً إثْرَ آخر أن صوماله ستَستَرشِد بنسخة مُتَطوّرة من الإسلام ولكنها مَقبولة أصولياً. تحت شعار الإسلام، كان يستطيع أن يفعل كل ما يريد. وكان أول شيء أراده هو توحيد البلاد تحت حكمه.

اكتشَفَ قوة اللغة بسرعة، مثلما فَعَلَ غيره في أفريقيا وآسيا. لاحَظَ أنه إذا حاوَلَ فَرْضَ أية لغةٍ صومالية على الأخريات فإنه سَيُسَبِّبُ حرباً أهلية بدلاً من أن يُوحِّد البلاد. اختَار بدلاً عن ذلك أن يُبَدِّلَ عدة لهجات مَحَلية بلغةٍ وطنية جديدة، ولم يُخَفِّف اللهجات بل مَنَعَ أيضاً استخدام اللغات الأجنبية المستَعمَلة عادة. تم استِبدال اللغة العربية والإنكليزية والطليانية باللغة الصومالية (الجديدة) التي لم تَعُدْ تُكتَبُ بالأحرف العربية بل بنسخة معَدَّلَة مِنَ الأحرف اللاتينية مثلما فَعَلَ الروسُ باللغة التركية التتارية في ثلاثينيات القرن العشرين. أُمِرَ موظفو الحكومة بِتَعَلُّمِها واستِخدَامِها في أعمالهم، كما تَعَلَّمَها الأطفالُ في المدارس. يَجعَلُ ذلك فَهمَ المَخزون الثقافي صَعباً مثلما فَعَلَ الإصلاحُ اللغوي في الروسية والفرنسية. يجب تركيز جميع الأنظار فقط على ما أرادَ النظام مِن مواطِنيه أن يَعرِفوه.

اعتَقَدَ بري أنه يَستطيع الاعتماد على التأييد السوفييتي بسبب تَبنِيه الماركسية (المعدلة)، فقامَ بغزو إثيوبيا سنة 1977 جارَةَ الصومال وعَدُوَّتها القديمة لاسترجاع ما كان أرضاً صومالية، وربما كان ذلك لن يُزعج السوفييت ولكن لسوء حظه حَدَثَ انقلابٌ في إثيوبيا سنة 1974 مَنَحَهَا ما يبدو نظاماً ماركسياً حقيقياً وليس نسخة ناقصةً منها مُطَعَّمَةً بالإسلام مثل الذي كان عنده. ولم تكن إثيوبيا شريطاً ساحلياً كالصومال، بل دولةً كبيرة غنية بالمصادر الطبيعية وقادرة على تَغيير السياسة المصرية أيضاً. كان واضحاً من وجهة نظر السوفييت أن إثيوبيا هي جائزة أكبر وأهم مِنَ الصومال، فأوقَفَ الروسُ فوراً مساعداتهم لحكومة بري.

بينما كان الروس يُبَرِّدونَ حَماستهم نحو بري كان نظامه يَفقد تَماسكه أيضاً، ومثل كثير من الدول بعد الاستعمار لم تَتوفر في الصومال مؤسسات مدنية توازن قوة العَسكر. فَشِلَتْ برامجُ وضِعَتْ لفائدة الشعب، وتَجاوزَت الطموحات الإمكانيات والمهارات، وتضَاعَفَت المصاريف العسكرية بينما تَضَاءل الدَّخل. تم قبول المساعدات الأجنبية بتَجَهُّم، وغالباً ما تَمَّ نَهبُها وسَرَقَتُها، وأصبَحَ الفساد مَرَضاً مزمناً، وحتى الطقس انقَلَبَ ضد الدولة حين ضَرَبَ الجفاف مناطق كاملة. بدأ النظام يُمارسُ القَمعَ المتزايد بعد أن أمسَكَ بالسلطة عشرات السنين لكي يتمكن من المحافظة على نفسه. انتَشَرَ الخوفُ بسبب الاعتقال والسَّجن والتَّعذيب والاختفاء وقَتْلُ المُعارِضين والمُنافِسين. طُبِّقَتْ إجراءات تَعسفية بشكلٍ عشوائي وعلى نطاق واسع واستُخدم القصف الجوي والمدفعي على

المدن. قَتَلَ جنودُ بري والأمن السياسي حوالي خمسين ألف مدني صومالياً حين كان عدد السكان آنذاك حوالي المليونين.

وأخيراً في سنة 1991 انهارَت البلاد في حربٍ أهلية، وبينما نَظَّمَ ضباطٌ من الجيش وزعماء عشائر أنفسهم للإمساك بما استَطاعوا ضَبطَه أو لِحِماية ما كان لديهم، قَرَّرَ بري بِحِكمةٍ أن يُنقِذَ نفسِه وهَرَبَ إلى نيجيريا حيث توفي بنوبة قلبية سنة 1995 دون أن يرثيه أحد.

لم تَحلَّ وفاةُ بري مشاكل الصومال بالطبع إذ أعلَنَت المنطقةُ التي كان يحتلّها البريطانيون الاستقلال فوراً عن المنطقة الإيطالية السابقة، وبينما ظَلَّت المنطقةُ البريطانية هادئة نسبياً، بدأ زعماء العشائر الكبيرة في المنطقة الإيطالية مثل الجنرال محمد فرح عيديد وعلي مَهدي محمد صراعاً دموياً في سبيل السيادة. ولكي يَحصَلوا على الأموال اللازمة لكسب المؤيديين نَهَبوا شحنات المساعدات الخارجية، وخلال القتال انقطَعَت قنوات التوزيع ولم يتم زرع المَحاصيل. يُعتَقَدُ أن المَجاعة الحَتمية قَضَتْ على ربع مليون إنسان على الأقل، أيْ واحداً من كل عشرين من السكان تقريباً. تحَرَّكَت الفوضى والمَجاعة والقَتل معاً فيما سُمِّيَ "السنة صفر في القرن الأفريقي 1991"[632]. قَرَّرَ مجلس الأمن الدولي في ديسمبر 1992 رداً على الكارثة الإنسانية المؤلمة إرسال قوة عسكرية من باكستان وماليزيا لكي تُحاول تَحقيق بعض السلام. اعتَبَر عيديد هذه القوة غزواً أمبريالياً وهاجَمَها على الرغم من أن جنودها كانوا مسلمين.

أرسَلَت الحكومة الأمريكية رداً على هجومه قواتٍ إلى الصومال. على الرغم من كونها مُفَوَّضَة من الأمم المتحدة، إلا أن قوات المَهام الخاصة كانت عمليةً أمريكية تتألف من القوات الجوية والجيش والقوات البحرية الخاصة. ولم يكن لديهم بالطبع "التغطية" الإسلامية. كان هدفهم القبض على عيديد والقضاء على قوة الميليشيا لديه. هاجَموا مقديشو في أكتوبر 1993، وأصبَحَ هجومهم فيما بَعد موضوعَ فيلم Black Hawk Down، وأدى الهجوم إلى إصابة أكثر من خمسة آلاف صومالي وخسارة ثمانية عشرة أمريكياً. وكان مِنَ المحتَّم أن تزيد العمليةُ كراهية الصوماليين للأجانب وتزداد العُدوانية بين العشائر.

أمَرَ الرئيس بيل كلينتون سَحبَ القوة الأمريكية فوراً بسبب الحَرَجِ من فشل العملية، وتَبعهم الباكستانيون والماليزيون. تَشَجَّعَ أمراء الحرب على متابعة القتال. وفجأةً قام الصوماليون بأنفسهم ودون مساعدة خارجية بالتَّخلص من أمراء الحرب.

فَقَدَ الصوماليون الأمل بالوطنية والقومية والماركسية وعادوا إلى الإسلام مثلما فَعَلَ أغلب الأفريقيين والآسيويين. ظَهَرَ قاضٍ مسلم معروف اسمه شريف شيخ أحمد وتَزَعَّمَ تحالفاً مِنَ القضاة ومؤيّديهم سنة 1991 لتشكيل منظمة اسمها: اتحاد المَحاكم الإسلامية لإعادة النظام. أوقَفَ الاتحادُ القتالَ فوراً واستَعادَ الأمن. عَلَّقَ أحد الصحفيين الأمريكان "تغَلَّبَ رجالُ ميليشيا اتّحاد المَحاكم الإسلامية المُعَمَّمِين بالفعل على أمراء الحرب المَكروهين في الصومال... وجَعلوا المَشي في مقديشو آمناً لأول مرة منذ جيل"[633]. سَجَّلَ النرويجي شتيغ يارل هانسن Stig Jarle Hansen

المختص بشؤون الصومال مشاعرَ الناس "تَعِبَ سكان مقديشو من الفوضى والاغتصاب والسرقة والنَّهب والقَتل الذي كان أمراً يومياً... كان الإسلامُ النظامَ العقائدي الوحيد الذي لم يَفقَد مِصداقِيَّتَهُ في الصومال واتَّجَهَ الناسُ إلى الزعماء الدينيين بحاجتهم إلى الحماية... اعتُبِروا حُماةَ العدل والعدالة لأنهم كانوا متمسكين ومُلتَزمين بالإسلام"634.

تطَوَّرَ اتحادُ المحاكم الإسلامية بتقديم الخدمات القانونية للناس، وكان مصدر تَمويله الرئيسي والوحيد في البداية هو الرسوم التي يَدفعها المُتقَاضون. وبفضل الأموال التي تقاضاها اتَّبَعَ السبيل الذي رَسَمَهُ الإخوان المسلمون وحزب الله وغيرها من الحركات بتقديم الخدمات الاجتماعية للناس. وتقاطَرَ الصوماليون الذين تَعِبوا من الحرب والفساد للدخول في ميليشياتهم التي اصبَحَتْ بسرعة الحكومة الواقعية لجميع الصومال تقريباً.

ولكن الاتحاد واجَهَ معارضةً شديدة من أمراء الحرب الذين كانوا مسلحين جيداً ولديهم كثير من الأموال، والذين شاهَدوا المخاطر التي وَجَّهَها إليهم الاتحاد فتَغَلَّبوا على خِلافاتهم وشكَّلوا: التَّحالف من أجل السلام والقضاء على الفساد. هاجَمَت المنظمةُ الاتحاد فوراً وعادَت العاصمة مقديشو مَسرحاً للقتال اليومي تقريباً. داخلياً، كان الاتحاد والتحالف متساوين في القوة تقريباً، ولكن التدخل الخارجي كان جاهزاً. بَدَأَتْ إدارةُ الرئيس بوش الابن بمساعدة تَحالف أمراء الحرب سِراً خَشية مِن أنَّ الاتحاد كان يُقَّدِم خدمات لجماعات إسلامية متَطَرفة مثل القاعدة، ودَفَعَها إلى التَّصَرف التفجيراتُ الإرهابية في نيروبي ودار السلام سنة 1998. وعلى الرغم من تلك المساعدة الخارجية، إلا أن أمراء الحرب خَسِروا السيطرة وهَرَبوا من البلاد.

شَجَّعَتْ إدارةُ بوش الحكومةَ الإثيوبية التي لم تَعُدْ ماركسيةً للهجوم على الصومال وذلك بسبب ذكريات أحداث 2006 المؤلمة التي صَوَّرَها فيلم Black Hawk Down وتَعَثُّر القوات الأمريكية في الرمال المتحركة في أفغانستان والعراق مع إصرارها على متابَعة "الحرب على الإرهاب". قُدِّمَت الأموال إليها مع إعادة تَنظيم جيشها بطائرات حديثة وأسلحة. شَكَّتْ إدارة بوش بأن الإثيوبيين لن يَستخدِموا الأسلحةَ الجديدة بكفاءة فقَرَّرَت المشاركة في الحَملة بقوات أمريكية خاصة وعملاء من المخابرات الأمريكية. كان عَرضاً لا تَستطيع إثيوبيا رفضَه: المال والسلاح وصُنعُ درعٍ أمريكي لحماية النظام. بدأتْ غَزوها غير المُبرر وغير الناجح في 20 يوليو 2006.

كان الغزو مؤلماً للصوماليين فقد انغَمَسَت الكتائب الإثيوبية بنَهبٍ واغتصابٍ وقَتلٍ على نطاق واسع. بالنسبة للأمريكان كانت النتائج عكس المُتَوَقَّع، فبدلاً من عزل وتشويه سمعة الحركة الإسلامية، أدّى الغزو إلى تَرسيخ الغضب الصومالي ضد الشمال العالمي الذي تُمَثِّلُهُ هنا الولاياتُ المتحدة ولُعبتها إثيوبيا المسيحية. بعد رحلةٍ في ريف الصومال، كَتَبَ جيفري غيتلمان Jeffrey Gettleman مراسل صحيفة النيويورك تايمز "في قرية إثر قرية، وَصَفَ الناس إرهاباً مسيطِراً طويلاً واسعَ الانتشار إذ قام جنودٌ إثيوبيون باغتصاب النساء وإحراق البيوت وقَتل المَدنيين حسب رغبتهم... وهُم ذات الجنود الذين ساعَدَت الحكومةُ الأمريكية بتدريبهم وتسليحهم"635. كانت النتيجة تَهميش وهَزيمة الفِئة المُعتدِلة من اتحاد المَحاكم الإسلامية وتَقَدُّم العناصر الأكثر تطرفاً.

كانت حركة الشباب في مقدمة العناصر المُتَطَرفة التي انشَقّت عن اتحاد المَحاكم الإسلامية عندما اضطر الاتحاد تحت الضغط لإعلان رفضه حَرَكة القاعدة. حركةُ الشباب المجاهدين، التي تُعرف أيضاً باسم: حركة الشباب، تَبَنَّتْ قضية الحرب المقدَّسة[636]. ذُكِرَ أن ثمانية وتسعين من أعضائها حارَبوا القوات الأمريكية في أفغانستان. تأثَّرَت الحركة بالإسلام الوهابي وهي بشكل عام مُعادية للأخويات الصومالية التقليدية. خَضَعَتْ لهجومٍ حقيقي مستمر وقُتِلَ بعضُ قادتها بقصف أمريكي من طائراتٍ بدون طيار انطلقتْ من كينيا المجاورة. على الرغم من محاولات الجيش الأمريكي وقوات المخابرات لتَدميرها، إلا أن الحركة سيطَرتْ على أغلب جنوب الصومال سنة 2009 وقامَتْ بعمليات إرهابية في كينيا.

لم يكن القصف بطائرات دون طيار العمليات الأمريكية الوحيدة، فقد عملوا مع متعاونين صوماليين كانوا في الواقع غالباً أمراء الحرب وعملاء مَحَليين مُجَنَّدين من قوات بري الأمنية، وبدأت المخابراتُ الأمريكية برنامجاً لتقديم مكافآت مقابل معلومات تؤدي إلى القبض على المنشَقِّين وجَنَّدَتْ أمراء الحرب المَحَليين المَكروهين لمطاردة المسلمين المُتَّهَمين الذين يتم تسليمهم عادة عند القبض عليهم إلى شرطة الأمن السرّية[637]. اختَفى كثير منهم بعد ذلك. حَجَزَت المخابرات الأمريكية والقوات الخاصة بعضهم على سفن بَحرية أمريكية تعمل في المحيط الهندي أو الخليج العربي. أدى ذلك إلى جَعل البحرية الأمريكية مجموعة من السجون العائمة. انحدَرَ الاحترامُ الأمريكي وتَحَوَّلَ الإعجابُ القديم بالأمريكان، الذي أصبح باهتاً وبعيداً، إلى كراهية عميقة. هَرَبَ أولئك الذين لم يُقبَض عليهم إلى اليمن حيث ساعَدوا في تحويل مشاعر الوطنية إلى الإسلام المتطرِّف[638].

تَعرضَّت الصومال في ذلك الوقت لهجمة من اتجاه آخر، انتَهزَتْ سفنُ صيد السمك الضخمة فرصة انهيار مؤسسات الحكومة الصومالية لتَدمير حياة جزء كبير من المجتمع الصومالي، وهم صغار الصيادين. حَسْبَ غيتلمان فقد طَبَّقَتْ أساطيل صيد السمك الأجنبية "أساليب قذرة في صيد السمك، مثل تفجير الشعاب المرجانية أو استِخدَام شَفَّاطات ضخمة لامتصاص كل شيء من قاع المحيط: الأسماك والمرجان والصخور والنباتات، وتَقضي على محصول السنة وعلى الأجيال القادمة أيضاً". ألقَت السفن الضخمة في الماء أيضاً براميل نفاياتٍ سامَّة رَسَتْ على الشواطئ الصومالية. كما قامَ طواقمُ السفن الضخمة أحياناً بإطلاق النار على قوارب الصيادين المَحَليين الصغيرة لتَرهيبهم، أو ربما من باب الرياضة والتسلية. كَتَبَ غيتلمان أن الصيادين الذين حُرِموا مِن رِزقهم "تَحَوَّلَ كثير منهم تدريجياً إلى قراصنة محترفين"[639].

في نظر الصوماليين، كان الشمال العالمي متورطاً بشكل كبير في الغزو البحري مثلما كان في الغزو الإثيوبي البَري، فقد دَعَمَت الحكومات الأوروبية أساطيل صيد السمك الغازِيَة (التي عَمِلَتْ أيضاً من نيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية) بحوالي 35 بليون دولار كل عام. رداً على عمليات القرصنة تَمَركَزت بَحرية الولايات المتحدة ودول أوروبية في سفن حربية قوية على ساحل الصومال، ليس لاصطياد سفن الصيد الضخمة غير القانونية بل لاصطياد الصيادين الذين تَحَوَّلوا

إلى قراصنة. أثبَتَت الحكومة الصومالية أنها غير قادرة على وَضْعِ القضية بكفاءة أمام المحكمة الدولية ولا على حماية نفسها[640].

الصومال هذه الأيام هي مجتمع مَشلول يَكرَهُ الشمال العالمي بمَرارة، ومشاعره ضد جميع الأجانب قويةً لدرجة أنها تَشمل حتى العامِلين في برامج المساعدات الإنسانية الذين أُرسِلوا إلى الصومال للمساعدة في أعمال سليمة مثل الرعاية الصحية فأصبَحوا الآن أهدافاً. الصومال "دولة فاشلة" تَمَزَّقَ فيها العَقد الاجتماعي بسبب التَّدَخل الأجنبي جزئياً على الأقل. لم تَخلُق أمريكا الإرهاب في الصومال، بل فَعَلَ أمراءُ الحرب ذلك، ولكنّ كراهية الصوماليين لأمراء الحرب تَوَجَّهَتْ الآن نحو الشمال العالَمي، وبشكلٍ خاص نحو أمريكا. أعلَنَتْ حركةُ الشباب خطَّتها القيام بالجهاد حيثما تستطيع، حتى في أمريكا. ويبدو أنها قَرَّرَتْ تحويل تَحالفها جزئياً على الأقل من حَرَكَةِ القاعدة المُحافِظة نسبياً إلى الخِلافة الإسلامية (داعش).

الفصل الأربعون

بوكو حرام ونيجيريا

بين حوالي الثلاثين جماعة أو حركة تَعتَرف بعلاقتها بالقاعدة أو بالدولة الإسلامية (داعش)، فإن بوكو حرام هي أكثرها غرابة. تُسيطِر على قلب أفريقيا بعيداً عن اهتمامات العالم. يوضِّح تاريخ بوكو حرام التَّدرجَ الذي يبدأ بالاحتلال الأجنبي لمجتمع تقليدي وفَرضِ الحُكم الأمبريالي الذي يُؤدي إلى إعلان الاستقلال، ثم تَقليد الحُكم الأمبريالي بحُكمٍ استبدادي مَحَليٍّ فاسد، ويَنتهي أخيراً إلى تَطَرُّفٍ إسلامي عنيف[641].

المنطقة التي تَشمل الآن شمال شرق نيجيريا وأجزاء من جنوب النيجر وغرب تشاد وشمال الكاميرون كانت تُشَكِّلُ ذات يوم امبراطورية بورنو Bornu التي وجِدَتْ مِنَ القرن الرابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر. حَكَمَتْها طوال تلك الفترة سُلالة واحدة، وهو أطول حُكمٍ لأية سُلالة في تاريخ العالَم. ولكن مثلما يَحدث للسُلالات عادة، انتابَها الضعف وفَقَدَت الحماسة الدينية التي مَكَّنَتْها من إعلان نفسها خِلافة. زَعَمَ قادِمون جُدد في دولة الفولاني Fulani المُجاوِرة أن حكّام بورنو انحَرَفوا عن السنّة وأعلَنوا الجهاد ضدها. هَزَمَتْ قواتُ الفولاني جيشَ البورنو سنة 1810 وأحرَقَتْ عاصمتهم. لم يكن لدى السلطان وسائل أخرى للدفاع عن بقايا دولته فاستَنجد بعالِمٍ مسلم اسمه محمد إرشيد بن محمد الكَماني الذي ولِد في الصحراء الليبية[642].



نيجيريا هي إحدى أكثر دول أفريقيا فساداً وعنفاً. أصبح الجنوب مسيحياً بشكل عام في القرن التاسع عشر بينما ظَلَّ الشمال والشمال الشرقي مسلماً. تُسيطِر بوكو حرام في منطقة الشمال الشرقي تحت شعار "التَّغريب مَمنوع".

ربما كان الكَماني مرتبطاً بالطريقة الصوفية التي كانت تَنتَشر عبر الصحراء على يد الإمام محمد بن علي السَّنوسي، وسواءً كان قد تَعَلَّمَ مِنَ السَّنوسي مباشرة أم أنه قَلَّدَهُ مِنْ بعيد فسَيَلعَبُ الكَماني دوراً في قضايا وسط أفريقيا يشبه الدور الذي لَعِبَهُ السَّنوسي في شمالها. كان بشكلٍ أساسي عالِماً دينياً مثل السَّنوسي، إلا أنه بدلاً من تأسيس طريقة قامَ بالتِقاط ما تَبَقَّى مِن امبراطورية البورنو بعد سنة 1810. لم تتم تسميته حاكِماً ولكنه مارَسَ السلطة من خلال مَركَز "أمير المؤمنين" وهي أهم صفات الخليفة. ظَلَّ بعيداً عن السلطان ولكنه أَخَذَ مهمة الدفاع عن الدولة. تمكَّن مِن وَقفِ الغزو الفولاني باللجوء إلى الأخوية الإسلامية. أصدرَ فتوى بأن المسلمين يجب ألا يقاتِلوا إخوتهم المسلمين أبداً. اضطُّر الفولانيون إلى وَقفِ هجومهم لأنهم بَرَّروا حربهم أصلاً على أسس دينية.

لم يكن الأفريقيون وحدَهم مَن أعجِبوا بالكَماني، بل كتَبَ أول رحالة انكليز زاروا عاصمته في أفريقيا الوسطى أن "لديه كافة المؤهلات لقائد عظيم، فهو عبقري مقدام وحكيم يَتميز بحضورٍ ساحِرٍ وسلوكٍ لطيف مُتَصَالح ولم يَختلط طموحه بالغُرور والتَّكَبر بحيث رَفَضَ تَنصيبَهُ سلطاناً"[643]. مهما كانت مهاراته الدبلوماسية والنظرية إلا أن خَليفته لم يَستطع تقليده، وسرعان ما جاء الجيشُ البريطاني وراء الرّحالة الإنكليز.

جاء الجيش البريطاني أولاً في ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى المناطق الساحلية لما يُعرَفُ الآن بجنوب نيجيريا. كان الفرنسيون والألمان يَندفعون أيضاً نحو مناطق الدَّاخل فيما سَمَّاهُ الأمبرياليون الأوروبيون "التَّدَافُع إلى أفريقيا". لم يَهتَمَّ أحدٌ من الشخصيات السياسية في القوى العظمى بمصير الأفريقيين، ولكن المستشار أوتو فون بسمارك كان قلِقاً مِن أنّ التَّنافس في أفريقيا قد يؤدي إلى الحرب بين القوى الأوروبية، ولذلك دَعى إلى مؤتمرٍ لتقسيم أفريقيا فيما بينهم. اجتَمعَ ممثلون عن بريطانيا وفرنسا وألمانيا والبرتغال بالإضافة إلى ليوبولد ملك بلجيكا ممثلاً نفسه في برلين سنة 1884 و1885 لتقاسم القارة. كان المؤتمر تَعبيراً صريحاً عن الأمبريالية.

اعتَرفَت القوى الأوروبية بهيمنة بريطانيا على شمال نيجيريا (بين مناطق أخرى أيضاً). وَصَفَت الحكومة البريطانية الترتيب بأنه "مَحمِيَّة"، وهي كلمة أخرى لِوَصفِ "مستَعمَرة"، وأسَّس البريطانيون لاستغلالها نسخة مُصَغَّرَةً من شركة الهند الشرقية. شَكَّلَت الشركة المَلَكية النيجيرية جيشها الخاص تحت قيادة فريديريك لوغارد Frederick Lugard وهو واحدٌ من رجال الإنكليز البارزين الذين رَسَموا خطوطاً مستقيمة عبر خريطة أفريقيا. احتَلَّتْ قوةُ جبهة غرب أفريقيا كل نيجيريا بحملةٍ دموية استمرتْ خمس سنوات مسلحةً بمدفع مكسيم الرشاش، سلاحُ الأمبريالية العظيم. جاء الانتصار بسهولة، ولكن تحقيق الأرباح لم يكن سهلاً، فباعَت الشركةُ نفسَها إلى الحكومة البريطانية سنة 1900 [644]. استَفَادَ المَالِكون من هذا البيع أكثر بكثير مما استَفَادَهُ البريطانيون الذين يَدفَعون الضرائب.

مع بداية الحرب العالمية الأولى سنة 1914 دَمَجَ البريطانيون شمال نيجيريا بجنوبها، وضَمُّوا إليها المُستعمَرة الصغيرة في لاغوس ليُشَكِّلوا مستعمرَةً واحدة. حَكَموا نيجيريا نصف قرن بشكل رئيسي من خلال "زعماء" مَحَليين شبه مستقلين. كان القسمان تحت الحماية مختلفين كثيراً في التجربة التاريخية، فبينما كان الشمال يتألف من حكومات مسلمة دينية مستقلة ذات تواصل قليل مع أوروبا، كان الجنوب مُنفَتِحاً على الخارج منذ زمن طويل. ممارسةُ الاستعباد التي شَجَّعَ عليها الإسبان والبرتغاليون في القرن السادس عشر وتابَعَتْهَا بريطانيا وفرنسا وأمريكا في القرن الثامن عشر، لم تُمنَع في نيجيريا حتى سنة 1936. كانت المنطقتان منقَسمتين دينياً أيضاً، فقد حَوَّلَ المُبَشِرون المسيحيون ملايين السكان الأصليين في مناطق الجنوب الرَّطبة، بينما ظَلَّ سكان الأراضي الشمالية الجافة على دِين الإسلام.

اعتَرَفَ البريطانيون بنيجيريا سنة 1960 كدولةٍ مستقلة بعد نصف قرن من الحُكم لم يَفعَلوا خلاله شيئاً للتكامل بين القِسمَين، أو لِخَلق مؤسساتٍ وطنية قابلة للاستمرار، ومَنَعوا السكان

الأصليين من اكتساب خبرة في إدارة قضاياهم الوطنية. وكما كان متوقّعاً فقد انحَدَرَت البلاد فوراً فيما سَميتُهُ: "مَرَضُ ما بَعد الأمبريالية".

لم يَخِفَّ المَرضُ، فقد خضَعَ النيجيريون طوال فترة الثلاث وثلاثين سنة منذ الاستقلال لحُكمِ الاستبداد العسكري، وعلى الرغم من وجودهم في أغنى دولة أفريقية بدخلٍ قومي يزيد على 500 بليون دولار، إلا أن 50% إلى 60% من سكانها البالغ عددهم 185 مليوناً يَعيشون في "فقر مدقع"، ويَقَعُ سبعة من كل عشرة منهم تحت خَطِّ الفقر[645]. سِجِلُّ الحريات المَدنية في الدولة صَادِم. عُنفَ الشرطة فيها بين الأسوأ في العالم[646]. الاتِّجار بالبشر، وهي النسخة الحديثة من تجارة الرقيق، تَقومُ بها عصابات تَتَغافل عنها قوات الأمن وتكاد أن تكون صناعة قومية. ذَكَرَتْ وزارة الخارجية الأمريكية "نيجيريا هي مَصدر ودولة ناقِلة ومُستقبِلة للنساء والأطفال الذين يَخضَعون للعمل الإجباري وتجارة الجنس"[647]. تجارة المخدرات أيضاً تَتَغافل عنها الشرطة ويَنخرط فيها أعضاء في الحكومة. جَمَعَتْ أنظمتها المُتتالية سِجلاً ضخماً من الفساد. سَرَقَ زعماء نيجيريا حوالي 400 بليون دولار في الفترة بين الاستقلال وسنة 2000، وأخبَرَ لاميدو سانوسي Lamido Sanusi الذي كان حاكِم البنك المركزي النيجيري آنذاك الرئيسَ غودلَك جوناثان Goodluck Jonathan أن شركة البترول في الدولة "شركة البترول القومية النيجيرية" أخفَقَتْ في دَفعِ 20 بليون دولار من عائدات النفط التي تَستحقها الدولة[648]. يبدو أن جوناثان عَرِفَ أين ذَهبَت الأموال وأقَالَ ببساطةٍ حاكمَ البنك المركزي. عَرفَ آخرون أين ذَهَبَت الأموال، وحَسْبَ أوبي إيزكوسيلي Oby Ezekwesili النائب السابق للبنك الدولي الأفريقي فإن حوالي 80% من عائدات النفط "انتَهتْ في أيدي 1% من السكان"[649]. كانت الانتخابات المتتالية نماذج من التزوير لدرجةِ الضياع التام للمبدأ الأساسي في الحكومة النيابية[650].

بالنظر إلى الاضطرابات والقمع والفساد الذي عاشَه النيجيريون في القرن العشرين، والتي تَختلف كلياً عن طريقة الحياة الآمنة المستقرة التي عاشَتْ في ظِلِّها نيجيريا المسلمة في القرن التاسع عشر، لا يَتَوقَّعُ المرءُ الهدوءَ والسلام، بل من الغريب أن استمر الاستقرار كل ذلك الوقت. يبدو السبب الظاهري لذلك هو مَزيجٌ من الفساد، الذي شَمَلَ جميع الذين لديهم القوة لتَغيير النظام ووصَلَتْ أيديهم إلى الخزينة، وما وَصَفَهُ مُراقبٌ من الحكومة الأمريكية عن سيطرة الخوف الذي عَزل بعيداً أولئك الذين يَستطيعون تَحدي الفاسدين[651]. ذكَرَتْ وزارة الخارجية الأمريكية سنة 2012:

"سوءُ استخدام السلطة الذي ارتَكَبَته قوات الأمن مع الحَصانة يَشمَلُ القَتل والضرب والحبس العشوائي وتدمير الممتلكات والعنف الاجتماعي والعنف العِرقي والمَناطقي والديني، وغيرها من مشاكل حقوق الإنسان الجَدِّية التي شَمَلَت القتل بلا محاكمة من طرف قوات الأمن والإعدامات العاجلة والتعذيب من قوات الأمن والاغتصاب والمعاملة القاسية غير الإنسانية أو المُهينة للسجناء والمُحتَجَزين والمُتَّهَمين ومراكز السجن السيئة التي تُهَدِّدُ الحياة والحَجز الطويل قَبْلَ المُحاكمة والحِرمان من المحاكمة العامة العادلة وتأثير السلطة التنفيذية على القضاة... عَمِلَت

الشرطة وقوات الأمن بحصانة تامة بشكل عام... لم تُحاسِب السلطاتُ الشرطةَ بشكل عام بسبب استخدام قوة زائدة أو قاتِلة أو لوفاة أشخاص في السجن"[652].

من الصعب إيجاد تحليل متماسِك أو حتى تقارير كافية عن شمال نيجيريا في هذه الفترة[653]. ولكن يبدو أن المسلمين في شمال نيجيريا، بقايا امبراطورية بورنو التي استمرت خمسة قرون، قد حاوَلوا استعادَة أنفسهم إلى شَكْلٍ مشابه للمجتمع الذي شَكَّلَهُ الكَماني في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر.

كانت الحركةُ مسالِمةً في البداية مثل أعضاء مجموعات الحِوار الصغيرة التي ظَهَرت في مصر ولبنان والعراق وبخارى وماليزيا. تَجَنَّبَ طلابُ المدارس الدينية النيجيرية العملَ السياسي. وفي حوالي سنة 1995، تَختلف تقارير الشرطة على تاريخ البدء، اعتَكَفوا في جامعٍ وانهَمَكوا بدراسة كتبٍ دينية[654]. وسرعان ما قَرؤوا تصريحات الإخوان المسلمين واعتَبروا أنفسَهم فَرعَها النيجيري. أطلَقوا على أنفسهم بلغة الحَوزة النيجيرية Hawza اسم: "إخوان اليان Yan Brothers" انضَمَّ إلى هذه الجماعة شاب نيجيري مسلم اسمه محمد يوسف حوالي سنة 2000. قادَ فئةً من الجماعة الأصلية سنة 2002 ليُشَكِّلَ "جماعة السنّة للدعوة والجهاد" التي تُعرَفُ هذه الأيام باسم: بوكو حرام[655].

ربما جَذَبَ سلوكُ الجماعة انتباهَ الشرطة إليهم بسبب اجتماعهم معاً في عزلة "تآمر" أكثر من تأكيدهم على التمرد (الذي لم يَعرفوا عنه الكثير)، وتَعَرَّضوا بالتالي إلى هجمات الشرطة المتَكَرِّرة. لا يوجَد دليلٌ على أن الطلاب المُتدينين انخَرَطوا في أعمال غير قانونية أو عنيفة، ولكن كما ذَكَرَ الصحفي الحر أندرو وواكر Andrew Walker في مقالة إلى معهد الولايات المتحدة للسلام:

"يقول مراقبون أن الجماعة أَنشَأَتْ "دولة داخل دولة" بمجلس وزراء وشرطتها الدينية الخاصة ومزرعة كبيرة. جَذَبَتْ أعداداً متزايدة من الناس إليها تُقَدِّمُ إليهم المساعدات والغذاء والمأوى. كان كثير من الناس الذين جاؤوا إلى الجماعة من اللاجئين الذين أتوا بسبب الحروب على الحدود مع تشاد ومن الشباب النيجيري العاطِل عن العمل. كان مصدر تمويل الجماعة في ذلك الوقت غير معروف. يقول أفرادٌ من مؤسسة بورنو الدينية أن يوسف حَصَلَ على تمويلٍ من مَعارف سَلَفيين من المملكة العربية السعودية بعد رحلتين قام بهما يوسف إلى الحج. مَصدرٌ آخر محتَملٌ للتمويل في تلك الفترة كان تبرعاتٍ من أثرياء نيجيريين شماليين"[656].

يبدو أن الشرطة قد أُمِرَتْ بإغلاق المؤسسة، وفي ديسمبر 2003 هجَموا وقَتلوا بعض الطلبة وجَرحوا آخرين. ذكَرَ بعضُ المارة أنهم شاهَدوا الشرطة "تأمر أفراد الجماعة بمن فيهم المجروح والمصاب بالاستلقاء على بطونهم ووجوههم إلى الأرض ثم أطلَقَتْ عليهم رصاصتَين أو ثلاث"[657].

خلال هذه المواجهة، قِيلَ إن يوسف كان يعالَج في السعودية، ولدى عودته وجَدَ جماعته الصغيرة في حالة صدمة ورُعب. كان رَدُّهُ تأسيسَ قاعدةٍ في مدينة بورنو لحمايتهم. سافَرَ مِن تلك القاعدة في أنحاء شمال نيجيريا محاضِراً عن شرور الحكومة ومَخاطِر برنامجها التَّغريبي. لم يكن يوسف رجلاً متعلِّماً وليس مؤهَّلاً بالتأكيد ليكون مُجتَهِداً ولكنه كَسبَ تأييد أهل بورنو وبَدأ شبابٌ غاضبون مثله بالانضمام إليه تدريجياً بسبب خيبة أملهم العميقة وفساد الحكومة، خاصة ما ظَهَرَ من حاكم ولاية بورنو. تَجَمَّعوا حَولَهُ بسبب ضعف الإمكانيات المادية وشعورهم بالعَداوة نحو الدولة وتَعرضُهم للضَّرب ورؤية أقاربهم يُقتَلون على يد قوات الأمن.

ليس واضحاً فيما إذا كان تأييده نابعا من الغضب ضد الحكومة أم مِنَ الدِّين أكثر، وكما ذكرتُ سابقاً فبالنسبة للمسلم تُعتَبَرُ جميع القضايا الدينية أموراً سياسية، وجميع القضايا السياسية ترجع إلى مبادئ دينية. ربما لم يُميِّز أتباعُ يوسف الجُدد بين هذه الأمور ولكن غيرهم فَعَلَ ذلك. فَكَّرَ بعض أفراد جماعة يوسف أن التأكيد على الدِّين كان في غير مَحَلِّهِ وأن القَمع السياسي وعدم المساواة الاجتماعية هي أكثر أهمية. ولكن لم يكن هناك طريقة للحوار في هذه القضايا خارج الدِّين. جَعَلَ القانون النيجيري سنة 1984 نَشْرَ أي مادة مُحرِجَة أو ضد مَصالح الحكومة جريمةً يُعاقَبُ عليها. مُنِحَ البوليس السياسي المعروف باسم القوات الخاصة المشتركة JTF حرية التصرف لقمع أي إحساس بالتمرد.

كانت القوات الخاصة شديدة القسوة بحيث أصبح تَجنيد المؤيِّدين مع المُتَمردين سهلاً، خاصة بعد الحادثة المعروفة في يناير 2009 حينما قامَت القوات الخاصة بالتحريض على مواجهةٍ قَتَلوا فيها عدة أعضاء من بوكو حرام ومَنَعوا العلاج الطبي عن الجرحى وتَركوهم يَنزفون حتى الموت[658]. ردَّ يوسف "برسالة مفتوحة إلى الحكومة الفيدرالية" هدَّدَ فيها بأنه إذا لم تتوقف هجمات قوات الأمن السرّية خلال أربعين يوماً "فستبدأ عملياتٌ جهادية في البلاد لا يستطيع وَقْفَهَا إلا الله"[659]. يبدو أن الحكومة سَخِرَتْ من فكرة أن جماعة صغيرة من المُتطرفين الدينيين يَستطيعون تَحَدِّيها، ولم تَرُدّ.

لم يُنادِ يوسف بالعنف في البداية، ولكن يبدو أنه حُصِرَ داخل شعاراته، ويبدو أنه قد أمَرَ أو تَغَاضَى عن سلسلةٍ من الهجمات على مراكز الشرطة في البلدات المجاورة. رَدَّت الحكومة في يوليو 2009 بهجومٍ شامل على الجامع وعلى مراكز جماعة يوسف. اقتَحَمَت الشرطة الجامع وقَتَلَتْ جميع الموجودين فيه، وخلال خمسة أيام يُعتَقَدُ أن الشرطة قَتَلَتْ حوالي سبعمئة أو ثمانمئة شخص. هَرَبَ عدة آلاف أو هَجَروا بيوتهم[660]. يبدو أن يوسف استطاع الهرب ولكن تمت مطاردته والقبض عليه.

ذَكَرَت الشرطة فيما بَعد أن يوسف قد أُطلِقَتْ عليه النار بينما كان يُحاول الهرب، ولكن تم تصويره واقِفاً ومُقَيَّدَ اليَدين عندما أُطلِقَتْ عليه النار. وكما وَجَدَ مركز محاربة الإرهاب في الكلية الحربية الأمريكية وست بوينت أنه "لا يوجد شك بأن عملية القمع سنة 2009 وقَتل محمد يوسف

من قِبل قوات الأمن النيجيرية في يوليو من تلك السنة كانت نقطة التَّحول في بوكو حرام"[661]. أقسَمَت الحركةُ على الانتقام، وبعدها بقليل أعلَنَتْ انضِمامها إلى القاعدة.

ظَلَّت الحركة بلا قائد تسعة أشهر، ويبدو أن الحكومة النيجيرية لم تَبذل جهداً خلال تلك الفترة لإصدار برنامج يمكن أن يُجَنِّبَها الأحداثَ المُريعة التي تَلَتْ. واجَهَت الهجمات الصغيرة التي قامَ بها المحارِبون بمزيدٍ من الاعتقالات والقَتل.

يبدو أن الاعتقالات والقَتل هي التي دَفَعَت القتال إلى المرحلة التالية: أصَرَّ قائد الحركة الجديد أبو بكر شكوي Abu Bakr Sheku على إنقاذ رفاقه من السجن، وتمكَّن في 7 سبتمبر 2013 من تَهريب حوالي ألف محارب من أيدي القوات الخاصة. كانت تلك القوات قد قَتَلَتْ أكثر من 950 سجيناً في الشهور الستة الأولى من تلك السنة وهناك قليل من الشك أن المُقاتِلين المُعتَقَلين كانوا سيُعدَمون أيضاً. قال ضابطٌ كبير في الجيش النيجيري لمنظمة العفو الدولية إن "مئات قد قُتِلوا في المُعتَقَل إما بالرصاص أو بالخَنق... كانت هناك أوقاتٌ يُخرَج فيها الناس ويُقتَلون يومياً. قُتِلَ حوالي خمسة أشخاص يومياً"، بينما غيرهم "تَعَرَّضوا لإصابات خطيرة بسبب الضرب الشديد وماتوا في المُعتَقَل بسبب نقص العناية الطبية... تم إطلاق الرصاص على آخرين في أرجُلِهِم خلال التحقيق ولم يَتِمَّ إسعافهم بل تُرِكوا ليَموتوا من النزيف"[662].

لم تَتوقفْ هذه الأحداث المُرَوِّعة، ففي مايو 2016 وجَدَتْ منظمةُ العفو الدولية أن 149 معتقلاً على الأقل ماتوا أو قُتِلوا وبينهم أطفال صغار ورُضَّع في ثكنة عسكرية واحدة خلال الأربعة أشهر الأولى من تلك السنة. ووصِفَتْ أحوال 1200 سجين مازالوا معتقلين هناك بأنها "مُقزِّزة... ومُخيفة ومُروعة... وبينهم 120 طفلاً على الأقل"[663].

لا تُبَرِّر هذه الأعمال التي قامَتْ بها الحكومة حملةَ إرهاب بوكو حرام ولكنها بكل تأكيد تُفَسِّرها على الأقل. قامَتْ بوكو حرام بتنفيذ برنامج إرهابي وأمامها نموذج الحكومة وممارسات الحروب القَبَلية الدفينة ومَدفوعة دون شك بالرغبة في الانتقام. تم التحري عن الاتهامات بالجرائم ضد الإنسانية لدى الطرفين، بوكو حرام والحكومة النيجيرية، عن طريق منظمة مراقبة حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية بدقة قدر المستطاع في ظروف صعبة للغاية.[664].

بدأت بوكو حرام مدعومة بالرجال والنساء الذين حَرَّروهم من السجن بهجمة إرهابية واسعة على الحكومة. دَمَّرَتْ 76 مركزاً للشرطة و14 بناءَ سِجن و1205 أبنية إدارية بالإضافة إلى كنائس ومَركَزاً للأمم المتحدة[665] (اعتَبرت الأممَ المتحدة حليفاً للحكومة). تَتابعَت الهجمات والانتقام دون تَوقف[666]. تُصِرُّ الحكومةُ النيجيرية على أن بوكو حرام قَتَلَتْ اثني عشر ألف شخص وشَوَّهَتْ ثمانية آلاف. ضاعَت القضية الأصلية في غَمرة انتشار القِتال وأصبح العنف هَدَفاً في حَدِّ ذاته[667]. حدَثَتْ مذابح في جماعات ليست لها علاقة بالموقف، وكلما كانت بَشاعة الحادث أسوأ بالَغَتْ بوكو حرام في إذاعتِهِ ونَشرِهِ.

أكثر الأحداث شهرة كان خَطفُ 276 طالبة في أبريل 2014 لإحداث صَدمةٍ لدى أعداء الحركة ولشَدِّ انتِباه العالَم[668]. لم يُصَرِّحْ زعيمُ الجماعة شكوي عن الدَّافع للاختطاف ولكن أربعة عوامل كانت وراء قراره. الأول هو الشهرة[669]. تَسعى بوكو حرام إلى إعلان قضيتها مثل جميع حالات التمرد. فمَثَلاً كان ذلك هو سبب قيام المَتمردين في الجزائر بمعركة مدينة الجزائر. يَعرِفُ المُتمردون أنهم ما لم يَحصلوا على انتباه العالَم فسيتم القضاء عليهم بهدوء. ويَعتَقد بعضُهم، كما سأُبَيِّنُ عند مناقشة الدولة الإسلامية (داعش)، أنهم يَستطيعون تَثبيط عزيمة خصومهم أو دَفعهم للقيام بعمليات تُشَتِّتُ أمكانياتهم.

السبب الثاني هو الحصول على فتيات شابات يمكن تَجنيدهن كانتحاريات. والسبب الثالث هو إنشاء جيلٍ جديد في القضية، ويُعتَقَد أن حوالي ثلث الفتيات المَخطوفات أصبَحن حوامل سواءً بالاغتصاب أو بالإقناع، ولم يكن لديهن بالطبع أيّ اختيار. السبب الرابع مُندَمِجٌ في شِعار الحركة: يجب القضاء على التَّغريب الذي يتم زَرْعُهُ عادةً من خلال التعليم واعتُبر هدفاً رئيسياً للحكومة. كانت الهجمات على المَدارس دائماً عنصراً أساسياً في الحملة بعد اغتيال يوسف. دَمَّرَتْ بوكو حرام تحت قيادة شكوي 512 مدرسة ابتدائية و38 مدرسة ثانوية، كما قَتَلَ الإرهابيون 59 طالبَ مدرسةٍ مِنَ المسلمين، ويبدو أنهم كانوا يَدرسون وسائل الزراعة الغربية.

يَدلُّ اسمهم "بوكو" في لهجة بورنو على "التَّغريب" أو "الطَّريق المُزَيَّف"، و"حرام" تَعني دينياً "غير قانوني" حسب الشريعة[670]. يُسَمون أنفسَهم "جماعة أهل السنّة" ويَدَّعون أنهم قد حقَّقوا بعض أهدافهم قَبلَ أن يَبدؤوا أعمالهم العنيفة. كانوا يُطالِبون بتطبيق الشريعة وكان ذلك هو القانون في كافة المنطقة الشمالية ولكن ليس بشكل تام. ولذا فإن برنامجهم لم يكن ثورةً في ظاهِرِهِ، إنما الثوري هو مطالبتهم بتطبيق الشريعة.

تطبيقُ الإسلام لم يكن مسألةً إيمانية فقط، كما شاهَدْنَا في جميع الحركات التي وصَفتُها، بل يَشملُ النظامَ السياسي والاجتماعي والتربوي والاقتصادي. وحسب المواصَفات الوارِدة في الشريعة، كانت الحكومة النيجيرية غير إسلامية، وبالتالي فهي "حرام"[671]. بالنسبة إلى أكثر المسلمين في شمال نيجيريا، حقيقة أن الحكومة كانت قَمعيةً وفاسدة لم تكن منفصِلة عن كونها غير إسلامية، والطريقةُ التي يمكن بها فَهْمُ عُدوانيتهم وتَبريرها وتَحركها بالاصطلاحات النيجيرية هي إعلانُ الإسلام، وذلك ما حاوَلَ يوسف أن يَفعله.

كيف يمكننا تَصَوُّر ما رآه أتباعه؟ لا تَتوفَر لدينا استطلاعاتٌ للرأي ولكننا نَستطيع على الأقل دراسة تقارير وجهة نظر مُحايِدة نسبياً، جميع تقارير الصحفيين والمسؤولين في الحكومة الأمريكية وأعضاء منظمات حقوق الإنسان والمسؤولين في الأمم المتحدة توضح معاناة السكان، فالفقر وفساد الحكومة وقوات الأمن وعنف الشرطة وحصانَتَها مِنْ أية مُساءَلَةٍ خَلَقَتْ كلها أرضية خصبة للتَّجنيد في بوكو حرام. ومن ناحية أخرى أَرهَبَ السكانَ عنفُ بوكو حرام الذين حُصِروا بين قوَّتَين وانسَحَقوا بينها.

يَثير القلق أن نَعلَم أنّ بوكو حرام بذاتها قد أصبَحَ يَنظُرُ إليها بعضُ مُناصِريها أنها كثيرة الحَذَر أو أنها مُعتَدِلَةٌ جداً. انفَصَلتْ عن الجماعة الأصلية حوالي سنة 2011 جماعةٌ غامضة وربما أكثر عنفاً هي: أنصار المسلمين في بلاد السودان[672]. الشعور المتزايد بأن الجماعات العنيفة ليست قاسية بما فيه الكفاية هو نتيجةٌ مستمرة لأعمال قَمعِ التمرد بطرقٍ عنيفة. عندما يُقتَلُ الجيلُ الأكبر سِنَّاً أو يَتم إبعاده يَتَقَدَّمُ زعماءُ جُدُد وجماعات جديدة إلى الأمام، ولكي يُثبِتوا أنفسهم يَتَحَتَّمُ على الزعماء الجُدد أن يَتفَوقوا على الزعماء الذين سَبَقوهم. وهكذا يبدو أن هنالك دَافِعاً مستمراً نحو مزيد من العنف حينما تَتعرضُ هذه الجماعات للهجوم، وهذا هو سبب عدم نجاح القوات الخاصة والطائرات بدون طيار والطرق الأخرى لقمع التمرد التي ثَبتَ عدم فعَّاليتها ضد المتمردين المسلمين فهي تفتح الطريق وتزيد الحاجة لتصاعد رَدِّ الفِعل[673].

بدأ هجوم دولي واسعٌ على بوكو حرام في يناير 2015 عندما أُرسِلَتْ قوات عسكرية من نيجيريا وتشاد والكاميرون والنيجر بتسليح أفضل من تسليح الشرطة النيجيرية وتستطيع الاعتماد على قوة جوية، كما جَلَبوا مساعدات خارجية شَمَلَتْ مرتزقة من جنوب أفريقيا ومُختصين بقمع التمرد من إسرائيل وقوات أمريكية خاصة[674]. استُخدِمتْ طائراتٌ أمريكية بدون طيار كذلك في عمليات استطلاع على الأقل، ولا يُعرَفُ حتى الآن فيما إذا كانت قد استُخدِمتْ في عمليات قَصف.

تم الإعلان مراراً عن هزيمة الحركة وقَتل زعيمها، ولكن في 2015 ظَهَرَت الحركة مُتَمَكِّنَةً جيداً بحيث أرسلَتْ قواتها للقتال في ليبيا. وفي 7 مارس من تلك السنة أعلَنَ شيكوي ولاءه لأبو بكر البغدادي في الدولة الإسلامية (داعش).

تشمَلُ قصةُ نيجيريا كل سيرة التَّطَور من دولة أفريقية مستقرة ومديدة ومستقلة إلى الاحتلال الأمبريالي والحكم الاستعماري إلى الاستبداد بَعدَ الأمبريالية إلى العنف الاجتماعي. ولا يمكن التنبؤ الآن إلى أين سَتَهوي الأمّة أو الأمم. لا يمكننا سوى أن نقول إنَّ الاستِقرار الآمِن الذي وُجِدَ في بداية القرن التاسع عشر يبدو بعيداً جداً هذه الأيام.

الفصل الواحد والأربعون

أسامة بن لادن والقاعدة

واحدٌ من بين الملايين الذين قَرؤوا كتابات سيّد قطب كان طالباً يافعاً في جامعة جدّة اسمه أسامة بن لادن. سيَتَبَنَّى ويُطَبِّق كثيراً مما دَعا إليه قطب، إلا أن أحداً لا يدري لماذا اختار الطريق الذي سار فيه، وليس هذا غريباً لأن جميع الشخصيات العامة التي تَهتَم بالأدوار القيادية تَتَلَبَّسُ شخصيةً مثلما يَفعل المُمثلون. الفارق الرئيسي هو أن المُمثلين يَضَعون الشخصية جانباً عندما يَتَوقَّفون عن لَعِبِ الدّور بينما تَتَعَلَّقُ الشخصياتُ العامة غالباً بالشَّخصية التي قَدَّموها ويَشعرون أنّ عليهم الاستمرار في "لَعِبِ" الدّور. ومن الصعب في أغلب الإحيان اختراق القِناع المَسرحي ورؤية الشخص الحقيقي وراءه. وعندما يكون الشخص تحت ضغط ويَعمل قَصداً على تقديم صورة معينة، مثلما فَعَلَ أسامة، تكون رؤية حقيقته أصعب. سأُحاوِل فَهْمَ أسامة مِن حيث بَدَأ والأسرة التي نَشَأَ فيها.

كان محمد والِد أسامة بن لادن نسخةً عربية من (أبطال) هوراشيو ألجر Horatio Alger (الفقير الذي يُصبِحُ غَنياً). ولِد في بيئة فقيرة بقرية نائية في حضرموت بجنوب شبه الجزيرة العربية فيما هو الآن: اليمن. لم يتَعَلم محمد القراءة والكتابة[675]. عندما بلَغَ العاشرة من عمره قبيل الحرب العالمية الأولى، هاجَرَ إلى مدينة جدة الحَيوية العامِرة. استقبَلَه صديقٌ يمني وعَمِلَ حَمالاً يَنقل أثقالاً على ظَهره. وتطور من ذلك العمل الوضيع إلى البناء، تعلَّمَ حِرَفَاً جديدة خلال تَنَقلِهِ بين الأعمال المختلفة وحَصَلَ على سمعةِ أنه يَستطيع تَنفيذ الأعمال بشكلٍ جيد وبكلفة معقولة. كان يجب أن تكون الأسعار منخفضة لأن البلاد كانت فقيرة، ولكن العَمالة كانت رخيصة وكان بِدَورِهِ رَجُلَ أعمالٍ حَصيفا. أسَّس شركته الخاصة للمقاولات عندما جَمَعَ العُمَلاء والعُمَّال. كان ذلك سنة 1930 قبل ثلاث سنوات من مَنْحِ المملكة العربية السعودية حقوق امتيازاتٍ ستؤدي إلى تدفق ثروة النفط.

عاش محمد في الثلاثينيات حياةَ تَقَشّف في كل شيء ما عدا الزواج (كان لديه حوالي 25 زوجة خلال حياته) والأولاد (لديه 77 ولداً). وَفَّرَ كل ما استطاع وقام بزيادة عُمّاله كلما انتَقَل من مشروع لآخَر، وكَسِبَ احترامَ العائلة المالكة السعودية. بعد وفاة مؤسس الدولة المَلك عبد العزيز بن سعود سنة 1953، تمكَّنَ محمد بفضل جهوده من الحصول على فرصة كبيرة. ثَبتَ أن سعود، أكبر أولاد عبد العزيز والذي كان السَّاعِدَ الأيمن لأبيه، سيكون المَلك القادم الذي سَمَحَ لطموحاته وجَشَعِ

بطانته بتَبذير مَصادره. كانت حكومته، مثل حكومة المَلك هنري الثامن، ليست أكثر من أهل بيته وأوشَكَتْ على الإفلاس. لم يتمكن من دِفعِ مَصاريف بطانته ولا مُتابعة توقعاتهم الكبيرة كما يُتَوَقَّعُ من زعيمٍ كبير في مجتمع عربي[676]. أصبَحَ يائساً، وربما كان سيُغِيرُ على ثروة أتباعِه مثلما فَعَلَ الملوك في التاريخ الأوروبي، إلا أن محمداً تَقَدَّمَ لإنقاذه بإقراض المَلك ما كان يَحتاج إليه من مالٍ للاستمرار.

ثَبتَ أن إقراض المَلك سِترَةَ نَجاةٍ كان أكثرَ عَمَلٍ ذكي قامَ به محمد في حياته. كان المَلك سعود مَديناً له وسدَّدَ له القَرضَ بالطريقة الوحيدة التي يَستطيعها: مَنَحَهُ عقوداً لمشاريع الحكومة حسبما يُتيحُ له تَدَفقُ أموال البترول (والقروض الأمريكية) التي بدأتْ تَجعلَها مُمكِنة في الخمسينيات. ولكن سعود كانت لديه رؤية بسيطة للواقع. عندما تابَعَ الإنفاق أكثر من إمكانياته، أصبَحَ إخوته أكثر قلقاً. وأخيراً قَرَّروا أنه يجب أن يَتَنَحَّى ويَترك المُلك لفَردٍ آخر من العائلة أكثر كفاءة.

ليس سهلاً خَلْعُ مَلِكٍ، والتاريخ مليءٌ بقصص قَتْلِ المَلك أو الطَّامِح إلى المُلك أو المُستشار، وغالباً ما أدَّى صراع مَصَالِحِهم إلى حروبٍ أهلية مُدَمِّرَة. لَعِبَ محمد بن لادن دَورَ المُستشار الخَطير وأقْنَعَ المَلك سعود أن يَتَنَحَّى بسلام ويَذهَبَ إلى المَنفى لكي يُصبح أخوه فيصل الأقدرُ منه مَلِكَاً. كافأ فيصل محمداً بإعطائه حقَّ احتِكار مشاريع الحكومة الإنشائية. تَدَفَّقَ المالُ وتمكَّنَ محمد مِن تَمرير ملايين الدولارات لابنه السابع عشر أسامة فاستَطاع تَمويل نشاطاته في أرجاء العالَم الإسلامي.

نَشَأ أسامة الصغير في مدينة جدَّة تحت ظروف لم يَحلُم بها أبوه في حضرموت. لا يمكن معرفة تأثير أبيه عليه لأن أسامة كان في العاشرة من عمره عندما توفي والده سنة 1967. ولكن تحت إرشاد الأب محمد كانت الأسرة تُعتَبَرُ أسرةً مُحافِظَة مُتَدَيِّنَة. ذَكَرَ أولئك الذين عَرفوا أسامة في شبابه أنه كان مُلتَزِماً دينياً.

يمكن أن يُقَدِّم هذا الالتزام المبكر تفسيراً لحياته المتأخرة، ولكن هل كانت الذكريات صحيحة؟ عندما نُراجع حياةَ آخرين نَميل عادةً لاكتشاف خيطٍ واحد بين كثير من الأحداث ونَدَّعي أنه أصلُ نَمَطٍ مُحَدَّدٍ في حياته. تَمتَلئ سيرةُ قديسين ومجرمين بقصص عن طفولةٍ غير عادية يجدها المرءُ صحيحةً جزئياً، وذكرياتٍ غير دقيقة جزئياً، وأساطيرَ في بعض الأحيان قامَ بها الشخص أو غيره. تُشَكِّلُ مثل هذه الذكريات جزءاً من مشكلةِ فَصْلِ (حقيقة) الشخص عن الشخصية (التي يَلعَبها). نَعرفُ ما أصبَحَ عليه أسامة، ولكن يَختَلِفُ الذين دَرَسوا حياته في كيفية تَطَوُّرِهِ إلى تلك الشخصية. اختَرَعَ بعضُ الكتاب شخصيةً بكل بساطة، وصَوَّرَهُ بعضُهم كرجلٍ فَتِيٍّ هَمَجيّ كَرَّسَ نفسه للجنس والكحوليات. يُصَوِّرُهُ آخرون بأنه طفل لم يفعل شيئاً ولكنه قَرَأ القرآن. ويَصِفُهُ آخرون كفَتَى "طبيعي" مُولَعٌ بالرياضة. ما نَعرِفُهُ يُشيرُ إلى تَطَوّرٍ مختلفٍ كثيراً عن كل هذه التفسيرات. أتَوَقَّعُ أنه قد تَعَرَّضَ في سنواته الأولى لتأثيرات قوية قد تُساعدنا في فَهْمِ انغماسِه في الإسلام المُقاتِل فيما بعد.

كانت والدة أسامة سورية من مدينة اللاذقية ويُعتَقَد أن عائلتها ليست سنيّة بل في الغالب أنها من الطائفة العَلوية[677]. يَعتَبر المسلمون المُتَشَدِّدون أن العَلويين مُنحَرِفون عن الإسلام. يُظَنُّ دون

تأكيد أن محمد بن لادن لم يَتزوجها بل اتَّخذَها عشيقة[678]. إلا أن ذلك سلوكٌ غير عادي في العائلات السنيّة وربما يَحْدُثُ عند المسلمين والمسيحيين الأقل تشدُّداً. والذي نَعرفه هو أنها بعد ولادة أسامة رتَّبَ لها محمد زواجاً مع موظف حضرموتي يعمل لَديه. اعتَرَفَ محمد بأسامة ولَداً له ولكن الطفل تَرَبَّى في منزل والِده بالتَّبني، وعندما بَلَغَ حوالي السابعة عشرة من عمره رتَّبَتْ له أمُّهُ زواجَه بفتاة يبدو أنها كانت أيضاً من أصولٍ عَلَوية.

يبدو كل ذلك مِنَ التكهنات، إلا أنه من المَعقول النَّظر إلى أسامة الشاب يَتَعامل مع نتائج حالةٍ مُعقَّدة من العلاقات العائلية وتأثيرات دينية مُتَنَوعة وربما عَدائية وثَروة كبيرة. أعتَقِد أن تلك الدوافع أدَّت به إلى البحث عن اليقين في الإسلام. في مرحلةٍ ما من شبابه بدأ قراءة القرآن ومناقشة الدِّين مع رفاقه وقَرأ كتابات قطب مثل ملايين من المسلمين الآخرين. وعندما دَخَلَ الجامعة حوالي عمر السابع عشرة بدأ الدراسة مع محمد قطب أخي سيّد قطب الذي غادَرَ مصر بعد أن قَضَى فترةً في السجن وكان مُلتَزِماً بِنَشرِ معتقدات أخيه[679].

الدَّمجُ بين التزامه الشخصي بالإسلام وتَعاليم الأخوين قطب خَلَقَ الإطارَ الذهني الذي وَضَعَ فيه أسامة فَيضَ تقاريرٍ وسائل الإعلام عن غزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان المسلمة سنة 1979. يبدو أن هُجومَ مجتمعٍ أعلَنَ نفسَهُ مُلحِداً على مجتمعٍ مسلمٍ قد أثارَهُ. غادَرَ السعودية وعمره اثنتي عشرة سنة للإنضمام إلى مئاتٍ من الرجال من أرجاء العالَم الإسلامي ويُصبِح مجاهداً[680]. لم يكن يَعرف كثيراً عن أفغانستان.

كان من بين رفاقه في تلك الفترة فلسطيني بارِز هو عبد الله يوسف عزام الذي كان أكبر سناً من أسامة بِسِتّ عَشرة سنة[681]. لو كان عندنا بعض الشك حول بعض المؤثرات في حياة أسامة، فلا يوجد أي شك في تأثير عزام عليه، فقد كانت لديه ذكرياتٌ مؤلمة مَريرة عن تَهجير الإسرائيليين لشعبه من وطنهم وشاهَدَ أن ما كان يَحدث للأفغان يُشبه ما حَدَثَ للفلسطينيين كجزءٍ من مَدِّ الاحتلال الأمبريالي. انضَمَّ في شبابه إلى الفرع الفلسطيني/الأردني من الإخوان المسلمين ودَرَسَ في معهدٍ زراعي وعَلَّمَ في مدرسة حكومية ثم ذَهَبَ إلى جامعة دمشق حيث دَرَسَ الشريعة. بعد تَخرجِهِ قام بأعمال رجل الدين المسلم في قريته الأصلية، ولكنه اضطر للهرب عبر نهر الأردن بعد حرب 1967 واحتلال إسرائيل للضفة الغربية. ونَظَرَ بغضب نحو الإسرائيليين مِثلَ كثيرٍ من الفلسطينيين وشارَكَ مثل بَعضِهم في عملياتٍ فدائية ضد أهداف إسرائيلية.

استَنتَجَ بسرعة أنه على الرغم من أن إسرائيل كانت الخطر المباشر على طريقته في الحياة، إلا أنها كانت جانباً واحداً فقط من جوانب المشكلة. اكتَشَفَ مِثلَ كثيرٍ من العرب أن القومية العربية لا يمكن أن تكون سوى جانب من الحَل، وبدأ يَرى أن تحديات الأمبريالية تَشمل العالَم الإسلامي كلّه وفَكَّرَ أن الدفاع العَملي الوحيد الممكن يجب أن يَستند إلى الإسلام. ولكي يُحَضِّرَ نفسه للمشاركة بهذه الحَملة ذَهَبَ للدراسة في جامعة الأزهر الإسلامية في القاهرة. لا نَعرف شيئاً عن نشاطاته خارج الدراسة ولكن يبدو أن اتَّصَلَ بالمسلمين المصريين المُتَطَرِّفين المُتزايدين. عاد إلى الأردن مسلَّحاً بشهادة الدكتوراة في الشريعة حيث مارَسَ الدعوة والتعليم لنوع قويٍّ من الإسلام

(عَضَلِيّ حسب الاصطلاحات الإسرائيلية). كانت تعاليمه بعيدة جداً عن سياسةً الحكومة الأردنية التي كانت تَتنازل أمام القوة الإسرائيلية. غادَرَ غاضباً إلى السعودية للتعليم في جامعة جدّة حيث تَدَاخَلَتْ سِيرته مع أسامة بن لادن فترة سنتين على الأقل.

في سنة 1979 احتَلَّت المسجد الحرام في مكة جماعة من حوالي خمسمئة مسلم بقيادة جهيمان بن محمد، وهو بَدوي نَجدي من قبيلة العتيبة، في مظاهرةٍ مذهلة ضد العائلة الحاكمة. اتَّهموا العائلة السعودية بأنها فَقَدَتْ روح الإسلام واستَسلَمتْ لفساد الدنيا. استَلهَمت الهجمة ثورة رجال القبائل سنة 1927 الذين تَبَنوا روح الوهابية الأصلية وظَلّوا متشدِّدين وأصوليين. قَمَعَهم المَلك عبد العزيز سنة 1930 وقَتَلَ زعماءهم وعَمِلَ بذكاء على وضع رجال القبائل في الحرس الوطني واستَخدَمهم لخَلقِ توازن مع الجيش وضَمِنَ بذلك نظامه ضد الانقلابات. كما أمَّنَ لهم مراكز ضخمة لإقامتهم وأسَّس كتائب الشرطة الدينية لكي يُراعي أصوليتهم. نَجَحَتْ هذه الإجراءات في تهدئة الانتقادات الرئيسية لرجال القبائل حتى تَدَفَّقَتْ أموال البترول التي مكَّنتْ النُّخبة، وخاصة أبناء وأقارب الملك، من الانغماس في حياة مُترفة لاهِية. أدّى ذلك الانحراف عن تعاليم الوهابية المحافِظة إلى تَفجير التمرد سنة 1979. قُمِعَ ذلك التمرد وقُتِلَ أغلبُ المتمردين وقُطِعَ رأس جهيمان بن محمد.

لا يوجد ما يُشير إلى تَورط عزام أو مَعرفته بخططهم ولكنه كان معروفاً بتطرفه فعُزِلَ عن التدريس. وبما أنه كان غير مُرَحَّبٍ به في الأردن ومصر ولا يستطيع البقاء في السعودية، فذَهَبَ إلى باكستان. اتَّصَل هناك بسرعة بشبابٍ من كافة أرجاء العالَم الإسلامي جاؤوا لقتال الروس. كان الغزو السوفييتي بالنسبة لعزام ببساطة حَدَثاً آخَر في الحرب التي خاضَها في فلسطين: كانت الأمبريالية هي التحدي الجوهري في كل مكان.

لم تستطع القومية مواجهة ذلك التحدي، ولذا أعَلَنَ حاملُ شهادة الدكتوراة في الشريعة من جامعة الأزهر العريقة دعوةً للعمل بشكل حُكْمٍ ديني أو فَتوى تدعو جميع المؤمنين إلى حمل السلاح. استَنَدَ في حُجَّتِهِ إلى فتوى المسلم الأصولي أحمد بن تيمية في القرن الثالث عشر الذي أعلَنَ أنه بَعد التصريح بالإيمان فإن الواجب التالي على المؤمن الحق هو طَرد المُحتلين الأعداء. أعلَنَ عزام أن الجهاد هو الوسيلة لفعل ذلك، وذَكَرَ من القرآن {... وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: 38]. وبالفعل فإن من أوضح الرسائل في القرآن هي ما حَدَثَ للمجتمعات التي فَشِلَتْ في هذا الواجب الاجتماعي: لقد دُمِّرَ كل واحد منها. أعلَنَ عزام أن الواجب المطلق على جميع المؤمنين رجالاً ونساء وأطفالاً، أغنياء وفقراء، هو الدفاع عن الأمة الإسلامية ضد هجوم الكفار:

"إذا لم يستطع أهل هذه البلاد طَردَ الكفار بسبب ضَعفهم أو تَهاونهم أو تَراخيهم عن العمل، فإن الواجب المطلق (في طَرد المُحتلين) يَتَّسِعُ في دوائر مِنَ الأقرب إلى الأبعد. وإذا تَهاونوا أو لم يكن لديهم ما يكفي من أسباب القوة، يَقَعُ الواجبُ على الذين يَلونَهُم للتقدم إلى الأمام. يستمر هذا النمط حتى يَشمل الواجبُ المطلق جميعَ العالَم"[682].

كانت تلك هي الرسالة التي أعطاها عزام لأسامة عندما وصَلَ إلى باكستان. وجَدَ أسامة أن عزام كان يُدير قاعدةً في بيشاور لمُتابعة المجاهدين ودَعم عائلاتهم كان اسمها "مكتب الخدمات". كانت تلك المنظمة هي أصل حركة "القاعدة" التي يُعتَبَر عزام والدها ومؤسسها[683].

على الرغم من أن مهمته الرئيسية كانت تموينية وأبقَتْهُ بعيداً عن طريق الخطر، إلا أن أسامة كان مُندَفعاً بحماسته ضد الروس. كان أغلب المجاهدين من الأفغان، إلا أن المجاهدين الأجانب لَعِبوا دوراً مهماً في طَرد الروس. جُرِحَ أسامة مرتين خلال القتال في سنة 1986 و1987 وقِيل أنه تأثر بالأسلحة الكيميائية الروسية[684]. والأهم من قِتالِهِ الشَّخصي كان دَعمُهُ المالي لتَسهيل قُدوم آلاف من الجهاديين من كافة أرجاء العالَم الإسلامي.

كان أسامة آنذاك حليفاً عملياً للولايات المتحدة سواء عَرِفَ ذلك أم لا، فقد كانت أمريكا تَصُبُّ المال والسلاح في خزائن المتمردين من خلال حليفتها باكستان[685]. بلَغَت المساعدات المالية الأمريكية خلال فترة الحرب حوالي ثلاثة بلايين دولار. لا بدّ من أن أسامة كان يَعرف عن هذه المساعدات لأن الحكومة الأمريكية قد أعلَنَتْ عنها ولأن مُجَنَّدِيهِ الأجانب استفادوا منها. لم يأخذ شيئاً من هذه الأموال لنفسه إلا أنه من المؤكد أنه لم يُحاول إقناع المجاهدين بتَركِها. كما بدأ باستِخدام أمواله الشخصية لنَشر قضية الجهاد ولدَعم المتطوعين الذين مَرُّوا عبر باكستان في طريقهم إلى أفغانستان.

لا يَعرِفُ أحدٌ عدد الذين ساروا في ذلك الطريق، غير أن المخابرات البريطانية والأمريكية تُقَدِّرُ أن عددهم بلَغَ على الأقل عشرة آلاف وربما اثني عشر ألفاً. جاؤوا من كافة أرجاء العالَم الإسلامي، مِنَ الشيشان والأويغور والطاجيك وأتراك آسيا الوسطى والفلبين والملايو وآتشيه من جنوب شرق آسيا، وكشمير وباكستان والهند من جنوب آسيا، وليبيا والجزائر وتونس والمغرب من الشمال الأفريقي، والبوسنة ومن المهاجرين المسلمين في ألمانيا وفرنسا وانكلترا واسبانيا، وحتى جاء بعضهم من أمريكا الشمالية والجنوبية. كل أولئك بالإضافة إلى مَن جاء من دول الشرق الأوسط. لم يَحدث مثل هذا التجمع منذ أن اجتَمعَت الفرقة الدولية لقتال جيوش الجنرال فرانسيسكو فرانكو وبنيتو موسوليني وأدولف هتلر في الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939.

عندما انسحَبَ الروسُ سنة 1989 كان عمر أسامة اثنتين وثلاثين سنة. لم يَعد يَعتمد على إرشادات عزام، الذي كان قد اغتيل من قِبَلِ مجهولين في تلك السنة. كان أسامة آنذاك قد اعتُبِر مقاتلاً متمَرِّساً وإدارياً ناجحاً[686]. علَّمته أفغانستان أن المال يُساعد على تَجميع وتَسليح ونَشْرِ مسلمين مخلصين يَستطيعون هزيمة وطَرد حتى جيوش قوية من الشمال العالمي. كان ذلك اكتشافاً ثورياً: فكما شاهَدنا لم يَتمكن أي من كبار زعماء المتمردين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين من تحقيق هذه المهمة، فقد فَشلوا واحداً تلو الآخر في طَرد الغزاة، ولم يَنجح في ذلك سوى أتاتورك الذي نَجَحَ فقط في طَرد اليونانيين. أما الأفغان فقد كَبَّدوا البريطانيين سلسلة هزائم دموية، إلا أن الحملة ضد الروس كانت نموذجاً فريداً، فقد وَضَعَ الروس أفضل وحدات جيشهم الذي افتَخَرَ بنفسه لأنه هَزَمَ الجيش الألماني القوي وكان مسلحاً بالمدرعات والطائرات على مستوى أوروبي. خَدَمَ نصف مليون جندي روسي في أفغانستان خلال سنوات الحرب العشر، وخَسروا[687]. أثبَتتْ هزيمتهم أن الجنوب العالمي قد اكتسب تقنيات جديدة قوية: حرب العصابات عندما كان ذلك ممكناً، والإرهاب عندما كان تجميع المقاتلين غير ممكن. باستِخدام هاتين الطريقتين يستطيع حتى شعبٌ

فقير منقسم بدائي أن يَنتصر على قوى عظمى[688]. بَرَزَ أسامة ورفاقه المجاهدين منتَصِرين في أفغانستان.

أسَّس أسامة نفسه من جديد في السعودية عندما تَطورت الأمور إلى غزو صدام حسين للكويت في أغسطس سنة 1990. بالنسبة لأسامة كان للغزو آفاقٌ مخيفة، فقد كان صدام حاكِماً عَلمانياً عارَضَ الإسلام واصَرَّ على ذلك عَلَناً حتى ذلك الوقت، كان ذلك وحده كافياً لكي يُعارِضه أسامة. إلا أنه كان هناك ما هو أسوأ، فقد أدى الصراع بين صدام وحاكم الكويت للعودة ثانية إلى القضية المستمرة في انقسام العلاقات الدولية العربية. واجَهَ أسامة قُربَ انهيار المقاومة الأفغانية عندما تَصارَعَت الجماعات مع بعضها بعضاً حتى في خِضَمِّ المعارك مع الروس. كان ذلك مؤلماً جداً لأسامة لدرجة أنه اضطر مَرَّةً خلال الحرب للإنسحاب والعودة إلى الوطن. ولم يَرجع إلا بعد شاهَدَ أمارات الوحدة. وهنا شاهَدَ عداوات مشابهة بين جماعات شعبه، وقَرَّرَ أن صدام هو "فساد" العَلمانية وأن الانقسام العربي يجب أن يُوقَف.

بينما كانت قوى الجنوب العالمي تستعد لتمزيق نفسها في الصراع حول الكويت، مَنَحَت الشمال العالمي مُبرراً للتدخل، ودَخَلَ عنصرٌ جديد في المسرحية. ذَكَرَتْ إحدى النكات في ذلك الوقت أن الأمريكان ما كانوا سيهتمون بقضايا العرب لو أن الكويت والعراق كانت تُنتج المَوز، إلا أنهما كانتا تُنتِجان البترول الذي كان وقود الصناعات وشبكات النقل في الشمال العالمي ويُمَوِّلُ حكوماته ونُخبة قُوَّتِهِ. ذَكَرَ استراتيجي أمريكي أن "تَدَفُّق النفط بأسعار مقبولة... هو مصلحة قومية حيوية". في سنة 1962، وَضَعَ تقريرُ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ذلك على رأس قائمة الأهداف القومية في السياسة الخارجية[689]. وبعد ثمان وعشرين سنة ما زال من غير المقبول لأمريكا أن يُسيطِرَ أيّ حاكِمٍ في الشرق الأوسط، خاصة إذا كان حاكِماً مستبداً عُدوانياً مُتَقَلِّباً مثل صدام، على مصادر البترول في العراق والكويت، لأن ذلك سيَسمح لحكومة العراق فَرضَ سعر البترول والتَّحَكّم بتَدَفُّقِهِ. وافَقَ الأوروبيون واليابانيون على ذلك بدون تشدد[690]. أصَرَّت جميع قوى الشمال العالمي على استقلال الكويت عندما احتَلَّها صدام في الثاني من أغسطس 1990.

سارَعَت الولايات المتحدة بنقل عناصر من قواتها المَحمولة جَواً إلى حقول النفط السعودية خشية أن يكون احتلال الكويت خطوة أولى للسير نحوها، ووضَعَتْ ضغطاً دبلوماسياً واقتصادياً على حكومة صدام. زادَتْ أمريكا تراكم قواتها مع مرور الأسابيع وشكَّلَتْ تحالفاً مدهشاً لمواجهة صدام. لم تَنجَح محاولاتُ إخراج صدام، بينما سار "الحلفاء" على إيقاع قائد مختلف. قَرَأَ بعضُهم الصراع في سياق سياسة البترول[691]، بينما اندَفَعَ آخرون وراء إيديولوجيات أو مخاوف من نظام صدام. توصَّلَتْ إدارة جورج بوش الأب تدريجياً أنه لا يوجد حَلٌّ دبلوماسي ممكن وأنها يجب أن تتدخل عسكرياً. كان ذلك مَنشأ عاصفة الصحراء في 16 يناير 1991.

شاهَدَ أسامة دخول القوات الأمريكية إلى المملكة العربية السعودية بمنظار تجربته في أفغانستان، فقد كانت قوات أجنبية غير مسلمة، وحتى معادية للإسلام، تَدخُلُ ما يَعتَبره المسلمون دائماً، والعربُ بشكل خاص، أنها مأمَنهم وقلب العالَم الإسلامي وما يُسمونها "دار الإسلام".

السعودية هي المكان الذي تُوجَد فيه أرضُ "الحرمين"، مكة والمدينة، قُدسُ أقداس الإسلام. لم تَدخُلْ أية قوات غير مسلمة هذه الأرض منذ أيام محمد. تاريخياً لم يُسمَحْ حتى للتجار غير المسلمين ولا للرّحالة ولا للباحثين بالدخول إليها من قَبل.

وهكذا، عندما استَدعَتْ حكومةُ المملكة العربية السعودية القوات الأمريكية لتتمركز في أرضها استجابةً للغزو العراقي للكويت، انتَقَدَ أسامة ذلك بشدة. انتَقَدَ قبول حكومته تحويل مسؤولياتها الوطنية إلى الأمريكان ونَهَضَ للدفاع عما اعتَبَره "مصالح شعبه الدينية الحيوية"، وعَرَضَ تشكيل قوةٍ من مئة ألف مجاهد لطَرد العراقيين من الكويت استناداً إلى نجاحه المُثْبَت في تَجنيد المُقاتِلين ضد الروس. كان ذلك بالطبع أضعاف العدد الذي جَمَعه هو وغيره في أفغانستان. وقال إن الأمريكان غير لازمين.

تم رَفْضُ عَرْضِ أسامة بأنه عَرْضٌ "غير عملي" من جهة رئيس المخابرات السعودية، وتَجَاهَله مسؤولون آخرون ببساطة[692]. ربما اعتَبره النظام السعودي خطراً محتملاً، فقد أدرَكَ أنه كان مُعَرَّضَاً للانتقاد بسبب رفاهية حياته وبسبب علاقته بالأمريكان. وإذا جُمِعَتْ مثل هذه القوة، فكيف يمكن مَنعها من الانقلاب على الحكومة؟ واعتَقَدَ كثيرٌ من السعوديين والأمريكان أن صدام ربما لن يتوقف عند الكويت، وقد يَستخدم الكويت قاعدةً للتحرك جنوباً في الخليج نحو حقول البترول ومصافي شركة أرامكو. ولذا رَحَّبت الحكومة بالقوات الأمريكية وغيرها ممن بلَغَ عددهم في النهاية حوالي نصف مليون رجل وامرأة وجميعهم تقريباً من غير المسلمين. وعلى الرغم من بذل جهود لبقائهم بعيداً عن الملاحظة، إلا أن وجودهم لم يكن مخفياً تماماً. لم يكن أسامة وحدُه في اعتبارِهم غُزاةً.

بدأ أسامة اعتبارَ رفاق طفولته من الأمراء السعوديين كمُفسدين للإسلام. كانوا مع النخبة الجديدة مُتحفِّظِين في العَلَن ولكنهم كانوا معروفين بسَعيهم وراء الحياة المترفة التي خالفَتْ بصراحة ووضوح التعاليم الوهابية. اشتَرَكَ علماءُ المذهب الوهابي في القلق مثله، إلا أنهم تَردَّدوا في انتقاد النظام الحاكم. وصَاروا في السنوات الأخيرة أكثر اعتماداً على الحكومة في دَخلِهم وسُلطَتِهم[693].

مالَت الحكومة السعودية لإدراك أنه يجب عليها التعامل مع طوائف متنوعة من الإسلام. احتَفَظَت العائلة المالكة السعودية وعلماء الوهابية بالتزاوج التقليدي بين الدين والدنيا، ولكن كما أظَهَرَتْ ثورة جهيمان سنة 1979 فقد أراد بعض المتحمسين الدينيين التَّخلص مِن المَلَكية ولم تتمكن المؤسسة الدينية من السيطرة عليهم. ما كان يقوله أسامة حَمَلَ تهديداً للأمن الوطني بالنسبة لوزراء الحكومة. وبينما لم يتمكَّنوا من الاعتراض على جزءٍ من رسالته، التي كانت أساساً مِثْلَ الوهابية، لم يَرغَبوا أن يُطَبِّقَ الجزء الذي احتَجَّ فيه على المَلَكية. كانت علاقات أسامة قوية بحيث لم يمكن اعتقاله، ولكن عدداً من المسؤولين طَلَبوا منه تخفيف دعايته وتصريحاته، فقَرَّرَ مغادرة وطنه.

رفضَت الحكومة السعودية السماح له بالمغادرة بسبب انتقاداته العلنية، إلا أنه حصَلَ على استثناءٍ مؤقَّتٍ من خلال علاقات أسرته وخَرَجَ من البلاد. كان يريد العودة إلى أفغانستان إلا أنه اكتَشَفَ أن النضال ضد الاتحاد السوفييتي قد تَرَكَ البلاد مُدمَّرة، وكان كل فصيل يقاتِل الآخرين

وأصبَحَ أغلب زعماء التحرير الوطني السابقين أمراء حرب. انخَرَطَتْ كل جماعة في حربٍ شرسة ضد كل الجماعات الأخرى من أجل ثمار النصر الهزيلة. سَاءَهُ كل ما رأى هناك وبَحَثَ عن ملجأ آخر. كانت الخيارات قليلة وبدا السودان أفضلها.

ما جَعَلَ السودان جذابة له هو أنه في الوقت الذي طُرِدَ فيه الروس من أفغانستان، قام الجيش السوداني بانقلابٍ على الحكومة المَدنية للصادق المهدي وأعلن أنه سيُشَكِّل حكومة إسلامية أصولية[694]. فَكَّرَ أسامة أن نظاماً كهذا سيَمنَحه قاعدة العمليات التي يَحتاجها، فأسرَعَ لتأسيس نفسه هناك، وفي غَمرة حَماسِهِ شَجَّعَ المجاهدين الذين لم يَرجعوا إلى بلادهم للقدوم إلى السودان مع عائلاتهم، ويبدو أن ذلك التدفق أثارَ قَلَقَ الحكومة الجديدة التي انقَلَبَتْ حديثاً على الحكومة السابقة وخَشِيَتْ من منافسين محتَملين خاصة من المُدَرَّبين على القتال. بينما أَسَّسَ أسامة معسكرات التدريب للرجال الذين اعتَبَرتْ مخابرات الدول الغربية أنهم قد يُصبِحون مجاهدين في المستقبل في البلقان والشيشان وكشمير والفلبين، وراقَبَ السودانيون الموقفَ بقلقٍ، فبالنسبة لهم كان هؤلاء الرجال جيش أسامة الخاص.

يُفتَرَضُ أن أسامة سَمِعَ ما أثار قَلَقَهم، وعلى كل حال فقد سَعى لكَسب موافقة النظام بطَرحِ برنامج استثمار واسع النطاق، ومثل والده كان مهمتماً بأعمال المقاولات والبناء. قيل أنه أنفَقَ حوالي 200 مليون دولاراً بشكل مشاريع في السودان على مدى سنوات قليلة. كان بعضها مفيداً ولكن قليلاً منها كان مُربِحاً. كانت لدى السودان احتياجات كثيرة ومال قليل. عندما قَرَّرَ المغادرة بعد خمس سنوات لم يتمكَّنوا من رَدِّ الديون التي قَدَّمَها ولا الاستمرار في تَشغيل المشاريع التي بَناها[695].

بالإضافة إلى خيبة الأمل المالية كانت السودان قد أصبَحَتْ خطرة، وبينما انغَمَسَ أسامة في عمليات شبه عسكرية أكثر سوءاً وعمليات إرهابية في الخارج، وجَدَ السودانيون أنفسهم تحت انتقادات شديدة عندما ظَهَرَ أن الرجل الأول في تفجيرات مركز التجارة العالمي بنيويورك في 26 فبراير 1993 كان رامي يوسف البلوشي (عبد الباسط محمود عبد الكريم) وهو باكستاني من بلوشستان كان قد تَدَرَّبَ في معسكرٍ للقاعدة لديها، مما أدى إلى وضع ضغط على حكومة السودان من جهة الولايات المتحدة وإسرائيل ومصر لإغلاق عمليات أسامة. فَهِمَ السودانيون هذه الرسائل ويبدو أنهم سَمَحوا لقاتلٍ محترف بمحاولة اغتياله.

ربما لو صَمتَ أسامة عن خططه لكآن آمناً في السودان، إلا أن الإعلان والشهرة كانت عاملاً أساسياً في النسخة الجديدة من الإرهاب. إذ لا يكفي ضرب العدو فقط بل يجب أن يَعرف الجميع أنه قد ضُرِبَ وأن يتم إنذارهم أنهم أو غيرهم قد يكونون مستَهدَفين في المستقبل إذا لم يَتَكَيَّفوا. كان على أسامة أن يُعلِن عملياته، فاعتَرَفَ، أو بالاصطلاحات الحديثة "أعلَنَ مسؤوليته" عن هجماتٍ متكررة مؤلمة.

خَلَقَتْ هذه الهجمات أعداء جُددا في أماكن جديدة. كانت إحداها ضد جنود أمريكان في اليمن المسلمة، وأخرى على جنود أمريكان في الصومال المسلمة. تَبَجَّحَ أسامة أن مجاهديه أجبَروا الأمريكان على الانسحاب من مقديشو سنة 1993، الحادثُ الذي أصبَحَ معروفاً في فيلم Black

Hawk Down وفرصَةَ دعاية ثمينة. كما اتُّهِمَت القاعدة وعملاء أسامة ورفاقه بمحاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك خلال زيارته إثيوبيا في يونيو 1995، وكذلك بتَفجِير بناءٍ تابعٍ للولايات المتحدة في الرياض في نوفمبر. هناك شكٌّ فيما إذا كانت القاعدة متَورطة، إلا أنها ارتكَبتْ وصَرَّحَتْ بما يكفي للحُكم عليها أنها مُذنِبة. قَرَّرَ حكام السودان أنه حان الوقت لمغادرة أسامة على الرغم من تَرحيبهم السابق وحتى لو كانوا مسلمين أصوليين ملتَزمين.

ولكن إلى أين سيستطيع الذهاب؟ كان قد تَخَطَّى الخط الأحمر سياسياً في السعودية التي قَرَّرَتْ حَبسَه لو رَجِعَ، ونَزَعَت الحكومة عنه الجنسية السعودية سنة 1994. أدرَكَ مُحِقّاً أن أغلب الدول الإسلامية الأخرى إما ستَرفض دخوله أو أنه "سيَختفي" لو أمسكوا به أو سيُسلمونه إلى المملكة العربية السعودية. وكان عليه أن يَفترض أن الجائزة الكبيرة التي عَرَضَتها أمريكا للقبض عليه ستَجذب نحوه صائدي الجوائز. صَبَغَتْ كثيرٌ من الأيدي كثيراً من الأماكن باللون الأحمر. كان المكان الوحيد المُتَبَقِّي تقريباً هو أفغانستان. وبطريقته الثّرية المُعتادة سافَرَ أسامة عائداً إلى أفغانستان في طائرة خاصة في مايو 1996، ولم يَعد هناك فرصة للرجوع.

كان الروس قد غادَروا أفغانستان منذ فترة طويلة، وطالبان كانت تَتَقَدَّم. أعلَنَتْ نفسَها حكماً دينياً سُنيَّاً أصولياً معتَمِداً على طلاب المدارس الدينية (طالبان). وكانت بذلك ملجَأً آمناً لأسامة السُنِّي الأصولي، كما أنهم سيُرَحِّبون به كواحدٍ من المُتَطَوعين الذين حارَبوا إلى جانِبِهم وأصِيبوا في معارك استقلال الأفغان. كان لديهم قليل من الأصدقاء وقليل من المال. لم يَستطع أن يُساعدهم كثيراً بالأصدقاء ولكن كان لديه كثير من العملة الصعبة، كما أصبَحَ لديه حليفٌ عنيد وملتَزِم يستطيع الاعتماد عليه، فبعد اغتيال مُعَلِّمِهِ الأول ومؤسس القاعدة الأردني عبد الله عزام في نوفمبر 1989، صَنَعَ أسامة علاقة وثيقة مع مصري اسمه أيمن الظواهري.

كان الظواهري طبيب عيون أصبَحَ مؤيداً للإسلام المتطَرف. لم يكن ثرياً مثل أسامة. وِلِد سنة 1951 في عائلة جيدة الدَّخل من الأطباء وأساتذة الجامعات. انضَمَّ إلى الإخوان المسلمين سنة 1965 حين كان طالباً عمره أربع عشرة وهي السنة ذاتها التي قُبِضَ فيها على سيّد قطب وأودِعَ السجن. أدرَكَ خطورة أفكاره التي استَلهَمها من قطب ومن عضويته في الإخوان فأخفَاها في نفسه وتابَعَ دراسته. خَدَمَ بعد تخرجه مدة ثلاث سنوات في الجيش المصري ثم أسَّس عيادةً في القاهرة في الضواحي الغنية لمنطقة المَعَادي[696]. ويبدو أنه لم يحتفظ بسرّيةِ موقِفِهِ لدرجةٍ كافية، فقُبِضَ عليه عندما اغتيل الرئيس أنور السادات في أكتوبر 1981 وسُجِنَ وعُذِّبَ. يُقال إنه اعتَرَفَ تحت التعذيب باسم عضوٍ من جماعته. وقال محامٍ سجينٍ مصري سُجِنَ معه إن شعور الظواهري بالعار بسبب ضعفه حَوَّلَهُ من الاعتدال النسبي إلى التطَرف الشديد. سواء كان ذلك هو السبب أم لا، إلا أن الظواهري خَرَجَ من السجن مصمماً على تحطيم الديكتاتورية المصرية[697].

بعد قضاء ثلاث سنوات في السجن، ذَهَبَ الظواهري إلى الحج في مكة. بَقِيَ في السعودية فترة 1985-1986 التَقى فيها بأسامة. شَجَّعَ الظواهري أسامة على الإرهاب بعد أن أصبَحَ أكثر عنفاً من عزام الذي كان يفضل سياسة التطوير والتعليم.

لم يُشَجِّع الظواهري على الإرهاب فقط بل مارَسَهُ بالفعل، فبَعدَ ذهابِه إلى باكستان يُذكَر أن الظواهري رتَّبَ انتقاماً ضد الحكومة المصرية بهجومٍ على سفارتها في إسلام أباد سنة 1995. يبدو أن العملية أثارتْ غضَبَ أسامة ويُقال إنه كاد أن يَقطَع علاقته بالظواهري بسببها. لا توجَد إشارة إلى أن أسامة عارَضَ العنف بذاته إلا أنه خَشِيَ أن الإرهاب داخل باكستان ربما يَدفَع الحكومة الباكستانية لمَنع حركة المجاهدين إلى أفغانستان، وربما خَشيَ بعد هربه الجديد من السودان أن تُسَلِّمَهُ باكستان إلى السعودية.

بَقِيَ الظواهري هادئاً نسبياً عدة سنوات ربما بسبب كَبْحِ أسامة لجَمَاحِه. قَضَى معظم وقته في العمل مع الهلال الأحمر في بيشاور يُعالِج المجاهدين المصابين أثناء قتال الروس في أفغانستان وذَهَبَ في رحلات أحياناً. قام بنوعٍ من المهمة الدبلوماسية في الشيشان (حيث قبَضَتْ عليه الشرطة الروسية وسُجِنَ فترة قصيرة) وذَهَبَ حتى إلى أمريكا وزار كاليفورنيا لجمع تبرعات للمجاهدين.

عاد إلى أعماله الأكثر عنفاً بعد فترات الاستراحة الفاصلة هذه، وقيل أنه تورَّطَ في تفجيرِ مكان إقامة للقوات الجوية الأمريكية في الرياض اسمه أبراج الخُبَر في 26 يونيو 1996، وفي الهجمة الشرسة على السوّاح الأجانب في الأقصر سنة 1997 التي جَعَلَت القاعدة مَكروهَةً في مصر. وبدون تردد نَشَرَ مع أسامة سنة 1998 فتوى تدعو إلى الحرب ضد الولايات المتحدة وإسرائيل[698]. ثم بعد الهجوم المذهل على المُدمِّرة الأمريكية USS Cole في عَدَن في أكتوبر 2000 تَسَلَّلَ الظواهري وأسامة إلى أفغانستان حيث مَنَحَتْهم حكومة طالبان الجنسية الأفغانية وسَمَحَتْ لهم بتأسيس قاعدة لعملياتهم.

كانت طالبان تسيطر في ذلك الوقت على كابل وأكثر مناطق أفغانستان، وكانت سلطتها مستقرة نسبياً بحيث كانت تتفاوض من أجل عقدٍ بترولي مع الشركة الأمريكية أونوكال Unocal، غير أن الحكومتان السعودية والأمريكية بدأت تضغط عليهم للقبض على أسامة وتسليمه. ومن المُفارقة أن أسامة لم يَسلَمْ بِفَضلِ تَعاطف رفاقه المسلمين بل بفضل عادات الأفغان قبل الإسلام: البشتونوالي Pashtunwali ونظامها القانوني قبل الإسلامي، والرافاج Ravaj، وكلاهما من بقايا (الجاهلية) التي حَرَّضَ قطب ضِدَّها والتي كان أسامة يُحاوِل تَحطيمها.

تقتَضي العادات وقانون الرافاج أن "الضيف" مقدَّس، وأن تَسليمه إلى عدوه هو جريمة شنيعة لا يَستطيع فَرْدٌ أفغاني ولا حكومةٌ أفغانية ارتكابَها. لا يمكن المَساس بالأشخاص تحت الحماية خلال فترة زيارتهم مهما كانت الجريمة التي ارتَكَبوها. ردّاً على طَلَبٍ من الحكومة السعودية لتسليم أسامة والظواهري بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي سنة 2001 أجابَ مسؤولان أفغانيان كبيران (مؤيدان للأمريكان عادة): "إذا لجأ إلينا حيوانٌ فليس لدينا خيار سوى حمايته، فكيف إذاً بالنسبة لرجلٍ وَهَبَ نفسَه وثروته في سبيل الله وقضية الجهاد في أفغانستان؟"[699]. الالتزام المطلق بحماية الضيوف (ملماستيا) سيؤدي إلى رَفضِ الحكومة الأفغانية طلَبَ الولايات المتحدة بطَردِ أسامة. لا يبدو أن أي مسؤول أمريكي يتعامل مع أفغانستان كان عارفاً بعادات الأفغان وعمق تأثيرها على السياسات الأفغانية"[700].

رسَّخَ أسامة موقفه بالإضافة إلى الملماستيا بإعلان ولائه الشخصي لزعيم طالبان المُلّا محمد عمر وَوَضْعِ قوَّتِهِ المُتَبَقِّية من المجاهدين في خدمة الملّا. ساعَدَتْ حكومة الولايات المتحدة حَملة أسامة من دون قصد عندما أطلَقَتْ خمسة وسبعين صاروخاً على أفغانستان انتقاماً من هجمات القاعدة المُنَسَّقَة ضد سفارات أمريكا في شرق أفريقيا. كان هدفُ بيل كلينتون هو اغتيال أسامة مع أكثر ما يمكن من مجاهديه، ولكن الهجمة كانت عملاً حربياً من الناحية القانونية وأدَّتْ إلى غضب الأفغان، بل ومن المفارقة أنها جَعَلَتْ طالبان والقاعدة والملّا محمد عمر وأسامة حلفاء كأمر واقع.

في اليوم نفسه، 28 أغسطس 1998 أطلَقَ الأسطول الأمريكي صواريخ على مصنعِ أدويةٍ رئيسي في السودان زُعِمَ أن القاعدة استخدمته لانتاج أسلحة كيميائية. كان المَصنع قد بُنِيَ بمساعدات دولية منذ سنة واحدة فقط، وكانت بعض تلك المساعدات أمريكية. كان المَصنع في الحقيقة يُنتِج الأسبرين ودواء الكلوروكوين المضاد للملاريا ومضادات حيوية للمواشي. غَضِبَ السودانيون جداً، وكانت الهجمة بالنسبة لأنصار القاعدة دليلاً آخر على عُدوانية الشمال العالمي وأضَرَّتْ بالعلاقات الأمريكية-السودانية، ولكن الوقت كان قد تأخَّرَ كثيراً على إصلاح علاقات أسامة بالسودان. عندما طلَبَ السودانيون لجنةَ تحقيقٍ من الأمم المتحدة لإثبات أن المَصنع لا علاقة له بانتاج الأسلحة الكيميائية، استَخدَمَت الولايات المتحدة حقَّ النَّقض (الفيتو) ضد هذا الطَّلَب كما رفَضَتْ تحقيق مؤسسة خاصة. كانت النتائج الدبلوماسية مؤسفة ولكن النتائج المادية كارثية. قَدَّرَ سفيرُ ألمانيا إلى السودان أن تدمير المصنع ونتائج نقص الأدوية ربما أدَّتْ إلى وفاة عشرات الآلاف[701].

لم يتحسن تحقيق الأهداف الأمريكية بالهجوم على المَصنع السوداني ولا بقصف المعسكر المَزعوم لعمليات القاعدة في أفغانستان، وكلاهما كان مُخالِفاً لمبادئ الولايات المتحدة الأمريكية التي عَمِلَتْ جاهِدةً لوَضْعِها بشكل قوانين في محاكم نورنمبرغ في 1945-1946. بل اعتُبرا من قِبَلِ حكومات وشعوب أفريقيا وآسيا مؤشرات على الخطر الذي تمثله القوة العسكرية الأمريكية[702]. تَرَسَّخَ هذا الفهم في يوليو 1999 عندما فَرَضَ بيل كلينتون حَظراً على التجارة الأمريكية مع المناطق الخاضعة لسيطرة طالبان في أفغانستان وجَمَّدَ أرصدة طالبان في الولايات المتحدة. كما أمَرَ كلينتون بتنفيذ عمليات سرّية ضد القاعدة، بما فيها الاغتيالات. تابَعَتْ إدارةُ الرئيس التالي جورج بوش الابن مبادرات كلينتون وخطَّطَتْ لتسليح جماعات معادية لطالبان.

ربما أدَّتْ هذه الأعمال، سواءً كانت مبرَّرة أم لا، إلى البدء بتخطيط الهجمات الانتحارية المذهِلة على البنتاغون ومركز التجارة العالمي في نيويورك في 11 سبتمبر 2001 التي قُتِلَ فيها حوالي ثلاثة آلاف ودُمِّرَ ما قيمته حوالي عشرة بلايين دولار. صُدِمَ الجمهور الأمريكي وأُصيبَ بغَضَبٍ شديد، وقَرَّرتْ إدارة بوش أنها يجب أن تتصرف وطلَبَتْ طَرْدَ أسامة. نَشَرَ بن لادن رؤيته للأحداث في 24 نوفمبر 2002 في "خطاب إلى أمريكا"[703].

في رسالة سرّية "سرّي وليس للتوزيع" من حكومة الولايات المتحدة طلَبَتْ من رئيس باكستان أو من رئيس مخابراتها إبلاغ زعماء طالبان أنه: "إذا تَورَّطَ أي شخص أو جماعة بأية طريقة بالقيام بعملية إرهابية ضد بلادنا أو قواتنا المسلحة أو قوات أصدقائنا أو حلفائنا فسيكون رَدُّنا مُدَمِّراً. من أجل مصلحتنا ومصلحة سلامتكم أن تُسَلِّموا جميع زعماء القاعدة". أنذَرَت الحكومة أنها ستَعتَبر زعماءَ طالبان "مسؤولين شخصياً" عن النشاطات الإرهابية الموجَّهة ضد مصالح الولايات المتحدة"[704].

عَرفَت الحكومةُ الأفغانية بالطبع تاريخ أسامة الطويل من الأعمال العنيفة في الخارج ومن المفتَرَض أنها كانت واعية بدَورِهِ ودور القاعدة في هجمات 11 سبتمبر ولكن كان عليها أن تَجِدَ وَصفةً تستطيع بواسطتها الاستمرار سياسياً ودينياً. اقتَرَحَتْ حَلاً لإنقاذ ماء الوجه: تُقَدِّم الولايات المتحدة دليلاً على تَوَرُّطِ أسامة، وعندما تَقتَنع الحكومةُ الأفغانية بالدليل تَقرِّرُ ما ستَفعله، وحدَّدَتْ مدةً زمنية لذلك. كانت تلك خدعة واضحة بالطبع، ولكن بدلاً من أن تتعامل معها الحكومة الأمريكية كحيلة أو خدعة وتُسميها كذلك، أصدَرَتْ تهديداً بأنه "سيتم تَدمير جميع أعمدة نظام طالبان"[705]. رفضُ أمريكا تَبرير اتهاماتها بالإضافة إلى الهجمات الصاروخية السابقة على أفغانستان جَعَلَ استجابة الأفغان للطلبات الأمريكية مستحيلة سياسياً[706]. حتى حكومةٌ متطرفة مثل طالبان ستُعتَبر خائنةً في أفغانستان. ولكن زعماء طالبان لم يحاولوا الوصول إلى أي تنازل. عندما حَلَّ الوقت لتقديم دليل من الحكومة الأمريكية أعلَنَ القاضي العام في أفغانستان أن الاتهامات الموجهة إلى أسامة غير مُثبَتَة وأنه حُرٌّ.

لم تتضح بعد اجراءات اتخاذ القرار التي قادَتْ إلى الغزو الأمريكي، غير أنه لا يوجد شكٌّ بأن إدارة جورج بوش الابن رحَّبَتْ بالفرصة التي أتيحَتْ لها لعَرضِ عضلاتها. وكان الجمهور الأمريكي أكثر من موافق، ودُفِعَ بوش من جهة مستشاريه لانتهاز الفرصة والتخلص من القاعدة. هاجَمَتْ أمريكا أفغانستان في 7 أكتوبر 2001 بدعمٍ متحمسٍ من توني بلير رئيس الوزراء الإنكليزي ولكن دون تفويض من مجلس الأمن الدولي.

حَرَّكَ الغزو مسيرةً مُدمِّرَةً لأفغانستان وعاليةَ التكاليف لأمريكا. والآن عندما أكتبُ هذا السَّرد بعد عَقد ونصف مازالت المأساة مستمرة. قُتِلَ حتى سنة 2016 حوالي 2500 جندي أمريكي وأُصيب مئات الآلاف، وأَنفقَت الأمة ثلاثة تريليون دولار. لا يُعرَفُ عدد القتلى الأفغان، وربما بَلَغَ عدد المصابين مئتي ألف جريح، وهَجَرَ أكثر من مليون شخصاً منازلهم، وخلال ست عشرة سنة من الحرب توفي نصف الأطفال الأفغان تقريباً تحت سن الخامسة لأسباب تتعلق بالحرب مثل سوء التغذية والمرض، وتأخَّرَ نموّ جيلٍ كامل من الشباب بسبب نقص الغذاء.

قَبلَ غزو أفغانستان اكتسَبتْ أمريكا خبرةً واسعة في العقوبات التي كانت قد طَبَّقَتْها على العراق فترة طويلة. طَبَّقتْ أمريكا سياستها في أفغانستان على ضوء خبرتها في العراق. عندما قيل لوزيرة الخارجية الأمريكية مادلين ألبرايت سنة 1996 أن نصف مليون طفل عراقي قد مات نتيجة العقوبات على العراق، وأن ذلك أكثر من عدد قتلى القنبلة النووية في هيروشيما، قالتْ: "أعتَقدُ أن

هذا اختيار صعب جداً، ولكن الثمن... نَعتقدُ أن الثمن يَستحق ذلك"[707]. مهما قيل عن السياسة الأمريكية فإن هذا التعليق والانطباع الذي تركَهُ كان إشارة أخرى عن التباعد الذي حَدَثَ بين الشمال والجنوب العالمي. لو قيل هذا التعليق عن موت أطفال في أوروبا أو أمريكا لاستَدعَى تَوبيخاً عالمياً، أما عندما قيل عن أطفال العراق فلم يُشارَ إليه تقريباً في وسائل الإعلام الأمريكية، وكذلك لن تؤدي تعليقات أو تَصرفات مماثلة عن أطفال الأفغان إلى أي استنكار، غير أن مثل هذه التعليقات والتصرفات كانت تنتشِر بشكل واسعٍ جداً في كافة أرجاء العالَم الإسلامي[708].

وَسَّعَت الحرب في أفغانستان الصَّدعَ الذي بَدَأ في حرب العراق بين الشمال والجنوب العالمي، وبينما استَعرَ القتال في أفغانستان نَفَّذَت القاعدة عمليات في بلاد أخرى. في 7 يوليو 2005 قام مسلمون ولِدوا في انكلترا وعملوا بشكلٍ مستقل لضَرب شبكة قطارات لندن تحت الأرض في أول تفجيرات انتحارية تحدث في انكلترا. كان ذلك أول تطبيق للأساليب الجديدة التي طَوَّرَها واحدٌ من أبعد الرجال تَوَقُّعاً عن فِعلِ ذلك في مركز القاعدة وكان اسمه الحركي هو: أبو مصعب السوري.

السوري لم يكن في الحقيقة من سورية بل كان مواطناً اسبانياً شارَكَ في المرحلة الأخيرة من الكفاح الأفغاني ضد الاحتلال السوفييتي وجَعَلَ نفسَه قائداً خبيراً في شؤون حرب العصابات. كان مثقفاً بشكل مختلف عن النشطاء الذين قام بتدريبهم، وكان "مُطَّلِعَاً على الأدب والموسيقى الكلاسيكية والتاريخ والسياسة والعلوم أكثر بكثير من المِنهاج الأساسي للمجاهد العادي"[709]. بعد دراسةِ الصراع بين الشمال والجنوب العالمي لاحَظَ أنه بينما نَجَحَتْ عملياتُ المنظمات الجهادية في المراحل الأولى، إلا أن الشمال العالمي خَلَقَ "النظام العالمي الجديد".

في هذا النظام العالمي الجديد طَوَّرَتْ قواتُ الأمن تقنيات مكَّنَتها من القبض على الخلايا أو القضاء عليها، ومَنَعَت الجهاديين من الحصول على مَلجأ آمِن، وجَفَّفتْ مَنابع تَمويلهم ومَصادر تَجنيدهم. وبما أن طبيعة المعركة قد تَغَيَّرتْ، فلا بد من تطبيق أساليب جديدة. وبعد أن قَرأ كثيراً عن حرب العصابات وأساليب قَمعِ التمرد واعتماداً على خبرته الخاصة توَصَّلَ إلى ما اعتَبرها العَناصر الرئيسية في النظام الجديد والطرق المناسبة له. وَصَفَ هذه العَناصر في دليلٍ ضخم من مجلدين لإرشاد حركات التمرد الإسلامية في كل مكان في العالَم الإسلامي تحت عنوان: "دعوة المقاومة الإسلامية العالمية" نُشِرَ على الانترنت في ديسمبر 2004 [710].

العنصر الأول كما لاحَظَ هو تَطَّورُ شُعورٍ جَديدٍ بالهُوية. تقليدياً عَرَّفَ الناس أنفسهم وفق مَوطِنهم من القرى أو المدن، ومنها جاءت كلمة "الوطن" أو "القومية التي تُعرَفُ حسب المكان"، ولكن بعد معاهدة سايكس بيكو التي فَرَضَها الإنكليز والفرنسيون تَبَدَّلَ هذا الشعور التقليدي في الدول:

"لو ذهبنا إلى أي مسلم الآن وسألناه: من أين أنت؟ فسيُجيب في الواقع باسم دولته: من مصر، من سورية، من تونس، من العربية السعودية... ما نحتاجُهُ الآن هو الغَرسُ في عقول

المجاهدين الملتزمين بالقتال الشعور الحقيقي بالانتماء والالتزام بما وَرَدَ في كلمات الله: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: 52].

في الواقع كان السوري يَصِفُ تطور القومية من "الوطن"، دولة المكان، إلى "القوم" التي تدل على هوية عِرقية وأسَّست مبدأ القومية العربية. يُتابع السوري تَطَوُّرَ المَعنى درجةً أخرى بَعدَها بالتَّخَلي عن الوطنية المَكانية والقومية العِرقية ويُرَكِّز على المبدأ الإسلامي لمجتمع دِين واحد هو الأمّة، أو "أمّة الإسلام". ولتَصنيفِ ذلك يَعودُ إلى كلمة "الوطن" ويُطَبِّقَها على الدِّين بدلاً من المكان، وهكذا كما يقول فإن الرئيس جورج بوش الابن "وَضَعَنا جميعاً في خارطة واحدة... جَعَلَ عدونا قضيتَنا عالميةً بهجومه علينا جميعاً"[711].

العملُ العنيفُ مُبَرَّرٌ في القضية الإسلامية كأمرٍ مِنَ الله بتنفيذ أوامره، ولكن السوري جَسَّدَهُ بنظرتِهِ إلى ما فَعَلَهُ الشمال العالمي بشعوب الجنوب. يَضَعُ نوعاً من لائحة المَهام، يُشيرُ أولُ عناصرها إلى روحها العامة: "في حرب العراق الأولى قُتِلَ أكثر من 300,000 شخصاً، وخلال فترة العقوبات التي امتَدَّتْ 13 سنة ماتَ أكثر من نصف مليون طفل، وفي الحرب الأخيرة للإطاحة بصدام قُتِلَ حوالي عشرة آلاف مَدَني وهناك عشرات الآلاف في السجن الآن. وقد فَضَحَ اللهُ أعمالَ أمريكا في هذه السجون". يَتابِع اللائحة بعد ذلك في فلسطين والبوسنة والشيشان وأفغانستان واندونيسيا وأفريقيا الوسطى والفلبين وتايلاند وكشمير. لا يُقَدِّمُ بالطبع أي تفسير لسياسة الشمال العالمي، بل يَفتَرِضُ أنّ قراءَهُ يُرجِعون ذلك إلى الأمبريالية، وبِسَرِدِهِ دليلاً من القرآن لا يَحتاج لتَبرير مَشاعرهم[712].

السؤال الذي يَطرحه على نفسِه هو: كيف السبيل إلى النجاح بعدما فشلت الطرق القديمة في المقاومة؟ قامَ المقاوِمون "بتَبَنّي الأفكار الجهادية وقاموا بأعمال تنظيمية على المستوى المَحَلي من خلال شبكة نظام سرّي وهَرَمِيّ"، ثم يُلَخِّص النتائج: "1. فَشَلٌ عسكري وهزيمةٌ في الميدان. 2. فشلٌ أمني وتفكيك المنظمات السرّية. 3. فشلُ الدعوة وعدم القدرة على حَشدِ الأمّة الإسلامية. 4. فشلُ التعليم والتربية بسبب السرّية. 5. فشلٌ سياسي بعدم تحقق الأهداف. النتيجة: فشلٌ تام في كافة المَجالات"[713]. يُتابِعُ السوري في وَصفِ فَشَلِ حرب العصابات بالانطلاق من قواعد دائمة في أفغانستان والبوسنة والشيشان، والفَشَلُ السياسي للإرهاب المُنَظَّم في خلايا. قادَتْ هذه الاعتِبارات السوريَّ إلى استراتيجيته الجديدة. وبَيَّنَ أنها:

"واجبٌ على المجاهد في تونس أو المغرب أو اندونيسيا... أن يُسارع لنجدة إخوته في العراق... ربما لا يستطيع سوى قلة فِعلَ ذلك، وسيُصبح ذلك أصعب في المستقبل لأن الأنظمة المُرتَّدَةَ الكافرة في مناطق الصراع تتآمر مع أمريكا ضد المجاهدين. ولكن أي مسلم يريد أن يشارك في الجهاد والمقاومة يَستطيع أن يُشارك في هذه المعركة ضد أمريكا في بلده أو في أي مكان"[714].

أعلَنَ برنامجه مبدأ أن الحرب ضد الشمال العالمي ليس لها حدود، فقد ارتفعتْ فوق الجغرافيا والأعراق والهويات السياسية وأصبحَت اليوم تعبيراً عن الدين. ومن الواضح أن استراتيجيته قد تم تطبيقها جزئياً على الأقل كما وَرَدَ في تقرير خدمات البحث في الكونغرس الأمريكي: "تم تحديد مواقع خلايا القاعدة وشركائها في أكثر من سبعين دولة حسب مسؤولين أمريكان"[715].

من المُفارقة أن السوري يُرجِعُ الفضل في خَلقِ الشعور بالوحدة (الذي كان هَدَفَ القومية العربية) في كامل أو أغلب مناطق العالَم الإسلامي إلى ما يَتَصَوره في هجوم الشمال العالمي. وذلك ما يَجعل التأقلم العملي ممكناً تجاه استراتيجية الشمال العالمي. التأقلم هو ما يُسميه: "اسلوب العمل وليس منظمَةً مَركزية سرّية"[716]. كما أَفهمُهُ، فإنه يَقترح حرباً يَقوم بها مسلمون يَدفعهم الغضب ضد الأمبريالية وما يُسميه "ذيولها" من الدول العَميلة ودُمَى ما بَعد الأمبريالية، وأنهم سيَنهَضون فردياً وذاتياً. وبالنسبة له فإن حرب العصابات والإرهاب ليست أكثر من تطبيقات، والمهم هو الدَّافع، ولا يُصبح الدَّافعُ فعّالاً إلا إذا كان مُنتَشراً ومُبَرَّراً في رأي الفاعل. يَستند التَّبرير في النهاية على الإيمان بأن الله هو الذي يَأمر بالعمل. وهكذا يُطَوِّرُ نظاماً مَغلَقاً يَستند على القرآن مثل سيّد قطب في أوامِره وإلزامه وتَبريراته.

على الرغم من أن السوري أكد على أن أساليبَ واستراتيجيةَ الجهاد مَرِنَةٌ، إلا أنه فشل في جَمعها مع النضال. هل يجب على الحَركة أن تُسيطر على بقعةٍ من الأرض تُؤسِّسُ فيها دولةً إسلامية كاملة مثلما يؤمن الأصوليون بأن ذلك هو أمر الله؟ أم أنّ عليها تَجنب الاعتماد على منطقةٍ محدَّدة من الأرض وتستمر في العمل في مسرح عمليات بأوسع ما يمكن؟ أصبحَ الطريقُ الأول دافعَ الدولة الإسلامية (داعش)، بينما رَجَّحَ الثاني أنصارُ القاعدة. المتطلبات العسكرية تختلف جذرياً: تَستطيع الدولة الواحدة تَطوير جميع مجالات المجتمع الإسلامي، غير أنها ستُصبِح لا مَحالةَ هدفاً سَهلاً لذات القوى التي أدرَكَ السوري أن مواجهتها تَحتاج إلى استراتيجيات جديدة. وبالمقارنة، فإن شَنَّ الحرب بجماعات مستقلة لا يَربط بينها سوى الإيمان المشترك ستكون هَدَفاً أصعَب ولكنها ستَحرِمُ نفسَها في الوقت نفسه من القدرة على خَلقِ مجتمع إسلامي عامل. أراد السوري الاثنين معاً، إلا أن أغلب من قرؤوا أعماله أدرَكوا أنه يجب اختيار أحدهما.

اختار أسامة انتشار العمل وتوزعه، وبعد أن قَتَلَهُ فريقٌ من القوات الأمريكية الخاصة سنة 2012 تابَعَ الظواهري ذلك كخليفته الأساسي[717]. بعد الغزو الأمريكي لأفغانستان اختَبَأ أسامة أو اختَفَى بحمايةٍ جَبريةٍ للمخابرات الباكستانية في بلدة آبوت أباد الباكستانية حيث تم تَعقُّبُهُ وقَتلُهُ من قِبَلِ فريقِ القوات الأمريكية الخاصة[718]. ظَهَرَت المنظمة التي أسسها أسامة وكأنها قد أُزيحَتْ جانباً، إلا أنها أظهَرَتْ قدرةً مدهشة على البقاء سليمة على الرغم من هجماتٍ عنيفة شَنَّتْها المخابراتُ والقوات العسكرية لحكومات أمريكا وأوروبا وآسيا[719]. أثبَتَتْ أنها جزئياً كما أعلَنَتْ: قاعدةَ حركاتٍ في كافة أرجاء العالَم، ويبدو أنها تزداد قوةً بالمقارنة على الأقل مع الدولة الإسلامية (داعش). أيُّ جزء من استراتيجية السوري سيكون أكثر استمراراً؟ تُرَكِّزُ القاعدة على "العدو البعيد" وتَتعايش مع

ما تَعتَبره مجتمعات غير كاملة، بينما تُرَكِّزُ الدولة الإسلامية (داعش) على "المجتمع القريب" وخَلقِ مجتمعٍ إسلامي أصولي عامل. أي الطريقين سيستمر؟ ذلك ما لم يتم تحديده[720].

الفصل الثاني والأربعون

الدولة الإسلامية (داعش)

في الأول من يوليو سنة 2014 وَقَفَ على مِنبرٍ في مدينة الموصل رجلٌ غير معروف من قَبل كان سَجيناً سابقاً لدى الجيش الأمريكي، وأعلَنَ تأسيس خِلافة. ابراهيم عواد ابراهيم علي محمد البدري السّامرائي الذي سيُعرَفُ لاحقاً باسم: "أبو بكر البغدادي" خليفة الدولة الإسلامية (داعش). يَتضَمَّنُ في هذه الكلمات القليلة جزءٌ كبير من تاريخ العراق والعرب والإسلام وجزءٌ من احتمالات المستقبل. قد تبدو الخلافة مُبْهَمَةٌ للأجانب ولكنها بالنسبة لِمَنْ في الداخل أساس السياسة المعاصرة. ولذلك أطلَقَ ابراهيم على نظامه اسم الخلافة. ولذا سأبدأ بالإعراب عن مَعنى الخلافة.

تَستَحضِرُ كلمةُ "الخلافة" ذكريات عميقة في ذِهن المسلمين وتأخذهم بعيداً إلى زمنٍ اجتَمَعَ فيه المؤمنون برسالة محمد في دولةٍ موحَّدَةٍ أخلاقية مُستَنيرة. تلك كانت الدولة التي أمَرَ اللهُ محمداً بإنشائها، وبعد أن رَوَّضَتْ جيرانها البدو، وتَغَلَّبَتْ على خصومها في مكة، ووَقَّعَتْ اتفاقيةً مع العرب وقبائل اليهود في المدينة، واستَقَرَّتْ في طريقةٍ جديدة للحياة، توفي محمد، وسبَّبَ ذلك صدمةً ورعباً لدى أتباعه. على الرغم من أنه لم يَتخِّذ لنفسه لَقباً مُعظَّماً أبداً وأصَرَّ على أنه مجرد رسولٍ كُلِّفَ بمهمة تبليغ رسالة الله، يبدو أن بعض أفراد جماعته أضفَتْ عليه صفات إلهية فوق-إنسانية.

كانت هنالك فئتان ممن لم تشتركا بهذه الرؤية لصفات محمد، الأولى كانت تَجَمُّعاً من العشائر التي كانت قد خضَعَتْ لحُكمِ محمد واعتَبرتْ ولاءها لسيادته ولاءً شخصياً، وكانوا قد وافَقوا على أن يكون بذاته نوعاً من زعيمِ قبيلةٍ أعظَم، ولكن تلك العلاقة انقطعتْ بوفاته، وأكَّدَ البدو على أنهم أصبَحوا أحراراً في العودة إلى طريقتهم التقليدية في العَيش، وأن يَتبعوا سنَّتَهم الخاصة بهم ويُديروا شؤونهم مثلما اعتادوا من قَبل. استَداروا إلى الخلف وغادَروا.

وتألَّفَت الجماعة الثانية من المُقَرَّبين لمحمد، وبينما كانوا مختلِفين فيما بينهم إلا أنهم قَبِلوا تماماً دَورَ محمدٍ كرسولٍ مِنَ الله. ولم يكن هناك سببٌ للشك بإيمان محمد ولا بإيمانهم برسالته، مثلما ادَّعى بعضُ المُعَلِّقِين من غير المسلمين[721]. آمَنَ كلا الطرفين بأنه كان رسول الله، وعندما توفي انقطَعَ الاتصال بالله ولا يَستطيع أحد غيره أن يأخذ مكانه كرسول.

ولكن محمد قام بدَورٍ آخر أيضاً وهو دَورُ الحاكِم في المجتمع الذي أسَّسه لإدارة أمور الناس بأقرب وضعٍ ممكن، وآمَنَ أتباعه بالطريقة التي ذَكَرها الله. لم تَنتَه هذه المهمة بوفاته، بل

أصبَحت بالفعل أكثر إلحاحاً. فإذا لم تتم مُتابَعتها سيَنتَهي إرثُ محمد وسيُعاني مجتمعه من الكوارث التي أصابَت المجتمعات الفاشلة لمن سَبَقَهُ من الرُّسُل. تم توضيح هذا الخطر بالتفصيل في القرآن.

وبينما يُظهِرُ التعبير العربي: "دين ودنيا" انفصالاً بين القضايا الدينية والقضايا الدنيوية، إلا أن أقرَبَ أتباع محمد اعتَقدوا أنهما شيء واحد، ولتَنفيذ أوامر الله لا بد من ممارسة سلطة دنيوية. ولذلك اجتَمعوا معاً وانتَخبوا واحداً منهم لينَفِّذَ المهام الدنيوية اللازمة لحَماية إرثِ محمد وتَطبيق شرع الله، وذلك هو أساس الخلافة.

الخليفة هو مَن يُتابِع القيام بأدوار محمد التي يَستطيع المَرء القيام بها دون أن يكون رسولاً ولكن يمكن الوثوقُ بأنه سيَحمي الرسالة التي تم تَبليغُها ويُطلَقُ عليه لقب: "الخليفة". بالاصطلاحات الحديثة يمكن القول أن "الخليفة" هو المدير الإداري للمجتمع الإسلامي، ولا وجُودَ للرئيس التنفيذي، فدَورُ محمد لا يمكن أن يَقومَ به أي واحدٍ غيره في المَذهب الإسلامي السنّي التقليدي.

بعد وفاة محمد سنة 632 استلَمَ القيادةَ خليفته المُباشر أبو بكر الذي استَمَرَّ في الحُكم سنتين. وبعد وفاته سنة 634 سَلَّمَ الحُكم بنفسه لخليفته وصديقه المُقَرَّب عمر ليقود الناس في الصلاة "إماماً" وكان أول من استخدَمَ لقب "خليفة". مُرِّرَ هذا اللقب بعده إلى عثمان الذي كان رَجُلَ أعمالٍ ثري اغتيل سنة 656 على يد رجال قبائل شَعروا أنهم قد ظُلِموا تحت حُكم واليه في مصر، وأصبح عليّ خليفة بعده. يُسمَّى هؤلاء الأربعة: "الخلفاء الراشدون" أو الخلفاء المستقيمون. اعتَبَر المسلمون السنّة فيما بعد فترةَ التسع وعشرين سنة مِن حُكمِهم نموذجاً لجميع المجتمعات. يمكن اعتبار أن مكة والمدينة تحت حُكم الخلافة الراشدة بالنسبة للمسلمين مثل المدينة المقدَّسة "أورشليم الجديدة" بالنسبة للقديس أوغسطين.

تَغَيَّرَ دَورُ الخليفة مع مرور الزمن عن مفهومها الأصلي، ففي الفترة الأموية أصبح الخليفة نوعاً من زعيم القبيلة الأعظم الذي تَصَوَّرَهُ البدو في محمد. وبعد ثمانين عاماً من الحُكم أطاحَتْ بالأمويين حركةٌ ثورية رفَعَتْ رايةً سوداء تشبه العَلَم الذي يَرفعه أنصارُ الدولة الإسلامية (داعش) هذه الأيام. مَسَحَ المتمردون كل ما اعتقدوا بأنه النظام الأموي الكافر مُندَفعين وراء شعورٍ بأداء مهمةٍ مقدَّسة، ولكن الحركة السرّية التي استَلْهَمَتْ إيران خَطَفَتْها في الطريق قواتٌ دنيوية محافِظة. أسَّس المحافظون نظاماً على نمط الامبراطورية الإيرانية الساسانية أصبحَ الخلافة العباسية.

ظَهَرَ خلفاء منافسون في اسبانيا ومصر، ولكن الخلافة التي نَعرفُها جيداً ظَهَرَتْ بعد ذلك بقرون في السَّلطَنة العثمانية. تَبنَّى الحكام العثمانيون لقب "الخليفة" حتى قَبلَ أن يَحتلوا بيزنطة. كانوا يَعتَبرون أنفسَهم في الإسلام مثلما كان الامبراطور البيزنطي في المسيحية الأرثودوكسية. ومثلما حَصَلَ الأباطرة البيزنطيون على شَرعيتهم بزعامةِ الكنيسة، حَصَلَ السَّلاطِنة العثمانيون على شرعية حُكمهم بوضعِ أنفسِهم في تقاليد الخلافة.

رَكَّزَ السَّلاطِنة العثمانيون على العنصر الأساسي في الخلافة من بين جميع تنوعاتها التاريخية. ولتبسيط الأمر في اصطلاح الدين والدنيا، فقد اعتَبروا أن دَورهم الأساسي هو خَلقُ الظروف الدنيوية التي يمكن فيها للدين الإسلامي أن يَنمو ويَزدَهر، وكان ذلك هو روح إدارة الدولة العثمانية. حاوَلوا أحياناً القيام بأكثر من ذلك، ولكن واجبهم الأول كان الدفاع عن منطقتهم من العالَم

الإسلامي ضد الغزو الأجنبي. وضَعوا الشؤون الاجتماعية والصحة والتعليم والقانون بيد الإدارة الدينية التي دَعَموها، والطرق الصوفية التي تَحَمَّلوها. ولكنهم، وكذلك أعداؤهم، أدرَكوا أن وجود الخلافة مَنَحَ الحكامَ العثمانيين نفوذاً كبيراً في العالَم الإسلامي. في نهاية القرن التاسع عشر، عندما كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا تَحكم كل منها ملايين المسلمين، كانت هذه القوى الثلاث تَخشى أن يُعلِنَ الخليفةُ نداءَ الجهاد المقدَّس مما قد يُزلزل مجتمعاتهم. ومثلما كانت المجتمعات الغربية الحديثة تَنظر إلى الشيوعية كقوة ثورية هائلة، فقد كان قادة بريطانيا وفرنسا وروسيا يَعتَبرون الإسلامية العالمية كذلك.

ولكن في لحظة حاسمة في الحرب العالمية الأولى، كما شَرحتُ في الجزء الثالث، كانت قضية الخلافة محورية في الثورة العربية بالنسبة للبريطانيين، وكذلك في ضمان أمن امبراطوريتهم في الهند. خَشِيَ الحكامُ البريطانيون في الهند دائماً أن الإسلام يُشَكِّلُ رابطاً مع الامبراطورية العثمانية ومع حركات الاستقلال في المناطق التي هاجَمها أو سيطَر عليها الروس والهولنديون والطليان. نُسِبَتْ هذه المخاوف إلى الإسلامية العالمية أو القومية التركية. وأُضفِيَتْ عليهم قوة كبيرة، ولكن لم تكن لديهم مادة حقيقية في الواقع. كان سبب خوف البريطانيين منهم هو أشباحُ ذكريات تمرد جيشهم الهندي، السباهي، في "ثورة" 1857. قِراءتي للموقف هو أن ما فَعَلَهُ البريطانيون تجاه الخلافة لم يكن ضرورياً لأمنِ امبراطوريتهم سنة 1915، ولكنهم كانوا قلقين بشأن التهديد المُفتَرَض في ذلك الوقت فقَرَّروا الحصولَ على بوليصة تأمين.

كما شَرَحتُ في الفصل الثامن عشر، سَعى البريطانيون لاستباق التهديد المَزعوم على الهند من جهة السلطان-الخليفة العثماني الذي تَحالَف مع ألمانيا إلى كَسبِ تأييد شريف مكة لقضية الحلفاء. قَسَّمَت القوى الأمبريالية السكانَ المَحَليين مِراراً وتكراراً في مناطق الجنوب العالمي. إذا دَعَمَ الشريفُ البريطانيين فقد تكون تلك الخطوة مفيدةً في تهدئة مسلمي الهند. إلا أن الشريف لم تكن لديه قوة دنيوية، فقد كان شخصية دينية، ولخَلقِ توازنٍ مع الخليفة العثماني كان لا بد من أن يُصبِحَ خليفة. لم يكن واضحاً في الوثائق بالنسبة له وللبريطانيين كيف يُصبِحُ المرءُ خليفةً. يستطيع الشريف إعلان توليه المَنصِب، ولكن من الواضح أنه لم يَعتَقد ذلك كافياً. فَكَّرَ أنه بحاجة للبريطانيين لتوكيد إعلانه. والأدق من ذلك هو أنه اعتَقَد أن القوة الدنيوية البريطانية لديها الحق في تقرير من يكون الخليفة. تُبَيِّنُ مفاوضاته مع البريطانيين، كما أتَصَورُ، كيف أن الشمال العالمي كان مسيطراً بشكل تام على الجنوب. حتى في أكثر المظاهر العامة وضوحاً في الإسلام، فإن زعيمه المُتوقَع اعتَقَدَ أنه بحاجة لشهادة البريطانيين (المسيحيين) لضمان مَوقِعِهِ (الإسلامي الديني).

أصبَحَ مَوقِعُ الخليفة غير دقيق، فقد كان من الناحية النظرية زعيم الأمَّة وجميع المسلمين في كل مستوطَنة ودولة ومجتمع في العالَم. ولكن، على العكس من البابا، لم يكن الخليفة رئيس كنيسة ولم يكن هناك مؤسسة دينية واحدة. مُنِحَتْ شخصياتٌ مختلفة أدواراً مختلفة في هيئات بالتوافق (مثل آية الله في الاسلام الشيعي) أو بتَعيينٍ حكومي (مثل المُفتي العام أو قاضي القضاة أو غيره) في الامبراطورية العثمانية. كان هؤلاء علماءَ في الشريعة ولكن الخليفة لم يكن واحداً منهم. لم يُتَوَقَّع منه أن يكون عالِماً أو قاضياً، ولم يكن له دورٌ في تحديد تطبيق الشريعة، فقد كانت تلك قضية المَحاكم ثم تَنتَهي إلى السلطان أو المَلك. بعض الشخصيات البارزة، مثل الإمام شامل في القوقاز والإمام عمر المختار في ليبيا، جَمَعَتْ بين هذه الأدوار المُتباينة، ولكنهم فَعَلوا ذلك بتأثير

الصوفية ردّاً على احتلال أجنبي. في النهاية، يشبه الخليفةَ المَلكةَ فيكتوريا: يَملُك ولا يَحكُم. ولا يَستطيع الحُكم إلا إذا جَمَعَ الدِّين والدنيا مثلما فَعَلَ الخلفاء الراشدون.

لم يكن كل ذلك مهماً بالنسبة لمصطفى كمال أتاتورك الذي اعتَقَد أن الخلافة شَكلِيّة، مثلما وَصَفَها بقوله إنها كانت مَيتة منذ ألف سنة. للتَّخلص من الرُّفات ألغَى البرلمان التركي بزعامة أتاتورك المَنصب في الأول من نوفمبر 1922، إلا أنها استمرت بقوة الحنين كما قالَ أتاتورك بعدها للجمعية الوطنية العظمى في خطابه الذي استمر أربعة أيام في أكتوبر 1927:

"اعتَقَدَ بعضُ الأشخاص خطأً أنها كانت ضرورية لأسباب دينية وسياسية، واقتَرَحوا للمحافظة على الخلافة في اللحظة الأخيرة عندما اتُّخِذَ القرار أنه يجب عليَّ أخذ منصب الخليفة، ورفضْتُ ذلك مباشرة قائلاً لهم... ألا يكون من السخيف أن أخدَعَ نفسي وأضللكم بدورٍ وَهمي غير معقول وليس له حق في الوجود؟... إن الذين يَشغلون أنفسهم بخرافة الخلافة ويُضللون العالَم المحمدي ليسوا أكثر من أعداء للعالَم المحمدي ولتركيا. إنهم رجالٌ جاهلون وعميان مَن يُعَلِّقون آمالَهم بمثل هذه الشعوذة".

شَعوذة؟ إنما استمرت الفكرة، وربما كانت حَنيناً لا أكثر، إلا أنها عادَتْ إلى المَجال الذي فَهِمَهُ أتاتورك: السلطة. عندما أعلَنَ أبو بكر البغدادي تأسيس الدولة الإسلامية (داعش) حاوَلَ صياغتها بصورةِ الخلافة الأصلية. حاوَلَ استحضار هيبة وسلطة الخلفاء الراشدين الذين مارَسوا مزيجاً من السلطة العسكرية والسياسية والدينية. حَفَّزَ إعلانُه المسلمين مَنحَ نفسِه دورَ الخلفاء الراشدين، تأييداً ورفضاً، في كافة أرجاء العالَم الإسلامي.

لا يُعرَفُ الكثير عن ابراهيم عواد ابراهيم علي محمد البدري السّامرائي، وتُحيط بذلك الشكوك. يَرجِعُ ذلك جزئياً لأنه عاش في فترة ضاعتْ خلالها معظم السجلات، وربما لأن ثائراً وضِعَتْ عشرة ملايين دولار ثمناً لرأسه سيَحرصُ على كَشفِ أقلّ ما يمكن. يُعتقَدُ أنه ولِد في المدينة العراقية سامراء سنة 1971. يَدَّعي أنه مِن نَسلِ محمد (مثلما يفعل آلاف من الناس في العالَم الإسلامي)، ولذلك أضاف إلى اسمه الصفة المميزة: "القُرشي" التي تُشير إلى أنه من قبيلة الرسول. كما يُعَرِّفُ عن نفسه بمدينة بغداد التي يمكن القول بأنها المكان الذي وَصَلَتْ فيه الخلافة إلى القمة فلَقَّبَ نفسَه: "البغدادي".

يُعتَقَدُ أن البغدادي دَرَسَ أولاً في جامعة بغداد ثم في الجامعة الإسلامية في بغداد. أسَّس صدام حسين الجامعة الإسلامية عندما كان يقاتِل من أجل بقائه بعد هزيمته البالِغة أمامَ الأمريكان سنة 1991. في غَمرة انسحابه من الكويت أسرَعَ لتبديل عَلَم القومية بثياب المُلّا وسَعى لاستمداد القوة أو على الأقل للحصول على التأييد الشعبي بتأسيس مؤسسات إسلامية، كانت إحداها الجامعة الإسلامية.

في هذه الجامعة الجديدة، يبدو أن البغدادي تَجَنَّبَ المواضيع الأساسية في الجامعات التقليدية، ولا يُعرَفُ ما الذي كان يُدَرَّسُ مِن المنهاج فعلياً، ورَكَّزَ على تلاوة القرآن. انخَرَطَ مع الإخوان المسلمين في تلك الفترة، وكانت تلك قضية أكثر خطورة من التلاوة، ويبدو أنها جَذَبَتْه إلى الحركة وتَعَلَّمَ فيها ما دَفَعه إلى ترسيخ وضعه في برنامجها. اعتَقَدَ أن برنامج الإخوان لَيِّنٌ وأليفٌ،

وقادَهُ ذلك الانطباع إلى مغامرته الجَدِّية الأولى خلال الفوضى التي تَلَتِ الغزو الأمريكي. وَضَعَ تحضيره لشهادة الدكتوراة جانباً وساعَدَ في تأسيس جماعة مقاومة.

أَطلَقَت الجماعة على نفسها اسم: "جيش أهل السنة والجماعة"، ويبدو أنها قامَتْ بهجماتٍ على الأمريكان والعراقيين الذين يعملون معهم. لا توجَد إشارةٌ تدل على أن السلطات الأمريكية عَرفتْ أي شيء عن نشاطاته، ولكن تم القبض عليه صدفة في 2 فبراير 2004 بينما كان يَزورُ صديقاً كان مَعروفاً بأنه "جهادي". تم حَبسُه مع أربعة وعشرين عراقياً في سِجن أمريكي كبير يُعرَفُ باسم: "سجن بوكا Camp Bucca".

التَقى هناك بأتباع جُدد، إذ كان معظم السجناء الذين حُبِسَ معهم لهم علاقة بالحركة البعثية وانتَقلوا مع صدام مِنْ قَمعِ الإسلام إلى تأييده. لم يكن على البغدادي وغيره من المؤمنين الحقيقيين سوى أن يُتابعوا ما بَدَأه صدام. وسواءً فَعَلَ صدام ذلك بإخلاص أم لا، فقد مَهَّدَ الطريق وبدأ رجال الدين المسلمين في زرع بذور حركتهم. تَخَلَّى البعثيون السابقون عن معتقداتهم العَلمانية وتَبعوا رجالَ الدِّين بدافِعٍ من غضبهم وهزيمتهم وبحثاً عن استرداد كرامتهم.

خَلَقَ الأمريكانُ الظروفَ المثالية من غير قصد: فقد وَضَعوا الرجالَ المضطربين الفوضويين في مكان لا يستطيعون مغادرته، وحيث قُدِّمَ لهم الحَدُّ الأدنى للبقاء أحياء، وبَثَّ الفراغُ الإجباريّ المَلَلَ فيهم. أصبَحَ سجن بوكا بؤرةً لتَفريخِ النشطاء المحارِبين مثل كثير من مراكز اعتقال السجناء السياسيين.

تَجَوَّلَ البغدادي في هذا المكان الدافئ بسهولة واستفاد من الشهور العَشرة التي قضاها في السجن لدعوة رفاقه السجناء ولتأسيس صداقات ستُصبح مفيدةً بعد إطلاق سراحه. ربما لم يَعرف أحدٌ مِن السجانين ما كان يفعله، وأتَصَوَّرُ أنهم كانوا مسرورين بأن دروسه الدينية هَدَّأت السجناء الغاضبين ولم يَفهموا، وربما لم يَهتَموا بما كان يَتحدث به هو والسجناء الآخرين. أُطلِقَ سراحه في ديسمبر 2004 لأنه لم يُتَّهَم بجريمة ولم يُعرَف بأنه جهادي بل "معتقل مَدني".

عندما خرج البغدادي من سجن بوكا، ربما كان أكثر ثقة بآرائه وقدراته، وربما أكثر غضباً. وَجَدَ أن المجاهدين العراقيين ملتزمون ببرنامج أكثر عنفاً وإصراراً من ذي قَبل. كان المجاهدون الملتحقون بالقاعدة الذي كانوا يعملون في العراق آنذاك تحت قيادة جزئية من أبو مصعب الزرقاوي، وهو فردٌ من قبيلة بدوية أردنية، وكانوا يقومون بهجمات أكثر عنفاً وضراوة.

كان الزرقاوي رجلاً مزاجياً وعنيفاً، ولكنه كان أكثر من مجرد شَرِسٍ، فقد كان داهية وطَوَّرَ استراتيجيةً بسيطة وفعالة في التعامل مع ما كان يَجري في العراق حوالي سنة 2000.

في ذلك الوقت كانت تَدورُ حربٌ أهلية وحشية، فقد كان الشيعة المضطَهدون زمناً طويلاً يقومون بالانتقام من السنّة الذين تَسلَّطوا فترة طويلة وأصبَحوا الآن ضعفاء. كان لدى الشيعة سببٌ قويٌّ للرغبة في الانتقام، فخلال قرونٍ مِن الحكم العثماني السنّي وخلال القرن العشرين أيضاً كان يتم استغلالهم وقمعهم وإذلالهم. في السنوات الأخيرة من حُكم صدام الديكتاتوري، استَنزَفَ الأراضي المُنخفضة في جنوب العراق حيث عاش كثير منهم وطَرَدَ كثيراً منهم خارج البلاد. كانوا

الحلفاء الطبيعيين للغزاة والمحتلين الأمريكان. ولذا فقد جَعَلَهم الأمراء الأمريكان حكاماً دون أن يَعرفوا شيئاً عن العراق. وكما هو مُتَوَقَّعٌ فقد أطلَقَ الشيعةُ العنان لغضبهم فطَرَدوا السنّة من بيوتهم وقاموا "بتطهير عِرقي" لمناطق كاملة، وحَرموهم مِنَ المساعدات، وأغلَقوا في وجههم فرص العمل، فقاتَلَ السنّة من أجل البقاء مَدفوعين بمآسيهم. إلا أن الشيعة المَدعومين بالأمريكان كانوا أكثرَ عدداً منهم، ولم يكن لديهم قادة وكانوا تائهين ضائعين.

وجَدَ الزرقاوي أن هذه فرصة ذهبية سانحة، وربما تمكَّنَ من إضعاف الشيعة بمهاجمتهم، إلا أنهم سينتَقِمون بغضب، وذلك سيخيف السنّة الذين سيقاتلون أو يموتون. كلما ارتفع عنف السنّة ازداد رد فعل الشيعة شراسة، وكلما اشتدت هجمات الشيعة أصبح السنّة أكثر يأساً. وفي غمرة يأسهم كان الصوتُ الوحيد الذي يُعَبِّرُ عن مأزقهم ويُقَدِّمُ وسيلة للمحافظة على حياتهم هو صوت الزرقاوي "القاعدة في العراق".

الفئةُ الصغيرة التي بَقِيَتْ مع الجهادي الأسطوري آنذاك أسامة بن لادن ومستشاره المصري أيمن الظواهري، اعتَبَرَت استراتيجية الزرقاوي العنيفةَ خطأً وأنها ستَهزِمُ ذاتها. وجَدَ بن لادن والظواهري أن عُنفَ الزرقاوي "غير إسلامي" خاصة في قَتل الإخوة المسلمين والنساء والأطفال، واعتَقَدوا أن أعماله البَشعة المُعلَن عنها بشكل واسع ستُثيرُ عَداء الناس. كان هنالك فرق أساسي آخر بين ما أراده بن لادن والظواهري وما كان يفعله الزرقاوي. تعامَلَتْ استراتيجية الزرقاوي مع "العدو القريب". اعتقد أن على المجاهدين السيطرة على منطقة واحدة قبل أن يتمكنوا من تملك القدرة على التوسع أكثر. كانت عقيدته نوعاً من التمرد الديني من وطنية الدولة الواحدة.

اعتَقَد بن لادن والظواهري أن الجهادية الوطنية لن تَنجح. لن تكون دولة واحدة أو منطقة محدَّدة قوية ولا حتى لحماية نفسها، فكيف بتوسعها. آمَنوا، حسبما أتَصَوَّر، بأن الاستراتيجية الصحيحة للقاعدة هي نوعٌ من التمرد الديني من القومية العربية، وحسب اصطلاحاتهم يَعني ذلك أن الحركة يجب أن تَهتم بالمجتمع المسلم كله، الأمَّة، وتُرَكِّزَ على هزيمة "العدو البعيد"، الأمريكان وعملائهم من العرب. آمَنَ بن لادن والظواهري بأن نجاحَ أو فشلَ الحركة كلها يستند على هذا الفرق الاستراتيجي، ولذلك كان مهماً جداً بالنسبة لهما.

أصدَرَ الظواهري بياناً في ديسمبر 2001 يدعو فيه إلى متابعة العمليات العنيفة، وإلا حسب رأيه، فإن المسلمين سيَنحَدرون إلى التَّراخي، وكان لا يَحترم المسلمين كثيراً في العموم. ويَعتَقِد أنهم يحتاجون إلى التحفيز لإيقاظهم بأعظم هجماتٍ باهرة يستطيع المتمردون القيام بها. لن يُقنعهم سوى العمليات العنيفة بأن الشمال العالمي والأنظمة الخائنة التي يدعمها في الجنوب يمكن أن تتغير، ولا يمكن تحقيق ذلك بالعمليات المَحَلية، بل يجب نَقل المعركة إلى أرض العدو. كان ذلك هدف هجمة 11 سبتمبر على مركز التجارة العالمي في نيويورك: "لكي نَحرق الأيدي التي تُشعِلُ النار في بلادنا". لم يكن الظواهري أقل ميلاً للعنف من الزرقاوي وأتباعه، كان يَختلف عنهم في اختياره للأهداف.

لا يُعرَفُ الدورُ الذي لَعِبَهُ البغدادي في هذا الجدال، ولكن من المؤكد أنه أيَّدَ موقف الزرقاوي. كان الزرقاوي رَجُلَ اللحظة بينما كان بن لادن والظواهري في رأي البغدادي رَجُلَينِ مِنَ

الماضي. كان الزرقاوي يقاتِل بينما كان بن لادن والظواهري يتحدثان فقط. كان الزرقاوي موجوداً بينما كان بن لادن والظواهري مُختَبئين بعيداً في أفغانستان أو باكستان. عندما وَصَلَ إلى تلك الاستنتاجات، اتَّخَذَ البغدادي دوراً حاسِماً كنوع من المفوَّض السياسي (كما يَعرفه الروس) في حركة القاعدة في العراق. ثم أُعطِيتْ له فرصته الكبيرة عندما قَتَلَ الأمريكان الزرقاوي في 7 يونيو 2006 في هجومٍ مدفعي وطارَدوا خليفةَ الزرقاوي وابنه اللذين فَجَّرَا نفسَيهما بدلاً من الاستسلام في أبريل 2010. تحت تأثير حملةٍ أدارها بمَهارةٍ رَجُلُ مخابراتٍ بعثيّ سابقٍ مِن جيش صدام، قامَت اللجنةُ الحاكمة للحركة بانتخاب البغدادي أميراً لها، وكان عمره تسعا وثلاثين سنة. كان اختياره لاسمٍ حركي إشارة انطلاق الخلافة.

اغتيالُ خليفة الزرقاوي في أبريل 2010 وقَتلُ بن لادن بعد ذلك بثلاثة عشر شهراً لم يَحِلَّ الخلاف بين الزعماء. عندما استلَمَ الظواهري زعامةَ القاعدة ظَلَّ معارِضاً لفكرة تمرد الدولة الواحدة وضد مَظاهر العنف الشديد على الأقل. كان أكبر سناً وأكثر نضجاً من البغدادي وأراد أن يَبني تَوافقاً بين جماعات التمرد التي كانت آنذاك متفرقة وغير منظمة. لم يوافق البغدادي على ذلك أبداً، بل أراد أن يُشدِّدَ استخدام العنف وإعلانه إلى الحد الأقصى. عندما سيطَرَ على أعضاء مجلس الشورى الأحد عشر في قاعدة العراق، انطلَقَ في برنامج تأسيس ما يشبه الدولة للسيطرة أو لضَمِّ أو القضاء على حركات المجاهدين الأخرى. أدّى ذلك إلى انقسام رسمي في حركة القاعدة، ورداً على ذلك قامَ الظواهري في فبراير 2014 بطرد قاعدة العراق، أو كما أصبحَتْ تُعرَف باسم: الدولة الإسلامية.

كان هناك بعض المفكرين أو الاستراتيجيين في الحرب المقدَّسة الذين لم يَتدخلوا في الصراع بين القاعدة وما أصبح يسمى بالدولة الإسلامية. كان من أهم هؤلاء الرجل الذي كان يسمى: أبو بكر ناجي.

بغضّ النّظر عن اسمه الحقيقي، وسأسميه هنا: ناجي، فقد وَضَعَ الاستراتيجية التي سيتبعها البغدادي. تابَعَ ناجي من حيث تَوقَّفَ سيّد قطب ووضَعَ دَرْسَ تاريخ ودَليلاً للقادة وخطةً للمعركة في "إدارة التَّوَحُش". تُرجِمَتْ كلمة "التوحش" بالإنكليزية إلى كلمة "savagery" ولكن الكلمة العربية أكثر إثارة مما تُظهِرُهُ الكلمة الإنكليزية. استُخدِمَت الكلمة العربية في الشّعر لتَدلَّ على الخوف من الحيوانات البرية وتتضمن أيضاً على المشاعر التي تَنتَاب الحيوانَ المُحاصَر عندما يَصل إلى حد اليأس المُتَهَوِّر. ربما يكون أفضل تَشبيه يَفهمه القراء في الغرب هو ما عَبَّرَ عنه توماس هوبز Thomas Hobbes بحالة الطبيعة والوجود خارج المجتمع المُتَحَضِّر[722].

يبدأ ناجي بَحثَه في النقطة التي بدأ فيها الشمال العالمي بالسيطرة وتَدمير ثقافة المسلمين وتقسيم الأمّة إلى مستعمرات في البداية ثم إلى دول. لم توجَد الدول قبل ذلك في المجتمع المسلم، وكانت الفكرة اختراعاً غربياً. عندما انسحَبَت القوى الاستعمارية، الدول التي صَنعوها "سقطَتْ في أيدي... حكومات عسكرية أو حكومات مدنية دَعَمَتها قوات عسكرية"[723]. قامَتْ لوحدها، أو بتشجيع عملاء مَحَليين تدفعهم الشهوات والجشع وحب المال لتغيير الإيمان أو العَقد الاجتماعي (العقيدة) التي كانت تضم المجتمعات. عندما ضَعفت المجتمعات الإسلامية وأصبَحتْ فاسدة، قامَت القوى

الأجنبية وعملاؤها المحليون "بتَبديد ونَهب مَصادر وثروات تلك الدول ونَشَرَتْ عَدَمَ المساواة بين الناس". وهكذا "منذ سقوط الخلافة... لم يَعد هناك دِين ولا عالَم (لا دين ولا دنيا) ولا صلاح ولا عدالة. وهذه هي الحالة منذ سقوط الخلافة"[724].

عزاء المؤمنين على كل حال هو حقيقة أن قوة الدول العظمى مَحدودة، إلا إذا قَدَّمَ السكان المَحَليون خضوعهم واستسلامهم. ولذا فإن جزءاً من المهمة التي يجب إنجازها هو الإظهار للناس النتائج السيئة في نظام الدولة الحالي. ولا شك بأن المُمسكين بالسلطة، الذين يُسميهم "الطواغيت"، وحلفائهم الأجانب يُدرِكون ذلك"[725]. لكي يُخفُوا أهدافَهم ويَكسَبوا السكان المَحَليين إلى طَرَفِهِم يُصَوِّرون حُكمَهم بأنه "غير استبدادي ومُنفَتِح على العالَم... وأن السكان يُطيعونهم ليس بسبب الخوف بل بسبب الحب لأنهم يَنشرون الحرية والعدالة والمساواة بين الناس، وغيرها من الشعارات"[726].

في توجيه الَّلوم على هذه الحالة، لا يَتَّهِمُ ناجي القوى الأجنبية لوحدها وعملاءها المَحَليين المُرتشين، على الرغم من أنهم المذنبون الرئيسيون، بل يَتهم أيضاً جماهير الناس الذين يَنظر إليهم نظرة أكثر قَتامة من نظرة الظواهري: "الجماهير هي العنصر الصعب... نَعرفُ أنه لا يمكن الاعتماد عليهم بشكل عام بسبب ما شَكَّلَهُم عليه الأمبرياليون الأجانب والخونة المَحَليون، ونحن نُدرِكُ أنه لن يكون هناك أي تحسّن في العامَّة حتى يتحقق النصر. ولذا فإن استراتيجيتنا هي كَسبُ تَعاطفهم، أو تَحييدهم على الأقل"[727].

يُحاوِرُ ناجي أن الطريقة الناجعة الوحيدة لوقف الانحدار في اللامساواة التي بدأتْ في عهد الاستعمار هي استراتيجيةُ العنف. لا يمكن أن تَتَحقق بخَلقِ مؤسسات "بنماذج نظرية أو بشعارات براقة"، (وهو يتفق في هذا مع سيّد قطب)، فالإصلاحيون ليسوا أكثر من فخٍ يَقَعُ فيه الشباب "لمَنعِهم من رَفعِ الشعار الحقيقي الوحيد: الجهاد طريقنا والشهادة في سبيل الله أشرَفُ ما نريد!"[728]. ما يجب تنفيذه هو حملةٌ طويلة المَدى لتحطيم قوى الأمبرياليين وتَطهير المجتمع الإسلامي.

يتابِعُ جَدَلَهُ بأن هذه السياسة العنيفة تُبَرِّرُها الشريعة الإسلامية، كما أن الأجانب منافقون في رفضها استناداً إلى الأخلاق. ويُطالِبُ قائلاً: انظر إلى تاريخهم "في القرن العشرين وحدَهُ ارتكبوا مَجازر ضدَّ أنفسهم وضدَّ المسلمين على مستوى لم تَشهد مثله البشرية في تاريخها. حتى أكثر الشعوب قسوةً، مثل التتار (ومَغول جنكيزخان) لم يَهدروا مِن الدَّم مثلما فَعَلَ هؤلاء[729]. هَدَروا أموال المسلمين وأموالهم، وهي في الحقيقة مالُ الله، لنَشر الكفر والانحلال الأخلاقي والفسوق بينما مات ملايين البشر من الجوع، لا تستطيع بعض العقول المنطقية تصديق عددها حتى لو تم تسجيلها في كتاب"[730].

يتابِعُ قائلاً إن الأنبياء المُزَيَّفين، العَلمانيين، يَدَّعونَ أنهم يُصلِحون بينما هم في الواقع يُدَمِّرون النسيج الأخلاقي للمجتمع الإسلامي. "أما بالنسبة للقوميين والبعثيين والديموقراطيين فقد

أضَرّوا المجتمعَ الإسلامي بإفساد الدين والتدمير المروع للأرواح. وإن تدمير الروح المعنوية الذي قام به صدام حسين وحافظ الأسد وحسني مبارك والملك فهد والحزب الاشتراكي في اليمن وغيرهم يفوق كل من قُتلوا في جميع حروب الجهاديين في هذا البلد"[731].

بما أن الحرب لها ما يُبررها فيجب أن يتم التخطيط لها بدقةٍ وتنفيذها جيداً، ولها عدة مراحل:

المرحلة الأولى هي مرحلة "النِّكاية" والمضايقة والإغاظة للعدو. البرنامج هو خَلقُ الفوضى لتُصبح القوى الأجنبية وعملاؤها المَحَليون مشَوَّشَة ومُرهَقة بينما يَتَعَلَّمُ المسلمون أن لديهم القوة ويتَعلَّمون استخدَامها. تكون العمليات متنوعة ولكنها مثيرة واقتصادية، وصغيرة في المراحل الأولى تقوم بها جماعات مستقلة. ما نَحتاج إليه في هذه المرحلة هو "دَفعُ مجموعات لتصبح قادرة على الإزعاج من خلال التدريب والعمليات بحيث تُصبح جاهزة نفسياً وعملياً لمرحلة إدارة التَّوَحُّش"[732].

المرحلة الثانية هي نَشرُ التَّوحش. "لاحِظ هنا قولنا أن الهدف هو تخليص هذه المناطق التي تم انتقاؤها للهجوم من سيطرة الأنظمة المرتَدَّة. ذلك هو الهدف الذي نُعلِنُهُ على المَلأ والذي نُصَمِّمُ على تنفيذه، وليس إثارة الفوضى فقط"[733]. تَظهَرُ المرحلةُ الثانية في ترتيب ناجي كحرب عصابات، وهي بشكل أساسي ما يَحدثُ الآن في سورية والعراق.

الانتقال من عمليات الإرهاب الصغيرة المتَفَرّقة إلى الحرب الواسعة يُشير إلى بدء المرحلة الثالثة، وهي إدارة التَّوحش. تتضَمَّن مَهمّات هذه المرحلة تأسيس "مجتمع محارِب" مُجَهَّزٍ بوسائل الدفاع وجهاز مخابرات لكشف خطط العدو ومَنع التآمر الداخلي، ووَضع برنامج اجتماعي وسياسي يَهدف إلى "توحيد مشاعر الناس بالوسائل المالية وتوحيد العالَم بحُكم الشريعة". يتَطلَّبُ ذلك خَلقَ مقاطعة أو منطقة تحت سيطرة الحركة تستطيع منها إنشاءَ دولة. ومِن هذه القاعدة سيُصبِح مِنَ الممكن "التوسع والهجوم على الأعداء لطَردهم وتَبديد أموالهم ووَضعِهم في حالة ذُعر مستمر ورغبة في الصلح"[734].

تُشيرُ كلمة "إدارة" في عنوان ناجي إلى أنه انتقل إلى أبعد مما اعتَبَره قطب مقبولاً. يَنصَحُ في إحدى النقاط بدراسة منهجٍ في إدارة الأعمال: "يجب أن نَستفيد مِن كُتُبٍ عن موضوع الإدارة، خاصةً دراسات ونظريات الإدارة التي نُشِرَتْ حديثاً، لأنها منسجمة مع طبيعة المجتمعات الحديثة. هناك أكثر من موقع على الانترنت حيث يمكن أن يَحصل المرء على كُتُبِ الإدارة. أعتَقِدُ أنه يمكن تَنزيلها من موقعِ مفكِّرة الإسلام... وكذلك يمكن الحصول على مزيد من كُتُبِ ومصادر الإدارة من مواقع أخرى على الانترنت من المكتبات ودور النَّشر"[735].

ولكنه يَعتَقِدُ أن هذه سياسة خطرة إذا كانت ضرورية. وذلك لأنه بينما "في خطَّتِنا أن نَفتَحَ بابَ الإدارة واسعاً أمام الخبراء في فنونها، إلا أننا نَفتَحُ باب القيادة للموثوقين فقط، على الرغم من

وجود جهاز أمني يُراقِب هذين البابين ويُتابِع مِهنية أعمال القادة والإداريين لمَنع الاختراق"[736]. الإدارة ليست الهدف ولكنها الوسيلة فقط كما يَقول. ما يجب إدارته هي القوة. وهنا يُحاوِل ناجي استِرجاعَ دروسٍ مِن حَملة الروس في أفغانستان. لم يتمكَّن الأفغان من هزيمة الروس في معاركَ نظامية لأن الروس تَمتَّعوا بإمكانياتٍ عسكرية قاهرة. ولذا كان على الأفغان أن يَستفزوهم لنَشرِ قواتِهم أكثر من اللزوم في صراعٍ مُبَدِّدٍ لا يمكن تَحقيق النصر فيه مما أدَّى إلى إفلاس اقتصادهم وفقدانهم تأييدَ شعبهم ودَعمَ الحكومةَ التي حاوَلوا حمايتها.

ستَقَعُ أمريكا بسهولة في الفخ نفسه، كما فَكَّر، مدفوعةً بواجباتها الذّاتية "ستَسعَى أمريكا إلى الانتقام مما سيُقوي الصراع، أو أنها ستَقوم بحربٍ مَحدودَة، وفي هذه الحالة لن يَرتوي حِقدها ولن تتمكن من إيقاف هذا التوسع. ربما نَجَحَتْ أمريكا في إسقاط دولة أفغانستان كما خطَّطَتْ له، أو أنّ دولة طالبان ربما انهارتْ بدون أحداث سبتمبر الخطيرة... وعلى كل حال سيَتَحَتَّمُ على أمريكا أن تواجِه تَداعي أحداثَ حَملتها في أفغانستان... في عشرات الآلاف من الجماعات... التي ستُوَجِّهُ ضَرباتها إليها"[737].

وبينما تتوسَّع الحَملة وتسعَى أمريكا إلى الانتقام لن تَجِدَ أمامها دولةً تستطيع الانتقام منها، لأن الدول المُتبقية هي عَميلتها، وسيُصبح واضِحاً لها أنها لا تستطيع حماية الأنظمة من الهجمات ولا المُحافظة على مصالحها الاستراتيجية ومصالح ابنتها إسرائيل في المنطقة. ولن يكون أمامها اختيارٌ سوى الوقوع في الفخ الثاني، وهو احتلال المنطقة وتأسيس قواعد عسكرية... مما سيَضَعُها في حربٍ مع شعوب المنطقة. من الواضح في تلك اللحظة أنها ستُحَفِّزُ تَشكيلَ حركات ستَزيد انتشارَ الجهاديين وتَخلق كتائب مِن الشباب الذي يُفكِّرُ ويُخطِّطُ للمقاومة...

ولذا فإن التحرك الصحيح هو التَّنوع والتَّوسع في الهجمات ضد العدو الصّليبي الصهيوني في كل مكان مِن العالَم الإسلامي، وحتى خارِجَهُ إنْ أمكن، لكي تتوزع جهود تحالف العدو وتَستهلكه إلى أقصى حدٍّ ممكن. فمثلاً: إذا ضُرِبَ منتَجعٌ سياحي لأنصار الصّليبيين في إندونيسيا، فإن جميع المُنتجعات السياحية في جميع دول العالَم ستضطَر إلى زيادة أمْنِها وزيادة قوات الأمن مما سيَرفع تكاليفها كثيراً. إذا ضُرِبَ بنكٌ رِبَويٌّ صَليبيٌّ في تركيا، فإن جميع البنوك الصّليبية ستُضطَر إلى رَفعِ أمنِها في جميع الدول وسيَزداد الهَدر الاقتصادي. إذا ضُرِبَ مركزٌ نفطي قرب ميناء عَدَن ستُوضَعُ إجراءاتٌ أمنية مشدَّدة في جميع شركات البترول وناقلاتها وأنابيب البترول لحمايتها، وسيَزداد الإنفاق. إذا قُتِلَ اثنان من الكتَّاب المُرتَدِّين في عمليتين متزامنتين في دولَتين مختلفتين سيكون عليهم ضمان سلامة آلافٍ من الكتَّاب في الدول الإسلامية. بهذه الطريقة سيكون هناك تَنوع وتَوسع في دائرة الأهداف والضربات المزعِجة التي تُنفِّذَها جماعاتٌ صغيرة متفرقة، وكذلك مع تكرار الهجوم على الأنواع ذاتها من الأهداف مرتين أو ثلاث سيُصبح واضِحاً لهم أن هذا النوع من الأهداف سيكون مُعَرَّضاً للهجوم بشكل مستمر[738].

باختصار، يؤمِنُ ناجي بأن العنف ضروري لأنه مدرسة مجتمعٍ جاهلي ومستشفى مجتمعٍ مريض. يُضعِفُ العدو بينما يُحَوِّلُ مجتمعاتٍ فاسدة إلى مجتمعاتِ المستقبلِ الإسلامي الطَّاهر.

على كل مَن يَتبنَى الجهاد أن يواجِهَ الواقع: "كل مَن مارَسَ الجهاد في الماضي يَعرِفُ أنه ليس سوى العنف والقسوة والإرهاب والتخويف والقتل". لا يمكن ممارسة الجهاد باللُّطفِ واللّين. "سواءً كان اللُّطف واللّين في دعوة الآخرين إلى الانضمام إلى الجهاد أو اتّخاذ مواقف أو تَنفيذ عمليات، وذلك لأن مُكَونات اللّين هي إحدى مُكَونات الفشل في أي عمل جهادي... وبالتالي، لا يوجَد ما يَمنعنا من سفك دمائهم، بل إننا نرى أن ذلك هو أحد أهم الواجبات لأنهم لا يَندَمون ولا يُصَلّون ولا يَتَصَدَّقون. جميعُ الأديان هي لله"[739].

يُطَبِّقُ ناجي مبدأ الثأر من فترة ما قَبل الإسلام على أنه الطريقة الوحيدة لضمان السلامة: "بِغَضِّ النَّظر فيما إذا استخدَمنا القَسوة أو اللّين، لن يكون أعداؤنا رُحماء بنا إذا قَبضوا علينا، ولذا يجب علينا أن نَجعلهم يُفكِّرون ألف مرةٍ قَبلَ الهجوم علينا"[740]. لن يَمنعَ الغَربَ وعملاءه المَحَليين من أذية المسلمين سوى التأكد من الانتقام. "يجب ألا يَلحَقَ الأذى بالأمّة ولا بنا دون أن يَدفَعَ العدو ثمناً"[741]. ليس "العَين بالعَين" على وجه التحديد ولكن مِن المؤكد "موت بمَوتٍ". العمليات الإرهابية لها هدفان: مَنعُ الهَجَمات على المسلمين "ونَشرُ اليأس في قلوب العدو".

الهجمات الإرهابية هي لُبُّ استراتيجيته، وهو يُخصِّص أغلب كِتابِه لشرح كيفية القيام بها. يمكن أن "يَدفَعَ العدو الثمن" في أي مكان: "إذا قامَ النظام المصري المُرتَدّ بقَتلٍ أو القَبضِ على جماعةٍ من المجاهدين، فإن شباب الجهاد في الجزائر أو المغرب يَستطيع تَوجيهَ ضَربةٍ ضد السفارة المصرية ويُصدِرَ بياناً لتَبرير ذلك، أو يمكن أن يَخطفوا دبلوماسيين مصريين كرهائن حتى يتم الإفراج عن جماعة المجاهدين... يجب أن تُتَّبع سياسةُ العنف بحيث أنه إذا لم تتم الاستجابة للمَطالب يجب قَتْلُ الرهائن بطريقة مخيفة تَبعَثُ الرعب في قلوب العدو ومَن يَدعَمُه"[742]. مِنَ المؤكد أن الدولة الإسلامية (داعش) قد طَبَّقَتْ برنامج ناجي المُرعِب في أعمالها وصَنَعتْ عرضاً مسجَّلاً واسع الانتشار عن إعدام المُعتَقلين بدمٍ باردٍ وعن قَتْلِ المُنشَقّين وكل من قادَهُ سوءُ حَظِّهِ إلى مكانٍ خطأ في زمانٍ خطأ على مستوى يَتناسَب مع أعمال قامَ بها الألمان والروس والصينيون.

يمكن وَصْفُ بيان ناجي السياسي العسكري على أنه النسخة الإسلامية مما أعلَنَهُ ماو تسي تونغ وهو شي مينه في نوع حروبهما: مَزيجٌ من الإرهاب، عندما يكون الوسيلة الوحيدة في العمل، وحرب العصابات، عندما "يَنضجُ" الصراع، وخَلقُ مجتمعِ الدولةِ المستقلةِ المُحارِبة، التي تَصَوَّرَ ناجي أنها خلافة جديدة. طُبِّقَ هذا التسلسل خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين في أرجاء العالَم، وهو بَشع وعنيف ومُكلِف إلا أنه غالباً ما تَوَصَّلَ إلى النجاح. مهما كانت النتيجة في سورية الآن، فإن ناجي قدَّمَ لنا خطةً عما يَنوي أتباعه فِعلَهُ في القتال هناك وربما في العالَم. وكما يَقولُ لنا، فإن القتال "ليس معركةً اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية" في منطقةٍ ضد خصومٍ فيما يشبه الدولة، بل هو "معركة إعلان توحيد الله ضد الشرك، والإيمان ضد الكفر"[743].

لم يَشهَد العالَم مثل ذلك منذ الحروب الدينية الكبرى في أوروبا منذ حوالي أربعمئة سنة مَضَتْ.

الجزء السادس

الخاتمة:

مثال البراهمة العميان

يَرِدُ هذا المِثال كثيراً: اختَلَفَ كاهِنان من البَراهِمة حول شكل الفيل عندما يُمسِكُ أحدهما بخرطوم الفيل الضخم، بينما يُمسِكُ الآخر بذيله الصغير. يَرِدُ هذا المثال كثيراً لأنه يُصَوِّرُ المشكلة التي نواجِهَها جميعاً: مَعارفنا ناقصة في أحسن الأحوال. لا نستطيع أن نَعرِفَ ما يكفي أبداً، وما نَعرِفُهُ يَعتَمِدُ في الغالب على مِن أين نَبدأ. قام ويل روجرز Will Rogers "فيلسوفنا راعي البقر"، وكثيرٌ غيره، بنقل المُعضِلة خطوة أخرى: "ما يَجعلُ الأمورَ صعبةً ليس فقط ما نَجهَلُهُ، بل هو غالباً أنّ ما نَعرِفُهُ هو ليس كذلك".

احتَفَظتُ في ذهني بصورة الكاهِنين البِراهمِيين وويل روجرز حين حاوَلتُ ما استطعتُ أن أضَعَ في هذا الكتاب ما أعتَقِدُ أنه صحيح فِعلاً عن الفيل وليس ما نَتَمَنَّى أنه كذلك، أي عن العَلاقة بين الشمال العالمي والجنوب العالمي. وضَعتُ في قلبي تَحذير آرثر كوستلر Arthur Koestler أن واجِبَ المؤرخ "ليس اختيار الجانب المُشرِق أو الجانب المُعتِم حسبما يكون الشعور والمزاج، بل إدراكهما معاً وملاحظة التَّباين والبحث عن أسبابه".

مِنَ الواضِح كما أعتَقِدُ أنه إذا لم نَفهَم الأمور، حتى ما لا نوافق عليه منها، فإن الأمل ضعيف في تحقيق السلام والأمن الذي نريده جميعاً. ولذا، سأحاوِلُ أن أرَكِّزَ على مثال البراهميين العميان منطَلِقاً من مشكلة وجهة النظر: هل نشاهدُ الأمورَ جيداً من حيث نُراقِب؟

الفصل الثالث والأربعون

الخراطيم والذيول

من الواضح أن البراهمي الذي يُمَثِّل الجنوب العالمي يجب أن يكون ضعيف النظر، لأن جميع دول الجنوب مازالت تُعاني مما سَمَّيتُهُ "مرضُ ما بَعدَ الأمبريالية". ناضَلَتْ كثيرٌ من شعوب العالَم الإسلامي أجيالاً عديدة من أجل الحصول على الاستقلال، وكان الثمن باهظاً. تَشَكَّلَتْ مجتمعاتٌ كاملة تحت ضغطِ عنفِ جهودهم في سبيل "التحرر الوطني"، وربما حُرِموا جميعاً من خبرة حُكمِ أنفسهم، ولم يَخلُقُوا مؤسسات حُكمِهِم في غياب هذه الخبرة.

ولذلك عندما حَصَلوا على الاستقلال الإسميّ، تابعَ الأفارقة والآسيويون من حيث تَرَكَهم الأمبرياليون، فَطَوَّروا نسَخَاً مَحَلِيةً من الحكومات الاستعمارية التي سَعوا لتحرير أنفسهم منها. وعندما انتَقَلَ المَدنيون الذين قادوا حركات الاستقلال إلى المكاتب السابقة للحكَّام المُستعمِرين، انقلَبَ عسكريون مُستبِدون على كثيرٍ منهم كان أغلبهم ممن خَدَمَ في القوات المسلحة للأمبرياليين. ظَلَّ هؤلاء جنرالات حتى بعدما خَلَعوا ملابسهم العسكرية وكانت خِبرتُهُم في إعطاء الأوامر أكبر من قُدرتِهِم على المشاركة في السياسات المَدنية. الديموقراطية نَبْتَةٌ رقيقةٌ تَحتاجُ إلى سَمادِ المُشارَكة العامة، ولم تَنبُتْ جيداً في صحارى وسهوب العالَم الإسلامي بَعدَ الأمبريالية، بينما تأقلَمَت العسكرية ونَمَتْ جيداً في التربة السطحية للمجتمعات الضعيفة.

الديكتاتوريون العسكريون ليسوا أسوأ الحكام، فالأكثر تدميراً لمجتمعاتهم هم أمراءُ الحرب الذين يُدرِكون عدم ضمان مراكزهم فيُرَكِّزونَ جهودهم على استِنزاف بلادِهم ونَقْلِ كل ما يَستطيعون تَحويله مِنَ الثروة لإخفائِها في الخارج. تُحاوِلُ الفئةُ الحاكمة في عالَم ما بَعدَ الأمبريالية التَّمَسُّكَ بمصادر الثروة التي تَعني: القوة في القمة، والنفوذ فيما تحتها، وعادةً يَغُضُّونَ النَّظَر أو يَنْغَمِسونَ في ممارسة الجريمة على نطاق واسع ويَستَغِّلون رفاقهم المواطنين. يَنتَشِرُ الفساد والطغيان في المجتمعات الضعيفة.

يَتبَعُ ذلك أنَّ المستفيدين من الفساد والطغيان لا يُريدون مجتمعاً عارِفاً، فلا يُشَجِّعون، بل ويَمنَعون في كثير من الأحيان، أيّ حِوار جادٍّ حول قضايا السياسة العامة. تكون وسائل الإعلام مَملوكَة أو "مُوَجَّهَة" أو مُقَيَّدَة، وتَظَلُّ الاتصالاتُ مَقصورةً على نطاق ضيِّقٍ في البيوت أو المقاهي أو مجالس الشاي مثلما كانت الحال تحت الأمبريالية. وغالباً ما تُختَرَق جماعات الحِوار أو تُراقَب أو تُنتَهَك.

وحتى بين أولئك الذين يَستطيعون "الرؤية"، أي يَستطيعون الحصول على الأخبار والمعلومات، فإنَّ قليلاً منهم لديهم الثقافة بحيث يُدرِكون الوقائع الاقتصادية والسياسية التي تواجَهها بلادهم ويَتَصَورون الاختيارات التي يمكن اعتبارها. تَصَوُّرُهم ضعيف حتى بالنسبة لذيل الفيل، وفي غَمرة كفاحهم في سبيل الخبز اليومي فإن قليلاً منهم لديه الوقت للتفكير والبحث عن جسم الفيل بكامله. يَهربُ كثير منهم إلى التسلية والانحراف بتأثير الغضب واليأس وخيبة الأمل في نتائج تَحررهم. شاهدتُ تجمعات من فقراء المصريين الذين أصابهم الجوع والعطالة عن العمل وسوء الصحة وخراب البيوت وفساد الحكومة، ثم يَرمون أنفسهم في نوبةِ جنونٍ بسبب لعبة كرة القدم. وهناك يَعرِفُ الحُكَّام جيداً كيف تُلهِي الألعابُ والسيرك جَماهيرَ الناس مثلما أدركَ ذلك حكامُ روما منذ زمن طويل.

وعلى الرغم من كل هذه العوائق وجميع أسباب العَمى يُفَكِّرُ حتى غير المتعلِّمين بالبحث عن سبب عدم رِضاهم، فمن الصعب تَناسي شُعورهم بعدم الرضى، فحَياتُهم مشحونةٌ بخيبات الأمل والقصور والآمال الخادعة. جَلَستُ في مقاهي الشاي وأصغيتُ إلى النقاشات الحيوية الجيدة الاطلاع أحياناً حول جُذورِ الفقر ومخالفات المسؤولين وأسباب الحرب. عادةً يلتَفُّ شريطان حول بعضهما في الحوار: الأمبريالية كسببٍ لمآسيهم، والإسلام كطريقٍ للخلاص. وهكذا فقد عَرَّجْتُ عليهما في دراستي للعالَم الإسلامي.

وماذا عن البراهمي الآخر، الشخصية التي تُمَثِّلُ الشمالَ العالمي؟ أي نحن. كيف هي حالةُ قَبضَتِنا على خرطوم الفيل، وكيف هو صَفاءُ نظرتنا إلى الفيل كله؟ منطقياً، يجب أن تكون لدينا رؤيةٌ أكثر وضوحاً وصَفاءً لأننا لم نُصَبْ بآفات وأضرار الأمبريالية، وجميعنا مُتَعلِّمون تقريباً، وليس بيننا جائع واحِد، ولدى كثير منا الوقت الكافي لمعرفة العالَم. غير أن هناك أدلة كثيرة على أننا لسنا أكثر معرفة ولا حتى لدينا اطلاع مثل أهلِ مقاهي الشاي، وذلك لأن الألم يُحَفِّزُهم ويَدفعهم بينما لا يوجَد لدينا ذلك الدافع. هُم يشعرون بعدم الأمن، بينما نَتَمَتَّعُ نحن بالأمان. هم يَشعرون بالحاجة للفَهم، بينما نستطيع نحن تَجَنُّبَ ذلك. يَشعرُ أولئك الذين يَتحدثون لغةً ثانوية بالحاجة لتَعَلُّمَ لغةً ثانية، بينما لا يَشعرُ كثيرٌ منا بالحاجة إلى ذلك لأننا نَتَحَدَّثُ باللّغةِ المُسيطِرة. يجب عليهم أن يَعرفوا عنا ويَتعلَّموا لغتنا، بينما لا نحتاج نحن لهذا القلق. لا نَستطيع التواصل باللُّغات الصعبة الآسيوية والأفريقية، بل إن قليلاً منا يشعر بالارتياح في التَّحدث باللغة الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية. حاضَرتُ مرةً في الأكاديمية العلمية السوفييتية وتَمكَّنتُ من تقديم المحاضرة باللغة الإنكليزية. لو حاضَرَ روسيٌّ باللغة الروسية في جامعة هارفارد أو ييل أو جامعة شيكاغو لما فَهِمَهُ إلا قليلٌ من الحاضرين.

لا تُفتَقَدُ الحاجة إلى التواصل فقط، بل هناك غالباً نقصٌ في المعلومات الأساسية. خلال سنوات كثيرة من الحديث مع طلاب الجامعات والمشاركين في جماعات القضايا العامة في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا، وجَدتُ أنه على الرغم من أن أكثرهم يَعرفون الأحداث التي تَدور في المناطق القريبة منهم مباشرة، إلا أن قلة منهم يَعرفون مَوقِعَ البلاد الأخرى. والمُحزِن، يبدو أن الأمريكان أقلّهم مَعرفة. انطباعاتي هذه تؤيدُها استطلاعات دقيقة. تم استطلاع روبر Roper للرأي لدى أمريكان تقع أعمارهم بين الثمانية عشرة إلى الأربعة وعشرين عاماً لصالح مجلة National

Geography أجرِيَ بين سنة 2003-2006 في وسط حرب أفغانستان ووَجَدَ أنّ تسعة من كل عشرة منا لم يَعرفوا أين تَقَع أفغانستان. وستة من كل عشرة لم يستطيعوا تحديد موقع العراق في الخريطة. ومِنَ المدهِش أنّ خمسة فقط من كل عشرة تمكَّنوا من تحديد موقع مدينة نيويورك على الخريطة.

قد يقولُ المرءُ دفاعاً عنهم أن هؤلاء الشباب يَبدؤون حياتهم المهنية الآن وليس لديهم الوقت ولا الطاقة للتَّعلم عن العالَم. إلا أن جَهلَهم ظَهَرَ أيضاً لدى بعض من هم أكبر سناً من الرجال والنساء المُستَقَرين الناجِحين الذين تم انتقاؤهم لتمثيل أمريكا كسفراء في الخارج. وفي ظُهورِهم أمام لجنةِ الكونغرس للعلاقات الدولية التي يجب أن توافق على قدراتهم وكفاءتهم، أظهَرَ بعضُهم أنهم لا يَعرفون ما هي اللغة التي يَتحدَّثُ بها أهلُ الدولة التي تم تَعيينهم إليها، ولا نوع الحكومة الموجودة فيها. ولم يَستطع أحدهم تحديد موقع الدولة التي سيُرسَل إليها على الخريطة[744].

لا يَقتَصِر الجهل على الجغرافيا، بل يمتد إلى التاريخ أيضاً، فحتى عند أولئك الذين يَعرفون الجغرافيا والقضايا الدولية بشكل أفضل، يبدو أن لديهم نوعاً من التاريخ المُعَيَّن الذي لا يَذكرون قَبلَه إلا أحداثاً قليلة. تَعَلَّمنا جميعاً في طفولتنا أن "كولمبوس أبحَرَ عبر الأطلسي سنة 1492" لا يبدو أننا نتَذَكَّر كثيراً من التواريخ غيره. عندما سُئِلَ طلابُ جامعات عن تاريخ الثورة الفرنسية، أخطَأ كثيرٌ منهم بفترة جيلٍ على الأقل. وهم أكثر دقة في معرفة تاريخ الثورة الروسية في مجال عَشر سنوات زيادة أو نقصاناً. وكل واحد تقريباً سَمِعَ على الأقل بأحداثٍ في السنوات القليلة الماضية، مثل تفجيرات 11 سبتمبر، ولكن قلة تمكَّنوا مِن تحديد تاريخ حرب فييتنام، وأقل منهم عَرفوا تاريخ حرب كوريا. وجَدتُ أن ما حَدَثَ منذ أكثر من نصف قرن بشكل عام يَغيبُ في عالَم الأسطورة. يَضَعُ بعضُ المُراقبين فترة انقطاع تَذَكُّرِ التاريخ في مجال خمس إلى عشر سنوات فقط.

والأهم من ذلك هو أن التاريخ لا يُنظَر إليه كمَسيرة أو تَتَابع يؤدي من الماضي عبر الحاضر ونحو المستقبل، بل يتم التعامل معه بشكل مجموعةٍ عشوائية من الأحداث أو المعلومات أو القصص لا تُؤثِّرُ بشكل مُهِمٍّ في الحاضر. وإذا وضِعَ في سياق مِثال البراهميين العميان، فإنّ كثيراً منا لا يُحاوِل مجرد مُتابَعَة خرطوم الفيل إلى تَلَمُّسِ جِسمه بل يَتوقَّف عند طَرَفِهِ، ونَعتَقِدُ أن الطَّرَفَ هو كل ما يُهِمٌّ فهو الذي يَلتقِطُ الطعام في النهاية. ولكن كيف يَرتبِطُ الطَّرفُ بالخرطوم ثم بالجسم هي معلوماتٌ لا نَعتَقِدُ أننا بحاجة لها. ما جَرى "في الماضي" قد انتَهى. خاطَبَ هنري فورد كثيراً منا عندما قال: "نريد أن نحيا في الحاضر، والتاريخ الوحيد الذي يَستحق اهتمام المفكّر هو التاريخ الذي نَصنعه الآن". هذا العَمى يَجعل من الصعب علينا أن نَفهم لماذا يَفعل الناس ما يَفعلونه، أو لكي نَتَصَوَّر ما يمكن أن يَفعلوه في المستقبل.

فَشِلَ الكاهِنان البراهِميان في تَصَوّر شَكل الفيل، ولم يُحاوِل أيّ منهما أن يَفهم وجهة نَظَرِ الآخر، ومَن يَعيش مِنَّا ثَرياً مرتاحاً مُتَقدماً وآمِناً في الشمال العالمي يَصعُبُ عليه أن يَرى لماذا لا يَستطيع شعبُ الجنوب أن يَفهَمَنا. ويَعتَقِدُ أغلبنا أن ما نَفعله هو الصواب، ويبدو ذلك بالنسبة لنا بديهياً: نظامُنا يعمل جيداً بينما نظام الآخرين فاشل. نحن أغنياء وهم فقراء، ولذا يجب عليهم أن يَفهَموا طريقتنا ولا نحتاج نحن إلى فهم طريقتهم. يجب عليهم أن يَتركوا ذيلَ الفيل ويَتَلَمَّسوا

خرطومه، لأن الإمساك بخرطوم الفيل هو طريق النجاح. هذه الطريقة في التفكير تُعيقُ الوصول إلى السلام والأمن الذي نَسعى إليه، ويجب أن أتَوَسَّعَ في أسباب عجزنا عن فهم شعب الجنوب العالمي.

استَخدَمتُ اصطلاح "شعب الجنوب العالمي" في هذا الكتاب لأنها كانت طريقة سهلة لكي أجمَعَ مزيج التجارب التي تَفصلهم جميعاً عن "شعب الشمال العالمي"، ولكنني أريد الآن أن أتراجَعَ قليلاً أو على الأقل أن أُضيفَ أبعاداً جديدة.

أولاً، يجب التأكيد على أننا جميعاً في الشمال والجنوب جزء من الإنسانية، فقد ولِدنا جميعاً وسنَنمو ونَكبر ونَموت في النهاية. نَشتركُ معاً في الصفات الأساسية للنوع البشري، غير أننا خُلِقْنَا في أرجاء العالَم المختلفة، ونَشَأتْ بيننا الفروق التَّطَورية الدَّقيقة التي نسميها الثقافات، وسِماتُ الثقافاتِ مُختَلِفَة. تَتَّخِذُ الأحداثُ المعاصِرة معناها في سياق الثقافة، وتَتَشَكَّلُ بالتفاعل مع الذكريات والمُعتقدات والتجارب. وبهذه الطريقة تَبرز وجهة نظرنا وبالتالي قدرتنا على التَّعاطف مع الآخرين وفَهمهم. حاوَلتُ في هذا الكتاب تَوضيح هذا المزيج من الذاكرة والعقيدة والتجربة في العالَم الإسلامي. شَعرتُ أنه من الضروري تَوضيح هذا المَزيج الخاص من الذاكرة والعقيدة والتجربة لدى شعوب العالَم الإسلامي بالضبط لأن لديهم تَصَوراً عن العالَم يَختلفُ كثيراً عنا في الشمال العالمي.

من المفارقة ولكن من المنطقي أيضاً أنَّ واقِعَ تَمَكُّنِنَا مِن تَجَنُّبِ التَّعَرُّضِ لأضرار الأمبريالية، ومَعيشَتنا بأمانٍ نسبي، وعدم تَعَرضنا في ذاكرتنا الحديثة للمَجاعات والأوبئة، جَعَلَ فَهْمَ شعوب الجنوب أَصعَبَ علينا مما لو كنا قد اشتَرَكْنَا معهم في هذه التجارب. ومثلما لا يستطيع أغلبنا التَّحدثَ بلغات الجنوب العالمي لأننا لا نحتاج إلى ذلك، وليست لدينا حَساسية للمآسي التي تَعَرَّضَتْ لها الشعوب الأخرى لأن المجتمع الأمريكي لم يَتَعَرَّض إلى حربٍ في أرضه منذ الحرب الأهلية. خُضنا حروباً ولكنها كانت كلها في أراضي الأخرين وليس في وطننا. مَنَحَنَا بُعْدُنَا شُعوراً بالأمن والأمل بالمستقبل وحتى الأفضَلية المَبدئية. يَعتَقِدُ بعضنا أننا "مُمَيَّزِين"، ولا نستطيع أن نَفهَم مُعاناتهم ولا توجَدُ عندنا حاجةٌ لمُحاوَلة ذلك الفَهم.

يتَّضِحُ عدم الفَهم وعدم التَّعاطف أكثر ما يمكن في الدِّين. كما بَينتُ في هذا الكتاب، حَرَّضَ الهولنديون على الحرب في إندونيسيا بعدم حساسيتهم للمعتقدات الدينية عند السكان المَحَليين. ولم يَتَكَلَّف الضباط البريطانيون في الهند عَناء تَطمين الجنود الهندوس والمسلمين بشأن أمرٍ يُنافي دِياناتهم عند إدخال أسلحةٍ جديدة مما أدَّى إلى ثورة الجنود الهنود الكبيرة. كما ذَكَرتُ عَدداً من الأمثلة الأخرى من آسيا الوسطى إلى أفريقيا الوسطى.

يبدو لي أن "الدِّين" يجب ألا يُعتَبَر مسألةَ عقيدة فقط، إذ تُعَلِّمُنا الدراساتُ الدينية أنّ الأديان التوحيدية الثلاثة الكبرى تَشتَرِكُ في أجزاء كثيرة مِن عَقائدها الأساسية. الإسلام واليهودية قريبان من بعضهما بشكل خاص. يُعَلِّمُنا التاريخ أن الناس مُستَعدون للقتال حتى الموت بشأن النقاط الدقيقة.

ولكن الدِّين هو أيضاً نوعٌ من الرَّاية التي تتجمع تحتها قوى مختلفة. ومع مراعات تنوعاتها التي نُسَميها سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو عِرقية، إلا أنها في خِضَمِّ الأحداث الجارية تتقاربُ في

أنظمةٍ واحدة من الإيمان. وهكذا كان الأمر تحت راية الإسلام حيث وجِدَتْ وحدةٌ عامّة واختلافات خاصة، يَقينٌ مُطلَقٌ وشَكٌّ مُنتَشر، رغبةٌ في التأقلم ورفضٌ للاندماج.

أخرَجَ الإسلام طريقةً للتسامح الداخلي والخارجي، إلا أن نظامه في قبول الاختلاف يَخضَعُ الآن لتَوَتُّرٍ كبير. كيفيةُ التأقلمِ مع التَّنَوع أصبَحَتْ قضيةً رئيسية في التَّفاعل المُعاصِر بين شعوب الشمال والجنوب. وهي قضيةٌ لا يَتحَسس لها كثيراً أولئك الذين لديهم قوة أعظم.

عدم الحساسية للثقافات، التي تتداخل كثيراً مع الدِّين، أدّى مِراراً إلى بُروزِ مواقف عنصرية. لم يُعتَبر السكان المَحَليون بَشَراً بشكل عام في ظِلِّ الأمبريالية. وَجَدَ زعيم ديني مسيحي انكليزي في الهند البريطانية أن رعاياه اعتَبَروا الهنودَ "بهائم". ولم يُمنَح حتى كبار المسؤولين الهنود حَقَّ الجلوس على كراسي وكان عليهم المَشي إلى مواعيدهم مع صغار المسؤولين البريطانيين. عندما ثارَ الهنودُ باسم الدِّين، اندفَعَ البريطانيون وراء مشاعرهم العنصرية وفَجَّرُوا بَعضَهم إرَباً على فوهات المَدافع، وشَنَقوا أو أطلَقوا النارَ على عشرات الآلاف، ودَمَّروا عشرات القرى. وفي الجزائر كان التَّعذيبُ مقبولاً لأن السكان المَحَليين لم يُعتَبروا بالضبط بَشَراً. لم تكن شخصية كورتز Kurtz عند جوزيف كونرادJoseph Conrad وحدَهَا غير إنسانية، بل كنا جميعاً ننظُرُ بغباءٍ إلى الغرباء وكأنهم كائناتٌ في حدائق الحيوانات.

أجِدُ أنّ هذا السلوك مزعجاً بشكل خاص عند الكاتب الفرنسي ألبير كامو Albert Camus الذي جَرَّبَ بنفسه ذُلَّ الاحتلال النازي لفرنسا. ولم يُظهِر أيّ تأثُّرٍ بأعمال أسوأ ارتَكَبها الفرنسيون في الجزائر. زُرتُ عدة معسكرات اعتقالٍ بَناها الفرنسيون وحَشُوهَا بالجزائريين، وكان كثيرٌ منهم أطفالاً. لم يكن لديهم غرفات غاز، ولكنها فيما عدا ذلك كانت تشبه معسكرات النازيين في داخاو Dachau وبوخنفالد Buchenwald. كانت هذه المعسكرات مقبولةً لفرنسيٍّ تَعَرَّضَ للأذى شخصياً تحت القَمع النّازي، حتى لو كان إنسانياً مثل كامو، وذلك لأنّ شعبَ الجنوب العالمي كان يُنظر إليهم ليس كأفراد من بني الإنسان، إنما كفئاتٍ أو جماعات. يُعَلِّقُ الكاتب المَغربي كامل داوود في دراسته النقدية لرواية كامو: مورسو تحت التحقيق Meursault, contre-enquete أنّ كامو يَستخدم كلمة "عربي" خمس وعشرين مرة دون أن يُسَمّي الشخصَ أبداً[745].

يتَحَدَّثُ كامو عنّا جميعاً. لا تُثير تقارير مَوت آلاف مِنَ الناس في الجنوب العالمي انتباهَنا كثيراً، بينما نَعتَبر مَوتَ فردٍ واحدٍ في الشمال العالمي مأساة. أعتَقِدُ بأنه ما لم نَعتَبر كلا الحادثتين مأساةً فلن نَجِدَ السلام ولا الأمن.

كانت أعمال الأمريكان في الفلبين وفييتنام في مثل قسوة أعمال الفرنسيين. يُقال عادة: "الآسيويين لا يَشعرون بالألم". تَفَوَّقَ الأمريكان في صياغة أسماء مُهينة للسكان المَحَليين. لم يَجِد الإسرائيليون بعد خروجهم من مأساة المَحرقة النازية تناقُضاً في تدميرهم المجتمع الفلسطيني وتَهجيرهم حوالي المليون فلسطينياً من بيوتهم، وقد استطاعوا فِعلَ ذلك جزئياً بسبب ما عَبَّرَتْ عنه رئيسة وزرائهم غولدا مائير بقولها: "لا يوجَدُ شيءٌ اسمه فلسطينيون"، ويُوافِقها كثيرٌ من الإسرائيليين على ذلك.

تَجاهُلُ شعب الجنوب العالمي يَصُبُّ في قلب التَّناقض بين الأمبريالية والتأكيد على الإنسانية الشاملة. يَشمَلُ هذا الموضوع أحداثَ القرون الثلاثة الأخيرة، خاصة في أفريقيا وآسيا، ليس فقط بالنسبة للمسلمين، ولكن فيما يتعَلَّقُ بهم بشكل خاص. وإنّ المَيل الأوروبي إلى تَجاهل إنسانيةِ الضعفاء هو العَمى بِعَينِهِ. وَصَفَها شكسبير ببلاغةٍ على لسان شخصية شايلوك بالنسبة لليهود في مسرحيته "تاجر البندقية" (الفصل الثالث، المشهد الأول):

أليس لليهودي عينان؟ أليس لليهودي يدان؟ وأعضاء

وأبعاد، وحواسّ، ومشاعر، وعواطف،

ألا يَتغَذّى بالطعام ذاته، ويَتأَذّى بالسلاح نفسِه،

ويَصاب بذات الأمراض، ويَشفى بذات الدواء،

وتُدفِئهُ شمسُ الربيع، ويذويهِ بَردُ الشتاء،

كما هي حال المسيحي؟ ألا نَنزفُ لو طُعِنّا؟

ونَضحكُ إذا تَدغدَغنا؟ وإذا شَرَّبْتَنا السُمَّ، ألا نَموت؟

وإذا أَسأتَ إلينا، ألا نَنتَقم؟

إذا كنا مثلكم في ذلك، فسوف نكون مثلكم في هذا،

إذا أساءَ يهوديٌّ إلى مسيحي، فما سيكونُ مَطلَبُهُ؟ الانتقام.

إذا أساءَ مسيحيٌّ إلى يهودي، فما الذي سيُعاني منه كالمسيحي؟ الانتقام أيضاً.

النَّذالةُ التي تُعَلِّمُني، سأفعَلُ مِثلَها.

تَعَلَّمنا ببطءٍ التعامل مع اليهود حسب نصيحة شايلوك، ولكن ليس مع المسلمين حتى الآن. ربما يَرجِعُ ذلك جزئياً في رأيي إلى أن اليهود قد أصبَحوا أصدقاءنا وجيراننا وشركاءنا، فيما عدا استثناءاتٍ مرعبة في أوروبا، بينما ظَلَّتْ شعوبُ الجنوب بعيدة عن أنظارنا.

لم نَنتَبه نحن الأمريكان إلا حديثاً لشعوب الجنوب المَوجودين عندنا، رفاقنا المواطنين الذين قاسوا من ظروفٍ تشبه التجارب التي تَعَرَّضَ لها كثيرون في أفريقيا وآسيا. عندما نَتَعَلَّمُ أكثر عن العالَم الأفرو-آسيوي من خلالهم، تُعَلِّمُنا تجاربهم بُعْدَاً آخر في عالَمنا. يَمنَحنا تاريخهم رؤيةً للجنوب، وليس تجربةَ الأقلية الأنكلو-سكسونية الصغيرة التي أنتَمي إليها. دَعوني أتَوسَّع في هذه النقطة لأنني أعتَقِدُ أنها مهمة لرسالة هذا الكتاب.

لم يُدرِكْ جِيلي مِنَ الأمريكيين الجنوبيين البيض أهميةَ تجربة الأمريكان "المُلَوَّنين" حتى السنوات الأخيرة من فُتُوَّتي. احتَجنا إلى وقتٍ طويلٍ جداً، وما حَدَثَ لأجدادهم لم يَحظَ بكثير من التقدير حتى الآن، ولكن ظروف الأمريكان السود أصبحتْ معروفةً الآن بشكل أفضل746.

لا يَنطَبِقُ ذلك على سكان أمريكا الأصليين الذين بدأنا نَتَعَرَّف قليلاً على تجربتهم. نشأتُ في مزرعةٍ بولاية تكساس وَسَطَ ما كان يُعرَفُ بمنطقة الكومانشي في أيام جَدّي، ولم أكن أعرف الاسم الحقيقي لهؤلاء الناس: نيمين Nemene 747، ولم يَعرف أحدٌ من معارفي أيّ شيء عنهم. عندما كنتُ أركبُ حصاني قُربَ السياج لم يَخطُر ببالي أنّ الأرض التي سَيَّجَهَا والدي وجَدّي كانت مُغتَصَبة منهم. لا أنتقد البراهمي الأعمى، فقد كنتُ مثله.

جانبٌ آخر مِنَ العَمى هو المَيل لتَجاهل الأذى الذي حَدَثَ لشعبٍ آخر. ذَكَرَ مُحَرِّرٌ لأحد الصحف الأمريكية ذات مرة أن شجاراً بين كلاب في الشارع الرئيسي أكثر أهمية من حرب في دولة بعيدة. نستطيع الارتباط بشكل فَعَّالٍ مع شعب آخر عندما نكون قريبين منهم. لدينا استعداد لمساعدة أناسٍ نَعرفهم أو يمكننا رؤيتهم، ويَستطيع الصليب الأحمر أن يَجمع تبرعات وفيرة لمساعدة الفقراء من جيراننا، أما برامج المساعدة الأمريكية في الخارج فتكون مخبأة ضِمن ميزانيات وزارة الدفاع، والدَّافع لإعطاء المال لم يكن لمساعدة الأفريقيين والآسيويين، بل لحماية أنفسنا منهم، على الأقل كان ذلك هو الدافع الذي شَجَّعَ ممثلينا في الكونغرس خلال عَملي في خدمة الحكومة.

البُعْدُ الجغرافي والثقافي يَمنَحُنا القدرة على التماس العُذْرَ لأنفسنا عندما نُؤذي شعباً آخر بقَصدٍ أو مِنْ غير قَصد. سألتُ بعض الطيارين الشباب خلال حرب فييتنام كيف تَعاملوا مع إحراقهم القرويين وهم أحياء بقنابل النابالم؟ رَدُّوا باستِهجَان: لم تكن سوى حرب. لم يكن هنالك أي فرق فيما إذا كان الذين تَعَرَّضوا لموتٍ مُرعِبٍ أطفالاً وشيوخاً أم جنوداً. ولكن عندما سألتُهم فيما إذا كانوا يَستطيعون سَكبَ النابالم على شخصٍ قريب منهم وإشعالَ النار فيه، فإن مجرد الفكرة أرعَبَتْهم. نَستطيع كلنا أن نَفعَلَ من بعيد ما لا نَستطيع فِعله مِن قَريب.

يَنطبق هذا المَيل الطبيعي في تَركيز هَدفِنا على أفراد أم جماعات. فنحن نَضَعُ وجوهاً على مَن نَرتبط بهم، بينما الناس بلا وجوهٍ هم مجرد أرقام. وكما يُقال: صورةٌ أبلَغُ مِنْ ألفِ كلمة. وإنَّ صورةَ شخصٍ واحدٍ تَنبضُ بالحياة، بينما تَقريرٌ طويلٌ عن مآسي أو مَوت آلافٍ لا يُحَرِّكُ فينا شُعوراً أو إحساساً. أجِدُ أنَّ هذه سِمةٌ للناس في كل مكان. صورةُ طفلةٍ تَجري على الطريق مَحروقةٍ بالنابالم ربما سَرَّعَتْ إنهاءَ حرب فييتنام. لم يتأثر كثير منا قَبلَ ذلك بتدمير قرى بأكملها ومَوت مئات الآلاف.

تؤدّي هذه السِّمة كذلك إلى خَلقِ نقاطِ ضعفٍ قد تُستخدَم ضدنا. فمن ناحية، قد نَصابُ بالصدمة، وتلك صدمةٌ مقصودة، عندما يَقتُلُ انتحاريٌّ اثنين أو ثلاثة من "أهلِنا". يأمل أولئك الذين يقومون بهذه الهجمات بإقناعنا لكي نَنسَحب أو يَدفَعوننا للقيام بأعمال ضد مصالحنا أو إلى هَزيمة ذاتية. ولكن، من ناحية أخرى، فإن عدم حساسيتنا لمَوتٍ جَماعي بعيد يَجعَل الدخول في الحروب

والقيام بها مُمكِناً. ربما قُتِلَ في العراق مليون شخص، ومات في أفغانستان طفلٌ على الأقل من كل خمسة قَبلَ أن يبلغ الخامسة من العمر. وبالتالي، فنحن مُعَرَّضون للمُضاربة بين طَرفين: أعداؤنا الذين يَعتقدون أننا سنَرتَدع بالهجمات الإرهابية، وقادَتُنا الذين يُقرِّرون أننا مُستعدُّون لتَحَمُّلِ موتٍ غير مَحدودٍ ودَمارٍ بلا حدود.

عندما يتم القَتلُ بطائراتٍ خَفِيَّةٍ دون طيار يَتحكَّم بها "طيارون" على بعد آلاف الأميال من الهَدَف، فلا يوجد أي تماسٍّ واضِحٍ. ويُقال لنا الآن أن صناعاتنا الدفاعية تُجَرِّبُ الآن آلاتٍ قاتلةٍ ذاتية تستطيع اتِّخاذ قرار الحياة أو الموت من بعيد وبدون تَدَخُّلٍ إنساني.

الفصل الرابع والأربعون

ماذا فَعَلَ الشمالُ في الجنوب

ذكرياتُ الأمبريالية عميقة، وقد ساعدَتْ على خَلْقِ كثير من مآسي ومخاطر عالمنا المُعاصِر. لا نُقدِّمُ خدمةً لأنفسنا بتناسي النَّدبات، وبدلاً من إخفائها فقد اتَّبعتُ اعترافَ المُحارِب الكبير دوق ويلينغتون الذي طلَبَ من الفنان الذي كان يَرسم صورتَهُ أن يُبَيِّنَ "كل شيء حتى الثآليل".

تُبَيِّنُ قصتي كثيراً من الثآليل، بدءاً من فترات مختلفة بعد إبحار كريستوفر كولومبوس عبر المحيط الأطلسي، وبعد أن أبحَرَ البرتغاليون ساحل أفريقيا الغربي، كانت أعمال الشمال العالمي تَدميراً بشكل عام وأحياناً إبادة جماعية. اندَفَعوا نحو الجنوب يُحطِّمون الدولَ المَحَلية ويَقلبون المجتمعات ويَقمعون الأنظمة الدينية.

الإذلالُ الجماعي والمَجازر التي قام بها الأمبرياليون مازالت حَية هذه الأيام عند أحفاد الضحايا على الرغم من أنها نُسِيَتْ تقريباً من جهة مرتَكبيها. أَخَذَتْ أمريكا مكانَها في المهرجان باحتلال الفلبين من القوة الاستعمارية الإسبانية. تتَذكَّرُ قلة قليلة أن أمريكا نفسها كانت جزءاً من الجنوب العالمي وأنها ثارَتْ ضد القوة الأمبريالية الأولى: بريطانيا العظمى.

خلال الثورة الأمريكية، شَرَحَ المَلكُ جورج الثالث السبب الرئيسي في ضرورة انتصار البريطانيين على المستوطِنين: استغلالُ امبراطوريتها هو الذي جَعَلَ انكلترا قوةً عظمى. وإذا سَمَحَتْ للمستوطنين بالانفكاك عن احتكارها للتجارة فإن: "هذه الجزيرة ستَتَقلص إلى ذاتها وسرعان ما ستُصبحُ جزيرةً بالفعل... إذا سُمِحَ لأي فرعٍ من الامبراطورية بالحصول على استقلاله... سيَتبع مِثاله الآخرون حتماً، وستُهدَمُ الدولة"[748].

كَرَّرَ هذا الانطباع بعد ذلك بقرن من الزمن الأمبريالي الإنكليزي الكبير جوزيف تشامبرلين Joseph Chamberlain: "لو كان تصغير الامبراطورية البريطانية إلى المملكة المتحدة ممكناً بِجَرَّةِ قَلَمٍ غداً، مثلما يَوَدُّ بعض الناس، سيَجوع نصفُ شعبنا على الأقل"[749]. خَشِيَ الأمبرياليون أن انكلترا بلا امبراطوريتها ستُصبح فقيرةً بين الأمم.

يمكن تجاوز مثل هذه المخاوف عادة، ولكن عندما تم تحدي فكرة الأمبريالية، تم إخفاء سبب وجودها بشكل أفضل. كانت طريقة إخفائها واضحة، يجب ألا يبدو الاستعمارُ استغلالاً، بل طريقةً لنَقْلِ الحضارةِ الغربية إلى شعبِ الجنوب العالمي من أصحاب اللون الداكن بعد تَكريمِهم. يجب على الرجال البيض أن يتَحَملوا العِبءَ مهما كان صعباً ويقوموا بواجباتهم نحو الحضارة. والأماكن التي يَعملون فيها لن تُسمى مُستعمَرات بل مناطق "انتداب" و"حماية"، ويكون المسؤولون فيها أساتذة، والسكان المَحَليون طلابهم، وإذا تَمَرَّدَ الطلاب وضَلوا سيُعاقبهم الأساتذة بالطبع وذلك لمصلحتهم أيضاً.

كان على الرجل الأبيض أن يُبَدِّلَ ثقافة ومؤسسات شعب الجنوب العالمي الدَّاكن اللون لأنها تُعيقُ التَّحضُّر والتَّقدم. وإذا قاوَمَ الجنوبيون، يجب إجبارهم على قبول تنفيذ الأمر. كانت مهمة الأمبرياليين سهلةً بشكل عام. يَستطيعون أن يُطَبِّقوا مبدأ "فَرِّقْ تَسُدْ"، ويَستطيعون الرشوة والإغراء، وكانت لديهم الإدارة والمَهارة مثلما سَخِرَتْ رسائلُ الكاتب الإنكيزي-الفرنسي Hilaire Belloc "مهما حَدَثَ، فلدينا مدفَع مكسيم الرشاش الذي ليس لديهم".

لم يَشعُر أهلُ الشمال العالمي في عصر الأمبريالية بأيّ نَدَمٍ على قَمع أو تَجويع أو قَتلِ شعبِ الجنوب، وبَرَّروا أعمالهم، عندما كان التَّبرير مفيداً أو لازماً، بتصريحاتٍ تثير فينا الرعب هذه الأيام، مثل قولهم أن الآسيويين والأفريقيين "لا يَشعرون بالألم"، وأنّ "اللغة الوحيدة التي يَفهَمونها هي لغةُ القوة"، أو "أدمغةُ الرجال السود تختلف عن أدمغة البيض"، أو أنهم "متَعَصِّبون ومتَطَرِّفون" أو "لا يؤمنون بالقانون والنظام"، أو "لا يمكنك أن تَثِقَ بالسكان المَحَليين"، أو "إذا أكرَمْتَهم ودَلَّلتَهم... فسيُفسِدون أنفسهم". يُفَسِّرُ هذا السلوك ويُبرر العنف، وكلما قَلَّتْ معرفة الأجانب عن السكان المَحَليين، أي كلما قلَّ تصورهم أن السكان المَحَليين هم إخوةٌ في الإنسانية، زادَ احتمال استخدامهم للعنف. لا يحتاج الطغيان إلى تَعلُّمِ لغاتٍ أجنبية صَعبة أو تقدير ثقافات غريبة، مثلما كَتَبَ حاكِمُ بومباي البريطاني سنة 1875 "نحن نُمسِكُ الهند بالسيف".

عندما كنتُ يافعاً أعملُ في مزرعة، كانت الهند البريطانية بعيدة عن خيالي، ولكنني استَفَدتُ من خطأ كولومبوس عندما ظَنَّ أن سكان أمريكا الأصليين هم من الهنود. فقد كان لدي "هنودي" أيضاً الذين عَرفتُهم في جامعة زماننا العظيمة: السينما. تعلمتُ ما عَرضَتْهُ هوليوود، فعَرفتُ أنّ سكان أمريكا الأصليين، أي شعبُ الجنوب في أمريكا، كانوا جاهزين دوماً لسَلْخِ فَروةِ رأسِ البيض الأبرياء. ولحسن الحظّ فقد كان فرسان الفرقة السابعة يهرعون دائماً للإنقاذ والقيام بمهمة "الحرب على الإرهاب".

الحربُ على الإرهاب ليست جديدة، فقد كَبرتُ معها. ولم تُلَمِّح السينما بَعضَ الشيء إلى الحقيقة إلا بَعد طفولتي بوقتٍ طويل. لم أعرِفْ ما حَدَثَ فعلاً لسكان أمريكا الأصليين إلا بعد الخمسين من عمري. عَرفتُ بعدئذ أن الكومانشي الذين مِنَ المُفتَرَض أنهم يَقتلون بِدَمٍ بارد كانوا في الحقيقة أفراداً في أمّة-دولة مُتَطورة كانت لديها تجارة واسعة ومارَسَتْ دبلوماسيةً معقَّدةً مع أممٍ أخرى من سكان أمريكا الأصليين وحتى مع المستوطِنين البيض، إلا أنهم وَقَفوا في وجه المستوطِنين ولذلك تم تَخفيض عَددهم إلى الرُّبع خلال القرن التاسع عشر على يد فرقة الخيالة

السابعة وحرَّاس تكساس. دفَعَتْ حكومتُنا جائزةً لفَروةِ رأسِ الكومانشي (يُقال أن كثيراً من الفلاحين المَكسيكيين الفقراء دَفَعوا حياتهم ثَمَناً لجَشَع صَيادي الجوائز). عندما استَسلمَ مَن بَقِيَ مِنهم على قيد الحياة، فُصِلَت النساء والأطفال عن الرجال الذين تمَّ نَفيهم، و"اختَفى" مجتمع الكومانشي[750].

علَّمَتْنَا السينما أنّ أسوأ أمريكي أصليٍّ كان الإرهابي المُخيف جيرونيمو الذي اجتَاحَ السهول الغربية وهو يُدَمِّرُ مستوطَنات البيض ويَذبَحُ الرجال والنساء والأطفال. كان يُجَسِّدُ قوى الشر والتَخلف والتَّوحش. أما جيرونيمو الحقيقي فكانت تُرافِقُهُ عصبةٌ لا يزيد عدد رجالها عن أربعين محارِباً خاضوا مدة عشرين سنة من عملياتٍ ذكية تكتيكياً وعنيفة ولكنها كانت دائماً دفاعية وبلا أمَل ولا جَدوى ضد أمبريالية البيض. كان فَهمُ جيرونيمو للإرهاب مختلفاً جداً عن فَهمِ المستوطِنين البيض، وهي دائماً كما يُقال: "المُقاتِلُ في سبيل الحرية مِن وجهة نظرٍ، إرهابيٌّ من وجهة نظر أخرى". كان جيرونيمو سَيَفهَمُ مقاوَمَةَ المُحارِبين الكبار في أفريقيا وآسيا، وسَيَفهَمونَهُ أيضاً.

ربما يَعرِفُ الأمريكان شيئاً قليلاً عن سكان أمريكا الأصليين، ولكننا مَعرِفَتنا أقل بكثير عن المجتمعات الأخرى. تَحدَّثتُ عن سكان أمريكا الأصليين لكي أوضحَ أن تاريخ آسيا وأفريقيا ليس غريباً مثلما تُظهِره الأسماء والجغرافيا واللغات. وكما عَبَّرَ عن ذلك الشاعر الإنكليزي جون دون John Donne: كُلُّنا "جُزءٌ مِنَ الكلّ". يمكن استنتاج هذه الرسالة من هذه الشريحة من تاريخ العالَم:

لا نَتَذكَّرُ نحن شعب الشمال العالمي كثيراً عن عصر الأمبريالية، ونَنسَى كثيراً مما فَعلناه "نحن" "بِهم"، هذا إذا كان ذلك مَعروفاً أصلاً. ذَكَرتُ أن شعب بلجيكا، ربما كأكثر مَثال مُرَوِّع، كانوا يَظنون أنهم يُساعدون في تَقدُّمِ الكونغو ويُفيدون شعبَها الأفريقي، غير أنهم لم يَبدؤوا إلا في السنين القليلة الماضية في تَعريف أنفسهم عما تم فِعله باسمهم هناك وعَرِفوا أنَّ مَلِكَهم ليوبولد قامَ بمَحرقةٍ قُتِلَ فيها أكثر من ضعف من قُتِلَ في مَحرقة النازيين لليهود والغَجَر التي كانت أبشَعَ أحداث تاريخ أوروبا الحديث. كان أدولف هتلر مُبتَدِئاً بالنسبة لليوبولد. لم يَستخدِمِ البلجيكيون غرف الغازات السامة بل ذَبَحوا في قرية إثر قرية عَشرة إلى خمس عشرة مليون كونغولياً. ولم يُعرَف عددُ الآخرين الذين جَعَلوا منهم أُمثولة بقطع أيديهم أو أرجلهم لأنهم فشلوا في انتاج البضائع التي طُلِبَتْ منهم.

يُصَوِّرُ جوزيف كونراد Joseph Conrad في روايته "قلب الظلام" بعض فظائع الكونغو في عهد ليوبولد. غير أن الكونغو لم تكن سوى البداية. حاوَلَ ليوبولد إقناع البريطانيين مَنحَهُ أو تأجِيرَهُ جميع مناطق السودان جنوب الخرطوم. رَفَضَ البريطانيون، ليس بسبب تعاطفهم مع رفاقهم من السكان المَحَليين بل على أساس استراتيجيتهم في أفريقيا. كما أرسَلَ ليوبولد عملاء لإقناع الطليان بالتنازل عن إرتريا "وجميع مناطق نفوذهم في الحبشة حسب المعاهدة الأنكلو-إيطالية سنة 1891 إلى اللجنة الكونغولية للاستعمار والاستغلال"[751]. ولم يَقبَل الطليان لحسن الحظ. ولو حَدَثَتْ

أيّ من هذه التحركات لكان من المؤكد أن التدمير والقتل والرعب الذي طَبَّقَهُ ليوبولد في أفريقيا سيتَضاعف.

طبَّقَ الهولنديون نظاماً استعمارياً على السكان المَحَليين في جافا، وعندما حاوَلوا الحصول على استقلالهم، قَتَلَ الهولنديون حوالي ثلاثمئة ألف "متمردٍ" في الفترة 1835-1840. وقاموا أيضاً بقَمع "المتمردين" في سومطرة في 1873-1914. وبعد خمس عشرة سنة من الحرب المَريرة في الجزائر التي بَدأت بالغزو الفرنسي سنة 1830، سَرَقَ الفرنسيون الأراضي الزراعية من السكان المَحَليين وأحرَقوا مئات القرى وقَتَلوا أعداداً مجهولة من الجزائريين، وفَرَضوا نظامَ فصلٍ عنصري على مَن بَقي منهم حَياً. وفي آسيا الوسطى، وَصَفَ ليو تولستوي في قصصه ورواياته كيف احتَلَّ الروس وأفقَروا وهَجَّروا مجتمعات كانت مُزدَهرة قَبلَهم في حربهم القاسية في القوقاز، وقَضوا عملياً على مجتمعات كاملة، ثم خَاضوا في القِرم ما احتاج إلى صياغة اصطلاح جديد لوصف الجريمة: "الإبادة العِرقية". لم يُدَمِّر الصينيون عملياً مجتمعاً كاملاً، بل قَضوا تماماً على شَعبٍ بأكمله، ولا يكاد يُذكر حتى اسم ذلك الشعب: الزونغهار، (وذلك مثل أسماء كثير من سكان أمريكا الأصليين). قَتَلَ الفاشيون الطليان في ليبيا حوالي ثلثي السكان. وفي الهند، بعد محاولة ثورة الجنود الهنود سنة 1857، قامَ البريطانيون بالقضاء على الامبراطورية المُغولية، وجَوَّعوا، واستَعبَدوا عملياً، ونَقَلوا باسم "عَمالَة السُّخرة" مئات الآلاف من فقراء الهنود إلى مستعمراتهم الأخرى، وخلال الحرب العالمية الثانية بقرارٍ شخصي مِن ونستون تشرشل قاموا بالتَّجويع حتى الموت لحوالي ثلاثة ملايين هنديّ. وبالمجموع العام، ربما كان البريطانيون مسؤولين عن تَجويع أكثر من خمسة وثلاثين مليون هنديّ[752].

يَصعبُ نسيان المَحارق، مثلما قال اسحاق شامير اليهودي الإرهابي/مقاتِل الحرية الأشهَر عن المَحرقة الأوروبية أنه لن يَنسى ولن يُسامح. وقد بَذَلَ المجتمعُ اليهودي وإسرائيل جهداً كبيراً يمكن فهمه للتأكد مِنْ أنَّ أولاد وأحفاد الضحايا والنَّاجين (مِنَ المَحرقة) لن يَنسوها. لم يَنجَح ضحايا الأمبريالية من الأفريقيين والآسيويين في المحافظة على ذكريات مَحارقهم مثل اليهود، ولكن لا يوجَد أي شك بأنها قوة دافعة وراء القاعدة وداعش. حتى بين الغالبية العُظمى من المسلمين الذين يُعارضون الأصولية العنيفة، فإن ذكريات الأمبريالية ما زالت تُسمَعُ أصداؤها. سواءً تذكرناها أم لا، فإن شعب الجنوب العالمي يَذكرها.

دفَعَ البريطانيون في الهند ومصر والفرنسيون في الجزائر الشعوبَ التي غَلبوها إلى البؤس. ذَكَرتُ المُراقِب المُبكر الحَادّ للشعب الأمريكي ألكسيس دى توكفيل في تَعليقِهِ على انحدار مستوى معيشة الجزائريين تحت الحكم الفرنسي. طَبَّقَ البريطانيون في الهند ومصر السياسةَ نفسها في أقسى "نَزعٍ للتَّصنيع" تم تسجيله: كانت سياستهم المُعلَنَة هي تدمير الصناعة المَحَلية لفسح المجال أمام مُنتَجاتهم. في البحث عما فَعلوه في الهند وحدَها، قَدَّرَ كاتبٌ هندي معاصر أن التعويضات المُقَدَّرَة بعملةِ هذه الأيام تبلغ ثلاثة تريلونات من الدولارات[753].

كان استخراج البترول والمَطاط والقصدير وغيرها من "الموارد الأولية" وتَثبيط الصناعات التحويلية المَحَلية قوى دافعة في العلاقات الشمالية-الجنوبية خلال أغلب فترة القرن الماضي، إلا أن الذاكرة المؤلمة حقاً هي في المَذَلَّة. نَعرِفُ من تَجربتنا أنَّ الإحساس بالضعف وعدم القدرة على الدفاع يؤدي في أغلب الأحيان إلى العنف. وَصَفتُ تلك النتيجة في هذا الكتاب عبر آسيا وأفريقيا. يَميلُ الناسُ لإلقاءِ أنفسِهم في غَمرة النزاع حتى عندما تكون اندفاعاتُ الغضب انتحارية، كما هي الحالة غالباً. وعندما يُقضَى عليهم، يَحِلُّ مَحَلَّهم آخرون. اليأسُ والغضب والمَذَلَّة تَتَوارى خَلفَ فَوراتِ العنف المَتَكَررة بين الفلسطينيين حسبما كتَبَ يوري آفنري المُعَلِّق الإسرائيلي المميز:

"خلال المئتي سنة الأخيرة، كان العالَم العربي مُعَرَّضَاً للمَذلة والقَمع. وربما تَصَلَّبَت المَذَلَّة في روح كل طفل وفتاة عربية أكثر من القَمع. أُعجِبَ العالَمُ كله ذات مرة بالحضارة العربية وعلوم العرب، فخلال عصور الظلام الأوروبية ذُهِلَ الغربيون البرابرةُ بالثقافة الإسلامية. لا يَستطيع شابٌ عربي أن يَتَجنَّبَ مقارنةَ عظمة ماضي الخلافة بسوء الواقع العربي المعاصر، الفقر والتخلف والضعف السياسي... هناك خزانٌ هائل مِنَ القهر يتصاعد في العالَم العربي لا تَراه ولا تُلاحظه القوى الغربية"[754].

بتَغيير مِثال البراهميين العميان قليلاً، يمكننا القول بأن الذَّيل الصغير يَتذَكَّرُ أيامَ كان خرطوماً عظيماً. ذكرياتُ الأيام العظيمة عندما كان المسلمون زعماء الحضارة العالمية مازالت تَرُنُّ أصداؤها في المجتمعات الإسلامية وتؤثِّر فيما يَعتقِدُ المعاصِرون أنه ممكن وعادل ومُهِمٌّ في حياتهم. وكلما أحَسُّوا بالخطر ازدادَ شُعورُهم بالحاجة لتَذَكُّرِ الأيام المَجيدة. كان التَّركيز على تلك الذكريات المُريحَة مُنتَشِراً في أعماق فترة الأمبريالية، والآن أصبحَ يسبب العَمى. عند تطبيقه على انفجار القاعدة باستلهام أسامة بن لادن، ذَكَرَ مكتبُ المخابرات والبحث في وزارة الخارجية الأمريكي في تقدير موقف بتاريخ 28 أغسطس 1998 أن "مشاعر الظلم وشُعور الضَّحية والقناعة المتزايدة لدى النخبة العربية والجماهير أن سياسات أمريكا تَدعم الأنظمة الفاسدة وتُفضل إسرائيل وتُخطط لتَقسيم وإضعاف واستغلال العالَم العربي هي في جذور نظرة العرب السلبية للسياسة الأمريكية. يَركَبُ بن لادن هذا المَدَّ في الرأي. وعلى الرغم من أن قليلاً من العرب يؤيدون إرهابه، إلا أن كثيراً منهم يُشاركونه على الأقل في مشاعره السياسية"[755].

يَظهَرُ شُعور المذلة بطرق عديدة في أماكن مختلفة، لعلَّ أشهَرها كان في الجزائر. ناقَشَ الجزائريون والفرنسيون كثيراً قضية التعذيب في الثورة الجزائرية. يُشيرُ إليه بعضُ الكتاب الفرنسيين بأنه "سرطان الديموقراطية". ربما كان التعذيب أسوأ جوانب الحرب، ولكن الفرنسيين قَتَلوا أيضاً حوالي ثلاثمئة ألف جزائري. وربما كان الشعور بالمَذَلَّة أكثر مَرارة. اعتقَدَ فرانز فانون، طبيبُ الأمراض النفسية المفكّر الفرنسي من جُزر المارتينيك، في كتابه "مُعَذَّبو الأرض" أن الأمة الجزائرية بأسرها تَأَذَّتْ بأهوال الاحتلال الاستعماري وسنوات الحرب[756]. تَجاهَلَ بعضُ الأوروبيين والأمريكان ملاحظته على أنها جَدَلِيَّة، غير أن هناك أدلةً لتفسير استنتاجاته، وبشكل خاص في سلسلة من الصور. لوضعها في السياق على المرء أن ينطلِقَ من إدراك أنه في

المجتمعات البربرية والعربية فإن واجب الرجل هو حماية حياة وشرف أسرته، إلا أن ظروف الحرب جَعَلَتْ ذلك مستحيلاً بشكل خاص بالنسبة للنساء في القرى البعيدة حيث كُنَّ بلا أية حماية من الوحشية المتَعَمدة للجنود الأوروبيين في الجيش الفرنسي والفرق الأجنبية. هناك صور كثيرة ربما التقطها الجنود أنفسهم تُظهِرُ فتيات صغيرات جزائريات يتم تفتيشهن بالأيدي، ربما قُبيل اغتصابهن. لا بد أن ذلك حَدَثَ مئات أو آلاف المرات التي لم تُسَجَّل أيضاً. ربما قُتِلَ آباؤهن أو اعتُقِلوا، إلا أن عارهنَّ وضَعفهنَّ ومَذَلتهنَّ حَمَلها ملايين الجزائريين طويلاً بعدما وَضَعَت الحرب أوزارها. ربما كان شعور العَجز أمام القوة هو الذي أدرَكَ فانون أنه المفتاح الأساسي في دمار الشخصية الجزائرية.

بغضّ النّظر عن فانون، فقد سَمعتُ مراراً في أفريقيا وآسيا التهمة بأننا نحن الشماليين لدينا ازدواجية فيما يتعلق بالعِرق والدِّين، عندما يَقتلون "هم" أوروبياً يكون رَدُّ فِعلنا رعباً واشمئزازاً. وذلك من حقنا، فأيّ عددٍ نَستشعره في داخلنا. ولكن عندما نَقتُلُ نحن أفريقياً أو آسيوياً أو حتى عدداً كبيراً منهم فإننا لا نكاد نُلاحِظ ذلك. وكما ذَكرتُ في الفصل الواحد والثلاثين، استَنكَر كل واحد في الشمال العالمي تَفجيرَ طائرة بان أمريكان فوق بلدة لوكربي الاسكتلندية في 21 ديسمبر 1988 الذي قُتِلَ فيه 270 شخصاً، وتلك جريمة بشعة بالتأكيد، غير أن قلةً منَّا لاحظَتْ قَبلَها بخمسة أشهر أنّ صاروخاً أطلَقَتْهُ البحرية الأمريكية أسقَطَ طائرةً مدنية إيرانية في المجال الجوي الإيراني وقُتِلَ 290 شخصاً[757]. لم تَعتَذر أمريكا أبداً. المَغزى العام هو أن حياة الأفريقيين والآسيويين ليس لها قيمة. تَشملُ هذه القضية العلاقات الخارجية، ويبدو أننا نُصبح أكثر حساسية في أمريكا الآن، ويُصِرُّ عددٌ متزايد من مواطنينا على أن "حياة السود مهمة".

تهمةُ الأمبرياليين بعدم مراعاة السكان المَحَليين تَظهَرُ جزئياً في الجغرافيا، فأوضَحُ ما يَبرز في صِفات خرائط أفريقيا هو تلك الخطوط المستقيمة المُرَتَّبَة لأنها تقطَعُ عبر مجتمعات تقليدية. لا تبدو الحدودُ الجديدةُ منطقيةً بالنسبة للمَحَليين، فقد تَقَرَّرَ الصراع على أفريقيا في برلين، وقُسِّمتْ أفريقيا الوسطى في سان بطرسبرغ. وأصبحتْ إندونيسيا بريطانيةً لفترة قصيرة بسبب نابليون. وتَحرَّكَ الكازاخ إلى زونغهاريا لأن امبراطوراً صينياً في بكين أمَرَ بالقضاء على شعب الزونغهار. وأُسِّسَتْ دولُ الشرق الأوسط ليس بناء على العلاقات المَحَلية أو بمراعاة المَوارد، بل بسبب مارك سايكس وفرانسوا جورج بيكو بالنيابة عن الحكومتين البريطانية والفرنسية وتَوصَّلا إلى اتفاقية تم توسيعها فيما بعد لتَشمَلَ الروس والطليان واليونانيين. أي بالنظر إلى كل ما حَدَثَ في أفريقيا وما كان يَحدثُ في الشرق الأقصى والشرق الأوسط فإن الجنوب العالمي كان قد أخَذَهُ الشمال. إذا لم تَغرب الشمسُ أبداً عن الامبراطورية البريطانية، فإنها لم تَعدْ تُشرِقُ على كثير من مجتمعات الجنوب.

كانت الأمبريالية الثقافية أقل إثارة من الاحتلال المسلح، ولكنها كانت أعمق تأثيراً على يد الصينيين والروس والبريطانيين والفرنسيين. استَخدَمَ البريطانيون اللغة الإنكليزية لتَغيير الهنود والمصريين إلى نِسَخٍ قابلة للاستخدام من قِبَلِهِم. ومَنَعَ الفرنسيون استخدامَ الجزائريين للُغاتهم الأصلية، وأعادَ الروسُ صياغة اللغات التركية في آسيا الوسطى والقوقاز والقِرم وجعلوا أهلها غير

قادرين على التفاهم فيما بينهم. وطَبَّقَ الصينيون برامج تحويل الأويغور في حوض التاريم إلى صينيين.

لَعِبَت الموارد دوراً رئيسياً في تأسيس الجنوب العالمي. بدأ الاستغلال بالسُكَّر في القرن الخامس عشر، وسرعان ما توسَّعَ إلى القطن. دَفَعَ البترول الأمبريالية في القرن العشرين ولكنه لم يكن الهدف الوحيد للاستغلال الأمبريالي. دَفَعَ القصدير والمطاط السياسة الأمبريالية في ماليزيا، وسَعى الهولنديون وراء التوابل وزيت جوز الهند في اندونيسيا، وسَيطرَ الحصول على الأراضي الزراعية على عقول الطليان الفاشيين في ليبيا والمستوطنين الفرنسيين في الجزائر، وبَحثَ البريطانيون عن القوة العاملة في الهند من أجلِ جيوشهم وجَمعِ الضرائب لخزينتهم، وأصبَحتْ أفريقيا وآسيا أسواق وبنوك ومكاتب تشغيل لأوروبا. وأخيراً، دار الاندفاع دورةً كاملة عندما جَعَلَتْ أوروبا نفسَها مكاناً مستحيلاً لحياة اليهود فيها، وأصبَحَ البَحثُ عن مكانٍ للعيش دافِعاً للصهاينة نحو فلسطين جَعَلَ الدولة اليهودية رأس جسر للشمال العالمي.

الفصل الخامس والأربعون

ماذا فَعَلَ الجنوب لنفسه

لو لم يَنضَمَّ كثير من أهل الجنوب العالمي إلى جيوش الأمبريالية لما كانت ممكنة أبداً، ومن المؤكَّد أنها ستكون أكثر بُطأً في تَرسيخ نفسها. بدأ الإسبان والبرتغاليون هذا الإبداع. قَهَرَ هيرنان كورتيز Hernan Cortes المكسيكَ بالفولاذ الإسباني والجنود المكسيكيين، وسيطَرَ فاسكو دى غاما على المحيط الهندي بالمدفعية البرتغالية والجنود المَحَليين، وتَبعهم البريطانيون في ذلك. كانت الهند النموذج المثالي حيث تمكَّن البريطانيون من تَجنيد المَحَليين فيما كان آنذاك رابع أكبر جيش في العالَم. تَغلَّبَ ذلك الجيش بقيادة ضباط بريطانيين على دولة بعد دولة في مسيرته عبر شبه القارة الهندية إلى آسيا الوسطى. احتَفَظَ البريطانيون ببعض قواتهم في الهند كعاملِ أمان، وحتى "ثورة" 1857 كان هنالك أكثر من خمسة هنود في خدمة البريطانيين مقابل كل أوروبي. حاوَلَ الهنود "التمرد" أكثر من عشر مرات بعد 1857 ولكنهم قُمِعوا بسهولة. كان البريطانيون يَضربون بقوة كل بادرة للاستياء. وفي الواقع كانوا يَشعرون باستياءِ المَحَليين قبل أنْ تَظهَرَ بوادره ويَقومون بقَمعِ المتمردين قبل أن يُقَرِّروا ما سيَفعلونه. كانوا مُنقسِمين دينياً وعِرقياً وطَبَقياً بحيث كانت أية جماعة أصغر من أن تستطيع الدفاع عن نفسها أو تُحقِّق أهدافها.

في أفريقيا وآسيا، وكذلك كان الحال في أوروبا قَبل ظُهور الدول القومية، كان دائماً من الأرخص تَجنيد السكان المَحَليين في خدمة الأمبريالية، وكان ذلك ممكنٌ دوماً، وذلك لأنه حتى الشعوب المُتَجَاورة كانت منفصِلة عن بعضها باللغة والعادات والانتماء القَبَلي والدِّين، وكانوا دائماً مُستعدِّين بل مُتحَمسين للتعاون مع الأوروبيين الغزاة ضد جيرانهم الذين كانوا يَعتَبرونَهم أجانب. تَقَبَّلَهم البريطانيون فوراً، وكذلك فَعَلَ الأمبرياليون الآخرون. استَخدَمَ الفرنسيون في المَغرب جنود "الصباهي"، واستَخدَمَ الإسبان فرق الجنود المَحَلية، وخاضَ الهولنديون حرب آتشيه في سومطرة الاندونيسية بجنودٍ من جافا، ثم حارَبوا أهل جافا بجنودِ "الهولنديين السود" من ساحل الذَّهَب. حارَبَ الصينيون مسلمي آسيا الوسطى بالمسلمين الصينيين من مقاطعة كانسو Kansu، وسيطَرَ الفرنسيون على سورية بخمسين ألف جندي فرنسي وأربع عشرة ألفاً من الدّروز والمَارونيين والعَلويين. وفي العراق، دَرَّبَ البريطانيون وسَلَّحُوا وقَادُوا المسيحيين الآشوريين. لم يكن الروس بحاجة لاستِخدَام المَحَليين (الترك) في آسيا الوسطى أو في القوقاز لأنه كان لديهم فَيْضٌ كبير من

الأقنان المُحَرَّرين حديثاً. وعلى كل حال فقد كان هنالك دائماً جماعات عِرقية ودينية جاهزة للعمل كجنود، وكانوا أقل تكلفة من الأوروبيين، وإذا قُتِلوا لن يَسمع أحدٌ عنهم في أوروبا.

ثارَ السكانُ المَحَليون أحياناً ولكنهم نادراً ما نَجَحوا. ثارَتْ جماعةٌ من حوالي ألف رجلٍ من قوةٍ عسكرية كونغولية أُرسِلَتْ سنة 1897 لاحتلال السودان وقَتَلوا قادَتهم البلجيكيين. ثم حاوَلوا تنظيم تمرد "وطني" ولكنهم اكتَشَفوا عدم وجود أمّة مُتَضَامِنة لتنظيمها. وفي عصرنا الحالي، ظَهَرتْ بوكو حرام في نيجيريا ردّاً على حالةِ "ما بَعدَ الاستعمار" التي وَجَدوا أنها أسوأ من حالتهم تحت حُكم أسيادهم الأمبرياليين، وأسوأ من ذكرياتهم البعيدة عن دولتهم المَحَلية: كانو Kano. كانت مأساة النيجيريين مرعِبة بين جيش الدولة والشرطة وحركة التمرد، ولم يَعرفوا أيُّهم أكثر عنفاً وقسوة.

وَصَفتُ محاولاتٍ كثيرة للدفاع ضد الأمبرياليين، وأشَرتُ إلى الخسائر في الأخلاق والنظام المَدني والكرامة التي تَكَبَّدَها الزعماء المَحَليون وأتباعهم في تلك الصراعات. من الواضح وجود نوع من التَّقَبل لمَرَضِ ما بَعدَ الاستعمار، ولكن مازال الجِدال مستَعِراً حول أسباب فشل النضال في التوصل إلى الأهداف الموعودة في الاستقلال. كان هنالك تَحرر من الوهم حتى قَبلَ الاستقلال، فلماذا استمر طيلة هذا الوقت؟ هل كانت القَبَلية هي العَيب القاتل؟ من الواضح أن الجيران كَرِهوا جيرانهم أكثر مما كِرِهوا الأجانب. ألم يكن الإسلام قوياً إلى درجة كافية لمَنع التعاون مع الغزاة الأجانب؟ هل يستطيع الإسلام خَلقَ شُعورٍ بالتكاتف والتضامن بين السكان المَحَليين؟ وكيف يمكن أن يُنَظِّمَ نفسه ليفعَلَ ذلك؟ كان على كل مجتمع أن يحاول التوصل لإجابات على هذه التساؤلات بطريقته الخاصة. كان الفشلُ ساطِعاً في كثير من الحالات. في الحرب الفرنسية-الجزائرية تمكَّن الفرنسيون مِن تَجنيد قوة مَحَلية مسلمة اسمها "الحركة" لدعم قواتهم ضد الوطنيين. كان تَعدادها عشرة إلى عشرين ضعفاً من عدد أفراد قوة العصابات التي كانت تُقاتِل في سبيل الاستقلال. من الصعب مقاومة إغراء المال في مجتمعات فقيرة مُعدمة. استُخدِمَت الملابس الفاخرة والمظاهر اللَّامعة لزرع شِعور الفخر وتلطيف شِعور التَّبَعِيَّة. يَتَسابَقُ الرجالُ المَحَليون من أصحاب الطُّموح إلى خدمة الحكّام الأجانب. وَصَفَهُم أحدُ نقَّادِهم بأنهم "أذيال". أصبَحَ كثيرٌ منهم أكثر طغياناً من أسيادهم الأمبرياليين.

احتارَ القوميون والأصوليون في الحالة التي وَجَدوا أنفسهم فيها، فقد ظَنّوا جميعاً أن لديهم الإجابات ولكن الأحداث أثبَتَتْ خَطَأ ذلك. في الواقع، تَقاتَلوا فيما بينهم وأضعَفوا القضايا التي نَهضوا من أجلها. وبالتدريج، أدرَكَ بعضهم أن ما ينقصهم هو هيكلٌ تنظيمي. وكان ذلك ما حاوَلَ حسن البنّا خَلقَهُ في الإخوان المسلمين، وما خَلَقَهُ آية الله روح الله الخميني في الحُكم الدِّيني الشيعي في إيران. كَلَّفَ الطرفان رفاقهم المواطنين خسائر رهيبة حتى في أتباعهم. وفي مناطق أخرى مثل باكستان والجزائر ونيجيريا، كان الجيشُ هو المؤسسة الفعالة الوحيدة في الدولة. فقد تَمَتَّع الجيشُ وحدَهُ بالقدرة على التحرك والتنقل والقدرة على إظهار القوة وامتلاك هيكل تنظيمي، وبالنسبة إليه كانت المؤسسات والأحزاب السياسية والقضاء والإعلام أجهزةً ضعيفة لم تتمكن من دعم حياة مَدنية حُرَّة إنسانية آمِنة.

تمكَّن الجيشُ من فرضِ سيطرته في كل مكان تقريباً. تعلّمَ الجنرالاتُ الذين كانوا جنوداً لدى الأمبرياليين أن مدفع مكسيم الرشاش هو المهم في الواقع، وطَبَّقوا ذلك الدَّرس عندما حَلُّوا مكان أسيادهم الأجانب. لم يقف أمامهم شيء في مجتمعاتهم، وسارَعَ الأمريكان والروس والصينيون والبريطانيون والفرنسيون والألمان لدعمهم بأسلحةٍ أحدَثَ وأكثَرَ فَتْكاً من مدفع مكسيم الرشاش، وكان لدى كل منهم دوافعه وأسبابه الخاصة. أصبَحَت الأنظمة الحاكمة في الجنوب العالمي سوقاً للصناعات العسكرية الشمالية. حاوَلَ كل مُصَدِّرٍ وكل مُستَورِدٍ أن يتفوَّقَ على منافسيه، وأصبح سِباق التَّسلح أسهل ترويجاً وشعبية وأكثر أهمية استراتيجية من التعليم والصحة والضمان الاجتماعي. كان الفَخُّ والطِّعمُ والسِّنارةُ للشمال وللجنوب في العالَم.

ربما كان تأثير الذكريات على شعوب الجنوب العالمي أقوى وأكثر أهمية من التفوق العسكري الشمالي أو من التفوق العسكري بين المُتنَافِسِين الجنوبيين. خاطَبَ الأصوليون أتباعهم أنهم لا يحتاجون إلى "الإصلاح" للدفاع عن أنفسهم، يكفيهم أن يَتذكَّروا ويُطَبقِّوا أحكامَ القرآن. ومِثْلَ طائفة المسيحيين العلماء Christian Scientists، فقد آمنوا أنه لا يوجَدُ مرضٌ ولا ضَعفٌ فهذه كلها أوهام. سبيلُ الله هو الحَلُّ الكامِلُ حُكْمَاً، وكل ما يَلزَمُ هو "التفكير الصحيح"، وبذلك فَقَدوا التوازن المُتَضَمَّن في اصطلاح "دين ودنيا". وأولئك الذين لم يَفهموا ما سيَفعلونه في الدُّنيا، تَحولوا كُلِيَّاً إلى الدِّين. أدَّى ذلك إلى نَتيجَتين أَضَرَّتا كثيراً بشعوب العالَم الإسلامي.

النتيجة الأولى الأكثر وضوحاً هي الشُعور بالتشدد والجُمود الذي وَضَعَ الأساس لتبرير العنف، ولذا فإن العالَم الإسلامي اليوم في قبضةِ حالةٍ ذهنيةٍ تشبه التي كانت موجودة أثناء الحروب الدينية في أوروبا. إذا كان ما يؤمِن به شخصٌ بعمقٍ هو الأمرُ الصحيح، فإن مَن لا يؤمِن به من الآخرين جميعاً على خَطَأ بل هم مُذنِبون. اعتَقَدَ بذلك في الغرب المسيحيون البروتستانت والكاثوليك، خاصة المُتَطَهِّرين، حتى فترة قريبة، ومازال كثيرٌ منهم يَعتَقِدُ ذلك في بعض القضايا. وَرِثَ المسلمون الأصوليون وتَبَنوا هذه الأيام نظاماً يُسيطِرُ في الواقع على كافة نواحي الحياة في الملابس والطعام والسلوك والسياسة والجرائم والعقوبات والحرب. إثْمُ العقولِ المغلَقَةِ عند المؤمنين الحقيقيين أدَّى إلى قَتْلِ الملايين.

النتيجة الثانية الأقل وضوحاً إنما الأكثر أهمية هي أن المسلمين عَانوا من ضِيقِ أفقِ عقول زعمائهم. أدرَكَ ذلك منذ القرن التاسع عشر كثيرٌ من المفكِّرين بين العرب والترك والإيرانيين والهنود والماليزيين وغيرهم، وحاوَلوا التَّواصُل مع مواطنيهم، ولكن مؤسساتهم الدينية نفسها كانت ضِدَّهُم، وغالباً ما مَنَعَتْ أو أَبْعَدَت السكان المَحَليين من مجرد اكتساب الميزات اللازمة للدفاع عن أنفسهم. صحيحٌ أن بعضهم كان استثناء، فالسودانيون تحت قيادة المَهدي في أواخر القرن التاسع عشر استَخدَموا التليغراف والمَراكب البخارية التي استَنسَخوها عن البريطانيين لمُحَارَبَتِهم، ولكنهم لم يَتبَنوا الأفكار الحديثة الأوروبية، وعلى الرغم من أخذِهِم بالأسباب، إلا أنهم لم يَتَعَمَّقوا في معرفة أسباب فشلهم ونجاح الأمبرياليين. كانت الإجابات التي اقترحوها بائسةً أحياناً: إذا خَلَعوا على جنودهم ملابسَ أوروبيةٍ فسيَحصلون على القوة. إذا تَرَكُوا جَانِباً لِبسَ العِمامَة ولبسوا الطَّربوش سيُصبحون مُتَحَضِّرين (حتى جاء جِيل بَعدَهم مثل الجِيل الذي قادَهُ مصطفى كما أتاتورك الذي وَجَدَ أنَّ الطَربوش متخلفٌ أيضاً واستَبدَلوه بلبسِ القبعة). وعلى مستوى أعمق في محاولاتهم تقليد أساليب

الشمال العالمي أخطأت الشعوبُ المسلمةَ في فَهمِ النتائج على أنها أسباب: فانشغلتْ أجيالٌ من الشباب في الاستمتاع بِثِمارِ التَّقدم الصِّناعي أو الزراعي بدلاً من تعلم كيف تصنع الأشياء أو كيف يزيد الانتاج. في كثيرٍ مِن دول العالَم الإسلامي يقوم بالعمل الانتاجي أجانب مُستَورَدين، فاحتاج الأمر في مصر إلى ثورةٍ للبدء بِخَلقِ نواة ممن سَمَّيتُهُم "الرجالُ الجدد" لتَبني الطرقَ الحضديثة. وربما يكون موجَّهاً أن جمال عبد الناصر في الواقع قلد صيغة الكيبوتز الإسرائيلي (المستوطنات) عندما أسس مستوطنات زراعية-صناعية في "محافظة التحرير" لخلق جيل جديد من المصريين.

الحاجة إلى طريقة جديدة في الحياة يقودها مسلمون جُدد تم البحث عنها منذ أكثر من قرن. استَخدَم أهلُ آسيا الوسطى كلمة "الجديد" للتعبير عما فَكَّروا بالحاجة إليه. عَبَّرَ آخرون بطريقة مشابهة في اصطلاح "السلفية" حين فكَّروا أنهم يجب أن يتوصلوا إلى اتفاقٍ على قاعدةٍ متينة قبل التقدم نحو المستقبل. وحتى أكثر المجاهدين عنفاً يَمزجون رسالتهم الدينية بأهداف أو أفكار غربية في الإدارة والعلوم والتعليم.

أصبحت النتيجة الثانية للخلط بين الدين والدنيا واضحة في نشاطاتٍ مختلفة، إحداها هي الاختلاف بين التقليد والتجديد. نرى ذلك في ابتعاد النساء عن المشاركة الاجتماعية، وكثير من هذا الابتعاد إجباري بالطبع، ولكن الغريب أنه ليس واسِعاً. بدأتْ طالباتُ الجامعات المَصريات في الستينيات والسبعينيات بالعودة إلى الملابس التقليدية المحافظة، وعندما سَألتُ عدداً من الشابات اللواتي عَرفتُهن عن سبب ذلك، أجابَت كثيرٌ منهن أنهنَّ شَعَرنَ أكثرَ أَماناً بذلك. قَبلَ ذلك بنصف قرن وَجَدَ أتاتورك في تركيا ورضا في إيران أنَّ عليهما إصدار قوانين أو قرارات لإجبار النساء على خَلعِ الحِجاب. قد يكون التجديد مخيفاً لمن يقومون به.

نوعية التعليم هي أمرٌ أكثر أهمية. عندما انتَشَر التعليم فيما وراء الطبقة العليا الصغيرة في المجتمعات الأكثر استقراراً، تأثَّرَ بالطبع بالقيم الاجتماعية الموجودة. أرادَ الفقراء من التعليم تحسين حالتهم الاجتماعية، ويَحضُرُ إلى الذهن كثير من الأمثلة، إلا أن واحداً منها شاهدته وكان بسيطاً وواضحاً: نجارٌ تقليدي فنان في التعامل مع الخشب كنت قد عرفتُهُ جيداً على مدى أكثر من خمسين عاماً، كان لديه ابنٌ كافَحَ وناضَلَ من أجل تدريسه في الجامعة. رفَضَ الابن المِهنة التي اختارَها له أبوه، واعتَقَدَ أنها مُتَخَلِّفَة وتابَعَ دراسته إلى ما هو أبعد منها. ولسوء الحظ، لم يتعلم في مجال جديد مفيد، ومثل عشرات الآلاف من الطلاب المصريين فقد تَعَلَّمَ "خارج اللزوم". أدرَكَ الرئيس ناصر هذه المشكلة على الرغم من جميع أخطائه، وتَوصَّلَ إلى طريقةٍ لمعالجتها واستَخدَم الجيشَ كمَدرسة. جَنَّدَ القرويين الشباب في الجيش حيث تعَلَّموا أشياء لا يمكن أن يَتَعلَّموها في قُراهم، ثم دَفَعَ بهم في تعليمٍ مِهني أو صِناعي. لم تكن طريقةً مُرْضِيَة ولكنها كانت في مصر تلك الأيام أفضل ما يَستطيع النُّصح به.

هناك جانبٌ في التعليم ربما يكون صعباً على الغرباء عنه أن يَفهَموه، وهو علاقتُهُ بالصحة. كما ذَكَرتُ في الفصل التاسع والعشرين فيما يتعلق بحياة الفلاحين حول نهر النيل وفي أفريقيا وآسيا، فإن عشرات الملايين منهم كانوا مُنهَكِين بسبب مرضِ البلهارسيا الذي تَنقله دودةٌ تعيش في الأنهار، ولا يَستطيعون مقاوَمَته، ومازال يُرهِقُ مئات الملايين. الفلاحون الذين يخوضون في مياه نهر النيل أو الفرات أو الإندوس أو الغانغ للعناية بمحاصيلهم يُتابِعون فِعلَ ذلك طالما أنهم لا

يَعرفون عن المَرض، ولكن عندما يَتَعلّمون ما يَفعله الخَوضُ في المياه فإنهم يَتركون الزراعة. وهكذا فالتعليم له نتائج عميقة مؤسِفة نراها في الزيادة الهائلة في نُمو مدينة لاغوس والقاهرة وكاراتشي وداكا.

جانبٌ آخر في الصحة العامة تأثَّر أيضاً بالتعليم والسَّعي نحو حياة جديدة أكثر ثراء وحرية، فعندما استُبدِلَت المدينةُ بالقرية ضَعفتْ آليات ضبط الصراع الداخلية. لم يتم الاستبدال كلياً في أغلب مجتمعات العالَم الإسلامي، إلا أن الأحياء والعائلات تَوزَّعتْ وتَفرَّقتْ، ونَجَا أكثرُ الأفراد قدرةً على التأقلم. يمكن شراء أو رشوة الحكّام دائماً، وليس هذا بجديد ولكنه تَلاقى مع الإمبريالية. وصِفَتْ أولُ معركةٍ خاضَها البريطانيون في الهند للسيطرة على البَنغال بأنها مُبادَلَةٌ مَالِية. وكما قال القائدُ البريطاني: لو رَمَى الجنودُ الهنود الحِجارة فقط لتَغَلَّبوا على الجيش البريطاني، غير أنه تَمَّتْ رشوتهم للاكتفاء بالوقوف جانباً. باعَ غيرهم حقوقهم الوراثية أو بِلادِهم دون مقاومة. كَسِبَ البريطانيون زعماء القبائل في العراق إلى جانبهم "بتِرقيتِهِم" إلى مناصِبَ قيادية فوق رفاقهم من رجال القبائل، وإثراء "الزعماء" والسَّماح لهم باستخدام الدولة كداعمٍ لهم. التَّغيير الانتقائي في التركيبة الاجتماعية والاقتصادية أزالَتْ أشكال الانضباط القديمة وأطلَقتْ قوى جديدة. كان الفسادُ الزيتَ الذي سَهَّلَ حركةَ تُروسِ الأمبريالية، وقد احتَفَظَ بقيمتِهِ في فترة ما بَعدَ الأمبريالية ومازال المَرض الاجتماعي في أفريقيا وآسيا.

ربما لم يكن هناك طريقةٌ لوَقفِ تَدَفُّقِ البضائع الأوروبية على الشعوب المسلمة في أفريقيا وآسيا، ولكنهم هَرَعوا بشوقٍ وحَماس في كل مكان للتَّخَلِّي عن أذواقهم وعاداتهم التقليدية وسارَعوا إلى لَفِّ أنفسِهم بالملابس الأوروبية. وساعَدوا البريطانيين بفِعلِهم ذلك على إفلاس الصناعات التي كانت لديهم. وعندما تَمَّ استِخدام بعض الطرق الجديدة في الصناعة، مثلما حَدَثَ في صناعة استخراج القصدير والمطاط في ماليزيا، لم يشارِكْ المَحَليون فيها غالباً بل اعتَمَدوا على أجانب في تَنشيطِهم. في محاولة واحدة رئيسية للتصنيع في القرن التاسع عشر والقرن العشرين تحت حُكم محمد علي في مصر، أجبَرَ الأوروبيون الحاكِمَ المصري على فَتْحِ أسواق مصر أمام المنافَسة الأجنبية الطَّاغية قَبلَ أن تَستَكمل تَشَكُّلَها في صيغةٍ تُمَكِّنُها من المنافَسة مع صناعاتهم. كانت تلك رأسمالية مفتَرِسَة، وكان أكثر منها فظاعة هو "غزو" التمويل الأوروبي. عَلِقَتْ إيران والامبراطورية العثمانية ومصر في حبائل مخططات لمغامرات لم يكونوا بحاجة إليها، وبتكاليف باهظة لم يَتَمكَّنوا من دَفعِها.

الأعمقُ تأثيراً واستمراراً من جميع هذه الإخفاقات هو أن المجتمعات المسلمة فَشلَتْ في خَلقِ مؤسساتٍ تُحَقِّقُ التوازن في مواجهة الأمبريالية. كان الإيرانيون أول من لاحَظَ الحاجة إلى هذا التطوير، وكما ذَكَرتُ فإن أول اسم استَخدَموه في محاوَلَتهم صُنعَ حكومةٍ برلمانية هو "عَدالَة خَانَة" أي "مكان العَدل" حيث يَستطيع الناس تَحقيق توازن مع سلطة الشاه. عندما بَدَأ البرلمان عَمَلَهُ في نهاية الحرب العالمية الثانية تم إسقاطه بانقلابٍ نَظَّمَتْهُ المخابراتُ الأمريكية خَلَعَ أول حكومة إيرانية منتَخَبَة وأعادَ وَضْعَ محمد رضا شاه في السلطة وجَعَلَهُ والياً عند أمريكا. وعندما استَقَرَّ آمِناً في منصبه وثَرِيَّاً بالبترول الإيراني، اعتَبَر "التوازن" تَمرداً وعِصياناً. وكان فَشلُهُ في فَهْمِ الحاجة إلى المشاركة هو الذي أدَّى إلى ثورة 1979.

في الخلاصة، فَشِلَتْ أغلبُ الأممُ الإسلامية لأسباب مختلفة مشتَرِكَة في خَلْقِ المؤسسات المَدنية التي تُمَكِّنُ مِنَ الانتقال إلى السلام والأمن، وتَدفَعُ مجتمعات العالَم الإسلامي، وكذلك نحن، ثَمَنَاً مُخيفاً باهِظاً بسبب فَشَلِهِم وبسبب مساهَمَةِ الأمبريالية في ذلك الفَشَل. كما يُساهِمُ المتطَرِّفون المسلمون أيضاً في ذلك بضرباتهم العنيفة الشَّرِسَة ضد ما يَعتَقِدون أنه السبب.

الفصل السادس والأربعون

أين نحن الآن، وإلى أين نستطيع الذهاب

يمكن الإجابة عن التساؤل أين نحن الآن ببساطة: الشمال العالمي والجنوب العالمي يَشعرُ كلاهما بانعِدام الأمان، وأصبَحَ العنف هو الطبيعي. والمَصيرُ القاتِمُ الذي يلاقيه اللاجئون المُتَدَفِّقون من أفريقيا وغرب آسيا هو نتيجة انهيار النظام المَدني ويَرِدُ يومياً في وسائل الإعلام. يَرجِعُ هذا الانهيار لعدة أسباب، إلا أن اثنين منها تَطغَى على الأسباب الأخرى.

السبب الأول لخطورة انعدام الأمن الذي نَشعرُ به هذه الأيام هو تاريخ الأمبريالية الطويل. قرنٌ كامِلٌ أو أكثر من الغزو والاحتلال والإذلال والإبادة الجماعية تَرَكتْ آثارها نَدباتٍ وجروحٍ لم تَندَمِل حتى الآن، ولا يمكن أن تَشفى إذا أُعِيدَ فَتحُها باستمرار.

في الواقع، أُعيدَ فَتحُ هذه النَّدبات بالغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق وليبيا والصومال الذي مَزَّقَ هذه المجتمعات أشلاء. ما نسميه نحن "تَغيير النظام" كان أعمق بكثير مما يَدلُّ عليه الاصطلاح، فقد دَمَّرَ مؤسسات المجتمع المدني وألغَى العَقدَ الاجتماعي الذي رَبَطَ بين المواطِنين ببعضهم بعضاً ومع حكومتهم وخَلَقَ بالضبط الفوضى التي أنذَرَ توماس هوبز أنها أسوأ أحوال الإنسانية: "حيث لا يوجَدُ مجتمعٌ، والأكثر سوءاً هو الرعب المستمر والتّهديد بخطر المَوت العَنيف، وحيث تكون حياة المرء وحيدة فقيرة سيئة قاسية قصيرة".

لا شكَّ بأنَّ الأنظمة التي غَيَّرَتْها إدارة جورج بوش الابن كانت بعيدةً عن الكَمال، ولكن كما عَرفنَا وكما شاهَدَ الناسُ المُتأثِّرون أنفسهم فإنَّ أيّ نظام تقريباً هو أفضل من اللانظام. وكل تطَوّر في المجتمع، مهما كان غير مؤكَّد، إلى وضعٍ أفضل من خلال نمو التعليم وتحسّن الصحة العامة وارتفاع مستوى المعيشة قد تَمَّ وَقفُهُ، بل تَوَقَّفَت الحياة نفسها بالنسبة إلى عددٍ لم يُذكَر من عشرات الآلاف من البشر، ولم تتحقَّق أية فائدة لأي إنسان سوى أمراء الحرب.

القوى المُخَرِّبَة الشريرة العنيفة الواضحة جداً الآن في العالَم الإسلامي هي جزئياً رُدودُ أفعالٍ على أفعال الغرب. الإرهابُ سلاحُ الضَّعيفِ لأنه كان دائماً السلاح الأسهَل، وأحياناً السلاح الوحيد. استَخدَمناه نحن الأمريكان في ثورتنا، كما فَعَلَ ذلك الفرنسيون والروس في ثوراتهم، وكما فَعَلَت الشعوبُ الأصلية في جميع أرجاء العالَم. ليس الإرهاب شيئاً قام به "الآخرون" مهما كان

أولئك "الآخرون" في أي فترة، فقد قُمنا به جميعاً. وطالَما لا توجَد حركةٌ جادَّةٌ نحو إيجاد حلول، سيَظَلُّ الإرهاب أمراً سيقوم به كل شخص.

السبب الثاني للخطر القائم هو طَرْدُ إسرائيل للفلسطينيين من وطنهم، وهو نتيجةٌ مباشرة لمُعاداة السَّامية في أوروبا التي حَرَّكَت أحداثاً أدَّتْ إلى "المشكلة الفلسطينية". المَحرقة الأوروبية كانت لها نتائج الأمبريالية ذاتها، فقد أدَّتْ كلتاهما إلى بؤسِ أناسٍ أبرياء وظُهور خطر العنف في أيامنا. مليون فلسطينيّ طُرِدوا مِن وطنهم ودَفَعوا الثمن النهائي لما فَعَلَهُ الشمال العالمي باليهود.

يواجِهُ أهلُ الشمال العالمي الآن أيضاً عدم الأمان ووجود الخطر أحياناً، وهو حتى الآن أقل بكثير من الخطر الذي شَعَرَ به أهل الجنوب، إلا أنه يَتزايد ويَنتشر. الاقتصادات الغربية أكثر عُرضَةً بكثير مما هي في الجنوب: الهجوم الهائل على مركز التجارة العالمي في نيويورك ربما كَلَّفَ حركةَ القاعدة حوالي مئة ألف دولاراً، وبالتأكيد أقل من 250,000 دولار، وحياة أقلّ مِنْ عِشرين "شهيدٍ". وبالحساب الكلي فقد كان الأذى الذي أُلحِقَ بأمريكا أكثر من تريليون دولارٍ وعدة آلافٍ من الضحايا. وبهذا القياس ربما كان أنجَحَ هجومٍ في التاريخ، ومن غير المُرَجَّحِ أنّ غَيرهم لن يُحاوِلَ تَكراره.

مِنَ الواضِح أنّ تكلفة الإرهاب المالية مهمة، ولكنها أقل أهمية من التكاليف السياسية والنفسية للأعمال التي يجب القيام بها لمَنعِهِ وللدفاع ضِدَّهُ. لقد جَرَحَتْ هذه الأمور شُعورنا بالنظام المَدني واحتِرامنا لمؤسساتنا القانونية وثِقتنا ببعضنا بعضاً. إذا دُفِعَ بها أكثر ستُقَسِّمُ عالَمنا بشكلٍ أعمق إلى شمالٍ وجنوب، وبالفعل بين داخلنا الشمالي والجنوب.

نحن على مُفترقِ طريق، أو ربما مَرَرنا به فِعلاً عندما اختَرنَا أَمْنَ القوةِ الظاهري المُزَيَّف. يُفضِّلُ العسكريون هذا الاختيار لأنهم تَدرَّبوا على المَسيرِ وِفْقَ علاماته، كما يُفضِّلُهُ السياسيون لأنهم يَستطيعون "الوقوف عالياً" ويَلفون أنفسهم بالعَلَم، ويُفضِّلُهُ تجار السلاح لأنه يَبرِّرُ ويُثري أعمالهم، وتُفضِّلُهُ اتحادات العمال لأنه يَمنحهم فُرَصَ عمل "جيدة". فلماذا نُفَكِّرُ بأيّ اختيار آخر؟

الإجابةُ البسيطة تَشملُ جانبين، الأول هو أن طريق الأمن العسكري لا يأخذنا إلى حيث نريد أن نَذهَب. لا يَقودنا نحو أَمْنٍ عالَمي نستطيع دَفْعَ تكاليفه، بل يَقودنا على الأرجح نحو فقدان أَمْنٍ عالَمي لا نَستطيع دَفْعَ تكاليفه. وكلما تَوَغَّلنا في هذا الطريق، سنَذْهَبُ بعيداً عن عالَمٍ نَستطيع العَيشَ فيه.

الجانب الثاني من الإجابة هو أنّ العمليات والسياسات الأمنية العسكرية كانت عملياً فَشَلاً مرتفع التكاليف. طُبِّقَتْ عمليات قَمعِ التمرد في أفغانستان ست عشرة سنة، بكلفة مالية بَلَغَتْ، حسب قيمة الدولار هذه الأيام، أكثر من كامل تكاليف خطة مارشال التي أعادَتْ بِناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت نَتيجَتها في الواقع تَدمير أفغانستان وبُؤسٌ مخيف في شعبها وخَلقتْ ثُلَّةً حاكِمَةً فاسِدة ستَهرُبُ حتماً عندما يَتَوَقَّفُ تَدَفُّقُ المال. الأمرُ الوحيد الذي لم تُحَقِّقْهُ هذه السياسة هو تأمين السلام أو الاستقرار، ولا يبدو في الأفق ما يُبَشِّرُ بتحقيق ذلك. كانت مغامرةُ العراق أسوأ، كانت النتيجة المباشرة لحَملَتِنا هناك هو تَشكيل الدولة الإسلامية (داعش). وإذا استَمرَّت الأمور كما نَفعلُ الآن فإن طريق قَمعِ التمرد سيَقودُ إلى حربٍ بلا نهاية.

لا توجَدُ خريطةً للطريق الآخر ولا يُقَدِّمُ حَلاً سريعاً، وهو أقل إثارةً بكثير وغَير مؤكَّد، وسيكون وَعِراً في أحسن الأحوال. وإن مجرد البدء في التفكير بما يَقتَضيه السَّيرُ على ذلك الطريق سيَحتاج إلى نوعٍ من رجال الدولة الذين يَنْدُرُ وجودهم دائماً ولا يبدو أنهم موجودون هذه الأيام. سيَحتاج إلى الالتِزام والإصرار المَبني على المَعرفة والحكمة غير الواضحة هذه الأيام. فَكَّرتُ طويلاً وبعمقٍ في هذين الطريقين بِصِفَتِي مُخَطِّط سياساتٍ قديم. لا بد من وجود رؤيةٍ واضحة عن كيفية وصولنا إلى حيث نحن الآن. أَقتَرِحُ أن بداية الحكمة يجب أن تَنطَلِقَ من حيث تَوَقَّفَ البراهمة العِميان في المِثال. يجب أن نَفهمَ الذيول والخراطيم لكي نبدأ في رؤية الفيل، ومن ثم التَّعامل معه. كان هَدَفي مِنْ سَردِ هذا الكتاب هو التَّوصُّل إلى هذا التَّصور العام الشامل، ولعله يكون نقطةَ انطلاقٍ على الأقل.

Notes

[1←]

ا قال لي الرئيس ناصر بعد تعامله مع الجزائريين.

[2←]

ماس ماكولي في بحث "ملاحظات عن التعليم الهندي" تم تقديمه للبرلمان في فبراير 1835 وتم نشره في كثير من الأماكن. يقرؤه الهنود في الموسوعة الضخمة التي حررها ماجومدار R. C. Majumdar: "تاريخ وثقافة الشعب الهندي" التي خصص فيها القسم الثاني من الجزء العاشر للتغليب البريطاني. يبحث الفصل الثاني في نظام التعليم الذي فرضه الإنكليزعلى الهنود. انظر ص 34 "أهداف التعليم الإنكليزي" وص 46 عن ماكولي وبرامجه. ومن الملاحظ أن ماكولي لم يحاول تعلم أية لغة هندية.

[3←]

د المؤتمر سنة 1952 تحت رعاية مؤسسة روكفلر التي كنت زميلاً فيها آنذاك. عملت كسكرتير، وأدركت أن أحداً لا يستطيع تصليح سيارة دون الرجوع إلى لغة القوة الامبريالية التي كانت تسيطر على البلد الموجودة فيه. فمثلاً لم يكن هنالك كلمة واحدة تدل على "clutch" فقد استخدم هذه الكلمة من تعلموا الإنكليزية بينما استخدم كلمة "embrayage" من تعلموا بالفرنسية، واستخدم كلمة "indentatura" من تعلموا بالإيطالية، وكانت هناك كلمات أخرى باللهجات العامية.

[4←]

يكتف الروس بمحو قومية التتار والشيشان بل قاموا بتهجيرهم ومصادرة أراضيهم. هجر القياصرة أكثر من مليون شيشاني في القرن التاسع عشر وتبنى ستالين في الأربعينيات برنامجاً وضعته النازية ولم تتمكن من تطبيقه، فقد أمر بوضع حوالي ربع مليون تتاري أغلبهم من النساء والأطفال في سيارات نقل مكشوفة كانت مخصصة للمواشي ونقلهم إلى آسيا الوسطى. توفي كثير منهم في الطريق ووضع الأحياء في معسكرات عمل إجباري. بعد وفاة ستالين سُمح لمن بقي منهم حياً بالعودة ولكن أغلبهم وجدوا بيوتهم ومزارعهم قد استولى عليها الروس.

[5←]

يكتفي القرآن بذكر رسل وأنبياء الكتاب المقدس بل يسرد أيضاً الأساطير والروايات التقليدية التي كانت في شبه الجزيرة العربية مثل قوم عاد ونبيهم هود وقوم وثمود ونبيهم صالح وقوم مدين (الذين يرد ذكرهم أيضاً في سفر التكوين في الكتاب المقدس) ونبيهم شعيب.

[6←]

ر اللاويين 25:18، سفر التثنية 22:13، 22:23. ونص كذلك على عقوبة الحرق حتى الموت في بعض الجرائم.

[7←]

ر اللاويين 25:18: "يجب عليك تطبيق أوامري وتنفيذ أحكامي".

[8←]

ب روبرت روبرتس Robert Roberts في كتابه: القوانين الاجتماعية في القرآن (لندن 1925) "للإنصاف يجب القول إن محمدا قد حدد وقيد تعدد الزوجات ولم يبتدعه بين العرب... لأن تعدد الزوجات كان عادة منتشرة بين الشرقيين قبل زمن محمد... ويمكن أن نجد في العهد القديم أمثلة كثيرة على تعدد الزوجات... دون أي تعبير عن الكراهة من قوة عليا".

[9←]
M. W. Mirz في "الدين الإسلامي والمجتمع" في كتاب "تاريخ وثقافة الشعب الهندي" تحرير R. C. Majumdar الجزء 6 "سلطنة دلهي" الطبعة الثانية. (بومباي 1967(ص 608-609).

[10←]
ما تفرض اكتشافات حديثة تغيير هذا الرأي، فقد اكتشف سنة 2016 في مكتبة جامعة برمينغهام وجود نص جزئي يحتوي على ثلاث سور من القرآن يرجع تاريخه إلى فترة حياة محمد.

[11←]
تحافظ تلك التعليقات والدراسات على القراءات المختلفة فحسب، بل تطرقت إلى نمو اللغة والمعتقدات. وقد حاول ذلك كل عالم اسلامي موهوب، ولعل أشهرها ما كتبه في العصر الحديث هو فيلسوف الاسلام الأصولي المصري سيد قطب خلال وجوده في السجن.

[12←]
Th. W. Juynbo في "الحديث" في كتابه "الموسوعة المختصرة للإسلام" طبعة Gibb & Kramer (لايدن 1953) ص 116.

[13←]
ن أوضح مثال على ذلك هي جاكرتا، أكبر مدينة مسلمة هذه الأيام ويبلغ عدد سكانها أكثر من ثلاثين مليوناً. بدأت قرية صغيرة ثم أصبحت عاصمة امبراطورية هولندا في جاوا وباتافيا.

[14←]
ِال قبيلة جرمانية كان اسمهم Vandals أو Wends كما كانوا يسمون أنفسهم. اجتاحوا غرب أوروبا وتمركزوا في قرطاجة التونسية، وانطلقوا من تلك القاعدة لغزو وتدمير روما سنة 455. وقاموا بالتدمير المتعمد حيثما حلوا.

[15←]
ركيز على المجتمعات الاسلامية انظر L. P. Harvey في "اسبانيا المسلمة" ص 1250-1500 (جامعة شيكاغو 1990) وكذلك في "المسلمون في اسبانيا 1500-1614" (جامعة شيكاغو 2005). وهناك وصف ممتع للأندلس في كتاب Titus Burchardt "الثقافة الاسلامية في اسبانيا" (Allen & Unwin لندن 1972).

[16←]
سن الحظ فقد نجا قسم من سجلات جماعة من يهود القاهرة (الجنيزة) لم تحاول الجماعة الاحتفاظ بسجلات إلا أن الكتاب اعتقدوا أنه من الإثم أن يتلفوا وثائق كتب عليها اسم الله فتم الاحتفاظ بمئات الآلاف من الأوراق والأقمشة وأوراق البردى والرقاق الجلدية في نوع من الصوامع (تعني كلمة الجنيزة: المخبأ) حيث حافظ عليها مناخ مصر الجاف. وعندما اكتشفت في القرن التاسع عشر تفرقت بين الجامعيين المهتمين إلا أنه تمت استعادة بعضها واستطاع D. S. Goitein أن يكتب عنها سلسلة تحت عنوان "مجتمع متوسطي" نشرتها دار جامعة كاليفورنيا سنة 1967. صورت حياة الجماعة وتجارتها وعلاقتها بالحكومة الاسلامية آنذاك.

[17←]

ا النمط من "الأمة" الذاتية (الملة في التركية) تطور عن العادة الوثنية العربية لقبول وحماية الغريب (الجايرة).

[18←]

ت الحروب الدينية في القرن السابع عشر، حرب الثلاثين سنة، من أكثرها عنفاً في أوروبا، إلا أنها كانت فريدة فقط من حيث درجتها. فقد كان هناك اضطهادات أصغر لا تقل عنها شدة وعنفاً مثلما حدث في اضطهاد الصليبيين للكاثار في فرنسا، وفي محاكم التفتيش في البرتغال واسبانيا، وفي عدد من الصراعات غير المعروفة جيداً خلال العصور الوسطى وبداية العصر الحديث.

[19←]

ت اليهودية كما ورد في العهد القديم ديناً للعبرانيين وأعطتهم الحق في أخذ أراضي فلسطين ولم تمنح الأمان لغير اليهود بالمقارنة مع حالة أهل الذمة في الإسلام. سمح إلههم يهوه بقتل كل من وقف في طريق الشعب اليهودي. يمكن للقارئ المحايد أن يعتبر العهد القديم جزئياً كنداء إلى معركة. كانت الامبراطورية الرومانية هي التي هدأت اليهود. وعندما ابتعدوا عن أرضهم الجديدة الضيقة ودينهم المحارب أصبح اليهود من أكثر المجتمعات تحضراً وعالمية في الامبراطورية الرومانية. انسحبوا بعيداً عن العسكرية، ورغم أنهم تابعوا الدعوة إلى دينهم في أفريقيا وآسيا وأوروبا إلا أنهم أصبحوا سلبيين سياسياً. وقد ثارت الصهيونية المعاصرة على هذه السلبية التقليدية ورجعت باليهودية إلى القومية القوية المحاربة.

[20←]

ب Eamon Duffy في كتاب "أول الهجمات الدموية ضد اليهود" ملخصاً لمقتل William of Norwich: أصول الهجمات الدموية في أوروبا القرون الوسطى" الذي نشره E. M. Rose في New York Review of Books, Oct. 27th, 2017 "منذ أواسط القرن الثاني عشر وما بعد حرضت المجتمعات المدنية في كافة أنحاء أوروبا على أن الأقليات اليهودية التي تعيش بينهم تتآمر كل سنة في فترة عيد الفصح على خطف وطقوس ذبح أطفال مسيحيين. واستخدمت الأسطورة لقرون طويلة في تبرير مضايقة وسرقة وإعدام اليهود الأوربيين، وادعوا أن اليهود يؤمنون بأن عودتهم النهائية إلى الأرض المقدسة تعتمد على إهراق دم مسيحي بريء" ويتابع "وحيثما تم تصديق هذه الأسطورة حدث إحراق كنائس اليهود وتوراتهم وحبس اليهود وإجبارهم على تغيير دينهم وتهجيرهم وإجبارهم على الانتحار وتعذيبهم أو قتلهم واغتصاب ممتلكاتهم".

[21←]

ن التوسع في التشبيه كثيراً يمكننا القول بأن ما كان يفعله في سياق زمنه يشبه الطريقة التي يقرأ فيها قضاة المحكمة الدستورية العليا سجلات الرجال الذين كتبوا الدستور الأمريكي لكي يفهموا أهدافهم بشكل أفضل. بالنسبة إلى ابن حنبل كانت تلك نهاية الطريق أما بالنسبة إلى قضاة المحكمة العليا فهم يؤمنون بالمقارنة والقياس ويعتقد أغلبهم بضرورة التأقلم مع تغير ظروف المجتمع وعاداته.

[22←]

عف العصبية، وهي القوة التي تجمع شمل المجتمعات البدائية وتمنحها قوتها هي الفكرة الأساسية عند المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون.

[23←]

سف Speros Vryonis Jr. بشكل رائع هذه التغيرات في كتابه "انحدار الهيلينية في القرون الوسطى في منطقة آسيا الصغرى وأسلمتها من القرن الحادي عشر إلى الخامس عشر (بيركلي: منشورات جامعة كاليفورنيا، 1971).

[24←]

ن السلاجقة غير معروفين جيداً أنبه القارئ لوجود معرض رائع في متحف المتروبوليتان للفنون من تنظيم Sheila R. Canby et al عن "فخامة السلاجقة" (نيوهافن، منشورات جامعة ييل 2016).

[25←]
Norman Go في "ضوء جديد على اضطهاد يهود فرنسا في فترة الحملة الصليبية الأولى" مجلة: Proceedings of the American Academy for Jewish Research 34 (1966): 1-63.

[26←]
ـصف Steven Runciman هذه الأحداث بحيوية في "تاريخ الحملات الصليبية" (منشورات جامعة كامبريدج 1951) وتتوفر هذه الأيام مجموعة كبيرة من الدراسات عن هذا الموضوع.

[27←]
كن فهم موقف المسلمين المحليين من الصليبيين في وصف H. A. R. Gibb في كتاب "سجلات دمشق عن الصليبيين" (لندن 1932) وكتابات Francesco Gabrieli في "المؤرخون العرب عن الحملات الصليبية" (منشورات جامعة كاليفورنيا، بيركلي 1969).

[28←]
Claude Cahe في "الأتراك قبل العثمانيين" (لندن 1968) ص 45. من أفضل الكتب عن الحشاشين هو كتاب Marshall Hodgson "نظام الحشاشين" (موتون 1955) انظر كذلك Farhad Daftary "أساطير الحشاشين" (لندن 1994) وبرنارد لويس "الحشاشون" (لندن 1967).

[29←]
ـم Abbas Edalat في كتاب "فرضية الصدمة: القصة الخالدة للكارثة المغولية على التاريخ السياسي والاجتماعي والعلمي في إيران" تحليلاً لتأثير صدمة أحداث تلك الأيام في إيران.

[30←]
قش كتابات الاستراتيجيين في كتابي "جيران وغرباء: أسس العلاقات الدولية" (مطبوعات جامعة شيكاغو 1997). حتى منتصف القرن العشرين تصور الحكام أن ما نسميه دولة إنما هي سلالة حاكمة. كان ذلك صحيحاً بالنسبة للحكام الأوربيين حتى فترة الثورة الفرنسية أو ما بعدها في بعض الحالات.

[31←]
ن هذا الأمر غريباً كما يظهر لأن استخدام الحكام بعض رجال المنزل لأداء واجبات حكومية يظهر في ألقاب مشتقة من الخدمات المنزلية، فمثلاً في انكلترا نرى لقب "حارس الخزانة الملكية"، وفي السلالة التركية الأولى في الهند نرى لقب "أمير الحاجب" وكانوا أقرب خدم الحاكم.

[32←]
A. B. M. Habibulla كما ورد في K. A. Nizami "أسس سلطنة دلهي" في كتاب "تاريخ الهند المفصل" تحرير Mohammad Habib & Khaliq Ahmad Nizami الجزء 5 (peoples publishing house 1970) ص 139-140.

[33←]
ـم Edward Schafer وصفاً ممتعاً لغرابة هذه البضائع في كتابه "خوخ سمرقند الذهبي" (منشورات جامعة كاليفورنيا، بيركلي 1963) وفي "شاطئ اللؤلؤ" (منشورات جامعة كاليفورنيا، بيركلي 1969).

[34←]

Ahmad bin Yahya Al-Buladhu في "فتوح البلدان" ترجمة H. M. Elliot "تاريخ الهند كما رواه مؤرخوهم: الفترة المحمدية" منشورات (دلهي 2001) ص 116.

[35←]
المثل فقد دمرت طالبان الأصنام البوذية في أفغانستان ودمرت الدولة الإسلامية (داعش) آثار تدمر. وهذا يشبه ما فعله المسيحيون الأوائل في مصر وسورية عندما شوهوا التماثيل الفرعونية والإغريقية. ربما كان أقسى فعل تدميري هو ما حدث في مدينة سومناث حيث سرقت قوة غازية من المسلمين الترك قرباناً حديدياً مليئاً بالذهب والمجوهرات كان معلقاً في معبد للهندوس، وربما شجعه ذلك فانطلق محمود لتدمير آلاف المعابد الهندوسية "بينما كان المتعبدون الهندوس يراقبون بيأس مقتل أو استرقاق عائلاتهم وأصدقائهم على يد الغزاة الذين قتلوا واغتصبوا وسرقوا باسم الله" Stanley Wolpert في كتاب "تاريخ جديد للهند" منشورات (جامعة أكسفورد في نيويورك 1989) ص 107.

[36←]
هر الدين محمد بابور - المذكرات (بابور نامة) ترجمتها عن التركية Annette Beveridge مطبوعات دلهي 1990.

[37←]
Thomas Ro "سفارة السير توماس رو إلى الهند 1615-19 تحرير W. Foster (لندن 1899).

[38←]
تطيع قراء الكتابات الحديثة للكاتب التركي أورهان باموك الفائز بجائزة نوبل التوصل إلى إحساس أفضل للمدينة من كتابات المؤرخين التقليديين، خاصة في رواياته: "اسمي أحمر" و"اسطنبول: الذكريات والمدينة".

[39←]
Richard Knoll "تاريخ الأتراك" منشورات (لندن 1603).

[40←]
بت فرنسا خلال حكم الملك فرانسيس الأول وحاولت الحصول على دعم العثمانيين ضد اسبانيا الكاثوليكية في 1536 وبعد ذلك بنصف قرن كانت الملكة اليزابيث مستعدة لإعطاء العثمانيين المواد اللازمة لصنع الأسلحة والذخائر. وتم الحصول على الرصاص اللازم للطلقات من سقوف الكنائس التي تمت السيطرة عليها والحصول على النحاس للمدافع من تذويب أجراس الكنائس.

[41←]
لب هذه الأرقام تقديرية اعتمدت على المعلومات المتوفرة.

[42←]
يف إليها أكثر وامتدت إلى مجالات أخرى في المجتمع عندما اخترع بنيامين فرانكلين سنة 1784 النظارات المزدوجة.

[43←]
P. J. Marsha "البنغال: رأس الجسر البريطاني، الهند الشرقية 1740-1828" تاريخ نيوكامبريدج للهند، الجزء الثاني (مطبوعات جامعة كامبريدج 1987) ص 16.

[44←]
رها Eric Roll في "تاريخ الفكر الاقتصادي" منشورات (نيويورك. برنتيس هول 1942) ص 61.

[45←]
رها Stephen R. Brown في "التجار الملوك: عندما حكمت الشركات العالَم 1600-1900" منشورات (نيويورك، سانت مارتين 2009) ص 143. تابع كلايف تقريظ نفسه على تواضعه "عندما أتذكر ثروات تلك البلاد والجزء البسيط الذي أخذته أستغرب مدى اعتدالي" ذكرها Shashi Tharoor في "الامبراطورية غير العظيمة: ما فعله البريطانيون في الهند" منشورات (لندن: هيرست 2017) ص 10.

[46←]
سور عودتهم إلى انكلترا والقصور التي بنوها انظر كتاب Michael Edwardes "النابوب في الوطن" منشورات (لندن: كونستابل 1951).

[47←]
Stanley Wolpe في "تاريخ جديد للهند" منشورات (نيويورك، مطبوعات جامعة أكسفورد 1989) ص 181.

[48←]
عر بالامتنان للصحفي والبرلماني الهندي شاشي ثارور Shashi Tharoor لتعريفي بهذا العمل غير المعروف لدورانت. انظر الحوار القوي الذي قدمه ثارور في "الامبراطورية غير العظيمة. ص1.

[49←]
قرة 34 من قانون الهند سنة 1784.

[50←]
R.C. Majumd في "السيطرة البريطانية الامبريالية" في كتاب "تاريخ وثقافة الشعب الهندي" تحريره. الجزء التاسع. منشورات (بومباي: Bharatiya Vidya Bhavan 1963).

[51←]
Wilfrid Blu في "صقر الصحراء: عبد القادر والغزو الفرنسي للجزائر" منشورات (لندن، Methuen 1947) ص 15-16.

[52←]
M. N. Pearso "البرتغاليون في الهند" في تاريخ كامبريدج الجدي للهند، منشورات جامعة كامبريدج، 1987) ص 32-33.

[53←]
ه كلمات Luis de Camos في الملحمة الوطنية البرتغالية. ظن فاسكو دى غاما "دائماً أن الهندوسية هي نوع من الهرطقة المسيحية" كما وردت عند Pearson في "البرتغاليون في الهند" ص 13. ربما كانت بعض جوانب المجتمع الهندي مألوفة لفاسكو دى غاما، ففي بلده البرتغال كثيراً ما كانت الفتيات يتزوجن عندما يبلغن الثانية عشرة من العمر، وكانت النساء يرتدين الحجاب. وما كان معروفاً عنه يدل على كراهيته الشديدة والعنيفة ضد المسلمين.

[54←]
Wolpe في "تاريخ جديد للهند" ص 136.

[55←]

John Maynard Keyn في "دراسة عن المال" 2:1156 ذكرها Karl de Schweinitz في كتابه "نهوض واضمحلال الهند البريطانية" منشورات (لندن، روتليدج، 1983) ص 43.

[56←]
ور في "الامبراطورية غير العظيمة" ص 16.

[57←]
يام بولك في "فتح جنوب لبنان 1788- 1840" منشورات جامعة هارفارد 1963.

[58←]
دت في كتاب ثارور "الامبراطورية غير العظيمة" ص 16.

[59←]
سطفي فهمي "الثورة الصناعية في مصر ونتائجها الاجتماعية في القرن التاسع عشر 1800-1850" منشورات بريل 1954. سأناقش بالتفصيل محاولة مصر للتحديث في الفصل السادس.

[60←]
ظر كتابات Adam Hochschild عن الكونغو في "شبح الملك ليوبولد" منشورات Houghton Mifflin في نيويورك 1997. نشر Andrew Osborn ملخصاً عنها في "بلجيكا تواجه شياطين استعمارها" في جريدة الغارديان عدد 18 يوليو 2002. ذكر أوزبورن أن مستوى المجزرة كان على الأقل ضعف المحرقة اليهودية ومع ذلك لم تقدم بلجيكا أي اعتذار ولا تعويض.

[61←]
ور في "الامبراطورية غير العظيمة" ص 149-150.

[62←]
ثت حروب لنيل الاستقلال بشكل متفرق وبدون تنسيق وتعاون وغالباً بلا قيادة، فحدثت ثورات في اندونيسيا (1825، 1871، 1927) وفي القوقاز (1817، 1864) وفي بخارى (1866، 1868) وفي خيفا (1839، 1873) وفي الجزائر (1830، 1847) وفي أفغانستان (1839، 1842، 1879، 1919) وفي الهند (1919) وفي سورية (1920، 1925، 1927) وفي فلسطين (1936، 1939).

[63←]
Stephen Kinz في "العَلَم الحقيقي: ثيودور روزفلت، مارك توين، وولادة الامبراطورية الأمريكية" منشورات هولت في نيويورك 2017 ص 150-157.

[64←]
ا كتب غراهام فولر Graham Fuller "هناك اثنا عشر سبباً جيداً لوجود مشاعر انتقامية بين الغرب والشرق الأوسط هذه الأيام دون أي اعتبار للاسلام أو للدين... نعم هناك تطرف اسلامي - ولكن لماذا؟" في صفحته بتاريخ 22 فبراير 2015.

[65←]

لفية مذهب معقد لم يتم فهمه جيداً بشكل عام. يمكن تشبيهه بحركة البيوريتان (المتطهرين) في البروتستانتية المسيحية. أي أنها تسعى لاكتساب القوة والنقاء والتقدم بالرجوع إلى الدين الصافي في منابعه. سأبحثها في الجزء الخامس حيث أدرس أصولية سيد قطب وجهادية أبو بكر ناجي.

[66←]
دما لا يوضح الاصطلاح الانكليزي المعنى الأصلي بدقة فإنني أذكر الاسم العربي أو التركي أو الفارسي بحروف مائلة بعد الاسم الانكليزي. أفعل ذلك لسببين: الأول هو أن علماء الاجتماع أقنعوني بأنه إذا لم يوجد اسم محدد لمؤسسة أو وظيفة ما في اللغة المحلية فربما يكون انطباعاً خاصاً للباحث، والثاني هو أن التطابق بين مؤسسة محلية وأخرى عالمية قد لا يكون تاماً ولذا يجب أن ينبه القارئ بطريقة واضحة عما يتم دراسته.

[67←]
، اللغة التركية الحديثة واللغة التركية العثمانية والعربية والفارسية يقابل حرف "الجيم" الحرف "C" في اللاتينية.

[68←]
ق سكرتيره لويس أنطوان أن كليوباترا لا يمكن أن تتعرف على الاسكندرية التي شاهدوها.

[69←]
، الواضح أن المصريين قد قرؤوا تصريح نابليون لأنه كُتِب بالعربية بيد عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصري لفترة حكم نابليون في "تاريخ مدة الفرنسيس في مصر" ترجمة Shmuel Moreh في "نابليون في مصر: مذكرات الجبرتي للشهور السبعة الأولى من الاحتلال الفرنسي لمصر 1798" منشورات برينستون 1993 ص 24-26. علق Robert Tignor في مقدمته للترجمة أنها "واحدة من أفضل المذكرات للقاء شعب أوروبي بشعب غير أوروبي كما رويت من وجهة نظر غير أوروبية" ص 14.

[70←]
برتي "نابليون في مصر" ص 26.

[71←]
رجع نفسه، ص 54.

[72←]
رجع نفسه، ص 27.

[73←]
صف مصر" منشورات باريس، المطبعة الامبراطورية 1805. نشرت في 24 جزءاً قامت بها حكومات فرنسية متعاقبة على مدى ثلاثين سنة.

[74←]
Vivant Denc في "أسفار في مصر العليا والسفلى" منشورات لندن 1803 الجزء الثاني ص 246. مراقب استثنائي كان من رواد الدراسات المصرية الأولى وكان من أعضاء المعهد المصري وعمل لاحقاً كمدير لمتحف اللوفر.

[75←]
صدر نفسه، الجزء الثاني ص 305-306.

[76←]
ن لوي رينيير Jean Louis Ebenezer Reynier في "الدولة المصرية بعد معركة هليوبوليس، ترجم عن الفرنسية" منشورات لندن 1802 ص 17.

[77←]
ر الكاتب العربي أسامة بن منقذ الذي عاصر الصليبيين حادثة قتل طبيب افرنجي لمريضه باستخدام القوة العنيفة والسحر الديني بالمقارنة مع الطرق المنطقية التي استخدمها طبيب محلي مسيحي. في إحدى الحالات أصيب رجل بخراج في رجله فوضع الطبيب المسيحي كمادة وبدأ الجرح بالشفاء. وعندها قال الطبيب الافرنجي أن هذه الطريقة غير صحيحة وقام بقطع الرجل المصابة مستخدماً الفأس. "انبثق الدم من الرجل وتوفي في الحال". وردت في كتاب فرانسيسكو غابريللي Francesco Gabrieli "المؤرخون العرب عن الصليبيين" مطبوعات جامعة كاليفورنيا في بيركلي 1989 ص 76.

[78←]
ببرتي "نابليون في مصر" ص 41.

[79←]
ن على الضابط أن ينفذ الأمر ولكنه عرف سبب إرساله، وعندما اعترضت سفينته القوات الملكية البريطانية أخبرهم عن القصة فأعادوه إلى مصر بكثير من السخرية.

[80←]
ببرتي "نابليون في مصر" ص 36.

[81←]
عقد المصري: مجلة الأدب والاقتصاد السياسي" القاهرة دار الطباعة الوطنية السابعة للجمهورية الفرنسية. 1801 ص 11-12.

[82←]
ببرتي "نابليون في مصر" ص 93.

[83←]
LP. Harve في "اسبانيا الإسلامية 1250-1500" منشورات جامعة شيكاغو ص 321، 324-325.

[84←]
ليام سبنسر "الجزائر في عصر القراصنة" مطبوعات جامعة أوكلاهوما. 1976 ص 88.

[85←]
صدر نفسه ص 57.

[86←]
Alistair Horn في "حرب السلام الوحشية: الجزائر 1954-1962" منشورات ماكميلان في لندن، 1977 ص 29.

[87←]
Wilfrid Blu ويلفريد بلنت في "صقر الصحراء: عبد القادر واحتلال فرنسا للجزائر" منشورات لندن Methuen 1947 ص 4. رغم قدمه فربما كان كتاب بلنت الملهم أفضل سيرة ذاتية لعبد القادر الجزائري باللغة الانكليزية.

[88←]
صدر نفسه ص 11.

[89←]
صدر نفسه ص 27.

[90←]
ارلز كالويل في "الحروب الصغيرة: المبادئ والتطبيقات" منشورات جامعة نبراسكا 1996 مع مقدمة جديدة بقلم دوغلاس بورش ص 128.

[91←]
صدر نفسه ص 21 حيث يشرح كالويل أنه لا يعني "بالحروب الصغيرة" حروباً صغيرة المقياس بل حروباً استعمارية خاضتها الجيوش الأوروبية ضد السكان الأصليين بالمقارنة مع الحروب الكبيرة التي كانت تحدث عادة في أوروبا. يشبه الوصف المذكور ما وصفه لورنس T. E. Lawrencee في أساليب العرب التي طبقوها أثناء ثورتهم ضد الامبراطورية العثمانية في مقالته عن حرب العصابات سنة 1925 في الموسوعة البريطانية.

[92←]
ويل "الحروب الصغيرة" ص 128-129.

[93←]
ت في "صقر الصحراء" ص 169-170.

[94←]
صدر نفسه ص 216.

[95←]
رن Horne في "حرب السلام الوحشية" ص 30.

[96←]
لاً فاطمة نسومر: رمز القوة النسوية" في موقع Algeria.com 14 أبريل 2017. انظر أيضاً عزيز صادقي في موقع "تاريخ الجزائر" 26 أغسطس 2012. أوردها بيير فالو Pierre Vallaud في "حرب الجزائر" إصدار أكروبول، باريس 2005.

[97←]
رت في الوصف الممتاز للجزائر الذي قدمه هورن Horne في "حرب السلام الوحشية" ص 29. توكفيل معروف للأمريكيين بفضل وصفه الرائع للمجتمع الأمريكي في "الديموقراطية في أمريكا". بعد رحلته إليها انتخب في الجمعية الوطنية الفرنسية. بصفتي كعضو في لجنة التخطيط السياسي لشؤون الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كنت رئيس لجنة

أمريكية مشتركة تتعلق بالجزائر في أواخر الحرب واطلعت على وثائق الاستخبارات الأمريكية (التي كان أغلبها من الفرنسيين)، ولكنني وجدت تقرير هورن أكثر تناسقاً وعمقاً.

[98←]
C. A. Bay في "المجتمع الهندي ونشوء الامبراطورية البريطانية" إصدار جامعة كامبريدج 1988.

[99←]
P. J. Marsha في "البنغال: رأس الجسر البريطاني في الهند الشرقية 1740-1828" في تاريخ كامبريدج الجديد للهند، الجزء الثاني، إصدار جامعة كامبريدج 1937 ص 9.

[100←]
ارد بلنت في "الخدمات المدنية الهندية" إصدار فابر وفابر، لندن 1937 ص 9.

[101←]
شال في "البنغال" ص 77-78 و83.

[102←]
سميث في "ثروة الأمم" إصدار نيويورك، المكتبة الحديثة 1937 ص 602-606.

[103←]
سيفال سبير Percival Spear في "النابوب" إصدار لندن، كورزون Curzon 1963.

[104←]
السير مالكولم Sir J. Malcolm في "حياة كلايف" ذكرها ستانلي ولبرت Stanley Wolpert في "تاريخ جديد للهند" إصدار نيويورك، مطبوعات جامعة أكسفورد 1989، ص 186.

[105←]
رت في "تاريخ جديد للهند" ص 188. لم يفعل البريطانيون شيئاً لتخفيف المعاناة ولكنهم صنعوا ثروة من المضاربة بأسعار الحبوب خلال المجاعة.

[106←]
مة إدموند بورك Edmond Burke إلى البرلمان بشأن اتهام وارن هايستنغز Warren Hastings في فبراير 1788 كما أوردتها Mia Carter وBarbara Harlow في "سجلات امبراطورية" الجزء الأول "من شركة الهند الشرقية إلى قناة السويس" إصدار جامعة ديوك 2003 ص 146.

[107←]
نت الحكومة البريطانية هي المسيطرة على الهند ولم يتحدى سلطتها حكام الهند ولكن الجنود البريطانيين والتجار عادوا إلى انكلترا من الهند بثروات ضخمة استخدموها للفوز بمقاعد في البرلمان ولشراء عقارات كبيرة. كان تأثيرهم على انكلترا هو موضوع كتاب مايكل إدوارد "النابوب في البلد" إصدار لندن، كونستابل 1991.

[108←]

ِدت في كتاب Spear "النوبوب" ص 141.

[109←]
سي باكستون Nancy L. Paxton في "الكتابة في ظل الراج: الجنس والعرق والاغتصاب في الخيال البريطاني الاستعماري، 1830-1947" إصدار جامعة رتغرز 1999 ص 5.

[110←]
ىبحت الصوفية مذهباً منتشرا في الهند في القرن الثاني عشر والثالث عشر كذلك في كشمير وشرق المتوسط وآسيا الوسطى ربما للأسباب ذاتها وهي الهرب من مآسي وأهوال الغزوات التركية-المغولية.

[111←]
ٍرت في "تاريخ جديد للهند" ص 133.

[112←]
ِن ريتشاردز في "الامبراطورية المغولية" تاريخ كامبريدج الجديد للهند، الجزء الأول، رقم 5 مطبوعات جامعة كامبريدج 1993 ص 39-40.

[113←]
ِي S. Roy في "أكبر" في كتاب "ناريخ وثقافة الشعب الهندي" تحرير ماجومدار، الجزء السابع "الامبراطورية المغولية" منشورات بومباي 1967 ص 135. يوجد شرح أكثر تركيزاً على السياسة والماديات في كتاب ريتشاردز "الامبرطورية المغولية" ص 39-40.

[114←]
ِي في "أكبر" ص 138.

[115←]
ِيز أحمد في "تاريخ فكري للإسلام في الهند" إصدارات جامعة إدنبرة 1969 ص 8.

[116←]
ِيز أحمد في "مقاربة لتاريخ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في الهند المسلمة" Journal of World History 9 (1966): 1000-1001.

[117←]
ِ وقته كان آغا خان يمكن أن يستقبله الملك في لندن ولكنه لا يستطيع دخول ناد بريطاني في الهند.

[118←]
ير في "النابوب" ص 142.

[119←]
Reginald Hab في "سرد لرحلة عبر الولايات الهندية العليا من كلكتا إلى بومباي، 1824-1825" إصدار لندن، 1928، المكتبة البريطانية 2010 ص 343-344.

[120←]
ماس ماكولي Thomas Macaulay في "محضر في التعليم الهندي" بحث تم تقديمه إلى البرلمان في فبراير 1835 وأعيدت طباعته في ماجومدار وداتا R. C. Majumdar and K. K. Datta عن التعليم الانكليزي في "تغليب البريطانيين ونهضة الهنود" تحرير ماجومدار، المجلد العاشر، الجزء الثاني من "تاريخ وثقافة الشعب الهندي" إصدار بومباي، Bharatiya Vidya Bhavan 1965 ص 81.

[121←]
ـدت في كتاب شاشي ثارور "الامبراطورية غير العظيمة: ماذا فعل البريطانيون للهند" إصدار هيرست، لندن 2017، ص 16.

[122←]
صدر نفسه ص 63.

[123←]
ترف الهولنديون مؤخراً بممارستهم تجارة الرقيق في آسيا. Linawati Sidarto في "قرنين من الاسترقاق على أرض اندونيسيا" وفي "تاريخ الاسترقاق في آسيا في ظل الشركة الهولندية لشرق الهند" وفي "الاسترقاق الهولندي في شرق الهند" في جاكرتا بوست عدد 5 أكتوبر 2015.

[124←]
ـور في "الامبراطورية غير العظيمة" ص 164.

[125←]
ـن ويليام كاي في "تاريخ حرب الجنود الهنود في الهند، 1857-1858" إصدار لندن 1870، 2:51-52.

[126←]
صدر نفسه ص 2:4.

[127←]
Eric Stok في "الفلاحون يتسلحون: الثورة الهندية في 1857" إصدار جامعة أكسفورد 1986، ص 82. على العكس من الهنود فقد انتصر الثوار الأمريكان بفضل القوات الفرنسية والأسلحة والبحرية والتمويل. كما كانوا يستطيعون الانسحاب بعيداً عن مدى الجيش البريطاني. لم تتوفر مثل هذه الامتيازات للجنود الهنود. لم يكن لديهم دعم خارجي وكانت المعارك مركزة بشكل رئيسي حول دلهي.

[128←]
إضافة إلى ما ورد في كتاب كاي Kaye "تاريخ حرب الجنود الهنود" انظر W. H. Russell في "مذكراتي في الهند" إصدار لندن 1860. وكذلك J. W. Sherer في "الحياة اليومية خلال التمرد الهندي" إصدار لندن 1898. في "تاريخ كامبريدج للهند" عن للتمرد الذي اعتُبر كمصدر رسمي مدة نصف قرن لا يكاد يذكر T. Rice Holmes شيئاً عن غضب المتمردين المسلمين ولا عن خوفهم وأهدافهم. بل يبحث فقط فيما فعله البريطانيون لقمع الثورة. انظر T. Rice Holmes في "التمرد" الفصل العاشر في "تاريخ كامبريدج للهند" تحرير H. H. Dodwell المجلد السادس إصدار جامعة كامبريدج 1932.

[129←]

ـد في R. C. Majumdar "الأعمال الوحشية" في كتاب "تاريخ وثقافة الشعب الهندي" المجلد التاسع، الجزء الأول ص 591 إصدار بومباي 1963.

[130←]
ـرت في "تاريخ جديد للهند" ص 341.

[131←]
Bernard S. Col في "السلطة القمعية في الهند الفيكتورية" في كتاب "اختراع التقاليد" تحرير Eric Hobsbawm وTerence Ranger إصدار جامعة كامبريدج 1983 ص 165.

[132←]
Richard Haklu في "رحلات" إصدار everyman لندن 1967 ص 2:256.

[133←]
ـن اسم السكان هو التتار ولكن أغلب الأوروبيين المسيحيين كانوا يسمونهم التارتار أي سكان الجحيم.

[134←]
Haklu في "الرحلات" 2:135.

[135←]
ـت "مصادرهم البشرية" كبيرة بحيث أنهم كانوا مستعدين لمنح أو لتأجير حوالي 40000 جندي إلى البريطانيين سنة 1747.

[136←]
John F. Baddel في "الاحتلال الروسي للقوقاز" إصدار لندن، لونغمان غرين 1908. كان بادلي صحفياً انكليزياً انتقل إلى روسيا حيث كان لديه أذن غير محدود للاطلاع على السجلات الروسية، وفي سنة 1908 قضى حوالي سنة في القوقاز. ما زالت تقاريره الأفضل في المراقبة المباشرة والكتابة الحية عن الغزو الروسي. أعيد إصدارها رقمياً وأعيدت طباعتها. على الرغم من كون عمرها حوالي قرن فإنها تظل أفضل الكتابات المتوفرة. تابعها تشارلز كينغ Charles King في "شبح الحرية: تاريخ القوقاز" إصدار جامعة أكسفورد 2008. استطاع كينغ أن يطلع على مصادر شيشانية بينما كان بادلي محصوراً في التقارير الروسية. وجدتُ أن الاثنين مفيدين عند المقارنة بينهما.

[137←]
ـا نعلم نحن من التجربة مع القبائل الأمريكية فإن الأسماء متعددة وتختلف بين ما يسمي الناس أنفسهم وما يسميهم الآخرون من أعدائهم وأصدقائهم. كلمتا "الشيشان" و"الشركس" من الروسية، أما كلمة "الفيناخ" فإنها تعني "الشعب" أو "شعبنا" مثل أسماء أغلب قبائل الهنود الحمر.

[138←]
ـلي في "الاحتلال الروسي" وكينغ في "شبح الحرية" ص 73 في وصف الحملة.

[139←]
ـتقد بادلي أن الاسم جاء من كلمة تركية تعني "المتشرد" وأن الروس ألصقوا بهم هذا الاسم كما ورد في "الاحتلال الروسي"، ولكنها تعني بالتركية العثمانية "المحارب" أو "الشجاع".

[140←]
لي في "الاحتلال الروسي" ص 250.

[141←]
غ في "شبح الحرية" ص 69-70.

[142←]
لي في "الاحتلال الروسي" ص 237.

[143←]
. تولستوي في "حاجي مراد". اهتم الروس بالطبع بحروبهم في المناطق المسلمة، انظر مثلاً ميخائيل ليرمونتوف Michael Lermontov في "لوحات عن الحياة الروسية في القوقاز".

[144←]
ل سليمانوف Emil Souleimanov في "الإمام شامل والإسلام والشيشان: دروس تاريخية في السياسات المحلية" Rycckii Boproc 15 ديسمبر 2015.

[145←]
تطور روسيا سياسة القوميات إلا بعد ذلك بنصف قرن، وحتى عند ذلك كما بينتُ كان قد تقرر تدمير القواعد المستقلة للقوى الدينية.

[146←]
ليام بولك في "السياسات العنيفة" إصدار نيويورك، هاربر كولينز 2007.

[147←]
لي في "الاحتلال الروسي" ص 376-377.

[148←]
صدر نفسه ص XXXVII - XXXVIII.

[149←]
. تولستوي في "حاجي مراد" في مجموعة قصص قصيرة لتولستوي من ترجمة Aylmer Maude إصدار نيويورك. Dial 1949 ص 584-585.

[150←]
صدر نفسه ص 479.

[151←]
ستين جيرسيلد Austin Jersild في "الاستشراق والامبريالية: شعوب جبال القوقاز الشمالية والجبهة الجورجية، 1845-1917" إصدار مونتريال، جامعة ماغيل 2002 ص 145.

[152←]
ن بورينغ في "تقرير عن الاحصائيات التجارية عن سورية" إصدار لندن، ويليام كلوز 1840، تم بمساعدة القنصليات البريطانية ورجال أعمال في البلاد المستهدَفة.

[153←]
ون التجارة 1838.

[154←]
شت محاولاته المحافظة على استقلاليته وهزيمته أمام بريطانيا في الفصل السادس.

[155←]
رينغ في "الاحصائيات التجارية عن سورية" ص 28.

[156←]
ليام هوكينغ William Ernest Hocking في "روح السياسة العالمية" إصدار نيويورك، ماكميلان 1932. يصف هوكينغ في هذا الكتاب التأكيد على أن عدم الكفاءة في الاستخدام يخالف حقوق الملكية ويصنفه كأساس للاستعمار والامبريالية.

[157←]
ليام بولك في "ولادة أمريكا" إصدار نيويورك، هاربر كولينز 2006. ص 242. من جون ديكينسون "رسائل من مزارع في بنسيلفانيا" طبع في "امبراطورية وأمة" إصدار إنديانابوليس، Liberty Fund 1999، ص 25-26.

[158←]
غم أن هذه الشركة ليس لها علاقة الآن بالقناة التي تم تأميمها في 1956 إلا أنها ما زالت إحدى أكبر الشركات في فرنسا.

[159←]
يد لاندز في "المصرفيون والباشوات" إصدار مطبوعات جامعة هارفارد، 1958 ص 316.

[160←]
صدر نفسه.

[161←]
ت ذلك أيضاً بنوك تشيلي والأرجنتين واليونان والصين وغيرها من الدول في السنوات التالية بنتائج مماثلة.

[162←]
J. Seymour Kea في "إفساد المصريين: قصة مخجلة" إصدار لندن، 1882. انظر أيضاً ويليام بولك "العالَم العربي اليوم" الطبعة الخامسة إصدارات جامعة هارفارد 1991 ص 86.

[163←]
Peter Hc في "تاريخ حديث للسودان" نيويورك، إصدار Grove 1961 ص 21.

[164←]
شت هذا الجانب من الامبريالية وهو إحباط محاولات التطوير والتحديث في الفصل العاشر وبشكل أعمق في كتابي "الولايات المتحدة والعالَم العربي" مطبوعات جامعة هارفارد 1965 ص 78-79.

[165←]
تخدم اسماعيل أولاً صموئيل بيكر Samuel Baker وهو مستكشف انكليزي وصياد وكاتب رحلات حاول أن يوقف تجارة الرقيق بالعنف. كان رجلاً فخوراً وقاسياً أثار غضب الموظفين الجدد وزعماء القبائل وفشل في مهمته. وقع في حب فتاة مستعبدة بيضاء وسرقها من مالكها الأرمني الذي كان يحضر لبيعها إلى الحريم، وجعلها رفيقته في حياة صيد بطولية. وهكذا كان لديه طريقته الخاصة في إلغاء العبودية ولكنه كان معروفاً بفشله في التمييز بين الحيوانات التي يصطادها والناس الذين يحكمهم.

[166←]
ىمس في انكلترا بالأعمال الخيرية المسيحية للعناية بأطفال الشوارع. ويعتقد أنه كان في السر مثلي الرغبة مثل Horatio Herbert Kitchener وCecil Rhodes. وكان ذلك يعتبر جريمة ولكنه لم يتهم بها أبداً. صنع شهرته كجندي مرتزق حارب لصالح امبراطور الصين ومن هنا جاء لقبه "غوردن الصيني".

[167←]
ر هولت في كتاب "الدولة المهدية في السودان" إصدار أوكسفورد 1958. ما زال أفضل كتاب عن هذه الحركة. يستخدم هولت بسخاء وثائق باللغة العربية نجت من الحرب والثورة والإهمال. أخذت أغلب المعلومات التالية من هذا الكتاب.

[168←]
كونالد في "المهدي" في "موسوعة الإسلام المختصرة" طبعة H. A. R. Gibb وJ. H. Kramers إصدار لايدن 1953 ص 310-311. سهلت كتابة الكلمات العربية.

[169←]
ن ذلك تصور محاكم التفتيش فيما بعد. حلل المفتش Bernard Gui آراءه في "كراسة المفتش" ترجمة وتحرير G. Mollat إصدار باريس 1964.

[170←]
E. E. Evans-Pritchar في "سنوسي برقة" مطبوعات جامعة أوكسفورد 1949 ص 4. عمل Evans-Pritchard كمسؤول للعلاقات القبلية في الجيش البريطاني مدة سنتين خلال الحرب العالمية الثانية. خلفه تلميذه البروفسور Emrys Peters بعد الحرب في دراسة البدو الذين كتب عنهم بيترز وزوجته ستيلا إطروحة في أوكسفورد. كانوا من أصدقائي المقربين واستفدت من كتاباتهم ومن الحديث معهم أياماً عديدة عن سكان ليبيا.

[171←]
ٰلمة المستخدمة في شمال أفريقيا للتعبير عن "القديس" هي "المُرابط". في العصور الوسطى كانت تطلق على الشخص الذي يذهب ليعيش ويصلي ويستعد للجهاد في نوع من الدير العسكري الذي كان يسمى "رباط". شكل الخريجون من مثل هذه المؤسسات نواة دينية-عسكرية هي "المرابطون" من بربر الصنهاجة في المغرب الذين أسسوا مدينة مراكش عاصمة لهم ثم غزوا اسبانيا في القرن الحادي عشر.

[172←]
Evans-Pritchar في "سنوسي برقة" يذكر أن "بدو برقة كانوا مسلمين... قبل أن ينشر السنوسي الكبير دعوته بينهم، لأنه سيكون من الصعب تفهم قبولهم السريع لإرشاداته. لم يكن يتحدث مع وثنيين ويدعوهم للإسلام، بل إلى مسلمين لكي يرشدهم إلى حياة الدين الذي يؤمنون به".

[173←]
يز برقة بكونها المكان الذي أظهرت فيه الطائرة قدراتها العسكرية عندما رمى طيار أيطالي قنبلة يدوية على رجال القبائل في نوفمبر 1911.

[174←]
دولفو غرازياني Rudolfo Graziani في "إخضاع برقة" إصدار ميلان 1932. وردت في Evans-Pritchard "سنوسي برقة" ص 163. قوات العصابات التي كانت تعرف باسم "المحافظيه" لم يزد تعدادها عن الألف وكان عددهم بالنسبة إلى خصومهم واحد إلى عشرين. وكما بين إيفانز فقد انضموا من كافة أرجاء الامبراطورية العثمانية: ألبان وكرد وسوريون وعراقيون وشركس وأتراك ومقدونيون وتراقيون "سنوسي برقة" ص 115.

[175←]
ن كولي John K. Cooley في "عاصفة غبار ليبية: تقرير كامل عن ثورة القذافي" إصدار لندن Sidgwick & Jackson 1983 ص 34.

[176←]
خص الحوار موجود في C. R. Pennell "الايديولوجية والسياسات العملية: دراسة حالة حرب الريف في المغرب 1921-1926" في دورية International Journal of Middle Eastern Studies 14 (1988): 19 ff.

[177←]
نون فليمنغ في "حرب الريف" الموسوعة البريطانية 23 يوليو 2014.

[178←]
برت مونتانييه Robert Montagne في "ثورة المغرب" باريس 1951. خدم مونتانييه في الجيش الفرنسي بالمغرب وأصبح فيما بعد دارساً لتأثير فرنسا على المجتمع السوري.

[179←]
سنت شيان في "أمريكي بين الريف" نيويورك إصدار Century 1926. و"سيرة ذاتية" إصدار Houghton Mifflin 1935.

[180←]
طر "تعليم وطني: مقابلة مع الأمير عبد الكريم" ويليام بولك في "انطباعات عن العالَم العربي" تحرير ويليام بولك نشر في نيويورك 1956. قابلته في القاهرة سنة 1954.

[181←]
قوال التي أوردتها في هذه المناقشة من ملاحظاتي التي سجلتها في مقابلتي مع عبد الكريم سنة 1954.

[182←]
Richard P. Hallic في "قصف من الجو: تاريخ معارك القصف الجوي 1910-1945" مطبوعات جامعة ألاباما 1989 ص 67. جرب سلاح الطيران الاسباني الأسلحة الكيميائية على المزارع البربرية. انظر Sebastian Balfour في "العناق القاتل: المغرب والطريق إلى الحرب الأهلية الاسبانية" إصدار جامعة أكسفورد 2002 ص 132. مازالت التقارير تبين أن في منطقة الريف أعلى نسبة من إصابات السرطان في المغرب.

[183←]
Hallic في "قصف من الجو" ص 69.

[184←]
Andrew Skee في "تمريرها: الحروب القبلية في الجبهة الشمالية الغربية في الهند" إصدار Gale & Polden انكلترا 1932.

[185←]
م سميث في "ثروة الأمم" إصدار نيويورك، المكتبة الحديثة 1937 ص 600-601.

[186←]
J. I. Hans Bakk في "حرب الآتشيه ونشوء الدولة الهولندية في الهند الشرقية" في كتاب "الدول العظمى والحروب الصغيرة: محدوديات القوة" تحرير A. Hamish Ion & E. J. Errington إصدار Praeger 1993 ص 57.

[187←]
صدر نفسه. اشتق اسم القوات المحلية التي قادها الهولنديون Korps Marechausee من الهولندية كاسم جديد لغير المحبوبين من الدرك والشرطة. كانوا مثل القوات الاستعمارية البريطانية والفرنسية. تألفت الوحدة النموذجية من عشرين جندياً محلياً تحت قيادة ضابط هولندي.

[188←]
صدر نفسه ص 57.

[189←]
دت إحدى عملياته السرية إلى الزواج من امرأة محلية، وفسر ذلك بأنها تجربة "علمية" لدراسة الزواج الإسلامي.

[190←]
ه إحدى المواضيع التي كتب عنها ادوارد سعيد في "الاستشراق" نيويورك Pantheon 1978 وفي "الثقافة والامبريالية" نيويورك Knopf 1993. كما وردت عن الهند البريطانية Gauri Viswanathan في كتابه "أقنعة الاحتلال" نيويورك إصدارات جامعة كولومبيا 1989، وعن الشيشان في القوقاز للكاتب Austin Jersild في "الاستشراق والامبراطورية" إصدار جامعة ماغيل 2002، وكذلك Robert Irwin بشكل عام في "المعرفة الخطرة" نيويورك Overlook 2006.

[191←]
ب البروفسور نيكي كيدي Nikki R. Keddie عدداً من الكتب عن سيرة الأفغاني. أفضلها يبحث في خلاف كان الأفغاني مسؤولاً عن إثارته جزئياً: "الدين والتمرد في إيران" إصدار لندن Frank Cass 1966. يستخدم كيدي أوراق الأفغاني المنشورة ليقرر أن الأفغاني كان مسلماً سنياً من أفغانستان وليس مسلماً شيعياً من إيران، ويصحح بذلك رواية قصة حياته التي سردها هو وأتباعه من العرب.

[192←]
جموعات صغيرة مثل ذلك كانت عادية آنذاك وفيما بعد أيضاً في كافة أنحاء العالَم الإسلامي. كان بعضها رسمياً مثل مجلسه حيث يعقد محاضرات. بينما كان بعضها الآخر غير رسمي حيث يتم فيها قراءة ومناقشة كتب نادرة أو ممنوعة أو يتم تبادل الآراء. تم تصوير مجموعة كهذه فيما بعد في كتاب ممتع هو "قراءة لوليتا في طهران" لآزار نفيسي Azar Nafisi. خلال وجودي في بغداد في 1951-1952 استخدمت شقتي الصغيرة كأرض محايدة إلى حد ما من قبل

مجموعة من الغاضبين الشباب والفتيات الذين اجتمعوا لمناقشة الحكومة التي يسيطر عليها البريطانيون. كان البرنامج على العكس من برنامج الأفغاني في القاهرة: كان هو معلم المجموعة بينما كنت أنا تلميذ مجموعتي.

[193←]
رت حوراني في "الفكر العربي في عصر الحرية، 1798-1939" إصدار جامعة أكسفورد 1962 ص 109.

[194←]
رت حوراني في "الفكر العربي في عصر الحرية، ص 113.

[195←]
زال أفضل الكتب عن محمد عبدو هو كتاب تشارلز آدمز Charles C. Adams "الإسلام والتحديث في مصر: دراسة في حركة التغيير الحديثة ورائدها محمد عبدو" إصدارات جامعة أوكسفورد 1933 يقدم إيلي قدوري Elie Kedourie في "الأفغاني وعبدو" إصدار Frank Cass 1966 بعض المواد الجديدة ويحاول أن يظهر الأفغاني وعبدو كملحدين سريين. انظر أيضاً كتابات Keddie المذكورة سابقاً.

[196←]
سعب ترجمة اسم المجلة وهو يعني "الرباط الذي لا يمكن كسره" ولكنه يعني شيئاً مثل ركاب السرج الذي يرفع الشخص. كانت المجلة في وقتها واحدة من المجلات المنشقة والسرية إلى حد ما. في باريس أيضاً أسس Aleksandr Herzen مجلة "الجرس" Kolokol التي أثرت بالمثل على جيل في روسيا.

[197←]
ردت في كتاب Ernest Dawn "من العثمانية إلى العربية" إصدارات جامعة إلينوي 1973 ص 136-137.

[198←]
L. Carl Brow في "حركة الإصلاح الإسلامي في شمال أفريقيا" مقالة في مجلة Journal of Modern African Studies 2 (1964): 55-63 عن Helen Carrere d’Encausse في "الإسلام والامبراطورية الروسية: الإصلاح والثورة في أسيا الوسطى" إصدارات جامعة بيركلي 1988.

[199←]
م غاسبرينسكي حركة التجديد الإسلامية المعروفة باسم "الجديد" التي شَعَّت من بخارى في بداية القرن العشرين. انظر أيضاً كتاب أديب خالد "سياسات التجديد الإسلامي الثقافي: حركة الجديد في آسيا الوسطى" إصدار جامعة بيركلي 1998 ص 80.

[200←]
صدر نفسه ص 124.

[201←]
صدر نفسه ص 109.

[202←]
ات Wilfred Cantwell Smith في الاسلام الجديد في الهند" إصدار لندن، Victor Gollancz 1946 ص 111.

[203←]
ـمد إقبال في "أسرار النفس" وردت في كتاب سميث "الاسلام الجديد في الهند" ص 111-112.

[204←]
ـياء غوكلاب في "أسس التركية" إصدار أنقرة 1337 ص 19-20 بالتركية العثمانية. دراسة حديثة لأفكار غوكلاب وتأثيرها على هيكلية الحكومة والسياسة انظر Markus Dressler في "قراءة جديدة لضياء غوكلاب: العلمانية وتجديد الدولة الإسلامية في أواخر فترة تركيا الفتاة" في مجلة International Journal of Middle East Studies 47. No. 3 (2015): 511 ff.

[205←]
ـرى ذلك عندما أناقش أفكار سيد قطب. أحد كتبه هو عن ذكريات ممتعة عن الحياة في قريته في "طفل من القرية" إصدار جامعة سيراكيوز في نيويورك 2004. مصري كلاسيكي آخر من الجيل نفسه هو طه حسين في "الأيام" ولكن بينما كان قطب يعبر عن الحنين كان حسين انتقادياً. قضى قطب بقية عمره وهو يدافع عن الفضائل التي يمكن إحياؤها عند جميع المسلمين، حتى الفلاحين في القرى، إذا تم فهم الإسلام جيداً وتبنيه بشكل سليم. بينما حسين، الذي عرفته شخصياً في أواخر عمره، أراد أن يبدل كل ما اكتسبه المصريون من "عروبة" أفريقية-آسيوية، والذي لم يكن كثيراً حسب رأيه، والتأكيد على ارتباطاتهم بثقافة البحر الأبيض المتوسط.

[206←]
ـ رحلة عبر صحراء النفوذ العربية قمت بها مع مجموعة من بدو الدواسر أنشدت لهم عند الغسق كل يوم أبياتاً من لكبار شعراء الجاهلية. كنا متعبين من ساعات ركوب الجمال الطويلة والمشي وكنا جائعين وعطشى، ومع ذلك عندما أبدأ الإنشاد يتوقف كل منهم عن متابعة ما يفعله. لم يفهموا بعض الكلمات ولكن التأثير العام كان يشبه التنويم المغناطيسي. وفي مرة أخرى أخذت إلى "كباريه" كان يخدم بدو الروالا الذين كانوا يزورون حلب. عندما دخلت كانت هناك راقصة تؤدي هز البطن. نظرت حولي وأنا أتوقع أن البدو الذين لم يتعودوا على رؤية ذلك سيكونون مبتهجين. كان بعضهم مسروراً بالفعل ولكن محادثاتهم استمرت وتابع الرجال شرب قهوتهم. عندما انتهت الراقصة من عرضها بلفة في ثيابها الشفافة تم استبدالها بامرأة أقل جاذبية بكثير وبثياب أكثر احتشاماً. أنشدت المرأة الشعر وكان التأثير كهربائياً. لم يتحرك أحد وتوقفت الضوضاء ووضعت فناجين القهوة على الطاولات ولم تتحرك سوى شفاه الرجال الذين رأيتهم بجانبي يتابعون معها الإنشاد.

[207←]
ـورت فيما بعد عن الصوفية حركة الديوبندية Deobandi التي أصبحت عسكرية ونشأت فيها عدة حركات مقاومة مثل حركة طالبان في أفغانستان. كانت النقشبندية منتشرة في آسيا، ونشأت عشرات من الطرق الصوفية من أندونيسيا إلى المغرب.

[208←]
ـ البلدة التي عشت فيها أثناء كتابتي تاريخ لبنان "انفتاح جنوب لبنان" إصدارات جامعة هارفارد، 1963، وهي عماطور في جبال الشوف، انقسم السكان الدروز إلى فئتين، أو جُبَّين كما سماهم القرويون. اعتبرت كل منهما نفسها أقارب والأخرى جيراناً. تابعت 276 زواجاً ولم يكن منها سوى 11 مع أزواج من الفئة الأخرى (المصدر نفسه ص 185 والشكل التوضيحي المرفق). وكذلك انقسمت كل فئة منهما إلى أربعة أقسام. ومن الناحية الجغرافية كان كل قسم منها بلدة صغيرة. انتقل هذا التقسيم إلى المهاجرين منهم إلى المدن. ففي كل مدينة كان الجيران يتألفون بشكل رئيسي من أهل القرية نفسها.

[209←]
ـن اسم الكتاب بطريقة العناوين العربية الجذابة هو "تخليص الإبريز في وصف باريز".

[210←]

ن انفجار علم المصريات، وكانت المعابد تُحفر عنها الرمال، والكنوز تَظهر في الأسواق، واللغة الهيروغليفية تفك أسرارها. للبحث في "الوعي" للماضي الدفين اقرأ الكتاب الممتع لجون ويلسون "علامات وعجائب عن الفراعنة" إصدارات جامعة شيكاغو 1964.

[211←]
ا فهم ألبرت حوراني "حب الوطن" في كتاب "أفكار عربية في زمن ليبرالي، 1798-1939 إصدارات جامعة أكسفورد 1962 ص 78-79 بأنه "القوة الرابطة" للمجتمعات، وما أسماه المؤرخ الأفريقي الكبير ابن خلدون "العصبية" يمتد ليس فقط على مجموعة القرابة كما عرفها ابن خلدون بل ينطبق على المكان.

[212←]
تخدمت ترجمة حوراني في المصدر نفسه ص 79 لكتاب الطهطاوي "مناهج الألباب" طبعة القاهرة 1912 ص 99.

[213←]
إنكليزية كان الاسم تقريباً مثل اسماء بعض الصحف الغربية في تلك الفترة: "المتفحص The Examiner" أو حرفياً "الإجابات".

[214←]
نوان بالعربية هو "نفير السورية".

[215←]
A. T. Tibav في "المبشرون الأمريكان في بيروت وبطرس البستاني" في أوراق سان أنتوني تحرير ألبرت حوراني رقم 116 إصدار لندن 1963 ص 171. اطلع الطيباوي على جميع أوراق البستاني غير المنشورة.

[216←]
ور حاكم سيناء الجنرال C. S. Jarvis المصريين بشكل سيئ مهين في كتب مصورة عبرت عن سخط كل رجل انكليزي وامرأة وطفل بكل شيء مصري. "القطات شرقية" طبع ثمانية مرات وكان أكثر شهرة من كتاب "حديقة الله الخلفية". ناقشت سلوكاً مشابهاً من البريطانيين نحو الهنود. بينما على العكس من ذلك فقد أعجب الروس والفرنسيون بجرأة رجال القبائل في القوقاز وجبال الأطلس.

[217←]
لتقط الشرطة السياسية الروسية فكرة الخوف من الإسلامية العامة بعد ذلك بسنوات عديدة. في ثلاثينيات القرن العشرين اعتقد الروس أنهم مهددون بهجوم من "رأسماليين" متنوعين شملوا بينهم حتى الصينيين ومحمياتهم المسلمة في مقاطعة سينكيانغ Sinkiang والمهاجرين الأويغوريين الذين نقلتهم الحكومة السوفييتية السابقة غرباً إلى ما أصبح آسيا الوسطى السوفييتية. David Brophy في "الأمة الأويغورية" إصدارات جامعة هارفارد 2016 ص 220.

[218←]
E. G. Browı في "الثورة الإيرانية 1905-1909" إصدار جامعة كامبريدج 1910 ص 112-113. كان براون الذي شغل كرسي الفارسي في كامبريدج مطلعاً بشكل واسع غير عادي على إيران المعاصرة. قضى سنة في زيارة جميع المواقع الرئيسية والتعرف على كثير من الشخصيات الرئيسية في الحركة الثورية التي وصفها في "سنة بين الفرس" إصدار لندن 1893. كان لديه فهم متمكن من الثقافة الإيرانية وصفه في كتابه الكبير "تاريخ أدبي للفرس" إصدار لندن T. Fisher Unwin 1902.

[219←]

يبدو ذلك الاعتصام غريباً للمراقبين الغربيين إلا أنه ليس فريداً في إيران على الإطلاق. كان من المعتاد عند العرب الرحل أن يمسك المرء بحبال خيمة أحد رجال القبيلة عندما يطلب الحماية والذي يكون عندها مضطراً لحمايته. الأماكن المحرمة كانت معروفة عند العرب (الحرم)، وعند العبرانيين القدماء (خيمة الهيكل)، واليونانيين والرومان (المعابد وحتى البساتين)، وفي أوروبا (الكنائس). في انكلترا العصور الوسطى كان هنالك حوالي 24 مكاناً يمنع على رجال الملك دخولها لمطاردة الخارجين على القانون.

[220←]

ن كثيراً منهم كانوا من العلماء الذين تعلموا العربية فقد كانوا يعرفون أن المفهوم الأساسي لكلمة "عدالة" يتضمن "التوازن" ويشير إلى تعديل وضعية الحمل على السرج لئلا يشد أحد جوانبه الجانب الآخر. ولذا فإن اعتصام مجلس العدالة يؤدي إلى "توازن" الناس مع حكم الشاه وحكومته. يختلف هذا المفهوم عن مفهوم "البرلمان" الغربي حيث يجتمع الناس ويتحدثون في نوع من المجلس كما كان يسمى البرلمان وهو المكان الذي يجلس فيه الناس معاً.

[221←]

Mangol Bay في "ثورة إيران الأولى: الثورة الشيعية والدستورية في 1905-1909" إصدارات جامعة أكسفورد 1991 ص 125.

[222←]

ر الكلمة ذكريات: كما بينت سابقاً فإن جذر الكلمة يعبر عن معناها الأصلي، والجذر "بدد" يدل على معنى قسم وجزأ وفرق وأضعف. وبالطريقة التي استخدمت لوصف الشاه تدل على "الحكم كطاغية" و"الابتعاد عن المجتمع".

[223←]

يمكن التأكد من كلمات التهديد ولكن السياق العام الذي قيلت فيه مذكور في كتاب Browne "الثورة الفارسية" ص 156-161.

[224←]

صدر نفسه ص 121.

[225←]

صدر نفسه ص 127.

[226←]

ما شرحت في الفصلين 6 و10 كان لدى بريطانيا اهتمام إضافي في خنق الصناعة المصرية الناشئة وفتح البلد لبضائع المنتجات الانكليزية.

[227←]

لاعتماد على دراسته للأرشيف الألماني يعتقد الدبلوماسي الانكليزي المؤرخ تايلور A. J. P. Taylor أن بسمارك كان يحاول في الحقيقة أن يستخدم التزاحم الأفريقي لكي يضع القوى الأوروبية ضد بعضها بعضاً. انظر "الكفاح في سبيل السيطرة في أوروبا 1848-1918" إصدار جامعة أكسفورد 1954. ذكر أن بسمارك قال "خريطتي لأفريقيا تقع في أوروبا. هنا تقع روسيا وهنا تقع فرنسا ونحن في الوسط. هذه هي خريطتي الأفريقية". ويعلق تايلور "كان يحاول مصالحة مع فرنسا ولكي يثبت صدقه احتاج إلى خلاف مع انكلترا" ص 294.

[228←]

ِحت وجهة النظر الانكليزية المعاصرة آنذاك (التي يبدو أن الكاتب يوافق عليها) وكذلك سياسة الحكومة في R. E. Robinson & J. Gallagher "تقسيم أفريقيا" في تاريخ كامبريدج الحديث تحرير F. H. HinsleyK الجزء 9 إصدارات جامعة كامبريدج 1970. كما كتبوا فإن رئيس الوزراء Robert Salisbury كان يدفعه الخوف بأنه "لكي نكون بأمان في مصر فقد تبنى سياسة إبقاء القوى بعيداً عن حوض النيل... يكمن الخوف وراء هذه السياسة وحسابات أن قوة أوروبية متحضرة... في حوض النيل... تستطيع تقليل مصادر الماء لتدمير مصر. ولذا اعتباراً من 1890 وضع البريطانيون دائرة على طول النهر وما يجاوره من مومباسا ووادي حلفا إلى بحيرة فيكتوريا نيانزا... ومع حلول 1891 لم يتبقى سوى القليل من أفريقيا لتقاسمه" ص 613.

[229←]

نت روسيا قد وصلت إلى أقصى حدود امتدادها بعيداً عن الحاجز الضخم في جبال هندوكوش. وحتى لو تمكنت من إدخال بعض القوات عبر هذا الحاجز على الرغم من مصاعب النقل المطلوبة فستواجه الجيش البريطاني الهندي الذي كان من أقوى الجيوش في العالم. تلك كانت الحقيقة ولكن المسؤولين البريطانيين في الهند دفعوا بفكرة الخوف من أن القوقاز بطريقة أو بأخرى سيتمكنون من التقدم جنوباً عبر الجبال والصحراء ليقتحموا الهند. كانت المعلومات الاستخبارية آنذاك وفي هذه الأيام تحرك القيادات الحكومية للقيام بأعمال عالية التكاليف وغير ضرورية وغير مفيدة في أغلب الأحيان، ولكن الخوف جعلها مبررة.

[230←]

ن ذلك التصور مستمراً عندما زرتُ الأسواق في العراق وسورية والجزيرة العربية بأن التجار الإنكليز كانوا يعتقدون بأن الأقمشة القطنية تستخدم كمناديل وأن أغطية الرأس يجب أن تكون بيضاء وذلك ما كانوا يبيعونه. بينما سأل التجار الألمان عما يريده الزبائن. كانوا يرغبون بالأقمشة ذات الألوان الساطعة وذلك ما قدمه الألمان.

[231←]

ِدت في James Joll "أوروبا منذ 1870" إصدار لندن 1973 ص 83.

[232←]

ط جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا في الخمسينيات فكرة الجدار الوطني بسلسلة من الأحلاف: الناتو وحلف بغداد وحلف جنوب شرق آسيا. أعاد حلف CENTO خلق السياسة البريطانية لحماية الهند. ومن السخرية أن أمريكا لم يكن لديها "هند" لتحميها في عصر دالاس ولكن حقول البترول في الجزيرة العربية وإيران حلت محل الهند في الاستراتيجية البريطانية.

[233←]

لور في "الكفاح في سبيل السيطرة على أوروبا" ص 290.

[234←]

لت فيما بعد عن منطقة الموصل بحقلها البترولي الضخم مقابل مشاركتها في الشركة الحكومية البريطانية التي تم تأسيسها لاستغلال البترول في كافة أنحاء مناطق السيطرة البريطانية في الشرق الأوسط.

[235←]

قت روسيا سراً هدفها المنفصل لأخذ المضائق التركية في اتفاقية سرية أنكلو-روسية تم توقيعها في مارس 1915 مقابل الاعتراف بالسيطرة البريطانية على مصر.

[236←]

يك هوبزباوم في "عصر الامبراطوريات، 1875-1914" إصدار Random House 1989 ص 60.

[237←]
ليام هوكينغ في "روح السياسة العالمية" إصدار Macmillan 1932 ص 5.

[238←]
ليام لانغر في "دبلوماسية الأمبريالية، 1890-1902" إصدار نيويورك، Knopf 1951. ص 68 وص 80-83.

[239←]
به ذلك ما سوف أذكره لاحقاً عن مشاعر العمال الأمريكيين هذه الأيام في مصانع الأسلحة.

[240←]
فس سلسلة من المقالات التي تم تلخيصها في Nicolas Bancel, Pascal Blanchard, and Sandrine Lemaie "حدائق الحيوانات البشرية الأمثلة المنسية لفترة الاستعمار" في كتاب "حدائق الحيوانات البشرية" إصدار باريس 2004 ص 63-71. في الوقت نفسه تمت تسلية الأمريكان في حديقة حيوانات برونكس بمناظر الأقزام.

[241←]
نت الوحدة الخاصة من الجيش العثماني بقيادة ضابط شركسي وتألفت من متطوعين من كافة أنحاء العالَم الإسلامي من القوقاز وأفغانستان حتى البلقان والشرق الأوسط إلى شمال أفريقيا والسودان. كانوا يمثلون تعبيراً عن الالتزام الإسلامي العام. انظر Benjamin C. Fortna في "الشركس: حياة أشرف بيه، المتمرد العثماني المتأخر والعميل الخاص" إصدار هيرست 2016 ص 152.

[242←]
جيل ما حدث مأخوذ من مذكرات دونالد ستورز "التوجهات" إصدار لندن 1937 ص 148.

[243←]
نت محادثات حسين-ماكماهون سرية مثل محادثات واتفاقية سايكس بيكو. كان مضمونها موضوع توقعات ساخنة ولكنها لم تعلن رسمياً إلا في 1939 عندما نشرتها الحكومة البريطانية في "مراسلات بين السير هنري ماكماهون والشريف حسين في مكة يوليو 1915-مارس 1916 Cmd رقم 5957 إصدار لندن HMSO 1939، ودرست في "تقرير لجنة شكلت لبحث مراسلات معينة بين السير هنري ماكماهون وشريف مكة في 1915 و1916 6974Cmd إصدار لندن HMSO 1939.

[244←]
رنس وحملته كانت موضوع الأسطورة الرومانسية الكبرى في الحرب العالمية الأولى. في الحقيقة كانت حملة صغيرة بأسلوب الغزوات العربية التقليدية كمل بينت في الفصل 19. الحرب الحقيقية في الامبراطورية العثمانية كانت في العراق حيث أجبرت القوات العثمانية استسلام 13,309 من الجنود البريطانيين-الهنود الذين بقوا على قيد الحياة، والحملة المهمة جداً والعالية التكاليف في غاليبولي، والحرب الروسية-التركية في القوقاز. كانت الحرب في شبه الجزيرة العربية مجرد حادثة جانبية. تتضح النظرة البريطانية إليها من تراجعهم عن أهم وأكثر وعودهم للشريف إلحاحاً وهو إمداده بفرقة من الجنود البريطانيين في جدة وسرب من الطائرات لمواجهة طائرات الأتراك التي كانوا يرسلونها لقصف مواقع العرب.

[245←]
ن الحاكم العسكري لسورية هو جمال باشا الذي عرف عن التحركات الانفصالية للقوميين العرب وكتب فيما بعد أنه بعد اكتشافه في سجلات القنصل الفرنسي دليلاً على خطط العرب للثورة حرك بسرعة الوحدات العربية في الجيش التركي بعيداً عن سورية. قال إنه كان "يرجع الفضل وحده إلى الإعدامات (القوميين العرب الذين شك بأنهم محرضون في 1915-1916) التي منعت الثورة في سورية" جمال باشا في "مذكرات رجل دولة تركي" إصدار لندن Hutchinson

1922 ص 205. النضال ضد الطليان في ليبيا كان بذرة أخرى للقومية العربية. كان بين المتطوعين في الحرب المصري عبد الرحمن عزام الذي سيساعد في تأسيس الجامعة العربية ويصبح سكرتيرها العام. كتب فيما بعد "عندما كنت طفلاً كنت مصرياً مسلماً. لم يتغير كوني مصرياً ومسلماً، ولكن منذ 1919 ومع احتلال سورية والعراق بدأت الحديث عن العروبة. ساعدتني الحياة مع البدو تدريجياً لجعلي مؤيداً لشيء عربي. كانت جمهورية طرابلس عاملاً حاسماً في تحولي إلى العروبة". أوردها Ralph Coury في "العرقية العربية والقومية العربية: حالة عبد الرحمن عزام" في Journal of the American Research Center in Egypt 25(1988):69.

[246←]

ورز "التوجهات" ص 154.

[247←]

Ray Stannard Bak في "وودرو ويلسون واستقرار العالَم" إصدار نيويورك Doubleday 1922 ص 1:262.

[248←]

جد تقرير جيد عنها في كتاب أندرو باتريك "المبادرة الأمريكية المنسية في الشرق الأوسط" إصدار نيويورك Taurus 2015.

[249←]

تلم ابن عمي فرانك بولك Frank Polk رئاسة الوفد الأمريكي لمؤتمر السلام من الرئيس ويلسون عند عودته إلى واشنطن. عندما اكتشف رئيس الوفد العربي الأمير فيصل أن البريطانيين والفرنسيين قد تنصلوا من وعودهم المتكررة بالسماح "بتأسيس حكومات وطنية وإدرارت تستمد سلطتها من حق تقرير المصير للشعوب المحلية" لجأ إلى فرانك للتوسط. أجابه أنه لا يستطيع ذلك إلا إذا وافق البريطانيون والفرنسيون على ذلك. وبما أنه كان قد حاول جاهداً معهم لكي يسمحوا له بمجرد حضور الاجتماعات المهمة في المؤتمر فقد عرف أنهم لن يوافقوا. ولذلك حرض الموفدين العرب على البحث عن حلفاء آخرين، خاصة الصهاينة. جمعت أوراقه الرسمية ومذكراته في Frank L. Polk Papers, Manuscripts and Diaries إصدار مكتبة جامعة ييل. ورد تقرير الاجتماع بتاريخ 17 أكتوبر 1919.

[250←]

E. L. Woodward & R. Butl في "دمشق في السياسة الخارجية البريطانية، 1919-1939" السلسة الأولى. الجزء الرابع 1919 إصدار لندن HMSO 1952 ص 364-365.

[251←]

غراف من بغداد السياسية إلى وزير خارجية الهند، لندن رقم 9926 في 16 نوفمبر 1918. مكتب السجلات الوطنية.

[252←]

سف ذلك بعناية Aaron Klieman في "أسس السياسة البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة 1921" إصدار بالتيمور مطبوعات جامعة جونز هوبكينز 1970، ودرسه David Fromkin في "سلام لإنهاء كل سلام" إصدار نيويورك Holt 1989.

[253←]

، كتابي "فهم العراق" إصدار نيويورك HarperCollins 2005 ص 80-81.

[254←]

David Omis في "الصباهي والراج: الجيش الهندي 1860-1940" دراسات في التاريخ العسكري والاستراتيجي، إصدار لندن 1994 Kings College ص 213.

[255←]

ى عكاوي في "بناء منهاج التعليم في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية ومشاكل الدولة" إصدار نيويورك، مطبوعات جامعة كولومبيا 1942 ص 186-187. أصبح عكاوي فيما بعد المدير العام للتعليم.

[256←]

Paul Monr في "تقرير لجنة الاستقصاء التعليمية" إصدار بغداد، المطبوعات الحكومية 1932 ص 37.

[257←]

تدى الفاشيون الطليان وأعضاء حركة "البيطار" اليهودية المؤيدة للفاشيين قمصاناً سود، والنازيون قمصاناً بنية، والكتائب الاسبانية قمصاناً زرقاء، والفاشيون النرويجيون قمصاناً صفراء، وهكذا.

[258←]

نست داوسون في "تحقيق في ملكية الأرض ومسائل أخرى" إصادر بغداد، 1932 Garden City ص 20.

[259←]

ر ثيودور هرتسل أنهم عندما وصلوا حتى إلى مدن متحضرة مثل برلين قابلهم الأمر الصريح "اطردوا اليهود". في "الدولة اليهودية" إصدار نيويورك، مجلس الطوارئ الأمريكي الصهيوني 1940 ص 85-86.

[260←]

ودة إلى فلسطين" في "New Libral Review" عدد ديسمبر 1901. في الواقع كانت تلك الولاية العثمانية آنذاك أكثر كثافة سكانية بمرتين على الأقل من الولايات المتحدة الأمريكية.

[261←]

ِدت في Yonatan Mendel "فرّق ثم فرّق ثم فرّق ثم احكم" مراجعة سنة 1929 في "1929: السنة الأولى للصراع العربي الإسرائيلي" للمؤلف Hillel Cohen في London Review of Books عدد 6 أكتوبر 2016 ص 14.

[262←]

ِدت في Leonard Stein "وعد بلفور" إصدار لندن 1961 Valentine-Mitchell ص 64.

[263←]

Ste "وعد بلفور" ص 64-65.

[264←]

ضح خوف الانكليز من فيض اللاجئين اليهود في تقرير 1903 للجنة الملكية عن الهجرة الأجنبية. تم تأكيد نتائج التقرير من جهة وزير الخارجية السابق الكولونيل جوزيف تشامبرلين في خطاب بتاريخ 15 ديسمبر 1904 خاطب فيه الجمهور "أنتم تعانون من الاستيراد غير المحدود من البضائع الرخيصة، كما أنكم تعانون من الهجرة غير المحدودة من الذين يصنعون هذه البضائع... كيف يمكن إنقاذهم دون أذية شعبنا في الوطن؟" تابع قائلاً أن "أفضل حل" هو إيجاد مكان آخر بعيد عن انكلترا "حيث يمكنهم العيش دون أن يؤثّروا بأي شكل بمعيشة آخرين". اعتقد أن شرق أفريقيا الذي تحكمه بريطانيا سيكون مثالياً". المصدر نفسه ص 32-33.

[265←]
Richard H. G. Gotth في "الصهيونية" إصدار فيلادلفيا، جمعية النشر اليهودية الأمريكية 1914 ص 66.

[266←]
Ste "وعد بلفور" ص 59.

[267←]
لاحظات السيد بلفور بشأن سورية وفلسطين وما بين النهرين" في 11 أغسطس 1919 طبعت في E. L. Woodward & Rohan Butler "وثائق عن السياسة الخارجية البريطانية، 1919-1939" لندن HMSO 1952 ص 341.

[268←]
ذكرة عن إدارة فلسطين تحت الانتداب" إصدار القدس، المطبوعات الحكومية 1947 ص 4.

[269←]
قرير إلى مجلس عصبة الأمم عن إدارة فلسطين تحت الانتداب" إصدار لندن، مكتب المستعمرات 1932.

[270←]
بق ذلك النظام نفسه هذه الأيام في أجزاء مختلفة من أفريقيا لتقليد استثمار الأجانب، خاصة الصينيين. وكما كان القرويون الفلسطينيون، يهجر القرويون الأثيوبيون من أراضيهم أو يحوَّلون إلى أقنان يعملون فيها.

[271←]
رنس أوليفانت في "حيفا، أو الحياة في فلسطين الحديثة" إصدار لندن 1887 ص 60.

[272←]
Dr. Arthur Ruppin خبير الأراضي التابع للوكالة اليهودية أنه "هنالك حوالي مليوني دونماً (نصف مليون فدان) من الأرض في فلسطين يمكن أن يعيش عليها عدد من الناس يساوي عدد من يعيش في بقية الدولة... هذه الأرض ذات الخصوبة العالية تقع بكاملها تقريباً ضمن الدولة اليهودية حسب خريطة اللجنة الملكية (سنة 1936). وردت في كتاب أرنولد توينبي "دراسة في العلاقات الدولية" إصدار لندن Royal Institute of International Affairs 1937. 1:545.

[273←]
Fenn Morr في "الضحايا المُحِقُّون: تاريخ الصراع الصهيوني-العربي، 1939-1981" إصدار لندن John Murray 1999 ص 136.

[274←]
ير اللجنة الملكية. إصدار لندن HMSO 1937 الفصل الرابع ص 121 الفقرة 36.

[275←]
صدر نفسه، الفصل الأول، ص 8 الفقرات 16-17.

[276←]

ريطانيا العظمى وفلسطين، 1915-1945" أوراق معلومات 20 إصدار لندن، Royal Institute of International Affairs 1946 ص 26-27.

[277←]
ر تصريحهم في تقرير اللجنة الملكية ص 401-403.

[278←]
صدر نفسه ص 370-372.

[279←]
عت في "دراسة عن فلسطين" القدس، المطابع الحكومية 1946، 1:73.

[280←]
هدثُ ذلك عندما أقمت شهراً في القدس سنة 1946.

[281←]
م وصم أولئك الذين أظهروا الأدلة والنتائج علناً بمعاداة السامية، مثل Christopher Mayhew & Michael Adams في "لا تنشرها: التستر في الشرق الأوسط" إصدار لندن، لونغمان 1975.

[282←]
لر الصحفي الإسرائيلي Benny Morris في "ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، 1947-1949 إصدار مطبوعات جامعة كامبريدج 1987، والباحث الإسرائيلي Ilan Pappe في "التطهير العرقي في فلسطين" إصدار لندن Oneworld 2006. استند الكاتبان على سجلات الحكومة الاسرائيلية.

[283←]
يدة Sunday Times لندن. عدد 14 يوليو 1969.

[284←]
Ernest Ramasaur. في "تركيا الفتاة" إصدار مطبوعات جامعة برنستون 1953 ص 95.

[285←]
يقة عامة يتبعها الإعلاميون كما اكتشفت في واشنطن هي بادعاء أن المسؤول الذي يحاولون الاقتراب منه هو عالم ببواطن الأمور، يتوقع أن يحاول المسؤول عندها إثبات عدم صحة ذلك بإظهار ما يعرفه أو بادعاء أنه يعرف مسبقاً ما يريد الإعلامي اكتشافه. ذلك بالضبط هو ما تم عمله مع عضو جمعية تركيا الفتاة لكي يكشف خطة الانقلاب.

[286←]
سفت استخدام الشيفرة منذ اسبرطة القديمة حتى عصرنا الحالي في "الجيران والغرباء: أسس العلاقات الدولية" إصدار جامعة شيكاغو 1997 ص 187 ff.

[287←]

تخدم هذا النظام أيضاً الإخوان المسلمون في مصر في ثلاثينيات القرن العشرين وكذلك المتمردون في مدينة الجزائر في الخمسينيات.

[288←]
Dankwart A. Rusto في "أتاتورك كمؤسس لدولة" Dadalus 97 (1968): 795.

[289←]
ـطبة مصطفى كمال أتاتورك، 1927" اسطنبول. مطبعة وزارة التعليم، 1963 ص 1.

[290←]
صدر نفسه. لا بد أن هذا الأمر كان مزعجاً له شخصياً لأن عميلاً بريطانياً كان قد حاول اغتياله كما ذكرتُ سابقاً.

[291←]
صدر نفسه ص7.

[292←]
صدر نفسه ص 577.

[293←]
صدر نفسه ص 738.

[294←]
دما تغيرت رياح الحرب لصالح البريطانيين تخلى عنه رجال القبائل. على العكس من لورنس الذي ظل ممجداً. تم نسيان فاسموس. ذكرت رسالته إلى رجال قبيلة البختياري في Peter Hopkirk "في مهمة سرية شرق اسطنبول" إصدار لندن John Murray 1994 ص 111.

[295←]
Gavin R. G. Hamb في "سلالة حكم البهلوي: شاه رضا 1921-1941" في "تاريخ كامبريدج لإيران" تحرير Peter Avery, Gavin Hambly & Charles Melville إصدار مطبوعات جامعة كامبريدج 1991 7: 215-216,

[296←]
Martin Gilbe في "تاريخ القرن العشرين" إصدار نيويورك، I:II، William Morrow 1997.

[297←]
كن ترجمة كلمة"أزاديستان" من الفارسية بأنها "الأرض الحرة". ستتبنى الاسم فيما بعد عصابات كشمير المسلمة.

[298←]
David Omis في "الجنود الهنود والراج: الجيش الهندي 1860-1940" دراسات في التاريخ العسكري والاستراتيجي" إصدار لندن، Kings College 1994 ص 132-133.

[299←]
صدر نفسه ص 216، 238.

[300←]
ِرج أورويل في "أيام بورما" إصدار نيويورك Harpers 1934 ص 68.

[301←]
Ferdinand Mou في "البنّاؤون والمهدمون" في London Review of Books عدد 31 مارس 2016.

[302←]
جد ملخص عن السلوك البريطاني نحو الهنود لدى R. C. Majumdar في "العلاقات الاجتماعية بين الرجال الإنكليز والهنود" في "الغلبة البريطانية والنهضة الهندية "تحرير K. M. Munshi & R. C. Majumdar المجلد العاشر، الجزء الثاني من "تاريخ وثقافة الشعب الهندي" تحرير R. C. Majumdar إصدار بومباي 1965 ص 337. يذكر المؤلف عشرات الأمثلة ويلخص: "من المحتم أن يكون سلوك المحتلين نحو الأعراق المستعمرة خشناً ومتكبراً، أو متنازلاً في أحسن الأحوال، ولم يكن الرجال الانكليز استثناء لهذه القاعدة".

[303←]
صدر نفسه.

[304←]
ِدت في المصدر نفسه ص 337.

[305←]
صدر نفسه.

[306←]
صدر نفسه ص 348.

[307←]
ِدت في Omissi "الجنود الهنود والراجا" ص 194.

[308←]
ن السياسة البريطانية في المجاعات انظر ما كتبه الصحفي ورجل الدولة الهندي Shashi Tharoor في "الامبراطورية غير العظمى: ما فعله البريطانيون في الهند" إصدار لندن، هيرست 2017. "من 1770 حتى 1900 يقدر أن 25 مليون هندي ماتوا من المجاعات... وقتلت المجاعات في القرن العشرين أكثر من 35 مليوناً (ص 151). وعن منع البريطانيين المساعدات الغذائية خلال الحرب العالمية الثانية كتب "لا يبرر شيء سلوك ونستون تشرشل المشين الذي أمر قصداً بتحويل الطعام بعيداً عن المدنيين الهنود الجائعين إلى الجنود البريطانيين الذين تمتعوا بتموين جيد، بل وحتى لزيادة التخزين الأوروبي في اليونان وغيرها". ص 160.

[309←]
R. C. Majumdar & K. K. Dat في "النظام الإداري" في Munshi & Majumdar "الغلبة البريطانية والنهضة الهندية" المجلد التاسع الجزء الأول ص 1، 828، 835-836.

[310←]
صدر نفسه ص 970.

[311←]
طاب كورزون سنة 1892 أمام البرلمان، ورد في المصدر نفسه بشكل جزئي ص 768-769.

[312←]
صدر نفسه ص 769.

[313←]
Gauri Viswanatha في "أقنعة الاحتلال: دراسة أدبية والحكم البريطاني في الهند" إصدار لندن، Faber & Faber 1990 ص 148.

[314←]
ردت في R. C. Majumdar & K. K. Datta في "التعليم الانكليزي" في Munshi & Majumdar "الغلبة البريطانية والنهضة الهندية" المجلد العاشر، الجزء الثاني ص 46.

[315←]
ى المعهد من أضرار التقسيم وتطور إلى واحد من أهم الجامعات الهندية، ويعرف الآن باسم جامعة عليكرة.

[316←]
لما كتب James Joll في "أوروبا منذ 1870" إصدار لندن 1973 ص 82 "كانت هنالك قلة من عائلات الطبقة المتوسطة ممن لم يكن لديها بعض الصلات بالامبراطورية الهندية من خلال ابن في الإدارة الهندية أو قريب في الجيش".

[317←]
ه القضية ومسائل غيرها عن المفاوضات أثناء وبعد الحرب وضعها Stanley Wolpert بالتفصيل في كتابه الممتاز "تاريخ جديد للهند" إصدار نيويورك، مطبوعات جامعة أكسفورد 1989، وفي "جناح باكستان" إصدار نيويورك، مطبوعات جامعة أكسفورد 1984.

[318←]
نت أسباب المجاعة، التي ضربت السكان المسلمين في البنغال (بنغلاديش فيما بعد) بشكل خاص، كانت طبيعية في البداية (عواصف شديدة وأمواج عاتية وإعصار) ولكنها ازدادت تأثيراً بسبب نظام الضريبة وفشل التوزيع والفساد وفشل الحكومة في التصرف. رفض تشرشل شخصياً أن يسمح بتحويل سفن الشحن لتخفيف المجاعة سنة 1943. أصر هو واللورد لينليثغو على الرغم من مواجهتهم بالحقائق على أنه لا توجد مجاعة هناك. وهكذا توفي الملايين.

[319←]
ف ما سمي بالجيش الهندي الوطني من ثلاثين ألف جندياً كان البريطانيون قد سلموهم عند سقوط سنغافورة. كان بوز ونهرو وغاندي من زعماء الحركة الوطنية الهندية وكان يحظى بتأييد شعبي كبير ربما أكثر من نهرو في الهند حيث كان يعرف بلقب "نيتاجي" أي "القائد المحترم". كانت الحملة مدعومة أيضاً بالزعيم البورمي أونغ سان، والد الزعيمة الحالية أونغ سان سو كي. وصلت الحملة إلى الهند ولكنها تلاشت سنة 1945 وقبض على كبار ضباطها وتمت محاكمتهم، إلا أن المحاكمة أصبحت درساً في الوطنية الهندية وأصبح الضباط المدانون أبطالاً وطنيين. انظر Sugata Bose في "خصم الملك" إصدار كامبريدج، مطبوعات جامعة هارفارد 2011.

[320←]

ن هذه القضية انظر Jaswant Singh في "جناح والتقسيم والاستقلال" إصدار مطبوعات جامعة أكسفورد 2011.

[321←]

Wolpe في "تاريخ جديد للهند" ص 342.

[322←]

رت في "جناح باكستان" ص 294.

[323←]

لر Ishtiaq Ahmed في "البنجاب المدماة والمقسمة والمطهرة عرقياً: كشف مأساة 1947 في تقارير بريطانية سرية وتقارير شهود عيان" إصدار كراتشي، الباكستان، مطابع جامعة أكسفورد 2012.

[324←]

طاب 11 أغسطس 1947 إلى مجلس نواب باكستان، نشر في جريدة "الفجر" عدد 14 أغسطس 1947.

[325←]

سين حقي في "الانفصال ليس صعباً" في مجلة Foreign Affairs، عدد مارس/أبريل 2013.

[326←]

International Institute for Strategic Studi في "التوازن العسكري 2013" إصدار لندن Routledge 2013.

[327←]

سريح: كنا في العمر نفسه تقريباً، ودرس كلانا العلوم السياسية، كما درسنا في أكسفورد وتعرفنا إلى بعضنا بعضاً عندما كانت ابنتي وابنه مير Mir وابنته بيه نظير Benazir طلاباً في هارفارد وعندما قضت ابنتي صيفية كضيفة على عائلة بوتو في باكستان.

[328←]

ردت في "طموح باكستان النووي" مجلة Economist عدد 3 يناير 2008. كان بوتو يدرك جيداً أن السعي للحصول على القوة النووية يقتضي أيضاً السعي وراء أحدث التطورات في العلم والتكنولوجيا. كان يخشى أنه إذا تنحت باكستان جانباً فإن ذلك سيؤدي إلى "سيفرض محدودية معوقة على تطور باكستان في العلوم والتكنولوجيا". ولكي يتجنب ذلك أسس معهد الفيزياء النظرية سنة 1967 على أعلى المستويات، وعندما عاد عبد القادر خان عالم الفيزياء النووية إلى باكستان سنة 1972 تسارع العمل على توجيه الأبحاث الذرية عسكرياً.

[329←]

ن الخطأ في حسابات باكستان بشأن الأسلحة النووية كرادع خلال أزمة كشمير 1999 انظر Owen Bennett Jones في "باكستان: في عين العاصفة" إصدار نيوهافن، مطبوعات جامعة ييل 2002.

[330←]

طاب رئيس الوزراء للأمة في شبكات الراديو والتليفزيون في 20 ديسمبر 1975. موقع بوتو.

[331←]

ير معهد سياسات التنمية المستدامة في باكستان. مجلة Statesman عدد 25 سبتمبر 2012. وهذا يساوي تقريباً 59 مليون شخص. أي أن أعماله أدت إلى رفع 25 مليون شخص فوق مستوى الفقر. ولكن يظل حتى الآن ثلاثة من كل أربعة بيوت ريفية في منطقة بلوشستان يعيشون تحت مستوى الفقر. Ashfak Bokhar في "انحراف ملكية الأرض والفقر الريفي المزمن" جريدة الفجر، عدد 15 أكتوبر 2012.

[332←]

ن في برنامجه كثير مما يمكن أن يوجه إليه اللوم وبعض ما هو غير قانوني. لم يكن بوتو محرراً مدنياً ولم يهزم المعارضة بلطف وكرم حتى عندما كان عليه أن يقوم بذلك قانونياً. عندما اعترض زعماء بلوشستان على سياساته طردهم من مراكزهم وأرسل الجيش لقمع المظاهرات الشعبية. قُتل عدة آلاف من المتظاهرين. وفي حادث آخر عندما رفض قادة الجيش العمل ضد الشرطة صرفهم بوتو من وظائفهم. والأسوأ أنه وافق على إدراج فقرة في دستور 1973 تصرح بأن أعضاء الطائفة الأحمدية المنشقة عن الإسلام لا يعتبرون مسلمين.

[333←]

R. K. Parm في "تاريخ حكم المسلمين في كشمير، 1320-1819" إصدار دلهي، People's Publishing House، 1969 ص 432. بارمو معاد للإسلام بشكل عام ويسعى لإثبات أن التحول إليه لم يكن في البداية سوى نوعاً من سياسة البحث عن الأمان.

[334←]

مد اسحاق خان في "تحول كشنير إلى الإسلام: دور المسلمين الريشيين" إصدار نيودلهي، مانهور 2002. وحميد نسيم رافيأبادي في "الصوفية والريشية في كشمير: الجوانب غير المعروفة لبعض الطرق الصوفية" إصدار Srinagar, Jammu and Kashmir: City Book Center 2011.

[335←]

ن سعر صرف روبية ناناك شاهي الفضية (التي سكت في سريناغار سنة 1819) حوالي شلن استرليني واحد. سكت كل واحدة من بقية الإمارات المستقلة عملتها الخاصة. ولأن كشمير كانت مركزاً تجارياً نشيطاً استخدمت عملتها جميع عملات أفغانستان وشركة الهند الشرقية والإمارات الهندية والبنجاب وغيرها.، خاصة في سريناغار. Charles Baron von Hugel في "كشمير تحت حكم المهراجا رانجيت سينغ" ترجمه وعلق عليه D. C. Sharma إصدار نيودلهي Atlantic ص 70.

[336←]

اهدة أمريستار 1846 في ويكيبيديا. البند الأول.

[337←]

ط الأمر قليلاً: غلاب سينغ كان من "الدوغرا" أي فرد من فئة عرقية لها لغتها الخاصة: الدوغرا (التي تعترف بها الهند الآن كإحدى اللغات الوطنية). وكانوا قد تحولوا إلى الإسلام في زمن غورو ناناك. سكن بعض الدوغرا منطقة جامو من كشمير، بينما سكن أغلبهم في البنجاب، وكان من بينهم غلاب سينغ.

[338←]

مة "بانديت" كما تستخدم في كشمير تدل على فرد من مجموعة كبيرة في المجتمع تتألف من عدة طبقات ويبلغ تعدادها أكثر من مئة ألف، ويشغل أفرادها عادة مناصب الموظفين ومحصلي الضرائب والعاملين في الخدمة الاجتماعية. بينما هي في الهند لقب نبيل يحمله رجل عالم بالكتب والقوانين الهندوسية وكان اللقب الرسمي للمرشد الديني للمحكمة العليا.

[339←]

، تقرير المسؤول السياسي البريطاني الكابتن Clade Martin Wade إلى مستشار الحاكم العام السير William Macnaghten Moorcroft في MS EUR D. 264 ص 38 India Office Library, London وردت في Hugel "كشمير" ص 53.

[340←]
صدر نفسه. انظر أيضاً الكابتن Claude Martine Wade ورد في M. J. Akbar "كشمير خلف الحجاب" إصدار دلهي Viking Penguin 1991. ورد النص نفسه على لسان الوزير الهندوسي Albion Bannerji لدى طارق علي "صراع الأصوليات: الصليبيين والجهاديين والحداثة" إصدار لندن Verso 2002 ص 225.

[341←]
Sumantra Bo في كتابه الممتاز "كشمير: جذور المشكلة، الطرق إلى السلام" إصدار مطبوعات جامعة هارفارد 2003 ص 17-18.

[342←]
Prem Nath Baz في "داخل كشمير" إصدار Jammu and Kashmir: Mirpur 1941 ص 252 وردت في Bose "كشمير". ص 16.

[343←]
م الشيخ محمد عبد الله يسبب الالتباس، فاسمه الأول كان محمد، والاسم الثاني هو اسم الأب عادة، أو أحياناً اسم فئة أو قبيلة أو مكان. ويستخدم كثيراً في المصادر الهندية كاسم للعائلة. لجأتُ إلى الشكل التقليدي باستخدام اسمه الأول ولقبه "الشيخ". وعندما يوجد احتمال سوء الفهم أستخدم الاسم الكامل لأن ابنه وحفيده تبعاه في كونهم سياسيين رئيسيين أيضاً.

[344←]
ت بتبسيط الأمر باستخدام اسم كشمير. كانت جامو هي المدينة الثانية وكانت في الأصل دولة-مدينة منفصلة. تم ضمها إلى كشمير عندما باعها البريطانيون إلى غلاب سينغ سنة 1846، واستمر الاسم الثنائي مثلما كان الأمر في هذه المنظمة.

[345←]
دت في علي "صراع الأصوليات" ص 236.

[346←]
صدر نفسه ص 234.

[347←]
صدر نفسه ص 235.

[348←]
Christopher Snedd في "فهم كشمير والكشميريين" إصدار لندن. هيرست 2015 ص 182.

[349←]
قيع اتفاقية انضمام جامو وكشمير إلى الهند لم يساعد المهراجا هاري سينغ، ففي سنة 1949 أجبرته الحكومة الهندية على التخلي عن سلطاته وأن يغادر الجزء الذي احتلته الهند من دولته. توفي في بومباي (وهي الآن مومباي) سنة 1962.

[350←]
ار مجلس الأمن رقم 47، الوثيقة رقم S/726 في 21 أبريل 1948.

[351←]
ا الحزب يشابه تقريباً حزب الليكود الإسرائيلي اليميني.

[352←]
Pankaj Mish في "ولادة أمة" New York Review of Books عدد 5 أكتوبر 2000.

[353←]
صدر نفسه.

[354←]
Kaz de Jong et في "كشمير: العنف والصحة" إصدار أمستردام، أطباء بلا حدود 2006 ملخص تنفيذي.

[355←]
صدر نفسه ص 2.

[356←]
صدر نفسه ص 3.

[357←]
مختفون في كشمير" قناة الجزيرة في 18 أبريل 2011.

[358←]
، التقرير أيضاً عن متحدث باسم هيئة مراقبة حقوق الإنسان قوله إن أعمال قوات الأمن "تشمل الضرب إلى التعذيب الشديد وحتى القتل بلا محاكمة". وردت في Andrew Buncombe "التعذيب في كشمير هو أمر مضى، تقول الهند" في صحيفة Independent عدد 18 ديسمبر 2010.

[359←]
Jason Burl في "برقيات ويكيليكس: الهند تُتهم بالاستخدام المنهجي للتعذيب في كشمير" في صحيفة الغارديان عدد 16 ديسمبر 2010.

[360←]
در أول قانون السلطات الخاصة للقوات المسلحة (AFSPA) سنة 1958 يمنح سلطات خاصة للقوات المسلحة فيما أسماها "مناطق التوتر". تم توسيعه في يوليو 1990 ليشمل جامو وكشمير.

[361←]
Buncoml "تعذيب كشمير". عمر عبد الله رئيس وزراء كشمير هو حفيد الشيخ محمد عبد الله.

[362←]

ئيس الحزب سيد صلاح الدين ينذر باكستان" في صحيفة Nation لاهور، باكستان، عدد 17 مايو 2013.

[363←]

قع Dawn.com في 6 يناير 2013: "المجموعات المسلحة تتابع القتال" Pakistan Observer عدد 28 يناير 2013.

[364←]

ضع احتلالهم لماليزيا في السياق فقد كان ذلك بعد أن عبر كولومبوس الأطلسي إلى أمريكا بحوالي عشرين سنة، وحوالي ثلاث عشرة سنة بعد أن عبر فاسكو دى غاما المحيط الهندي إلى الهند.

[365←]

ت ظروف معيشة العمال الصينيين مروعة، وكان يموت منهم حوالي نصف القادمين كل سنة بسبب الملاريا والبري بري والجوع. وللمحافظة على استمرار الباقين بالعمل أعطاهم تجار المخدرات الأفيون. لم يهتم أحد بهم فقد كان هنالك دائماً مزيد من الصينيين الجائعين لسد الفراغ.

[366←]

، بورما القريبة قامت OSS بواحدة من أفضل عملياتها تحت إشراف أحد أصدقائي وزملائي Roger Hilsman. نشر تقريره "فدائي أمريكي: حربي وراء الخطوط اليابانية" إصدار نيويورك Brassy’s 1990.

[367←]

ن القتال بشكل رئيسي بين رجال العصابات الشيوعية، ومعهم المتمردين الذين تدربوا في المعارك وسلحهم البريطانيون والأسلحة اليابانية التي حصلوا عليها، ضد وحدات الجيش البريطاني الجيدة التسليح ومعها قوات من روديسيا وجنود المستعمرات. لم يزد عدد المتمردين عن حوالي ثمانية آلاف مقاتل بينما زاد عدد المقاتلين في القوات البريطانية إلى أربعة أو خمسة مقابل كل متمرد. كان قائد جيش التحرير الوطني الماليزي صيني شيوعي اسمه شين بينغ Chin Peng الذي كتب وصفه للأحداث في "الاسم المستعار شين بينغ: جانبي من القصة: ذكريات قائد ثوري" إصدار سينغافورة Media Masters 2003. أصبحت التكتيكات البريطانية نموذجاً لحرب فييتنام فيما بعد في عمليات البحث والتدمير واستخدام Agent Orange لإزالة أوراق الأشجار في الغابات والقصف الجوي على نطاق واسع.

[368←]

ولت مجموعات إسلامية صغيرة أن تشكل معارضة للحكومة الماليزية التي تستند إلى قاعدة عريضة، وكانت الحكومة حريصة على وصفهم بأنهم مجموعات منحرفة صغيرة. عملت ضد أولئك الذين اتهمتهم بإثارة الخلل في التوازن الذي توصلت إليه مع الجزء الهندي من الماليزيين الذي كان هندوسياً يؤمن بتعدد الآلهة، وهو أمر غير قانوني حسب المعتقدات السنيَّة. هاجمت جماعة إسلامية معبداً هندوسياً في 1978 وتم ضربهم حتى الموت من جهة حراس المعبد. في سنة 1994 أصدر مجلس الافتاء الوطني الماليزي قراراً بأن الجماعة المعارضة الرئيسية هي جماعة "منحرفة" وسمحت للحكومة بمنعها تحت الشريعة الإسلامية. في Ruhanas Harun "النهوض ضد تحديات التطرف الإسلامي المسلح في ماليزيا" النشرة 516 في 20 نوفمبر 2015 المركز المحلي ضد الإرهاب في جنوب شرق آسيا، وزارة الخارجية، ماليزيا. انظر أيضاً Prashanth Parameswaran في "ماليزيا تصرح أن مجموعة إرهابية جديدة تحاول تأسيس دولة إسلامية" في Diplomat عدد 8 أبريل 2015. زعيم الجماعة المذكورة كان محارباً سابقاً في أفغانستان تدرب في سورية حسب رئيس شرطة ماليزي. كما ذكر أنه تم القبض على 92 شخصاً بمن فيهم "عاملون في الخدمات المدنية والبحرية والقوات الجوية وطلاب جامعات". كما تعرفت السلطات على 39 ماليزياً في سورية والعراق.

[369←]

م William H. Frederick and Robert L. Worden تقريراً عن ذلك في "اندونيسيا: دراسة دولة" إصدار واشنطن، مكتبة الكونغرس 2011 وفي M. C. Ricklefs في "تاريخ اندونيسيا الحديثة منذ 1300" الطبعة الثانية إصدار جامعة ستانفورد 1933 ص 110-118.

[370←]
ن Ricklefs في "تاريخ اندونيسيا الحديثة" وAdrian Vickers في "تاريخ اندونيسيا الحديثة" إصدارات جامعة كامبريدج 2005.

[371←]
Frances Gouc في "رؤية أمريكية لجزر الهند الشرقية الهولندية/اندونيسيا: السياسة الخارجية الأمريكية" إصدارات جامعة أمستردام 2002 ص 18.

[372←]
تفدت من Ricklefs في "تاريخ اندونيسيا الحديثة" وVickers في "تاريخ اندونيسيا الحديثة" إصدارات جامعة كامبريدج 2005.

[373←]
ىمت قوى كولومبو اندونيسيا وبورما وسيلان والهند وباكستان.

[374←]
ضع ملخص شبه رسمي عن أهمية المؤتمر من قبل وكيل وزارة الخارجية السريلانكية آنذاك Wiswa Warnupala في "مؤتمر باندونغ 1955 ويقظة آسيا وأفريقيا" جريدة Daily News في سريلانكا، عدد 21 أبريل 1955.

[375←]
ر وزير خارجية أمريكا مقاطعة المؤتمر. عن السياسة الأمريكية نحو الجنوب انظر Jason C. Parker في "نصر صغير وفرصة ضائعة" في "إدارة أيزنهاور: العالم الثالث وعولمة الحرب الباردة" تحرير Cathryn C. Statler & Andrew L. Jones إصدار Rowman & Littlefield 2006. ذهب أربعة من الأمريكيين وحدهم: عضو الكونغرس Adam Clayton Powell Jr. والروائي Richard Wright وEthel Payne وCarl Rowan. أصبح آخرهم صحفياً بارزاً ومستشاراً للرئيس ليندون جونسون. سمح للسفير الأمريكي في اندونيسيا Hugh Cummings من جهة وزارة الخارجية بالحضور كمراقب.

[376←]
كل أساسي شكل الجرمان الذين غزوا أوروبا مثل تلك التجمعات وسموها "Thing"، وكذلك الأنكلوساكسون تحت اسم "Folkmote"، ووجدت تجمعات مشابهة لدى قبائل الهنود الحمر الإيروكوا.

[377←]
ل هذه الأعمال الاجتماعية موجودة أيضاً في المجتمعات الغربية. للتوصل إلى إجماع محلي على قضايا ملحة مثل غزو أجنبي أو انهيار النظام الشعبي لجأ الأمريكيون المبكرين والفرنسيون والروس شكلوا لجان أمن مثل لجنة الأمن الشعبي الفرنسية والسوفييت الروسية. حتى جمهورية تكساس القصيرة العمر أنشأت لجنة أمن وحوار سنة 1832. قامت تلك اللجان بإدارة قانون العرف وشكلت نوعاً من المجالس السياسية.

[378←]
ردها William Dalrymple في "عودة ملك" إصدار نيويورك، Knopf 2013 ص 261. نقلاً عن تقرير من Mirza Ata في "أغنية المعارك" ص 215-220.

[379←]

Vincent Ery في "العمليات العسكرية في كابل التي انتهت بانسحاب وتدمير الجيش البريطاني، يناير 1842، مع مجلة سجن في أفغانستان" إصدار لندن، Routledge & Kegan Paul 1976 ص 122. كان Erye هناك ويبدو أنه قرأ الرسالة.

[380←]
John William Kay في "تاريخ الحرب في أفغانستان" الطبعة الرابعة. إصدار لندن، W. H. Allen 1890 ص I:403.

[381←]
Ery في "العمليات العسكرية" ص 123 وبالفعل كما بين Erye "لم نستطع الاعتماد على صديق واحد في كامل أفغانستان" ص 29.

[382←]
ـدها Kaye في "الحرب في أفغانستان" ص I:451.

[383←]
Ery في "العمليات العسكرية" ص 115-116.

[384←]
صدر نفسه ص 137. ربما كانت صدفة تاريخية أنني أخبِرت من قِبل أحد كبار الزعماء السابقين لحركة طالبان أنه: "إذا لم تفاوضوا فإنهم (طالبان) سيأخذون كل شيء".

[385←]
Ery في "العمليات العسكرية" ص 138.

[386←]
صدر نفسه ص 160.

[387←]
Colin Mackenz إلى Lt. Erye في 29 يوليو 1842. نشر في Erye "العمليات العسكرية" ص 167-168.

[388←]
ـالة من الكابتن ماكينزي إلى الرائد فينسنت إري" نشرت في Erye "العمليات العسكرية" ص 170.

[389←]
Ery "العمليات العسكرية" ص 195.

[390←]
ـم المستوى الأعلى من التعليم المجال الكامل من الدراسات الإسلامية.

[391←]
ا‌ك دراسات متزايدة عن نظام التعليم الإسلامي. دراسة سابقة عامة لدى جورج مقدسي في "نهضة المعاهد: مؤسسات التعليم في الإسلام والغرب" إصدار جامعة إدنبرة 1981. وبشكل أكثر تركيزاً على جنوب آسيا في Dilip Hiro "عالم مخيف: الجهاديون في جنوب آسيا" إصدار جامعت ييل 2012. لخص Christopher M. Blanchard ما يعرف باسم "المدارس الإسلامية الدينية: الخلفية" إصدار واشنطن. مكتبة الكونغرس 23 يناير 2008. تقرير جيد عن قرية في Sabrina Tavernise "مدارس باكستان الدينية تملأ فراغاً ولكنها تزود العسكرية" في International Herald Tribune عدد 3 مايو 2009.

[392←]
Arminius Vambe في "حياته ومغامراته كتبها بنفسه" إصدار نيويورك، Cassell 1889 ص 223.

[393←]
Seymour Beck في "المحميات الروسية في آسيا الوسطى: بخارى وخيفا، 1865-1924" إصدارات جامعة هارفارد 1968 ص 7.

[394←]
Alexander Burn في "رحلات في بخارى" إصدار جامعة أكسفورد 1973، طباعة تصوير من إصدار 1834.

[395←]
Yuri Breg في "آسيا الوسطى في القرن الثامن عشر والتاسع عشر" في الموسوعة الإيرانية، تحرير Ehsan Yarshater على الانترنت 1996 المجلد السابع.

[396←]
Burn "رحلات في بخارى" ص 41.

[397←]
Geoffrey Wheel في "التاريخ الحديث لآسيا الوسطى السوفييتية" إصدار نيويورك: Praeger 1964 ص 52-53.

[398←]
رت في الوصف الممتاز للجزائر الذي قدمه هورن Horne في "حرب السلام الوحشية" ص 29. توكفيل معروف للأمريكيين بفضل وصفه الرائع للمجتمع الأمريكي في "الديموقراطية في أمريكا". بعد رحلته إليها انتخب في الجمعية الوطنية الفرنسية. بصفتي كعضو في لجنة التخطيط السياسي لشؤون الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كنت رئيس لجنة أمريكية مشتركة تتعلق بالجزائر في أواخر الحرب واطلعت على وثائق الاستخبارات الأمريكية (التي كان أغلبها من الفرنسيين)، ولكنني وجدت تقرير هورن أكثر تناسقاً وعمقاً. سأرجع إليه في النقاط الغامضة أو المختلف عليها. وصف آخر ممتاز رجعت إليه كثيراً في المراحل المتأخرة من الثورة هو William B. Quant في "القيادة الثورية والسياسية: الجزائر 1954-1968" إصدار MIT 1968. وهو مهم بشكل خاص لأن كانت قابل كثيراً من الشخصيات الرئيسية عندما كانوا يستطيعون التحدث بحرية.

[399←]
ـدت في Horne "حرب السلام الوحشية" ص 37.

[400←]

ا قال: "لو اكتشفت الأمة الجزائرية، لكنت وطنياً قومياً... إلا أنني لن أموت في سبيل الأمة الجزائرية لأنها غير موجودة... لا يستطيع المرء أن يبني شيئاً في الهواء". ورد في المصدر نفسه ص 40.

[401←]
صدر نفسه ص 43.

[402←]
ـريح زعيم الحزب الشيوعي الجزائري عمار أوزيجان Amar Ouzegan في صحيفة الحزب: الحرية. ورد في المصدر نفسه ص 27.

[403←]
ـياة بنيامين فرانكلين كما كتبها بنفسه" تحرير John Bigelow أكسفورد 1924 ص 189-190.

[404←]
ما أفضل وصف لهذا التحول النفسي موجود في روايتين للكاتب Jean Larteguy "السنتوريون" إصدار نيويورك Dutton 1962، و"البريتوريانز" إصدار نيويورك Dutton 1963. تقرير أكثر واقعية انظر Martin Windrow في "الوادي الأخير: ديان بيان فو والهزيمة الفرنسية في فييتنام" إصدار نيويورك Da Capo 2004 ص 655-657، وGeoffrey Bocca في "الجيش السري" إصدار Prentice Hall 1968 الجزء الأول.

[405←]
برني ناصر عن ذلك في محادثة خاصة.

[406←]
ب القبائل هم بربر الجزائر ويتحدثون لهجة الزواوه من اللغة البربرية ويعيشون في الجبال في شرق الجزائر.

[407←]
ـدت في Horne "حرب السلام الوحشية" ص 142.

[408←]
ض الفرنسيون على بن بلة وأربعة من رفاقه المقربين بعد ذلك بثلاثة أشهر في 22 أكتوبر عندما أجبرت طائرته التي يقودها فرنسي على الهبوط في الجزائر. تم سجنهم في فرنسا مدة خمس سنوات. وهكذا كانت قيادة المقاومة في الواقع بيد القادة الداخليين، خاصة آبان، لبقية فترة الحرب. وفي النهاية اغتيل آبان على يد رفاقه السابقين في جبهة التحرير.

[409←]
ـيث قصة المعركة بالتفصيل في فيلم Gillo Pontecorvo "معركة الجزائر" الذي استخدم في تدريب الكتائب الأمريكية التي كانت تعمل في العراق.

[410←]
هدتُ واحداً منها عندما زرتُ الجزائر وكان مازال فيه مئات من الأطفال الأيتام العرب والبربر.

[411←]

دت حرب الجزائر أن تدمر فرنسا نفسها. حاولت منظمة الجيش السري اغتيال الرئيس ديغول، ورداً على ذلك أرسل دبابات وطائرات للهجوم على الضواحي الأوروبية في الجزائر. كانت باريس آنذاك أكثر استعداداً لصد هجوم أكثر مما كانت مقابل الجيش الألماني. كادت حرب أهلية أن تحدث بسبب الاستقطاب المتزايد في المجتمع. شاهدتُ الكراهية بنفسي. حاولت تشجيع الحكومة الأمريكية على دعم مجموعة من الأطباء الأمريكان المخلصين لاستلام وتشغيل مستشفى للأطفال في الجزائر. وعندما استعد الأطباء للدخول اكتشفوا أن أطباء الأطفال الفرنسيين المغادرين قد زرعوا متفجرات كان يمكن أن تقتل كثيراً من المرضى الصغار.

[412←]

تخدم الصينيون ألقاباً مهينة مشابهة: أطلقوا على الأيوغور لقب "رؤوس العمائم".

[413←]

لا حتى الضباط الأمريكان. عندما بدأت أمريكا بتموين الدبابات للجيش البريطاني المحاصر قال القائد الأمريكي الذي كان لا يسمح له لعب التنس ولا السباحة ولا تناول الطعام هناك لنظيره البريطاني أن الدبابات قد لا تسلم إذا لم يسمح لضباطه بدخول النادي. تغيرت القواعد فوراً.

[414←]

ضوء كشاف استشراقي" إصدار لندن John Murray 1937 ص 87.

[415←]

Doreen Warrin في "الأرض والفقر في الشرق الأوسط" إصدار لندن، المعهد الملكي للعلاقات الدولية 1948 الفصل الثالث.

[416←]

سب اقتراحي وبموافقة ناصر فقد نشر Wilton Wynn رئيس مكتب مجلة التايم في الشرق الأوسط مذكرات ناصر تحت عنوان "البحث عن الكرامة".

[417←]

طنطين زريق "معنى النكبة" إصدار بيروت، خياط 1956. كتب: "أعلنت سبع دول عربية الحرب على الصهيونية في فلسطين، ولكنهم وقفوا عاجزين أمامها، ثم استداروا عائدين".

[418←]

سى العلمي في "درس فلسطين" Middle East Journal 3 (1949): 385.

[419←]

يد أبو ريش في "ناصر، آخر العرب" إصدار نيويورك، St. Martin 2004 ص 27.

[420←]

برني ناصر في أحد لقاءاتنا أنه خبأ أسلحة الجماعة في بيت أحد الأعضاء وهو صلاح دسوقي الذي أصبح فيما بعد حاكماً للقاهرة وبطل مصر في المبارزة، لأنه كان من أفراد الطبقة العليا ولن يشك به أحد فتكون أسلحتهم بأمان.

[421←]

ان ممن كتبوا سيرته وهما سعيد أبو ريش وWynn كانا صديقين تحاورت معهما كثيراً عن ناصر. كما قضيت ساعات مع حسن صبري الخولي رئيس مجلس الأمن القومي المصري نتحاور عن قضايا السياسة وناصر. درست مع Charles Cremean وغيره من رجال وزارة الخارجية والمخابرات المركزية اتصالاتهم ومحادثاتهم بينما كنت أكتب لمجلس تخطيط السياسات عن التغيير المقترح في العلاقات المصرية-الأمريكية، وقضيت ساعات مع ناصر أبحث الأهداف والصراعات المختلفة المصرية والأمريكية.

[422←]

ل عملي في مجلس تخطيط السياسات طلبت نصيحة مؤسسة روكفلر ومعهد الصحة الوطني ومنظمة الصحة العلمية وغيرهم من كبار المختصين في الأمراض الاستوائية والبلهارسيا. واستنتجنا أنه حيث يصيب المرض عدة مئات الملايين من البشر كما هو الحال في أحواض الأنهار يمكن القضاء عليه باستخدام سموم مثل كبريتات النحاس إنما مقابل قتل كل الأسماك والطيور وحيونات أخرى يعتمد عليها القرويون في غذائهم. وبالنتيجة فإن العلاج أسوأ من المرض.

[423←]

اك عدد من الدراسات عن أحوال القرية لعل أولها وأفضلها هي دراسة استمرت ثلاث سنوات لخمس قرى قام بها أطباء من مؤسسة روكفلر. John M. Weir "دراسة الصحة والنظافة في قرى مصر" Journal of the Egyptian Public Health Association 27 no. 3 (1952): 55 "حسب علمي لم تجر دراسة مثلها عن الطبقة المدنية الدنيا ولكن هناك انطباعات كثيرة. كان من أوائلها من المبشر الرسولي M. L. Whately "الحياة القاسية في مصر" إصدار لندن 1863، والأكثر جدية في Unni Wikan "الحياة بين الفقراء في القاهرة" إصدار لندن Tavistock 1980، لم يعرف ناصر عنها ولكنها كانت تناقش من الذين حوله، وبما أن والده كان يعمل في البريد وعاش وتنقل في أنحاء مصر فقد لاحظ ناصر الشاب حياة الفقراء.

[424←]

ِدت في Doreen Warriner "الإصلاح الزراعي والتطور في الشرق الأوسط" إصدار جامعة أكسفورد 1957 ص 50-51.

[425←]

سع التركيز الجديد خلال فترة طويلة من رئاسته ليشمل العالَم الأوسع لحركة عدم الانحياز.

[426←]

Tom Litt في "الجامعة العربية: إعادة تقييم" Middle East Journal 10 No. 2 (1956): 138-139. الميل للتفرق إلى فئات صغيرة لم يكن من صفات العرب وحدهم، فبعد تأسيس باكستان كان الباتان والكشميريون وأهل السند "يطالبون بالحكم الذاتي كل لوطنيته المحلية... بإطلاق شعارات مثل "السند للسنديين" Wilfred Cantwell Smith في "الإسلام الحديث في الهند" إصدار لندن 1946 ص 271.

[427←]

ضو في مجلس التخطيط الوطني عقدت جلسة ثلاث ساعات من الحوار مع ناصر عن نتائج قراره بالتدخل في اليمن على مصر. أقر بأنه لأن الجمهوريين أعلنوا أن الثورة كانت باسمه وأنها نفذت لتحقيق أهداف القومية العربية لم يكن لديه أي اختيار. كما أنه كما ذكر محقاً بما أن الحكومة الجمهورية قد تم الاعتراف بها دولياً وقانونياً وأنها طلبت تدخل مصر فقد كانت تصرفات مصر قانونية أيضاً. نيابة عن الحومة الأمريكية قلت له إننا نتفهم هذه المقولات ولكنني وضحت أن المقولات ذاتها أوصلتنا إلى حرب فييتنام. وذكرت ضرورة تلبية الاحتياجات الحرجة للشعب المصري وقلت إنني اعتقد بأن الحكومة الأمريكية ستكون مستعدة للمساعدة أكثر في البرامج الداخلية. ناقشنا هذه القضايا بالتفصيل. وأخيراً سأل الرئيس ناصر: "لا تعتقد بأنني سأربح هذه الحرب أليس كذلك؟" وأجبت: "كلا سيادة الرئيس لا أعتقد ذلك". فتابع قائلاً أن الحكومة الأمريكية لا تعرف حقيقة ما يجري في اليمن ودعاني للذهاب ورؤية ذلك بنفسي. طلبت مني حكومتي أن أذهب. وذهبت.

[428←]

حسن صبري الخولي رئيس مجلس الأمن القومي المصري. كنت قد غادرت الخدمة في الحكومة آنذاك وأصبحت بروفسوراً لمادة التاريخ في جامعة شيكاغو ورئيس معهد أدلاي ستيفنسون للعلاقات الدولية، وأكتب في وسائل الإعلام ومباشرة إلى Walt Rostow الذي كان رئيس مجلس الأمن القومي قبل شهرين من اندلاع الحرب أنها كانت وشيكة. لم تصدقني وزارة الخارجية ولا روستو، وعندما حدثت الحرب تم تعيين McGeorge Bundy من طرف الرئيس ليندن جونسون لتولي مهام الأعمال الأمريكية لشؤون الحرب وطلب مني الانضمام إليه في البيت الأبيض. كانت مهمتي كتابة مسودة اتفاقية السلام، إلا أن جونسون لم يشأ القيام بأية محادثات مع الحكومة المصرية.

[429←]

لب من رئيسة الوزراء مائير تفاوضت عن ذلك مع الرئيس ناصر.

[430←]

ن ذلك هو الانقلاب الذي بدأ طريق حافظ الأسد، والد الحاكم الحالي بشار الأسد، نحو السلطة في سورية.

[431←]

شت برنامجه معه في بغداد سنة 1960. سيقتل فيما بعد على يد صدام حسين الذي رأى فيه منافساً. ربما أفضل سجل عن تطور الحزب في العراق هو في كتاب Joseph Sassoon "حزب بعث صدام حسين: داخل نظام استبدادي" إصدار مطبوعات جامعة كامبريدج 2011. لوضعه في سياق تاريخ العراق انظر كتابي "فهم العراق" إصدار نيويورك HarperCollins 2005.

[432←]

رفت عليهم عندما كنت أدرس في بغداد سنة 1952. اجتمعنا في مجموعات بحث كانت متبعة في كافة أرجاء العالم الإسلامي. كانوا جميعاً حذرين في إبداء آرائهم عن القومية وانتقاداتهم للحكومة التابعة لبريطانيا واحتاجوا إلى مكان محايد للتجمع. كان منزلي واحة بالنسبة لهم، أما بالنسبة لي فقد كان مدرسة في التفكير السياسي العراقي. عندما عدت إلى بغداد بعد انقلاب 1958 مباشرة استقبلتني المجموعة بكاملها في المطار وكانوا قد أصبحوا أول مجلس وزراء. جئت في لحظة جيدة، فبعد ذلك بفترة قليلة أقصاهم قاسم جميعاً.

[433←]

يوجد في أحاديثه ما يوحي بأنه قرأ عن عائلة بورجيا أو أنه قرأ ماكيافيللي. يبدو أنه أصبح بنفسه أستاذاً في استراتيجية القوة.

[434←]

ا بينت سابقاً تحت الحكم البريطاني المباشر وبعد الاستقلال الشكلي وحكم من سمح لهم بإدارة البلاد لم يفعل شيء كبير في التعليم. تضاعفت الأرقام إنما ببطء وبشكل انتقائي. تم تدريب عدد قليل من الناس في المهارات العملية مثل الهندسة. عندما عشت في بغداد في 1952-1953 كان في العراق خمسة مهندسين ميكانيكيين فقط. عندما رجعت إليها قبيل الغزو الأمريكي سنة 2001 كان عددهم بالمئات. حدثت تغيرات مماثلة في كافة المجالات.

[435←]

ا أخبر سعيد أبو ريش. انظر "سياسات الانتقام" إصدار لندن Bloomsbury 2000 ص 117.

[436←]

ا ذكرت سابقاً فإن بريطانيا منحت الكويت استقلالها عندما غزت البصرة في الحرب العالمية الأولى. وعلى الأقل حتى الثلاثينيات وافق المجلس النيابي الكويتي على أنها جزء من العراق. لم تكن مدينة الكويت سوى ميناء للصيد، وكان من استطاع من أهلها يذهب إلى بغداد للتسوق والترفيه. وبسبب خوفهم من السعودية كانوا يعتبرون كل حكومة عراقية

بمثابة أخ كبير. غير أنها عندما حصلت على ثروة البترول الضخمة أراد أثرياء الكويت الجدد أن يحتفظوا بها لأنفسهم. ولكي يحصلوا على دعم الآخرين لاستقلالهم قدمت الكويت برنامج مساعدات ضخم في العالم الإسلامي. ونجحت في ذلك. حتى قومي عربي متحمس مثل ناصر سعى لكسب رضاها ودعم استقلالها.

[437←]
برني كاتب مصري مقرب من الرئيس محمد حسني مبارك بعد ذلك عن قصيدة أنشدها له ملك السعودية عن فوائد الطرف الثالث "عندما تذهب الحية والعقرب إلى الحرب". كان الملك خالد لا يحب الكويتيين ولا العراقيين. وافقه في ذلك كثير من العرب. كانت الوحدة العربية بعيدة جداً وتنحسر باستمرار.

[438←]
ار مجلس الأمن رقم 678 في 28 نوفمبر 1990. كان من بين 34 دولة في التحالف: السعودية ومصر وسورية والكويت والمغرب وباكستان والنيجر والسنغال والإمارات المتحدة والبحرين وقطر وعمان وبنغلاديش. قدموا جنوداً وأموالاً.

[439←]
ار مجلس الأمن الدولي رقم 687 في 3 أبريل 1991.

[440←]
لر John Maynard Keynes في "النتائج الاقتصادية للسلام" إصدار نيويورك 1920 خاصة في الفصل الخامس.

[441←]
Joyce Battle & Malcolm Byrı "حرب العراق بعد عشر سنوات: وثائق رفعت عنها السرية" سجلات الأمن القومي في واشنطن، 19 مارس 2013، الوثائق 2 و2b.

[442←]
شت تلك الفترة في سياقها التاريخي في "فهم العراق" ومع السناتور جورج ماكغوفرن في "خارج العراق" إصدار نيويورك Simon & Schuster 2006. ذهبت إلى بغداد للحوار مع مع نائب رئيس الوزراء قبيل الغزو الأمريكي في 20 مارس 2003. كان انطباعي أن صدام مقتنع تماماً بأنه لن يستطيع فعل شيء لمنع الهجوم الأمريكي وأنه أسقط قضية الإسلام إلا أنه لم يملك بديلاً آخر غيره. كان ذلك هو انطباع وزير الخارجية الروسي آنذاك إيفجيني بريماكوف أيضاً بعد أن قارنت معه ملاحظاتنا.

[443←]
ب ذلك قلقاً للحكومة البريطانية. أنذر وزير الخارجية البريطاني أنه "يبدو جلياً أن بوش قد اتخذ قراره للقيام بعمل عسكري". Battle & Byrne في "حرب العراق" الوثيقة الرابعة.

[444←]
ى الرغم من عدم مناقشة هذا آنذاك، إلا أن العراق كان يحصل على المساعدة في صنع أسلحة الدمار الشامل منذ زمن طويل بموافقة الحكومات الأمريكية والبريطانية من شركات Honeywell, Unisys, Sperry, Rockwell, Hewlett-Packard, DuPont, Eastman Kodak, Bechtel وكثير من الشركات الأوروبية. كشفت لجنة البنوك في مجلس النواب الأمريكي دلائل على شحن عشرات من العوامل البيولوجية إلى العراق بترخيص من وزارة التجارة بما فيها جرثومة الأنتراكس. Michael Dobbs في "الولايات المتحدة كان لها دور أساسي في تطوير العراق" نشرت في جريدة الواشنطن بوست، عدد 30 ديسمبر 2002.

[445←]

Battle & Byrı في "حرب العراق" الوثيقة C6 ذكرت أنه إذا أراد العراق صنع سلاح نووي فستحتاج إلى حوالي سنة إلى عشر سنوات. انظر أيضاً أحمد نافذ في "غزو العراق كان بسبب النفط" في جريدة الغارديان، عدد 20 مارس 2014.

[446←]

د الاجتماع بنائب رئيس الوزراء طارق عزيز قبل شهر من الهجوم اقترحت ما ظننت أنه يمكن أن يمنعها، إلا أن صدام لم يقبل مناقشته لأنه خشي (كما أعتقد) أن أي تنازل من طرفه سيؤدي للانزلاق إلى نهاية سريعة بإسقاطه أو اغتياله.

[447←]

Paul Bigne في"مذكرات سرية تكشف علاقة بين شركات بترول وغزو العراق" في صحيفة الاندبندنت، عدد 18 أبريل 2011. "خطط لاستغلال احتياطي النفط العراقي نوقشت مع وزراء حكوميين وأكبر شركات البترول العالمية قبل أن تلعب بريطانيا دوراً رئيسياً في غزو العراق. تظهر وثائق حكومية... بينما وصف توني بلير "نظرية التآمر البترولي" بأنها الأكثر سخافة".

[448←]

Paul Bigne في "اعتبر انتاج البترول العراقي مصلحة بريطانية حيوية" في صحيفة الاندبندنت، عدد 19 أبريل 2011.

[449←]

Bigne في "انتاج البترول العراقي".

[450←]

Bigne في "حرب العراق" الوثيقة الثامنة.

[451←]

م أديب الدويشه بحثاً عن انحدار القومية العربية في "القومية العربية في القرن العشرين: من النصر إلى اليأس" إصدار جامعة برنستون 2003.

[452←]

د المجيد فريد في "ناصر: السنوات الأخيرة" إصدار Reading, UK: Ithaca 1994 ص 69. كان فريد سكرتير اللجنة التنفيذية العليا وهي تعادل تقريباً مجلس الأمن القومي في مصر وسجل ملاحظاته حلال الحوار. هذه الملاحظات هي موضوع الكتاب، وهي تقدم رؤية مهمة في أفكار وتصرفات الدائرة الداخلية في مصر وفي النظام السوفييتي وعدد من الحكومات العربية في فترة حرجة.

[453←]

يعية" هو اسم الطائفة التي ينتمي إليها "الشيعي". الصفة التي تصف الدين هي "الشيعة".

[454←]

تلئ الإعلام بتقارير عن الصدامات بين الحكومة السعودية السنية والحوثيين الشيعة في اليمن، والقمع السعودي البحريني السني لسكانهم المحليين الشيعة، والحرب الأهلية القاسية بين السنة والشيعة، والاضطرابات في لبنان بين المسيحيين والسنة وفئات مختلفة ومتفرعة من الشيعة. ولأنه حتى الحكومات التي تعلن عن نفسها أنها علمانية مازالت جذورها إسلامية فإن هذه الخلافات لا يمكن تجنبها، مثلما هي الخلافات المسيحية التي مازالت تلعب دوراً سياسياً واجتماعياً وثقافياً في أوروبا الحديثة.

[455←]
مي فريديريك نيتشه زارادشت "زاراتوسترا" في كتابه "هكذا تحدث زارادشت"، كما وضع ريتشارد شتراوس قصيدة موسيقية بهذا الاسم.

[456←]
يفهم الشاه فعلاً، أو أنه ظن أنه يستطيع قمع قوة المؤسسة الدينية. وكما قال لي ذات مرة إنه يعتبر رجال الدين الإسلامي، بمن فيهم آيات الله، ليسوا أكثر من "ملالي قذرين يركبهم القمل".

[457←]
ير الاسم مع الزمن إلى "شركة البترول الإنكليزية-الإيرانية" ثم إلى "شركة البترول البريطانية" إلا أنها كانت نفس الشركة.

[458←]
إخفاء هذه الأحداث كلها خلف حواجز أمنية لسنوات طويلة. كتب كرميت روزفلت تقريراً مراقباً عنها في "الانقلاب المضاد: الصراع للسيطرة على إيران" إصدار نيويورك 1979 McGraw Hill. كتب التاريخ الرسمي Donald M. Wilber بشكل كتيب تدريبي لضباط المخابرات الأمريكية. ثم نشر في "تغيير النظام في إيران" إصدار UK: Spokesman 2006. كما ناقش الفترة Mark J. Gasiorowski في "انقلاب 1953 في إيران" International Journal of Middle Eastern Studies 19, no. 3 (Aug. 1987): 261-286 وكذلك Stephen Kinzer في "كل رجال الشاه" إصدار NJ: John Wiley & Sons 2003. وأخيراً حصل أرشيف الأمن القومي للجامعة الأمريكية على أغلب الوثائق الأصلية ونشرها Mark J. Gasiorowski & Malcolm Byrne في "محمد مصدق وانقلاب 1953 في إيران" إصدار جامعة سيراكيوز 2004. نشر Woodhouse تقريراً عن دوره معترفاً أنه قام بالتغطية على الهدف البريطاني الحقيقي في الانقلاب في "شيء من المغامرة" إصدار لندن، Granda 1982.

[459←]
قية من السفير William Sullivan إلى الرئيس جيمي كارتر في 2 نوفمبر 1978.

[460←]
ب علي التوضيح أنه كانت لدي علاقة معقدة مع الشاه. كنت عضواً في فريق العمل في إيران الذي كان يحفز إدارة الرئيس جون كينيدي على استخدام نفوذها لإقناع الشاه لفتح حكمه بحيث يستطيع الشعب الإيراني أن يجد سبباً لدعم حكومته. وزير الخارجية وسفير أمريكا في إيران ومساعد الوزير لشؤون المنطقة عارضوا جميعاً هذه المقترحات ونفوا حتى وجود فريق العمل. تم إبلاغ الشاه عن دوري وعندما تركت العمل الحكومي بعدها أخبرني أنه كان سعيداً بمغادرتي. ولأنني كنت خارج الحكومة وأستطيع الحديث بصراحة فقد حدث بيننا حوار حاد سنة 1967 قلت له فيه أنني أعتقد بأن إيران في طريقها إلى الثورة. سخر من الفكرة ولم أره ثانية بعد سنة 1968. شجعت الحكومة الأمريكية بعد ذلك الاتجاهات التي أدت إلى الثورة.

[461←]
د وفاة الرئيس كنيدي بقليل كنت في طهران وشاهدت آلاف الإيرانيين في طوابير استمرت أياماً لتوقيع كتاب التعازي في السفارة الأمريكية.

[462←]
ا هو رأي Gary Sick في "مفاجأة أكتوبر: الرهائن الأمريكان في إيران وانتخاب رونالد ريغان" إصدار نيويورك Random House 1991. ذكر سكرتير مجلس الأمن القومي الأعلى في إيران علي شامخاني في يناير 2016 أن طلباً مماثلاً قدم في نوفمبر 1980 "من جهة المعارضين الجمهوريين للإدارة الأمريكية الحالية (إدارة كارتر) لتأخير إطلاق سراح الرهائن حتى ما بعد الانتخابات الرئاسية "حض الجمهوريون الأمريكان إيران على تأخير تبادل السجناء، يقول شامخاني" في وكالة أنباء تسنيم (طهران) 11 فبراير 2016.

[463←]

Dexter Filki في "القائد الخفي" New Yorker عدد 30 سبتمبر 2013.

[464←]

ر Zach Gibson تحليل الحكومة الأمريكية والآراء الداعمة لها من السياسيين والعلماء للاتفاق النووي في "أوباما يبدأ حملة في الكونغرس للاتفاق النووي الإيراني" في New York Times عدد 4 أغسطس 2015. لخص الرئيس الاتفاق لقادة العالم وبين أهميته والمصاعب المتبقية في 30 و31 مارس 2016 كما ورد في تقرير Carol E. Lee في Wall Street Journal عدد 1 أبريل 2016.

[465←]

برني وزير الخاجية ظريف كرئيس المفاوضين الإيرانيين أنه واجه معارضة قوية داخل الحكومة الإيرانية خلال مفاوضاته. تمت إقالته من عمله كسفير إلى الأمم المتحدة سنة 2007، عودته إلى الحكومة سنة 2013 ونجاح مفاوضاته علامة على نيته الجيدة وإشارة على تغير العقلية في إيران. في بداية 2017 كان موقفه مضطرباً عندما دعى أفراد في إدارة ترامب إلى إعادة النظر في الاتفاقية أو إلغائها.

[466←]

ن والد حسن البنّا بمقاييس القرية رجلاً متعلماً وربى أولاده على المذهب الحنبلي الصارم في الشريعة، إلا أنه مزج الحنبلية بالصوفية على الطريقة المصرية.

[467←]

ِدت في أحمد أنور الجندي في "قائد الدعوة" إصدار القاهرة 1945 كما ذكرها اسحق موسى الحسيني في "الإخوان المسلمون" إصدار بيروت، خياط، 1956 ص 14.

[468←]

دما أخذني ريتشارد ميتشل لزيارة مكاتب الإخوان في القاهرة كانت فارغة تقريباً. كان لدى المرء شعور بأنها كانت وجوداً رمزياً فقط، بينما كانت النشاطات الجادة تحدث في مكان آخر.

[469←]

منعهم في العراق من حكومة عبد الكريم قاسم سنة 1961، وفي سورية منعهم حزب البعث سنة 1963 ولكنهم لعبوا دوراً في حوادث حماة ضد الحكومة سنة 1982. وفي الكويت قطعت الحركة الدستورية الإسلامية علاقاتها مع الإخوان عندما أيد الإخوان صدام حسين وعارضوا التدخل الأمريكي لطرد العراقيين.

[470←]

تخدم الفرنسيون التعذيب لكي يكسروا التشكيلات الخلوية لمقاومة جبهة التحرير الجزائرية.

[471←]

يكتشف القاتل. ولكن ميتشل أخبرني أنه يؤمن بأن القاتل كان عميلاً حكومياً. التفسير المعتاد هو أن الاغتيال تم انتقاماً لاغتيال رئيس الوزراء المصري من جهة عضو معروف في الإخوان. ربما كان ذلك صحيحاً إلا أنه تفسير جزئي فقط. مكن الاغتيال الحكومة من شل المنظمة باعتقالات واسعة ومنع قانوني. وتمكنت بعدها من اختيار أو التأثير على اختيار رجل من النوع الذي كان البنّا يخشاه: قاضي وعضو محترم من المؤسسة الحاكمة.

[472←]

ا شرحت سابقاً فإن فترة الثلاثينيات في أوروبا ومصر ربما تسمى مرحلة "القمصان". ارتدى الفاشيون الإيطاليون من أتباع موسوليني قمصاناً سوداء، وكذلك فعل الفاشيون الإنكليز بقيادة السير Oswald Mosey، وأعضاء البيتار من حركة الشباب البولونيين اليهود بقيادة مناحم بيجن. وارتدى النازيون قمصاناً بنية، والعنصريون الأمريكان قمصاناً فضية، والقوميون المكسيكيون قمصاناً ذهبية، والقوميون الإيرلنديون والكتائب الاسبانية قمصاناً زرقاء، والفاشيون الرومانيون قمصاناً خضراء. ارتدت عصابات الشوارع للحزبين السياسيين الرئيسيين في مصر قمصاناً بألوان مميزة: ارتدى الوفد الذي كان أكبر الأحزاب قمصاناً زرقاء، ومصر الفتاة في أقصى اليمين قمصاناً خضراء.

[473←]

ـن البنّا في "نحو الضياء" في "خمسة طرق لحسن البنّا 1906-1949" ترجمة Charles Wendell إصدار مطبوعات جامعة كاليفورنيا، بيركلي 1978. وردت في Carrie Rosefsky Wickham "الإخوان المسلمون" إصدار جامعة برنستون 2013 ص 23.

[474←]

Wickha "الإخوان المسلمون" ص 24.

[475←]

ن انتشار الإخوان انظر Barry Rubin في "الإخوان المسلمون: التنظيم والسياسات لحركة إسلامية عالمية" إصدار نيويورك، Palgrave Macmillan 2010.

[476←]

د قطب في "طفل من القرية" ترجمة John Calvert & William Shepard إصدار جامعة سيراكيوز 2004.

[477←]

ئد هذه المدرسة في التفكير هو الكاتب ورجل الدولة المصري طه حسين. كتب مذكرات طفولته مثل سيد قطب "الأيام" وهي من أوائل النصوص التي يقرؤها طلاب العربية. وكتابه "مستقبل الثقافة في مصر" ربما يمثل طريقة تفكير قطب في تلك الفترة من حياته. ترجمه Sidney Glazer ونشره المجلس الأمريكي للمجتمعات المتعلمة في 1954. كتب قطب في مجلة آنذاك عن علاقة مصر بالعرب بأنها "الأخت الكبرى في نظر الشعب. يتبع العالَم العربي خطوات مصر ويستفيد من تجاربها ويستنير بنورها ويتأملها بمحبة وإعجاب وأمل". وردت وترجمت في John Calvert "سيد قطب ونشأة الإسلامية الأصولية" إصدار لندن Hurst 2010 ص 98.

[478←]

Calve في "سيد قطب" ص 103. عندما وصلت إلى القاهرة كطالب شاب في خريف 1946 وجدت المصريين في ثلاث فئات: الأغنياء الذين حمتهم مراكزهم من الجنود البريطانيين العاديين وجمعتهم اجتماعياً مع الطبقة الانكليزية العليا، والمثقفون الذين تألموا مثل قطب عند احتكاكهم بالجنود الانكليز أو شاهدوا تصرفاتهم على الأقل، والناس العاديون في الأحياء الأفقر التي عشت فيها كانوا قدريين لأن الأغنياء والأقوياء استغلوهم دائماً. قابلت بالصدفة بعض أفراد الدائرة التي تحرك فيها قطب (ولكنني لم ألتق به). الذين عرفتهم تحركوا أكثر إلى أقصى اليسار وتحدثوا دائماً عن إهانات الكرامة واعتبروا رد الفعل المسرور الذي أبداه الجنود مظهراً واضحاً للسلوك الأمبريالي.

[479←]

دما وصلت بغداد سنة 1951 لكتابة دراسة عن الفكر السياسي وقابلت أول شاهد سألني عن البيسبول. أجبته أنني لم آت إلى بغداد للحديث عن البيسبول بل لكي أتعلم عن السياسة العراقية. بدا مدهوشاً وعلق قائلاً أنه عندما كان طالباً في أمريكا كان كل ما تحدث عنه معارفه هو البيسبول أو كرة القدم الأمريكية. قال أنه لم يلتق بأي أمريكي يهتم بما يفكر به الشرق أوسطيون. وجد أن وقته في أمريكا كان مليئاً بالوحدة. يبدو أن تلك كانت تجربة قطب أيضاً.

[480←]
ذت الاستشهادات من أقوى كتب سيد قطب تأثيراً الذي قرأه ملايين المسلمين في العالم بمن فيهم شاه إيران "معالم في الطريق" الذي تمت ترجمته باسم "Milestones" والأفضل اسم "Waymarkers". استخدمت ترجمة the Islamic Book Service إصدار نيودلهي 2002 الطبعة 14 سنة 2015. ص 9. كتب قطب تفسيراً للقرآن. كتاب آخر هو "العدالة الاجتماعية في الإسلام" ترجم إلى الإنكليزية بعنوان "Social Justice in Islam" إصدار واشنطن. American Council of Learned Societies 1953 كان أول أعماله التي انتبه إليها الغرب. ترجم بالتعاون مع قطب قبل إعدامه.

[481←]
ب "معالم في الطريق" ص 103-104.

[482←]
صدر نفسه ص 13.

[483←]
صدر نفسه ص 136.

[484←]
صدر نفسه ص 138.

[485←]
صدر نفسه ص 144. يذكر من القرآن 3/ 169-171 و3/ 196-198.

[486←]
ب "معالم" ص 124-125.

[487←]
صدر نفسه ص 75-76.

[488←]
صدر نفسه ص 61.

[489←]
صدر نفسه ص 10.

[490←]
صدر نفسه ص 18.

[491←]
صدر نفسه ص 19.

[492←]
صدر نفسه ص 36.

[493←]
قص 12:17، مَتَّى 22:21، لوقا 20:25.

[494←]
ب "معالم" ص 9.

[495←]
رآن الكريم، سورة البقرة 190-193.

[496←]
قة الأمم المتحدة A/SPC/9 في 11 فبراير 1957.

[497←]
ميت فترة أسبوعين في أحد مخيمات اللاجئين لكي أتعايش مع تلك الحالة.

[498←]
لغة العبرية الخطة C هي Tochnit Gimel والخطة D هي Tochnit Dale. بدأ تنفيذ الخطة D في 10 مارس 1948 قبل شهرين من نهاية الانتداب البريطاني. وكما ذكرت على الرغم من أن ذلك تم نفيه سنوات عديدة إلا أن طرد الإسرائيليين للقرويين الفلسطينيين قد تم تسجيله في الوثائق الرسمية الإسرائيلية من قبل اسرائيليين هما الصحفي Benny Morris في "ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، 1947-1949" إصدار مطبوعات جامعة كامبريدج 1987، والمؤرخ الإسرائيلي المعروف جيداً إيلان بابيه Ilan Pappe في "التطهير العرقي في فلسطين" إصدار لندن Oneworld 2006. عمل باببيه أفضل توثيقاً ودقة في تحليله. بينما تمسك موريس بالوقائع إلا أنه استنتج أن تصرفات إسرائيل كانت مبررة. هناك تقرير ممتاز عن إسرائيل والعالم العربي في أعمال أحد المؤرخين الإسرائيليين المميزين Avi Shlaim في "الجدار الحديدي" إصدار لندن Penguin 2000.

[499←]
ريس "الولادة" ص 63.

[500←]
يه "التطهير العرقي في فلسطين" ص 21-22.

[501←]
ريس "الولادة" ص 76-77.

[502←]
به "التطهير العرقي في فلسطين" ص 100.

[503←]

ريس "الولادة" ص 113.

[504←]
يه "التطهير العرقي في فلسطين" ص 90.

[505←]
صدر نفسه XIII.

[506←]
طبة موشيه ديان في التخنيون جريدة هاآرتز عدد 4 أبريل 1969. أخذ الصحفي الإنكليزي المشهور Michael Adams خريطة لفلسطين قبل الحرب وانطلق للبحث عن بعض القرى التوراتية التي رسمت عليها. لم يجد القرى وكان ديان محقاً "هذه القرى لم تعد موجودة" قال آدمز في "زيتا، بيت نوبا، يالو... وكيف محاها الإسرائيليون من الأرض المقدسة" Sunday Times عدد 16 يونيو 1968.

[507←]
، تبرير اغتيال ممثل بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية انظر Gerold Frank في "العمل" إصدار نيويورك Simon & Schuster 1963. كان برنادوت يدفع خطة جعل القدس مدينة دولية. وعن شامير انظر Julian Oanne تأبين في صحيفة Financial Times عدد 30 يونيو 2012.

[508←]
عر ببعض هذه الانفعالات نحو اللاجئين آنذاك حسبما نراه هذه الأيام بالمشاعر تجاه اللاجئين السوريين الذين يسبحون أو يتعثرون في سيرهم نحو البلاد الغنية في أوروبا. كما قالت المستشارة الألمانية فإن أوروبا تستطيع استيعابهم إلا أنها خاطرت بمنصبها في هذا الكرم. عبر الناس في ألمانيا وأوروبا الذين يعيشون في ظروف مستقرة غنية عن عدوانية كبيرة تجاه اللاجئين. في سنة 1948 كانت دول المتوسط نفسها تحت مستوى الفقر واعتبر كثير من السكان أن الفلسطينيين خطرون وغرباء سيخطفون اللقمة من أفواههم. أظهر كثير من الأوربيين مشاعر مشابهة نحو النازحين اليهود سنة 1945.

[509←]
، سنة 1963 طلبت مني الأمم المتحدة العمل كنائب للمفوض العام للأنروا لوضع خطة "حل" لمشكلة اللاجئين. لم يمنحني وزير الخارجية الأذن للقيام بهذا العمل.

[510←]
كر إيلان بابيه تعريف التطهير العرقي في "التطهير العرقي في فلسطين" عن Drazen Petrovic في "التطهير العرقي - محاولة في المنهج" في European Journal of International Law 5, no. 3 (1994): 342-360: أنه "القضاء على جماعة أخرى في منطقة معينة بناء على الدين أو العرق أو الأصل القومي" ص 351.

[511←]
Morr في "ولادة" ص 85-86 عن ضباط انكليز شاهدوا الحادثة.

[512←]
دت في بابيه "التطهير العرقي في فلسطين" ص 6.

[513←]
Uri Avne في "غاندي الآخر" في عمود يوري آفنري في Gush Shalom عدد 23 أبريل 2016.

[514←]
ح هو اسم مختصر مقلوب لحركة التحرير الوطني الفلسطيني. وكلمة "فتح" باللغة العربية تعني "كشف أو بدأ" كما تعني "حرر أو غلب".

[515←]
ب المراقب الفرنسي Gerard Chaliand "في الفترة 1958-1962 منعت حكومات عربية الفلسطينيين الوطنيين من الحصول على تصاريح بحيث لم يتمكنوا من السفر، وفي بعض البلاد العربية تم سجنهم حتى سنة 1967" في "المقاومة الفلسطينية" إصدار UK: Penguin 1972 ص 59.

[516←]
صدر نفسه ص 57.

[517←]
ل الداعمون السوفييت لقادة الدول العربية المتطرفة أنه ليس لديهم القدرة ولا حتى للدفاع عن أنفسهم، فكيف بالرد على الهجوم الإسرائيلي. المارشال Andrei Grechko وزير الدفاع السوفييتي قالها بصراحة: "بشكل عام فإن الجيش المصري لا يستطيع حالياً أكثر من الدفاع مقابل قوات صغيرة ولا يستطيع الوقوف لصد هجوم كبير، كما أن نظام الدفاع الجوي عن المدن الرئيسية لا زال غير كاف. وهذا يعني حالياً أن الجيش المصري لا يستطيع القيام بعمل هجومي ولا حتى دفاعي". عبد المجيد فريد في "ناصر: السنوات الأخيرة" UK, Ithaca 1994 ص 36. صور الزعماء السوفييت أنفسهم للرئيس الجزائري هواري بومدين والعراقي عبد السلام عارف أنهم أفراد من الجنوب على الرغم من تاريخهم الأمبريالي في آسيا الوسطى. كان بومدين وعارف متشككين بصراحة كما أخبروا ناصر فيما بعد. ورد محضر الاجتماع في تقرير عبد المجيد فريد. كان فريد السكرتير العام للرئاسة المصرية وسجل محاضر الاجتماعات.

[518←]
Helena Cobba في "منظمة التحرير الفلسطينية" إصدار جامعة كامبريدج 1984 ص 24.

[519←]
يد "ناصر" ص 101. هذا هو نص تقريره الشفوي.

[520←]
صدر نفسه ص 96.

[521←]
صدر نفسه ص 36.

[522←]
أتحدث عنهم هنا على الرغم من كونها مبهرة أحياناً لأنني أعتقد أنها كانت غير مهمة بشكل عام. ناقشت هذه الحالات بالتفصيل في مواضع أخرى.

[523←]
ض المجموعات كانت لا تضم سوى بضعة أعضاء وكانت تنضم وتتفرق بسرعة كبيرة. وضم بعضها مئات أو ربما آلافاً. كانت إحداها منظمة الصاعقة من صنع المخابرات السورية. الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كانت نتيجة اندماج جزئي لثلاث مجموعات أصغر تصرفات كل منها كما شاءت. كانت بعضها مسيحية (مثل جورج حبش) وبعضها مسلمة (مثل أحمد جبريل).

[524←]
ى ذلك إلى قضية قانونية في أمريكا رفعت فيها شركات الطيران دعوى على شركات تأمينها التي صغرت تعويضاتها في جمل "الكتابة الصغيرة" في حالة أن الهجوم كان من "دولة" وليس من عصابة إرهابية. كنت شاهد خبرة في المحاكمة لصالح أحد الأطراف، بينما كان الصحفي الفرنسي اللامع Eric Rouleau من صحيفة اللوموند شاهد خبرة في الطرف الآخر من السؤال.

[525←]
Meron Benvenis في "نقطة التحول في إسرائيل" New York Review of Books عدد 13 أكتوبر 1983.

[526←]
ر النص الكامل بشكل كتيب إعلامي في القدس في 15 ديسمبر 1981، ولخصه Richard G. Neumann في "الأسد ومستقبل الشرق الأوسط" Foreign Affairs 62 (1983): 237 ff. انظر أيضاً Oded Yinon في "استراتيجية لإسرائيل في الثمانينيات" باللغة العبرية Kivunim عدد فبراير 1982. كان مسؤولاً كبيراً سابقاً في وزارة الخارجية الإسرائيلية. ترجمت مقالته ونشرت في اسرائيل شاحاك بعنوان "الخطة الصهيونية للشرق الأوسط" Journal of Palestinian Studies 44-45 (1982): 209-214.

[527←]
دما كنت عضواً في مجلس تخطيط السياسات ساعدت في كتابة ورقة سياسات الأمن القومي في إدارة كيندي سنة 1963 وكنت مسؤولاً عن كتابة السياسات الفرعية فيما يتعلق بالشرق الأوسط وأفريقيا. لم تكن هذه الوثائق ملزمة إلا أنها تضع نوايا الحكومة. كانت وثيقة استراتيجية الأمن القومي في إدارة جورج بوش الابن قد نشرت في واشنطن في سبتمبر 2002، ووثائق مماثلة لإدارة باراك أوباما نشرت في واشنطن في فبراير 2015.

[528←]
ـف المجزرة صحفي أمريكي هو توماس فريدمان في "من بيروت إلى القدس" إصدار نيويورك Anchor 1989 ص 161. في 16 ديسمبر 1982 صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية 123/ 0 وامتناع 34 عن التصويت وأعلنت أن المجزرة "إبادة جماعية". أدين شارون من قبل لجنة إسرائيل كاهان ولجنة قضاة دولية ترأسها الإيرلندي Sean MacBride. أقال رئيس الوزراء مناحم بيجن وزير الدفاع شارون وتركه في الوزارة، وأصبح بعدها رئيساً للوزراء.

[529←]
يدمان "من بيروت إلى القدس" ص 159.

[530←]
تعادت منظمة التحرير بعض الوثائق فيما بعد في تبادل للمسجونين.

[531←]
ـعة الإسلام كما شرحتُ هو عقيدة معينة في الإيمان بين عقائد كثيرة، وتميز نفسها بالرجوع والانتساب إلى نسل الرسول محمد. الزيديين (ومنهم الحوثيين في اليمن وشيعة البحرين) يعترفون فقط بأول خمسة من الأئمة، ويعترف الاسماعيليون بأول سبعة وينتهون بالإمام السابع اسماعيل. أسس الاسماعيليون الخلافة الفاطمية العظيمة في مصر

العصور الوسطى وهم الآن متنفذون في باكستان وطاجيكستان. أشهر ما يعرف عنهم أنهم أتباع آغا خان. أكبر الطوائف هم الإثني عشرية الذين يعترفون بجميع الأئمة الإثني عشر عند الشيعة الذين ينتهون بمحمد المهدي. يؤمن الإثني عشريون بأن المهدي لم يمت بل حفظه الله، مثلما يؤمن المسيحيون عن المسيح، وأنه سيعود يوم القيامة. يعتبر الوهابيون وغيرهم من الأصوليين السنة أن الشيعة مذهب منحرف.

[532←]
ا عالمي اجتماع لامعين. أصبح إمري بيترز بروفسور علوم الإنسان الاجتماعية في جامعة مانشيستر. يرجع الفضل إليهما وإلى أستاذهما صديقي البرفسور E. E. Evans-Pritchard في مقاربتي للتاريخ.

[533←]
تق الاسم من آية في القرآن 5/ 56 "وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ".

[534←]
ما لا يوجد ما يماثل مركز آية الله عند السنة أو في العالم الغربي، تتعامل مؤسستان جزئياً بما يشبه ذلك: المفتي العام في جامعة الأزهر الدينية في القاهرة التي تصدر فتاوى في القضايا الدينية، والمجالس المسكونية في الكنيسة الكاثوليكية مثل مجلس الفاتيكان الثاني في الستينيات الذي ينصح البابا في قضايا الكنيسة.

[535←]
لغة العربية، حركة المحرومين تعني حركة الفقراء. واسم "أمل" هو اختصار لاسم "أفواج المقاومة اللبنانية" كما تعني "الأمل والرجاء".

[536←]
ل المدهش أنه عين رجل دين علوي في منصب ديني داخل المجتمع الشيعي. كان ذلك تحرك غير مسبوق نحو الوحدة بين الجماعتين المعروفتين بعدم الاتفاق.

[537←]
اد عجمي في "الإمام المختفي" إصدار جامعة كورنل 1986 ص 104.

[538←]
ما كانت محاولة للحصول على دعم مالي من الزعيم الليبي معمر القذافي التي أدت إلى "اختفائه" في أغسطس 1978. لم تتضح ظروف مقتله الذي يبدو مؤكداً. عن تقديرات ذلك في Giles Trendle "الإمام والكولونيل" في قناة الجزيرة 24 يوليو 2012، وكذلك Franklin Lamb في "هل تريد لبنان حقاً حل لغز الإمام موسى الصدر؟" في Counterpunch عدد 16 نوفمبر 2012.

[539←]
David K. Shipl في "يتحدث اللبنانيون عن معاناة المعيشة في ظل منظمة التحرير" International New York Times عدد 25 يوليو 1982.

[540←]
Kenneth Free "ليتقاتلوا في مكان آخر، الشيعة يحاولون طرد منظمة التحرير ليتجنبوا الانتقام الإسرائيلي" في los Angeles Times عدد 28 مايو 1985.

[541←]
ـت الحكومة اللبنانية رواتب وتعويضات أخرى لأعضاء جيش لبنان الجنوبي حتى سنة 1979 عندما أعلن قائده الضابط في الجيش اللبناني أن المنطقة تحت سيطرته هي "لبنان المستقلة الحرة". أعلنت الحكومة اللبنانية بعدها أن الأعضاء خونة. زودت إسرائيل "الجيش" بالدبابات والمدفعية الثقيلة وحتى الملابس. عندما أوقفت إسرائيل تزويدهم قبضت الحكومة اللبنانية على حوالي تسعمئة منهم وحاكمتهم. قبلت إسرائيل عدداً من الذين استطاعوا الهرب وأسسوا حكومة في المنفي في القدس.

[542←]
Casey Addis & Christopher M. Blancha في "حزب الله: خلفية وقضايا للكونغرس" تقرير رقم 41446 Congressional Research Service، مكتبة الكونغرس في 3 يناير 2011 ص 11.

[543←]
ـصدر نفسه ص 3.

[544←]
ـاك مكتبة كبيرة متزايدة عن إرهاب الأمريكان والإسرائيليين. يستطيع المرء أن يبدأ بكتاب Bob Woodward "الحجاب: الحروب السرية للمخابرات الأمريكية، 1981-1987" إصدار نيويورك Simon & Schuster 1988. Jane Mayer "الجانب المظلم" إصدار نيويورك Doubleday 2008، Jeremy Scahill "الحروب القذرة" إصدار نيويورك Nation Books 2013، Ami Pedahzur & Arie Perliger "الإرهاب اليهودي في إسرائيل" إصدار جامعة كولومبيا 2009. كما سيجد القارئ بعدها في هذا الكتاب فإن هدفي هو توضيح كيف أننا نستطيع جميعاً التحرك بعيداً عن هذه الأعمال المدمرة الضائعة البشعة.

[545←]
ـلال الانتداب الفرنسي تم إجراء تعداد للسكان وتخصيص مقاعد في البرلمان حسبما سماه الفرنسيون "الطائفة" أي على أساس العضوية الدينية. ارتفع عدد الشيعة بشكل كبير (إلى 1.2 مليوناً من عدد السكان الكلي 3.5 مليوناً)، بينما ثبت عدد السنة في حوالي 700,000 والمارونيين 660,000 وسيكون من الضروري إعادة النظر في المقاعد عاجلاً أو آجلاً إذا كانت الدولة ستبقى متماسكة في ديموقراطية تمثيل تناسبي مقبول. الأرقام مأخوذة من Alfred B. Prados "لبنان" تقرير رقم 33509 عن مكتبة الكونغرس 23 نوفمبر 2007.

[546←]
ـاس هو اختصار من الاسم العربي: حركة المقاومة الإسلامية.

[547←]
David Bla في "إسرائيل تجرف منطقة ميتة على حدود غزة" صحيفة Telegraph عدد 24 يوليو 2014.

[548←]
Mel Frybe في "كيف يحرم حصار إسرائيل البحري الطعام والمساعدات عن غزة" صحيفة Christian Science Monitor عدد 1 يوليو 2009.

[549←]
ـصار غزة: ليس سنة أخرى!" اللجنة الدولية للصليب الأحمر في 14 يونيو 2010.

[550←]

Violeta Santos-Mou في "آخر الصيادين في غزة" Foreign Affairs عدد 12 أغسطس 2015. في أبريل 2016 حركت إسرائيل منطقة الحظر أقرب إلى الشاطئ ولكن لا يوجد ضمانات أين ستكون في المستقبل. كتب نضال المغربي "إسرائيل تسمح للصيادين في غزة بمساحة بحرية أكبر: رفعت مسافة صيد السمك من ستة أميال بحرية إلى تسعة على طول شواطئ غزة الوسطى والجنوبية" صحيفة ها آرتز عدد 3 أبريل 2016.

[551←]

حد من قادة حماس وهو رئيس الوزراء هنية الذي أقاله عباس عندما حل البرلمان ولكنه احتفظ بسلطته في غزة، رفض المؤتمر كلياً. "المناطق الفلسطينية - جدول زمني" أخبار BBC في 6 أكتوبر 2007. انسحب حزب شاس من ائتلاف الحكومة الإسرائيلية. هوجم ألمرت أيضاً من طرف مجلس حاخامات البيشا وهو جماعة يمينية قوية. Kobi Nahshoni في "الحاخامات: تنظف البلاد من العرب" في موقع Ynetnews.com في 27 نوفمبر 2007.

[552←]

ثائق الفلسطينية، تم تسريب أكثر من 1600 وثيقة تبين خططاً لإسقاط الحكومة البرلمانية. Greg Carlstrom "تقديم الوثائق الفلسطينية" قناة الجزيرة 23 يناير 2011. Seumas Milne & Ian Back في "القصة وراء الوثائق الفلسطينية" صحيفة الغارديان عدد 24 يناير 2011. كشف زياد كلوت دوره في تسريب الوثائق في "لماذا نفخت الصفارة عن فلسطين" صحيفة الغارديان عدد 14 مايو 2011.

[553←]

اد كلوت "لن تكون هناك دولة فلسطينية" إصدار باريس Max Milo Editiond 2010.

[554←]

رت الأنفاق في البداية لكي يتمكن الغزاويون من إدخال الأغذية والمواد الأخرى التي يحتاجونها بشدة، وأيضاً لتصدير بعض المواد. اتسعت وتطورت واستخدمت في النهاية من جهة قوات حماس شبه العسكرية وجماعات عز الدين القسام المقاتلة ولتهريب الإرهابيين إلى إسرائيل ولتحريك الصواريخ إلى مواضع الإطلاق. انظر Harriet Sherwood عما وجدته إسرائيل خلال غزوها في "داخل الأنفاق التي بنتها حماس: كفاح إسرائيل ضد التكتيكات الجديدة في حرب غزة" صحيفة الغارديان عدد 2 أغسطس 2014. Jim Zanotti في "إسرائيل وحماس، الصراع في غزة" تقرير رقم R40101 مكتبة الكونغرس 19 فبراير 2009. Hayes Brown في "ما تحتاج إلى معرفته عن الأنفاق التي تصنع الحياة والموت في غزة" Thinkprogress عدد 18 يوليو 2014.

[555←]

Chris Gunne من منظمة الأمم المتحدة للغوث والتشغيل أخبر قناة Sky News أن مئات من الناس لجؤوا داخل مقر للأمم المتحدة تم قصفه "بثلاث قذائف من الفوسفور الأبيض". في "الأمم المتحدة ثائرة بسبب قصف مقرها في غزة" قناة Sky News 16 يناير 2009. انظر أيضاً Rory McCarthy في "إسرائيل متهمة باستخدام عشوائي للفوسفور في غزة" صحيفة الغارديان عدد 25 مارس 2009. يورد ماكارثي تقريراً عن Human Rights Watch يذكر "في غزة... قصف الإسرائيليون الفوسفور الأبيض عدة مرات على مناطق كثيفة السكان حتى عندما لم يكن جنوده في المنطقة وكانت قنابل الدخان الآمنة متوفرة".

[556←]

رائيل استخدمت أسلحة محرمة في غزة" Middle East Monitor عدد 21 يوليو 2014. أورد Mads Gilbert تصريح الطبيب النرويجي في إحدى مستشفيات غزة.

[557←]

Adam Withna في "صراع إسرائيل-غزة: القنابل المسمارية المميتة التي استخدمها الجيش الإسرائيلي في قطاع غزة" Independent on Sunday عدد 20 يوليو 2014. Harriet Sherwood في "إسرائيل تستخدم القنابل المسمارية في غزة" صحيفة الغارديان عدد 20 يوليو 2014. التصريح على لسان رانيا خالق في "أسرائيل تطلق أسلحة تجريبية

على المدنيين في غزة، يصرح الأطباء" الانتفاضة الالكترونية 15 يوليو 2014. صرح يوسف أبو الريش وكيل وزارة الصحة في غزة في مؤتمر صحفي بتاريخ 13 يوليو 2014 أن "مستشفيات غزة تطفح بسيل من القتلى والجرحى من تأثير القنابل". سعيد بنورة في "تقارير أطباء غزة عن إصابات تشير إلى استخدام إسرائيل أسلحة محرمة" أخبار IMEMC 13 يوليو 2014. DIME هي سلاح محرم دولياً أنكرت إسرائيل استخدامه في غزة.

[558←]
Conal Urquha في "القاضي غولدستون يعبر عن أسفه عن تقريره في حرب غزة" صحيفة الغارديان 3 أبريل 2011.

[559←]
محققون في غزة يطالبون بالتحقيق في جرائم الحرب" منظمة العفو الدولية 16 مارس 2009.

[560←]
جلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة "تقرير غولدستون - تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق في غزة" جنيف، الأمم المتحدة 2009 الفقرة 74-75.

[561←]
لر Urquhart في "القاضي غولدستون يعبر عن أسفه عن تقريره في حرب غزة". ذكرت الأسوشييتدبرس تقريراً من القدس في 5 أبريل أن "ريتشارد غولدستون قبل دعوة لزيارة إسرائيل ووافق على أن يحاول إلغاء تقرير الأمم المتحدة عن النزاع في غزة نقلاً عن وزير الداخلية "القاضي غولدستون سيزور إسرائيل، يصرح الوزير" الغارديان 5 أبريل 2011. Jim Zanotti في "حماس" إصدار واشنطن، مكتبة الكونغرس 2 ديسمبر 2010 ص 38 ذكر أن "في 3 نوفمبر 2009 وافق مجلس النواب على القرار H. Res. 867 (يطلب من الرئيس ووزير الخارجية بعدم قبول أو تبني أو مناقشة تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق في غزة بموافقة 344-36 (22 موجوداً مع عدم التصويت). عن رد فعل توتو انظر تقديمه لكتاب Adam Horowitz, Lizzy Ratner & Philip Weis أصدار نيويورك Nation Books 2011.

[562←]
Harriet Sherwoo في "غزة تصبح غير قابلة للعيش مع تضييق الحصار، تصرح الأمم المتحدة" الغارديان 22 نوفمبر 2013. استناداً إلى تقرير من الأنروا المدير العام Filippo Grandi وتقرير Nashant Pandey الممثل المحلي لمنظمة أوكسفام.

[563←]
Harriet Sherwoo في "تدمير محطة توليد الكهرباء الوحيدة في غزة بأقوى ضربة جوية إسرائيلية حتى الآن" الغارديان 30 يوليو 2014.

[564←]
نك الدولي "اقتصاد غزة على شفا الانهيار، وبطالة الشباب هي الأعلى في المنطقة بنسبة 60%" 21 مايو 2015 قدم إلى لجنة الاتصال الخاصة، البنك الدولي وثيقة رقم 96601 بتاريخ 27 مايو 2015.

[565←]
قييد الحركة في المناطق الفلسطينية المحتلة" لجنة خدمات الصداقة الأمريكية في موقعها على الانترنت.

[566←]

رين الشمايلة في "الأمم المتحدة تصرح أن قتلى غزة فضحوا العالم" قناة الجزيرة 7 أغسطس 2014. انظر أيضاً Barak David & Jack Houry في "رئيس الأمم المتحدة: تدمير غزة يفوق الوصف وأسوأ من الحرب الأخيرة" صحيفة هاآرتز 17 فبراير 2016.

[567←]
ين رباني "إسرائيل تقص الحشيش" في London Review Books 31 يوليو 2014.

[568←]
صدر نفسه.

[569←]
أجد حتى الآن بحثاً مرضياً عن حياة وأفكار أحمد ياسين. يقدم الصحفي الفلسطيني- الانكليزي زكي شهاب رؤية خاصة في "داخل حماس" إصدار لندن I. B. Tauris 2007 ص 103 ff.

[570←]
ياة ومصرع الشيخ ياسين" قناة الجزيرة 24 مارس 2004. يذكر التقرير أن مكان ولادة ياسين "تم تدميره وإزالته مع حوالي 500 قرية وبلدة فلسطينية أخرى سنة 1948 بعد احتلال فلسطين". يعني ذلك أن ذكرياته الأولى قد تم محوها بأفعال الإسرائيليين مثل كثير من الفلسطينيين. لا بد أن مرارة ذلك العمل قد لعبت دوراً في غضبه بعد ذلك.

[571←]
Andrew Higgi في "كيف ساعدت إسرائيل على ولادة حماس" صحيفة Wall Street 24 يناير 2009.

[572←]
لمة العربية "الشهيد" تعني "الرؤية أو المشاهدة" يقدم الشهداء أرواحهم كشهادة على وجود الله. أول واجبات المسلم هو ترديد جملة: "أشهد..." وهكذا يعمل الشهداء بأجسادهم ما يقوله المسلمون بألسنتهم في صلاتهم، وهو تعبير قوي جداً بالنسبة للمسلمين.

[573←]
شيخ ياسين" في قناة الجزيرة. ذكر التقرير ردود فعل الإسرائيليين وبعض القادة العرب وزعماء الاتحاد الأوروبي ومسؤولين من حكومة الولايات المتحدة. انظر أيضاً Uri Avnery في "لا تحتفلوا" عمود يوري آفنري في Gush Shalom عدد 7 مايو 2011. شبه آفنري اغتيال البريطانيين بدون محاكمة الإرهابي الإسرائيلي أبراهام شتيرن باغتيال أحمد ياسين.

[574←]
Alan Cowe في "الهجمة الجريئة التي انفجرت في وجه إسرائيل" صحيفة النيويورك تايمز عدد 15 أكتوبر 1997.

[575←]
Joel Greenbe في "زعيم حماس خالد مشعل يقول أن الجماعة لن تعترف بإسرائيل" الواشنطن بوست عدد 8 ديسمبر 2012.

[576←]

Tamar Pileg وفريق Times of Israel في "دبلوماسية إسرائيلية رفيعة تقول لزملائها: كل الأرض لنا" Times of Israel عدد 21 مايو 2015.

[577←]
دت في Ying-shih Yu "التجارة والتوسع في صين الهان" إصدار جامعة بيركلي 1967 ص 40.

[578←]
يوجد سجل لقبائل سيونغنو في التاريخ الغربي ولكنهم وأجدادهم ونسلهم هم الذين بدؤوا التحركات القبلية الكبيرة من آسيا التي أصبحت الهجمات البربرية على أوروبا وكانوا السبب وراء الأعمال التي أدت في النهاية إلى تدمير المجتمعات القديمة في الهند والشرق الأوسط وأوروبا. Denis Sinor في "فترة الهون" في تاريخ كامبريدج في آسيا الداخلية المبكرة. إصدار جامعة كامبريدج 1990 ص 177.

[579←]
Sima Qia في "شي جي Shi Ji" ترجمه Burton Watson في "سجلات المؤرخ الكبير" إصدارات جامعة كولومبيا 1993 المجلد الأول ص 304.

[580←]
ن الحصول على الجياد أحد أسباب أول بعثة دبلوماسية صينية إلى آسيا الوسطى. وحتى القرن الثامن عشر كان أمراء الهند يستوردون أكثر من خمسين ألف حصاناً كل عام. Jos Gomman في "نشأة الامبراطورية الهندية-الأفغانية" إصدار لايدن E. J. Brill 1995 ص 89. Scott C. Levi في "وادي فرغانة في تقاطع تاريخ العالم: نشأة خوقند 1709-1822" في Journal of Global History 2 (2007): 218.

[581←]
تشف علماء الآثار في القرن التاسع عشر أن حركة البوذيين في آسيا الوسطى كانت على نطاق واسع في الأزمنة القديمة. قضى كثير من الكهان البوذيين حياتهم هناك. وكان التحالف الكبير لقبائل الزونغهار في القرن التاسع عشر بوذياً.

[582←]
أن نمو التجارة وتغير الأذواق انظر Edward H. Schafer في "الدراق الذهبي من سمرقند" إصدارات جامعة بيركلي 1963. ربطت هذه الاهتمامات وغيرها الصينيين بآسيا الوسطى التي مر عبرها طريق الحرير.

[583←]
مدن السبعة بالتركية Yedisehir" واحد من الاصطلاحات التي ترد في الأدب. اصطلاح آخر هو "Sart" الذي يعتبره السكان المحليون إهانة ويشبهه بعضهم بالكلمة الإنكليزية المهينة "Nigger" التي استخدمها الإنكليز كثيراً في وصف الهنود. استخدم الصينيون كلمات مهينة أيضاً، مثلما استخدم الجنود الأمريكان كلمة "rag head" لوصف المسلمين. أطلق الصينيون اسم "الرأس الملفوف turband head" لوصف مسلمي آسيا الوسطى، والكلمة الصينية هي "ch'an-t'ou". كتب Owen Lattimore "لم يكن لديهم لقرون طويلة اسم "وطني" وعرف الناس أنفسهم بحسب الواحة التي جاؤوا منها، مثل الكشغار أو التورفان" في "العودة إلى جبهة الصين الشمالية" Geographical Journal 139, no. 2 (1973): 235. اسم الأويغور استخدم سنة 1921 في مؤتمر طشقند لمسلمي آسيا الوسطى لوصف الناس الذين يعيشون في المدن السبعة. استخدم سابقاً اسماً لجماعة حوار صغيرة.

[584←]
M. Romanovs في "ملاحظات حول مسألة آسيا الوسطى" إصدار كلكتا. مطابع مكتب المدير العام للحكومة. 1870. ص 6. كان يعلق على خانات خيفا وبخارى وخوقند، ولكن ما كتبه ينطبق أيضاً على المدن السبعة في حوض تاريم.

[585←]
ام القنوات هو أنفاق تنحدر بلطف من مصدر الماء إلى المناطق الزراعية تم تطبيقه في إيران وفي شينجيانغ باسم Karez حسب Stanley W. Toops في "إيكولوجية شينجيانغ: "تركيز على الماء" في كتاب "شينجيانغ: حدود الصين المسلمة" تحرير Frederick Starr إصدار نيويورك M. E. Sharpe 2004 ص 273. القنوات أو الكهاريز مكنت المدن من النمو بعيداً عن مصادر الماء في عصر لم تكن فيه الأنابيب متوفرة.

[586←]
James A. Millward & Peter C. Perdu في "التاريخ السياسي والثقافي لمنطقة شينجيانغ حتى أواخر القرن التاسع عشر" في Starr "شينجيانغ" ص 41.

[587←]
Le في "وادي فرغانة" ص 223.

[588←]
Lien-sheng Yar في "ملاحظات تاريخية على النظام العالمي الصيني" في "النظام العالمي الصيني" تحرير John King Fairbank إصدارات جامعة هارفارد 1968 ص 27.

[589←]
Joseph F. Fletch في "الصين وآسيا الوسطى" في Fairbank "النظام العالمي الصيني" ص 207-208.

[590←]
صدر نفسه ص 210-211.

[591←]
دت وترجمت في Yang "ملاحظات تاريخية" ص 31.

[592←]
كن الامبراطور كينغ كيانلونغ الذي حكم 1736-1795 من إخضاع طشقند التي خضعت بعد ذلك للامبراطورية الروسية.

[593←]
Millward and Perdu في "منطقة شينجيانغ" ص 58-62. جماعات عديدة من غير الهان ولكنها مسلمة عرفت بهذه الأسماء.

[594←]
لر Hodong Kim في "الحرب المقدسة في الصين: الثورة الإسلامية والدولة في لآسيا الوسطى الصينية 1864-1877" إصدارات جامعة ستانفورد 2004.

[595←]
ص موجود في المصدر نفسه في الملحق A. التحركات التي قام بها الروس لتحسين العلاقات لم تحل المشاكل بينهم وبين يعقوب. لم يثق أي منهم بالآخر. خشي الروس أن يعقوب سيتحرك في "منطقتهم" شمال تينشان وفكروا باقتراح حملة مشتركة مع الصينيين ضده. تصرفوا لوحدهم لتدعيم مواقعهم فوق تينشان إلا أنهم تحركوا بحذر نحو الاتفاقية التي وقعت سنة 1872.

[596←]
ـالة في 26 سبتمبر 1780 وردت في Lewis Namier "الملك جورج الثالث: دراسة شخصية" في "الشخصيات والقوى" إصدار لندن Hamish Hamilton 1955 ص 45.

[597←]
ـفياً كانت الاتفاقية بين نائب الملك في الهند وحاكم منطقة كاشغار وياركاند، إلا أنها في الشكل واللهجة كانت وثيقة أكثر دبلوماسية من التي وقعها الروس. وصف فيها يعقوب بأنه "صاحب الجلالة الأمير محمد يعقوب خان". تعلم البريطانيون في الهند كيف يعظمون من يريدون السيطرة عليهم. كانت كلمة "خان" أعظم لقب في آسيا الوسطى. كانت إرثاً تركه أعظم الخانات: جنكيز. نص الاتفاقية موجود في Kim "الحرب المقدسة في الصين" الملحق B.

[598←]
Michael E. Clarl في "شينجيانغ ونهوض الصين في آسيا الوسطى" إصدار UK, Routledge 2011 ص 26.

[599←]
Ki في "الحرب المقدسة في الصين" ص 184-185.

[600←]
Romanovs في "مسألة آسيا الوسطى" ص 9.

[601←]
Owen Lattimo في "عمود آسيا" إصدار بوسطن Little Brown 1950 ص 3.

[602←]
ـس اللغة العربية والتركية والإسلام في كازان (مثلما فعلت أنا في أكسفورد) ويمكن اعتباره مثالاً بارزاً لانتقادات إدوارد سعيد للاستشراق. إدوارد سعيد "الاستشراق" إصدار نيويورك Pantheon 1978.

[603←]
ـب خالد في "سياسات النهضة الثقافية الإسلامية: الجديدية في آسيا الوسطى" إصدارات جامعة كاليفورنيا، بيركلي 1998 ص 109.

[604←]
Justin Rudelson & William Jankowi في "نزع الثقافة والمقاومة: تدفق هويات شينجيانغ" في Starr "شينجيانغ" 305-306.

[605←]
ـصدر نفسه ص 307.

[606←]
ـصدر نفسه.

[607←]

David Brph في "أمة الأويغور" إصدارات جامعة هارفارد 2016 ص 275.

[608←]
Graham E. Fuller & Jonathan N. Lipma في "الإسلام في شينجيانغ" في Starr "شينجيانغ" ص 323.

[609←]
ب نجيب صليبي الطبيب اللبناني الأمريكي وعالم الأعراق في "دراسات في تاريخ المورو والقانون والدين" إصدار مانيلا، Bureau of Public Printing 1905 ص 50 "أغلب سلطنات المورو صغيرة ولم يتم تعدادها ووصفها. تمثل بشكل عام أجزاء صغيرة من الأرض والقبائل، وكل منها تحت حكم زعيم واحد يسمي نفسه السلطان أو الداتم".

[610←]
ص موجود في نجيب صليبي "تاريخ السولو" إصدار مانيلا، Bureau of Public Printing 1908 ص 194.

[611←]
تخدمت الطبعة الثالثة إصدار لندن HMSO 1906 التي طبعت بالتصوير مع مقدمة Douglas Porch برفسور الاستراتيجية في معهد الحرب البحرية. Charles E. Calldwell "الحروب الصغيرة: المبادئ والتطبيق" إصدارات جامعة نبراسكا. 1996 ص 128-129، 132-145.

[612←]
Henry F. Gra "الأمبريالية الأمريكية وتمرد الفلبين: منتخبات من استجوابات الكونغرس" إصدار بوسطن Little Brown 1969 ص 64-65.

[613←]
Stuart Creighton Mill في "الجندي الأمريكي واحتلال الفلبين" في "إعادة تقييم امبراطورية: رؤية جديدة لتاريخ الفلبين الأمريكي" تحرير Peter W. Stanley إصدارات جامعة هارفارد 1984 ص 31-32.

[614←]
ـف شعبي في Victor Hurley "ضربة الكريس" إصدار نيويورك Dutton 1936.

[615←]
ـد الضباط أن مسدساتهم ذات العيار 38 لم توقف هجوم انتحاري وأنهم يحتاجون أسلحة أقوى، وكان ذلك منشأ المسدس من عيار 45 الذي استخدمه الأمريكان في القرن التالي.

[616←]
Herberta Docer في "التحرير الوطني عند المورو" في "الموسوعة الدولية للثورة والاحتجاج" تحرير Immanuel Ness إصدار أكسفورد، Blackwell 2009. انظر أيضاً Thomas McKenna في "الحكام المسلمين والمتمردين: السياسات اليومية والانفصالية المسلحة في جنوب الفلبين" إصدارات جامعة كاليفورنيا، بيركلي 1998.

[617←]
ت صياغة الاصطلاح من جهة رئيس القضاة John Marshall في قراره سنة 1831 في قضية "أمة الشيروكي ضد جورجيا".

[618←]
لبيي "دراسات" ص 63.

[619←]
صدر نفسه ص 64.

[620←]
و Datu هو اللقب المعروف لزعيم قبيلة واحدة أو إمارة.

[621←]
يب صلبيي في "مشكلة المورو: حوار أكاديمي عن التاريخ وحل مشكلة حكم المورو في جزر الفلبين، 1913" في "الولايات المتحدة ومناطقها، 1870-1925: عصر الأمبريالية" مجموعة عن جنوب شرق آسيا، مكتبة جامعة ميشيغان، آن آربر.

[622←]
وماد هو الاسم الذي أطلق على السكان الأصليين غير المسلمين بما يشبه في الفلبين الاصطلاح المستخدم في أمريكا للإشارة إلى الشعب الهندي بوصفهم "الأمريكان الأصليين".

[623←]
ن هم شعب المورو؟" في صحيفة Philippine Daily Inquirer عدد 20 أكتوبر 2012.

[624←]
Docer في "التحرير الوطني عند المورو" ص 2.

[625←]
ن حركة هوكبالاهوب انظر Benedict J. Kerkvliet في "تمرد الهوك" إصدار Rowman & Littlefield 2002. معلومات إضافية عن التمرد ضد الإسبان واليابانيين والأمريكان والحكومة الفلبينية في William R. Polk في "تمرد الفلبين" الفصل الثالث في "السياسات العنيفة" إصدار نيويورك HarperCollins 2007.

[626←]
ق اليابانيون طريقة النزف حتى الموت على المتمردين الأسرى. Richard Lloyd Parry في "قطعوهم أحياء: الأمر الأمبراطوري المرعب الذي لا يمكن إنكاره" صحيفة Australian عدد 26 فبراير 2007.

[627←]
سم العربي هو: جبهة تحرير مورو القومية.

[628←]
سم العربي هو: جبهة تحرير مورو الإسلامية.

[629←]
رات السلام" Economist عدد 17 أكتوبر 2015.

[630←]
Richard Burto في "الخطوات الأولى في شرق أفريقيا" إصدار لندن 1856.

[631←]
عشرة أيام في هرر" المصدر نفسه، الفصل الثامن. وصف بورتون بأسلوبه النموذجي (باللغة اللاتينية تجنباً للرقابة الإنكليزية) بعض العادات الجنسية للشعب، وعلق على جمال الصوماليات مثل كثير من الرحالة.

[632←]
Christopher Clapha في "القرن الأفريقي" لندن، هيرست 2017 ص 60.

[633←]
Paul Salope في "لا أحد يراقب حرب أمريكا الخفية في الصومال" صحيفة Chicago Tribune عدد 24 نوفمبر 2008.

[634←]
Stig Jarle Hanse في "الشباب في الصومال: التاريخ والإيديولوجية لجماعة إسلامية محارِبة" لندن، هيرست 2013 ص 23.

[635←]
Jeffrey Gettlema في "في إثيوبيا خوف وصرخات لقسوة الجيش" نيويورك تايمز 18 يونيو 2007.

[636←]
سم العربي الكامل لها هو حركة الشباب المجاهدين انظر عنها Hansen في "الشباب في الصومال".

[637←]
Mark Mazzet في "البنتاغون يدرس حركة سرية في الصومال كمخطط مبدئي" صحيفة International Herald Tribune 13 يناير 2007.

[638←]
خص الفشل موجود في Ken Menkhaus & Karin von Hippel بيان الرأي "جمهورية رد الفعل" International Herald Tribune 3 سبتمبر 2008.

[639←]
Jeffrey Gettlema في "القراصنة يربحون!" New York Review of Books 14 أكتوبر 2010.

[640←]
ءت هذه الحماية بشكل رئيسي من المنظمات غير الحكومية وأشهرها رعاة البحر Sea Shepherd التي تطارد وتنشر أخبار الصيد غير القانوني. انظر Ian Urbina في "مطاردة صيد السمك غير القانوني" International New York Times 28 يوليو 2015.

[641←]

يخ جيد لدى Manuel Reinert & Lou Garcon في "بوكو حرام: تاريخ" في "بوكو حرام: الإسلامية والسياسة والأمن والدولة في ميجيريا" تحرير Marc-Antoine Perouse de Montclos إصدار African Studies Center عبدان 2014.

[642←]

ب جديد Vincent Hiribarren "تاريخ بورنو" إصدار لندن، هيرست، 2017 عن تاريخ هذه المملكة المدهشة.

[643←]

Dixon Denham, Hugh Clapperton & Walter Oudne في "تقرير عن رحلات واستكشافات في شمال ووسط أفريقيا في السنوات 1822، 1823، 1824" إصدار بوسطن، Cummings, Hilliards 1826. ص 248.

[644←]

ت بعض الحقوق التي حصلت عليها بيد شركة Unilever.

[645←]

تاب الحقائق العالمية" إصدار المخابرات الأمريكية 2017. "نيجيريا". يقرر البنك الدولي إحصائيات مختلفة ولكنه يشير إلى أن مستوى الفقر في المناطق الشمالية يبلغ ثلاثة أو أربعة أضعاف المناطق الجنوبية ويتجه إلى الارتفاع. تقرير البنك الدولي عن الاقتصاد في نيجيريا، العدد الثاني. إصدار واشنطن. البنك الدولي 2 يوليو 2014.

[646←]

ارة الخارجية الأمريكية، مكتب الديموقراطية، حقوق الإنسان والعمل، "تقارير الدولة عن حقوق الإنسان والممارسات سنة 2015: نيجيريا" وزارة الخارجية، 2015.

[647←]

ارة الخارجية الأمريكية "الاتجار في تقرير الأشخاص، 2015" وزارة الخارجية 2015. ص 1.

[648←]

ىف الفساد رئيس وزراء انكلترا للملكة إليزابيث الثانية. انظر Anushka Asthana & Jamie Grierson في "أفغانستان ونيجيريا ’ربما أكثر الدول فساداً’ يسرب كاميرون" الغارديان 10 مايو 2016. في اليوم التالي كان على الرئيس النيجيري محمدو بوهاري أن يقدم الخطاب الرئيسي في "قمة مكافحة الفساد". بشأن المال الذي سرقه زعماء نيجيريا انظر Alex Perry في "فشل الديموقراطية في نيجيريا" التايم عدد 23 أبريل 2007.

[649←]

دت في Rita Okoye "خسرت نيجيريا 400 بليون دولاراً من عائدات النفط للفساد منذ الاستقلال، حسب إيزكوسيلي" صحيفة Nigeria Daily Post عدد 31 أغسطس 2012.

[650←]

` يمكن اعتبار الانتخابات معتمدة" قال Max van den Berg رئيس مراقبي الانتخابات عن الاتحاد الأوروبي" وصف مراقبون محليون الانتخابات بأنها مهزلة. Perry "فشل الديموقراطية".

[651←]

إرة الخارجية الأمريكية، مكتب الديموقراطية، حقوق الإنسان والعمل، "تقارير الدولة عن حقوق الإنسان والممارسات سنة 2012: نيجيريا" وزارة الخارجية، 2012. انظر أيضاً منظمة العفو الدولية "القتل حسب الرغبة: الإعدامات بدون محاكمة وغيرها من جرائم القتل غير القانونية من جهة الشرطة النيجيرية" لندن، منظمة العفو الدولية 2009.

[652←]
إرة الخارجية الأمريكية نيجيريا 2012 تقرير حقوق الإنسان ص 1.

[653←]
دث الكتب هي Virginia Comolli "بوكو حرام: تمرد نيجيريا الإسلامي" إصدار لندن، هيرست 2015 وMike Smith "بوكو حرام: داخل حرب نيجيريا غير المقدسة" إصدار لندن، Tauris 2015.

[654←]
Andrew Walk في "ما هي بوكو حرام؟" إصدار واشنطن، US Institute of Peace. يونيو 2012.

[655←]
عربية النيجيرية: جماعة السنة للدعوة والجهاد. انتسبوا فيما بعد إلى الدولة الإسلامية (داعش) واتخذوا اسم: "الولاية الإسلامية في غرب أفريقيا".

[656←]
Walk "ما هي بوكو حرام؟" ص 5. انظر أيضاً David Blair في "بوكو حرام الآن دويلة إسلامية صغيرة ولها أرضها الخاصة" صحيفة التليغراف، عدد 10 يناير 2015.

[657←]
ذ هذا التقرير والتفاصيل التالية من Ahmad Mutada "بوكو حرام" إصدار نيجيريا، Salafi Manhaj 2013. ص 6. د. موتادا من قسم الدراسات الإسلامية في جامعة بيرو في كانو Bayero University in Kano في شمال نيجيريا. عمل من تسجيلات صوتية لتصريحات قادة الحركة لإصدار هذا التقرير.

[658←]
ت المواجهة بشأن حادثة سير وصفها Andrew Walker الذي كان حينها مراسلاً لصحيفة نيجيرية يعمل على القصة. نشر تقريره في "كلوا قلوب الكفار" إصدار لندن، هيرست، 2016 ص 136 ff.

[659←]
دت في Mutada "بوكو حرام" ص 8.

[660←]
Smi "بوكو حرام" 97-98.

[661←]
David Coo في "نشأة بوكو حرام في نيجيريا" CTC Sentinel عدد 26 سبتمبر 2011.

[662←]

جيريا: الموت بالمئات للمشتبهين في بوكو حرام في المعتقل يحتاج إلى التحقيق" منظمة العفو الدولية 15 أكتوبر 2013.

[663←]
ل نيجيريا فاسدة بشكل هائل كما قال كاميرون؟" BBC News 11 مايو 2016.

[664←]
اقبة حقوق الإنسان "العنف المتصاعد: بوكو حرام وإساءات قوات الأمن في نيجيريا" إصدارات منظمة مراقبة حقوق الإنسان 11 أكتوبر 2012، ومنظمة العفو الدولية "نيجيريا: محصورة في دائرة العنف" إصدارات منظمة العفو الدولية 1 نوفمبر 2012.

[665←]
Mannir Dan A في "رسالة من أفريقيا: بوكو حرام في نيجيريا تجرح كبرياء الجيش" BBC News 10 مايو 2016. Ali هو محرر صحيفة Daily Trust في نيجيريا.

[666←]
Emele Oı "منظمة العفو الدولية تقول: أفلام شنيعة عن جرائم الحرب في نيجيريا" بلومبيرغ 5 أغسطس 2014.

[667←]
كومة الأمريكية تعتبرهم أحد أكثر الجماعات الإرهابية عنفاً في العالم. وأنهم قتلوا أكثر من خمسة آلاف شخصاً وشوهوا أكثر من ثلاثمئة ألف في "مجال أهداف واسع" Lauren P. Blanchard "نيجيريا بوكو حرام: أسئلة تطرح كثيراً" إصدار مكتبة الكونغرس 10 يوليو 2014.

[668←]
، بحث المشاكل المعقدة لدى عودتها إلى بلدتها بعد اختطافها و"زواجها" انظر Alastair Leithead "اختطاف بوكو حرام: زوجة محررة تتحدث عن مأساة الوصمة" BBC News 14 أبريل 2016. انظر أيضاً Elizabeth McLaughlin "طالبات المدرسة المخطوفات يحاربن الآن مع بوكو حرام، يقول خاطف سابق" ABC News 16 سبتمبر 2015. "الجيش النيجيري يحرر مئات من النساء والبنّات من بوكو حرام" الغارديان 2 مايو 2015.

[669←]
BBC Monitorin "هل تشكل الدولة الإسلامية وسائل إعلام بوكو حرام؟" BBC News 4 مارس 2015.

[670←]
ـح المعلق النيجيري المشهور Aliyu U. Tilde كلمة "بوكو" لقرائه وقرر أنها تعني "مزيف" أو "متخلف" أو "غبي". وذكر جميع الصفات التي لا يحبها النيجيريون، واستنتج "نحن جميعاً بوكو حرام" تصريح 261 (غير منشور وغير مؤرخ).

[671←]
رت محطة BBC أن الاصطلاح قد استخدم أولاً لوصف التعليم العلماني الأجنبي في نظام المدارس البريطانية الذي فرض على الخلافة سنة 1903 "نيجيريا: بوكو حرام الآن تهديد جديد خطير حسب Wole Soyinka" BBC News 2 مايو 2014.

[672←]

ـف الجماعة أيضاً باسم: أنصار المسلمين الحقيقيين في أفريقيا السوداء واتجهت لتأسيس علاقات مع القاعدة. لا يعرف عنها الكثير حتى الآن. نشر تقرير عنها في صحيفة La Vanguard في لاغوس منذ ثلاث سنوات. ذكر رجل قيل أنه زعيم الجماعة هو خالد البرناوي قبضت عليه الشرطة النيجيرية في أبريل 2016. انظر أيضاً بشكل خاص كايري محمد "رسالة وطرق بوكو حرام" في Perouse de Montclos "بوكو حرام" ص 30 ff. وأفضل تقرير حديث من Comolli في "بوكو حرام".

[673←]
Vincent Fouch "بوكو حرام تخسر الأرض، ولكنها لن تهزم بالسلاح وحده" الغارديان عدد 13 مايو 2016.

[674←]
David Smi "مرتزقة مسنون من أفريقيا الجنوبية ساعدوا في تغيير المد على بوكو حرام" الغارديان 14 أبريل 2015. Ed Cropley & David Lewis "نيجيريا تجند مرتزقة أجانب للتغلب على بوكو حرام" صحيفة ها آرتز 18 مايو 2014. Andrew Tilghman "جنود أمريكان يتوجهون إلى نيجيريا في مهمة استشارية ضد بوكو حرام" Military Times 6 فبراير 2016. Eric Schmitt & Dionne Searcey "أمريكا تخطط لإرسال مستشارين على خطوط الجبهة في حرب نيجيريا ضد بوكو حرام" New York Times 25 فبراير 2016. "زعيم بوكو حرام النيجيرية أبو بكر شيكوي في الصورة" BBC News 9 مايو 2014.

[675←]
ـل حضرموت مشهورون بكونهم مهاجرين مثل اللبنانيين، ويمكن أن يوجدوا في كافة أرجاء المناطق حول المحيط الهندي مثلما يوجد اللبنانيون حول البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. توجد شخصيات حضرموتية في العهد القديم والقرآن. ذكر في القرآن أنه سكن فيها قوم ثمود الذين دمرهم الله بسبب قسوتهم وعدم قبولهم دعوة النبي صالح.

[676←]
ـلحظة شخصية: زرت السعودية في ذلك الوقت. تمت مرافقتي لزيارة الملك في قاعة هائلة بنتها مجموعة بن لادن. كانت الحرارة في الخارج حوالي مئة درجو فهرنهايت، ولكن في الداخل كان هنالك عشرة مكيفات موزعة على الجدران خفضت الحرارة إلى قرب التجمد. كان البرد صدمة مؤلمة بالنسبة لي، أما بالنسبة لرجال القبائل الذين جاؤوا لتقديم ولائهم للملك الجديد فقد كانت إشارة تدل على قوته. أعتقد أن مثل هذه الرؤية الماهرة لنفسية عملائه هي التي جعلت محمد بن لادن ثرياً.

[677←]
ـلويون هم مجموعات عرقية أو دينية لجأت على مر التاريخ الطويل إلى منطقة شرق المتوسط، وهم قريبون من الإسلام الشيعي إلا أنهم حافظوا على حالتهم المنفصلة. أشهر المنتمين إليهم هي عائلة الأسد رئيس سورية. واللاذقية هي إحدى المناطق التي يتواجدون فيها.

[678←]
Jonathan Rand "أسامة: صنع إرهابي" أصدار نيويورك، Vintage 2005. ص 53-56. ذكر راندال "اعتادت العائلات على اتخاذ العلويات خادمات، وكثير من أصدقائي اللبنانيين في بيروت من جيلي لديهم ذكريات لطيفة عن تعريفهم بالملذات الجنسية عن طريقهن" ص 55. وضع كتاب راندال على أساس مقابلات مع أصدقاء أسامة بن لادن وأفراد من عائلته ومعارفه. في وجهة نظر مختلفة انظر Lawrence Wright "البرج الغامض: القاعدة والطريق إلى 11/9" نيويورك Knopf 2006. Steve Coll "أسامة الشاب" في New Yorker عدد 12 ديسمبر 2005 يسرد ذكريات عن شباب أسامة في جدة.

[679←]
ـن محمد نشيطاً مثل أخيه سيد في حركة الإخوان المسلمين وقبض عليه واتهم بالإرهاب ولكن سمح له بمغادرة مصر فلجأ إلى السعودية حيث أصبح بروفسوراً.

[680←]
M. J. Goha "الطالبان: الصعود إلى السلطة" إصدار جامعة أوكسفورد 2001 ص 135.

[681←]
سف أبو العينين "كتب المرحوم عبد الله عزام" إصدار نيويورك US Military Academy 2008.

[682←]
د الله عزام "الدفاع عن أرض الإسلام" في Religioscope عدد 1 فبراير 2002. في الفصل الأول يسرد عزام مقولة لتقي الدين ابن تيمية "أول واجب بعد إعلان الإيمان هو طرد الأعداء المحتلين".

[683←]
Christopher Blancha "القاعدة: التصريحات وتطور الإيديولوجية" إصدار مكتبة الكونغرس 9 يوليو 2007 ص 2.

[684←]
د ما لا يصدق عن سجله الحربي، ولكن بعد سماع تأكيدات من رجل يبدو أنه كان معه في أفغانستان كان راندال مستعداً لتصديق الحقائق الأساسية عن عملياته القتالية بغض النظر عما قاله عن شجاعته من قبل. راندال "أسامة" ص 89.

[685←]
Kenneth Katzma القاعدة: الصورة وتقدير المخاطر" تقرير رقم RL33038 مكتبة الكونغرس 17 أغسطس 2005.

[686←]
تيل عزام في تفجير قنبلة تحت سيارته. لم يتهم أحد بذلك ولكن ألقي اللوم على الجميع. اتهم أسامة بأنه القاتل من جهة بعضهم، إلا أن الاحتمال الأرجح هم عملاء المخابرات الأمريكية والموساد والمخابرات الأردنية. جرت محاولات عديدة سابقة لاغتيال عزام كانت إحداها تلغيم مسجد ولو انفجرت القنابل آنذاك لقتل مئات معه.

[687←]
سفت الحملة ببراعة وتفصيل اعتماداً على وثائق روسية في كتاب السفير البريطاني Rodric Braithwaite "أفغانستان: الروس في أفغانستان، 1979-1989" إصدار لندن Profile Books 2011.

[688←]
تكن هذه الطرق جديدة بالطبع فقد استخدمت عبر التاريخ كما وصفت في كتابي "السياسات العنيفة" إصدار نيويورك HarperCollins 2007. استخدمها الإسبان بنجاح ضد جيش نابليون، واليوغوسلافيون واليونانيون ضد الجيش الألماني، والفلبينيون والفييتناميون ضد الأمريكان، والجزائريون ضد الفرنسيين. بدأت كل حلقة من صفحة جديدة: لم تعرف كل جماعة ما فعلته جماعات أخرى قبلهم.

[689←]
ن ذلك هو التصريح الذي كتبته في تقرير السياسة الخارجية الأمريكية سنة 1962 (نص غير منشور).

[690←]
خذ اليابانيون موقفاً أكثر مرونة ولكن البريطانيين كانت لديهم مصالح رئيسية بالمحافظة على استقلال الكويت. كان صدام قد أمم حصتهم من انتاج بترول العراق ولكن بقيت لديهم حصة كبيرة من انتاج الكويت. منحتهم تلك الحصة مصدراً

مهماً للعملة الصعبة ويمكن أن تسبب خسارته شللاً في الاقتصاد البريطاني. شجعوا الأعمال الأمريكية ولكنهم رضوا بترك الدور القيادي للأمريكان.

[691←]
شت هذه القضايا والأزمة بشكل عام في كتابي "فهم العراق" إصدار نيويورك HarperCollins 2005 الفصل الرابع.

[692←]
د الباري عطوان في "تاريخ القاعدة السري" إصدار لندن، دار الساقي ص 44 ff.

[693←]
ت سلطتهم ممثلة بنوع من الشرطة الدينية: "المطاوعة".

[694←]
فت الصادق المهدي حينما كنا معاً طلاباً في جامعة أكسفورد. من المفارقة أنه من أحفاد المهدي، الزعيم الديني الذي حارب البريطانيين. تم اتخاذ القرار بتشكيل حكومة أسلامية أصولية تحت تأثير الزعيم السوداني المتطرف الديني حسن الترابي الذي طالب باجتماع مؤتمر الأمة الإسلامية بجمع زعماء الجماعات الإسلامية من أفريقيا وآسيا في الخرطوم سنة 1991.

[695←]
سبما أخبر عبد الباري عطوان في "تاريخ القاعدة السري" ص 47.

[696←]
ذلك الوقت عشت أنا أيضاً في منطقة المعادي ولكننا لم نلتق.

[697←]
Owen Bowc "طريق التعذيب إلى 11 سبتمبر" الغارديان 24 يناير 2003. حسب بوكوت "سجن الظواهري وحسب رفاقه تم تكرار ضربه بعد اغتيال الرئيس أنور السادات سنة 1981. أدت الإهانات والشعور بالذنب بسبب الخيانة تحت التعذيب لأحد رفاقه الإسلاميين حسبما يقال إلى التأثير بعمق على حياته. كتب منتصر الزيات المحامي الذي كان مسجوناً مع د. الظواهري مذكرات إدانة ذكر فيها كيف أن تجربته المؤلمة خلال سنوات سجنه الثلاث أدت إلى تحول د. الظواهري من معتدل نسبياً إلى إسلامي سري عنيف متطرف". قبضت الشرطة السرية المصرية على 1500 شخص ولكنها لم تقبض على الضابط خالد اسلامبولي الذي أطلق النار على السادات في أكتوبر 1981.

[698←]
وهري "طالبان" ص 136. أعلنت الفتوى: "الجهاد ضد الكفار الذين احتلوا أرض الإسلام هو فرض على جميع المسلمين". نشرت الفتوى بتوقيع سعودي (أسامة بن لادن) ومصريين (أيمن الظواهري وياسر رفاعي وأحمد طه) وباكستاني (شيخ مير حمزة) وبنغالي (فضل الرحمن).

[699←]
دت في عطوان "تاريخ القاعدة السري" ص 53-54.

[700←]

كرة مساعد وزير الخارجية Karl F. Inderfurth إلى وزيرة الخارجية مادلين ألبرايت في 24 نوفمبر 1998 ذكرت: "كيف يمكننا إقناع طالبان بطرد أسامة بن لادن من أفغانستان إلى دولة يمكن إحالته فيها إلى العدالة أو إنهاء وتحديد التهديد الذي يمثله لمصالح الولايات المتحدة". "ربما أدت الهجمات الصاروخية ضد بن لادن إلى عكس نتائجها" في السجل الالكتروني للأمن القومي رقم 253 سجلات الأمن القومي في واشنطن، نشرت في 20 أغسطس 2008 على الانترنت. وبرقية من السفارة الأمريكية في أسلامأباد 28 نوفمبر 1998 ذكرت أن مسؤولين كبار من طالبان أرسلوا إلى الحكومة الأمريكية عرضاً عن كيفية "طرد أسامة بن لادن بطريقة تتجنب المشاكل الداخلية التي خشيت منها قيادة طالبان" المصدر نفسه الوثيقة II.

[701←]

James Ast "الضربة الأولى" الغارديان 2 أكتوبر 2001. السفير الألماني Werner Daum "العالمية والغرب" في Harvard International Review 23, no. 2 (2006): 19. رفعت شركة الأدوية قضية تعويضات ولكن "رفضت المحكمة القضية لأن الهدف العدو للقوات المسلحة لا يملك الحق في التعويضات نتيجة تدمير الممتلكات التي حددها الرئيس كممتلكات حربية معادية". شركة الشفا للصناعات الدوائية وصرح الدين أحمد محمد إدريس ضد الولايات المتحدة الأمريكية، القضية رقم 07-5174 (D.C. Cir 2010) القرار في 8 يونيو 2010.

[702←]

بد تقرير مكتب المخابرات والأبحاث في وزارة الخارجية الأمريكية في 28 أغسطس 1998 انتشاراً واسعاً "المشاعر الظلم والأذى في العالم العربي وانتشار الاعتقاد العام بين النخبة العربية والجماهير معاً بأن سياسة أمريكا تدعم الأنظمة الفاسدة وتفضل إسرائيل على حساب العرب، وأنها تهدف إلى تقسيم وإضعاف واستغلال العالم العربي وأنها مرسخة في أعماق الشعور السلبي تجاه سياسات أمريكا. يركب بن لادن هذه الموجة من الرأي العام. على الرغم من أن قلة صغيرة تتبنى إرهابه إلا أن كثيراً منهم يشتركون معه في بعض مشاعره السياسية على الأقل". في "الضربة الصاروخية سنة 1998 على بن لادن" الوثيقة 4 ص 1.

[703←]

نص الكامل: رسالة بن لادن إلى أمريكا" الغارديان 24 نوفمبر 2002. كان الهجوم على مركز التجارة العالمي انتقاماً لقصف أمريكا للأفغان والعراقيين والقرى الصومالية. "لأن الظلم الواقع على اللبنانيين والفلسطينيين من جهة إسرائيل وأمريكا" و"كراهية أمريكا العميقة للإسلام" قال بن لادن: "شاهدنا الجرائم الحقيقية لأولئك الذين يسمون أنفسهم انسانيين ويدعون أنهم يدافعون عن الحرية... يعرفهم جيداً أولئك الذين عاشوا تحت الهجمات الأمريكية المتواصلة على مدى عشرة أشهر"، وكان فخوراً بما فعلته القاعدة.

[704←]

قية 7 أكتوبر 2001 تم الحصول عليها من سجلات الأمن القومي نشرت في 11 سبتمبر 2011 في "رسالة الولايات المتحدة السرية إلى الملا عمر: سيتم تدمير جميع أعمدة نظام طالبان" في السجلات الإلكترونية للأمن القومي رقم 358، الوثيقة رقم 16.

[705←]

صدر نفسه.

[706←]

رت وثائق من سجلات الأمن القومي في 20 أغسطس 2008 جاء فيها: "لخص تقرير من 400 صفحة عن شركة مختبرات سانديا الوطنية عن بن لادن تم تحضيره سنة 1999 تضمن تحذيراً عن الأذى السياسي الذي نتج عن قصف أمريكا دولتين فقيرتين دون مراعاة الاتفاق الدولي لأن هذا العمل يشبه جوانب من أعمال هجمات القاعدة ذاتها" انظر "الهجمات الصاروخية سنة 1998 على بن لادن" الوثيقة 1 ص 18-22.

[707←]

ت الوزيرة ألبرايت تجيب على سؤال في 12 أبريل 1996 طرحته Leslie Stahl في برنامج CBS 60 Minutes.

[708←]
Rahul Mahaja في "نعتقد أن الثمن يستحق ذلك" في Fair: Fairness & Accuracy in Reporting 1 نوفمبر 2001 أن "البحث في داو جونز في مصادر وسائل الإعلام الرئيسية منذ 11 سبتمبر يعطي مرجعاً واحداً لهذا التصريح في تقرير رأي نشر في Orange County Register (9/16/01) يثير هذا الغياب صدمة كبيرة بالنظر إلى الدور الكبير الذي لعبته العقوبات على العراق في إيديولوجية العدو أسامة بن لادن: إذ تنشر أفلامه الدعائية صور أطفال العراق يذويهم سوء التغذية وعدم توفر الأدوية".

[709←]
سوري (ويعرف أحياناً باسم: عمر عبد الحكيم) هو موضوع سيرة ذاتية جيدة جداً للباحث النرويجي Brynjar Lia في "مهندس الجهاد العالمي: حياة استراتيجي القاعدة أبو مصعب السوري" إصدار لندن، هيرست 2007.

[710←]
جم ليا تحليل السوري لتقنيات التمرد السابقة وأسباب فشلها في "النظرية العسكرية في دعوة المقاومة الإسلامية العالمية" ونشر ما اعتبرها النقاط الرئيسية للسوري في Lia "مهندس الجهاد العالمي" ص 347. والشواهد التالية مأخوذة من هذه الترجمة لدليل السوري.

[711←]
L "مهندس الجهاد العالمي" ص 368-369.

[712←]
صدر نفسه ص 417.

[713←]
صدر نفسه ص 350.

[714←]
صدر نفسه ص 370.

[715←]
John Rollii "القاعدة وشركاؤها: رؤية تاريخية وتواجدها العالمي وآثارها على السياسة الأمريكية" تقرير مكتبة الكونغرس 25 يناير 2011.

[716←]
L "مهندس الجهاد العالمي" ص 421.

[717←]
لر منتصر الزيات "الطريق إلى القاعدة: قصة الساعد الأيمن لأسامة بن لادن" ترجم من العربية ونشر في القاهرة، دار مصر، 2002 (london, Pluto) 2004.

[718←]

يعرف فيما إذا حصلت القوات الأمريكية على مساعدة من المخابرات الباكستانية. فما زال هذا الأمر وغيره في الهجوم غير معروف. انظر Seymore Hersh "قتل أسامة بن لادن" إصدار لندن Verso 2016. نشر أولاً كسلسلة من المقالات في London Review of Books، مراجعة تقارير سيمور هيرش بقلم أحمد راشد "سيمور هيرش وأسامة بن لادن: الصواب والخطأ" New York Review of Books 23 يونيو 2006. Carlotta Gall "مظاهرات أفغانية تصبح عنيفة" New York Times Magazine 12 مايو 2005.

[719←]

لن فواز جرجس سقوطها قبل الأوان. انظر "نشأة وسقوط القاعدة" إصدارات جامعة أكسفورد 2011 ص 108.

[720←]

ن "العدو البعيد" انظر فواز جرجس "العدو البعيد: لماذا أصبح الجهاد عالمياً" الطبعة الثانية. إصدارات جامعة كامبريدج 2009.

[721←]

م بعض الكتاب في العصور الوسطى أنه كان كاهناً مطروداً من الكنيسة. واتهمه كتاب آخرون لسيرته بأنه كان مدعياً ومنافقاً ومريضاً عقلياً.

[722←]

ُذكر هنا ترجمة William McCants تحت عنوان "إدارة التوحش" إصدار جامعة هارفارد 2006. اعتمدت كثيراً على النص الذي قدمه William McCantes في "المؤمنون" إصدار بروكيينغ 2015، وكتابه "كارثة داعش" إصدار نيويورك St. Martin's 2015. وعلى تقارير عبد الباري عطوان "الدولة الإسلامية" إصدار لندن، دار الساقي 2015. وPatrick Cockburn "نشأة الدولة الإسلامية" إصدار لندن Verso 2015.

[723←]

ي "إدارة التوحش" ص 5.

[724←]

صدر نفسه ص 6.

[725←]

تخدام كلمة "الطاغوت" إشارة إلى اعتقاد وثني قبل الإسلام. الطواغيت كانت الأصنام التي حطمها محمد.

[726←]

ي "إدارة التوحش" ص 7.

[727←]

صدر نفسه ص 21.

[728←]

صدر نفسه ص 3.

[729←]

ـ Stephen Walt في "لماذا يكرهوننا؟" Foreign Policy 30 نوفمبر 2013، أن عدد الذين قتلهم الأمريكان خلال الثلاثين سنة الماضية هو بين ثلاثمئة ألف إلى مليون.

[730←]

ـي "إدارة التوحش" ص 104.

[731←]

صدر نفسه.

[732←]

صدر نفسه ص 15.

[733←]

صدر نفسه ص 3.

[734←]

صدر نفسه ص 12.

[735←]

صدر نفسه ص 23- 24.

[736←]

صدر نفسه ص 25.

[737←]

صدر نفسه ص 18.

[738←]

صدر نفسه ص 18-19.

[739←]

صدر نفسه ص 31.

[740←]

صدر نفسه.

[741←]

صدر نفسه ص 32.

[742←]
صدر نفسه ص 33.

[743←]
صدر نفسه ص 48.

[744←]
Dennis Je "هؤلاء السفراء الجاهلون" Huffington Post 28 أبريل 2014.

[745←]
ر الكتاب بالإنكليزية تحت عنوان The Meursault Investigation إصدار لندن، Other Press 2015. انظر مراجعة Claire Messud "أخو الغريب" New York Review of Books 22 أكتوبر 2015.

[746←]
جع الفضل في ذلك جزئياً لكتابات John Hope Franklin زميلي السابق في جامعة شيكاغو، وبشكل أوسع إلى مارتن لوثر كينغ الذي كان قريبي Lucius Burch آخر محام له.

[747←]
ن المفارقة أن اسم "كومانشي" هي كلمة هندية تعني "العدو"، ولا يوجد شعب يسمون أنفسهم بهذا الاسم أبداً.

[748←]
سالة في 26 سبتمبر 1790 وردت في Lewis Namier "الملك جورج الثالث: دراسة في الشخصية" في "الشخصيات والقوى" إصدار لندن 1955 Hamish Hamilton ص 45.

[749←]
طاب 14 مايو 1888 ورد في William Langer "دبلوماسية الأمبريالية، 1890-1902" إصدار نيويورك Knopf 1951 ص 77.

[750←]
Pekka Hamalaine في "امبراطورية الكومانشي" إصدارات جامعة ييل 2008 ص 341.

[751←]
Lange "دبلوماسية الأمبريالية" ص 539.

[752←]
Shashi Tharoo "الامبراطورية غير العظيمة: ما فعله البريطانيون في الهند" إصدار لندن، هيرست 2017 ص 150.

[753←]
صدر نفسه XXii.

[754←]
ري آفنري في اتصال خاص مع المؤلف. اعترف آفنري أنه كان إرهابياً في شبابه وحارب في الحرب العربية-الإسرائيلية 1948-1949 وكان عضواً في الكنيست الإسرائيلي.

[755←]
الحصول عليه حسب قانون حرية المعلومات من سجلات الأمن القومي. انظر "1998 الضربة الصاروخية على بن لادن ربما يكون ارتدادها سلبياً" سجلات الأمن القومي الإلكترونية رقم 253. نشرت في الموقع على الانترنت بتاريخ 20 أغسطس 2008. الوثيقة الرابعة ص 1.

[756←]
انز فانون "معذبو الأرض" إصدار باريس 1961. ترجمه إلى الإنكليزية Richard Philcox إصدار نيويورك Grove 2004.

[757←]
Max Fishe "القصة المنسية للرحلة 655 لطيران إيران" في الواشنطن بوسن عدد 16 أكتوبر 2013. تضمن المقال صورة أطفال إيرانيين يرمون الزهور في البحر في ذكرى الحادثة المؤلمة.